حَتّىٰ يُوجِعَ العَطاءُ

سلسلة النوابغ

٤

حتّى يُوجِعَ العطاء

الأُم تيريزا

١٩١٠ - ١٩٩٧

سِيرَتُهَا . رِسَالَتُهَا . رُوحَانِيَّتُهَا

أديب مصلح

منشورات المكتبة البولسية

طبعة ثانية

٢٠٠٣

*

جميع الحقوق محفوظة

*

منشورات المكتبة البولسية
جونيه شارع القدّيس بولس – ص.ب. ١٢٥
هاتف: ٩١١٥٦١ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – فاكس: ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت – شارع لبنان – هاتف: ٠١/٤٤٨٨٠٦ – تلفاكس: ٠١/٤٤٤٩٧٣

إهداء

«شكرًا، اللّهُمَّ، لأجل جميع الأُمَّهات تيريزا، في العالم، الشَّهيرات والمجهولات.
«فليضاعف حبُّكَ أَعدادَهنَّ، فهنَّ دليلٌ على أَنَّ العالَم ليس مُتاحًا للشِّرّير، وليسَ دربًا لا يفضي إلى أَيَّة غاية، بل أَنَّ اللهَ الحبَّ يقوده نحو الحبّ»

الأَب پيير

إلى حفيديَّ الغاليَيْن
جاد وأَلين
أ. م.

فهرس

إهداء ٥
مقدمة ٧

الجزء الأول

الفصل الأوّل: المؤسِّسة ١٩
جذورٌ ١٩
أُسرةٌ متَّحدةٌ متحابّةٌ ٢١
الفاجعة ٢٧
ولادة دعوة ٢٩
الوداع ٣٦
الرحلة إِلى أَرض الرسالة ٤٠
المبتدئة ٤٦
معلِّمةٌ في بلاد غاندي ٥٤
دعوةٌ في قلب الدعوة ٦٢
كلكتّا: "مدينة الكوابيس" ٧٦
بزوغ فجر رسالة ٨٢
نواة جمعيَّة "مرسلات المحبّة" ٩٧
"نيرمال هرايدي": بيت المحتضرين المهملين ١٠٤
النذر الرابع ١٢٤
المركز الأُمّ ١٣٢
يومٌ في "المركز الأمّ" ١٣٧
"نيرمالا شيشوبهافــان": بيت الطفل المُهمَل ١٤٦
مع البُرْص ١٦١
"جاكلين دي ديكير": رابطة المتعاونين المرضى والمتألّمين ١٨٢
اتّحاد المتعاونين الدوليّين ٢١٣

أَنماطٌ أُخرى من التعاون ٢٥٠
المتعاونون المتأمّلون ٢٥٠
المتعاونون الكهنة ٢٥٢
المتعاونون الطبِّيّون ٢٥٣
حاملات حبّ الله ٢٥٤
المتعاونون الشبّان ٢٥٤
الإِخوة المرسلون ٢٥٥

الفصل الثاني: طوفان محبّةٍ يغمر العالم ٢٨٧

الخطوة الثالثة ٢٨٧
شبكة محبّة تلفّ الهند ٢٨٩
"وتكونون لي شهودًا حتّى أَقاصي الأَرض" ٢٩٦
مع فقراء ڤـــينيزويلا ٣٠١
أَميركا اللاتينيّة: أَرض رسالة صعبة ٣٠٥
نموٌّ ووفاء ٣٠٧
في رحاب المدينة الخالدة ٣٠٩
في أوستراليا ٣١٤
في الأُردنّ وفلسطين ٣١٨
وفي أَفريقيا ٣٢١
إِنكلترا وإِيرلندا ٣٢٤
في جحيم بنغلاديش ٣٢٨
في الولايات المتّحدة الأَميركيّة ٣٣٤
سَهَرٌ على روحانية الجمعية ٣٤٣
"حاملات حبّ يسوع" في اليمن ٣٤٦
١٩٧٥: اليوبيل الفضّيّ ٣٥٣
ثلاث مراحل ٣٧٠
١٩٧٦: عام "دارشان" ٣٧٣
في غواتيمالا ٣٨١
مكسيكو ٣٨٢
"أَخوات الكلمة" ٣٨٤

المؤتمر القربانيّ في فيلادلفيا ٣٨٧
مصالحة وعالميّة ٣٩٢
وتمضي المسيرة حثيثة الخطى ٤٠٣
مجمع عام ١٩٨٥ .... ٤١٧
مراكز ضحايا داء الإِيدز ٤١٩
١٩٨٦ .... ٤٢٣
كـــوبا ٤٢٧
"إِنّني أَحمل يسوع حيثُما ذهبت" ٤٢٩
الأَزمة القلبيّة الثانية ٤٣٨
الصين ٤٤١
١٩٩٠– استقالة وإِعادة انتخاب ٤٤٣
مرسلات المحبّة في بغداد ٤٤٦
أُمنيّةٌ غاليةٌ تتحقَّق: مرسلات المحبّة في أَلبانيا ٤٤٩

الفصل الثالث: شهرةٌ عالميّةٌ وشلاّل تكريم ٤٥٣
"رائعةٌ في سبيل الله" ٤٥٣
تكريمٌ وجوائز ٤٦١
جائزة نوبل للسَّلام، عام ١٩٧٩ .... ٤٧٣
تكريمٌ يتواصل، وينابيع سخاء تتفجَّر ٤٩٠
"المرأَة الأقوى سطوةً في العالَم" ٤٩٩

الفصل الرابع: رحيلٌ وخلودٌ ٥٠٣
"غيومٌ في أفق المغيب" ٥٠٣
الرحيـــل ٥٠٨
ماذا بعد الأُمّ تيريزا؟ ٥١٢

الجزءُ الثّاني

رحلةٌ في رحاب نفس

حضورٌ ساحر ٥١٧
"من وضع نفسه ارتفع" ٥٢٥
واقعيّةٌ وشمولٌ ٥٢٩

"لا يزور الفقير سوى الله" (طاغور)........................ ٥٣٨
سرُّ الأُمّ تيريزا........................ ٥٥٩
معجزة الفرح........................ ٥٦٨
حياة صلاة وعمل........................ ٥٧٤
ثمرةُ الصلاة: الإيمان........................ ٥٨١
رَمْزُ الحبّ الفاعل........................ ٥٩١
الأُمّ تيريزا والكنيسة........................ ٦٠٢
إِنجازٌ تاريخيٌّ: جمعيّة مرسلات المحبّة........................ ٦٠٩
شاهدة حبّ الله........................ ٦٢٣

ملاحق

ملحق ١: طرائف من حياة الأم تيريزا........................ ٦٣١
تمهيد........................ ٦٣١
ملامح شخصيّة........................ ٦٣٢
من روائع العطاء........................ ٦٥٠
عناية إِلهية........................ ٦٥٧
كم الفقراء رائعون!........................ ٦٥٩
الآفة الكبرى........................ ٦٦٨
ملحق ٢: مقتطفاتٌ من أقوال الأم تيريزا........................ ٦٧١
توطئة........................ ٦٧١
أَحبّوا بعضُكم بعضًا........................ ٦٧٢
الصــلاة........................ ٦٧٥
الله حيــاتنا........................ ٦٨٠
إنّ الله في داخلي........................ ٦٨٠
القداسة........................ ٦٨٣
بتصرّف يسوع........................ ٦٨٤
اسلكوا سلوك أَبناء النور........................ ٦٨٦
فقراء وأَغنياء........................ ٦٩٠
الأَلم........................ ٦٩٦
التواضع........................ ٦٩٨

سرّ الأُمّ تيريزا ومرسلات المحبّة ٦٩٨
معًا نستطيع أن نحقّق شيئًا جميلاً لله. ٧٠٠
صفات الرئيسات.. ٧٠٥
حــوار ٧٠٥
الفــرح ٧٠٦
متفرّقات ٧٠٧
نصٌّ وضعته الأُمُّ تيريزا مع الأَخ روجيه شولتز، رئيس دير "تيزيه" ٧١١
صلوات.. ٧١٢
للتّأمُّل ٧٢٠
الفهرس **٧٢٥**

مقدمة

الأُمُّ تيريزا الكلكتَّاويَّة قدِّيسةٌ من أَعظم القدّيسين الذين أَنجبتْهم الكنيسةُ على مدى تاريخها. عاشت في عصرنا، تحت سمعنا وبصرنا، مُثيرةً دهشتَنا، مُضرمةً إِيمانَنا، مُثْبتةً، ببلاغةٍ وقوَّةٍ، أَنَّ القدّيسين ليسوا نموذجًا منقرضاً ينتمي إِلى ماضٍ غابرٍ انطوى واندثر، نطالع أَخبارَهم، وكأَنّها ضربٌ من الأَساطير، بل هم، دائمًا وأَبدًا، ملحُ حياة البشريّة، التي لا يصلح لها طعمٌ وبقاءٌ إِن هي افتقدتهم، وينبعث منهم، في كلِّ حقبةٍ، وكلِّ بُقعةٍ، أَنماطٌ تنير عصرَها، وتُشيع سنى الروحِ في أَوصال المسكونة كلِّها؛ وما برحت فعالهم أَشدَّ إِدهاشًا من أَيِّ زمنٍ مضى، وَأَكْثَر بعثًا على التساؤُل، وأَقوى دحضاً للأَضاليل التي تروج منها، في كلِّ عهدٍ، مذاهب.

عندما أَكّد يسوع أَنَّ قوى الجحيم لن تقوى على زعزعة صخرة الكنيسة، كان يعلم أَنّه سيستنهض من صُلبها، في كلِّ عصرٍ، قدِّيسين وقدّيساتٍ يملؤهم الروح، ويرسمون، بإِنجازاتهم الرائعة، دروبًا متأَلّقةً بالبطولة والتضحية والسموّ، مترجمين الإِنجيل إِلى حبٍّ فاعلٍ، ومُثُلٍ ماثلةٍ مدهشةٍ، مبرهنين، بالدليل الحيِّ، أَنَّ ذلك الإِنجيل ما برح الجوابَ الوحيدَ الحقَّ على تساؤُلاتِ العصور، والدواء لما يعتريها من قَلَقٍ، واضطراب، وعِلَلٍ.

ولقد دأَب المسيحُ على استفزاز نمطٍ من القدّيسين، أَكْسَبَتْهمْ تجربة الله خبرةً بالبشريّة وآلامها، فانقلبوا فقراء طائعين، مُتطوّعين لخدمة الفقراء بسخاء: من القدّيس فرنسيس الأَسّيزي، إِلى القدّيس منصور دي پول، إِلى الأُمّ تيريزا. هؤلاءِ وأَمثالهُم الكُثُر هم فخرُ حضارتنا، وضمانُ خلاصها، ومبعثُ آمالها.

بفضل "سلسلة القداسة الذهبيَّة" هذه التي يؤلِّف حلقاتِها قدّيسون مشهورون أَو

مُغْفلون، صمدت الكنيسةُ، وستصمد أَبدًا. فرغم جميعِ خطايا المسيحيَّة التاريخيَّة تبقى الكنيسةُ معينَ الحياة الحقّة، وسرَّ المسيح الذي قهر الموت، والذي يُشركنا بقيامته.

وقد قُيِّض لنا، نحن أَبناء القرن العشرين، أَن نشهد بأُمّ عيننا، كيف تنشأُ، وتعظم، وتموت، وتُخلَّد قدّيسةٌ عايشناها. فالأُمّ تيريزا وُلدت في صباح قرننا، ورحلت في غروبه، فأَضاءت ظلماته بمثال حياتها المدهش، وبمنجزات جمعيّتها التي امتدَّ عطاءُ عطفها إِلى مُعظَم أَقطار المسكونة، وكانتْ، في أَجوائه العاصفة، المنارةَ الثابتةَ الشاهدةَ على قُدرات الروح الجبّارة، وحقائقه الخالدة.

هذا القرن المدموغ بوصمة عار القنابل الذريَّة والهيدروجينيَّة، ووسائل الإِبادة المتطوِّرة المريعة، يحمل، أيضاً، شَرَفَ بطولات اللاّعنف والحبّ، والعطف بلا حدود؛ إِنّه قرن ستالين، وهتلر، وميناحيم بيغن، وپول پوت، وجورج بوش، وناتانياهو، وفي آنٍ واحدٍ، هو قرن غاندي، ومارتن لوثر كينغ، وألبيرت شفايتزر، والأب پيير، ودون هيلدر كامارا، والأمّ تيريزا.

في هذا القرن الذي عهد الحروبَ الشاملةَ الضّارية، وتفتُّقَ عبقريّات القتل والتدمير الجماعيّ، حيثُ وحدةُ القياس هي عشرات أُلوف الحيوات البشريّة، ونشوء الديكتاتوريّات الطاغية، واندحارَ أَمبراطوريّاتٍ أَخطبوطيّةٍ غاشمةٍ، ونهوضَ دُولٍ كبرى على أُسس القمع والبطش والاستبداد، ويشهد، في أَيّامنا، تفرُّدَ دولةٍ كبرى بالتحكُّم بمصائر الشعوب، في هذا القرن الذي كان شاهدًا على جموحِ عرقيّةٍ نازيّةٍ مجرمةٍ ولّدت، من إِحدى ضحاياها، صهيونيّةً لا تقلّ عنها حقدًا وعصبيّةً وصلَفًا، وتفوقها مكرًا وأَذىً أَصاب شعبَنا في الصميم؛ في هذا القرن الذي استباح القتلَ في سبيل المُتعة، برزت الأمُّ تيريزا شاهدًا على حبّ الحياة، والذود عن وجود من لا يرغب المُجتَمع في وجودهم، ومثالاً للإِيثار والتضحية القصوى بالذات في سبيل الغير المحروم والمتألِّم، وللدِّفاع عن حرّيّة كلِّ فردٍ وكرامته؛ مقيمةً الدليل على أَنَّ الإنسان، في جوهره، غيرُ قابلٍ للتَّحجيم، ولا نهائيٌّ، وأَنَّ كلَّ فردٍ فريدٌ ومختلفٌ، وأَنَّ الجميع مسؤولون عن الجميع، والجميع أَعضاء الجميع، لأَنَّهم، جميعهم، إِخوةٌ وأَبناء الله الواحد. اختلافٌ ووحدةٌ، احترامٌ وحبٌّ، تلك هي القِيم التي ينبغي أَن تكون خميرة مجتمعٍ جديرٍ بهذا الاسم.

لقد أَثبتت أَنَّ الحبَّ المتواضعَ العنيد قد يُكوِّن، في المجتمع، قوَّةَ حياةٍ كُبرى، وأَنَّه كفيل بأن يُصبح، في آنٍ واحدٍ، خميرةً تُخصِب، وحاجزًا يمنع من السقوط، مرَّةً أُخرى،

في وهاد الفظاعة، ويُمَكِّن من التمييز بين الخير والشرّ. ولقد نهضت الأمُّ تيريزا، في هذا المجال، معيارًا صادقًا، ودليلاً حيًّا على أنَّ الخير والحبَّ صِنوان، الحبّ المتواضع، الأعزل، المشعّ، الذي لا يلعن "الأشرار"، بل يسعى إلى إرشادهم والسموِّ بهم.

في هذا القرن الذي شهد انهيار إيديولوجيّاتٍ واهمةٍ، زعمت تغيير وجه الكون بدكِّ بُناه الاجتماعيّة، وباستفزاز طبقةٍ على طبقةٍ، وفئةٍ على فئةٍ، وباستعباد الجميع، أثبتت الأُمُّ أنَّ كلَّ محاولة تغييرٍ لا تبدأ بالذات، ولا تصطبغ بالمحبَّةِ والإيثار، محكومٌ عليها بالفَشَل. وفي هذا القرن الذي نصَّب، من الجدوى الاقتصاديّة والربح، صَنَمًا يعبده، وفي سبيله يعبث بالكون، وبمصير البشر، ويُتلف كمِّياتٍ جسيمةً من الأغذية والمحاصيل التي يموت ملايين المحرومين افتقارًا إلى النزْر منها، انتصبت الأُمُّ تيريزا، داعيةً إلى مشاركةٍ سمحاء بلا حدود، وتضامنٍ إنسانيٍّ خيِّرٍ يشمل الكون؛ منددّةً بحضارة الهَدْر، ضنينةً بكلِّ فلسٍ يُفرِّج ضائقة فقير، وكلِّ لقمةَ عيشٍ تُخفِّف وطأة جوعه.

وفي عهدٍ سئم الرأيُ العامُّ، فيه، الخطاباتِ الرنّانة الجوفاء، والمشاريع الاجتماعيّة والسياسيّة المضفورة بخيوط الكذب والادِّعاء، والوعود الخُلَّب، تجلَّت الأُمُّ تيريزا مثالاً على تجسيد إيمانها عملاً واقعيًّا، وأقوالها أفعالاً تفيض خيرًا.

لم تتشدَّق بإنسانيّةٍ مُبْهَمةٍ، ولا بمصالح عليا تتستّر على مطامع خسيسةٍ، تستعبد الأفراد. بل آمنت بالعمل الفرديّ، والعلاقةِ الإنسانيّة الحميمة الصادقة، وأقبلت على خدمة كلِّ محتاجٍ، وكأنَّه فريدٌ في هذا الكون، بل كأنَّه الله نفسه.

لم يتمادَ، يومًا، الحديثُ عن الفقر والفقراء، مثلما هي الحال الآن، وفي آنٍ واحدٍ، لم يتمادَ، قطُّ، سعيُ الناس وراء الرفاه، مثلما هي الحال اليوم، على غير اكتراثٍ بمن لا يفوزون بلقمة العيش. وفي حين يتنافس ألف إلهٍ وإلهٍ على الوعد بإنقاذ البشر بوسائل المال، والتقْنيَة، والإنتاجيَّة، أعلنت الأمُّ تيريزا، بصوتها النحيل، أنَّ الدرب الوحيدَ إلى الخلاص، هو دربُ التواضع والخدمة، خدمة البشر أجمعين، على أنَّهم هياكلُ حيَّةٌ لمن هو السيِّد الأوحد، وخادمُ الجميع. وإنْ نحن مُتْنا مع الابن، نفذتْ إلينا حياةُ الأب، وتحوَّل عالَمُنا إلى ملكوت حُرِّيَّةٍ حقّةٍ، وخلاصٍ حقٍّ، لأنَّ الحياة هي روحٌ وحبٌّ.

فقد آمنتْ أنَّ داخل كلِّ إنسانٍ شمسًا دافئةً، ونجومًا متألِّقةً، يحجبها الحرمانُ والوحدةُ والخوفُ بغيومٍ داكنةٍ صفيقةٍ. وأمثالُ الأمّ تيريزا وأخواتها وإخوتها، ومن

ينهجون نهجَهم، بعطفهم وإيثارهم، وإكبابهم على الخدمة، ببذل ذواتهم، يهتكون الحُجُب، ويُزيحون الغيومَ، ويُبرزون النجوم في الصدور، وبطردهم الخوف، وزرعهم الثقة، ينقلب الليلُ ضياءً، وجليدُ الوحدة حرارةً ودفئًا.

لقد سارت الأُمّ تيريزا بهديٍ من الروح، ولا بِدْعَ إن هي سارت، بالتالي، في عكس التيّارات السائدة، وكانت المناقَضةَ الحيَّة للكثيرِ من مُعتقدات العصر وأصنامه.

ففي عالَمٍ راهَنَ، بحمق، على موت الله، أَثْبَتتْ حضورَ الله الغامر، تلك التي أَظهرت، بِكلّ حياتها، مع أُلوفٍ من أَخواتها، ومئات أُلوف المتعاونين معها، من كلِّ مشربٍ، وموطنٍ، وجنس، أَنَّ رسالتها التي أدهشت العالم، هي، في جوهرها، روحيّةٌ، وهي دَعوةٌ لِكُلٍّ منّا إِلى طرح التساؤُلات الأَساسيَّة حول معنى الوجود، وغايات الحياة. وقد حقَّقت، بذلك، قول "سيمون ويل": "إِنَّ الله غائبٌ عن هذا العالَم، ما خلا في وجود من يعيش فيهم حبُّه، والذين يتوجَّب عليهم إِثبات وجودهم في العالَم، بما يُظهرونه من عطفٍ، فعطفهم هو وجودُ الله على الأَرض".

إِنَّ مجرَّد وجود الأُمّ تيريزا وحياتها لدليلٌ على وجود الله، وعلى عطفه الغامر، على حدّ قول "كليمان أوليڤييه" البليغ: "تُزوِّدُني الأُمُّ تيريزا باليقين أَنَّ إِلهَنا هو إِلهٌ حيٌّ، فلو لم يكن موجودًا، لما كانت هذه المرأة على ما هي عليه".

ولا ريب أَنَّ أَحد أَسباب إِلحاد الكثيرين من القوم الطيِّبي النوايا هو التشويه الذي يُلحقه بالدين من يَدَّعون الإيمان، ويعيشون على نقيض مقتضاه؛ أَمّا الأُمُّ تيريزا فقد عاشت في الله، وتغلغلت في أعماق سرِّ حبِّه، وأَبرزت وجهَه الناصع المنزَّه من كلِّ تشويهٍ، فكان لها في الجميع، مؤمنين وغير مؤمنين، ذلك التأثير الساحر.

وكان الأَب "بيڤير" الذي قلَّدها، عام ١٩٨١، جائزة "ديسكوڤيري"، قد أَعلن: "إِنَّ طيبتها تُهيب بالمُهملَين والمحتضرين أَن يكتشفوا أَبعادًا جديدةً للرَّجاء والفَرَح، وبفضل حياتها وقدوتها، تسنّى لجميع شعوب العالَم اكتشاف أَنَّ نور الله ما زال يُشعُّ بأَلَقٍ قشيبٍ في عصرنا".

وفي حين أَنَّ معظم مسيحيّي عصرنا سُجَناء التاريخ، منفيُّون إِلى شطآنِ الزمَن الغابر، يبحثون عن يسوعٍ تاريخيٍّ لا يمُتُّ بصلةٍ إِلى يسوع الذي لا يمكن أَن يكون إِلاّ معاصرًا، وحاضرُه أَبديٌّ، جسَّدت الأُمُّ تيريزا يسوعًا نابضًا بالحياة، قادرًا على تحويل موت عصرنا إِلى حياةٍ، ويأْسه إِلى رجاءٍ، وظُلمته إِلى نورٍ، وأَنانيّاته إِلى سخاءٍ بلا حدود.

فكلما بذل كائنٌ بشريٌّ ذاتَه، بلا حساب، كي يهبَها الآخرين، ضمِنَ بقاءَ العالَم. ولا بدْعَ أَنَّ قدوة الأُمِّ تيريزا وأَخواتها، اللواتي تمكَّنَّ من هجر كلِّ شيءٍ في سبيل خدمة يسوع في الفُقراء، بحبّ كلُّه عطاء، هي أكثر ما يحتاج إِليه عالمنا كي يستقيم. وفي هذا السياق يقول "أوليفييه كليمان"، أَيضًا: "بفضل أَشخاصٍ كالأمِّ تيريزا يستمرُّ العالَم. أَعتقد أَنَّنا سنتبيَّن، يومَ الدينونة الأَخيرة، أَنَّ كلَّ ما ينطوي عليه تاريخُ الإِنسان وحضارتُه من إِيجابيٍّ، قد بات ممكنًا، بفضل بشرٍ أَفرغوا ذواتهم من ذواتهم، لكي يتدفَّق حبُّ الله على العالَم. ومن ثَمَّ إِنّني موقنٌ أَنّ حضورَ امرأةٍ من نَمَط الأُمِّ تيريزا، وعملَها، وشفاعتَها، تُمثِّل، في حِقبتنا، أَمرًا أَخطر شأنًا من معظم الأَحداث الصاخبة التي تحتلُّ عناوينَ الصحُف الكبرى".

وربما خُيِّل لأَبناء عصرنا أَنَّ مُجرَّد التطوُّر التقنيّ، باختراعاته المتواصلة المذهلة، هو دليل تقدُّم. ولكن هل، ثمّة، تقدُّمٌ فعليٌّ للإِنسان، كإِنسانٍ، في كلِّ ذلك؟ على هذا التساؤُل أَجابت مجلَّة نيوزويك، بمناسبة منح الأُمِّ تيريزا جائزة نوبل للسَّلام، بقولها: "يتشبَّث البعضُ بفكرة أَنَّ التقدُّم سيتحقَّق تلقائيًّا بكرِّ الأَيّام، في حين كتبت "سيمون ويل" أَنَّ خطأَ القرن التاسع عشر الأَفدح هو تخيُّله أَنّ الناس، بسَيْرهم إِلى الأَمام، يُصعِّدون في الأَجواء. ولكن، لا جرَم أَنَّ تقدُّمًا نوعيًّا قد تحقَّق، في نهاية السبعينات من القرن العشرين، عندما انخفضت عيونُ البشريّة انخفاضًا سحيقًا، بحيث لحظت تلك المرأة الضئيلة الطيف التي أَثبتت أَنّ لا شيءَ أَجمل من سكون نفسٍ فوق غضون محيًّا".

قد تمضي حضارتنا شأوًا بعيدًا في شتّى الميادين العلميَّة والتقنيَّة، ولكنَّها لن تتقدَّم، حقًّا، ما لم تمضِ، صُعُدًا، في سماء الحبّ.

ونحن نشهد اليوم، بحزنٍ، أَنَّ البحبوحة المادِّيَّة، في الدوَل الغنيَّة، غالبًا ما تواكبها أَزمةٌ عميقة الجذور في القيم الروحيّة، والاستقرار النفسيّ، نتيجة الأَنانيّة، والطمع، والهذْر والادِّعاء؛ ونشهد أُممًا ومجتمعاتٍ كثيرةً تفقد، يومًا إِثر يوم، قِيمَها الحضاريّة الجوهريّة، مستسلمةً للدعاوات الزائفة الطنّانة، ولوعد النجَاح الاقتصاديّ الخُلَّب، وقد تُصيب شيئًا من الرفاه المادِّيّ، ولكنَّها، أَبدًا، تلهثُ وراء مزيدٍ من الاستهلاك، وإِذ بها تتحوّل إِلى مجتمعاتٍ تحفل بالعنف والقلق، وتعاني الفراغَ العاطفيّ والروحيّ. وليس أَدلَّ على مدى اضطرابها، واندفاعها نحو جوف ظُلمةٍ رهيبةٍ، مثلُ تفشّي المخدِّرات، والإِباحيّة التي انقلبت تجارةً وصناعةً رائجتَيْن، وشتّى

ضروب الشذوذ، والإرهاب الجسديّ والنفسيّ بمختلف وجوهه، ومؤسَّسات الجريمة المنظَّمة، واستغلال الضُّعف البشريّ لأغراضٍ دنيئةٍ.

وأَيُّ شأنٍ للنجاح الاقتصاديّ إن كان ثمنه فقدان الروح؟

وهل بمكنة أَيّة ثروةٍ مهما ضخمت، وأَيّة وفرةٍ مهما اشتملت عليه من وسائل الرفاهِ والمتعة، تسريبُ سعادةٍ حقَّةٍ إلى نفسٍ مخلوقةٍ على صورة الله؟ وهل بقدرة السعي المحموم نحو الاستهلاك التوقُّف عند حدٍّ يؤمِّن الرضى والقناعة؟ وهل بوسع الطموح الجامح نحو النجاح المادِّيّ التعفُّف عن التسلُّق على أَكْتَاف الآخرين، لا بل الدوْسِ على جماجم المنافسين وجُثَثهم؟

أَيّةُ إنسانيَّةٍ، وأَيُّ تقدُّمٍ إنسانيٍّ، في كلِّ ذلك؟

في المقابل، أَثبتت الأُمُّ تيريزا أَنَّ النفوس الكبيرةَ، العائشة مع الله وبه، وفيه، مغمورةً بحضوره، مؤهَّلةٌ، دون سواها، لبلوغ سعادةٍ عميقةٍ، كاملةٍ، متَّزنةٍ، راسخةٍ، باستغنائها عن وسائل الرفاه، حتّى ما يبدو منها، اليومَ، ضرورةً لازبةً، وبإعراضها عن الاستهلاك الذي يتوهّم معاصرونا أَنَّهم واجدون فيه هناءَهم وسعادتهم، وباقتصارها على النزر الذي لا بدّ منه لبقاء الجسم قادرًا على الجهد، والكفاح، والخدمة.

وأَثبتت الأُمُّ تيريزا، أَيضًا، أَنَّ الثروةَ الحقَّة، الآمنة من تقلُّبات الأَسعار والبورصات، هي فرَح منح الذات، وكلّ شيء، بلا حسابٍ، ثروةٌ تنمو وتتعاظم بقدر ما تُسْرِفُ في العطاء. وقد ضربت الأمُّ في البذل أَروع مثالٍ، فتسنَّمت به ذُرى العظمة الشامخة، على حدّ قول الأَب پيير: "من أَين يستمدُّ عظمتَهم رجالُ التاريخ ونساؤُه المشاهير النادرون الذين خلَّفوا آثارًا خلاصيّةً عميقةَ البُعد، إن هم لم يستمدّوها من إدراكهم لمعنى الحبِّ الذي يَروْنَ، على ضوئه، أَنَّ كلَّ ما يتألَّم يستأهل الأَوْلويَّة المُطلقة على كلِّ ما يتأَلّق ببريقٍ خدّاع، بريق القوّة والجمال، وأَيِّ نمطٍ من أَنماط النفوذ؟ "

ولقد كانت الأُمُّ، بكلِّ حياتها، الدليلَ الدامغ على أَنَّ السعادة تقتضي التحوُّل من مجتمع استهلاكٍ، وهدْرٍ، وبَطَرٍ، إلى مجتمع عَطَاءٍ وبذلٍ، حيثُ التضحية بالمال والذات تهب ملءَ الحياة.

خلال مسيرتها الطويلة وقفت الأُمُّ تيريزا على أَنماطٍ عديدةٍ من البؤس، ليس الفقرُ المادِّيُّ أَخطرَها وأَثقلها وطأةً، إذ إنَّ فقر الروح والقلب، فقر المنكمشين على

ذواتهم وعلى ممتلكاتٍ عقيمةٍ، وفقر الوحيدين الذين نسيَهم العالَم، فباتوا حبيسي عزلةٍ موحشةٍ، أَوجع إيلامًا، وأَعسر علاجًا.

الفقر المادِّيُّ عالجته باستدرار السخاء، والتوعية، والدعوة إِلى المشاركة، فاستجاب لدعوتها الملايين من المتعاونين في جميع البلدان، منهم الأَطفال، ومنهم البالغون من كلّ عمرٍ ومشربٍ، بعد أَن فجّرت ينابيع سخائهم، لا باستجدائهم، بل بدعوتهم إِلى مشاطرتها رؤاها وتطلُّعاتها، وبتأكيدها المستمرّ أَن لا قيمةَ لعطاء نافلنا الذي لا حاجةَ بنا إِليه، بل القيمة كلّها لما يواكب العطاءَ من عطفٍ، ولبذل الذات، ولمنح اليدَيْن للخدمة، والقلب للحبّ.

والعِلَلُ الجسديّة عالجتْها بعنايتها وعناية أَخواتها، وآلافِ المتطوعين والمتطوِّعات، الذين هزَّهم مثالُ خدمة مُرْسَلات المحبَّة السخيَّة، فاندفعوا للإِسهام في خدمةٍ وسَّعت آفاق قلوبهم، وأَنقذتهم من أَنانيّتهم، وأَتاحت لهم لمس الله في كلِّ عليلٍ وبائسٍ ينكبّون على رعايته.

أَمّا العِلَل الروحيّة، فقد أَذهلتها بمدى انتشارها واستفحالها، وعمق وقعها، واستعصائها على أَيِّ علاجٍ غير الحبّ. وكم ردَّدت القولَ إِنَّ العالَم المعاصر، رغم وفرة خيراته المادِّيَّة، يفتقرُ افتقارًا مُدْقِعًا إِلى الجوهريّ، حتَّى الميسورون فيه هم، غالبًا، أَعمق فقرًا من محرومي كلكتّا الذين عكفت على إِغاثتهم.

اكتشفتْ جوعًا رهيبًا إِلى الله، واستبانت أَنَّ الكثيرين يحكمون على ذواتهم بالموت جوعًا، مع وفرة الغذاء المحيق بهم، لمجرَّد رفضهم إِدراك أَنَّ الله يُحبُّهم ويحتاج إِليهم لنشر حبّه.

تلك العلل النفسيّة، وهذا الجوع الروحيّ، عالجتهما الأُمّ بالحبّ والإيمان، عملاً بقول الأخوين جاكار: عندما يتعيّن علينا العمل في وسطٍ بشريٍّ جريحٍ ومدمَّرٍ، إِلى حدٍّ بعيد، لا بدّ من أن نمضي إليه على أجنحة الحبّ، لكي نساعد الآخرين على اكتشاف أن الله حبٌّ فحسب".

الحبّ هو مفتاح سرّ حياتها، وتفسير جسامة إنجازاتها، ومحور قداستها، وهو ما طالبت به الجميع كي يتقدّسوا، ويُنقذوا ذواتهم والآخرين. بيد أنّها لم تقع في شرك الرومانسيّة والوهم، بل كان حبُّها فاعلاً، والحبُّ الفاعِل هو ما دعت إِليه، حبٌّ يُنسَج من لفتاتٍ صغيرة، ويتحرّى احتياجات الآخرين الأقربين، فيبلسم آلامَهم بكلمةٍ طيّبة، ببسمةٍ

مُشرقة، بلمسة يدٍ دافئة، بإيناس وحشة، بكتابة رسالةٍ أو قراءتها لمن لا يستطيع قراءةً أَو كتابةً، أو بمُجَرَّد الإنصات إلى من يتشوَّق إلى الإفضاء بما يُثقل صدرَه.

إنَّ عالَمنا الذي تُهيمنُ عليه العقلانيَّة والتقنية الاقتصاديّة، مصابٌ بالهزال والجفاف، لأنَّ القلب والجمال فقدا حيِّزهما فيه. ولقد علَّمت الأمُّ تيريزا، بمثلها، أَن لا شفاء لأوصاب عصرنا إلاّ بانتهاج ما دعاه البابا يوحنا بولس الثاني "حضارة حبٍّ عالميٍّ".

وكان حبُّها عالميًّا كما يندر أَن يكون الحبّ. لقد أَحبَّت يسوع، بكلّ وَتَرٍ في كيانها، وبدافع هذا الحبّ فعلت كلّ ما فعلت، وبوحيٍ منه أَحبَّت كلّ إنسانٍ في هذا العالَم الرحب، أَيّةً كانت عقيدتُه وانتماآته، وأَيًّا كان دينُه، ولونُه، وجنسُه، بلا تمييزٍ.

وفي عهدٍ يشهد، مُحبَطًا، تفاقُم التوتُّرات العرقيّة، والصراعات الطائفيَّة، والنزعةَ المأفونة إلى التقَاتُل، والجرائم الشنيعة الحمقاء التي تُرتَكب باسم الدين، انتصبت الأمّ تيريزا نموذجًا فَذًّا للسلام والمعايشة، بانفتاحها على جميع أَبناء الله بلا استثناء، وبمُضيِّها إلى الآخر بقلبٍ وذهنٍ مُشرَعَيْن، متأَهِّبةً للإنصات إليه، وفهمه، واحترام ثقافته، نائيةً بنفسها عن محاولة طَمسها أَو استبدالها بأُخرى، بل ساعيةً إلى استنباط خير ما فيها وإبرازه، متفاديةً دينونة أَيِّ إنسانٍ على ضوء موقفها الشخصيّ، وثقافتها الموروثة، معترفةً بأَنَّ الاختلافات هي مضاعفةٌ للقيَم. وهي، مع امتلاكها إيمانًا في مثل صمود الجبال، تحرَّرت من الزعم بأنّ معتقداتها، وحدها، دون سواها، كفيلةٌ بتوفير كلِّ شيءٍ لكلّ الناس، وبحقّها في التحكُّم بكلّ شيء. وبذلك كانت لعصرنا، ضرورةً حيويّةً، بدليل قول ملكة إسبانيا، صوفيا:

« "لو لم تكن، اليومَ، موجودةً هذه المرأةُ ذاتُ الحنانِ الذي لا ينضب، والإرادةِ التي لا تنثني، لتوجَّب اختراعُها. فإنّنا بحاجةٍ إليها لتأكيد أَوْلويَّة التعايُش المتفاهم على الغريزة البدائيّة، الحيوانيّة الصرْف، التي تدفع الأَجناس إلى التهام بعضها بعضًا. إنّنا بحاجة إليها لأنّها تكشف لنا واقعًا: أَمرًا بسيطًا جدًّا، وسهل الإدراك: إنَّ البشرَ مُتضامنون في مصيرهم المُشتَرَك.

"إنَّها تطير إلى أَيّة بُقعةٍ من البسيطة حيثُ مَنْ يَحتاج إليها، بسبب وحدته، أو مرضه، أو ألمه، أو بسبب حربٍ، أو كارثة طبيعيَّة. وهي تدعو الجميع، برقّة، ولكن بعمقٍ ينفُذُ إلى جوهر الأمور، أَن يكونوا إخوةً فيما بينهم، من أَجل بناء عالمٍ أَوفر عدلاً، بوسائل الحبّ" ».

وقد برهنت، بقدوتها، أَنَّ الثقَة غالبًا ما تستفزُّ الثقَـة، والانفتـاح يبعـث علـى الانفتاح، والتسامح يستدعي التسامح، والإيمان يوقظ الإيمان.

وكانت الأُمّ تيريزا تؤمن مثلما هي تتنفّس؛ حياتُها كُلُّها، وكلّ ما فعلت تدفّقا مـن معين إيمانها الثرّ. لقد آمنت، إيمانًا لا يتزعزع، بحبِّ الله الغـامر الكـون، بعطفـه وحنانه اللامتناهيين، وبحضوره في كلّ إنسانٍ، حضورًا قد يطمسه بعض كَدَرٍ مـن شأن الحبّ الصادق إزاحته. لقد لمست هذا الحضور في سـرِّ الإفخارسـتيّا الـذي تغلغلت بعيدًا في أعماقه، ولمسته في أجساد المتألِّمين والفقراء الذين وقفـت حياتهـا على خدمتهم، ولمسته في علاقتها المتَّصلة بالله، عبر التأَمُّل والـصلاة، والإنـصات المتيقِّظ إلى صوته الخافت.

غالبًا ما يُمسخ الدين فيُصبِح مُجرَّد تعاليم أَخلاقيَّة، وطقوسٍ جامدةٍ تُجَفِّف الروح، أَمّا تَديُّن الأُمِّ تيريزا فكان نَفاذًا إلى أَغوار الأَسرار ورموزهـا، واكتـشافًا لمعانيهـا السامية، وحياةً عميقةً وحميمةً في الله، ومعه.

وهذه الحياة لا تتهيّأ إلاّ بالصلاة التي تشترك فيها الذات كلُّها، وفي التأمّل الـذي يندرج في حيِّزٍ من الصمت والانقطاع عن كل صَخَبٍ.

الصخب من أدهى آفات عصرنا، حيثُ تدوّي، بلا انقطاعٍ، صـيحاتُ العنـف والغضب والضغط النفسيّ، والدعاوات الزائفة، ولكأَنَّنا نحاول ملءَ الفـراغ القاتـل المهيْمن على نفوسنا بوسائل لا طائلَ تحتها، مثل عروضٍ تيليفيزيونيّـةٍ غالبًـا مـا تفضي إلى تعميق هوَّة الفراغ فينا، وموسيقى صاخبةٍ تزيدنا دُوارًا، وتسليات سطحيّةٍ أَو وبيلةٍ تمعن في تشتيتنا، وجريٍ وراء كلّ حديثٍ نافلٍ. وكلُّ ذلك يُضيف إلى عقمنا عقمًا، ويفطمنا عن غذاء نفوسنا المُحْيِي، بحجبه صوتَ الله عن ضمائرنا.

وما انفكّت الأُمُّ تيريزا تُؤَكِّد أَن لا خلاصَ لنا ما لم ننـسلخ عـن دائـرة هـذا الصخب المجنون، ونفسح حيِّزًا للصمت في داخلنا حيث يسعنا الإنصات إلى همـس الله الخافت الذي يبعث فينا الحياةَ. ولا جَرَم أَنَّ الانسلاخ عـن الـصخب والإخـلاد للصمت مهمَّةٌ شاقَّةٌ في زمننا المُشبَع بالضجيج، ووفقًا لنمَط عيشنا الزاخر بأَسـباب اللهو والتشتّت. بيد أَنَّ الأُمَّ تيريزا قد ضربت، في هذا المجال، أَصدق مَثَلٍ وأَروعه، فقد كانت حياتُها كلُّها صلاةً مستمرَّةً لا تنقطع ولا تفتر، وكان عملُها الدائب المُضني استمرارًا لصلاتها، مُوَثِّقًا صلتَها بالله، بل كان عملها نفسه صـلاةً كثيفـةً، عميقـةً،

تصرفها عن كلِّ همٍّ سوى الله. ومع ذلك كانت تفسح من وقتها، كلَّ يومٍ، ساعاتٍ للتَّأَمُّل المنغمس في أعماق الله، متحرِّرةً من كلِّ صوتٍ خلا صوته. وعلى هذا النهج درجت مُرسلاتُها فاستمدَدْنَ من صلتهنّ المستمرَّة بالله طاقاتٍ هائلةً مكَّنتهنَّ من حياةٍ وإنجازاتٍ مدهشةٍ، هي في نظر البشر لغزٌ يستعصي على الحلّ. وهنَّ، مع دَأْبهنَّ الذي لا يعرف هوادةً، لم يُضحِّينَ، يومًا، للعمل من أَجل العمل، ولم يبخَسْنَ الصلاة شيئًا من حقّها. وفضلاً عن ذلك، وتقديرًا من الأُمِّ لقيمة الصلاة السامية، ولقدراتها اللامتناهية ربطت جمعيَّتها بتوأمةٍ فريدةٍ مع متأَلّمين ارتضوا تقديم آلامهم ضحيّةً عن إِخوتهم في العالَم، ودعمًا لنشاط مرسلات المحبَّة، ومع الرهبانيّات التأمُّليّة، أَينما قامتْ، للإِفادة من نِعَم صلواتها السنيَّة.

ومن النعم التي أَفادت منها الأُمُّ تيريزا، إِعراضُها عن كلّ وسائل الإِعلام المسموعة والمرئيّة والمقروءة، فنجت من عواقبها المُشَتِّتة والمُضَلِّلة، واحتفظت برؤيةٍ للعالم نيّرةٍ، وتقديرٍ للأُمور سديدٍ. وكم يفتقر إِلى هذه البصيرة وهذا السداد عالَمُنا الذي غدا وكأَنَّه سيَّارةٌ مندفعةٌ بسرعةٍ مجنونةٍ، لا مكابح فيها، ولا مِقوَد!

لقد اندفعت الأُمُّ وأَخواتها في رهاناتٍ مذهلةٍ، وأَقدَمْنَ على مشاريع قد تبدو في تفرُّعها وامتدادها إِلى كلِّ بُقعةٍ من المسكونة، ضربًا من الجنون، لاسيَّما أَنّهنّ يفتقرنَ إِلى كلِّ رصيدٍ ماليٍّ، وإِلى أَيّ نوعٍ من الميزانيّات، غير مُزوَّداتٍ إِلاّ بما يستثْرنَ من سخاءٍ، وبإِيمانٍ حَرْفيٍّ بوعد يسوع، وَبِعِنَايَتِه الساهرة التي لن تكون، يومًا، أكثر سخاءً على زنابق الحقول، وطُيور السماء، منها على من يعمل باسم يسوع، وحبًّا به.

ومع أَنَّ عصرنا باتَ يربأ بنفسه عن الإيمان بالمعجزات، وبات الكثيرون من رجال الكنيسة أَنفسهم يخشَون التحدّث عنها، لئَلاَّ يُرشقوا بتُهمة التخلّف، آمنت الأُمُّ بها إِيمانًا بسيطًا بديهيًّا، فواكبت لفتاتُ الله المذهلةُ مسيرتَها، وازدهرتْ، كلَّ يومٍ، في طريقها، عجائبُ لم تعجب لها، فهي، في نظرها، التنفيذ الطبيعيُّ لوعد الله بمؤازرة من يستسلم له استسلامًا مُطْلَقًا. وإِنَّما أَعجبها تنازُل الله واستخدامه أَدواتٍ واهيةً، مثلها ومثل أَخواتها، لإِجراء معجزاته معهنَّ، ومن خلالهنّ.

قولان من الإِنجيل أَلهَما كلَّ مسيرتها، وأَنارا مدى دربها: "**كنتُ جائعًا فأَطعمتموني...**"، وبه أكّد يسوع أَنَّ الجياع والعطاش والفقراء والمشرَّدين والمنبوذين

والمحرومين هم مُمثِّلوه فيما بيننا، وأَنَّنا لن نُدان إِلاّ على الحبِّ الذي به نداوي آلامهم، أَو نحبسه عنهم؛ وصيحتُه على الصليب: "**أَنا عطشان**" التي أَلهبت في صدرها نارًا متأجِّجةً، ورغبةً عارمةً في نقع غلّة هذا العطش، عبر خدمتها، بكلّ قلبها، كلّ طاقاتها، ممثِّليه المنتشرين بين ظهرانينا.

وباستجابتها الشجاعة لهذيْن القولَيْن، بل لهذَيْن النداءين اللذَيْن هزّا كيانها هزًّا، وبتصميمها على المُضيّ في درب وحيِهما، بتصميمٍ لا يلين، واندفاعٍ لا يفتر، أَثبتتْ أَنَّ البطولة بمتناول كلِّ عازمٍ، وأَنَّ القداسة واجب كلِّ إِنسانٍ.

وأكّدت، بقدوة حياتها، أَنَّ المسيحيّ حسبُه أَن يعيش، بصدقٍ، جملةً من الإِنجيل، كي يتسنّم ذرى الكمال الروحيّ والإِنسانيّ، ويُصبح، في مجتمعه، خميرة خصب.

لقد ترك يسوع لنا الإِنجيل هاديًا، وقدّيسيه قدوةً حيّةً، وهو يستنهض، في كلّ عهدٍ، نفرًا من أَصفيائه يعيشون مقطعًا من هذا الإِنجيل، بكلّ حذافيره، وملءِ معناه، فيُنيرون به الدنيا، وينهضون مثالاً حيًّا على معاصرته الأَبديّة وخلوده؛ فوسط الإِيديولوجيّات المتبدّلة، والبِدَع الزائلة، يظلُّ الإِنجيل مرجعَ الحقِّ، ومبعثَ الحياةِ والرجاء، ومعينَ حُبٍّ يغمرُ الكون.

وقد جسَّدت الأمُّ تيريزا القِيمَ الإِنجيليّة بكلِّ غناها وكلِّ عظمتها؛ وحيثُما مضت نشرت شذا المسيح، من غير حاجةٍ إِلى كلامٍ، وبمجرَّد أسوة سلوكها. وهذا ما كان قد تمنّاه غاندي الذي سُحِر بسموّ الإِنجيل، وعظمة المسيح، ولكن خيَّب أملَه سوادُ المسيحيّين الذين يعيشون على نقيض المسيح وإِنجيله. كان يتشوَّق إِلى رؤية مسيحيّين تعكس حياتُهم سموَّ الإِنجيل وروعتَه، ولا يُبشّرون بكلامٍ تُناقضُه أفعالُهم، بل يكونون كالوردة التي تجتذب بنفح أريجها، وجمالها الصامت. وغداةَ مصرع غاندي، باشرت، في بلاد غاندي، الأمُّ تيريزا رسالةً حقَّقت أمنيّة المهاتما إِلى أبعد ممَّا تمنّى.

لقد كانت، في عصرنا، صفحة إِنجيلٍ مشرقةً، وكانت، لعالمنا، قلبًا، وروحًا، ومنارةً. وباختيارها الدربَ الضيِّق الوعر طريقًا إِلى الخلاص، عملاً بتعليم يسوع، في عصرٍ مولعٍ باليُسر، والحدِّ الأَدنى من الجهد، ضمنت لجمعيّتها ازدهارًا يكاد لا يُصدَّق، وأَضاءت السبيل للكثير من الرهبانيّات الأُخرى التي تشكو من ضمورٍ مريعٍ، يبدو وكأَنّه داءٌ عضالٌ لا شفاءَ منه. وقد أَثبتت الأمّ تيريزا أَنَّ تطويرَ الحياة الرهبانيّة

وازدهارَها لا يتحقّقان بالإفلات من القيود، والتحرّر من صرامة النظام، بل بالمُضيِّ قُدُمًا في مضمار التضحية، والبذل، وقهر الذات بلا حدود. لقد اقتضت من أَخواتها الكثيرَ، ودعتهنّ إِلى حياةٍ نادرًا ما عرفت رهبانيّاتٌ أَقسى منها، ولا أَبعد إِيغالاً في شظف العيش والتضحية، ولا أَسخى بذلاً؛ ومع ذلك استطاعت، في أَقلّ من نصف قرنٍ، تجنيدَ زُهاء خمسة آلاف مُرسَلةٍ، فضلاً عن مئات الإِخوة المرسَلين والكهنة الذين التزموا بروحانيّتها، في حين ما زالت الرهبانيّات التي اختارت درب اليُسْر تواجه الهزال في الدعوات، والتخاذل على دروب القداسة. ولكأَنَّ النفوس الكريمة أَمست تنشد دافعًا يأسُرها في الصميم، بعد إِذ سئمت فتور الدعوات المجزّأة التي تهب الله قسطًا من ذاتها، وتحتفظ لنفسها بالكثير، فلا هي، حقًّا، لله، ولا هي للعالَم.

وفي هذا السياق أكدْت الأمُّ حقيقةً جوهريّةً عندما أَقرّت: "**اطلبوا من الناس كلَّ شيءٍ، فيعطوا كلّ شيءَ وَأَكْثَر، واطلبوا منهم القليل، فلن يُعطوا شَيْئًا**".

وهي باستقطابها ملايين المتعاونين، من كلِّ نَمَطٍ، للنهجِ على منوالها، والاندفاع إِلى البذل والعطاء، في تيّارها، باتت، في هذا المضمار، مدرسةً رفيعة الشأن، عمَّقت وَقْع عملها في العالم، فكانت، في قلب الكنيسة، قوَّةً جبّارةً، وكانت للمسيحيَّة عطيّةً من الله ثمينةً، وعبرَ المسيحيّة نعمةً للعالَم عميمةً، كان العالَم في أَشدّ حاجةٍ إِليها، فعلى حدّ قول الأَب پيير: "**هذا القرن، أكثر من أَيِّ قرنٍ سواه، ومنذُ أَمَدٍ طويلٍ، ينتظر قدّيسه فرنسيس الأَسّيزي، كي يُذكِّره، بالأَفعال، أَنّ الحياة أَجلُّ شأْنًا من المال، وأَنّ الحبَّ عطاءٌ قبل أَن يكون امتلاكًا. وحينئذٍ، فقط، تستعيد كلمتا "الفرَح" و"السلام" معناهما، وتُصبحان حقيقةً ماثلةً**".

ولقد كانت الأمّ تيريزا، لهذا العصر، قدّيسته وفرنسيسه، وكانت لغاندي تجسيدًا لأَمانيه، وكانت للأَب پيير رديفًا ومتمّمًا. ويا لها من "سلسلةٍ" تتكامل حلقاتها، وتزداد روعةً وسناءً!

وكلّما امتدّت السلسلة، حقّ للبشريّة أن تمضي في التفاؤُل، رغم كلّ أَسباب القنوط.

أو لم يُصرّح رئيس جمهوريّة الهند: "طالما كان هناك أَمثالٌ للأمّ تيريزا، سيُتاح للإِنسانيّة أَن تعيش في الرجاء"؟

٢٥ آذار ١٩٩٨

الجزءُ الأوّلُ

الفصل الأوّل

المؤسِّسة

جذورٌ

أُسرتنا والدَي الأُمّ تيريزا راسختا الجذور في منطقة البلقان، التي كانت، عشيّة الحرب العالميّة الأُولى، جيَّاشةً، دائمة الغليان، حيثُ اللغات والأَجناس والحدود تتصادم، بفعل تحرّكاتٍ عالميّة لا تفتر. فقد كان البلقان، على نحوٍ خاصٍّ، مركز اضطراباتٍ عالميّةٍ مدوّيةٍ، كلّ شيءٍ فيه دائب الحركة، سريع الالتهاب.

كان الحكم العثمانيّ قد غزا المنطقة منذ عام ١٣٨٥، وبسط عليها سيطرةً امتدّت زهاء خمسة قرونٍ، ممَّا أَفضى إِلى استسلام بعض السكّان اَلأَصْلِيِّينَ الذين اعتنقوا دين المحتلّ وتقاليده، وإِلى إِلهاب مقاومة آخرين. بعض المقاومين، عندما أُسقِط في يدهم، فرّوا من الاضطهاد، وتبعثروا في شتَّى أَرجاء المسكونة. وقد فزعت جاليةٌ كثيفة العدد منهم إِلى جزيرة صقلّية الإِيطاليّة، حيثُ استقرَّت في منطقةٍ أُطلق عليها اسم "پيانا ديلّي أَلبانيزي"، فيما سُمّي أَفراد تلك الجالية باسم "أرباريش"، وهم ما زالوا يحتفظون بالكثير من تقاليد أَجْدَادهمْ، وما برح الكاثوليكيّون منهم مُتأَثِّرين بالطقُوسِ البيزنطيّة. ومن وسط تلك الجالية برز "جون فرنسيس" الأَلبانيّ الذي أَصبح، عام ١٧٠٠، البابا إِكليمنضوس الحادي عشر.

ومن المقاومين من تشبَّث بالأَرض والهويّة والإِيمان، رَغْم كلّ شيءٍ. ومن هؤلاء، أُسرة "بوياكشيو" أَجداد الأمّ تيريزا لأَبيها، وأسرة "برنَاي" أجدادها لأمّهَا.

لفظة "بوياكشيو" مرادفة للقب "الصبَّاغ" أَو "الدهّان"، في لغتنا. وربّما تلك كانت مهنة أَحد الأَجداد؛ أَو ربّما هم سُمّوا كذلك، لأَنّهم كانوا من المحاربين العتاة "المصبوغين" بالدم، أَو من التجّار الذين يتعاطون، فيما يتعاطون، تجارة الأَصبغة. وقد يكون شيءٌ من كلّ ذلك، في أَصل ذلك اللقب.

عاش آل "بوياكشيو" في مدينة "شكومدر" حيث لا يزال، ثمّة، شارعٌ يحمل اسمهم، ولا ريب أَنَّه أُطلق تكريمًا لأَحد أَفراد الأسرة البارزين، تلك الأُسرة التي اشتهرت بكونها بورجوازيّةً، تتعاطى التجارة، وتتمسَّك بكاثوليكيّتها. إلاّ أَنّها هاجرت، في القرن التاسع عشر، إلى مدينة "بريزرن"، المقدونيّة الهامّة، الجاثمة على مقربةٍ من الحدود الأَلبانيّة.

وإلى "بريزرن"، أَيضًا، هاجر آل "برناي"، وهم أُسرةٌ من الملاّكين الزراعيّين الذين كانوا يقطنون في "نوڤوسيلا"، وقد أَنشأوا، في "بريزرن"، مشروعًا تجاريًّا مزدهرًا كانت تديره، بيدٍ حازمة، الجدَّة "سيسلا".

وفي تلك المدينة رأى النور والدا الأُمّ تيريزا: "كولي" أَو "نيكولي بوياكشيو" و"درانا برناي"، اللذان تزوّجا مع مولد القرن العشرين. وإِذ كان "كولي" يَتَطَلَّع إلى توسيع حجم تجارته، انتقل وعروسه إلى مدينة "سكوپيي"، عاصمة مقدونية آنذاك، التي تبعد نحو مئة كيلومترٍ عن "بريزرن"، وتتميّز بكونها مدينة عبورٍ وتبادُلٍ، ومفترق طرقٍ تجاريًّا إلى البلقان.

كانت "سكوپيي"، آنذاك، مدينةً أَلبانيّةً، خاضعةً للحكم العثمانيّ، يقطنها نحو عشرين أَلف نسمة، يناهز عدد المَسيحيِّينَ منهم ستّين بالمئة، معظمهم من الأُورثوذكسيّين، ونحو خمسةٍ وثلاثين بالمئة من المسلمين، وقلّةٌ من اليهود. وكان الكاثوليكيّون، فيها، أَقليّةً لا تتجاوز عشرةً بالمئة من مجموع السكّان، ومنهم أُسرة "بوياكشيو" التي كانت وفيّةً لتقاليدها الكاثوليكيّة منذ أَجيالٍ ضاربةٍ في القِدَم.

اسم البلاد الأَصليّ كان "الليريا"، التي خضعت، عبر التاريخ، لتنافس الرومَانيِّينَ وَالبيزَنْطِيِّينَ، ولغزوات السلاڤيّين والبلغاريّين والصرب، وقد خلّف فيها البيزنطيّون آثارًا باقيةً، كما أَنّها ما برحت تُؤْوي أَوابدَ تتحدَّث عن حكمٍ رومانيٍّ عريقٍ غابرٍ.

في "سكوپيي"، كانت تتجاور، متناغمةً، الكنائس الأُورثُوذُكْسيَّة والكاثوليكيّة،

محاذيةً المساجد. وتذكر الأُمّ تيريزا أَنّها زارت، في صغرها، كنيسة المخلّص المحفورة تحت الأَرض، والتي تُعدّ، بهندستها، وبقبّة جرسها الخشبيّة، جوهرةً نادرة. ولمّا استوضحت عن سبب إنشائها تحت الأَرض، قيل لها إنّ السلطات العثمانيّة، قديمًا، لم تكن تأذن لأَيِّ مكان عبادةٍ أن يكون ظاهرًا للعيان، ما خلا الجوامع.

وهي تذكر ما قيل لها عن زيارة محمّد رشاد الخامس لمدينة "سكوبيي"، عام ١٩١١. فبهذه المناسبة دُشِّنَ أَوّل خطّ ترام في المدينة، وبُلِّطت الشوارع التي كان على الموكب اجتيازها.

وهي تذكر، أيضًا، ليلة الثامن والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩١٢ المشهودة، حيثُ دوّى منزل ذويها باحتفالٍ مجلجلٍ امتدّ حتّى الصباح، احتفاءً بانسلاخ "سكوبيي" عن الإمبراطوريّة العثمانيّة. غير أَنّ نشوة الاستقلال لم تدُمْ طويلاً، إِذ سرعان ما احتدم الصراع بين الصرب والبلغار على احتلال مقدونية. وقد تعاقبوا على ذلك الاحتلال، إِلى أَن أَصبحت المنطقة جزءًا من الاتّحاد اليوغوسلافيّ، تحت سلطةٍ صربيّة.

وهكذا نشأت اَلأُمّ تيريزا في مُناخ من الغليان الوطنيّ، والصراعات السياسيّة الضّارية والانتفاضات المباغتة التي سرعانَ مَا تتحوّل إِلى خضوع.

نشأت ابنةَ شعبٍ لا وطنَ له، وورثت عن أَجدادها الجرأة والصلابة، وشيئًا من البداوة والترحال، والتأقلم مع المؤَقّت، مما سيساعدها على التآلف مع شتّى البلدان والظُّروف، واللغات والثقافات. ومن جرّاء احتكاكها بتعدّد الحضارات والأَديان، تلقّنت، منذ حداثتها، التسامح واحترام الاختلاف.

ولن تكون، يومًا، ابنة أَرضٍ ومكانٍ، فآفاق حياتها في انسيابٍ دائمٍ. ولكنّها وسط كلّ تلك التحرّكات، عهدت طفولتُها بؤرةً ثابتةً: أَسرتها.

أُسرةٌ متَّحدةٌ متحابّةٌ

رُزق "نيكولي" و"درانا" ابنتهما البكر "آكا" عام ١٩٠٤، ثُمَّ ابنهما الوحيد لازار، عام ١٩٠٧ وأَخيرًا، في٢٩/٨/١٩١٠ ابنتهما الصغرى "كونكشا" أي برعم الورد، وعمّداها في اليوم التالي مُطلقَيْن عليها اسم العماد "أَنييس".

كان "كولي بوياكشيو" تاجرًا نبيهًا، حاذقًا، يَتَمَتَّع بحاسَّةٍ تجاريّةٍ مُرهَفةٍ، وسرعانَ ما أَصبح على رأس مشاريع بناءٍ واسعةٍ. ومن أَشهر الإنشاآت التي نفّذها مسرح "سكوبيي" البلديّ. ثمّ شارك تاجرًا إِيطاليًّا من البندقيّة، فتعاطيا تصدير واستيراد شتّى السلع كالسكَّر والزيوت والجلود والأَقمشة، وكانت تجارته هذه تستدعي تجواله في مختلف بقاع أوروبا، بل إلى أَبعد منها، وحتَّى مصر. وكان يُعينه على السفر والنجاح إِلمامُه بلغاتٍ عديدة، ولا سيّما الأَلبانيّة، والصربوكرواتيّة، والتركيّة، والإِيطاليّة، والفرنسيَّة. وفي أَعقاب كلٍّ من أَسفاره، كان يجمع، من حوله، أَفراد أُسرته، وبعد أَن يوزّع عليهم ما جاءهم به من هدايا، يشرع يسرد عليهم غرائب رحلته وطرائفها، وهم يصغون مأخوذين.

ولكن لم يكن النجاح التجاريّ ليُرضي كلّ مطامحه، فقد كان يحمل، بين جنحيه، اندفاعًا وطنيًّا عارمًا، وقد انتظم في صفّ اَلوَطَنِيِّينَ الذين لم يخنعوا للاحتلال، وظلّوا، عبرَ القرون، مُخلصين لتقاليد الأَجداد ولغتهم وثقافتهم ودينهم، وقد كوفئ برؤية بلاده تتحرَّر من نير الحكم العثمانيّ، عام ١٩١٢. ودفعت به وطنيّته إلى اقتحام ميدان السياسة، فأَصبح من وُجَهاء "سكوبيي"، وعضوًا في مجلسها البلديّ.

كان يتدفّق حيويّةً، ويتذوّق مُتعَ العيش، ويميل إلى معاشرة الناس، فأَصبح منزلُه منتدى اَلوَطَنِيِّينَ والتجّار، يُنفقون فيه الليالي الطوال في نقاشٍ وسَمَرٍ.

كانت له علاقاتٌ طيّبةٌ مع الكنيسة ورجالها، الذين غالبًا ما كانوا يختلفون إلى منزله. وكان منفتحًا على الجميع، ينعم بتقدير قومه ومحبّتهم، متحرّر الذهن، لم يتحرّج من إِرسال ابنتَيْه إلى المدارس الحكوميّة، في حقبةٍ ومكانٍ كان مثلُ ذلك الأَمر مستهجنًا، ممّا شجَّع آخرين على احتذاء مثاله.

كان يمتلك بيتَيْن تسكن أُسرته أَحدَهما، تحيق به حديقةٌ فسيحةٌ مغطّاةٌ بالأَشجار المثمرة؛ وكانت الأُسرة، بفضل أَعماله المزدهرة، تعيش في بحبوحةٍ، ولكنّها، مَعَ يُسرها، لم تكن مفرطةً في البذخ والرفاه، ولا متعاميةً عن بؤس الآخرين، ولا متمترسةً دونه، وراءَ أَبوابٍ صفيقةٍ. فكثيرون هم الفقراء الذين كانوا يختلفون إلى منزل "بوياكشيو"، فيلقون فيه التأْهيل وحسن الوفادة، وتلبية احتياجاتهم؛ ولم يُعهَد، يومًا، أَنّ سائلاً عاد من ذلك المنزل خائبًا، خالي الوفاض.

لقد كان "نيكولي" كريمًا من غير تظاهرٍ، ولكنّه كان عميق الكَرَم، أَصيله. ومن الكلمات التي كان يردّدها على مسامع ابنته الصغرى: **"يا ابنتي، لا ترضي أَبدًا أَن تتناولي لقمةً لا تكونين مستعدَّةً لاقتسامها مع الآخرين!...**" قد تكون تلك هي البذرة التي نبتت منها رسالة الأمّ تيريزا.

وما أكثر المُثُل الحيّة التي كانت لهذا القول مصداقًا! فالأُمّ تيريزا، إِذ تسترجع ذكرياتها، تقول: "**كلَّ يومٍ كان يُشاركنا أَغرابٌ طعامنا. أَوّل الأَمر، كنت أَسأَل أُمّي عن هويّتهم فتجيب: "بعضهم أَقرباؤنا، والآخرون، على أَيّة حالٍ، أَصدقاء لنا. أَلا فاعلمي أَنّ الفقراء، وإِن لم يكونوا أَقرباء لنا بالدم، إِلاّ أَنّهم، بمجرّد كونهم فقراء، هم إِخوةٌ لنا**"

وكان "نيكولي" طَيِّبًا مع أَبنائه، بلا تساهلٍ، صريحًا، بلا تحفُّظٍ، جاهدًا، بلا كَلَلٍ، في أَن ينفث فيهم الحرص على العمل المُتقَن، والشعور بالواجب، ما وَسَمهم في الصميم. وكان شديدًا، على نحوٍ خاصٍّ، مع ابنه لازار، لايني يردّد على مسامعه: "تذكّر ابن من أَنت"، ولا يَتَحَرَّج، أَحيانًا، من إِيقاظه في منتصف الليل، إِن هو عاد إِلى البيت متأَخِّرًا، كي يتأَكّد من أَنّه قام بكلّ واجباته المدرسيّة على أكمل وجه، ويطرح عليه أَسئلةً في الرياضيّات.

كانت ابنته الكبرى "آكا" الأكثر محاكاةً له في الشكل، والأقرب إِلى نفسه، فباتت مستودع أَسراره، يطلعها على أَعماله، ويستعين بها عليها، في حين كان "لازار" و"كَونكَشا" أَشدّ محاكاةً لوالدتهما؛ وقد ورثت "كَونكَشا" عن والدتها الكثير من ملامحها: الوجه المستطيل، والأَنف البارز، والجبين الفسيح، والعينَيْن الصغيرتين المتأَلّقتَيْن، والذقن العريضة التي تنمّ عن إِرادةٍ صلبةٍ.

وكانت الأُمّ "درانا" التي أَلِف أَبناؤُها أَن يدعوها "نانا لوكي" أَيْ "أُمّ روحنا"، امرأَةً نادرةً، تحترم الواجب، ومثالاً ساميًا للزَّوجة الرقيقة المخلصة، ولَلأمّ التي لا عيبَ فيها. مهامّ الحياة اليوميّة كانت تستحوذ على اهتمامها، فتسهر بلا كَلَلٍ على المنزل، وتزرع في أَبنائها الشعور بالمسؤوليّة، موزّعةً عليهم، بالتوالي، بعض المهامّ: من جلب الحطب، وامتياح الماء، ومسح الأَحذية؛ ومشرفةً على أَدائهم واجباتهم المدرسيّة. وفي المساء، كانت تستعجل اَلفرَاغ من مهامّها كي تنصرف إِلى استقبال زوجها، فتصلح شعرها وهندامها، وترتدي ثوبًا نَظِيفًا، ما كان يثير مرح

اَلأَطْفَال. وكانت دائمة الحرص على أَن يكون اجتماع الأُسرة المسائيّ اليوميّ مُنَاسِبَةً احتِفَالِيَّةً. وقد ارتسم ذلك السلوك في صميم ذاكرة أَبنائها، بحيث إنّ الأُمّ تيريزا ما انفكّت تسترجعه بجلاء، إِذ تقول: "**مهما كانت والدتنا مشغولةً أَثناءَ النهار، كانت، دائمًا، تستعجل في المساء، كي تكون متأهّبةً لاستقبال والدنا. يومها لم نكن ندرك ذلك تمامًا، وكان يتَّفق لنا أَن نبتسم أَو أَن نمازحها بهذا الشأن. ولكنّني**، اليوم، أُقدّر رقّة الحبّ الذي كانت تضمره له، فحتّى عندما كان العمل يستولي على كلِّ اهتمامها، كانت تقدّم له أَجمل ابتسامةٍ".

كلّ طاقاتها كانت معبَّأَةً للعناية بذويها؛ بيد أَنّ معنى الحياة الحقّ كانت تجده في الإِيمان، فهي أَعمق تقوى من زوجها، وهي التي تُعدّ الأُسرة للصَّلاة الجماعيّة، قبل النوم. وهي بنفسها أَعدّت أَبناءَها لمناولتهم الأُولى، وكانت تحثّهم على مشاركتها تلاوة المسبحة أَثناء نزهاتهم، أَو في طريقهم إِلى المدرسة، ومنها.

كانت تحضر القدّاس بانتظامٍ، في كنيسة القلب الأَقدس الواقعة على بُعد خطواتٍ من المنزل، وتصطحب أَبناءَها كلّما تسنّى لها ذلك. ولم تتجلّ تقواها من خلال تعبّدها وصلواتها فحسب، بل، أَيضًا، من خلال كَلَفها بخدمة المحتاجين، وحدبها عليهم، فهي لم تردّ يومًا سائلاً، وكان زوجها عونًا لها، بنفحها مبالغ من المال لهذا الغرض.

وقد ترسَّخت لدى ابنها لازار طائفةٌ من الذكريات، في هذا السياق، فهو غالبًا ما شاهدها ترفو سُتَرًا وكنزاتٍ صوفيّةً، وتغسلها وتكويها وتطويها داخل أَكْيَاس، فيأخذها والده تحت جنح الليل، ويضعها، مع رزم أَطعمةٍ، أَمام منازل يقطنها البؤس. ويذكر، أيضًا، أَنّها غالبًا ما كانت تمضي، بنفسها، بمؤونات الطعام واللباس ومبالغ المال، لتوزيعها على الفقراء، وكثيرًا ما تصطحب ابنتها الصغرى "كَونكَشا"، في مثل تلك المهمّات. وهو يروي، أَيضًا، أَنّها التقت، يومًا، امرأَةً مصابةً بسرطانٍ كان يسبّب لها آلامًا مبرّحة، فاستضافتها في المنزل، وعكفت على العناية بها حتى تحسَّنت حالاً.

ومن الذكريات التي لم تبارح، قطّ، ذهنَ الأُمّ تيريزا، عجوزٌ في الرابعة والثمانين كانت تتناول، كلّ يومٍ، غداءَها وعشاءها مع الأُسرة، وكان الأَب لايني يُرَدِّد: "أَحسنوا وفادتها، وبحبّ". أَمّا وَالِدَتهَا فلم تُغفل، يومًا، أَن تصبَّ لها القهوة والشراب الذي كانت كَلِفةً به.

وغالبًا ما كانت "كَونكَشا" ترافق أُمَّها، وتحلّ، أَحيانًا، محلَّها، في مساعدة أرملةٍ هشّة الصحَّة، كانت تكدح ليلَ نهار، في سبيل النهوض بأَوَد أَبنائها الستّة؛ وبعد أَن لقيت الأَرملة وجه ربّها، ترعرع الأَولاد الأَيتام مع أَبناء "بوياكشيو"، وكأَنّهم إِخوةٌ لهم.

لقد انحفر حبّ الفقراء عميقًا في حياة الأُسرة وقلوب الأَطفال، وكأَنّه طقسٌ حيويٌّ مقدَّسٌ. وكانت "درانا" لا تني تردّد على مسامع صغيرتها "أَنييس": "**عندما تفعلين خيرًا، فافعليه، وكأَنّك تلقين حجرًا في أَعالي البحار**"

ويصف لازار والدته بالقول: "لقد كانت أُمُّنا قويّة الشكيمة، فولاذيّة الإِرادة، ولكنّها، في آنٍ واحدٍ، كانت متواضعةً، كريمةً، رقيقة المعشر، شديدة العطف على الفقراء، وعميقة الإيمان. وقد حرصتْ على تربيتنا التي عرفت أَن توفّرها لنا بمثال فعالها، أكثر منها بأَقوالها. كانت دقيقة التنظيم، مولعةً بالانضباط، غير أَنّ أَبرز ما فيها كان تقواها، فكلّ مساءٍ كانت تجمعنا للصَّلاة. وفي شهر أَيّار كنّا نشخص، كلَّ يومٍ، إِلى الكنيسة لتلاوة المسبحة، وتلقّي بركة القربان المقدّس".

لقد قام بين "درانا" وابنتها الصغرى تقاربٌ وثيقٌ، بحيث صرّح لازار: "أَظنّ أَنَّ "كَونكَشا" تشبه أُمّي شبهًا كبيرًا. إِنَّني أَتوسَّم بينهما ملامح خاصَّةً مشتركةً" ويُضيف: "عندما أُشاهد، اليومَ، تيريزا، ينتابني شعور بأَنّني أُشاهد والدتنا الحبيبة، فهما متشابهتان إِلى حدٍّ بعيد". ويوم التقى شقيقته في إِيطاليا، وقد أَمست اَلأُمّ تيريزا، صرّح: "إِنّني أَرى فيها أُمَّنا بشدّة مِراسها، وبحرصها على الممارسات الدينيّة"

ومن خصال الأمّ التي ترسَّخت في ابنتها الصغرى أَنّ تلك الأُمّ كانت دائمًا مشغولةً، لا تطيق هدر ثانيةٍ من وقتها في ما لا طائل تحته، فهي، إِن لم تكن منصَرِفةً إِلى أَعمال المنزل، أو إِلى مساعدة الآخرين، كانت تتلو مسبحتها بخشوع. ومن الأَحداث التي ما فتئت الأُمّ تيريزا تذكرها بوضوح، لأَنَّ أَثرها فيها كان بليغًا، أَنّها كانت، ذات ليلةٍ، تتجاذب مع أُختها وأَخيها أَطراف الحديث، وتمادى السهر، وانقلب الحديث تافهًا، فيما كانت الوالدة جالسةً صامتةً؛ وبغتةً غادرت الغرفة، وأَطفأَت مصدر النور الرئيسيّ في البيت، مغرقةً المنزل كلّه في ظلمةٍ دامسةٍ، وبرَّرت فعلها بالقول: "لا فائدة من إِنفاق الكهرباء على المضيّ في مثل هذه الترَّهات الحمقاء". وقد توطّد، مُذّاك، لدى تلك التي ستصبح الأُمّ تيريزا، الحرصُ على عدم هدْر الوقت في أَحاديث جوفاء، وعلى تفادي أَيّ هدرٍ من أَيّ نوع.

أَمّا "كَونكَشا" فيصفها أَخوها لازار بأَنّها كانت، في طفولتها، مكتنزة الصحّة، مرحةً، خبيثةً، متدفّقةً حيويّةً، أَشبه بالصبيان، أَنيقة الهندام وحسَّاسةً. وكانت على تناغمٍ تامٍّ مع والدها، رغم صرامته، وشدّته في تطلّبه من أَفراد أُسرته، ومنسجمةً مع أُختهَا الكبرى، رغم بوْن السنّ بينهما، وقد جمعتهما عوامل مشتركةٌ، أَهمّها الصوْت الرخيم، وحبّ الموسيقى. فقد كانتا عضوين في جوقة الرعيّة، وغالبًا ما ترتّلان ثنائيًّا، منفردتَيْن، مكمّلَتيْن إِحداهما الأُخرى، مستحقَّتَيْن لَقَب "الشحرورتين" الذي أُطلق عليهما.

وأَمَّا بينها وبين أَخيها "لازار"، فقد توثَّقت علاقات محبّةٍ واحترامٍ. ومن الطريف ذكرُه أَنّ "لازار" كان كَلِفًا بالمربّيات والحلوى، وينهض، ليلاً، كي يتناول المزيد منها، خلسةً؛ وكانت، هي، غالبًا ما تُمسِك به متلبّسًا، ولكنّها لم تشِ به، يومًا، لوالديها. ولكن إِن هو فعل ذلك عشيّة يوم أَحدٍ، فكانت تنهيه عن الطعام بعد منتصف الليل، لكي يكون أَهلاً للقدّاس والمناولة في الصباح. ومن ثمّ وصفها، هو، بأَنّها كانت "**ربّما مفرطة الجدّ بالنسبة إلى سنّها، فهي وحدها، من ثلاثتنا، التي لم تكن تسرق الحلوى، وكانت كريمةً وطيّبة القلب**".

وتسترجع الأُمّ تيريزا ذكريات طفولتها فتلخّصها بالقول: "**كنّا أَطفالاً هادئين بين أَبوَيْن مفعمَيْن فرحًا وحبًّا**".

وعندما كان يأزف أَوان مثول أَطفال "بوياكشيو" إلى المدرسة، كانوا يغشون، أَوّلاً، مدرسةً ابتدائيّةً ملحقةً بكنيسة القلب الأَقدس، حيث كانوا يتلقّون مبادئ التعليم الأَساسيّة باللغة الأَلبانيّة، طيلة ثلاث سنوات، ثمّ يشرعون يتعلّمون اللغة الصربوكرواتيّة، كلُغَةٍ ثانيةٍ، في السنة الرابعة، ويواصلون التعلّم بهذه اللغة، في مدرسةٍ حكوميّةٍ، فيما كانت الأُسرة والرعيّة الكنسيّة تتولّيان تربيتهم الدينيّة.

وقد تلقّى أَطفال "بوياكشيو"، فعلاً، في المنزل أَوّلاً، تربيةً دينيّةً منيعةً، وإِيمانًا سليمًا عميقًا، رسَّخهما، فيما بعد، "كهنةٌ طيّبون ساعدونا على انتهاج درب دعواتنا" على حدّ قول الأُمّ تيريزا.

فقد كانت الأُسرة على أَوثق علاقةٍ مع الكنيسة والرعيّة، بحيث صرّح "لازار": "**كنّا نقيم على مقربةٍ من رعيّة "سكوپيي" الكاثوليكيّة، ولكن يهيمن عليّ الانطباع، أَحيانًا، بأَنّ والدتي وأُختيَّ كنّ يعشنَ في الكنيسة بقدر ما يعشنَ في المنزل، لشدّة تعلّقهنّ بالجوقة والطقوس، وفي مرحلةٍ لاحقةٍ، بالقضايا الرسوليّة**".

لقد انتظمت حياة الأُسرة على وقع الصلوات، ولئن شكا لازار، في كهولته، من صرامة والدَيْه في هذا المضمار، إلاّ أنَّ شخصيَّة شقيقته الصغرى لم تخنقها هذه السلطة، لا بل إنّها، من هذه الأَنظمة الصارمة، استمدَّت منعتها واتّزانها.

وما تشربتْه من إيمانٍ مطلقٍ من والدَيْها، في سنواتها الأولى، لم يبارحها، قطّ، طيلة مسيرتها، ولم يتعرَّض لشكٍّ أو تساؤل. فقد كان واقعًا جليًّا لا لَبْس فيه، كالماء والشمس.

وهي، منذ طفولتها، عاشت تحت أَنظار الربّ، ما غرس فيها يقينًا بحضوره لم تفتقده يومًا.

ولا بدْعَ إن هي أَشادت بالسعادة التي غمرت مرابع طفولتها، بقولها: "**لقد كنَّا متّحدين جميعًا... كنّا نعيش بعضنا لبعضٍ، ونجهد كي يُسعد بعضنا بعضًا. كنّا أُسرةً متماسكةً وسعيدةً جدًّا**".

الفاجعة

كانت "كَونكَشا" في التاسعة من عمرها عندما حلَّت بالأُسرة فاجعةٌ مباغتةٌ موجعةٌ. يومَها شخص والدها، برفقة طائفةٍ من الوطنيّين المطالبين باستقلال إقليم "كوسوفو"، إلى مدينة بيلغراد، حيث عقدوا، مع رفاقٍ لهم من مختلف أَرجاء الإِقليم، اجتماعًا سياسيًّا أَعقبه عشاء. وكان "نيكولي" قد غادر منزله رجلاً منيعًا شديدًا، في قمَّة سنواته الخمس والأَربعين، ولكنّه أعيد إليه مُحمَّلا، محتضرًا، مصابًا بنزيفٍ داخليٍّ قاتلٍ.

ولمّا تبيَّنت "درانا" خطورة حال زوجها، أَنفذت ابنتها الصغرى لاستدعاء كاهن الرعيّة، فلم تجده، ولكنّها، يحدوها الشعورُ بضرورة حضور كاهنٍ إلى جانب والدها، جرت، تلقائيًّا، نحو محطَّة المدينة حيثُ التقت كاهنًا لم تلحظْه، من قبلُ، قطّ، فأطلعته على الأَمر، وراحا يجريان معًا، بأَقصى طاقتهما، وزوّد الكاهن المجهول "كولي" المحتضر بالأَسرار الأَخيرة، قبل أن تُهرع به أُسرته إلى المستشفى حيث أُجريت له عمليّة جراحيّة لم تُفلح في إنقاذه من القضاء الحاسم. وقد أَشارت جميع الدلائل إلى أَنّه كان ضحيّة تسمُّم.

وقد برهنت ضخامة الجنازة على ما كان يحظى به الفقيد من محبّةٍ ورفيع مقامٍ. فقد أَقفل تجّار المدينة حوانيتهم، وانضمّ إلى الموكب الشعبيّ العارم، وفودٌ كثيفةٌ من

المسؤولين، وممثِّلون عن شتّى الجماعات والطوائف والديانات، وأَحاق تقدير المدينة بأَسرها بنعش "كولي بوياكشيو".

وكان غيابه حَدَثًا مفصليًّا في حياة الأُسرة. فما كاد يُوارى الثرى حتّى انفرد الشريك الإِيطاليّ بكلّ موجودات الشركة، ولم يبقَ لأسرة "بوياكشيو" سوى البيت الذي تستظلّه. وكان لمباغتة الفاجعة ولهولها وقعٌ صاعقٌ على "درانا" التي شُلَّت جسديًّا وعقليًّا، أَسابيع عديدةً، تولّت، أَثناءَها، ابنتها الكبرى "آكا" شؤون المنزل، ريثما أَفاقت الوالدة من صدمة المصيبة، وشرعت تتَّخذ الخطوات التي باتت تقتضيها الظروف الجديدة. وتغلَّبت، أَخيرًا، نزعتها الواقعيّة، وطبيعتها الخلاَّقة، وحرصُها على أَلاّ تدع الأسرة تهوي إلى العَوَز. فباشرت مشروعًا لبيع المطرّزات، وشتّى صنوف المنسوجات والسجَّاد، التي اشتهرت بصنعها مدينة "سكوپيي". وكان "لازار" يرافق أُمَّه في زيارتها للمورّدين والمصانع، ويعجب بإِقبال أَصحاب تلك المصانع على استشارة والدته والتماس نصحها، في سبيل تحسين إِنتاجهم، وتطويره، بما يتوافق وأذواق المستهلكين ومتطلّباتهم.

ولكن، مع دَأْبِهَا وعملها ما يزيد عن عشر ساعات يوميًّا، لم تُفلح في تأمين مثل الرخاء الذي كان يوفّره دخل زوجها الوفير؛ فاضطرّت الأسرة إِلى شيءٍ من التقشُّف، ولكنّها ازدادت التحامًا، واتّحادًا، وقوَّةً، واعتمادًا على الربّ. وبعد أَن كان المنزل، في عهد الوالد، يلتهب بالحمّى الوطنيّة، ومنتدىً سياسيًّا، غدا، إِثر غيابه، مركزًا دينيًّا، وأَمست الأسرة أكثر اهتمامًا بالمشاريع الكنسيّة.

ويشهد "لازار" في هذا الشأن: "عقب وفاة والدنا تبدَّل كلُّ شيءٍ، ولستُ أَدري ما كان سيحلُّ بنا لولا أمُّنا. أَظنُّ أَنّنا مدينون لها بكلّ شيء. وغالبًا ما تتولاّني الرغبة في أَن أقيم لها نَصبًا. حتَّئذٍ، كانت تسوق عيشة يُسرٍ عذبةً، وإِذ بها تغرق، بقسوةٍ، في العوز. ولكنّها حقّقت معجزاتٍ، ولكي تؤَمّن لنَا جميع فُرَصنا، أَسَّست مشغل تطريز، وكانت حريصةً على أَن نحبّ بيتنا، وأَن نظلّ مُتَّحدين ومجتهدين في دروسنا. لقد كانت امرأةً منقطعة النظير، وربّما كان قيامها مقام والدنا لصالحنا. صحيحٌ أَنّها كانت منطويةً، وأَقلَّ اندفاعًا نحو النشاطات الخارجيَّة، ولكنّها لم تكن دون والدنا جدوًى، ومن بين جميع القضايا، كانت لها قضيّة الكنسية هي العليا. إِنِّي أَذكر بأَيّ جدٍّ كنّا

ننظر إلى ديننا الكاثوليكيّ، وبأيّ انتظامٍ كنّا نشترك في جماعات الصلاة، وفي طقوس شهر أيَّار الدينيّة..."

تلك الأُمّ الشجاعة كانت لا تني تقول لأَبنائها: "**سأُعطيكم كلّ شيء، اطلبوا، بل طالبوا. ولكنّني، بالمقابل، سأُطالبكم بأَن تكونوا طيّبين، وتغدوا للآخرين مثالاً**".

ومع ضمور دخل الأُسرة، وضيق ذات يدها، لَمْ تنقطع "درانا" عن عون المعوزين والفقراء وخدمتهم. ويورد "لازار"، في هذا السياق أَمثلةً ذات دلالات دامغةٍ، منها قوله: "كانت بجوارنا عجوزٌ في السبعين من عمرها، هجرَها ابنُها الوحيد "لور غازوري". وكانت والدتي تعودها، على الأقلّ مرَّةً في الأُسبوع، حاملةً لها مؤونةً من الطعام، وتنظِّف لها منزلها، وكانت شقيقتي "كَونكَشا" ترافقها، أَحياناً. وما زالت ماثلةً في ذاكرتي، أَيضًا، تلك المدعوَّة "فيليا" المدمنة على الكحول، والتي كانت تعاني مرضًا عضالاً، وقد غشت جسدَها القروح. وكانت أُمّي تنظّفها، وتعالجها مرَّتَيْن كلّ يومٍ، وتطعمها وتُعنى بها عنايتها بابنٍ لها. وإِذا ما تعذّر عليها، يومًا، الاضطلاع بتلك المهمّة، أَوكلتها إِلى شقيقتي الصغرى".

في مثل ذلك المناخ، وبتأثير مثال تلك الأُمّ، نشأت "كَونكَشا"، ونمت دعوة من ستُصبح الأُمّ تيريزا.

ولادة دعوة

فضلاً عن تأثير المنزل، كان للرَّعيّة الكنسيّة تأثير بليغٌ على مصير "كَونكَشا"، فعلى حدّ قول "لازار"، كانت أُمّه وأُختاه يعشْنَ في الكنيسة، بقدر ما يعشن في المنزل، ولا سيما أَنّ كنيسة رعيَّة القلب الأَقدس، كانت على بعد خطواتٍ من منزل الأسرة. وكانت الكنيسة، فضلاً عن وظيفتها الدينيّة التي تضطلع بها بغيرةٍ، حريصةً على نقاء هويّة رعيّتها الوطنيّة. وقد استعان أُسقف المنطقة بالآباء اليسوعيّين على خدمة رعيّة "سكوپيي"، التي وافاها، عام ١٩٢١، الأَب "كاسبر زادريما"، الأَلبانيّ الأَصل، الذي، بفضل إِجادته اللغة الصربوكرواتيَّة، تمكّن من تلبية معظم متطلّبات الرعيّة الكثيرة والمعقّدة. ويذكر "لازار" عنه:

"كان الأَب "زادريما" صارمًا، مفرطًا في حبّ النظام والانضباط، ولكنّه كان،

أَيضًا، كاهنًا شجاعًا ودؤوبًا. ما زلتُ أَذكر أَنَّه كان، دائمًا، يحمل خيزرانةً أَثناء الاحتفالات الدينيّة، وكنتُ أَخشاه. وذات مرَّةٍ، قالت لي "كَونكَشا": "لديّ انطباعٌ بأَنّك لا تحبّ كثيرًا الأَب زادريما". فأَجبتها: "وكيف لي أَن أُحبَّه، والعصا دائمًا بيده "؟ فردّت: "مع ذلك عليك أَن تُحبَّه وتحترمه لأَنّه أحد كهنة يسوع المسيح"

ثمّ وافى لمساعدته الأَب "ستيپيان سيپتيس"، الذي تميّز بكونه إِداريًّا ممتازًا، وتولّى العناية بالأَولاد والشبّان. إلاّ أَنّه كان يصطدم بعائقٍ خطير متمثِّلٍ في عجزه عن التكلّم بالأَلبانيّة، فغدت "كَونكَشا" ترجمانه، ولاسيّمَا أَثناء دروس التعليم الدينيّ.

وكانت تُسهم بشَغَفٍ بكلّ نشاطات الرعيّة، وقد تعاظم ذلك الإِسهام بعد أَن انضمّ إِلى كهنة الرعيّة، عام ١٩٢٤، الأَب "فرانيو جامبريكوڤيش"، الذي كان له في تكوين شخصيّة من ستُصبح اَلأُمّ تيريزا، وتوجيه مصيرها، أَثرٌ بالغٌ؛ فقد كان منفتح الذهن، مولعًا بالتعلُّم، واسع الثقافة، مُعَلِّمًا بالفطرة، وفضلاً عن التثقيف الدينيّ، كان يُلقّن شباب الرعيّة معلوماتٍ في الحياة العمليّة، والطبّ، والإِلقاء، والعلوم، والموسيقى، ويزرع فيهم ولَع المطالعة. ولأَجل هذا الغَرَض زوَّد الرعيّة بمكتبةٍ زاخرةٍ، كانت "كَونكَشا" من أكثر رُوَّادها اندفاعًا وانتظامًا. فهي كانت قد ورثت عن والدتها حرصها على عدم هَدْر أَيّة ثانيةٍ من وقتها في فراغٍ وبيلٍ؛ فإِن هي لم تكن منصرفةً إِلى دروسها، أَو إِلى مساعدة زميلاتها في دروسهنّ، أَو مُنْهَمِكَةً في نشاطٍ اجتماعيٍّ، في إِطار الرعيّة الكنسيّة، كانت تستغرق بِكُلِّيَّتِهَا في مطالعة كتابٍ. ومن المؤلَّفات التي أَلهبت مشاعرها كتابُ "كوو ڤاديس" (Quo Vadis)، الذي يروي ملاحم بطولات اَلمَسيحيِّينَ الأَوّلين في مواجهة الاضطهادات. ويتحدَّث "لازار" عن تلك الحقبة، فيقول عن شقيقته الصغرى:

"الكنيسة! إِنّها أَخطر، لديها، من أَيّ أَمرٍ آخر... التراتيل الدينيّة، والقدّاس، وأَحاديث الرسالات كانت تكوّن عالمنا الصغير. طالما كان والدنا على قيد الحياة، كان منزلنا مشتلاً سياسيًّا. وإِثر غيابه، أَصبحنا نتغذّى بالإِيمان. أُمّي وأختاي كنَّ لا يعرفنَ الكَلَل طالما تعلّق الأَمر بإِطلاق نشاطاتٍ دينيَّةٍ أَو بتنظيمها".

وفي سبيل تطوير عمله التربويّ، أَسّس الأَب "جامبريكوڤيش" الأَخويّة المريميّة، واتّحاد الشبيبة الكاثوليكيّة، ومن أَهدافهما الرئيسة خدمة الفقراء، والسعي إِلى التمثُّل بالقدّيسين، وحبّ الرسالات؛ وكانت "كَونكَشا" من أُولى المنتميات إِليهما، وأَنشط العاملات في مجالهما.

لقد كان الأب "جامبريكوفيش" ينظّم احتفالاتٍ عديدةً، ولقاءاتٍ ثقافيّةً، وعروضًا مسرحيَّةً، وحفلاتٍ غنائيّةً لصالح مشاريع خيريّةٍ، ونزهاتٍ ورحلاتٍ، بحيث غدت الرعيّة للمراهقين مركز تأهيلٍ للحياة الاجتماعيّة والدينيّة، وبؤرة نشاطاتٍ متعدّدة الوجوه، كانت "كَونكَشا" وأختها الكبرى لولبَها، ولا سيّما أنّهما "شحرورتا" الرعيَّة.

وأَوْلى الأَبُ الرسالاتِ اهتمامًا خاصًّا، فدأَب على توزيع نشراتٍ تسرد مغامرات المرسلين، في البلاد النائية، ويدعو إِلى صلواتٍ من أَجلها، وجبوات مال، ولو متواضعةٍ، لمساعدتها. من خلال تلك النشرات كان المرسلون اليوغوسلافيّو الأَصل، يسترسلون في وصف نشاطاتهم ولا سيّما في الهند؛ وكانت "كَونكَشا" تلتهم تلك النشرات بنَهَمٍ، وتستقري، بشَغفٍ بالغٍ، أنباء الرسالات في أدقّ تفاصيلها. وإذا ما زار "سكوپيي" أحد أولئك المرسلين هرعت للاستماع إليه، وعيونها متألّقةٌ حماسًا، وتطرح عليه أسئلةً تروي ظمأها إلى معرفة المزيد.

في تلك الحقبة، كانت الرسالات تستأثر باهتمام المسيحيّين، بدفعٍ وتشجيعٍ من البابا بيوس الحادي عشر الذي كان رسوليّ القلب، والذي حرص، في أعقاب الحرب العالميّة الأولى، على استثارة مشاعر التآخي والتضامن بين الشعوب.

وقد استحوذت أنباء الرسالات على قلب "كَونكَشا" وذهنها، وذات يومٍ، قدم مُرسلٌ إلى "سكوپيي" ودُعي إلى إطلاع الرعيّة على ما يقوم به، هو وإخوانه، من نشاط، فبسطَ خريطةً تبيّن أهمّ مراكز الرسالات، واستوضح هل، بين الجمهور، من له عليها اطّلاع، فنهضت "كَونكَشا"، وأدهشت الجميع بدقّة استقرائها لأصغر التفاصيل، وإلمامها بشتّى شؤون الرسالات، وأماكنها، واختصاصاتها، ومختلف وجوهها. وقد اتّضح للجميع أنّها درست، بعنايةٍ وشغفٍ، النشرات التي كان يوزّعها الأب "جامبريكوفيش" عن الرسالات، ولا سيّما في منطقة البنغال الهنديّة، وفي كلكتّا على نحوٍ خاصّ.

هذا الكلَف بالرسالات ربّما كان هو الدافع الآخر الذي قادها بتؤدةٍ، ولكن بحزمٍ، نحو دعوتها؛ فقد أخذ حلم الرسالة، مذّاك، يداعب خيالها.

وباتت الرعيّة أسرةً ثانيةً لها، ودائرةً أُخرى، أوسع من دائرة البيت، وتعادلها أمانًا وحمايةً. وفي الرعيّة شرعت تتفتّح على الحياة الاجتماعيّة، وبرزت لديها ملكة الإدارة الحازمة، والسهر على أدقّ التفاصيل.

ويؤكّد قريبٌ لها، "لورينز أنتوني"، الذي كان لها رفيق دراسةٍ، وأصبح، فيما بعد، موسيقارًا ذائع الصيت، أنّه كان من الإعجاب بصوت قريبتَيْه "آكا وكَونكَشا" بحيث أسند إليهما أداء أوّل أغنيّةٍ لحّنها، وكانت بعنوان "على التلّة قرب البحيرة"، وذلك خلال حفلةٍ لصالح الفقراء؛ ويبوح "لورينز"، في هذا السياق، بذكرياته، فيقول:

"كنا ننظّم، كلّ شهرٍ، تقريبًا، احتفالاً من هذا النوع. وكانت كَونكَشا" دقيقةً في مواظبتها على التدريب، بل كانت، دائمًا، أولى الحاضرات، ودائمًا فرحةً. كانت تشترك، بانتظامٍ، في تظاهرات الشبيبة الكاثوليكيّة من إلقاءٍ، وغناءٍ، وموسيقى، وتمثيلٍ، وأمورٍ كثيرةٍ أُخرى. وأنا من علّمها العزف على الماندولينا. وكانت تتعلّم بسرعةٍ، وتتقن ما تتعلّمه.

"كان الجميع يحبّون التحلّق حولها، ولا سيّما الفتيات، فقد كانت، بالفطرة، إداريّةً، على غرار الأب جامبريكوڤيش"

وما انفكّ ذلك الموسيقار يحتفظ ببرنامج إحدى الحفلات، أشرفت "كَونكَشا" على إعداده. وهو يشهد بأنّها كانت طالبةً ممتازةً، لطيفةً مع الجميع، ومنفتحةً على أبناء الجماعات والديانات الأُخرى.

ومن ذكرياته أنّه كان يلقّن ثلاث فتياتٍ العزف، مجّاناً. ولكنّها، هي، وكانت في السابعة عشرة، قد حثّته على استيفاء دينارٍ من كلٍّ منهنّ، والتبرّع بما يحصل عليه، من هذا السبيل، لمساعدة الرسالات في الهند.

ويرسم "لازار" صورةً لشقيقته الصغرى في مراهقتها فيقول: **"كانت فتاةً عفويّةً، ولكن منطويةً بعض الشيء، ومع ذلك كان لها أصدقاء كُثرٌ، غالباً ما تذهب معهم، وما يأتون، هم، إلى منزلنا. منذ الصفوف الابتدائيّة، برزت مواهبها الدراسيّة، فكانت الأولى في صفّها، ومتأهّبةً أبداً لمساعدة رفيقاتها.**

"وأذكر أن كان لها صديقةٌ حميمةٌ هي ابنة الدكتور "ميليوكوڤيش". ومنذ صغرها فُتِنت بالشعر، فكانت تنظم القصائد وتتلوها على مسامع صُوَيْحباتها، اللاّئي كانت منفتحةً عليهنّ، في حين هي كانت خجولاً مع الرجال. وعلى أيّة حال، كانت اجتماعيّةً جدًّا، لا تقيم لدين الآخرين أو للغتهم أو لجنسيّتهم وزنًا.

"لم أسمعها قطّ تقولا "لا" لوالدَيْنا، وغالبًا ما كانت والدتي تحثّني على التمثّل

بها قائلةً: "احذُ حذوَ "كَونكَشا"، مع أنّها أصغر منك". كانت والدتي تقتضي منّا دائماً النظام والانضباط. وكان على كلٍّ منّا، نحن الثلاثة، بالتوالي، أن ينظّف، مساءً، أحذية الجميع. وغالباً ما كنتُ أرجو "كَونكَشا" أن تقوم بالمهمّة، عنّي، فتقول: "امضِ، يا أخي، سأفعل". وإن أنا ارتكبتُ ذنباً، لم تكن، قطّ، تبلّغ عنّي.

"ويتراءى لي أن شكوكاً كانت تساور أُمّي حول دعوة أختي الرهبانيّة، إذ كانت تردّد القول بأنّها لن تنعم طويلاً بصحبتها لأحد سببين: هشاشة صحّتها، ونزعتها إلى تكريس ذاتها للربّ. ولذلك كانت تؤثرها بحبّها، وعندما طلبها الربّ قدّمتها له طائعةً".

إنّ صور "كَونكَشا"، وهي في السابعة عشرة، تُبرز تحوّلاً واضحاً في ملامحها التي كانت، من قبلُ، ملامح طفلةٍ ممتلئةٍ صحّةً ومرحاً، فأمست ملامح فتاةٍ ناضجةٍ، مُصَمِّمةٍ، ينمّ نظرها المستقيم، الكثيف، عن الجدّ، وشدّة المراس، والإرادة الصلبة التي تُلامس العناد، طالما هي تأكّدت أنّها على السراط القويم. كما أنّها كانت تمتلك إحساسًا مُرهَفًا بالصداقة، ولا ترفض أبدًا مساعدة زميلةٍ لها على حلّ مسألةٍ مستعصيةٍ، بحيث غدت رفيقاتها يتقاطرنَ إلى منزلها كي تُساعدهنّ على فهمٍ أعمق لدروسهنّ. وفي تلك المرحلة، شرعت تُعلّم أَطفال رعيّتها مبادئ الإيمان المسيحيّ، وتأكّدت لديها، حينئذٍ، نزعةُ التعليم التي صرّحت، فيما بعد، عنها: "**إنّني أُحبّ التعليم فوق كلّ شيء**"

وجديرٌ بالتنويه أَنّ صفّها كان يضمّ فتياتٍ أُورثوذكسيّاتٍ ومسلماتٍ، ولكنّها لم تعهد، قطّ، تفرقةً عرقيّةً أو دينيّةً.

ويؤكّد أَخوها "لازار" أَنّها أَصبحت، في تلك السنّ، نشيطةً، ومليحة المحيًّا، وإن هي لم تُضاهِ شقيقتها الكبرى ذكاء ثَاقبًا، وشخصيّةً منيعةً، ولا جَرَم أَنّ كون شقيقتها بكرَ الأسرة قد أَسبغ عليها، ولا سِيَّمَا عقب وفاة والدها، مزيدًا من النضوج المبكّر، والشعور بالمسؤوليّة.

إلاّ أَنّ "كَونكَشا" قد أَخذت تنزع، هي أَيضًا، إلى إعمال الفكر بعمق، والاستغراق في التأمّل، وباتت المطالَعة تشغل مُعظم ساعات عُطَلِها، إلى أَن تشفق عليها والدتها، وتوعز إلى أُختها الكبرى بأَن تنتزعها من الكتب، وتمضي بها في نزهةٍ تروّح بها عن نفسها.

ومع ذلك، كانت مرحةً تحبّ الضحك، وضحكاتها صريحةٌ مدوّيةٌ. ولم تكن تَتَمَنَّع عن الغناء أَثناء الرحلات، إِرضاءً لأَترابها.

وكان كاثوليكيّو "سكوپيي" شديدي التعبُّد للعذراء، سيّدة "ليتنيسا" القريبة من مدينتهم، والقائمة على سفح "سيرنا غوري" أي "التلّة السوداء"، فينظِّمون، كلَّ سنةٍ، حجًّا إليها، وهم ينشدون: "على التلّة السوداء، ثمّة أُمّنا"؛ وفيما تنضمّ "درانا" إلى موكب الحجّ، سيرًا على قدميها، كانت ترسل أبناءها، في عربةٍ، إلى منزل أحد أصدقاء الأسرة، كان زوجها "كولي" قد ساعده في بنائه، فبات يضعه تحت تصرُّف أُسرة "بوياكشيو"، في تلك الفترة من الصَيف، حيث تنفق فيه شهر عطلةٍ، في عبثٍ، ونزهةٍ، وترويحٍ عن النفس، وتتزوّد، خلال تلك الفترة، بالمرَح والإشراق، لسنةٍ مُقبلةٍ كاملةٍ.

وكانت "كَونكَشا"، أثناء مراهقتها، هشَّة الصحّة، وغالبًا ما تتعرَّض لنوبات حمّى وسعالٍ حادّةٍ، ما كان يستثير قلق والدتها، التي دأَبت على اصطحاجها لزيارة سيّدة "ليتنيسا"، حتّى خارج موسم الحجّ، إلى أن أَبلَّت صغيرتها من علّتها، وامتلأت عافيةً ونشاطًا.

وكان ذووها يرسلونها، أثناء عطلاتها المدرسيّة، إلى بيت صديقٍ في الجبال، عسى أن ينعش الهواء النقيّ رئتيها الهشَّتين، فتقوى على مواجهة فصلٍ دراسيٍّ جديدٍ، أَو سنةٍ دراسيّةٍ أُخرى. وكانت تلك فسحات صمتٍ وتأمّلٍ، ومناجاةٍ لله، انبثقت من ثناياها فكرة تكريس ذاتها لله. إلاّ أَنّها احتفظت بتلك الرغبة سرًّا كتمته عن الجميع؛ ولو هي باحت به لاصطدمت بمعارضةٍ عنيدةٍ، أَقلَّه بحجّة هشاشة صحّتها التي لا تحتمل شظف العيش الرهبانيّ، فضلاً عن أَنّ ذويها كانوا يتوسَّمون لها مستقبلاً آخر تؤهّلها له ثقافتها، وجمالها، وقوّة شخصيّتها

وفي السابعة عشرة والثامنة عشرة من عمرها، باتت الفتاة تتلَّبث في "ليتنيسّا" نحو شهرٍ، بعد رجوع ذويها إلى "سكوپيي"، مسهمةً في النشاطات الكنسيّة، ومُعَمِّقةً التأمُّل في دعوتها. وكانت تقضي، أَمام تمثال السيّدة العذراء، ساعاتٍ طويلةً، متخشّعةً، متأمّلةً، معملةً الفكر في سكونٍ وهدوء.

وتعترف تلك التي أَمست الأُمّ تيريزا: "**لم أكن قد تجاوزتُ الثانية عشرة، عندما آنستُ، للمرَّة الأُولى، رغبةً في أَن أصبح مرسلةً. كنتُ، حينئذٍ، أَختلف إِلى مدرسةٍ غير كاثوليكيّةٍ، ولكن كان، في "سكوپيي" كهنةٌ طيّبون يساعدون الأَولاد – فتيانًا وفتياتٍ – على سلوك درب دعوتهم، وفقًا لنداء الربّ**".

لقد شرع حلم الدعوة الرسوليّة يتألّق في ضميرها مذْ شرعتْ تستقري أَخبار

الرسالات التي أَخذت من فؤادها كلّ مأخذٍ. وساعد على بلورة ذلك الحلم كلماتٌ قليلةٌ انغرست في نفسها، ونمتْ وأَينعتْ إِيمانًا ويقينًا بدعوة الربّ لها. من تلك الكلمات قول مُرْسَلٍ قادمٍ من الهند، في حديثٍ إِلى أَبناء الرعيّة أَعلن أَثناءَه: "لكلّ إِنسانٍ دربه الخاصّ، وعلَيه انتهاجه"، وقول القدّيس إِينياس دي لويّولا، الذي اتَّخذ منه الأب "جامبريكوڤيش" شعارًا لأَخويّة العذراء مريم: "**ماذا فعلتُ للمسيح؟ ماذا أَنا فاعلٌ للمسيح؟ ماذا سأَفعل للمسيح؟**"

بمثل هذه الأَقوال التي انغرست عميقًا في أَغوار كيانها، أَضرمت الأمّ تيريزا، فيما بعد، نفوس طالباتها في الهند، اللواتي أَمسينَ طليعة مساعداتها في العمل الرسوليّ.

سحابة ستّ سنوات ظلّت الفتاة تصلّي، وتتأمّل، وتُعمِل الفكرَ في مستقبلها ومصيرها. كانت الرسالة مستحوذةً على قلبها، غير أَنّ فكرة هجر ذويها للترهُّب لم تكن قد نضجت، فتستغرق في تساؤلٍ متَّصل، مُمِضٍّ؛ وفي حومة الشك تلتمس نُصْح أُمّها فتجيبها: "**إِن أَنتِ أَقدمتِ على مهمّة، فأَدّيها بفرحٍ، وامضي بها إِلى نهاية الشوط، أَو أَعرضي عنها**". والتمست، أَيضًا، نُصْح شقيقتها ورفيقاتها الحميمات اللواتي لم يُفلحنَ في تبديد حيرتها، وأَخيرًا استشارت مرشدها الروحيّ الأَب "جامبريكوڤيش": "كيف لي أَن أَعرف أَنّ الربّ يدعوني، وإِلى ما يدعوني؟" فأَجابها: "**ستعرفين ذلك من الفرح الداخليّ الذي ستؤنسينه. إِن أَشاعت فيك فكرة دعوة الله لخدمته فرحًا، فذلك دليل دعوته. إِنّ حبور القلب هو ضربٌ من البوصلة المرشدة إِلى الطريق الذي ينبغي انتهاجه في الحياة، حتّى لو كان ذلك الطريق مزروعًا بالمصاعب**"

كرَّةً أُخرى، يُقال لها إِنّ الفرح هو المعيار والدليل. والفرح المواكب تفكيرها بتكريس ذاتها للربّ كان في تعاظمٍ مطّرد. كان قد بدأ نفحةً رقيقةً، ولكنّه ما لبث أَن تحوّل توثُّباتٍ عارمةً، وكان يزداد اضطرامًا، كلّما استمعت إلى أَحد المرسلين يروي ما يقوم به، مع إِخوانه، في مضمار خدمة الربّ، عبر الفقراء. غير أَنّ أَيّامًا كانت تكرّ، يضمحلّ فيها كلّ أَثرٍ لذلك الفرح، الذي لا يلبث أَن يطفو على السطح من جديد.

ولكنّها عندما بلغت الثامنة عشرة، أَمسى نداء الدعوة من الإِلحاح بحيث بات لا بدّ من الاستجابة له، فلجأت إِلى العذراء مريم، خير المرشدين والهادين، وتواترت خلواتها في مزار سيّدة "ليتنيسا"، إِلى أَن أَشرق عليها نور اليقين، يوم عيد انتقال

السيّدة، في ١٥ آب ١٩٢٨، عندما جثت، وبيدها شمعةٌ مضاءةٌ، عند أَقدام تمثال العذراء الذي يُمثّلها خفيضة البصر، يكلّل شعرها تاجٌ مرصعٌ بأَحجارٍ حمراء وزرقاء، متلفّعةً بثوب أَبيض فضفاض، وبرداءٍ طويلٍ أَبيض، ذي حواشٍ زرقاء منسجمةٍ مع لون الزنّار. وفي ذلك المساء بدت ابتسامة العذراء أَرقّ عذوبةً، وبدا يسوع، على ذراعي أُمّه، وكأنّه في انتظار "كَونكَشا"، التي راحت تصلّي وترتّل برقّةٍ وحرارة.

وهي، إِذ تسترجع تلك الذكرى، تعترف: "**كان مساء عيد انتقال العذراء، وفي يدي شمعةٌ مُضاءةٌ. كنتُ أصلّي وأُرتّل، وأَفيض فرحًا داخليًّا. يومَها وطَّنتُ العَزْمَ على تكريس ذاتي، تكريسًا مطلقًا للرّبّ، من خلال الحياة الرهبانيّة... كانت تلك رغبةً كمينةً في نفسي منذ فترة... سيّدة "ليتنيسا" هي التي شفعتْ بي، وساعدتني على اكتشاف دعوتي**"

في ذلك المساء كان يمكن لمس فرحها لمسَ اليد.

الوداع

كان "لازار" قد ظفر بجائزةٍ أَهَّلته لنيل منحةٍ دراسيّةٍ في الكُلِّيَّة العسكريَّة في النمسا، وكانت مغادرته للمنزل صدمةً لوالدته.

ومن ثَمَّ، عندما أَفضت "كَونكَشا" لوالدتها بقرارها تكريس ذاتها للرّبّ، كان ذلك الإعلان بمثابة إِنذارٍ بفراقٍ آخر موجعٍ وأَبديٍّ؛ فارتسمت على وجهها، لوهلةٍ، أَمارات تأثّرٍ بليغٍ، ثمَّ قالت:

"**حسن، يا ابنتي، امضي في طريق دعوتك. ولكن حاولي أَن تهبي المسيح ذاتك بكُلِّيَتك**"

ثمَّ اختلت الوالدة في غرفةٍ موصدةٍ، أَربعًا وعشرين ساعةً، ولا ريب أَنّها بكت، وصلَّت، وجهدت في إِخماد صراعٍ أَليمٍ بين نزعتَينْ متنابذتَيْن: حزنها بسبب فراق صغيرتها، وفرحها برؤيتها مختارة الله، لخدمته. وعندما خرجت من خلوتها، كانت قد سيطرت على عواطفها، فشرعت تساعد ابنتها على انتهاج الخطوات الضروريّة لتنفيذ قرارها، وأَسدت إِليها نصيحتها الأَخيرة:

- "**ضعي يدك في يد الربّ، ولا تنأي عنه أَبدًا أَثناء مسيرتك**".

الصدمة الكبرى كانت من نصيب أَخيها "لازار"، الذي كان قد رُفّع إِلى رتبة ملازمٍ أَوّل، وعُيّن حامل سلاح الملك الجديد "أَحمد بك زوغ". فهو لم يستطع تخيُّل أَن تقدم على مثل هذا القرار فتاةٌ "على هذا القدر من الحيويّة، والجمال، والتلقائيّة، والخبث"، فكتب لها:

– "كيف يمكنك أَن تفكّري بالحياة الرهبانيّة؟ أَتدركين ما أَنتِ فاعلةٌ؟ وأَنّك تُضحّين بنفسك للأَبد، وتدفنين ذاتك؟"

وردَّت عليه بشيءٍ من "الخبث" الذي كان يصفها به:

– "**يبدو لك على جانبٍ كبيرٍ من الأَهمّيّة أَن تصبح ضابطًا في خدمة ملكٍ يسوس مليوني نسمةٍ. وها إِنّني، أَنا أَيضًا، ضابطةٌ، ولكن في خدمة ملك الكون، وأُؤكّد لك أَنّني لن أَحيد عن عزمي لا إِكرامًا لك، ولا لأَيٍّ كان. فمن منّا على حقّ؟**"

شخصٌ آخر أَحزنه قرارها، هو ابن عمّها الموسيقيّ، "لورينز أَنتوني"، الذي كان مغرمًا بها، في سرّه.

فيما بعد، باحت الأُمّ تيريزا: "**كنت راغبةً في أَن أُصبح مرسلةً. كنت راغبةً في الانطلاق، وإِعطاء العالَم حياة يسوع**". كانت متلهّفة لخدمة الله في منطقة البنغال الهنديّة، واستوضحت عن هويّة الراهبات العاملات في تلك المنطقة من العالم، فأخبرها الكهنة اليوغوسلافيّون الناشطون بالأَعمال الرسولية في البنغال، أَنّ الراهبات العاملات هناك ينتمينَ إِلى جمعيّةٍ إِيرلنديّةٍ، ويُدعينَ "راهبات لوريتو". فالتمست الانضمام إِليهنّ.

ذلك القرار كان يعني انفصالاً، مدى الحياة، عن أسرتها وموطنها. ففي ذلك العهد لم يكن يُسمَح لطلاّب الرهبنة أَو الكهنوت بزيارة ذويهم طالما كانوا في الدير. ولم يكن يسيرًا على الأَهل زيارة أَبنائهم أَو بناتهم، ولا سيّما إِن هم كانوا في مراكز رسالاتٍ نائية.

وهكذا كُتِب على "درانا" أَن تعيش، بعد فقدان زوجها، آلام فراقٍ مزدوجٍ. فقد كان ابنها "لازار" قد زار، للمرّة الأَخيرة، مسقط رأسه عام ١٩٢٤، أَربع سنواتٍ قبل أَن تمضي "كَونكَشا" في درب رسالتها. ثمّ عمل في "تيرانا"، عاصمة ألبانيا،بين ١٩٢٥ و١٩٢٩، وكان على "درانا" وابنتها الكبرى البقاء وحيدتَيْن في "سكوپيي"،

حتّى عام ١٩٣٢، حين التحقت "آكا" بأخيها في تيرانا، حيثُ عملت مترجمةً من الصربوكرواتيّة إِلى الأَلبانيّة، ثمَّ مذيعةً. وقد أَفلحت في إِقناع والدتها بالالتحاق بهما، فوافتهما عام ١٩٣٤، ويذكر "لازار" في هذا الشأن:

"**يوم انضمّت إِلينا الوالدة في تيرانا، لحظتُ أَنّها كانت سعيدةً جدًّا، لأَنّ شملنا التأم، ولأَنّ شقيقتي "كَونكَشا" قد أصبحت راهبةٌ، وكانت تراسلنا باطّراد، وتنفحنا، بصلواتها، دفعًا منيعًا. كذلك والدتي كانت تصلّي دائمًا: في الكنيسة، في المنزل، في الشارع، وما كانت المسبحة تبارح أَناملها**"

ولكن، عام ١٩٣٩، سافر "لازار" إِلى إِيطاليا، حيث اقترن بفتاةٍ إِيطاليّةٍ، واستقرَّ هناك حتّى وفاته عام ١٩٨١، وكُتِب على "درانا" أَلاّ تعود ترى، ما عاشت، لا ابنها الوحيد، ولا ابنتها الصغرى، فقد حظرت الحكومةُ الأَلبانيّة عليها وعلى ابنتها الكبرى مغادرة البلاد، وأَحكمت عليهما الطوْق. أَيُّ جرحٍ أَشرع ذلك في قلب الوالدة التي قدَّمت من التضحيات أَوجعها، وفي قلب ابنتها، الأمِّ تيريزا، التي نُسجت حياتها بالعناية بالمرضى، ومع ذلك لم تستطع العناية لا بأُمّها ولا بأُختها في أَحلك ساعات مرضهما ووحشة وحدتهما، رغم المساعي الحثيثة التي بذلتها على الصعيد الديبلوماسيّ العالميّ في سبيل إِخراجهما من أَلبانيا! وعندما تأكّد فشلها اعترفت لأَخيها "لازار" بأَسًى: "**طيلة حياتي، وبواسطة الحبّ، ظفرتُ بكلّ ما تمنَّيْتُ. ولكن، وا أسفاه، ما زالت، ثمّة، حواجز يعجز الحبّ عن تدميرها**"

وقد انتقلت "درانا" إِلى جوار ربّها، في الثاني عشر من تمّوز ١٩٧٢، وبعد سنتيْن لحقت بها ابنتها الكبرى.

قُضيَ الأَمر، إِذن، وأُعلن عن قبول "كَونكَشا" في جمعيّة راهبات سيّدة اللوريت. ولم يُدهش الأَمرُ أَبناء رعيّتها، فإِيمانها كان يُقرأ بجلاءٍ على محيَّاها، وافتتانها بالرسالات لم يكن سرًّا لأَحد. وقد حرص أَصدقاؤها على تكريمها بأَجمل وداعٍ، تعبيرًا لها عن تمنّياتهم ومحبّتهم، فنظّموا احتفالاً ما زالت نسخةٌ من برنامجه في ملفّات الرعيّة، وقد تضمّن الجزء الثاني منه "وداعًا مهدى لكَونكَشا بوياكشيو"

وعندما أَزف يوم السفَر، التأم، ساعةَ الغروب، كلُّ شبَّان الرعيّة في دار "درانا بوياكشيو" للتحدُّث، والغناء، وقضاء بضع ساعاتٍ أُخرى معًا. وكان لقاءً مؤثِّرًا وحزينًا ولا سيّما للوالدة.

ولا ريب أَنّ ذلك الوداع قد انطبع في أَعماق نفس ابن العمّ الموسيقيّ الذي دوّن في مذكّراته: "في ذلك المساء، الخامس والعشرين من أيلول ١٩٢٨، اجتمعنا، كلّنا، في منزل "كَونكَشا" لوداعها. وقد جاءها كلٌّ منّا بهديّةٍ، فهذا بقلمٍ، وذاك بكتابٍ، أَو بشيءٍ من هذا القبيل. وقد أَهديتُ إليها قلم حبرٍ ذهبيًّا استخدمتْه طويلاً. وكان الوداع في اليوم التالي، ٢٦ أيلول، فقدم جمهورٌ حاشدٌ لتشييعها، ضمّ أَطفالاً، وشبَّانًا، ورفاق دراسةٍ، ومعظم أَبناء الرعيّة. وكانت كلّ العيون شاخصةً إليها متسائلةً، بصمتٍ، ما عسى سيحلّ بتلك الفتاة الميمّمة شطر الهند، في تلك الأَرض الغريبة النائية؟

"وقد مضيتُ مسرعًا إِلى الكنيسة أَوّلاً، ثمَّ إِلى المحطَّة، حيث ابتَعْتُ ثلاث بطاقات (من أَجل درانا وابنتَيْها). ومع أَنّنا كنّا قد تواعدنا على أَلاّ يبكي أَحدٌ منّا، إِلاّ أَنّ الجميع كانوا، في المحطّة، يبكون، وهي، أَيضًا، كانت تبكي، وكدتُ أَبكي، بدوري، فقد كنتُ أَفقد قريبةً وصديقةً. وعندما أَذنت لحظة الوداع، شدّت على يدي بحرارةٍ، ولكنّني رددت عليها بوداعٍ فاترٍ، كي أُساعدها على تخطّي أَلم تلك اللحظة. وانطلق القطار، فيما كنّا، على الرصيف، نشير إِليها، بمناديلنا، مودّعين. ولم تكفّ، هي، عن إرسال إِشاراتٍ لنا حتّى توارت عن أَبصارنا. كانت الشمس تضيئها بأَشعّتها، وكأَنَّها قَمرٌ، يضمحلّ أَمام النهار الوليد، إِلى أَن غدت نقطةً لا تني تتضاءَل، وهي لا تني تشير بيدها، وتنأى. وأَخيرًا اختفت نهائيًّا، امَّحت مثل نجمةٍ في وهج الشمس".

وقد أَوردت مجلّة "الرسالات الكاثوليكيّة" الصادرة في زغرب، في عددها الأَخير لعام ١٩٢٨: "**كَونكَشا بوياكشيو" أَلبانيّةٌ من مواليد سكوبيي. وقد استحوذ عليها نداءُ الربّ أَثناء دراستها الثانويّة. وعلى غرار ما فعل، قديمًا، القدّيس بطرس الذي تخلّى عن شباك صيده، تخلّت عن كُتُبها، ومضت باسم الربّ، ما أَدهش الجميع، فقد كانت أُولى صفّها، وتتمتعّ بتقدير الجميع. لقد كانت روح النشاطات الكاثوليكيّة النسويَّة، والجوقة الرعويّة. وشاع انطباعٌ بأَنّ غيابها سيخلق فراغًا. في المحطَّة، وقت مغادرتها سكوبيي، كان نحو مئة شخصٍ قدموا لوداعها، وكانوا، جميعهم، متأثّرين، باكين...**"

الهدايا الوضيعة التي جاءَها بها أَصدقاؤُها، ربّما كانت ضئيلة القيمة، إِلاَّ أَنّها كانت تعبيرًا عن الإِعجاب والمحبّة، ولوعة الفراق. وقد دسَّتها "كَونكَشا" في حقيبتها، وكأَنّها قَبَسٌ من نار وطنها الحبيب، وشذىً من عطره.

وعندما ارتقت أَدراج القطار انتابها انطباعٌ بأَنّها تخطو خطواتها الأُولى صوب منفى لا عودة منه، ثمّ تقوقعت عند النافذة كي تتملّى، للمرَّة الأَخيرة، من مناظر أَليفة. واحترم صمتَها كلٌّ من أُمّها وأُختها اللتَيْن شيَّعتاها إِلى زغرب.

لقد كانت مندفعةً في درب دعوتها، ولكن شقَّت عليها التضحية بالسعادة الفيّاضة، والمحبّة الغامرة اللتين نعمت بهما في المنزل والجوار. غير أَنّ الدعوة تغلَّبت غلبةً لا رجعة فيها، لأَنَّها آثرت أَن تهب يسوع ذاتها كاملةً، من خلال المتألّمين. وهي بإِغفال ذاتها، حقَّقتها، عملاً بالتحوُّل الجوهريّ الخاصّ بالمسيحيّة الذي يتجلّى بالقيامة عبر الصليب، وبالحياة عبر الموت، بحيث يغتني المرء بقدر ما يبذل ذاته، ويؤكِّد ذاتَه بقدر ما يمَّحي.

الرحلة إِلى أَرض الرسالة

تلبَّثت "كَونكَشا" وأُمّها وأُختها في زغرب، حيثُ حللنَ في منزل صديقٍ للرّاحل "نيكولي بوياكشيو"، وأَنفقنَ الوقت في زيارة معالم المدينة، وإِنجاز العديد من معاملات السفَر؛ ولكنّهنَّ كنّ يلمسنَ انسياب الساعات سريعًا بين أَيديهنّ، فيجهدنَ في ترسيخ كلّ لحظةٍ منها لاكتناز ذكرياتٍ قد تكون زاد الأَيَّام المقبلة. كنّ يتحدَّثنَ ولا يمللنَ الحديث، ويستعرضنَ معًا شريطَ الأَيّام السالفة التي طوينَها معًا، متوقّفات، بنشوة، عند كلّ ذكرى مضيئةٍ أَنارت، حتّئذٍ، حياتهنّ، ودمغَتْها في الصميم. خاطرةٌ واحدةٌ كانت تطوف، سرًّا، بأَذهانهنّ جميعًا وتُؤَرّقهنَّ، ولكنهنَّ يتحاشينَ عن البوح بها: فربّما كانت تلك هي اللحظات الأَخيرة التي يتسنّى لشملهنَّ أَن يلتئم فيها، قبل أَن يأزف فراقٌ لا لقاءَ بعده.

وفي يوم الرحيل حضر بعض الأَصدقاء لمؤاساة الأمّ والفتاتين اللاّئي جهدنَ في ضبط النفس لجعل الفراق أَقلّ إِيلامًا. وظلّوا إِلى جانب "درانا" وابنتها الكبرى بعد أَن انطلق القطار مُغيِّبًا، إِلى الأَبد، على هذه الأَرض، عن عيونهما، وجه حبيبتهما التي استسلمت لوحدتها. واستهلّت الأمّ تيريزا رحلة مصيرها، على غرار الكثير من المسيرات العظيمة، بفراقٍ، بل بقطيعةٍ موجعة.

في زغرب، كانت قد انضمّت إِليها فتاةٌ يوغوسلافيَّةٌ أُخرى، تدعى "بيتيكا كينج"

كانت، هي أَيضًا، ميمّمةً شطر الهند، تحدوها نفس شعلة الرسالة، ونفس التوْق إِلى خدمة الله، من خلال المحرومين، وفي إِطار راهبات "لوريتو". فزجَّت الرفيقتان قسطًا من الوقت الطويل، ومن بضعة آلاف الكيلومترات التي كان عليهما اجتيازها، قبل بلوغ إِيرلندا، في تجاذب الأَحاديث عن حياة كلٍّ منهما، وتطلّعاتهما، وأَحلامهما، وفي الصلاة المشتركة.

وبعد أَن اجتاز القطار بالفتاتين النمسا فسويسرا، كانت محطّتهما الأُولى في باريس حيث استضافهما دير لراهبات "لوريتو"، وأَخضعتهما رئيستُه لامتحانٍ، تثبُّتًا من عمق إِيمانهما، ومن أَهليَّتهما لنمط العيش الذي كانتا تصبوان إِليه. ثمّ استقلّتا باخرةً عبر المانش إِلى دوفر في إِنكلترا، ومن ثمّ انطلقتا بالقطار، كرَّةً أُخرى، إِلى عاصمة إِيرلندا، دبلن، غاية المرحلة الأولى من رحلتهما؛ ورحَّبت بهما، على الرصيف، وبابتسامةٍ رقيقةٍ، الرئيسةُ العامّة، وراهبتان من جمعيّة سيّدة "لوريتو" ثمّ واكبنَهما، مباشرةً، إِلى المركز الرئيسيّ للجمعيّة في ضاحية "راثفارنهام" القريبة.

كانت قد أَسَّست تلك الجمعيّة الرهبانيّة "ميري ورد" البريطانيّة، التي وُلدت في نهاية القرن السادس عشر، والتي قال فيها البابا بيّوس الثاني عشر، بعد نحو قرنين ونصف القرن، إِنّها "امرأةٌ منقطعة النظير". وقد نُقِشتْ على لحدها هذه العبارة: "المثابرة في حبّ الفقراء، والعيش والموت والقيامة معهم كانت هدف "ميري ورد". طيلة حياتها، حدَتْها الرغبةُ في أَن تتولّى النساءُ، في الكنيسة، قدرًا أكبر من النشاط، وفي أَن تخرج الراهبات من حصونهنّ، للعمل في خدمة الآخرين، باهتمامهنّ بأَعمال المحبّة، وبتثقيف الفقراء. ولهذا الغرض أَسَّست "معهد العذراء الطوباويّة مريم". وكانت تلك التطلُّعات، في ذلك العهد، بمثابة ثورةٍ، وسابقةً لمفهوم العصر، فناضلت "ميري ورد"، بجرأَةٍ وثباتٍ، كي تستميل الآخرين إِلى مشاركتها حدْسها وقناعاتها، إِلى أَن تُوفّيت عام ١٦٤٥، وهي في الستّين من العمر، قبل أَن تتمكّن من إِنماء جمعيَّتها. لا بل إِنّ البابا "أوربان الثامن" قد أوقف نشاط تلك الجمعيّة بضع سنوات. غير أَنّ طائفةً من مواطنيها، في مسقط رأسها، "يورك"، حيث وُلدتْ وقضت نحبها، ظلّوا أَوفياء للمعهد الذي أَسَّسته، واستعادوا الشعلة التي أَضرمتها، فعهدت الجمعيّة انطلاقتها الحقّة، بعد وفاة مؤسِّستها، وبعد أَن صادق عليها الفاتيكان عام ١٧٠٣؛ وهي الآن مبثوثةٌ في اثنين وعشرين بلدًا في القارّات الخمس، وتعدّ نحو عشرة آلاف راهبة.

وقد صرّح أَحد الكرادلة: "أَعتبر واجبًا تذكير المعاهد الرهبانيّة النسويّة، في العالم أَجمع، بأَنّ وجود هذه الجمعيّات العاملة، اليوم، في مضمار التربية، وفي أعمال محبّة القريب، لم يكن ممكنًا إِلاّ بفضل حدْس "ميري ورد" السامي، وعنادها البطوليّ، وآلامها. لقد خاضت نضالاً حتّى تخوم هزيمةٍ ظاهرةٍ، أَعقبها النصر. إِنّ الجمعيّات مدينةٌ، في المقام الأَوّل، بعدَ مؤسّسيها، إِلى "ميري ورد".

وقد قيل أَيضًا: "لا يمكن تفسير الأمّ تيريزا إِلاّ عبر ميري ورد".

مبادئ الجمعيّة التي أَسَّستها "ميري ورد" مُستمَدَّةٌ من "التمارين الروحيّة" للقدّيس "إينياس دي لويّولا" التي قامت عليها الجمعيّة اليسوعيّة، والمرتكزة على الرغبة في عيش حياةٍ روحيّةٍ كثيفةٍ، والإِيمان بأَنّ المسيحيّ الحقّ هو الذي يولي المسيح كلّ ثقته، ويناضل في سبيل "مجد الله الأَعظم"، ضدّ أَعداء الله، وضدّ الذات، في المقام الأَوّل، بانتهاج الزهد، والتجرُّد، والواقعيّة، وبالتقيُّد بنظامٍ منضبطٍ دقيق لا خَلَل فيه.

وكان المنعطف المصيريّ لتلك الجمعيّة، لا بل تأسيسها الثاني، عام ١٨٢١، حين أَنشأت الأُمّ "تيريزا بلّ" مركزًا هامًّا في ضاحية دبلن، "راثفارنهام"، وأَطلقت عليه اسم "دير لوريتو"، تيمُّنًا بما دُعي "بيت لوريتو" في إِيطاليا الذي كان يُعتَقَد أَنّه بيت العذراء، ومذّاك باتت أُولئك الراهبات يُعرفنَ باسم "السيّدات الإِيرلنديّات"، أَو "راهبات لوريتو". هذا الاسم أُطلق على معظم فروع الجمعيّة في العالم، حتّى بعد أن انتقل مركزها الرئيسيّ إِلى روما. وكان هدف تلك الجمعيَّة الأَساسيّ تعليم الفتيات، من الصفوف الابتدائيّة حتّى الجامعة، وإِعداد طالباتهنّ لدور الرسالة العلمانيّة.

عقب عناء سفرٍ شاقٍّ، وما خالط فراق الأَهل والوطن من توتُّرٍ، قضت "كَونكَشا" ستّة أَسابيع في دير "راثفارنهام" الرحب، وسط راهباتٍ وقوراتٍ لم يكن لهنّ سبيلٌ إِلى مخاطبتها إِلاّ بابتسامة إِشفاق؛ ولا ريب أَن استبدَّ بها الحنينُ إِلى الأَحبّة الذين باتت تفصلها عنهم ثلاثة آلاف كيلومترٍ. كان عليها، رغم كلّ شيءٍ، مواجهة حياةٍ جديدةٍ، ولو مؤقّتةٍ، ولغةٍ جديدةٍ، وعادات مختلفةٍ، وصعوبةٍ في التفاهم، في حين كان قلبها وذهنها يفيضان بالتساؤلات.

للوهلة الأُولى تولّد لدى رئيسة الدير انطباعٌ بأَنّ الطالبة القادمة من سكوپيي، "ضئيلة الجسم، صموتٌ، وخجولٌ"، وتساءلت هل هي ستقوى على تحمُّل ما ستقتضيه

منها حياة الرهبنة من جهْدٍ ونَصَبٍ. غير أَنّ ما شفع بالفتاة هو اندفاعها، وشجاعتها وإِقدامها الجادّ والجَلود على التأَقلم مع نمط الحياة الرهبانيّة، من قداديس، وصلواتٍ طويلةٍ، جماعيَّةٍ وفرديّةٍ، ومشاغل يدويّةٍ، ودروسٍ، وفسحةٍ. وقد برهنت عن طاقة تكيُّفٍ فائقةٍ، مع أَنَّها لم تمتلك، في الأَيّام الأُولى، من ذريعةٍ للتّفاهم مع الأَخوات، سوى الإِشارات. وقد أقبلت على تعلّم الإِنكليزيّة في نَهَمٍ وجدٍّ، بعد أَن تبيَّنت أَنَّ تعلُّمها ضرورةٌ قصوى، فهي اللغة التي تبنّتها الجمعيّة للتّفاهم بين أعضائها، ولاستيعاب روحانيّتها. ولم تمضِ بضعة أَسابيع، حتّى باتت تمتلك من مبادئ الإِنكليزيّة ما أَتاح لرئيساتها تلقينها تاريخ جمعيّتها الجديدة.

ولا ريب أَنّ تلك الأسابيع الستّة التي قضتها في "راثفارنهام"، بما واكبها من ضبطٍ للنفس وللأعصاب، قد رسَّخ لديها الخصلة التي ستسِم عمل الأُمّ تيريزا بين ظهراني البؤساء، والمتألّمين، أَلا وهي البكاء باطنيًّا، والابتسام ظاهريًّا. لقد أَثبتت أَنّها، رغم هزالها، تمتلك من صلابة النفس ما يؤَهِّلها لتكون راهبةً صالحة.

أَثناء محطّتها الإِيرلنديّة تزوّدت بالوثائق اللازمة للهجرة إِلى الهند التي كانت ما تزال مستعمرةً بريطانيّةً. وفي الأَوّل من كانون الأَوّل استقلّت الباخرة "مارشا" التي كان عليها الانتهاء بها إِلى غاية رحلتها، برفقة مواطنتها اليوغوسلاڤية "بيتيكا"، وثلاث راهباتٍ فرنسيسكانيّات. وقد اصطحبت كُتبًا عن الهند من شأنها إِشباع فضولها إِلى معرفة ما كانت تودّ الاطّلاع عليه، بشأن بلادٍ هي، لها، "أَرض الأحلام"، صفحةٌ بيضاءٌ حيثُ كلّ شيءٍ ممكنٌ، وكلّ شيءٍ يتعيّن عمله. كان عليها التوغّل، بصبرٍ، في معرفة موطنها الجديد، الحافل بكلّ أَنماط الأَراضي والمناظر والأَقوام، بلادٍ تجمع، على امتداد نحو ثلاثة ملايين كيلومترٍ، كلّ شيءٍ: أَشمخ الجبال في العالم، متمثّلةً بالهمالايا في الشمال، والسهول الفسيحة، والتلال المتمادية في الوسط، ترويها سبعة أنهرٍ مقدّسة. وفي كلّ مكانٍ، صحارى وغاباتٌ. والسكان معظمهم قرويّون، ينتمون، أَصلاً، إِلى ثلاث قوميّاتٍ رئيسةٍ، انبثقت منها مئات الطوائف، تتكلّم أَربع عشرة لغةً رسميّةً ومئات اللهجات المحلّيّة، وتنادي بخليطٍ عجيبٍ من الديانات والبدَع الجاهدة في إبراز مميّزاتها، إِلاّ أَنّها منصهرةٌ في بوتقةٍ مشتركةٍ من الأساطير والتقاليد؛ تعدّديّة تنقلب اندماجًا مدهشًا أَحيانًا. ففي أَماكن

عامّةٍ، لا بل في مراكز دينيّةٍ هندوسيّةٍ، كثيرًا ما تُشاهد، إلى جانب صُوَر الآلهة الهندوسيّة، صُوَرٌ لقلب يسوع، أو للقدّيس فرنسيس الأسّيزي اللذيْن يتعبّد لهما بعض الهندوسيين، تعبّدهم لآلهتهم.

ففي تلك الحقبة التي وافت، فيها، الفتاةُ الهندَ، كان نحو ثمانين بالمئة من السكّان هندوسيّين مغرقين في شتّى ضروب العبادات، من غير أيّ مظهرٍ من مظاهر التعصّب. ففي الهند، آنذاك، كلٌّ يُصلّي لمن يشاء، وحين يشاء، وحيثما يشاء. براكين التعصُّب العنيف التي أثارها تقسيم البلاد، تمهيدًا لاستقلالها، كانت ما برحت هامدةً. إلاّ أنّ اهتمام الفتاة الماضية في درب رسالتها لم يكن معنيًّا بالهندوسيّة، ولا بنظام الطبقات، ولا بالسياسة، بل كان منصبًّا على وضع الكنيسة، والفقراء، في الهند.

الرحلة بالباخرة كانت طويلةً وشاقّةً، وكانت الفتاتان والراهبات الثلاث يزجّين قسطًا وافرًا من الوقت المتمادي، في تلاوة المسبحة، وإنشاد التراتيل؛ بيد أنّ ما نغّص عليهنّ رحلتهنّ، كان عدم وجود كاهنٍ يزوّدهنّ، يوميًّا، بالغذاء الإلهيِّ؛ فلم يُتَح لهنّ التناول إلاّ في محطّة بورسعيد؛ وكان حرمانهنّ الإفخارستيَّا قاسيًا، على نحوٍ خاصٍّ، يومَ عيد الميلاد، فجهدنَ للتعويض، جزئيًّا، عنه، بإقامة مغارةٍ من ورقٍ، في حجرة إحداهنّ، وأمامها انتصبْنَ يُصلّينَ، ويُنشدنَ، ساعاتٍ طويلةً، إلى أن شاع لديهنّ الشعور بحضور يسوع في قلوبهنّ، وفي ثنايا الليل المرصّع بالنجوم، وفي روعة أمواج البحر المتلألئة.

يومَيْن بعد عيد الميلاد، أرست الباخرة "مارشا" في مرفأ كولومبو، حيث كان ينتظرهنّ شقيق إحدى الراهبات، اصطحبهنّ إلى كنيسةٍ في المدينة، حيثُ قدَّمْنَ صلوات الشكر قبل أن يستضيفهنّ في منزله. وفي تلك المحطَّة، وقعت نواظر القادمات، على مظاهر- سيألفنَها في الهند قريبًا - ولكنّها، آنذاك، بجدّتها وغرابتها، استثارت منهنّ كلّ دهشةٍ واستغرابٍ.

وقد عبّرت "كَونكَشا" عن انطباعاتها من خلال مقالٍ نُشر في مجلّة الرسالات الكاثوليكيّة، مبرزةً دهشتها من تجاور الأوروبيّين الأنيقين، والمُلَوَّنين المرتدين أسمالاً مزركشةً، "هؤلاء شبه عراة، وجلودهم وشعورهم تلتمع تحت أشعّة الشمس. من الجليّ أنّهم بائسون جدًّا". غير أنّ أكثر ما استثار شفقة القادمات الجديدات أولئك

الرجال المساكين الذين يجرّون عربات ركّابٍ، ويقومون، في ذلك، مقام أَحصنةٍ. وقد عزمنَ على التنكُّب عن استخدام وسائل النقل تلك، غير أَنّ مضيفهنَّ، الذي كان قد أَلِفَ العادات المحلّيّة، كان قد اتّخذ قرارًا مخالفًا، لأنّ منزله كان بعيدًا، فاضطررنَ إِلى استقلال تلك العربات البشريّة، وهنّ يتوسَّلنَ الربَّ أَن يجعل حملهنَّ خفيفًا لكيلا يبهظنَ السائق. وكم تنفَّسنَ الصعَداء، عندما انتهينَ إِلى غايتهنّ، وانحدرنَ من العربة!

مساءَ اليوم التالي استأنفنَ رحلتهنَّ، واستعدنَ أَماكنهنَّ على متن الباخرة "مارشا" حيثُ كانت مفاجأةٌ سارَّةٌ بانتظارهنّ، فقد انضمّ إِليهنّ كاهنٌ يسوعيٌّ، وبفضله، بات بإِمكانهنّ الاحتفال، يوميًّا، بالقدّاس الإِلهيّ، ما أَسبغ على هذه المرحلة من رحلتهنّ عذوبةً وبهجةً. وقد راقبنَ، بصمتٍ، غروب عام ١٩٢٨، ولكنّهنَّ، استقبلنَ اليوم الأَوّل من العام الجديد بقدّاسٍ مُرتَّلٍ. ومساءَ ذلك اليوم عينه، أَرست "مارشا" في مرفأ "مدراس". ومنذُ النظرة الأُولى تجلّى للقادمات مدى فقر المدينة الذي ازداد وضوحًا، عندما انحدرنَ في الغداة إِلى اليابسة وتجوّلنَ في الشوارع.

وهكذا، مذ وطئت أَرض الهند، أَدركت "كَونكَشا" أَنّها لم تؤمّ الهند في سياحةٍ روحيّةٍ، وأَنّ ما ينتظرها ليس بلدًا مدهشًا بمناظره، وتقاليده الغريبة، بل قومٌ من لحمٍ ودمٍ يتأَلّمون في ظروفٍ يجهلها الغربيّون. فقد تأَثّرت بالبؤس المفرط الذي صَدَمها، كَما يتَّضح من تقريرها حيثُ دوَّنت: "**أُسَرٌ عديدةٌ تعيش في الشوارع؛ القوم يقضون أَيّامهم ولياليهم في العراء، على أَرضٍ فُرشتْ بأَوراق النخيل أَحيانًا، وغالبًا على أَرضٍ عارية. إِنّهم شبه عراةٍ، وفي أَحسن الأَحوال يتكوَّن لباسهم من أَسمالٍ مشدودةٍ على أَحقائهم، يحُوّطون معاصمهم وأَرجلهم بأساور رقيقة جدًّا، ويزيّنون أُنوفهم وآذانهم بنوعٍ من الحليّ. جباههم مدموغةٌ بشارةٍ ذات مدلولٍ دينيٍّ. وقد طالعَنا، لدى اجتيازنا أَحدَ الشوارع، مَنْظَر أُسرةٍ متحلّقةٍ حول ميتٍ ملفوفٍ بأَسمالٍ حمراء زريّةٍ، وجسده مغطّى بزهورٍ صفراء، فيما انتشرت على وجهه خطوطٌ متعدّدة الأَلوان. إِنّه لمنظرٌ مريعٌ! لو تسنّت لمواطنينا مطالعةُ هذه المشاهد، لكفّوا عن التشكّي من منغِّصاتٍ تافهةٍ، ولشكروا للربّ كرمه عليهم... إِنّ القوم هنا يعيشون في فقرٍ مُدقعٍ، لا يُفلح المرسلون في القضاء عليه**".

وفي السادس من كانون الثاني ١٩٢٩، غادرت "مارشا" البحر، وولجت أَحد

روافد نهر الغانج المقدّس، واستغرقت القادماتُ في تأَمُّل البنغال، موطنهنّ الجديد، الذي يعجّ، في بعض جوانبه، بروعةٍ فذّة. هنا وهنالك، بيوتٌ جميلةٌ وأنيقةٌ، في حين تنتظم، تحت الأَشجار، صفوفٌ لا نهايةَ لها من الخيام.

في رسالةٍ إِلى مواطنيها كتبت "كَونكَشا": "... **عندما أَرست باخرتنا في كلكتّا، تلَوْنا، بصوتٍ واحدٍ، صلاةَ شكرٍ. كانت الراهبات الهنديّات في انتظارنا على الرصيف، وفي فرحٍ يستعصي على الوصف، وطئنا، للمرَّة الأولى، أَرض البنغال. نرجوكم أَن تصلّوا لكيَ نكون مرسلاتٍ صالحاتٍ وجريئاتٍ**".

الهند القصيّة أَصبحت لها واقعًا ماثلاً، وشعورها بالغربة بات يلطّفه وجودها بين ظهراني راهباتٍ ما برحت تجهلهنّ، يحملنَ جنسيّاتٍ مختلفةً عن جنسيّتها، إِلاّ أَنهنّ أَخواتٌ، أَخواتها.

والهند، التي غشتها، وهي في الثامنة عشرة من عمرها، ستغدو موطنها، وموطن رسالتها، الذي لن تغادره إِلاّ لجولاتٍ قصيرةٍ لافتتاح فروعٍ، في جميع أَرجاء المعمورة، للجمعيّة التي ستنشئها، في سبيل نشر تلك الرسالة.

المبتدئة

رسالة راهبات "لوريتو" في الهند كانت قد باشرتها اثنتا عشرة راهبةً إِيرلنديّةً عام ١٨٤١، وما فتئت، مُذّاك، تنمو وتُزوِّد أُلوف الأَطفال بالتربية الحميدة. أَطفال الأَغنياء يُعلَّمون لقاءَ أَجرٍ مجزٍ تُنفَق حصيلته على تربية أُلوف الأَطفال الفقراء والأَيتام، مجَّانًا.

وفي "لوريتوهاوس" بكلكتّا، لبثت "كَونكشا" ثمانية أَيَّامٍ، أَصابت خلالها شيئًا من الراحة في أَعقاب رحلةٍ طويلةٍ شاقَّةٍ؛ ولا ريب أَنّه لم يُتَحْ لها سوى استراق لمحةٍ عابرةٍ عن تلك المدينة الأُخطبوطيّة، التي ستُصبح "مدينتها" قبل أن تغدو، هي، تحت اسم الأُمّ تيريزا، أُخت العالَم أجمع.

"لوريتوهاوس" مركزٌ رائعٌ، أَنيقٌ، مشعٌّ بالبياض، وخضرة عشبه فسحةٌ للعين والخاطر. ولكن، من خلال ذلك الجمال الساجي، كانت الفتاة تتلقّى من الخارج بعض هبّات قَيْظٍ مُشبعٍ بالرطوبة، وأَصداء ضجيجٍ مُتَّصلٍ، ونفثات روائح عنيفةٍ مقزّزةٍ؛ وإِذا ما هي خرجت، راعتها كثافة الجموع المتدافعَة وكأَنّها تلاطم أَمواجِ اليمّ. بعد نحو

سنواتٍ ثلاث، ستُصبح هذه كلّها إطارًا لحياتها اليوميّة. أمّا الآن، وبعد أن وجدتها الأمّ الرئيسة مؤهّلةً للتوغّل في مجاهل الهند، أبلغتها وجوب التأهّب للمثول إلى "دارجيلينغ"، لقضاء فترة امتحانٍ، إن هي اجتازته بنجاحٍ، تأهّلت لمباشرة سنتَي ابتداء.

ستّ مئة كيلومترٍ تفصل كلكتّا عن "دارجيلينغ"، القابعة عند أقدام إحدى قمم الهيمالايا، والمتهادية على ارتفاعاتٍ متدرّجةٍ من ألفٍ وثماني مئة مترٍ حتّى ألفين ومئتي متر، المتميزّة بجمالٍ أخّاذٍ، والساحرة بسرّها، وعظمتها، ونسيمها الثلجيّ النقاء. ففوق غاباتها الجليلة، ووديانها المشمسة، تشمخ قمّة "كانشانجونكا"، المكلّلة بالثلوج الأبديّة، وكأنّها تسبح في الفضاء.

كان البريطانيّون قد أنشأوا، عام ١٨١٦، هذه المدينة التي اتّخذها حاكم البنغال وطاقم موظّفيه، والأُسَر الهنديّة الميسورة مصيفًا يلوذون إليه هربًا من قيظ الصيْف، ورطوبته الخانقة السائدين في كلكتّا، التي كانت، آنذاك، عاصمة الهند. وسرعانَ ما انشطرت "دار جيلينغ" إلى المدينة العليا الموقوفة على الإنكليز وحفنةٍ من الهنود المحظيّين، حيث الدارات الأنيقة، والحدائق الغنّاء، والترف من كلّ نوعٍ ولونٍ، فيما غُصّت المدينة السفلى بالبيوت الخشبيَّة الصغيرة، والأكواخ الزريّة، المبنيّة باللبن، والمزدحمة بقرويّين جبليّين متعدّدي الأجناس.

تلك المدينة، بجمالها وتناقضاتها، كانت للمُرسَلين تحدّيًا، إذا إنّها كانت تمثّل تخومًا لم يقتحمها أيُّ مُبَشّرٍ بملكوت الله، ولم تُسمَع فبها، قطّ، رنّات ناقوس كنيسةٍ، ولم يَلُحْ فيها أَثرٌ لمدرسةٍ مسيحيّةٍ، ولم يتسنَّ لسكّانها الجبليّين الخشنين الطيّبين سماع رواية بيت لحم والجلجلة.

إلاّ أنّ راهبات "لوريتو"، خمس سنوات بعد وصولهنّ إلى كلكتّا، كنّ متأهّباتٍ لمواجهة التحدّي. وعندما تلقّينَ دعواتٍ مُلحّةً لافتتاح مركزٍ لرسالتهنّ في "دارجيلينغ"، ومع ضآلة عددهنّ، استجبنَ للنداء، وظهرنَ على كلّ عائقٍ، وافتتحنَ، ثمّة، ديرًا يضمّ بيتًا ومدرسةً وكنيسةً. كنّ يعلّمنَ أبناء الأسر الميسورة في المدينة العليا، ثمّ يمضينَ إلى تدريس أبناء الأحياء السفلى ورعايتهم، وتسنّى للتّربية المسيحيَّة ترسيخ جذورها في تلك الأرض، وباتت أجراس كنيسةٍ تردّد، كلّ صباح أحدٍ، رنّاتها الفضيّة، في تلك الأجواء النقيّة.

وقد أصابت الراهبات من النجاح ما حملهنّ على افتتاح مركز ابتداءٍ لراهباتهنّ، في ذلك المكان الأخّاذ، فهو إطارٌ مثاليٌّ للحياة الداخليّة، وللانقطاع عن العالم، المطلوبَيْن من كلّ راغبٍ في اعتناق الحياة الرهبانيّة.

وكانت "كونكَشا" أوّل فتاةٍ ألبانيّةٍ تحطّ الرحال في "دارجيلينغ"، ملتمسةً التمرّس بما يقتضي منها الله، وقضت، ثمّة، ثمانيةً وعشرين شهرًا، عند أقدام قمم "إيـڤيريست"، فكانت لها تلك الفترة تدرّبًا على التصعيد في قمم الزهد والتجرّد، ومحبّة الله والقريب.

فترة الامتحان تلك امتدّت حتّى أواخر شهر أيّار، وفي غضونها، خضعت الفتاة للمراقبة عن كثبٍ، وللاختبار الدقيق، من أجل التحقّق من تحلّيها بالشروط الجسديّة والعمليّة، والأدبيّة، التي تستلزمها الحياة التي كانت تعتزم انتهاجها، ومن أهليّتها للدَّعوة، فالدعوة سرٌّ إلهيٌّ يتجلّى من خلال مواقف وخصالٍ خاصّةٍ.

وفي ٢٤ أيّار ١٩٢٩، باشرت ابتداءَها الذي امتدّ سنتين، تأهّبت أثناءَهما لنذورها المقبلة، نذور الطاعة، والتجرّد من الأهواء البشريّة، والزهد في المادّة، حتّى التنكّب عن امتلاك أيّ مبلغٍ ضئيلٍ من المال، وعن التعلّق بأيّ متاعٍ أرضيٍّ، ممَّا يهب حرّيّةً مطلقةً لتكريس الذات لله، ولخدمة القريب.

سنة الابتداء الأُولى كانت صارمةً ومرتكزةً على الاقتداء بيسوع، فترة تطهيرٍ للقلب وتعمّقٍ في الحياة الداخليّة، وتحقُّقٍ من صلابة الدعوة الرهبانيَّة، وتوافقٍ مع نهج الجمعيّة الخاصّ. وسحابة تلك السنة يُفرَض على الطالبة الانقطاع عن كلِّ مطالعةٍ أو اهتمامٍ يتّسمان بطابعٍ علمانيٍّ، والانصراف إلى الاستغراق في مطالعة الكتاب المقدَّس، والتعاليم الدينيّة، والقضايا اللاهوتيّة الأَساسيّة، والاطلاع على قوانين الجمعيّة، بل حفظها عن ظهر القلب. أمّا في السنة التالية، فيُضاف، إلى كلّ ذلك، التدرُّب على ما هو اختصاص الجمعيّة. وبما أنّ اختصاص راهبات "لوريتو" هو التعليم، فقد شرعت مبتدئتنا تدرّس كلّ يومٍ، مدى ساعتَيْن، في مدرسة القدّيسة تيريزا، متمرِّسةً بما سيكون شاغلها الأَساسيّ، الذي وقفت عليه سبع عشرة سنةً من عمرها، ألا وهو التدريس، فضلاً عن تأهُّبها للحصول على ديـپلوم في التدريس، يؤهّلها، خير تأهيلٍ، لتلك الرسالة التي كَلِفتْ بها. وأثناء فترة ابتدائها تمكّنت من اللغتين الإنكليزيّة والهنديّة، وشرعت تلمّ بالبنغاليّة.

وتُجمع شهادات رفيقاتها ومعلّمة الابتداء على أنّها كانت تتمتعّ بـاتّزانٍ محكَمٍ، وتتحلّى بالطاعة والتقوى، والذكاء والاستقامة، والبساطة والتواضع حتّى الامّحاء. وقد صرّحت إحدى رفيقاتها: "لقد كانت بسيطةً جدًّا. ولم يخامرنا، قطّ، الشكّ بأنّها قد تهجر، يومًا، "لوريتو". لقد كانت مبتدئةً صادقةً وتقيّةً".

أمّا زيّ الابتداء فهو ثوبٌ أبيض طويلٌ، تعلوه كتفيّة بيضاء تغطّي الصدر والظهر، ويشدّ الثوبَ زنّارٌ عريضٌ، فيما يحيط بالمحيّا وشاحٌ أبيض، ويغطّي الشعر غطاءٌ أبيض يُستبدَل بآخر أسود لدى إبراز الراهبة نذورها المؤبَّدة، فيما يُستبدَل ثوب الابتداء وكتفيّته بآخَريْن أسودَيْن، آن إبراز النذور المؤقّتة.

وإذا ما ترسّخت لدى المبتدئة القناعة بدعوتها، وتأكّد ذلك، أيضًا، لرئيساتها، دُعيت إلى إبراز نذورها. إلاّ أنَّ الكنيسة حَذِرةٌ جدًّا بشأن الدعوات، ومن ثمّ فهي تدعو إلى نذورٍ متدرّجةٍ، فلسنةٍ واحدةٍ في المرحلة الأولى، ثمّ لسنةٍ أُخرى، فلثلاث سنواتٍ، قبل الإقدام على نذورٍ نهائيّةٍ أبديّةٍ.

في ٢٥ أيّار ١٩٣١، أبرزت "كَونكَشا أنييس بوياكشيو" نذورها الأولى، وهي في الحادية والعشرين من عمرها. وتمّ ذلك في احتفالٍ يُحاكي الاحتفال بعرسٍ، إذ إنّ المبتدئة تكرّس ذاتها للمسيح، وتتعهَّد بالولاء له، وبإخلاصها لقوانين جمعيّتها. ووفقًا لتقاليد "لوريتو" تُعطى كلّ راهبةٍ، لدى إبرازها نذورها الأُولى، صليبًا تلبسه، على نحوٍ ظاهرٍ، فوق ثوبها، ثمّ، عندما هي تنذر النذور المؤبّدة، تُمنح خاتمًا تعد بالاحتفاظ به مدى الحياة. وقد ترأَّس الاحتفال بنذورها الأولى رئيس أساقفة كلكتّا، وقلَّدها بيده شارات الرهبنة.

ومن المألوف أن تُعلَن النذور، في أثناء القدّاس، فتتعهّد الناذرة، من أجل مجد الله الأعظم وتقديس نفسها، التقيّد الوفيّ بنذور العفّة والفقر والطاعة، وكذلك بسائر مقتضيات جمعيّتها، ملتمسةً عون السماء وصلوات أخواتها. وبذلك تُصبح كائنًا مُكَرَّسًا، وتولد لحياةٍ جديدةٍ، فتخلع الإنسان العتيق، وتلبس الإنسان الجديد، وغالبًا ما ترمز إلى ذلك بانتحالها اسمًا جديدًا تكون قد اختارته، تعبيرًا عن رغبتها في التمثُّل بأحد القدّيسين، أو بإحدى القدّيسات.

وكانت "كَونكَشا" قد شُغِفتْ بمثال القدّيسة تيريزا الطفل يسوع، التي أُعلنَتْ

قداستُها عام ١٩٢٥، أَي قبل ستّ سنوات فقط. تلك الفتاة التي اعتنقتْ الحياة الرهبانيّة الكرمليّة في الخامسة عشرة من عمرها، وكانت تُلهبها نارٌ مضطرمةٌ لخدمة الله، وتتحرَّق للمضيّ، في دروب الرسالة، إِلى "هانوي"، غير أَنّ السلّ قصف غصنها اليانع، وهيِ لم تتعدَّ، بعدُ، الأَربع والعشرين ربيعًا. لم تحفل حياتها الخاطفة بالخوارق، بل كانت مغرقةً في التواضع والبساطة والاستغراق في الله، وصرّحت: "**أوثر رتابة التضحية الخفيّة على جميع الانخطافات**". كانت تتمنّى أَن تعيش عدّة حيواتٍ، كي تخدم الكنيسة بكلّ الوسائل الممكنة، ولكنّها عندما أَدركت أَنّ الحبّ هو كلّ شيءٍ، اختارت أَن تكون حبًّا، وأَن تخدم، بالحبّ، في صمت حصنها الكرمليّ وخفيته. فقد استوحت الإِنجيل، وتغلغلت إِلى أَغواره، حتّى توطّدت لديها القناعة بأَنّ "**الحبّ ينطوي على جميع الدعوات**"، فكتبت: « **حينئذٍ تملَّكني الفرح فهتفت: "يا يسوع، حُبّي، أخيرًا اكتشفت دعوتي، دعوتي هي الحبّ؛ في قلب الكنيسة، أُمّي، سأكون حبًّا، وحينئذٍ سأكون كلّ شيءٍ. دربي الصغير هو درب الطفولة الروحيّة، طريق الثقة والاستسلام المطلق بين يدي الله**". »

ولا عجَب إِن أَعلنتها الكنيسة، مع القدّيس "فرانسوا كزافييه" شفيعَي الرسالات في العالم.

على غرارها لم تطمح مبتدئتنا في أكثر من عيش الحبّ في طاعة رئيساتها، عيشةَ راهبةٍ بسيطة، فحياتها منتظمةٌ في سبيل خدمة الله. لا هي، ولا أَحد سواها، كان يتوقّع، آنذاك، أَن تطير في غير سربها، وأَن تؤَسّس إِحدى أكبر الجمعيّات الرهبانيّة في تاريخ الكنيسة.

وجوه مُحاكاةٍ عديدةٌ تبرز بين كلٍّ من طفولة القدّيسة تيريزا والأُمّ تيريزا، ونشأتهما وتطلّعاتهما. غير أَنّ هذه يحدوها العقل والواقعيّة في حين كانت القدّيسة الصغيرة عاطفةً مشبوبةً، وقد كُتب للأمّ تيريزا من طول العمر ما أَتاح لها تحقيق أَغلى أَحلام القدّيسة تيريز في الرسالة، وتجسيدها واقعًا تخطّى أَجرأ الأَحلام.

لا بِدْعَ، إِذن، إِن انتحلت الراهبة اليوغوسلافيّة الأَصل، لحياتها الجديدة، اسم الراهبة الفرنسيّة القدّيسة؛ وكانت تُجيب كلّ من التبس عليهم أَمر انتمائها إِلى تيريزا الكبرى، الإِسبانيّة الأَصل، المعروفة بالأَڤيلاّويّة، الصوفيّة العظمى، التي أَصلحت

الرهبانيّة الكرمليّة، أو إِلى تيريز الصغيرة، المولودة في "ليزيو"، مؤكِّدة أَنَّها إِنّما اختارت اسم "تيريزا" تيمُّنًا بالقدّيسة تيريز الصغيرة، تيريز الطفل يسوع.

وبمناسبة مباشرتها حياةً مكرَّسةً للربّ، أَنفذت الراهبة الجديدة إِلى عمّتها "ماريّا" جدَّة الموسيقيّ "لورنز أَنتوني"، رسالةً تفيض حبورًا، وأَرفقت بها صورةً لها دوّنت على ظهرها: "**عمّتي الحبيبة، إِنّني بخيرٍ وصحّة جيّدة، أَبعث إِليك بهذه الصورة، ذكرىً لأَعظم يومٍ في حياتي، يوم وهبتُ ذاتي، كُلّيّةً، للمسيح. مع تمنّيات ابنتك "كَونكَشا" تيريزا الطفل يسوع**"

كم تمنّت، في ذلك اليوم الفريد، أَن تكون أُمُّها وأُختها إِلى جانبها! إِنّ "سكوپيي" بعيدةٌ، قصيَّةٌ، بيد أَنّها كانت واثقةً من أَنَّ صلواتهما كانت تُواكبها.

وقد التقى، آنذاك، بها وبزميلتها اليوغوسلافيّة "بيتيكا"، التي كانت قد أَصبحت الأخت "ماري مادلين"، المرسل اليسوعيّ اليوغوسلاڤيّ المولد، "يانيش أودڤيك"، فكتب إِلى "زغرب" قائلاً: "إِنّهما، حقًّا، سعيدتان وفرحتان. إِنّ ما تبدوان عليه من عافيةٍ يدهشني. إِنّهما تتقنان الإِنكليزيّة والهنديّة، وهما تتعلّمان البنغالية"

وتنمّ الصورة المأخوذة للأخت تيريزا، في تلك الفترة، عن فتاةٍ سعيدةٍ حقًّا، منسجمةٍ مع ذاتها، ولا أَثر في محيّاها لشكٍّ أَو لتوتُّرٍ. إِنَّها ما برحت في الواحدة والعشرين من عمرها، ولكنّها تبدو كمن انتهى إِلى بلاد أَحلامه.

وبمثابة امتدادٍ عمليٍّ لابتدائها، انتُدبت الأُخت تيريزا للعمل في مستوصفٍ تائهٍ في غابات البنغال، على بُعد مئة كيلومترٍ من "دارجيلينغ"؛ بيد أَنّ الانتقال من المُثُل إِلى الواقع كان قاسيًا، فالمستوصف بدائيٌّ، وهو بمثابة تخشيبةٍ قائمةٍ على عُمُدٍ، تفاديًا لأَضرار الفيضانات، ووقايةً من الرطوبة. في صدْر أحد جانبيْه غُرَف الأَخَوات، وفي الوسط قاعة الطعام، والمطبخ، وقاعةٌ تُستخدم كمصلّى. وفي الجانب الآخر، ردهةٌ لاستقبال السقماء، والعناية بهم، وحُجرةٌ أُخرى لإِيواء بعض المرضى. تلك الظروف الزريّة لم تُرعب الراهبة الجديدة، بيد أَنّ معايشتها لبؤس الآخرين وآلامهم هزّت كيانها؛ ورؤيتها ازدحامهم في سبيل الظَّفَر ببعض عقاقير لا تتناسب وخطورة أَسقامهم، أَحزنتها في الصميم، وقد آلمها، فوق كلّ ذلك، ما يتخبّطون فيه من جهل.

كلَّ صباحٍ، كانت تتأمَّل صورةً للمخلّص مُحاطًا بالمتألّمين، الذين بهظت

كواهلَهم مآسي الوجود، تزيّن الجدار، ومنها تستمدّ العزيمة والأَمل. فهي، عندما تفتح باب الشرفة، وينبسط أَمامها مشهد أَنماطٍ شتّى من البؤس البشريّ، وتشاهد الأمّهات اللواتي أَتينَها بأَبنائهنّ السقماء، وحدّقت فيها أَبصارُهنّ المثقلة بالرجاء، وكأَنّهنّ نفس الأُمّهات اللائي كنّ يجرين نحو يسوع، على نحو ما توحي به الصورة المعلَّقة على الحائط، تستحوذ عليها مشاعر ملتهبةٌ، فتهتف: "**هذا المشهد يوجز كل ما يراودني من مشاعر، يا يسوع، من أَجلك، ومن أجل النفوس، بوسعي مواصلة عملك، يا يسوع الطيّب، بوسعي تخفيف آلامٍ كثيرةٍ. إنّني أُواسي وأُعالج، وأكرّر أَقوال أَخلص صديقٍ للنفوس؛ وأَمضي ببعض الأَشخاص إِلى الكنيسة. أَيُّ فرحٍ في رؤية أُولئك العائدين إِلى الإِيمان، خاشعين في حضرة سيّد الحبّ!**".

وكانت النسوة يبحنَ لها بأَسرارهنّ، فهذه تعترف بأَنّها قدمت متخطِّيةً معارضة زوجها الذي لا يُؤْمن بقدرة أَحدٍ على العلاج، سوى حلاّق القرية؛ وكثيرون لا يقدمون إِلى المستوصف إلاّ بعد أَن يكونوا قد فقدوا كل أَملٍ في المُداوين المحلّيّين. وتلك جماعةٌ تؤكّد لها: "إِنّنا قادمون من "بيلقيراس" يا أُمَّ المسيحيين. البؤس هو الذي دفعنا إِلى التماس إِحسانك، وحبّك، وعطفك"

وفي تقريرٍ كتبته لمجلّة "الرسالات الكاثوليكيّة"، نُشر في عدد تشرين الثاني ١٩٣١ يتجلّى ما كانت تجابهه من ضروب المعاناة، وما كان يتجاذبها من مزيج فرحٍ وإِحباطٍ، حيث تقول:

"**كثيرون يقدمون إِلينا من بعيدٍ، عقب مسيرة أكثر من ثلاث ساعات؛ بعضهم تغشى القروحُ أَجسادهم من أَخمص القدم حتّى قمّة الرأس، والدمامل تُحدثُ حُفَرًا أَو كُتلاً في ظهورهم. عديدون هم الذين أَقعدهم في منازلهم الوهَن والحمّيات الاستوائيّة؛ أَحدهم في مرحلة السلّ الأخيرة، فعلينا أَن ننفذ له العقاقير والنصائح الضّروريّة مع قريبٍ له، استطاع المجيء إِلى المستوصف. ولكن علينا أَن نكرّر، ثلاث مرّاتٍ، طريقة استخدام العلاج، وأَن نجيب، مرّاتٍ، على السؤال عينه. فالقوم على جهلٍ مريعٍ.**

"**هوذا رجلٌ ربع القامة يقرع الباب، له لحيةٌ سوداءُ طويلةٌ، وأَنفٌ أَفطس. عيناه تلمعان، وهو يغمز غمزةً ماكرةً، ويضحك، مرَحًا، تحت شاربيه المشرئبَّين. إِنّه ليس في حاجةٍ إِلى شيءٍ، ولكنَّ زوجته الفتيّة الفاتنةَ تشكو من**

وجعٍ في أُذنيْها. فأشرت لهــا بــالجلوس علــى منــضدة العمليّــات لتنظيــف أُذنَيْهــا المحتاجتَين، منذ زمنٍ طويلٍ، إلــى غــسل. والمنــضدة بــسيطة جــدًّا: إنّهــا مجــرّد صندوقٍ تلقَّينا في داخله هباتٍ للمركز. ومع أنّ الجلوس عليــه مــن اليُــسر بمكــانٍ، إلاَّ أنّ تلك البغلة لا تعرف كيف تقفــز وتجلــس عليــه، بــل تظــلّ واقفــةً أمامــه، مرتاعةً، وكأنّها أمام وحشٍ مرعــبٍ، ترفــع تــارةً رجلهــا اليُمنــى، وتــارةً رجلهــا اليُسرى... ولا أكفّ أُردّد أنّ عليهــا الجلــوس فــوق الــصندوق، لا وضــع قــدميها عليه، ولكن بلا جدوى، فهي عاجزةٌ عن حــلّ تلــك المــشكلة المستعــصية، إلــى أن تدخَّل رجلٌ شيخٌ جاءَ فجلس على الــصندوق وقــال لهــا: "افعلــي هكــذا". إنّ تلــك المرأَة لم تكن قد جلست، قطّ، على أَعلى من الحــضيض. فــي تلــك الأَثنــاء، كانــت نــسوةٌ مقرفــصاتٌ ينتظــرنَ، بلهفــةٍ، دور أَبنــائهنّ. وأَيّ قلــبٍ والــديٍّ لا يقلــق! فظهــور الــصغار مغطّــاة بــدمامل بحجــم قبــضة اليــد، أَقــصُّها، وأَعــصرهَا، وأُضمّدها... أَمامي عملٌ كثيرٌ. بعد قليلٍ، تصل امــرأةٌ مكــسورة الــذراع، ثــمّ غــلامٌ تلقّى ضربة مديةٍ، أَثناء شجارٍ، وأَخيــرًا رجــلٌ يحمــل رزمــةً يتــدلّى منْهــا، مثــل غصنين يابسين، ساقا طفلٍ... الطفل مفــرط الــوهن، ولــن يلبــث أَن ينتهــي إلــى العالم الآخر، فأُسارع بالإتيان بالماء المقدّس.. ويخــشى الرجــل أَن نــرفض الطفــل فيُنذر: "إِن لم تأخذوه، أَنتم، لقذفتُ به، في مكانٍ مــا، بــين الأَعــشاب، ولــستُ أَظــنّ أَنّ بنات آوى ستزدري فريسةً كهذه". وانقــبض قلبــي. يــا للطّفــل المــسكين! إنّــه هزيلٌ، وأَعمى عمىً كاملاً. آخذه في حــضني بإشــفاقٍ وحــبٍّ. وهــا إنّ الطفــل قــد وجد أمًّا ثانيةً. "كلُّ من استقبل طفلاً مثل هــؤلاء الــصغار، فهــو يــستقبلني"، هكــذا قال صديق الأَطفال الإلهيّ. وبذلك يُتوَّج نهاري".

إنّ تلك التي لن يكون لها، يومًا، ابنٌ من لحمها ودمها، ستصبح أُمًّــا لعــشرات أُلوف المحرومين.

رغم المتاعب والمصاعب، تحبّ الأخت تيريزا عملها هذا، فآلام الآخرين تنفــذ إلى أَغوار نفسها. وقلبُها، في مواجهة تلك الآلام، يكتسب قوّةً واتّساعًا، ولكأَنَّ ذلــك المستوصف هو المشتل الذي نبت فيه مستقبلها، ونمت مُثُلُها: خدمة أَفقر الفقــراء، حتّى التضحية التامّة.

ولكن ما كادت تقضي سنةً في ذلك المركز الطبّيّ حتّى أَمرتها رئيستها بالعودة إِلى "دار جيلينغ" حيثُ أُبلغت أَنّها ستمثل إِلى كلكتّا لإِتمام تخصُّصها في مهنة التعليم، كي تدرّس، فيما بعد، التاريخ والجغرافيا، لفتيات المدينة الميسورات. ما الذي حمل رئيساتها على هذا القرار؟ أَهي هشاشة صحّتها، أَم رقّة مشاعرها، أَم ما توسَّمنَ فيها من مواهب تعليميّة؟ أَيًّا كان الدافع، خضعت الأخت تيريزا للأمر. أَوَ لم يكن الأَب "جامبريكوڤيش" قد أَعلمها أَنّ كلّ شيءٍ يمرّ عبر التربية؟ أَوَلم تشهد، هي ذاتها، من خلال عملها في المستوصف، مآسي الجهل؟ فليكن التدريس، إِذن.

معلِّمةٌ في بلاد غاندي

لقد شقّ على الأخت تيريزا مغادرة المستوصف الذي أَخذتْ تُؤنس فيه ارتياحًا لشروعها بتحقيق أَحلامها الرسوليَّة. وللمرَّة الأولى، هزّتها صدمة وجوب الانصياع لإِرادةٍ خارجيَّة. ولكنّها، وقد نذرت الطاعة، كانت مقتنعة بأَنّ مشيئة الله تتجلّى من خلال أَوامر الروَساء. وقد تحدَّثت، فيما بعد، عن الطاعة إِلى راهباتها، فقالت: "**قد يُخطئ الرؤَساء عندما يأمرون، ولكنّنا لا نستطيع أَن نخطئ عندما نطيع**". وها هي ذي، في كلكتّا، معلّمةٌ وطالبةٌ معًا، تنهض بكلتا المهمَّتَيْن بنفس القدر من الجدّ والاندفاع. فهي تواصل الدراسة تمهيدًا للحصول على ديپلوم في التدريس، وفي آنٍ واحدٍ، تدرّس الصغار، فالتدريس هو رسالة راهبات "لوريتو"، اللواتي أَنشأنَ، إِلى جانبِ ديرهنّ، في "لوريتوهاوس" مدرستَيْن، إِحداهما دُعيت مدرسة "لوريتو أَنيتالي" و"أَنيتالي" هو اسم الحيّ الواقع فيه بناء "لوريتوهاوس"؛ أَمّا الأُخرى، فهي "مدرسة القدّيسة مريم"، وهي مدرسةٌ داخليّةٌ تضمّ نحو ثلاث مئةٍ من بنات البريطانيّين، أَو بنات الأُسر الهنديّة الميسورة، لقاء أُجورٍ مجزيةٍ تمكّن من المُضيّ قُدُمًا في تعليم طالبات المدرسة المجّانيَّة. أَمّا مستوى التعليم فهو واحدٌ، ورفيعٌ، في كلتا المدرستَيْن، وتضطلع به راهباتٌ، بحيث كانت المتخرّجات من معاهد "لوريتو" يُعدَدْن من نخبة المثقَّفات، وقد تبوَّأْنَ، فيما بعد، أَرقى المناصب، في الهند المستقلّة. أَمّا معايير التدريس في "لوريتو"، فهي تستهدف تثقيف العقل، والقلب، والخلق، في آنٍ واحدٍ، على نحو ما يتّضح من شعار المدرسة: "تولى عنايةٌ ساهرةٌ ودقيقةٌ لتربية الطالبات الأَخلاقيّة، بحيث تتمرَّس

القلوب من الفضيلة، من غير أَن ينال ذلك، في شيءٍ، من الجهود الرامية إِلى إغناء العقل، وتوسيع آفاقه. وتُرْصَد طباع الطالبات بعنايةٍ فائقة، ويُلَقَّنَّ إِصلاح أَخطائهنّ بإِعمال الفكر، ويُثقَّفْنَ، شيئًا فشيئًا، على عادات الانضباط والنظام".

غير أَنّ الأُخت تيريزا لم تدرّس، بادئ الأَمر، في أَيّةٍ من تَيْنك المدرستَيْن، بل انتُدبت لمدرسةٍ فقيرةٍ، بعيدةٍ عن الديْر، تدعى مدرسة القدّيسة تيريزا، كانت تسلك إِليها، كلَّ صباحٍ، دربًا طويلاً، يُتيح لها الوقوف على نماذج البؤس المختلفة، المنتشرة في المدينة. ولنستمعَ إِليها تتحدَّث عن لقائها الأَوّل بطلاّبها:

"عندما شاهدني الأَطفال، راحوا يتساءَلون هل أنا روحٌ شرّيرٌ، أَو إِلهةٌ، فهم لا يعرفون، بين هذه وذاك، احتمالاً آخر. من عاملهم بطيبةٍ، عبدوه عبادة الآلهة، في حين هم يخشون، خشيتَهم الشيطان، كلَّ من يقف منهم موقفًا جافيًا، ويقتصرون على احترامه".

وكم دُهِش أُولئك الأَحداث عندما شاهدوا معلّمتهم الجديدة تشمّر عن ساعديها، وتزيح المناضد والمقاعد، وتتناول دلو ماءٍ ومكنسةً وفرشاةً، وتعكف على تنظيف البلاط. فمثل هذه الأَعمال، في الهند، لا يضطلع بها سوى أَبناء الطبقات الدنيا. هذا الأسلوب في مباشرة الدروس أَدهشهم، ولا سيّما أَنّ المعلّمة الجديدة مشرقة المحيَّا، باشّة الأَسارير، تشعّ فرحًا؛ وتقول الأُخت تيريزا: **"لمّا رأَوا منّي ذلك، أَخذت الفتيات في مساعدتي، فيما كان صبيانٌ وبناتٌ يمضون ويجيئون بدلاء الماء. واقتضى الأَمر ساعتَيْن للفراغ من تنظيف الردهة الطويلة المقسومة إِلى خمسة صفوفٍ".**

كُلّفت الأُخت تيريزا، أَوَّلاً، بالعناية باثنين وخمسين طالبًا، سرعان ما ارتقى عددهم إِلى ثلاث مئةٍ؛ ثمّ انتُدبت إِلى مدرسةٍ أُخرى تضمّ مئتيْ طفل، بدت لها "اصطبلاً" أكثر منها مدرسةً؛ فإِلى مدرسةٍ ثالثةٍ كانت، في الواقع، ملعبًا مكشوفًا، وقد قالت فيها:

"عندما عاينتُ أَين يرقُد الأَطفال ويأكلون، هُصر قلبي، إِذ يستحيل الوقوف على بؤسٍ أَعمق من هذا. ومع ذلك هم فرحون. يا للطُّفولة السعيدة! وعندما تعارفنا راحوا يطفرون فرحًا، ويغنّون من حولي، إِلى أَن وضعتُ يدي على كلٍّ من تلك الرؤوس القذرة. ومنذ ذلك اليوم باتوا ينادونني "ما"، أَي "أُمَّاه".

وكم دهشت الأُخت تيريزا عندما شرعت الأمّهات يأتينَها بأَولادهنّ كي تباركهم؛ وأَدركتْ، حينئذٍ، أَنّ الرسالات تقتضي التأَهُّب لكلّ شيءٍ، حتّى للمباركة!

ولم تقتصر مهامّ الأُخت تيريزا، آنذاك، على التدريس، فعلى حدّ ما كتبَتْ: "فضلاً عن المدرسة، عليّ العناية بعددٍ كبيرٍ من المرضى، ومساعدة عشر أَخواتٍ في دراستهنّ، بالإضافة إلى الامتحانات الجامعيّة" التي كان عليها الإعداد لها. كانت الأَيّام تتصرَّم قصيرةً، سريعةً، كثيفةً، ومع ذلك كانت الأخت تيريزا تقف أَيَّام الآحاد، المفروضة أن تكون أَيَّام راحتها، على زيارة الفقراء في مدن الصفيح، فتعالج مرضاهم، وتساعد الأُسَر على تنظيف منازلها وترتيبها؛ وقد اعترفت، بهذا الشأن:

"**ليس لديّ ما أُغيثهم به، ولكنّني سأَبثّ السرور في قلوبهم. في المرَّة الأَخيرة كان، ثمَّة، لا أَقلّ من عشرين طفلاً ينتظرون بفارغ صبر "ما"، أُمَّهم. ولمّا شاهدوني، هرعوا إِليّ وهم يقفزون حَجْلاً. اثنتا عشرة أُسرةً كانت تقيم في ذلك المكان، بحيث ينحصر نصيب كلّ أُسرة بحجرةٍ طولها متران، وعرضها مترٌ ونصف**". الأُخت تيريزا، مع ضآلة حجمها، كانت تلقى مشقَّةً في ولوج تلك الأَكواخ، بسبب ضيق أَبوابها المفرط، ومشقَّةً أكبر في الوقوف بسبب انخفاض أَسقُفها، ومع ذلك كانت تلك "الجحور" تُكرى بأُجورٍ تبهظ كواهل أُولئك القوم الفقراء. ذلك السكن الضنك فسَّر لها ولَع الأَطفال بالمدرسة. ولكن من أكثر ما أَذهلها عدد المصدورين الذي لا يُصدَّق.

تلك الزيارات كانت تُدخل إِلى نفسها، في آنٍ واحدٍ، الحزن لما تقف عليه من ضُروب البؤس، والفرح، من جرّاء ما يُشيعه حضورها من بهجةٍ، ولا سيّما عندما كان القوم يودّعونها بالقول: "**ما**"، **أُمّاه، عودي إِلينا، فبسمتك قد جعلت الشمس تُشرق في منزلنا**".

في طريق عودتها كانت تحدّث نفسها قائلةً: "**يا إِلهي. ما أَيسر إِسعادهم! هبني، ربّي، القوَّة كي أكون، دائمًا، نور حياتهم، فأَستطيع أَن أَقودهم إِليك!**"

أُمنيَّتها هذه قد تحقّقت، بعد سنواتٍ، إِلى أَبعد ممّا تطاولت إِليه أَحلامها.

الحبّ الصادق الدافئ كان ذريعتها لتعليم أُولئك الأَطفال المساكين، وغزو

قلوبهم. وقد اتَّفق أَن زار مدرستها، يومًا، أَحد البريطانيّين، وكاد يختنق من جرّاء تكدّس ثلاث مئةٍ وخمسةٍ وسبعين طالبًا في قاعتين. بيد أَنّ ما أَذهله هو الصمت المطبق الذي كان يسود المكان، فسأَلها:

– "أَيّ قصاصٍ تستخدمين لفرض مثل هذا الصمت؟

– "**إِنّ القصاص الأَجدى هو إِعراضي عن النظر إِليهم، وتركهم يعملون ما يشاؤون، من غير إِبداء أَيّ اكتراثٍ بهم. حينئذٍ يُدركون أَنّهم أَغضبوني. فعلامَ ضربهم؟ حسبُهم ما يتلقّون في بيوتهم من ضربات!**"

– "لا ريب أنّهم يحبّونك حبًّا جمًّا. فأنت تحبّينهم، وهم قد أَدركوا ذلك!"

وهذا ما أَكّده، بأُسلوبه الخاصّ، أَحد طلاّبها الصغار، كما يتّضح من روايتها: "**هذا ما حدث قُبَيْل إِبرازي نذوري المؤبّدة. فقد جاءني، يومًا، طفلٌ شاحب اللون، حزينًا، مستوضحًا هل أعود إِليهم، لأَنّه علم أَنّني سأُصبح "أُمًّا". ثمّ شرع ينتحب، ومن خلال دموعه قال "أَرجوكِ، لا تصيري أُمًّا". فشددته إِلى صدري وسأَلته: "هل، ثمّة، ما يضايقك يا صغيري؟ لا تخف. فسأَعود وسأَظلّ لكم "ما". وفي الحال عاد الطفل يضحك، وانطلق، فرحًا، يقفز في الملعب**".

صحيحٌ أَنّ التدريس كان من أَحلام حداثتها، واتّضح لها أَنّه، في مثل مدرسة القدّيسة تيريزا، كان شاقًّا، بيد أَنّها مارسته باندفاع، وبهوىً مضطرمٍ، كان يلهيها، ويوسّع آفاق قلبهما.

ثماني سنواتٍ كانت قد كرّت سراعًا في العمل والصلاة والخدمة، مذ هي غادرت مسقط رأسها "سكوبيي"؛ وفي تلك الأَثناء كانت قد أَبرزت نذورًا لسنةٍ ثانيةٍ، ثمّ نذورًا لثلاث سنواتٍ، وأَذنت ساعة تكريس ذاتها للربّ، نهائيًّا، بنذورٍ مؤبَّدةٍ، أَبرزتها في "دارجيلينغ" بتاريخ ٢٤ أَيّار ١٩٣٧، في أَعقاب خلوةٍ روحيّةٍ، أَمضتها في أَحضان تلك التلال المتاخمة للسَّماء.

أَحد الإِكلريكيّين اليوغوسلافيّين شهد الاحتفال بنذور الأخت تيريزا، فكتب إِلى الأَب "جامبريكوفيش"، والدها الروحيّ: "ها أَنذا عائدٌ من كنيسة رعيّة "دارجيلينغ"، وهي، في آنٍ واحدٍ، مُصلّى الدير الذي نذرتْ فيه للتَّوّ مرسلتانا الأوليان، الأخت تيريزا بوياكشيو، والأخت ماري مادلين نذورهما المؤبَّدة. إِنّهما تبدوان سعيدتَيْن جدًّا.

وقد أَسهمتَ، أَنتَ شخصيًّا، في هذه السعادة، إِذ بفضلك استطاعت الأُخت تيريزا المجيء إِلى الهند".

ولدى عودتها إِلى كلكتّا عُيّنت الأُخت تيريزا مديرةً للدُّروس في مدرسة القدّيسة مريم، ما ينهض دليلاً على أَنّ رئيساتها كنّ يقدّرنَ مواهبها، ومدى تآلفها الفذّ مع المشاعر الهنديّة. وسرعان ما شُغفت بها تلميذاتها الهنديّات اللاّئي بتنَ يدعونها "الأُخت تيريزا البنغاليّة"؛ فهي كانت تتكلّم لغتهنّ بطلاقة. وقد كُلّفت، أَيضًا، بتدريس التاريخ والجغرافيا، وبالطبع تاريخ الهند وجغرافيّتها. ولا ريب أَنّ تدريس تَيْنك المادّتين لطالباتٍ هنديّاتٍ، كان مهمّةً موغلةً في الدقَّة، فالهند، وحدَها، بحجم قارّةٍ كاملةٍ، والتغيُّرات السياسيّة الجوهريّة المتلاحقة التي كانت تتفاعل، من جرّاء نضال الهند في سبيل استقلالها، بقيادة المهاتما غاندي وبوحيه، لم تكن الأُخت تيريزا واقفةً على كلّ تفاصيلها، بسبب اعتكافها في ديرها، وعدم اهتمامها بشؤون السياسة، وستنقضي سنواتٌ طويلةٌ قبل أَن تزور الأمّ تيريزا الكثير من أَماكن العالم التي كانت تُلقي، على طالباتها، دروسًا نظريَّةً عنها. وربّما هي ارتبكت، أَحيانًا، عندما كانت طالباتها يتطلّبن إِجاباتٍ دقيقةً في أُمورٍ سياسيّةٍ غابت عن ذهنها؛ إِلاّ أَنّهن، مع ذلك، كنّ يقدّرنَ دروسها تقديرًا عاليًا، ويُحبِبْنَ شخصيّتها، فهي تحسن فهمهنّ، فيما توحي لهنّ سكينةُ نفسها الثقة والاطمئنان.

ولا بِدْعَ في ذلك، فالأخت تيريزا، عقبَ إِقامتها تسعَ سنوات في الهند، كانت قد تمكَّنت من عدّة لغاتٍ ولهجاتٍ هنديّةٍ، وأَلمّت بتشابك الإِثنيّات، والجماعات، والطوائف والطبقات في الهند، وكَلِفت بذلك الشعب الحارّ، المتديّن حتّى الوقوع في حبائل الخزعبلات، ولمست العلاقة الوثيقة بين الهنديّ وأَرضه.

وفضلاً عن التدريس، كانت الأُخت تيريزا مشرفةً على أَخويّة "بنات مريم" التي تضمّ عددًا من طالباتها الأَثيرات، وقد صادفت هذه المهمّة من نفسها رضًى واندفاعًا، إِذ ذكّرتها بالأَخويّة المماثلة التي كانت، هي، من نشيطاتها في مسقط رأسها "سكوبيي". وكانت تحثّ طالباتها أُولئك على ترجمة قناعاتهنّ إِلى عملٍ ملموسٍ في خدمة الأَكثر فقرًا وأَلمًا، وتدفعهنّ إِلى النهوض بما تحول مشاغلُها وواجباتُها الرهبانيّة دون الانصراف إِليه، في مجال الخدمة، فتهيب بهنّ إِلى زيارة المستشفيات، وإغداق حبّهنّ على المحرومين والمعذّبين الذين تغصّ بهم تلك المؤسَّسات، ومواقع

البؤس الأُخرى، أَمثال مجمّع "موتي جهيل"، المنبسط على بُعد خطواتٍ من "لوريتوهاوس"، والعاجّ بشتّى ضروب الشقاء.

كانت تدعوهنّ إِلى إِشاعة البسمة حيثما مضَيْنَ، ولا تني تنصحهنّ، بلا هوادةٍ: "ابتسمنَ بعضُكنّ لبعض". وكانت طالباتها يُطلعنَها على مساعيهنّ وأَسرارهنّ، ويبوح لها بعضهنّ برغبتهنّ في اعتناق حياة الرهبنة، وقد غدت كثيراتٌ منهنّ، فيما بعد، من رائدات مُساعداتها، في جمعيَّة مرسلات المحبّة التي ستؤسّسها.

ولا نتخيَّلَنَّ أَنّ الحياة التي اندفعت في تيّارها الأخت تيريزا كانت سهلةً: فعليها، كلَّ يومٍ، الإِعداد للدّروس، وتصحيح الوظائف، ومراقبة الطالبات عن كثَبٍ، بالإِضافة إِلى مقتضيات حياة الجمعيّة الرهبانيّة، والطقوس والصلوات، والنشاطات الاجتماعيّة. رتابة تلك الحياة وازدحامها، لم تكن تقطعهما سوى فترة الرياضة الروحيّة، أو الخلوة السنويّة، ولا يمكّن من مزاولتهما سوى العلاقة الحميمة بالله. فمثل ذلك الدأب المتّصل، والمتكرّر كلّ يومٍ، بلا هوادة، في بذلٍ مجّانيٍّ لا ينضب له معينٌ، لا يتسنّى إِلاّ لنفوسٍ وهبت الله كلَّ ذاتها، نفوسٍ تتغذّى، كلّ صباحٍ، بجسد يسوع ودمه، وتودع بين يديه، كَلّ مساءٍ، متاعبها وهمومها، أَفراحها ونجاحاتها، ما يُسبغ عليها سكينةً وفرحًا، رغم كلّ شيءٍ. لقد كَلِفتْ الأُخت تيريزا أَبدًا بالتدريس، وأَصابت في ميدانه نجاحًا دعَّمته قدرتها على توثيق علاقاتٍ حميمةٍ مع طالباتها، ولا بِدْعَ إِن هي عُيِّنت مديرةً عامّةً للدّروس، في مدرستي "لوريتوهاوس" كلتيْهما، وكُلِّفتْ، أَيضًا، بتثقيف "بنات القدّيسة حنّة" اللواتي يُمثِّلنَ فرعًا بنغاليًّا لراهبات "لوريتو". فهنّ فتياتٌ هنديَّاتٌ راغباتٌ في اعتناق نظام تلك الرهبنة، ولكنّهنّ يلقينَ مشقَّةً في التوافق مع تقاليد "السيّدات الإِيرلنديّات"، فاختير لهنّ زيٌّ خاصٌّ أكثر محاكاةً للسّاري الهنديّ، وتُركتْ لهنّ حرّيّة الجلوس والرقاد فوق حصيرٍ على الحضيض، واستخدام أَصابعهنّ في تناول الطعام. وربُّما خُيِّل للأُخت تيريزا أَنّ ما انتهت إِليه من نجاحٍ ومركزٍ، من شأنه أَن يُثلج صدر أُمّها، فكتبت لها: "**أُمّي الحبيبة، يؤلمني أَلاّ أكون معكم، ولكن اسعدي، أُمّاه، لأَنّ صغيرتك كونكَشا سعيدةٌ. فمركزنا جميلٌ، وأَنا أُدرّس فيه، والتدريس يروق لي. إِنّني مديرة المدرسة كلّها، والجميع يحبّونني**". كانت تتوخّى تسريب البهجة إِلى قلب والدتها، ولكنّ تلك المرأة المُشبَعة بروح الإِنجيل أَنفذت إِلى ابنتها ردًّا جاء فيه:

"ابنتي الحبيبة، لا يغربنّ عن بالك، أَنّك إِن كنت قد شخصت إِلى بلادٍ نائيةٍ، فإِنّما كان ذلك من أَجل خدمة الفقراء. هل تذكرين "فيليَا"؟ إِنّ القروح تغطّي جسمها، غير أَنّ ما يقضّ مضجعها، فوق كلّ شيءٍ، هو كونها وحيدةً في العالم. إِنّنا نفعل ما نستطيع لمساعدتها، ولكن، من المحقّق أَنّ الأسوأ ليس في القروح، بل في الشعور بتخلّي الأقربين". بحزمٍ، ذكَّرت "درانا" ابنتها الراهبة أَنّ هدفها، من اعتناق الحياة الرهبانيّة، كان تكريس حياتها لخدمة البائسين، ولكنّها لا تبدو ماضيةً في هذا الدرب. لا ريب أَنّ ساعة "الأُمّ تيريزا" لم تكن قد أَذنت بعد، وأَنّ الربّ لم يكن، بعدُ، قد دفعها في السبيل الذي اختاره لها. غير أَنّ كلمات أمّها قد انحفرت، عميقًا، في أغوار كيانها، وزادت من حدّة شعورٍ مُبْهَمٍ بعدم الارتياح كان قد شرع يراودها. فنهوضها بمهامّ الإِدارة يلتهم كلّ وقتها، ويحتجزها في ديرٍ رائعٍ، وحياةٍ وثيرةٍ، بعيدًا عن الشقاء القابع على بعد خطواتٍ من "لوريتوهاوس"، والمنتشر في كلّ أَرجاء كلكتّا. وهي، فيما خلا مرافقتها "بنات القدّيسة حنَّة" إِلى المشافي، وزيارتها للأحياء البائسة، في أيّام الآحاد، باتت بعيدةً عن الفتاة المتحرّقة إِلى الرسالة بين ظهراني الفقراء، وعن المبتدئة الناشطة في مستوصفٍ زريٍّ تائهٍ في قلب غابةٍ؛ فتتألّم في سرّها، وتتردّد في حناياها كلمات أَبيها: "**لا ترضي بتناول لقمةٍ واحدةٍ لا تكونين مستعدَّةً لاقتسامها مع الآخرين**"، وكلمات أُمّها: "**عندما تفعلين خيرًا، فافعليه وكأَنّك تلقين حجرًا في عرض البحر**". وتنطلق بها الذكريات إِلى الفتاة الجاثية عند أَقدام تمثال سيّدة "ليتنيسا"... وتحنّ إِلى أَحلامها البكر.

ومع أَنّها كانت تعمل ليلَ نهارٍ بلا تهاون، كان قلقها يتفاقم، يومًا إِثر يومٍ، لدى مشاهدتها شتّى صنوف البؤس، وجموع الضحايا التي يحصدها المرض والفقر، كلّ يومٍ. إِزاء ذلك، لم يكن بوسعها إِغماض عينيها، ولا إِيصاد قلبها، وكان من المتعذّر عليها المضيّ باطمئنانٍ في الاقتصار على المهامّ الإِداريّة الموكلة إِليها. وكلّما هي شاهدت، على الأرصفة، جثث من نفقوا جوعًا ومتربةً، ومحتضرين يهلكون حرمانًا وألمًا، تساءلت، في توجُّعٍ، لمَ هي لبّت دعوة الرسالة، فيجيبها صوتٌ خافتٌ، راح يزداد، كلّ يومٍ، وضوحًا: "**رسالتك هي خدمة الفقراء**". لقد استقرّ في خَلَدها أَنّ مهامّ التدريس والإِدارة لا تبرّر هجرها العالم، إِذ قد ينهض بها أَيّ إِنسانٍ يتمتّع بقسطٍ من

الكفاءة. أمّا من كرّس نفسه للربّ فتستدعيه واجباتٌ أسمى، وأكثر اقتضاءً للتَّضحية وبذل الذات. وتعاقبتْ أحداثٌ خطيرةٌ أرغمتْ الأُخت تيريزا على الخروج من الحصن الآمن داخل الدير، وحملتها على الانغماس في لجج الشقاء المحيق بها، ما دفعها، دفعًا رقيقًا، ولكن واثقًا، في منحًى جديدٍ، كانت، في أعماقها، تهفو إليه. فمن جرّاء إقحام الهند في أحداث الحرب العالميّة الثانية، حُوّلت أقسامٌ من مبنى "لوريتوهاوس" إلى مشفًى عسكريٍّ، ووجدت الراهبات أنفسهنّ، فجأةً، وبقسوةٍ، في مواجهة بشاعة الحرب.

ومن عواقب الحرب تفشّت، عام ١٩٤٣، أرهب مجاعةٍ في البنغال، حصدت من الضحايا عددًا مريعًا، قدَّرته الإحصاآت الهنديَّة بخمسة ملايين نسمةٍ، في حين حاولت التقديرات البريطانيّة حصره في حدود المليونين. ثمّ كان، بمناسبة مشروع تقسيم الهند، "يوم العمل المباشر" المشؤوم، في ١٦ آب ١٩٤٦، الذي فجّر أبشع مجزرةٍ، وأشدَّها هولاً، بين إخوةٍ هندوسيّين ومسلمين، حين "شُلَّت كلّ حياةٍ في المدينة، ما خلا نشاطات التدمير البشريّ". وإذ كانت "لوريتوهاوس" محصورةً بين قطاعٍ ذي أغلبيّةٍ مسلمةٍ، هو "مويتجهل"، وآخر ذي أغلبيّةٍ هندوسيّةٍ، هو "تينغرا"، وجدت الراهبات أنفسهنّ أسيراتٍ مع ثلاث مئةٍ من تلميذاتهنّ، لا يجسرْنَ على التحرّك، ولا يملكن ما يطعَمْنَ. وكُلّفت الأخت تيريزا، من جرّاء مسؤوليّتها كمديرةٍ، وإلمامها بشتّى اللغات الهنديّة، بالعثور على مخرج. فغامرت بالخروج إلى الشارع، حيث واجهت العنف والموت والدمار. ولم تنجُ إلاّ بفضل دبلوماسيّتها، وتأثير شخصيّتها، التي بات كثيرون يقدّرونها ويحترمونها. وما برحت، كلّما استرجعت ذكرى ذلك اليوم المشهود، يكفهرّ محيّاها ويغشاه الأسى؛ وهي تروي في هذا السياق:

"لقد اضطررتُ إلى الخروج من مبنى مدرسة القدّيسة مريم في "إينتالي". فقد كان لديّ ثلاث مئة طالبةٍ داخليّةٍ، ولا نملك ما نطعمه.

"لم يكن مُرَخَّصًا لنا بالخروج إلى الشارع، ولكنّني خرجت.

"حينئذٍ رأيت الجثث في الأزقَّة مشوّهةً، مقطّعة الأشلاء، ملقاةً في أوضاعٍ غريبةٍ، في دمائها الجافّة.

"لقد كنّا خلف جدراننا الآمنة، وعلمنا أَنّ اضطراباتٍ قد حدثت. وتسلّق بعضهم جدران الدير، أَوّلاً هندوسيٌّ، ثمّ مسلمٌ.

وكما تعلمون، بناؤنا قائمٌ بين "موتيجيهل" الذي كان يضمّ أَغلبيَّةً مسلمةً، و"تينغرا" حيث مصانع الفخّار والدبّاغات وأَصحابها من الهندوسيّين. وقد استقبلنا كلّ من لاذ بنا وساعدناه على الفرار.

"وعندما انتهيتُ إِلى الشارع، تبيَّنتُ أيّ موتٍ كان يلاحقهم.

"وأَوقفتني شاحنةٌ مليئةٌ بجنودٍ أَعلموني أَنّه لا يحقّ لي الشخوص إِلى الشارع، وأنّه غير مرخّصٍ لأَيّ إِنسانٍ بالخروج.

"فأَجبتُهم بأَنّ عليَّ أَن أَخرج، ولو تعرَّضتُ للخطر. فلديّ ثلاث مئة طالبةٍ، ولا ما أُطعمهنّ. وكان مع الجنود أَرزٌّ، فأصعدوني إِلى الشاحنة، وعادوا بي إِلى المدرسة. حيث أَنزلوا أكياسًا من الأَرزّ...". وتسارَع في أعماقها نضوج دعوةٍ جديدةٍ.

دعوةٌ في قلب الدعوة

للمرَّة الخامسة عشرة، كانت الأخت تيريزا تستقلّ القطار في رحلةٍ تستغرق زهاء أربعٍ وعشرين ساعةً، نحو سفوح الهيمالايا، إِلى "دارجيلينغ"، حيثُ كانت أَمضت فترة ابتدائها، لقضاء ثمانية أَيّامٍ، تسترقها من حُمّى المشاغل اليوميّة، في الصمت، والتخشُّع، ورَصْد علاقتها الحميمة بالله، والانغماس في لجَّة الربّ المنعشة. لطالما تطلّعت إِلى تلك الفسحة الروحية، وتمتَّعتْ بها، فهي تنطلق إِليها متحرِّقةً إِلى الانسياب في رحاب الله، والارتماء في أَحضانه، وتعود منتشيةً بحضوره الغامر، وأَنواره الوضّاءة، وروحه الدافق عزاءً، وعزيمةً، واندفاعًا للخدمة، وسكينةً عميقة الغَوْر، لا ينفذ إِليها اضطراب. ولكنّ نفسها، في ذلك اليوم، العاشر من أيلول ١٩٤٦، كانت جيَّاشةً بالهواجس، وعوامل القلق. فهي، حتئذٍ، وطوال ثمانية عشر عامًا، كانت قد عاشت عيشةً رهبانيّةً هادئةً، مستقيمةً، على وتيرةٍ مطّردةٍ. بيد أَنّها، منذ أَشهرٍ، شرعت تعهد شيئًا من اللاراحة، وقلقًا مُبهَمًا ينخر صلابة سكينتها، ويُضرم رغبتها الكمينة في العيش بين المحرومين والانقطاع إِلى خدمتهم، فيُخالط أفراحَها اليوميَّة شيءٌ من المرارة، مكدّرًا بهجة نجاحها في التدريس والإِدارة. إِنّ ساعات السفَر

الطويلة تتيح للذّهن المتحرّر من الواجبات الآنيّة تقليب الأمور على شتّى وجوهها؛ وهي، وقد استسلمت، في عربتها الخشبيّة من الدرجة الثالثة، لأرجحة القطار الرتيبة، وانسابت حبّات سبحتها بين أناملها، انعزلت بالفكر عن الصخب السائد، وفزعت إلى قلعتها الداخليَّة تصلّي وتتأمّل. في أثناء كلّ رحلةٍ سابقة، كان يحزنها مشهد جموع المشرَّدين، الذين لاذوا بمحطّات السكَك الحديديَّة، والمعدمين الذين يتدافعون نحو نوافذ المقطورات مادّين أَيديهم، أَملاً في إِحسانٍ ينقذهم، لبُرْهةٍ، من الجوع. ولكنَّ وقع ذلك المشهد، في تلك النوبة، كان أَبلغ إِيلامًا. ففي تلك السنة، أكثر من سالفاتها، حفلت كلكتّا بالمآسي والكوارث، وأَمسى الشقاء أَشدّ كثافةً وانتشارًا. وحيالَ المآسي الدامية، التي كانت تقف عليها شاهدةً، ترسَّخ لدى الراهبة اليقين بأَنّ الصلاة، وحدَها، لا تكفي، ما لم يواكبها العمل.

لقد تراءت لها مستعمرات الفقر مثل عالَمٍ مُوازٍ، منسوجٍ بالآلام والعزلة، لا يفصلها عنه سوى زجاج نافذةٍ غَبِش. ولكن كم هي غريبةٌ عنه وبعيدة: هي في مدرستها المريحة، وهم في الشارع؛ هي في قلعة إِيمانها المنيعة، وهم في رِيَب ليلٍ لا يتوسَّمون له فجرًا يلوح. وتصطخب في ذهنها وقلبها حكايات طالباتها عن صنوف الشقاء المريعة، المتفشّية في الأكواخ وقرى الصفيح، وكلمات أُمّها الحازمة، وذكريات اندفاع مراهقتها المتألّقة بمُثُل الخدمة.

وكانت تحاول إِسكات تلك الهواجس، بالإخلاد، تارةً، إِلى نومٍ يجفوها، وتارةً أُخرى، إِلى التحديق في مناظر تلال الهيمالايا التي شرعت تتراءى وتتراكضَ أَمام ناظرَيْها، فيما القطار يجدّ مُصعِّدًا نحو هدفه. لقد بلغت السادسة والثلاثين من العمر، وفي خَلَدها تنساب ذكريات السنوات الثماني عشرة، مذ وطئت قدماها أَرض الهند؛ ويطيب لها التريُّث في ذلك المكان الساحر، الذي بات قريبًا، حيثُ، سحابةَ أكثر من ثلاث سنوات، تمرَّست من الحياة الرهبانيّة، والتأمُّل، والتأَهّب للرّسالة، وخاضت أُولى تجاربها في خدمة المحرومين.

وتستأنف الصلاة، فيتعالى، فجأَةً، من ثنايا خشوع صمتها، صوتٌ داخليٌّ مُهَيْمن. ولندَعْها تروي بنفسها الحدَث الذي قلب حياتها، منذ تلك اللحظة:

"**بينما كنتُ أُصلّي، في أَعماقي، صامتةً، سمعتُ بوضوحٍ تامٍّ، دعوةً**

داخل الدعوة. كانت الرسالة جليّةً: كان عليّ هجر دير "لوريتو"، كي أكرّس ذاتي لخدمة الفقراء، بالعيش بين ظهرانيهم. كان أمرًا، وكنتُ مدركةً، بجلاءٍ، مصدر النداء. أمّا ما كان لا يزال مستغلقًا عليّ، فهو أُسلوب الاستجابة له. بعبارةٍ أُخرى، كنت أستشفّ الهدف، وأَجهل الطريق إِلى بلوغه... وقد تولاّني شعورٌ كثيفٌ بأَنّ يسوع كان يبتغي أَن أَخدمه في الفقراء، والمهجورين، وقاطني الأَكواخ، والهامشيّين، والذين لا مأوى لهم. كان يسوع يدعوني إِلى خدمته واتِّباعه، في فقرٍ حقيقيٍّ، بانتهاجي نمط عيشٍ يجعلني أَتمثّل بالمعوزين، فهو حاضرٌ فيهم، وفيهم يتألَّم ويحيا". لم تُساورها أَيَّةُ ريبةٍ في صحّة النداء، وقد صرّحت بهذا الشأْن:

"لئن ارتاب يسوع في الجسمانيّة، إِلاّ أَنّ تردُّده لم يدُمْ سوى لحظةٍ. وكان تردّده ردّ فعل الإِنسان فيه. ولكن ساعة يتمّ القبول والاستسلام، تشيع الثقة، ولا يبقى للشكّ فسحةٌ. فعندما قال يسوع: "أَبتاه، إِنّني أُودع نفسي بين يديك، فلتكن مشيئتك"، كان يُعلن قبوله، ويرتضي الموت. كان يُحسّ بكلّ شيءٍ، مثلما نحن نحسّ. كان يُحاكينا في كلّ شيءٍ، سوى الخطيئة".

والأخت تيريزا كانت تمتلك سرّ طرد الشكّ بالصلاة: "**حينئذٍ لا يستطيع الربّ تخييب رجائك. فتلك الصلاة تنبع من الأَعماق، ورغبتك في حضوره تغدو جمّةً. وعندما يقطنك الله، يستمرّ مقامه فيك مدى الحياة، ويتلاشى الشكّ... أَنا لم أَشكّ، قطّ؛ ولكنّني واثقةٌ أَنّه هو، وليس أَنا. ذاك عمله، لا عملي**".

في تلك اللحظة من ليلة العاشر من أَيلول ١٩٤٦، في عربة قطارٍ من الدرجة الثالثة، وعلى بُعد نحو مئة كيلومترٍ من "دارجيلينغ"، وُلدت "الأمّ تيريزا". وفي مثل ذلك اليوم من كلِّ سنةٍ، تحتفل جمعيَّة مرسلات المحبّة في العالم، التي وُلدتْ، هي أَيضًا، من ذلك النداء، بما تدعوه "يوم النداء". وقد جاء في مطلع قوانين الجمعيّة: "لقد رأت أُسرتنا الروحيّة النور، عندما أُلهمت مؤسِّستنا، الأمّ تيريزا بوياكشيو، من قبل الروح القدس، بنعمةٍ خاصَّة، في العاشر من أَيلول ١٩٤٦. الإِلهام يعني أَنّ الروح القدس أَبلغ أُمَّنا مشيئة الله".

ومشيئة الله كانت تقتضي منها أن تهجر، مرّةً أُخرى، كلَّ شيءٍ كي تتبع يسوع إلى أُولئك الذين، على غراره، ليس لهم ما يُسندون إليه رأسهم، إلى العراة، والمحتَقَرين، والمهملين. ولقد أيقنت أنّ المشيئة مشيئته، وأنّ العمل سيكون عمله، وأنّ دعوتها هي إلى اللحاق به في الأكواخ، وخدمته في أفقر الفقراء. لقد وصفت الأمّ تيريزا ذلك الحدَث بأنّه "**دعوةٌ في قلب الدعوة**"، فالدعوة الجديدة لا تلغي القديمة، بل تُتمّمها، وتصحّح مسيرتها، مؤكّدةً تآلفها معها جوهريًّا. فهي لا تعني أنّها قد ضلّت طريقها، بل أنّ عليها تغيير وتيرة مسيرتها وتوجّهها، لما تبقّى لها من درب.

النداء الأوّل وافاها وهي في الثانية عشرة، وظلّ يختمر ستّ سنواتٍ حتّى تبلور، أمّا الثاني فحلّ عليها كالصاعقة. النداء الأوّل كان واضح المعالم، وقد لبّته باعتناقها الحياة الرهبانيّة، وبتقيُّدها بكلّ ما تستلزمه هذه الحياة من ابتداءٍ، ونذورٍ، وعملٍ يأمر به الرؤساء. ولم يكن النداء الثاني أقلّ وضوحًا، ولكنّ السبيل إلى تلبيته كان مُبْهَمًا، وليس من يُعينها على استيضاحه، ولا من يأمرها بفعل هذا أو ذاك؛ وفضلاً عن ذلك كلّه، كان يقتضي منها الانسلاخ عن التدريس الذي كَلِفتْ به، وعن الدير الذي أَنِسَتْ إليه، ونذرت فيه نذورَها الرهبانيّة، ونسجت فيه صداقاتٍ جميلةً دافئةً، سحابة ثماني عشرة سنة؛ وكان ذلك الانسلاخ أليمًا، بل مأساةً صامتةً دفينةً.

وعندما انحدرت من القطار في "دارجيلينغ" بدت لها كلّ الأشياء والأماكن الأليفة أطيافًا بعيدةً، وكأنّها قد هبطت على كوكبٍ مجهولٍ. واتّضح للجميع أنّ أمرًا غريبًا وخطيرًا كان يعتمل في داخلها.

ولم تُسهم أسابيع خلوتها الروحيّة الثلاثة إلاّ في تدعيم قناعاتها برسالتها الجديدة، وشَحْذ عزمها على المُضيّ في دربها، مهما اقتضى ذلك من تضحياتٍ. فالنداء لا يولّد اضطرابًا، بل يتحوّل، شيئًا فشيئًا، إلى اندفاعٍ، ويقينٍ راسخٍ. وقد التمست في الصلاة التي نسجت أيّام خلوتها تلك نورًا وعزاءً ومنعةً.

قد يبدو مدعاةً للعَجب أن يجد امرؤٌ حياة الرهبنة ممعنةً في الرفاه. بيد أنّ الأخت تيريزا وجدتها كذلك، عندما وازنتها بحياة فقراء كلكتّا، فأيقنت أنّ حياتها يجب أن تُنفَق في الشوارع، حيث تنساب حياة أُولئك الفقراء، لا في ديرٍ، حدائقه متعةٌ للعين، وحيث طالباتها الأنيقات، وأخواتُها المؤهَّلات، ونشاطاتها التي تبرز طاقاتها العقليّة والإداريّة.

ومرَّةً أُخرى، تعيَّن عليها هجر السعادة الغامرة، وأَواصر الصداقة العذبة، من أَجل اقتفاء أَثر يسوع على الدروب الوعرة، التي وثَّقت علاقاتها به، على حدّ قولها: "**انتمائي إِلى المسيح لم يتغيَّر، بل تعمَّق. لقد غدا حبّي للمسيح أكثف من خلال التضحية التي تمثّلت في اضطراري إِلى هجر لوريتو**".

من قبلُ، كانت في أَعقاب إِبراز نذورها في "دارجيلينغ" تعود إِلى كلكتّا وهي موقنةٌ بأَنّ الربّ سيستخدمها في إِطار جمعيّة "لوريتو"، وفقًا لأَوامر رئيساتها. أَمّا عام ١٩٤٦، فكانت تعلم أَنّ الله سيستخدمها على نحوٍ ما برحت تجهله. وتذكّرت، حينئذٍ، كلمات شفيعتها تيريز الطفل يسوع: "**إِنّ دربي الصغير، هو درب الطفولة الروحيّة، درب الثقة والاستسلام التامّ**". وقد أَمسى دربها الصغير تحدّيًا ضخمًا، عندما تعيّن عليها تلمُّس وجهتها من خلال مستقبلٍ مستغلق السبُل، في شوارع مدينةٍ أَخطبوطيّةٍ.

النداء الذي استولى على كيانها لم يكن رؤيا، بل كلامًا مباشرًا خاطب أَعماقها، وأمرًا بُلّغت به إِرادتها. ويوم سُئلتْ، فيما بعد، كيف تمّ ذلك النداء، أَجابت: "**ليس لشكل النداء كبير شأنٍ. إِنّه أَمرٌ بين الله وبيني. الجوهريّ هو أَنَّ الله يدعو كلّ امرئٍ بطريقةٍ مختلفةٍ. وليس لنا، في ذلك، أَيُّ استحقاق. والمهمّ هو الاستجابة للدَّعوة. وكما هو الحال الآن، في الظروف القاسية والمأسويَّة التي نواجهها، كنتُ، وما زلتُ، موقنةً بأَنّ ذلك العمل هو عمل الله لا عملي، وبما أَنّه عمله، فقد كنتُ موقنةً بأَنّ العالَم سيفيد منه**".

لقد آمنت، من غير تحفُّظٍ، بنداء الربّ، و"طوبى للَّتي آمنت بأَنّه سيتمّ لها ما قيل من قبل الربّ". فالربّ سيتولّى شؤونها، وسيحطّم كلّ حاجزٍ يعترض طريقها.

إِنّ انصياعها التلقائيّ لأَمر الربّ قد جعل يوم العاشر من أيلول ١٩٤٦ نقطة تحوُّلٍ جوهريٍّ في تاريخ حياتها، بل في تاريخ الإِنسانيّة جمعاء.

كانت تتحرَّق توقًا إِلى الاندفاع في خضمّ رسالتها الجديدة، ولكنّها، في الآن عينه، كانت حريصةً على عدم الحنَث بأَيٍّ من النذور التي سبق لها الارتباط بها. كان الربّ قد أَوعز إِليها بهجر ديرها للعيش معه، بين ظهراني الفقراء. ولكنّ هجر الدير، من جرّاء نذورها، كان يقتضي الحصول على موافقاتٍ عسيرة المنال، من

مقاماتٍ عليا. وفضلاً عن النذور، كانت الأخت تيريزا قد تشبَّعت، من تربيتها الأولى في أَحضان أُسرتها، بواجب إِيلاء الوعد وكلمة الشرَف تقديسًا مطلقًا. ومن ثمّ، ومع صبوّها المضطرم إِلى مباشرة رسالتها الجديدة، كانت متأَهِّبةً لانتظار الموافقات الرسميّة، ولو استغرق الانتظار العمرَ كُلَّه.

وبالتالي، كانت خطوتها الأولى أَن كتبت إِلى مرشدها الروحيّ الأَب "ڤان إِكزيم"، باسطةً بين يديْه تفاصيل الدعوة الجديدة التي كانت مؤمنةً أَنّ الربّ يأمرها بتلبيتها، ومُلتمسةً نُصحَه. وكان ذلك الكاهن اليسوعيّ الذي اكتنز، من تجواله في شتّى بلدان العالم، ومنها معظم بلدان الشرق الأَوسط حيثُ أَتقن اللغة العربيّة، ومن ممارسته الطويلة الإِرشاد الروحيّ للرَّاهبات، خبرةً راسخةً بالنفوس، وتبصُّرًا لعمل الربّ فيها. ومن المحقَّق أَنّه غالبًا ما استمع إِلى بَوْحٍ ينطوي على قسْطٍ وافرٍ من الهلوسة والأَحلام الخرقاء؛ وكان يوكل إِلى الوقت مهمّة إِطفَاء نيران الهشيم تلك. ولَكنّه، حيال الأخت تيريزا التي طالما عهد واقعيَّتها، وشدَّة مراسها، وحرصها على الملموس، شعر بشيءٍ من الحَرَج والاضطراب، فأَهاب بها أَن تلجأ إِلى مزيدٍ من الصلاة، والتريُّث، في سبيل مزيدٍ من التحقُّق والاستجلاء، على أَن تحتفظ بالأَمر سرًّا لا تُطلع عليه أَيّةً من رئيساتها وأَخواتها، واعدًا بمكاشفة رئيس أَساقفة كلكتّا بأَمرها حالما تحين، لذلك، مناسبةٌ مؤاتيةٌ. وكان الأسقف هَرِمًا، متردّدًا، ولا سيّما في الظُّروف الدقيقة التي كانت تجتازها البلاد. وكان شديد الاعتماد على جمعيّة راهبات "لوريتو" لإِسهامها في مهامّه الرعويّة، وبالتالي شديد الحرص على تفادي كلّ ما من شأنه إِحداث صدْعٍ في بنيتها. ولا عجب إِن هو قابل برفضٍ قاطعٍ طلب الأخت تيريزا، عبر الأَب "إِكزيم"، مغادرة حصن الدير، في سبيل ممارسة رسالةٍ بين الفقراء، ولا سيّما أَنّه كان يعلم أَنّها كانت تضطلع، في دير "لوريتو"، بمهامّ تدريسيّةٍ وإِداريَّةٍ خطيرة الشأن، فضلاً عمَّا تنامى إِليه عن تواضعها، وطاعتها، وتوثُّباتها الخيّرة.

ولم تستغرب الأخت تيريزا موقف الأسقف، ولا سيّما أَنّها كانت قد أَعربت للأب "إِكزيم" عن عزمها إِنشاء رهبانيّةٍ توفّر لرسالتها بين الفقراء الانتشار والديمومة. وهي لم تتوقّع، قطّ، أَن يوافق الأَسقف، بيُسرٍ، على طلب راهبةٍ هجرَ ديرها لخوض مغامرة تأسيس جمعيّةٍ جَديدةٍ، لا بل هي، في واقعيّتها، كانت ستُدهَش لو هو وافق،

في الحال، على طلبها المُستَهْجَن. وكانت واثقةً من أَنّ الربّ الذي دعاها هو الذي سيوفّر لها وسائل تحقيق دعوتها، عندما يشاء.

واتَّفق أن شخَّصَ لديها الأطباء، في تلك الفترة، دلائل سلٍّ رئويٍّ، عُزِيَ إلى إجهادها في العمل، وإيغالها في التقشُّف والتهجُّد. فأُمرت بالابتعاد عن كلكتّا، للاستشفاء والنقاهة، في ديرٍ بمدينة "أَسانسول"، في ولاية البيهار. ويسوغ التساؤل هل كان ذلك الإبعاد بإيعازٍ من الأسقف والأَب "إكزيم"، امتحانًا لحقيقة دعوتها، وأَملاً في أَن يُفضي ذلك البُعاد إلى صرفها عمّا يراودها، وإلى إخماد نار اندفاعها.

وكان عام ١٩٤٧ عام انتظارٍ طويلٍ مُمِضٍّ، لم يزِدْها إلاّ تصميمًا على المضيّ في تلبية دعوتها. وفي السادس عشر من شهر آب من تلك السنة، نالت الهند استقلالها، ولكنّه كان استقلالاً مضرَّجًا بالدماء، وكان ثمنه شطر البلاد إلى دولتَيْن شطرًا عشوائيًّا موجعًا، أغرقهما في بحارٍ من الدماء، وفي هيستيريا من العنف والرعب قلما عرف لها الكون مثيلاً. وكانت كلكتّاَ مُرَشَّحةً، أكثر من أيّة مدينةٍ هنديّةٍ أُخرى، لفظائع الصدامات الدينيّة، غير أنّ مكوث نبيّ اللاّعنف، المهاتما غاندي، فيها، قد وقاها من ذلك المصير المريع، وحقّق ما سُمّي "معجزة كلكتّا"، إذ ساد المدينة، عمومًا، السكون والتآخي، في حين كانت الحرب الطائفيّة توقع، في سائر المدن الهنديَّة، ملايين الضحايا، وتستثير من الجرائم أبشعها وأَضراها[1].

وبما أَنّ دير "لوريتو" في "إينتالي" يقع بين حيَّين أَحدهما يضمّ أكثريَّةً هندوسيَّةً والآخر أكثريَّةً مسلمةً، استُدعيت الأخت تيريزا، في نهاية عام ١٩٤٧، للعودة إلى كلكتّا، فهي، من جرّاء تشبّعها من روح الهند، الذي استحقّت، بفضله، لقب "الأخت البنغاليّة"، كانت الأكثر قدرةً على تهدئة الخواطر، وإخماد غرائز الانتقام والاقتتال، لدى الفئات المتصارعة.

وثبتتْ للأب "إكزيم" أَصالةُ دعوتها، بعد أَن لمسَ إصرارها على المضيّ في المسيرة الجديدة التي دعاها إليها الربّ، ولا سيّما أنّها، أثناء بُعادها عن كلكتّا، كانت قد بلورت صورةً جليَّةً للزيّ الذي سترتديه، والذي سيصبح رمز جمعيَّتها المقبلة، وأفكارًا واضحةً عن أُسلوب شهادتها ليسوع، بعيشها فقيرةً فقرًا مطلقًا بين أَفقر فقرائه.

---

[1] راجع كتابنا: "السياسيّ القدّيس، المهاتما غاندي صفحة ٣٤١ – ٣٧٧- منشورات المكتبة البولسيّة ١٩٩٢

وأوضح لها الأب "إكزيم" أنّ أمامها احتمالاتٍ ثلاثةً: الكتابة مباشرةً إلى الڤاتيكان، وقد يكون هذا الاحتمال هو الأسرع، إلاّ أنّه يعني تخطّيًا لرئيس أساقفة كلكتّا، وهو أمرٌ لم يكن الكاهن راغبًا فيه، لاعتقاده بأنّ رئيسه ذاك هو الأقدر على التدخُّل المُجدي لدى سُلطات الڤاتيكان لصالح طلب الراهبة، وتخطِّيًا، أيضًا، لرئاسة جمعيّة راهبات "لوريتو"، وهو ما كانت الأخت تيريزا تأباه، تشبُّثًا منها بقداسة النذْر، وبشرف كلمة الوعد. أمّا الاحتمالان الآخران فهما التوجّه بطلبٍ مباشرٍ إلى رئاسة الجمعيّة، أو الحصول، أوّلاً، على موافقة رئيس الأساقفة، وتكليفه بالتوسُّط لدى رئاسة الجمعيَّة، والسلطات العليا في الڤاتيكان.

كان رئيس الأساقفة، بادئ الأمر، هو الأقلّ تفهُّمًا للأخت تيريزا، والأقلّ تعاطُفًا مع دعوتها. ولذلك جهد في صرفها عمَّا حزمت عليه أمرَها. وخُيِّل إليه أنّه وجد مخرجًا مناسبًا، بدعوتها إلى الانضمام إلى "بنات القدّيسة حنَّة"، أُولئك الراهبات البنغاليَّات العاملات في خدمة الفقراء، في إطار جمعيّة "لوريتو"، واللواتي كانت الأخت تيريزا قد كُلِّفت بقسطٍ من تثقيفهنّ. ورأى الأسقف أنّ الأخت، بانضمامها إليهنّ، تُحقّق رغبتها في خدمة الفقراء، من غير اضطرارٍ إلى هجر جمعيّتها، وأنّها، ربَّما، بفضل قوّة شخصيّتها، وغنى خبرتها، قد تُوفِّر لجماعة "بنات القدّيسة حنّة" دفعًا وانتشارًا. غير أنّ جميع حججه هوت في الفراغ، فالأخت تيريزا لم تكن تبتغي، فقط، خدمة الفقراء، بل العيش معهم، فضلاً عن أنّ لبنات القدّيسة حنّة تقاليدهنّ وعاداتهنّ الراسخة. وهي كانت تأبى وضع خمرةٍ جديدةٍ في زقاقٍ عتيقة. كانت، من قبلُ، قد خَبَرت الفقر، وتحرَّقت إلى إغاثته في إطار جمعيَّتها. ولكن، بعد أن هزّ النداءُ كيانها، تيقَّنت أنّ عليها الانفراد بأُسلوبٍ خاصٍّ.

إزاءَ إصرارها العنيد، لم يجد الأسقف منفذًا سوى السماح لها بالكتابة، في الأمر، مباشرةً، إلى رئيسة جمعيَّتها في "راثفارنهام". إلاّ أنّه اشترط الاطّلاع على نصّ الرسالة قبل إرسالها. وقد التمست الأخت، برسالتها، الإذن بالخروج من حصن الدير، ولكنّ الأسقف أصرّ على استبدال هذه الصيغة، بطلب العودة إلى الوضع العلمانيّ. وكان مثل هذا الطلب مؤلمًا للأخت تيريزا، لسببَيْن: أوّلهما أنّها كانت حريصةً على الوفاء للنذور الثلاثة التي نذرتها مدى الحياة، وثانيهما أنّها، بصفتها راهبةً مرتبطةً بنذور، سيكون من الأيسر عليها تأسيس جماعةٍ رهبانيّةٍ تؤمّن انتشار

رسالتها ودوامها، في حين سيتعذّر ذلك إِن هي تحلَّلت من كلّ ارتباطاتها الرهبانيّة. ومع ذلك، وقد أَلفت طاعة الروساء، رضخت لإِرادة الأسقف.

وفي الثاني من شباط ١٩٤٨، بلَّغت الرئيسةُ العامّة الأختَ تيريزا ردًّا مفعمًا رقَّةً وكرمًا، فهي لم تسعَ إِلى تغليب مصلحة جمعيَّتها على ما توسَّمت فيه إِرادةً ربّانيّةً، فأذنت لها بالتوجّه بطلبها، مباشرةً، إِلى روما، مؤكّدةً لها أنّ أبواب "لوريتو" ستظلّ مشرعةً أَمامها، إِن هي تبيَّنت، يومًا، خطأها في تفسير نداء الربّ. وقد طوت الرئيسة رسالتَها على نصيحتَيْن: استبدال طلب "العودة إِلى الوضع العلمانيّ" الذي أصرّ عليه الأسقف، بمجرَّد طلب الخروج من حصن الدير، توافقًا مع رغبة الأخت الحقّة، ومن جهةٍ أُخرى، طلبت منها إِبقاء الأمر سرًّا تكتمه عن رئيستها الإِقليميّة، ورئيستها المباشرة، كما وعدت هي بعدم إِطلاع أَحدٍ عليه.

مرَّةً أُخرى، أَصرّ الأسقف على الاطّلاع على طلبها قبل إِنفاذه إِلى روما، عبر القصادة الرسوليّة في نيودلهي، ومرَّة أُخرى، أصرّ على استبدال طلب الخروج من حصن الدير، بطلب العودة إِلى الوضع العلمانيّ – وفي عناد بعض الرؤساء ما يُحيِّر – وقد أرفق بطلبها مطالعةً اقترح فيها الموافقة عليه لمدَّة سنةٍ واحدةٍ تجريبيّةٍ، على أَن يُقرَّر بشأنه، في نهايتها.

وأَوكلت الأخت للربّ أَمرها، وكتبت الطلب وفقًا لرغبة الأسقف.

وكان البابا بيّوس الثاني عشر، آنذاك، شديد الاهتمام برسالات الشرق، فأبلغ ردّه الإِيجابيّ، في ١٢ نيسان ١٩٤٨، ولكنَّه، تحقيقًا لمشيئة الربّ، ولرغبة الأخت تيريزا، منحها إِذنًا بالخروج من حصن الدير، على أَن تظلّ ملتزمةً بجميع نذورها الرهبانيّة، وعلى أَن تصبح خاضعةً لسُلطة أُسقف الرعيّة، عوضًا عن خضوعها لسُلطة جمعيّة "لوريتو".

ولكن، لأسبابٍ ما زالت غامضةً، رقد ذلك القرار البابويّ في دروج القصادة الرسوليّة في نيودلهي، حتّى السادس من شهر آب ١٩٤٨، عندما أُحيط به رئيس أساقفة كلكتّا علمًا، وطُلب منه تبليغ الأخت تيريزا به.

ولمّا تبيّن رئيس الأَساقفة أنّ إِرادة الربّ تُعارض خشيته وتردّده، أَراد أَن يستزيد يقينًا، فاستدعى كاهنًا يسوعيًّا، مسؤولاً روحيًّا عن جمعيّة "لوريتو" في كلكتّا،

هو الأَب "هنري"، وطرح عليه السؤال التالي:

– "ما قولك في راهبةٍ أُوروبيّة مكلّفةٍ بتثقيف فتياتٍ هنـديّاتٍ، تبتغـي تأسـيس جمعيّةً بهدف الانصراف إِلى خدمة أفقر الفقراء؟"

– "إِنّه لمشروعٌ مستحيلٌ بشريًّا، ولكنّه ضروريٌّ".

– "إِن كان ضروريًّا فسيوفّر له الربّ أَسباب النجاح".

وأَطلق الأسقف للأخت تيريزا حرّيّة النهج وفقًا لما حزمت عليه أَمرَها بـدعوةٍ من الله، مع أَنّ تساؤلاتٍ مقلقةً كثيرةً ما انفكّت تطوف بخَلَده. فكيف ستستقبل الهنـد، المستقلّة حديثًا، أُوروبيَّةً ترتدي الساري الهنديّ، وكيف هي ستقوى على العمل فـي الأَكواخ الموبوءة، وتستجرّ أُخرياتٍ إِلى اقتفاء أَثرها؟

كانت الموافقة البابويّة صالحةً لمدَّة سنةٍ واحدةٍ، يقرّر في نهايتها رئيس أَسـاقفة كلكتّا جدوى تجديدها، أَو يأمر الراهبة بالعودة إِلى حصن ديرها. وكان ذلك يُـدخل إِلى نفسها بعض القَلَق، ولكنّها، وقد أَشرعت لها العناية الإِلهيّة الباب، اندفعت فيه بلا تردُّدٍ ولا وَجَلٍ، واثقةً في تدبير الربّ ورعايته.

وبات لا مناص من إِفشاء أمر الأخت تيريزا في جمعيَّتها، مـا أَذهـل الجميـع وأحزنهم. فقد انقبض قلب الرئيسات والأَخوات اللواتي كنّ يحببنَها ويُقدِّرنَها، ويزُرْنَ مدى خسارتهنّ من جرّاء غيابها. وقد صرّحت رئيستها، فيما بعد، أَنّ فقدانها الأخت تيريزا كان بمثابة فقدانها ذراعها اليمنى، فضلاً عن توجّسها خشيةً عليهـا. صـحيحٌ أَنّها كانت في الثامنة والثلاثين، وشديدة المراس، ولكنّ الحياة خارج الـدير قاسـيةٌ، والمخاطر متوعّدةٌ، مفزعةٌ. كنّ يدركنَ دعوتها، ولكنّهنّ كنّ قلقاتٍ على مصيرها.

وقد اقترح الأَب "إِكزيم" تعميم رسالةٍ على جميع أَديرة "لوريتو" في الهند، تحيط الأَخوات علمًا بقرار الأخت تيريزا بوياكشيو، وتهيب بهنّ الإِعراض عن إِصدار أَيّة أَحكامٍ بشأنها، والاقتصار على الصلاة من أَجلها.

وكتبت الأخت تيريزا إِلى أُمّها تزفّ إِليها بشرى رسالتها الجديدة التـي طالمـا دفعتها، هي، في دربها، والتمست من الأب "إِكزيم" أَن يكتب، هو أَيضًا، إِلى والدتها مؤَكّدًا لها أَنّ هجرها جمعيَّة "لوريتو" لم يمسَّ بشيءٍ ارتباطاتها الرهبانيّة، بـل إِنّـه يمثّل إِمعانًا في الفقر، واتّباع يسوع.

وأشاع نبأ مغادرتها الدير الأَسى في أَفئدة طالباتها، ولا سيَّما في قلب فتاةٍ بنغاليّةٍ تدعى "سوبهاشيني داس"، كانت طالبةً لديها مذ كانت في التاسعة من عمرها، وستصبح أُولى مرسلات المحبّة في الجمعيّة التي ستؤسّسها الأمّ تيريزا؛ وقد استوضحت الأَب "هنري"، المرشد الروحيّ لجمعيّة "لوريتو":

– "لمَ، مع وجود العديد من الراهبات، هي التي دُعيتْ لخدمة الفقراء، دون سواها؟"

– "لا يمكن قسر أحدٍ على الاضطلاع بخدمةٍ كهذه. إنّها نداءٌ من الله، ومن لم يدعُه الربّ، لا قِبَلَ له على المُضيّ في هذا الدرب". وقد أَقامت الفتيات لمعلّمتهنّ حفل وداعٍ مؤثِّرًا، وأَتينَها بهدايا وضيعةٍ، وأَنشدْنَ لها التراتيل وهنّ ينتحبنَ.

وأَنفقت الأخت بضعة أَيّامٍ في تفصيل زيّها الجديد من القماش القطنيّ الخاميّ الخشن، كذلك "الخادي" الذي كان المهاتما غاندي قد عمّم غزله ونسجه في الهند؛ وجعلت له حاشيةً زرقاء، وأثبتت في كتفه صليبًا أَسود صغيرًا، وفي خصره مسبحةً. ذلك الزيّ، الذي كان تعبيرًا عن رغبتها في التمثّل بمن توخَّت خدمتهم، وفي إقناعهم بأنّها تريد، حقًّا، أَن تكون لهم أُختًا، لن يلبث أَن يغدو رمزًا لمرسلات المحبَّة، في كلّ أرجاء الهند، قبل أن ينتشر في جميع أصقاع المسكونة.

وفي الخامس عشر من آب ١٩٤٨، عيد انتقال السيّدة العذراء، أَودعت الأخت تيريزا مصيرها بين يدي أُمّها السماويَّة، التي كانت، في مثل ذلك اليوم، لثمانية عشر عامًا خلت، قد أَنارت درب رسالتها الأولى ودفعتها فيه. وفي مثل ذلك اليوم المبارك عينه، التمست من الأَب "هنري" مباركة القطع الثلاث التي اصطنعتها لنفسها من ذلك الزيّ.

وفي الساعة الخامسة والنصف من صباح السادس عشر من آب، في الذكرى الثانية لمجزرة كلكتّا الكبرى المروّعة، والذكرى الأولى لاستقلال الهند، في عتمة مصلّى الدير، خلعت الأخت تيريزا الثوب الأَسود الذي لازمها ثماني عشرة سنةً، وارتدت الساري الهنديّ الأبيض الخشن، وبعد أن حضرت القدّاس، وتأَمّلت طويلاً، وفيما الجميع نيامٌ، انسلَّت خلسةً، حاملةً كيسًا صغيرًا يحتوي على القليل الضروريّ من أَمتعتها الشخصيَّة، واندفعت، وحيدةً، إلى الشارع المظلم، الخالي إلاّ من مكنّسي الطرقات.

تلك اللحظة كانت الأخت تيريزا تَتَطَلَّع إِليها، منذ سنتَيْن، بتحرُّقٍ، ولكنّها، عندما

أزفت، كانت موجعةً، فعلى حدّ اعترافها: "**هجر "لوريتو" كان أقسى تضحيةٍ في حياتي، بل أصعب أمرٍ أقدمت عليه، قطّ. كان أَبلغ إِيلامًا من هجر أُسرتي ووطني من أجل اعتناق الرهبنة. فقد كانت "لوريتو" كلَّ شيءٍ لي، ففيها تثقَّفتُ روحيًّا، وأَصبحتُ راهبةً، وكرَّستُ ذاتي كلّيَّةً ليسوع. وكنت كَلِفةً جدًّا بالتعليم الذي مارسته، فالتدريس المسيحيّ رسالةٌ حقَّةٌ**".

إِلاّ أَنّ علاقاتها مع راهبات "لوريتو" قد ظلّت دائمًا، وديَّةً. وفيما بعد، عندما أَسَّسَتْ جمعيّتها الخاصَّة، التحقت بها أَخواتٌ وطالباتٌ من "لوريتو"، بل من خيرتهنّ، إِذ إِنّ العيش على غرارها لا تُقدم عليه إِلاّ نفوسٌ كبيرةٌ، جريئةٌ، متأهّبةٌ للبذل بسخاءٍ. وقد ذُكِر، يومًا، أمام إِحدى راهبات "لوريتو" أنّ اَلأُمّ تيريزا هي مفخرة جمعيّة "لوريتو"، فعلَّقت قائلةً: "**لا بل هي مفخرة الله أيضًا**".

وفجأَةً، رغم صلابة إِرادتها، وجدت نفسها مثل قشّةٍ في مهبّ الإعصار الهنديّ. فقد عاشت، حتّى ذاك، سنيها الثماني والثلاثين مُحاطةً بحماية أُسرتها، وكهنة رعيّتها، ثمّ ديرها ومدرستها والكنيسة، وها هي ذي، بغتةً، وحيدةٌ، تجهل كلَّ شيءٍ عن العالَم الذي قذفت بنفسها في لججه المصطخبة.

وكانت الأخت تيريزا، بناءً على نصيحة الأَب "إِكزيم"، قد كتبت إِلى راهبات البعثة الطبّيَّة المشرفات على إِدارة مستشفى العائلة المقدّسة في مدينة "باتنا"، في ولاية البيهار، وعقدت معهنّ اتّفاقًا على الإِقامة في مشفاهنّ فترةً تمكّنها من التأَهُّل لشتّى ضروب الإِغاثة التي قد تستدعيها خدمتُها بين الفقراء. وكان موعد مغادرة القطار إلى "باتنا" في مساء ذلك اليوم عينه، فشخصت إِلى كنيسة القدّيسة تيريزا حيث أَوْدَعت حقيبة أَمتعتها الهزيلة لدى الأَب "هنري"، وأَنفقت النهار تسير، وتسير، وتجوس أَزقّة كلكتّا البائسة المتعرّجة بين مجمّعات الشقاء (السلومات) والأَكواخ الرثّة، مُستطلعةً أُطُر رسالتها المقبلة، والأَماكن الكفيلة بأَن تغدو ملجأً لأصدقائها المشرّدين. وعندما أعياها السير، أَدركت مدى معاناة المحروم الباحث، أَبدًا، عن مأوًى، وطعامٍ، وعلاجٍ، وعن كلّ شيءٍ لا يجد إِليه سبيلاً.

وربّما راودتها، في ساعة الإِعياء تلك، ذكرى الأَمان الذي كانت تنعم به في دير "لوريتو" حيث كانت "أَسعد الراهبات". ولكنّها سرعان ما أَقصت عن ذهنها تلك الغواية.

لم تكن تدري أَين تمضي، ولا ما تعمل، ولكن لم تكن تُداخِلها أَيّة خشيةٍ، لأَنّها كانت تعلم أَنّها تسير بدعوةٍ من الربّ، وأَنّه كفيلٌ بإِرشادها إِلى حيث عليها أن تمضي، وإِلى ما عليها أَن تعمل. بإِيمانٍ مذهلٍ، كانت تسير إِلى الأَمام كالعميان، ولكن قويّةً بثقتها المطلقة بالربّ.

أَنظمة راهبات "لوريتو"كانت تقضي بأَن تتكفّل الرئيسة بنفقات الراهبة التي تُضطرّ إِلى مغادرة الدير، غير أَنّ الأخت تيريزا رفضت أَيَّة مساعدةٍ، ما خلا خمس روبيّاتٍ، لأَنّها ابتغت، منذ تلك الساعة، أَن تكون فقيرةً بين فقيراتٍ. ولم تمضِ خمس دقائق على مغادرتها الدير حتّى بادرها متسوّلٌ يحاكي هيكلاً عظميًّا متحرّكًا، ملتمسًا منها روبيةً نفحتْه إِيَّاها، بلا تردّد. وما كادت تجتاز أَمتارًا معدوداتٍ، حتّى اعترضها متسوِّلٌ آخر، لا يقلّ عن ذاك هزالاً، فنفحته روبيّةً ثانيةً، وهكذا فعلت مع متسوّلَيْن آخَرَيْن، بحيثُ لم يبقَ معها سوى روبيّةٍ واحدةٍ كانت تعتزم ابتياع طعامٍ بها. وكان موعد الظهر قد حلّ، ونال منها التعب، فولجت كنيسةً ملتمسةً، في ظلالها، بعَض راحة، ومن سيّدها بعض عونٍ، فإِذ بكاهنٍ كان يجمع تبرّعاتٍ من أَجل مشروع منشوراتٍ مسيحيّةٍ، جاء طالبًا إِسهامها، فألْقت بين يديه روبيّتها الأَخيرة، وباتت، منذ ظهر ذلك اليوم، مثل أَفقر الفقراء. ولكن بعد ظُهر ذلك اليوم، عاد إِليها الكاهن نفسه الذي كان قد تلقّى روبيّتها الأَخيرة بظرفٍ قائلاً: "لقد كُلِّفتُ بتسليمك إِيّاهُ من قِبلَ أُناسٍ سمعوا عن مشاريعك، فأَحبّوا مؤازرتك". وكان الظرف يحتوي خمسين روبيّةً. كانت تلك أَوّل عطيّةٍ من السماء لمن لم تبتغِ، منذ ذلك اليوم، شيئًا إِلاّ من السماء. وقد اعترفت بهذا الشأن: "**انتابني، آنذاك، شعورٌ بأنّ الربّ قد شرع يبارك عملي، وأَنّه لن يتخلّى عنّي أَبدًا**". وهكذا استطاعت أَن تمضي، بجرأةٍ، في "دربها الصغير"، الذي أَرشدها إِليه الربّ، وحيدةً، بلا رفيقةٍ، ولا عونٍ، ولا أَيّة ضمانةٍ ماديّةٍ، معتمدةً على الربّ وحده.

وفي مساء ذلك اليوم، استقلّت القطار إلى "پاتنا"، حيث أَمضت نحو أَربعة أَشهر، في مشفى العائلة المقدّسة، بين راهبات الرسالة الطبِّيَّة، متلقّيةً تدريبًا مكثَّفًا في التمريض. وكان أَوّل ما فاجأها هناك وجودُ اثنتين من طالباتها القدامى، دهشتا لرؤيتها ترتدي الساري الهنديَّ الخاميّ، فبكتا إِشفاقًا عليها، ولكن ما إِن اطَّلعتا على حقيقة رسالتها حتّى تعاطفتا معها. وكم أدهشتهما، فيما بعد، بما هو أَحقّ بالدهشة!

وفي "پـاتنا" انصرفت الأخت تيريزا، بكلّ اندفاعها، إلى الإلمام بكلّ ما قد يُعينها على رسالتها، من عنايةٍ طبِّيَّةٍ، وتمريضٍ، ووصف أدوية؛ وشاركت في العديد من الإسعافات، وعمليّات التوليد. وقد شهدت الراهبات اللواتي زاملنَها في تلك الفترة أنهنّ قلّما رأينَ طالبة تمريضٍ في مثل اندفاعها، إذ كنّ يشاهدنَها في كلّ مكانٍ، كلَّ حين. وقد اعترفت، هي نفسها، بأنّ تلك الفترة، كانت فترة تثقيفٍ مفيدةً وثمينةً. وقد وثّقت بالراهبات الطبيبَات علاقات صداقةٍ حميمةٍ؛ وكانت، أثناء الاستراحة، تسترسل في محادثتهنّ عن رؤاها ومشاريعها المستقبليّة، وقد باحت، ذات يومٍ، بالقول: "**أنا وأخواتي لن نتناول من طعام سوى الزهيد من الأرزّ والملح**"، فانبرت لها رئيسة المشفى، الأمّ "دينغل "الجرّاحة، التي كانت تتمتّع ببصيرةٍ نيّرةٍ، وخبرةٍ راسخةٍ، واعترضت، قائلةً: "هل تبتغين مساعدة الفقراء والمرضى، أم الموت معهم في أسرع مهلةٍ؟" وقد أسهمت تلك الطبيبة الشديدة المراس في إعادة راهبتنا التي تلهبها أحلام الرسالة والتضحية، والتجرُّد المُطلَق، إلى أرض الواقع، وأقنعتها بأنّ الواجب يقضي بأن توفّر لذاتها، ولأخواتها، طعامًا كافيًا ومتوازنًا يمكّنهنَّ من المُضيّ في أداء رسالتهنَّ الشاقّة، وراحةً يوميَّةً وأسبوعيَّةً وسنويّةً تجدِّد قواهنَّ، وحرصًا على نظافةٍ مطلقةٍ يفرضها عملهنّ بين مرضى تغشاهم القروح والميكروبات، والاستعانة بثلاثة "سواري"، واحدٍ يُغسل، وواحدٍ يُلبَس نظيفًا، وآخر للطوارئ والمناسبات، وبمناديل تقي من الحرّ، وتُغسل بانتظام. وقد أدرجت الأمّ تيريزا كُلَّ تلك النصائح في صُلب نظام جمعيّتها.

وقد نسجت فترة إقامة الأخت تيريزا في "پـاتنا" وشائج حميمةً ودائمةً بينها وبين مرسلات البعثة الطبِّيَّة، وصرّحت إحدى تلك المرسلات: "لقد بتنا، جميعنا، نقدّر الأمّ تيريزا ونُعجَبُ بها؛ وفيما بعد، غالبًا ما زرناها في كلكتّا، حيث كانت قد وضعت أحلامها ومشاريعها موضعَ التنفيذ. ولا شيءَ ممّا حدَث بعد ذلك أدهشنا، فقد عرفناها عن كثب". وقد ألِفت الأمّ تيريزا إرسال بعض الأطفال والمصابين بأمراضٍ خطرةٍ إلى مشفى العائلة المقدّسة لمعالجتهم، قبل أن تتنازل راهبات الرسالة الطبِّيَّة عن مشفاهنّ بأكمله لمرسلات المحبّة.

ويوم غادرت الأخت تيريزا "پـاتنا" أهدت إليها الأخوات خفَّيْن طالما استخدمتهما وأصلحتهما، واستخدمهما أيضًا عددٌ من أخواتها رائدات مرسلات المحبّة.

في تلك الأثناء، كانت الأخت تيريزا تنفذ رسائل متواترةً إلى الأَب "إِكزيم" كـي يسمح لها بالشروع برسالتها الحقَّة. وشخص الأَب، في شهر تـشرين الثـاني إلـى "پـاتنا"، وتوجّه إلى جماعةٍ من الممرّضات الهنديَّات، مستطلعًا مكان الأخت تيريزا، فتعالى من جانبه صوتٌ رقيقٌ يقول: **"ها أنذا، أبتاه!"**. لم يكن قد تعرَّفها، فتلك كانـت المرَّة الأولى يشاهدها فيها متلفِّعةً بزيّها الجديـد. وأكّـدت لـه رئيـسة المـشفى، والطبيبات، أنّ بوسعها مباشرة عملها، فهي مؤهَّلةٌ، وحريصةٌ، ولن ترتكب أَخطـاء. وعقب عودته إلى كلكتّا أَبلغ إليها موافقة الأسقف على مباشرتها رسالتها الجديدة، كما أَحاطها علمًا بأنّه وفّر لها إقامةً مؤقّتةً لدى أَخوات الفقراء الصغيرات.

وفي صباح التاسع من كانون الأوّل عادت الأخت تيريزا إلى كلكتّا التي سيرتبط بها اسمها، وتصبح موطنها، ومركز رسالتها، الذي منه ستُشعّ على العالم أَجمع.

كلكتّا: "مدينة الكوابيس"

كلكتّا هي عاصمة ولاية البنغال، وكانت بين ١٧٧٤ و ١٩١١ عاصـمة الهنـد البريطانيّة. أَسَّسَهَا تُجّارٌ بريطانيّون عام ١٦٨٩، فوق مستنقعاتٍ جفّفوها، وغاباتٍ اقتضموا أجزاء منها وجرّدوها من أشجارها، وأطلقوا عليها، أوّلاً، اسم "قلعة ولـيم". وحول هذه النواة أُشيدت، شيئًا فشيئًا، مراكزُ إداريّةٌ وجامعيّةٌ وتجاريّةٌ، وقـد جهـد المستعمرون البريطانيّون في جعلها محجّةً للتَّرف الرفيع، وفردَوسًا للمُتَـعِ المرهفـة الموقوفة على المحظيّين، فازدهت بالقصور المنيفة، والدارات المتألّقـة، والحـدائق الغنّاء العامّة والخاصَّة، الجديرة بروايات "ألف ليلة وليلة"؛ وحقّ لـسكّانها الأوائـل تسميتها "باريس الشرق".

وكان للمدينة أيَّام عزٍّ مشهودةٌ، وهي ما انفكّت تفخر بأنّها كانت، حتّى عهدٍ ليس ببعيدٍ، موئلاً للعلم والفنّ والأَدب والحكمة. فهي مسقط رأس كلٍّ من طاغور، الـذي ظفر بجائزة نوبل في الآداب، و "ج. س. بوز" الحائز جـائزة نوبـل فـي العلـوم، و"ساتياجيت ري"، النجم الـسينمائي الـذائع الـصيت، وإِمـامَيْ الحكمـة الهنديَّـة "راماكريشنا" و"ڤيـڤـاكندا"، وإِحدى قمم الروحانيّة العالميّة "سري أوربيندو".

وفي أَيَّام عزّ كلكتّا، كان الموظّفون البريطانيّون يتفادون، بكثيـرٍ مـن اللباقـة،

الإِتيان على ذكر الأَكواخ الزريّة، وخصوص القَصَب، التي سرعان ما نبتت كالفطور، شرقيّ المدينة، جارَّةً في إِثرها مواكب الفقر والقذارة. ومع اتّساع كلكتّا التي غدت وما برحت من أَهمّ المراكز التجاريّة في الهند، اتَّسعت رقعة مواقع البؤس التي أَحاقت بها من كلّ صوبٍ، لا بل اقتحمت شوارعها وأَرصفتها وكلِّ زاويةٍ فيها، بحيثُ باتت توصف بأَنّها "مزبلة العالم". وكان شاعر الاستعمار البريطانيّ، "روديار كيبلينغ"، قد استشفّ ذلك عندما قال فيها، وهي في أَوج ازدهارها: "إِنّها مدينة ليالي الرعب، أَشادتها الصدفة، وتقودها الصدفة". ولم يتحرَّج جواهرلال نهرو، أَوّل رئيس وزراء للهند المستقلَّة، من وصفها: "مدينة الكوابيس". وقد توغّل أَحد الكتّاب إِلى أَبعد من ذلك فعرّفها بالقول: "إِنّها المدينة ذات الوجهين، العاجّة، المتداعية، المتقيّحة، التي تأكل غائطها". "مدينة القصور" انقلبت "مدينة الأَكواخ".

فَقَدت كلكتّا طابع الترَف المرهف، ولكنّها ما فتئت تجهد كي تظلّ مفترق طرق التجارة العالميَّة، بفضل قربها من مناجم الفحم والحديد والنحاس وسائر المعادن، ومصانع الكيميائيّات، والموادّ الصيدلانيَّة، والمطاحن، ومناسج الخيش والقطنيَّات؛ وبفضل آلاف أَطنان الموادّ الغذائيّة التي تتدفّق عليها باطّراد من ضواحيها الزراعيَّة، وخصوصًا بفضل مرفئها النشيط المنبسط على ضفاف "الهوغلي"، أَحد سواعد نهر الغانج؛ فعبر هذا المرفأ يمرّ ثلث مجموع استيرادات الهند ونصف تصديراتها.

ولم تكفّ كلكتّا عن النموّ، ولكن نموًّا عشوائيًّا لا يضبطه أيّ تنظيمٍ، مثل غابةٍ بشريّةٍ، حيثُ لا هدفَ للنموّ، ولا ضابط سوى الربح الفرديّ. ربّما، هي غدت عاصمةَ الهند الاقتصاديّة، غير أَنّها، أَيضًا، عاصمة التناقضات والمفارقات الصارخة، فالغنى الفاحش فيها يُجاور البؤس المريع؛ وغالبًا ما يقتضي العبور، فيها، من منزل مُكيَّفٍ إِلى مكتبٍ مُكَيَّفٍ، ومن سيَّارةٍ مكيَّفةٍ إِلى حانوتٍ مُكيَّفٍ، اجتياز مساحاتٍ اتَّخذ منها قومٌ شبه عراةٍ مرقدًا، ومرمى لأَقذارهم. وقد تكلّف وجبةٌ واحدةٌ في أحد مطاعمها الفاخرة ما يُقيم أَوَد أُسرةٍ كاملة من المحرومين مدى أَشهرٍ طويلةٍ. ومع ذلك قد يجعل الاعتيادُ ذلك التناقض أَمرًا عاديًّا.

مظاهرُ النشاط والغنى في كلكتّا تجتذب المحرومين المفتقرين حتّى إِلى لقمة العيش، ولا سيَّما من قرى البنغال، حيث يجتثُّ الفلاَّحين من جذورهم تعاقبُ

الكوارث الطبيعيّة، و"دورات الشقاء"، فإمّا جفافٌ يودي بالزرع والضرع، أو طوفاناتٌ تقضي على الأَخضر واليابس، والمواسم والبهائم والبيوت؛ أَو أعاصيرُ تدمّر كلّ شيءٍ، كذاك الذي انقضّ عام ١٩٦٥ بقوّة عشر قنابل هيدروجينيَّة، وهجَّر قرًى بقضّها وقضيضها، وما ينجم عن كلّ ذلك من فقرٍ وبؤسٍ؛ فضلاً عن التقاليد الوبيلة الراسخة التي تدفع حتّى الفقراء إِلى رهن أَراضيهم ومنازلهم في سبيل تزويج أَبنائهم وبناتهم، بحيثُ لا يبقى سوى العمل في المدينة، أملاً في الانعتاق من الديْن، أَمل لا يتحقّق أَبدًا.

إِلى ذلك كلّه، تنضمّ مواكب المهجّرين الذين تدفعهم إِلى كلكتّا الحروبُ والصدامات الطائفيَّة كتلك التي اندلعت إِثر تقسيم الهند، وإِنشاء الباكستان عام ١٩٤٧، وحدت بِأَرْبَعَة ملايين مهجّرٍ إِلى الفرار من البيهار والباكستان الشرقيّة إِلى كلكتّا، ممّا زاد كوابيس الشقاء قضًّا للمضاجع، فالمهجّرون يجهلون أَين يمكنهم الإِقامة، أو كيف السبيل إِلى العيش.

كلٌّ تلك العوامل جعلت كلكتّا أكثر مدن العالم اكتظاظًا. ففيها يزدحم، اليومَ، ما ينيف عن عشرة ملايين نسمة، بحيث لا يتعدّى وسطيّ المساحة التي يعيش عليها كلٌّ منهم ثلاثة أمتارٍ مربّعةٍ ونصف المتر، في حين لا يتخطّى نصيب المتكدّسين في أَكْوَاخ البؤس، المحيقة كالزنّار بالمدينة، أَو المبثوثة في وسطها، المتر المربّع الواحد للفرْد.

لقد باتت كلكتّا تعجّ بالبؤس والمهجَّرين، الذين، سعيًا وراء لقمة العيش، تدفّقوا عليها من كلّ صوبٍ، واستقرّوا على أَرصفتها التي اتَّخذوا منها مساكن؛ أمّا من يحالفهم الحظّ، فيقيمون في أَكْوَاخٍ يتعذّر وصف ما يواجهون فيها من أصناف البؤس والحرمان. نحوُ مليون مُشرَّدٍ احتلّوا كل شبرٍ من أَرصفة الشوارع والساحات، ونصبوا فوقها معابدهم، وضربوا خيامهم، حيث يأكلون ويشربون، ويرقدون ويغتسلون، ويبولون ويتغوَّطون، ويتزوّجون ويُنجبون ويموتون. لا سقفَ لهم سوى باطن مقعدٍ، أو زاوية بابٍ، أو عربةٍ مهجورةٍ، أَو أوراق صحفٍ وقصاصات ورقٍ مُقوًّى؛ وإِن هم التمسوا خلوةً، فخلف أَكْيَاس من خيش، أَو نتفٍ من بلاستيك معلّقةٍ بخيطٍ غليظٍ. كلّ مترٍ من الرصيف احتلَّته أُسرةٌ، حيثُ الأَولاد يترعرعون ويتسوّلون، والنساء يغسلنَ الأَلبسة والأَواني، ويُعدِدْن الطعام، والباعة الجوّالون يبيعون شتّى

الأَطعمة والمشروبات، ولا سيَّما أكواب الشاي بالحليب، وحيث الخيّاطون والاسكافيّون، وسائر المهنيّين يمارسون حِرَفهم.

إِلى جانب أُولئك، انتشرت مجمّعاتٌ سكنيّةٌ زريّةٌ تدعى "السلوم"، أُشيدتْ عشوائيًّا، وانتشرت في كلّ موقعٍ من المدينة، وفي الضواحي، وعند أَقدام ناطحات السحاب الحديثة، وبجوار المراكز التجاريَّة والأَبنية الفاخرة، ومساكن الطبقة المتوسِّطة، وهي تُؤوي، غالبًا، في اختلاطٍ وبيلٍ مريبٍ، فلاّحين قُسروا على هجر أَراضيهم، فعاشوا في ظروفٍ من القسوة أَودت بهم إِلى الانحطاط. غالبًا ما يعانون البطالة، وإِن هم وجدوا عملاً، فبأُجورٍ بخسةٍ جدًّا، ما يضطرّ الأَطفال، أَيضًا، إِلى التسوُّل، أَو العمل في سبيل رفد دخل الوالد الهزيل. فتسعةٌ من أَصل عشرةٍ من هؤلاء لا يكسبون روبيَّةً في النهار تمكّنهم من شراء ثلاث مئة غرامٍ من الأرزّ، غذائهم الأَساسيّ. وهم، بالتالي، يُرغَمون على الاستدانة بفوائد فاحشةٍ، وإِلى رهن حليّهم وأَمتعتهم الشخصيَّة التي لا يلبثون أَن يفقدوها لعجزهم عن وفاء الديْن. وينعدم لديهم أيّ احتياطيٍّ غذائيٍّ، فيُضطرّون إِلى ابتياع الضروريّ، عند الحاجة، بمقادير ضئيلةٍ: بضعة غراماتٍ من الملح، أَو ملعقة من السكّر. وفي تلك المساكن الضنكة، التي هي بالمعتقلات أَشبه، لا فسحةَ لأَيّة خلوةٍ، إِذ يتكدّس في الغرفة الواحدة عشرة أنفارٍ، بل اثنا عشر نفرًا، أَحيانًا.

وكثيرًا ما يمتزج في تلك المجمّعات خليطٌ مُبْهَمٌ من شتّى الأَجناس والأَديان، وفي كلِّ مجمّعٍ "مافيا" محليَّةٌ، تسيطر على كلّ تَحَرُّكَات السكّان، وتحدّد أُجور الأَكواخ، وتنتج الكحول الرديئة، وتبيعها خِلسةً، وتُصدر الأَحكام على من يحاولون التمَرُّد، وتنفّذها، وتحتكر السوق السوداء، وسوق البغاء والمخدّرات. وقلّما يتمرّد سكّان تلك المجمَّعات على تعسُّف "المافيا"، فقد آمنوا بالقول الشائع: "لا يسوغ للأسماك أَن تعيش في خلافٍ مع تماسيح المستنقع"، أَو بذلك القول الآخر: "ما لا يمكن شفاؤه، ينبغي احتماله".

وقد غابت عن تلك المجمّعات كلّ مظاهر الجمال والصحَّة. فنصيب كلّ ثلاثة آلاف فردٍ أقلّ من شجرةٍ واحدةٍ، ولا زهرة ولا فراشة، رغم ولع الهنود برموز الجمال، كما يتجلّى من خلال قول شاعرٍ هنديّ:

"إِن امتلكتَ رغيفَيْن،

أعطِ أَحَدهما للفقراء
وبعْ الآخر، وبثمنه اشترِ زنابق
تغذّي بها نفسك".

ولا أثر في تلك المجمّعات لطيورٍ غير العقبان والغربان، ولا عهدَ للأطفال فيها بغابةٍ أَو بحيرةٍ، والهواء مثقلٌ بأُوكسيد الفحم والكبريت، والتلوّث يحصد ضحايا في كلّ عيلةٍ.

ذلك الاكتظاظ الوبيل، يجعل من كلكتّا إِحدى أَسوأ الكوارث البيئيّة في العالم، فعشرات أَطنان الأَقذار تتراكم كلّ يوم، وتعجز الخدمات البلديّة عن جمعها وترحيلها في المُهَل الطبيعيّة، ما يستدعي، ولا سيَّما في الصيف، سُحُبًا من الذباب، والهوامّ، وجماعات الجرذان، والأوبئة، ويبعث نفثاتٍ سامَّةً من روائح التعفّن والتفسُّخ.

والوضع الصحّيّ في كلكتّا، عامَّةً، مريعٌ: فالمشافي مكتظَّةٌ، ومن يحالفه الحظّ ويُقبَل في أَحدها، عليه، غالبًا، أَن يرضى بمكانٍ على الحضيض بين سريرين، أَو في ممرٍّ، أَو في المدخل. أَمّا من تفاقمت أَوضاعهم سوءًا، بحيثُ لا يُرجى لهم شفاءٌ، فإِنّهم ينفقون عند باب المشفى، حيث كانوا يأملون أن يجدوا مأوىً مؤقَّتًا، أَو ملاذًا أَخيرًا.

ولكلِّ موسمٍ موكبه من الأَوبئة والحمّيات: من تيفوئيد، وملاريا، وكوليرا، وجدريّ، وما إِليها من أَسقامٍ نَاجمةٍ عن سوء التغذية، وانعدام وسائل الصحَّة والنظافة. أَمّا التلوُّث فمن الكثافة بحيث قد يُفضي أَصغر خدشٍ إِلى التهابٍ خطير.

وممّا يضاعف كثافة التلوُّث وانتشار الأَوبئة مُناخ كلكتّا الذي يُعدّ من أَشدّ مُناخات العالم قسوةً. فطيلة ثمانية أَشهرٍ من السنة، يسود حرٌّ يُذيب إِسفلت الشوارع، ويصهر البشر والبهائم. وعندما تنهمر الأَمطار الموسميّة، تتحوَّل الأزقّة إِلى مستنقعات وحلٍ وغائطٍ، بحيث قال أَحد الكتّاب الإِنكليز إِنّ الحشرات ومتعهّدي الجنازات، وحدَهم، شديدو الكَلَف بمُناخ كلكتّا. وحتّى عهدٍ قريبٍ، كان البَرَص والسلّ وشتّى الأَمراض المعويّة، والأمراض الناجمة عن النقص الغذائيّ سببًا في انخفاض متوسّط عمر الفرد في كلكتَّا إِلى أدنى مستوى في العالم؛ فلكأنّ تلك المدينة، بكلِّ ما يعجّ فيها من أوبئةٍ وفقرٍ ومصائب، تُحاكي إِلهتها "كالي" الرهيبة، إِلهة الرعب والموت التي تُبرزُ صورتُها عينَيْن تشعّان رعبًا، وعنقًا مُحاطةً بالأفاعي والجماجم.

تلك المدينة الأَخطبوطيَّة توفّر لقلَّةٍ من المحظيّين فُرَصًا لتكوين ثرواتٍ طائلةً،

بسرعةٍ خاطفة، وتغري بعض صغار النفوس باستغلال فاقة الملايين وحاجاتهم، بأساليب لا إنسانيّةَ فيها ولا شفقة، في حين هي تدفع المحتاجين إلى التضحية بحياتهم وصحَّتهم، وأحيانًا بكرامتهم، في سبيل الظفر بحفنات من الأرزّ تقي ذويهم من الموت. ولا بِدْعَ إن عدّ هؤلاء كلكتَّا مدينةً "لا إنسانيّةً"، وإن قال بعضهم إنّه "لو أمكن سرقة الهواء الذي يتنشَّقه البشر، لكان في كلكتّا من يسرقه".

بيد أنّ تلك الصورة القاتمة تقابلها صورةٌ وَضَّاءَةٌ، وكأنّها جوهرةٌ تلتمع وسط كومةٍ من الأقذار. ففي تلك الأكواخ الزريّة حيث تتراكم عوامل الشقاء، ما باتت تتفاعل عوامل تتيح لساكنيها لا أن يظلّوا بشرًا فحسب، بل أن يتجاوزوا ذواتهم، ويصبحوا للإنسانية نماذج ناصعة.

ففي تلك المطارح الوضيعة تمارَس، ممارسةً معجزةً، المحبّة والمشاركة، والتضامن مع الأكثر فقرًا، والتسامح حيال مختلف المعتقدات الدينيّة، والطبقات الاجتماعيّة، واحترام الغريب، والعطف الصادق على المتسوّلين والمرضى، بل حتّى على المعتوهين؛ فالضُّعفاء هنا لا يُسحَقون، بل تُمَدّ لهم يد العون، والأيتام يتبنّاهم جيرانهم تلقائيًّا. الفقراء، ومعظمهم فلاّحون اقتلعتهم الكوارث من أرضهم، قد ظلّوا مخلصين لتقاليد الجدود، وحافظوا على عادات قراهم في الكَرَم والتآخي؛ فقد آمن القوم بما قاله حكماؤهم: "**ما همّ المصاعب، إن كنّا نعيشها معًا؟**" و"**كلّ ما لا يُعطى مفقودٌ**". وأثبتوا صدق قول شاعرهم العظيم طاغور: "**إن الشقاء كبيرٌ، ولكنّ الإنسان أكبر من الشقاء**".

وممّا يستدعي الدهشة، حقًّا، أنّ ما من شعبٍ يُغرق في تكريم آلهته وأنبيائه بمثل اندفاع أهالي كلكتّا، مع أنّ السماء تبدو وكأنها أغفلتهم، لا بل ناصبتهم العداء. وقد أوجز "دومينيك لا بيير"، الذي خَبَر عن كَثَبٍ، حياة تلك المستنقعات البشريّة في كلكتّا، ووضع، في وصْفها، كُتبًا رائعةً، ذلك الواقع بقوله: "في قلب هذا الجحيم، أجد قدْرًا من البطولة والحبّ والمشاركة، والفرح والسعادة، أوفر ممَّا أجد في كثيرٍ من مدُن غربنا الغنيّ. هنا أُصادف قومًا يفتقرون إلى كلّ شيء، ولكنّهم يمتلكون كلّ شيء. وسط تلك البشاعة والحمأة والقذارة، وذلك القتام، أكْتَشِف من الجمال والرجاء أكثر ممّا أجد في الكثير من فراديسنا، وَأَكْتَشِف، على نحوٍ خاصٍّ، أنّ تلك المدينة اللاّإنسانيَّة تمتلك قدرةً سحريّةً على صنع قدّيسين".

ومن أَبرز القدّيسين، وأنصعهم وجهًا، الذين أَنجبتهم كلكتّا، من صميم بؤسها، "الأمّ تيريزا" التي عُرفتْ بالكلكتّاويَّة.

بزوغ فجر رسالة

كانت الأخت تيريزا مدركةً أَنَّ رسالتها تقتضي منها العيش في العالم، على أَلاّ تنتمي إِليه، فمُثلُها غير مُثله، وغاياتها غير غاياته. ولكي تتزوّد بالقوَّة التي تؤهِّلها لهذه العيشة، وتُساندها في هذا النهْج، ومع تحرُّقها للشُّروع برسالتها، تأَهَّبت لها برياضةٍ روحيَّةٍ، امتدَّت من العاشر حتّى الثامن عشر من كانون الأَوَّل، بتوجيه الأَب "إِكزيم" الذي كان يُحدّثها بضع دقائق في الصباح، ويدعها سائر النهار للصَّلاة الكثيفة، والتأَمُّل في جوهر رسالتها وأُطُرها، والاستسلام إِلى المشيئة الإِلهيّة. أَولَم يتأَهّب معلِّمها لرسالته بالاختلاء والصوْم أَربعين يومًا؟

وقد أَوضحت وضَعها الجديد بقولها: "**رحيلي عن "لوريتو" لم يغيّر شيئًا من انتسابي إِلى يسوع، بل عمَّقه. وسائل الرسالة، فقط، هي التي تبدَّلت. رسالتي، كمدرّسةٍ، من أَجل يسوع، كانت رسالةً حقَّة، ولكنّها استُبدِلت برسالةٍ أكثر مباشرةً، حيثُ يُشاهَد يسوع، من خلال وجه أَفقر الفقراء، ذلك الوجه المتأَلم**".

كان الأَب "إِكزيم" قد وفَّر لها إِقامةً مؤَقَّتة لدى أَخوات الفقراء الصغيرات، المشرفات على بيتٍ للمسنّين يضمّ نحو ثلاث مئة نزيلٍ، يعتمدْنَ في رعايتهم وإِعالتهم على العناية الإِلهيّة دون سواها. وقد أكملت أُولئك الراهبات تثقيفَ اَلأُمّ تيريزا، بمثال فقرهنّ، واستسلامهنّ المطلق لله. وكانت، هي، أَثناءَ رياضتها، تقف بضع ساعاتٍ، كلّ يومٍ، على مساعدتهنّ في مهمَّتهنَّ. غير أَنّ انحباسهنّ في مقرّهنّ، كان يحدّ رقعة رسالتهنّ على عدد النزَلاء الذين كان لديهنّ طاقةٌ على استيعابهنّ، في حين كانت رسالتها تدفعها إِلى الانطلاق نحو الفقراء، والمحرومين، والمُهْمَلين الذين لا يأبه بهم أَحد، والمبثوثين في كلّ ركنٍ من شوارع كلكتّا وأَزقّتها، حيثما وُجدوا.

وحلّ اليوم الذي شطر حياتها شطريْن. ففي التاسع عشر من كانون الأَوَّل ١٩٤٨، خرجت إِلى شوارع كلكتّا التي ستكون لرسالتها ميدانًا، وسارت على الأَرصفة التي غدت، لمئات أُلوف المُشرَّدين، ملجأً، تنساب فيه حياتهم بكلّ ما

يكدّرها من مهانةٍ وحرمان؛ وأدمى قلبها التساؤُل كيف يمكن التغاضي عن مناظر الشقاء المريعة تلك، أو الإعراض عن تلك الأشباح المقرفصة، التي تبدو عيونها أشدّ اتّساعًا في محاجرها الغائرة، وأولئك الأطفال الذين لا يكادون يولَدون حتّى يُلقى بهم إلى القمامة، أو إلى النهر، أو أيّ مطرحٍ آخر. وأمَّا من تُكتَب لهم منهم الحياة، فمصيرهم التسكُّع والجهل والقذارة والتسوُّل؛ وأُولئك الأموات المرميّين على الأرصفة، والذين يُجمَعون، كلّ يوم، مع الأقذار.

أُولئك كلُّهم الذين تجمعهم رابطة الحرمان، باتت الأمّ تيريزا تدعوهم "قومنا". لقد غدوا أهلها وذويها، ومنذُ الوهلة الأولى، تراءت لها آفاق رسالةٍ بلا حدودٍ، تفتقر إلى جيشٍ عرمرمٍ من المتطوّعين المقدامين، وإلى بحرٍ من الموارد لا ينضب، لمواجهة احتياجات كلّ أُولئك البائسين. ولكنّها كانت وحيدةً، ولا تمتلك سوى ثقةٍ بالله مطلقة.

وتغلَّبت عليها نزعتا المدرّسة والمؤاسية، وعلى نحو ما شرع غاندي نشاطه، في دلهي، بتعليم القراءة ومبادئ النظافة، أَولت هي اهتمامها الأوّل للأطفال المتسكّعين، في مجمَّع أكْوَاخ "موتيجهيل". هذا الاسم يعني "بحيرة اللؤلؤ". وكم تلك التسمية مناقضةٌ للواقع! فيوم باشرت الأمّ تيريزا رسالتها في "موتيجهيل"، لم يكن، ثمّة، سوى خزّان ماءٍ كبيرٍ، محاطٍ بمجارير مكشوفةٍ، تتكدَّس من حوله أكْوَام الأقذار، أيَّامًا طويلةً، قبل أن تُزاح، وما من عيادةٍ، أو مستوصفٍ، أو مدرسةٍ، وبالمقابل مئات الأطفال المتسكّعين، والمرضى الذين لا يحلمون بشفاء، فللفقراء المرضُ لعنةٌ أكثر رهبةً من الموت.

وعندما استهلّت نشاطها في "موتيجهيل"، وأمثاله من مجمّعات الأكواخ، كان سكّان تلك الأكواخ يستقون، ويستحمّون، ويقذفون بأقذارهم في مجمّعات مياه هي أشبه بالمستنقعات، ولا بِدْعَ، بالتالي، إن كانت أعراض الكوليرا، في تلك المطارح، واسعة الانتشار؛ ولكنَّها ظلَّت حتّى وفَّرت، بالتعاون مع السلطات، لكلٍّ من تلك المجمَّعات، مضخّة ماءٍ نظيفٍ، يشترك السكّان في استخدامها والإفادة منها.

من قبلُ، كانت طالما لمحت مستنقعات بؤس "موتيجهيل" من نوافذ دير"لوريتو"، وأهابت ببنات أخويّة القدّيسة مريم أن يتطوّعن لمساعدة ساكنيه. وقد زوّدها الأب "هنري" بعناوين أُسَرٍ من الفقراء القاطنين في ذلك المجمّع، فزارتها، معلنةً عن رغبتها في العناية بأطفالهم؛ وكم سُرَّت تلك الأسر بأن تصبح لأطفالها مدرسة!

كانت مدركةً أَنّها لن تستطيع تزويد الأطفال بمؤونةٍ وفيرةٍ من العلم، غير أَنّها، بتلقينهم مبادئ النظافة، والتهذيب، والسلوك القويم، والأَبجديَّة والحساب، كانت قمينةً بانتزاعهم من التسكُّع وما يَجُرّهُ من رذائل، وتمكِّنهم من تدبّر أمورهم في الحياة، بما يؤمّن معيشتهم، وقد يساعدهم على إِعانة ذويهم.

ولم يُثبِّط عزيمتها افتقارها إِلى جميع وسائل التدريس. بل إِنّها، في الواحد والعشرين من كانون الأَوّل، ارتجلت مدرسةً في العراء، كان روّادها خمسةٌ من الأَطفال القذرين، الحفاة، وشبه العراة، في أَسمالٍ باليةٍ، جلسوا أَرضًا، فيما هي استقرَّت على جذع شجرةٍ، وراحت تخطّ، بعصًا، على التراب، فوق مُستطيلٍ خالٍ من العشب، أَحرف الأَبجديّة البنغاليّة، وتلقّنهم مبادئ النظافة. وقد درجت على الإهداء لكلّ طالبٍ يُواظب على الدراسة، لوح صابونٍ، وتعلّمهم استخدامه، وهي تعلم أَنّ كثيرين منهم لن يستطيعوا الاغتسال إِلاّ في السواقي، التي تُستخدَم في أَغراضٍ كثيرةٍ أُخرى غير الاغتسال. وقد دوَّنت الأمّ تيريزا في المذكّرات، التي أمرها الأسقف بتدوينها يوميًّا، خلال الأَشهر الستَّة الأولى من بدء رسالتها، هذه الانطباعات:

"**كنتُ أَغسل أُولئك الأَولاد الذين كانوا دائمًا مقزّزين. للكثيرين منهم كانت تلك هي المرَّة الأولى التي يغتسلون فيها. كنتُ أُلقّنهم النظافة، وحسن السلوك، والقراءة، والدين. كان لَوْحي تراب الأَرض، وكان الأَولاد يفيضون فرحًا...**

"**ما زلتُ أذكر جيّدًا: كان ذلك في ١٩٤٨/١٢/٢١. مدرستي الأولى كانت تحت شجرة لوز. كنت مستظلّة بها، جالسةً فوق جذع شجرة. وتحلّق حولي الأَولاد الذين لم يتخطّ عددهم الخمسة في اليوم الأَوّل، وقد جلسوا على الحضيض. وعندما كان يتعيَّن عليَّ أَن أكتب، كنتُ أكتب على الأَرض بخشبة، في مستطيل بلا عشب. وفي الغداة ازداد عددهم**"، وقد قفز هذا العدد إِلى العشرين يوم عيد الميلاد، وإِلى خمسين يوم رأس السنة؛ ولم يعد عليها الاهتمام بطفل المغارة فحسب، بل بالعديد من الأَطفال الذين كانت تستشفّ فيهم يسوع طفلاً. ومُذّاك أَمست تعيش عيد ميلاد مستمرًّا بلقائها اليوميّ يسوع حاضرًا في كلّ طفلٍ، وكلّ فقيرٍ، وكلّ إِنسانٍ مُهمَلٍ. كانت واثقةً من حضوره فيهم، بحيث تراه وتلمسه، من خلالهم، ومن ثمَّ، وهبتهم كلّ ذاتها.

صحيحٌ أَنّها كانت قد أَحبَّت طالباتها في "لوريتو"، ولكنّها، بين ظهراني أُولئك الأَولاد المُعدمين، آنست أَنّها في موقعها الصحيح، حقًّا.

للوهلة الأُولى، نظر إِليها سكّان "موتيجهيل" في دهشةٍ واستهجانٍ، من جرّاء زيّها الغريب، وسلوكها الذي لا يقلّ عنه غرابةً. من المحقّق أَنّه كان، في كلكتّا، عددٌ من الأوروبيّات المتزوِّجات من هنودٍ، وقد أَلِفْنَ ارتداء الساري، ولكنّه كان أَنيقًا، ومن الحرير الموشّى، ويكشف أَجزاء من الجسم؛ أَمّا تلك الراهبة فقد تلفَّعت بساري من القطن الخامي الخشن كالعباءة، وغطّت رأسها، وانتعلت خفًّا بدائيًّا في قدمَيْها الحافيتَيْن. وكان حضورها يبدو محرجًا، مثيرًا لِلتَّسَاؤُلِ عمَّا تبتغيه تلك المرأة الغريبة. ولكن سرعان ما تبيّن القوم أَنّها فيما بينهم لأَنّها تحبُّهم، فهي تداعب أَبناءَهم، وتعلّمهم وتغسلهم، وتعالج مرضاهم، وتنظّف منازلهم، وتَقْبَلُ الجميعَ على علاَّتهم، بعطفٍ صادقٍ، غير ملتمسةٍ لنفسها امتيازًا أَو مغنمًا.

كانت تستهلّ الدرْس بإِنشاد أُغنيَّةٍ للأَطفال، ما كان يفعم قلوب الأَولاد حبورًا، فالشعب الهنديّ كَلِفٌ بالموسيقى والبهجة. ثمّ تتلو صلاةً قصيرةً، وتشرع تُعلّمهم الأَبجديّة البنغاليّة، لغة الشعب الشائعة هناك؛ ثمّ ما لبثت أَن أَضافت إِلى دروس القراءة دروسًا في الحساب، وللبنات دروسًا في الخياطة. وشيئًا فشيئًا، لقَّنتهم الأَبجديّة الإِلهيّة: أَبجديَّة الحبّ.

لأولئك الأَطفال المُهمَلين كانت المدرسةُ نعمةً رائعةً، فثمَّةَ من يهتمّ بهم ويبتسم لهم، ويثق بهم، ويثقون به، ويؤنسون أَنّه يحبّهم.. وهذا ما يفسّر تزايد عدد الطلاّب المتسارع.

وإِذ كانت غالبيَّةٌ من أُولئك الطلاّب تفتقر إِلى الطعام، كانت الأمّ تيريزا تمضي، كلَّ مساءٍ، بدلوٍ كبيرٍ إِلى مقرّ الرعيّة، وإِلى المدارس التي تعرفها، لجمع الأطعمة الفائضة الكفيلة بملء الكثير من المِعَد الخاوية، مُهيبةً بالجميع أَلاّ يرموا شيئًا قد يحتاج إِليه آخرون.

وَأَصْبَحَ ترداد أَحرف الأَبجديّة البنغاليّة نغمةً مألوفةً في "موتيجهيل"، وغدا الأَطفال أَوفر نظافةً وسعادةً. وإِزاءَ الطيبة المشعَّة من الأمّ تيريزا، تكاتف أَهل الحيّ، فجاؤوها بالكتُب والأَلواح والدفاتر، وبالزهيد من المال، وبمقعدٍ، ومنضدةٍ، تعبيرًا عن امتنانهم. وكانت طالباتٌ لها سابقاتٌ في مدرسة القدّيسة مريم حريصاتٍ على معرفة ما آلت إِليه حال معلّمتهنَّ التي أَحببنَها، فبحثنَ، وتقصَّيْنَ إِلى أَن عثرنَ على مكانها،

فجئنَها مستطلعاتٍ، وصُدِمْنَ لرؤيتها في الساري الخشن، حافية القدمَيْن، تدير مدرسةً في العراء، لا مقعدَ فيها ولا منضدة، ولا شيء من أدوات الكتابة، وطلاّبها في أسمالٍ مقزّزة. أيّ بَوْنٍ بينها وبين مدرسة "إينتالي" الأنيقة التي كانت لها مديرةً!

بعض أَخواتها وطالباتها القديمات أَشفقْنَ عليها من أَن تنتهي إِلى مثل مصير الفقراء الذين انغمستْ في مستنقعاتهم. إِلاّ أَنّ بعضهنّ أجلَلنَ قوّة عريكتها، وإِقدامها، وتجرّدها، وكَرَمها في بذل الذات، وراقبنَها عن بُعدٍ، متعاطفاتٍ معها، ثمَّ ما عتّم أَن انقلب تعاطفهنّ اندفاعًا. وسرعانَ ما تطوّعت إِحدى طالباتها السابقات لمؤازرتها، ثمّ انضمَّت إِليها اثنتان أخريان، وحينئذٍ أَيقنت اَلأُمّ تيريزا أَنّ عليها أَن تجعل من مشروع المدرسة واقعًا، وَتوفِّر لهَا مكانًا يضمن استمرارها في موسم الأَمطار.

إِلاّ أَنّها لم تكنْ تمتلك فلسًا واحدًا، فقصدت خوري رعيّة "سيلداه" الذي أَعرب عن إِعجابه بما كانت تحقّقه من عملٍ، ولكنّه رفض رفدها بأَيّ مبلغ. ثمّ زارت خوري رعيَّة "بارك سيركوس"، الذي سرَّته رويتها سرورًا بالغًا. وإِعرابًا عن تأييده لعملها، نفحها مئة روبيَّةٍ. وفي الغداة، استأجرت في "موتيجهيلِ"، بخمس روبيّاتٍ شهريًّا، غرفتَيْن، جعلت من إِحداهما مدرسةً ومن الأُخرى مُستوْصفًا، ومأوى للأَولادٍ الذين لا أُسرَ لهم. كانت أَبوابهما مهلهلةً لا تنغلق، ولكنّها أَصلحتها، وتوفَّقت إِلى تأثيث المدرسة بمقاعد ولوحٍ أسود، ووسائل القراءة والكتابة. وباتت، كلّ يومٍ ظهرًا، توفّر شيئًا من اللبَن وَالطعام لطلاّبها المحرومين الجياع، الذين يتراوح عددهم، وفقًا لكثافة الحضور وانتظامه، بين الأَربعين والستّين.

وفي ١٩٤٩/١/١٤، أَمست المدرسة جاهزةً، وكان على الكاهن الذي تبرّع بمئة روبيّةٍ أَن يباركها، ولقَّنت الأمّ تيريزا تلامذتها أُغنيّةً للمناسبة، وهي تذكر بشيءٍ من المرح، أَنّ ما من صوتٍ لم يكن نشازًا.

وأَصبحت المدرسة الصغيرة، في ظلّ دير "لوريتو"، حقيقةً ماثلةً. وقد أَطلقت عليها اسم "نيرمال هرايدي" أي القلب الطاهر، الذي أطلقته، فيما بعد، على بيت المحتضرين.

ولم تكن الأمّ تيريزا تلقى الاستحسان والتشجيع فحسب، بل إِنّ كثيرين ممنّ استنكروا زيّها المهلهل، وغَوْصها في مستنقعات الفقر، راحوا يُشيعون الأَقاويل عن

فَشلها، على غرار ذلك الكاهن الذي زار مدرستها، فلم يرَ فيها سوى نتائج هزيلة، وكتب: "مديرة دروسٍ سابقةٌ في معهدٍ رفيع المستوى، تحاول تعليم الأَبجديّة لأولاد سيظلّون أمّيّين أَبدًا، وتلقين استخدام الصابون لقومٍ لن يمتلكوا، يومًا، القدرة على شرائه... كلّ ذلك يبدو مؤثِّرًا، ولكن ضئيل الجدوى".

إنّه حكم العالَم على الإيمان، وحكم المنطق على الحبّ... صحيحٌ أَنّ جهود الأم تيريزا، في بداية رسالتها، كانت تبدو وكأَنّها تنصبّ في بئرٍ لا قرار لها، ولكنّها كانت نابعةً من إيمانٍ راسخٍ يزحزح الجبال. فمدرسة "موتيجهيل" التي وُلدت موغلةً في التواضع، منذ نحو نصف قرنٍ، من عناد راهبةٍ وحيدةٍ عزمت على تغيير مصير حفنةٍ من الأطفال المُهملين، كان كلّ شيءٍ يحكم عليهم ببؤْسٍ أَبديٍّ، ما انفكّت، حتّى اليوم، تحرّر من ربقة الفقر والجهل عشرات أُلوف الأحداث. وفي مكان تلك المدرسة المتواضعة، التي حكم عليها بعضهم بالفشل الذريع، تنتصب، اليومَ، مدرسةٌ حديثةٌ تضمّ خمْسة آلاف طالبٍ. إنّها، حقًّا، يد الله التي تعمل من خلال الأمّ تيريزا!

وتوالى افتتاح المدارس المرتَجَلة، في كلّ مكانٍ تدعو إليه حاجةٌ، إلى أَن بلغ عددها العشرات، وقد اتّخذت إحداها مكانها في فناء دار رجلٍ عصاميٍّ كان الفقر قد حال بينه وبين التعلّم، في حداثته، فانطلق في مضمار العمل، وأَصبح كهربائيًّا بارعًا ناجحًا، ولمّا كبر أَبناؤه الأَربعة، انضمّوا إليه فازدهرت أَعمالهم، وتمّ لهم إشادة بناءٍ فسيحٍ ضمّهم جميعًا مع زوجاتِهم وأَبنائهم؛ وقد انفسح، أَمام البناء، فناءٌ رحبٌ أَقنعتهم الأمّ تيريزا باستخدامه مدرسةً لأبناء الحيّ؛ وشاركت أمّهات طلاّبٍ، يوميًّا، في طهو الأَرزّ، وتحضير الحليب المجفّف وإذابته، كي يُصيب كلُّ طالب، قبل عودته إلى منزله، وجبة أَرزّ، وكوب حليب. وكم كانت مبعث بهجةٍ رؤيةُ أُولئك الأَطفال في زيّهم الموحّد، ووجوههم النظيفة، وشعورهم المسرَّحة، يغشون المكان كلَّ صباح، طلبًا لزاد العقل والروح والجسد!

وكان أَجرأ مشروع مدرسةٍ أقدمت عليه الأم تيريزا، مدرسة لأَبناء البُرْص، حيثُ كانت تختلف بنفسها لتفحُّص الأَولاد عن كثَب، فإذا ما اكتشفت لدى أَحَدهم أَيّ عَرَضٍ لبرَص، سارعت إلى تزويده بالعلاج الواقي.

وقد عبّرت مذكّرات الأمّ تيريزا، حول تلك الحقبة، عن مدى أَساها وإحباطها من

موقف كهنةٍ ورجال دينٍ، لم يكتفوا بالوقوف متفرّجين على جهودها المستميتة، بل أهووا بأعنف نقدٍ على كلّ ما كانت تنجزه، وشكّكوا في جدواه، وبثّوا التخرّصات عنه، مندّدين بهدر مُدَرِّسةٍ قديرةٍ طاقاتها ومؤهّلاتها الجليلة في محاولاتٍ يائسة لا طائل تحتها، ما أَقلق رئيسة دير "لوريتو" التي خُيِّل إليها أنّ ابنتها تيريزا قد ضلّت السبيل، ووقعت فريسة أَحلامٍ خرقاء، فاستدعتها وأَلحفت في إقناعها بالرجوع إِلَى حظيرة الدير. ولكنّ تيريزا، التي لم تشَكَّ، لحظةً، في أَنّ الربّ كان يقود خطاها، قد صمدت بثبات، رغم أَمواج التشكيك والتجريح التي كانت تلطمها من كلّ صوب. غير أَنّها أَودعت يوميَّاتها، آنذاك، هذه النجوى الوجيعة: "**يتساءَل البعض عن جدوى العمل وسط أَضعف الضُّعَفاء، في حين أنّ المقتدرين والعلماء والأَغنياء هم الذين يأتون إِلينا. أفليس خيرًا لنا أَن نقف على هؤلاء قوانا؟ فليقولوا ويفعلوا، هم، هكذا. ولئن كان بمكنة الأَغنياء الإِفادة من جليل خدمات العديد من الكهنة والراهبات، ومن وفائهم التامّ، فمن المحقَّق أَنّه يحقّ لأَفقر الفقراء أَن ينعموا بحبٍّ بعضٍ منّا ووفائهم. إِنّهم يسمّونني "راهبة الأَكواخ"، وإِنّي لفخورةٌ بأَن أَكون كذلك، من أَجل حبّ الله ومجده**".

ما أعمق وما أَغنى ما قالت في هذه العبارات الوجيزة!

ومع ذلك كانت تنعم ببعض العزاء الذي يتجلّى من خلال مثل هذه النجوى: "**كم من الفرح في مجمّعات الأكواخ! لقد أَمضيتُ نَهَارًا رائعًا مع الأَولاد. بعضهم يقدمون إِلى المدرسة مبكّرين جدًّا عن الموعد، ويهرعون راكضين لاستقبالنا... إِنّ الأَولاد يُحرزون تقدُّمًا حقًّا. وقد تلقّنوا خصلة التنكّب عن الأَلفاظ النابية. وقد جاؤوني بصبيٍّ كان يكلِّم أُمَّه ببذاءةٍ، فقلت له إنّ مدرسة "تيرمال هرايدي" لا تحبّ الصغار الذين يشتمون أُمّهاتهم. فخجل من نفسه**".

وأَثناء تطوافها في مجمّع شقاء "موتيجهيل"، كانت ترقب بأَسًى معاناة البُرْص الذين يطردهم ذووهم، والمصدورين، والذين يُقاسون شتّى الأَمراض الأُخرى، ولا يملكون ما به يُعالَجون، والمحتضرين على الأَرصفة، وعلى قارعات الطرق الذين رغب عنهم ذووهم أَو عجزوا عن العناية بهم، فتركوهم يتجرّعون، وحيدين، مرارة النهاية المهينة، ووحشة العزلة، فأولتهم كلّ اهتمامها، وباتت تأتي إِلى المستوصف

الملاصق للمدرسة، بمن هجرهم الجميع ولفظوهم، وتأتي لآخرين بعقاقير تستعطيها، وترسل إِلى المشافي من لم يكن لها طاقةٌ على إِسعافهم في منازلهم. وقد وَرَد في يوميّاتها: "**في موتيجهيل الكثير من الأمراض لدى الأطفال والكهول الذين يستدعونني من كلّ صوب. حمدًا لله، فمستشفى "كامبيل" يستقبل جميع المرضى الذين أُرسلهم إِليه، ويُنفذ سيَّارة إِسعاف، حالما أطلبها**".

وأَحيانًا، كانت تُضطرّ إِلى إِجراء بعض العمليّات بنفسها. فذات يومٍ جاؤوها، إِلى المستوصف، بأَبرص كان الأُكال قد قضى على إِبهامه، بحيث لم يعُد من قطعه بُدّ. وبعد أَن عقَّمت القرح، تناولت مشرطًا ومنشارًا، وتلت صلاةً موجزةً حارَّةً، ثمَّ أَقَدمت على بتر اللحم والعظم بجرأة. ولكن أُغميَ على كلٍّ من الجرّاح والمريض. أَمّا هذا فشُفي، وأمَّا الجرّاح، فقد علَّمته تلك التجربة أن يكون أكثر ضبطًا لمشاعره.

وكانت حاجتها إِلى قدرٍ كبيرٍ وَمُتَنَوِّعٍ من العقاقير يدفعها إِلى استجدائها من مختلف الصيادلة، ولئن تعاطف معها بعضُهم، إِلاّ أَن آخرين كانوا يصدّونها بجفاء، وقد يقذفونها بمقذع القول، كما يتبيّن من اعترافها: "في "تيلجالا" انصبّت عليَّ سحابةٌ من الشتائم من الدرجة الأولى، غير أَنّ الصيدليّ ما لبث أَن خجل من ذاته، بحيث صفحتُ عنه. لقد صفحت عنه. لقد صفحت، حقًّا، من أعماق قلبي".

كانت تهبّ لمساعدة فقراء "موتيجهيل" جهدَ استطاعتها؛ وقد روت أَنّ أُسرةً مؤلَّفةً من امرأةٍ عجوزٍ بنغاليّةٍ وأُختها وولدين، حطّت الرحال، يومًا، في مجمّع البؤس ذاك. كانوا قد عهدوا بعض بحبوحةٍ فيما مضى، إلاّ أَنّهم انحدروا إِلى فقرٍ مدقع. وفيما كانت الأُمّ تيريزا تلقي، آنذاك، درسًا، وافاها أَحد طلاّبها قائلاً: "أُختاه، إِنّ "زينة" وأخاها لم يتناولا أَيّ طعامٍ منذ صباح الأَمس، وليس لديهم ما يطعمون، هذا المساء". وهزّتها في الأعماق معاناة تلك الأسرة التي انزلقت إِلى هوّة الفقر، وأمسكتها كرامتها عن السؤال. وبما أنّها، وقتئذٍ، لم تكن تمتلك سوى أُجرة الترام إِلى مسكنها، ابتاعت بها شيئًا من الأرزّ المشويّ، وقدّمته مع البيضتين المُعَدَّتَيْن لغذائها، وجبةً متواضعة للأولاد الجياع.

وفي ذلك اليوم، فيما كانت عائدةً، سيرًا على الأَقدام، لجأت إِلى كنيسة التماسًا لعون الربّ، وصادفت كاهنًا طلبت مساعدته لغوث المحرومين، فصدَّها بجفاءٍ، كما لو أنّها كانت تقوم بعملٍ مُخْزٍ ؛ وأَجابته أنّها، من أَجل الفقراء، ستلجأ إِلى التسوُّل إِن

اقتضى الأَمر؛ وفي دربها إِلى مقرّ إِقامتها كانت تجاهد في حبس دموعها. مثلُ تلك الصدمات لم تكن لتثنيها عن عزمها، بل كانت ترسِّخ مقاومتها الداخليّة.

وكان التسوُّل يندرج في سياق رغبتها في فقرٍ مطلقٍ، واعتمادها الكلّيّ على العناية الإِلهيّة، ويوطّد عزمها على رفض أَيّة مساعدةٍ مُنْتَظِمَة، سواء من الكنيسة أم من الدّولة، فمساعدةٌ كهذه تتعارض ونذرها الفقر، وغالبًا ما تكبّلُها بشروطٍ تنال من حرّيّة عملها بما تمليه رسالتُها.

وكان الفقراء الطيّبون يقدّرون خدماتها أَعمق تقديرٍ، ويستشفّون فيها، مثلما هي تستشفّ فيهم، وجه الله. واتّفق أَنّها، في تلك الفترة، وافت عجوزًا مسلمةً عليلةً بعقاقير وما لبثت أَن آنست العجوز أنّها نعمت بما يشبه معجزةً، واعترفت للراهبة: "بعد كلّ سني الآلام التي كابدتُها، هذه هي المرَّة الأولى التي يُزايلني فيها الشُّعور بالأَلم. إِنّ الله هو الذي أَرسلك لي". وقد جاء في يوميّات الأمّ تيريزا، في نهاية شهر آذار ١٩٤٩: "**لقد وافتني، في "موتيجهيل"، امرأةٌ عجوزٌ مسلمةٌ قائلةً: "أُريد منك وعدًا بأن تأتي إِليّ عندما تعلمين أَنّني مشرفةٌ على الموت، فإِنّي أُريد أَن أَموت مع الله**".

وبعد أَن انضمَّت إِلى الأمّ تيريزا مُساعِداتٌ متطوّعاتٌ من طالباتها القديمات في مدرسة القدّيسة مريم، واطمأَنّت، بذلك، إِلى حسن سير مدرسة "موتيجهيل"، طارت بها الرَّغبة إِلى موقعٍ آخر من مَواقِع البؤس، وكانت قد اكتشفت، في مجمّع أكواخ "تيلجالا"، فقرًا أَبلغ إِدقاعًا، وحرمانًا أوقع إِيلامًا، وحاجاتٍ أَدعى إِلى التَّلبية.

وهكذا، في الرَّابع من كانون الثاني ١٩٤٩، وهي في غمرة انشغالها بتأسيس مدرسة "موتيجهيل"، استأجرت مكانًا في "تيلجالا" بأَربع روبيّاتٍ شهريًّا، جعلت منه مدرسةً، وكانت، في أَيَّام الصَّحو تحوّله مستوصفًا، فيما الأطفال يتلقَّون دروسهم، خارجًا، في العراء. وقد وَرَد في يوميَّاتها: "**لقد رجوتُ الأَهالي أَن يُرسلوا لي أَبناءَهم. وسأبذل كلَّ مُستطاعٍ لغوث أُولئك الفقراء. فبؤسهم أَشدُّ فداحةً من بؤس قاطني "موتيجهيل**". وبعد أيّامٍ دوّنت في يوميّاتها: "**في "تيلجالا"، فكرة المدرسة أَثارت الأَطفال إِلى أَبعد مدًى... أَرجوك، إِلهي، سأكون سعيدةً برؤيتهم فيها**". "**الأَطفال رائعون. في "تيلجالا" ليس لديّ سوى ستّةٍ منهم. على الأَقلّ ستّة أَطفالٍ في مأمنٍ من التَّسكُّع، والسُّلوك السّيّئ... لقد جاء ذووهم، وسعدوا لرؤية أنّه بات لأَبنائهم مكانٌ**".

ثمّ في ٢ شباط كتبت: "**في "تيلجالا"، أَصبح لديَّ خمسةٌ وعشرون ولدًا. إنّهم لطيفون ومهذّبون، ومولعون باللعب. و"تيرمال هرايدي" ينمو. فليتبارك الله على كلّ شيءٍ**".

وبالإضافة إلى المدرستَيْن والمستوصفَيْن في "موتيجهيل" و "تيلجالا"، افتتحت، في إحدى قاعات مدرسة رعيَّة القدّيسة تيريزا مستوصفًا كانت تستقبل فيه المرضى، عقبَ الفراغ من الدروس، ولا سيَّما المصابين بالسل، وقد حصلت، لهذا الغرض، على جهازٍ للكشف عن الداء، في مراحله الأولى. وبات وقتُها وجهدُها نهبًا بين مراكز خمسة.

مغامراتٌ عديدةٌ كانت تخوضها في آنٍ واحدٍ، وكأَنّ نارًا مضطرمةً تدفعها إلى إغاثة أَوفر عددٍ من المحتاجين، في شتّى المجالات، في أقصر مهلةٍ، فهي لا تطيق رؤية معاناتهم تستمرّ. لم تكن تعدُّ أَيّ شيءٍ ملكًا لها، خلا "خطاياها"، وأَوهانها، وفقراء كلكتّا الذين باتت تدعوهم "قومنا". وهي، عندما كانت تتلفّظ بهذا القول، كانت رنّة صوتها تعبّر عن كلّ ما تكنّه لهم من عطفٍ، ومحبّةٍ، واحترام.

كثيرون هم الذين كتبوا عن كلكتّا، واستفاضوا في وصف عِلَلها ومواطن وهنها، بيد أَن الأمّ تيريزا أَحبّتها، وفي صمتٍ، وَدَأَبٍ، وعطفٍ، أكبَّت على تضميد جروحها. لم تعمل بعقليَّة مساعدةٍ اجتماعيَّةٍ، أو محلّلةٍ سِيَاسيَّة؛ ولم تحسُب، وتخطّط، بل هبّت للعمل، واندفعت إلى الغوث فحسبُ.

كلكتّا مدينةٌ تموج بالجموع، مثل مدينة نمل، ولكنّ الأمّ تيريزا لا ترى فيها سوى كائنٍ واحدٍ يُعاني الجوع، والعُري، والإهمال، والنبذ في الشوارع، من خلال أُلوف النساء والرجال والأَولاد، ذلك الكائن هو يسوع. وكلّ إنسانٍ تقدم له الغوث مقرونًا بحبّها، هو ذلك الكائن الأَوحد، الحاضر فيهم جميعًا، والمتمثّل في الفقير الذي ستعيد له كرامته. ففي نظرها، الإملاق هو، في المقام الأوّل، التجرّد من الكرامة الإنسانيّة التي تحقّ لكلّ فرد. ومن ثمّ، ما انفكّت تؤكّد أَنّ الفقراء، أكثر من افتقارهم إلى الخبز، يعانون الجوع إلى الكرامة الإنسانيّة.

ليس للعدَد النظريّ شأنٌ في اعتبارها، ومن ثمّ فهي تصبّ اهتمامها، على الوحدات التي تكوّن العدد، وتقرّ: "**لا يمكن إنجاز كلّ شيءٍ دفعةً واحدةً. بل الممكن هو حبّ يسوع، الوحيد الحاضر في الجميع، دفعةً واحدةً**".

مذ استهلّت رسالتها، تجلّى عزوفها عن المشاريع الكبرى، وما تقتضيه من دراساتٍ شاملةٍ، ورصد ميزانيّات، وخططٍ مستقبليّةٍ بعيدة الأَمد، بل هي حصرتْ اهتمامها بحالاتٍ فرديّةٍ عكفت على معالجتها في الحال، فالجائع يجب إِطعامه، والمريض ينبغي علاجه، والمشرّد يتعيَّن إِيواؤه. ومنهجها هذا لن يُبدّله الزمن.

لقد كانت حريصةً على الاستجابة لكلّ نداء، فلا تتحرَّج من مباشرة مشاريع عديدةٍ في آنٍ واحدٍ. فمدرسة "موتيجهيل" وقفٌ على أطفال "موتيجهيل". وأَطفال "تيلجالا" في حاجةٍ إِلى مدرسةٍ، فتفتتح لهم مدرسةً في حيّهم، ولو هي لم تكن قد حلَّت، بعد، جميع مشاكل "موتيجهيل". وكذلك أَمر المستوصفات، ودور المحتضرين، وما إِليها. فبما أنّ تلك كلّها هي أَعمال الربِّ، فالربّ كفيلٌ بتأمين جميع وسائل النجاح لها. وإِن قُيِّض لمشاريعها الصغيرة أَن تكبر وتنمو، فذلك شأن الربّ. منذُ البدء برهنت عن إِيمانها الراسخ بدعوتها الخاصّة، وعن خضوعها المطلق للربّ، وعن يقينها بأَنَّها ليست سوى أداةٍ طيّعةٍ في يده.

حبّها لا يطال جماعاتٍ مُبْهَمةً مُغْفَلَةً، بل أفرادًا معيَّنين، وكثافة الحبّ هي التي تُضفي على العمل قيمته: "**ما يهمّ ليس عدد الإِنجازات وحجمها، بل مجموع الحبّ الذي يسكبه كلّ امرئٍ في ما يعمل... رُبَّما ما نفعله ليس سوى قطرة ماءٍ في محيطٍ، ولكن إِن لم نفعله لافتقر المحيط إِلى تلك القطرة**".

تلك الحقبة، حقبة البدايات، كانت حقبة فرحٍ داخليٍّ، وإِرهاقٍ جسديٍّ، ومصاعب من كلّ نمطٍ، وفترة إِنضاجٍ لإِيمانها برسالتها، وتَجرّدها، واعتمادها المُطلَق على الله. فالشقاء جمٌّ، وهي وحيدةٌ عزلاء، لا وسائل لديها، ولا مُساعدين. فتلتفت إِلى الربّ مبتهلةً: "**ربّاه! أنت لي كلّ شيءٍ، استخدمني متى شئت. لقد أَخرجتني من الدير حيث كان لي بعض جدوى. فقدني الآن، كما تشاء**".

ومن بعض مقاطع يوميّاتها عن تلك المرحلة، يتجلّى ما كان يتجاذبها من فَرحٍ بالقليل المُنْجَز، والإِحباط أمام الأَلم الجمّ الذي ينبغي إِغاثته. فهي، تارةً، تقول: "**اليومَ، التَقَيْتُ بائسًا التمس مساعدتي، لأَنّه يكاد ينفق جوعًا. وكنتُ على بعد ساعة سيرٍ من مكان إِقامتي، ولا أمتلك سوى أُجرة ركوب الحافلة. ومع ذلك نفحتُه إِيَّاها. فعلتُ ذلك إِكرامًا ليسوع. كم أَنا سعيدة!**" ثمّ تجتاحها موجة إِحباطٍ فتهتف: "**ربّاه، إِن أنا كنت**

عاجزةً عن مساعدة هؤلاء القوم، في ما يعانونه من متربةٍ وتخلٍّ، فأعطني، على الأقلّ، أن أَموت معهم، وفيما بينهم. فهكذا سأستطيع نفحَهم دليلاً على حُبِّك!"

في تلك الأَثناء، كانت الأمّ تيريزا جادَّةً في العثور على مقرٍّ لها قريبٍ من مجمَّع أكواخ "موتيجهيل"، فاجتياز المسافة بينه وبين بيت أخوات الفقراء الصغيرَات كان يهدر منها وقتًا ثمينًا كانت تؤثر وقفه على فقرائها، فضلاً عن عدم استساغتها أَن تظلّ عبئًا على أولئك الأَخوات، وعن تطلّعها إلى استقبال أَخواتٍ لها يتطوَّعنَ لمؤازرتها في رسالتها، ما كان يقتضي منها امتلاك مقرٍّ خاصٍّ بها. وخُيِّل إليها، يومًا، أَنّها عثرت، أَخيرًا، على ضالّتها المنشودة، ولكن عندما أَزف موعد توقيع العقد، نكص المالك عن وعده. ويومها، لمَّا قفلت راجعةً إلى مركز أَخوات الفقراء الصغيرات، منهكةً، خائبةً، اجتاحها شعورٌ مرهقٌ بغمّ الفقراء المضني، وقد أَفصحت عمّا كان يتجاذبها من مشاعر، عندما دوَّنت: "**لقد سرتُ طويلاً حتّى أُنهكتُ. يداي وساقاي ترتجف. لقد شرعتُ أُدرك، حقًّا، أَلَم الفقراء الجسديّ، وكربهم النفسيّ، وهم دائبو البحث عن ملجأٍ، وطعامٍ، ودواءٍ. وفجأةً راودتني، بعنفٍ، ذكرى الرفاه والأَمان المادّيّ، اللذَيْن كنتُ أَنعم بهما في "لورَيتو"، ووسْوَس في داخلي صوتٌ هامسًا: "قولي كلمةً واحدةً، يكنْ لك كلّ ذلك من جديد**". ولكن في مواجهة تلك الغواية انبثقت من أَعْمَاقِهَا تلك الصلاة الحارّة:

"إلهي، بملء اختياري، وباعتمادي على سندك وحده، أَودّ أَن أَبقى هنا، وأَن أُنفِّذ مشيئتك. لن أَنظر إلى الوراء. جمعيَّتي هي جماعة الفقراء، أَمانُهم هو أَماني، وصحَّتهم، صحَّتي، ومنزلي هو منزلهم، هؤلاء الذين يأبى الجميع الاقتراب منهم، خشية العدوى والقذارة، لأَنّ الميكروبات والأَمراض تغشاهم؛ هؤلاء الذين لا يجسرون على الشخوص إلى الكنائس، لافتقارهم إلى ما يلبسون، الذين لا يأكلون، لأَنّهم أَمسوا عاجزين عن تناول الطعام، أُولئك الذين ينهارون على قارعات الطرُق، وهم يعلمون أَنَّهم سيموتون، ويجتاز بهم الأَصحّاء غير مبالين، أُولئك الذين لم يعُدْ لهم قِبَلٌ على البكاء، لأنّ مآقيهمْ قد جفّت".

وعندما كلَّت من البحث سُدًى، أَوكلت الأَمر إلى خوري الرعيّة، الأَب "جوليان"، الذي راح يستطلع، لدى كلّ معارفه، عن مكان إقامةٍ للراهبة، على مقربةٍ من مجمّع

أكواخ "موتيجهيل". وذات صباحٍ من شهر شباط، جاء بالزاد الأخير لوالدة ألفريد وميشيل غوميز، البورتوغاليَّيْ المحتد، واللذيْن كانا من نشيطي الرعيّة، ويمتلكان بناءً من ثلاثة طوابق، على حاشية "موتيجهيل" فكلّمهما عن اَلأُمّ تيريزا، وحاجتها إِلى مقرٍّ في ذلك الموقع، "ولو كان كوخًا أَو خصًّا، أَو أَيّ مكانٍ بسيطٍ على أَن يكون قريبًا من "موتيجهيل". وكان ميشيل غوميز قد سمع عن تلك الراهبة التي كانت مُدرِّسة ابنة أَخ زوجته في "لوريتو"؛ ولكنّ انشغال باله وبال أَخيه بحال والدتهما المحتضرة لم يُسعفهما في الإِجابة في الحال، فاستمهلا لبحث الأَمر. ولكن، بغتةً، ارتفع صوتٌ رقيقٌ خجولٌ، صوت ابنة أحدهما، كانت في الثامنة من عمرها، قالت: "بابا، لمَ لا نُعطي الأُمّ تيريزا الغرفتَيْن الخاليتَيْن في الطابق العلويّ؟" واستحسن الجميعُ الفكرةَ، وسارع الكاهن إِلى تفقّد المكان فاستحسنه، ولو أَنّه كان يبدو كبيرًا لراهبةٍ وحيدةٍ. ولكن هو، أَيضًا، كان يراوده حَدْسٌ بأَنّ وحدتها لن تطول، وأَنّ المكان سيضيق سريعًا بساكنيه. وفي نهاية شباط ١٩٤٩ حملت الأمّ تيريزا كيس أمتعتها، واتّخذت لها مقرًّا في "١٤ غريك لين"، في بناء عائلة غوميز.

وأَثَّثت اَلأُمّ تيريزا مقرّها بما يريحها، ويُضفي عليه طابعِ الفقر المطلق، فاقتصرت على كُرسيٍّ، وصندوقٍ كانت تستخدمه، في آنٍ معًا، خزانةً لحاجيّاتها، ومنضدةً للكتابة، وبعض صناديق خشبيّة أُخرى بمثابة مقاعد، وزيَّنت الحائط بصورة سيّدة الحبل بلا دنس.

ومنذ اليوم الأَوّل انضمَّت إِليها الأَرملة العجوز "أُمّ شارو" التي كانت تعمل طبَّاخةً في دير "لوريتو"، ولم تُطقْ مبارحة الأمّ تيريزا فلازمتها، وكانت كلّما وَرَدَ للراهبة. بعض الهبات ترافقها لابتياع ما يلزم من أجل المدرستَيْن والمستوصف.

وكانت أُسرة غوميز رائدة المتعاونين مع الأُمّ تيريزا، ومرسلات المحبّة، في تلك الفترة الخفيَّة، حين كانت اَلأُمّ تيريزا ما زالت مجهولةً، ولا يعلم ما يبذله آل غوميز في سبيلها سوى الأَب السماوي الذي يرى في الخفاء. ولا بدْعَ، بالتالي، إِن أَلِفَت الأمّ تيريزا أَن تصف السيِّد ميشيل غوميز بالقدّيس، مع ما عُهِد عنها من إِعراضٍ عن كيل المديح إِلاّ للفقراء الذين ما انفكّت تصفهم بالرائعين والجديرين بالحبّ. ومن جهته، اعترف ميشيل غوميز، الذي تميّز بتواضعٍ سحيقٍ، أَنّ السنوات الثلاث التي استضاف فيها الأمّ تيريزا قد أَعطته أكثر كثيرًا ممّا هوَ أَعطى.

لم يكن آل غوميز يفوّتون فرصةً لمساعدة ضيفتهم، ولكيلا يَدَعوها تسير وحيدةً في شوارع كلكتّا، كانت تُرافقها زوجة ميشيل غوميز، أو ابنته الصغيرة، أَو ميشيل غوميز نفسه، ولا سيَّما عندما كانت تطوف بالصيْدليَّات لاستجداء أَدويةٍ لمرضاها الفقــراء، أَو أَلبسةٍ أَو أطعمةٍ؛ وإِلى جانبها، شرع ميشيل غوميز يتعلّم مدّ اليد التماسًا لبضع روبيّاتٍ، أَو لثيابٍ خَلِقةٍ؛ وأَدرك ما ينطوي عليه التسوُّل، ولو في سبيل المعوزين، مــن مهانــةٍ، كانت الأمّ تيريزا قد تعلَّمت تجاوزها. وهو لم ينسَ، قطُّ، يوم رافقها إِلى صــيدليَّةٍ كــان صاحبها مستغرقًا في تأمين طلبات جمعٍ من الزبائن المستعجلين، ودنتْ منه الراهبــة، وأَلقت بين يدَيْه قائمة عقاقير، موضحةً أَنَّهَا لا تملك ثمنها، فأجابها الصيدليّ بجفاء: "لقد أَخطأتِ هدفك، فانصرفي، ودعيني أُكمل عملي". وانسلَّ ميشيل غوميز إِلــى الخــارج مُطأطئَ الرأس، يتصبَّب، من الخجل، عَرَقًا، في حين جلست الأمّ تيريزا على مقعدٍ، في ركنٍ من الصيدليّة، واستلّت مسبحتها، وراحت تتمتم صلاتها، فإِن هي لم تظفــر بتلــك العقاقير، ظلّ العديدون من المرضى يئنّون، وأصبحت أُمَّهاتٌ ثكــالى. وظــلّ ميــشيل غوميز يذرع الرصيف في حَرَجٍ وقلقٍ، إِلى أَن جاء الــصيْدليُّ الراهبــة بــثلاث رُزَمٍ وضعها بين يديها قائلاً: "هذه هيَ العقاقير التي تحتاجين إِليها. عدّيها هديّةً المحلّ مــن أجل مشاريعك". وشكرته الأمّ تيريزا بنظرةٍ تألّق فيها كلّ سنى السماء.

وانقضت أَيّام رسالتها الأولى مزيجًا من نِعَمٍ، وبذلٍ، وفرحٍ، وإِحباطٍ، ولكن فــي ثقةٍ بالله لا تتزعزع. وكانت حياتها، حينئذٍ، تنساب في بساطةٍ مُطلَقةٍ، وعطاءٍ دفّــاقٍ؛ فهي تستيقظ مع الفجر، فتُصلّي، وتتأمّل، وتحضر القدَّاس في كنيسة القدّيسة تيريــزا التي يخدمها الأب "جوليان هنري". ثمّ، عقب تناول إِفطارٍ وافٍ يوفّر لها طاقةً علــى العمل الشاقّ طيلة النهار، وتنظيف مسكنها الذي كانت تنهض به بنفسها، كانت تنفق نهارَها كلّه في مجمّعات الأَكواخ حيث تدرّس، وتساعد، وتعالج، وتعقّم قروح العديد من المرضى وتُضمّدها، وتزور أَفرادًا وحيدين مؤنسةً وحشتهم، وتوفّر للجيــاع مــا يسدّ رمقهم. وكانت تصطحب، في كيسٍ صغيرٍ، وجبة غدائها تتناولها أَينما وجــدت مجلسًا وماءً. وقد التمست، يومًا، أَن تتناوله في ديرٍ، فطُلب منها الالتفاف نحو الباب الخلفيّ، والجلوس تحت السلالم، على غرار متسوّلي الطرقات.

وغالبًا ما كانت تعود إِلى المنزل بمرضى تخلّــى عــنهم الجميــع، فتــؤويهم،

وتطعمهم وتعالجهم، إِلى أَن انقلب بيت آل غوميز موئلاً لرجاءٍ جديدٍ، وواحةَ عزاء.

ومع ما كان يواكب عملها من نَصَبٍ وقذارةٍ، تطوّع كثيرون لمؤازرتها. وقد ورد في يوميَّاتها: "**معلّمتان في مدرسة القدّيسة مريَم وافتاني راغبتَيْن في مساعدتي؛ وكذلك فعلت أُسرة "داس غوبتا" الهنديّة؛ الابن الأَصغر "سابريتي" يُريد مساعدتي بأَيّ ثمن. وقد جاءني أَيضًا السيِّدان "ڤانسان" و"غاسبر" وهما كاثوليكيَّان بنغاليَّان طيّبان، وأَكّدا لي عزمهما على فعل كلّ ما يسعهما لإِنجاح مشروعي**".

وثمّة من لم تكن تروق لها مساعدتهم الكلاميّة الجوفاء، نظير مدير التربية الذي، إِثر مقابلتها له قال لها: "أُختاه، إِنّك تثيرين إِعجابي وحسدي، فحبُّك لهذه الطبقات المحرومة جمٌّ، في حين نحن، أَبناء البلاد، لا نفعل لهم شيئًا. امضي فقابلي رئيس الوزراء، وأَطلعيه على ما تفعلين، فعليه وعلى حكومته الاهتمام به. ذلك هو واجبه، وليس واجبك. إِنّكِ راهبةٌ صغيرةٌ، ولكنّك تبدين مصمّمةً على العمل، وستنجحين". وقد علّقت على ذلك الخطاب بلسعةٍ مشوبةٍ بالمرح: "**كنت أُوثر أَن يعطيني شيئًا آخر غير هذه الثرثرة الجوفاء**".

وسُرعانَ ما اتّضح لها، من جانبٍ آخر، أَنّها لا تستطيع دائمًا الاعتماد على متطوّعين علمانيّين، غالبًا ما تقسرهم وَاجبَاتهم العائليّة على النكوص بوعودهم. فهذه معلّمةٌ اضطُرَّت للغياب، وهذا طبيبٌ لم يستطع المجيء في الموعد المحدَّد، ممّا يفسد كل نظامٍ. لقد أَدركت كم يعسر على علمانيّين مُقَيَّدين بارتباطاتٍ عائليّةٍ تكريس ذواتهم بالكامل للخدمة في الأَكواخ.

وقد دوَّنت في ١٤/١/١٩٤٩: "**مضيتُ لعيادة المرضى، ولم يكن لديَّ فُسحةٌ وافيةٌ من وقتٍ، في حين كانت المعلّمة راغبةً في العودة إِلى أَبنائها. وهذا دليلٌ على ضرورة أَن نكون راهباتٍ للنهوض بهذه المهمّة**". وبعد أَيامٍ أَردفت: "**إِنّ المثابرة الطويلة في هذا العمل تقتضي قدرةً دافعةً جسيمةً، لا توفّرها سوى الحياة الرهبانيّة**".

كانت موقنةً بأَنّ الربّ سيمنّ عليها بأَخواتٍ راهباتٍ يَضْمَنَّ إِنماء عملها ونشره، كما يُستَدَلُّ من قولها: "**عندما سيحسن في نظر سيّدتنا العذراء أَن تهبني أَبناء، حينئذٍ فقط سيُشيع "تيرمال هرايدي" حُبَّه في كلّ أَرجاء كلكتّا. إِنَّني لا أَكفّ أَقول**

لها: "ليس لي أَبناء"، مثلما هي قالت يومًا ليسوع: "ليس لديهم خمرة". إِنَّني أَضع كلّ ثقتي في قلبها، وأنا موقنةٌ أَنّها ستلبّيني بأُسلوبها". وسرعان ما استجابت لها أُمُّها العذراء.

نواة جمعيَّة "مرسلات المحبّة"

لم تسعَ الأمّ تيريزا، جاهدةً، إِلى تأسيس جمعيّةٍ رهبانيّةٍ، ولم تستدعِ أحدًا للانضمام إِليها، ولكنّها، أَثناءَ تدريسها في "لوريتو"، كانت قد غرست بذرة تلك الجمعيَّة بتحريضها طالباتها، ولا سيَّما بنات الأَخويّة المريميَّة، على رعاية الفقراء؛ وعندما هجرت التدريس، ومضت في درب رسالتها الخاصَّة، ومع ما واكب مغادرتها من تكتّمٍ في دير "لوريتو"، إِلاّ أَنّ حَدْس بعض طالباتها السابقات، اللائي شقَّ عليهنّ فراغ غيابها، قد دلَّهن على الدافع وراء عملها، فتعقَّبنَ أَثَرها إِلى أن عثرْنَ علبها.

كانت القادمة الأولى "سوباشيني داس" الهنديَّة، ذات التسعة عشر ربيعًا، والتي درست على يدي الأخت تيريزا، مذ كانت في التاسعة من عمرها، وسُحرت بتعليمها؛ وهي تذكر "أنّها كانت تدرّس التعليم الدينيّ بطريقةٍ رائعةٍ، بحيث كان كلُّ شيءٍ يغدو لنا حيًّا. فقد استشعرنا في نفوسنا حبّ يسوع، وتضحياته من أَجلنا، وروعة التضحية من أجله... كانت تراودني الرغبة في أَن أَصْبَحَ راهبةً كي أَخدم الفقراء، ولكن، لم تستهوِني أيّة رهبانيّةٍ إِلى أَن باشرَتْ الأمّ تيريزا عملها. حينئذٍ تجلّى لي ما يتعيّن عليَّ عمله".

لقد آنست اندفاعًا لا يُقاوَم نحو تلك الراهبة المتدفّقة حيويَّةً وبهجةً، وديناميكيّةً، وإِيمانًا، والتي كانت تحاكيها هُزالاً وَضَآلة جسمٍ. أمّا الأمّ تيريزا فتروي: **"في ١٩ آذار ١٩٤٩، المصادف عيد القدّيس يوسف، قُرع بابي، وفتحته، ففوجئت إِذ انتصب أَمامي طيفُ إِحدى طالباتي في "لوريتو" التي قالت: "أُمّاه، قد جئتُ كي أُقيم معك"**.

لقد كانت "سوباشيني داس" قادمةً من أُسرةٍ ميسورةٍ، وتعيش مع ذويها في بحبوحةٍ ورخاءٍ؛ ومن ثمَّ، لم يُنسِ فرحُ الأمّ تيريزا بأُختها الأولى واجبَ تحذيرها:

"ستكون حياتُك معي شاقّةً جدًّا، فأَعملي الفكر مليًّا، وصلّي قبل اتّخاذ قرار. أُنظري إِلى يديك الناعمتَيْن، ويديَّ اللتَيْن أَتلفهما العمل الخشن؛ انظري إلى ثيابك الفاخرة، وقارنيها بساريَّ المهلهل. إِنّ الحياة الرهبانيّة، ولا سيّما هذه، تقتضي

روح تضحيةٍ جمًّا. فعليكِ، أوّلاً، أن تُنكري ذاتك كي تهبيها الله والقريب، وعليك أن تصبحي فقيرةً، حقًّا، كي تعيشي عيشة الفقراء. فهل أنتِ مستعدَّةٌ لذلك؟"

وعلى نقيض الشابّ الغنيّ الذي طلب منه يسوع التخلّي عن كلّ ثروته في سبيل اتّباعه، فانصرف حزينًا، كانت "سوباشيني" متأهِّبةً لكلّ تضحيةٍ، كي يكون لها، في رسالة الأمّ تيريزا، سهمٌ، مع أنّ التخلّي عن مطارف الديباج، والحُليّ الثمينة، كان يعني لها الكثير. ومنذ الوهلة الأولى، أكدّت أنّها أعملت الفكر طويلاً، وحزمت أمرها. ولكنَّ الأمّ تيريزا اعترضت:

– "وماذا لو قاوم ذووك عزمكِ؟"

– "لا يا أُمّاه، إنَّني واثقةٌ من أنّ ذويّ، بعون الله، سيوافقون".

ومع كلّ ما داخلَ الأم تيريزا من فرحٍ بتصميم أُولى طالباتها، التي كانت، منذ تلك اللحظة، تتحرَّق توقًا إلى الإقامة معها، لمَ تتسرَّع في الترحيب بها، بل دعتها إلى مزيدٍ من الصلاة، والتأمل، والتبصّر، وإنضاج القرار، وأردفت: "**سأُصلّي، أنا أيضًا، كي ينير الله دربنا**". فهي، أيضًا، كانت تلتمس نور الله، قبل الشروع بتأسيس جماعةٍ رهبانيّةٍ، وحريصةً على امتحان جدّيَّة قرار ابنتها الأولى، واختبار نضوج دعوتها.

ولم يطُلْ غياب "سوباشيني"، التي ما لبثت أن عادت أشدّ تصميمًا، مدلِّلة على ذلك باستبدالها الساري الحريريّ الموشّى، بساري قطنيٍّ بسيطٍ، يحاكي ساري من توخّت اتّخاذها أُمًّا ورفيقة نضال، وأعلنت:

– "ها إنّني قد عدتُ، أُمّاه، مثلما طلبتِ منّي، راجيةً ألاّ تردّيني، كما رددتِني من قبلُ. إنّي عازمةٌ في أعمق أعماقي".

وإمعانًا منها في الدلالة على التبدُّل الجوهريّ، الذي وطَّنت عليه نفسها، بادرتْ إلى البَوْح برغبتها في التخلّي عن اسمها، الممثّل لكلّ ماضيها، وفي اعتناق اسم "أنييس"، وهو اسم عماد الأمّ تيريزا.

يومها دوّنت الأُمّ تيريزا في يوميّاتها: "**لقد انضمَّت "سوباشيني داس" إلى جماعتنا الصغيرة. وقد شخصنا إلى "بيتهاك خانال" لتكريسها للسيّدة العذراء. فليبارك قلب العذراء الطاهر– وهو فرحنا ودليلنا وعوننا – بدايات جماعتنا، وليدفع بها إلى الكمال. إنّها على بساطةٍ رائعةٍ، فليحفظها الربُّ هكذا"**

لقد أُوتيت "سوباشيني- أَنييس" شرف كونها أُولى مرسلات المحبَّة، ورأس سلسلة الألوف منهنّ، تحت لواء الأمّ تيريزا، ولا بدْعَ، فقد كانت أُولى المؤمنات برسالتها. ومن الجدير بالذكر أَنّ الأمّ تيريزا قد حثّت أُختها الأولى هذه على متابعة اختصاصها في التدريس الذي سيكون لها عونًا على إِتمام رسالتها

القادمة الثانية كانت "ماجدالينا غوميز"، وهي، أَيضًا، تلميذةٌ سابقةٌ للأخت تيريزا في مدرسة القدّيسة مريم، وهي تذكر عن أيّام الدراسة: "كانت الأُمّ تيريزا تُعنى بنا شخصيًّا، فإِذا ما انتابنا مرضٌ ، كانت هي ممرّضتنا، التي تنهض بكلّ ما يلزمنا حتّى بطعامنا. وغالبًا ما تساءَلتُ أَيّ قسطٍ من النوم كانت تنال. وذاتَ مرَّةٍ، عندما مرضتُ هي التي مضت بي إِلى المستشفى"

على نقيض "سوباشيني"، كانت ماجدالينا فارعة القامة، ومنفتحةً على الآخرين. وقد دوَّنت اَلأُمّ تيريزا في يوميّاتها، بتاريخ ٢٦ آذار ١٩٤٩: "**إِنّه ليومٌ عظيمٌ، فقد التحقت بجماعتنا "ماجدالينا پاتان". إِنّها نفسٌ جميلةٌ وقويّةٌ، وستُحسن التصرُّف مع الفقراء**".

كانت "ماجدالينا" ما زالت، آنذاك، طالبةً في كلِّيَّة الطبّ، وقد حرصت اَلأُمّ تيريزا على أَن تراها تنهي دراستها، وتنال ديپلومها، وفي سبيل ذلك، دأَبت على مساعدتها في دروس الرياضيّات، فمن شأن التمرُّس بالطبّ أَن يساعد في غوث المرضى، وهو من أَخطر أَركان رسالة مرسلات المحبّة.

وقد اجتازت "ماجدالينا" امتحان الطبّ بنجاحٍ، وعادت منه وكلّ قسماتها تضجّ بالبهجة والإِثارة وعرضت على الأمّ تيريزا الميدالية الذهَبِيَّة التي ظفرت بها لأَنّها جاءت في المرتبة الثالثة بين الناجحات. وفاجأتها الأمّ تيريزا بسؤالها عمّا تعتزم فعله بتلك الميداليّة، ولم يكن ذلك السؤال قد خَطَر لها ببال. كانت الأمّ تيريزا شديدة السعادة بنجاح ماجدالينا، ولكنّها ارتأت أنّ خدمة الفقراء لا تحتاج إِلى ميداليّة ذهبيّةٍ، قد تُدخل السعادة إِلى من تلتها قي ترتيب الناجحات، وهكذا كان.

انتحلت "ماجدالينا" اسم "جيرترود"، وكانت رئيسة البعثة الطِّبِّيَّة التي افتتحت مركزًا لمرسلات المحبَّة في اليمن، وظلَّت، مع الأخت أَنييس، من أكثر مساعدات الأمّ تيريزا قربًا منها. ولا عجب إِن هي اصطحبتهما إِلى أَوسلو عام ١٩٧٩، لتسلّم جائزة

نوبل للسَّلام، فكلتاهما آمنتا برسالتها، يوم كانت ما برحت مجهولةً، تتلمَّس طريقها متعثِّرةً، ولم يُساورْهما، يومًا، الشكُّ في سموّها، بل اندفعتا في مؤازرتها، بلا حساب.

في ٢٩ أيّار، كتبت الأمّ تيريزا إِلى صديقةٍ لها بلجيكيَّةٍ كانت قد التقتها في "پاتنا": "**نحن الآن ثلاثٌ، ومشاغلنا جمَّةٌ. طيلة عدّة ساعاتٍ، كلَّ يوم، نشخص إِلى خمسة مجمّعات أَكْوَاخ مختلفةٍ. أيُّ أَلمٍ، وأيّة حاجةٍ إِلى الله! ما نزال قلَّةً كي نوفّر حضور الله فيما بينهم. ينبغيَ أَن تري كيف تُشرقُ وجوه الأَولاد عندما تأتي الأَخوات. إِنّهم قذرون وعراةٌ، ولكنّ قلوبهم مفعمةٌ حبًّا... اسألي العذراء مريم أَن ترسل لنا المزيد من الأَخوات، فحتّى لو كنا عشرين أُختًا لكان لكلٍّ منّا ما يشغلها هنا في كلكتّا**".

كم هي كانت متواضعةً عندما عدَّت رقم العشرين قمَّةً عسيرة المنال! ولو هي علمت آنذاك أيّ مصيرٍ كان الربّ يُعدّه لجماعتها، لما تردّدت في إِضافة عدَّة أَصفارٍ إِلى تقديرها. فاليوم وقد ارتقى عدد أَخواتها إِلى الآلاف العديدة، ما زالت تجد تعدادهنّ قاصرًا عن النهوض بالمهامّ الجسيمة الملقاة على عاتق مرسلات المحبّة.

وقد سجَّلت في يوميّاتها حينئذٍ : "**نحن على قدرٍ كبيرٍ من السعادة في ديرنا. فالصمت يُحَافَظ عليه محافظةً رائعةً، والشابّتان طالبتا الرهبنة من التقْوَى بحيثُ أُضطرّ إِلى مجاراتهما**".

وَتَتَذَكَّر الأُخت أَنيبس تلك البدايات فتقول: "في منزل آل غوميز، كنّا نعيش عيشة راهبات؛ ولكن بادئ الأَمر، من غير قانونٍ مُنَظِّم. وكنّا نتوقّع الاعتراف بنهجنا عاجلاً أَو آجلاً".

وعندما سُئلت هل كانت تلك البدايات شاقَّةً، أَجابت مبتسمةً: "ما أَشدَّ حماس الشباب! لم نكن نُعير المصاعب بالاً. وقد داخلنا شعورٌ واثقٌ بأنّ الربّ سيتدبّر كلَّ شيء. لم نكن نملك سوى أَشياء بسيطةٍ، ولكنّها كانت كافيةً. ربَّما قلقت الأمّ تيريزا، أَحيانًا، بشأن ضَآلة غذائنا. أَمّا نحن فلم يُساورنا، يومًا، قلقٌ. أَحيانًا كنّا نفتقر إِلى الأَرزّ. فتسأَلُ اَلأُمّ السيّدَ ميشيل غوميز أَن يبتاع لنا شيئًا منه. وكان مرضانا المصدورون أَولى بتناوله منّا. وأَثناء قدّاس يوم الأَحد، كان الأبوان "ڤان إِكزيم" و"هنري" يطلبان من المؤمنين ممارسة تقليدٍ بنغاليٍّ يقتضي من كلّ أُسرةٍ أَن تضع، جانبًا، "قبضة أرزٍّ من أَجل متسوّلٍ". وكانت "أَفواج مريم" تطوف بالبيوت فتجمعها.

وهي كثيرًا ما تكون خليطًا من بقايا، ولكنّها كفيلةٌ بإِطعام من يموتون جوعًا. كانت تلك بداية برنامجنا لإِطعام الفقراء"

المنضمَّة الثالثة إِلى الجماعة كانت الأخت "دوروثي"، أمّا الرابعة ففتاة من داكّا، بالباكستان الشرقيّ، دُعيتْ الأخت "مارغريت ميري"

يومها كتبت الأُمّ تيريزا إِلى صديقتها البلجيكيَّة: "**نحن الآن خمسٌ. صلّي كثيرًا كي تكبر جماعتنا، وتنمو قداسةً وعددًا، إِن كانت تلك هي إِرادة الله، فهناك الكثير من العمل**".

وفي يوميّاتها سجَّلت: "**بدءًا من عام ١٩٤٩ رأيت الفتيات يُقبلنَ، الواحدة تلوَ الأُخرى. الأوليات كنّ من طالباتي في معهد "لوريتو"، وراغباتٍ في أن يكرّسنَ ذواتهنّ للربّ وحده، في الحال. وكنّ يتخلَّينَ بفرَحٍ عن الساري الفاخر الذي أَلفنَه، كي يتلفَّعْنَ بآخر من القطن الخشن المتواضع. كُنّ يوافينَ وهنّ مدركاتٌ، تمامًا، أَيَّة مصاعب سيُواجهنَ. وعندما تقدم فتاة موغلةٌ في العراقة كي تضع نفسها في خدمة الهامشيّين، فما من لفظةٍ تصف عملها سوى "الثورة"، أَنبل ثورةٍ وأَصعبها: ثورة الحبّ**".

وفي غضون أَشهرٍ معدودات ارتقى عدد المنضمّات إِلى نهج الأمّ تيريزا إِلى عشر، ومعظمهنّ من طالباتها السابقات في معهد "لوريتّو"، وقد هجرْنَ المعهد قبل إِنهاء دروسهنّ، ما أَغضب ذويهنّ، الذين كانوا يتوسَّمون لهنّ مستقبلاً زاهرًا، ورأوهنّ يهجرنَ دراستهنّ لعيش مغامرةٍ مع راهبةٍ وحيدةٍ عزلاء، انغمست في مستنقع البؤس. وقد أَقلق الأَمر، أَيضًا، الأُمّ تيريزا، التي كانت تؤثر حصولهنّ على شهاداتهنّ، فهي عونٌ لهنّ على أَداء رسالتهنّ، بقدرٍ أَوفر من الجدوى. ولذلك حملتهنّ على استئناف دروسهنّ، ووقف الساعات الطوال على هذه المهمّة، كلَّ مساء. وكانت هي نفسها تساعدهنّ في ما يصعب عليهنّ، حتّى حصلنَ كلّهنّ على شهاداتهنّ. حِينئذٍ اطمأنَّ ذووهنّ. والذين، منهم، كانوا قد قاطعوا بناتهنّ، أَقبلوا عليهنّ مصالحين، لا بل غدوا يقدّمون لهنّ العَوْن في عملهنّ، ويأتونهنّ بالأَطعمة. غير أَنّ الأمّ تيريزا، مع حرصها على أَن تصيب بناتها غذاءً كافيًا ومتوازنًا، كانت ترفض الأَطعمة المترفة المُصلَحة بالمذاقات الفاخرة، لأنّها كانت تريد لهنّ العيش عيشة الفقراء.

لقد أَفعم صدر الأم تيريزا ثقةً رؤيةُ ما يضطرم في قلوب بناتها من إِيمانٍ، وما يحدوهنّ من اندفاعٍ وسخاءٍ، فأَيقنت أَنّه لا يسوغ هدر تلك الطاقات الَخيِّرَة التي

توسَّمت فيها إرادة الله، وازدَادت تصميمًا على تأسيس جمعيّةٍ رهبانيّةٍ تجسّد تطلُّعها إلى خدمة الفقراء والمحرومين والمنبوذين، وتضمن لرسالتها الاستمرار.

وشهد الناس الأمّ تيريزا وَأَخوَاتها يعملنَ ليلَ نهار، ولا يشكينَ من نَصَبٍ أو تعبٍ، ولا يتأفّفنَ، مع ما يحفل به عملهنّ اليوميّ من دواعي التأفُّف والتقزُّز، فأقبلوا على معاضدتهنّ، وتطوّع لهذا الغرض أطبّاء، وأساتذةٌ، وأربابُ أسرٍ.

وقد حرصت الأُمّ تيريزا على أن تدعو مجموعة أخواتها بالجماعة، معلّلةً ذلك بقولها: "**في واقع الأمر، نحن لسنا رهبانيّةً ولا جمعيّةً، بل فريقٌ وأُسرةٌ، وإلاّ لما قوينا على الصمود أمام عملٍ على هذا القدر من المشقّة**".

واضطرّ آل غوميز إلى وضع كامل الطبقة الثالثة تحت تصرُّف الجماعة المتنامية، وإلى بناء مراحيض وأماكن استحمامٍ لهنّ على السطح؛ وغدا المكان بأكمله يضجّ بضحكاتهنّ المدوّية البريئة، أثناء فترات استراحتهنّ. وأمّا خارج تلك الفسحات الوجيزة، فكان جرسٌ صغير ينظّم مراحل يومهنّ، داعيًا إيّاهنّ، تارةً إلى النوم، وتارةً إلى الاستيقاظ أو الصلاة، أو الطعام، أو الدراسة، أو الراحة، أو للخروج إلى العمل في الشوارع، وفي المدارس المرتجلَة، أو إلى رعاية البُرْص، والأطفال، والمحتضرين المُهمَلين. ذلك العمل، مع الصلاة، كان محور حياتهن وجَوْهره. وكنّ يمضينَ إليه اثنتين اثنتين، أو أكثر، سيرًا على الأقدام، في معظم الأحيان، وهنّ يتلون المسبحة الورديَّة، فينقضي يومهنّ كلُّه على وقع هتاف: "السلام عليك يا ممتلئةً نعمةً"

وكانت الأُمّ تيريزا تسهر، في حرصٍ شديد، على سلامة عملهنّ، وأرواحهنّ، وأجسادهنّ، سهرها على أبناء غالين.

ويذكر ميشيل غوميز: "ذاتَ يومٍ، مضتْ في إحدى مهمَّاتها منذ الصباح الباكر، ولم تعد إلاّ في نحو السابعة عشرة، ودُهِشْتُ لرؤيتها في مُؤَخِّرَة شاحنةٍ جالسةً فوق أكْيَاس الدقيق والأرزّ التي جاءت بها من المحطَّة؛ ولم تكن قد تناولتْ، في تلك الأثناء، أيّ طعامٍ أو شرابٍ. إنّني أسمع، أحيانًا، من يأخذ عليها سوء تنظيمها، وإغفالها الردّ على ما يَرِدهَا من رسائل، أو التلكّؤ في شكر المحسنين، أو الافتقار إلى حسن إدارة الأعمال. ولكنّني، آنذاك، لا أستطع الإمساك عن تذكُّرها جاثمةً فوق الأكياس، لكيلا يُفقَد شيءٌ ممّا يُقيم أَوَد بناتها".

وأَمسى منظر أُولئِكَ الفتيات المتلفّعات بالساري الأَبيض، ذي الحاشية الزرقاء، منظرًا أَليفًا في شتّى مجمَّعات الأَكواخ، التي كان سكّانها يستقبلونهنّ بالترحيب الحارّ. فبعد القدَّاس، ومنذ الصباح الباكر، كنّ ينطلقنَ إِلى الشوارع لمدّ يد العون لمن هم في حاجةٍ إِلى غوْث، وإِلى من نبذهم الجميع.

كُنّ يُدرِّسنَ صباحًا، ويُمرِّضنَ في المستوصفات بعد الظُّهر، كلَّ يومٍ، خلا أَيّام الآحاد، ويعُدْنَ المرضى وأُسرَهم، ويجهدْنَ في إِيصال بعضهم إِلى المستشفى إِذا ما اقتضت أَحوالهم ذلك، أَو يضطررْنَ إِلى تمريضهم حيث هم: في الشارع.

وتنامت أَنباؤُهنّ إِلى الأَسماع، فقدّر القومُ تلك الجماعة التي تبذل ذاتها وحياتها في خدمة من أَغفلهم وأَعرض عنهم أَقرب الناس إِلَيْهِمْ. ويروي الأَب "إِكزيم" في هذا السياق، أَنّه لحظ، يومًا، أَنّ الأَخوات لا يُصبنَ، ورغم جهود الأمّ تيريزا، سوى الزهيد من الأَرزّ، فكتب إِلى إِحدى الصحف المحلِّيَّة ملتمسًا نشر إِعلان يدعو إِلى مساعدتهنّ. إِلاّ أَنّ رئيس تحرير الصحيفة نصحه بأَلاّ يذكر عنوان اَلأُمّ تيريزا آنذاك، ولا اسم الحيّ المدقع الفقر الذي كانت تقطن فيه، لكيلا يلجم اندفاع المحسنين، فذكر الأَبُ عنوان رعيَّته الكنسيّة. وبعد يومين، توقَّفت سيّارةٌ في فناء الكنيسة، وانحدر منها موظَّف رسميٌّ، موفدًا من قبل رئيس وزراء البنغال، الذي سارع إِلى إِغاثة راهبات الأُمّ تيريزا.

وذات صباحٍ، ما كادت الراهبات ينطلقنَ إِلى عملهنّ، حتّى فاجأَهنّ انهمار أَمطارٍ طوفانيّةٍ، فعدنَ علَى أَعقابهنّ، وقالت الأُمّ تيريزا للسيّد غوميز:

- "**إِنّني آسفة، فالفتيات مبلَّلات.**

- "وأنت، أَيضًا، يا أَمّاه.

- "**وأَيّ شأنٍ لذلك، بالقياس إِلى ما شاهدناه: امرأةٌ تحمل على كتفها ابنها مرتجفًا من الحمّى، واقفةً في قارعة الطريق، وقد غمر الماء ركبتَيْها، محاولةً وقاية رأس ابنها من المطر بطَبَقٍ في يدها. كانت قد طُردت من منزلها لعجزها عن أَداء ثماني روبيّاتٍ أُجرةَ منزلها عن مُدَّة شهريْن، فأَنفذ المالكُ من انتزع سقفَ كوخها... إِن حمّى الطفل تتخطّى الأَربعين درجةً، وعليّ أَن أَعود لأَرى ما يسعني عمله... من أَجل ثماني روبيَّاتٍ يعاني الطفل سكرات الموت، وتطفو أَمتعة الأُسرة الفقيرة فوق المياه المتصاعدة!"**

إِنّ الأَمطار الموسميَّة كارثةٌ مريعةٌ لساكني الأَكواخ، فبعد القطرات الأُولى المنعشة التي يستقبلها القوم بحبور، تصبّ السماء غمارًا كالطوفان تفيض معها المجارير المكشوفة، محوّلةً الدروب إِلى مزيجٍ مريب من حمأةٍ وقاذورات.

ولكن لا شيءَ من كلّ ذلك، كان يحول دون مُضيّ الأُمّ تيريزا وراهباتها الفتيّات في سكب فيض حبّهنَّ وعطفهنّ على المحتاجين.

"تيرمال هرايدي": بيت المحتضرين المهملين

منذ عقودٍ يُشاع ويُكتب أنّ شوارع كلكتّا هي الأسرّة الوحيدة المتوفّرة لعشرات الأُلوف من المحتضرين الذين لفظهم مجتمعهم. ومعظم القوم يمرّون بهذا القول لمامًا، أو يسمعونه خطفاً، وقد يتسنّى للبعض أن يشاهدوه واقعًا ماثلاً، ولكن سرعان ما يألفونه، ويقتصرون على الابتعاد خطواتٍ عن المحتضرين، ويَدعونهم يواجهون مصيرهم وحيدين.

وقد شاع لدى الهندوسيّين أَنّ موت "المنبوذين"، نجاسةٌ تلتصق بالمكان الذي يلفظون فيه أَنفاسهم الأَخيرة، فبات أَصحاب البيوت المؤَجَّرة، عندما يستشعرون دُنوَّ أَجل أَحد المستأجرين، يُبادرون لنقله إِلى الشارع، تفاديًا للرِّجس، ويُساعدهم على ذلك، أَحيانًا، ذوو المحتضر أَنفسهم؛ وغالبًا ما تكون أجساد المحتضرين من التفسُّخ، بحيث تطفق الديدان تعيث فيها فسادًا، حتّى قبل أَن تفارقها الحياة.

بيد أَنّ الأُمّ تيريزا لم تقوَ على مجاورة هذا الواقع المأسويّ بلا مبالاةٍ، ولا على العبور، يوميًّا، بمحاذاته غير مكترثةٍ، بل توقَّفت عنده معبَّأة المشاعر، متيقِّظة الإِرادة، واجفة القلب، وتوسَّمت فيه واحدةً من أَوْلويّات الخدمة التي يتعيّن عليها وعلى أَخواتها التصدّي لها، لأَنّها استشفَّت في كلّ مُحتَضرٍ، في شوارع كلكتّا، المسيح نفسه، يحتضر ويموت من جديدٍ، تحت نظر السابلة اَللاَّمُبَالِيَة وسَمْعهم، فهبّت لعملٍ إِيجابيٍّ بكلّ اندفاع إِيمانها.

وبعملها هذا، حرصت على تأكيد الكرامة السامية التي لا يسوغ انتقاصها، والتي تحقّ لكلّ إِنسانٍ بَرَتْهُ يد الربّ، حتّى الأَشدّ إِثارةً للنفور. ومن لم تستطعْ إِنقاذه من الموت، وَقَتْه من النهاية المهينة، وأَسبغت على ساعاته الأَخيرة على هذه البسيطة، الكرامةَ التي يستأهلها، إِكرامًا لخالق الجميع، وحبًّا به. كيف لا، والجسد المُحَطَّم على

الصليب المثبت على كتفها، يذكّرها، أبدًا، بالحبّ الجمّ الذي حداه إلى مقايضة حياته بخلاص البشر أجمعين، بلا استثناءٍ، ويحملها، باطّراد، على استشفاف حضوره في كلّ جسدٍ متألّمٍ، وكلّ نفسٍ معذّبةٍ؟

وقد زادتها تصميمًا أحداثٌ كانت لها شاهدة؛ فذات يومٍ، وهي تبحث عن فقراء تغيثهم، عثرت على امرأةٍ تحتضر في الشارع، وقد أخذت الجرذان تقضم أطرافها، وهي قابعةٌ فوق ركامٍ من الأقذار، فانتشلتها، وهرعت بها إلى مستشفًى قريبٍ رفض استقبالها، بحجّة أن لا أملَ في شفائها، وأنّ أسرّته القليلة المتوفّرة هي أولى بمن يؤمل شفاؤهم، وغالبًا، في الواقع، بمن هم قادرون على إغداق الرشاوى على الأطبّاء والممرّضين؛ وتكرّر الأمر في مشفًى آخر، ثمّ في ثالثٍ، اضطرّ إلى قبول المحتضرة، مُكْرَهًا، بعد أن تعالت صيحات تلك الراهبة الأوروبيّة التي جهرت عاليًا بتنديدها بموقف من يرتضون لبشرٍ، ما يأبونه لحيواناتهم.

وفي نوبةٍ أخرى، إذ كانت في مهمّة شراء عقاقير، برفقة ميشيل غوميز، وفيما هما مستقلّان حافلةً، شرع المطر ينهمر بغزارة؛ وفجأةً أشارت بيدها إلى رجلٍ منهارٍ تحت شجرة، وسط الماء، منطوٍ على ذاته، يئنّ؛ ولكنّ حشرجة احتضاره لم تكن تقلق أحدًا من السابلة المتدفّقين. وإذ كانت الحافلة منطلقةً بسرعة، لم يستطيعا النزول لنجدته، ولكنّ الأمّ تيريزا عاهدت نفسها على أن تعود فتغيثه، وتوفّر له مأوى. ولمّا عادت كان الرجل لم يبرح مكانه، وانحنت على ذلك الجسد الذي لم يبقَ منه سوى هيكلٍ عظميٍّ، حيث تراءت لها صورة الموت، والتمست من مرافقها مُساعَدَتها على حمله إلى مستشفى قريب؛ إلاّ أنّها ماكادت تتخطّى عتبة المشفى حتّى بادرها حارسٌ بالقول!: "عودي بهذا الشخص، فلا يسعنا قبوله". وانفجر فيها الغيظ الذي طالما كظمته، وصاحت: "**لن أتحرّك من هنا حتّى يُعالج هذا الرجل**". وذُهل الحارس، لسماعه لهجةً لم يألفها، فهرع، ولم يلبث أن عاد بطبيبٍ، أكبّ على الرجل الممدّد في ردهة الاستقبال، فإذا به جثّةٌ هامدة. وراحت الأمّ تيريزا تتساءل: "**كيف يمكن ترك إنسانٍ يموت في الشارع، على هذا النحو المريع، ولا يسمع أحدٌ كلماته الأخيرة؟!**"

وكانت، هي، لأشهرٍ خلتْ، قد شرعت تُعنى بالمحتضرين، وتأتي بعددٍ منهم إلى مستوصفٍ ملاصقٍ لمدرستها البدائيّة؛ غير أنّ ضيق المكان وذات اليد، اضطرّها

إِلى الإِحجام عن مواصلة تلك المهمّة. ولكنّ تعاقب مثل تلك الحوادث الأَليمة قد هزّ صميم كيانها، واستفزّ فيها عزيمةً متجدّدةً، وعنيدةً، على المُضيّ قُدُمًا في رعاية المحتضرين، وهتفت: "آه، لو كنّا نستطيع، على الأقلّ، إِيجاد مكانٍ يستطيع فيه الناس الموت بكرامة!". وكانت تلك بداية البحث التي أَفضت إِلى "كاليغات".

وشخصتْ إِلى دار البلديَّة، حيثُ روت بعض تلك الأَحداث الأَليمة، وقالت باستنكار: "**في هذه المدينة، تلقى البهائم من العناية ما لا يلقاه البشر!**" وجهدَ موظَّفو البلديَّة في تبرير موقف الحكومة، بإبراز رقعة المرض الشاسعة التي تعجز إِمكانيَّات الدولة عن التصدّي لها، فتضطرّ إِلى الإِعراض عن الحالات الميؤوس منها بحيثُ لم يعُدْ مشهد الموتى الممدَّدين أَو المتقوقعين على الأَرصفة، والذين تجمعهم، يوميًّا، سيَّارات القمامة، يهزّ أَحدًا من المارَّة، وكأَنّه قَدَرٌ لا مفرَّ منه، ولا سيما أَنّ إِيمانهم بالتقمُّص كان يبدي الأَمر طبيعيًّا، غير ذي بال. ولكنّ الأُمّ تيريزا لم تكن مستعدَّةً للاستسلام حيالَ ما كان كلُّ كيانها يثور عليه. فقالت للموظّف بحزم: "**بما أَنّ لا أَحد يرغب في الاهتمام بهؤلاء، وفّروا لي مكانًا متّسعًا لاستيعابهم، وأَنا سأَتعهّد بالباقي**".

ومع ما كان يُداخلهم من ريبةٍ، تراءى لمسؤولي البلديّة أَنّ الفرج قد جاءَهم، بتطوُّع من تكفّل حلّ مشكلةٍ تقلقهم، وليس لهم في معالجتها حيلةٌ. فاقترحوا مكانَيْن، أَحدهما هادئٌ، في موقع مركزيٍّ من المدينة، وآخر في حيّ "كاليغات" الشعبيّ، جنوبيَّ المدينة، وهو حيٌّ دينيٌّ مكتظٌّ، في قلب أَكثر مدن العالم اكتظاظًا، يغصّ، أَبدًا، بسيلٍ متدفّقٍ من البشر، وينتصب فيه الهيكل الأَكبر للإِلاهة "كالي"، حامية كلكتّا، إِلاهة الخلق والدمار، التي كانت الأُمّ تيريزا تعرف مدى تعبُّد الهندوسيّين لها.

إِنّ الأَنصاب التي تمثّل الإِلاهة "كالي" تظهرها سوداء، قاتمة السواد، لا ترتدي سوى حليّها المكوّنة من قلادةٍ جسيمةٍ انتظمت فيها جماجم أَعدائها، وزنّارٍ نُسج من آذانهم؛ فقد قتلت جميع أَعدائها، وقتلت معهم زوجها، خطأً. وفي سورة هياجٍ، قتلت، أَيضًا، إِبليسًا مريعًا، ارتشفت دمه، لأَنّ أَلف إِبليس مثله كانت تنبعث من كلّ قطرةٍ من قطرات دمه تهمي على الأَرض.

إِنّها المدمّرة، ولكنّها، أَيضًا، الحامية، إِذ إِنّها تقضي على الأَبالسة، وهي كي تكون أَوفى جدوى، في هذا المضمار، تمتلك أَربع أَذرع.

في كلكتّا معظم سائقي السيّارات والشاحنات يعرضون في واجهات سيّاراتهم صورة للإلاهة كالي مادَّةً لسانها، ويدعونها، تودُّدًا "ما (الأمّ) كالي"، فهي الحامية التي تدرأ عنهم المخاطر..

ولا بدْعَ إن شبّه عُبّادُها الأمّ تيريزا بها، فهي، أيضًا، تقضي على الأبالسة، وتقي الناس من الشرور والآلام.

حوالي المعبد كانت تحوم باطِّراد روائح دماء المواعز التي تُضحّى للإلهة، تهدئةً لغضبها، أو التماسًا لرحمتها، مشوبةً بروائح اللحم البشريّ المحروق المتصاعد من عشرات الجُثَث التي تُحرَق، يوميًّا، وفقًا للتّقاليد الهندوسيّة. والمكان يضجّ، أبدًا، بنشاطاتٍ متعدّدة الأشكال: فهناك جموع الحجّاج الذين يبتاعون تقادمهم من محالّ التجّار المزركشة، والمتسوّلون الذين، برنين النقود المعدنيّة، في دلائهم، يستدعون انتباه المارَّة المستعجلين؛ والتائبون، وممارسو اليوغا الذين يؤدّون طقوسهم نصفَ عراةٍ، والموسيقيّون الذين يتقدّمون مواكب الجنازات المتعاقبة، حول المحارق التي يختلط دخانها الأسود بدخان البخور المتصاعد ليلَ نهار، داخل الهيكل، وفي فنائه.

وإلى جوار المعبد، بناءٌ كان يُستخدَم، سابقًا، خانًا – أو ما يدعى، هناك، "دار ماشاله"– لحجّاج الهيكل. ولكنّه، منذُ سنواتٍ، فقد غايته تلك، وغدا ملاذًا للمشرَّدين، والأوغاد، ومُروّجي المخدّرات. وكان من دواعي ارتياح المسؤولين البلديّين تحريره من تلك العصابات، واستخدامه في غرَضٍ سامٍ.

وتلقائيًّا رجّح خيارُ الراهبة هذا المكان المثقل بالرموز الدينيّة، حيث الإيمان والموت يتعانقان، والمتميّز، في نظر الهندوسيّين، بتقديسٍ خاصٍّ، ما سيُتيحُ لنزلائهِ، وجلُّهم من الهندوسيّين، قضاء أيّامهم الأخيرة على الأرض، تحت رعاية الالاهة التي يُجلّونها، قبل أن تُحرَق جُثَثهم، على بعد خطواتٍ من مكان موتهم. فقد ألِف الكثيرون من الهندوسيّين الفقراء، الذين يستشعرون دنوّ أجلهم، الإقامة عند عتبات الهيكل، للظفَر ببركة الموت والحرق في رحابه.

ذلك المكان الذي قدَّمته البلديَّة، بناءٌ عتيقٌ، شرقيّ الطراز، تزيّنه مجموعةٌ من القبَب التي تُضفي عليه طابع المعبد أو المسجد، ويتألّف من ردهتَيْن فسيحتَيْن تستوعب كلٌّ منهما نحو خمسين شخصًا. وقد سرّ الأمّ تيريزا تسلّمه في الحال، وساعدها رجال

الأَمن على إِخلائه ممّن استولوا عليه عنوةً، لأَغراضٍ مشبوهة. وسرعان ما رتَّبته، بما يتلاءم وغاية استخدامها له، وخصَّصت ردهةً منه للرّجَال، وأُخرى للنساء.

وفي الثاني والعشرين من آب ١٩٥٢، عيد قلب العذراء الطاهر، افتتحت اَلأُمّ تيريزا المركز، وشرعت تستقبل فيه كلّ محتضرٍ مُهمَلٍ، أَيًّا كان دينه، ومذهبه وجنسيَّته. ورسمت على لوحةٍ خشبيَّةٍ اسمه: "نيرمال هرايدي"، أَي القلب الطاهر، وهو الاسم الذي كانت قد أَطلقته، من قبلُ، على مدرستها المرتجلة في "موتيجهيل". وزيادةً في الإِيضاح، أَضافت بالإِنكليزيّة: "موئل للمحتضرين المُهمَلين". وهي، لم تتوخَّ، من وراء اللافِتَة، دعاوَةً، بل ابتغت استدراج الذين يستشعرون دنوَّ أَجلهم، فيسدّدون خطواتهم المتثاقلة إِلى حيثُ يجدون من ينحني على آلامهم بعطفٍ وحبّ، وإِرشاد الأَصحّاء إِلى حيثُ يمكنهم المجيء بمحتضرين مُهمَلين.

يوم افتتاح "نيرمال هرايدي" كان عدد رفيقات اَلأُمّ تيريزا قد ارتقى إِلى ثمانٍ وعشرين، متكدّساتٍ "كالسردين" في طبقةٍ ببناء آل غوميز، وبذلك أَقامت الأمّ الدليل على أَنَّهنَّ قد حرصْنَ على توفير مسكنٍ للمتأَلّمين، قبل اهتمامهنّ بتوفير منزلٍ لأَنفسهنّ، ففي المتأَلّمين كنّ يشاهدنَ يسوع، وليسوع الأَوْلويّة على خادماته.

كثيرون من نزلاء "القلب الطاهر" كانوا، للمرَّة الأُولى في حياتهم البائسة، يرقدون على فراشٍ، ولو متواضعٍ، ويشعرون بحنان أَيدٍ تمتدّ لتخفيف آلامهم، وتنظّفهم، وتمدّدهم على فراش، حتّى يمضوا إِلى خالقهم، باشّي الأَسارير، وقد امَّحى عن قَسَمات وجوههم كلُّ أَثرٍ لتوتُّرٍ ومرارةٍ، وكلّ ظلٍّ لخوفٍ.

وباتت أَخوات اَلأُمّ تيريزا يجُسْنَ، كلَّ صباحٍ، أَحياء المدينة البائسة، ويعدْنَ إِلى "نيرمال هرايدي" بهياكل بشريّة ما زالت تخفق فيها نسمةٌ من حياة، وقد التهمت إِهابها الطفيليَّات والقروح، وأَمضّها الجوع، وهزّتها الحمّى برجفةٍ لا تقوى على ضبطها، فتنظَّف، وتضمَّد بعناية فائقة، وتمدَّد فوق فرشٍ. فأَوّل ما يتعيّن عمله للقادمين الجُدُد هو تنظيفهم تنظيفًا مكثّفًا لانتزاع ما تراكم على أَجسادهم من أَقذار طيلة سنواتٍ. وقد يقتضي ذلك جهدًا مرهقًا؛ ثمّ تعقيم قروحهم باستمرارٍ، مع احتمال روائح الأَسمال القذرة البالية التي تغطّيهم، والتي ما إِن تُنزَع حتّى تتكشّف عن قروحٍ تسرّبت إِليها الغنغرينة، وعجّت بالنمل والديدان.

أَحد الصحافيّين الهنود زار "نيرمال هرايدي" بُعَيْد افتتاحه، وكتب: "إِلى هنا يأتي مُهمَلو كلكتّا ومنبوذوها ومحتضروها، كي يواجهوا مصيرهم المحتوم. في هذا المقرّ تساعدهم الأُمّ تيريزا وأَخواتها على استقبال الموت. إِنّهنّ يُدخِلنَ العذوبةَ والطمأنينة إِلى قلوب من لم يعهدوهما، قطّ، في حياتهم... فيما بينهم تقف أَو تجثو راهبتان ومساعدٌ لهما، وقد ستَر كُلٌّ منهم أَنفه بقطعة قماشٍ للحماية... رائحة المعقّمات تفعم المكان؛ والأَثاث مقتصر على خزانةٍ ومنضدةٍ. المنضدة تستخدمها الأُمّ تيريزا التي تمسك سجلّ الوفيّات، أَمّا الخزانة فتحتوي علي بعض أَغطيةٍ منضَّدةٍ تنضيدًا حسنًا... وفيما أَنا أحدّث الأُمّ تيريزا، استدعاها أَحدهم، فهرعت إِليه، وجسَّت نبضه، فإِذا به يحتضر، فحقنته بالكورامين، ومكثت قربه، مخفِّفةً عنه وطأة اللحظات الأَخيرة. ولم تكن عيناه تعبّران عن أَيّة خشيةٍ، فهو سعيدٌ بين ذراعي ملاك الرحمة".

صحفيٌّ آخر شاهد، يومًا، الأُمّ تيريزا تُعنى شخصيًّا بمحتضرٍ كان قد جيء به بمشقَّةٍ، وتُرك على السلّم المؤدّي إِلى بيت المحتضرين. وبعد أَن جُرِّد من أَسماله القذرة، بدا وكأَنّه بأكمله قرح ينبض فيه بعض روح ويعجّ بالديدان. "وانحنت عليه اَلأُمّ في هدوءٍ وثقةٍ، وشرعت تغسله، وتحدّثه بعذوبةٍ، باللغة البنغاليّة. لن أَنسى أَبدًا صورة ذلك الرجل الذي كان أَلَمه يتحوّل إِلى دهشةٍ، فإِلى حبٍّ".

وقد دهشت كاتبةٌ أَميركيّةٌ كانت تختلف إِلى "نيرمال هرايدي" من نسبة عدد الشبَّان فيه، الذين دمَّرهم الجوع والمرض، قبل الأَوان.

إِلاّ أَنّ عمل ملائكة الرحمة أُولئك لم يَرُقْ للجميع، ولا سيما لشذّاذ الآفاق الذين كانوا قد اتَّخذوا من "الدارماشاله" ملتقى نشاطاتهم المشبوهة، فأَوروا نار التعصّب الدينيّ لدى بعض الهندوسيّين، وكهنة معبد "كالي"، بعد أَن أَوهموهم أَنّ اَلأُمّ تيريزا وأَخواتها يمارسنَ التبشير المسيحيّ، في عقر دار الهندوسيَّة، وأَنهنّ، تحت غطاء عملٍ إِنسانيٍّ، وبدعمٍ من البلديّة، يجهدنَ في تحويل نزلاء "نيرمال هرايدي" إِلى المذهب الكاثوليكيّ؛ وأَوغروا عليهنّ الصدور، فتكتّل نفرٌ ممّنّ غُرِّر بهم، وتظاهروا أَمام المكان، وقد اضطرمت حمّى توتُّرهم، فألقى بعضُهم حجارةً حطّمت عددًا من النوافذ. وخرجت لهم الأُمّ تيريزا هاتفةً: "**اقتلوني إِن شئتم، ولكن إِيّاكم والذين في الداخل. بل دعوهم يموتوا في سلام**". هذا الموقف الحازم بردَّد حمّى ثورتهم، وفرّق

جمعهم، ولكن إِلى حين. فما كادت تنقضي أَيّامٌ معدوداتٌ حتّى نشبت فتنةٌ حقيقيَّةٌ، إِذ دفع المتطرّفون جموعًا هائجةً لمهاجمة الراهبات داخل مركزهنّ. وسرعانَ ما تدخَّلت قوى الأمن، وعلى رأسها ضابطٌ كان الهندوسيّون يقدّرونه أَجلّ تقديرٍ، فاستمع إِلى شكاواهم التي لخّصوها في رفضهم ردَّ المحتضرين عن دينهم، وإِلحاق أَيَّة إِهانةٍ بالإِلاهة "كالي". ووعد بتقصّي الأَمر، وبطرد الراهبات إِن ثبتت ادّعاآتهم. وولج إِلى المركز، فإِذا بالراهبات، مع ما انتابهنّ من رعبٍ، عاكفاتٌ على رعاية عشرات الرجال والنساء المحتضرين، وإِحاطتهم بأعذب حدبٍ، وأَعمق عطفٍ، في تجرّدٍ مطلقٍ، وجرأةٍ مدهشةٍ، مع ما كان ينبعث من أُولئك المساكين من روائح منفّرة، وما يغشاهم من أقذارٍ وقروحٍ متقيِّحةٍ. كم البَوْن كان شاسعًا بين العنف الأَعمى المتأَجّج في الخارج، والرقّة المتناهية المهيمنة في الداخل!

وخرج الضابط، وقد أُخِذ بما شاهد، وهو على اطّلاعٍ وافٍ، وعزمٍ وطيدٍ، بعد أَن ثبت لديه أَنَّ ادّعاآت المتطرّفين لم تكن سوى تخرّصٍ وافتئاتٍ. وواجه المتَظاهرين بالقول: "لقد وعدتكم بطرد هذه المرأة، وسأفي بوعدي فقط عندما تُقنعون أُمّهاتكم وأَخواتكم بفعل ما تفعله هي وأَخواتها. وإِلى أَن يحين ذلك، لا أَسمح لأَحدٍ بالتعرُّض لهنّ". "ثمّ أَطرق، محدّثًا نفسه: "على مقربةٍ من "نيرمال هرايدي" يظلّل المعبدُ إِلاهةً من حجرٍ أَسود، أَمّا هنا، فقد أَلفَيْتُ إِلاهةً حيّةً، وأَجللتُ إِلاهةً ماثلةً نصبَ عينيّ".

ومع ذلك ظلَّ سَدنة معبد "كالي" يوجسون خشيةً من أَن يُلقي نجاحُ الأُمّ تيريزا بظلاله على نشاطهم في إِدارة طقوس العبادة، فمضوا يُطالبون بإِبعاد منزل المحتضرين عن الهيكل؛ وأَهابت الأمّ تيريزا بأَخواتها أَن يصلّينَ، بحرارةٍ، لكيلا تُلجأَ إِلى ذلك. وقد ناصبها أولئك السدنةُ عداء شرسًا، مدَّعين أَن مجاورة امرأةٍ تَعتنق دينًا غريبًا للهيكل يُمثّل إِهانةً للإِلاهة "كالي"، وأَجمعوا على تفويض أَحدهم، وهو أَلدّهم عداءً لها، بالتربّص بها والقضاء عليها. ولكنّه ما إِن باشر مهمّته حتّى تبيّن أَن لا مغمز فِي سلوك من كُلِّف بقتلها. ولمّا همّ بتنفيذ المهمّة الموكلة إِليه، وهو متردّدٌ، هبّت الأمّ تيريزا منتصبةً بينه وبين المحتضر الذي كانت ترعاه، وخاطبته بسكون: "**إِن كنت تبتغي قتلي، فها أَنذا. ولكن إِيَّاك وإِيذاء الآخرين. وأَنا، إِن متّ، فمصيري السماء**". وكان ذلك حاسمًا في قلب كيانه. فعاد إِلى مُرسِليه قَائِلاً: "أَرى أَلاّ نُصيبَ

هذه المرأة بأذيّةٍ، فقد راقبتها عن كثب. وكما تعلمون، إنني منذ عشرين سنةً، واقــفٌ ذاتي على خدمة الإلاهة التي يحتوي هذا المعبد نُصبَها. ولستُ أخفي عنكم أَنَّني، فيما كنت أرقب هذه المرأة، غالبًا ما طاف بخاطري أنّها، هي، الإلاهة "كالي"، متجسّدة".

وفترت ضراوة عداء الكهنة، وما عتَّمت أَن انطفأت بعد أَن مُني أَحد سدَنة المعبــد بداء الكوليرا، فأُلقي به خارج المعبد، وتُرك يتخبَّط وسط قيئه وغائطه؛ وأُحيطــت الأُمّ تيريزا بذلك علمًا، فهرعت والتقطت بيديها ذاك الذي نبذه إخوانه، وعكفت على العنايــة به بنفسها. وما هي سوى أيَّامٍ قليلةٍ حتّى اكتشَف كاهنٌ آخر، من كهنة المعبد، أنّه مصابٌ بداء السلّ في مرحلته الأَخيرة، فلفظه، أيضًا، إخوانه، وأقصوه، توجُّسًا من العدوى؛ ولم يرضَ أَحدٌ استقباله والعناية به، حتّى المشافي، إذ لم يكن في شفائه رجاء. واستــضافته الأُمّ تيريزا في "نيرمال هرايدي"، رغم معارضته الشديدة، وعكفت على معالجتــه فــي صبرٍ ورقَّةٍ لا حدود لهما، ما أَهمد نيران حقده عليها وعلى أخواتها، لا بل إنّ حفيظتــه تحوَّلتَ، جمع الأيَّام، إلى إعجابٍ متناهٍ، حتّى بات يُصرّح، هو أيضًا، لزائريه وإخوانــه سدَنة المعبد، مشيرًا إلى الأُمّ تيريزا: "هذه هي الإلاهة كالي متجسِّدة". وتحــوَّل موقــف إخوانه، أَيضًا، من العداء إلى الاحترام والتعاون. وعندما تُوفِّي، وجاءتهم بجثمانه لحرقه وفقًا لطقوسهم، أعلنوا لها عن مهادنتهم، وعن تضامنهم مع "نيرمال هرايــدي"، لا بــل قدّموا لها هبةً ماليَّةً، وغرفتَيْن إضافيّتيْن لتوسيع بيت المحتضرين.

وممَّا دعَّم هذا الموقف حرْصُ مرسلات المحبَّة على ألاّ يُحوّلنَ أَحدًا من النزلاء عن دينه، فالهندوسيّون، وهم الغالبون عَددًا، يؤتون بكهنةٍ هندوسيّين، وعندما يُتوفَّون يُسلَّمون إلى المعابد الهندوسيّة كي يجنّزوا ويُحرَقوا وفقًا لتقاليد دينهم، وكذلك شــأن المسلمين الذين يُؤتون بقرآنٍ، وبمن يُرتّله على مسامعهم، وشــأن المــسيحيّين مــن المذاهب غير الكاثوليكيّة؛ وبالإجمال لا تحيد مرسلات المحبَّة، قَيْدَ أُنملةٍ، عن رغبــة المحتضرين، بهذا الشأن.

والآن، بعد انصرام ما ينيف عن أَربعين سنةً، ما زالت أواصر الثقة والتعــاون وثيقةً بين مرسلات المحبّة، ورجال مختلف الأَديان؛ وقد أَمــسى هندوســيّو كلكتّــا ومسلموها، على السواء، يرون في الأُمّ تيريزا، قدّيسةً مسكونيَّةً. كيف لا، وهي أَبتْ، أَبدًا، ربط أَيَّة خدمةٍ بالتبشير لدينٍ معيَّنٍ، أَو بأَيّ شرطٍ آخر؟ فهي، في كلّ إنسانٍ، أَيًّا

كان مذهبه، ترى صورة الله، وتعتقد أَنّ دين الحبّ، وحدَه، هو الدين الشامل، الـذي يؤمن به كلُّ قلبٍ. ومُذَّاك، انقشع الخوف من قلوب الراهبات، وبات لهنّ سدَنةُ الهيكل ورجالُ الأَمن أَعوانًا، يأتونهم بالمحتضرين من الشوارع. وقرَّرت البلديَّة تخـصيص إِعانةٍ شهريّةٍ قدرها أَلفا روبيَّةٍ كفيلةٍ بإِطعام ستّين نزيلاً، وقبلـت الأُمّ تيريـزا تلـك الإِعانة، مدى سنتَيْن، ثمَّ رفضتها لكي يكون اعتمادها على العناية الإِلهيَّة كلِّيًّا، ولكيلا تتحوَّل الإِعانة إِلى ذريعةٍ تبرّر تحويل "نيرمال هرايدي" إِلى مؤسَّسةٍ حكوميَّة.

وما انفكَّت مرسلات المحبَّة، منذ عقود، يندفعنَ إِلى خدمة المحتضرين اليوميَّـة بلا حساب، فيشخصنَ إِلى "نيرمال هرايدي" باكرًا جدًّا، ويدخلنَ من بـاب المطـبخ، حيثُ يُعدِدْنَ الإفطار للنزلاء، الذين يوضِح لوحٌ كبيرٌ عددَهم المتغيِّر باستمرار، مـن جرّاء المتوفّين حديثًا، والقادمين الجدُد، ثمّ يتفرَّقْنَ في الردهتَيْن اللتَيْن تتّسع كلّ منهما لنحو ستّين نزيلاً؛ وقد خُصِّصت ردهة اليسار للرّجـال، وردهـة اليمـين للنـساء، وكلتاهما مكتظَّتان، باستمرار.

وفي كلّ يومٍ يُسجَّل دخول وافدين جُدُدٍ، يحتلّون أَسرَّةَ مـن رحلـوا أَو تُوفّـوا. نادرون هم الذين يقدمون بوسائلهم الخاصَّة؛ بل هناك من يأتي بهم أُناسٌ التقطـوهم من فوق الأرصفة، أَو أَقارب لهم ضاقوا بهم ذرعًا، فجاؤوا يتخفَّفون منهم بين أَيـدي من تتّسع قلوبهم للجميع. أَمّا غالبيّة النزَلاء فَتَلْتَقِطهُمْ مرسلات المحبّة أَنفسهنّ، ويأتينَ بهم في سيَّارات إِسعاف، لا تني تجوب الشوارع بحثًا عنهم. هؤلاء، طالما ظلّوا في الشارع، مُرَشَّحون لموتٍ سريعٍ ومحقَّقٍ؛ ولكن، بعد تلقّي الغوث والرعاية الـصحِّيَّة، كثيرون منهم يستعيدون قواهم، وتُكتَب لهم سنوات عمرٍ أُخرى قد تكـون طويلـةً، ومعظمهم ممّن كان الجوع هو الذي يودي بهم.

بعضُ من يستعيدون قواهم يتوقون إِلى التشرّد من جديدٍ، ويظلّون كذلك حتّـى ينال منهم الجوع والمرض، مرَّةً أُخرى، فيهرعون إِلى ملائكة الحنان، وقد يفعلـون ذلك، كرَّةً إِثر كرّةٍ.

وكثيرون هم الذين يلقون حتفهم في فَرَحٍ وسكونٍ، فالموت أمـرٌ طبيعـيٌّ فـي "نيرمال هرايدي"، على حدّ قول الأُمّ تيريزا "**الموت هُوَ العودة إِلى المنزل الوالديّ، حيثُ سنمثل جميعًا، برفقة الله**".

عقب الإفطار تعكف مرسلات المحبَّة على غسل النزلاء، وتضميد جراحهم، وتمريضهم، وقصّ أَظافرهم وشعورهم، ثمّ يعمدنَ إِلى غسل أَغطية أَسرَّتهم؛ وجديرٌ بالتنويه أَنّ الفُرْش الرثَّة التي كانت تُبسَط فوق مساطب مرتفعة يرقد عليها النزلاء، قد استُعيض عنها تدريجيًّا بأَسرَّةٍ حديديّة.

ووجبة الإفطار هي الفُرصة المُثلى للتَّحدُّث إِلى النزلاء، وبثّ العزاء في صدورهم عملاً بقول الأُمّ تيريزا الذي غدا لأَخَوَاتها شعارًا: "**ينبغي أَلاّ يُبارحني أَحدٌ من غير أَن يؤنس أَنّه أَمسى أَفضل حالاً، وأوفر سعادةً. يجب أَن أُشعّ محبّة الله بين المرضى، ولن أكون قد أَعطيتُ سوى الزهيد، إِن أَنا اقتصرتُ على توزيع الطعام والعقاقير، ولم أَهبْ قلبي**".

ويتصدَّر الممرَّ الفسيح الفاصل بين ردهة الرجال وردهة النساء رمزُ الحبّ الكامل، تمثال قلب مريم الأَقدس، وقد تُوّج بإِكليلٍ من ذهبٍ صُنع من خواتم المحتضرات اللاّئي استضافهنّ "نيرمال هرايدي". وتعتزّ الأُمّ تيريزا بهذا التاج قائلةً: "**إِنّ المُعدَمين قدّموا إِكليلاً ذهبيًّا للعذراء**". وقد زيَّنت هي نفسها ذلك التمثال بوسامٍ قُلِّدتْه عام ١٩٦٢.

وغالبًا ما يتبرّع مجهولون بأَكاليل زهور للمتوفّين، وكذلك تفعل مرسَلات المحبَّة بما يُكرَّمن به من قلائد أَو أَضاميم زهرٍ، عرفانًا بجميلٍ، أَو احتفالاً بمناسباتٍ خاصَّة.

وبعد أَن تنفق الراهبات النهار كلّه في خدمة النزَلاء، والطواف بهم، واستقبال القادمين الجدُد، ومواكبة المرتحلين إِلى رحاب الله، ممسكاتٍ بأَيديهم، مرطّباتٍ جباههم، هامساتٍ، في مسامعهم وقلوبهم، كلمات العزاء. وبعد تقديم وجبة المساء، يعدْنَ إِلى مقرِّهنّ الذي تفصلهنّ عنه مسيرة ساعةٍ، وهنّ يتلون المسبحة، ويوكلنَ إِلى الربّ وأُمّه الطاهرة، أولئك الذين يقفنَ حياتهنّ على خدمتهم.

منذ ١٩٥٢ حتّى اليوم بات لمُرسَلات المحبَّة مئةٌ وثلاثةٌ وثلاثون منزلاً للمحتضرين استقبلت عشرات أُلوف النزلاء، بعضهم أَبلُّوا من أَسقامهم، وانتعشوا، وعاشوا سنواتٍ أُخرى، وقد تحوَّلت نظرتهم إِلى الحياة، وبعضهم رحلوا، معزّين، ساكني النفس، ولاقوا وجه ربّهم مطمئنّين، بعد أَن تذوّقوا، قبل رحيلهم، شيئًا من طعْم حُبّه. وقد غدا تضاؤل الوفيّات مطّردًا، بالقياس إِلى عدد الذين يشفون، وتُكتب لهم الحياة من جديد.

وقد يعترض من لا يُقيمون وزنًا إلاّ للإحصاآت أَنّ عدد المُغاثين هزيلٌ، بالقياس إِلى آلاف الذين ما انفكّوا يموتون، وحيدين، على الأَرصفة وقارعات الطرُق، وتعترف الأمّ تيريزا بقولها المأثور: "**قد لا يكون عملنا سوى قطرة ماءٍ في محيطٍ، ولكن، لو لم توجد تلك القطرة، لافتقر إِليها المحيط**".

وقد يدَّعي بعض من لا يجُيدون سوى النقد أَنّ نزلاء "نيرمال هرايدي" لا يظفرون بالقدر الوافي من الرعاية الصحيّة الكفيلة بشفاء عددٍ أكبر منهم، ولا بتأهيل من يُكتَب لهم الشفاء لحياةٍ اجتماعيّة أَوفر أَمانًا. وعلى ذلك تردّ الأُمّ تيريزا أَنّ هناك مؤسَّساتٍ طبِّيَّةً واجتماعيَّةً قد تنهض بتلك المهامّ خيرًا من مُرسَلات المحبّة اللائي، قبل "الجدوى"، يسعَيْنَ إِلى بثّ حبّ الله في القلوب. ولو كانت الجدوى هي هدفهنّ، لما تميَّزْنَ عن مستشفيات كلكتّا التي ترفض الحالات الميؤوس منها، صحّيًّا واجتماعيًّا، ولنزعْنَ، كالآخرين، إِلى تقييم البشر وفقًا لمدى جدواهم الاقتصاديّة.

ويقتضي الوفاء للحقيقة الاعتراف بأَنَّ سجلاّت "كاليغات"، التي نُظّمت، منذ افتتاح المركز، في حرصٍ شديدٍ على دقّة بيان الوافدين والمغادرين والمتوفّين، تظهر تناقصًا مطّردًا مدهشًا في نسبة الوفيّات. ففي الخمسينات، عهد البدايات، كانت الوفاة هي مصير معظم القادمين، غير أَنّ نسبة الوفيّات، تلك، قد انخفضت إِلى ما دون الخمسين بالمئة في العقدين التاليين، وإِلى عشرين بالمئة في الثمانينات، وما عادت تتعدّى العشرة بالمئة فيما بعد. وقد يعود قسطٌ كبيرٌ من الفضل في هذا التحوُّل إِلى عمل الأُمّ تيريزا الذي هزّ الضمائر هزًّا عنيفًا، وأَثّر تأثيرًا بليغًا في سلوك الناس الذين تنكّبوا عن اللاّمبالاة، وباتوا، إِذا ما رأوا مريضًا ملقىً على رصيفٍ، سارعوا إِلى استدعاء سيَّارة إِسعافٍ تهرع به إِلى مستشفى، أو إِلى "نيرمال هرايدي"، قبل أَن تتسرّب من صدره نفثات الحياة.

ومع ذلك، لا مناصَ من التنويه بأَنّ بين مرسلات المحبَّة طبيباتٍ وممرّضاتٍ مؤهَّلاتٍ تَأْهيلاً رفيعًا. وهنّ لا يقبعنَ في انتظار من يؤتى بهم من المحتضرين المُهمَلين، بل يجُبْنَ الآفاق بحثًا عمّن حالتهم لا تُطاق. وقد اتَّفق أَن كانت اثنتان من الأَخوات في زيارة أَحد المشافي، فتنامت إِلى أَسماعهما صيحات عليلٍ يقذف بالشتائم الممرّضات اللواتي كنّ يتحاشينَ عن الاقتراب من سريره، وَاستَوْضَحَتَا علّته، فعلمتا

أنّه كان عاملاً في المرفأ، وفيما كان يراقب تنزيل بالاتٍ ثقيلةٍ، سقطت إِحداها عليه، وقد انتشر الأُكالُ في كسوره، وأَمسى على شفا النهاية. ودنت المُرسلتان من سريره فطفق يقذفهما بالشتائم قائلاً: "الممرّضات ينفرْنَ منّي، والجميع ينفرون منّي، فعلامَ تقتربان، ولا تسدّان أَنفيكما؟ أَلا تشمّان روائحي؟" فأَجابتا: "بلى، بالطبع نشمّها، ولكنّنا نفكِّر في آلامك. ولا ريب أَنّ الروائح لا شيء، بالقياس إِلى ما أَنت تُعاني". والتمس الرجل أَن يُنقَل إِلى "نيرمال هرايدي"، حيث لقي، في الغداة، وجه ربّه، هادئ النفس، ساجي الوجدان.

منذُ الوهلة الأُولى، أَوضحت الأُمّ تيريزا أَنّ رسالتها هي خدمة من نبذه الجميع، حتّى المؤسَّسات التي تقتضي وظيفتها رعاية المرضى والفقراء، وأَنّ "نيرمال هرايدي" هو الملاذ الأَخير لمن فقدوا كلّ رجاء. وهي لا تحاسب نفسها وأَخواتها إِلاّ عن الحبّ ومدى إِغداقه. ففيما تستهدف المؤسَّسات الاجتماعيّة غاياتٍ ونتائج، ينصبّ اهتمام مُرسَلات المحبّة على الأَشخاص، ويروق للأمّ تيريزا أَن تروي، في هذا الشأن، الحادثة التالية:

"التقطتُ، يومًا، رجلاً من الشارع، كان شبه ميتٍ، وقد غشته القروح والأَقذار وجئتُ به إِلى بيت "القلب الطاهر"، فضمَّدتُ جراحه، ووضعته برقّةٍ في سريرٍ، وأَنا أَهمس في أذنه أَنّه جميلٌ، وجديرٌ بالحبّ. وقد صرّح لي، ساعةَ موته: "طيلة حياتي، عشتُ عيشة بهيمةٍ، في الشوارع، ولكنّني، الآن، أَموت ميتة كائنٍ بشريٍّ، محاطًا بالحبّ والرعاية". "قوله هذا محفورٌ في أعماق نفسي".

فحتّى لو لم يكن للأمّ تيريزا ومُرسلات المحبَّة من إنجازٍ سوى "نيرمال هرايدي"، لكان كافيًا لتبرير وجودهنّ، ولا سيّما أنّه رأى النور مع نشأة جمعيَّتهنّ.

ولا تني الأُمّ تيريزا تُذكِّر أَخواتها بوجوب إِشْعَار النزلاء بأَنّهم محبوبون ومرغوبٌ فيهم، إِذ ينبغي أَن يشعروا أَنَّ هناك من يُحبّونهم، حقًّا، ولا سيِّما في ساعات الحياة القليلة التي ما برحت مفسوحةً أَمامهم. يجب أَن يعرفوا، أَخيرًا، الحبّ البشريّ والإِلهيّ، ويُدركوا، هم أَيضًا، أَنّهم أَبناء الله، وأَنّهم غير منسيّين، بل محبوبون، ولهم قدْرُهم، وأَنّ قومًا في مقتبَل العمر إِلى جانبهم يخدمونهم.

وتفسّر الأمّ تيريزا سرّ "نيرمال هرايدي" بقولها: "**إنّه بيت الانطلاق، بل إنّه، حقًّا، كنز كلكتّا. فما من أحدٍ، هنا، مُحبَطٌ أو يائسٌ، أو منبوذٌ، أو جائعٌ. إنّنا نهبهم ما يرغبون فيه، ووفقًا لمعتقداتهم: كلمةً، أو صلاةً؛ تفّاحة أو خبزًا، أو سيكارة... أو مجرّد حضور...**

"**عندما نشرح لهم بوضوح أنّ الموت هو عودةٌ إلى الله، يزول عنهم كلُّ خوفٍ. فالذين ينتابهم الخوف ممّا قد يحصل لهم، يرفضون الموت، ولكن عندما ينقشع السرّ، يتلاشى الخوف. إنّهم يموتون ميتةً رائعةً، بل رائعةً جدًّا مع الربّ، ولم نصادف، حتّى الآن، أحدًا رفض أن يستغفر الله أو أن يقول: أُحبّك، يا ربّ**".

ولقد غدا "نيرمال هرايدي" من معالم كلكتّا البارزة، يزروه، بإعجاب، كلُّ من يشخص إلى تلك المدينة. وقد يتوجّس بعض الزائرين خشيةً من هيمنة الكآبة فيه. ولكن ما إن يجتازوا عتبته حتّى يجتذبهم المكانُ بسكونه، وخلوّه من كلّ أثرٍ لحزن؛ والواقع أنّ جوّ "نيرمال هرايدي" بعيدٌ عن أن يكون مفجعًا؛ وهو، وإن لم يضجّ بالضحك، عابقٌ بالبسمات، ومفعمٌ بالسكون والاسترخاء، ويحوم فيه شعورٌ يتحدّى الوصف. ولا بدعَ، فهو مجال الروح والحبّ. "لا شيءَ فيه مريع... فنزلاؤه لا يؤرّقهم خوفٌ أو نبذٌ أو جُوعٌ. بل يهيمن عليه سكونٌ سحيقٌ، وسلامٌ يتخطّى الإدراك، وروعةٌ سريَّةٌ كالموت نفسه". فوحدهم يخشون الموت من يعتقدون أنّه نهاية كلّ شيء.

وهذا الجوّ القدسيّ السائد فيه يدمغ الزائر دمغًا بليغًا، ولا سيّما إن فُسحتْ له فرصة تقديم خدمةٍ للنزلاء، ففقراء الهند يردّون بعرفان جميلٍ رائعٍ على كلّ مبادرة خدمةٍ تُسدى لهم، حتّى لو كانت مجرَّد بسمة. قد لا يمتلكون شيئًا من متاع الدنيا، ولكن لديهم الجوهريّ الذي يتجلّى، ولو لم يفعلوا شيئًا لإبرازه: نبل المشاعر.

وقد اتَّفق أن أَمَّ الهندَ، في عطلةٍ، طيّارٌ وزوجته، وزارا "نيرمال هرايدي"، وفيما اندفعت الزوجة إلى الداخل، تريَّث الطيّار عند عتبة المقرّ، تحسُّبًا للكآبة التي تخيّلها مُخيِّمةً عليه، غير أنّ إحدى مُرسلات المحبّة سارعت إلى تبديد تردّده، فوضعت بين يدَيْه فرشاةً، وصابون حلاقةٍ، وشفرةً، وحثّته على حلاقة ذقن أحد النزلاء؛ وإذ بعمله هذا يُسرِّب إلى نفسه من الحُبُور، ما جعله يطوف على سائر النزلاء، عارضًا خدماته، غاسلاً هذا، مُطعمًا ذاك، قاصًّا أظافر آخر، متحدِّثًا معهم، مسترسلاً لدفق

حبّهم. وقد صرّحت زوجته، فيما بعد، أَنّها لم تَرَه، قطّ، منشرحًا، مثلما كان في تلك الأيّام التي خدم فيها نُزَلاء "نيرمال هرايدي".

وكثيرون هم الذين يتطوّعون للعمل، ولو مؤقّتًا، في "نيرمال هرايدي" فيحصدون تجارب خصبةً قد تَسِم حياتهم كلّها، وتدفعها في منحىً ما كانوا ليتوقّعوه، ومنهم من يستعيدون حرارة إيمانٍ كانت جذوته غارقةً تحت طبقةٍ صفيقةٍ من رماد المشاغل والاهتمامات المادّيّة، وإِذ بهم، بممارستهم أَعمال العطف، أُسوةً بمرسلات المحبّة، يتجلّى لهم نور المسيح الذي عكفوا على خدمته في إِخوته البائسين، ويكتشفون ذاتهم الحقيقيّة، ويتذوّقون طعم الصلاة، ويشاركون الأَخوات ساعات السجود للقربان المقدّس، في المركز الأُمّ، مستجيبين لدعوة الأُمّ تيريزا.

وكم من دعواتٍ رهبانيّةٍ قد وُلدت أَو ترسَّخت دعائمها، بين تلك الأَسرّة البائسة، وفي ذلك الجوّ المشحون بالأَلم الصامت، والاستسلام لمشيئة الله، والمفعم بالبذل السخيّ، والحبّ المجّانيّ، والإِنجيل المُعاش واقعًا مدهشًا!

وثمّة، باطّراد، نفرٌ من المتطوّعين الأَجانب، الناشطين للمساعدة، وقد وصفتهم الأُمّ تيريزا بقولها: "**إِنّهم يأتون من كلّ الأَصقاع. في بلادهم يعملون لكسب المال، ولكنّهم يقدمون إِلى هنا لخدمة الآخرين، ويتكفّلون بكلّ نفقاتهم بأَنفسهم، فنحن لا نعطيهم شيئًا؛ وغالبًا ما يمكثون هنا شهرين أَو ثلاثة**"؛ إِنّهم، طيلة النهار، يدبّون على ركبهم وأَيديهم، يمسحون الأَرض، ويغيّرون أَغطية الأَسرّة، وينشّفون فرشًا مبلّلة بالبول، ويُطعمون المحتضرين ويؤاسونهم، في مدينةٍ لم يكن شيءٌ يُعدُّهم لمعرفتها أَو القدوم إِليها.

إِنّ "كاليغات"، لهؤلاء، بوتقةٌ تنصهر فيها نفوسهم وإِراداتهم، فتستنبط منها كنوز الخير والسخاء، وتحوّل ما في الأَذهان من نظرةٍ إِلى الموت والحياة، وتشحذ الرغبة في التحوّل النفسيّ.

فهذا "إِيمون بوتلر"، النجّار الإِيرلنديّ، الذي مكث في "كاليغات" بضعة أَسابيع، يخدم المحتضرين برقّةٍ فائقة، وقد تحدّث عن تجربته فقال: "لمَ أَنا هنا؟ سؤالٌ أَطرحه على نفسي، كلّ يومٍ، منذ ستّة أَسابيع. فقد كان بوسعي أَن أكون في موطني، إِيرلندا، أَنعم بالوجود. معرفتي الأُولى بالأُمّ تيريزا تمّت عبر شاشة التيليفزيون. المذيع الذي

كان يجري معها اللقاء، كاد يبكي. وفي الحال، ابتعتُ بطاقة سفرٍ إِلى كلكتّا، وحصلت على تأشيرة دخولٍ إِلى الهند، ولكن، أَربعة أيّام قبل موعد السفر، اعتراني الخوف، فألغيتُ كلّ شيء. وانقضت أَربع سنواتٍ قبل أَن أُوطّن عزمي من جديد. ومنذ وصولي، أَوْعزت إِليّ الأُخت "جوزيف ميكائيل" بالمجيء إِلى "كاليغات". وسرت القشعريرة في ظهري، إِذ إِنّني لم أَتعاطَ، قطّ، مع المحتضرين. ولكنّها دعتني للحضور مدّة نصف نهارٍ فقط، للاطّلاع.

"ومذ ولجتُ المكان، استشعرتُ نعمةً خاصَّة ساعدتني على مواجهة ما شاهدت. وفي غضون أَقلّ من أسبوع، كنت قادرًا على الإِمساك بالمحتضرين، وعلى غسل الموتى وتزيينهم؛ وما كان، قطّ، جال بخاطري أَنّني سأقوى على ذلك، يومًا. اَلآن غدوتُ أَنظر إِلى الموت نظرةً قشيبةً، فأراه بعثًا إِلى حياةٍ جديدةٍ، وضربًا من "العودة إِلى البيت". الجسد يزول، ولكنّ الروح والسلام يبقيان. لقد عقدت مع الموت معاهدة سلامٍ. ورأيت، فيما يتعلّق بالحياة، أُمورًا رائعةً: ما هم البشر، كيف يُعنى القوم بعضهم ببعضٍ في الشارع، وكيف يُعنى، هنا، في "كاليغات"، بالناس، ومحبّة الأَخوات. إِنّها لصدمةٌ، حقًّا، للكثيرين من المتعاونين أَمثالي، أَن نضطرّ إِلى العودة لعالمٍ تسوده الماديّة. إِنّني أَودّ أَن يتغلغل فيّ أَلم هذا الفقر عميقًا، بقدر ما أَودّ أَن أَتغيّر".

وهذه "ميري كوكس"، السيّدة البريطانيّة التي تطوّعت للعمل بضعة أَشهرٍ في "كاليغات"، وقد أدلت بهذا الاعتراف: "اليوم الأَوّل الذي قضيتُه هنا سبّب لي مرضًا جسديًّا، وخُيِّل إِليّ أَنّني لن أقوى أَبدًا على الصمود. ولكنّني، في اليوم التالي، كنتُ أَفضلَ حالاً. فمع كرّ الأيَّام، يألف المرء رؤية بسمة الله. إِنّنا، في إِنكلترا، نعرف الفقر، ولكنّه فقرٌ روحيٌّ، وعزلةٌ لا مثيل لها في "كاليغات". فهنا يُشاهد بؤسٌ مريعٌ من جانبٍ، ومن الجانب الآخر، فرحٌ وحبٌّ جمّان، يسريان عبرَ بسمات بعض هؤلاء القوم، رغم آلامهم. إِنّ قدرتهم على التعبير عن هذا الفرح، من خلال وضاعتهم، تحملنا على الشعور بالتواضع. هنا يُلمس جسد المسيح لمسًا متميّزًا. إِنّ ما سيشقّ عليّ هو أَن أُبارح هذا المكان، حاملةً رؤياه في ذهني وفي قلبي، وأَن أُواصل، مع ذلك، عيشي الترف. لا بدّ لتلك التجربة من أَن تغيّرنا. لا مفرّ من ذلك. إِنَّ الحياة حجٌّ، ولا مناصَ من تحوُّلٍ مستمرٍّ".

ويتواتر توافد المتطوّعين من كلّ جنسٍ ومهنةٍ؛ فهذا شابٌّ بنغاليٌّ، طالبٌ في جامعة كلكتّا ينتقل من سريرٍ إلى آخر، كي يحلق للمرضى ذقونهم، ويبثّهم العزاء، ويشدّ أَزرهم، فيما شابٌّ سويديّ، يتدلّى شعره الأَشقر فوق كتفيه، يمسّد، برقّةٍ، ساقَي محتضرٍ لم يكن ممكنًا تقدير سنّه هل هي عشرون أو سبعون سنةً؛ وما هي إلاّ نصف ساعةٍ حتّى يغمض المحتضر عينيه، وتشرع روحه تغادر جسده على مَهَل، فيما الشابّ السويديّ ممسكٌ بيده يؤاسيه.

ومع ذلك، يظلّ عمل المتطوّعين عابرًا وثانويًّا، في حين يبقى عمل المرسلات والمرسلين هو نخاع "كاليغات" الشوكيّ، فهو يقتضي من كلٍّ منهم أَن يكون ممرّضًا، وطبيبًا، وخادمًا، ومنظِّفًا، ومؤاسيًا، يعمل ثماني عشرة ساعةً متّصلةً، ستّة أَيّامٍ بالأَسبوع، مكرّرًا، بلا كلَلٍ، أَعمالاً لا تتغيَّر، مثل إعطاء دواءٍ، وغسلٍ، وتنظيفٍ، وإِطعامٍ، أَو مجرّد جلوسٍ للإصغاء إِلى مطلبٍ أَو شكوى، أَو محاولة غوثٍ ومؤاساةٍ. ومع ذلك فإِنَّ منية معظم المرسلات والمرسلينَ هي العمل في "كاليغات"، وما شابهها من دور المحتضرين، فهي مدرسة صبرٍ ، وتفانٍ ، وحبٍّ، وقداسةٍ، وتجربةٌ مخصبةٌ مع الموت.

وقد سأل الكاتب والصحافيّ "نافين شولا" الأُخت "سوما" العاملة في "نيرمال هرايدي" عن سرّ سكونها النفسيّ، لا بل سعادتها، وهي تلامس الموت، كلّ يومٍ، عن كَثَب، وتُعايش من يعدّهم المجتمع نفاياتٍ يستقبحها وتثير اشمئزازه، أَجسادًا ذاب لحمها، والتصق جلدها بعظمها، وعيونًا غائرةً غائصةً في هوّةٍ سحيقةٍ من الحزن واليأس، فأوضحت أَنّها، في أَيّام خدمتها الأولى في "نيرمال هرايدي"، غالبًا ما انتابها الانهيار والإحباط، ولا سيّما عندما كانت تقف شاهدةً عاجزةً على موت شبّانٍ وشابّاتٍ؛ وكثيرًا ما كانت تندفع نحو المصلّى، كي تطلق لَعَبراتها العنان، بعيدًا عن الأَبصار. وفي المساء كانت تُفرغ بين يدي الربّ، كلّ أَحزانها، ملتمسةً القوّة والعون. وأَضافت: "الآن قد تحررتُ من خشية الموت. إِنّنا نعلن للمحتضرين أَنّهم سيواجهون الربّ، الذي برا كلاًّ منهم، والمقيمَ داخل كلّ كائنٍ بشريّ. إِلهي، أَنا، هو يسوع. أَمّا للهندوسيّ فهو "شيفا" أَو "فيشنو" أَو "براهما"، وللمسلم هو الله. وعندما يفقد محتضرٌ وعيه، أُكَلِّف أُختًا أَو أَخًا أَو متطوّعًا بالجلوس إِلى جانبه، وبإِمساك يده، وبالتماس الصفح عن خطاياه، وبالتعبير عن إيمانه بالله. وغالبًا، عندما يُهمَس بتلك

الأَقوال في أُذن المحتضرين، تنساب الدموع على وجناتهم. إِنّ معظم الموجودين ههنا لا يخشون الموت. وعندما نشرع بإعداد من نشعر أنّنا عاجزون عن إِنقاذه للقاء وجه ربّه، غالبًا ما يعترف لنا: "إِنّني، لأَجل هذا، جئت إِلى هنا". الشهر الماضي أَفضت إِليّ عجوز بقولها: "أُختاه، إِنّ آلامي لمُضنية، أَوَ لا يرى الربّ ما أعاني؟ لم تعد تراودني سوى رغبةٍ واحدةٍ: الانتقال إِلى الجانب الآَخر". وقد فاضت روحها بعد أَيّامٍ قلائل. وكثيرون من المحتضرين يعترفون: "ما من مكانٍ أَفضل من هذا للموت".

ويفعل مثال المرسلات في النزلاء فعلاً خيِّرًا، خصبًا، معديًا. ومن الأَمثلة على هذا الواقع نقتصر على اثنين:

"سنيهلاتا" جاءت إِلى "كاليغات" وهي مصابةٌ بالسلّ والسرطان معًا. وذات يوم اكتشفت إِحدى المرسلات، تحت وسادتها، بضع قطعٍ من البسكويت. واستوضحت عن سبب إِخفائها في ذلك المكان، فاعترفت بِأَنَّهَا تحتفَظ بها لأَبنائها، وستنفذها إِليهم يوم الأَحد مع شقيقتها التي ستقدم لزيارتها، إِذ إِنّها لا تملك ما تهدي إِليهم سواها. وقد دعتها الأُخت "سوما" إِلى تناولها واعدةً بإعطائها غيرها، هديّةً لأَبنائها في الوقت المناسب. ولكنّها أَبت، إِذ كانت حريصةً على إِهداء ما حرمت نفسها منه، وما بات، بالتالي، ملكها. وعندما وافت شقيقتها عهدت إِليها بالبسكويتات الثماني التي قتّرتها على نفسها.

وقد اتّضح للأخوات، فيما بعد، أَنّ "سينهلاتا" كان قد هجرها زوجها، وتزوّج امرأةً أُخرى، وأَنّها أَهدت البسكويتات إِلى أبناء ضرّتها.

وتروي اَلأُمّ تيريزا أَنّها التقطت، يومًا، من مرمى أَقذارٍ، امرأَةً تهذي من الحمّى، فاجتاحها اضطرابٌ عنيفٌ، عندما تنامى إِلى علمها أَنَّ ابن تلك المرأَة كان أَلقاها في تلك المزبلة، وتخلّى عنها. وجاءت الأُمّ بها إِلى "نيرمال هرايدي"، وعكفت على غسلها وتنظيفها، ثمّ على محاولة إِقناعها بالصفح عن ابنها. وقد اقتضى منها ذلك الكثير من التردّد، والجهد والصراع مع الذات، ولكنّها، أَخيرًا، صفحت، فغمر نفسَها السلامُ، وللمرّة الأولى، مذ جاءت بها الأم تيريزا، افترّت شفتاها عن ابتسامةٍ نيِّرةٍ، وأَعربت عن شكرها للأمّ، وهي تلفظ أَنفاسها، بين ذراعيها، وما زالت الأُمّ تيريزا تقرّ بأَنّ تلك كانت أَجمل ابتسامةٍ وُجّهت لها.

غير أَنّ بعض زائري "كاليغات" لا يحدوهم سوى الفضول إِلى رؤية مكانٍ يكثر حوله اللغَط، فلا يشهدون فيه سوى ضَآلة الوسائل الحديثة الكفيلة بشفاء عددٍ أكبر من النزلاء، وبمعالجتهم معالجةً أَوفر جدوى، ذاهلين عن أَنّ أُولئك المساكين كانوا مرميّين على قارعات الطرُق، لا يأبه أَحدٌ لموتهم البطيء، موت الكلاب الجرباء، ويؤلمهم، فوق كلّ شيءٍ، ازدراء الناس لهم، وإِعراضهم عنهم بلا اكتراث.

أَمثال أولئك الزائرين يعودون من "نيرمال هرايدي" بمادّة نقدٍ رخيصٍ، ويزدادون على عتمتهم الداخليّة انغلاقًا وانكماشًا.

وتعدّ اَلأُمّ تيريزا "أَجمل يومٍ في حياتها" يومَ زار "نيرمال هرايدي" قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني في الثالث من شُباط ١٩٨٦؛ تلك الزيارة قد أَفعمت صدرها فرحًا واعتزازًا أكثر من كلّ مظاهر التكريم التي أُحيطت بها في مختلف أَرجاء المسكونة، وَأَكْثَر من جميع أَكْدَاس الجوائز الرفيعة التي أغدقت عليها.

كان الطقس، يومذاك، رائعًا، وقد استقبل الحبر الأَعظم عند مدخل "كاليغات" كاهن معبد "كالي" الأَكبر وزوجته اللذان قلّداه طوقًا من زهور؛ غير أَنّ الأَب الأَقدس، بعد أَن شكر لهما تكريمهما، وبحركةٍ عفويّةٍ، انتزع عقد الزهور من عنقه، وطوّق به عنق الأُمّ تيريزا، ثمّ أَخذ رأسها بين يديه، في وَرَعٍ ورفقٍ، وقبّل القناع الذي يغطّيه، أَمام أُلوف العيون المذهولة الدامعة.

ثمّ رافق، وحده، الأُمّ داخل معبد الحبّ، ومحجّة البذل السخيّ، والإِيثار الإِنجيليّ، وقد جهد في حبس دموع التأَثُّر، وهو يجوس خلال الأَسرّة، ويتوقّف عند كلّ نزيلٍ ليباركه، لامسًا، لمْسَ اليد، الحبّ الذي تغلغل داخل تلك الجدران، وهيمن في أَجواء المكان. كان يُردّد للجميع، ولكلّ واحدٍ: "إِنّني أُحبّكم"، ويجهد كي يخدمهم بيديه، فيأتي لهذا بطبق طعام، ولذلك بملعقة، ويهدهد آخر بين ذراعيه. ويغلبه التأثر، أَحيانًا، فيعجز عن الكلام. وقد خاطبته امرأةٌ باللهجَةِ البنغاليّة، فاستوضح الأُمّ تيريزا عمّا تقول، وكانت المرأة، التي تشكو من الوحدة، تتوسّل إِليه أَن يعود لزيارتها ثانيةً، فجثا الحبر الأَعظم أَمامها، وأَخذ رأسها بين يديه، وفي حنانٍ جمٍّ، وعذوبةٍ لا متناهيةٍ، طبع قبلةً على جبينها المغضّن.

ولمّا خرج، بادي الإِرهاق، بليغ التأثّر، أَعلن سكّان الحيّ، ومعظمهم من

الهندوسيّين: "**لقد حلّ الله بين ظهرانينا**"، فيما صرّحت الأُمّ تيريزا: "**ما أعظم ما وفّره حضورُه من سلامٍ وفرحٍ لشعبنا! تلك هي عظمة الحبّ**".

أَمّا الحبر الأَعظم فقد خاطب الحضور قائلاً: "**تيرمال هرايدي" موئلُ رجاءٍ، بيتٌ قائمٌ على أُسس الشجَاعَة والإِيمان، منزلٌ يسود فيه الحبّ. فيه يلتقي سرّ الأَلم البشريّ بسرّ الإِيمان والحبّ، ومن خلال هذا اللقاء تتجلّى معاني التساؤلات الجوهريّة حول الوجود الإنسانيّ. فالجسد المُشبع أَلمًا، والفكر، يتساءلان: "لمَ، وما جدوى الألم؟ وعلامَ عليّ أَن أَموت؟" ويأتي الجواب، غالبًا، بلا كلامٍ، مفعمًا عطفًا ورأفةً، مُثْقَلاً حقيقةً وإِيمانًا: "لستُ أَستطيع الردّ ردًّا كاملاً على كلّ تساؤُلاتكم، ولا القضاء على كلّ آلامكم. ولكنّني واثقٌ من أَمرٍ واحدٍ: إِنّ الله يحبّكم حبًّا أَبديًّا، وأَنتم ثمينون في نظره. ومن خلاله، أَنا أَيضًا أُحبّكم. فنحن، في الله، إِخوةٌ وأَخواتٌ، حقًّا.**

"إِنّ "تيرمال هرايدي" يعلن الكرامة العميقة الغَوْر التي تحقّ لكلّ كائنٍ بشريّ، وإِنّ الرعاية الرقيقة التي تُغْدَق هنا على نزلائه تؤكّد أَنّ قيمة الكائن البشريّ لا تُقاس بجدواه أَو بكفاآته، ولا بصحَّته أَوسقَمه، ولا بسنّه، أَو معتقداته، أَو بلون جلدته، فكرامتنا البشريّة تنبع من الله خالقنا الذي برانا على صورته، وهذه الكرامة لا ينالُ منها حرمانٌ ولا أَلمٌ، فنحن، دائمًا، ثمينون في نظر الله.

"إِنّ القدّيس يوحنّا، في رسالته، يدعونا إِلى عدم قصر حبّنا على الكلام والثرثرة، بل إِلى جعله حقيقيًّا، فاعلاً: فليكن قول القدّيس يوحنّا صحيحًا لكلٍّ منّا، وليوحِ لنا الحبُّ الشجاع، والإِيمان الحيّ اللذان نلقاهما في "تيرمال هرايدي" ذلك الحبّ الحقَّ الفاعل". ثمّ اختتم الحبر الأَعظم كلمته بهذه الصلاة: "**هنا، في موئل المحتضرين هذا، حيثُ تُغدَق العناية على المرضى والمحتضرين بحبٍّ، نرفع أَفكارنا وقلوبنا نحوك متضرّعين، يا ربّ... إِنّنا نعلم أَنّك دائمًا قريب من القلوب المحطّمة، ومن المُهمَلين، ومن جميع الضُّعفاء والمتألّمين. أَيُّها الأَب المفعم حبًّا، بارك الذين تَتَوَفَّاهُمْ، الذين سيشاهدونك، عمّا قريب، وجهًا لوجه. إِنّنا نؤمن أَنّك جعلتَ من الموت مَدْخَلاً إِلى الحياة الأَبديّة... يا الله، منبع كلّ قوّةٍ، احفظ، واحمِ من يرعون المرضى، ويُساندون المحتضرين. أَيِّد جهودهم الرامية إِلى المؤاساة والشفاء، واجعل منهم، دائمًا، أكثر فأَكثر، علامةً متألّقةً على حبّك الذي يحوّل ما في القلوب.**

يا سيّد الحياة، ومرتكز رجائنا، اسكب بركاتك، بغزارةٍ، على جميع مـــن يعيـــشون ويعملون، ويموتون في هذا المكان، آمين".

ثمّ كتب قداسة البابا، من روما، في ٢٦ شباط: **"إنّ عمل الأُمّ تيريزا في كلكتّـــا، وفي أَماكن أُخرى من الهند، يُمثّل حَدَثًا ذا شأنٍ فريدٍ، يتخطّى كلّ ما هو مألوفٌ. إنّ الأمّ تيريزا لا تطال بعطفها الفقراء فحسب، بل أَفقر الفقراء، وتؤدّي شهادةً تتغلغل، ببلاغتها، إلى أعماق العالَم المعاصر".**

وغداة زيارته لنيرمال هرايدي احتفل الأب الأَقدس بقدّاس في أَفسح حدائق كلكتّا اتّساعًا، حيث حيّاه زهاء مليون شخص؛ وفي عظته، أَشاد، بعباراتٍ تنبض حـــرارةً، بعمل الأُمّ تيريزا على أَنّه فعل حبٍّ إِنجيليٍّ في خدمة يسوع المـــسيح، قـــائلاً: **"فـــي حقبتنا هذه، وجد مخطّط يسوع الناصريّ، هنا، في الهند، وبالتحديد، هنا في كلكتّا، تأكيدًا بليغًا هو، في آنٍ واحدٍ، شهادةٌ يراقبها العالم أَجمع، وشهادةٌ تهـــزّ وجـــدان العالم، أَعني حياة وعمل امرأَةٍ، وإِن هي لم تكن من مواليد الهند، إِلاّ أَنّهـــا باتـــت معروفةً اليوم تحت اسم الأُمّ تيريزا الكلكتّاويّة...**

"بعطفها وحبّها الأَصيل، اللذيْن تحيط بهما المعوزين، تبرز لنا ما تستطيع قوَّةُ الفداء أَن توحيه من بطولةٍ، لرجالٍ ونساءٍ طيِّبي النوايـــا، وكيـــف تقـــوى علـــى مساندتهم سنةً إثر سنة ...

"إِنّ محبّة مرسلات المحبّة وتجرّدهنّ اللذيْن يمليهما حبُّهنّ للمـــسيح يمـــثّلان تحدِّيًا للعالم، عالَمٍ استكان إِلى الأَنانيّة، وانقاد لجاذب الربح، والشهرة، والـــسطوة: في مواجهة أَبالسة الأَزْمِنَة المعاصرة، هذه الشهَادَة تعلن، لا بالأقوال، بل بالأَعمال والتضحيات، القيمة الجوهريّة لحبّ المسيح مخلّصنا، وتدعو الخاطئ إِلى التوبَـــة، وإِلى السيْر على خطى الربّ. "

وكان على موكب الحبر الأَعظم، في كلكتّا، أَن يتّبع مسيرةً محدَّدةً بدقّـــةٍ؛ وقـــد دهش مدير إِذاعة الـــڤـــاتيكان، الذي جلس في سيّارة الطليعة بين اثنين من رجـــال الأَمن، لتعديل تلك المسيرة المتواتر كي يُتاح للموكب المرور أَمام مختلـــف مراكـــز مرسلات المحبّة، فانفجر مستنكرًا، "لـــمَ تعـــدّلون خطّـــة المـــسيرة؟ أَلا تخـــضعون للأوامر؟" فأَجابه رجل أَمن:

"إِنّنا لا نتلقّى أَوامرنا إِلاّ من الأُمّ تيريزا!"

أَوَلم يُقَل، يومها: **"الأُمّ تيريزا هي، حقًّا، ملكة كلكتّا، فالجميع يُطيعونها حتّى البابا"!**

ولدى مرور الموكب أَمام مركز المرسلات الرئيسيّ، استقبل الزائرَ العظيم بالتصفيق زُهاءُ أَربع مئةٍ منهنّ، وقد الفْنَ سورًا لزيزًا، وعلى رأسهنّ اَلأُمّ تيريزا، وكأنّها قائدٌ على رأس جيشه، فباركهنّ البابا، وقد أَشرق محيّاه بابتسامةٍ مشعّة. وبُعَيْد قليلٍ، ارتفعت أَيدٍ صغيرةٌ أَمام مركز "شيشوبهاڤان" معربةً عن الفرحة، ملوّحةً بالأَعلام.

وكان على البابا أَن يطوّب، في اليوم التالي، في مدينة كيرالا، وهي من أَقدم المراكز المسيحيّة في الهند، الأُخت "أَلفونسا" والأب "كورياكوز". وكان احتفالاً نادر المثال، إذ قلّما كانت تقام احتفالات التطويب خارج روما. وقد طلب الأَب الأَقدس من اَلأُمّ تيريزا أَن تحضر ذلك الاحتفال، فحُضورها كان له، دائمًا، معينَ اطمئنانٍ، إِذ كانت تجمعهما وحدةٌ متكاملة الأَسباب، خاليةٌ من كلّ تناقضٍ أَو خلافٍ. فقد كانا واحدًا في المسيح، فكرًا وقلبًا، متوافقَيْن على جميع قضايا العقيدة والسلوك. وكان الحبر الأَعظم يرى فيها خير ناطقةٍ باسم الكنيسة في الهند، حيث كانت تحظى باحترامٍ عميقٍ شاملٍ.

زيارة الحبر الأَعظم تلك للهند ظلّت، للأمّ تيريزا، ذكرى متأَلّقةً، وبركةً ثمينةً، ومبعث عزمٍ على متابعة عملها، بلا هوادةٍ، باسم يسوع، ومع يسوع، وفي يسوع.

النذر الرابع

في تلك الأَثناء، أَي في ١٦ آب ١٩٤٩، كانت سنة الامتحان التي أُفسحتْ للأُمّ تيريزا قد أَوْفت على نهايتها، وبات من صلاحيَّة الأُسقف "پيرييه" إِمَّا أَمرها بالعودة إِلى حصن دير "لوريتو"، أَو السماح لها بالاستمرار في نهجها. وكان، خلال تلك الفترة، يستطلع، باطّرادٍ، أَنباءَها، من الأَبوين "إِكزيم" و "هنري"، فيطلعانه على إِنجازاتها الرائعة، بمساعدة أَخواتها المتكاثرات باستمرار، في العطف على الفقراء، والمرضى، والمنبوذين، وتسجيلهنّ، بذلك، صفحاتٍ وَضَّاءَةً من الإِنجيل.

واستوضح الأُسقف عن علاقتها براهبات "لوريتو"، فأُعلم أَنّها "ساجيةٌ ومفعمةٌ بالاحترام".

وخلص الأسقف، من خلال ما سمع وعاين، إِلى القناعة بأَصالة رسالة الأمّ تيريزا، وسلامة نهج فريقها الصغير، وقد صرّح، بهذا الشأن: "**شرعتُ أُومن أَنّنا أَمام دعوةٍ فائقةٍ حقيقيّةٍ، وأَنّ علينا، مع التحيّط بالحذر الذي يفرضه التشْرِيع، وتنصح به التقاليد الكنسيّة، أَن نُقلع عن عرقلة مشاريع الله. لذلك، وبما أَنّ نواة جماعةٍ صغيرةٍ، ولكن واعدة، أَمست تحيق بالأُخت تيريزا، وبما أَنّ أُولئك الفتيات لا يُثرنَ الشكوك، بل، على نقيض ذلك، ينهضْنَ، لكلّ من يرقبهنّ، مثالاً جديرًا بالاحتذاء؛ وعملاً بالصلاحيَّات المخوَّلة لي، يمكنكم إِبلاغها، من قِبلَي، أَنَّني أُمدّد لسنةٍ أُخرى، السماح لها بالعيش خارج حصن الدير، وسأَقوم بتبليغ رئيسة "لوريتو" القطريّة هذا الأَمر**".

من المحقَّق أَنّ ذلك لَمْ يكن رأي جميع رجال الدين، إِذ ظلَّ بعضهم يرشقونها بالحمق والجنون، لانغماسها، طائعةً، في حمأَة البؤس، ولممارستها الرهبنة خارج حصن دير؛ ولا بِدْعَ في ذلك، فكثيرون، قبلَها، ممّن انتفضوا على التقاليد، في سبيل مُثُلٍ عليا، قد اضطُهدوا. أَولَم تلقَ "ميري ورد" نفسها، مؤسّسةُ جمعيّة راهبات "لوريتو"، معارضةً عنيفةً من قِبَل أَعلى المقامات، لأَنّها ابتغت تأسيس جمعيّةٍ رهبانيّةٍ نسائيّةٍ، تخدم الأَطفال والمرضى، خارج حصن الدير التقليديّ؟ كثيرًا ما اهتزّت المؤسَّسة الكنسيّة واضطربت، لأَنّ رجالاً ونساء مُلهَمين عزموا، بقيادة الروح، على عيش الإِنجيل حرفيًّا، فاضطُهدوا قبل أَن تُنصَب لهم التماثيل. إِنّ شهود الله هؤلاء يهزّون قيود الرتابة والتقليد، ويُزيحون الصخور والأَتربة التي كانت تسدّ ينابيع الإِنجيل، ويعيدون للعالَم طعم الله.
وكان كاهنٌ مُسِنٌّ قد شنّ حملةً شعواء على الأمّ تيريزا معلنًا: "مع كلّ الخير الذي كان بوسعها تحقيقه في دير "لوريتو"، ما الذي اضطرَّها إِلى الإِقامة مع مُعدَمي الأَكواخ؟ عليها أَن تفكّر مليًّا، وترتدّ عن جنونها".

ولا ريب أَنّ هذا القول دليلٌ على لا مبالاة فئةٍ عريضة من الناس بالفقراء، ومنهم طائفةٌ من رجال الإِكليروس، يعدُّون أَنفسهم أَرستقراطيَّةً متعاليةً، تربأ بنفسها من الاختلاط بالجهّال، والقذرين من عامَّة الشعب، ويعتبرون حماقةً أَن تزجّ راهبةٌ ذات مؤهِّلاتٍ رفيعةٍ نفسَها في ظلّ الأَكواخ، وبين ظهراني قاطنيها. ولمَّا تنامى هذا القول إِلى سمع الأُسقف "پيرييه" أَمر الكاهن المذكور بإِعلان اعتذاره عنه.

لقد تفجّرت أعمال الأُمّ تيريزا استجابةً لنداء آلام الناس، ومن خلال ذلك النداء، كان الربّ يدلُّها إِلى الدرب، ما رسَّخ إِيمانها بأَنّ العمل عمله، وأَطلق ديناميكيَّتها الجامحة. ولكن، هل يعني ذلك أَنّ دربها كان سهلاً؟ بالتأكيد لا، لأَنّ صوت الربّ من الرقَّة بحيثُ يقتضي سماعُه إِنصاتًا مُرهَفًا، وطاعةً مستسلمةً، لتفادي أَيّ شططٍ. هذا الواقع كثَّفته الأُمّ تيريزا في عبارة وجيزة: "**عليَّ أَن أَعمل وكأَنّ كلّ شيءٍ مرهونٌ بعملي، على أن أَدَع الباقي بين يدي الله**".

ومع شعورها العميق بسموِّ رسالتها، استمرَّت تعيش على مستوى الخدمات الصغيرة اليوميَّة، وتغوص في حمأة الشقاء البشريّ، مثلما تُدفن البذرة في التراب والسماد. ولا عجب إِن انبثقت من تلك التربة الخصبة شجرةٌ منيعة، وارفة الظّلال.

ومضى عدَد الفتيات الراغبات في الانضمام إِلى جماعتها يتعاظم باطِّرادٍ، وكانت هي تلقّنهنّ واجب إِيلاء المُهمَلين الذين يصادفنَهم في الشارع العطف والرعاية والعناية الصحّيَّة. واتّفق أَنّ امرأَةً كانت قد ترمَّلت، وتعيّن عليها القيامِ بأَوَد خمسة أَبناءٍ، فتولَّت أَخوات الأُمّ تيريزا رعاية اثنين منهم، وعكفنَ على تلقينها مهنةً كفيلةً بتأهيلها لإِغاثة سائر أَفراد الأُسرة. وصرّحت امرأَةٌ بروتستانتيّةٌ للأمّ تيريزا، إِثر ذلك: "منذ سنوات، أَدعو الله أَن يرسل لهؤلاء القوم منقذًا، وها هو قد أَرسلك، وها هم أكثر إِنسانيّةً، وأوفر سعادةً. فدعيني آتِ، وأُنصتْ إِليكِ، وأَنت تحدّثينهم عن الله".

ومساءَ ذلك اليوم دوّنت الأمّ تيريزا في يوميّاتها: "**لقد عدتُ إِلى البيت، وأَنا أَقلُّ تَعَبًا ممّا كنت، وقت غادرتُه**". ففي صباح ذلك اليوم، كانت قد تفجّرت منها صيحة قلقٍ وأَلمٍ، وقالت: "**يتراءى لي أَنَّني أَغرق في محيطٍ من الأَلَم واليأس**". ولكنّها لم تُفسح للشفقة سبيلاً تتسلَّل، عبرَه، إِلى نفسها، "فليست الشفقة هي ما يفتقرون إِليه، بل الحبّ"، الحبّ الفاعل الذي برعت في إِغداقه.

وما عتَّم أَن أَيقن الجميع بعظمة رسالتها، وحتّى الذين كانوا، بالأَمس، يقذفونها بالحُمق، انقلبوا يعدّونها قدّيسة.

وأَدرك أُسقف كلكتّا أَنّ تلك النبتة المتنامية لا بدّ لها من أَن ترتدي طابع جمعيّةٍ مُعتَرفٍ بها، تابعة لرعيّة كلكتّا وأُسقفيّتها، ولا سيّما أَنّه، بعد أَن تبدَّدت كلّ شكوكه

حول دعوة اَلأُمّ تيريزا، وأَيقن أنّها كانت نابعةً من مشيئةٍ إِلهيَّةٍ، عزم على دعمها بكلّ طاقاته، حتّى آخر لحظةٍ في حياته.

والاعتراف الرسميّ بالجمعيّة يستلزم نظامًا أَساسيًّا يحظى بموافقة مجمع نشر الإيمان. وقد أَبدى الأُسقف رغبته في تقديم مشروع ذلك النظام بنفسه إِلى الجهات اَلمُخْتَصَّة في روما، حيثُ كان مزمعًا على المثول خلال شهر نيسان ١٩٥٠.

وأَهاب بِالأمّ تيريزا أَن تضع مسودّة ذلك النظام، مبرزةً الروحانيَّة الخاصَّة التي تتوخّى أَن تتميّز بها جمعيّتها العتيدة. فدبَّجت مشروعًا طوته على الإلهام الذي تلقَّته في طريقها إِلى "دارجيلينغ"، وخلال الرياضة الروحيَّة التي أَعقبته. وقد تَجَلَّى جوهر هذا الإِلهام في الاسم الذي قرَّرت إِطلاقه على جماعتها: "**مُرْسَلات المحبّة**". فالله محبّة، والمحبّة تعني كلّ سخاء حبّ الله: وعلى المرسلة أَن تكون رسول حبّ الله في أَعماق ذاتها، فتُفعَم بهذا الحبّ، وتنشره بين الأَنام جميعًا، أَيًّا كان دينهم ومذهبهم.

وتجلّى إِلهام الأُمّ تيريزا، أَيضًا، من خلال نظام جماعتها، بنذرٍ رابعٍ أَرادت أَن تُلزم به نفسها وأَخواتها، وتميّز به جمعيَّتها بطابعٍ خاصٍّ. هذا النذر الذي سيُضاف إِلى النذور الرهبانيّة الثلاثة المعهودة: الفقر والعفَّة وَالطاعَة، لُخِّصَ في "**خدمة أَفقر الفقراء، مجَّانًا، وبعطفٍ نابعٍ من أَعماق القلب، وكلِّيًّا**".

وتعبّر مُرسلات المحبَّة عن ذلك النذر الرابع، بالوسائل التالية:

"**تكريس الذات، بتجرّدٍ، لخدمة الفقراء والمحرومين، الذين سَحَقَهم العوز والفقر، فباتوا يعيشون في ظروفٍ تتنافى والكرامة الإِنسانيّة. وبالتالي، فاللواتي سينضوين تحت لواء هذه الجمعيَّة مصمّماتٌ على بذل الذات بلا هوادةٍ، من أَجل البحث، في المدن والقرى، وحتّى في أكثر الأَماكن قذارةً، عن الفقراء، والمرذولين، والمرضى، والمعاقين، والبُرْص، والمحتضرين، والمشرّدين،**

ورعايتهم،

وغوثهم،

وزيارتهم باطّراد،

عائشاتٍ حبّ يسوع لهم،

وموقظاتٍ فيهم استجابةً لحبّه الجمّ".

"بارتباطنا بنذورٍ إنجيليَّة، نستهدف إرواء عطش حبّ يسوع الجمّ، بتكريس ذواتنا، مجَّانًا، لخدمة أَفقر الفقراء، عملاً بمثال ربّنا وتعليمه، وبذلك نعلن، على نحوٍ خاصٍّ، عن ملكوت الله. إنّ مهمَّتنا المميّزة هي العمل على خلاص أَفقر الفقراء، وتقديسهم". وقد وضعت اَلأُمّ تيريزا التفسير المفصّل التالي للنذر الرابع:

– **"أَن نخدم: أَي أَن نكون دائمًا متأهّبات لتقديم خدمةٍ صغيرةٍ، متواضعةٍ، بسيطةٍ، بحبٍّ، وضمن طاقة كلّ فردٍ، لأَفقر الفقراء، لا بغايةِ مساعدتهم فحَسْب، بل حبًّا بالله. وهكذا نقتسم، بالحضور والحوار، فيض حبّ الله الغامر، الذي نختبره، في حياتنا.**

– **"بكلّ قلبنا: أَي أَن نعطي كلّ ما نستطيع إِعطاءه، من غير أَيّ اعتبارٍ للثمن؛ وأَن نظلّ نُعطي إِلى أَن يتولاّنا من العطاء الأَلَم؛ أَن نعطي الفقراء لا خدمات أَيدينا، وكلمات شفاهنا، ونظرات عيوننا فحسب، بل، أَيضًا، قلوبنا، كي تحبّ بعطفٍ، وتواضعٍ وفرحٍ.**

– **"مجَّانًا: أَي أَن نَهَب، فَرِحين، ما تلقَّيناه، من غير أَن ننتظر، في المقابل، لا مالاً، ولا متاعًا، ولا شكرًا، ولا تقديرًا".**

أَمّا النصّ الكامل لنذر مُرسَلات المحبَّة، فهو التالي:

"باسم الآب، والابن، والروح القدس، آمين،

"إِكرامًا لله، ومن أَجل مجده، وإِذ تحدوني، وحدَها، الرغبة في إِرواء عطش يسوع اللاّمتناهي، على الصليب، إِلى النفوس؛ وإِذ أُكرّس له ذاتي، بكلِّيَّتي، في استسلامٍ تامّ، وثقةٍ، ورقَّةٍ مفعمةٍ حبًّا، هنا وَالآن، بين يدي رئيستي، أَنذر الفقر، والعفَّة، والطاعة، وأَن أَخدم، بكلّ قلبي، مجّانًا، أَفقر الفقراء وفقًا لقوانين مُرسلات المحبَّة. وبكلّ قلبي أَنضمّ إِلى هذه الأُسرة الرهبانيّة، بحيثُ أَستطيع، بفضل الروح القدس، وبعون قلب العذراء الطاهر، العذراء التي هي سبب فرحنا، وملكة العالم، أَن أحبَّ، حبًّا كاملاً، الله وقريبي، وأَجعل حضور الكنيسة كلّيًّا، في عالم اليوم".

بنذرهنّ الرابع، تقابل مُرسلات المحبّة الربّ بمثل حبّه وعطفه، عندما يُحبِبْنَه في صورته البائسة، سواءٌ هي كانت صورة محتضرٍ مُهمَلٍ على رصيفٍ في كلكتّا، أو طفلٍ رماه ذووه المُعدَمون في القمامة، أَو شابٍّ مُصابٍ بداء الإِيدز الذي سيودي به

إِلى موتٍ مأسويٍّ في مركزٍ بنيويورك، أَو برصٍ مُكدَّسين، أُلوفًا، في أَكْـواخٍ، فـي شتّى أَرجاء العالم.

هذا النذر الرابع هو الملاط الذي يشدّ مُرسَلات المحبّة إِلى جميع منبوذي العالم ومحروميه ومتألّميه، وجميع الذين فقدوا كلَّ أَملٍ وكلَّ إِيمانٍ بالحياة، في الفَرَح، ومن غير توقُّع أَيّ مقابلٍ أو جزَاءٍ، ومن غير أَيّ حسابٍ لما يتطلّبه العمل من مـشقَّةٍ، إِذ يتعيَّن إِكساء هؤلاء، وايواؤهم، وإِطعامهم، ومعالجتهم، وتضميد جـراحهم الجـسديَّة والنفسيَّة، ومصالحتهم مع ذواتهم، ومع الله والحياة.

أَمّا الأسلوب الذي يميّز مرسلات المحبَّة في أَدائهنّ هذه المهمَّة، فيكمن في أَنَّهنَّ لا يقبعنَ في حصن ديرهنّ، منتظراتٍ المعوزين والمرضى، بل يمضينَ للبحث عنهم حيثما وُجدوا.

وقد رمزت اَلأُمّ تيريزا إِلى كلّ تلك التطلّعات بصليبٍ يُنصَب فـي كـلّ مقـرٍّ لمرسلات المحبَّة، وإِلى جانبه صيحة المصلوب: "**أَنا عطشان**". هذا الرمز تعبير عن صبوِّ كلّ مرسلةٍ إِلى إِرواء ذلك الظَّمأ المتلظّي، والذي لا نهاية له، بحيـاة صـلاةٍ، وتأمُّلٍ، وتوبةٍ، وبذلٍ، وتجرّدٍ، مع تأَهُّبٍ لقبول حتّى الأَلم والموت، في سـبيل حـبّ يسوع، وخدمته من خلال أَفقر الفقراء.

وهي توضح صوفيّة عمل مرسلاتها بقولها: "**لو لم نكن نؤمن بأَنَّ المتألّم يمثّل جسد المسيح، لما استطعنا النهوض بهذه المهمَّة. فالمال، مهما توفّر، عاجزٌ عـن دفعنا. من خلال تفانينا، النابع من صميم كياننا، في خدمة أَفقر الفقراء، إِنّما نلمس المسيحَ، في أَجساد البائسين والجياع المحطَّمة. فهو الذي قال: "إِنّ مـا تفعلونـه لأَصغر إِخوتي، فلي تفعلونه**".

وقد صرّحت الأُمّ تيريزا، بشأن النذر الرابع: "**عندما أَنشأتُه، اسـتهدفتُ ثـلاث غايات: أَوّلاً: ضمان الوفاء لدعوتنا؛ وثانيًا: الحفاظ على روح الفقر الذي التزمنـا به؛ وثالثًا: أَن نشعر أَنفسنا مدفوعاتٍ إِلى إِيلاء الربّ ثقةً تامّةً. هذا النذْر الرابـع، هو الذي يضعنا في خدمة الآخرين، ويدفع بنا صوبَ ذلك الشعب الرائع، شعب مَنْ لا يملكون شيئًا، ولا أَحدَ لهـم، صـوْبَ المرضـى والمحتـضرين، والمـشلولين، والمدمنين على الكحول، والبُرْص، والبائسين، وجميع الذين نـسوا معنـى الحـبّ البشريّ، والعلاقةَ بالآخرين، وبسمتَهم...**

"وبما أَنّ عملنا يتمّ وسط الفقراء، فلا بُدّ من أَن نكون، نحن أَنفسنا، فقراء، حتّى إِذا ما شكوا من طعامٍ، استطعنا أَن نقول لهم: "نحن أَيضًا نأكل منه "؛ وإِذا ما تأَوّه أَحدهم قائلاً: "الليلة الفائتة كان الحرّ لا يُطاق، ولم يعرف النوم إِلى جفنيَّ سبيلاً"، استطعنا القول: "أَجل، لقد كان الحرّ شديدًا، حقًّا". على الفقراء أَن يغسلوا ثيابهم بأَنفسهم، وهم يمضون حفاةً، ونحن، أَيضًا، نفعل كذلك. علينا أَن ننحني نحوَهم كي ننتشلهم، ولذلك هم يُشرعون لنا قلوبهم، بطيب خاطرٍ، بعد أَن نُثبت لهم أَنّنا نعيش على غرارهم. قد لا يمتلكون، أَحيانًا، سوى دلو ماءٍ، ونحن، أَيضًا، نواجه حالاتٍ مماثلةً. ينبغي أن يُحاكي طعامنا، ولباسنا، في كلّ شيءٍ، طعام الفقراء ولباسهم. لا بدّ لنا من أَن نأكل، ولكنّنا نأكل نفس طعام الفقراء، ونعيش تمامًا كما يعيشون".

وضعت الأُمّ تيريزا، إِذن، مشروع نظام "مُرسلات المحبَّة"، وتولّى الأَب "إِكزيم"، الضليع في اللاهوت والقانون، سكبه في قالبٍ قانونيٍّ، من شأنه تسهيل الموافقة عليه من قِبَل مجمع نشر الإِيمان. وقد اضطرّ إِلى حذف بعض موادّه؛ فعلى سبيل المثال، كانت الأمّ تيريزا قد نصّت على أَلاَّ تمتلك جمعيّتها أَيّ عقارٍ باسمها، بل أَن يكون كلّ شيء ملكًا للكنيسة. ولكنَّ الكنيسة، في الهند، لم تكن تَتَمَتَّع بأَيّة شخصيَّة اعتباريّةٍ تؤهّلها للتَّملُّك؛ فحذف الأَب "إِكزيم" هذا البند، ورضخت الأُمّ تيريزا لمقتضيات الواقع والمنطق، مُكْرَهَةً.

وعُرِض نصّ النظام، في صيغته النهائيّة، على لاهوتيٍّ يسوعيٍّ شهيرٍ، فهتف: "إِنّها، لا ريب، إِصبع الله".

وأَقرَّ البابا بيّوس الثاني عشر تأسيس جمعيَّة "مرسلات المحبّة"، وأُعلِن عن تلك الموافقة رسميًّا، في السابع من تشرين الأَوّل ١٩٥٠، الموافق لعيد سيّدة الورديَّة.

وقد جاء في مدخل القرار: "منذ أكثر من عامَيْن، كرَّستْ فئة صغيرةٌ من الشابّات أَنفسهنّ، بقيادة الأخت تيريزا، وهي راهبةٌ متحرّرةٌ من معهد الطوباويّة العذراء مريم، وفقًا للقوانين، في سبيل إِغاثة الفقراء والأَطفال، والكهول والشيوخ، في مدينة كلكتّا".

وفي المصلّى الصغير بمبنى آل غوميز، تلا الأَب "إِكزيم"، بصوتٍ يختلج تأَثُّرًا، القرار البابويّ، بحضور أُسقف كلكتّا، ورئيسة دير "لوريتو"، وعلمانيّين متعاونين مع "مُرسَلات المحبَّة"، واثنتي عشرة فتاةً، متلفّعاتٍ بالساري الخاميّ، وقد أَحقنَ بأُمّهنّ

تيريزا، وانتحلنَ أَسماء جديدةً، ترمز إِلى الحياة الجديدة التي عزمنَ على خوضها: أَنييس، وجيرترود، ودوروثي، وكلير، وبرنارد، ولايتسيا، وياسنتا، وفرانسيسكا، وفلورانس، وميري، وفرنسيس كزافييه، وسيلين. اثنتان من هؤلاء لم تقويا على احتمال قسوة الحياة في خطى الأُمّ تيريزا، فانسحبتا، أَمّا العشر الأُخريات، فما زلنَ، حتّى اليوم، من أَساطين الجمعيَّة، وما انفكّ هدفهنّ، مثلما هو مبيَّنٌ في مطلع النظام: "**إِرواء ظمأ حبّ يسوع اللاّمتناهي، بممارستنا تعاليم الإِنجيل، وبوقفنا ذواتنا على خدمة أفقر الفقراء، بكلّ قلوبنا، ومجّانًا، وفقًا لما علّم السيّد المسيح، ولمَثَله المتجلّي في الإِنجيل، هاديًا إِيّانا إِلى الدرب الوحيد نحو ملكوت الله**".

وطالما أكدت الأمّ تيريزا أَنّ هدف مرسلات المحبَّة هو خدمة الفقراء، في أَوسع معنًى للفقر، على حدّ إِيضاحها: "**الفقراء، هل تعرفونهم حقًّا؟ وأَوَّلاً هل تعرَّفتم الفقراء داخل منزلكم؟ فربّما كان في صميم أُسرتكم، أَو في الجماعة البشريّة التي تنتمون إِليها، من يعاني وحشة الوحدة، ومن يشعر انّه غير محبوبٍ، وجريحٌ. بل ربّما كان زوجك، أَو امرأتك، أَو أَولادكم وحيدين داخل الأُسرة**". فربّما كان الإِنسان غنيًّا بالمادَّة، ومفتقرًا إِلى الحبّ، فقرًا مدقعًا.

لقد تبنَّت الأُمّ تيريزا قول يسوع: "**كنت جائعًا فأَطعمتموني، وعطشان فسقيتموني، وعليلاً فعالجتموني...**" لا بل إِنَّهَا عاشت هذا القول واقعًا، وفي العمق، وجهدت، بلا هوادة، في إِطعام المسيح، وإِرواء عطشه، ورعايته، من خلال جميع من انحنت على آلامهم، والذين وهبتهم حبَّها، ودفء قلبها، الحبّ والدفْء، اللذَيْن يفتقر إِليهما الجميع، ربّما أكثر من افتقارهم إِلى الخبز.

ولا ريب أَنّها استوحت قول القدّيس أُوغوسطينوس: "**ربَّما المحبَّة وحدَها هي التي تميّز أَبناء الله عن أَبناء إِبليس. فالذين يمتلكون المحبّة، إِنّما هم من الله قد وُلدوا. ذلكم هو البرهان الراجح، والتمييز الجوهريّ: امتلك كلّ ما تشاء، فإِن أَنت افتقرت إِلى الحبّ، لن يُجديك كلُّ ما سواه شيئًا. ولكن إِن افتقرت إِلى كلِّ شيءٍ سواه، ولم تمتلك سوى الحبّ، فقد تمَّمتَ الوصايا**".

وطالما نصحت الأمّ تيريزا أَخواتها: "**لا أُريد منكنّ إِجراء المعجزات، إِن أَنتنَّ أَجريتنَّها من غير محبّة. بل إِنّي أُوثر أَن ترتكبنَ الأَخطاء، وأَنتن تعملنَ بحبّ**".

ذلك التوجُّه الذي عبّر عنه النذْر الرابع، بكلّ ما انطوى عليه من سخاءٍ في البذل، ومن تفانٍ في الحبّ، ما انفكّ يجتذب إلى الأُمّ تيريزا وجماعتها أَسرابًا من الشابَّات الطاهرات القلوب، السخيّات النفوس، المتحرّقات توقًا إلى الخدمة؛ وسرعان ما ارتقى عدد مُرسَلات المحبّة إلى ثمانٍ وعشرين.

المركز الأُمّ

لقد أَسهمت بساطةُ حياة الجماعة، وروح التضحية التي كانت تحدو المُرسَلات للعمل في الشوارع، والأَكواخ الرثَّة، والأَحياء المُعدمة، في غزو القلوب، واجتذاب التعاطُف، وتحطيم آخر حواجز عدم الثقة؛ وهُرع لمساعدة المرسلات أَقوامٌ من كلّ مشربٍ ومذهبٍ: كهنةٌ، وراهباتٌ من جمعيَّاتٍ أُخرى، ورجال دينٍ من شتّى المذاهب، وَأَفْرَادٌ من كلّ طبقةٍ وملَّةٍ. بل بتنَ ينعمنَ بحمايةٍ من أَرفع مستوى. فهناك، على سبيل المثال "السيّدة المجهولة"، التي لم تكن، في الواقع، إلاّ ابنة أَخ رئيس وزراء البنغال الغربيّ، التي بعد أَن طافت في مجمّعات الأَكواخ، وشهدت مَآثِر الأمّ تيريزا فيها، اتَّخذتها لنفسها صديقةً، وغدتْ، عند تغيُّبها، أَو أَثناء اختلائها من أَجل رياضةٍ روحيَّةٍ، تتولّى، عنها، رعاية بيت المُرسلات وشؤونه المادّيَّة، ما حدا بالأَب "هنري" إلى التصريح: "إنّ شيئًا من روح اَلأُمّ تيريزا قد مسَّها... فمعها نلمس عالَمًا خاصًّا حيث تصبح العلاقة بالله واقعًا".

وعندما احتفلت المُرسلات بذكرى تأسيس جمعتهنّ الثانية، كانت الطبقة الثالثة من منزل آل غوميز بأَكملها، وما أُنشئ على سطحها من مراحيض وأَماكن استحمامٍ، قد ضاقت بنحو ثلاثين فتاةً، يرقد عددٌ منهنّ على الشرفات، واتّضحت الحاجة اللازبة إلى مقرٍّ أَرحب، يتّسع لجميعهنّ، ويستوعب تدفُّق القادمات الجدُيدات الذي لا ينقطع، ويتوفّر لهنّ فيه مُصلًّى فسيح حيثُ يستطعنَ الاحتفال اليوميّ بالإفخارستيّا، والسجود للقربان.

وكان لا بدّ من ابتياع مكانٍ، مع ما يقتضي ذلك من مالٍ لم تكن المُرسَلات يمتلكنَ منه فلسًا. ودعت الأُمّ تيريزا أَخواتها للشروع بتساعيَّة صلواتٍ حارَّةٍ، عسى أَن يمنّ الربّ عليهنّ بمقرٍّ مناسبٍ.

بادئ الأَمر، حاولت الأُمّ تيريزا البحث عن ضالّتها بنفسها، ولكنَّ زادَ خبرتها،

في ذلك المجال، كان هزيلاً، فتارَةً كانت تعقد صفقةً، وعندما يحين موعد توقيع العقد، ينكص البائع، وطورًا، يجهد سمسارٌ في إِقناعها بسلامة بيتٍ متهدِّمٍ، ولكي يبدّد شكوكها حول متانة أرضيّته الخشبيَّة، يقفز فوقها، بكلّ وزنه، فيتحطَّم الخشب النخِر، ويهوي السمسار، وسط طقطقةٍ مريعةٍ، إِلى الطبقة السفلى، فتُدَقّ عنقه.

وأَخيرًا، فوَّضت الأَمر إِلى الأَبوين "إِكزيم" و "هنري"، وكلاهما، في ذلك المضمار أَوفر معرفةً وخبرةً. واستقلّ كلّ منهما درّاجته، وراح يبحث. وقرع الأَب هنري باب قَاضٍ مسلمٍ متقاعدٍ، يُدعى الدكتور إِسلام، كان قد تخرَّج من إِحدى مدارس اليسوعيّين، في كَلكتّا، واحتفظ بعلاقاتٍ طيِّبةٍ معهم. ولكنّه دهش عندما استفسر الكاهنُ عن نيّته بيع منزله، فقد كان، فعلاً، يعتزم الهجرة إِلى الباكستان، لقضاء ما بقيَ له من أَيَّامٍ فيها، ولذلك وطّنَ العزم على بيع بنائه الجميل في كلكتّا، ولكنّه لم يُطلع على رغبته هذه سوى زوجته. وحدَّثه الكاهن عن الأُمّ تيريزا وحاجتها إِلى منزلٍ فسيحٍ يكون مقرًّا لها ولأَخواتها؛ وكان القاضي قد سمع عن مَآثِر الأُمّ تيريزا في خدمة المحرومين، وأَجلَّها، وأَخذه بها الإِعجاب.

واستوضح القاضي عن الثمن الذي يعتزم الكاهن أَداءَه، وإِذ كان الأَب هنري يتوقّع، وفقًا للتَّقاليد الهنديّة، مساومةً متماديةً، عرض مبلغ "لاخ"، أَي ما يعادل عشرة آلاف جينيه إِسترليني، وهو يكاد لا يُساوي ثمن الأَرض المشاد عليها البناء. ولم يُساوم القاضي، بل استأذن بالغياب بضع دقائق، ريثما يمثل إِلى مسجدٍ قريبٍ، اِلتِمَاسًا لاستشارةٍ؛ ولمّا عاد، كان دامع العينَيْن، وقال متأثِّرًا: "الربّ أَعطاني هذا المنزل، وبقبولي عرضكم، أُعيده إِليه". فهو، أَيْضًا، كان مؤمنًا بأَنّ عمل اَلأُمّ تيريزا خالصٌ لوجه الربّ، وعدَّ منَّةً من الله، أَن يجعل من المنزل الذي كان يحلم أَن يُنفِق فيه آخر أيامه هانئًا، مَقرًّا لملائكة المحبّة.

يقع ذلك البناء في شارع "لويرسيركولاررود" (Lower circular road) وهو يتأَلَّف من ثلاثة أبنيةٍ، أَحدها من ثلاث طبقات، وكلٌّ من الآخرين من طبقتين، يُطيف بجميعها سورٌ، وينفسح بينها فناءٌ رحبٌ. ولمّا زارت الأمّ تيريزا المكان، في الغد، همست في أُذن الأَب "هنري" أَنّه يبدو لها رحبًا جدًّا، فأَجابها: "أَخشى أَن تجديه، عمّا قريب، ضنكًا جدًّا".

وإِذ لم تكن تملك فلسًا واحدًا من الثمن الذي ارتضى القاضي استيفاءَه، تبرّع الأسقف بتسليفها إِيّاه، على أَن تسدّده على أقساطٍ غير محدَّدة المبالغ وَالآجَال، حسب طاقتها، تقديرًا منه لعمل مرسلات المحبّة، ودعمًا لهنّ.

وفي شباط ١٩٥٣، انتقلت المُرسلات إِلى مقرّهنّ الجديد، وكان انتقالاً غايةً في البساطة، إِذ اكتفت كلّ فتاةٍ بحمل دلوِها المرقَّم، حيث دسَّت أَمتعتها الزهيدة، وحصيرتها تحت إِبطها؛ وما عتّم أَن غدا ذلك المكان "المركز الأُمّ" لمُرسَلات المحبَّة، ومبعث إِشعاعٍ إِلى جميع أَرجاء الهند، ثمّ إِلى جميع أقطار المسكونة؛ وما لبث أَن أَمسى العَصَب الحيويّ لأَكثر الجمعيَّات المسيحيّة ازدهارًا في العالم، وما يشبه مؤسَّسةً متعدّدة الجنسيَّات، تمتدّ نشاطاتها إِلى جميع أَرجاء المعمورة، زبانيتها أكثر المعوزين إِملاقًا، ويُفيد من خدماتها العالم أَجمع، من غير حاجةٍ إِلى فاكس أَو تيلكس، وبهاتفٍ واحدٍ تردّدت الأُمّ تيريزا، طويلاً، قبل تركيبه، تقتيرًا في النفقات.

واختيرت أَجمل غرفةٍ في البناء لتكون مُصلًّى، بل مقرًّا لسيّد البيت، حيث سيُمكن التأمُّل، والتعبّد، واستمداد الطاقات الروحيَّة؛ وقد تصدَّر المُصلَّى، إِلى جانب الصليب، وعبارة "أَنا عطشان"، تمثال باللونين الأَبيض والسماويّ لسيّدة الحبل بلا دنس، هديّة من المطران "پيرييه".

وحُوِّلت الطبقة السفلى إِلى ردهة استقبالٍ، أَثَّثته المرسلات بمنضدةٍ واطئةٍ، وبعض مقاعد خشبيَّةٍ، طالما تعاقب، في الجلوس عليها، زائرون مشهورون ومُغْفَلون، أَحبارٌ ومنبوذون، أُمراء ومتسوّلون.

وتوزّعت الأَخوات، جماعاتٍ، في غرف نومٍ مشتركة، حيث يرقدْنَ فوق حصيرٍ، على الحضيض، في حين اتَّخذت الأمّ تيريزا، التي تعمل حتّى ساعاتٍ متأَخّرةٍ من الليل، غرفةً صغيرة لتكون لها مكتبًا للشؤون الإِداريّة، ومنامةً، في آنٍ واحدٍ. وقد حَرِصَت على أَلاّ يُنفَق فلسٌ واحد من أَموال الفقراء على راحة الراهبات، أَو رفاههنَّ، فظلّت غُرَفهنّ مجرَّدةً من كلّ أَثاثٍ، أَو ستائر، أَو بسطٍ، أَو سجّادٍ، أَو أَيّ جهازٍ كهربائيٍّ، فلا برّاد، ولا غسَّالة، ولا مروحة، معَ ما يتميّز به طقس كلكتّا من قيظٍ مصحوبٍ برطوبةٍ خانقة.

وبهذا الشأن كتبت أُوربيَّةٌ مُقيمة في كلكتّا إِلى صديقةٍ لها بلجيكيَّة، عن مُرسَلات

المحبّة: "**إِنّهنّ، الآن، ثلاثٌ وأَربعون أُختًا، وثمَّة كثيراتٌ من طالبات الانضمام إِليهنّ. حياتهنّ شاقّة، حقًّا. فليس لديهنّ مراوح، والعيش في كلكتّا، بلا مراوح، أَمرٌ مريعٌ. وقد صرَّحت لي رئيسة الكرمل نفسها، يومًا: "من غير مراوح، لن نقوى على الصمود". إِنّهنّ يرقدنَ على الحضيض. طعامهنّ قشِفٌ، ولكنّه وافٍ. في مُصلاّهنّ ليس ما يمكن الجلوس أَو الاستناد عليه. ويتجلّى على الأم تيريزا تَعَبٌ شديد**".

المروحة الوحيدة لديهن موجودةٌ في ردهة استقبال المركز الرئيسيّ، لاستخدام الزائرين والضيوف. وقد علَّلت الأم التنكّب عن المراوح بقولها: "**إِنّ الربّ يهبنا كفايتنا من الهواء العليل. وعندما تبلغ معاناة الشعوب كلّ مبلغٍ، فمنغّصاتنا، بالقياس إِليها، ليست شيئًا**".

وقد كَلِفت المُرسلات بروح التقشّف الذي بثّته فيهنّ أُمُّهنّ تيريزا، حتّى بِتْنَ يتنافسنَ فيه. فقد انتاب الأُمَّ القلقُ، يومًا، إِذ كانت كلٌّ من بناتها تتناول، يوميًّا، ثلاثة أَرغفةٍ (وتدعى بالهنديّة "شاپاتي")، وتراءى لها أَنهنّ، من جرّاء عملهنّ الشاقّ، يستحققنَ أَربعة أَرغفةٍ، لا ثلاثةً فقط. فأعلنت لهنّ ذلك، لا بل أَمرتهنّ بتناول أَربعة "شپاتي"، فأَغرقنَ في الضحك، واستوضحت سبب ضحكهنّ، فأَبدينَ لها أَنَّهنّ كنّ قد باشرنَ، للتوّ، تساعيّة صلوات، بشفاعة القدّيس يوسف، كي يقوَيْن على الاكتفاء برغيفَيْن عوضًا عن ثلاثةٍ.

هذا الإِمعان في التجرُّد والتقشّف كان استجابةً لنذرهنّ الرابع: "خدمة أَفقر الفقراء، من كلّ القلب، ومجّانًا"، فعلى حدّ قول الأُمّ تيريزا: "**كيف لي أن أُواجه الفقراء، وأَقول لهم: "أُحبُّكم وأَفهمكم، إِن لم أَكُنْ أَعيش على غرارهم؟**" لقد كانت حريصةً على التوفيق بين الأَقوال والأَفعال، بين الغايات والوسائل، وإِنّها لمهمَّةٌ عسيرةٌ، حقًّا. وقد تعاظم هذا الحرص، مع تنامي الجمعيَّة، إِلى أَن أَصبح تطلّعًا إِلى المطلَق. لقد نشدت مُرسلات المحبّة ملكوتَ الله وبرّه، فأعطينَ كلّ ما سوى ذلك، مجّانًا. واتَّفق، ذات مساءٍ، بُعَيْد انتقالهنَّ إِلى مقرّهنّ الجديد، أَن لم يكن لديهنّ ما يتعشّينَ، وبضع روبيّاتٍ معدوداتٍ. واستشرْنَ الأُمّ تيريزا فيما يفعلنَ، فأوعزت إِليهنّ بالمثول إِلى المُصلّى، وبالصلاة، وإِذ بالباب يُقرَع، وبفقيرٍ، عنده، يسأَل حسنةً، فأَلقَيْن بين يدَيْه الروبيَّات القليلة المتوفّرة. وما انقضى ربع ساعةٍ، حتّى قُرع الباب من جديدٍ، وكان الطارقَ امرأةٌ جاءت بخمسة كيلوغراماتٍ من الأَرزّ، وبهبةٍ ماليّةٍ.

وأَمثال تلك الحادثة لا حصرَ لها. فكلّ يوم، كانت العناية الإلهيّة تتجلّى تحت شكل رجلٍ أو امرأةٍ يوافيان المُرسَلات بهبةٍ ماليَّةٍ، أَو بمساعدةٍ عينيَّةٍ؛ ومن ثمَّ، استطاعت اَلأُمّ تيريزا التصريح: **"إِن كان شيءٌ لا يُثير قلقي، فهو المال. إِنّ كلّ ما نفعله هو للرّبّ، وهو يرعانا"**.

الـڤاتيكان نفسه، حرصًا منه على استمرار الجمعيَّة الناشئة، عرض مساعدةً ماليّةً قدرها خمسةٌ وعشرون أَلف دولار، كلّ ثلاثة أَشهر، بيد أَنّ اَلأُمّ تيريزا، يحدوها حَدْس الأَنبياء، رفضت، مُعلِّلةً رفضها بالقول: **"إِنّني آبى كلّ ضمانةٍ ماديَّةٍ، وكلَّ مالٍ مجمَّدٍ في حساب مصرفيٍّ، وكلّ ضمانة عيش. فعلينا المُضيّ قُدُمًا، لا يحدونا سوى الثقة في العناية اَلإلَهِيَّة. وإِن اتّفقَ، يومًا، أَن حبَس الله عنّا وسائل مواصلة مهمَّتنا، فهذا يعني أَنَّنا قد خنّاه، وفي ذلك دليلٌ على أَنّ على عملنا أَن يتوقّف"**.

ما أَقلّ الجماعات، ولا سيَّما التي نَمتْ، وإِن هي لم تبلغ مثل حجم جمعيَّة مُرسلات المحبّة، التي راهنت على رعاية العناية الإِلهيَّة، وحدَها!

وكان تزايد عدد مُرسَلات المحبَّة يُثلج صدر اَلأُمّ تيريزا ويخيفها معًا، إِذ كانت، أَبدًا، تخشى أَن يُفسد العددُ أَصالةَ روح الجماعة الأولى، واندفاعها، ونكهتها الخاصَّة؛ وطالما أَنذرت: **"إِنّ ازدهارنا لأَمرٌ رائعٌ، ودليل نجاحٍ. ولكن عليكنّ إِدراك أَنّ هذا النموّ العدديّ ينبغي أَن يواكبه، نوعيًّا، ازدهارٌ في حياتنا الروحيّة"**.

وقد تحقَّقت، حتّى الآن، رغبتها تلك، بدليل أَنّ نسبة نكث العهد في جمعيّة مُرسلات المحبّة، مع ما تتّسم به حياتهنّ من مشقّةٍ، وإِمعانٍ في الزهد، تظلّ أَدنى نسبةٍ بالقياس إِلى سائر الجمعيَّات الرهبانيّة.

وفي نيسان ١٩٥٣ مثلت مُرسلات المحبَّة إِلى كاتدرائيّة الرعيّة في كلكتّا، حيثُ نذرت اَلأُمّ تيريزا، بين يدي الأسقف النذر الرابِع، الخاصّ برهبانيّتها، وأَقسمت القسم الخاصّ بصفتها رئيسةً على تلك الرهبانيّة، ثمّ أبرزت الأَخوات، بالتوالي، بين يديها، نذورهنّ الأَربعة.

وجديرٌ بالتنويه أَنّ اَلأُمّ تيريزا، مذْ باشرت رسالتها الخاصَّة، عام ١٩٤٩، قد اختارت الجنسيّة الهنديَّة، كي تبرهن، بذلك، للشعب الهنديّ الذي أَحبّته، وهبَّت لخدمته بكلّ طاقاتها، أَنّها، حقًّا، أَحد أَفراده، وأَنّها ربطت مصيرها بمصيره، إِلى الأَبد.

يومٌ في "المركز الأمّ"

يُصار إِلى المركز الأُمّ، عبر مدخلٍ جانبيٍّ ضيّقٍ، يكاد لا يكفي لمرور سيّارةٍ. وفي طاقةٍ محفورةٍ قرب الباب سلسلةٌ معدنيَّةٌ رفيعةٌ تُشَدّ فيقرع جرسٌ نحاسيٌّ في الداخل. وسيلةُ نداءٍ ناجعةٌ في مدينةٍ تشهد انقطاعًا مطّردًا للتيَّار الكهربائيّ. وفي الحال، تفتح البابَ راهبةٌ مبتدئةٌ، كأَنّ كلّ مهمّتها مقتصرةٌ على ذلك العمل الوضيع، وتُدخل الزائر إِلى ردهة استقبالٍ صغيرةٍ، أَثاثها منضدةٌ خشبيّةٌ، وستّ كراسٍ غير متناظرةٍ، ومقاعد ضيّقةٌ أُسندت إلى الجدران المزدانة بلوحتَيْن، تُبيِّنان نشاطات مُرسلات المحبَّة في العالم، وبصُوَرٍ قليلةٍ، تظهر إحداها الأمّ تيريزا برفقة البابا يوحنّا بولس الثاني.

ردهةُ الاستقبال تلك تشرف على فناءٍ يضجّ بنشاطٍ دائبٍ، حيثُ تمتاح المبتدئات من بئرٍ، بدلاءٍ معدنيَّةٍ عتيقةٍ، ما يحتجن إليه من ماءٍ للغسيل؛ وهنّ لا يتوقّفنَ عن العمل إلاّ للصَّلاة، في مغارةٍ مجاورةٍ، حيث يُنشدْنَ التراتيل أَمام تمثالٍ للسيّدة العذراء.

أَمّا حياة المرسلة فتنتظم حول محورَيْ صلاةٍ وعملٍ متداخلَيْن متكاملَيْن. فهنّ يستيقظنَ في الساعة الرابعة والنصف، فجرًا؛ ومع أَنّ الدافعَ إِلى هذا الاستيقاظ المبكّر ليس الربح، ولا النجاح الشخصيّ، بل هو تلبيةٌ لحياةٍ مكرَّسةٍ بأكملها للخدمة، تبدو تلك الحياة مُفارقةً، لأَنّها، مع كلّ ما يواكبها من مشقّةٍ ونَصَبٍ، منبع سلامٍ وفرحٍ لأولئك اللواتي يعشنَها.

وفيما ترتدي كلُّ أُختٍ ساريها، تصلّي لكي يكون لها تذكيرًا بانفصالها عن العالَم وأَباطيله، داعيةً أَلاّ يعني لها العالَمُ شيئًا، وأَلاّ تعني هي للعالَم شيئًا؛ كما تدعو أَن يذكّرها الساري برداء عمادها الناصع، علّ تلك الذكرى تُساعدها على حفظ قلبها طاهرًا من الخطيئة، سحابةَ ذلك النهار. وفيما هي تنتعل خفَّيْها تستأنف دُعاءَها: "**بكلّ حرّيَّة إِرادتي، يا يسوع الحبيب، سأتبعك حيثما تمضي، طلبًا للنفوس، مهما كلّفني ذلك من ثمنٍ، وحبًّا بك خالصًا**". **ثمّ تتلو دعاء القدّيس "إينياس دي لويّولا": "خذْ، يا ربّي، وتقبَّل كلّ حرِّيَّتي، وذاكرتي، وفهمي، وإِرادتي كلَّها، وجميع ما أَملك. لقد وهبتنيها جميعها، وإِليك أَردُّها. إِنّها لك، فافعل بها ما تشاء. وهبْني حبَّك ونعمتك، فهما حَسْبي**".

في الخامسة تلتئم الراهبات في المصلّى المجرّد، العاري، حيث يجلسنَ أَرضًا، جلسة التأَمُّل المعهودة في الهند. وسحابةَ ساعةٍ يتأَمَّلنَ، في صمتٍ، وأَنظارهنّ شاخصةٌ إِلى الصليب، وقلوبهنّ خفَّاقةٌ بهتاف المصلوب: "**أَنا عطشان**"؛ ذلك العطش الذي يختزل مهمتهنَّ المتمثّلة في مساعدة من هم، على غرار المصلوب، ما عادوا سوى أَجسادٍ معذَّبةٍ، وفي بثّ حبّ الله في قلوب بشرٍ باتوا، كالمصلوب، في ظمأٍ إِلى الحبّ. وقد يقطع صمتهنّ، بين فينةٍ وأُخرى، تلاوةٌ جماعيَّةٌ لأَبياتٍ من المسبحة، تلك الصلاة التي ينساب على وقعها مختلف مراحل يومهنّ، بعد أَن ورَّثتهنَّ أُمُّهنَّ تيريزا حبَّها الجمّ للأمّ السماويّة.

والمصلَّى ردهةٌ مستطيلةٌ فسيحةٌ، مجرَّدةٌ من أَيَّة زينةٍ، خاليةٌ من المقاعد أَو الكراسي، يخلع الداخل إِليه أَحذيته، ويجثو، أَو يجلس أَرضًا، على حصيرةٍ من الخيش؛ أَمّا الهيكل فمنضدةٌ بسيطةٌ، ينتصب على أَحد جوانبه تمثالٌ كبيرٌ للسيّدة العذراء، وعند أَقدامه إِناءٌ يفوح بشذا زهورٍ مقطوفةٍ حديثًا، هي زينة المكان الوحيدة.

ويلفت انتباه الوالج إِلى المصلَّى لوحٌ أَسود مثبتٌ عند بابه، دُوِّنت عليه رسائل شتّى تتضمَّن، فيما تتضمَّن، اسم القدّيس المحتَفَل بذكراه، كلَّ يومٍ، والترنيمة التي يتعيّن ترتيلها، وأَسماء جميع الذين التمسوا صلواتٍ خاصَّةً، أَيًّا كان مذهبهم.

أَمام الهيكل عشرات الأَخوات المصلّيات، ووراء هنَّ الأمّ تيريزا جاثيةٌ، مستندةٌ إِلى الجدار، ضامَّةٌ يديها، هائمةٌ في صلاةٍ كثيفةٍ. وفي جانبٍ آخر، نحو مئةٍ من المبتدئات، المرتديات لباسًا أَبيض خاليًا من الحاشية الزرقاء، تَمْيِيزًا لهنّ عن المكرَّسات.

يلي التأمّلَ القدَّاسُ الإلهيّ الذي يتخلّله وعظٌ. وفي السادسة والنصف، تتناول الراهبات إِفطارًا قوامه الخبز والشاي؛ ثمّ تغسل كلٌّ منهنّ الساري الذي كانت ترتديه بالأَمس، فطقوس النظافة عندهنّ دقيقةٌ وصارمةٌ، وهي كفيلةٌ بوقايتهنّ من عدوى الأَمراض العديدة التي يعكفنَ على معالجتها، كما أَنّها تدفعهنّ إِلى إِزالة الأَقذار عن أَجساد الآخرين، تمهيدًا لنفاذهنّ إِلى القلوب والنفوس. فعليهنَّ العيش مع الفقراء ووسطَهم، ولكن في تحرُّرٍ من القذارة، لا تميُّزًا عن الفقراء، بل من أَجل خدمتهم، وتخفيف آلامهم، على نحوٍ أَفضل. وحرصهنّ على النظافة والفقر معًا، يدفعهنّ إِلى

رَتْق ثيابهنّ بعنايةٍ، كلّما تمزّقت، وعلى خير وجهٍ ممكنٍ، لإيمانهنّ بأَنّ التجوُّل في ثيابٍ ممزَّقةٍ ليس دليل فقرٍ. وتصرّح الأمّ تيريزا، بهذا الشأن: "**نحن لسنا متسوّلاتٍ، بل رَاغِبَاتٌ في ممارسة فقر المسيح. ولا نغفلنّ، من جانبٍ آخر، أَنّ جسدنا هو هيكل الروح القدس، ومن ثمّ علينا أَن نحترمه، بارتدائنا ثيابًا مُصْلَحةً إِصلاحًا لائقًا**".

ثمّ تضطلع كلٌّ منهنّ بالعمل الموكل إِليها من غسْلٍ وطهوٍ، وترتيب المقرّ، أَو عملٍ إِداريٍّ؛ وبين السابعة والنصف والثامنة، يشرعنَ ينطلقنَ، جماعاتٍ صغيرةً، أَو اثنتين اثنتين، إِلى مهامّهنّ المتعدّدة، فبعضهنّ إِلى "شيشوبهاڤان"، موئل الأَطفال، وأُخرياتٌ إِلى "نيرمال هرايدي"، بيت المحتضرين المهملين في "كاليغات"، أَو إِلى مشفى البرص، أَو إِلى المستوصفات العديدة، أَو إِلى المدارس. ولا غروَ في ذلك، فلمُرسَلات المحبَّة، في كلكتّا وحدها، تسعةٌ وخمسون مركزًا. أَمّا العدد الأَكبر منهنّ، فينتشرنَ في الأَحياء الفقيرة، بحثًا عن المرضى والمعوزين والمُهمَلين.

في الصباح الباكر ينطلقن، تشعّ منهنّ السعادة ويقطنهنّ الفَرَح، وفي يد كلٍّ منهنّ كيسٌ مليءٌ بكسر الخبز، وبقايا الأَطعمة، جمعنَها من المدارس الإِنكليزيَّة، ومن دير"لوريتو". وأُولئك اللواتي أَثبتنَ تجرُّدهنّ، وتمثّلنَ بأَفقر الفقراء، يلقينَ، عادةً الاحترام، وقلّما يتعرَّضن لتحرُّشٍ أَو اعتداءٍ، ولا سيَّما في كلكتّا التي يُجِلّ شعبها القداسة. وهنّ، أَبدًا، يتلون المسبحة أَثناء سيرهنّ، لأَنّهنّ يأبينَ مقابلة الآخرين بلا صلاةٍ، ويُؤمِنَّ بقول أُمّهنّ تيريزا: "**لقد كانت المسبحة الورديّة، دائمًا، هي قوّتنا وعوننا**". وهنّ، أَثناء سيرهنّ، يحثثنَ الخطى شعورًا بخطورة المسؤوليّة التي تَنْتَظِرهُنَّ؛ ولا عجب إِن أُطلق عليهنّ لقب "الراهبات الراكضات"، مثلما دُعينَ، أَيضًا "واعظات الحبّ"، لأَنّهنّ يعظن بمثال سخائهنّ، لا بالكلام.

ومن القواعد الأَساسيّة التي تلتزم بها المرسلات أَلاّ يتناولنَ طعامًا أَو شرابًا، أَبدًا، خارج ديرهنّ، أَو مكان عملهنّ، بحيث يرفضنَ حتّى كوب الشاي المقدَّم لهنّ في أَيّ مكانٍ. ولذلك تتزوّد كلٌّ منهنّ، ولا سيَّما في أَيّام القيظ، بزجاجة ماء تدسُّها في جعبتها الوضيعة. وتبرّر الأمّ تيريزا ذلك بأَنّ كثيرين من الفقراء الذين يخدمنَهم، يودّون التعبير عن امتنانهم بتقديمهم لهنّ شيئًا من الطعام أَو الشراب، وغالبًا ما يكون ذلك عبئًا عليهم، فترفض المرسلات ما مضيفوهم وأَطفالهم به أَوْلى. ولكي يوفّرنَ

عليهم أيّ إحراجٍ، أو شعورٍ بالمهانة، يرفضنَ، كذلك، أيّ طعامٍ أو شرابٍ في منازل الأغنياء، أيضًا.

بعض المرسلات تفرض عليهنّ مهامّهنّ مواصلة العمل طيلة النهار؛ بيد أنّ معظمهنّ يعُدْنَ إلى المركز الأمّ في الثانية عشرة والنصف للغداء، وقوامه الأرزّ أو البرغل المسلوقان، ورغيف خبزٍ؛ وتلي الغداء خلوةٌ لفحص الضمير، ومراجعة الذات، وتلاوة صلوات الفرض، ودرب الصليب؛ ثمّ يُصبنَ قيلولةً لمدَّة نصف ساعةٍ، يظفرْنَ، خلالها، براحةٍ مستَحقّةٍ، عقب ساعاتٍ طويلةٍ من العمل، توازي لدى معظم الآخرين ساعات يوم عملٍ كاملٍ. هذه القيلولة تؤهّلهنّ لاستئناف عملهنّ بنشاط، بعد الظُّهر. ثمّ يُنفقنَ نصف ساعةٍ في التأمّل، ومطالعة المواضيع الروحيَّة، ويتناولنَ كوب شاي؛ وفي الخامسة عشرة يعدْنَ إلى العمل؛ وقد ينصرف بعضهنّ إلى مهامّ مختلفةٍ عن تلك التي اضطلعنَ بها في الصباح، تفاديًا للرّتابة، وقد يتبادلنَ، فيما بينهنّ المهمَّات. ولكن، في فترة بعد الظّهر، تلازم المرشّحات والطالبات المقرّ لتلقّي دروسٍ في اللاهوت، والكتاب المقدّس، ودروسٍ أُخرى تساعدهنّ على النهوض بمهامّهنّ على خير نَسَقٍ وجدوى.

وعليهنّ، جميعًا، العودة في الثامنة عشرة والنصف، حيثُ يلتئم شملهنّ، من جديدٍ، للسُّجود معًا أمام القربان المقدَّس المعروض على الهيكل، طيلة ساعةٍ، يتخفّفْنَ أثناءَها من نَصَبهنَّ وهمومهنَّ، ويستمددْنَ طاقاتٍ متجدّدةً. غير أنَّ تلك الساعة، مع خطورة شأنها، على حدّ قول اَلأُمّ تيريزا "لا تفرض علينا الانقطاع عن مهمّةٍ مستعجلةٍ، فالعمل لدينا صلاةٌ، وصلاتنا هي خدمة الفقراء، وقد نُحمَل على العناية بهم سحابةَ عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعةً متّصلةً، بلا توقّفٍ، إن اقتضى الأمر".

في التاسعة عشرة والنصف يتناولنَ العشاء، في قاعة الطعام بالطبقة السفلى، حيث تُفسَح لهنَّ فرصةٌ للتحدُّث، وتبادل التجارب، والترويح عن النفس، وإعداد الخُطَط لعمل الغد. وعقبَ صلاةٍ جماعيّةٍ أخيرةٍ، يُهيّئنَ، في نهايتها، موضوع تأمّل الصباح التالي، يخلدْنَ إلى النوم، في الساعة الثانية والعشرين، مُنهكاتٍ، ولكن مُفعَمات فرحًا.

وهكذا تستغرق الصلاة من يومهنّ لا أَقلّ من أَربع ساعاتٍ، ومهما كثفت المشاغل، لا يسوغ المسّ بذلك الواجب اَلجَوْهَرِيّ، فهو، وحدَه، يزوّدهنّ بالطاقة على

مواصلة عملٍ لا يقوى عليه أيّ إنسانٍ لا يملأ الله صميم حياته. لقد كان غاندي يردّد: "قد يقوى اَلمَرْء على العيش بضعة أيَّامٍ، بلا طعامٍ، ولكنَّه يعجز عن العيش بلا صلاةٍ". وفي مثل صدًى لهذا القول، تردّد اَلأُمّ تيريزا: "**الصلاة هي تنفّس الروح، فلولا القوة التي تُمِدُّنا بها الصلاة، لغدت حياتنا مستحيلةً**". أَجل، إنّ تلك الفسحات الموقوفة على الصلاة توثّق، باستمرارٍ، علاقات مُرسَلات المحبّة بيسوع الذي، في سبيل حبّه، يحقّقْنَ المستحيل.

وبالإِجمال، لقد بسَّطت الأَخوات احتياجاتهنّ من لباسٍ، وطعامٍ، وسكنٍ إِلى أَدنى حدٍّ ممكنٍ، بحيث بات بمكنتهنّ النهوض بأعباءٍ جسيمة، والاستغراق، معًا، في ساعاتٍ متمادية الطول من الصلاة والتعبُّد، ما يبدو متعذّر الاحتمال لعامَّة البشر.

إِنّ عملهنّ عمل إِيمان، والإِفخارستيّا هي التي تضفي على دعوتهنّ معناها الأَقصى، على حدّ قول اَلأُمّ تيريزا: "**إِنّ يسوع يريد إِشباع جوعه إِلى حبّنا، بتواريه خلف قسمات الجائع والأَبرص، والمحتضر المُهمَل. نحن لسنا مساعداتٍ اجتماعيَّات، بل متعبّدات في صميم العالم. حياتنا مكرّسةٌ للإِفخارستيا، عبر اتّصالنا بالمسيح المتواري تحت أَعراض الخبز، وفي أَجساد الفقراء المتألّمين**".

ولئن كان نشاط الأمّ تيريزا ومُرسلاتها إِنسانيًّا على أَرفسع مستوى، إِلاَّ أَنهنّ لا يعملنَ بدافع مُثُلٍ إِنسانيَّةٍ مجرّدةٍ، بل بدافعٍ من الإِنجيل، وحبًّا بيسوع. وقد حاول موظَّفون عاملون في حقل الخدمة الإِنسانيّة التدرّب على أَيدي مُرسلات المحبَّة، ولكنّهم سرعان ما أَعلنوا عجزهم عن فعل ما تفعله الأَخوات، لأَنّهم افتقروا إِلى مثل دافعهنّ.

وهذا ما أَبرزه، بجلاء، ردّ الأمّ تيريزا على ذلك السائح الأَميركيّ، الذي بعد أَن راقبها وهي تغسل جسد رجُلٍ أَبرص شوَّهته آفته تشويهًا مرعبًا، وكانت قروحه تبعث روائح مقزّزةً، قال لها: "حتّى مقابل مليون دولارٍ، لن أَستطيع مجرَّد لمس أَبرص". فأَجابته: "**وأَنا لن أَفعل ذلك لقاء أكثر من مليون دولارٍ، ولكنّني، حبًّا بيسوع، أَفعله مجَّانًا وبطيب خاطرٍ**".

وقد صرَّحت، أَيضًا، في هذا السياق: "**عملنا، كمُرسلات محبّة، يتمثّل في تحويل حبّنا للمسيح إِلى أَعمالٍ ملموسةٍ، وغوثٍ للقريب**".

وللأمّ تيريزا، من جرّاء مسؤوليّاتها، برنامج عملٍ مختلفٌ، فهي تنفق نحو ستَّة

أشهر في تفقّد أَحوال رسالاتها المبثوثة في الهند، وفي شتّى أَرجاء المسكونة، حيثُ كلٌّ واحدةٍ من أُلوف مرسلاتها تتوق إلى مشاهدتها، والاستماع إِليها. ولا تكاد تفرغ من زيارةٍ إلى إِحدى جماعاتها حتّى تُسأَل عن موعد زيارتها التالية. وهي، في تلك المناسبات، تستعرض المشاكل المستعصية التي عجزت المسؤولات المحلّيّات عن حلّها بأنفسهنّ، والتي قد تتطلّب من الأُمّ تيريزا مقابلة مسؤولين، أَو وُزَراء، أَو رؤساء. وجديرٌ بالتنويه أَنّها مخوَّلةٌ باقتحام مكتب رئيس وزراء البنغال، في أَيّ وقتٍ، ومن غير موعدٍ مُسبَق.

وفضلاً عن ذلك، عليها النهوض بطائفةٍ من المهمَّات الطارئة، إِذ، في كلّ يومٍ، يُطلب منها إِلقاء محاضرةٍ، أَو المشاركة في احتفالٍ دينيٍّ، أَو عيادة مرضى. وفي غضون ذلك، يتدفّق القوم البسطاء مقدّمين لها تبرّعاتٍ، أَو ملتمسين شرَف التقاط صورةٍ معها، أَو عارضين قضاياهم الشائكة بين يديها، أَو طالبينَ بركتها، وغالبًا ما يطلبون بطاقتها، وهي قصاصةٌ من الورق المقوّى، طُبِع عليها القول التالي:

"ثمرة الصمت الصلاة،
وثمرة الصلاة الإِيمان،
وثمرة الإِيمان المحبّة،
وثمرة المحبة الخدمة،
وثمرة الخدمة السلام".
الأمّ تيريزا

وفي المساء بعد أَن ترقد أَخواتها، تختلي، هي، في مكتبها الصغير، لتصريف الشؤون الإِداريّة، وتدبيج الرسائل الملحّة. وهي نادرًا ما ترقد قبل منتصف الليل، ولكنّها أولى المستيقظات في الرابعة والنصف، فجرًا. وإِنّها لمعجزةٌ، حقًّا، قدرتها على الاضطلاع بالمهامّ الجسام، محتفظةً، أَبدًا، بجاهزيّتها، وطاقاتها، ومناعتها، مع السوَيْعات القلائل التي تُصيب، أَثناءَها، شيئًا من الراحة.

وهي لا تنعم بأَيّة عطلةٍ، في حين أَنّ أَخواتها يتخفَّفنَ من مهامّهنّ اليوميّة، نهار الخميس، للانصراف إلى أَعمال التنظيف التي لا يُفسح لهنّ وقتٌ لها، أَثناء الأسبوع، وللاستغراق في التأمُّل، والصلاة، والدروس اللاهوتيَّة. وفي هذا النهار، تضطلع

المبتدئات بمهامّ الراهبات، فيكتسبنَ، بذلك، خبرةً عمليَّةً، وثقةً بالنفس، في حين يُمثّل هذا النهار للرّاهبات المكرَّسات فسحة استجمامٍ روحيٍّ خطير الشأن، يُتيح لهنّ استجماع قواهنّ الروحيّة والجسديّة، ولَمَّ أَطراف التشتّت الذي تُحدثُه دوّامة المشاكل اليوميّة. ففي هذا النهار يستغرقنَ في السجود أكثر من سائر الأيّام، ويعترفنَ.

قد تبدو حياة مُرسَلات المحبّة مُغرقةً في التقشُّف والغرابة، في عهدٍ مولعٍ بالمتعة، عابدٍ للَّذَّة، مهووسٍ بالاستهلاك. فمتاع كلّ راهبةٍ ثلاثة "سواري"، مع صليبٍ صغيرٍ، وطبقٍ معدنيٍّ للطّعام، وفراشٌ رقيقٌ للنوم، كذاك الذي يرقد عليه اَلمُحْتَضِرُونَ في "نيرمال هرايدي". تلك هي عدّة كلّ راهبةٍ، تتسلّمها من يد الأمّ تيريزا، التي تستبعد كلّ وسائل الرفاه الحديثة التي لا يقوى الفقراء على اقتناء مثلها؛ فهي، على سبيل المثال، قد رفضت هبة غسَّالةٍ كهربائيّةٍ، بل حتّى مولّدٍ كهربائيٍّ قد يكون مفيدًا في حالات انقطاع التيَّار الكهربائيّ المتكرّرة؛ ومقرُّ المُرسلات خالٍ من التيليفزيون، والفرن الكهربائيّ، إذ ما انفكّ الطهو فيه يتمّ على الفحم، وهو وقود أَفقر الفقراء. وقد عرض أَحدهم على الأمّ تيريزا، يومًا، تجهيز مقرّها براديو للاطّلاع على ما يجري في العالم، فأَجابت: "**لا حاجة لنا به، فلدينا الواقع**".

والواقع، لمرسلات المحبّة، ومعظمهنّ فتياتٌ في مقتبَل العمر، هو حياةٌ شاقّةٌ، غير أَنّها حافلةٌ بالرضى والفرح. وسعادتهنّ وسامٌ يتقلَّدنَه أَينما دُعينَ للخدمة. فالفرح شرطٌ لحياةٍ مثل حياتهنّ، مطلوبٌ مثلما تطلب الشهادات العليا في الوظائف الهامَّة. ووضعهنّ النفسيّ ينبغي أَن يكون مزيجًا من ثقةٍ مُحِبَّةٍ، وبهجةٍ سحيقة الغور، وخضوعٍ تامٍّ. وقد انطوت قوانينهنّ على نصٍّ يقول: "**إنّ الطريقة المُثلى التي بها نعبّر لله وللبشر عَن امتناننا هي أَن نتقبّل كلّ شيءٍ بفرح**".

وكانت الأمّ تيريزا، بعد أَن تكاثر عدد أَخواتها، قد أَنشأت مركز ابتداءٍ لتثقيفهنّ على روحانيَّة مُرسَلات المحبَّة، وكانت، هي نفسها، معلّمة الابتداء الأُولى، ثمّ أَوكلت تلك المهمّة إِلى كاهنٍ حذّرته، منذُ اليوم الأَوّل، من محاولة تعديل أَيٍّ من الأَنظمة المتعلّقة بحياة التقشُّف في الجمعيّة، وقد صارحته:

"**أَرجوك أَلاّ تقحم نفسك في شؤوننا الداخليّة. فهناك كهنةٌ قد حثّوني على تعديل بعض موادّ النظام، فطالبوا، مثلاً، بأَن نضع ستائر على نوافذ ردهة الاجتماعات،**

وهذا ما أَرفضه، فالفقراء الذين نخدمهم لا ستائر في منازلهم، ومعظم أَخواتنا قادماتٌ من أُسَرٍ فلاّحيّةٍ لا ستائر في منازلها، وعلينا أَلاّ نعيش عيشةً أكثر رفاهًا من تلك التي كنّ يعشنَها".

لقد حرصت، أَبدًا، على أَلاّ تفسح مجالاً لأَيّ راغبٍ في المسّ بروح الفقر الذي يميّز مرسلات المحبَّة، وأُسلوب عيشهنّ، ولم تساورها، قطّ، خَاطِرَة جعل الأَنظمة أكثر لينًا. وقد حرصت، كذلك، على حلّ جميع المصاعب والتوتّرات التي قد تنشأ، في إِطار الجماعة، بالتشاور والتنسيق مع الأَخوات، وفي معزلٍ عن أَيّ تدخّلٍ خارجيٍّ.

ثمّ تولّى إِرشاد المرسلات الروحيّ الأَب اليسوعيّ البلجيكيّ "ادوار ليجولي" الذي أَصبح معرِّفًا للرّاهبات مذ كان عددهنّ خمسًا وثلاثين، ورآه يقفز إِلى خمسين، فستّين، ثم يتخطّى المئة عام ١٩٦٣. كان له على الجمعيّة تأثيرٌ روحيٌّ بليغٌ.

وفي مرحلةٍ لاحقة، عُيِّنت المُرسلة الأولى، الأُخت أَنييس، معلِّمةً للابتداء، والأخت فريديريك معاونةً لها.

وتتلقّى المبتدئات ثقافةً طويلةً وشاقَّةً. ففضلاً عن التجربة الواقعيّة المعاشة، يتلقَّيْنَ دروسًا في مبادئ الدين والإِيمان، ويُعدَدْنَ لمواجهة الواقع القاسي الذي يستلزم مؤهّلاتٍ عديدةً، ليس أَقلّها شأنًا سرعة البديهة، والحكم السليم. وعلى المُنضويات تحت لواء مُرسَلات المحبَّة أَن يُلمِمْنَ، إِلمامًا واضحًا، بما هو مطلوبٌ منهنّ، فيقطعنَ كلّ علاقةٍ لهنّ بأُسرهنّ، التي نادرًا ما يزرنَها، إِلاّ في حال احتضار أَحد أَفرادها، أَو قُبَيْل سفرهنّ إِلى بلادٍ نائيةٍ.

ومع كلّ تلك القسوة، تظلّ دور ابتداء مرسلات المحبَّة، من أكثر دور ابتداء الجمعيَّات الرهبانيّة ازدحامًا، وطلبات الانضمام إِليها من قِبَل فتياتٍ قادماتٍ من أُسَرٍ عريقةٍ ثريَّةٍ، ما تنفكّ تتدفّق.

وتبقى الراغبة في الانضمام إِلى جمعيّة مرسلات المحبَّة، مرشَّحَةً مدَّة ستّة أَشهرٍ، وتسمّي الأمّ تيريزا هذه الفترة فترة "**تَعَالَ وَانْظُرْ**"، مستلهمةً قول يسوع للتلميذ الذي طلب منه العيش معه. وخلال هذه الأشهر تختبر المرشّحة قدرتها على عيش الإِنجيل واقعًا، ورغبتها في مثل هذا العيش.

ثمّ تصبح طالبةً مدَّة ستَّة أشهرٍ أُخرى، وعليها أَن تثبت، في تلك الأَثناء تمتّعها

بالصحَّة الجسديّة والعقليّة، وبالقدرة على التعلّم، ورجاحة الحكم، وبالمرح وروح الفرح، وبالتوجّه السليم. تلي ذلك سنتا ابتداءٍ يُسمح للطَّالبات، في إثرهما، إبراز النذور الأولى، وتَعْقبُهما ستّ سنوات، تُجدَّد خلالها النذور سنةً فسنةً؛ ثمّ تعود الطالبة إلى قضاء سنة ابتداءٍ أُخرى تعكف، أثناءَها، على تعميق حياتها الروحيَّة، التي تُعدِّها لحياة التأمّل المواكبة للعمل؛ فالأمّ تيريزا حريصةٌ على التأكيد أنّ مرسلاتها لسنَ مجرّد مساعدات اجتماعيَّاتٍ، بل هنّ، فوق كلِّ شيءٍ، مكرَّساتٌ مستغرقاتٌ في حياة الله، ومدعوّاتٌ إلى إشعاع حبّه وعطفه في العالم، والمشاركة في مهمّة فدائه.

وحينئذٍ، فقط، تُبرز الطالبةُ النذورَ النهائيّة، بعد أن تكون قد عادت للمكوث مع ذويها طيلة ثلاثة أسابيع، كي تتّخذ، في هدوءٍ، ونضوجٍ، وحرّيَّةٍ، قرارها بالانخراط في حياةٍ تقتضي تفانيًا مطلقًا، وتضحيةً بلا حسابٍ، يُمكّنانِهَا من العيش مع المسيح ومن خدمته، عبر خدمة الفقراء؛ ولا ينتهي تثقّف المرسلات مع نذورهنّ المؤبّدة، بل إنهنّ يواصلن التثقّف مدى الحياة؛ وبعد عشر سنواتٍ من نذورهنّ، ينقطعن لفترة تجديد تثقيفهنّ.

ومن الجدير بالذكر أنّ السنّ الدنيا للمرشَّحة هي سبع عشرة سنةً، بحيثُ لن تقدم على إبراز نذورها النهائيّة قبل بلوغها السابعة والعشرين من عمرها، وإنفاقها عشر سنواتٍ في ممارسة المهمّات المختلفة التي ستظلّ تزاولها مدى الحياة، واختبار قدرتها على انتهاج حياة التقشّف والبذل، برفقة الربّ، وحبًّا به.

ومن المبادئ التي لا تتهاون فيها الأمّ تيريزا، ضرورةُ الشخوص إلى مطارح البؤس، بحثًا عن المحتاجين إلى رعايةٍ وحبٍّ. ففيما خلا عددًا ضئيلاً من المرسلات اللاّئي تفرض عليهنّ واجبات السهر المتواصل المكوث في مراكز عملهنّ، مثل نزل المحتضرين، وبيت الأطفال المهملين، والمتخلّفين عقليًّا، ومشفى البرص، حيث تؤازرهنّ مبتدئاتٌ ومتطوّعاتٌ، تجوس أغلبيّة المرسلات خلال مكامن البؤس، حيثُ تقتضي منهنّ رسالتهنّ الخاصّة أن يعشنَ، باستمرارٍ، قلق يسوع على الأكثر فقرًا وضعةً.

وممّا يميز حياة مُرسلات المحبّة، المشاركةُ التي عبّرت عنها الأمّ تيريزا بقولها: "**جماعتنا وثيقة الاتحاد، وتتّسم بالمشاركة في كلّ ما نفعل: الصلاة، والطعام، والعمل**".

وتحرص اَلأُمّ تيريزا على أَلاّ تتخلّى أَيّةٌ من أَخواتها عن ارتداء زيّ الجمعيّـــة، في الهند، وفي كلّ أَرجاء العالمِ، فهذا الزيّ الذي يدلّ على أَنّ من ترتديـــه مكرَّســـةٌ للربّ، يوفّر للرّاهبات وقايةً وحمايةً محقَّقتَيْن، كما تؤكّد هي ذاتها:

"حتّى اَلآن لم يستبحْ أَيّ إِنسانٍ انتهاك حرمة الأَخـوات، أَو الإِسـاءة إِلـيهنّ؛ فالساري الذي نرتديه هو رمز تكريسنا للرّبّ، وعلامة طهرٍ وانتسابٍ ليسوع. وقد أَثبتت المسبحة التي لا تفارق يدنا أَنَّها حمايةٌ مجديةٌ في جميع الظـروف، وَأَنَّهـا قوّتنا وعوننا الروحيّ.

"حتّى في نيويورك، وفي أَماكن أُخرى حيث يندلع القتال، وتسود الفظاعـات، استطاعت الأَخوات دائمًا، التنقُّل، ولم يجسر أَحدٌ على مضايقتهنّ. وكذلك الأَمر في كلكتّا،.بالهند، التي عهدت فترات اضطراباتٍ مريعةٍ، لم يكن الناس يتجاسرون فيها على الخروج من منازلهم، ومع ذلك كانت الأَخوات يَذرعْنَ الشوارع كلّ يومٍ؛ لا بل إِنّ أَعتى مثيري الشغب، ومرتكبي العنف كـانوا يواكبـونهنّ، ويحمـونهنّ، لكـي يتجوّلنَ بحرّيّةٍ وأَمانٍ.

وفي الواقع، لم يُصَبْنَ، يومًا، بأَذًى. وقد كان للسّاري الذي نرتديه، في ذلـك، فضل كبير، فهذا الثوب الرهبانيّ، يوحي بالإِجلال والاحترام. إِنّ الشعب هو ما هو، ونحن ننظر إِليه نظرةً واقعيّةً؛ ولكنّه، أَيًّا كان، لديه فكـرةٌ جليَّـةٌ عـن الإِنـسان المكرّس للربّ".

"نيرمالا شيشوبهاڤـان": بيت الطفل المُهْمَل

أَثناءَ التقاطها المُحتضرين المُهْمَلين، غالبًا مـا انتـشلت الأُمّ تيريـزا أَطفـالاً مهجورين، من فوق تلّ أَقذارٍ، أَو من دلو قمامةٍ، أَو بجانب أُمَّهاتٍ قـضيْنَ نحـبهنّ، وتركنَ ثمرات أَحشائهنّ تصارع وجودًا غالبًا ما يسارع إِلى صرعها. وقد اضطُرّت، يومًا، إِلى انتزاع طفلٍ من شدقَيْ كلبٍ جائعٍ، كان قد شرع يلتهم تلك الضحيَّة الغضَّة، ولم تفلح عنايتها الفائقة في إِنقاذه من الموت الذي اختطفه بعد ساعاتٍ معدودات.

وإِلى "نيرمال هرايدي"، بيت المحتضرين، كثيرًا ما كان يؤتى بأُمَّهاتٍ وضـعنَ حديثًا، تاركاتٍ أَبناءَهنّ لرعاية مُرسَلات المحبّة.

بادئ الأَمر، كانت الأمّ تيريزا تسعى بمثل أُولئك الأَطفال إِلى دار حضانة المُرسَلات الفرنسيسكانيَّات في كلكتّا، غير أَنّ الأَماكن في تلك الدار كانت محدودةً، ومخصَّصةً بالأَولويّة للّذين تتيح لهم صحّتهم المنيعة أَملاً في الحياة.

ومثلما تأَلَّمت الأمّ تيريزا لمعاناة محتضرين مُهمَلين، تولاّها قلقٌ حادٌّ حول مصير أَيتامٍ عُزَّلٍ، وأَطفالٍ لا راعي ولا سندَ لهم، وسط مجتمعٍ غارقٍ في مشاكله. فاعتملت في ذهنها وقلبها فكرة إِنشاء بيتٍ للأطفال المُهمَلين يوازي بيت المحتضرين المُهمَلين. وفي ربيع عام ١٩٥٥ قرع بابَ المرسلات رجلٌ مجهولٌ أَحاطهنَّ علمًا بأَنّ، ثمَّة، بناءً على مقربةٍ من مقرّهنّ الرئيسي يصلح لمشروعهنّ. وقد بادرنَ إِلى استئجار ذلك البناء، وترميمه، وتجهيزه، ليكون ملاذًا لأطفالٍ لُفِظوا منذ قدومهم إِلى الوجود، وكُتِب عليهم الهجران والوحدة.

ومنذ افتتاح ذلك المركز، أَعلنت الأُمّ تيريزا، على الملأ، عن استعدادها لاستقبال أَيّ طفلٍ لا أَهلَ له، أَو غير مرغوبٍ فيه، وعمَّمت ذلك على المشافي، والمصحَّات، ودور التوليد. وقد قُسِم المكان إِلى ثلاثة أَقسامٍ، أَحدها للأطفال المصابين بسوء التغذية، وآخر لحديثي الولادة، والثالث للأطفال المُعدّين للتّبنّي. وقد أَطلقت الأُمّ تيريزا على ذلك المُجمَّع اسم "نيرمالا شيشوبهاڤان"، أَي بيت الطفل المهمَل، وفرزت من أَخواتها اللواتي كان عددهنّ يناهز الخمسين، عند افتتاحه، عشرًا لرعاية الأَطفال الذين يستلزمون عنايةً مستمرَّةً ليلَ نهارٍ.

وسُرعان ما ضَجَّ المكان الذي كان، حتئذٍ، مهملاً، ساكنًا، بصيحات أَصواتٍ رقيقةٍ، وبنشاطٍ دائبٍ، إِذ تقاطر عليه الأَطفال من كلّ صوبٍ، يأتي بهم رجال شرطة، أَو ممرّضون، أَو تأتي بهم أُمَّهاتهم اللواتي لا قِبَل لهنّ على الاحتفاظ بهم، فيحتلّون أَماكنهم في أَسرَّةٍ حديديَّةٍ مصطفَّةٍ في ردهةٍ واسعةٍ.

إِنّ عددًا من مُرسَلات المحبّة ينطلقنَ إِلى مهامّهنَّ المختلفة، في ساعاتٍ باكرةٍ، قبل مرور ناقلات القمامة، التي غالبًا ما تتلكأ في المرور، من جرّاء عدم كفاية عددها لتلك المدينة الشاسعة، وغالبًا ما تلمح الراهبات في حاويات النفايات المكشوفة جسمًا صغيرًا هامدًا مختلطًا بالقاذورات، أَو هنّ يعثُرْنَ، أَحيانًا، على مثل تلك الأَجساد ملقيّةً على قارعة الطريق، أَو تحت مقعدٍ عامٍّ، عاريةً أَو ملفوفةً بأَوراق صحفٍ أَو خرقٍ

باليةٍ. وقد علَّمتهنَّ التجربة، ولقَّنتهنّ الأمّ تيريزا، أَن يكنّ متيقّظاتٍ، ففي بعض تلك الأجساد المرميّة تخفق، أَحيانًا، نسمة روحٍ، وحينئذٍ تهرع المُرسَلات عائداتٍ إِلى "شيشوبهاڤان"، حيث يعكفنَ على إِطعام تلك الكائنات الهشّة، والحفاظ على نفحة الحياة فيها، في حبٍّ وحنانٍ، على أَنّها أبناء الله، بل الطفل يسوع، ملقيًّا، مُهمَلاً.

وقد يعثرْنَ على جسدٍ صغيرٍ ملتصقٍ بِجُثَّة أُمّه التي فارقت الحياة، وهي تدفعه إلى النور، أَو يعثرنَ على ولدٍ أَو أكثر، إِلى جانب جثث والدين قضوا نحبهم، جوعًا وحرمانًا، ومنهم مَن، قُبَيْل لفظ أَنفاسهم الأَخيرة، وفي ومضة وعيٍ خاطفة، يلتمسون الرأفة بأَطفالٍ سيتركونهم لوحدةٍ موحشةٍ قاتلةٍ، عسى أَن يمسّ نِدَاؤُهُم آذانًا تصغي، أَو قلوبًا يختلج فيها شيءٌ من حنان.

وقد التقت الأَخوات، ذات مرّةٍ، طفلاً يلملم من الحضيض أَقذارًا، ويدسُّها في فمه، وهو يشكو أَلمًا في معدته، فسأَلنه: "ماذا أكلت هذا الصباح؟" – "لا شيء" – "وأَمس؟" – "لا شيء". لم يكن أَلمه سوى عضّة جوع.

بعض هؤلاء اللقَطاء من الوهن بحيث لا يقوون حتّى على الرضاعة، فيُطْعَمون عن طريق الأَنف أَو الحقن، وقد لا يعيشون أكثر من دقائق أو ساعاتٍ. ومنهم أَبناء أُمٍّ مخدَّرةٍ، ومُخَدَّرون هم أَنفسهم، وقد لا يتجاوز وزن أَحدهم كيلوغرامًا واحدًا، بحيثُ يمكن دسّ اثنين أو ثلاثةٍ منهم في سريرٍ واحدٍ. وغالبًا ما تنطفئ شعلة الحياة فيهم سريعًا، فيُسارع آخَرون إِلى احتلال أَماكنهم.

ومع ذلك، لا تني الأُمّ تيريزا تهيب بالجميع أَن يأتوها بأَيّ طفلٍ مُهمَلٍ، ولو كان الموت سيقضي عليه، وهو في طريقه إِلى المقرّ، ولو هي كانت واثقةً من أَنّ العناية المكثّفة التي ستحيطه بها أَخواتها لن تجدي إِلاّ في إِرجاء رحيله بضع ساعاتٍ، إِيمانًا منها بأَنّه خيرٌ لأَبناء الله الصغار هؤلاء أَن يقضوا نحبهم، تواكبهم الرعاية والحنان، من أَن ينفقوا كالبهائم، خنقًا تحت ركام الأَقذار، أَو غرقًا في المياه الآسنة، أَو طعمةً للكلاب والجرذان. وهي لا تني تردّد على مسامع مُرسَلاتها: "**حتّى لو كان الطفل سيموت في غضون دقائق، فلا يسوغ أَن يموت وحيدًا، محرومًا من الرعاية. فحتّى الوليد قادرٌ على الشعور بالحرارة الإِنسانيّة، ولذلك، لا بدّ من حبّ الولد المحتضر وتعزيته... إِن كان، ثمّة، طفلٌ لا يرغب فيه أَحدٌ، فلا تدعوه يموت، بل أعطوني إِيَّاه**".

ولا تعبأ اَلأُمّ تيريزا، في هذا المجال، بالانتقادات التي تندّد بعملها، من جرّاء كثرة الوفيَّات في "شيشوبهاڤان"، لا بل إِنّها تفخر بقولها: "**لم نرفض، حتّى الآن، أَحدًا، ولدينا أَبدًا مكانٌ، ولو سريرٌ واحدٌ لطفلٍ... إِنّ الله يهب دائمًا كلّ ما يلزم، حتّى للزّهور والطيور، وإِنّ الأَطفال حياته، ولن يكونوا، يومًا، كُثُرًا، فالربّ على قدرٍ كافٍ من الغنى بحيثُ يوفّر الطعام والكساء للجميع**".

وقد غرب عن بال الذين لا يجيدون سوى النقد أَنّه لولا "شيشوبهاڤان" لقضى أُلوف الأَطفال نحبَهم فوق ركام الأَقذار، أَو التهمتهم البهائم؛ وأَنّ أُلوفًا من الأَطفال الذين كانوا مرميّين تُكتب لهم حياةٌ طبيعيَّةٌ وسعيدةٌ، بفضل الأُمّ تيريزا ومُرسَلاتها.

بعض الأَطفال تأتي بهم أُمّهاتهم، ويدعنَهم لرعاية مُرسلات المحبّة. منهنّ أُمّهاتٌ عازباتٌ يفعلنَ ذلك، هربًا من العار، بعد أَن يكنّ قد أَحطنَ حملهنّ بالكتمان، غالبًا بالتواطؤ مع أُمّهاتهنّ. وفي معظم الأَحيان تُوقّع أُولئك الفتيات، طائعاتٍ، تنازلاً للرّاهبات عن مولودهنّ، مُطلقاتٍ أَيديهنّ في تربيته أَو في إِيكاله إِلى أُسرةٍ راغبةٍ في تبنّيه؛ ومن أُولئك الأمّهات العازبات من تطردهنّ أُسرهنّ، فيلذْنَ ببيت الطفل المهمل، حيثُ يعملنَ إِلى أَن يضعنَ، ثمّ تساعدنهنّ الأَخوات على تعلّم مهنةٍ، تؤازرهنّ في الحياة، أَو يجدْن لهنّ عملاً في أُسَرٍ تقبلهنّ مع أَطفالهنّ.

فالأُمّ تيريزا، مبدئيًّا، تأبى فصل الطفل عن أُمّه، طالما كان بقاؤه معها ممكنًا، بسبب إِيمانها الراسخ بأَنّه، مع أُمّه، أكثر استقرارًا نفسيًّا. كم هي كانت شاهدةً على حالات أَطفالٍ يؤثرون العيش مَعَ أُمّهاتهم في أَقسى الظّروف حرمانًا، على العيش في يُسرٍ ورفاه، بعيدًا عنها! وقد اتّفق أنّ طفلاً في "شيشوبهاڤان" فقد أُمّه، فاعتراه الاكتئاب، وأضرب عن الطعام والحركة، وأَدركت اَلأُمّ تيريزا علّته، وأَسعفها الحظّ في العثور على واحدةٍ من أَخواتها تحاكي والدة الطفل المتوفَّاة محاكاةً وثيقةً، فأوعزت إِليها بالتفرّغ للعناية به، ومداعبته إِلى أن سكنَ إِليها، فعاد يأكل ويلعب، كما في السابق.

وثمَّة حالاتٌ مثل حالة تلك المرأة، في الثلاثين من عمرها، التي توقَّفت، في فجر يومٍ باردٍ من أَيّام الشتاء، أَمام باب "نيرمالا شيشوبهاڤان"، حاملةً بين ذراعَيْها طفلاً في الخامسة، وتريَّثت قليلاً قبل أَن تشدّ حبلاً مدلًّى من طاقة، حرّك جرسًا صغيرًا في الداخل؛ وفي الحال، أُشرع الباب، فأُدخِلتْ إِلى غرفةٍ محاذيةٍ للمدخل،

هزيلة الأَثاث، ومضت تروي، متَلعثمةً، للراهبة المناوبة، حكايتها المأسويّة: فقد وافى ابنها إِلى الوجود وهو يحمل طائفةً من العاهات، ومنذ مولده، راحت وزوجها يطوفان به المشافي والمصحّات العامَّة. ثمّ توفّي زوجها، إثر حادثٍ، واضطرّت إِلى العمل غسَّالةً في عدّة منازل، مباشِرةً عملها مع الفجر، ولم يكن بوسعها ترك ابنها في أيّ مكانٍ؛ وقد حاولت إِيداعه إِحدى دور الحضانة، مع ما يكلّفها ذلك ممّا لا طاقة لها عليه. ولكنّ الدار أَبت استقبال طفلٍ معاقٍ، ولمّا تنامى إِلى علمها وجود مركز الأمّ تيريزا، فزعت إِليه، ملاذًا أَخيرًا.

وما لبثت مُرسَلات المحبّة أَن اكتشفنَ لدى الطفل داءً في النخاع الشوكيّ يمنعه من القيام بأَيّة حركة، فضلاً عن كونه أَصمّ وأَبكم، لا يقوى على التعبير إِلاّ بواسطة عينيه الواسعتين اللتين تتألّقان تعبيرًا عن السعادة، وتسكبان الدموع على وجهٍ مُحَمَّرٍ، تعبيرًا عن الحزن، وإِذا ما طُرحت عليه أَسئلةٌ، أَجاب بإِفراجِ شفتيه، وإِصدار تأوّهاتٍ لا يدرك مغزاها إِلاّ المقربون منه الذين عايشوه عن كثَب.

وفي "شيشوبهاقان"، قسمٌ للأطفال المعاقين تعالج المُرسَلات بعضَهم، وتوكل بعضهم إِلى مركز "كينيدي" للمعاقين في كلكتّا، وتتولّى رعاية آخرين منهم أُسَرٌ أوروبيَّةٌ تتبنّاهم، وتُغدق عليهم كنوزًا من الحبّ وسخاء النفس فائقةً، مدهشةً.

ولا بِدْعَ إِن غدا قسم الأَطْفَال المُعدّين للتَّبنّي في "شيشوبهاقان" من أَهمّ أَقسامه، وَأَكْثَرهَا عجيجًا بالحياة، وبأطفالٍ فرحين تتراوح أَعمارهم بين سنةٍ وتسع سنواتٍ، لا يكفّون عن الحركة، فهم يعبثون، ويتراكضون، ويتدافعون في كلّ اتّجاهٍ، وتتردّد أصداء صيحاتهم وضحكاتهم، في مكانٍ ازدهت جدرانه بلوحاتٍ مشرقةٍ، وفُرِشت أَرضه بالدمى، فخلافًا لمعظم مؤسَّسات الأمّ تيريزا الأُخرى التي تهيمن عليها مظاهر التقشُّف، يتميّز "شيشوبهاقان" بشيءٍ من الترف، وكأنّه يستهدف تعويض الأَطفال عن بعض الحبّ الذي حُرموه.

ولا جَرَم أَنّ التبنّي الذي راح حجمه يتضاعف، مع تعاظم شهرة الأمّ تيريزا، هو الذي يمكّن "شيشوبهاقان" من أَن يظلّ مُشْرع الأَبواب لاستقبال كلّ طفلٍ قادمٍ، فطلبات التبنّي تكاد تتخطّى ضعفَيْ إمكانيَّات المركز؛ ففي الهند، وحدَها، تتبنّى، كلّ يومٍ، أُسرةٌ أَو أُسرتان، أَطفال "شيشوبهاقان".

ومن القواعد التي لا تحيد عنها الأُمّ تيريزا وأَخواتها، مجَّانيّة التبنّي، والجهد في معرفة دين كلّ طفلٍ يستضِفْنَه لكي تتبنّاه، بالأَوَّليّة، أَسرةٌ من دينه، ولا بِدْع، بالتالي، إِن أُوليت الأَفضليَّة للأسَر الهنديّة.

في مستهلّ عهد "شيشوبهاڤـــان" كانت الأمّ تيريزا تجهد، بكلّ تواضعٍ، أَن تعيش مع أَصغر الصغار أسمى القِيَم؛ وكان التبنّي هو وسيلتها لمكافحة الإِجهاض، على حدّ قولها المأثور الذي بات شعارًا: "**بالتبنّي نكافح الإِجهاض**". وقد دأَبت علـــى الجهــر بأَنّها وأَخواتها متأهّباتٌ، أَبدًا، لاستقبال الأَطفال الذين لا يرغب فيهم ذووهم، لأَسبابٍ اقتصاديَّةٍ أَو اجتماعيّةٍ، أَو لأَنّهم لا قِبَل لهم على رعايتهم، مهيبةً بهـــم أَن يوكلـــوهم إِليهنّ ولا يقتلوهم. وقد أَعلنت، في هذا الشأن: "**كلّ طفلٍ هو دليـــل حـــبّ الله، حـــبٍّ ينبغي أَن يغمر البسيطة، فإِن سمعتم أَنّ امرأةً ترفض أَن تلد طفلاً، وأَنّهـــا مقدمـــةٌ على الإِجهاض، فاعملوا كلّ ما بوسعكم لإِقناعها بأَن توافيني به، فأَنا أُحـــبّ هـــذا الطفل لأنّه، في نظري، هو شهادة حبّ الله**".

الأُمّ تيريزا ومرسلاتها يَتَبَنَّيْنَ الأَطفال غير المرغوب فيهم، ثمَّ تتبنّى أَسرٌ من الهند ومن شتّى أَقطار المسكونة، بعضًا من هؤلاء الأَطفال كي يُسبغوا عليهم فائض حبّهم.

ويعطى معظم الأَطفال، لدى مجيئهم إلى "شيشوبهاڤـــان"، أَسماء رمزيّةً مؤَقّتـــةً ذات نغمةٍ شاعريَّةٍ، مثل "سكّرة" و"زهرة"، إِلى أَن تتبنّاهم أسرٌ تطلق عليهم الأســـماء التي ترغب فيها.

وفي هذا المجال، أحدثت الأُمّ تيريزا معجزةً حقيقيَّةً؛ فحسب تقاليـــد الطبقـــات، السائدة لدى الهندوسيّين يُعتَبَر الأَطفال المهجورون، مثلما تُعتَبَر الأُمّ تيريزا وأَخواتها، من فئة المنبوذين الذين يُعَدّ الاتّصال بهم نجاسةً. ومع ذلك أَقبلت أُسَرٌ عديـــدةٌ مـــن الهندوسيّين على تبنّي أَطفال "شيشوبهاڤـــان" مع أَنّ التبنّي فـــي الهنـــد، وبموجـــب التشريع المعمول به فيها، يُكسب الطفلَ المتبنّى قرابةَ لحْمٍ ودمٍ مع الأسرة التي تتبنّاه، أَوثق منها في أَيّ بلدٍ آخر في العالم، كما يُكسبه حقًّا بالإِرث غير منقوص.

وقد حدَّثت الأُمّ تيريزا في هذا الأَمر، ذات يوم، أَنديرا غاندي التي هتفت، دهشةً:

– "لا أَستطيع تصديق ما تقولين، هذا مستحيل!"

– "ولكنّ هذا ما يحدث فعلاً، فلا بدّ من أَن يكون ممكنًا".

أَجل، لقد أَفلحت اَلأُمّ تيريزا في تحطيم حواجز الطبقات، ونواهي التقاليد الدهريّة. وبواعث التبنّي عديدةٌ: فهناك الأَزواج الذين لم يُرزقوا أَطفالاً من جرّاء العقم، فينشدون طفلاً من شأنه أَن يبعث في منزلهم الإِشراق، وفي حياتهم شمس البهجة؛ وهناك الشابّ الرازح تحت عبء ضغوط أُسرته كي يُطلِّق امرأةً يُحبُّها، لأَنّها لم تنجب له وريثًا، ولكيلا يُلجأ إِلى هذا المصير الذي لا يطيقه، يلتمس من الأُمّ تيريزا أَن تهبه مولودًا، في الوقت الذي تتظاهر زوجته بالولادة، بعد أَن تكون قد أَشاعت نبأ حبلها، ويتمّ كلّ ذلك في سرّيَّةٍ تامَّةٍ، ويسعد ثلاثة أَشخاص. وهناك، أَخيرًا، أَزواجٌ رُزقوا، من قبلُ، أَبناءً، ومع ذلك يُقدمون على التبنّي لإِشباع فيض العطف المتدفّق من قلوبهم.

وتصرّح الأُمّ تيريزا، في نبرة فرحٍ واعتزازٍ: "**إِنَّها لمعجزة. ففي كلّ يوم توافي أُسرةٌ أَو أُسرتان، حتّى من الطبقات العليا، مَن أَجل تبنّي طفلٍ سيصبح، حسب القانون وريثًا شرعيًّا**"، ومعظم الأُسَر المتبنّية هي من طبقة البراهمان، الأَرقى في سلَّم الطبقات، والأَكثر تشدُّدًا في مراعاة التقاليد.

وقد شهد مفهوم التبنّي في الهند، مذ شرعت الأُمّ تيريزا تُشيعه، تطوُّرًا مدهشًا، فبعد أَن كان التبنّي يتمّ في الكتمان، بادّعاء الحمل والإِنجاب، بات يتحقَّق جهرًا. وفيما كان المتبنّون، من قبلُ، لا يختارون سوى الصبيان، ذوي اللون الكاشف، والأَنف الجميل، ويرفضون البنات لأَنّهنَّ "ثروة الآخرين" ولا يُحسَدْن على ما يتوقّعنه من مصيرٍ حافلٍ بالخَسْف والمهانة، باتوا يتقبَّلون أَيّ طفلٍ، صبيًّا كان أَو بنتًا، لا بل غدا بعضُهم لا يحجمون عن تبنّي أَطفالٍ معوَّقين، وقد ضرب بعضُهم، في هذا المجال، على السخاء، أَمثلةً مدهشةً.

وتروي اَلأُمّ تيريزا في هذا السياق: "تبنَّت أُسرةٌ ميسورةٌ طفلاً كنّا قد استقبلناه في "شيشوبهاڤان"، وبعد بضعة أَشهر، نُميَ إِليّ أَنّ ذلك الصبيّ مُنيَ بمرضٍ شديدٍ، قضى عليه بالشلَل مدى الحياة. فقصدتُ الأسرة، وعرضتُ عليها: "أَعيدوا لي الطفل، فأُبدله لكم بآخر سليمٍ، وأَوفر صحَّةً". فرمقني الوالد، وقد كسا الحزنُ محيّاه، وقال: "إِنّي أُوثر الموت على الانفصال عن هذا الطفل! "

أَيُّ درسٍ في الحبّ، حتّى لتلك التي كانت حبًّا متجسِّدًا، والتي علَّقت على تلك

الحادثة بالقول: "**ذلكم هو الحبّ العميق الغور الذي غرسه الله في القلب البشريّ كي يُحِبّ ويُحَبّ. إنّ قلب ذلك الرجل كان جائعًا إلى الحبّ، ومن ثمّ لم يحفل بالمصاعب والآلام التي كان عليه مواجهتها، بل انصبَّ كلّ اهتمامه على الطفل فحسب**".

حَدَثٌ آخر لا يقلّ عن ذاك دلالةً، وعمق مغزًى: فقد تنامى إلى الأُمّ تيريزا أنّ آخِر أبناء أُسرةٍ تضمّ اثني عشر ولدا، متخلّفٌ عقليًّا، تخلُّفًا سحيقًا، و"يتعذّر وصف وضعه الجسديّ والعقليّ". فشخصت الأُمّ تيريزا إلى تلك الأسرة، زائرةً، وعرضت اصطحاب الطفل المعاق إلى "شيشوبهاقان"، حيث أَطفالٌ آخرون في مثل وضعه، وثمَّة من يُعنى بهم، فانفجرت والدة الطفل منتحبةً، وهي تقول، وسط دفق الدموع: "أَستحلفك بالله أَلاّ تقولي ذلك! فهذا الطفل هو، لأسرتي ولي، هديّة الله الكبرى، وكلّ عطفنا منصبٌّ عليه، وإن أَنتم انتزعتموه منّا، لخوتْ حياتنا!"

من قبلُ، كانت الإعاقة أَو العاهة من أَشدّ الحواجز حؤولاً دون التبنّي، ولا سيَّما لدى الهندوسيّين الذين يرون فيها لعنةً، أَو إرثًا وبيلاً من حياةٍ سابقةٍ، غير أَنّ صروحًا دهريّة راحت تنهار أَمام براءة الطفُولَة، ومثال الأمّ تيريزا في الحبّ، والبذل السخيّ.

وتضرب الأُسَر الأُوربيّة، ولا سيَّما السويسريَّة والفرنسيّة، في هذا المضمار، أَمثلةً رائعةً، إذ لا تُحجم عن تبنّي أَطفالٍ مصابين بشَلَل الأَطفال، أَو بعللٍ خطيرةٍ، وإعاقاتٍ سحيقةٍ، ويبذلون، في سبيلهم، كنوزًا من الوقت والمال والحبّ، مع أَنّ عديدين منهم لهم أَبناؤهم من صلبهم، ومع ما تقتضيه معاملات تبنّي الأَجانب لأَطفالٍ هنودٍ من معاملاتٍ معقّدةٍ، طويلةٍ، ومكلفةٍ.

في تلك البلدان يندمج الأَطفال الذين يتمّ تبنّيهم اندماجًا تامًّا بمحيطهم، ويسعدون، ويستعيدون كلّ المؤهّلات الجسديّة التي كانت تبدو وكأَنّها قد قُضيَ عليها، على نحو ما جرى للطفل بابلو الذي، عندما التقطته مُرسلات المحبَّة، في كلكتّا، وهو في الثانية من العمر، كان من الوهَن، بحيث لا يستطيع حتّى الجلوس في سريره، وقد أَصبح، في سويسرا، عضوًا في فريق كرة القدم، ومع أَنّه ظفر بالجنسيَّة السويسريّة، إلاّ أَن والدَيْه بالتبنّي يحثّانه على زيارة مسقط رأَسه، والحفاظ على رباطٍ بجذوره الهنديّة.

ومن جرّاء كثافة إقبال الأُسَر السويسريَّة على تبنّي أَطفالٍ هنودٍ، تطوّعت امرأةٌ

سويسريَّةٌ كريمةٌ لتأمين الاتّصال بين تلك الأسر ومُرسَلات المحبَّة، في حرصٍ شديدٍ ومتنبّهٍ على تقصّي أَحوال طالبي التبنّي، ومواقفهم، وعلى التثبّت من كَرَم مشاعرهم، وطاقتهم على الحبّ والسخاء. وقد التقت، في هذا المجال، نماذج فذّةً، على غرار ذلك سائق التكسي وزوجته اللذين قرّرا تبنّي طفلٍ هنديّ، فعُرض عليهما طفلٌ مصابٌ بمرضٍ خطيرٍ يستلزم تغيير دمه كلّ ثلاثة أَسابيع، وتعاطي علاجٍ غالي الثمن باستمرار، وإلاّ فلا أَمل له في العيش أكثر من ستّة أَشهرٍ. ومع أَنّ الزوجَيْن لَم يكونا ميسورَيْن، ولا يمتلكان احتياطيًّا ماليًّا، إلاّ أَنّهما باعا سيّارتهما الخاصَّة، وعكفا على علاج الطفل المصاب إِلى أَن نما، وغدا أَمله في أَمَد حياةٍ طبيعيّ كبيرًا؛ وقد تكبّدا في ذلك السبيل تضحياتٍ جمَّةً، عدّاها ضئيلة الشأن، مقابل حياة طفلٍ وسعادته. وقد أكد الزوج، في هذا الشأن: "إِنّ ما يوفّره الأَطفال لزوجتي ولي، لا يمكن مقارنته بأَيّ شيءٍ ماديٍّ... يظنّ بعضهم أَنّنا مصابون بمسّ جنون، وأَنا أُجيبهم أَنّ الأَطفال توظيفٌ ممتازٌ".

وتذكر اَلأُمّ تيريزا، بحنانٍ خاصٍّ، الطفلَ "برانس" الذي جاء إِلى الحياة، بلا جذعٍ ولا رجلين، ويداه مفتولتان إِلى الوراء. وتبنَّته أُسرةٌ تقطن في الجبال السويسريّة، اختصّ ربُّها في معالجة المعاقين، وقد دأب على استنباط شتّى الأَساليب والوسائل الكفيلة بتمكين الطفل من الحركة، وهو يأمل في أَن يُتيح له المثول إِلى المدرسة بنفسه. وجديرٌ بالذكر أَنّ الأُسرة التي تبنّته، قد تبنَّت، فضلاً عنه، خمسة أَطفالٍ آخرين، لا تقلّ حالاتهم حرَجًا عن حالته.

وفي البدء، أَلِفت اَلأُمّ تيريزا أَن ترافق بنفسها الأَطفال الذين يتمّ تبنّيهم في الخارج. ولكنّ تكاليف السفر كانت باهظةً، وهي، أَبدًا، ضنينةٌ بأَموال الفقراء، فالتمست من الحكومة الهنديَّة السماح لها بالسفر مجَّانًا، مع واحدةٍ من مُرسَلاتها، وإِذ تلكّأت الاستجابة إِلى طلبها، عادت فاقترحت أَن تعمل، أَثناء سفرها، مضيفةً جويّة، ووافاها الجواب في الحال، ومنحتها كلٌّ من شركة "الطيران الهنديّ"، و "الخطوط الجويّة الهنديّة"، إمكان السفر مجّانًا على خطوطهما، وسرعان ما حذَتْ حذوهما "پان أَميركان"، و"أَليطاليا"، ثمّ معظم شركات الطيران العالميَّة الأُخرى.

وفي سبيل الأَطفال تُحقّق الأُمّ تيريزا المعجزات. فقد وصلت، يومًا، إِلى مطار دلهي، قادمةً من روما، في الساعة التاسعة والنصف، وكان عليها مواصلة سفرها

إلى كلكتّا على متن طائرةٍ كانت تتأهّب للانطلاق في تمام الساعة العاشرة؛ وتدافع أَصدقاؤها لاستقبالها، ولكنّها أَعلنت لهم أَن لا وقت لديها تهدره، وأَهابت بهم أَن يساعدوها على اللحاق بطائرة كلكتّا، مع أَمتعتها المحتوية على عقارٍ كفيلٍ بإِنقاذ طفلٍ يُصارع الموت في "شيشوبهاڤان" كلكتّا. وللوهلة الأولى بدا مستحيلاً أمر لحاقها بتلك الطائرة التي كانت قد شرعت تتحرَّك على مدرج الانطلاق، فيما لم تكن قد أُنزلِت، بعدُ، أَمتعة اَلأُمّ تيريزا القادمة من روما؛ ولكن سرعان ما شاع أَنّ طفلاً يُصارع الموت في كلكتّا، وهو بحاجةٍ إِلى الأمّ تيريزا وما جاءت به من عقاقير، فهبّ كلُّ جهاز المطار بمديريه، وموظَّفيه، وسُعاته، وسائقيه، وحمّاليه، وبُرج مراقبته الذي أَوعز إلى الطائرة المتحفّزة للانطلاق بالتريُّث، وإِلى سائر الطائرات بأَنّ أَمرًا طارئًا استدعى تغييرًا طفيفًا في برنامج الحركة؛ وإِذ بموظّفٍ يهرع فيدسّ في يد الأمّ بطاقة إِقلاعٍ، وبسيّارةٍ تقلّها وتجري بها شطرَ الطائرة، في حين كانت سيَّارةٌ أُخرى قد جاء ت بسبعة صناديق من الورق المقوّى، أَحدها يحتوي أَمتعة الأُمّ الخاصّة، فيما امتلأت جميع الصنَاديق الأُخرى بالأَدوية. وهكذا استُدْرِك الطفل المُحتَضر، في كلكتّا، وهو يكاد يلفظ أَنفاسه الأَخيرة، بالدواء والشفاء.

وتروي الأمّ تيريزا حادثةً أُخرى، فتقول: "لن أَستطيع، أَبدًا، أَن أَنسى ذلك الرجل الذي وافاني متلهّفًا وقائلاً: "إِنّ ابني الوحيد يعاني سكرات الموت، وقد وصف له الطبيب دواءً لا وجود له إِلاّ في إِنكلترا". وما كاد يفرغ من قوله، حتّى وصل رجلٌ، وبيده سلّةٌ مملوءةٌ بالعقاقير، وعلى رأسها، جميعًا، العقار الذي كان الرجل يَتَطَلَّع إِليه، والكفيل بإِنقاذ ابنه. آنذاك جال في خاطري: كم من الأولاد في العالم، ومع ذلك لدى الربّ فُسْحةٌ من وقتٍ للاهتمام بهذا الصغير".

ولم يقتصر التبنّي على توفيره للأمّ تيريزا عونًا على مواصلة استقبال المزيد من الأَطفال المهملين في "شيشوبهاڤان"، بل غدا لها وسيلةً أَساسيّةً لمكافحة الإِجهاض، ولمواصلة حربها الشعواء عليه، إِيمانًا منها بقدسيّة الحياة الفائقة، وَالتِزَامًا صارمًا بتعاليم الكنيسة الكاثوليكيَّة في هذا الشأن. وقد جعلت من مكافحة الإِجهاض قضيَّةً جوهريّةً تدافع عنها، بلا هوادةٍ، في كلّ محفلٍ ومنتدى، وحتّى أَمام ممثّلي الحكومات التي جعلت من الإِجهاض أمرًا مشروعًا.

وتتحدَّث اَلأُمّ تيريزا، عمومًا، عن الطفل، بنبرةٍ مفعمةٍ حبًّا وقدسيّةً، فتقول، مثلاً: **"إنّنا نطالع، في الكتاب المقدّس، أمرًا رائعًا، حيث يؤكّد الله: "حتّى لو استطاعت امرأةٌ أن تنسى ابنها، فأنا لن أَنساك. لقد وشمتُك على يدي، ولك قيمة في عينيّ، وقد دعوتك باسمك". ولذلك يُطلق على الطفل اسمٌ منذ مولده، هو الاسم الذي دعاه به الله منذُ الأَزل، كي يُحِبّ ويُحَبّ.**

"إِن نحن أَلقينا، اليوم، نظرةً على العالم، لاتّضح لنا أَنّ هذا الصغير، هذا الطفل الذي لم يأتِ، بعدُ، إِلى الوجود، قد تحوّل إِلى هدفٍ للموت والدمار، وأَنّ أَمّه هي جلاّده.

"يقول الربّ: حتّى لو استطاعت امرأةٌ أَن تنسى،
– ويستحيل أَن تنسى عندما تكون أُمًّا –
ولكن، حتّى لو استطاعت أُمٌّ أَن تنسى، فأنا لن أَنساك.

"ومع ذلك، باتت الأمّ، اليوم، تنسى ابنها؛ وهي لا تنساه فحسب، بل تدمّره. لماذا؟ لقد أَمست تخشى ابنها، هذا الصغير الذي سيولد، أَجمل خلائق حبّ الله، وخير هديّةٍ منه.

"أَمّا نحن فعلينا أَن نشكر الربّ، لأَنّ والدينا أَحبّانا. فشكرًا اللهمّ! تصوّروا لو لم تحبّني أُمّي، لما كانت، ثمّة، الأمّ تيريزا؛ ولو أَنّها دمّرتني، لما مثلتُ أَمامكم لأحدّثكم.

"لقد أَحبَّتْني أُمّي حبًّا جمًّا، بحيثُ إِنّها لمّا كبرتُ قدَّمتني لله، وأَودعتني بين يديه بفرحٍ. أَعادت له الهبة التي جاد بها عليها. وبذلك أَنا هنا اَلآن فيما بينكم، كي أَشكر الله معكم...

"إِنّ الإجهاض هو أَخطر مدمّرٍ للسّلام في العالم، فإِن كانت أُمٌّ قادرةً على القضاء على ابنها، فما الذي يحول دون أَن يدمّر البشرُ بعضهم بعضًا؟ لا شيء!"

مثل هذه الأَقوال لا تني الأُمّ تيريزا تردّدها في كلّ مناسبةٍ، ولا تتحرّج من إِعلانها على مسامع جماهير تعرف أَنّها لا تشاركها قناعتها فيها. ففي أُوسلو، لدى تسلّمها جائزة نوبل للسَّلام أَعلنت: **"كثيرون يُعنون بالأَطفال الهنود والأفريقيّين الذين ينفقون جوعًا وسوء تغذيةٍ، بيد أَنَّ الملايين سواهم يموتون بإِرادة أُمّهاتهم المتعمّدة. فإِن كان يحقّ للأمّ قتل ابنها، إِلى أَين نحن صائرون؟"**

وأَثناء الاحتفال بالذكرى الأَربعين لتأسيس منظَّمة الأمم المتَّحدة، عُرِض فيلمٌ عن

إِنجازات الأُمّ تيريزا، استأثر باهتمام الحضور، وعلى إِثره ألقت الأُمّ تيريزا خطبةً موجزةً داعيةً إِلى الحبّ والمشاركة، وإِلى ضرورة إِحلال الصلاة مكانها الجوهريّ في حياة البشر، ثمّ أَعلنت أَمام أَشهر شخصيّات العالم: "**نحن نخشى الحرب النوويّة، وآفة "الإِيدز" الرهيبة. ولكن لا يأْخذنا خوفٌ من قتل أَطفالٍ أَبرياء...**"

وهي تشفق، أكثر ما تشفق، على البلدان الغنيَّة التي أَباحت الإِجهاض شرعيًّا، ووفّرت له الوسائل، وتقول في هذا الشأن: "**يساورني الشعور بأَنّ البلدان التي تُضطرّ إِلى قتل أطفالٍ قادمين إِلى الوجود هي أَفقر البلدان. إِنّها تخشى إِطعام طفلٍ آخر قد يحرمها من متعةٍ إِضافيّةٍ... عندما ينتهي الأَمر بالبلدان الغنيّة إِلى إِتاحة الإِجهاض، فإِنّني أَقول إِنّ هذه البلدان هي أَفقر الفقراء... إِنّ البلد الذي، يتيح الإِجهاض، بلدٌ مُصابٌ بالفقر الروحيّ. إِن كان بوسع امرأةٍ أَن تقتل ابنها، لأَنّها تؤثر جهاز تيليفزيون إِضافيًّا، أَو سيَّارةً أُخرى، على ابنٍ تطعمه وتربّيه، فكيف لا نقتتل فيما بيننا؟ فلا فرق بين الأَمريْن. إِنّه لا يسوغ لقلبٍ بشريٍّ أن يتجاسر على قتل الحياة. فالحياة هي حياة الله فينا، وحياة الله هذه تخفق في الجنين... الحياة هي أعظم هبةٍ منّ بها الله على البشر.. حتّى الطفل الذي لم يرَ النور، بعدُ، يحمل في ذاته حياة الله، ولا يحقّ لنا تدمير هذه الحياة، أَيّةً كانت الوسيلة المستخدمة، وأَيًّا كان السبب**".

وهي تُكبر، في المقابل، موقف الفقراء، على حدّ ما يتّضح من قولها:

"**نحن، في كلكتّا، على اتّصالٍ يوميٍّ ومستمرٍّ بأُلوف أُلوف الفقراء. وإِنّكم تعرفون بالتأكيد أَنّ في هذه المدينة أكثر من عشرة ملايين من السكّان، ولكنّني أَعتقد أَنّ ما من امرأةٍ من هؤلاء قد أَقدمت على إِجهاضٍ، أَو قد تُقدم عليه، بل إِنّ جميعهنّ يُنجبنَ أَطفالهنّ، ولو اضطررنَ، فيما بعد، إِلى إِيداعهم حاوية قمامةٍ، أَملاً في أَن يتعهَّدهم أُناسٌ قادرون على ذلك. إِنّ حبّ أُولئك الأُمّهات يمنعهنّ من القضاء على حياة أَبنائهنّ**".

وبأَلمٍ تعبّر عن الأَنانيّة المتمثّلة في الإِجهاض: "**لم يكن الإِنسان، قطّ، بمثل ما هو عليه اليوم من عنفٍ. فقد بات يرفض الحبّ، حتّى للطفل الذي سيولد. إِنّي واثقةٌ من أَنّ الإِجهاض هو الفقر الأَدهى، الذي قد يعرفه أَو يقاسيه أَيّ بلد**".

وتناشد العالَم بنبرةٍ متأثّرةٍ ومؤثّرةٍ أَن يُقلع عن تدمير صنائع الله: "**إِنّ الله هو الذي يطالب بهذا الطفل لأنّه على صورته، ولأنّه خلقه ليكون حبّه، وعطفه، وطيبته في العالم... إِنّ كلّ طفلٍ أُودى به الإِجهاض، كان قد خُلِق من أَجل أَهداف جليلةٍ... إِنّ الربّ يُطالبنا بأَن يستعيد الطفل مكانه في الأسرة، وبأَن يُعترَف به، وبأَن تتحوّل بيوتنا إِلى "تاصرات" أُخرى**".

وفي تأَمّلها بقدسيّة الجنين تحلّق الأُمّ تيريزا إِلى مراقٍ صوفيّةٍ ساميةٍ، تتمثّل في قولها: "**لقد بات الطفل المنتظَر، اليوم، هدفًا للموت، لقد حُكِم عليه بالقتل والاضمحلال، إِذ إِنّ الإِجهاض، هو، بالتحديد، إِنكار صورة الله، والجرح الأَكثر بشاعةً في مجتمعنا، ومُدمّر الحبّ والسلام. هذا الكائن الذي سيولد قد خُلِق لمصيرٍ عظيمٍ: أَن يُحِبّ. إِنّ الإنسان الأَوّل الذي استقبل يسوعَ وعرفه كان طفلاً لا يزال حبيسًا في أحشاء أمّه. ذلك الطفل توثَّب فرحًا لمّا التقت أُمّه اليصاباتُ مريمَ الحبلى بيسوع. صبيٌّ لم يولد بعد، كان، إِذن، أَوّل مرحِّبٍ بيسوع، ولم يكتفِ بالترحيب به، بل سُرَّ به، إِذ إِنّه، على حدّ قول الإِنجيل، طَفَر فَرَحًا في بطن أُمّه**".

وهي، من جهةٍ أُخرى، لا تُغفل الآثار المدمّرة الناشبة بالمرأَة التي تقدم على الإِجهاض، وتروي، في هذا السياق:

"**التقيتُ امرأَةً كانت قد أَجهضت لثماني سنوات خلتْ. أَوَ تدرون ما قالت لي؟ "أُمّاه، كلّما شاهدتُ طفلاً فاض قلبي حزنًا. فعندما أَرى طفلاً في الثامنة، يجول في خاطري أَنّ ابني كان سيُصبح في هذه السنّ، اليوم، وأَنّه كان في السابعة، العام الفائت، ويصيبني ذلك بأَلمٍ بليغٍ، صدّقوني**".

"**حتّى نهاية أَيّامها سيواكبها هذا الشعور: - لقد قتلتُ ابني! لقد قضيتُ عليه**".

لا ريب أَنّ موقفها هذا لا يُفلح في إِقناع الجميع، بل قد يزعج الكثيرين، ومع ذلك فالجميع يحترمون صدقها، ويغفرون لقدّيسةٍ فذّةٍ وجهة نظرٍ يقاومونها.

إِلاّ أَنّ موقف الأُمّ تيريزا المبدئيّ والحازم من الإِجهاض لا يعني تشجيعها للإِنجاب العشوائيّ اللاّواعي واللاّمسؤول، مثلما لا يعني إغفالها ضرورة تنظيم الإِنجاب؛ غير أَنّ تلك القضيّة، في الهند، قضيّةٌ شائكةٌ جدًّا، حيثُ ترقى نسبة الولادات إِلى ذروةٍ فريدةٍ مريعةٍ، في حين أَنّ نسبة الوفيّات في تناقصٍ مطّردٍ،

وتزايد السكّان ماضٍ وفق وتيرةٍ تقضُّ مضاجع الحكومات المتعاقبة؛ إذ ما زالت معظم الأسر الهنديّة تؤمن بقول شاعرها الكبير طاغور: "**كلّ طفل يولد يأتي بنبأ عظيم: إنّ الله لم يفقد ثقته بالإنسانيّة**".

وهكذا يتزاوج الفقر والتفجّر السكّانيّ، في الهند، في حلقةٍ جهنَّميَّة. وقد شنَّت الحكومات المتعاقبة حملاتٍ واسعةً لنشر وسائل منع الحمل، منذ عام ١٩٥١، كما أنّها أتاحت الإجهاض عام ١٩٧٢، وقامت بمحاولاتٍ قسريّةٍ لتعقيم مئات أُلوف الرجال والنساء، ما أثار فتنًا شعبيَّةً شعواء، وأدّى إلى إسقاط حكومة أنديرا غاندي، وحزب المؤتمر عام ١٩٧٧. وما زالت، حتّى اليوم، نصفُ الأسَر القادرة على الإنجاب ترفض استخدام أيّة وسيلةٍ من وسائل منع الحمل، وما انفكّت معظم الأُسَر الفقيرة تنجب من الأطفال ما لا تقوى على إعالتهم.

وتقف الأمّ تيريزا من هذه القضيّة موقفًا يوفّق بين تقديس الهندوسيّين للحياة، وضرورة الحدّ من الإنجاب، ولكن بالتوعية، من غير قسرٍ، وفي انسجامٍ مطلقٍ مع تعليم الكنيسة، التي تنصح بضبط النفس، وباللجوء إلى الأسلوب "الطبيعيّ" الذي يقتفي، حسب قولها، "حبًّا واحترامًا متبادلَيْن"، ولو أن هذا الأسلوب ليس، دائمًا، مضمون العواقب، ولا سيّما في وسطٍ هزيل الثقافة، ولا شيءَ فيه يعوّض عن الفقر والحرمان، سوى علاقات الأزواج الجنسيّة.

وقد دَرَس عددٌ من مُرسَلات المحبّة أساليب منع الحمل الطبيعيَّة، وافتتحنَ عشرات المراكز لتلقينها لعشرات آلاف الأزواج الهنود، ولا ريب أنَّهنَّ حقَّقن، في هذا المضمار، نتائج مثمرةً، كما يُستدلّ من اعتراف تلك المرأة التي صرّحت، تعبيرًا عن امتنانها: "لقد أصبحَتْ أُسَرُنا متّحدةً وسليمةً، وبات بوسعنا الحصول على أطفالٍ، عندما نرغب في ذلك حقًّا".

ومع ذلك، ما انفكّ الأطفال يتدفّقون على "شيشوبهاقان"، ما حمل الأمّ تيريزا على القول، في شيء من الدعابة: "**إنّ الأمّ تيريزا تتحدَّث عن تحديد النسل، ولكنَّها لا تلتزم به، ففي كلّ يومٍ يأتيها مزيدٌ من الأطفال**".

وقد باتت تسمية "شيشوبهاقان" تُطلق على عشرات بيوت الأطفال التي افتتحتها مرسلات المحبَّة في مختلف مدن الهند، وفي الغالب، على مقربةٍ من أديرتهنّ، إذ إنّ

الأَطفال الخدَّج والمرضى يستلزمون رعايةً مستمرَّةً، ويستوعب كلّ بيتٍ، وفقًا لحجمه، بين عشرين ومئتي طفل، بين حديث الولادة وابن السابعة. وما تنِي المرسلات يسعَيْن إِلى إِضفاء جوٍّ من الجمال على تلك البيوت، كي يجعلنَ منها متعةً للعين والصدر، بحيث ينعم الأَطفال بالسعادة والمرح في أَرجائها. وكلُّ تلك البيوت تعمل بكلّ طاقاتها، ولا يكاد يُتَبنّى أَحد أَطفالها، حتّى يحلّ محلّه قادمٌ جديد.

في الهند، وحدَها، اليوم، أكثر من أَربعين بيتًا للأطفال، على غرار "شيشوبهاڤان"، وجميعها مساكن للحبّ، ومدارس للحياة. وكثيرون من الذين غشوها قد كبروا اَلآن، وهم يغدقون على الغير طاقات الحبّ، واحترام الآخرين، التي تشرّبوها من مُرسَلات المحبّة.

وحيثُ يتّسع المكان تفتتح الراهبات، في إِطار بيوت الأَطفال، مدرسةً ابتدائيّة، وإِلاّ فهنّ يُرسلنَ الأطفال إِلى أَقرب مدرسةٍ، ويتكفّلنَ بجميع نفقاتهم، فضلاً عن أَلبستهم ولوازمهم المدرسيّة. وتجهد الأُمّ تيريزا في إِلحاق "بيت أَطفالٍ" بكلّ مركزٍ للبُرْص، بحيث ينمو أَطفال هؤلاء على مقربةٍ ومرأى منهم، ولكن يُحظَر عليهم مسُّهم أَو تقبيلهم، منعًا لنقل العدوى إِليهم، ما يفضي أَحيانًا إِلى مشاهد مؤثّرةٍ، مشاهد أُمّهاتٍ وآباءٍ يمدّون أَيديهم التي أَمست مجرّد جدعاتٍ، نحو أَحبّائهم الصغار، ولكنّها لا تلبث أَن ترتدّ خشيةً وأَلمًا؛ غير أَنّ مكوث الأَطفال على مقربةٍ من والديهم يسرّب إِلى صدور هؤلاء العزاء والسكينة، ويوفّر عليهم استشهاد الانفصال القسريّ عنهم.

وتعترف الأُمّ تيريزا أَنّ كلّ الحنان الذي تغدقه هي وأَخواتها قاصرٌ عن مضاهاة حبّ الأمّهات. ولذلك تجهد المرسلات كي يوفّرنَ لِلأُمَّهَات اللواتي يضعنَ مواليدهنّ عندهنّ، أَو يأتينهنَّ بهم، وسائل رعايتهم وتربيتهم، ويحاولنَ إِقناعهنّ بالاحتفاظ بهم، ولا يستضفنَهم، وحيدين، إِلاّ بعد أَن يفقدْنَ كلَّ حيلةٍ في إِبقائهم تحت رعاية أُمّهاتهم الطبيعيّات. وتعترف الأُمّ تيريزا: "**لن أَستطيع إعطاء الطفل الحبَّ الذي تهبه أُمٌّ حقيقيّةٌ. ومع ذلك، لم أردّ، قطّ، طفلاً واحدًا، فكلّ طفلٍ ثمينٌ لأَنّ الله خالقه**".

ومع ذلك تسعى مُرسلات المحبّة إِلى توفير حنان الأُمّ لكلّ طفلٍ يأتيهنّ، بإِغداق كنوز حنانهنّ عليه، أَو بإِيكاله إِلى أُسرةٍ تفيض حنانًا.

فالأَطفال الذين لا يتمّ تبنّيهم يعيشون بين مُرسلي المحبّة ومُرسلاتها، عيشة أُسرةٍ

متحابَّة، فيتعلَّمون وينمون في جوٍّ مُشْرقٍ؛ منهم من يتابعون دروسًا جامعيَّةً، ومنهم من يُلَقَّنون مهنةً تتلاءم ورغباتهم، تساعدهم على شقّ طريقهم بأنفسهم، ومعظمهم ينجحون في الحياة، ويتبوَّؤون، في المجتمع، شأنًا رفيعًا. أمّا الفتيات فيتعلَّمن مهنةً تكون لهنّ عونًا في مستقبلهنّ كالخياطة والتطريز، والضرب على الآلة الكاتبة. وتجهد الأُمّ تيريزا في تزويجهنّ، عندما يبلغْنَ سنّ الزواج، فتوفّر لهنّ، حسبما تقتفي التقاليد الهنديّة، جهاز العرس، والألبسة، والأدوات المنزليّة، والأثاث الضروريّ، وبعض المال الذي يودع في مصرفٍ بأسمائهنّ؛ وكثيراتٌ منهنّ يصبحنَ أُمّهاتٍ سعيداتٍ. ومنهنّ، ولا سيَّما القاطنات في كلكتّا، من يختلفنَ، باطّرادٍ، إلى البيت الذي نشأنَ فيه، وخاصّةً بمناسبات الأعياد، كي يقدّمن الشكر والتهاني للأُمّهات اللواتي رعتهنّ أطفالاً ومراهقاتٍ، وغالبًا ما يحترنَ في معرفة أيّةٍ من الراهبات كان لها الفضل الأكبر في تربيتهنّ. ومن ثمّ فقد شاعت طُرفةٌ تقول إنّ من يتزوّج إحدى نزيلات "شيشوبهاقان"، قد يرث معها عشرات الحموات! وليت جميع الحموات مثلهنّ! وكثيرون من الشباب الذين ترعرعوا في "شيشوبهاقان" يختلفون، أيضًا، إليه، كي يعبّروا عن عرفانهم بجميل أُمَّهاتٍ أَسبغنَ عليهم كنوزًا من العطف والحبّ والرعاية، في تجرّدٍ مُطلَقٍ، ومن غير أيّة نزعةٍ إلى الامتلاك.

وجديرٌ بالتنويه أنّ هناك مئات الأُسَر التي تتبنّى أطفالاً، ولكنّها لا تمتلك القدرة على رعايتهم، فتدعهم لرعاية مرسلات المحبَّة، وتتعهّد بجميع نفقاتهم.

ودليلاً على فيض الحبّ الغامر الذي يحدو راعيات "شيشوبهاقان"، غالبًا ما تُنصَب عند مداخل بيوت الأطفال مواقد عليها قدورٌ ضخمةٌ تغلي فيها باستمرارٍ كمّيّاتٌ وفيرةٌ من الأرزّ الذي يوزّع، مجّانًا، على الكهول المعوزين.

مع البُرْص

قد يكون البَرَص، أو الجذام، أقلّ الأوبئة الكبرى التي حصدت، عبرَ مختلف حقَب التاريخِ، مئات ألوف الضحايا، خطرًا، كالطاعون والكوليرا، بل حتّى السلّ، وربّما هو أقلّ إشاعةً للعدوى من معظمها، وغير وراثيّ؛ ولكنّه، منذ القدم، كان أكثَرهَا مبعثًا للرَّهبة، وأشدّها ظهورًا بمظهر لعنةٍ وعقابٍ إلهيٍّ، من جرّاء ما يحدثه

من تشويهٍ مريعٍ في أَجسام المصابين به، والذين يبدأ فيطال منهم الأطراف، والأَنف والعينين، والشفاه، فيقضي عليها، بحيثُ كان يُحكَم عليهم بهجر قومهم وعشيرتهم وبالاعتزال في الخلاء، وبإِنذار الأَصحّاء من الاقتراب منهم. وغالبًا ما يُلزَمون بقرع جرسٍ ينبئ بمرورهم كي يتحاشى الناس عنهم. وقد جاء في سفر الأَحبار: "والأَبرص الذي به إِصابةٌ، تكون ثيابه ممزّقةً، وشعره مهدولاً، ويتلثّم على شفتيه وينادي: "نَجِس، نَجس". ما دامت فيه الإِصابة، يكون نجسًا. إِنّه نجس، فليُقِمْ منفردًا، وفي خارج المخيّم يكون مقامه" (١٣:٤٥- ٤٦).

ومع إِيمان أَقوامٍ بقابليّة البَرص للشّفاء، إِلاّ أَنّه لم يُبْذَل أَيّ جهدٍ في هذا السبيل، بل كان المصاب يُترَك ليواجه قدرَه بنفسه، في ظروفٍ من القذارة، وسوء التغذية، تفسح للدّاء أَفضل الفُرَص للتأصُّل، والانتشار، وإِعاثة الفساد. ويزيد من انتشاره حشر جماعات المجذومين في محاجر، على اختلاطٍ وبيلٍ، حيثُ يتبادلون العدوى؛ وقد يُقسَرون على الإِقامة في المقابر، إِلى أَن يطويهم ترابها إِلى الأَبد.

ومن ثمّ، فإِنّ ظهور أَعراض تلك العلّة يعني، غالبًا، لمن يُبتلى بها، نهاية حياته الاجتماعيّة؛ وذلك المصير، أكثر من المرض ذاته، كان مبعث أَلمٍ وقنوطٍ، كما أَنّه كان يصِم ذويه بالعار، فيُضطرّون إِلى طرده؛ وكان للأَصحّاء الغرباءَ مثار نفورٍ، خشيةً من عدوى، وتَهَيُّبًا من منظر التشويه، وتقزُّزًا من روائح التفسُّخ والإِنتان.

ولا عجبَ إِن لجأ رهطٌ من الذين يكتشفون على أَجسادهم البُقَع البيضاء الرهيبة إِلى المداوين الدجّالين والسحَرة، علّهم يُعتَقون من مصير العار والمهانة، ولكنّهم لا يسلمون من سطوته، ويظفرون، فضلاً عنه، باليأس والإِفلاس.

ولا بِدْعَ، أَيضًا، إِن امتحن الربُّ الشابَّ فرنسيس الأَسّيزي، من خلال موقفه من البُرْص، بعد أَن أَبلغه أَن لا خلاصَ له، ولا حياة حقّةً مع الربّ، حتّى يستعذب ما كان ينفر منه، ويستقبح ما كان يستسيغه. ولم يكن كالبَرَص ما يُثير في كيانه النفور والاشمئزاز؛ وبُعَيْد ذلك، وضع في دربه أَبرص، صارع نفسه، صراعًا مُضنيًا، قبل أَن يدنو منه، ويقبّل يده وفمه، متحدّيًا جميع بواعث التقزُّز التي كان يجيش بها كلُّ كيانه. حينئذٍ، فقط، تملّكه الشعورُ بأَنّه قهرَ مواطن الوهن في ذاته، وقبّل الله نفسه.

وغدا الاهتمام بالمجذومين رسالةً تستدعي سخاء فئةٍ ممّن ابتغوا التعبير عن حبّ

الله، عبرَ خدمتهم لأَكثر إِخوته نبذًا ومهانةً، وكان من أَبرزهم القدّيس الأَب "داميان ديفيستر" (١٨٤٠-١٨٨٩)، الذي وقف ذاته على خدمة بُرْص جزر المحيط الهادئ، فأنفق بين ظهرانيهم أَربعة عشر، عامًا دائبًا على مساعدتهم والعناية بهم، بدأَبٍ وحبّ، جاهدًا في تحويل جحيمهم إلى حبٍّ، إلى أَن انتقلت إليه عدواهم فقضت عليه؛ إِلاّ أَنَّ نشر رسائله، النابضة عطفًا واندفاعًا، قد هزّ لا مبالاة مجتمعٍ لم يكن يشعر حتّى بوجودهم.

وفي قرننا هذا، انطلق رسول البرص، الفرنسيّ راوول فوليرو، يجوب أَرجاء المسكونة مُعَبِّئًا الرأي العامّ والسلطات للتعاطف مع مآسي ضحايا ذلك الداء، الذي وُلِد مع الخليقة، وأحيط، منذ فجر التاريخ، بموقفٍ من لعنةٍ ونبذٍ، ما انفكّ يسوق موكبًا دهريًّا من الجرائم بحقّ أُولئك التعساء الأبرياء. فقد رأى بأمّ عينه جماعاتهم، في بعض البلدان، مكدّسين في مخيّماتٍ تقوم على حراستها الأَسلاك الحديديّة الشائكة، والكلاب المفترسة، ومتروكين، في بلدانٍ أُخرى، يهيمون في الجبال حتّى يلاقوا موتًا محتّمًا. وغداةَ الحرب العالميّة الثانيَة، فيما كانت البشريّة واهمةً أَنّها قضت على كلّ مظاهر الهول والبربريّة، مضى فوليرو يفضح أَساليب التمييز والاضطهاد التي يتعرَّض لها بضعة عشر مليون مصابٍ بالجذام، في شتّى أَقطار البسيطة؛ ولم يضنّ بجهدٍ كي يُعبِّئ الطاقات لمحاربة ذلك الداء والقضاء عليه، ولتوعية الرأي العامّ على ما يسبّبه من نبذٍ ومهانةٍ وإِهمالٍ. وقد نظّم، في هذا السبيل، يومًا عالميًّا سنويًّا للإِعلام وتنوير الرأي العامّ، ومذ أَطلق نداءَه الأَوّل، عام ١٩٥٤، أَعلن عشرون بلدًا الانضمام إِلى جهاده وجهوده، وارتقى عددها إلى ستّين بلدًا، في السنة التالية. وبمناسبة الاحتفال باليوم الخامس عشر الدوليّ لمكافحة البَرص، أَعلن بلهجته الناريّة:

"إِن استطعتم، من غير تأثُّرٍ ورعدة ضميرٍ، الإِلمام بأَنّ من أَصل خمسة عشر مليون مصابٍ بالبَرَص، وهو مَرَضٌ ليسَ مُعديًا بالقدر الذي يُظَنّ، ثمّة، اثني عشر مليونًا ينفقون في معزلٍ عن أَيّ علاجٍ أَو اهتمامٍ أَو بادرة حبّ، فهذا يعني أَنّكم أَنتم البُرْص".

في تلك الأَثناء، كَان الدكتور النورويجي هانسن قد عزل، عام ١٨٧٣، عُصيّات البَرَص التي تبدأ تدميرها الخبيث بغزو الأَعصاب، قاضيةً، فيها، على كلّ شعورٍ بالأَلم، ولا ينبئ أَيُّ شيءٍ بوجودها، بادئ الأَمر، سوى تنميلٍ تحت الجلد، لا يُوَاكِبُهُ أَيّ وجعٍ، قبل أَن تعتلنَ، فيما بعد، بُقعٌ بيضاء تفضحها. ومن ثمّ فقد يُجرَح المصاب،

أَو يحترق جزءٌ من جسمه، أَو تنتشر فيه البثور، من غير أَن يهيّج ذلك أَيّ إِحساسٍ بالأَلم، فيُهمل معالجة الجروح أَو الحروق التي تتفشّى فيها الالتهابات والإنتانات.

وقد بات معلومًا أَنّ للبَرَص فئات ثلاثًا، واحدةٌ منها، وهي الأَندر، والأَقلّ انتشارًا، خطيرةٌ، سريعة العدوى، في حين أَنّ معظم الحالات الأُخرى غير معديةٍ، ومن اليسير معالجتها، والقضاء عليها، إِذا ما عولجت في أولى مراحلها، بفضل مجموعةٍ من العقاقير الرخيصة الثمن، القريبة المنال.

وتطوّرت أساليب معالجة البَرَص، ومساعدة المُبتلين به، بفضل نفوسٍ سخيّةٍ تصدَّت لغوث تلك الفئة من البائسين الأَبرياء، نظير الكاهنين الفرنسيّين الأَخوَيْن جاكار اللذَيْن عكفا على معالجة المصابين بوقف زحف الداء إلى أَجسامهم، جراحيًّا، ببتر الجزء التالف من عظامهم، حتّى الوصول إلى الجزء الذي ما زال سليمًا، وعلى تَجْهِيزهمْ بأَطرافٍ اصطناعيّةٍ تمكّنهم من الحركة، ومن مواصلة حياتهم متمتّعين بالاستقلاليّة وحرّيّة الحركة، فضلاً عن وقايتهم من عودة الداء، بالعقاقير، وبممارسة النظافة، وباعتماد نظامٍ غذائيٍّ سليمٍ متوازنٍ.

وكان باحثون قد اكتشفوا دواءً يحدّ من انتشار الداء، ويقضي عليه قضاء مبرمًا، إِذا ما جوبه به منذ ظهور أَعراضه.

ومع ذلك، لا يزال، في العالم، بين اثني عشر وخمسة عشر مليون أَبرص، منهم أَربعة ملايين في الهند وحدها. وتتحمّل المعتقدات الهندوسيّة، إلى حدٍّ بعيدٍ، جريرةَ هذا العدد المريع، لأَنّها تؤمن وتعلّم أنّ البَرَص هو عقاب السماء على خطايا ارتُكِبتْ في حياةٍ سابقةٍ، وأن لا بدّ من تجرّع غُصَص مآسيه، تكفيرًا عن تلك الخطايا، ولا يسوغ مقاومة إرادة الآلِهَة، بمحاولة التخلّص منه. ومن ثمّ فعلى من يُبتلى بالبَرَص، أَيًّا كان مركزه، أَن يهجر أُسرته وقومه، ويتشرّد متصديًا، بمفرده، لمصيره المفجع، وإِلاّ تعرَّضت أُسرتُه للعار والنبذ، وعجز أَبناؤه وإِخوته عن الظفر بعمل، وأَعرض الشبّان عن التزوّج بأَخواته أو ببناته.

وقد وافى، ذات يوم، مرسلاتِ المحبَّة، رجلٌ قائلاً: "كان لديّ كلُّ شيءٍ، سيّاراتٌ وخدمٌ، بل كان من يحمل لي حقيبتي اليدويّة. وذات يومٍ ظهرت عليّ أَعراض البَرص، وما إِن أَعلمت بالأمر زوجتي حتّى قالت: "أَنت تعلم كم أَنا أُحبّك، ولكن عليك أَن ترحل في الحال، وإِلاّ لن يُقدم أَحد على تزوّج بناتك".

وتروي إِحدى الراهبات: "ثمّة مجذومون أَغنياء، منهم طلاّبٌ جامعيّون، وأَفراد أسرٍ ثريّةٍ مشهورةٍ يوافوننا للظَّفر بالعقاقير... كانت فتاةٌ تقدم للمعالجة سرًّا، بعد أَن اكتشف ذووها آثار الداء، فأَيقنوا أَنّ ذوي خطيبها سيرفضونها إِن هم أَحاطوا بالأَمر علمًا. ولحسن طالعها شُفيت".

في الهند، إِذن، ليس الداء الخطير هو البَرَص، بقدر ما هو الخوف من البَرَص، الذي يجعل منه مرضًا مخزيًا، يضرب من يُصاب به بلعْنةٍ لا مُسوِّغ لها. وكان المهاتما غاندي قد ثار على تلك العقليّة اللاإِنسانيّة، وجهر بأَعلى صوته أَنَّ البُرْص هم، كسائر المنبوذين، بل أَكْثَرهمْ تعرّضًا لظلمٍ فادحٍ. وتدليلاً على ذلك، لم يُحجم عن استقبال عددٍ من المجذومين في أَشرمه، وعن الإِكباب على تنظيفهم ومعالجتهم بنفسه؛ وفي تيَّاره، اندفعت نفوسٌ كريمةٌ لرفع الحيف الناشب بتلك الفئة من البائسين، وبرزت محاولات نادرةٌ وخجول لنسف حاجز المعتقدات الخاطئة الحائلة دون معالجة المجذومين.

وَمَعَ ذلك، ما انفكّ وضع البُرْص في الهند مأساويًّا، فالمصاب الذي يُنبذ، وتوصد دونه أبواب العمل، يُقسر على التسوّل، وهو يخشى، أَبدًا، أَن يُلقى عليه القبض، ويُزجّ في محجرٍ مع أُلوفٍ من رفاق محنته المحرومين من كلّ عنايةٍ، والمهدّدين، أَبدًا، بالبنادق المصوّبة إِليهم، لكيلا تراودهم تجربة الفرار من جحيمهم. أَمّا الذين يُفلتون من المحاجر فيهيمون في الجبال كالبهائم المطارَدة المذعورة، ويميلون إِلى التجمّع كالقطعان، التماسًا لشيءٍ من الإِنس، في اقتسام نفس المصير الموجع.

وقد رسم الكاتب "ميرسيا إِيلياد"، في كتابه عن الهند مشهدًا مذهلاً وموجعًا لجماعات البرص هناك، حيث كتب: "موكبٌ غريبٌ من أَسمالٍ وعكاكيز وقروحٍ، ينحدر في ظلّ التلّة. وتتوقّف أَنت في مواجهة الشمس الساطعة مذهولاً بمنظر تلك الكائنات البشريّة التي تحيق بك، وهي تكرّ حبّات مسابح، منتحبةً، وتتوسّل إِليك، وتزعجك بلجاجتها. ويتعذَّر عليك تخمين حالهم، للوهلة الأولى. فقد واروا دماملهم بخروقٍ، وأقمشةٍ وَأَكْيَاسٍ، حتّى إِذا ما رأوك صامدًا إِزاء توسُّلاتهم، أَماطوا اللثام عن قروحهم كي يستثيروا عطفك وقرفك... إِنّهم برصٌ، بسِحَنِهم التي تُحاكي سحنة الأسد، وبأيديهم التي فقدت أَصابعها، وبجدعاتهم المكسوَّة بقشرةٍ فضِّيَّةٍ.

"بعضهم ما برحوا في مستهلّ جلجلتهم، وقد طُردوا حديثًا من أُسَرهم، وما زالوا

يرتدون ثياب حياتهم السابقة. ويمكن استشفاف الشباب لدى نسوةٍ مغبرّات الضّفائر، متألّقات العيون، "فالأَميرة الفضيِّة" (البرَص) تغوي من غير تسرّعٍ، وتشرع بالاستيلاء على الأَصابع، ثمّ تستحوذ على الأَرجل، فالأَنف، فالمرفقين، فالفم... وتُقرأ ملامح التفكير والحكمة في أَنظار رجالٍ وجدوا أَنفسهم، بغتةً، منبوذين، وقد نفاهم ولعنهم أُولئك الذين كانوا، هم، يطعمونهم.

"ولا يؤذن لهم بالتسوُّل أَينما شاؤوا، بل يُطرَدون، بصيحاتٍ نكراء، أَسوأ من طرد الكلاب، إلى أَن يسمعوا بمكانٍ يحتلّه بُرْصٌ آخرون، فينضمّوا إِليهم. وتتضخّم جماعتهم كلّ سنةٍ، مع كثرة الذين ينفقون أَو ينتحرون في الغاب، ويتعاظم عددهم، ويتفاقم أَلمهم، وكأَنّه عقاب الآخرة...

"ولا يعبأ أَحدٌ بالبُرْص، فالأَغنياء المؤمنون مشغولون بالتقادم، لبناء هياكل وأَديرةٍ جديدةٍ، وبمضاعفة أُلوف الروبيّات الموقوفة على معيشة ستّة ملايين من رجال الدين في الهند. والسلطات المحلّيّة عاجزةٌ، لأَنّها لم تتلقَّ أَوامر.. وليست السلطات الصحيِّة بأَقلّ عجزًا، إِذ لم يتعلّم أحدٌ شفاء البرَص، والجميع يخشون البُرْص، ويتنكّبون عن لقائهم، ويفرّون لدى دنوّهم. قد يُرثى لهم، ولكن يُعتقَد أَنّ على كلّ فردٍ أَن يكفّر عن خطايا حياةٍ سابقةٍ. فلكلّ ما يحدث مرمًى خفيٌّ...".

ولم يكن بوسع الأمّ تيريزا الاستهتار بأمر البُرْص، فهي، على غرار غاندي، تأبى اعتبار أَيّ إِنسانٍ جديرًا بالنبْذ، بأَيّ داعٍ، وتؤثر بعطفها من نَبَذَه الجميع؛ وهي، في خُطى فرنسيس الأسّيزي ترى في البُرْص، من جرّاء ما كُتب عليهم من نفيٍ وطردٍ ومهانة، أَفقر الفقراء، ومن ثمّ، صورة يسوع الأَبلغ إِيلامًا، والأوفر صفاءً، والأَشَدّ جاذبيّةً.

وهي، منذ حطّت رحالها في الهند، ثارت على المعاملة اللاإِنسانيّة التي يُعامَل بها المجذومون، فاستنكرتها بأَعلى صوتها، هاتفةً: "أَيّ جرمٍ اقترفه هؤلاء؟ إِنّ البرَص مجرّد مرض، وليس لعنةً". وقد برهنت على ذلك بحدبها عليهم؛ وإِذ كانت، أَثناءَ تجوالها في كلكتًّا، تصدف بعضاً منهم يتسوَّلون، فتلاطفهم بكلماتٍ رقيقةٍ، وتتقصّى أَحوالهم، وقد تستطلع هل كانت حصيلة تسوّلهم، في ذلك اليوم، مرضية. وإِذ لم يكن بين مرسلات المحبّة مختصّاتٌ في معالجة البرص، اقتصرت عنايتهنّ

بهم، في الفترة الممتدّة بين ١٩٤٩ و ١٩٥٦، على إِطعامهم، وتنظيفهم، وتضميد قروحهم، ولا سيَّما في المراكز التي كنّ فيها يُعنَيْنَ بالمنبوذين مثل "موتيجهيل".

وفي عام ١٩٥٧، طرق باب مرسلات المحبَّة خمسةٌ من مستخدمي أحد كبرى المصانع في كلكتّا، منهم المدير ومنهم الموظّف، وكانوا قد طُردوا بقسوةٍ من عملهم، إِثر افتضاح إِصابتهم بالجذام التي عجزوا عن الاستمرار في كتمها. وفقدوا، بغتةً، وفي برهةٍ خاطفةٍ، العملَ والزوجة والبيت والأَصدقاء، وبُترت كلّ علاقةٍ لهم ببيئتهم ومجتمعهم، فتكتّلوا عساهم يقوون على مجابهة مصيرهم معًا؛ ولم تكن أَعراض دائهم، وهو في بدايته، من الهول بحيث تستثير شفقة المحسنين وتستدرّ عطاءهم؛ وعضّ الجوع أَحشاءَهم، فلم يجدوا سوى باب الأُمّ تيريزا يقرعونه، إِذ لم يكن لهم سواها من يستعينون به، فالأَطبّاء يُحجمون عن علاج البرص، ويرفض أَيُّ مستشفًى "محترم" استقبالهم، وأُسرهم تتنكّر لهم؛ ولم يبقَ أَمامهم إِلاّ التشرّد، وما يجرّه من جوعٍ وقذارةٍ يُسهمان في استيطان الداء وانتشاره.

وهال الأُمَّ مدى المعاناة التي يكابدها المصابون بالجذام، وهوّة النبْذ والمهانة السحيقة التي يهوون إِليها فجأةً، بحيث لا يبقى أَمامهم سوى التسوّل وسيلة للعيش، يواكبه خوفٌ دائمٌ من التعرّض للاعتقال، والزجّ في محاجر مرعبةٍ؛ مصيرٌ يرهبونه أكثر من الموت.

وعزمت الأمّ تيريزا على التصدّي، جدّيًّا، لهذه المأساة التي رازت، دفعةً واحدةً، بحدْسها الأَكيد، وحكمتها الراسخة، كلَّ أَبعادها المُريعة. وهي، إِذا ما تصدّت لقضيّةٍ، تخطّت، في سبيل حلّها، كلّ العوائق.

فأخذت على عاتقها العناية بالبرص الخمسة الذين لاذوا بها، ودفعت ببعض أَخواتها إِلى التمرّس من معالجة داء البَرَص، وما هي سوى أَشهر حتّى افتتحت أَوّل مركز للعناية بالبُرْص. ولكن سرعان ما أَجمع سكّان الأَبنية المجاورة على طردها وأَخواتها وهم يجأرون: "لا نريد بُرْصاً فيما بيننا، فابتعدوا عنّا".

ولمّا باحت الأُمّ بشكواها لأَحد المسؤولين، هدّأ من روعها، مبيّنًا أَن مركزًا كالذي افتتحته ليس بالحلّ الملائم لمعضلةٍ في جسامة تلك التي تعانيها الهند، فطاقة المركز لا تتّسع لأَكثر من بضع مئات المصابين في أَحسن الأَحوال، في حين أَنّ الحاجة تدعو إِلى معالجة الألوف، بل الملايين. وتنامى إِليها ما أَنجزه الطبيب البلجيكيّ "هيمريكس"، في

الهند، حيث ابتدع أُسلوب علاجٍ مكثّفٍ، بواسطة شبكة مستوصفاتٍ جوّالةٍ، استجابةً لرغبة الأَهالي بألاّ تُنشأ مراكز للبَرص بجوار مساكنهم؛ فشخصت إلى مدينة "مدراس" واطّلعت على مركز الطبيب البلجيكيّ، وأَعلنت عن استعدادها للتعاون مع المؤسَّسات الحكوميّة، والأَطبّاء المتطوّعين، وما لبثت أَن انقلبت الفكرة واقعًا.

في غضون ذلك، كان الدكتور "سين"، المختصّ في معالجة الأَمراض الجلديّة والجذام، قد أَنهى تعاقده مع الدولة الهنديّة، وأَعلن عن استعداده للخدمة تحت إِمرة مرسلات المحبّة، مجّانًا؛ وتوافق ذلك مع تَبَرُّع كاهنٍ أَميركيٍّ، كان قد قتّر على نفسه سنواتٍ، ووفّر كلّ ما حصل عليه أَثناءَها من حسناتٍ، وهباتٍ، ودخلٍ هزيلٍ، حتّى استطاع الإهداء إلى مرسلات الأمّ تيريزا سيّارة إِسعافٍ جُهّزت بكلّ وسائل العلاج.

وعندما استطلعت الأُمّ تيريزا رغبة أَخواتها في التطوُّع لخدمة البُرْص، ارتفعت جميع الأَيدي بلا استثناء، فأَعلنت بحبورٍ: "إِنَّ يسوع يحبّ من يهب ذاته بلا توانٍ؛ والأَخوات هنا متأهّباتٌ لمحبّة البُرْص، ومصادقتهم، وتوثيق الصلات بهم وبأُسَرهم. وإِن هم وافوا بلا تلكّؤٍ، توفّرت لهم جميع أَسباب الشفاء، بفضل العقاقير الحديثة". والعلاج بسيطٌ، لا يستلزم إِقامةً في مستشفًى. والشفاء من الداء ممكنٌ، إِذا ما تمّ تداركه في مراحله الأولى، وقد يستغرق الإبلال منه بين ستّة أشهر وسنتين.

وفي شهر أيلول ١٩٥٧، بارك رئيس أَساقفة كلكتّا المستوصفَ المتنقّل الأَوّل، وعلى متنه طبيبٌ متخصّصٌ وثلاث مرسلات محبّةٍ مدرّباتٍ على معالجة البرص، وقد اتَّخذ، كلّ يوم، من أَحد أَحياء المدينة محطّةً، يوافيه إِليها المصابون من الأَماكن القريبة، فيُفحَصون لتبيُّن مدى تقدُّم شفائهم، ويعطون ما يحتاجون إليه من عقاقير ومقوّياتٍ وطعامٍ، مجّانًا، لمدّة أُسبوعٍ، ممّا حدا بأُسَرٍ عديدةٍ على التوافد بانتظامٍ إِلى ذلك الموعد الأُسبوعيّ. فالمستوصف كان، مثلاً، يتوقّف، يوم الأَربعاء، قرب دير "لوريتو" في حيّ "اينتالي"، وتُظهر السجلاّت أَنّ نحو أَلف مُصابٍ يعالجون، في ذلك المكان، بانتظامٍ.

أَمّا في يوم الثلاثاء، فكان المستوصف يتوقّف في حيٍّ للمسلمين، اشترطَ رجاله أَلاّ يُسهم أَيُّ رجل في معالجة نسائهم؟ ولذلك حرصت، أَبدًا، الأُمّ تيريزا على التخلّي، في ذلك اليوم، عن كلّ مهمّةٍ، مهما كانت خطرةً وملحَّةً، كي تحلّ محلّ الطبيب، وتتولّى بنفسها معالجة المسلمات، مع فريقٍ من أَخواتها المُدَرَّبات.

وكان لا بُدّ، من أَجل المُضيّ قُدُمًا في معالجة المجذومين، من هَدْم حاجزَيْن منيعَيْن من الجهل والعقائد الراسخة: الجهل الذي لا يعترف بقابليّة الجذام للشفاء، والعقائد الدهريّة التي ترى في ذلك الداء لعنةً أَبديّةً، وعقابًا سماويًّا عن خطايا اقترفها المصاب أَو ذووه وفي حياةٍ سابقة، ممّا حمل الأمّ تيريزا على التصريح: "**من الصعوبة الكبيرة، في الهند، إِقناع القوم بأَنّ الله لا يحكم على الإِنسان بالأَلم**".

ولمّا شرع البُرْص يُقبلون على الاستشفاء، حثّت مزيدًا من أَخواتها على التمرّس من معالجة البَرَص، وحرّكت السماء والأَرض للحصول على المزيد من سيّارات الإِسعاف لمضاعفة المستوصفات الجوّالة، ولإِشادة مراكز معالجةٍ حيثما تسنّى لها؛ وقد انضمّت، بدورها، إِلى جهود راوول فوليرو. وبمناسبة اليوم العالميّ الخامس لمكافحة البرص، في الحادي والثلاثين من كانون الثاني ١٩٥٨، نظّمت حملة جبايةٍ من أَجل البُرْص في كلكتّا، حيثُ طافت مع أَخواتها، وجماعات المتعاونين معهنّ بشعارٍ يقول: "**المس البُرْصَ بعطفك**"، وهنّ يقرعنَ أَجراسًا صغيرةً ترمز إِلى تلك التي كان يُقسَر المجذومون على قرعها أَثناء سيرهم، بُغيةَ لفت اهتمام الناس إِلى قضيّة البَرَص.

وبرهن الأَهالي عن تفهّمٍ عميقٍ ومتحمّسٍ، فتدفّقت تبرّعاتهم، في سخاءٍ منقطع النظير، بحيث صرّحت الأخت المسؤولة عن المحاسبة أَنّها اضطرّت إِلى تكديس شيكات التبرّعات الواردة في سلالٍ.

وتضاعفت أَعداد المستوصفات الجوّالة، ومراكز العناية بالبُرْص، حيثُ عكفت الأَخوات، بالإِضافة إِلى العناية بالمصابين، على تأهيلهما لحياةٍ أَكثر طبيعيّةً، وتلقينهم وسائل توفير احتياجاتهم بأَنفسهم، مثل استصناع أَحذيةٍ، من إِطارات سيّاراتٍ عتيقةٍ، ونسج ضماداتهم، وخيط ثيابهم، فيما يوجّه الأَكثر قدرةً نحو بناء منازل لهم ولزملائهم.

ولكن سرعان ما اتّضحت للأُمّ تيريزا عوائق تحول دون إِفادة جميع المجذومين من خدمات مرسلات المحبّة؛ فثمّة أسرٌ كثيرةٌ تقيم على منأًى من المستوصفات المتنقّلة، ولا تملك أجرة استقلال القطار أَو الحافلة، والذين يجازفون، من أَفرادها، بركوبها، من غير بطاقةٍ، قد يتعرَّضون للغرامة، أَو يُقسَرون على مغادرتها في أَوّل موقف؛ ناهيك عن أَنّ عدوى البرص كثيرًا ما كانت تطال أَطفالاً لا يقوى ذووهم على اصطحابهم إِلى كلكتّا.

وخطر للأمّ تيريزا أَن تُنفِذَ عددًا من أَخواتها إِلى مُجمَّعات البُرْص، لمعالجتهم

حيثُ هم؛ غير أَنّ الأَخوات قوبلنَ بوابلٍ من الحجارة، وصيحات الاستنكار، من قِبل الجيران الأصحّاء الذين كانوا يجهرون برفضهم إِقامة البُرْص بجوارهم، ومن قِبَل عصابات أَوغادٍ، كانوا يَتَحَكَّمُونَ بمخيّمات البُرْص البائسين، ويأبون كلّ تدخّلٍ قد يؤدّي إِلى تغيير الوضع القائم، والإِطاحة بالامتيازات التي احتكروها لأَنفسهم.

وإِلى ذلك تبيّنت الأمّ تيريزا أَنّ الآراء المسبقة عن البَرَص كانت ما تزال مترسّخةً، رافضةً عودة البُرْص الذين كُتِب لهم الشفاء إِلى الاندماج، من جديدٍ، في مجتمعهم، كما يُستَشفّ من قولها الوجيع: "**إِنّنا نعرف حالاتٍ مأساويّةً قُتِل فيها أَشخاص شفوا من البرَص، قتَلَهم أَفرادٌ من أَهلهم**".

كما أَنّها كانت توجس خشيةً على الأَطفال المولودين من أَبوين أَبرصَيْن أَن يلتقطوا عدواهما، في حين تتسنّى لهم فرصة العيش السليم، إِن هم عُزلوا عن والديهم منذ مولدهم.

من جملة تلك العوامل، وَمَض في خَلَدها حلمٌ متوهّجٌ، راحت تداعبه بحنانٍ، وتجهد ساعيةً إِلى تحقيقه، حلم إِقامتها، في كلّ مكانٍ، قرًى للبرص غير المرغوب فيهم، يستطيعون العيش فيها أُسرًا متلاحمةً متحابَّةً، متجاورةً، على مقربةٍ من أَطفالهم، الذين، بعزلهم عن العدوى، ينشأُون ويعيشون سليمين معافين؛ وحيثُ كلُّ مقيمٍ يعمل ما يقوى عليه، في مهنةٍ، أَو في زارعةٍ، أَو في تربية دواجن، ممّا يوفّر للجميع عيشةً كريمةً، واستقلالاً ذاتيًّا.

وقد قُيِّض لها تحقيق ذلك الحلم، على أَوسع نطاقٍ، بعد أَن سارعت حكومة كلّ ولايةٍ هنديّةٍ، إِلى منح جماعات الأمّ تيريزا، من مرسلاتٍ ومرسلين، أَراضي كي يجعلوا منها مستوطناتٍ للبُرْص.

غير أَنّ المستوطنتَيْن الرائدتيْن في ذلك المضمار ترويان، ببلاغةٍ، قصص شجاعةٍ نادرةٍ، شجاعة الذين أنشؤوهما، ونظّموهما، وأَداروهما، وشجاعة النزلاء المرضى الذين أَقدموا على إِعادة بناء حياةٍ محطّمةٍ، واستئناف مسيرةٍ جديدةٍ.

أَولاهما أُنشئت في منطقة "تيتاغار"، وقد أُطلق عليها اسم "غانديجي بريم نيواس" أَي "بيت غاندي للمحبّة"، تيمُّنًا بالمهاتما الذي، فضلاً عن كونه بطل استقلال الهند، كان من أَجْرأ الذائدين عن حياض المنبوذين، ولاسيَّمَا البُرْص.

سنواتٍ قبل إنشاء تلك المستوطنة، لم يكن المكان سوى مجموعةٍ من الأَبنية المرتجَلة على جانبي سكّة حديدٍ، خارج تخوم مدينة كلكتّا، بجوار مستنقعٍ آسنٍ، حيث قُذِف بعشرات أُسَر البُرْص المهشَّمة، والمستسلمة للمرض والفاقة والجنوح. وكان وضع تلك الأُسَر من الرثاثة بحيث أَنِف حتّى سكّان بيوت الصفيح المجاوِرة، الموغلة في البؤس، أن يكون لهم بجيرانهم البرص أيّة علاقةٍ؛ لا بل كان ذلك المنفى يبعث الرعب حتَّى في قلوب رجال الأَمن، الذين، تحسُّبًا للعدوى، كانوا يرقبون من بُعدٍ، غاضّي الطرف عن الأَفعال اللامشروعة، وعن تقطير الكحول الرديئة وبيعها، بل حتّى عن الجرائم التي يرتكبها زعماء العصابات المتحكّمون بالمكان، طالما هي ظلّت محصورةً في نطاق البُرْص أَنفسهم.

وقد وافى، يومًا، وفدٌ من بُرْص "تيتاغار" ملتمسين من الأُمّ تيريزا افتتاح مركز معالجةٍ في مستوطنتهم، كي توفّر عليهم ما يلاقونه من عَنَتٍ في الحضور إلى المستوصفات الجوّالة، وتعذُّر استقدام أَطفالهم؛ وقد أَثبتت لها زيارتها الأُولى إلى "تيتاغار" ضرورة تلبية رغبتهم، وما هي إلاّ أشهر قلائل حتّى قام، ثمّة، مستوصفٌ صغيرٌ في تخشيبة إلى جانب سكّة الحديد، وكُلِّفت طائفةٌ من الأَخوات بإدارته. ولكن سرعان ما اتّضح أنّ تحسين أَوضاع تلك المستوطنة يحتاج إلى أكثر من مستوصفٍ صغيرٍ، فكلّ ما يُحيق بالمكان بؤرةٌ للأمراض، فالمستنقعات تعجّ بالأَفاعي، والشروط الصحيّة مريعةٌ: إذ لا مجارير، ولا ماء جارٍ، ولا كهرباء، ولا حتّى أَسقفٌ تقي السكّان من الأَمطار الموسميّة الطوفانيّة، ومن زمهرير الشتاء القارس. وتأكّد أَخيرًا للأمّ أنّ الإخوة المرسلين الذين كانت استحدثت لهم جمعيَّةً موازيةً لجمعيّة المرسلات، هم أَقدر على التصدّي لتلك المهمّة الشاقّة، فانتدبتهم لها.

وارتأى الإخوة بقيادة الأَخ "كريستوداس"، ومعاونه الشابّ، الأخ "ماريداس" أَن لا مفرَّ من تطوير الأوضاع المعيشيّة في المستوطنة، بل من قلبها قلبًا جذريًّا، ونَشَطا للعمل في ذلك المنحى. ولكنّهما ما كادا يشرعان حتّى قوبلا بمقاومةٍ شرسةٍ من زعماء العصابات، وتعرّضا مرّاتٍ ومرّاتٍ، مع من انضمّوا إليهما، للرَّجم بالحجارة؛ وانشطرت المستوطنة إلى مؤيِّدٍ للإصلاح ومناهضٍ له، ومضى المرسلان ومشايعوهما، بثباتٍ، في ما وطَّنوا عليه عزمهم. وقد شرعوا ببناء مركزٍ سكنيٍّ

جديدٍ، استغرق إِتمامه أَشهرًا عديدةً، وأَثار اهتمامًا بالغًا؛ وما كاد يُفْرَغ من بنائه حتّى همدت حمّى المناوأة، وتفرّق زعماء العصابات، وتلاشى، بغيابهم، كلُّ أَثرٍ لريبةٍ أَو ضغينةٍ، وانضمّ جميع السكّان، رجالاً، ونساءً، وأَطفالاً، إِلى مرسلي المحبّة.

وكانت الخطوة التالية تجفيف المستنقع، وتوفير المرافق الصحِّيَّة، ثمّ إِنشاء الأَبنية الأَساسيّة التي ضمّت المساكن الشخصيّة لأسر البُرْص، ثمّ بناءً متماديًا في الطول، بأَبوابٍ خضراء، أَصبح اليوم مركز التأهيل والإِنتاج، تُمارَس فيه المِهَن المختلفة التي يقوى البُرْص على النهوض بها، وسيلةً للعيش، وضمانةً للكرامة. وتلا ذلك مستشفًى بأَجنحةٍ للنساء، وأُخرى للرجال، ومقهًى، وملحقاتٍ عديدة، تؤمّن للقرية كلّ ما يلزمها من مرافق؛ والمشروع بأَكمله يمتدّ من محطّة "تيتاغار" حتّى محطّة "كرداه" التي تبعد عنها نحو أَلفٍ وخمس مئة مترٍ.

وفي مراكز التأهيل تعمل عشرات الأَنوال التي ينسج عليها المجذومون الأَقمشة القطنيّة الخاميّة ذات الحاشية الزرقاء، التي تُستخدَم زيًّا لمرسلات المحبّة، في كلّ أَرجاء المسكونة؛ وعلى الحضيض جلست أَعدادٌ من النسوة أَمام مغازل يدويّةٍ كتلك التي أَشاع غاندي استخدامها في الهند، يغزلنَ بها الخيوطَ القطنيّة، في صبرٍ وسكونٍ وكرامةٍ، كرامة الإِنسان الذي ظهر على المرض، ونائبات الزمان.

أَمّا أَحياء سكن الأسر، فتُدوّي بنشاطٍ لا يفتر، يشترك فيه الجميع بلا استثناءٍ ولا تهاونٍ، حتّى رجالٌ مسنّون، وعجائز التهم المرضُ أَطرافهم؛ فهنا رجلٌ لم يبقَ من يديه سوى جُذْعتَيْن، يعمل بمهارةٍ فائقةٍ على آلة خياطةٍ مجهّزةٍ بمداوس خاصّةٍ يُحرّكها برجلَيْه؛ وهناك العجوز "سامبتاري"، المكلّلة بِالشيْبِ، والتي كانت عضوًا في عصابة راجمي الإِخوة بالحجارة، ثمّ انقلبت قائدة المساهِمات بالبناء، وركنًا من أَركان "تيتاغار"، وهي فخورةٌ ببيتها الجديد، النظيف، المرتّب، وبستانها الصغير حيثُ تزرع دوّار الشمس، والأَزاهير الزاهية.

وهناك الأَطفال العائدون من المدرسة، يطفرون فرحًا، ويُطلقون صيحاتهم الجذلى، مندفعين نحو الأَخ "مارياداس"، هاتفين بصوتٍ واحدٍ: "أَخي، أَخي"، شادّينه من ردن كمّه.

والأَخ "مارياداس" يستقبل الزوار في مكتبه المتقشّف المُجرَّد إِلاّ من منضدةٍ

وكرسيَّين، ومن شعارٍ عُلِّق تحت صورة مؤسّسَيْ فرع مرسلي المحبّة الأُمّ تيريزا، والأَخ أندرو، والشعار يقول: "**لا وُجود للبُرْص، بل هناك البَرص، وهو قابل للشفاء**".

ومركز "تيتاغار" مصداقٌ لذلك القول، فالمجذومون الذين كانت تلاحقهم لعنةٌ دهريّةٌ، ويطاردهم خوفٌ من النبذ هو أَبلغ إِيلامًا من الداء نفسه، قد باتوا يعيشون جماعةً متماسكةً، متضامنةً، سعيدةً، تَتَطَلَّع إِلى الحياة بثقةٍ وكرامةٍ.

أَمّا المركز الآخر الذي دُعي "شانتي ناغار"، أَي قلعة السلام، فهو حكاية جهادٍ، وبطولةٍ، وسخاءٍ، وحبٍّ، لا حدود لها.

فقد كان في كلكتّا مشفًى للبُرْص يدعى "مستشفى غوبرا"، وقد أَلِفت مرسلات المحبّة العناية بالمجذومين فيه. ومنذُ أَجيال كان البُرْص يغشون ذلك المكان حيث تمكَّنوا، شيئًا فشيئًا، من تدبّر أُمور معيشتهم فيه. إِلاّ أَنّ أَزمة السكن المستفحلة، في كلكتّا، اضطرّت البلديّة إِلى تبنّي مشروع توسّعٍ سكنيٍّ يقتضي إِزالة المشفى، وطَرْد البُرْص بعيدًا عن المدينة. وهرعت الأمّ تيريزا إِلى مكتب الدكتور "روي"، عمدة كلكتّا ورئيس وزراءِ البنغال، والذي كان يكنّ لمن دعاها "قدّيسة كلكتّا" مودّةً واحترامًا خَاصّين، والذي عُهد عنه أَنّه لم يرفض، قطُّ، طلبًا لتلك الراهبة الضئيلة الحجم ولأَخواتها، إِذ إِنّها، أَثناء مراجعاتها المتعاقبة، لم تلتمس، يومًا، لنفسها أو لأَخواتها، أَو لجمعيّتها، أَيّة خدمةٍ أو امتيازٍ، بل اقتصرت، أَبدًا، على التماس المساعدة للمحرومين والمهمَّشين الذين انتصبت محاميةً عن حقوقهم، وذائدةً عن حياضهم، في حين يمرّ بهم إِخوانهم فلا يلحظونهم، ولا يأبهون لمعاناتهم.

واعترضت الأُمّ تيريزا، بحدَّة، على اعتزام البلديّة إِزالة "مشفى غوبرا للبرص"، ووعد الدكتور روي بدراسة ملفّ القضيّة بإِمعان، ولكنّه، عقب دراسته، رفض الرجوع عن قرار إِزالة المشفى، فأُلوف الأُسر بحاجةٍ إِلى مساكن، وهي تأبى أَن يظلّ البُرْص بين ظهرانيها. وعندما اتّهمته الأمّ تيريزا بإِيثار مصالح الأَغنياء على مصالح الفقراء، أجاب بأَنّه إِنّما يؤثر الصالح العامّ.

ذلك التعارض بين موقفي تينِكَ الشخصيَّتَيْن النادرتَيْن يبرز التباين بين القدّيس والسياسيّ، بين حبّ الأُمّ تيريزا الإِنجيليّ، الذي يستهدف الصالح الشخصيّ لكلّ فردٍ، ومُثُل العدالة الإِنسانيّة التي تتوخّى صالح المواطنين العامّ المُغْفَل، الذي كان يقتضي إِزالة

مستوطنة البرص، في سبيل بناء مساكن ضروريّةٍ، في حين كانت الأُمّ تيريزا تثور على ذلك المنطق، لقناعتها بأَنّ المجتمع الذي يضحّي بأَعضائه الضعيفة يفقد روحه، وبأَنّ إِيلاء الأَولويّة للأكثر هشاشةً وحرمانًا هو الشرط الوحيد للقضاء على شريعة الأَقوى.

أَقصى تنازلٍ توفَّقت الأمُّ تيريزا إِلى انتزاعه من الدكتور "روي" هو إِرجاء إِزالة مشفى غوبرا، ومستوطنة البرص، ريثما يتسنّى تدبّر أُمورهم في أَماكن أُخرى. وقد عَرَض عليها مكانًا آخر بديلاً، ولكنّها عندما تقصّت أَوضاعه وجدته مفتقرًا إِلى مرافق الصحَّة الأَساسيّة، وراحت تحلم، من جديدٍ، بقريةٍ يستطيع فيها البرص العيش مع أَسَرهم في أَمانٍ واكتفاءٍ ذاتيٍّ، وينعمون بما ينعم به أَيّ مجتمعٍ سليمٍ.

وبدأ حلمها يرى النور عندما أَجّرتها ولاية البنغال الغربيّة أَرضًا مساحتها أَربعةٌ وثلاثون هيكتارًا لقاء إِيجارٍ رمزيٍّ قدره روبيّةٌ واحدةٌ في السنة؛ تلك الأرض كانت تائهةً وسط بريَّةٍ تبعد نحو خمسة وعشرين كيلومترًا عن مدينة أَسانسول، التي تبعد، بدورها، نحو ثلاث مئة كيلومترٍ عن كلكتّا. وجديرٌ بالتذكير أَنّ الأُمّ تيريزا كانت قد "نُفِيتْ" إِلى أَسانسول حيث سلخت زهاء سنةٍ، بحجّة الاستشفاء والاستجمام، وبأَمل أَن تتخلّى عن رغبتها في هجر دير لوريتو من أَجل تأسيس رسالةٍ وسط المحرومين. وفيما بعد، أَسّست في أسانسول فرعًا لمرسلات المحبّة، وقد انتدبت إِحدى راهبات ذلك الفرع، الأُخت فرانسيس كزاڤييه أُوريس، وهي، مثلها، يوغوسلاڤيّة المولد، وكانت رفيقةً لها في دير "لوريتو" قبل انضوائها تحت لواء مرسلات المحبَّة؛ انتدبتها، إِذن، لتحقيق حلمها بإِنشاء مستوطنةٍ تعيش فيها أُسَر البُرْص عيشةً طبيعيّةً كريمة، في أكثر ما تستطيع من استقلاليّة.

واستعانت الأُخت فرنسيس كزاڤييه بمهندسٍ هنديٍّ، وآخر أَميركيٍّ وضعا مخطّطاتٍ تجسِّدُ ما تخيَّلته الأُمّ تيريزا؛ ومع أَنّ المكان، وهو أَشبه بغابٍ موحشٍ، كان أَبعد ما يكون عن الحلم الذي راود أُمّ الفقراء، إِلا أَنّ المرسلات شرعنَ بترويض الغاب، وبإِقامة البنى التحتيّة بتؤدةٍ، اعتبارًا من عام ١٩٦١. وفي عام ١٩٦٤ سُوّر المكان بأكمله بفضل تَبَرُّع محسنٍ هندوسيٍّ، أَمّا الأَبنية الرئيسة، فكان تنفيذها يتطلّب مبالغ طائلةً لم تكن الأُمّ تيريزا تمتلك منها روبيّةً واحدةً.

وجاءت زيارة قداسة البابا بولس السادس، في نهاية عام ١٩٦٤، إِلى الهند لتدفع ذلك المشروع دفعةً فعَّالةً نحو التحقيق. وكان قداسته قد دُعي لترؤّس الاحتفال

بالمؤتمر القربانيّ الدوليّ الذي انعقد في بومباي؛ وقد غُصَّت الكيلومترات العشرون الممتدّة بين المطار والمدينة بالمستقبلين، والجميع توّاقون إِلى مشاهدة أكبر زعيمٍ دينيٍّ والاستماع إِليه، في حين لم يكن الزائِر العظيم راغبًا إِلاّ في زيارة مواقع البؤس من المدينة، ولكنّ زعماءَها السياسيّين الذين أبوا أَن يعرضوا أَمام وسائل الإِعلام العالميّة مظاهر الفقر المدقع في بلادهم، لم يتيحوا له سوى زيارة بعض المؤسَّسات الخَيْرِيَّة.

وكانت الأمّ تيريزا توّاقةً إِلى الاشتراك في المؤتمر، ولكن بينما هي في طريقها إِلى مقرّ الاحتفال، عثرت على زوجَيْن منهكَيْن يصارعان الموت، ولم يبقَ منهما سوى هيكلَيْن عظميَّين، وما كاد الزوج يتلفّظ ببضع كلماتٍ حتّى أَسلم الروح؛ وبلا تردّدٍ، أَقلَّت الأُمّ تيريزا الزوجة المحتضرة على منكبَيْها، وهرعت بها إِلى بيت المحتضرين حيثُ عكفت على العناية بها. لقد شقّ عليها أَن تفوّت فرصة لقاء ممثّل المسيح، في تلك المناسبة، ولكنّها لم تكن نادمةً، فقد التقت المسيحَ نفسه متألّمًا، وأكبّت على رعياته والعناية به.

وكان ثريٌّ أَميركيٌّ قد أَهدى إِلى الأَب الأَقدس، بمناسبة تلك الزيارة، سيّارة ليموزين بيضاء، من طراز"لينكولن كونتيننتال"، لاستخدامها أَثناء تنقُّلاته في الهند، وقد جاء بها إِلى "كاليغات" في كلكتّا، حيث زار"بيت المحتضرين". وكان من بليغ التأثّر بما شاهده من مَآثِر مرسلات المحبّة، بحيث أَعلن، قبل عودته إِلى روما، عن تنازله لهنّ عن تلك السيّارة الفاخرة، كي يساعدهنّ على المضيّ قُدُمًا في أَعمال الحبّ العظيمة التي كنّ ينهضنَ بها.

وتفتَّقت عبقريّة الأُمّ تيريزا عن خير وسيلةٍ تؤمّن لها أَجزل فائدة من تلك الهديّة السنيّة، فأَجرت عليها يانصيبًا بلغ ريعه أَربع مئةٍ وخمسين أَلف روبيّةٍ، وُقفت بأكملها على تنفيذ مشروع "شانتي ناغار"، قلعة السلام.

وأُكمل ترويض الغاب، وبفضل توفّر المياه من سدّ "ميخم" القريب، غُرست آلاف الأَشجار المثمرة، ومنها بستانٌ كاملٌ من أَشجار المانجا، كما زرع القمح والخضراوات. وقد تمّ كلُّ ذلك قبل وفود النزَلاء الذين تسنّى لهم الاكتفاء الذّاتي، منذ افتتاح المركز عام ١٩٦٩، حيثُ استقرّ نحو أَربع مئة أُسرة برصٍ، في بيوتٍ خاصّةٍ ابتنوها بأَنفسهم، وفق مخطَّطٍ عامٍّ يضمن التناسق والتناظر.

وقد توخّت الأُمّ تيريزا، منذ البدء، أَن يكون المكان واحةً لأُسَر البُـرْص، أَيّـةً كانت معتقداتهم، حيثُ يلقون العناية والنصح الطبِّيّ، ويعيشون فـي اسـتقلالٍ تـامٍّ، ويستعيدون قدرةً، ولو جزئيةً، على استخدام أَعضائهم، بعد معالجة تشوّهاتها. وقـد حرصت، أَيضًا، على أَن يجد الأَكثر تقدّمًا في السنّ ملاذًا هانئًا يقضون، بين جنباته، أَيّامهم الأَخيرة في كرامةٍ وسلامٍ، وعلى أَن يُقام فيه بيتٌ للأَطفال يترعرعـون فـي ظلاله في منجاةٍ من عدوى ذويهم، حيث يُسمح للآباء المصابين برؤية أَبنائهم، ولكن يُحظر عليهم لمسهم تفاديًا لنقل العدوى إِليهم. وتقول الأُمّ تيريزا في هذا الشأن:

"إِنّنا نسعى إِلى بناء ملاذٍ للأَطفال في كلّ موئلٍ للمجذومين. فقد شاءت السماء، بمعجزةٍ مؤثّرةٍ، أَن يكون الطفل المولود من أَبوَيْن مصابيَن بالجذام، سليمًا تمامًـا، ومنزّهًا من العلّة، ساعة مولده. ولذلك، قبل مولده، نجهد فـي إِعـداد الوالـدين للانفصال عنه، ولإِيكاله إِلينا منذُ قدومه إِلى الوجود، قبـل أَن يقبّلـوه، وقبـل أَن ترضعه أمّه، ونحن نتولّى أَمره كُلّيّةً.

"لقد شاهدتُ، يومًا، أَبًا وأُمًّا ممدَّدَيْن إِلى جانب وليدهما، حاضنَيْن، فيما بينهما، ذلك المخلوق المولود من لحمهما. كلٌّ منهما كان يرمق الطفل بحنان، ويمدّ نحـوه يدين لا يلبث أَن يردّهما، وكأَنّهما كانا يرغبان في تقبيله، ولكنّهما يتراجعان، فجأةً، لكيلا يلمساه. لن أَنسى أَبدًا عمق حبّ ذلك الأب وتلـك الأُمّ لـصغيرهما! وعنـدما تناولتُ الطفل استطعتُ رؤيتهما يواكبانه بنظراتٍ مفعمةٍ حنانًا، إِلى أَن توارينا عن أَنظارهما. أَيّ تمزّقٍ، وأَيُّ أَلمٍ كابداهما من جرّاء ذلك الانفصال! لقد شقّ عليهمـا جدًّا أَن يتخلّيا، هكذا، عن ابنهما، منذُ مولده. ولكن بما أَنّهما كانا يحبّانه أكثر مـن ذاتهما، وجدا القوّة على مواجهة الأَمر".

وكانت الأُمّ تيريزا قد روت أَمام حشدٍ من النساء الأَميركيّـات الملتئمـات فـي مؤتمر لاس ڤـيغاس عام ١٩٥٨: "جاءتني امرأة في المرحلـة الأَخيـرة مـن داء البَرَص الناشب بها، مصطحبةً ابنها "جمال"، وقالت لي: **"بما أَنّي مصابة بداءٍ مريعٍ، وأَيّامي، في هذه الدنيا باتت معدودةً، خذي ابني، ووفّري لـه مـأوًى، وأَحبّيـه"**، **فأَخذتُ الطفل بين ذراعيّ، وقلتُ لها: "حسنٌ، طالما بقيتِ حيّةً، بوسـعك أَن تـأتي مرّتين أَو ثلاث مرّاتٍ كي تشاهديه، وسأَحتفظ به طالما أَنتِ ظلَلتِ على قيد الحياة"،**

وكانت تلك المرأة البطلة تجتاز، كلّ يومٍ، نحو ثلاثة أَميالٍ كي تشاهد ابنها، ولم تكن تجسر على لمسه، بل تتوسّل إليّ: "أُمّاه، خذي طفلي بين ذراعيك. إنك تحبّينه، ومجرّد رؤيتي حبّك له يسعدني، ولكن إِن أَنا لمسته، فربّما نقلت إِليه عدوى دائي".

وفي "شانتي ناغار" أُنشئ مشفًى صغيرٌ جُهِّز بوحدةٍ جراحيّةٍ، وبمشغلٍ متخصّصٍ في تصنيع وتركيب الأَطراف الاصطناعية، وبمدرسةٍ للأَطفال، ومُحتَرفٍ لشتّى المِهَن التي يُتقنها سكّان القرية، كما زُيّنت أَحياؤها بالأَزاهير.

ودُشِّن ذلك المركز عام ١٩٦٩، ولكنّه لم يكتمل بناءً إلاّ في عام ١٩٧٤، وقد كلَّف إِنجازه مبالغ طائلةً، غير أَنّ الأُمّ تيريزا لم تستعطِ أَيّ مبلغٍ لهذه الغاية، أَو بالأحرى لم تضطرّ إِلى التماس أَيّة مساعدةٍ ماليّةٍ، إِذ كانت التبرّعات لهذا المشروع تتدفّق من كلّ صوبٍ، ولا سيما من أوروبا، وقد أَسهم بجزءٍ ضئيلٍ منها طلاّبٌ فرنسيّون صغارٌ. ولا بدعَ في ذلك، فالأُمّ تيريزا لا تُحسن الطلبَ، ولكنّها تضرب أَمثلةً مدهشةً في العطاء، فيفجّر مَثلُها ينابيع السخاء، لا بل إِنّ مثالها قد حقّق المعجزات، وحطّم أسوار تقاليد دهريّةٍ، حاملاً هندوسيّين أَغنياء على غسل منبوذين بُرْص، وإِطعامهم.

وسرعان ما شرع مستوطنو "شانتي ناغار" يستنبتون الأَرزّ والخضار، وكلّ ما يحتاجون إِليه في طعامهم، ويُنشؤون المداجن، ويصنّعون مختلف السلع. وقد غرسوا مئات أَشجار جوز الهند التي يُستخدَم سائل ثمارها في تغذيةٍ غنيّةٍ بالفوسفور، فيما تُستخدَم أَليافها في نسج حُصُرٍ خشنةٍ، كما غُرست أَشجار "التيك"، التي من شأنها، في غضون سنواتٍ، تأمين الخشب المناسب لبناء العديد من المنازل.

ولا شيء، في المستوطنة يُهدَر، حتّى روث الحيوانات الذي يُحوَّل إِلى غازٍ لا لون له ولا رائحة، يُستخدَم، عبر أَنابيب، للطّهو والتدفئة.

وقد أَحدث مُسنّو المستوطنة تنظيمًا بلديًّا، وعيّنوا المديرين والمشرفين، وفي كلّ زاويةٍ من "قلعة السلام"، الجميع، المشوّهون منهم وغير المشوّهين، دائبون على العمل في مشاريع جماعيّةٍ، وهم فخورون بامتلاك وسائل عيشهم، وأَماكن سكَنهم. ومنهم من بلغ مبالغ الشباب، ولم يعهد، يومًا، غيرَ ذلك المركز بيتًا، وغيرَ حبّ المرسلات حبًّا؛ والمرسلات، أَبدًا، باسماتٌ، عطوفاتٌ، متيقّظَاتٌ لاحتياجات كلّ فردٍ، حتّى عندما تدفع الآلام الجسديّة والنفسيّة، بعض النزلاء إِلى ثوراتٍ جامحةٍ تُنذر بتحطيم كلّ شيءٍ.

وكان، من اندفاع المرسلات في خدمة البُرْص، ومن مشاركتهنّ لهم عيشهم عن كَثَب، أَن التقطت الأخت فرانسيس كزاڤييه وعدد من أَخواتها، عدوى البَرَص، فعدَدْنَها نعمةً من الربّ، وشهادةً لحُبِّه في أَصدقائه الأثيرين، وقد أَبَيْنَ أَن يُعالجنَ في مراكز متخصّصةٍ، مؤثراتٍ المكوثَ إِلى جانب مرضاهنّ، وقد عولجنَ، وشفينَ، وبذلك أَضفنَ إِلى شهادة الحبّ، بثّ الآخرين أَملاً في الشفاء.

مثل تلك التضحيات لا يقوى عليها إلا من كان، نظيرَ مرسلات المَحَبَّة، مؤمنًا أَنّ تلك الأَعضاء المهترئة الكريهة الرائحة، التي يعكفنَ على معالجتها بحبٍّ وشجاعةٍ، إِنّما هي جسد المسيح الذي اقترنَّ به، وتؤكّد الأُمّ تيريزا، في هذا السياق:

"لدينا أُلوفٌ، بل ملايين من المجذومين، وقد عدتُهم، ذاتَ مرّةٍ، بمناسبة عيد الميلاد، وقلت لهم إنّ الربّ يحبّهم محبّةً خاصّةً، وإنّ كلّ ما يحدث لهم، هو عطيّةٌ من الربّ، الذي هو قريبٌ منهم، مؤكّدةً أَن لا ذنب لهم في ما أُصيبوا به، فدنا منّي، متثاقلاً، شيخٌ عجوزٌ متهافتٌ، وقال لي: "أَرجوكِ أَن تعيدي على مسامعي قولك الذي لم أَسمع له، قطّ، مثيلاً، في حياتي، إِذ لم أَسمع، يومًا، سوى تأكيد إِعراض الجميع عنّي. ما أعذب أَن أَعلم بحبّ الله لنا!"

"عندما أَلمس تلك الأَعضاء المتفسّخة، أَعلم أَنّني إِنّما أَلمس جسد المسيح، مثلما أَلمسه عندما أَستقبله في المناولة، تحت أَعراض الخبز؛ هذه القناعة هي التي توليني القوّة والجرأَة، ومن المحقّق أَن لا قِبَلَ لي على فعل ذلك، ما لم أُومن أَنّني، من خلال أَجساد أُولئك البُرْص، إِنَّما أُعالج يسوع نفسه".

وقد اتَّفَقَ لرجلٍ كان يتبوّأ مركزًا رفيعًا أَن مُني بالبَرَص، ونبذته أُسرته، فقصد مشفًى للفقراء، لم يلتمس فيه شيئًا، ولم يسعَ إِلى استشفاء، ولم يتوخّ سوى موتٍ هادئٍ محاطٍ بالإِغفال. وعثرت عليه مرسلات المحبّة، يومًا، فعقَّمنَ قروحه، وأَرقدنَه في سريرٍ، ومنذ ذلك اليوم طرأ عليه تحوّلٌ جذريٌّ، وبات يعلن: "**إِنّني أُومن الآن أَنّ الله يحبّنا**". وقد غدا ساعد المرسلات الأَيمن، يؤازرهنّ في كلّ أَعمالهنّ، سواءٌ في المساعدة الطبّيَّة، أَو في تدريس الصغار. لقد تبدّل تمامًا، وانتهج حياةً جديدةً مذ تبيّن أَنَّه محبوبٌ.

وقد سأل أَبرص، ذات يوم، الأُمّ تيريزا، بلهجةٍ حانقةٍ:

– "كيف تستطيعين احتمال روائحي الكريهة؟ أَلا اعترفي أَنّ رؤيتي على هذه الحال تسعدك!

– "**لا شأن لذلك بالقياس إِلى ما أَنت تعاني.**

– "أَيّ قومٍ أَنتنّ؟ إِنّني لم أُشاهد، قطّ، أَحدًا يعمل مثلكنّ. المجد لكنّ!

– "**لا بل المجد لكم، أَنتم يا من يتألّمون، من أَجل المسيح!**"

وقد أَعلن إِمامٌ مسلمٌ، بعد أَن راقب طويلاً إِحدى المرسلات، وهي تعنى بأَبرص غشت القروح جسمه، وهي باشّة الأسارير:

– "**لقد طالما آمنتُ أَن عيسى نبيّ، ولكنّني، اليومَ، أُومن أَنَّ يسوع المسيح إِلهٌ لأَنّه وهب هذه الراهبة الطاقة على النهوض بعملها، بكلّ هذا الحبّ، وهذا الفرح**".

وشيئًا فشيئًا، باتت العناية بالبرص تحتلّ صميم نشاط مرسلات المحبّة، فالأَبرص هو نموذج الفقير الذي كرّست لخدمته مرسلات المحبّة أَنفسهنّ، لأَنّه الأَكثر نبذًا، ومهانةً، وإِثارةً لنفور الأَصحّاء. وازدراء الآخرين للأبرص يقوده إِلى مقت ذاته، ويودي به إِلى الرزوح تحت وطأة شعورٍ بذنبٍ لا جريرةَ له فيه، في حين يفضي به الانحلال الجسديّ إِلى القنوط. ومن ثمّ، فالمهمّة الأَصْعَب التي تواجه مرسلات المحبّة ليست في العناية بدائهم، وتَحَمُّل روائح الإِنتان التي تفوح بها أَعضاؤهم المتفسّخة، بل في حملهم على حبّ أنفسهم، وإِشراع نفوسهم على حبّ الله لهم. وقد يقتضي منهنّ ذلك شهورًا وسنين من الانكفاء على تلك الأَجساد المشوّهة، بلا تردُّدٍ ولا هوادة، غير هيّاباتٍ العدوى التي قد تنشب ببعضهنَّ، وهنّ يردّدن: "أَنتم جميلون، وجديرون بالحبّ". وحينئذٍ، رويدًا رويدًا، من ثنايا المظهر المريع، ينبعث أَمل وجهٍ آخر داخليٍّ رائعٍ في نظر الربّ.

ولقد لخَّصت الأُمّ تيريزا موقف مرسلات المحبّة من البُرْص بقولها: "**لدينا أَخواتٌ تلقّينَ تدريبًا خاصًّا في معالجة البُرْص. وهنّ، بالطبع، يحتطنَ بكلّ الوسائل لتفادي العدوى، ولكنّنا، جميعنا، متأَهّباتٌ، إِن كانت تلك هي مشيئة الربّ، لتلقّي تلك العدوى، التي تصيب بين حينٍ وحينٍ، هذه أَو تلك من الأَخوات. وكلّما استنهضنا متطوّعاتٍ للعناية بالبرص، بين الأَخوات المختصّات، ارتفعت جميع الأَيدي... وحتّى عندما يكون المصابون مشوّهين تشويهًا مريعًا، ومنظرهم مخيفًا، فما من أُختٍ تعجز عن استشفاف المسيح تحت مظهرهم...**

"في مدينة كلكتّا، وحدها، يبلغ عدد البرص الموكلين لعنايتنا سبعة عشر ألفًا، ولكن في مراكزنا الستّين، في الهند، نُعنى بزهاء خمسة وسبعين ألفًا، نجهد في مساعدتهم على تدبُّر أُمورهم بأنفسهم، بتلقينهم كلّ ما يلزمهم لكي يعيشوا كالآخرين.

"إنّ أَقسى أَلمٍ يُمنى به البُرْص هو نبذ العالم لهم، ويقينهم بأَنّ ما من راغبٍ في رفقتهم أَو محاورتهم. ولذلك نسعى لجعلهم يستعيدون طعم الحياة، بعد أَن نكون قد دأبنا على شفائهم. ولا بدّ من الإقرار بأنّنا قد حصلنا على نتائج مرضيةٍ ومشجّعةٍ. فكثيرون منهم قد أَبلّوا واستعادوا صحّةً تامّةً؛ ولا بدعَ، فالبَرَص، إنْ عولج في وقتٍ مناسبٍ، يمكن الشفاءُ منه شفاءً كاملاً.

"إنّنا نجهد كي نوفّر للمجذومين أَفضل ما نستطيع من عنايةٍ، وأَن نحيطهم بأَرقّ ما نملك من حبٍّ. إنّنا على صلةٍ وثيقةٍ بهم... نودّ أَن يشعروا أَنّنا نحبّهم ونساعدهم، حقًّا، وأَنّنا، من جهتنا لا نُعرِض عنهم. ولئن أُرغمنا على عزلهم عن الآخرين، فعلينا تجنيبهم الشعور الأَليم بالتمييز. معلومٌ أَنَّ البُرْص كانوا منبوذين من الجميع قديمًا، وكانوا يلجؤون إلى الاختباء في المقابر، والابتعاد عن أَيّ اتّصالٍ بشريٍّ. لا بل كان يبلغ بهم الأَمر أَن يُقسروا على الرنين بجرسٍ صغيرٍ، كلّما اجتازوا مكانًا مأهولاً، كي يتجنّب الناس التقاءهم أو ملامستهم. أَمّا اليوم، فحبّ يسوع يحدو أَعدادًا متعاظمةً باستمرارٍ من الناس إلى حبّهم والعناية بهم... وإنّنا نلقى، أكثر فأَكثر، ذوي نوايا طيّبةٍ، متأهّبين لمؤازرتنا في هذا المضمار. وهكذا يتّضح للبُرْص، كلّ يومٍ أكثر فأكثر، أَنّ ثمّة من يحبّونهم ويرغبون في عشرتهم".

وبالإضافة إلى مراكز معالجة الجذام، في الهند، افتتحت الأُمّ تيريزا عشرات المراكز في البلدان النامية. وقد زارت، يومًا، مقرّ الأمم المتّحدة، وتحدّثت مع بعض المسؤولين فيه عن البرص، فاستدرّ كلامها الصادق، البسيط، المدعّم بإنجازاتها على أَرض الواقع، دموعَ مُستمعيها الأَجلاّء؛ وقد أَعلنت في إحدى مداخلاتها الرسميّة:

"ليس البَرَص عقابًا، بل قد يمسي هديّةً من الله سنيّةً، إن نحن أَحسنّا الإفادة منه. فبفضله نستطيع تعلُّم حبّ من لا يحبّهم أَحدٌ، ومن لا يرغب فيهم أَحد، ليس فقط للتكرّم عليهم ببعض هباتٍ، بل لإشعارهم بأَنّهم، هم أَيضًا، مفيدون، وأَنّ

بقدرتهم النهوض بمهمّاتٍ، لأنّهم يشعرون أنّهم محبوبون، ومرغوبٌ فيهم، وقادرون على المشاركة في فرح الحبّ..."

أولئك الذين لفظهم مجتمعهم، ونبذهم حتّى الأقربون إليهم وجدوا في عطف مرسلات المحبّة خشبة خلاصهم، فتشبّثوا بهنّ بكلّ قواهم، كما يتّضح من رواية الأخت "كلير":

"ذات أُسبوعٍ افتقرنا إلى المال لشراء الأَضمدة، فأَحجمنا عن زيارة البُرْص ولمّا جئناهم في الأسبوع التالي استجلوا سبب غيابنا فبينّا لهم السبب، ولكنّهم أَجابوا: "لا بأس إن لم يكن لديكنّ أضمدةٌ، فنحن قد اشتقنا إِليكنّ. ونريد منكنّ وعدًا بالمجيء، حتّى إِن كنتنّ مفتقراتٍ إِلى أَضمدةٍ".

أَمّا الأخت فرنسيسكا التي تُعنى، مع فريقٍ من أَخواتها، بخمسة عشر أَلف أَبرص، جاهداتٍ في معاينة كلّ منهم مرَّةً في الشهر، فهي تتحدّث عنهم بحنانٍ، حديثَها عن أَصدقاء حميمين، وتُشيد ببركة الربّ المواكبة لعملهنّ، فتروي:

"ذات يومٍ وافى مالك المكان الذي يقطنون فيه، وأَحرقه بقضّه وقضيضه، فهرعتُ ودعوتهم إِلى الإِقامة داخل سور ديرنا، وأَن يمكثوا، ثمّة، ريثما نجد لهم مكانًا بديلاً. ومع أنّهم لم يفقدوا الكثير من جرّاء الحريق، إِلاّ أَنّهم كانوا شديدي الحزن. ومن ثمّ، رغم حداثة سنّي وافتقاري إِلى الصلاحيّات وعدتُهم، في الحال، بإِيجاد مكانٍ يكون لهم ملكًا خاصًّا، ولن يكون بمكنة مالكٍ أَن يأتي فيحرقه.

"وفي الغداة، كان من الواضح أَنّ عليّ الشروع بالبحث، ولكنّني لم أكن أَدري في أَيّ اتّجاهٍ أَمضي. وكانت صديقةٌ ترافقني؛ وما كدنا نجتاز بضع خطواتٍ، حتى توقّفت بإزائنا سيّارةٌ، وسألنا سائقها: "إِلى أَين أَنتما ماضيتان؟" وبينّا له مبتغانا، فسأل: "وما المساحة المطلوبة؟"، فلم أَدرك مغزى سؤاله، ولم أكن أنا نفسي أَعلم المساحة التي نحتاج إِليها، فسألته: "وما تستطيع أَنت أَن تهبنا من مساحةٍ؟"، فأقلّنا في سيّارته ومضى بنا إِلى أَرضٍ، مستوضحًا هل هي ملائمةٌ، وأَهداها إِلينا. ولمّا حلّ وقت الغداء، في ذلك اليوم، كانت قد توفّرت لقومي رقعة أَرضٍ مساحتها خمسة وثلاثون أكرًا (١٤٠٠٠٠ م٢).

على تلك الأَرض ينهض اليوم مستشفًى، ويقيم نحو خمسة مئة أَبرص.

"جاكلين دي ديكير": رابطة المتعاونين المرضى والمتألّمين

ما كادت الأُمّ تيريزا تهجر دير لوريتو، وترتدي الساري الأَبيض ذا الحاشية الزرقاء، حتّى نشرت إِحدى صحف جنوبيّ الهند مقالاً مقتضبًا بعنوان: "فتاةٌ أوروپيّةٌ بالساري". غير أَنّ ذلك المقال لم يكن يُشير إِلى الأُمّ تيريزا، بل إِلى علمانيّةٍ كرَّست حياتها للخدمة، بلجيكيّة المولد، تدعى "جاكلين دي ديكير"، تصغر الأُمّ تيريزا ثلاث سنواتٍ، ولكنّها قد باشرت خدمة فقراء الهند، بضعة أَشهرٍ قبل شُروع الأُمّ تيريزا برسالتها، وقد وصفتها الصحيفة الهنديّة بقولها: "الفتاة الكاثوليكيَّة الأوروپيّة الأُولى، التي قَدِمتْ لتخدم الأَكثر حرمانًا في الهند، متبنّيةً زيّ الهند وتقاليدها... إِنّ وجود أَشخاصٍ من طراز "جاكلين دي ديكير" هو ضرورةٌ جوهريّةٌ لبلادنا".

وُلدتْ جاكلين في مدينة "أَنڤير" (انتويرپ) البلجيكيَّة من أُسرةٍ بورجوازيّةٍ كاثوليكيّةٍ عريقةٍ، كان لها فيها ثمانيةٌ من الإِخوة والأَخوات، ودرجت طفولتها في قصر جدّتها الفخم، محاطةً بكلّ مرافق الثَّراء والبحبوحة؛ وهي، الآن، لا تحتفظ، في شقّتها المتواضعة بمسقط رأسها، إِلاّ ببعض صوَر، وتُحَفٍ صغيرة تذكّرها بتلك الطفولة المذهَّبة. وكان والدها رجل أَعمالٍ واسع الثَّراء، يمتلك مزارع بنٍّ في البرازيل، ومزارع مطّاطٍ في أَندونيسيا، ولكنّ كارثةً ماليّةً أودت بجُلّ ثروته.

نشأت جاكلين فتاةً أَخّاذة الجمال، فارعة القوام، رياضيَّة المشية، تلفت الأَنظارَ بوجهها العذْب الذي تضيئه عينان زرقاوان؛ وكان ذلك المظهر الساحر، ناهيك عن محتدها النبيل، وذكائها الحادّ، وميولها الفنّيّة، وصوتها الرخيم المطواع لشتّى طبقات الغناء، يجعل منها قبلة أَحلام الشبّان البلجيكيّين؛ ولكنّها، في ميعة شبابها، وقمّة سحرها، لم تنجرف إِلى تيّار المتعة الذي تندفع فيه أَترابها بكلّ كيانهنّ، وفي حين هنّ كنّ ينصرفنَ إِلى الرقص وَاللهْو، كانت تحبس نفسها ساعاتٍ طويلةً في مُصلًّى، مصغيةً بعنايةٍ إِلى الصوت الداخليّ الخافت الذي كان يدعوها إِلى نمطِ حياةٍ مختلفةٍ؛ فقد كان يتلظّى، في أَعماقها، ظمأٌ إِلى المُطلَق.

وفي الخامسة عشرة، أَثناء غطسها في مسبح، تعرَّضت لصدمة في عمودها الفقريّ، سبَّبت لها آلامًا مبرّحةً في ظهرها، غير أَنّ الأطباء أَكّدُوا أَنّه لن يكون لذلك الحادث عواقب باقيةٌ، وأَنّ أَوجاعها عابرةٌ ستزول لدى بلوغها الثَّامنة عشرة. وكان

الأَلم يُثبّتها في فراشها أَيّامًا طويلةً، ويستفزّ، بادئ الأَمر، ثورتها، إِلاّ أَنّ تحديقها في الصليب المعلَّق إِزاء سريرها حملها، شيئًا فشيئًا، على تقبّل المحنة برضًى وتسليمٍ.

وفي تلك المرحلة المبكّرة من عمرها، أَخذت تراودها فكرةُ خدمة الله، من خلال المحتاجين في الهند، إذ كانت تردّد في ذاتها: "**ما أكثر الذين يتأَلَّمون هناك! والربّ لا يستطيع النفاذ إِليهم إلاّ عبرَ سواعد تهتمّ بهم، وأَرجلٍ تسعى إِليهم. فلمَ لا أكون له ذلك؟**" وتراءى لها أَنّها ستحقّق تلك الدعوة بانتمائها إِلى جمعيّة مرسلات مريم الفرنسيسكانيّات. وليلةَ غَشتْ ديرهنّ، احتلّت منه جناحًا رحبًا مخصّصًا للمبتدئات؛ وتكريمًا لها، أَعدّت الراهبات عشاءً خاصًّا، قوامه طبقٌ من سمك السومون المعلّب، وهنّ يجهلنَ أَنّ العلبة التي فتحنَها لتلك الغاية كانت فاسدةً، وأَنّ معدة ضيفتهنّ لا تحتمل المُعلَّبات، فأُصيبت بتسمّمٍ كاد يودي بها. وما إِن أَبلّت من ذلك العارض، حتّى كانت قد عقدت عزمها على هجر الدير، رغم وعود الراهبات الصادقة بإِحاطتها بأَرقّ عنايةٍ، وعلى المضيّ في درب رسالتها، خارج نطاق الرهبنة، بصفة علمانيّةٍ مكرَّسةٍ. ولهذه الغاية، انتسبت إِلى جامعة لوڤان حيث ظفرت بشهادة مساعدةٍ اجتماعيّةٍ، وممرّضةٍ في البلدان الاستوائيّة.

ثمّ انضمّت إِلى فريقٍ من ثماني فتياتٍ بلجيكيّاتٍ كان كاهنٌ يسوعيٌّ يُعدّهنّ لافتتاح مدرسة تمريضٍ في الهند؛ وكنّ موشكاتٍ على الشروعِ بمشروعهنّ، عندما اقتحمت دبّابات هتلر موطنهن، فتطوّعت جاكلين في الجيش، عاملةً مع فريقٍ من الصليب الأَحمر، باذلةً جهودًا مُضْنيةً في خدمة ضحايا قنابل النازيّة في مدينتها، التي فرّ منها أَطبّاؤها، وما انفكّ أَهالي "أَنڤير" يذكرون، حتّى اليوم، كيف كانت تتجوّل بين الجرحى والمحتاجين إِلى مساعدة، في بسالةٍ نادرةٍ. وأَثناء إِحدى مهمّاتها، أَنقذت أُسرة رئيس أَساقفة كلكتّا، المطران "پيريبه"، ممَّا أَيقظ أَحلامها الهنديّة. غير أَنّها عُيِّنت، عام ١٩٤٥، ضابطًا طبّيًّا في منظَّمة الأمم المتَّحدة للإِنقاذ والتأهيل، ونشطت في معالجة الناجين من المعتقلات النازيّة؛ وفي نهاية خدمتها، عام ١٩٤٦، منحتها الحكومة البريطانيّة الوسام الملكيّ للشجاعة. ولا ريب أَنّ عملها، سحابةَ أَربع سنواتٍ، تحت القصف، في مشافٍ غاصّةٍ بالجرحى، كان لها خير إِعدادٍ لمستقبل نشاطها الإِنسانيّ.

ومع تزاحم طالبي يد ذلك الملاك الأبيض المزدان بالأوسمة، كانت جاكلين أشدّ تحرّقًا للمثول إلى الهند، رغم الآلام المبرّحة التي ما انفكّت تعانيها في عمودها الفقريّ. وذات يومٍ من أيّام كانون الأوّل عام ١٩٤٦، أبلغها مرشدها الروحيّ اليسوعيّ، الأب "هوبلو"، أنّ أحد مرسلي جمعيَّته الأربعة الذين حجزوا أماكن على باخرةٍ ميمّمةٍ شطر الهند قد مُني بمرضٍ أقعده عن السفر، ودعاها إلى الحلول محلّه، متعهّدًا بتوفير كل ما يلزمها من مالٍ، في الهند، من أجل تحقيق رسالتها، فاستجابت في الحال، وهي غير مهيَّأةٍ لما كان ينتظرها. ولكنّها، يوم استقلّت الباخرة، في ٣١ كانون الأوّل من عام ١٩٤٦، تلقّت برقيّةً تفيد بأنّ مرشدها، الأب "هوبلو" قد اخترمته المنيّة، فجأةً، فانهار السند الذي كانت عليه تعتمد، ولا سيّما أنّها لم تكن تمتلك من المال سوى مبلغٍ مفرطٍ في الهزال. لقد كانت الفاجعة المباغتة بمثابة حكمٍ عليها باليُتم الروحيّ والماديّ. ومع ذلك، ومُذ وطئت قدماها أرض بومباي، لم تقوَ عَلَى مقاومة رغبتها في شراء "ساري" تحقّق به أُمنيَّتها في تبنّي الزيّ الهنديّ. ولكن، في ذلك اليوم عينه، سُرِق منها ذلك الساري، فضلاً عن آلة التصوير التي كانت قد اصطحبتها. وبشعورٍ مفعَمٍ إحباطًا، قصدت أُسرةً في نيودلهي كان مرشدها قد زوّدها بعنوانها، علّها تلجأ إليها إذ مَا سُدَّت أَمامها السبُل. وقد استُقبلت فيها بِالترْحَابِ، وكتبت إلى أُسقف "مدراس" مبلغةً إيّاه نبأ وفاة مرشدها ومعيلها، فأهاب بها أن تقدم إلى مدراس، متعهّدًا توفير سكنها وأودها، وحثّها على تعلّم اللهجات والتقاليد المحلّيّة.

واستقرَّت في بيتٍ صغيرٍ كان عليها اقتسامه مع أوروبيّةٍ أُخرى، تحدوها، هي أيضًا دوافع رسوليّةٌ؛ ومنذ اليوم الأوّل استوضحتها زميلتُها تلك عن المؤسَّسة الدينيّة التي تعتزم العمل في إطارها، ودُهشت لسماعها تجيبها: "لن أعمل في إطار أيَّة رسالةٍ كاثوليكيّة، بل سأخدم الهندوسيّين والمسلمين في هذه البلاد، وسأعيش عيشهم". فصدمتها تلك الأقوال الثَّوريّة، وأبت مساكنة من كانت تلك نوازعها، فغادرتها، تاركةً إيّاها وحيدةً.

غير أنّ جاكلين، بفضل احترام الهنود للغرباء، وكرمهم تجاههم، وبفضل عون الآباء اليسوعيّين الذين كانت مدارسُهم ومعاهدُهم تنسج شبكةً عريضةً، تغطّي معظم أرجاء الهند، استطاعت أن تنفق سنتَيْن من التجوال عبر القرى المحيطة بمدينة

مدراس، متلفّعةً بالساري الهنديّ، منتهجةً أَساليب العيش الهنديّة، مدعّمةً جهود المهاتما غاندي في سبيل رفع مستوى القرى، علمًا ونظافةً واكتفاءً ذاتيًّا، مفيدةً الآخرين من خبرتها في مضمار التمريض والمساعدة الاجتماعيّة، ملقّنةً مئات الفتيات الهنديّات المنبوذات مبادئ النظافة الأَساسيّة، ومؤهّلةً مئات الطلاّب في المدارس اليسوعيّة لتوفير العناية لسُكّان الأَكواخ، والقرى الفقيرة. أَمّا مقرّها فكان مستوصفًا مرتَجَلاً في ضواحي مدراس، حيث كانت لا تنفق على أَوَدها أكثر من ربع دولار، يوميًّا، مقتصرةً على طبقٍ من الأَرزّ، وبضعة أَكْوَاب من الشاي، راقدةً على الحضيض، في كوخٍ خشبيٍّ يعجّ بالجرذان والصراصير، مشاركةً أُلوف الفلاّحين حياة البؤس والحرمان، فهم فلاّحون لا أَرض لهم، وعمّالٌ لا عمل لهم، مصدورون ومُبتَلون بالبرَص؛ وهي، الأوروپيَّة البيضاء الوحيدة في تلك المنطقة الشاسعة الأَطراف؛ ورغم أَهوال الحرب التي كانت قد خَبَرتْها في موطنها، وجدت نفسَها حيرى ومُحْبطةً، حيال الفقر المتفشّي في الهند، وفي مواجهة الشقاء المُريع الذي كاد يسحقها. وهي، عندما تستعيد ذكرى تلك الحقبة من حياتها تقول:

"جئتُ الهند، وأَنا مفعمةٌ أَملاً، ومكثتُ فيها ما ينيف عن سنتَيْن، جاهدةً، ما استطعتُ، في إِنشاء مستوصفاتٍ، أَو في مساعدة الفقراء، أَو في مجرّد إِسعاف إِنسانٍ مصاب بالكوليرا يقضي نحبه، وحيدًا، على قارعة الطريق. وكان عليَّ، أَيضًا، أَن أُقدّم أَحاديث عن العمل الاجتماعيّ، وعن الدوافع التي تحدونا، نحن المسيحيّين، إلى الخدمة على هذا النحو. ولم تكن تروق لي تلك الأَحَاديث، حينذاك، لأَنّني لم أكن مُعدَّةً إعدادًا جيّدًا لإلقاء محاضرات باللغة الإِنكليزيّة. لم أكن أَتضوّر جوعًا، ولكنّني كنت أَتّبع نظامًا غذائيًّا هزيلاً. إلاّ أَنّ أَسوأ ما كنتُ أُعانيه هو الشعور بالوحدة. وإِنّني لأَذكر أَنّني، في ليلة عيد الميلاد، رحتُ أَذرع الشوارع، وحيدةً، عالمةً بأَنّ ليس لديّ أَيُّ طعامٍ أَتناوله، معزّيةً نفسي بالتفكير أَنّ يسوع قد قضى عيد ميلاده الأَوَّل عَلَى هذا النحو. قد أبتسم الآن وأَنا أَستعرض ذلك الماضي، ولكنّ الأَمر، آنذاك، كان مُغْرِقًا في القسوة."

ولا ريب أَنّها، بفضل تلك الحياة الشاقّة، قد استحقَّت امتنان الهنود الذين عملت بين ظهرانيهم، واكتسبت محبّتهم، فقد استثار فقرُها الطوعِيّ إِعجابهم، إِذ لم يكن من

العسير عليهم سَبْر البَوْن الشاسع بين عيشها معهم، وما كانت ستصبح عليه حياتها في موطنها، مع كلّ ما تمتلكه من مؤهّلات.

إلاّ أنّ تلك العيشة الوعرة، وموكبها الحافل بالحرّ القائظ، والنظام الغذائيّ المغرق في التقشّف، ووسائل النقل البدائيّة الشائعة، آنذاك، في الهند، قد أسهمت في تدمير صحّة الفتاة البلجيكيّة الهشَّة، وعمَّقت شعورها المضني بالوحدة، فباتت تتطلّع إلى من يشاركها حياتها، ورسالتها، وتطلُّعاتها، ويؤنس وحشتها، ويكون لها ملاذًا، وسندًا أدبيًّا ونفسيًّا. ولمّا كاشفت كاهنًا يسوعيًّا بما يراودها من رغبةٍ، أبلغ إليها ما ترامى إليه من أنّ إحدى راهبات "لوريتو" قد هجرت ديرها، وتلفّعت بالساري الهنديّ، كي تعيش وسط الفقراء وتخدمهم. واستبدّت بها الرغبة في لقاء تلك النفس الشقيقة، وشخصت إلى كلكتّا، حيثُ أَحاطتها رئيسةُ دير "لوريتو" أَنّ الأخت تيريزا كانت قد بارحت الدير لشهرَيْن خليا، وأَنّها تتابع في "پاتنا" دورة تمريضٍ تؤهّلها لرسالتها المقبلة، واستقلّت جاكلين أَوّل قطارٍ إلى "پاتنا"، وفي مركز الرسالة الطبِّيّة، استوضحت عن مكان الأُخت تيريزا، فألقت راهبة الاستقبال نظرةً إلى ساعتها، وأَجابت بثقةٍ: "الساعة هي الآن السابعة عشرة؛ وقد انتهى للتّوّ يومُ العمل، فإذن لا بدّ أنّك ستجدينها في المُصلّى." وجالت في خاطر جاكلين التساؤلات عن معدن تلك الراهبة التي يمكن الآخرين التأكيد أَنّها، إن لم تكن تعمل، فهي تتعبّد، في حين تتنفَّسُ الأخريات الصعداء، وينعمنَ بشيءٍ من الفسحة، في أَعقاب يوم عملٍ شاقٍّ. وجلست، في المصلّى، زهاء ساعةٍ كاملةٍ، خلف تلك المتلفّعة بالساري القطنيّ، الجاثية مستغرقةً في تأمُّلٍ سحيقٍ، غير شاعرةٍ بوجود أَحدٍ، سوى ذاك الذي كانت ساجدةً بين يديه، والتي لا تخرج من تَأَمُّلِهَا، إلاّ لتلتحق بسائر الراهبات، وتشاركهنّ الصلاة الجماعيّة. وعندما تسترجع جاكلين ذكرى ذلك اللقاء الأوّل، تعاتب الأُمّ تيريزا، عابثةً: "في لقائنا الأَوّل، أدرتِ لي ظهرك طويلاً!"

وفي ذلك المساء، إثر تناولهما العشاء، تبادلتا نجاوى مستفيضةً حميمةً، سعيدتَيْن باكتشاف التطابق الوثيق في تطلّعاتهما ومُثُلهما؛ ومع أَنَّ الأُمّ تيريزا لم تكن، آنذاك، أَكثر من راهبةٍ مغمورةٍ، تحمل أَحلامًا متوهّجةً، تحمّست جاكلين لمشروع جمعيّةٍ رهبانيّةٍ تتبنّى أَساليب العيش الهنديّة، وتعيش بين ظهراني أفقر الفقراء، وأَعربت عن

رغبتها في أَن تكون أُولى المنضمّات إِليها؛ ومن جانبها، ارتاحت الأُمّ تيريزا إِلى وجود ممرّضةٍ متمرّسةٍ، خبيرةٍ بحياة الهنود، تساندها.

وطوال الشهر الثالث والأَخير الذي أَمضته الأُمّ تيريزا في "پاتنا"، كانت لهما لقاآتٌ يوميّةٌ، عمّقتا، من خلالها، رؤياهما إِلى حياتهما الجديدة؛ وكانت جاكلين توغل، كلَّ يومٍ، قُدُمًا في إِكبارها لتواضع صديقتها الجديدة، وصلابة تصميمها، وتزداد يقينًا بإِمكان التعويل عليها لتحقيق دعوتها الخاصّة، وتعجب لتراكم الظّروف المتساوقة ذات الإِشارة الواضحة: منها إِنقاذها، أَثناء الحرب في بلجيكا، لأُسرة المطران "پيرييه" الذي كانت الأُمّ تيريزا تخضع لسلطته المباشرة، وقدومها إِلى الهند في نفس السنة التي داهمت فيها الأُمَّ تيريزا دعوتُها إِلى العيش وسط أَفقر المحرومين، ورغبتهما المشتركة المتزامنة في ممارسة حياةٍ مكرَّسةٍ لخدمة الربّ في فقرائه، وتبنّي الزيّ الهنديّ.

ولمّا عادت الأُمّ تيريزا، في نهاية عام ١٩٤٨ إِلى كلكتّا لمباشرة رسالتها، نصحت جاكلين بالإِياب إِلى بلجيكا بغيةَ تقصّي وضعها الصحّيّ، ومعالجة الآلام المبرّحة التي تفاقمت أَثناء إِقامتها في الهند. وقُبيْل سفرها، قطعت الفتاةُ البلجيكيّة لصديقتها عهدًا بالعودة إِلى كلكتّا، حالما تُسعفها قواها على ذلك. وكانت جاكلين ممزَّقةً، تجهد في إِرجاء سفرها، بل كانت نهبًا لهاجسٍ مؤرِّقٍ يُصوِّر لها أَنّ عودتها إِلى موطنها ستكون أَبديّةً، لن تتيح لها، من بعدُ، رؤية تلك الراهبة الأَلبانيّة التي شدّتها إِليها وشائج حميمةٌ، واختزنت ذكرياتٍ عنها لن يعفوها الزمن؛ غير أَنّ الأُمّ تيريزا أَقنعتها بأَنّ عودتها هي امتثالٌ لمشيئة الربّ.

وفي طريق الإِياب استحوذ على جاكلين شعورٌ مرهقٌ بالفشل. صحيحٌ أَنّها قد بذلت من الجهد قسطًا جمًّا، وحقَّقت إِنجازاتٍ خيّرةً جسيمةً، رغم جميع الظروف التي كان من شأنها إِعاقتها، مثل نشوب الحرب، وتبعثر الفريق الذي كانت تعتزم، في إِطاره، النهوض بمشروعٍ طبّيٍّ متكاملٍ في الهند، ووفاة مرشدها الروحيّ المباغتة، في نفس يوم انطلاقها إِلى موقع رسَالتها؛ ولكأَنّ كلّ العناصر قد تكاتفت على الحؤول دون تلبيتها نداء الربّ؛ ثمّ جاء الإِجهاد الذي هدّ صحّتها، وتفاقم الأَلم الذي أَقعدها عن مواصلة نشاطها الرسوليّ، ليشحذا شعورها بالتخاذل عن المضيّ في رسالتها؛

وممّا قطَّر فيضًا من المرارة في كأسها، شعورٌ لا يُطاق بتخلّي الله عنهـا، واكبهـا بضعة أَشهرٍ، رغم صلواتها المتواترة التي كانت تستغرق فيها، ساعاتٍ وسـاعاتٍ، ولا تجني منها أيّ عزاءٍ. ذلك الشعور كان أَقسى ما عانته في حياتها، أَقسى حتّى من آلام العمليّات الجراحيّة التي خضعت لها، والتي أربى عددها على الأَربعين عمليّة.

وراودتها بإلحاحٍ فكرة الانتحار بإلقاء نفسها إِلى اليمّ، من نافذة الباخرة، لو لـم يلجمها إِحساسٌ مُبهَم بأَنّه ما زال لها، في ميدان الخدمة، دورٌ يتعيّن عليها أَداؤه. وفي غمرة ذلك الليل الروحيّ المدلهمّ الذي خُيّل إِليها أَنّه أَقفر من حضور الله، جال فـي خَلَدها، يومًا، أَنّ يسوع كان إِنسانًا حيًّا، وكانت له أُمٌّ هي قادرةٌ على إِدراك ما كانت تعاني، فتوسّلت إِليها أَن تزوّدها، ولو بإِشارةٍ تعني أَنّها لم تكن مخطئةً في عودتهـا للعلاج في مسقط رأسها. وفي تلك الأَثناء، كانت الباخرة قد أَرست فـي مرسـيليا، فقرّرت جاكلين المثول إِلى لورد، عوضًا عن استئناف سفرها إِلى "أَنـڤير".

وجديرٌ بالتنويه أَنّ الباخرة التي كانت تستقلّها، قد غرقت أَثناء رحلتهـا التاليـة، ولقي عددٌ غفيرٌ من ركّابها حتفهم، ممّا زادها يقينًا بأَنّ دورها في الحياة لم ينتهِ، بعدُ، إِلى غاية شوطه.

لم تقصد جاكلين "لورد"، توسُّلاً لشفاء جسدها، بل التماسًا من العذراء لإِشـارةٍ بواسطة أَيّ إِنسانٍ قريبٍ منها. وكانت في حالةٍ من الإِرهاق مريعةٍ، يدلّ عليها لـون وجهها الممتقع حيث امتزج الصفار بالخضار؛ ولحسن طالعها، فيما كانت تجتاز فناء المستشفى البلجيكيّ بلورد، سمعت نداءً مباغتًا يهتف: "جاكلين، ماذا تفعلين هنا، بحقّ السماء!" كانت المنادية إِحدى زميلاتها القديمات في معهد التمريض في "لوڤـان"، وقد هالها ما رأت عليه زميلتها من وَهَنٍ وإِعياءٍ. وإِذ كان المشفى غاصًّا بـالنزلاء، مضت بها إِلى فندقٍ خارج المدينة حيثُ وجدت لها سريرًا في غرفةٍ، كانـت تحتـلّ السريرَ الآخر فيها إِحدى القائمات على الفندق.

وما كادت جاكلين تصيب بضع ساعاتٍ من الراحة، حتى راعتها طَرَقاتٌ مُلحّةٌ على الباب، مستنجدةً بممرّضة للعناية بامرأةٍ حاجّةٍ، انتهت إِلى حالةٍ ميؤوسٍ منهـا، ومُنِيت بعارض جنونٍ عنيفٍ، يقتضي ملازمةَ شخصٍ لها باستمرار. وبـلا شـعورٍ هتفت: "أَنا ممرّضةٌ"، وهبّت للنّجدة، غير حافلةٍ باعتراض من حاولوا ردعها لأَنّهـا

من الوَهَن بحيثُ تحتاج هي نفسها إِلى مُنجدٍ، ولكنّها تذرّعت بالقول إنّ مساعدتها للآخرين قد تؤتيها خيرًا، وتوفّر لها الشفاء.

كانت المريضة المجنونة لا تنفكّ تقذف مقذع الشتائم، شاخصةً بأَبصارها إِلى النافذة، وكأَنّها تتحفّز لإِلقاء نفسها منها، رافضةً أَيّ طعامٍ أَو علاجٍ. ولكنّ جاكلين أَفلحت في إِقناعها بتناول مُنوِّمٍ مذابٍ في قدحٍ من النبيذ، أَسلمها إِلى نومٍ عميقٍ؛ ولبثت جاكلين إِلى جانبها مُسهَّدةً، وبغتةً سَاورتها فكرة أَنّ وجودها في "لورد" يفرض أَن يكون بين يدي مريضتها مسبحةٌ، أَسبلتها بين أَصابعها، وهي نائمةٌ.

وفي الساعة الخامسة صباحًا، أَفاقت المريضة هادئةً، ساكنةً، سليمة العقل والجسد، جائعةً، طالبةً طعامًا. وفيما راحت جاكلين تتساءل هل كانت تلك، حقًّا، هي مريضة البارحة، مضت المريضة تسهب في التماس الصفح عمّا بدر منها، بالأَمس، من أَقوالٍ مقذعةٍ، وعَزَتْ شفاءها إِلى زيارة العذراء لها، في تلك الليلة، محدّدةً المكان من الغرفة حيثُ شاهدتها. ووافى الطبيب، فأَكّد شفاء المرأَة، وشدّ على يد جاكلين مهنّئًا لإِسهامها في ذلك الشفاء العجيب. أَمّا هي فقد علّقت بقولها: "ذلك الحدَث قد هزّني في الصميم؛ وقد عجبتُ لحنان العذراء اللاّمحدود، إِذ استجابت لدعائي الأَحمق. كنتُ قد التمستُ منها إِشارةً، عبرَ شخصٍ قريبٍ منّي، فتدخَّلتْ بنفسها. وارتأيت حينئذٍ أَن أَشخص إِلى بلجيكا، بعد أَن تحرّرت مَن أَسوأ أَزمةٍ أَلمّت بي، قطّ".

بيد أَنّ عودتها إِلى أُسرتها أَثارت، من جديدٍ، شعورها المرهق بالفشل، فذووها كانوا قد ناهضوا سفرها إِلى الهند وعدّوه ضربًا من الحمق، ولمّا آبت مُجهدَةً واهنةً، لم يتورّعوا عن الشماتة بها، ففزعت إِلى الجبال السويسريّة، حيثُ راحت تصعّد، وتصعّد التماسًا للوحدة، ولململة أَشلاء ذاتها المبعثرة؛ وقد مكثت، ثمَّة، بضعة أَيّامٍ، في مأوى للممرّضات، ثمَّ رقدت في العراء عند باب مصلًّى مجاورٍ لمنسكٍ رهبانيٍّ، كان يوافيها بوّابه ببعض كِسَر خبزٍ، وشيءٍ من الفاكهة؛ ويومَ وطَّنت العزم على الرجوع إِلى مسقط رأسها، كانت قد استعادت إِيمانًا قشيبًا، والتقت الله من جديدٍ.

وأَثبتت التحَرِّيَات الطبّيّة أَنّها مصابةٌ بعطبٍ خطيرٍ وغريبٍ في عمودها الفقريّ، الذي كان ينمو فيه ضربٌ من الليف حيثُ كان ينبغي أَن تنمو الغضاريف، وهو

مرضٌ نادرٌ أَطلقت عليه جاكلين اسم "مرض هديّةٍ من السماء"، استلزمت معالجته سلسلةً من العمليّات الجراحيّة أَربت على الأربعين، وقد سُجن جسدها في الجبس سنةً كاملةً. ثمّ أُلزمت، مدى الحياة، بلفّ رقبتها بجهاز تقويمٍ، وحبس جذعها في مشدٍّ حديديٍّ، والاستعانة على السير بالعكاكيز؛ ثُمَّ امتدّ الشلَل تدريجيًّا إِلى ذراعها، فساقها، فعينَيْها، ممّا جعل كلّ حركةٍ تقوم بها جلجلةً مضنيةً.

ومرَّةً أُخرى، خيَّم على نفسها ليلٌ داجٍ، وأَيقنت أَنّ حياتها، وهي في الخامسة والثلاثين، لم تكن ولن تكون سوى سلسلةٍ من الإِخفاق. وقد كتبت، غداة عمليّتها الأولى، إِلى صديقتها الراهبة في كلكتّا، مُقرَّةً بأَسًى: "إِنّ حلمي بالانضمام إِليك، وبالعودة إِلى الهند، قد اضمحلّ."

وتولّت الأُمّ تيريزا مهمة شدّ أَزرها، ونفخ نار الإِيمان والرسالة التي كادت تهمد في نفسها، فطفقت تُطلعها، باطّرادٍ، على أَنباء جمعيّتها الآخذة في النموّ، حاملةً إِليها، يومًا فيومًا، أخبار انضمام أَخواتٍ جديداتٍ إِلى الجمعيّة الوليدة، مشركةً إِيّاها في فرح نموّ الجمعيّة التي حلمت، يومًا، في أَن تكون أُولى المنتميات إِليها. وفي العشرين من تشرين الأَوّل ١٩٥٢، أَنفذت إِليها رسالةً تضجّ بخاطرةٍ عبقريّةٍ، قلبت حياتها رأسًا على عقب، وأَشرعت لها آفاقًا قشيبةً نَيِّرَة. وكانت الرسالة تقول:

"**ابنتي العزيزة جاكلين،**

"**أَرجو أَن تكوني أَفضل حالاً. إِنّك غالبًا ما تخطرين ببالي، فأقرن العمل الذي أُنجزُه بآلامك، وبذلك تظلّين قريبةً منّي. واليوم، أَودّ مصارحتك بأمرٍ أَنا موقنةٌ بأَنّه سيسعدك. كانت قد راودتك رغبةٌ عارمةٌ في أَن تكوني مرسلةً، وإِنّك لكَذلك في قلبك. فلمَ لا تنضمّين، روحيًّا، إِلى جمعيّتنا التي تحبّينها حبًّا جمًّا؟ وعلى هذا النحو، فيما نحن نضطلع بمهامّنا في بيوت الصفيح، سيكون بمكنتك مقاسمتنا ثوابنا، وصلواتنا، بل عملنا أَيضًا، من خلال صلواتك وآلامك. إِنّ المهمَّة جسيمةٌ، والحاجة إِلى عَملَةٍ ملحّةٌ، ولكن، في آنٍ واحدٍ، لا بدّ من نفوسٍ، على غرارك، تصلّي وتقدّم آلامها، في سبيل العمل الرسوليّ.**

"**صلّي، وأَعملي الفكر في هذا الاقتراح، وأَطلعيني على قرارك. إِنّني بحاجةٍ إِلى أَشخاصٍ كثيرين من نمطك، يسهمون، على هذا النحو، بجمعيّتنا. ورغبتي الحارّة**

هي أَن أَستطيع الاعتماد على:

١- جمعيّةٍ مجدّدةٍ في السماء،

٢- جمعيّةٍ أَرضيّةٍ متألّمةٍ تضمّ أَبنائي الروحيِّينَ،

٣- الجمعيّة المناضلة التي تضمّ الأَخوات المكافحات، في ساحة المعركة.

"إِنَّني لواثقةٌ من أَنّك ستسعدين لرؤية الأَخوات يقاتلنَ إِبليس في النفوس، ولا شيء يبدو مفرط القسوة، عندما يتعلّق الأمر بتلك النفوس.

"نحن، الآن، أربعٌ وعشرون أُختًا، فضلاً عن خمس مرشّحاتٍ، وجميعهن يعرفونك، لأَنَّني كثيرًا ما حدّثتُهم عنكِ. وإِذا ما انضَممْتِ إِلينا، أَمسى لك مكانٌ فسيحٌ في صلواتهنّ.

"أَلا ترغبين في أَن تكوني أُختي، وإِحدى مرسلات المحبّة، بحيثُ تمكثين جسديًّا في بلجيكا، فيما تُقيمين، روحيًّا، في الهند، وفي كلّ مكانٍ من العالَم، حيثُ تتحرّق نفوسٌ توقًا إِلى لقاء ربّنا، ولكنّها تعجز عن الوصول إِليه، ما لم يفِ أَحدٌ بديونها؟ وهكذا ستصبحين مرسلةَ محبّةٍ حقَّةً، بسدادك دينها، في حين ستساعد الأَخوات - أَخواتك - تلك النفوس على التقرُّب من الله...

"ابنتي العزيزة،

"لا ريب أَنّ ربّنا يُحبُّك حبًّا جمًّا، إِذ هو يتيح لك أَن تسهمي هذا الإِسهام العظيم في آلامه. طوبى لك، لأَنّه اختارك. كوني طيِّبةً وكريمةً، وافسحي لي مكانًا في قلبك، كي أَستطيع أَن أَقود نفوسًا كثيرةً إِلى الله. إِنّ من ينهج هذا الدرب يتعاظم فيه، يومًا فيومًا، العطش إِلى النفوس".

هل أَدركت الأُمّ تيريزا، يومَها، أَنّها كانت تُرسي أُسُس مشروعٍ فريدٍ في التاريخ، يرمي إِلى خلق أَخويّةٍ تنسج، عبر اليابسة والمحيطات، وشائج جماعةٍ صوفيَّةٍ تجمع بين المتألّمين في أَجسادهم، التوّاقين إِلى عملٍ مفيدٍ، والعاملين الذين يحتاجون، في عملهم، إِلى مساندة صلوات الآخرين؟

لم تتحسَّر الأُمّ تيريزا على مصير صديقتها، ولم تقتصر على التعبير لها عن تعاطفها، وعلى التأكيد لها بأَنّها ستصلّي من أَجلها، كما يفعل معظمنا في تعامله مع أَصدقاء تنتابهم مِحَنٌ طاحنةٌ، بل فعلتْ ما فعله الأَب "پيير" مع أَوّل رفاقه الذي كان

اليأس قد دفعه إِلى محاولة الانتحار، فلم يسعَ إِلى إِلهائه بغوثٍ مؤقّتٍ لا يلبث أَن يعيده إِلى يأسه، بل صارحه بأَنّه لا يملك ما يعطيه إِيّاه، إِلاَّ أَنّه، هو، في حاجةٍ إِلى مساعدته على إِنقاذ أَمثاله البائسين، وبذلك وفّر له مبرِّرًا للحياة، إِذ أكد له أَنّ بمكنته أَن يكون مفيدًا؛ لقد أَنقذه بجعله منقذًا للآخرين. وبنفس منطق الحبّ تعاملت الأُمّ تيريزا مع صديقتها المقعدة "جاكلين دي ديكير"، عندما أكّدت لها أَنّها، هي، في حاجةٍ حارقةٍ إِلى صلواتها، فتلك الصلوات، بل تلك الشراكة الروحيّة الحميمة هي الكفيلة بمنحها القدرة على النهوض بعملٍ يتخطّى قدرات البشر؛ وذلك كان نهجها لبعث إِشراقة الأَمل في صدور أصحاب المصائر المحطَّمة، الذين دأَبت على التأكيد لهم، بجرأتها وقدرتها المدهشة على الإِقناع، مدى جدوى حياتهم، وبرهنت لهم، بحبّها، كم هم جديرون بالحبّ.

ولم يكن ذلك السلوك مجرّد حيلة طبيبٍ نفسيٍّ، بل تعبيرًا عن قناعاتٍ راسخةٍ، عميقة الغور، بأَنّ كلّ عمل حبٍّ يتفاعل وينتشر عبر الحدود، متخطّيًا العلاقات الفرديّة، وأَنّ صلاة كلّ فردٍ ترقى بالإِنسانيّة جمعاء نحو الله؛ بل كان سلوكها نابعًا من إِيمانها الوطيد بسرَّيْن عظيمَيْن من أَسرار المسيحيّة، هما شركة القدّيسين، وقدرة الأَلم الخلاصيَّة المستمدّة من خلاص الصليب.

إِنّها لم تسعَ، قطّ، إِلى الأَلم، بل عدّته خطأً ينبغي تصحيحه، ولذلك بذلت حياتها، وحياة الآلاف من أَخواتها في سبيل محوه، وإِلغائه، أَو، على الأقلّ، تخفيف وطأته عن كاهل المتألّمين. بيد أَنّ واقعيّتها الراسخة أَثبتت لها أَنّ من الآلام ما يستعصي على قدرات البشر الشفائيّة، ومنها ما هو ملازمٌ لحياة بعض البشر ملازمةً لا فكاك منها، وحينئذٍ لا سبيل إلى الانعتاق من آثاره السلبيّة المدمّرة، سوى الرضى به، وعيشه مع الربّ، وهي تقول، في هذا الشأن: "ليس الأَلم من الله، ولكنّه عندما يُعاش مع الله، يكتسب قيمةً إِيجابيّةً". وتقول، في مكانٍ آخر: "**لا قيمة للأَلم في ذاته، ولكنّه عطيّةٌ سنيّةٌ، إِن هو كان مشاركةً مع آلام المسيح. إِنّ أَجمل عطيّةٍ قد يتلقّاها الإِنسان، هي إِمكان إِسهامه في آلام المسيح. إِنّه هبةٌ، وإِشارة حبٍّ**".

وهكذا، في عالمٍ يَتَذَرَّع بالأَلم حجّةً لإِنكار الله، برهنت الأُمّ تيريزا على أَنّ الأَلم يمكن، بل ينبغي أَن يقرّب من الله، وأكّدت أَنّ بين المتألّمين "قدّيسين مجهولين

ومستترين"، فالقداسة ليست قضيّة ذكاءٍ ومواهبَ فائقةً، بل هي نمطٌ من الفهم النابع من القلب، ومن الإيمان الساجي، والبساطة المُطلَقة، ومن ثمّ هي مُشرَعة الأَبواب أَمام جميع الذين حطّمهم الأَلم.

وفي صميم عمل مرسلات المحبّة تكمن قناعةٌ سرِّيَّةٌ بأَنّ جميع من يتأَلّمون تشدّهم إِلى يسوع علاقةٌ خاصَّةٌ. ولئن كان الربّ نفسه قد تمثّل بالمتأَلّمين، فهذا يعني أَنَّ المقرّبين منه بحيث يشاطرونه آلامه قد وُهبوا قدرةً روحيّةً فريدةً. وبالتالي تستطيع الأُمّ تيريزا التأكيد أَنّ للمرض قدرةً كبرى على إِرواء عطش يسوع على الصليب.

في نظر البشر، المرض مُغْفَلٌ، ولكنّه ليس أَبدًا كذلك في نظر الله، بل هو شخصيٌّ، ولا يمكن أَن يكون عديم الجدوى. ولقد أَثبت ذلك أُولئك الذين ارتضوا أَن يحتملوا آلامهم، ويصلّوا من أَجل هدفٍ سامٍ .

وتؤمن الأُمّ تيريزا إِيمانًا راسخًا بالجدوى الخارقة للآلام المحتملة بحبّ واستسلامٍ في إِنجاح عملها الجسيم، بفضل اعتماده اعتمادًا سرّيًّا على إِخلاص بعض النفوس، وسخائها الروحيّ. وما أكثر الذين بلغ بهم الوهن والإِملاق مبلغًا سلبهم حتّى القدرة على الصلاة، ولكنّهم ظلّوا معتصمين بفضائل غالبًا ما يتخلّى عنها الناس بيُسرٍ، ولا سيّما التواضع، والإيمان الوطيد بأَنّهم، وقد أَمسوا عديمي الجدوى، باتوا تحت رحمة الله، خاضعين له خضوعًا تامًّا!

وهي، في إِيمانها بقدرات الأَلم الخلاصيّة، تلتقي بإِيمان غاندي بجدوى احتمال الأَلم طوعًا لإِنقاذ الآخرين، ذلك الإِيمان الذي عبّر عنه بنهج "الساتياغراها".

والذين يتأَلّمون بإِيمانٍ، رغم نقائصهم، غالبًا ما يُفضون إِلى اكتشافٍ مدهشٍ: إِنّهم جزءٌ من جسدٍ عظيمٍ واحدٍ، ليس فقط جسد من مات على الصليب منذ نحو أَلفي عامٍ، بل من لا يزال يموت، يوميًّا، من خلال إِخوته، ومن ينهض، كلّ يومٍ، من الموت. وفي هذا الاكتشاف السرِّيّ، الذي يبدأ بقبول الأَلم، يكمن الشفاء والقيامة، اللذان يتجلّيان في الفرح الجمّ المتفجّر من اللقاء، وجهًا لوجهٍ، مع واقعٍ شاملٍ، دائمٍ.

وكثيرون من المرضى والمتأَلِّمين يبرهنون عن شجاعة تتخطّى كثيرًا مجرَّد الجَلَد، وعن طاقةٍ مذهلةٍ على بثّ السعادة، ولو عبر بسمةٍ تُسكب على كلّ شيءٍ، أَو عبر لمسة يدٍ حارَّةٍ خاطفةٍ.

هذا الأَلم المحتمَل برضًى، والمُتَخطّى، على هذا النحو، يُمثّل للأصحّاء ما مثّلته جراحُ يسوع لتوما: دعوةً إِلى مدّ اليد، وإِلى الجسّ والإِيمان. وهكذا يغدو الأَلم علاجًا لنفوسنا، يعمّق إِنسانيّتنا. ففي اللقاء المباشر بمن يتعرّضون للمحن، ثمّة الكثير ممّا نعطي، والكثير ممّا نأخذ، بمجرّد دنوّنا منهم بتواضعٍ، ووعينا وعيًا عميقًا أَنّنا، نحن أَيضاً، على مثل ما هم عليه من فقرٍ ووهنٍ.

وقد شحذت الأَيّام مفهوم الأَلم لدى الأُمّ تيريزا، وأَكْسَبَتْه عمقًا؛ ثمّ زادها عملها في البلاد الغنيّة يقينًا بأَنّ الفقر الروحيّ، والافتقار إِلى الحبّ، والوحدة، تمثّل مشكلاتٍ أَعسر حلاًّ، بما لا يُقاس، من الحرمان الماديّ، ممّا حداها، باطّرادٍ، إِلى دعوة الغارقين في المادّيّة إِلى وعي فقر البحبوحة وقلقها.

ولقد أَدركت أَنّ عالمنا، بجملته، جلجلةٌ لا حدود لآلامها، فالأَلم يغمر كلّ مكانٍ، ويطال المرضى المزمنين، والذين يقاسون من الإِملاق، الآلام الصغيرة الضئيلة الشأن، والهموم العميقة الغور التي يتعذّر اقتسامها.

ولكنّها مؤمنةٌ إِيمانًا صامدًا بأَنّه طالما ظلّ يسوع يتألّم في عالمنا، فهو ما زال يخلّص، مواصلاً عمله الفدائي، وأَنّ عليها، وعلى أَخواتها، وعلى جميع المتعاونين معهنّ، بما يكابدون من أَلمٍ، الإِسهام في ذلك الفداء، كما يتّضح من قولها: "**لا يمكن فصل التزامنا باتّباع يسوع عن صليب الجلجلة. ففي معزلٍ عمّا نكابده من أَلمٍ، لن يكون عملنا أكثر من نشاطٍ اجتماعيٍّ قد يكون جيّدًا ومفيدًا، ولكنّه لن يكون عمل يسوع المسيح**".

وتشارك الأُمّ تيريزا القدّيس فرنسيس الأَسّيزي إِيمانه بأَنّ الفرح الكامل على الأَرض يكمن في تقبّل الآلام من أَجل المسيح، والتماس الاتّحاد بأَلمه، لكي يكتمل التماثل بين المعلّم والتلميذ.

وهي، من ثمّ، تحثّ المتألّمين على قرن آلامهم بآلام مخلّصهم، مبيّنةً لهم عظمة محنتهم؛ وهي عندما تبادر، مثلاً، في أَحد المشافي، المصابين بسرطاناتٍ خطيرةٍ بقولها: "**إِنّ علّتكم هبةٌ من الله**"، قد تستفزّ ثورة من يحمّلون الله جريرة آلامهم، ولكنّ صدقها الذي تؤيّده كلُّ حياتها يحملهم على إِعمال الفكر، على حدّ ما صرّحت به امرأةٌ مصابةٌ بسرطانٍ عضالٍ، وجّهت لها الأمّ تيريزا هذا القول، فاعترفت: "لو

جاءني هذا القول من أيّ إنسانٍ سواها لأثار استنكاري، ولكنّه عندما ينبعث من فم الأُمّ تيريزا التي أعرف معاناتها للألم في جسدها، وانحناءها منذ أربعين سنةً على آلام الآخرين، فهذه العبارة تخترق قوقعة ثورتي، وتؤثّر بي تأثيرًا يستدرّ دموعي".

أتاحت، إذن، رسالة الأُمّ تيريزا، في خريف عام ١٩٥٢، إلى جاكلين التحقّق من أنّها ليست منبوذةً من الله، بل أنّها ما برحت مُنتَدَبةً لدورٍ خاصٍ يتمثّل في تقديم حياة محنةٍ وألَمٍ، بفَرَحٍ، لمساندة عمل الأُمّ تيريزا؛ ومن غير تردّدٍ، ارتضت شراكةً تُقَدِّم، هي، عبرَها، آلامها وصلواتها لدعم عمل مرسلات المحبّة، في سبيل مساعدة أفقر الفقراء، شراكةً تندرج في عالَم النعمة، لا عهدَ للعالَم المادّيّ بنظيرٍ لها، شراكةُ حيثُ الثّواب لا يتجزّأ ويُقسَّم على الشركاء، بل ينال كلٌّ منهم أَضعافًا منه مضاعفةً. وقد كتبت في هذا السياق: "**الألَم، في ذاته، يمثّل فشلاً، ولا يبني شيئًا، بل إنّه مدمّرٌ. ولكنّه باقترانه بآلام المسيح، يصبح عطيّةً ثمينةً. أَنا لا أَبحث عن تفسيرٍ لأَلمي، ولكنّني قد اكتشفتُ له معنًى**".

وفي مطلع عام ١٩٥٣، بعد أَن تبلَّغت الأُمّ تيريزا موافقة "أُختها المتألّمة" على الاتّحاد بها روحيًّا، أنفذت إليها ثبتًا بأسماء أَخواتها المرسلات والمرشّحات، ملتمسةً منها إيجاد آخرين مصابين بأَمراض لا أَمل في شفائها، ومقعدين، ومشلولين، راغبين في الاتّحاد، روحيًّا، بكلّ واحدةٍ منهنّ، بحيث "**يكون لكلّ مرسَلة أختٌ أَو أَخٌ، أَو ذاتٌ أُخرى تصلّي وتتألَّم من أَجلها، وتفكّر فيها، وتظلّ متّحدةً بها**. "**إنّكِ تعلمين، أختاه الحبيبة، أَنّ عملنا شاقٌّ جدًّا. فإِن كنتم معنا، تصلّون وتتألّمون معنا، ومن أَجل عملنا، فبفضلكم سنُفلح في تحقيق أُمورٍ عظيمةٍ، حبًّا بيسوع**". وتضيف الأُمّ تيريزا قائلةً:

"**إنّني سعيدةٌ لرغبتك في الاتّحاد بأَعضاء مرسلات المحبّة المتألّمة، وإنّك تدركين ما أَعني: أَنت، وجميع المتَّحدين تُسهمون في كلّ صلواتنا، وكلّ مهامّنا، وكلّ ما نحقّقه من أَجل النفوس، بفضل صلواتكم وآلامكم. فأَنتِ تعلمين جيّدًا أَنّ هدفنا هو إِرواء عطش حبّ يسوع للنفوس، الذي عاناه على الصليب، بعملنا في الأَحياء البائسة. وهل بوسع أَحدٍ أَن يفعل ذلك خيرًا منك، وممّن يتألّمون مثلك؟ ستكون آلامكم وصلواتكم بمثابة الكأس التي نريقها، نحن الأَعضاء العاملين، في حياة النفوس التي نلمّ شملها. وإِذن، لكم شأنٌ حقيقيٌّ وخطيرٌ يُحاكي شأننا، في ما**

يتعلّق بتحقيق هدفنا. فإرواؤنا ذلك الظَّمأ يستلزم كأسًا، وأَهلاً بكم لتكونوا هذه الكأس، أَنتِ والآخرين، رجالاً ونساءً، أَطفالاً وشبابًا ومسنّين، فقراء وأغنياء.

"في الواقع، يمكنكِ، وأَنتِ طريحة فراش الأَلَم، أَن تُنجزي أكثر كثيرًا ممّا أَستطيع وأَنا أَسير بخطًى حثيثةٍ. ولكن، أَنتِ وأَنا، متّحدتَيْن، نستطيع فعل كلّ شيءٍ، في مَن هو قوّتنا...

"إِنّني، شخصيًّا، أَشعر بسعادةٍ فائقةٍ، وتغمر نفسي طاقةٌ جديدةٌ، وأَنا أُفكّر بكِ وبالآخرين، المتّحدين روحيًّا بالجمعيّة. فالآن، معكِ أَنتِ والآخرين المتعاونين، على هذا النحو، معنا، لن يتعذّر علينا تحقيق أَيّ شيءٍ من أَجل يسوع. إِنّ حياتكِ تحاكي شمعةً مشعلةً تذوب من أَجل النفوس. وإِنّي لأَعدّ نفسي، بصدقٍ، سعيدةً جدًّا بأَن تكوني ذاتي الأُخرى، وسأُوافيكِ بأَسماء الأُخريات، بحيث تحدّدين اسم واحدةٍ منهنّ لكلٍّ من سيبدي استعدادًا للاتّحاد بنا. إِنّني في حاجةٍ قصوى إِلى المساعدة، ولذلك أَستعين بكِ، وكذلك بأنيبس الصغيرة التي تصارع الموت في "پاتنا"، من جرّاء السلّ الناشب بها، وبنيقولا الصغير المعاق إِعاقةً دائمةً".

أَنيبس ونيقولا، اللذان كانا يقاسيان الآلام في الهند، هما، مع "جاكلين دي ديكير" طليعة المتأَلِّمين الذين عوّلت الأُمّ تيريزا على صلواتهم، وتقدمة آلامهم، لنجاح مشاريعها، حين كانت ما زالت تصارع، وحيدةً، في يمٍّ من البؤس. الفتاة أَنيبس كانت تحتضر من جرّاء سلٍّ مستشرٍ التهم رئتيها، ولكنّها ما كانت تتكلّم إِلاّ عن النفوس، أَمّا الفتى المعاق نيقولا، العاجز عن أَيّة حركةٍ، فكان، أَبدًا، مهدّدًا بالموت جوعًا بسبب فقر ذويه المدقع، غير أَنّ أكثر ما كان يحزنه هو تلكُّؤ الأُمّ تيريزا عن زيارته.

بفضل القوّة المنبعثة من صلوات أُولئك الثَّلاثة وتقادمهم، كانت الأُمّ تيريزا تقوى على الصمود، في تلك الفترة التي تعترف أَنّها كانت أَقسى مراحل حياتها، حين كانت وحيدةً مع حفنةٍ من الأَخوات الهائمات في شوارع كلكتّا، وبين أَكْواخها، وقد باحت لأُولئك الثَّلاثة: **"لا ريب أَنّ الربّ يُغرق في الضّحك، عندما أَندفع في الهجوم، مبديةً له كيف تقدّمون أَنتم الثَّلاثة ذواتكم من أَجل النفوس. بهذه الوسيلة، اكتسبتُ، مؤَخّرًا، قلبه؛ وهكذا تستطيعون تبيّن قدرتكم على الله بصفتكم مرسلي المحبّة".**

لقد كانت ثابتة اليقين أَنّ بركة الربّ على عملها مدينةٌ لشفاعة من يرتضون

تقديم أَجسادهم المحطَّمة، تكفيرًا عن الآخرين، ومن ثمّ ما انفكّت تحثّ جاكلين على نشدان مزيدٍ من المرضى والمعاقين المتأَهّبين لتقديم محَنهم، في سبيل ازدهار جمعيَّة مرسلي المحبّة. وما كادت جاكلين تنهي نقاهتها، في أَعقاب العمليّة الرابعة والثّلاثين التي أُجريت لها، حتّى مضت تبحث عن زملاء مرضى مستعدّين لتقديم صلواتهم وأوجاعهم، من أَجل أُختٍ توأمٍ من مرسلات المحبّة، راضين، بكلّ قلوبهم، الانضواء في سرّ الألم المقدَّم في إِيمانٍ وحبٍّ، من أَجل نجاح عمل شخصٍ يجهلونه، يعيش في بلدٍ ناءٍ. وكانت تلبية تلك الدعوة بمثابة قبول تحدّي الإِيمان، ولكنّها، في نظر الأمّ تيريزا، دعوةٌ رائعةٌ، وصفتها في إحدى رسائلها إِلى المتعاونين المتأَلّمين:

« كم دعوتكم جميلةٌ: أَن تكونوا مرسلي المحبّة! إِنّها إِحدى مقاطعات حبّ الله! إِنّنا نحمل في أَجسادنا ونفوسنا همَّ ظمأٍ إِلهيٍّ لا محدود، وإِنّنا: أَنتم، وأَنا، وجميع الأَخوات العزيزات جدًّا، والمرضى والمتأَلّمين سنروي غليل ذلك العطش المتلظّي، أنتم بأَلمكم الصامت ونحن بجهدنا المضني ».

وإِنّه لمن المؤثّر رؤية أَفواجٍ كثيفةٍ متعاقبةٍ متعاظمةٍ ممّن استجابوا لذلك النداء، وقبلوا تحدّي حبّ الله، "لا بسبب ما يُعطي، بل بسبب ما يأْخذ".

وإِدراكًا منها لخطورة شأن تلك النفوس التوائم، وفعلها الخلاصيّ، شرعت الأمّ تيريزا، منذ عام ١٩٥٣، تعدّ مسوّدة نظامٍ لتلك المؤسَّسة الرديفة لجمعيَّة مرسلات المحبّة، وتبثّ أَعضاءها بعض إِرشاداتها، وممّا جَاء فيها:

« أبنائي الصغار، فلنحبّ يسوع بكلّ قلوبنا، وكلّ نفوسنا، ولنقد إِليه المفتدَيْن بدمه. وأُحرّضكم، على نحوٍ خاصٍّ، أَلاّ تُغفلوا الابتسام. ابتسموا ليسوع وسط آلامكم، فلكي تكونوا مرسلي محبَّةٍ حقيقيّين، ينبغي أن تكونوا ضحايا حبٍّ. آه! ما أَجمل دعوتكم، فأَنتم دعاة الله في الأَحياء الفقيرة، دعاةٌ يعلنون حبّه...

"إِنّنا، كلّ يومٍ، نقدّمكم، أَو بالحريّ نقدّم بعضنا بعضاً للمسيح عن النفوس. إِنّنا، نحن مرسلات المحبّة، مدينات ٌلكم بالكثير، فأنتم تتألّمون ونحن نعمل، ويكمّل بعضنا ببعضٍ ما ينقصنا في المسيح...

"لن ترتبطوا بنذورٍ، ما لم يأذن بذلك، لبعضٍ منكم، مرشدوهم الروحيّون. وسنوافيكم بصلواتٍ أَلِفنا تلاوتها، كي تتلوها أنتم أَيضاً، فيزدهر، بذلك، روح

الأُسرة فيما بيننا، إِذ ينبغي أَن نشترك معًا بروح جمعيّتنا، الذي هو استسلامٌ تامٌّ لله، وثقةٌ مُحِبَّةٌ، وفرحٌ كاملٌ. وبذلك يُعرَف أَنَّكم من "مرسلي المحبّة" ».

لقد رغبت الأُمّ تيريزا في أَن تتوثّق بين كلّ مرسلةٍ من مرسلاتها، وكلّ مرسَلٍ من مرسليها، من جانبٍ، وكلّ مريضٍ أَو معاقٍ من جانبٍ آخر، أَواصر أُخوّةٍ أَوثق وأَعمق من أَواصر أُخوّة اللحم والدم. وقد كانت العلاقة الروحيَّة الحميمة التي نسجت خيوطها بينها وبين من دعتها "ذاتها الأُخرى" خير مثالٍ على ذلك. فقد كانت المشاركة بينهما من العمق بحيثُ كانت جاكلين تستشعر الفترات الخصبة في رسالة الأمّ تيريزا، من خلال تفاقم الآلام التي كانت تنتابها. ومن جهتها، كانت الأمّ تيريزا تكتب لتوأمها معربةً عن شعورها بدنوّ موعد إِجراء عمليّةٍ جراحيّةٍ لها، لأَنّها كانت تحسّ بمشرط الجرّاح في جسدها. وبعد أَن كانت تخاطبها، في رسائلها، بعبارة "ابنتي"، أَخذت تدعوها "أُختي"، ثمّ درجت على تسميتها "عزيزتي جاكلين– تيريزا".

وتحوّلت "جاكلين دي ديكير" التي كان محكومًا عليها بالعجز الدائم، وكانت المرارة تتأكّل نفسها، إِلى امرأةٍ سعيدة، دائبة النشاط؛ لا بل غدا نشاطها مذهلاً، في صراعٍ خرجت منه منتصرةً، بعد أَن أَدّت ثمنًا وافيًا، صراعٍ ضدّ إِعاقتها الجسديّة التي كانت تنزع إِلى حبسها في ذاتها؛ وهي بقوّة إِيمانها، وبدافع حيويّةٍ داخليّةٍ أَوفر جدوى من عكاكيزها ومشدّاتها الحديديّة، لا تني تشخص إِلى هولندا، وفرنسا، وإِيطاليا، واللوكمسمبورغ، وهنغاريا، وسواها من بلدان العالم، باثّةً الروح والحيويّة في جماعة "المتعاونين المرضى والمتألّمين" الغالية على قلب توأمها التي ترى في تلك الجماعة مصدر طاقةٍ يغذّي جمعيّة مرسلات المحبّة. ولقد أَفلحت في حَبْك شبكة مراسلاتٍ مع نحو سبعةٍ وخمسين بلدًا، بُغْيةَ تأمين التوأَمة بين متألّمي العالَم، والمرسلات والمرسلين الذين أَمسوا مبثوثين في كلّ أَرجاء المسكونة.

يوم اضطرّت جاكلين إِلى مبارحة الهند، هصر نفسَها الشعور بالفشل، وهي على أَشدّ ما تكون توقًا إِلى الانضواء تحت راية جمعيّةٍ وُلدت تحت أَنظارها، في انسجامٍ تامٍّ بينها وبين قلب مؤسِّستها وروحها. ولكنّها في غمرة إِحباطها وعجزها، وإِذ بها مُقحمةٌ في مشروعٍ هيّأه الربّ كي تكون فيه أَداةً مُجديةً لتمجيده بين البشر، ولا سيّما بعد أن اعترف الڤاتيكان، رسميًّا، في ٢٦ آذار ١٩٦٩، بالاتّحاد الدوليّ

للمتعاونين المرضى والمتألّمين مع جمعيّة مرسلات المحبّة، وبعد أَن عيّنتها الأمّ تيريزا "الرابطة"، أو المنسّقة الدوليّة لذلك الاتّحاد؛ وهي ما انفكّت تضطلع بهذه المهمّة بدأبٍ ودقّةٍ وبطولةٍ، رغم الآلام المبرّحة الملازمة لها، والتي غالبًا تطرد عنها النوم؛ ومع ذلك لا تجتاز لفظة "الألم" شفتيها أَبدًا.

لقد واكبت "جاكلين دي ديكير" ازدهار جمعيّة مرسلات المحبّة منذ نشأتها، و "ربطت" كلّ مرسَلةٍ ومرسَلِ محبّةٍ بأخٍ أو أختٍ من المعاقين والمتألّمين الذين لا شرط لانتمائهم إِلى الاتّحاد الدوليّ إِلاّ أَن يكونوا من المصابين بمرضٍ عضالٍ لا شفاء منه، أَو بشلَلٍ كاملٍ دائمٍ. وعلى التوأمين أَن يتبادلا الصلوات، وأَن يتراسلا على الأقلّ مرّتين في السنة، مُقيمَيْن بذلك شراكةً روحيّةً كثيفةً، متقاسمَيْن الآلام والنشاطات في خدمة أَفقر الفقراء.

وبما أَنّ المرسلات والمرسلين كثيرو التنقُّل، متغيِّرو العناويين باستمرار تظلّ جاكلين على اتِّصالٍ بهم، واطِّلاعٍ على أَحوالهم وأَماكن إِقامتهم كي تضمن بلوغ رسائلهم إِلى غاياتها. وعندما يتعذّر بين التَوائم التفاهم بسبب تباين اللغات، تؤمّن جاكلين ترجمة المراسلات، مستعينة بفريقٍ من المتطوّعين.

يوم فاتحت الأُمّ تيريزا "ذاتها الأُخرى" جاكلين بمشروع التوأمة، كان عدد أَخواتها أَربعًا وعشرين. وفي عام ١٩٥٤، ومع ما كانت الجمعيّة تمارسه من فقرٍ وصرامة نظامٍ، ارتقى عدد الراهبات إلى ثمانٍ وأَربعين، يوازيهم ثمانيةٌ وأَربعون مُقعدًا ومتألّمًا، يشاركونهم رسالتهم، ويقدّمون صلواتهم وأَوجاعهم، من أَجل "ذاتٍ أُخرى".

وفي ٩ كانون الثاني ١٩٥٦، وجّهت الأُمّ تيريزا رسالةً إِلى جميع المتعاونين المرضى والمتألّمين جاء فيها:

« إِخوتي وأَخواتي الأَعزاء،

"أَخواتي وأَنا نتمنّى لكم سنةً طيّبةً وسعيدةً. فلتكن لنا جميعًا سنة فرحٍ وحبٍّ.

"لا تستاؤوا من جرّاء تقصيرنا في مراسلتكم، فمحبّتنا لكم لا تتضاءل، بل على نقيض ذلك تزداد اضطرامًا، وستدهشون، يومًا، عندما ستكتشفون إِلى أَيّ مدًى نحن قريبون بعضنا من بعض. لقد كان عام ١٩٥٥ وافر الثِّمار، فمدارسنا تضمّ

١١١٤ تلميذًا، ويتابع دروس تعليمنا الدينيّ ١٤١٦ طالبًا، وقد عالجنا ٤٨٣١٣ مريضاً، وأَفاد من رعايتنا ١٥٤٦ محتضرًا. وهكذا تتبيَّنون ثمار آلامكم، وتشاركوننا ثوابنا، في كلّ شيءٍ.

"وليبارككم الربّ »

ومع كرّ السنين ارتقت أَعداد المرسلات والمرسلين إِلى الآلاف، ولكلّ مرسلٍ ومرسلةٍ توأمٌ متألّمٌ يدعمه روحيًّا. فقد أَفلحت جاكلين، بدعمٍ من الأُمّ تيريزا، في ضَفْرِ سلسلةٍ من المتعاونين المرضى تضمّ أكثر من خمسة آلاف شخصٍ في ٥٧ بلدًا، وهذا الرقم لا يتضمّن الذين رقدوا واستُعيض عنهم بآخَرين. وقد يتّفق أَن يراسل اثنان منهم راهبةً واحدةً، أَو أَخًا واحدًا؛ سلسلةٍ قد تكون صغيرةً، ولكنّها رائعةٌ، جزيلة الجدوى، تلفّ الكون، وتُحيق حلقات حبّها بالعالم، إِحاطةَ حبّات مسبحةٍ باليد، وتهمي عليه شلاّلَ نِعَم. سلسلةٍ وُلدتْ من إِيمان الأُمّ تيريزا، ومن خاطرةٍ عبقريّةٍ جالت بخَلَدها، كي تسبغ على الأَلَم البريء مغزًى ساميًا، وتستمدّ من مشاركتها آلام المصلوب ثمارًا خلاصيّة وافرة الجنى.

وتضمّ رابطة المرضى والمتألّمين أَفرادًا من كلّ عمرٍ وطبقةٍ، ينتمون إِلى شتّى البلدان والمذاهب، وكلٌّ منهم مرتبطٌ ارتباط أُخُوَّةٍ روحيّةٍ صوفيّةٍ، فاعلةٍ، بمرسلٍ أَو مرسلةٍ من إِخوة وأَخوات الأُمّ تيريزا العاملين في مشافي البرص، والمستوصفات، والمياتم، والمدارس، وبيوت المحتضرين في شتّى بقاع المسكونة.

ومن منزلها المتواضع في ضواحي "أَنـﭭير"، تدير "جاكلين دي ديكير" هذه الشركة الروحيّة العالميّة، متلقّيةً، كلّ صباح، أكوامًا من الرسائل التي تحمل طوابع بريديّة من مختلف بلدان العالَم.

وقد عبّرت الأمّ تيريزا عن غنى تلك الشراكة بقولها:

« كم يتعيّن علينا أَن نكون شاكرين: أَنتم بسبب آلامكم، ونحن بسبب عملنا. إِنّنا نكمل، بعضنا ببعضٍ، ما ينقص المسيح. كم دعوتنا جميلةٌ، نحن حاملي حبّ المسيح إِلى الأَكواخ. إِنّ حياتكم المقدّمة هي الكأس، أو بالحريّ نذورنا هي الكأس، وآلامكم وأَعمالنا هي الخمر والقربان المقدّسان. معًا نرفع نفس الكأس، وبذلك، مع الملائكة الذين يعبدون يسوع، نروي ظمأه المتلظّي إِلى النفوس.

"أَبنائي الأَعزّاء، فلنحبَّ الله بكلّ قلبنا، وكلّ نفسنا، ولنأتِـه بنفـوسٍ غفيـرةٍ، ولترافقنا البسمة: ابتسموا ليسوع، وسط آلامكم. فلكـي نكـون، حقًّـا، مرسـلي ومرسلات المحبّة، علينا أَن نكون ضحايا مُفْعَمةً فرحًا.

"لا تترتّب عليكم أَيّة مهمّةٍ خاصّة، سوى السماح ليسوع بأَن يحيا حياته فيكم، بقبولكم كلّ ما يهبكم، وبتقديمكم كلّ ما يسلبكم، تقدمةً مقرونةً بالبسمة ».

ومن جهتها، أَوجزت "جاكلين دي ديكير" خُلاصة تجربتها في هـذا المـضمار بقولها:

« عندما كاشفتني الأُمّ تيريزا بمشروع رابطة العاجزين والمتألّمين، أَدركت كم هو ضروريٌّ لملكوت الله أَن يقوم اتّحادٌ بين مَن يتألَّمون، ومَن يستطيعون ممارسة حياةٍ نشيطة.

"لم أَتخيّل، قطّ، أَنّ جماعةً من المرضى قد تقوى على مساعدة أَيٍّ كان؛ ولكـنّ الربّ، من أَجل تحقيق ملكوته، استخدم فَشَلي، وفَشَل أَشخاصٍ آخَـرين. وإِنّ ذلـك لرائع. إِنّ كلّ ما أَفعله الآن، وكيفيّة اتّصالي بالغفير من الأَشخاص المدهشين، مـدينٌ لأُسلوب الربّ في استخدام الأَشلاء البائسة التي كنتُها. عندما نتأَلَّم، نفقد، إِلى حدٍّ ما، هويَّتنا، وبذلك يستطيع الربّ استخدامنا استخدامًا أَفضل، وبالطريقة التـي يؤثرهـا، وعلى حدّ قول الأُمّ تيريزا، نصبح كأسًا، يستطيع أَن يسكب فيها ما يرغب ».

وتدليلاً على رفعة شأن تلك الشراكة حرصت الأُمّ تيريزا على أَن تكون "ذاتهـا الأُخرى"، جاكلين، إِلى جانبها، ساعة تسلّمها جائزة نوبل للـسّلام فـي أُسـلو عـام ١٩٧٩، اعترافًا منها بفضل رابطة المتألّمين على إِنجازاتها العظيمة.

هذا، وما انفكّت العلاقة بين الأُمّ تيريزا و"ذاتها الأُخرى" حميمةً مطّـردةً، كمـا يتّضح من رسائل الأُمّ. ففي العاشر من آذار ١٩٦١، كتبت لها من مدينـة "أكـرا"، تقول:

« عزيزتي جاكلين- تيريزا،

"لاريب أَنّكِ تتساءلين عمّا حدث لي. آه! ليس لديَّ من تفسيرٍ سوى اهتمـامي بأَخواتي الذي يستغرق أَدنى دقيقةٍ من وقتي. لقد غدا عددنا ١٢٧، وافتتحنا مراكز

جديدةً في دلهي، ورانشي، وأكرا، وجهانسي، وغرين ليك، وكلكتّا؛ والشهر القادم، سيكون لنا فرعٌ آخر في سيملا.

"وافيني بجميع أَخبارك. نحن لدينا عملٌ جسيمٌ في أكرا، وتُلاقي أَخواتنا، في دلهي، نجاحًا كبيرًا. لدينا مبتدئاتٌ بريطانيّاتٌ، وأَلمانيّاتٌ، وأَميركيّاتٌ، ومالطيّــاتٌ. متــى سيكون لدينا مبتدئاتٌ بلجيكيّاتٌ؟ ينبغي أَن تساعديني في هذا الشأن...".

وفي ٢٦ كانون الأَوّل ١٩٧٢ كتبت لها:

« عزيزتي جاكلين- تيريزا،

"أَفكاري وصلواتي هي غالبًا معك. رغم ما تعانينه من آلام في جسدك المعــاق بأكمله، تحاولين أَن تسدي لوالدتك خدماتٍ كثيرًا ما يُعرِض، اليوم، عن أَدائها أُولئك الذين يتمتّعون بصحّةٍ تامّةٍ. إِنّ حياتك القائمة على التضحية هي قوّتي، وما والدتك سوى المسيح، في هيئته المفجعة، ورعايتك لها تُحاكي ما أَقوم أَنا به في "نيرمــال هرايدي"، حيث يتطلعّ قومنا بتوقٍ إِلى الحبّ والحنان. كم أَتمنّى أَن أَحلّ محلّك فــي رعاية أُمّك، عندما، أَنتِ، تتعرَّضين للعمليّات الجراحيّة.

"في ما يتعلّق بالرسائل، الناس يلتهموننا التهامهم للخبز، بحيث تتعذّر علينــا الكتابة، ولا سيّما إِني آوي إِلى الفراش في الساعة الثَّانية صباحًا، وأَســتيقظ فــي الرابعة وأَربعين دقيقة. ولستُ أُريد أَن تتعرَّض أَيّة أُختٍ لمثل هذا الإِرهاق. ذلك هو سبب انحجاب رسائلنا ».

وفي رسالةٍ مؤرَّخةٍ في ٢٦ تموّز ١٩٧٢ تشير الأُمّ تيريزا إِلى تواتر أَسفارها فتقول:

« رسالتك وافتني بفرحٍ عظيمٍ، وأَمدّتني بالقوّة، وبفضلك أَستطيع أَن أَقضي كلَّ ليلةٍ ثماني ساعاتٍ في القطار، وأَن أَعمل أَثناء النهار ».

وتباطأت وتيرة الرسائل بعد أَن رُكّب جهاز هاتفٍ في مركز مرسلات المحبّــة الرئيسيّ، وحلّ التهاتف محلّ المراسلة إِلى حدٍّ بعيدٍ. ومع ذلك، ورغم نوبات المرض المتواترة التي أَخذت تداهم الأُمّ تيريزا في السنوات الأَخيرة، إِلاّ أَنّها اســتمرّت فــي مراسلة "ذاتها الأُخرى"، بين فينةٍ وفينةٍ، وفي إِحدى هذه الرسائل، المؤرّخة فــي ١٣ آذار ١٩٩٠ يتجلّى شيءٌ من مرحها، حيثُ تقول:

« إِنّني حزينةٌ لسماعي بأَنّ الضجيج في أُذنك مستمرٌّ، ويطرد عنك النوم طوال الليل، ولا ينجح أَيٌّ مهدّئٍ في تخفيف آلامك. على هذا النحو يعامل الربّ أَصدقاءه. ويؤسفني، أَيضاً، أَنّ الجراحة التي أُجريت لأَسنانك وفكّك لم تنجح، بحيث أُلجئت إِلى جراحةٍ ثانيةٍ. سيكافئك الربّ مئة ضعفٍ عن آلامك، وعن عملك من أَجل أَلبانيا، ولينينغراد، ورومانيا. وسأَلتمس منه أَن يكفّ عن إِمطار عطاياه عليك، بهذه الوتيرة المتسارعة، فأنت بحاجةٍ إِلى هدنةٍ ».

وعلى نحو ما هي العلاقة بين الأمّ تيريزا و"جاكلين دي ديكير"، كذلك هي بين كلّ مريضٍ أَو معاقٍ، وتوأمه من المرسلات والمرسلين؛ فالمرضى والمقعدون لا يتطلّعون، من خلال تلك التوأمة، تطلُّعًا يائسًا إِلى الشفاء، بل يستخدمون آلامهم استخدامًا إِيجابيًّا يُخفّف وطأة معاناتهم، ويتيح، في أَغلب الأَحيان، لأَلَمٍ جسديٍّ كثيفٍ أَن يتآلف مع سلامٍ سحيقٍ، وسكينةٍ داخليّةٍ، وروحٍ من المرح، ويهيمن عليهم شعورٌ رائعٌ بأَنّهم قد أَصبحوا مصدر طاقةٍ لمن وقفوا حياتهم على تخفيف آلام الآخرين، وشركاء في آلام المسيح الفدائيّة. ذلك الشعور المنعش عبّرت عنه امرأةٌ مصابةٌ بشلَلٍ نصفيٍّ قالت: "الآن وقد أَصبحت على ما أَنا عليه، أَتصوّر أَنّ إِحدى مرسلات المحبّة الشابّات في الهند تستطيع استخدام ساقَيْها للجري بسرعةٍ مضاعفةٍ، بعد أَن أَمسيتُ، أَنا، عاجزةً عن ذلك".

وعلى منضدة "جاكلين دي ديكير" تتكدّس، كلّ يومٍ، أكوام الرسائل، يقطر الكثير منها أَلمًا وحبًّا وتضحيةً؛ كما يتجلّى من هذه الرسالة من فتاةٍ أَميركيّةٍ:

« إِنّني في الثلاثين، وأُعاني تصلُّباتٍ متعدّدةً، مذ كنتُ في الثانية والعشرين، وكثيرًا ما اختلفتُ إِلى المستشفى. ويؤكّد طبيب الأَعصاب الذي يعالجني أَنّه لن يمرَّ وقتٌ طويلٌ قبل أَن يُحكم عليّ بالمكوث في كرسيٍّ متحرّكٍ، أَو بأَن أُصبح مُقْعَدةً. ولكن من الواضح أَنّ طبيبي يجهل أَنّ الشافي الأَكبر هو الربّ، وليس هو.

"طيلة الفترة التي قضيتُها في الفراش، كرّستُ ساعاتٍ لا تُحصى لكتابة رسائل تشجيعٍ، وللصّلاة من أَجل الآخرين. ولقد علّمتني السنواتُ الثّماني الأَخيرة أَنّ النعمة الإِلهيّة تكفي، وأَنّ الربّ يُعدّني لغايةٍ ساميةٍ، في حين ينبذني في العالم.

"وإنّني أَجد نفسي محمولةً على الصلاة من أَجل جميع القادرين جسديًّا على النهوض بالعمل الذي أَعجز أَنا عنه، ولقد شرعتُ أُصلِّي من أجل الأمّ تيريزا ».

وكتبت أُخرى: "**إِنّني متعبة جدًّا. وليت تَعَبي يُوفِّر للأمّ تيريزا الراحة**".

ومن خلال فيض الرسائل المتدفّقة، بلا انقطاعٍ، على "جاكلين دي ديكير" يتّضح أَنّ ما أَحدثته الأمّ تيريزا من تحويل مرضى منكودي الطالع ويائسين إِلى مُنقِذين للآخرين يُحاكي ما حقّقه يسوع في قانا عندما حوّل الماء إِلى خمرةٍ فاخرةٍ. وفي الشهادات التالية براهين ساطعةٌ على تلك التحوُّلات المدهشة:

طالبةٌ جامعيَّةٌ، كانت تتأَهَّب لنيل شهادةٍ في التمريض، أُصيبت، وهي في الحادية والعشرين من عمرها بشلَلٍ عامٍّ أَقعدها، وعانت، في حياتها الخاصّة، مآسي مدمّرةً؛ ثمّ قيِّض لها أَن تُصبح متعاونةً، وتوأَم إِحدى مُرسلات المحبّة، كتبت إِلى جاكلين:

« وسط ضحالتنا المأساويّة، تهيب بنا الأمّ تيريزا أَن نحوّل آلامنا إِلى فرحٍ، فَرَحٍ عميقِ الغور. أَيّة نعمةٍ، وأَيّة ثروةٍ في إِرواء ظمأ يسوع إِلى النفوس! بهذه الوسيلة يستخدمنا الربّ في حقله. إِنّه لمن الضرورة بمكانٍ أَن أكون مرتبطةً بإِحدى مرسلات المحبَّة، وإِلاّ فأيُّ معنًى أَستطيع إِسباغه على مرضي! إِنّ الربّ وحده قادرٌ على تحويل آلامنا إِلى تقادم.

"إِنّ دربي لَوعْرٌ، ولكنّه مُزدانٌ بالزهور، تلك الزهور الوضيعة الصغيرة، التي لا يلحظها من يجري سريعًا. عندما يغدو السفَر شاقًّا، فليُمسك بعضنا بيد البعض. الصداقة هي اقتسام أَشياء كثيرة، وما يسديه لي الأَطبّاء والممرّضات والكهنة من رعايةٍ رقيقةٍ متيقّظةٍ يخفّف معاناتي. وبذلك يكافئنا الربّ مئات الأَضعاف عمّا يسلبنا ».

وكتب رجلٌ برازيليٌّ مصابٌ بشلَلٍ نصفيٍّ:

« أُحاول أَن أُضفي أكثر ما يمكن من القيمة على أَلمي، وأَنا واثقٌ أَنّها تمثّل كنزًا أَجهد في استخدامه كي أَبني، للأَبديَّة، سُلَّمًا يستطيع إِخوتي أَن يتسلّقوا عليه مثلما أَفعل أَنا، وجميع الذين تحدوهم الرغبة في الوصول إِلى الله.

"لا شيء كفيلٌ بتعزيتي أكثر من معرفتي كم يكشف لي أَلمي من أَسرار الله، ويجدّدني، ويقودني إِليه تعالى. إنّ الألم يعادل في سِماته الإِلهيّة روعة الكون، وبراءة الطفل، ورُواء الفنّ، وشكل الزهور، ووميض البرق، وهزيم الرعد.

"إِنّ الله أَبٌ محبٌّ، مُفعَمٌ رأفةً، يرغب في منحنا، للأَبد، ملكوت مجدٍ، متحرِّرًا من جميع الدموع، وصنوف الحرمان، والمعاناة، وحيث سيكون الانتصار على الموت كاملاً...

"تقول لنا القدّيسة تيريزا الطفل يسوع إنّ الصليب يصبح ثقيلاً عندما نجرّه جرًّا، وخفيفًا عندما نعانقه.

"وإذن، إِخوتي المتألّمين، علامَ تهوون إِلى القنوط والإِحباط، في حين يسعكم، بيُسرٍ، أَن تمسوا وسطاء بين قريبكم والآب؟

"فلننسج شبكة حبٍّ، بتحويل أَلمنا إِلى معين ماءٍ حيٍّ يستطيع أَن يرتوي به العطاش إِلى البرّ والإِيمان ».

وكتبت امرأَةٌ في الستّين من العمر مصابةٌ بمرضٍ وراثيٍّ أَقعدها نهائيًا، وهي في الثلاثين، بعد أَن أَفعمت سنواتِ شبابها مرارةُ حرمانها ممّا يتمتّع به أَترابها من رشاقةٍ، وحيويّةٍ:

« ... إِنّ المسيحيّة من الغنى بحيث تضفي على الحياة فيضاً من الإِثارة. وأَعتقد أَنّني اكتشفت المكانة الحقيقيّة للأَلم في حياتي المسيحيَّة، يوم رضيتُ بعاقتي؛ ولكن في أَعقاب مسيرةٍ طويلةٍ وشاقّةٍ، أَظنّ أَنّها ستتمادى.

"قد يكون الأَلم شرًّا، بل شرًّا شاقًّا لم يبتغه الربّ، ولكنّ يسوع جعل منه وسيلة تقديسٍ. إِلاّ أَنّه يظلّ سرًّا. فالأَلم ليس هزيمةً، ولا هو تشويهٌ، بل هو انتصارٌ. فبعد أَن ارتضيته، قد ساعدني على اكتشاف سنى معنى الحياة. فالحياة للكثيرين ليست سوى وسيلةٍ ازدهارٍ طبيعيٍّ وفائق الطبيعة. فكم من مرضى أَيقنوا أَنّ وجودهم قد اكتسب بهاءً، لأَنَّ الأَلم جعله خصبًا. هذا الأَلم تنتفي عنه صفةُ الشرّ، لأَنّ الشرّ هو ما يحول دون بلوغنا غايتنا التي هي السماء. وفي السماء، وحدها، سنُدرك قيمة الأَلم الحقّة. إِنّ أَلم هذه الدنيا عابرٌ، وينقلب مجدًا أَبديًّا. إِنّه هبةٌ من سموّ الثّمن

بحيثُ لا يسوغ أَن نستبدله بكلّ ذهب الدنيا. إِنّه وسيلة تكفيرٍ، ومئة سنة تكفيرٍ على الأَرض خيرٌ من ساعةٍ في المطهر.

"أَجل، إِنّه، لي، هبةٌ ثمينةٌ. فوضعي يفسح لي الوقت لكي أَعيش، وأَقرأ، وأُصلّي، وأَتأمّل، وأَبحث عن الله، والبحث عنه يعني البحث عن السعادة والعثور عليها واكتشاف الفرح وبثّه من خلال وهني.

"إِنّ عالمنا حافلٌ بفَيْضٍ من الأَزمات. أَوَليس مردّ ذلك فقداننا معنى المقدّسات، ومعنى الصليب؟ »

أَمّا "سيلاّ" السويسريّة، فكانت قد مُنيت بمرضٍ عضالٍ مذ كانت في الثّانية عشرة، وكان والدها ينصحها: "ابتسمي ليسوع فتصبح أَوجاعك أَيسر احتمالاً". ولكن سرعان ما لقي ذلك الوالد حتفَه، فأُضيفت إِلى آلامها الجسديّة، التي راحت تتفاقم مع الأَيّام، مرارةُ الوحدة وضيق ذات اليد؛ وبعد سنواتٍ طويلةٍ من المعاناة كتبت:

« كثيرون هم الذين ينشدون السعادة في المتعة، والبحبوحة، والسلطة، والصيت، فلا يستطيعون إِدراك أَنّ بوسع امرىءٍ عاجزٍ أَو معاقٍ إِعاقةً خطيرةً، أَن يخبرَ تجربة فرحٍ داخليٍّ كثيفٍ، رغم آلامه. قد يبدو لهم ذلك مفارقةً، ومع ذلك، ومع ما عهدتهُ من محَنٍ، ومرضٍ متماد، وثورةٍ روحيّةٍ، أَظنّ أَنّ لديّ الآن فهمًا أكبر للسّعادة الحقّة. فقد تسنّت لي فسحةٌ مستفيضةٌ من الوقت لإِعمال الفكر، ولاكتشاف جمال الخليقة، والطبيعة، والإِيمان، وقريبي. لقد بحثتُ عن يسوع المسيح، وعثرتُ عليه في كلّ مكانٍ، حتّى وسط المحن، والفقر، واليأس، وقد ضاعف هذا الاكتشافُ فرحي.

"إِنّ فهم المريض للأَشياء يختلف اختلافًا كبيرًا عن فهم الإِنسان المعافى له. فهو يجد نفسه صغيرًا، وعاجزًا، وتائهًا أَحيانًا، ويستطيع أَن يحلم، ويتأمّل، ويشاهد الله في أَعمال حبّه، في عظمة الكون، في النباتات والزهور، في الحيوانات، وفي الإِنسان. إِنّ كلّ واقعٍ من وقائع الخليقة هو عمل حبٍّ، وأَيُّ فرحٍ في أَن يكون المرء قادرًا على رؤية ثمار انفجار الحبّ الجبّار، وفي أَن يشعر أَنّنا نحصّ الله ».

لقد آمنت الأُمّ تيريزا، إِيمانًا عميق الجذور، بجدوى "شركة القدّيسين"، التي

تتخطّى جميع الحدود، وتربط، بسلسلةٍ روحيّةٍ، الأَرض بالسماء، موحّدةً جميع البشر الحسني النيّة، الراغبين في إِخضاع إِرادتهم لإِرادة الخالق، متيحةً للبعض أَن يُفيدوا من استحقاقات الآخرين، على طريقة الأَواني المستطرقة. وهذه الاستحقاقات تنجم عن الصلاة، وتقديم الآلام، والتضحيات، وأَعمال المحبّة.

وتعزو الأمّ تيريزا كلّ إِنجازاتها إِلى الله الذي يستخدم الأَخوات عاملاتٍ في الصفوف الأَماميّة، مباركًا عملهنّ، مُسبغًا عليهنّ مزيدًا من المنعة والثَّبات، بفضل صلوات المرضى المتألّمين، وتقادمهم وتضحياتهم. وغالبًا ما يستفسر الأمَّ قومٌ أَقعدهم المرض والعجز عن الخدمة عمّا من شأنه إِضفاء مغزًى وفائدةٍ على حياتهم، فتبوح لهم بقناعتها الراسخة في قيمة آلامهم الفدائيّة موضحة:

« أَنتم المتّحدين، سحابة النهار، بآلام المسيح، أَنتم، في الواقع، من يحقّق أَعظم الإِنجازات. إِنّكم تصلّون من أَجل عملنا، وتهبوننا الجرأة على مواصلة العمل ».

ذات يوم، جثت الأُمّ تيريزا أَمام عجوزٍ في الثَّمانين، مقعدةٍ منذ ثلاثين سنةً، ومنضويةً تحت لواء المتعاونين المرضى والمتأَلّمين، وقد انقلب فراش مرضها هيكلاً مقدّسًا يفيض بركةً ونعمةً. وأَمسكت الراهبة بيد العجوز، وكلتاهما في قمّة التأثّر، واعترفت العجوز أَنّها تصلّي كثيرًا للأمّ تيريزا وأَخواتها، ولكنّها تأسف لعجزها عن فعل أكثر من ذلك. فأَجابتها الأمّ بسكينةٍ متأثّرةٍ:

« إِنّكِ تحقّقين القسم الأَخطر شأنًا. فلو لم تكوني هنا، ولو لم يكن ما نضطلع به، نحن، مرسلات المحبّة، يتمّ عبركِ، لما كان له شأنٌ. ما تفعلينه أَعجز أَنا عنه، وما أَفعله لا تقوين أَنتِ عليه، ولكنّنا معًا، أَنتِ وأَنا، نستطيع أَن نفعل الكثير من أَجل يسوع، في صورته المتألّمة، المتمثّلة في أَفقر الفقراء ».

وتروي الكاتبة الأَميركية "إِيلين إِيجان"، التي شدّتها إِلى الأمّ تيريزا علاقاتٌ وثيقةٌ، أَنّ الأُمّ تحدَّثت، يومًا، في كنيسةٍ بمدينة "مينيابوليس"، عن رسالة الأَلم الفدائيّة، وإِثْرَ الحديث طُرحتْ عليها أَسئلةٌ، جاء أَحدها من امرأةٍ مثبتةٍ بكرسيٍّ متحرّكٍ، مصابةٍ بشللٍ دماغيٍّ كان يؤرجح جسدها باستمرارٍ من الأَمام إِلى الوراء، في رجفةٍ متّصلةٍ لا تقوى على لجمها، ويجعل كلامها لعثمةً مبهمةً، سألت الأُمّ تيريزا بصوتٍ

متهدّج: – "ما يَسَعُ أَشخاصاً مثلي أَن يفعلوا؟" فأجابتها الأُمّ تيريِزَا بلا تردّد: "بوسعكم تحقيق القسط الأَكبر من العمل. فأنتم، من يعيشون مع يسوع، على الصليب، كلّ يومٍ، إِنّكم تصلّون من أَجل عملنا، وتهبوننا القوّة على إِنجازه". وإِثر انفضاض الجمع، أَصرّت العجوز المعاقة على التحدُّث بإسهاب مع الأُمّ تيريزا، مع ما كان يقتضيها الحديث من مشقّةٍ وعنتٍ. واعترفت الأُمّ، عقب اللقاء: "لا أَظنّني شاهدتُ، يومًا، وجهًا يتأَلّم بمثل هذا الفرح. وقد أَصبحت تلك العجوز العاجزة نورًا لجماعة المتعاونين المتألّمين في مدينتها. وقد صرّحت: "لن نستطيع، أَبدًا، الظَّفر بسعادةٍ كاملةٍ على الأَرض، فلا مكان للسَّعادة إِلاّ في السماء، ولن نعثر عليها إِن نحن هوينا إِلى القنوط. إِنّنا محظيّون لاقتسامنا صليب المسيح". وقد وضعت بنفسها هذه الصلاة التي أَهابت بالمتعاونين المتألّمين أَن يتلوها يوميًّا: "هبْنا، إِلهنا الحبيب، نعمة العيش، اليوم، وفقًا لمشيئتك؛ هبْنا أَن نبتسم، حتّى عندما تبدو أَحمالنا باهظةً، وقلوبنا محطَّمةً. أَعطنا أن نتشبّث بالمحبَّة والتواضع في غمرة المهانات والمصاعب. وفوق كلّ شيءٍ، أَيّها الربّ الرحيم، دعْنا نتأَلَّم بلا ندمٍ، إِذ إِنّ مصيرنا الأَبديّ يكمن في مشيئتك، وفي رضانا بتلك المشيئة المقدّسة. ولله الحمد".

وتتراكم الشهادات المؤثّرة، في هذا السياق. فهذا مُقعدٌ يُقرّ:

« صحيحٌ أَنَّ معاناتي سحيقةٌ، ولكن لا شيء من هذا الكنز يُهْدَر، فعندما تنهار قواي، أُقدّم، ببساطةٍ، كلّ ذلك من أَجل أُختي الصغيرة، مرسلة المحبّة. وعندما يؤلمني ظهري، ويبدو كتفاي وكأنّهما قد التحما بِرُكْبَتِي، ويمنعني ذلك التصلّب المؤلم من أَدنى حركةٍ، ويطرد عنّي النوم، أُسافر بالخاطر إِلى الهند، برفقة الأُخت الصغيرة، أَو إِلى مجاهل أفريقيا برفقة أَخي الإِكليريكيّ الشابّ؛ ثمّ أَنحبس في صمت ديرٍ في مدغشقر، لكي أكرُم الربّ في معرض القربان المقدّس الذي قدّمته. ويقودني نَصَب هذا السفر الطويل إِلى النوم، فتطيب لي إِصابة قسطٍ من الراحة، إِثر ليلةٍ من "النشاط الرسوليّ" ».

وصرّح مُقْعدٌ آخر: "أَلا تحقِّق مرسلات المحبّة المعجزات؟ فآلامي وأَوجاعي لا تسكن إِلاّ عندما أُجيل خاطري في ما تفعله تلك الراهبات الطيِّبات".

إنّ اكتشاف معنى الألم المقتسَم مع يسوع، والمقدَّم من أجل مرسلاته، يوفّر حافزًا ومعينَ فرحٍ لأولئك المتعاونين المرضى، ممّا حدا بأحدهم إلى الاعتراف: "**إحدى المفاجآت التي ننعم بها، بصفتنا متعاونين، هي أنّنا نتلقّى أكثر ممّا نعطي**".

هذا الاكتشاف عينه هو ما عبّرت عنه فتاةٌ يوغوسلافيّةٌ تدعى "ماريّا"، كانت قد هوت إلى اليأس والقلق، وباتت حياتها لا تُطاق، من جرّاء المرض الذي حطّمها، بحيثُ كانت، في أحلك ساعات انحطاطها، تنتهي إلى شفا الانتحار، إلى أن قُيّض لها مَنْ أبرز لها صورةً مختلفةً لآلامها، وأماط اللثام عن مغزاها العميق، وعن إمكان التزامها بتضامنٍ روحيٍّ مع مرسلات المحبّة. وفي غضون أيّامٍ، تحوّلت نفسيَّة الفتاة، وفي آنٍ واحدٍ تفاقم مرضها تفاقمًا متسارعًا، ما لبث أن أودى بحياتها. وقد صرّحت بضعة أسابيع قبل رحيلها:

« لقد بتُّ الآن أعدُّ مرضي هبةً إلهيّةً. إنّني أتألّم بحبٍّ، سعيدةً لقدرتي على عمل شيءٍ إكرامًا له تعالى. إنّي أُحبّ الحياة، لأنّي أرى كلّ شيءٍ بعيني الإيمان، وأُحسّ أنّني رسولٌ جديدٌ، بصفتي متعاونةً مريضةً متألّمةً. وإنّني أودّ أن أفعل كلّ ما أستطيع من أجل يسوع، ومن أجل مرسلات المحبّة، من غير أن أتخلّى عن الفرح ».

وقد لخّصت "جاكلين دي ديكير" شعور المتعاونين المتألّمين بقولها للأمّ تيريزا: "**إنّ يسوع في حاجةٍ إلى استمرارك في سكب زيت حبّك وتضحياتك في مصباح وجودنا. إنّ حياتك القائمة على التضحية توفّر لنا القوّة**".

لقد وفّرت تلك التوأمة للمتألّمين الرجاء، فالذين يحول الألَمُ دون ممارستهم حياةً نشيطةً يملكون وقتًا مستفيضاً للصّلاة، وصلاتُهم تُفرغ محتوًى ملموسًا على حبّهم. غير أنّ بعضهم يعبّرون، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، تعبيرًا مادّيًّا عن حبّهم؛ ففي بلجيكا أُلّف فريقٌ من نزلاء مصحّةٍ "نادي الأُمّ تيريزا" حيثُ يُعدّون الأضمدة، ويصنعون الدمى للأطفال المُهمَلين الذين تُعنى بهم المرسلات في أميركا الوسطى. وقد أهابت "جاكلين دي ديكير" بالنساء المقعدات اللواتي لم يفقدن القدرة على استخدام أيديهنّ، أن يحكنَ الألبسة والأغطية الصوفيّة الكفيلة بردّ غائلة البرد عمّن يقاسونه في مختلف الأصقاع.

وفي روما هبّ شابٌّ مُقعدٌ لرعاية زوجٍ من العميان ممّا أَتاح لــه أَن يــصرّح بحبورٍ: "**لو أَنّني قبعتُ في مركزٍ للمعاقين لكنت عديم الجدوى. ولكنّني، الآن، أُعير عينيّ للعميان**".

وخليقٌ بالتنويه أَنّ الذين تتعرّض قواهم لأَعتى المِحَن هم الأَشدّ إِقبالاً على بــذل القليل الذي تُرك لهم، موفّرين مصداقًا لقول الأُمّ تيريزا: "**الذين لا يملكون شيئًا فــي الظاهر، يملكون الكثير الذي يقدّمونه**".

وتؤتي تلك الشركةُ الرائعةُ المرسلين وَالمُرْسَلات شعورًا منعشًا بأَنّ، ثمّة، أَنفسًا شقيقةً تقدّم عنهم آلامها وصلواتها، فتمدّهم بمزيدٍ من القوّة لإِنجاح أَعمالهم الشاقّة في خدمة أَفقر الفقراء. وقد أَوجزت الأُمّ تيريزا ذلك العون الصوفيّ الذي يُزوّد جمعيّتها به المتعاونون والمتألّمون بقولها: "**جميع أُولئك القوم المرضى والمتــألّمون الــذين يُسهمون في جمعيّتي، يُسدون لها خدمةً جُلّــى**". إِنّهم كنز جمعيّتها الــذي لا يُقــدَّر بثمنٍ، فبفضلهم قد ولدت "قوّةٌ مدهشةٌ تتعاظم في العالم، من خلال الاقتسام المتبــادَل المستمرّ، وشراكة الصلاة، والأَلم، والعمل". وكانت الأُمّ تيريزا، منذ عام ١٩٥٥، قد كتبت إِلى رابطة المتألّمين الناشئة:

« كم أَنا سعيدة بمكنتي الاعتماد عليكم! إِنّني أَشعر أَنّني قريبةٌ منكم قربــي مــن الأَخوات اللاّئي يعشنَ معي. وغالبًا، عندما أَصطدم بمشقّة العمل، أُفكّــر بكــلٍّ مــنكم، وأُخاطب الربّ قائلةً: "انظر إِلى أَبنائي المتألّمين، وحبًّا بهم، بارك عملي"، ممّا يــؤتي ثمارًا فوريّةً. كما ترون، أَنتم خزانتي الأَمينة، بل أَنتم مولّدة طاقة مرسلات المحبّة ».

وفي إِحدى رسائلها إِليهم فسَّرت لهم معنى "درب الحبّ"، بقولها:

« غالبًا ما تجولون في خاطري، فأُقدّم آلامكم الجسيمة، لأَنّ آلامي صــغيرةٌ أو غير موجودةٍ. عندما تتفاقم آلامكم، حسبُكم أَن تختبئوا في القلب الأَقــدس، وهنــا سنجد، معًا، القوّةَ والحبَّ اللذَيْن يهبناهما.

"ما أَروعها دعوتكم إِلى أَن تكونوا مرسلي المحبّة، وحــاملي حــبّ الله. إِنّنــا نحمل في جسدنا، وفي روحنا حبّ الله اللاّمحدود، حبّ إِلهٍ ظَمْآن. ونحــن: أَنــتم، وأَنا، وأَخواتنا العزيزات، والمرضى المتألّمون، سنروي هذا الظَّمأ المتلظّــي، أَنــتم

بأَلمكم الذي لا يوصف، ونحن بعملنا الشاق. ولكن أَلسنا كيانًا واحدًا، على حدّ قول يسوع: "مثلما أَنت فيّ، أَيّها الآب، وأَنا فيك"؟ لقد تلقَّنتم الكثير، وتجرّعتم كأس نزاع يسوع... فأَيّة مكافأة تنتظركم؟ المزيد من الأَلم، لكي تكونوا أَشدَّ تمثُّلاً به على الصليب. وعندما تُصلُّون، التمسوا من يسوع أَن يجتذبني أَقرب إِليه على الصليب، لكي نكون واحدًا" ».

وفي مثل صدًى لقول الأُمّ تيريزا كتبت رئيسة دير لمرسلات المحبّة إِلى توأَمها:

« كم أَنا مدينةٌ لله الذي وهبني إِيّاكِ عضوًا متعاونًا مريضاً ومتأَلّمًا! وأَيّة حظوةٍ في أَن يكون لي من يُصلّي، ويقدّم آلامه ومِحَنه لصالح العمل الذي دعاني الربّ للنّهوض به! عندما أَستشعر في ذاتي قوّةً خارقةً، وعزاءً جمًّا، وسط المهمَّات العسيرة، وعندما أَتبيَّن كيف استطعت إِنجاز ما كان يبدو مستحيلاً، أُوقن أَنّ قرينتي تصلّي من أَجلي، وتقدّم آلامها الجسديّة لكي تخفّف مشقّتي وأَلمي. لن نستطيع أَن ندرك، إِلاّ في السماء، قدرات الصلاة، وما تولينا من قوَّة لتنفيذ عمل الربّ، رغم العقبات الكأداء، ولذلك أَرجوكِ أَن تواصلي تقديم مِحَنكِ وآلامكِ، إِذ عليّ مواجهة العديد من الناس، والأَخوات، والفروع الجديدة.. لكي يُبلَّغ حبّ يسوع للجميع. وأَنتِ، أَيضاً، حاضرةٌ، كلَّ يومٍ، في صلواتي إِلى الربّ لكي يهبك ما تحتاجين إِليه من نعمةٍ وقوّةٍ، فتتقبّلي، بفرحٍ، المِحَن والآلام التي تُرهق كاهلَك. إِنّه سيمنحك نعمةَ احتمالها، وهو عليمٌ بمن يطلب منه تحمّلها، فهو إِنّما يلتمسه من أَقرب أَصدقائه وأَعزّهم، كي يجتذبهم قريبًا منه، ويجعلهم يُثمرون ثمارَ القداسة ».

وكتب أَحد الإِخوة المرسلين: **"في حديثه عن الأَلم، أكد البابا يوحنّا الثالث العشرون على ضرورة اكتشاف غايةٍ له. ففي نظر محبّي المسيح، ما من حياةٍ بلا أَلمٍ، ومن ثمّ، لا مفرَّ منه، وعلينا أَن نعمل كلّ مستطاعٍ لكي يساعد بعضُنا بعضاً على اكتشاف غايته. وإِذا ما وُفّقنا إِلى اكتشافها في تقبّل الصليب الذي حمله يسوع، لن نشعر، بعدُ، بالوحدة".**

وقد أَفلحت الرابطة بين المتعاونين المرضى والمتألّمين من جهة، والمرسلين والمرسلات من جهةٍ أُخرى، في العثور على هذه الغاية، فالمتأَلّمون وجدوا لمحنتهم مغزًى، والأَخوات والإِخوة ظفروا بقوَّةٍ متجدِّدةٍ مضاعفةٍ، وتمتّعوا بشعور الصداقة،

عندما أَدركوا أَنّ ثمّة من يصلّي من أَجلهم شخصيًّا؛ وهكذا انقلب المتأَلّمون مصدر طاقةٍ لمن وقفوا حياتهم على تخفيف آلام الآخرين، وترسّخت لديهم القناعة بأَنّهم باتوا شركاء في آلام المسيح. وهكذا، استطاعت الأُمّ تيريزا استنباط الفرح من مستنقع الأَلم، وتحويل أَجسادٍ محطَّمةٍ، وأَشلاء بشريّةٍ، إلى أَدوات خلاصٍ مدهشةٍ، وفيرة الجدوى. ولقد أَنتج إِيمانها بشراكة القدّيسين، وبقدرات الأَلم الخلاصيّة، في حقل عملها الكنسيّ، الضّاربة جذورُه في تُربة الإِنجيل، ثمارًا خلاصيّةً يتعذَّر حصرُها.

ويمضي اتّحاد المتعاونين المرضى والمتأَلّمين قُدُمًا في مسيرته، بأَعدادٍ متكاثرةٍ باطِّراد، وبنتائج يزداد مفعولها شمولاً وجدوًى، فعلى حدّ قول "جاكلين دي ديكير": **"في كلّ سنة يقضي عددٌ من المتعاونين نحبهم، وينضمّ أعضاء جدُدٌ... من المُحقَّق أَنّ اقتسام الآلام، والعون المتبادَل، هما تعزيةٌ وبركةٌ للجميع".**

وإِلى جانب اضطلاعها، منذ نحو خمسةٍ وأَربعين عامًا، بتوفير توأَمٍ من العاجزين والمتأَلّمين لكلّ مرسلة محبّةٍ، ولكلّ مرسلٍ، تضطلع "جاكلين دي ديكير"، منذ عام ١٩٥٦ بعملٍ رسوليٍّ ملحوظٍ ومتميّزٍ وسط بنات الهوى اللاّئي تضخّم عددهنّ في مدينتها الساحليّة؛ ففي تلك السنة، كان نسيبٌ لها قاضٍ ينظر في قضيّة إِحداهنّ، فانفجرت في وجهه صائحةً: "إِنّ كلّ شيءٍ متيسِّرٌ لكم، ولكن هل منكم من خطر له أَن يمدّ لنا يد العون؟ "فاضطرب القاضي، وأَهاب بجاكلين أَن تؤازره على إِيجاد مساعدين اجتماعيّين ينشطون في هذا الحقل. وفي أَعقاب محاولاتٍ يائسةٍ، قرّرت جاكلين أَن تقابل بنفسها إِحدى تلك المسكينات؛ وهذه، بدورها، غدت توجّه نحو منزلها عشراتٍ من زميلاتها الراغبات في التحرُّر من رِبقة المهانة، وفي ممارسة عملٍ شريفٍ، فتبذل جاكلين كُلَّ مستطاعٍ لتحريرهنّ، وإِدماجهنّ في مجتمعٍ نظيفٍ. وهي تعترف بأَنّ مئات اللواتي اختلفنَ إِلى شقّتها أَبدينَ لها أَعمق احترامٍ، متأثّراتٍ بجسامة آلامها.

بعض أُولئك الفتيات علمنَ بعملها إِلى جانب الأُمّ تيريزا، وريثما تسنّى لهنّ الانعتاق من مستنقع الانحطاط، وضعنَ في شققهنّ صناديقَ صغيرة، وجعلنَ يطلبنَ من زبائنهنّ دسّ حسنةٍ فيها لمساعدة أَعمال الأُمّ تيريزا. وبما أَنّ الأم تنتهز كلّ سانحةٍ، أَثناء أَسفارها إِلى أوروبا، لزيارة "ذاتها الأُخرى"، غدت جاكلين، لدى كلّ

من تلك الزيارات، تضع بين يديها كيسًا مليئًا بقطع النقود الصغيرة؛ وعندما تواترت هذه الهبات الغريبة، استفسرت الأُمّ عن مصدرها، وفي كثيرٍ من الارتباك بيّنت لها جاكلين حقيقة الأَمر، فاقتصرت الراهبة على التعليق: "يا للرّوعة!"

وتأكيدًا لارتباطها الوثيق العرى بمرسلات المحبّة، صرّحت جاكلين لأَحَد الصحافيّين: "**روحيًّا انتميتُ دائمًا إلى الهند. وقد التمستُ من الأمّ تيريزا أَن أُدفن، لدى مماتي، مرتديةً ساري مرسلات المحبّة، عسى أَن أُحقّق، ساعةَ موتي، وبوسيلتي المتواضعة، ما عجزتُ عنه، سحابةَ حياتي**".

اتّحاد المتعاونين الدوليّين

منذُ مُستهلّ الرسالة التي انتُدبتْ لها، وَعَت الأُمّ تيريزا مدى أَبعادها، وخطورة شأنها، ونفاذ أَثرها، مدركةً، في آنٍ واحدٍ، ما تقتضيه من بذلٍ بلا حدودٍ، ومن انعكاسٍ خلاصيٍّ على جميع المضطلعين بها، أَو المشاركين بسهمٍ فيها؛ فأَشرعت باب جَمْعِيَّتهَا لجموع المتعاونين القادمين من كلّ أُفقٍ، كي يدعموا جهود مُرسَلاتها ومُرسَليها بجميع الأساليب التي يُجيدونها، والطاقات المتاحة لهم، فيكتسبوا تمرُّسًا بحبّ الله، عن طريق خدمة أَبنائه المحتاجين، وتوغُّلاً في القداسة التي آمنت الأُمُّ تيريزا أَنّها دعوةٌ موجَّهةٌ لجميع بني البشر، وبذلك امتدّت جذور رسالة المحبّة، حتّى غطّت شبكتُها العالَم أَجمع، نشيدَ تمجيدٍ للرّبّ، ووسيلة سموٍّ للإِنسان. ولئن بلغ عددُ مرسلات المحبّة ومُرسليها بضعة آلافٍ، إلاّ أَنّ عدد المتعاونين يربو على مئات الآلاف، وتقدّره الأُمّ تيريزا نفسها بنحو مليونين، غير مُغْفِلةٍ المتعاونين الوضيعين المُغْفَلين الذين لم تُدوَّن أَسماؤهم في سجلاّتٍ: طغمات من رجالٍ ونساءٍ، وشبّانٍ، بل من أَطفالٍ سحرَهم مثالُ سخاء الأمّ تيريزا، فاندفعوا في تيّارها، ناصبين لحياتهم هدف لأْم جراح من قست عليهم الحياة، وكفكفة دموعهم.

وكان سموُّ الرسالة التي أَطلقتها الأُمُّ تيريزا قد اجتذب، منذ البدء، تعاطف حفنةٍ من رجال الكنيسة أَيّدوها بدعمٍ مادّيٍّ وروحيٍّ، نظير المطران "پيرييه"، والأَبوين "ڤان اكزيم" و"هنري"، وأَخوات الفقراء الصغيرات، وحذا حذوَهم نَفَرٌ من العلمانيّين الطيّبين المتواضعين، الذين كان لمساندتهم أَثرٌ حاسمٌ في انطلاقة رسالة المحبّة، من

أَمثال الطبّاخة "أُمّ شارو"، التي هجرت دير "لوريتو" كي تؤنس وحشة الأمّ تيريــزا، وتوفّر لها الخدمات المعيشيّة، ونظير "ميشيل غوميز" الذي وضــع بتــصرّفها بيتَــه والكثيرَ من وقته وجهوده، وعلى غراره فعلت زوجته وابنته.

وقد استلزم استمرار انطلاقة الأُمّ تيريزا دعمًا ماديًّا كانت تفتقــده، فنــشر الأَب "إكزيم"، على غير علمٍ منها، مقالاً في صحيفة "ستيتسمان"، مُبيِّنًا منجزاتها لدى سكّان أَكْوَاخ "موتيجهيل"، وملتمسًا لها العون؛ وما هي سوى أَيّامٍ قلائل حتّى توقّفت أَمــام كنيسة رعيّته سيّارةٌ رسميّةٌ انحدر منها ضابطٌ بلديٌّ منتَدَبًا من رئيس وزراء البنغال، الدكتور "بيدهانشاندرا روي"، وقدّم عونًا ماليًّا سخيًّا لمرسلات المحبّة.

وتناهت إِلى علم الأُمّ تيريزا معلوماتٌ دفعتها إِلى التماس مقابلة الدكتور "روي"، فهو من أَبرز أَعضاء حزب المؤتمر الهنديّ، ومن رفاق المهاتما غاندي، وجــواهر لال نهرو الأَوائل. وكان قد زُجّ به في السجن ستّة أَشهرٍ، عام ١٩٣٠، ولمّا أُفــرج عنه عُيِّن عمدةً لمدينة كلكتّا، ورئيسًا لحزب المؤتمر في منطقة البنغال، ثمّ استقال من ذلك المنصب كي ينصرف إِلى ممارسة مهنة الطبّ التي كان من أَقطابها، وأَصــاب في مجالها شهرةً مستطيرةً، بفضل قرنه بين الطبِّ التقليديّ الهنديّ، والطبّ الغربــيّ الذي كان قد تمرَّس منه أَثناء دراسته في إِنكلترا. ومع ظَفَره بالعديــد مــن الرتــب والأَلقاب، ظلَّ حريصًا على ممارسة مهنتــه الإِنــسانيّة يوميًّــا، معالجًــا لا كبــارَ الشخصيّات التي كانت تقصده من شتّى أَرجاء الهند، فحسب، بــل، أَيــضًا، فقــراء الشعب الذين كان يُفرد لهم فترة معالجةٍ مجّانيّةٍ، يوميًّا. وإِثــر الاســتقلال، عُــيّن، مُرغمًا، رئيسًا لوزراء البنغال، وقد استسلم ذلك الرجلُ النزيه الكريم لذلك التعيــين، على أَنّه خدمةٌ وطنيّةٌ، متصدّيًا لمهمّةٍ جبّارةٍ، مهمَّة تحديث أُمّته. وقد أُعيد انتخابــه، كرّةً إِثر كرّةٍ، رغم تنكّره للشيوعيّة، في منطقةٍ ستّون بالمئة من مقترعيها شيوعيّون.

كلّ ذلك دفع الأُمّ تيريزا إِلى التماس مقابلته، كي تبــسط بــين يديــه أَوضــاع مجمّعات الأَكواخ الرثّة والمؤسية، إِلاّ أَنّها صُدّت عن لقائه. وأَعملت الحيلة فومضت بخاطرها فكرةٌ نيّرةٌ: فبما أَنَّ الدكتور "روي" ما انفكّ يستقبل المرضى فــي منزلــه، صباحَ كلّ يومٍ، علامَ لا تحشر نفسها في صفوفهم فتجد طريقها إِليه؟ وكان الدكتور، بفضل دقّة تشخيصه وسرعته، يتمكّن من استقبال ستّين مراجعًا كلّ صــباح، بــين

السادسة والتاسعة. ومنذُ الفجر، اندسَّت الأُمّ في طابور المراجعين، وبعد انتظارٍ بدا متماديًا، ولجت مكتب أكبر مسؤولٍ في كلكتّا. وجال بصرها برسوم مستوحاةٍ من "باغافاد جيتا"، معلّقةٍ على جدران مكتبه، فأدركت، للوهلة الأُولى، تعَبُّد الدكتور لكريشنا، إله العدل والعطف، وأيقنت أنّها، عبرَ إجلاله لإله الحبّ ذاك، ستستطيع النفاذ إلى قناعاته، بشأن فقراء الأكواخ. ولكن فاتها أنّه كان ضنينًا بوقت المرضى، لا يهدره في أحاديث جانبيّةٍ، ويأبى خلط المواضيع، فكان لقاؤه الأوّل جافيًا، إذ اقتصر على دعوتها إلى مراجعة دوائر البلديّة في ما جاءت من أجله.

وتاهت عبثًا في رمال السراديب الإداريّة، حتّى انتهت إلى جدارٍ مسدودٍ، وقرّرت العودة إلى عيادة الدكتور "روي"، الذي أخذ منه العجَب حيالَ عناد تلك الراهبة الهزيلة، المتلفّعة بالساري الهنديّ، الصلبة التصميم في دفاعها الحارّ عن حقوق المحرومين، فأصغى إليها باهتمامٍ، وقرّر التدخُّل بنفسه، وسرعان ما قام بينهما تواطؤٌ وثيق العرى، إذ أوعز الدكتور لحُجّابه أن يتيحوا لتلك الراهبة قرع باب مكتبه وولوجه، في أيّة ساعةٍ شاءت، ومن غير موعدٍ سابقٍ؛ وتوطّدت بينهما صداقةٌ مثمرةٌ عمّرت اثني عشر عامًا. وكان ذلك المسؤول الرفيع هو سبب ذيوع شهرة الأُمّ تيريزا في الهند؛ فأثناء المؤتمر الصحافيّ الذي عقده في دار البَلَديَّة، بمناسبة بلوغه الثّانية والسبعين، في الأوّل من تمّوز ١٩٥٤، سُئِل عمّا يشغل باله، في تلك الذِّكرى، فأدهش الجميع بردّه: "راهبةٌ متواضعةٌ كرّستْ حياتها للأكثر حرمانًا، وتتسلّق درجات هذا المبنى للذّوْد عن حياضهم." وتداولت الصحف ذلك الردَّ على صفحاتها الأولى، مُرْفَقًا بصُوَرٍ مؤثّرة للأمّ تيريزا، وهي عاكفةٌ على العناية بالفقراء والمتألّمين، وبمقالاتٍ مستفيضةٍ عن إنجازاتها، ما عمّم شهرتها بين ليلةٍ وضحاها.

وفيما كانت السيّدة "آنّ بليكي" البريطانيّة، مسترخيةً على شرفة دارتها الفاخرة في كلكتّا تطالع صحيفة "ستيتسمان" الصادرة بتاريخ ١٩٥٤/٧/٣، استلفتت نظرها صورة راهبةٍ ضئيلة الجسم، منحنيةٍ على سرير محتضرٍ تؤاسيه؛ وفي غضون دقائق، التهمت المقال الذي كان يسرد حكاية بدايات الأُمّ تيريزا الرسوليّة، البطوليّة. وفي الحال استقرّ في خلَدها أن لا بدّ لها من لقائها.

كانت "آنّ" زوجةً وأُمًّا سعيدةً أغدقت عليها الحياة كلّ نعمها وخيراتها؛ كانت

متحدّرةً من أُسرةٍ أَنكليكانيّةٍ بورجوازيّةٍ من جنوبيّ إِنكلترا؛ وقد نشأت نشأةً محميّـــةً وسط رفاقٍ من أُسَرٍ محافظةٍ. وفي العشرين من عمرها التقت محاميًا شابًّا كاثوليكيًّا، إِيرلنديّ الجذور، يدعى "جون" فهامت به؛ وعندما عُيّن ممثّلاً تجاريًّا في شـــانغهاي، التحقت به فتزوّجا هناك عام ١٩٤٧؛ ثمّ فرّا من الحكم الشيوعيّ الصينيّ، واســـتقرّ بهما المقامُ في كلكتّا، حيثُ انسابت عيشتهما هنيئةً، مُذَهَّبةً، حافلةً بالترف والبحبوحة، غير مفتقرةٍ إِلى أَيٍّ من عناصر البذخ، من دارٍ فاخرةٍ، ومنزلٍ صيفيٍّ فـــي الجبـــال، وطغمةٍ من الخَدَم والمُربِّيات، وممارسة شتّى رياضات الطبقة الراقية.

ولسدّ فراغها، كانت "آنّ" تتصرف إِلى نشاطٍ خيريٍّ مع أَترابها، وقد أَلّفنَ، لهـــذا الغرض، جماعة "الرفاق الطيّبين"، وافتتحنَ متجرًا لبيع مصنوعاتٍ يدويّـــةٍ مرهفـــةٍ فاخرةٍ، تنتجها، بمهارةٍ، أُسَرٌ فقيرةٌ، فيوفّر بيعُها، لتلك الأسر، ريعًا يمكّنها من عيشةٍ لائقةٍ، فيما يُوزَّع الفائض على محتاجين آخرين.

في مطلع شهر تَمُّوز ١٩٥٤، كانت "آنّ" حاملاً في شهرها السابع بثالث أَبنائهـــا، وبالتالي عاجزةً عن مواصلة الوقوف في المتجر الخيريّ، فأبلغت رفيقاتها بعزمها على المكوث في منزلها، ريثما يحين موعدُ وضعها. وربّما جال بخاطرها البحث عن عملٍ غير مرهقٍ يشغلها في تلك الفترة؛ وجاء مقال صحيفة "ستيتسمان" ردًّا على تساؤلها.

واتّصلت "آنّ" بالأُمّ تيريزا، فتواعدتا عند باب كنيسةٍ، واصـــطحبت "آنّ" رفيقتهـــا "مارغريت ماكينزي"، وهي، أَيضًا، كانت حاملاً. وتمّ اللقاء فـــي ٢٦ تَمُّـــوز ١٩٥٤، الذي باتت "آنّ بليكي" تعدّه تاريخ تأسيس اتّحاد المتعاونين. وما كادت الراهبة تـــصافح السيِّدتَيْن البريطانيَّتَيْن، حتّى دفعت بهما إِلى شاحنة، وانطلقت إِلى دار المحتضرين في "كاليغات"، ثمّ إِلى دار الأَطفال المُهْمَلين "شيشو بهاقـــان"، وفي اندفاع حماسٍ، أَعربت المرأتان عن رغبتهما في شنّ حملةٍ لجمع دُمًى للأطفال الذين تعنى بهم الأمّ تيريـــزا، وزينةً لشجرة الميلاد التي كانت تعدّها بمناسبة ذكرى ميلاد المخلّص. وفـــي دماثـــةٍ، وصراحةٍ، وبساطةٍ، شكرت لهما الأُمّ تيريزا لَفْتَتهما، ولكنّها أَشارت إِلـــى أَنّ أَطفالهـــا يحتاجون، أكثر من الدمى والبهارج، إِلى ثيابٍ وطعامٍ. وبذلك أَيقظتهما على واقعٍ كانتا بعيدتَيْن عنه، فقد كانتا تجهلان وجود أَطفالٍ يفتَقرون إِلى ما يطعمون ويلبسون.

ذلك اللقاء كان حاسمًا على مصير "آنّ بليكي"، التي انزلقت حياتها، مذّاك، فـــي

منحًى جديدٍ، بعد أَن استقرّ عزمُها على وقف وقتها وكلّ ما ملكت يداها على مساندة مشاريع الأُمّ تيريزا. وسرعان ما بثّت اندفاعها هذا في صدور اثنتي عشرة امرأةً من صديقاتها، ينتمين إِلى سبع جنسيّاتٍ مختلفةٍ، قرّرن تأسيس جماعةٍ تدعم جهــود الأُمّ تيريزا. وهكذا وُلدت فكرة التعاون مع الأُمّ تيريزا مع مولد ابنة "آن بليكــي"، التـــي رأت النور في نهاية شهر آب ١٩٥٤.

ولما كانت تلك السنة مكرّسةً للعذراء مريم، أَطلقت "آن بليكي" ورفيقاتها علـــى جماعتهنّ اسم "الجمعيّة المريميّة"، تيمُّنًا بسيّدة تلك السنة؛ وقد شرعنَ فأعددنَ ثيابًـــا لمئة طفلٍ بمناسبة عيد الميلاد فضلاً عن هباتٍ أُخرى. ولمّا وافتهنّ الأُمّ معبّرةً عـــن شكرها، لم تتوانَ عن مصارحتهنّ بأَنّ ما فعلنَه للأطفال المَسيحيِّينَ عليهنّ عمل مثله، بل أكثر منه، للأطفال الهندوسيّين، الذين يحتفلون بعيدهم في مطلع الربيع، وللأطفال المسلمين بداعي عيد الفطر. وشيئًا فشيئًا مضت الأُمّ تيريزا تُلقِّن أُولئـــك النـــسوة أَنّ التعاون معها لا يكتفي بالتبَرُّع ببعض الفائض عنهنّ، بل يقتـــضي مـــنهنّ توظيـــف وقتهنّ، وطاقاتهنّ، وجميع قدراتهنّ، والاتّصال، عن كَثَب بأَفقر الفقراء، حتّى أُولَئِـــكَ الذين يستفزّون النفـــور كـــالبُرْص. فعكفـــنَ علـــى العنايـــة بالأَطفـــال المُهْمَلـــين، والمحتضرين، والبُرْص، وأَسهمْنَ، عام ١٩٥٦، إِسهامًا فعَّالاً في يوم البَرَص الـــذي أَتاح للأُمّ تيريزا تحقيق واحدٍ من أَهمّ مشاريعها في هذا المضمار.

وسرعان ما انضمّ إِلى نشاط "الجمعيّة المريميّة" مُتطوِّعون غير كاثوليكيّين، من هنودٍ وبريطانيّين ومن منتمين إِلى شتّى المذاهب والجنسيّات، ومنهم أَعـــضاء فـــي السلك الديبلوماسيّ الأَجنبيّ في الهند، مؤلّفين جيشًا علمانيًّا صغيرًا، مـــشاركين الأُمّ تيريزا حربَها على الفقر والحرمان والنبذ؛ منهم من تطوّع لتلقين الفتيات الراغبـــات في الانضواء تحت راية مرسلات المحبّة دروسًا في اللغة الإِنكليزيّة، ومـــنهم مـــن تبرّعوا بنقل الراهبات في سيّاراتهم الخاصّة لمواجهـــة الحـــالات الطارئـــة، ونقـــل المرضى المُهملين في الشوارع؛ وغالبًا ما اضطلع بمثل هذه المهمّة أَعـــضاء فـــي السفارة الأَميركيّة. جميعهم كانت تحدوهم رغبةٌ ملتهبةٌ في مدّ يد العون، بُغيةَ تـــوفير أَسباب النجاح لرسالة الأُمّ تيريزا، نظير ذلك الهندوسيّ الذي نمى إِليه أَنّ المرسلات يواجهنَ مشكلة مياه في ديرهنّ، فبادر إِلى حفر بئرٍ لهنّ.

وإلى جانب الذين جادوا بأموالهم ومهاراتهم، أَدلى العديدون من قليلي المهارات، الذين لا مالَ لهم، بدلوهم في أعمال عطفٍ نابعٍ من القلب "مقدّمين أشياء صغيرةً، بحبٍّ كبيرٍ".

إزاء ذلك التنوُّع الذي طرأ على انتماآت جماعات المتطوّعين، لم يبقَ بالإمكان حصر تلك الحركة في إِطار "الجمعيّة المريميّة" الضيّق. وارتأت الأُمّ تيريزا أن تطلق على أُولئك الذين اندفعوا لعونها، تحدوهم حوافز مستوحاةٌ من روح رسالتها، تسمية "المتعاونين" التي استعارتها من غاندي الذي كانت تكنّ له إعجابًا جمًّا، ولئن هي لم تلتقِه قطّ. وكان المهاتما قد أَطلق تلك التسمية على الذين تطوّعوا لتنفيذ برنامجه الاجتماعيّ الإنسانيّ في الريف، والإسهام في نضاله لأَجل رفع مستوى المرأة في الهند، ومكافحة الأمِّيَّة، والبَرَص، والقضاء على تقليد "النبذ" الوبيل، الذي كانت تمارسه الطبقاتُ العليا حيال الطبقات الدنيا.

وكان لطلائع أُولئك المتعاونين يدٌ في نشر شهرة الأُمّ تيريزا، خارج الهند، عبر تقارير ومقالات مُدعَّمةٍ بوقائع وأَرقامٍ وصُوَرٍ. فدُعيت الأمُّ، عام ١٩٦٠، إلى انكلترا وأَميركا، حيث أُجريت معها لقاآتٌ صحفيّةٌ وتيليفزيونيّةٌ، أكسبت عملَها شعبيّةً، وعددَ المتعاونين معها تكاثرًا، ما حمل حكومة الفيليبين على منحها جائزة "ماغسيس" عام ١٩٦٢، وكانت قيمة الجائزة النقديّة خمسين أَلف روبيّة، أَتاحت للأمّ تحقيق مشروع مركز للأطفال المهملين في مدينة "أكرا".

وفي عام ١٩٦٠ أَمرت الحكومة الهنديّة بأَن يتولّى هنودٌ المراكز التجاريّة الكبرى التي كان يديرها بريطانيّون وأَجانب، واضطرّت أُسرة "جون بليكي"، إِثر عشر سنوات من الإِقامة في كلكتّا، إِلى مغادرتها، واستقرّت في منطقة "سوريّ" بضواحي لندن؛ ثمّ ما عتّمت أَن تبيّنت أَنّ عددًا من الأُسَر الأُخرى التي كانت تشاركها التعاوُن مع الأُمّ تيريزا تسكن في جوارٍ لا يتعدّى قطره الثلاثين كيلومترًا. وفي نفس المنطقة، أَيضًا، كان يسكن شابٌّ يُدعى "جون ساوثوورت"، كان، هو أَيضًا، قد سلَخ سنواتٍ طويلةً في الهند، وأَسدى للأُمّ تيريزا خدماتٍ جليلةً في مضمار مكافحة البَرَص. وكتبت الأُمّ إِلى "آنّ بليكي" مهيبةً بها أَن تتّصل بالسيِّد "ساوثوورث"، وأَن تنسّق فيما بينهما والأُسَر الأُخرى التي كانت متعاونةً معها في الهند. وسرعان

ما تأسَّست لجنةٌ من المتعاونين البريطانييّن، أَمسى "جون ساوثوورث" رئيسها، و"آنّ بليكي" نائبةً عنه.

وفي تلك السنة أَيضًا، لمّا دُعيت الأُمّ تيريزا إِلى لندن، كان لظهورها في برنامجٍ تيليفزيونيٍّ أَثرٌ بعيد الأَصداء هزّ المجتمع البريطانيّ، وأسهم في إِنماء نواة المتعاونين التي مَا لبثت أَن انقلبت مؤسّسةً كبيرةً تضمّ مئات الأَعضاء؛ ثمّ ما عتّمت أَن غدت "آنّ بليكي" هي رئيستها، قبل أَن تصبح المنسّقة الدولية لاتّحاد المتعاونين العالميّ مع الأُمّ تيريزا. وبعد أَن توفّي زوجها عام ١٩٧٤، وكبر أَبناؤها، وقفت كلّ مالها، وجهودها على هذه المهمّة التي أَخذت من نفسها كلَّ مأخذٍ.

وعلى غرار "آنّ بليكي"، نهضت السيِّدة "پاتريسيا كيمب" بدور المُنسِّقة لنشاط المتعاونين الأَميركييّن مع الأُمّ تيريزا، التي كان لزيارتها، عام ١٩٦٠، إِلى الولايات المتّحدة وقعٌ بليغٌ على دفع حركة التعاون مع عملها.

"پاتريسيا بيرك" فتاة سمراء إِيرلنديّةُ الجذور، كانت تعمل مضيفةً جويّةً عندما التقت طالبًا في كلِّيّة الطبّ يُدعى "وورين كيمب"، فتزوّجا، وكان ارتباطهما مُطلَقًا، ومصدرَ سعادةٍ عميقةٍ. ولكن لم يُكتب لهما تجسيد تلك السعادة في أَطفال من صُلبهما، إِذ قد حُرِما نعمة الإِنجاب، فقرّرا أَن يقتسما سعادتهما مع أَطفال يتبنّيانهم؛ وفي غضون ثلاث سنواتٍ تردّدت في جنبات منزلهما ثغثغات بنتين وصبيَّيْن. وفي تلك الأَثناء من عام ١٩٥٨، عثرت پاتريسيا على مجلّة "يوبيل"، التي كان غلافها يحمل صورة الأُمّ تيريزا، وتنطوي موادّها على مقالٍ مسهبٍ عن منجزاتها ومشاريعها. وقد وقعت الصورة والمقال من ذهن پاتريسيا وقلبها موقعًا عميقًا عبّرت عنه بقولها: "كانت تلك الفترة، لي، فترة دهشةٍ مثيرةٍ، بعد أَن أَصبح لي أَبناء. ولكنّها كانت، أَيضًا، فترة تَعَبٍ يقتضيه جهدُ رعاية البيت والأَطفال. وقد لازمتني صورةٌ نشرت في مجلّة "يوبيل" لامرأة تجهد نفسها في سبيل فقراء مدينةٍ كبيرةٍ ومتأَلّميها. ولم أكن أَقوى على طردها من ذهني، فقد نشبت روحانيّتها بكلّ كياني".

وكتبت إِلى الأُمّ تيريزا مُعربةً عن رغبتها العارمة في مشاركتها نشاطها، بطريقةٍ شخصيّةٍ، وأَرفقت بالرسالة هبةً ماليّةً، ووردها جواب الأُمّ في مطلع عام ١٩٦٥ يقول: "**باركك الله من أَجل رسالتك الرقيقة. لقد تمتَّعْتُ بكلّ سطر من**

سطورها، وأَخبرتُ الأَخوات عنك وعن زوجك الرائع "وورين" وعن صغاركما الأَعزّاء، وهكذا غدوتم جميعكم جزءًا من أُسرتنا الكبيرة. عطيّتكما ثمينةٌ جدًّا لديّ، بسبب الحبّ الذي كان دافعها. أَجل سأُصلّي من أَجلكم، ولكن عليكم، أَيضًا، أَن تصلّوا من أَجلي، لكي أكون عونًا لأَخواتي المئة والتسع عشرة، فنكون أَشدّ التصاقًا بقلب يسوع: فلنكن، جميعنا، قريبين من يسوع، ولنسأل قلبه النعمة الوحيدة لكلٍّ منّا، أَن نتقدّس على غرار قلبه".

وسرعان ما انتقلت عدوى حماس پاتريسيا وزوجها لعمل الأُمّ تيريزا إِلى أَصدقائهما المقرّبين. وفي عام ١٩٦١، تأَلّف فريقٌ صغيرٌ من أَطبّاءٍ شبّانٍ وزوجاتهم، توّاقين للانضمام إِلى أُسرة الأمّ تيريزا الكبيرة، وقد أَبلغتهم الأُمّ، عبر رسالة أَنفذتها إِليهم في أَيّار ١٩٦١: "**أَودّ أَن تُسَمُّوا أَنفسكم "متعاوني الله مع الأُمّ تيريزا"، وأَن تشاركونا عملنا مشاركةً كاملةً**". وقد عملت جاهدةً على بثّ روح مرسلات المحبّة فيهم. وفي منتصف عام ١٩٦١، كانت ثلاث مجموعاتٍ صغيرةٍ تلتقي في منطقة "مينياپوليس"، وتصلّي معًا، باحثةً عن وسيلةٍ لمساعدة المحيطين بها؛ وقد كتبت الأُمّ تيريزا إِلى تلك النواة من المتعاونين، مخاطبةً پاتريسيا: "**كم أَنا فخورةٌ بك وبوورين، وبجماعتكم الصغيرة من المتعاونين. أَرجو الله أَن ينشأ المزيد من أَمثال تلك الجماعات. أَنشئوا الكثير منها في مدينتكم، وفي بلادكم، وفي العالم، ولكن فلتظلَّ، على غرار جَمَاعَاتكُمْ، جماعاتٍ صغيرةً. عونكم المادّيّ جليل الشأن، ولكنّ قداسة حياتكم هي أكثر عَوْنًا لي. غالبًا ما أُفكّر فيكم، وعندما أُواجه صعابًا، أُقدّم لله صلواتِكم وتضحياتكم، فيأتيني العون مُحَقَّقًا...**".

ومع ذيوع أَنباء منجزات الأُمّ تيريزا، تدفّقت التبرُّعات من الولايات المتّحدة على مراكز مرسلات المحبّة في كلكتّا، وأَنفذت الأُمّ أكداسًا من ردودها إِلى "پاتريسيا" ملتمسةً منها توجيهها إِلى غايتها. وحرصت پاتريسيا على تنسيق تلك المراسلات، والاتّصال بأَصحابها، وهكذا شرعت تتأَلّف جماعاتٌ جديدةٌ من المتعاونين في مختلف المدن الأَميركيّة. وقد وجّهت لهم جميعًا الأمّ هذه الرسالة العامّة:

« أَيُّها المتعاونون الأَعزّاء،

"كونوا متعاونين حقيقيّين مع المسيح. أَشّعوا حياته وعيشوها. كونوا ملاك عزاءٍ

للمريض، وصديقًا للوضيعين؛ وأَحبّوا بعضكم بعضًا كما يحبّ الله كلَّ واحدٍ منكم حبًّا خالصًا كثيفًا. لاطفوا ذويكم والمحيقين بكم. إنَّني أُوثر أَن ترتكبوا أَخطاء وأَنتم تعاملون الآخرين برقّةٍ، على أَن تصنعوا معجزات، وأَنتم تعاملونهم بجفوةٍ. غالبًا ما يداهم الظَّلامُ نفوس من نحبّهم، لافتقارهم إِلى كلمةٍ، أَو نظرةٍ، أَو مبادرةٍ سريعةٍ ».

وتواتر، في شتّى بلدان العالم، تأسيس جماعات المتعاونين، التي كانت تتبارى في البذل والسخاء؛ ففي أَلمانيا، توفَّقت "جوزيفا جوسيلكي"، منسّقة حركة التعاون هناك، مع ثلّةٍ من مساعديها، في تزويد جمعيّة مرسلات المحبّة، بنحو مليون ونصف المليون من الماركات في السنة، وكذلك تدفَّقت التبرُّعات سخيّةً من المتعاونين في إِنكلترا، وإِيرلندا، وهولندا، وبلجيكا، وفرنسا، والدانمرك، والسويد، وإِيطاليا، وأوستراليا، وسواها من البلدان التي نشأت فيها جماعات متعاونين. سيلٌ من الأَموال بات يتدفّق على تلك التي باشرت مشروعها مصفرة اليدَيْن؛ وكلّ ما تتلقّاه كان ينفق في الحال على المحتاجين، أَو على مشاريع معدَّةٍ للتنفيذ، تستهدف تحسين أَوضاعهم.

بيدَ أَنّ الأُمّ تيريزا قد حرصت، منذ البدء، على غرس القناعة لدى المتعاونين بأَنّ التبرّع بالمال هو الأَقلّ جدارةً بالاهتمام، والأَضأل شأنًا، وأَنّ الأَوْلى بالمتعاونين الانصراف إِلى الخدمة التي، هي، في المقام الأوّل، حبٌّ، وبذلٌ للذّات، وحضورٌ، مؤكِّدةً أَنّ البسمة هي، في أَحيانٍ كثيرةٍ عطيَّةٌ أَثمن من رغيف خبزٍ؛ فمعاييرها لقياس الحاجة والفقر لا تتوافق والمعايير المعهودة، لأَنّها موقنةٌ بأَنّ أَسوأَ الأَسقام ليست السلّ أَو السرطان أَو البَرَص، بل شعور الإِنسان بأَنّه غير محبوبٍ، وأَعزل، في الحياة، بلا سندٍ. مثل هذا الداء لا شفاء له إِلاّ بقلوبٍ تتدفّق حبًّا، وسواعد معبّأَةٍ للخدمة؛ ولحسن الطالع قد توفّرت تلك القلوب وتلكَ السواعد، من خلال "المتعاونين"، بحافزٍ من الأُمّ تيريزا التي ما انفكّت تؤكّد أَنّ الفقراء عظماء ورائعون، وأَنّنا، بخدمتهم، إِنّما نخدم المسيح، وأَنّنا سندان، في الآخرة، عن مدى الحبّ الذي سنكون قد أَفضناه عليهم.

وطالما أَكّدت، أَيضًا، أَنّ العطاء الحقّ ينبغي أَن يكون شخصيًّا، يبذل فيه المرء من ذاته قبل أَيّ شيءٍ؛ فبوسع الإِنسان أَن يُعطي مالاً، ويبقى في منأًى عن أَيّ تورُّطٍ، أَمّا بذل الذات فأمرٌ مختلفٌ، لأنّه أَكثر شخصيّةً، ويفترض الالتزام.

وقد ترسَّخت لديها تلك القناعة، بعد أَن زارت عددًا من المدن الغربيّة، وشهدت ما يُعانيه قسطٌ كبيرٌ من ساكنيها من إِملاقٍ روحيٍّ ونفسيٍّ، ومن عزلةٍ سحيقةٍ قاتلةٍ قد تتفشّى بين من يعيشون تحت سقفٍ واحدٍ، أَو في بناءٍ واحدٍ، أَو حيٍّ واحدٍ، وغدت دعواتها إِلى المتعاونين أَحرّ إِلحاحًا كي يُولوا اهتمامهم وجهودهم، في المقام الأَوّل، لبيوتهم، وأَفراد أُسرهم، وأَبناء حيّهم، مؤكِّدةً أَن لا جدوى من مساعدة أَبرص في الهند لمن لا يستطيع مدّ يد العون لمن يتأَلّمون ماديًّا وأَدبيًّا وعاطفيًّا من حوله، وأَلمُهم هذا أَدهى، بما لا يُقاس، من الفقر الماديّ في الدول النامية، لأَنّه يوحي للمبتلى به أَنّه لا أَحد، وأَنّ لا أَحد يحفل بشأنه. ولذلك تهيب الأُمّ تيريزا بالمتعاونين أَن يكونوا "أَحدًا" من أَجلِ "أَحدٍ"، فكثيرون من هؤلاء الذين لَفَظَهم المجتمع لا يعرفون من بسمةٍ سوى تلك التي تبادرهم بها مرسلات المحبّة، والمتعاونون معهنّ.

وقد أَلِف المتعاونون، في مدُنٍ كثيرةٍ، أَن يطوفوا، مرَّتين في الأسبوع، بالمرذولين في حواشي المدن، القابعين في علبٍ من الورق المقوّى، أَو الراقدين تحت الجسور، وفي زوايا محطّات المترو، فيزوّدونهم بِالحَسَاءِ الساخن، ويتجاذبون معهم الأَحاديث، ويبثّونهم كلمات العزاء.

وطالما حثّت الأُمّ المتعاونين على عدم ازدراء أَيٍّ من أَعمال الخدمة، مهما بدا وضيعًا، مثل كتابة رسالةٍ يُمليها ضريرٌ، وتنظيف منزل مُسِنٍّ وغسل ثيابه، وملاطفة جيرانٍ لا يعبأ أَحدٌ بزيارتهم، ولا سيما بعد أَن اطّلعت على حالة امرأةٍ كانت تعيش في مُجمَّعٍ سكنيٍّ ضخمٍ في لندن، ولم يكن أَحدٌ يطرق بابها أَو يراسلها، فطفقت تبعث برسائل إِلى ذاتها، كي يطرق بابها ساعي البريد.

إِلى مثل تلك الخدمات الصغيرة، الكبيرة بما تتضمّنه من حبٍّ، كانت تدعو متعاونيها، مردّدةً، بلا هوادة: "**دعوا المهامّ الكبيرة للآخرين**".

وغالبًا ما خاطبت جموع المتعاونين بمثل هذا القول: "**لستُ أُريد أَن تُعطوني من فائضكم؛ فالفقراء لا يحتاجون إِلى رأفتكم وإِشفاقكم، بل إِلى حبّكم وعطفكم. وَأَكْثَر ما يفتقرون إِليه هو الشعور بأَنّهم ضروريّون ومحبوبون. فالنبذُ الذي يفرضه الفقر هو الذي يجرحهم. لكلّ أَصناف العِلَل أَدويةٌ وعلاجٌ. ولكن عندما يكون المرءُ غير مرغوبٍ فيه، وإِن لم تتوفّر له أَيدٍ متفانيةٌ، وقلوبٌ محبّةٌ، فحينئذٍ لستُ أَظنّ أَنّ**

علّته قابلةٌ للشفاء. ينبغي أَن نعطي حتّى يوجعنا العطاء... قد يتضوّر المرء جوعًا إِلى الحبّ مثل تضوّره جوعًا إِلى الطعام... وإِنّه، أَحيانًا، لأَسهل أَن نحبّ من هم بعيدون، على أَن نحبّ القريبين، وإِنّه لمن الأيسر الجود بطبق أَرزّ من إِيناس وحشة ويأس من يشعر أَنّه غير محبوبٍ داخل أُسرته... الفقراء يحتاجون إِلى الاعتراف بكرامتهم، وعلينا أَن نكون ممتنّين لهم، لإتاحتهم لنا فرصة خدمتهم، فهم يعطوننا ما يربو كثيرًا عمّا نعطيهم."

وفي سياق دعواتها المتكرّرة إِلى المتعاونين كي يشرعوا عملهم انطلاقًا من ذواتهم وأُسرهم، روت، مرَّةً، هذه الحادثة:

« ذاتَ يومٍ كنتُ في بلدٍ متعاونوه كُثُرٌ، ولحظتُ زوجَيْن اتّضح أَنّ بينهما خلافًا، فقلت لهما إِنّني لا أَستطيع إِدراك كيف سيقويان على إِعطاء الآخرين يسوع، إِن لم يتبادلاه فيما بينهما، وكيف يستطيعان اكتشافه تحت مظاهر المتأَلّمين، إِن لم يرياه في ما بينهما.

"وأَفرغ الزوجان جراب خلافاتهما، وأَماط كلٌّ منهما اللثام عن مأخذه على الآخر، إِلى أَن قاطعتهما قائلةً: "كفى الآن، ولنمضِ إِلى يسوع فنكرّر كلّ ذلك على مسامعه". وشخصا إِلى المصلّى، وجثيا أَمام الهيكل، وبعد لحظات التفت الزوجُ إِلى زوجته قائلاً: "أَنتِ، في هذه الدنيا، حُبِّي الوحيد، وكلّ ما أُحبّه وأَمتلكه"... لقد تحوّلا، بعد أَن أَدركا أَنّ من لا يستشفّ يسوعَ في الآخر، لا يستطيع إِعطاءه القريب. فلنولِ اهتمامًا لواجبنا في علاقاتنا الزوجيّة، والعائليّة، أكبر من اهتمامنا بأَخطاء الآخرين. فيومًا إِثر يومٍ يزداد الناس انشغالاً، بحيثُ لا يتّسع لهم وقتٌ لتبادل الابتسامة، حتّى داخل الأُسرة، فالجميع مشغولون جدًّا، وليس في البيت من يستقبل الطفل ويلاعبه، ولذلك يفرّ إِلى الشارع".

ولم تنِ تعيد القول بأَنّ العطاء لا يُقاس بمبلغه، ولا العمل بجسامته، بل بما يُسكب فيهما من حبٍّ وتضحيةٍ، بحيث يمسيان سبيلاً إِلى اكتشاف الله، وتقديس الذَّات. وقد روت، يومًا، أَمام حشدٍ من المتعاونين في "لوس أَنجيليس"، حكاية طفلٍ هنديٍّ في الرابعة من العمر، تنامى إِليه أَنّ الأُمّ تيريزا تفتقر إِلى السكّر من أَجل أَطفالها، فحرم نفسه نصيبَه منه طيلة ثلاثة أَيَّام لكي يوافيها بما قتّره على ذاته،

وعلّقت بقولها: "**هذا الصبيُّ يحبّ حبًّا كبيرًا، لأنّه أَحبّ حتّى التضْحِيَة. التبرّع بالمال لا يكفي، بل علينا أَن نعطي بحيث نفرض على ذواتنا التضحيات**".

كانت تتطلّع إِلى تمرّس المتعاونين من الخدمة، بحيث يستجيبون تلقائيًّا إِلى نداء كلّ محتاجٍ، كما يتضح من قولها:

« **أَودّ أَن يضع المتعاونون سواعدهم وقلوبهم في خدمة البشر، فإِن هم لم يوثّقوا علاقاتهم بهم، لما استطاعوا معرفة من هم الفقراء. لقد جاءني، يومًا، رجلٌ أوستراليٌّ بهبةٍ قيّمة، ولكنّه بعد أَن قدّمها قال:** "**هذه من خارج ذاتي، والآن أَودُّ أَن أُعطي من ذاتي،**" **ومُذّاك بات يقدم بانتظامٍ إِلى بيت المحتضرين، فيحلق لهم ذقوتهم، ويتحدّث إِليهم، مقدّمًا لا ماله فحسب، بل وقته أَيضًا.**

"**إِنّي أُؤكّد على ضرورة إِسهام الناس في أَعمالنا لصالحنا وصالحهم على السواء. أَطلب منهم أَن يجودوا بحبّهم، مقدّمين أَيديهم للخدمة، وقلوبهم لحبّ الفقراء؛ وحينئذٍ حالما سيعثرون على فقيرٍ، سيندفعون تلقيائيًّا لعمل شيءٍ من أَجله** ».

وهكذا، شيئًا فشيئًا، تبلور، عن التعاون، تعليمٌ خاصٌّ، نشرته الأُمّ تيريزا بأَقوالها في كلّ مكانٍ، وكلّ مناسبةٍ، ورسَّخته بمثال حياتها، وبأُسلوب عيشها الذي لم يكن، في جوهره، سوى عيش روح الإِنجيل واقعيًّا، معاصرًا، أَصيلاً. طلائع المتعاونين وأَقطابه، نظير "آنّ بليكي" وأَمثالها، لم يكونوا يفقهون من حقيقته شيئًا، ولكنّهم، في مدرسة الأُمّ تيريزا، تعلّموا، وتبدّلت نظرتهم إِلى ذواتهم وإِلى الآخرين وإِلى الله، وتحوّلوا من مجرّد عملٍ خيريٍّ سطحيٍّ إِلى بذل ذاتٍ حقٍّ، وفي تيّارهم اندفع أُلوف المتعاونين في شتّى أَصقاع المسكونة، جاهدين في دفع حياتهم على ذلك الدرب الوعر البطوليّ.

طالما حلمت الأُمّ تيريزا بجيشٍ رديفٍ من العلمانيّين يدعم جهود مرسلاتها، ويحدوه روحهنّ، وبأُسرةٍ روحيّةٍ شقيقةٍ تشاركهنّ نظرتهنّ إِلى القريب، ولا سيّما المتألّم والمرذول، على غرار "الرهبانيّة الثالثة" المستوحاة من روحانيّة القدّيس فرنسيس الأَسّيزي. وقد تحقّق حلمها في جماعات المتعاونين التي تراصّت صفوفها، وأَينعت ثمارها في كلّ أرضٍ، وتميّزت عن "الرهبانيّة الثّالثة" الفرنسيسكانيّة بتحطيمها جميع الحواجز الطائفيّة والمذهبيّة، وانفتاحها على جميع أَبناء الله بلا استثناء.

وقد أكّدت هذا التحوّل، وتلك الروحَ المسكونيّة الناطقةُ الدوليّة باسم المتعاونين، السيّدة "آنّ بليكي"، بعد أَن تمثّلت دروسَ الأُمّ تيريزا، وأُفعمت بروحها، وأُخِذتْ بمُثُلها، فاستَطاعت أَن تصرّح:

« أَساس عملنا الصلاة والخدمة. كان ثمّة من يحيكون أَلبسةً، أَو يصنعون أَضمدةً، ويجمعون ثيابًا عتيقةً يرسلونها إِلى الهند، أَو يبيعونها ويرسلون ناتج بيعها، ولكن، في جميع الحالات، كان لا بدّ من الإِيضاح أَنّ مبلغ العطاء أَقلّ شأنًا من مقدار الحبّ الذي يتضمّنه.

"لقد نمت لدينا حياة الصلاة، وبات المتعاونون يعقدون حلقات صلواتٍ في الكثير من المدن والقرى... وفي شتّى أَنحاء البلاد تُقام رياضاتٌ روحيّةٌ لمدَّة يومٍ واحدٍ، أَو لمدّة عطلةٍ أُسبوعيّةٍ. وجميع نشاطاتنا في حقل الصلاة تتَّصف بالمسكونيّة، فالمتعاونون ينتمون إِلى معتقداتٍ ومذاهب متنوّعةٍ.

"أُسلوب عيشنا، بصفتنا متعاونين، قائمٌ على حبّ يسوع ورؤيته في الجميع، وعلى معاملتنا الجميع معاملتنا ليسوع نفسه. إِنّ مرسلات المحبّة ينذرنَ نذرًا رابعًا، نذرَ خدمة المسيح مجّانًا، وبكلّ قلوبهنّ، في أَلمه الأَكبر، وهذا ما يتعيّن علينا، نحن المتعاونين، فعله في حياتنا. لقد أَسَّست الأُمّ تيريزا حياة المتعاونين على الصلاة... اجتماعاتنا تُستهلّ بالصلاة، وببضع دقائق تأمّلٍ. وهي تطلب من المتعاونين معها أَن يجتمعوا، مرَّةً كلَّ شهرٍ، كي يصلّوا معًا، مدى ساعةٍ.

"ثمّ يمضي المتعاون كي يعبّر عن حبّه في أُسرته، ولدى من يصادفهم في الشارع، وفي جواره، وبلده، وفي العالم أَجمع، باحثًا عمّن هم وحيدون أَو معاقون، أَو مرضى، أو مسنّون، أَو مُهمَلون، حاملاً إِليهم حبّ يسوع ».

وبعد أَن نمت حركات التعاون في شتّى البلدان، ونضج مفهومها في فكر الأُمّ تيريزا، وفكر المتعاونين على السواء، ارتأت الأُمّ إِضفاء صبغة رسالتها، رسميًّا، على تلك الحركات، وتأكيد انتمائها الروحِيّ إِلى جمعيّة مرسلات المحبّة. وفي ۱۹٦۹/۳/۲۳ اجتمعت في مقرّ مرسلاتها، في ضاحية روما، بالمُنَسّقة البريطانيّة "آنّ بليكي"، وبزوجها المحامي جون، وبالمنسّقة الأَلمانيّة الآنسة "جوزيفا جوسيلكي"، ومعًا، عكفوا على وضع نظام الاتّحاد الدوليّ للمتعاونين مع الأُمّ تيريزا، أَو اتّحاد

متعاوني المسيح مع الأُمّ تيريزا كما تؤثر هي أَن تسمّيه؛ وفي السادس والعشرين من آذار، قابلوا قداسة البابا بولس السادس الذي باركهم جميعًا، وبارك اتّحادهم وأَعضاءه في كلّ العالم؛ وفي تلك المناسبة عُيّنت السيّدة "آنّ بليكي" منسّقةً دوليّةً للمتعاونين، كما عُيّنت الآنسة "جاكلين دي ديكير" منسّقةً دوليَّةً للمتعاونين المعاقين والمتألّمين. ومن أَهمّ بنود ذلك النظام:

« – يتألّف الاتّحاد الدوليّ مع الأُمّ تيريزا من رجالٍ ونساءٍ، وشبّانٍ، وفتيانٍ، ينتمون إِلى جميع الأَديان والمذاهب، في العالم أَجمع، يرومون حبّ الله في إِخوتهم البشر، بخدمتهم، بكلّ قلوبهم، خدمةً مجّانيّةً، أَفقر الفقراء، من كلّ الطبقات والمعتقدات، ويرغبون في الاتّحاد مع عمل الأُمّ تيريزا ومرسلات المحبّة، بروحٍ من الصلاة والتضحية، وذلك بهدف مساعدة الناس على تمثّل الله في الفقراء، وعلى الإِيغال في حبّ الله، عبر أَعمال المحبّة والخدمة، بالاشتراك مع مرسلي ومرسلات المحبّة، وسائر المتعاونين في العالم أَجمع، وبالحفاظ على روح الأُسرة فيما بينهم.

"الفقراء" هم الذين لا يملكون ما يكفي لطعامهم، والذين لا تنسجم ظروف حياتهم مع مقتضيات الكرامة الإِنسانيّة، والذين يعانون من حرمانٍ مريعٍ مادّيًّا، روحيًّا واجتماعيًّا، بالمقارنة مع جيرانهم. وفي إِصغائهم إِلى شكاوى الفقراء، يولي المُتَعَاوِنُونَ اهتمامًا خاصًّا بغير المرغوب فيهم، والمحرومين من الحبّ.

– يعبّر المتعاونون عن حبّهم لله بخدمة فقرائه، عملاً بأَقوال يسوع نفسه:

"إِنّ ما تصنعونه للأَصغر بين إِخوتي فلي تصنعونه؛

"لأَنّكم وجدتموني جائعًا فأَطعمتموني،

"وعطشانًا فسقيتموني،

"وغريبًا فآويتموني،

"وعريانًا فكسوتموني،

"ومريضًا فعدتموني،

"ومحبوسًا فزرتموني ».

– يعترف المتعاونون بكرامة كلّ حياةٍ إِنسانيّةٍ، وبقيمتها الفريدة اللاّمحدودة.

– الحبّ والخدمة هما مفتاح العطاء.

– يعترف المتعاونون مع الأُمّ تيريزا بأَنّ كلّ خيرات العالم، بما فيها مواهب العقل والجسد، وميزات المولد والتربية، هي هِباتٌ من الله مجّانيّةٌ، وأَنّه لا يحقّ لأَحدٍ أَن ينعم

بفائضٍ من المال، في حين يَنفُق آخرون جوعًا، ويكابدون شتّى ضروب الحرمان. وهم يتطلّعون إلى تصحيح هذا الظُّلم الفادح، بممارسة الفقر الطوعيّ، والتضحية بكلّ أَصناف الترف، في معيشتهم اليوميّة.

– على المتعاونين التمثُّل بروح الفقراء والتواضع الذي تتَّصف به مرسلات المحبّة، والتنكّب عن النفقات النافلة أَثناء اجتماعاتهم، ومزاولة أعمالهم باقتصادٍ وتقتيرٍ.

وانطلاقًا من هذا المبدأ، يُحظر، أَثناء اجتماعات المتعاونين، تقديم الأَطعمةِ، وأَنواع الشراب، خلا الماء، بحيث يُمكن عقدها في بيوت الفقراء. والهدف من تلك الاجتماعات اقتسام الخبرات الروحيَّة، وأَعمال المحبّة، والتعمُّق في فهمها، واغتناء كلّ متعاونٍ بتجربة الآخر.

– على نحو ما تخدم مرسلات المحبّة الفقراء، بكلّ قلوبهنّ، كذلك على المتعاونين، وجميع من أُسندت إِليهم منهم مهمّةٌ، أَن يفعلوا.

– يُصدر الاتّحاد نشرةً تتضمّن المشاريع التي نهضت بها كلُّ جماعةٍ، وأَخبار نشاطات مرسلات ومرسلي المحبّة، وعناوين أُمناء السرّ، وكلّ المعلومات الهامّة المتعلّقة بالرسالة والمتعاونين.

وبتوجيهٍ من الأُمّ تيريزا، بات مألوفًا أَن يصدر عددان فقط من تلك النشرة سنويًّا، لكيلا يستغرق تحضيرها كثيرًا من الوقت والطاقات التي ينبغي وقفها على خدمة الفقراء. ومع ذلك ينتظر الجميع تلك النشرات بتوقٍ ونفاد صبرٍ، لأَنّهم يجدون فيها رابطة صداقةٍ، ووسيلة تواصُلٍ، وحافزًا على الحفاظ على روح أُسرةٍ أَصيلٍ.

وكانت "آنّ بليكي" أُولى المكلّفات بإِعداد تلك النشرة؛ وفي عام ١٩٨٠، تولّت إِصدارها الكاتبة الأَميركيَّة "إِيلين إِيجان"، ومنذ الوهلة الأولى تبيَّنت كم رحبةً ومتنوّعةً كانت شبكةُ العطف التي نسجها مرسلو المحبّة ومرسلاتها، والمتعاونون معهم، وكم مدهشةٌ الإِنجازات الرائعة، في سبيل الله وخلائقه، المُحَقَّقة في كلّ لحظةٍ، وكلّ مكانٍ. ثمّ عُهِد بإِعداد النشرة إِلى "وورين وپاتريسيا– كيمب"، اللذين عُيّنا منسِّقَيْن دَوْليين. وما زالت تلك النشرة تُنسَخ على ورقٍ رخيصٍ، مُتَبَرَّع به، لكيلا يُهدَر قرشٌ واحدٌ يخصّ الفقراء، وترسل إِلى جميع فروع مرسَلات ومرسلي المحبَّة، وتوزّع على المتعاونين، بعد أَن تترجم، في بعض البلدان، إِلى اللغات المحلّيّة؛ ومن خلال تلك النشرة يتّضح للمتعاونين مدى اتّساع أُسرتهم الممتدّة إِلى جميع أَطراف المسكونة، والماضية في اتّساعٍ مطّردٍ.

ومنذ البدء، وضنًّا منها بكلّ فلسٍ يخصُّ الفقراء، أَوعزت الأُمّ تيريزا أَن يُستخدم في طبع النشرة أَرخص أَنواع الورق، وأَن تُنسَخ، وأَلاّ يوظّف أَيّ شخصٍ في تحريرها، وأَن يتمّ إِعدادها وتوزيعها مجّانًا من قبل مُتبرِّعين.

– على الجميع استخدام بطاقات صلاةٍ، وتأَمُّل مقطعٍ منها، بضع دقائق، قبل كلّ اجتماعٍ.

– يشترك الجميع مع مرسَلات ومرسلي المحبّة، بيوم صلاةٍ وشكرٍ، حُدّد تاريخه، في العالم أَجمع، في السابع من تشرين الأَوّل الموافق لذكرى تأسيس جمعيّة الأُمّ تيريزا.

– وعلى كلّ متعاونٍ أَن يتلو هذه الصلاة المؤلّفة من قسمين، أَوّلهما من وضع البابا بولس السادس، والثّاني صلاةٌ معزُوَّةٌ إِلى القدّيس فرنسيس الأَسّيزي:

« اللهمّ اجعلنا جديرين بخدمة قريبنا،
الذي يعيش في هذا العالم فقيرًا وجائعًا.
بيدَيْنا أَعطِه، اليوم، خبزَه الضرُورِيّ،
وبواسطة حبّنا المتعاطف،
هَبْه السلام والفرح.
إِجعل مني، يا ربّ، أَداة سلامك،
فأَضع الحبّ محلَّ البُغض،
والغفرانَ محلَّ المعصية،
والوئام محلَّ الفرقة،
والحقيقةَ محلَّ الضلال،
والإِيمان محلَّ الشكّ،
والنورَ محلَّ الظُّلمات،
والفرحَ محلَّ الحزن؛
اجعلني أَنشدُ سكب العزاء، أكثر من نشداني العزاء لنفسي،
وأَفهمُ الآخرين أكثر من حملهم على فهمي،
وأُحبّهم أكثر من حملهم على حُبّي،
فالإِنسان ينال بعطاء ذاته،
ويجد ذاته عندما يُغفِلها،
ويظفر بالصفح عندما يُسامح،
وبالموت ينهض إِلى الحياة الأَبديّة ».

وإلى تَينْك الصلاتين أُضيفت ثالثةٌ من وضع الكردينال نيومن، وقد أَجرت عليها الأُمّ تيريزا تعديلاً طفيفًا، بحيث يستطيع أَن يتلوها أَيّ متعاونٍ، أَيًّا كان مذهبه؛ وهذه الصلاة تقول:

« أَشعَّ من خلالي، يا ربّ
ولتكن فيّ بحيث تستشعر كلُّ نفسٍ أَتّصل بها حضوركَ في نفسي،
استقرّ فيّ، فأَشرع أُشعّ مثل إِشعاعك، بحيث أَغدو للآخرين نورًا، وسيكون النور كلُّه منك،
ولا شيء منه منبعثٌ منّي،
بل ستكون، أَنتَ، مشعًّا من خلالي ».

وقد تُرجمت الصلوات الثلاث إِلى مختلف لغات العالم، كي يتلوها كلّ متعاونٍ بلسانه.

الشرط الجوهريّ الوحيد للانتماء إِلى جماعة المتعاونين، جاهزيّةٌ للخدمة مجسَّدةٌ في معرفة الفقراء، ومحبّتهم، ورؤية الله فيهم؛ وفيما عدا ذلك، لا شأن لعمر طالب الانتساب، أَو لحالته الصحّيّة، أَو لوضعه الاجتماعيّ، أَو لجنسه ودينه؛ وهو لا يخضع لأَيّة فريضة اشتراك، أَو لأَداء أَيّ مبلغٍ محدّدٍ، فالتبَرُّع مطلقٌ، والعون المادّيّ غير مرفوضٍ، ولكن في منأًى عن أَيّ التزامٍ.

ولا بدعَ، بالتالي، إِن ازدهر اتّحاد المتعاونين ازدهارًا تخطّى كلّ توقّع، ممَّا أَثلج صدر الأُمّ تيريزا، ورفدها بدفعٍ جبّارٍ للمضيّ في رسالتها، بعد أَن شهدت جموعًا من طبقاتٍ ومذاهب ومعتقداتٍ متبَاينةٍ، تتدافع للتَّعاون معها وفيما بينها، ويتنافس فيها، كتفًا إِلى كتف، هندوسيّون ومسلمون ويهودٌ، ومسيحيّون كاثوليكيّون وأَنكليكان وپروتستانت، منهم قلّةٌ يتمتّعون بوضعٍ اجتماعيٍّ رفيعٍ، وَأَكْثَرِيَّةٌ من الضُّعَفاء اقتصاديًّا، ولكنّهم أَغنياء في البذل والجاهزيّة للخدمة.

ومع ما تستلزمه مشاريع الأُمّ تيريزا المترامية الأَطراف من مبالغ ماليّةٍ طائلةٍ لاحدود لها، إِلاّ أَنّها حرصت، منذ البدء، على توضيح موقفها من المال، بجلاءٍ لا لَبْس فيه، فهي لا تهتمّ له، لأَنّ اعتمادها على العناية الإِلهيّة مطلقٌ، ولأَنّها مؤمنةٌ بأَنَّ الربّ، عندما يشاء تحقيق مشروعٍ ما يوفّر له أَسباب النجاح؛ وإِذا لم تتوفّر تلك الأسباب لأَيّ مشروعٍ، استدلّت بذلكَ أَنّ الربّ غير راغبٍ فيه. ومن ثمّ، حرصت

على أَن يشاركها المتعاونون هذا الإِيمان، ويقفوا من المال مثـــل موقفهـــا، ويكـــون اعتمادهم على الله، لا على المال. ولذلك حَظَرت جباية الأَموال المنظّمة مـــن أَجـــل مشاريعها، على نحو ما يتجلّى من قولها الصريح في مدينة "ليـــپشتاد" الأَلمانيّة، في شهر آب ١٩٧٦:

« أريد منكم الامتناع عن دعوة الناس إِلى دفع مبـــالغ محـــدّدة، شـــهريّة أَو أُسبوعيّة، فلستُ أَسمح بذلك حتّى في الهند. إِنّنا نعتمد على العنايـــة الإِلهيّـــة، ولا يروق لي أَن يتكوّن لدى الناس انطباعٌ بأَنّنا نسعى إِلى المال. وعلـــى المتعـــاونين، أَيضًا، الاعتماد على العناية الإِلهيّة. فإِن قدّم الناسُ المالَ طوعًا، فليتبارك الـــربّ، ولكن إِيّاكم وفرض التزامات محدَّدة المواعيد، تفرض عليكم هدر وقتكم في جبايتها، وضبط محاسبتها، ولا تقوموا، في هذا المجال، بأَيّة دعاوة، ولا تبعثـــوا برســـائل غايتها جمع المال، ولا تصنعوا أَشياء تستمدّون من بيعها مالاً. فما يترتّب علينا هو استفزاز روح التضحية. وإِنّي لواثقةٌ بأَنّ يسوع يريدنا هكذا، ولن أكفّ عن ترديـــد قولي هذا ».

وتمضي في إِيضاحها، فتقول: **"ليس لدينا أَيُّ دخلٍ، أَو ضـــمانٍ اجتمـــاعيٍّ، أَو عونٌ كنسيٌّ، بل إِنّ اعتمادنا على العناية الإِلهيّة مطلقٌ. لقد عُنينا، ونواصل عنايتنا بآلاف الفقراء، ولم نضطرّ، يومًا، إِلى ردّ أَحدٍ، بسبب عدم كفاية مواردنا، بل ثمّة، دائمًا، سريرٌ إِضافيٌّ لآخر محتضرٍ قادمٍ، أَو لطفلٍ وليدٍ مهجورٍ، وطبق أَرزٍّ فائضٌ، وغطاءٌ إِضافيٌّ يدفئ مقرورًا. إِنّ يسوع يفي دائمًا بوعده، ونحن، في نظـــر الآب، أَجلُّ شأنًا من الزهور، وعشب الحقل، وطيور السماء.**

"إِنّ العناية الإِلهيّة تُغدِق علينا عطاياها حبًّا بالفقراء الذين يُعنى بهم الله بواسطتنا. وهو يظهر لنا، بجلاء، ومن خلال العديد من الظّواهر الضئيلة الشأْن ظاهريًّـــا، آلاف الحوادث التي تُؤَكِّد حبَّ الله العطوف للفقراء. نحن نتعامل مع أُلوف الأَشخاص، ولـــم نضطرّ إِلى أَن نقول، يومًا، لأَحدٍ: "تأسف لأَنّنا لسنا نملك ما نعطيك".

وغالبًا ما تروي الأُمّ تيريزا الحادثةَ التالية لبيان حرصها على الاعتماد على العناية الإِلهيّة، فقد عَرَض ثريٌّ هنديٌّ التبرُّع بمبلغٍ ضخمٍ من المال لكي لا تجـــدَ المرســـلات أَنفسهن، يومًا، في افتقار إِلى ما يساعدهنّ على مواصلة نشاطهنّ، وقد أَربى مبلغ التبرّع

على نصف مليون دولارٍ؛ ولكنّه شرَط ألاّ يُمسّ ذلك المال، بل أن يودع في البنك ضماناً لعمل المرسلات اللواتي يستطعن استخدام فائدته فحسب. وقد كتبت له الأُمّ تيريزا شاكرةً لفتته، ولكنّها لكيلا تُغضب الله، آثرت إغضاب المتبرّع بعض الشيء، رافضةً ذلك التبَرُّع المشروط، مبيّنةً أنّ الربّ قد عُني بهنّ طوال سنواتٍ، وأنّ ما يوفّره ذلك المبلغ من ضمانٍ، إنّما هو قضاءٌ على روح جمعيّة مرسلات المحبّة المبنيّ على الثقة المطلقة في العناية الإلهيّة. وأكّدت: **"لا يسعني امتلاك مالٍ في المصارف في حين يَنفُق بعض الناس جوعًا"**. وتضيف: **"لقد صدمه رفضي، ولكنّه، قبل وفاته أرسل المال مخصّصًا كذا للبُرْص، وكذا لدار المحتضرين، وكذا لشراء أطعمة، الخ. وهكذا دُفِع المبلغ كلّه"**. وقد عقَّبت على ذلك الحدَث بالقول: **"ينبغي أن نمتلك جرأة قول "لا" أحيانًا"**.

ومن الأَمثلة على إيثارها الاعتماد على العناية الإلهيّة، أيضًا، ما حدث عام ١٩٧١ في نيويورك عندما أُسِّسَ أوّلُ مركزٍ لمرسلات المحبّة هناك، بدعوةٍ من رئيس الأساقفة الكردينال "تيرنس كوك"، الذي كان يكنّ لعمل الأُمّ تيريزا تقديرًا جمًّا، وحبًّا قلّما بزّه فيه أحدٌ. واستقرّت المرسلات في رعيّته، في حيّ الزنوج "هارلم"، وارتأى الأُسقف أن يقف لهنّ، من ميزانيّة الرعيَّة، مبلغًا محدَّدًا ثابتًا يُؤمّن أَوَدهنّ. ولمّا تنامى الأمر إلى علم الأُمّ تيريزا وجدت نفسها في حيرةٍ عبّرت عنها بقولها: **"كنتُ حريصةً على التحاشي عن إهانته، ولكن، من جانبٍ آخر، كان لا بدّ لي من أن أشرح له أنّ عملنا يتمّ، فقط، حبًّا بالله، وأنّه لا يسعنا، في أيّة حالٍ، قبول أدنى مخصَّصات ثابتةٍ لتأمين نفقاتنا. وأخيرًا اهتديت إلى هذا التعبير: "يا صاحب النيافة، لستُ أعتقدُ أنَّ الربّ سيُعلن إفلاسه في نيويورك بالذّات!"**

وفي عام ١٩٧٨ كان منسّقا اتّحاد المتعاونين في ألمانيا، وهما "جوزيفا جوسيلكي"، و"فيرديناند كامبر" قد تمكّنا، بفضل تنظيمٍ مُحكَمٍ، من إرسال هباتٍ إلى مرسلات المحبّة بلغ مجموعها نحو ستّة ملايين مارك ألمانيٍّ. ولكن لم يكن لجسامة ذلك المبلغ، ولا لدقّة التنظيم التي أفضت إلى جمعه أيُّ وقْعٍ على نفس الأُمّ تيريزا، ولذلك طلبت، في السنة التالية، أن يُفتَح حسابٌ مصرفيٌّ باسم اتّحاد المتعاونين، يودع فيه المتبرّعون تلقائيًّا ما يرغبون في عطائه، وفي الوقت الذي يرغبون. أمّا عن التنظيم، فهي لا تفتأ تردّد: **"إنّ منظّمتنا هي أقلّ المُنَظّمات تنظيمًا على الإطلاق."**

ولكي تحرّر المتعاونين من هَوَس جباية المال، ودفعهم في سراط التعاون الحقّ المتمثّل في الخدمة وبذل الذّات، وجّهت إِلى نحو خمسة عشر أَلف متعاونٍ أَلمانيٍّ، في ٢١ تَمُّوز ١٩٨١، الرسالة التالية:

« أَصدقائي الأَعزّاء،

"أَودّ التعبير لكلٍّ منكم عن امتناني لدفعاتكم الماليّة السخيّة والمنظَّمة، وإِنّني لأَشكر لكم محبّتكم واندفاعكم؛ وبهذه المناسبة أَلتمس منكم خدمةً: أَن تتفضّلوا فتكفّوا عن موافاتي بالمال، بأَيِّ أُسلوبٍ كان، حتّى ينفد ما لدينا منه، وحينئذٍ سأتوجّه إِليكم من جديد. ذلك لأنّني أَودّ أَن أَخبَر معكم فرح الاعتماد على العناية الإِلهيّة... »

ذلك الطلب كان من الغرابة بحيث تداولته وسائل الإِعلام، ولكنّها عجزت عن استيعاب معناه العميق، فكتبت: "تطلب الأُمّ تيريزا أَلاّ يُرسل إِليها أَيّ مالٍ حتّى تُنفِق ما لديها." "إِنّها تملك فائضًا من المال لا تعرف إِلى إِنفاقه سبيلاً." ولكن لم يكن لرغبة الأُمّ في الاتّكال على العناية الإِلهيّة أَيّ ذكرٍ؛ ولم تكن تلك هي المرَّة الأولى يُساء فيها تأويل أَقوال الأُمّ تيريزا وأَفعالها. إِلاّ أَنّها، لحسن طالعها، لا تحفل كثيرًا بما تنشره وسائل الإِعلام، إِذ لا متّسع من الوقت لديها لمطالعة صحيفةٍ، أَو الاستماع إِلى مذياعٍ، أَو مشاهدة تيليفزيونٍ. ولكنّها، في تلك المرَّة، وعندما أُحيطت علمًا بتخرُّصات الصحف، حرصت على فضح خَطَل ذلك القول، مذكّرةً أَنّها، في السنوات الأَخيرة، قَبِلت حتّى أَصغر الهبات مثل تبرّعات طلاّب مدارس في الهند بخبزٍ من أَجل أَطفال الأَكواخ، وتبرّعات أَطفالٍ بريطانييّن بحليبٍ مجفّفٍ، وأَطفالٍ أَلمانييّن بأَقراص فيتامينٍ، ومثل ذلك الكثير، مؤكِّدةً: "من الجليّ أَنَّهُ ليس بوسعنا أَلاّ نحتاج إِلى المال، ولكنّ ما توخّيتُ قوله هو أَلاّ ينبغي أَن نجعل من المال هدفنا." لقد توخّت منح المتعاونين الأَلمان هدنةً يتمّ خلالها تحوّلهم النفسيّ الذي كانت ترغب فيه، وإِعتاقهم من هَوَس جباية المال من أَجل مشاريعها.

لقد كان دَيْدن الأُمّ تيريزا، سواءٌ عبر رسائلها إِلى المتعاونين، أَو عبر مداخلاتها أَثناء اجتماعاتهم، ترسيخ ذلك المفهوم العميق للتَّعاون، لكي ينسجم مع روح مرسلات المحبّة، وتصحيح النظرة السطحيّة المهيمنة لدى المتعاونين الأَوائل، وردّها إِلى

الأَصالة الإنجيليّة. وحيثما شخصت كانت تُذكّر المتعاونين بواجب الامتناع عن جباية الأَموال المنظَّمة من أَجل مشاريعها، فاسحةً المجال للتَّبرُّع الطوعيّ التلقائيّ النابع من القلب؛ وقد أكّدت أَنّ الهبات قد تضاعفت في كلّ مكانٍ توقّفت فيه الجباية المنتظمة، مستخلصةً أَنّ الاعتماد على العناية الإِلهيّة من أَجل إِسعاف الفقراء، هو السبيل الواضح الوحيد.

وهي لم تنِ تردّد: "**لا أُريد أَن ينقلب المتعاونون رجال أَعمال، بل أَن يظلّ عملهم عمل محبّةٍ. أُريد أَن توقنوا أَنّ الربّ لن يتخلّى عنّا. صدّقوا قوله واطلبوا، أَوّلاً، ملكوت الله، وكلّ ما سوى ذلك تُعطَونه علاوةً. إِنّ الفرح والسلام والوحدة أَخطر شأْنًا من المال. وعندما يبتغي الله منّي عمل شيءٍ، فهو يوفّر لذلك المال اللازم.**"

وَإِمْعَانًا في تحرير المتعاونين من الاهتمام بجباية الأَموال، طلبت أَن تُقدَّم التبرّعات مباشرةً لأَخواتها، في كلّ بلدٍ يفتتحنَ فيه فرعًا، لكي تقوم بين المرسلات والمتبرّعين صِلاتٌ شخصيّةٌ، وعلاقات إِخاءٍ.

وفي شتّى أَرجاء العالم، تواترت الهبات، الصغيرة منها التي توجع صاحبها، والأَكبر التي قد تكون أَقلّ إِيجاعًا، ولكنّها تمثّل حرمانًا من متعةٍ.

وقد أَلِف المتعاونون، في مختلف البلدان، عقد مؤتمرٍ عامٍّ، مرَّةً في السنة، ودرجت الأُمّ تيريزا على حضور تلك المؤتمرات لكي تعمّق روح رسالة المحبّة في نفوس المتعاونين معها.

أَمّا في الولايات المتّحدة، فنظرًا لبُعد المسافة، قرّر المتعاونون عقد مؤتمرهم، مرَّةً كلّ سنتَيْن، كي يتسنّى للأمّ المشاركة فيه. وكان اتّحاد المتعاونين، هناك، قد تأَسَّس رسميًّا في ٨ كانون الأوّل ١٩٧١، وانتُدبت السيّدة "پاتريسيا كيمب" لتولّي دور المنسّقة فيه. وقد كتبت الأُمّ تيريزا للاتّحاد الناشئ: "**منذ البدء فلنحاول عيش روح مرسلات المحبّة، وهو روح استسلامٍ تامٍّ لله، ومحبّةٍ، وثقةٍ متبادَلة، ومشاركة الفرح مع الجميع**". وتدفّقت الهبات، وانتظمت تلقائيًّا مجموعةٌ من المتطوّعين لحصرها، وتأمين وصول كلّ قرشٍ منها إلى مرسلات المحبّة، ولإِبلاغ المتبرّعين الشكر. وقد أَسهم في مضاعفة التبرّعات توزيع أَفلامٍ وكتبٍ عن الأُمّ تيريزا، وتسجيلات لأَحاديثها حقّقها المتعاونون أَنفسهم، وانتشار صورها على غلافات أوسع

المجلاّت رواجًا مثل "تايم"؛ وسحابةَ عدَّة سنواتٍ شارفت تبرّعات الأَميركيّين زهاء مليون دولارٍ سنويًّا، ممّا مكّن مرسلات المحبّة من تقديم خدماتٍ مجّانيّةٍ من أَعماق القلب لأَكثر مناطق المسكونة حاجةً.

وقد انعقد مؤتمر المتعاونين الأَميركيّين الأَوّل في تشرين الأَوّل ١٩٧٢ في رهبانيّة الثّالوث الأَقدس في "يوتا"؛ وفي ذلك المكان المجرّد من كلّ نافلٍ، خاطبتهم الأُمّ تيريزا، معيدةً إِيَّاهم إِلى بساطة الإِنجيل، ومساعدةً إِيّاهم على التقاء المسيح، كي يُصبحوا به خليقةً جديدةً، فقالت لهم: "**علينا أَن "تكون" قبل أَن "تفعل". إِن كنّا، حقًّا، نحبّ يسوع في الفقراء، فلنوثق، أَوّلاً، علاقتنا به، وحينئذٍ، فقط، سنستطيع، حقًّا، رؤيته فيهم.**"

وضربت لهم مثل أَحد الإِخوة، وقد وافاها قائلاً إِنّه توّاقٌ إِلى خدمة البُرْص، ولا يريد أَن يُكلَّف بأَيِّ عملٍ آخر، فأَجابته ببساطةٍ ووضوحٍ: "**ليست دعوتك هي خدمة البُرْص، بل أَن تخصّ يسوع، فهو قد اختارك لنفسه، وعملك هو أَن تضع حبّه موضع التنفيذ، ودعوتك هي أَن تكون خاصّته**". ومذّاك تبدّل جذريًّا، ولم يعُدْ يحفل إِن هو انصرف إِلى الطهو، أَو الغسيل، أَو تنظيف الشوارع، أَو الاهتمام بالبُرْص، وغدا شعاره: "إِنّني أَخصّ يسوع، وهذا كل ما يعنيني."

وأَعادت على مسامعهم القول: "**دعوا الربّ يستخدمكم من غير أَن يستشيركم**"؛ "**هنا، في أَميركا، ما أَسهل أن تخنقكم الأَشياء، فعندما تحصلون عليها، يجب أَن تفسحوا وقتًا للعناية بها، ولا يبقى لديكم متّسعٌ من وقتٍ للاهتمام بعضكم ببعض، أَو لاهتمامكم بالفقراء. عليكم أَن تولوا الفقراء، مجّانًا، من الرعاية مثل ما يوليه الأَغنياء لأَموالهم**".

ومن أَهمّ الأَفكار التي طرحتها في ذلك اللقاء نذكر:

- التعاون أُسلوب حياةٍ، وليس لقبًا،
- المتعاون إِنسانٌ يُحبّ، والناس يعرفوننا من حبّنا،
- ليس الشأن لما نفعل، بل لمقدار الحبّ الذي نسكبه في ما نفعل،
- أَن يكون المرء متعاونًا يعني أَنّه يخصّ يسوع،
- ينبغي أَن نؤتي القوم الذين نلقاهم المزيد من يسوع ومن حبّه،

– وعلينا أَن نعلن عن المسيح بأُسلوب مشينا، وطريقة حديثنا، ونمط ضحكنا، بحيثُ يدرك كلّ فردٍ أَنّنا نخصّه،

– لا نعلن عن يسوع بالوعظ، بل بما نحن عليه،

– علينا أَن نعمل بحيث يستطيع الناس أَن ينظروا ويروا الله فينا،

– فليحفظكم الربّ في قلبه، فهو المكان الوحيد حيثُ يمكن أَن يلتئم شملنا،

وربما انطوت الهند على أكبر عدد من المتعاونين، حيث تضمّ جماعاتهم مسيحيًّا واحدًا من أَصل عشرةٍ غير مسيحيّين، ومعظمهم من الهندوسيّين، وحيث غالبًا ما يدعم إِخوة المرسلات وأَقرباؤهنّ عملهنّ، وينهضون بالكثير من الأَعباء القاسية التي تعجز عنها النساء. وقد تألّفت، في الهند، جماعات متعاونين صغيرةٌ في كلّ حيٍّ، يتراوح عدد أَعضائها بين الاثنين والاثني عشر، وعندما يتمّ تجاوز هذا العدد، يُشرَع بتأليف جماعةٍ جديدةٍ.

وفي إِسبانيا تأسَّست جماعةٌ من المتعاونين آثرت أَن تطلق على نفسها تسمية "أَصدقاء الأُمّ تيريزا"، لما تنطوي عليه هذه التسمية من شحنةٍ عاطفيّةٍ؛ ولكن عندما زارت الأُمّ تيريزا إِسبانيا، عام ١٩٧١، أَعربت لهم، بكلّ طيبةٍ وعذوبةٍ، عن رغبتها في أَن يكون لها متعاونون يُعمّمون عملها إِلى جانب الفقراء المنبوذين أكثر من أَصدقاء يكرّمونها، ويقدّمون لها الأَموال؛ ومن ثمّ دعتهم إِلى تَبنّي اسم "المتعاونين"، كما هو الحال في سائر أَقطار العالم. الاستثناء الوحيد باستخدام اسم "أَصدقاء الأُمّ تيريزا" كان في فرنسا، لما تحمله هناك لفظة "المتعاونون" من صبغةٍ سياسيّةٍ بغيضةٍ، تذكّر بمن تعاونوا مع المحتلّين النازيّين.

وفي عام ١٩٧٦ خاطبت الأُمّ المتعاونين الإِسبانيّين قائلةً:

« لا يُقاس الحبّ بما نفعل، بل بما نعطي وبمدى ما يكلّفنا الحبّ. في البلدان التي لنا فيها فروعٌ، يساعد المتعاونون الأَخوات على تقديم وجبات طعامٍ للفقراء؛ في كلكتّا وفي سواها من المدن يسهمون في مراكزنا للمحتضرين والأَطفال المُهمَلين، والبرص، وفي مشاريعنا الأُخرى. وفي جميع هذه الحالات، ليس المهمّ أَن يفعلوا الكثير أَو القليل، بل المهمُّ هو الحبّ الذي يسكبونه في ما يفعلون.

"هنا، وفي أَماكن أُخرى، لا توجد، بعدُ، مرسلات محبّةٍ، ولا يسعكم في الوقت

الحاضر أَن تقدّموا لهنّ مساعدةً مباشرةً. ولكن يمكن أَن يكون جاركم القريب عليلاً، وليس مَن يؤمّن له احتياجاته، فهل أَنتم متأهّبون لتوفير هذه الخدمة له؟

"هنا شاهدت عددًا غفيرًا من الناس في الشوارع، مُهمَلين، لا أَحد يأبه بهم، جياعًا إلى الخبز. وأَنتم، أَين أَنتم؟ إنّ ما يفتقر إليه المُشرَّدون، ليس فقط بيتٌ من آجرٍ وإسمنتٍ، بل إنّهم يُعانون، خاصّةً، افتقاد الحماية، والهجران العاطفيّ، والافتقار إلى الحبّ، والطرد، ونبذ جزءٍ من المجتمع لهم. ومثل ذلك نشهده هنا، مثلما نشهده في نيويورك، ولندن، وباريس، وكلّ المدن الكبرى. إنّهم يرقدون في الزوايا الخفيّة مثل بقايا الصحف. ونحن، أَين نحن؟ علينا أَن نتعلّم الحبّ، الحبّ الموجع، ولكن علينا الشروع بممارسة حبٍّ مماثلٍ داخل أُسرتنا، حيث يتعيَّن علينا أَن نبدأ بنشر مودّتنا، مودّة الزوج لزوجته، والزوجة لزوجها، مودّة الأَهل للأَبناء، والأَبناء لذويهم وأَجدادهم. يجب أَن نفسح في قلوبنا مكانًا للحبّ، والفرح، والسلام، كي نُشيع ذلك الحبّ، وذلك الفرح، وذلك السلام، فهذه كلّها تجعلنا، كلّ يومٍ، أكثر تشبّهًا بالمسيح؛ ولنساعد، أَيضًا، أَبناءنا على النمو في هذا الحبّ، وليساعد أَحدنا الآخر. إنّ قداستكم عونٌ لمرسلات المحبّة، وهنّ متى تقدّسنَ يُصبحنَ، أَيضًا، لكم عونًا، وجميعنا معًا سنفلح في صنع شيءٍ جميلٍ لله ».

ويعقد اتّحاد المتعاونين الدوليّ مؤتمرًا عامًّا، كلّ بضع سنواتٍ، في إحدى المدن. وكان المؤتمر الأَوّل قد عُقد في لندن إثر حصول الأُمّ تيريزا على جائزة تمبلتون؛ وعُقد المؤتمر الثّاني في مدينة "ليبشتاد" الأَلمانيّة، وممّا صرّحت به الأُمّ تيريزا أَثناءه:

« يجب أَن نولي كلَّ اهتمامنا لجعل عملنا مهمّة حبٍّ؛ ولكي نبقيه على هذه الحال، ينبغي أَن نرسيه على ركيزة التضحية. إنَّ أَخواتنا، كما تعلمون، ينذرن بذل ذواتهنّ، من كلّ قلوبهنّ، لخدمة أَفقر الفقراء بسخاءٍ؛ وبهذا النذر، نحن نضع كلّ ثقتنا في العناية الإلهيّة.

"إنّنا نرفض أَيّ أَجرٍ عمّا ننهض به من عملٍ، وليس لدينا أَيّة رغبةٍ في إنشاء جهازٍ لجباية المال... لا نقبل أَيّ تعويضٍ ماديٍّ عن عملنا، ولا أَيّةَ هبةٍ نقديّةٍ لذواتنا.

"علينا أَن نعمل في سبيل الله بحبٍّ، وحتّى التضحية إن اقتضى الأَمر.

"ومن ثمّ نوضح أَنّ كلّ ما نُعطى من مالٍ، وطعامٍ، وأَدويةٍ، ينبغي أَن يُستخدم حصرًا لصالح الفقراء الذين نُعْنى بهم. فما ذلك سوى العدل تجاه الفقراء الذين، باسمهم نتلقّى هذه الهبات...

"ينبغي أَن ننشر في كلّ مكانٍ من حولنا روح التضحية. وإنَّني لواثقةٌ أَنّ تلك هي رغبة يسوع، ولن أكفّ عن ترديد ذلك.

"فلنقدّم كلّ أَعمالنا لمجد الله، ولنسأله أَن يساعدنا على أَن نصبح أَدوات سلامه، وحبّه، وعطفه ».

أَمّا المؤتمر العامّ الثالث فقد انعقد في ١٥ و ١٦ أَيّار ١٩٨٢ في روما، وقد خاطبت خلاله الأُمّ تيريزا متعاونين قادمين من خمسةٍ وثلاثين بلدًا قائلةً: "**ينبغي أَن تكونوا مثالاً حيًّا على حضور الله في العالم... إنّ الله يحبّ العالم من خلالكم**". وقد أكّدت على خطورة شهادتهم قائلةً: "**على نحو ما أَرسل الله ابنه لإعلان بشرى حبّه الجمّ للعالم، كذلك أَعطى العالَم المتعاونين ومرسلات المحبّة ومرسليها. إنّني أَعتقد ذلك، لا بل إنّني واثقةٌ منه، وأُريد أَن تؤمنوا به، وتعيشوا وفقًا لهذا الإيمان، فتتيحوا للربّ أَن يُحبّ من خلالكم، وتكونوا حُبّه، وعطفه، وفرحه، وكل شيءٍ له**".

ومرَّةً أُخرى، أَشارت إلى ضرورة التمرّس من روح الرسالة، وممارستها بدءًا من الأَقربين، وإلى واجب التمثُّل بيسوع وعكس صورته. وبالإجمال، رسمت الخطوط البارزة والجوهريّة لما يتعيّن على المتعاون أَن يتّصف به، ويكونه، فقالت: **"أَرجو أَن تتمكّنوا من المضيّ قُدُمًا، وباطّرادٍ، في التمثّل بيسوع، بحيث تصبحون رسُلاً حقيقيّين لحبّ الله، حاملين حضوره أَوّلاً داخل أُسركم، ولجيرانكم الأَقربين، وللّذين يعيشون في شوارعكم، وأَحيائكم، ومدينتكم، وفي بلدانكم المختلفة، وفي العالم أَجمع، مصبحين أَمثلةً له حيّةً. بذلك أُعبّر عن امتناني ليس فقط لكم، أَنتم الذين تقاطروا إلى هنا، ولكن أَيضاً لآلاف المتعاونين المبثوثين في كلّ مكان، والذين أَصبحوا جزءًا جوهريًّا من حضور الله في العالم، ورسل حبّه. وإنّني لقانعةٌ بأَنّ الربّ يستخدم كُلاًّ منّا للتعبير عن حبّه للعالم...**

"اليوم، فيما يصرّ الكثيرون على الادّعاء بأَنّ الله غير موجودٍ، نسعى، أَنتم وأَنا، إلى إقامة الدليل على حضوره. ولذلك علينا أَن ندعه يستخدمنا. من المرجح

أنّه سيتعذّر علينا تحقيق أُمورٍ جسيمةٍ، ولكنّني، من جهتي، آمل، من كلّ قلبي، أَلاَّ يتحوّل المتعاونون إلى مُنَظَّمةٍ تُضاف إلى العديد من المنظّمات، أو إلى شيءٍ من هذا القبيل. فقد أَلِفنا القول إنّ جمعيّة مرسلي المحبّة هي المنظَّمة الأَقلّ تنظيمًا على الإطلاق. وأعتقد، أحيانًا، أنّنا، حقًّا، مُغرقون في عدم التنظيم، ولكنّني، في آنٍ واحدٍ، أظنّ أنّنا، بسبب ذلك، نحن في أفضل وضعٍ للعمل في حرِّيّةٍ كبرى، متحرّرين من جميع القوانين والأَنظمة التي من شأنها أن تتحوّل إلى عوائق...

"المتعاون هو من يضع موضع العمل حبّ الله في خدمة الفقراء. أين؟ قبل كلّ شيءٍ داخل أُسرته، ثمّ تجاه الآخرين. فلا نتخيَّلنّ، خطأً، أنّ بمكنة المرء أن يعطي للخارج، ما لم يكن قد شرع يعطي في الداخل. كذلك هو شأن الأَخوات، إذ إنّ الحبّ يبدأ في أُسَرنا؛ فكلّ مرسلة محبّةٍ هي أَفقر الفقراء، والنذْر الذي يلزمنا بتقديم خدمةٍ مجّانيّةٍ وقلبيّةٍ لأَفقر الفقراء، يبدأ تنفيذه في جماعتنا، وفيما بيننا. وبعد أن نكون قد نفّذنا نذرنا في ما بيننا، يمسي بمقدورنا خدمة الفقراء، وهذا ما ينطبق أيضاً على المتعاونين.

"هل تدركون مغزى كون المرء متعاونًا؟ لكي تدركوه في العمق ينبغي أن تُصلّوا، فالصلاة تطهِّر قلبنا، والقلب الطاهر يستطيع رؤية الله. وعندما نرى الله يسهل علينا حبّ قريبنا...

"المتعاون هو من لا يكفّ يوغل في التمثّل بالمسيح، متيحًا له أن يستخدمه استخدام آلةٍ. كلٌّ منّا ليس أكثر من قلمٍ، أو من أداةٍ صغيرةٍ بين يدي الله، الذي يستخدمهما وفقًا لمخطّطاته، ومن غير استئذانٍ. ما يتعيّن علينا عمله هو العيش في تناغمٍ مع ذوينا الأَقربين، ومع الذين يُقيمون معنا، وأن نكون لهم مثَلاً طيِّبًا. الشباب، اليوم، يريدون أن يروا. وإن حدَّثتموهم عن الحبّ والصلاة، أَرادوا أن يعرفوا كيف تحبّون، وكيف تصلّون، وما يعني لكم السخاء والطيبة. إنّهم يحاكمونكم وفقًا لكيفيّة عيشكم حياة المتعاونين، حياة رسل حبّ الله وشهوده.

"عندما وصلت أَخواتنا إلى اليمن، وهو بلدٌ مسلمٌ برمّته، ولم يشهد، منذ ثمانية قرونٍ، حضورَ جماعةٍ دينيّةٍ مسيحيّةٍ ولا يرتفع على أَراضيه أيّ بناءٍ دينيٍّ مسيحيٍّ، شرعنَ بتأسيس مركزٍ للمحتضرين المهمَلين، ثمّ مراكز لمشاريع أُخرى.

وبعد بضعة أشهرٍ كتب حاكم الحُدَيْدة إِلى روما قائلاً: "إِنّ حضور الراهبات قد بثّ نورًا جديدًا في حياة شعبنا". كذلك ينبغي أَن يكون أَمر كلّ متعاونٍ. فبحضوركم ينبغي أَن تبثّوا الحبّ والطيبة في حياة الناس، الذين يؤثرون المشاهدة على السماع، إِنّهم يريدون أَن يروا.

"أُبلغنا مؤخّرًا أَنّ هناك زوجَيْن من الهندوسيّين وأَبناءهم الثمانية ليس لديهم ما يطعمون منذ أَيَّامٍ عديدةٍ. وفي الحال، تناولتُ طَبَق أَرزٍّ وهرعتُ إِليهم، وشهدت في عيون الأَطفال، وعلى قسمات وجوههم ما هو الجوع حقًّا. وأَخذت الأُمّ الأَرزّ وخرجت؛ ولمّا عادت استطلعتُ منها ما فعلتْ، وأَين ذهبتْ، فأَجابت: "هم، أَيضاً، جياعٌ... جيراننا... أُسرةٌ مسلمةٌ". ليس ما فعلتْ هو ما أَدهشني، بل كونها علمت بحاجتهم، فعمومًا، عندما نتألّم، يشتدُّ اهتمامنا بذواتنا، بحيث لا يبقى لنا وقتٌ نفكّر فيه بالآخرين. تلك المرأة كانت متعاونةً أَصيلةً، إِذ إِنّها كانت تقتسم، إِلى حدّ التضحية بذاتها، كانت تقدّم وتحبّ، بحيث يوجعها الحبّ والتقدمة. عطفها على تلك الأُسرة لم يكن مجرّد اطّلاعٍ، بل حبًّا أَصيلاً فاعلاً. وإِنّني لواثقةٌ أَنّه لمن الأَهمّيّة بمكانٍ، لنا، نحن المتعاونين، أَن نحوّل حبَّ فهمنا إِلى أَعمال.

"ليس "المتعاون" مجرّد تسميةٍ أَو لقبٍ يدلّ على انتماءٍ، بل إِنّ كلّ إِنسانٍ يحبّ ويقتسم حبّه هو متعاونٌ أَصيلٌ... إِنّنا ملتزمون، جميعنا، بتجسيد هذا التعريف للمتعاون: "بذلك سيعرفون أَنّكم تلاميذي: أَن يحبّ بعضكم بعضًا". سيعرفونه من خلال عطفكم واهتمامكم باحتياجاتكم المتبادلة. عندما يرد على مسامعنا ذكر بلدٍ ما، أَو جماعةٍ ما، أَو أُسرةٍ ما، فهل نحن نعي احتياجاتها؟ وإِذا ما اتّفق ووعيناها، ما عسانا نفعل لسدّها؟ قد لا نقوى على فعل الكثير، ولكن بوسعنا، دائمًا، أَن نظهر أَنّنا نعرف ونقتسم. وأَعتقد أَنّ، ثمّة، يكمن حبّ المتعاون الحقيقيّ... دَعْوَتُكم هي حيثما يضعكم الربّ، في حياة أُسرتكم أَيَّةً كانت، في حبّكم الكامل لله، وحبّ أَحدكم للآخر إِن كنتم متزوّجين.

"العمل الذي تضطلعون به، لستُ، أَنا، قادرةً على النهوض بمثله؛ وبالمقابل قد لا يسعكم فعل ما نفعل، ومن ثمّ يكمّل بعضُنا بعضاً. إِنّ الرسالة التي تؤدّونها بمشاركتكم مرسلات المحبّة عملهنّ، هي حبّكم الفعليّ، وإِنّه لشيءٌ رائعٌ. أَنتم لا

ترتبطون بالنذر الرابع الذي نرتبط نحن به، ولكنَّكم تُسهمون مع الأَخوات فيه... ويخامرني الشعور بأَنّ حضوركم، ومشاركتكم، وعطاءكم - ليس من حيث مبلغه، ولكن من حيث الحبّ الذي يفترضه بذل ذواتكم - كلّ ذلك هديّةٌ مدهشةٌ، ليس فقط لجمعيَّتنا، بل أَيضاً للكنيسة والفقراء.

"... إِن كان في بيتٍ مريضٌ وحيدٌ، فامكث معه، ولو لكي تمسك يده في يدك، أَو لمجرّد أَن تبتسم له. ذلكم أَجمل وأَعظم عملٍ جديرٍ بمتعاونٍ. وإِنّني أُعيد القول: ليس المهمّ ما نفعل، بل الحبّ الذي نسكبه فيما نفعل، ونحن قانعون بأَنّنا نفعله من أَجل يسوع...

"هذه السنة حقّقت الأَخوات عملاً جميلاً، بتكريسهنَّ الأُسَر للقلب الأَقدس، وبإِدخالهنّ الصلاة، من جديدٍ، إِلى حياة الأسَر، وبمحاولتهنّ جلب الله إِلى البيوت. وكانت التحوُّلات من الوضوح، بحيث جاءتنا أُسَرٌ هندوسيّةٌ طالبةً: "افعلوا لنا أَيضاً مثل ذلك. كرّسوا أُسَرنا، فقد شهدنا التحوُّل الذي حدث في أُسرة فلانٍ... لقد باتوا الآن يحبّ بعضُهم بعضاً حبًّا أكبر".

"في أَعقاب السينودوس، أَلحّ الأَب الأَقدس على ضرورة إِعادة الحبّ، والفرح، والوحدة إِلى حياة الأسرة، وأَظنّ أَنَّ عليكم، أَنتم المتعاونين، أَن تبدأوا من هنا، من أسَركم. إِنّ المثال الأَعظم، هو مثال حبٍّ حيٍّ متفهّمٍ. وفي نظري، المتعاون شخصٌ قريبٌ جدًّا، ومتميّزٌ...".

ثمّ أكّدت الأُمّ تيريزا على قول يسوع: "لا تخافوا"، الذي بات من أكثر شعارات مرسلات المحبّة بعثًا للعزيمة والرجاء، فأَوضحت: **"من المُحقَّق أَنّه سيكون، ثمّة، أَلمٌ، والمزيد من المتأَلّمين، في كلّ بلدٍ، وسيكون خوفٌ من حربٍ نوويّةٍ، خوفٌ مريعٌ، رهيبٌ... ولكنّ مثل هذا الخوف لن ينال منكم. فنحن سنصلّي، ونصلّي، والصلاة لا تُخفِق أَبدًا. ولن نقتصر على الصلاة، بل سنحوّل صلاتنا إِلى فعل حبٍّ، وسنعمل شيئًا لشخصٍ ما. هذا ما تقتُ إِلى الإِفضاء به إِليكم. أَنتم جزءٌ صميمٌ من حياتي. ولئن حال بيننا البُعاد، فلن يقوى شيءٌ على فصلنا...".**

وفي أَعقاب ذلك المؤتمر، وَجَّهت الأُمّ تيريزا إِلى جميع منسّقي حركات التعاون هذا النداء:

« فلنكن غصنًا حقيقيًّا وأَمينًا في الكرمة، يسوع، بقبوله، في حياتنا، كما يحلو له أَن يأتي:

حقيقةً نُعلنها،

وحياةً نعيشها،

نورًا نشعّه،

حُبًّا نحياه،

طريقًا ننتهجه،

وفرحًا نهبُه،

وسلامًا نُشيعه،

وتضحيةً نقدّمها في أُسَرنا، ومع جيراننا القريبين والبعيدين على السواء ».

وبالإجمال، من خلال مداخلاتها المستمرَّة، ودأَبها على توعية المتعاونين مع عملها، بثّت الأُمّ تيريزا فيهم رؤيتها لكلّ إنسانٍ، ولو كان فقيرًا ومنبوذًا، وهاويًا إِلى أَسفل دركات الانحطاط، على أَنّه هيكلٌ لله، وذو قيمةٍ ساميةٍ، لا تستأهل احترامًا باردًا فحسب، بل خدمة محبّةٍ صادقةٍ، نابعةٍ من القلب.

هذه الرؤية بات يشارك الأُمّ تيريزا فيها أَقوامٌ يتضخّم عددهم، يومًا إِثر يومٍ، من كلّ جنسٍ، وحضارةٍ، ومُعْتَقَدٍ، وتحت كلِّ سماءٍ، يلفّون الكون بشبكة حبٍّ وبَذْلٍ وتضحيةٍ، في مواجهة حضارة الاستهلاك، والمادّيّة، والأَنانيّة، والمنافسة الشرسة على الامتلاك والاحتكار، التي تهدّد بالقضاء على أَسمى ما في الإِنسان من إِنسانيّةٍ وروحٍ.

وهكذا أَمكن الانتهاء إِلى تعريفٍ للمتعاون على أَنّه هو "من يختار أُسلوب حياةٍ يدعو إِلى رؤية حضور الله في كلّ كائنٍ بشريٍّ. وإِنّ رؤية الله في كلّ إِنسانٍ، بدءًا بالأَقربين، غالبًا ما تقتضي تحوُّلاً في الحياة، تحوُّلاً يؤتي ثماره، فيصبح القوم جاهزين لاقتسام ذواتهم، وممتلكاتهم مع من يُعانون من الوحدة، والمرضى، والأَرامل والفقراء، وغير المرغوب فيهم، وغير المحبوبين؛ وبذلك يتعلّمون القدرة اللاَّمحدودة للأَلم المتقبَّل طوعًا، وللغفران المجانيّ، ويتقوّون بانضمامهم إِلى جماعةٍ عالميّةٍ تحمل شهادة حضور الله لكلّ عضوٍ في الأسرة البشريّة".

التعاون سيل خدماتٍ تتدفّق على أكثر المحتاجين فيضَ عطاءٍ وحبٍّ، ومبعثَ رجاءٍ، وهو، في آنٍ واحدٍ، تقديسٌ للمتعاونين أنفسهم، وهذا ما عنتْه الأُمّ تيريزا عندما التمستْ منها، يومًا، إحدى المسؤولات عن حركة التعاون إرشادًا كفيلاً برفع مستوى المتعاونين، فأجابتها تلقائيًّا، بكلّ بساطةٍ، ومن غير تردُّد: "**صيروا قدّيسين**". وأدهش هذا الجواب السائلة وحيَّرها، فاستفسرت: "أليس لديك إرشادٌ أكثر واقعيّةً؟" ومرَّةً أُخرى، لم تجب الأُمّ تيريزا إلاّ بقولها: "**صيروا قدّيسين!**"

وبفضل هذا الروح الذي بثّته الأُمّ تيريزا في المتعاونين معها، باتت أمثلة العطف والبذل شائعةً في كلّ مكانٍ، وغدت مألوفةً مشاهدُ مثل مشهد كنيسةٍ في حيٍّ بائسٍ من أحياء لندن، زريَّة الحال، مهلهلة الجدران، محطّمة النوافذ، وقد ظلّت أبوابها، سنواتٍ، موصَدةً، ولكن باتت الآن تفتحها، كلَّ مساءٍ، راهباتٌ متسربلات بساري أبيض ذي حاشيةٍ زرقاء؛ إنهنّ مرسلات المحبّة، تحيق بهنّ حفنةٌ من المتطوّعين والمتعاونين؛ وفي كلّ مساءٍ يتوافد نحو مئة شخصٍ متثاقلي الخطى، بعضُهم لم يتخطّوا مرحلة الشباب، ولكنَّ إدمان الكحول والمخدّرات هدّ قواهم قبل الأوان، فزاغت أبصارهم، ورثّت حالهم؛ وها هم يدخلون في صمتٍ، ويجلسون إلى موائد اصطفّت في صحن المكان، حيث يتناولون عشاءً ساخنًا، في صمتٍ، ويعودون أدراجهم؛ ولولا ذلك العشاء لناموا على الطوى.

المرسلات لا يبتعنَ ما يُصلحنَ به ذلك العشاء، بل يتلقَّينَه من بقايا مشفًى راقي المستوى، ومن محالّ سمانةٍ مشهورةٍ تبعث، كلَّ مساءٍ، بما فضل لديها من خضارٍ وفواكه إلى جماعة الأُمّ تيريزا، في حين يلتمس المتعاونون والمتطوّعون من عددٍ من المخابز ومحلاّت الجزارة ألاّ يلقوا شيئًا في القمامة، فالمُعدَمون الذين تطعمهم مرسلات المحبّة به أَولى؛ أمّا الطهاة فهم من المختصّين العاملين في أرقى المطاعم، وقد انتظموا في سلك المتعاونين مع الأُمّ تيريزا. والذين يقدّمون الطعام، ويغسلون الأَطباق، هم من المتطوّعين، وبعضهم خرّيجو أرقى جامعات إنكلترا، ممّن يجدون في الخدمة رياضةً تُغني الروحَ.

وتتباين أشكال التعاون حسب الأَماكن والأَحياء؛ وربما كانت إغاثة الفقراء أيسرها، كما يتّضح من اعتراف متعاونةٍ في زنبابوي كتبت:

« قبل معرفتي بوجود المتعاونين، كنتُ قد أَدركت ضرورة مثل هذه الجماعة. ففي السنوات الأَخيرة من حياتها، كانت أُمّي قد عانت الكثيرَ من جرّاء العزلة. فقد ترمَّلتْ منذ سنواتٍ عديدةٍ، وقبل ذلك، كنتُ قد رحلتُ إِلى أَفريقيا مع زوجي وأَولادي، وكنت ابنتَها الوحيد. كانت تقيم في مركزٍ للمسنّين، حيث تأتي موظّفةٌ تنظّف لها بيتها مرَّةً في الأُسبوع، في حين تمرّ، ثلاثَ مرّاتٍ في الأُسبوع، سيّارةُ تموين توفّر لها كلَّ احتياجاتها المادّيَّة. ولكن لم يكن، ثمَّة، مَن يتحدّث إِليها، أَو يستمع، بعطفٍ، إِلى آخر أنباء أَحفادها في أَفريقيا. وكانت على جانبٍ من التوتّر العصبيّ يقعدها عن استقلال طائرةٍ لزيارتنا. وأَمست سجينةً، سجينة هواجسها، واكتئابها، وعزلتها السحيقة التي لم يكن من شأن زيارتي لها مرَّةً كلّ سنتين أَن تُلطّف وطأتها. وقد أَسرّت لي، يومًا: "كلّ الذين أَحببتُهم قد توفّوا، أَو سافروا بعيدًا...". وقد وقعت هذه الكلمات من نفسي وقعًا موجعًا. وبالتالي، عندما شرعتُ أَختلف إلى دارٍ للمسنّين، والتقيتُ أُناسًا في مثل وضع أُمّي، أَدركتُ أَنّ ذاك هو حقل "تعاوني".

"لقد أَلِفت الأمّ تيريزا القول إنّه ينبغي تحقيق مهامّ صغيرةٍ لا يتّسع وقت أحدٍ لها. هذه المهامّ الصغيرة، وما يُسكب فيها من حبٍّ، تمثّل هدايا قيّمةً، وقد تكون على جانبٍ من التنوّع، مثل: إِصلاح عقدٍ غالٍ على قلب صاحبته، أَو إِصلاح توقيت ساعة حائطٍ، أَو دعوة شخصٍ لتناول كوب شايٍ أَو قهوةٍ؛ أَو الاستماع بتفهُّمٍ وصبرٍ إِلى سرد متاعب صحِّيَّةٍ؛ أَو مشاركة إِنسانٍ في تأمّل مجموعة صُوَرٍ عائليّةٍ؛ أَو المساعدة على إِملاء استمارةٍ أَو طلب معاشٍ تقاعديٍّ؛ أَو التعبير عن محبّةٍ صادقةٍ؛ وإِشعار أُولئك القوم برفعة شأنهم، فجميع منسيّي المسيح رفيعو الشأن.

"قد يوحي ذلك بفكرةٍ خاطئةٍ أُحاديّة الجانب: إِنّ المتعاون يُعطي، والآخر يتلقّى. وما أَبعدها عن الواقع! فمثل هذه الاتّصالات تفعمني فرحًا. إِنّ الحبّ علاجٌ يشفي المحبّ والمحبوب. فالإِحساس الجديد بالآخر، والتحسُّس المتزايد لمشاعره، يؤتيان خيرًا جزيلاً، يُضاف إِلى فرح اليقين بأَنّ كلّ ما تفعلونه للأَصاغر من إِخوتي، فلي تفعلونه ».

ومن جهته صرّح الأَخ "جيريمي" رئيس الإِخوة مرسلي المحبّة:

« إِنّ القوّة الخفيّة الكامنة وراء تاريخ الأَخوات والإِخوة نابعةٌ من جموع المتعاونين الذين تتخطّى تضحياتهم في سبيل الفقراء تضحياتنا إِلى حدٍّ بعيدٍ. ففي

الواقع هؤلاء المُغْفَلون هم العمود الفقريّ لعملنا المتواضع لصالح الفقراء. إنّهم لا يتلقّون شكرًا ولا امتيازًا، ومع ذلك يؤدّون خدماتهم في فرحٍ وأَمانةٍ، يسبّبان لنا الخجل من ذواتنا. هؤلاء المتعاونون يأتون من كلّ مكانٍ، وعبر جميع دروب الحياة. أَحدهم يضع بيتًا تحت تصرُّف الفقراء، وآخرون يقدّمون أَكْيَاسًا ورقيّةً. بعضهم يخيطون، ويطهون، أَو يقدّمون عونًا طبّيًّا، أَو يتطوّعون لأَيّة مداخلةٍ. وآخرون، وقد أَقعدهم المرض، يُقدّمون لنا صلواتهم وآلامهم. كلٌّ بطريقته، ووفقًا لطاقاته، يُعنى بإخوةٍ وأَخواتٍ يكابدون محَن المرض والفقر والجهل القاسية، جميعهم، هنا، مُستَنفرون للخدمة، مخلصون لقول يسوع الذي ما جاء ليُخدَم بل ليَخْدُم... »

وتحفل النشرات التي يتبادلها المتعاونون فيما بينهم، ويقتسمون فيها تجاربهم وخبراتهم، بالأَمثلة على الخدمات الوضيعة التي لا يتّسع وقت معظم الناس لها، والتي قد تشيع فرحًا جمًّا، كما يتّضح من رواية متعاونةٍ يابانيَّةٍ جاء فيها:

« في ساعات فراغي أَزور رجلاً مسنًّا يقطن في حيّي. لدى زيارتي الأُولى خامرني القَلَق من جرّاء اختلاف دينَيْنا، وكنت متوتّرةً جدًّا، وأَنا أَقرع الباب، ولكنّني دهشتُ أَنّ ذلك المريض كان دائمًا فرِحًا، وقد اغرورقت عيناه بالدموع لمّا رأى الهديّة الصغيرة التي وافيتُه بها. وقد وقع من نفسي موقعًا مؤثّرًا أَنّ دينه هو الذي كان يمنحه فرح العيش، مع أَنّه مُقعدٌ. وفي أعقاب بضع زياراتٍ، أَدركتُ أَنّه كان يؤثر العشرة على الهدايا ».

لقد تمثّل المتعاونون روحانيّة الأُمّ تيريزا، فباتوا يعيشونها بعمقٍ وسموٍّ، على نحو ما يتّضح من صلاة متعاونٍ يابانيٍّ، تبنّاها العديدون من المتعاونين، وهذا نصُّها:

« اللهمّ،
عندما أكابِد الجوع، أَرسل لي إِنسانًا يحتاج إِلى طعامٍ،
وعندما أُعاني الظّمأ، أَرسل لي مَن هو متعطّشٌ إِلى الماء،
عندما أُقاسي البرد، أَرسل لي من أَستطيع بعث الدفء في أَوصاله،
وعندما أكون جريحًا، أَرسل لي من أَبثّه العزاء.
عندما يُصبح صليبي باهظاً،

أَعطِني أَن أقاسم آخرَ صليبَه.
وعندما ينتابني الفقر،
قُدْني إِلى من يُعاني الفاقة.
عندما أَفتقر إِلى الوقت،
هبْني أَن أُساعد إِنسانًا، لحظةً.
عندما أُهان،
زُفَّ لي من أَمتدحه.
وعندما يستأثر بي الإِحباط،
أَعطِني من أُشجّعه.
وعندما أَحتاج إِلى تفهُّم الآخرين،
أَرسل لي من هو في حاجةٍ إِلى تفهُّمي.
عندما أَفتقر إِلى من يُعنى بي،
أَرسل لي من أَرعاه.
وعندما لا أُفكّر إِلاّ في ذاتي
ادفع بأَفكاري نحو الآخرين ».

وأَحد وجوه التعاون هو التطوُّع للعمل مؤَقَّتًا مع مرسلات المحبّة في مراكزهنّ، ولقد أَمسى هذا الضرب من التعاون مدرسةً في الروحانيّة يانعة الثمار، وبوتقةً لصهر النفوس على الحبّ والعطاء. فما تشعّه المرسلات من سكينةٍ وفرحٍ وحبٍّ ينعكس على العاملين معهنّ عدوى خيّرةً، على نحو ما يعبّر عنه سيل الشهادات في هذا الشأن.

فقد شهد المتطوّع "ديف":

« بتعاوني مع الأَخوات أُقيم معهنّ اتّصالاً يوميًّا، واضطلع بمثل مهامهنّ الوضيعة من عملٍ في المطبخ، ومسح الأَرضيّات، وتقديم وجبات الطعام، والمضيّ بالسيّارة للتسوُّق، وجلب المرضى إِلى الطبيب أو إِلى المستشفى، أَو إِلى مركز علاجٍ نفسيٍّ، إِلخ... إِنهنّ غالبًا ما يتعاملنَ مع أَشخاصٍ فظّين، ولكنَّهنَّ لا يتخلَّين، لحظةً، عن فرحهنّ، وليس فرحهنَّ مُمَوَّهًا، بل إِنّه فرحٌ أَصيلٌ، ينبجس من أَعماق الكيان.

"إِنّني موقنٌ أَنَّ بهجتهنَّ الظَّاهرة هي تعبيرٌ عن فرحهنَّ الداخليّ. فكلُّ من يعمل إِلى جانبهنّ يعلم كم من الوقت يمضينَ راكعاتٍ في المُصلّى؛ وهنَّ عندما يُصلّينَ تغشاهنّ السعادة، ويستشعرنَ ذلك الفرح مُسبَقًا، فيهرعنَ إِلى معين الطاقة هذا باندفاعٍ مماثلٍ لاندفاعهنَّ في مشاركة آخرين هذا التزوُّد الروحي؛ واندفاعهنّ هذا مُنزَّهٌ من كلّ تعصُّبٍ، بل هو مجرّد رغبةٍ فرحةٍ وصادقةٍ في إِعطاء ما يمتلكنَ. وهنّ لا يحتفظنَ بشيءٍ من المتاع الماديّ، بل إِنّهنّ يتجرَّدنَ من كلّ ما يوهَبْنَ من لباسٍ، وطعامٍ ومالٍ. كلّ ما يرد إِليهنّ، يمضي حالاً في سبيله.

"ولكنّهنّ يعرفنَ، وعلى نحوٍ أَفضل، اقتسام عطايا الله، الذي يُحبّهنّ بلا ريب. إِنَّني أُحبّهنّ، وأَنجذب إِليهنّ، وأَنا أجيل في خاطري كم هنّ، حقًّا، مرضيَّات لدى الربّ. فمنه يستمددْنَ النعمة والطاقة، ومن الحبّ المتبادل الذي يُبدينَه لنا في ما بعد. إِنّني أَلحظ ذلك لدى كلِّ منهنّ، على نَسَقٍ واحدٍ، ومع ذلك لسنَ نسخًا إِحداهنّ عن الأُخرى، بل تحتفظ كلٌّ منهنّ بشخصيّتها المميّزة ».

أَمّا الطبيبة "ميري" التي تطوَّعت للعمل، فترةً، في "نيرمال هرايدي"، فقد صرّحت:

« تصوَّر أَنّك تمثل إِلى مؤسَّسةٍ فيقال لك في الحال: "حمِّم هذا المريض". إِنّها لميزةٌ فائقةٌ أَلاّ تُسأَل، أَوّلاً، عن هويّتك. كلُّ ما هو مطلوبٌ منك هو الرغبة في المساعدة، فهي المعيار. إِنّ الجوهريّ في عمل الأُمّ تيريزا هو إِتاحة الفرصة للجميع كي يعقدوا علاقاتٍ مع الفقراء، وذلك في صالحنا وصالحهم على السواء. ولكأَنّنا، بذلك، نُدفع إِلى اجتياز حاجز من الأَسلاك الشائكة: فالفقراء ليسوا فقط أُولئك الملايين من الخلق المُغْفَلين، بل هم أَشخاصٌ لمستَهم بيدَيْك ».

وشهدتْ "جوديث" التي تطوَّعت، هي أَيضاً، للعمل في "نيرمال هرايدي":

« كلَّ صباحٍ، في الثَّامنة، تستهلّ الأُخت "دولوريس" العمل بجلسة تفكيرٍ مشترَكٍ، فيتحدّث كلٌّ منّا، مدّة خمس أَو عشر دقائق، عمّا عمل أَو جال بخاطره، ونتبادل تجاربنا: أُناسٌ من مختلف المشارب يأتون إِلى هنا بآراء متباينةٍ تباينًا كُلّيًّا، إِلاّ أَنّ فترة التفكير هذه من خطورة الشأن بمكانٍ، قبل مباشرتنا العمل.

"كاليغات مكانٌ فريدٌ، إِذ يتعيّن علينا أَن نواجه، كلَّ يومٍ، الحياةَ والموت.

"مذْ جئتُ إِلى هنا، جدّدتُ إِيماني الكاثوليكيّ، وبفضل التجربة الروحيّة المسيحيّة التي أَعيشها، أَستشعر أَنَّني أَحيا حياةً جديدةً. ولم يعد الأَمر، لي، مجرّد قضيَّة عقيدةٍ، بل هو مجرّد علمي بأَنّ شيئًا في داخلي يتنفّس. وإِذ يحيق بي الموتُ سحابةَ النهـار، يأخذ بلبّي كلَّ مأخذٍ وقارُ مساعدتنا للنّساء – فالنساء المتطوّعات يُعنينَ بالنساء – اللواتي يأتينَ إِلى هنا، فيُكسَوْنَ، ويُطعَمْنَ ويُعاملْنَ معاملة كائناتٍ بشريّةٍ، بعد أَن أَنفقنَ حياتهنّ كلّها كبهائم. وما يبدو لي على جانبٍ من الشأن هامٍّ، أَنَّ تلك النسوة يقضينَ نحبهنّ وسط حضور آخرين، مُحاطاتٍ بمن يُعنونَ بهنّ حقًّا، ويسهرنَ على نظافتهنّ... إِنّ طقوس الموت تتدرج في وقارٍ مدهشٍ، وبذلك ينفرد "نيرمال هرايدي".

"أَعلم أَنّني سأستمرّ في العمل على مساعدة الفقراء، من جرّاء ما آتاني ذلك العمل من سعادةٍ حقّة. لقد سعدتُ هنا أكثر ممّا سعدتُ في أَيّة فترةٍ من حياتي. وإِذ أُجيل أَنظاري في الماضي، أَكْتَشِف كم كنتُ، من قبلُ، تعيسةً. كثيرون ممّن أَعرفهم يشاركونني هذا القلق وهذا الاضطراب اللذَيْن كانا يصطخبان في داخلي، ولكنّهم يحاولون إِقناع ذواتهم بأَنّهم راضون ».

وتقرّ "ليندا" بأَنّها قد تلقّت من تطوُّعها مع المرسلات أكثر ممّا أَعطت:

« كان يتولاّني شعورٌ بأَنّ رغبتي في المُضيِّ إِلى كلكتّا لم تكن نابعةً منّي، بل أَنّ قوّةً كانت تدفعني إِلى ذلك. بالطبع كنتُ أَعلم فقط أَنّ الذّهاب إِلى كلكتّا مبادرةٌ جيّدةٌ، ودعوةٌ...

"بادئَ الأَمر، لم أَحتمل ضجيج الهند وقذارتها، فاستولى عليّ ضربٌ من الدوار مدى يومٍ أَو يومَيْن. ولكنّي، أَخيرًا، أَلِفْتُ الجوَّ، ثُمَّ شرعتُ أَعمل في "شيشوبهاڤان"... وخلال اليومَيْن الأَوّلَيْن استحوذ عليّ التفاؤل، ورحت أُفكّر: إِنّني، حقًّا، امرأةٌ مدهشةٌ، أَنهض بمهامّ رائعةٍ، باهتمامي بالأَطفال الذين أُغدق عليهم أَطنانًا من الحبّ، فيبتسمون لي، ويحبّونني... كان يخيّل لي، آنذاك، أَنّني كائنٌ مميَّزٌ، بل شبه قدّيسةٍ.

"ولكن، بعد مُضيّ ثلاثة أَيّامٍ، انهرتُ، إِذ استبانت لي، فجأةً، خساستي. فإِقامتي هنا لا تتعدّى فترةً وجيزةً. كنتُ أَلاعب الأَطفال، وأُقبّلهم، وأُعنى بهم بأَلف طريقةٍ، ولكنّني،

في نهاية فترة تطوُّعي، كنتُ سأعود إِلى منزلي الصغير الوثير في إنكلترا، وإِلى عملي السهل المُمتع، وإِلى أَجري الأُسبوعيّ. كنتُ كمن ينفح أَطفالاً حلوى، ثمّ يستعيدها منهم، وطفقتُ أَبكي. كان قد ساورني شعورٌ بأَنَّني طيِّبةٌ، ومُحبَّةٌ، وبغتةً تبيَّنتُ نقيض ذلك؛ ولكأَنّني كنتُ أَلعب دور المتطوّعة من أَجلي، لا من أَجلهم، لأَنّ شيئًا في داخلي كان في حاجةٍ إِلى العون، بل إِلى الشفاء. وإِنّما هو كان حاجةً إِلى الحبّ.

"وقد آستنْي متطوِّعةٌ كانت قد خدمت فترةً أَطول كثيرًا ممّا خدمتُ، قائلة: "أَيّا كان قسط الحبّ الذي وهبتهم إِيّاه، ومهما بدا ضئيلاً، فما كان أُولئك الأَطفال لينعموا به، لو لم تأتي، أَو لو كنت عاجزةً عن نفحهم إِيّاه. وكلّ متطوّعةٍ ستأتي من بعدك، ستهبهم المزيد.

"وهذا ما جعلني أَشدّ تقديرًا للأخوات. فهنّ يتجاهلنَ ذواتهنّ في عيشة التضحية التي يمارسنَها. وإِنهنّ حقًّا بين يدي الله. وإِنّه لمن النادر رؤية من يندفعون إِلى مثل تلك المهمّة في مثل هذا الإِنكار للذّات. إِنّ هذه التجربة قد وسمتني مدى الحياة. وعلى حدّ قول الإِنجيل لقد تلقَّيْتُ أكثر ممّا أَعطيتُ ».

متطوِّعةٌ أُخرى عملتْ، هي أَيضاً، في "شيشوبهاڤان" صرّحت:

« رعايتي لأَطفال "شيشوبهاڤان" في كلكتّا كانت لي تجربةً جديدةً تمامًا. فقد كان الأَطفال يستأثرون كثيرًا باهتمامي. وذات صباحٍ، كنّا نُغنّي معًا، وقد جلسنا متحلِّقين في أَعلى المنزل. وكنت أَحتضن صبيًّا صغيرًا معاقًا كان يرمقني، في فرحٍ صافٍ، بنظرةٍ مُفعمةٍ حبًّا. وكان ينبعث منه سكونٌ سحيقٌ. إِنّني أَذكر ذلك، بمثابة تجربةٍ روحيّةٍ فائقة ».

واعترفت "دونًّا" بما طرأ عليها من تحوُّلٍ نفسيٍّ، إِثر تطوُّعها مع مرسلات المحبّة، فأَقرّت:

« إِنّني أَمتهن التمريض، وأَعيش في سكوتلاندا، وقد ظفرتُ بفُسحة كي أُسافر قليلاً. وفيما كنت أَعمل في سيدني راودتني خاطرةُ مؤازرة مرسلات الأُمّ تيريزا. أَنا لستُ كاثوليكيَّة، وقد ترعرعتُ في أَحضان الديانة البريسبيتريّة السكوتلنديّة، وكان أَبي ملحدًا. ويبدو لي أَنّ قراري بالشخوص إِلى الهند قد أَوحته لي مشاهدتي لفيلم "غاندي". لم أكن مهتمَّةً بتاريخ الهند بقدر اهتمامي بفلسفة غاندي، وبالحياة الوضيعة،

المفعمة إِيثارًا، التي بشَّر بها وجسَّدها. وكان يحدوني فضولٌ إِلى اكتشاف العلاقة بين فلسفته وفلسفة الأُمّ تيريزا.

"وبعد أَن راسلتُ كلكتّا، دُعيتُ للمجيء، وباشرتُ العمل في مركز الأَطفال "شيشوبهاڤان"؛ وقد أَدهشني، للوهلة الأُولى، البساطة والسكون المنبعثان من المركز الأُمّ ومن المراكز الأُخرى، التي كانت موئل سلامٍ وسط كلّ ما يغمر شوارع كلكتّا من ضجيجٍ وقذارةٍ.

"عليّ الإِقرار أَنّ أشياء كثيرةً قد تغيّرت في حياتي، مذ عملت مع مرسلات المحبّة. فالإِقامة في مراكزهنّ تفرض على وجود المرء تحوُّلاً جذريًّا، أَيًّا كان أَمد الوقت الذي يُنفقه بقربهنّ. لم يعُدْ للفقر والقذارة أَيّ تأثيرٍ عليّ. وبتّ الآن أَرى، بوضوحٍ أَشدّ، ما أَستطيع فعله للفقراء. وإِنّني أَعلم أَنّني، إِثر عودتي إِلى موطني، سأُعنى بمن لا مسكن لهم. فحضور الأَخوات، وإِيمانهنّ الذي لا ينضب، قد شدّدا عزيمتي وساعداني على النهوض بهذه المهمّة. إِنّ فرحهنّ وإِيمانهنّ مُعديان. ويبدو أَنّ كلّ من يأتي إِلى هنا يتلقّى رسالةً، ويمضي بها كي يُحقِّقها في موطنه" ».

هذه الرسالة قد أكّدتها الأُمُّ تيريزا، عندما قالت لها إِحدى المُتطوِّعات، مودِّعةً، إِثر انتهاء فترة تطوُّعها: "سأعود". فردّت الأمّ: "بل لن تعودي، فلديك الكثير لتفعليه حيثُ تقيمين. ستجري أَحداثٌ، وسيلهمك الربّ ما يتوجّب عليك فعله".

فالأُمّ لا ترى في التطوُّع عونًا لمرسلاتها فحَسْبُ، بل تتوخّى منه تأهيلَ كلّ متطوِّعٍ للاضطلاع بالرسالة الخاصّة التي قد يُدعى إِليها، حيثما كان، لا بل إِنّها تتوخّى أكثر من ذلك، إِذ تبتغي توثيقَ وشائج المتعاونين بالله، وإِغناءهم بنعمة الإِيمان الثَّمينة، كما يتّضح من جوابها لأَحد المتعاونين الذي سأَلها:

– "هل تريدين أَن نصبح كاثوليكيّين؟"

فأجابت:

– **"أَودّ أَن أَهبكم الكنز الذي أَمتلكه، ولكنّ ذلك ليس في طاقتي، بل إِنّه هبةٌ من الله. إِنّ ما أَفعله هو إِفساحي لكم فرصة تحقيق أَعمال حبٍّ. وبهذه الأَعمال أَنتم تقتربون من الله. وعندما يأتي الربّ إِليكم، وتمضون أَنتم إِليه، تتاح لكم سانحة قبوله أَو رفضه. وما قبوله إِلاّ عطيّةٌ من الله".**

أَنماطٌ أُخرى من التعاون

فضلاً عن مئات الأُلوف الذين يضمُّهم اتِّحادُ المتعاونين الدوليّ، وأُلوف المتعاونين المرضى والمعاقين، راحت الأُمّ تيريزا تبحث عن متعاونين آخرين في شتّى الميادين يتقاسمون مُثُلها، ويغتنون برؤيتها المسيح في أَضعف إِخوته، وتغتني هي ورسالتها بصلواتهم وتضحياتهم، وبهم تنمو أُسرتُها الروحيّة، فتعمُّ خيراتها العالَمَ أَجمع. وهكذا أَطلعت شجرتُها أَغصانًا قشيبةً، تمور بأَلوان الحبّ المسيحيّ الزاهية، فكان على التوالي:

المتعاونون المتأمّلون

يحدو الأُمّ تيريزا إِيمانٌ عميق الغور بخطورة الصلاة، وجزالة المفعول السرِّيّ لانقطاع الرهبان والراهبات الحبيسات إِلى العبادة، وقد خشيت على رسالتها أَن تُفضي إِلى العقم، إِن لم تُغَذِّها الصلوات والتضحيات بغزارةٍ واستمرارٍ، فحرصت على أَن يتبنّى كلَّ ديرٍ من أَديرتها منسكٌ رهبانيٌّ، تقدّم راهباتُه صلواتهنّ وتضحياتهنّ من أَجل إِحدى جماعات مرسلات المحبّة، وهذه، بدورها تقدّم من أَجلهنّ عملها وجهودها. "**وهكذا نصبح لهنّ حيويّةً جديدةً، وهنّ بدورهنّ يرفدنَنا بمزيدٍ من قوّةٍ**".

وفي هذا السياق، كتب الأَب "غوري" الفرنسيّ: "عندما اجتازت الأُمّ تيريزا فرنسا عام ١٩٧٤، أَعْربت عن رغبتها في أَن يتبنّى ديرٌ أَو عدَّة أَديرةٍ للرّاهبات المتأمّلات مركزًا لمرسلات المحبّة، بحيث يشمل هذا التبنّي جميعَ المراكز، وكلّفتني الأُمُّ تيريزا بتنظيم هذه التوأَمة الروحيّة على مستوًى دوليٍّ".

وتولّى الأَب "غوري" هذه المهمّة باندفاعٍ، واستجاب عددٌ غفيرٌ من جمعيّات الراهبات الحبيسات لدعوته بحماسٍ، فأَكّد، فَرِحًا، لمرسلات المحبّة تأَهُّبَ أَخواتهنّ المتعبّدات لتقديم صلواتهنّ وتضحياتهنّ لله الآب، بالاتّحاد مع صلوات ابنه يسوع وتضحياته، التماسًا لنِعَمٍ كفيلةٍ بإِخصاب رسالتهنّ.

ودُعيت الجماعات المرتبطة بمثل تلك التوأمة إِلى تبادل الأَخبار والرسائل حول رسالاتهنّ وخبراتهنّ الروحيّة، فيتعارفنَ على نحوٍ أَفضل، ممّا سيشحذ سخاءهنّ في خدمة الله. وقد أَسفر ذلك التبادلُ عن نتائج مذهلةٍ رائعةٍ، ففي غضون أَقلّ من سنةٍ، ارتبط أَكْثَر من أَربع مئة منسكٍ في بلجيكا، وكندا، وفرنسا، وإِيطاليا واللوكسمبورغ وإِنكلترا، وبلدانٍ أُخرى، كلٌّ بواحدٍ من مراكز مرسلات المحبّة، وتُبودِلت الصلوات،

والتضحيات، والأَعمال، وسُرعانَ ما بات لكلّ جماعةٍ من مرسلات المحبّة عدّة أَديرةٍ متأمّلاتٍ تساندهنّ بصلواتها.

وقد أَثمرت تلك التوأَمةُ فرحًا دافقًا غمر راهبات الجانبيْن؛ ولم تكن مشاعر المشاركة الوثيقة مع أَخواتٍ لم يُشاهَدْنَ قطّ، ولم يُعَرْفنَ من قبل، سوى تجلّي المحبّة التي يبثّها الروح القدس، روح الحبّ والقداسة، الذي يستأثر بالنفوس بقدر ما تهب ذاتَها للمسيح المقيم فيها.

فالمتأَمِّلات جاثماتٌ على قمّة الجبل المقدّس، متّحداتٍ مع يسوع، في صلاةٍ متّصلة تحت أنظار أبيه، صباحَ مساء، وآناء الليل، إِنّهنّ مكرَّساتٌ بالكامل لخدمة الله، مستشفعاتٌ من أَجل حاجات الكنيسة وتقديس البشر، فيما تجهد مرسلات المحبَّة، على الأَرض، في سبيل خدمة وخلاص أَفقر الفقراء، أَبناء الله الأَثيرين.

وهكذا تجتاز المحبَّةُ المسيحيَّة المحيطات والقارّات، مخترقةً جميع الحواجز، وحدودَ اللغات، والثَّقافات والجنسيّات، وباتّحادها تؤلّف المناسكُ، ومراكزُ المرسلات حلقاتِ سلسلةٍ تحيق بالبسيطة، تمجيدًا للربّ، وفيضَ نعمٍ وفيرةٍ غامرةٍ.

وإِثر وفاة الأَب "غوري"، تولّت مهمّة تلك التوأَمة الروحيَّة الأُخت "نيرمالا"، التي كانت، هي ذاتها، رئيسة ديرٍ لمرسلات المحبّة المتأَمّلات، والتي انتُخبت حديثًا لخلافة الأُمّ تيريزا على رئاسة جمعيّة مرسلات المحبّة، ومعها امتدّت تلك التوأَمة إِلى بلدانٍ جديدةٍ، مثل بولونيا، لا بل حتّى إِلى أَديرةٍ أَنكليكانيّةٍ.

ويومَ التمست الأخت "نيرمالا" من كرمليّاتٍ في الولايات المتّحدة تبنّي إِحدى جماعات الأُمّ تيريزا، ردّت رئيسة الكرمليّات برسالةٍ أَلقت ضوءًا مدهشًا، وأفضت بمعلوماتٍ خفيّةٍ حول بداية عمل الأمّ تيريزا، إِذ جاء فيها:

« قد يُهمُّكِ ويهمّ الأُمَّ تيريزا أَن تعلما أَنّه، لسنواتٍ عديدةٍ خلتْ، كتبت الأُمّ "كانيسيا" من راهبات "لوريتو" إِلى إِحدى راهباتنا كي تصلّي لنجاح مشروع الأمّ تيريزا. ومنذ ذلك اليوم، في الأَربعينات، ما فتئنا نُصلّي من أَجلها ومن أَجل رسالتها، متابعاتٍ، باهتمامٍ رسوليٍّ محبٍّ، كلَّ تطوُّرٍ أَتاحت لنا العناية أَن نسمع به. إِنّنا مرتبطاتٌ بجمعيّتكنّ مذْ كانت تعدّ أَربعة أَعضاءٍ، على غير علمٍ من أَيّةٍ منكنّ، ولكن على أَمل مساندة كلٍّ منكنّ. وهذا ما سنستمرّ في فعله ».

مدهشةٌ هي دروب الربّ، ورائعةٌ شراكة قدّيسيه!

المتعاونون الكهنة

الذين يُدعَوْن إِلى انتهاج أُسلوبٍ جديدٍ في ممارسة كهنوتهم، يولي الأَولويّة لمحبّةٍ موغلةٍ في تربة الإِنجيل، ويكون الفقراء مركز إِيثارها.

وكان قد ترامى إِلى علم الأُمّ تيريزا تخاذلُ بعض الكهنة، فهالها منهم نكثهم بأَقدس عهدٍ، وأَحزنها ما يسبِّبه هذا التخاذل من هزالٍ في صفوف الكهنة، ولا سيّما أَنّ إِجلالها للكهنة والكهنوت لا حدّ له.

واتّفق أَن دُعيت الأُمّ للتَّحدُّث إِلى ٦٥٠٠ كاهنٍ، في القاعة الكبرى بالڤاتيكان، التي أَلِف البابا يوحنّا بولس الثّاني أَن يُخاطب فيها الحُجّاج. وكان حديثها يُتَرجَم فوريًّا إِلى لغاتٍ عديدةٍ، بحيث يفهمه كهنةٌ قدموا من جميع القارّات، ممثّلين جميع أَجناس البشر. لهؤلاء جميعًا، كانت تلك الراهبة الهزيلة مثالاً حيًّا ساطعًا على حياةٍ مكرَّسةٍ بأكملها، وبلا تحفُّظ، للرَّبّ؛ وفي وقتٍ كان فيه الوفاء للنُّذور الكهنوتيَّة يُنتَهك باطّرادٍ، كانت مثالاً للوفاء المُطلَق. وفيما كانت تتحدَّث ببساطةٍ عن قداسة الكهنوت مردّدةً: "كونوا قدّيسين على غرار يسوع"، شوهد عديدون من الكهنة يمسحون دموعَهم.

وفي أَعقاب ذلك اللقاء، أَفضى إِليها الأَخ "جوزيف لانغفورد" الكاهن الشابّ، الذي كان على صلةٍ وثيقةٍ بعمل مرسلات المحبّة في نيويورك وروما، أَنّ فكرةً تراوده منذ سنوات تقضي بضرورة إِنشاء جمعيّة كهنةٍ مرتبطين بروحانيّة الأُمّ تيريزا ورؤيتها. واتّفق أَنّ خاطرةً مماثلةً كانت تجول ببال الأُمّ تيريزا، ويستحوذ موضوعُها على صلواتها. وبعد فترةٍ من الصلاة والتأمُّل، وضعا معًا مشروع تلك الجماعة الجديدة الذي قدّمته إِلى البابا يوحنّا بولس الثّاني، في الأَوّل من تشرين الثّاني ١٩٨٠. وقرأ الأَب الأَقدس طلبها، ثمّ استمع باهتمامٍ إِلى دفاعها عنه، وأَعلن: "أَيّتها الأُمّ تيريزا، اسمحي لي أَن أكون أَوّل كاهنٍ يُقْبَل في هذه الجماعة من المتعاونين معك". ثمّ عهد إِلى لجنة الإِكليروس، في الڤاتيكان، بدراسة نظام تلك الجمعيّة العتيدة، وردّت اللجنة برسالةٍ موافقةٍ حارّةٍ، في ٢٦ حزيران ١٩٨١. وقد قضى ذلك النظام على كلِّ كاهنٍ كان يلعب دور منسِّقٍ لحلقةٍ من حلقات المتعاونين، قطريًّا أَو إِقليميًّا، أَن يتنازل عن هذا الدور، في سبيل التفرّغ لعمل التجدُّد الكهنوتيّ،

الذي يمثّل غاية الجمعيَّة الوليدة، وأَن ينتدب لمهمّة التنسيق التي كان يضطلع بها، زوجَيْن، عملاً بتوجيه الأَب الأَقدس المؤكّد على خطورة شأن الأُسرة.

وعُيِّن الأَخ "جوزيف لانغفورد" رئيسًا أَوّل لجمعيّة الكهنة المتعاونين مع الأُمّ تيريزا. على اعتبارها حركةً دوليّةً للتَّجدُّد الكهنوتيّ. وفي الحال، باشر الأَخ لانغفورد وثلاثة كهنةٍ آخرين فترة ابتداءٍ في مركز "برونكس" بنيويورك، الذي وهبه الكردينال كوك للجمعيّة الناشئة، التي تعهّد خلفه "أُوكونور" بحمايتها. وفي أَعقاب سنتي ابتداءٍ كرّر الأَب "لانغفورد" ورفاقه نذورهم، بصفتهم أَعضاء في الجمعيّة الجديدة.

وهكذا في نحو السبعين من عمرها أَضافت الأُمّ تيريزا، إِلى أُسرتها، فرعًا جديدًا يمكن اعتباره قمّتها الروحيّة. وقد أَعلن الأَخ "لانغفورد" عن رغبة الأُمّ في أَن يكون هذا الغصن الجديد في كرمة الربّ، بمثابة القلب لأُسرة المتعاونين. وقد أَدرك ذلك الكاهن، منذ البدء، أَن مهمّته تكمن في اكتشاف رعيَّته، "كلكتّا"، كلكتّا المنتشرة في كلّ مكانٍ، فيعثر على القلوب الجائعة، والنفوس العطشى، لدى الناس، في الشوارع.

المتعاونون الطبِّيّون

هذا الفرع تأسّس عام ١٩٨٤، وهو مرتبطٌ بالاتّحاد العامّ الدوليّ للمتعاونين. رئيسه الأَوّل كان الدكتور "فرنشيسكو دي ريموندو"، مدير مستشفى "سيالانزا" بروما. هدفه توحيد الهيئة الطبِّيّة، عبر العالم، في ممارسة مهنة الطبّ بمثل روح الأُمّ تيريزا ومرسلات المحبّة. وكانت نواة تلك الجماعة قد شرعت تتكوَّن من أَطبّاء متطوّعين للعمل في مختلف مراكز مرسلات المحبّة، ينطلقون، لهذا الغرض، إِلى مناطق نائيةٍ، مثل كلكتّا أَو هاييتي، مُنمّين ضربًا من الروح الجماعيّة فيما بينهم. وقد عُرّفوا بأَنّهم "جماعةٌ من الأَطبّاء، وأَعضاء الهيئة التمريضيّة الذين يُحقّقون، مع مرسلات المحبّة، عملاً صحِّيًّا مبنيًّا على الصداقة مع جميع المتأَلّمين، واحترام كلِّ إِنسانٍ، وجميع مراحل الحياة وأَشكالها، انطلاقًا من الإِيمان بأَنّ الله يعتلن في كلِّ كائنٍ، ولا سيّما في من يفتقرون إِلى مقوّمات الحياة الأَساسيّة: من طعامٍ، وبيتٍ، وصحّةٍ، وحبٍّ. إِنّ الأُمّ تيريزا راغبةٌ في توفير نمطٍ من الطبّ يتّسم، أكثر من سواه، بكونه بذلاً، ولقاءً، ويمكن معه، وبعون الله، نشر اليقين بإِمكان ممارسةٍ طبِّيّةٍ من نمطٍ مختلفٍ، ونهجٍ آخر لرؤية المريض، ولمسه، والتحدُّث إِليه، ممّا يُشرع الباب للثِّقة والرجاء، حتّى

عندما يكون المرض خطيرًا، وعندما يبدو الموت محتَّمًا لا مفرّ منه".

وقد صرّحت الأُمّ تيريزا: "**لقد تحدَّثتُ إِلى العديد من أَعضاء تلك الجماعات، في الهند وخارجها، وأكّدتُ لهم أَنّ العمل في ميدان الطبّ ليس فقط مهنةً، بل هو، أَيضاً، دعوةٌ. وفي الواقع، هم يحاولون تعميق دعوتهم، وتوضيح منهجهم. إِنّ هذه المهمّة الجميلة القائمة على لمس جسد المسيح في من يتألّمون يمكن أَن تصبح شيئًا مقدَّسًا يُكرِّس حياتهم. وهم يلتئمون للتَّحدُّث معًا في ذلك، رغبةً منهم في تحقيق رسالتهم، بكلّ قداستها وعظمتها، من أَجل يسوع، وبيسوع، أَربعًا وعشرين ساعةً في الأَربع وعشرين ساعةٍ. أَجل، إِنّ العمل الذي يُنجزه هؤلاء الأَطبّاء دعوةٌ حقيقيّةٌ**".

حاملات حبّ الله

وهو فرعٌ منفصلٌ عن اتّحاد المتعاونين، وقد نشأ تلبيةً لرغبة نساءٍ شابّاتٍ توّاقاتٍ إِلى المُضيّ أَبعدَ من مُجرَّد التعاون، والاستبحار في مضمار الروحَانِيَّة والالتزام، وإِلى العيش عيشةً تحاكي عيشة مرسلات المحبّة، ولكن في معزلٍ عن الترهُّب. منهنّ مسيحيّاتٌ تحول ظروفهنّ دون ترهُّبهنّ، وغير مسيحيّاتٍ جذبتهنّ حياة البساطة، والطهر، والخدمة المتمثّلة في مرسلات المحبّة. فقد تقدّمت، مثلاً، جماعةٌ من الفتيات الهندوسيّات من الأُمّ تيريزا، ملتمساتٍ انتهاج مثل حياة المرسلات، على أَن تكون الأُمّ هي مرشدتَهنّ، فأَهابت بهنّ أَن يتَّخذنَ مرشدين روحيّين من ديانتهنّ؛ فعلى الراغبات في الانضمام إِلى الحركة اللجوء إِلى رؤساء مُعتَرَفٍ بهم من مذاهبهنّ الروحيّة الخاصّة، وإِلى غنى تقاليدهنّ.

وقد اختيرت تسمية "حاملات حبّ الله "كي تشمل المرجع الروحيّ، أَيًّا كان اسمه، الذي يقود حياة كلّ فردٍ. أَمّا العامل المشترك للمنضويات تحت لواء تلك الجماعة، من خلال تعدُّد الروحانيَّات والثَّقافات، فهو الحدب على الأَكثر وضاعةً، المستوحى من مثال حياة الأمّ تيريزا.

المتعاونون الشبّان

لقد كان للشباب نصيبٌ خاصٌّ من اهتمام الأُمّ تيريزا، فحرصت على أَن ينتظمهم فرعٌ من المتعاونين خاصٌّ بهم، وأَعلنت لهم عن رغبتها في مساعدتهم على

لقاء الله، وحبّه وخدمته، مُبيِّنَةً لهم أَنّ العثور على الله يقتضي الصلاة، فالصلاة تطهّر القلوب، والقلب الطاهر هو القادر على رؤية الله في الآخرين، وإن رأينا الله أَحبّ بعضنا بعضاً، مثلما يُحبّ الله كلاًّ منّا، وبالحبّ المتبادل نصبح تلاميذه، ورسل حبّه، وعطفه وسلامه.

مَجرَّةٌ من المتعاونين تدور في فَلَك رسالة المحبّة، بل فروعٌ متعدّدةٌ لشجرةٍ واحدةٍ، لها تسمياتٌ مختلفةٌ "مثل أزاهير البستان"، ولئن تنوّعت الأَزاهير، إلاّ أَنّها جميعها تنبت في بستانٍ واحدٍ، وتحت شمسٍ واحدةٍ، مُستَمِدَّةً نُسْغَها من قلب الأُمِّ تيريزا، التي وعت، باكرًا، أَنّ جسامة رسالتها تقتضي جيشًا جرّارًا من المتعاونين الداعمين لها بكلّ طاقاتهم، وكلٌّ في المجال الذي يجيده؛ وقد أَفلحت، بما أُوتيت من تأثير شخصيّتها الفذّة، التي صُهِرت في بوتقة حبّ الله وحضوره الدائم الحميم، وبقدوة قداستها التي صَقَلتها سنوات البذل والعيش مع الله، من تعبئة ذلك الجيش بأَسلحته المتنوّعة، المناضل روحيًّا واجتماعيًّا وماديًّا، جاعلةً من المتعاونين أنفسهم أَوّل المنتفعين من تعاونهم، إذ، بفضله، اكتشفوا ذواتهم، واكتشفوا الله، في حبّهم له من خلال خدمة الفقير، وتفانيهم في مؤاساة المتأَلِّم، وحدبهم على المنبوذ، وبذلك مضوا شوطاً بعيدًا على دروب القداسة، التي نصبت منها، لكلٍّ منهم، هدفًا أَقصى.

الإخوة المرسلون

ذات ليلةٍ، أَثناء مداهمةٍ في محطّة قطارات "هوراه" بكلكتّا، اعتقل رجال الأَمن جماعةً من الشبّان يمثّلون شتّى أَنماط الجنوح، ففيهم النشّالون، والمدمنون، والقوّادون، ومروّجو المخدّرات، وأَودعوهم زنزانةً ريثما يقدّمونهم إلى القضاء في الغداة. وكان بينهم شابٌّ من غير سربهم، أَثبت في صدر قميصه صليبًا صغيرًا، وقد جهد يَائسًا في إثبات براءته، ولكنّ صيحاته تاهت وسط عشرات صيحات الاحتجاج؛ وبغتةً أَلفى نفسه محشورًا بين ظهراني شرذمةٍ من زبائن السجون، وقضى ليلةً مريرةً يذُبُّ هجمات البعوض والجرذان، ويتلقّى كالصفعات سخريّة الذين أقحم وسطهم، على نحو ما تعرَّض المصلوبُ لسخريّة الذين شفى مرضاهم، وأَقام موتاهم. فقد كان الأَوغاد يهزؤون بمن جمعتهم به الصدفة قائلين: "إذن، أَيّها الأَخ، علامَ تجشّم نفسك عناء مساعدتنا، وأَنت عاجزٌ عن إعانة ذاتك؟ أَين هو إلهك؟!" ولم يهتدِ الشابّ

إِلى جوابٍ، ولكنّه ارتمى على قدميه، دامع العينَيْن، مسائلاً الربّ هل عليه أَن يُسام مثل هذا الهوان، وهل كان ذاك هو الصليب الذي كُتب عليه حمله!

ذلك الشابّ كان من طلائعِ "مرسلي المحبّة"، في واحدةٍ من أُولى مهامّه الرسوليّة إِلى جانب من لم يعرفوا قطّ منزلاً سوى زوايا محطّات القطارات؛ وقد وطَّن العزم على مساعدتهم، وتوعيتهم، وردّهم عن متاهات الضّلال والتسكُّع، دافعًا إِيّاهم نحو ممارسة مِهنٍ شريفةٍ، منظّمًا لهم، بين آنٍ وآنٍ، مباراةً في كرة القدم، على أَرضٍ مهجورةٍ مجاورةٍ. وكانوا هم الذين صوّبوا إِليه سهام سخريّتهم في تلك الليلة، وكانت تلك تجربةً لا سبيل إِلى نسيانها في المقبل من الأَيّام. إِلاّ أَنّها لم تزده إِلاّ تصميمًا على المضيّ قُدُمًا في درب الرسالة التي وقف عليها حياته.

جمعيّة الإِخوة مرسلي المحبّة من بنات فكر الأُمّ تيريزا، التي، منذ مباشرتها أَعمال رسالتها، تبيَّنت أَنّ، ثمّة، مهامّ شاقّةً وخطيرةً تُرهق كاهل أَخواتها، مثل نقل المحتضرين من قارعات الطرق إِلى "نيرمال هرايدي"، والسهر على الرجال منهم، ولا سيّما آناء الليل، والعناية بالبُرْص، ولا سيّما حيثُ الجوار يُعلن عداءه، كما هو الحال في موقع "تيتاغار"، ورعاية الصبيان الذين ترعرعوا في "شيشو بهاڤان". صحيحٌ أَنّ متطوّعين كثيرين كانوا يقدّمون خدماتهم في هذا الميدان، ولكنّ الأُمّ تيريزا لم تكن تستطيع الاعتماد، اعتمادًا كاملاً، على متطوّعين قد تدفعهم ظروفهم إِلى التغيُّب، عندما هي في أَشدّ ما تكون حاجةً إِليهم. وتطلّعت أَنظارها إِلى جماعةٍ من الشبّان الملتزمين المكرَّسين للخدمة، تحدوهم نفس روح مرسلات المحبّة، يؤازرونهنّ، وينهضون بما يعجزْنَ عنه، ويمضون إِلى حيث لا يستطعنَ المُضيّ. وسرعانَ ما استجاب لرغبتها هذه نَفَرٌ من الشبّان، منهم من تربطهم بالمرسلات صِلات قربى، ومنهم من فجّر في أَعماقهم تفاني المرسلات في الخدمة ينابيعَ السخاء. وكانت الأُمُّ تيريزا تُشرف على تثقيفهم الروحيّ تارةً، وتارةً أُخرى، تنتدب الأَب هنري لهذه المهمّة، وقد اتّخذوا مقرًّا لهم الطبقة الأولى من بناء "شيشو بهاڤان".

وفي عام ١٩٦١، عرضت فكرة تأسيس تلك الجمعيّة على مرشدها الأَب "إِكزيم" الذي استطلع رأي رئيس الأَساقفة، المطران" ڤانسان"، وكان قد خلف في ذلك المنصب المطران "پيرييه"، وتميّز عنه بانفتاحٍ أكبر على الأَفكار الجديدة. وعقبَ دقيقة صمتٍ، قال الأَسقف للأب "إِكزيم": "بلغّ الأُمّ تيريزا أَن تبدأ". وحُسم الأَمر في لحظاتٍ.

وباتت من المشاهد الطريفة رؤية الأُمّ تيريزا الضئيلة الحجم تُنظّم لأولئك اليافعين والشبّان، مبارياتٍ في الكرة الطائرة، والأخت جيرترود، الطبيبة، تلقّنهم مبادئ حرفة النجارة.

وبرزت الحاجةُ إلى كاهنٍ يتولّى تثقيفهم وقيادتهم، لا بل إلى أكثر من كاهنٍ واحدٍ، وكانت لتلك الحاجة مبرّراتٌ متعدّدةٌ: فوَقتُ الأمّ تيريزا تلتهمه اهتماماتها المتنوّعة، ومشاغلها الجسام، ناهيك عن أَنّ القوانين الكنسيّة تحظر على امرأةٍ ترؤُّس جمعيّةٍ من الرجال المكرّسين. وإلى هذا وذاك، كانت الأَخوات، أثناء تجوالهنّ، قد اكتشفنَ جماعاتٍ من المسيحيّين لا تربطهم بكنيستهم أيّة صلةٍ، فهم لا يفقهون شيئًا من مبادئ دينهم، ولا يُشاركون في الطقوس، ولا يحتفل أبناؤهم بالمناولة الأُولى. وكثيرون من الأَزواج، منهم، يعيشون معًا، ويُنجبون من غير زواجٍ شرعيٍّ. وقد بذلت الأَخوات جهودًا مستميتةً في سبيل إِصلاح تلك الأَوضاع، ولكنَّ حالاتٍ كثيرةً كانت تستدعي تدخّل كاهنٍ، في حين كان كهنة الرعيّة متخاذلين، متوانين، وكأَنّ لا وجود لهم. وتأكّدت الحاجة إِلى كهنةٍ مُكرَّسين للخدمة، يعملون جنبًا إلى جنبٍ، مع المرسلات، لمواجهة مثل تلك الحالات.

وأُقحمت نواة جمعيّة الإِخوة المرسلين في دائرةٍ مفرغةٍ، فالاعتراف الرسميّ بها، يقتضي حدًّا أَدنى، عدديًّا، وعدد المرشحين، بعد أَن تجاوز العشرة بقليلٍ تجمّد، إِذ إِنّ المدعوّين للانضمام إِلى الجمعيّة كانوا يُحجمون عن الاستجابة طالما لم يُعتَرَف بها رسميًّا.

والتمست الأُمّ من ثلاثة كهنةٍ أَصدقاء، على التوالي، تولّي رئاسة تلك الجمعيّة، وإِطلاق نموّها، غير أَنّهم، جميعهم، استنكفوا متذرّعين بحجّة عدم توفّر فسحةٍ من الوقت لديهم، أَو ارتباطهم بالتزاماتٍ سابقةٍ، أَو عدم كفاءتهم؛ ولا ريب، أَنّ وراء تلك الحجج، كان يتوارى، غالبًا، الخوفُ من الوقوف مع الأُمّ على قدم المساواة في ترؤّس جمعيّةٍ موازيةٍ لجمعيّة مرسلات المحبّة، أَو رفض العمل بتوجيهٍ من امرأةٍ.

ولكي لا يتمادى الجمود، وتدوم الحيرة، خطت الأُمّ تيريزا خطوةً عمليّةً على درب إِنشاء جمعيّة الإِخوة المرسَلين، عندما التمست من رئيس الأَساقفة مباركة نواة الجمعيّة من الشبّان الذين التفّوا حولها، وكانت قد اختارت للاحتفال بذلك الحدث

تاريخ الخامس والعشرين من آذار ١٩٦٣، ففي ذلك النهار كان يُحتَفَل بعيد البشارة، وَالأُمّ قد حرصت أَبدًا على أَن تتساوق مناسباتها الكبرى مع أَعياد الأُمّ العذراء. ومن تدابير العناية الإِلهيّة المدهشة أَنّه، في ذلك الوقت عينه، وعلى بُعد بضع مئات الكيلومترات من "كلكتّا"، في مدينة "هازا ريباغ"، بمنطقة البنغال، كان يُرسم كاهنًا في الجمعيّة اليسوعيّة، شابٌّ أُوستراليّ المولد، يدعى "يان تراڤرس بولّ"، يبلغ من العمر أَربعةً وثلاثين عامًا.

كان "يان" قد ولد في ٢٧ آب ١٩٢٨، في ذكرى عماد الأُمّ تيريزا في مثل ذلك اليوم من عام ١٩١٠. وكان مولده في نفس السنة التي لبَّت فيها الأُمّ تيريزا دعوة الربّ، وهجرت العالَم، كي تنضوي تحت لواء راهبات "لوريتو". أُسرته كانت متوسّطة الحال، وكان والده يتعاطى أَعمال التأمين. وفي السابعة من عمره، انتسب "يان" إِلى مدرسةٍ يسوعيّةٍ رفيعة المستوى. وعام ١٩٥١، استمع إِلى حديث كاهنٍ يسوعيٍّ أَبرز خطورة انصراف الكنيسة إِلى أَعمال الرسالة في العالم، وقد أَخذ ذلك الحديثُ بشغاف قلبه كلَّ مأخذٍ، ثمّ تسنّى له التحدّث، بإِسهابٍ، مع ذلك الكاهن الذي كان له في حياته تأثيرٌ جوهريٌّ حاسمٌ.

وعلى غرار والده، تعاطى "يان" أَعمال التأمين، فترةً عابرةً من شبابه، وكان يهدر كلّ ما يكسبه على سباقات الخيول. إِلاّ أَنّ نوعًا من اللاراحة كان يتململ في أَعماقه، فيتطلعّ إِلى شاغلٍ أَجدى فائدةً لنفسه وللآخرين. وفي الأَوّل من شباط ١٩٥٢، ورغم معارضة والده، باشر فترة ابتداءٍ، تأَهُّبًا للكهنوت، في معهد لويّولا بمدينة ميلبورن. ثمّ قرّر مواصلة دراسته الإِكليريكيّة في الهند، حيث عزم على وقف حياته على الرسالة.

وقد وافى الهند في ١٧ كانون الأَوّل ١٩٥٤، ربع قرنٍ بعد وصول الأُمّ تيريزا إِليها، وفي السنة الأَخيرة التي كان فيها قدوم المرسلين الأَجانب إِلى الهند مازالَ حُرًّا. ومشيًا على التقاليد اليسوعيّة الصارمة، في التثقيف الجادّ والمستفيض، سلخ عشر سنواتٍ في تعلّم بعض اللهجات الهنديّة، والتعمّق في دراسة الفلسفة واللاهوت، وقد وضع بضعة كتُبٍ تعرِّف غير المسيحيّين بجوهر المسيحيّة، ونُشِرت له مقالاتٌ قيّمةٌ في مواضيع متنوّعةٍ.

وقد تميّز الكاهن الشابّ بطائفةٍ من الخصال النادرة، فكريًّا وروحيًّا، وبرهافة حسٍّ، ودماثة معشرٍ، وكان فارع القامة، نحيلاً، نحيف المحيّا، الذي تغطّيه لحيةٌ خفيفةٌ، ممّا يسبغ عليه منظرًا يحاكي الإيقونات البيزنطيّة. وكان طليق اللسان، عذبه، ساحر التأثير؛ وفوق كلّ ذلك، كان يحدوه دافعٌ شديدٌ إلى خدمة الفقراء.

ووفقًا لما تقتضيه الأنظمةُ اليسوعيّة، أمضى الأب "يان" سنتين، بعد رسامته، معمّقًا ثقافته الفكريّة والروحيّة، متلمّسًا مشيئة الربّ في الدرب الذي يتوجّب عليه انتهاجه. وفي نهايتهما اختلى شهرًا في رياضةٍ روحيّةٍ تأهُّبًا لنذوره الدائمة كعضوٍ في الجمعيّة اليسوعيّة.

وفي تلك الأثناء، كان قد التقى الأُمّ تيريزا في دلهي، ولاقى أسلوبُ عيشها هوًى في نفسه، ولمّا تنامى إليه أنّ طائفةً من الشبّان يرغبون في تكريس ذواتهم للعمل إلى جانبها، وأنّهم، على قلّة عددهم، وَضَآلة زادهم الثّقافيّ، قد جعلوا الناس يتحدّثون عن تفانيهم في سبيل محرومي كلكتّا ومقهوريها، التمس من رؤسائه قضاء شهرٍ معهم، امتدادًا لرياضته الروحيَّة، واختبارًا لدعوته.

ولمّا أحيطت الأمّ تيريزا علمًا بمسعى ذلك الكاهن الشابّ، جال في خاطرها تساؤلٌ: ألا يمكن أن يكون ذاك هو مرسل الله كي يترأس جماعة الإخوة الوليدة؟ فراقبت، عن كَثَبٍ، أُسلوب تعامله مع الإخوة الهنود الذين كانوا ينتظرون، منذُ سنواتٍ، أخًا كبيرًا يقودهم. وقد غمرتها البهجة عندما تبيَّنت مدى حيويّته وبذل ذاته، وسلخه ساعاتٍ طويلةً في المُصلّى، متأمِّلاً متعبِّدًا، فضلاً عن كونه رقيق المعشر، متواضع القلب، يتعلّق به كلٌّ من يقيم معه صلةً. وربما هي استشفّت من خلال المصادفات إشاراتٍ سماويّةً، من تطابق تاريخ ميلاديهما، ورسامته في نفس اليوم الذي بارك فيه رئيس الأساقفة نواة جمعيّة الإخوة المرسلين، وكونه، آنذاك، في السادسة والثلاثين، أي في نفس العمر الذي تلقّت، هي، فيه، دعوتها الثّانية، أو"الدعوة في قلب الدعوة"، وكونه عضوًا في الجمعيّة اليسوعيّة التي كانت تُجلّ ثقافتها العميقة الجادّة، ونظامها الصارم، وتمرّسها من الحياة الروحيّة.

وفي تلك الفترة، جهد الأب "يان" في التقرُّب من الفقراء، ومخالطتهم، والتوغُّل في معرفتهم؛ وقد قضى إحدى ليالي تجهّده في محطّة قطارات "هوراه"، إحدى

المحطّتيْن الكبريَيْن في كلكتّا. وقد روى، في كثيرٍ من الظرف، المشاهدات التي انطبعت في نفسه، تلك الليلة، فكتب:

« لقد شهدتُ الكثير، وأَودّ أَن أُشاركَكم لمحةً إِلى تلك الأَسرة التي وافت كي تنام، إِثر توقّف المطر، حوالي منتصف الليل. أُمٌّ وأَربعة أَولادٍ تتراوح أَعمارهم بين أَحد عشر عامًا وخمسة أَعوامٍ. منظر الأُمّ الهزيلة المتلفّعة بساريها القطنيّ في ليلة الشتاء تلك، وبشعرها المقصوص قصيرًا، والذي لا يُشبه شعر امرأةٍ، كان يُثير الضّحك. كان لديها بضعُ أَوانٍ من الصفيح، وبضعة أَكْوَابٍ، وخروقٍ، وكِسَر خبزٍ. كانوا أُسرةً من الشحَّاذين، وكانت المحطّة منزلهم.

"الأَولاد، ثلاث بناتٍ وصبيٌّ هو الأَصغر، يضجّون حيويّةً، وقد جلسوا، في تلك الساعة من الليل على أَرض المحطّة، بجوار أُسَرٍ عديدةٍ أُخرى، وأُناسٍ وحيدين راقدين، وتناولوا عشاءً قوامه كِسَرٌ من الخبز الجافّ، قد تكون بقايا تخلّص منها أَحد الباعة بأَسعارٍ بخسةٍ، في آخر الليل، بما يتوافق وميزانيَّة شحّاذين. ولكنّها لم تكن وجبةً حزينةً، فقد تحادثوا، وضحكوا، وتبادلوا الكثير من الطرف، بحيثُ يبدو عسيرًا وجود اجتماعٍ عائليٍّ أَسعد من اجتماعهم. وعندما فرغوا من الطعام، أَمّوا صنبور ماءٍ عامٍّ، فغسلوا آنيتهم وأَفواههم، وشربوا، ثمّ نشروا بساطًا افترشوه، وغطاءً رقيقًا تلفّعوا به. وحينئذٍ قام الصبيُّ برقصةٍ وجيزةٍ مدهشةٍ، فقفز وتوثّب، وضحك وغنّى. ويا لها من رقصةٍ، في مثل تلك الساعة، بل في مثل ذلك الحرمان الأَقصى!

"ونلتُ من التجهُّد أكثر ممّا يلزم لتأمُّل إِنسانٍ... ».

ويمضي الأَب "يان" في تَأَمُّله فيقول: « حيال الصدْمَة التي تنتابني لدى رؤية ملايين إِخوتي وأَخواتي الجياع، نفذتُ إِلى سرّ الميلاد، ذلك الليل الدامس الشريد، لزمنٍ طويلٍ خلا، عندما وضع زوجان فقيران، في ظلمة الليل، وليدهما، ذلك الطفل الذي أَمسى النور الذي ينير كلّ إِنسانٍ.

"هذا الطفل الفقير نفسه، المولود من جديدٍ، بمناسبة عيد ميلاده، في آسيا وأَفريقيا، وأَميركا الجنوبيّة، مازال هو النور الذي ينبثق وسط غياهب عالمنا، وقلوبنا المقرورة ».

كان الأَب "يان" يمتلك نظرة شاعرٍ، شاعر الفقراء، وكذلك كانت، بلا ريب، الأُمّ

تيريزا، ونظرتهما الشعريّة المشتركة تلك، كان يغمرها ضياء التجسُّد. وربّما، من جرّاء شراكتهما تلك، ارتأت هي أَن يقود ذلك الكاهن فرع المرسَلين العتيد، وقَبِل، هو، ذلك الاقتراح. لقد استفتت الأُمّ تيريزا الإِخوة بشأن تعيين الأَب "يان" رئيسًا عليهم، فأَجمعوا على موافقةٍ متحمّسةٍ. وبقيت عليها مهمّة إِقناعه. وفاتحته بالأَمر، في شيءٍ من الخجل، مؤكّدة له أَنّ الإِخوة قد ارتاحوا إِليه، فعلامَ لا يتعهّدهم روحيًّا؟ وقد أَخذت تلك المكاشفة الأَب "يان" على حين غرّةٍ، وإِثر برهة صمتٍ، أَجاب متلعثمًا: "إِنّني أُقدّركِ أَرفع تقديرٍ، وأُحبّ حياة الفقر الجوهريّ الذي تمارسينه، ولكنّني أَشعر أَنّني غير جديرٍ بهذه المهمّة، ولا سيّما أَنّني على وشك الارتباط نهائيًّا بالجمعيّة اليسوعيّة. ومع ذلك سأَستَشيرُ مرشدي الروحيّ، ورؤسائي، وأَدعهم يقرّرون ».

وراق الأُمّ تيريزا منه هذا الجواب النامّ عن تعقُّلٍ، وتواضعٍ، وروح طاعةٍ، وأَمانةٍ. أَمّا مرشد الأَب "يان" الروحيّ، فقد تعذّر عليه البتُّ في الأَمر، فأَهاب بالأَب أَن يتوجّه إِلى رئيس الجمعيّة العامّ في روما، الذي أَفعم صدرَه فرحُ مشاركة جمعيَّته في نشاط الأُمّ تيريزا، فأَنفذ، في الحال جوابًا صريحًا، باتًّا، كريمًا، أَبلغ فيه الأَب "يان" موافقته على عمله مع نواة الإِخوة مرسلي المحبّة لمدَّة ثلاث سنواتٍ، يمكنه أَن يطلب تجديدها، ما لم ينضمّ إِلى الجمعيّة الناشئة انضمامًا نهائيًّا، على أَن يظلّ عضوًا في الجمعيّة اليسوعيّة التي ستبقى أَبوابُها مشرَعةً له، ما لم يقرّر هو خلاف ذلك.

ومع أَنّ فكرة الانسلاخ عن الجمعيّة اليسوعيّة التي كَلِفَ بها منذ صباه، كانت ترعبه، إِلاّ أَنّ ما خلّفه في أَعماقه مثالُ الأُمّ تيريزا وأَخواتها، واندفاع الإِخوة وبساطتهم وتفانيهم في تضميد جروح المتأَلّمين، ووعيه لمقتضيات الحبّ، ولرسالة الكنيسة الاجتماعيّة الخطيرة الشأن، كلّ ذلك قد حدا به إِلى قول "نعم" للأمّ تيريزا، ممَّا جعلَه شريكًا لها في تأسيس جمعيّة الإِخوة، مرسلي المحبّة، التي أَصبح لها أَوّل "خادمٍ عامٍّ"، وهو اللقب الذي شاء أَن يُدعى به رئيس الجمعيّة.

تمثّلت خطوته الأولى في وضع نظام الجمعيّة العتيد، انطلاقًا من مسودَّةٍ بسيطةٍ، اشترك في وضعها كلٌّ من الأُمّ تيريزا والأَب "إِكزيم"، ضمّناها المبادئ الأَساسيّة التي ارتأيا أَن تقوم عليها المؤسَّسة الوليدة. ودرس مسؤولو الفاتيكان ذلك النظام فوجدوه: "جيّدًا على كلّ صعيدٍ، ونظام حياةٍ لا اعتراض عليه". وقد أَكّد ذلك النظام

تأكيدًا خاصًّا على حبّ الله والإنسان، مشيرًا إلى أنَّ "هدف الجمعيّة الخاصّ هو عيش هذا الحبّ بتكريس الذَّات لخدمة أفقر الفقراء، في الأكواخ والشوارع، وأينما وُجدوا. وسيكون البُرْص، والمتسوّلون، والمنبوذون، والفتيان المشرَّدون، والشبّان في الأكواخ، والعاطلون عن العمل، والذين اجتثَّتهم الحروب والكوارث من جذورهم، موضع اهتمام الإِخوة الخاصّ".

وفي شهر آذار ١٩٦٧، أعلن الـڤـاتيكان عن موافقته على إنشاء "جمعيّة الإِخوة مرسلي المحبّة"، وكان عدد أعضائها، آنذاك، ثلاثةً وثلاثين، منهم أحد عشر من الروّاد الأوائل، الذين باشروا الابتداء بإِشراف الأب "يان". وقد أصبح هو نفسه، أيضًا، مبتدئًا في الجمعيّة الوليدة.

وفي حزيران ١٩٦٨، كرّر الأب النذور التي كان قد أبرزها في الجمعيّة اليسوعيّة بصفته عضوًا في "جمعيّة الإِخوة مرسلي المحبّة"، وأضاف إِليها النذر الرابع الخاصّ بالجمعيّة، وفق النصِّ التالي:

« أيُّها الأب السماوي، الخالق والربّ، من خلال هذه الضحيّة الإِفخارستيّة، بيسوع المسيح ابنك، ومعه، وفيه، وبالاتّحاد مع الروح القدس، وبمؤازرة مَرْيَم أُمّ الفقراء، أنذر وأعد الفقر، والعفّة، والطاعة، وتكريس ذاتي للعمل بين الفقراء، وفقًا لقوانين الإِخوة مُرسَلي المحبّة. وإِذ أُقدّم، بذلك، حياتي كلّها، لك، أنت مبدعها، أعي عجزي المطلق عن عيشها بسخاءٍ وثباتٍ. ولذلك، بثقةٍ تامّةٍ في وعود ابنك يسوع المسيح، أستند كلّيًّا على عطفك وحبّك اللّامتناهيين ».

وفي تلك المناسبة اعتنق الأب "يان" اسم الأخ "أندرو". وعندما سُئِل في ما بعد، عمّا حداه إِلى اختياره اسم التلميذ أندراوس، أوضح أنَّه لم يُعرَف عن ذلك التلميذ سوى موافاته بالخبز والسمك يسوع الذي أجرى معجزة تكثيرهما. هو جاء بالموادّ الزهيدة كي يعمل يسوع.

كان الأخ أندرو مرادفًا لصراحةٍ مطلقةٍ لا قناع فيها، ولا تحفّظ؛ وكان قويّ الشخصيّة، ومن ثمّ لم يكن بدٌّ من صداماتٍ بينه وبين الأُمّ تيريزا التي لا تقلّ عنه شدَّة مراسٍ، ولا سيّما أنّه كان يشعر بحرجٍ من جرّاء العمل بتوجيهٍ من امرأةٍ، ولو كانت الأُمّ تيريزا. وقد اتَّفقا، منذ البدء، على أن تَتَمَتَّع جمعيّة الإِخوة باستقلالٍ في

الإِدارة تامٍّ، وأَن تنهج النهج الذي تراه الأَمثل في سبيل تحقيق أَهدافها؛ فللرّجال نمط عيشٍ متباينٍ عن نمط عيش النساء. فهؤلاء قد يتكدَّسْنَ عشراتٍ في غرفةٍ واحدة، ممّا يتعذّر على الرجال. والشبّان في حاجةٍ إِلى الخروج، والسير والترويح عن النفس، ولعب الكرة، وحضور المباريات، في حين أَنّ المرسلات لا يخرجنَ إِلاّ للعمل.

وكانت الأُمّ، مع ذلك، راغبةً في أَن يظلّ التشاور بينهما متّصلاً. واتّفق، في هذا السياق، أَنّها كانت تلقي على الإِخوة إِرشاداتٍ روحيّةً، بُعَيْد إِنشاء جمعيَّتهم رسميًّا، فتباينت وجهات النظر بينها وبين الأَخ أَندرو حول نقاطٍ عديدةٍ، أَهمّها اللباس، إِذ لم يكن بمكنة الأُمّ تيريزا تخيُّل أَلاّ يتميَّز المكرَّسون للرَّبّ بزيٍّ خاصٍّ يُعرِّف الناس أَنّهم يعملون باسم يسوع، ويحميهم من شططهم الذاتيّ، وشطط الآخرين، في حين كان الأَخ أندرو يرى في الزيّ المميّز حاجزًا بين الإِخوة والفقراء الراغبين في اقتسام حياتهم. واحتدم النقاش، وتشبَّث كلٌّ بزيّه، وخرجت الأُمّ تيريزا مُضْطَرِبَةً، ولكنّها عادت، في الغداة، وقالت للإِخوة:

« أَطيعوا الأَخ أندرو، فهو رئيسكم الذي يلهمه الربّ كي يقودكم". ومذّاك أَقلعت الأُمّ عن التدخُّل في أَيٍّ من خيارات الإِخوة. وإِذا ما تطرّقت إِلى الحديث عن الأَخ أندرو، صرّحت عن إِعجابها، غير خافيةٍ ما بينهما من وجوه خلافٍ، مؤكّدةً: "إِنه لقدّيسٌ، قدّيسٌ حقٌّ. ولكنّنا مختلفان جدًّا، لا تلتقي دائمًا وجهات نظرنا.. أَظنّ أَنه خيرٌ منّي، إِنّه طيّبٌ ».

ولم تكن حياة الإِخوة بأَقلّ قسوةً من حياة الأَخوات عمومًا، ولا سيّما أَنّه كان متاحًا لهم الإِقدام على مبادراتٍ ومخاطر، متماديةٍ في الجسارة، بدافع رغبتهم في خدمة أَفقر الفقراء، وقد زادهم توغُّلاً في ذلك المنحى طبعُ رئيسهم الذي كان، في شبابه مولعًا بالمراهنات، وحوّل تلك النزعة، في ما بعد، إِلى مجازفاتٍ جريئةٍ من أَجل يسوع.

وقد اتَّسمت جمعيّة الإِخوة المرسلين بطابع الأَخ أندرو، فكان نظامهم أَقلّ صرامةً، لا في الزيّ فحسب، بل أَيضًا في مقتضيات العيش والصلاة الجماعيّين. وتعبيرًا عن مشاركة الفقراء عيشهم، كانوا يستضيفون أَعدادًا من المهجَّرين والمشرَّدين والمحرومين والمنبوذين والهامشيّين، في حين كانت الأَخوات حريصاتٍ

على الفصل بين عملهنّ المتفاني إِلى جانب المتألّمين، وحياتهنّ الروحيَّة في أَديرتهنّ المحرّمة التي لا يؤذن لغريبٍ بتعكير صفوها وحميميّتها.

وفي حين لا تمكث الأَخوات أكثر من سنتين أَو ثلاث سنوات في أَيّ مركزٍ في الخارج، ويتحدّثنَ فيما بينهنّ بالإِنكليزيّة، يمكث الإِخوة طويلاً في مكانٍ واحدٍ، ويتجذَّرون فيه، ويندمجون اندماجًا حميمًا بالوسط الذي يقيمون فيه، ويتكلّمون اللغات المحلّيّة، ويوثّقون علاقاتٍ طويلة الأَمد مع من يهتمّون بهم.

أَمّا في السلوك الشخصيّ فبين الإِخوة والأَخوات مثل ما بين النار والماء، فالأَخوات، على غرار أُمّهنّ، يكبتنَ عواطفهنّ، وتتّصف علاقاتهنّ بالخَفَر، والتحفُّظ الذي قد يلامس البرود، نظير مياهٍ عميقة الغور لا يُرى سوى سطحها الهادئ، في حين يندفع الإِخوة تلقائيًّا، ومن غير تحفُّظ، نيرانَ حنانٍ تَتَطَلَّع إِلى خلق واحاتٍ صغيرةٍ يلقى فيها أَفقر الفقراء سندًا وعزاءً.

لقد كان أُسلوب الأَخ أَندرو أَقرب إِلى ذاك الذي انتهجه، في مؤسَّسة "السفينة"، مارد الرقّة "جان ڤانييه"، الذي دعته الأُمّ تيريزا مرارًا للتحدُّث إِلى أَخواتها، والذي كانت تقدّر عمق إِنسانيّته. وربّما ساورتها فكرةٌ عابرةٌ بإِضفاء شيءٍ من الليونة على نمط عيش المرسلات، وإِفساح المجال لهنّ كي يعبّرنَ، بمزيدٍ من التلقائيّة، عن مشاعرهنّ. ولكنَّ عوامل كثيرةً كانت تمنعها عن ذلك، ولا سيّما بعد أَن آلمها، في الصميمِ، تخاذل حفنةٍ من الأَخوات كنّ الأَكثر انسياقًا مع عواطفهنّ، وتعبيرًا ظاهريًّا عنها، وبعد أن لحظت ما يتهدّد الإِخوة من مخاطر في حياتهم اليوميّة، من جرّاء افتقارهم إِلى حماية ثوبٍ مُكَرَّس، واندفاعهم العاطفيّ الذي كان يُعرِّضهم ويعرِّض نذورَهم أَحيانًا. كلُّ ذلك رَسَّخ قناعتها بأَنّ المرء المكَرَّس لخدمةٍ مطلقةٍ لا يقوى على المثابرة في هذا الدرب، إِلاّ بفضل سيطرةٍ على الذّات ساهرةٍ، وتصفيةٍ مستمرَّةٍ لعواطفه، فالعاطفة المنفلتة من كلّ لجامٍ غالبًا ما تضلّ السبيل، في علاقتها الحميمة مع الأَلم؛ ومن ثمّ ازدادت يقينًا بأَنّ على الأَخوات، في مجال خدمتهنّ للفقراء، أَن يكتمنَ أَسرار قلوبهنّ، فلا يطّلع عليها سوى الله. وقد أَدّى ذلك إِلى تعميق شقّة التباين بين أُسلوبي الأَخوات والإِخوة.

ويُحاكي نظام حياة الإِخوة نظام الأَخوات إِلى حدٍّ بعيدٍ، فهم يستيقظون في

الرابعة والنصف صباحًا، ويستهلّون نهارهم بالتأَمُّل والصلاة، والاشتراك في الذَّبيحة الإلهيّة، ويعملون، طيلةَ النهار، في خدمة الفقراء ممَّن قسا عليهم الدهر، وألحق بهم مجتمعُهم الحيفَ. وعقبَ عناء نهارٍ جاهدٍ، يلتمسون بعض القوَّة والسلام في مُصلًّى صغيرٍ مجرَّدٍ إلاّ من صليبٍ كبيرٍ مسندٍ إلى الحائط، حيثُ يصلّون راكعين أو جالسين على الحضيض، ويُصيبون شيئًا من الراحة في تلاوة أبياتٍ من المسبحة.

ليس لهم زيٌّ مميِّزٌ، وقد نصّ، في هذا الشأن، نظامُهم: "ينبغي أن يكون لباس الإخوة فقيرًا وبسيطًا. عليهم أن يلبسوا مثل زيّ الفقراء الذين يقيمون بين ظهرانيهم، والأكثر شيوعًا بين عامّة الشعب. ويجب أن يكون اللباس فقيرًا، ولكن دائمًا نظيفًا. وفي الهند سيتكوَّن لباس الإخوة من قميص وبنطال... أمَّا علامة نذورهم وتكريسهم للمسيح، فصليبٌ بسيط يُثبت عند موقع القَلْب من الصدر."

إثْرَ فترة اختبارٍ، يقضي المُرشَّح مرحلة ابتداءٍ مدّتها سنتان يتمرّس، خلالهما، من تعلُّم الكتاب المقدّس، واللاهوت، والروحانيّة المسيحيّة، مدعِّمًا ذلك العلم، عمليًّا، بالعمل إلى جانب الفقراء.

ثمّ ينذر الأخ نذوره الأُولى: الفقر والعفّة والطاعة، وما يُعادل نذر المرسَلات الرابع: تكريس الذَّات للعمل وسط الفقراء؛ تلك النذور يلتزم بها، أوّلاً، لمدَّة سنة واحدةٍ، ويجدّدها، خمس سنواتٍ، كلّ مرَّة لسنةٍ واحدةٍ. وبعدها يصبح النذر مؤبّدًا مدى الحياة، وتمسي النذور نسيج حياة الإخوة:

– ففقرهم مستوحًى من مثال حياة المسيح نفسه الذي، مع غناه، غدا من أجل البشر فقيرًا، لكي يغتنوا بفقره.

– والعفّة التي يعتصمون بها، إكرامًا لملكوت السماء، نعمةٌ سنيّةٌ تُحرّرُ القلب تحريرًا متميّزًا، لكي يكون أشدّ التهابًا بحبّ الله والبشر.

– ومثال الطاعة الأسمى مستوحًى من المسيح الربّ الذي أفسد عصيان آدم، بتضحية طاعته.

– وتؤكِّد القوانين على ضرورة الحياة الجماعيّة، مُذكِّرة بأنّ الإخوة لن يكونوا مسيحيّين وإخوةً، حقًّا، أكثر ممّا يكونون وهم ملتفّون معًا حول الهيكل مقتسمين معًا الوجبة الإلهيّة.

ومع كونهم مكرَّسين، لا يَتَطَلَّع الإِخوة إِلى الكهنوت، إِلاّ في حالاتٍ استثنائيّةٍ، ولكن يجوز للكهنة المرتسمين أَن ينتموا إِلى الجمعيّة بصفة إِخوةٍ، وهذا ما يفسّر عدد الإِخوة الكهنة الغزير في الجمعيّة؛ غير أَنّ الكهنوت لا يهب أَيّ امتيازٍ داخل الجمعيّة، حيثُ الجميع إِخوةٌ متساوون.

أَمّا في مجال العمل في سبيل الفقراء، فقد تبنّى الإِخوة شعار الأُمّ تيريزا: "فَلْيَرَ كلُّ أَخٍ يسوع المسيح في شخص الفقير، وبقدر ما يكون العمل بين الفقراء منفّرًا، ينبغي أَن يتعاظم الإِيمان، والحبّ، والتفاني الفَرِح، في خدمة الربّ، عبر صورته المتألّمة".

وقد اجتاز الإِخوة، في أَوّل عهدهم، امتحاناتٍ صعبةً، ولا سيّما في مجال السكن. فبعد أَن ضاقت بهم الطبقة العليا من مبنى "شيشو بهافان"، راحوا يتنقّلون من مكانٍ إِلى آخر، ولا يكادون يقضون في مطرحٍ بضعة أَشهر حتى يُطلَب منهم إِخلاؤه، حتّى خيِّل للأَخ أَندرو أَنّ الربّ لا يريد لهم البَقَاء في كلكتّا، فشخص إِلى دلهي ظانًّا أَنّ الله قد يرغب في رؤية الجمعيّة الجديدة تنطلق من هناك؛ ولكنّه عاد أَدراجه من دلهي خائبًا، وَاستَمَرَّ يبحث إِلى أَن عثر على بناءٍ من ثلاث طبقاتٍ في شارع "مانسالا رو" بكلكتّا، ابتاعته لهم الأُمّ تريزا، وأَصبح مركزهم الرئيسيّ إِلى الآن، حتّى بعد أن تكاثرت أَعدادهم، وامتدّ نشاطهم عبر العالم.

وقد حاكت بداياتُ الإِخوة بداياتِ الأَخوات، إِذ اقترنت ضَآلَة عددهم باتّساع مشاريعهم. وقد عملوا، أَوّلاً، في خطٍّ موازٍ لعمل الأَخوات، فعُنوا بجناح الرجال في بيت المحتضرين "نيرمال هرايدي"، وتولّوا رعاية الصبيان الذين ترعرعوا في "شيشو بهافان"، وأَسهموا في خدمة البُرْص، مساعدين في نشاط المستوصفات الجوّالة؛ ثمّ عملوا بانتظامٍ في مستعمرة البُرْص الكبرى في "دابا"، إِلى أَن تولّوا عن الأَخوات العناية بمركز رعاية البُرْص، في "تيتاغار"، بعد أَن لاقت المرسلات عنتًا في مواجهة عصابات المافيا المحلّيّة، وعداء الجِوار الشرس، وأَعادوا تعميد المكان باسم "غانديجي بريم نافاس"، وحوّلوه إِلى مركزٍ مثاليٍّ، حيثُ عكَفَ إِخوةٌ أَطبّاء على العناية بنحو ثلاث مئة نزيلٍ، فيما انصرف آخرون إِلى إِعادة تأهيل عددٍ مماثلٍ ممّن شفوا، وتلقينهم صنع أَحذيةٍ من بقايا إِطارات السيّارات، وحياكة الأَقمشة القطنيّة

البيضاء بحاشيةٍ زرقاء التي تصطنع منها ألوف مرسلات المحبّة زيّهنّ. وقد اضطلع ذلك المركز بعلاج عشرات أُلوف البُرْص حتّى الآن.

ثمّ كثّف الإخوة اهتمامهم بالفتيان والشبّان المشرَّدين، الذين كانت محطَّة "هوراه" للسِّكَّة الحديديّة هي السقف الأَوحد الذي عرفه وأَوى تحته مئاتٌ منهم. بعضُهم قد فرّوا من بيوت ذويهم، أو من واجب حرّيَّةٍ مراقَبةٍ، إِثرَ الإِفراج عنهم من السجون، ومعظمهم كانوا يُعانون شتّى ضروب الأَسقام. وقد شرع الإِخوة يقدّمون لهم مساعداتٍ وضيعةً، كالصابون للاغتسال؛ ثمّ طفقوا يُعدّون لهم عشاءً ساخنًا كلَّ مساءٍ، كان من شأن معظمهم النوم على الطوى لولاه. وقد استضافوا لديهم بعض الفتيان الأَكثر وهنًا وهشاشةً، ريثما أوجدوا لهم مراكز توفّر لهم، وللصّبيان القادمين من "شيشو بهاڤان"، دراساتٍ تقنيّةً ومهنيّةً تؤمّن لهم انطلاقةً سليمةً في الحياة.

أوّل تلك المراكز أَسموه "نابو جيڤان" (أي الحياة الجديدة)، وقد خَصُّوا به المعاقين المشرَّدين. ولمّا اشتدّ الإقبال على التربية المهنيّة افتتحوا، في منطقة "دمدم"، على مقربة من مطار كلكتّا، مشغلاً لتعليم تصليح أَجهزة الراديو كان طلاّبه والعاملون فيه من المشرَّدين. ولم يُغفلوا المُسنّين المُهمَلين، فاستحدثوا لهم مقرًّا، على مقربةٍ من محطّة "هوراه"، كان يتّسع، عندَ تأسيسه، لخمسةٍ وعشرين رجلاً، وقد صرّح أَحد هؤلاء: "الحمد لله لإرساله لنا هؤلاء الإِخوة الذين باتوا لنا أَبناءً يرعوننا في شيخوختنا، بعد أَن حُرمنا من الأَولاد على الأَرض". ومضى الرجل يبكي ممجِّدًا الربّ.

ثمّ افتتحوا مركزًا للصِّبيان المشرَّدين، الذين عكفوا على تأمين مدارس لهم، وفقًا للهجاتهم المتباينة؛ وبعدئذٍ انطلقوا خارج حدود المدينة، عندما ابتاعوا، في منطقة "نورپور"، على مسافة نحو ثلاثين كيلومترًا من كلكتّا، مزرعةً لجوز الهند، جعلوا منها ملجأً للمعاقين عقليًّا وللمصدورين، وأَحدثوا فيها مسمكةً؛ وكان المتخلّفون عقليًّا ينهضون بالأَعمال الزراعيّة البسيطة، والمصدورون يجدون الشفاء، بعيدًا عن غُبار كلكتّا وتلوُّثها. وسرعان ما ارتقى عدد سكّان تلك المزرعة إِلى مئتين، يُشرف عليهم نحو خمسةٍ وعشرين أَخًا، يساعدهم عددٌ من المُرَشَّحين.

وتعدّدت مراكز الإِخوة في مختلف القرى الهنديّة، وكانت أَشبه بأَشرم النسَّاك الهنود، وقد رحّب القرويّون بوجود ضيوفهم، وبمساعدتهم. ومن جرّاء وقوع بعض

تلك المراكز في مناطق قبائل، تعيّن على الإِخوة تعلّم شتّى اللهجــات، كالــسانتالي، والهوماندا، والياهاري.

لقد كانت مهمّات الإِخوة تتخطّى طاقاتهم، وعددهم الذي ارتقى إِلى خمسةٍ وثمانين في نهاية عام ١٩٧٠، بحيث اضطرّ إِلى تولّي بعض المراكز مُرشَّحون لــم يبــرزوا، بعدُ، نذورهم، فالمكرَّسون ما انفكّوا قليلي العدد، ومقتضيات العمل، تــستلزم ســواعد كثيرةً؛ وعلى خلاف تقاليد المرسلات التي لا تتيح افتتاح أيّ مركزٍ لهنّ، بأَقلّ من أَربع مُرسلاتٍ، كان الإِخوة يفتتحون أَحيانًا مراكز لا يقوم عليها سوى اثنين قد يكونان مــن المُرشَّحين. وقد وصف الأَخ أَندرو تلك الفورة، بمناسبة تأسيس فرع "دمدم"، الذي مــا زال يعمل بمردودٍ عالٍ حتّى الآن، فكتب: "في شهر أيلــول ١٩٦٧ جاءنــا شــخصٌ وحدّثنا عن بيتٍ خالٍ، وجاهزٍ للاستعمال، في مكانٍ آخر من كلكتّا، فأَخــذناه، وكــان سلوكنا ذلك جنونًا، إِذ لم يكن بوسع المبتدئين تولّي شأنه، لأَنّه لــم يكــن متاحًــا لهــم مبارحة البيت الذي يتابعون فيه فترة الابتداء، فأُلجئنا إِلى افتتاح ذلك المركــز بخمــسةٍ من المرشَّحين، وكان رئيسهم نفسه مُرشَّحًا، إِذ لم يكن لدينا أَيّ أَخٍ مكرَّسٍ خالٍ. وهكذا اتَّسمت بداية جمعيَّتنا بأَحداثٍ مثيرةٍ للاهتمام والدهشة، من جرّاء افتقارنا إِلــى إِخــوةٍ مُكرَّسين يمتلكون الخبرة؛ فحتّى بعد أَن أَبرز الإِخوة الاثنا عشر الأَوائل نذورهم، كانت مهمّاتنا المتعدِّدة تفوق طاقات ذلك العدد الضَئيل من الذين نالوا ثقافةً كافية."

ولا ريب أَنّ شخصيَّة الأَخ أَندرو قد لعبت دورًا أَساسيًّا في هذا النشاط المتدفّق، فهو، بالسليقة، متفائلٌ، ويعكس هذا التفاؤل على الذين يتولّى تثقيفهم، فيشيع فيهم الثّقة والحبّ، وهذا ما عبّر عنه بقوله: "بسرعةٍ كبرى، وفي غضون أَقلّ من سنةٍ، كان لنا أَربعة مراكز في كلكتّا، كنتُ أَزورها باطّرادٍ، ولكنّ مسؤوليّتها كانت ملقاةً على كاهل الإِخوة الشبّان أَنفسهم، واكتشفت، حينئذٍ، أَمرًا تأكّد لي، فيما بعدُ، بعمــقٍ. وهــو أَنّ بمكنة أُولئك الشبّان تدبّر أمورهم، والنهوض بمسؤوليّاتهم. كلّ ما يحتاجون إِليه هــو أَن يُشَجَّعوا، ويُقَوَّموا عند الحاجة، ويُساندوا باتّصالاتٍ مــستمرَّةٍ، ومــؤازرةٍ حافلــةٍ بالودّ. ذلك هو أَحد أَخطر الأمور شأنًا التي لقَّنني إِيّاها سياق الظروف، إِذ إِنَّنا كنّــا، وما برحنا، جمعيّةً شابّةً، تتألّف من إِخوةٍ شبّانٍ، وقد تحقّق ازدهارنا ونموُّنا، في شتّى بقاع المسكونة بأَيدي إِخوةٍ حديثي العهد جدًّا...".

هذا الاندفاع المتفاني أَشاع عدواه، واستفزّ سخاء نفوسٍ تَتَطَلَّع إِلى البذل، تقاطرت نحو مركز الإِخوة في كلكتّا، طالبةً الانضمام إِليهم، وكان عليهم، قبل الانتماء رسميًّا إِلى الجمعيّة، اجتياز فترة اختبارٍ دُعيت فترة "**تعالَ وانظرْ**". تلك الفترة قد تمتدّ من ثلاثة أَشهرٍ حتّى اثني عشر شهرًا، يتأكّد خلالها القادم هل هو متأهّبٌ لممارسة حياة الإِخوة المرسلين، مشاركًا أَهدافهم من خدمةٍ مُحِبَّةٍ، وعنايةٍ بأَفقر الفقراء، وإِطعامهم، وإِيوائهم، وتمريضهم، ومؤاساتهم، كما لو كانوا المسيح شخصيًّا، ولا سيّما في المجالات التي يقوى عليها الرجال أكثَر من الأَخوات، مثل الوقوف، ليلةً بأكملها، في محطّة قطاراتٍ؛ وفي غضون تلك الفترة يتحقّق المسؤولون، أَيضًا، من أَهليّة المُرشَّح للبذل والتفاني.

معظم أولئك القادمين الهنود للانضواء تحت لواء جمعيّة الإِخوة كانوا وافدين من قبائل تعيش عيشةً بدائيّةً في القرى، وكانوا، للمرّة الأولى في حياتهم، يوصدون بابًا، أَو يُديرون زرّ إِنارةٍ كهربائيّةٍ، وكان من الصعوبة بمكانٍ العثور لكلٍّ منهم على مدرسةٍ يتلقّى فيها ثقافةً أَساسيّةً بلهجةٍ يفهمها؛ وفي هذا السياق كان الأَخ أَندرو أَقلّ صرامةً من الأُمّ تيريزا التي فرضت على الأَخوات تعلُّم اللغة الإِنْكليزِيَّة لأَنّ التثقيف الروحيّ لم يكن متوفِّراً إِلاّ في هذه اللغة.

ولكنّ كثيرين، أَيضًا، كانوا يقدمون من المدن، وكان أَحدهم قد قضى ثماني عشرة سنةً في البحريّة الهنديّة، وكان تدفّقهم مدهشًا، ممّا رسّخ لدى الأَخ أَندرو اليقين بأَنّ الربّ يُعدّ لجمعيّته خطط مستقبلٍ زاهرٍ.

وإِلى جانب هؤلاء وأُولئك شرعَ يقدم إِلى الجمعيّة، منذ تأسيسها، شبّانٌ من إِنكلترا وأَميركا، وبلدانٍ غربيّةٍ أُخرى، متطوّعين لمساندة الإِخوة بضعة أَشهرٍ، أَو فترة عطلةٍ صيفيّةٍ، مشاركينهم عيشتهم الشاقّة، من نومٍ على حصيرٍ فوق الحضيض، واستيقاظٍ في الرابعة والنصف صباحًا، فاغتسالٍ، فتأمّلٍ، فحضور قدّاسٍ، فإِفطارٍ قوامه شايٌ وخبزٌ، وحليبٌ أَحيانًا، قبل مباشرة نهار عملٍ لا هوادة فيه.

وقد روى أَحد أولئك المتطوّعين كيف عُنِي بوافدٍ جديدٍ إِلى دار المحتضرين، وقد دبّت الغنغرينا إِلى إِحدى ساقيه التي لُفّت بغطاءٍ غليظٍ؛ ومع أَنّ الرجل كان في الأَربعين إِلاّ أَنّه بدا وكأَنّه قد تخطّى السبعين. واضطُرّ المتطوّع إِلى معالجته خارج

قاعة المرضى، من جرّاء روائح التفسُّخ الكريهة المنبعثة منه. وما كاد يسكب على القدم المصابة بعض ماء، حتّى سقط عظم الساق وعصبه أرضا، وانقضّ غراب وطار بها، فقد كان، هو أيضًا، جائعًا. وبدت عظام القدم مُجَرَّدةً.

وممّا ورد في روايته أَنّ الإِخوة كانوا يتناولون، لغدائهم وعشائهم، مثل ما كانوا يُطعمون الفقراء، أي البرغل أو الأرزّ مع الكاري. وكانوا يؤوبون إلى مقرّهم في السادسة مساءً، فيتلقّون درسًا دينيًّا حتّى السادسة والنصف، ثمّ يتعشّون، صامتين، مصغين إِلى نصٍّ روحيٍّ، يقرؤه أحدهم على مسامعهم. ثمّ تلي ساعة فسحة، يعبث فيها الجميع، ويضحكون، ويتنفّسون، إِذ لا يفسح لهم عملهم الدؤوب، طوالَ النهار، لحظةً للتَّرويح عن النفس.

وفي تلك الأيّام، كان رهبانٌ من أديرةٍ أُخرى يُطالعون في الصحف والمجلاّت أنباء فِعال الأُمّ تيريزا ومرسلاتها ومرسليها، في الهند، فيقع الأمر من نفوسهم أبلغ وقعٍ ويلتمسون إِذنًا بالانضمام إِلى الإِخوة، على نحو ما فعل راهبٌ من الولايات المتّحدة عام ١٩٦٨. وحتّى الذين كانوا، من هؤلاء، لا يحتملون طقس الهند، ويضطرّهم الاعتلال إِلى العودة من حيثُ أتوا، كانوا يواصلون، مع الإِخوة، علاقاتٍ روحيّةً حميمةً خصبةً، ويستفزّون لهم متطوّعين آخرين من بلادهم، ويوفّرون للجمعيّة عناصر جديدةً.

أَحد أُولئك الرهبان، وقد شارك الإِخوة حياتهم فترةً من الزمن، وصف فيضَ نشاط الأخ أندرو، وإِيمانه الراسخ الذي يستحثّه ويحدوه، وأضاف: "صفته المميّزة هي شدّة مراسه. فهو لا يبدو خائفًا من أيِّ شيءٍ، ولا سيّما من الفشَل؛ وهذه الصفة تنطوي، بالتأكيد، على تحرُّرٍ مُطلَقٍ من الحياء البشريّ، وعدم اعتدادٍ لمديح الناس أو ذمّهم. الكثير من تلك الصفة فطريٌّ فيه، غير أَنّ سمة التمرُّس اليسوعيّ واضحةٌ أيضًا. قوّة المراس هذه هي هبةٌ من الروح القدس، وتنبع من قناعاته الكمينة: من إِيمانه بالله وحبّه له؛ ويبدو أَنّ بينه وبين الأُمّ تيريزا وجوهَ تباينٍ، فهي أشدُّ محاكاةً للقدّيسة تيريزا الطفل يسوع، وقد أسبغت عليها رؤيتُها لحبّ الله التي هيمنت عليها، تأثيرًا روحيًّا فائقًا، في حِين ما انفكّ الأخ أندرو يؤكّد على كونه مخلوقًا بشريًّا، أو، كما يقول، "أرضيًّا".

وقد وصف الأخ أندرو نفسُه ما يفرزه عمل الإِخوة من فرحٍ غامرٍ، مع ما ينطوي عليه من نصَبٍ، وما يواكبه من أهوال، ومناظر مريعةٍ، فقال:

« إِنّ مسرّات العمل إِلى جانب الفقراء كثيرةٌ وعميقةٌ، فهناك فرح رؤية القوم يتحرّرون ولو من جزءٍ من آلامهم، ورؤية مرضى يشفون من أَسقامهم، وأُسَرٍ تظفر بعملٍ يؤَمّن لها خبزها، وصبيان شوارع يعثرون أَخيرًا على بيتٍ، ويؤنسون أَنّهم بشرٌ محبوبون؛ ورؤية مدمني كحولٍ ومخدّراتٍ يتخطّوْن عوائقهم. التقطنا، يومًا، رجلاً وابنه البالغ من العمر خمسة أَعوامٍ، كانا مرميّين على رصيف محطّة سكّة الحديد، إِذ لم يكن لهما مأوى، وكانا يصارعان الموت بعد أَن لقيت الزوجة حتفها، وقد هويا إِلى غيبوبةٍ تحاكي الموت. وما عتّم أَن تُوفِّي الوالد، في غضون أَيَّامٍ معدوداتٍ، من غير أَن يستطيع الفَوْه بكلمةٍ. أَمّا الطفل فقد توقّف سُعاله، وعاد إِلى الحياة، وشرع يضحك ويعبث مع إِخوةٍ جدُدٍ صغارٍ، هم أَيضًا كان قد شفاهم الحبّ.

"وثمّة فرحٌ في رؤية صبيٍّ أَعرج جيء به من محطّة القطار، يلعب معي في الغرفة، سعيدًا بعثوره على مأوًى، وبيتٍ، وطعام، وشيءٍ من الحبّ.

"قد يكون الأَمر أَيسر لنا، نحن هنا، لأَنّنا نشاهد هذه الأُمور بأُمّهات عيوننا، ولأَنّ مثل هذه المشاهد والخبرات تنطوي على تشجيعٍ وسعادة. ولكنّني موقنٌ بأَنّ حبّ الذين يشاركوننا عملنا، عن بعد، وإِيمانهم، أكبر بِكَثِير لأَنّهم يفتقرون إِلى عزاء رؤية أَلق العيون الفتيّة، وسماع ضحكات الصغار وغنائهم »

وقد اتَّضح للأخ أَندرو أَنّ المسؤوليّات تكسب إِخوته الشبّان نضوجًا، فأَسند إِليهم المزيد منها، وظلّ يواكبهم عن كثبٍ؛ وقد قال عنهم: "**إِنّهم يهيجون حماسي روحيًّا إِلى أَقصى مدى، إِنّهم يعطوننا، باستمرارٍ، دروسًا في السخاء والمحبّة**".

وبعد مُضيّ ستّ سنواتٍ على تأسيس الجمعيّة، كان الأَخ أَندرو قد قضى في الهند ثمانية عشر عامًا متَّصلاً، واستبدّ به الحنين إِلى مسقط رأسه، فأمّه كانت قد توفّيت وهو طفلٌ، وأَثناء غيابه في الهند لحق بها والده؛ فعيّن الأَخ "فرديناند" نائبًا عنه، وأَوكل إِليه وإِلى الإِخوة أمور الجمعيّة، وطار إِلى أُوستراليا. وقد كتب، في معرض حديثه عن تلك الزيارة: "كان قد نال منّي النصب والهزال، وأَمسيتُ في حاجةٍ إِلى فترة راحةٍ. حتّئذٍ لم أكن قد غبت عن الإِخوة أكثر من أُسبُوعٍ واحدٍ، وقد كنتُ لهم، أَبدًا، كلَّ شيءٍ: الرئيس، ومرشد المبتدئين، وكان كلُّ شيءٍ منوطًا بي. ورأَيتُ أَنّه قد يكون مفيدًا لهم أَن يتدبّروا أَنفسهم بأَنفسهم، بتولّيهم شؤون الجمعيّة أَثناء غيابي، فعزمتُ على العودة إِلى أُوستراليا

حيثُ قضيتُ أربعة أشهرٍ مع أسرتي. وقبل مغادرتي، كان يخامرني شعورٌ واضحٌ بأنّنا نشارف نهاية مرحلةٍ من نموّنا، وأَنَّ دوري، بعدئذٍ، سيشهد تحوُّلاً.

"تلك العطلة كانت لي تجدُّدًا، فقد أَصبتُ الراحة واستعدتُ قواي الجسديّة والفكريّة. ولمّا قفلتُ عائدًا إِلى الهند، تولاّني شعورٌ بأَنّ عمري قد تراجع عشر سنوات إِلى الوراء. وتبيَّن لي أَنّ الإِخوة قد تدبّروا أُمورهم على خير نسَقٍ...

وبعد أَن اطمأَنّ إِلى أَنَّ مستقبل الجمعيّة في الهند تتولاّه أَيدٍ أَمينةٌ، تعهَّد بنفسه نشرها في العالم. وكان لتطلّعه هذا دوافع عديدةٌ، أَهمُّها أَنّ غربيّين كثيرين كانوا يرغبون في الانضواء تحت لواء الجمعيّة، ولكن تحول دون رغبتهم تلك حواجز منيعةٌ، مثل تعذّر حصولهم من الحكومة الهنديّة على تأشيرات إِقامةٍ، أَو عجزهم عن التأقلم مع مناخ الهند، وظروف العيش فيها. ومن جانبٍ آخر، كان راغبًا في إِقامة مراكز حيث لا تستطيع الأَخوات ذلك. وكانت الأُمّ تيريزَا قد زارت عام ١٩٧٣ كلاًّ من سايغون وفنوم پـين، ولكنّها لم تجسر على إِيفاد أَخواتها إِلى جهنّم تلك البلاد التي كان يسيطر عليها عنفٌ جامحٌ، والتي دمَّرتها إِحدى أَطول الحروب في عصرنا. وارتضى الأَخ أَندرو التصدّي بنفسه للتَّحدّي، فطار إِلى الـڤيتنام، وقد علّق على تلك المخاطرة بالقول: "إِنّ قدومنا إِلى هنا، وما أَنجزناه، قد انقلبا بكاملهما، تجربةً أَغنتني على نحوٍ مدهشٍ. فمواجهتي ثقافةً جديدةً مع جهلي التامّ للغتها، وحيدًا وسط رِيَبٍ جمَّةٍ، أَرغمتني على التوغُّل في هوَّة وهني وفراغي الداخليّ، وإِلى تبيُّن حاجتي إِلى عون الله، بوضوحٍ...".

وجهد الأَخ أَندرو في استدرار مساعداتٍ متنوّعةٍ من مؤسَّسات الغوث الكاثوليكيّ ومن مؤسَّساتٍ أُخرى في الولايات المتّحدة، وافتتح "بيت ضيافة" لمن ضاقت بهم الأَرض من أَبناء ذلك البلد الجريح، ولا سيّما من الأَيتام والأَرامل، الذين كانوا يُمثِّلون معظمَ سُكّان البلاد. كما أَنّه استقدم، من الهند، حفنةً من الإِخوة انضمّ إِليهم عددٌ من المتطوِّعين الغربيّين الذين كان مواطنوهم يعيثون في تلك البلاد دمارًا؛ وسرعان ما غدا عددٌ من الذين مدّ لهم يد العون، وأَسعفهم، من أَخلص مساعديه، وأوفرهم جدوى. ومن أَبرز هؤلاء امرأةٌ في الرابعة والثلاثين تدعى "مي لي"، لها ثلاثة أطفالٍ، ابنتان وصبيٌّ. كان زوجها قد لقي حتفه دهسًا تحت عجلات سيَّارة جيبٍ، سرقها مدنيٌّ

أوسترالـيٌّ ثَمِلٌ، وراح ينهب بها شوارع المدينة كالمجنون. وبغتةً فقدت المرأة كلّ مورد رزقٍ تقيم به أَوَد أَطفالها، فوقعت في شباك البغاء، وأُلجئت إِلى بيع جسدها للجنود، ولكنّها سُرعانَ ما ضاقت ذرعًا بتلك الحياة المهينة، وعزمت على الانعتاق من قيودها المقيتة، وعلى تربية أَبنائها تربيةً نظيفةً لائقةً، ورعايتهم بكلّ تفانٍ. فاستَجدَتْ مؤازرة ذويها الذين قدّموا لها مساعدةً مؤَقّتةً، ثمّ تخلّوا عنْها. ولمّا تنامى إِليها وجود "بيت الضّيافة"، الذي افتتحه الإِخوة هرعت إِليه، وما لبثت أَن أَمست لولب نشاطه، عاملةً في تفانٍ لا هوادة فيه؛ وبمهارةٍ ذكيّةٍ، أَسهمت في تطويره وازدهاره، على نحوٍ يثير الدهشة والإِعجاب. وعندما ارتقى عدد نُزَلائه إِلى الستّين، جهدتْ كي تجعل منهم جماعةً متضامنةً، مكتفيةً ذاتيًّا، ولكلٍّ منهم دورُه فيها، حتّى العجوز العمياء، التي أُسندت إِليها مهمّة هدهدة أَطفالٍ، فيما انصرفت أُمّهاتهم إِلى عملهنّ.

وقد وصف الأَخ أَندرو ما آل إِليه بيت الضّيافة بقوله:

« تبدو القرى وكأَنّ سكّانها من الأَرامل والأَيتام ليس إِلاّ. ففي معظم الحالات قضى الرجال نحبَهم في ساحات القتال، أَو انضووا إِلى الميليشيات. وإِثر رحيل الأَميركيّين أَصبح العمل والمال نادرين، وتسارعت وتيرة التضخُّم. لدينا العديد من الأَولاد والأُمّهات الذين يضطلعون بشؤون المطبخ، ومختلف الأَعمال المنزليّة... المشاكل كثيرةٌ، ولكن تثلج صدورنا السعادة التي تُهيْمن على البيت، وروح التعاون والتضامن الرائعيْن السائدَيْن بين سُكّانه... ليس عملنا هنا سوى قطرةٍ في المحيط، ولكنّنا مؤمنون بأَنّه قد يمثّل إِشارة حبٍّ ورجاءٍ وسلامٍ صغيرةً. إِنّه قصّة قومٍ ضئيلي الشأن، مجروحين ومحتَقَرين، يحاولون تحقيق شيءٍ جميلٍ يفيض حبًّا، ويبدو انعكاسًا لعطف الله وقدرته.

"لقد أَدركنا مدى معاناة ذلك الشعب الذي بات يعلّمنا ويُغنينا، وأَمسينا مدينين له. إِنّ سرّ الأَلم لبعيد الغور. بيد أَنّ إِحدى فوائده إِسهامه في جمع شملنا. إِنّ الفقراء، من جرّاء معاناتهم، هم عامل وحدتنا... إِنّهم سيُساعدون على إِنقاذ العالم ».

ازدهار "بيت الضّيافة" دفع إِلى افتتاحِ بيتٍ ثانٍ، فثالثٍ، وشجَّع الأَخ أَندرو على استحداث مركزٍ للابتداء، يستقبل ويُثَقِّف الراغبين في الانضمام إِلى جمعيّة الإِخوة المرسلين من جنسيَّاتٍ مُتعدِّدةٍ. وقد تمّ ذلك في حقبةٍ زمنيّةٍ قصيرةٍ، وسط مصاعب كأداء، أَفضى التغلّب عليها إِلى صهر الإرادات، وإِكسابها منعةً وصلابةً.

ومع أَنّ مراكز التثقيف الروحي للمرشَّحين لحياةٍ مُكَرَّسةٍ ينبغي أَن تُحاط بجوٍّ من الهدوء، يمكّن من تمثُّل المبادئ التي يتعيّن أَن تقوم عليها حياتهم، إلاّ أَنّ أَجواء الـڤـيتنام الصاخبة، في تلك الفترة من السبعينات، لم تكن المكان الأَمثل لذلك الغرض؛ ومع ذلك، فإِنّ فترة الابتداء الموجزة التي لم تمتدّ أكثر من سنةٍ واحدةٍ، قد أَنبتت أَوَّلَ دفعةٍ من الإِخوة مرسلي المحبّة، الذين غدوا، خارج الهند، قاعدةً لتوسّع استُهلَّ في "جهنَّم" الـڤـيتنام، وسُرعانَ ما امتدّ إِلى "جهنّم" كمبوديا، التي لم تكن تقلّ استعارًا وهولاً، والتي وصفها الأَخ أَندرو بقوله:

« كما لو أَنّ ما كنّا نعيشه من توتُّرٍ لم يكن كافيًا، تلقَّينا، في شباط ١٩٧٤، برقيّةً غير مُتَوَقَّعةٍ تدعونا إِلى العمل في كمبوديا لمؤازرة اللاجئين في ضواحي "فنوم پين"، فأَحدثنا مركزًا في تلك الأَرض الشهيدة الجميلة. وقد راعتنا رؤية ما حدث هناك... إِنّها لمريعةٌ قيادة السيَّارة على الطريق الرئيسيّ رقم ٤، في ضواحي "فنوم پين"، على امتداد خمسين كيلومترًا، وتبيُّن عدم وجود قريةٍ أَو بناءٍ نجيا من التدمير. وليس أَقلّ هَوْلاً تبيُّن أَنّ الخراب لم يطلْ المساكن فحسْبُ، ولكن، أَيضًا، السكّان أَنفسهم، في حياتهم ونظامهم؛ ورؤية القوم يندفعون نحو مخيّمات اللاّجئين، أَو يصطفّون على حافّات الطرقات، وضفاف الأنهر، على إِيقاع تكرار النظريّات السياسيّة التي لا يفقهونها، والتي لا يستأهل أَيٌّ منها ما يدفعونه في سبيلها من ثمنٍ... ».

اللااستقرار، الخوف ممّا قد يحدث، التعرّض لتقلُّبات الطقس، وتعذُّر الدفاع عن النفس، تلك كانت الظُّروف المهيمنة التي يعيش في أَجوائها "أَفقر الفقراء"، والتي واكبت تأسيس جمعيّة الإِخوة مرسلي المحبّة، الذين اندفعوا للخدمة في سخاء بذلٍ، لا تحفُّظ فيه، وانخرطوا في "مساعي السلام"، حيثُ كانت أَفواج النازحين ومعاناتهم تصدم العَيْن والنفس.

في مطلع عام ١٩٧٥، كتب الأَخ أَندرو: "بيوتنا في سايغون جميلةٌ حقًّا، وجميلٌ أُسلوب نموّ جماعتنا فيه. وما تحقَّق ويتحقّق في كمبوديا لرائعٌ أَيضًا. وبإِذن الله، سنواصل عملنا في كلا البلدَيْن. إِنّ الأُمور، في كلّ مكانٍ، تبدو على أَسوأ حال، ولكنّ الربّ وعد بالبقاء معنا دائمًا." غير أَنّ تلك النبرة المتفائلة سرعان ما انقلبت قلقًا وخيبة أَملٍ؛ إِذ إِنّه كتب، بعد بضعة أَشهرٍ: "إِنّني عائدٌ للتَّوّ من "فنوم پين"، حيث

لم أَشهد، قطّ، مثيلاً لما شاهدت. فثمّة الصواريخ، والخوف من الصواريخ، وحمّامات الدم، والخطر، الخطر الكامن في الهجرة وفي الإقامة على السواء؛ إِنّه لمريعٌ إِبقاء إِخوتنا الصغار هناك، في مثل هذه الظروف. ولكنّهم يعنون الكثير لقومنا هناك. والأمر الملفت، فيما يتعلّق بهم، هو روح الفرح الجمّ الذي يفعمهم...".

لقد رفضت العصابات الثَّوريَّة، في غمرة الحرب الأَهليّة المستشرية، وجودَ بؤرة الحبّ والسلام تلك، واضطُرَّ الأخ أَندرو إِلى إِجلاء الإِخوة عن "فنوم پين"، ما خلا واحدًا أَصرّ على البقاء بين ظهراني قومٍ آمن أَنّه وُجد كي يُحبَّهم ويساعدهم؛ وفُقِدتْ آثاره طويلاً، إِلى أَن اتّضح أَنّه أَصبح راهبًا في أَحد الأَديرة.

ثمّ، عندما اقتحم شمال الڤيتنام سايغون، أَجلى الأَخ أَندرو جميع الإِخوة من المدينة التي آثر البقاء فيها وحيدًا، في حين كان مئات أُلوف الڤيتناميّين يجهدون لهجر بلدهم، مخاطرين بأَرواحهم، التماسًا للفرار؛ وفي تلك الأَثناء كان الأَخ أَندرو يطوف ببيوت الضِّيافة، محاولاً تأمين احتياجات الذين بقوا مذعورين، محتاجين إِلى كلِّ شيءٍ. ولكنّ رجال الأَمن لم يدَعوه وشأنه، بل جعلوا ديدنهم زيارته مُصوِّبين إِليه عشرات البنادق، فيما كان بعضهم يدقِّقون في جواز سفره وأَوراقه. وكانت له كلُّ زيارةٍ من زياراتهم تجربةً مريعةً، إِلى أَن استولى الجند على بيوت الضِّيافة التي افتتحها الإِخوة المرسلون، وطردوا سكّانها منها، وأَمروا الأَخ أَندرو بمغادرة البلاد، بعد أَن حجزوا جواز سفره، وأَبلغوه وجوب الشخوص إِلى المطار خمسًا وعشرين ساعةً قبل موعد الإِقلاع. ولم يردّوا له جواز سفره إِلاّ بعد أَن استقرّ على متن الطائرة.

كان ذلك في ١٩ آب ١٩٧٥، وعن تلك الذِّكرى الأَليمة كتب: "كان الغَسَق يُخيِّم على أَشجار جوز الهند، في ليلتي الأَخيرة في ڤيتنام. وقد تَذَكَّرت ليلة يسوع الأَخيرة (وكم أَنا أَختلف عنه!)، ولَكِنَّني أَستطيع تلاوة صلاته نفسها، سائلاً الروح أَن يأتي ويُقيم مع هذا الشعب. لقد هالتني فظاعة الفراق النهائيّ، وحدَّقتُ في ثنايا الليل، مودِّعًا جميع قاطني سايغون وڤيتنام، شاخصًا بأَبصاري إِلى القوم الذين تفرّقوا، متضرِّعًا إِلى الربّ كي يكون معهم، ويهبهم الحياة... وشكرتُ الله."

لقد كانت تجربةً قاسيةً داميةً اعتَرفَ بشأنها: "هذه السنة كانت كارثةً حقَّةً. فقد خسرنا خمسة فروع في الڤيتنام وكمبوديا. لم نحفل بفقدان الأَبنية؛ أَمّا الانفصال

الشرس عمّن عرفناهم عن كَثَب، وأَحببناهم، فهو مؤلمٌ إِلى حدٍّ يتخطّى التصديق. بعد الآن لن أكون أَنا نفسي، وسيظلّ ما حدث جرحًا نَازِفًا في قلبي حتّى يوم مماتي... وهكذا غدا الـڤـيتنام وكمبوديا، لإِخوتي ولي، كتابًا مُغْلَقًا، لن نعرف أبدًا ما انطوت عليه صفحاته عن حياة العديدين من الناس الذين لن يقووا على التحدُّث في السنوات القادمة... لمّا، في النهاية، تفرّقنا جميعنا، قالت لي امرأةٌ كانت لها، في رعاية بيوت الضِّيافة، اليدُ الطولى، وقد ازدحمت الدموع في مآقيها: "فُـرِض علينا الانفصال، وسيأتي يومٌ يلتئم فيه شملنا من جديد". قالت ذلك، وهي ترنو إِلى السماء.

تلك الفترة الممتدّة بين نيسان وأواخر آب ١٩٧٥، التي قضاها الأَخ أَندرو وحيدًا في الـڤـيتنام، كانت محنةً قاسيةً له ولإِخوته في الهند الذين لم يتسلّموا منه سوى رسائل نادرةٍ كانت تهيم طويلاً بين سايغون وكلكتّا. إلاّ أَن جمعيّة الإِخوة في كلكتّا قد صمدت بثباتٍ، أَثناء غياب "خادمها العامّ"، مع ما أَثاره هذا الغياب من هواجس، بفضل تضامن مجلسٍ عامٍّ من أَربعة أَعضاءٍ، وأَمينٍ عامٍّ، ومرشد مبتدئين، وبفضل اعتصامهم بنظامهم الأَساسيّ ذي الصفحات التسع والتسعين، وما ينطوي عليه من إِرشاداتٍ روحيَّةٍ بيِّنةٍ، هي دليل حياتهم، والذي يُحاكي، إلى حدٍّ بعيدٍ، نظامَ المرسلات.

كان وضع الجمعيّة في الهند، إِذن، مبعث عزاءٍ؛ وقد شهد الأَخ أَندرو، في الثّامن من حزيران ١٩٧٦، إِبرازَ سبعة عشر أَخًا جديدًا نذورهم الأُولى، وخمسةٍ آخرين نذورهم النهائيَّة، بحضور الأُمّ تيريزا. وبعد أُسبوعٍ، شهد افتتاح مركزٍ جديدٍ للأخويّة، في مدينة "غايا"، بولاية البيهار، في منطقةٍ تُعتَبر محجّةً لأَتباع بوذا، الذي أَشرقت عليه أَنوار الروح في ذلك المكان.

وبعد أَن ارتاح الأخ أَندرو إِلى مسيرة الجمعيّة في الهند، تطلّع، من جديدٍ، إِلى "تصديرها" للخارج، وامتدّت أَبصاره إِلى آفاقٍ بعيدةٍ، ووقع اختياره على مدينة "لوس أَنجيليس"، في الولايات المتّحدة، حيثُ اصطحب أَربعةً من الإِخوة، ثلاثة أَميركيّين وهولنديًّا واحدًا؛ وقد اختاروا مقرًّا لهم الموضع الأَكثر وحشةً وبؤسًا من تلك المدينة، في منطقة "سكيدرو" التي تقطنها جاليةٌ إِسبانيّة اللغة، مهمَّشةٌ، حافلةٌ بالأُسر المحطَّمة، والمسنّين المُهمَلين في وحدةٍ خانقةٍ، وفتيانٍ وشبّانٍ مُشرَّدين انتهوا إِلى مهاوي المخدِّرات والكحول، والجنوح، والفتيات اللواتي لم يجدْنَ سوى الدعارة وسيلة رزقٍ،

والأَيتام الذين لا معيل لهم. وقد أَقام الإِخوة في بيتٍ ضنكٍ من الصفيح؛ ولكنّهم كانوا يتدفّقون اندفاعًا، وسرعان ما اكتسبوا ثقة قومٍ نبذهم حتّى ذووهم، وفقدوا الثّقة بكلّ إِنسانٍ؛ ولا بدعَ في ذلك، فهم يعملون بدافع قَوانين جمعيّتهم التي تنصّ: "على الإِخوة الاختلاف إِلى زيارة بيوت الفقراء في الأَكواخ، منتقلين من بيتٍ إِلى آخر، بحثًا عن المرضى والمحرومين والمحتضرين. وعليهم أَن يكونوا، أَبدًا، متأَهّبين لتنظيفهم وتنظيف بيوتهم، وأَداء جميع الخدمات لهم، مهما كانت وضيعةً. وعليهم أَن يكونوا، أَبدًا، متيقّظين لمساعدة المُشرفين على الموت، كي يموتوا في حبّ الله."

وتكثَّف توافدُ الراغبين في الاندماج بحياة الإِخوة، والمتعاونين معهم، والمُتَطوِّعين من كلِّ بلدٍ وجنسيَّةٍ، ولا سيّما من أَميركا وأوروپا. وكان حقل العمل من السعة بحيث يستدعي أُلوف السواعد، فافتتح الإِخوة مركزَيْن آخرين في لوس أَنجيليس، فضلاً عن دار ابتداءٍ للرَّاغبين في قضاء فترة "تعالَ وانظر" تمهيدًا لانضوائهم تحت راية الإِخوة المرسَلين. وقد وصف أَحد الإِخوة النشاط العارم الذي انخرط فيه وإِخوانه، في تلك المدينة المترامية الأَطراف، فكتب، وكأَنّ كلامه صدًى لأَقوال الأُمّ تيريزا:

« لدينا، في لوس أَنجيليس أَربع جماعاتٍ تضمُّ نحوًا من عشرين أَخًا؛ ونحن نعمل وسط أُسَرٍ فقيرةٍ إِسبانيّة اللسان. في أَحدٍ مراكزنا تستطيع النسوة طهو طعام أُسَرهنّ، والحصول على كساءٍ لذويهنّ، والظَّفر بالخضراوات والخبز والأَطعمة التي يتبرّع بها مختلف تجّار المدينة. وعندما يكون الأَمر ممكنًا، نهتمّ بنَفَرٍ من الأَولاد المهجورين، أَو الذين هجروا المنزل الأَبويّ، وهم ما زالوا عاجزين عن خوض حياةٍ مستقلّةٍ. ونهتمّ، أَيضًا، بنحو عشرين من المسنّين المشرَّدين، الذين يجدون لدينا الملجأ والراحة وما به يكتسون؛ ولكنّ الأَهمّ هو توفيرنا لهم مكانًا حيث يشعرون أَنّهم مُرحَّبٌ بهم ومحبوبون، فهذا البيت بيتهم، ولو بشكلٍ آخر.

"نحو خمسين شخصًا يوافوننا، كلَّ يومٍ، لتناول وجبة طعامٍ أَساسيّةٍ. ولدينا، أَيضًا، في المدينة، دار ابتداءٍ يغشاها مرشَّحون من خمس ولاياتٍ، ويعملون نصْفَ النهار مع الإِخوة، وسط المحتاجين، فيزورون المسنّين، والمرضى، ومُدمني الكحول، ودور العجزة، وبالإِجمال يزجون وقتهم حيث العنف والجنون ممارساتٌ يوميّةٌ.

"ويظلُّ عملنا ضئيلاً حيال جسامة الشقاء. وثمَّة تشابهٌ كبيرٌ بين ما نفعله هنا، وما

يتحقّق في كلكتّا. وفي كلتا الحالتين، نواجه مدنًا كبرى حيث يستحوذ على القوم شعورٌ بأَنّهم غير مرغوبٍ فيهم، ويموتون منبوذين، بعضهم في شوارع كلكتّا، وآخرون في أحياء بؤس لوس أَنجيليس. جمعيهم بُرْصٌ، سواء كان ذلك المرض ناشبًا بأَجسادهم، أو كانوا يشكون من البَرَص الاجتماعيّ، كمدمني الكحول، والجانحين، والأَطفال المهملين. يؤلمنا أَحيانًا تبيُّن مدى ضآلة جهودنا حيالَ جسامة البؤس...

"إِنّها لَبَرَكةٌ أَن نرى من كان شفاؤه يبدو ميؤوسًا منه وقد تعافى، ومن كان مُعدَمًا يُصيب ثروةً لم يكن ليتخيَّلها، ويُفعم نفوسَنا الامتنانُ لأَنّنا هنا نُطعم يسوع الجائع، ونروي عطشه، ونُلبِسه، ونقيه عندما يرتعد قرًّا، ويفتقر إِلى مأوًى، ونُشرع له سواعدنا ونحبّه عندما يكون وحيدًا، خائر القوى ».

إِنّ خصب عمل مرسلي المحبّة يستمدُّ نُسْغَه وزخمَه من التواضع، والشعور الإِنجيليّ الراسخ بأَنّ من يؤدّي واجبه تجاه إِخوته، إِنّما هو عبدٌ بطّالٌ، وهذا ما عبّر عنه الأَخ أَندرو في رسالةٍ إِلى المتعاونين جاء فيها:

« في الهند، عَمَلُنا في مصحّات البُرْص ينمو في كلِّ اتّجاه؛ ولدينا المزيد من بيوت المحتضرين والمعاقين، وعددُ الأَولاد المُشرَّدين الذين يقيمون معنا في تزايد، وكذلك تتكاثر برامج تغذية الأَطفال، ومدارس الصغار في الأَكواخ. وتَستمرّ معجزة تكاثر الخبزات والسمكات، بتوفيرها الضروريّ لكلِّ هؤُلاء، بفضل الكثيرين منكم، أَنتم يا من يشاركوننا، بلا ريب، شعورنا بوهننا الشديد، وعدم كفاية حبّنا. إِنّها لمعجزة حبّ الله العامل من خلال ضعفنا، ولا تفسيرَ آخر. ذلك هو سرّنا... إِنّني أَعتقد أَنّنا، جمعينا، مُستَخْدَمون في نمطٍ من حركةٍ فرنسيسكانيّةٍ جديدة، حيث روح الله يعمل في عالم شعبه، قادمًا إِلى العالم، صغيرًا، هشًّا، كي يُؤْتي العالَم حبَّه المخلِّص، وحياته، تمامًا مثلما جاء في ميلاده الأَوّل. وهناك أَلم الولادة وقلق الصليب المواكبان لحياتنا جميعًا، ولكنّنا ننتهي إِلى الحياة، حياة الفصح الفرِحة ».

وسرعان ما اكتست جمعيَّة الإِخوة المرسلين صبغةً دوليَّةً في تركيبها واتِّساعها، وبات لها فروعٌ في الولايات المتَّحدة، وغواتيمالا، والسلفادور، ثمّ في هاييتي والدومينيكان، والبرازيل، وكولومبيا والمكسيك وبوليفيا. وقد تزامَنَ ذلك مع تأسيس فروعٍ للجمعيّة في شتّى أَصقاع أوروپا، بدءًا من فرنسا، حيث نظَّم الإِخوة

حملةَ تقديم حساءٍ شعبيٍّ، امتدادًا إِلى السويد، وإِنكلترا، وإِيطاليا، وفنلنـــدا، وإِســـبانيا، وإِلى كلّ مكانٍ كان أَساقفته يستدعون الإِخوة، أَو يعرب شُبَّانٌ عن رغبتهم في بـــذل ذواتهم، بلا تحفُّظٍ، في إِطار جمعيّةٍ برهنت عن أَصالة رسالتها المـــسيحيّة، وبـــرهن أَعضاؤها، بمثال حياتهم، عن عطاءٍ مطلقٍ؛ ومضى تشعُّب الجمعيّة في كلّ منحًـــى، فبات لها فروعٌ في هونغ كونغ، واليابان، وكوريا، والفيليـــپين، وماكاو، وإِيثيوپيـــا، ومدغشقر، وكينيا، وتانزانيا، ونيجيريا، وتايوان...

ومع ما كان الأَخ أَندرو قد خَبَرَه من فشل – ربّما كان ظاهرًا فحسب، ولم ينفذ إِلى أغوار كيانه – في الـــڤـــيتنام وكمبوديا، لم يتورَّع من المُضيِّ بإِخوته إِلى بلدانٍ كـــان العنفُ فيها آفةً مستشريةً، نظير السلـــڤـــادور، حيثُ توخّوا أن يكونوا أَداة سلامٍ، دائبين على عيادة مرضى الأُسَر الفقيرة، جاهدين في توفير مساعدةٍ طبِّيَّةٍ لهم، وتعلّموا بناء ما يسمّونه هناك "شامباس" وهو بيتٌ من غرفةٍ واحدةٍ، من طينٍ وأَغصانٍ بمبو وصـــفيحٍ، لمن لا مأوًى لهم. تلك الخطوة، مع تواضعها، كانت هامَّةً لليائسين والأُسر البائسة.

ذات يوم اختُطِف أَحد الإِخوة في السلـــڤـــادور، واتُّخِذ رهينةً، وتمادى اختطافه ثلاثة أَشهرٍ، إِلى أَن أَفلحت وساطة رئيس الأساقفة أوسكار روميرو في الإِفراج عنه. ولكن ما كادت تنقضي ثلاثة أَشهرٍ حتّى اغتيل رئيس الأساقفة نفسه بطلقةٍ في قلبـــه، في أَثناء احتفاله بالقدّاس.

ولم تكن برودة الاستقبال، أَحيانًا، لتُثبِّط عزائم الإِخوة. ففي إِحدى مدن البرازيل، صدَّتهم جماعةٌ من المرسلين الأَجانب الذين خاطبوهم بجفوةٍ قائلين: "لا نريدكم ههنا، فكلّ ما تقدِّمونه هو بعض تنظيفٍ، وشيءٌ من الطعام، ولا شيء آخر ممّـــا يـــنعش وضع الفقراء." ولكنّ الإِخوة بقوا، وبعد بضعة أشهرٍ كانوا يديرون مأوى للمُشرَّدين، وللفتيان الجانحين، الذين لم يكن أَحدٌ يحفل بهم، سوى رجال الأَمن، بين حينٍ وحينٍ.

وفي غواتيمالا عمل الإِخوة مع مرسلات المحبَّة، جنبًا إِلى جنبٍ، ويدًا بيـــدٍ، وقـــد زارهم الأَخ أَندرو، وأَقام لهم وللرّاهبات قدّاسًا؛ وقد صرّح في معرض الحديث عـــنهم: "لقد صُدِمتُ لرؤية تلك الجماعة الصغيرة التي تبدو عديمة الشأْن، وسط كلِّ ذلك العُنْف، والقتْل، والحرب الأَهليّة. ما أَضأَلهم، وأَضعفَهم، وأَصغرهم سنًّا! إِنّهم لا يمتلكون قـــوّةً، ولكنّهم يرعون المسنّين والأَطفال والسقماء، والأمّهات، والمُعاقين والذين لا سنَد لهـــم،

والجياع. إنّهم يتدفّقون فرحًا، ويتألّق نور الله في عيونهم. يبدو أنّ الربّ يدعوهم إلى بؤرة العُنْف هذه وأمثالها، كي يكونوا موئل حبٍّ، وسلامٍ وصلاةٍ. لا أملَ هنا في حلٍّ بقوّة السلاح، ولا بالسياسة والإيديولوجيّات، يمينيّةً كانت أو يساريّةً. إنّ هؤلاء الإخوة والأخوات لعلى جانبٍ كبيرٍ من الوهن والضآلة، ولكنّهم يمتلكون الله، وحبَّه، وقدرته...".

عام ١٩٨٣، كانت جمعيّة الإخوة المرسلين، في عامها العشرين، تعدّ ٤٠١ عضو منهم ٩٩ مبتدئًا، فضلاً عن نحو مئةٍ يقضون فترة "تعالَ وانظُرْ"، في مختلف المراكز، عبر العالم. رجالٌ من خمسٍ وعشرين جنسيّةً مختلفةً يعملون في واحد وخمسين مركزًا. ذلك الفرع الشقيق لمرسلات المحبّة، الذي انبثق من فكر الأُمّ تيريزا، كان ينمو ويمتدّ، وقد اكتسى طابعًا عالميًّا من جرّاء تعدُّد جنسيّات الإخوة، ومدى انتشارهم في العالم.

وبين عامي ١٩٨٣ و ١٩٨٤، عهدت الجمعيّة ازدهارًا مذهلاً، وغدت فروعها الجديدة تولد بوتيرة فرعٍ كلَّ شهرٍ، إلى أن ارتقى عدد المراكز إلى سبعين، وغطّى الإخوةُ العالَم بشبكةٍ من المراكز الجديدة، المتميِّزة بحرارة استقبالها مَن ضاقت بهم الدنيا. وخلال تلك الفترة خَبَر الأخُ أندرو فداحة المشاكل الإنسانيّة، وجواب الحبّ عليها، الذي يبدو جنونًا في نظر مَن لا يؤمنون. ووسط الأشواك والدماء شهد تفتُّح زهور الحبّ الذي غُمِر به منبوذون كانوا قد جُرِّدوا من إنسانيّتهم، ولم يتذوّقوا، قبل حبّ الإخوة، طعمًا للحبّ. وقد علّق على ذلك الانتشار العالميّ بقوله: "النموّ والانتشار نعمةٌ مزدوجةٌ، تقضي على صغرنا وتتطلّب إدارةً أشدّ تعقيدًا، وقد تنال، بعض الشيء، من طابع الأسرة الذي يَسِمنا...".

وكان يُثلج صدرَه أنّ العمل الذي بدأه في كلكتّا ماضٍ في ترسُّخٍ ونموٍّ، بدليل قوله: "في كلكتّا، وسط المشاكل والفقر الدائم، شهدنا تبدُّلاتٍ في جمهرةٍ من الشبّان الذين التقطناهم لخمسة عشر عامًا خلت، مشرَّدين، مُهمَلين على قارعات الطرق، أو متسوِّلين في محطّات القطار. لقد أقاموا معنا طوال هذه السنين وترعرعوا، وهم الآن متزوِّجون، مستقرّون، ويباشرون حياة أُسرةٍ وضيعةٍ، بأملٍ، وجرأةٍ، وحبٍّ.

"إنّ رؤية الزهور لضروريَّةٌ أحيانًا".

وضاق مركز الابتداء، في مقرّ الجمعيّة الرئيسيّ بكلكتّا بساكنيه، فافتُتح مركزٌ

آخر في منطقة "هوراه"، ومركزٌ ثالثٌ للمرشَّحين القادمين من جنوبيّ الهند في "ڤيجايا وادا". أمَّا خارج الهند، ففضلاً عن مركز الابتداء في "لوس أنجيليس"، استُحدثت مراكز أُخرى في كلٍّ من الپيرو، وغواتيمالا، والدومينيكان، والبرازيل، وفي مدغشقر، لاستقبال مرشّحي أفريقيا، وفي كوريا الجنوبيّة لاستقبال مرشّحي شرقيّ آسيا، وقد سهَّلَ شظف العيش، والرقود على حُصُرٍ على الحضيض افتتاح مثل تلك المراكز في أَماكن مثل كوريا الجنوبيّة، والمطارح الفقيرة في آسيا وسواها.

ولم يُفرَض على المبتدئين إبراز نذورهم في الهند، مثلما كان مفروضًا، فترةً طويلةً، على المرسلات، بل كان بمكنتهم إبراز تلك النذور أَينما وُجدوا.

ذلك النموُّ السريع، ربّما كان مفرطًا في التسارع من جرّاء حداثة سنّ الإِخوة الجُدُد، وعدم كفاية تثقيفهم الروحيّ، بل ربّما كان من شأنه تعريض الجمعيّة الوليدة للعطب، فالإِخوة الشبّان يُنتدبون لمخاطراتٍ في جهات العالم الأَربع، وهم لم يتسلّحوا لها إلاّ ببضعة أَشهر ابتداءٍ، وبالكثير من الإِيمان والحماس، في حين أَنّ عالَم المنبوذين والمهمَّشين هو، في الغالب، عالَم عنفٍ، عالم مِدًى وسكاكين مشهرةٍ، وزجاجاتٍ محطَّمة، يستلزم الصمودُ في وجهه كثافةً لا يمكن ارتجالها. وعلى نحو ما خشيتْ وتحسَّبت الأُمُّ تيريزا عجز كثيرون من الإِخوة عن الصمود، واضطرّوا إِلى التخاذل، في أَوضاعٍ مؤلمةٍ أَحيانًا.

ومن المحقَّق أَنّ الرجال أَقلُّ قدرةً على البذل المتَّصل، ومن ثمّ فإِنّ عيشة الإِخوة تتطلَّب إِيغالاً في الزهد، وروحانيّةً عميقةً، لا تقوى عليها إلاّ فئةٌ ضئيلةٌ، ولا بدعَ إِن كان معدّل الثبات في صفوف الإِخوة أَدنى منه في صفوف أَخوات الأُمّ تيريزا.

حالات التخاذل تلك، فضلاً عن التجربة القاسية التي خاضها الإِخوة في الڤيتنام وكمبوديا، قد أَسالت في نفس الأَخ أَندرو دفقًا من المرارة، ولمّا جاءه كاهنٌ عارضًا وضع كتابٍ عن الإِخوة، حذّره من الإِسراف في كيل المديح لهم، ملاحظًا: "ينبغي تجريد ما كُتب عنّا، وعن عملنا، من صبغة الأُسطورة. لا ريب أَنّ مثل تلك النشرات قد عادت على الكثيرين بالخير. ولكنّنا، نحن، نقضي أكثر من ستّة أشهرٍ كي نُصحّح ما علق بفكر بعض طالبي الانتماء إِلى جمعيّتنا، الذين طالعوا ما كتُب عنّا. قُلْ إنّنا أَشخاصٌ عاديّون، لنا عيوبُنا، وحُدودُنا، ولا يُستثنى من ذلك أَحدٌ.

إنّنا أَدواتٌ غير متكافئةٍ مع المهمّة الموكلة إِلينا. إِنّها لمعجزةٌ أَن يكون الله قد أَخذنا على علاّتنا، كي يحقّق عمله، ويدفق فيضًا من الخير بواسطتنا."

وكان الأَخ أَندرو قد سُئل، يومًا، عن سرّ الإِخوة المرسلين، فجاء جوابه صدًى لما لم تكفّ الأُمّ تيريزا عن ترداده، إِذ قال: "لا يكمن سرّ الإِخوة مرسلي المحبّة في الجدوى الشخصيّة، والمؤهِّلات المهنيّة، ولا حتّى في عطفنا وسخاء بذلنا، ولا في حبّنا، أَو في كوننا طيّبين وقدّيسين، بل إِنّه يكمن في حضور المسيح فينا ومعنا، وإِنّه لمن الخطورة بمكانٍ أَن نعترف بهذا الواقع، لأَنّنا عندما نُغفله، ونتخيَّل أَنّ كلّ شيءٍ عائدٌ إِلى مهارتنا، وإِلى تنظيمنا لعمليّات الغوث البشريّ، حينئذٍ نفقد كل قوّةٍ لدينا، ونبقى مُصفري اليدَيْن. إِنَّ حضور المسيح الحيّ، الدافق حبًّا وحياةً فينا هو الذي يؤهِّلنا لعمل شيءٍ جميلٍ من أَجل الله، رغم وهننا وعجزنا، ووضعنا كخطأةٍ، وافتقارنا إِلى الحبّ. ذلكم هو سرُّنا".

وعلى غرار الأُمّ تيريزا كان الأَخ أَندرو مُعتَمِدًا اعتمادًا كُلِّيًّا ومُطلَقًا، في تحقيق مشاريعه الجريئة، على العناية الإِلهيّة، التي، بدورها، تستخدم أُناسًا عاديّين، ومتقاعدين لا موردَ لهم سوى راتبٍ ضئيلٍ، وأَشخاصًا راغبين في اقتسام ما منّ به عليهم الربّ، وقد صرَّح في هذا السياق: "لقد شهدنا معجزاتٍ عظمى تتحقَّق. إِنّها، في نظري، عجائب تكثير يسوع للخبز والسمك تتكرَّر في أَيّامنا. وغالبًا ما أَقول وأعيد على مسامع الإِخوة: "يقول لنا الإِنجيل إِنّ يسوع أَطعم خمسة آلاف شخصٍ، في مناسبتَيْن، ووفّر لهم وجبةً واحدةً، كلَّ مرّة. ونحن نُطعم ثلاثة آلاف إِلى أَربعة آلاف نفرٍ، كلّ مرَّة، ثلاث مرّاتٍ كلَّ يومٍ، سبعة أَيّامٍ في الأُسبوع، وثلاث مئةٍ وخمسةً وستّين يومًا في السنة."

ولكن يبدو أَنّ النموَّ السريع والمتشعِّب قد أَرهق كاهل الأَخ أندرو، فغدا يستسلم لأَوهانه، ومنها الميل إِلى الشرب، الذي انزلق إِليه بحجّة مؤاساة المتسوِّلين والمشرَّدين المُدمنين، ومقاسمتهم همومهم. وسُرعانَ ما شعر أَنّ بعض الإِخوة باتوا يخجلون من سلوكه. ومن جهةٍ أُخرى، غدا عاجزًا عن المثول إِلى الهند، من جرّاء تعذُّر حصوله على تأشيرة دخولٍ من السلطات الهنديَّة؛ وشاع التململ من إدارته. فدعا، عام ١٩٨٦ إِلى انتخاب خليفةٍ له، وظلّ، هو، إِثْرَ ذلك، زهاء سنةٍ مُقتصرًا على إِلقاء المحاضرات والإِرشادات، في مختلف فروع الجمعيّة، التي قرّر هجرها عام ١٩٨٧، وقضاء ما تبقّى له من أَيّامٍ، شاعرًا جوّالاً، يطوف بلاد الله، منشدًا

أَناشيد حبّه وحرِّيّته؛ ومع أَنّه ظلّ يختلف إِلى فروع الجمعيّة، مرشدًا، واعظًا، مقتسمًا خبرته الطويلة في خدمة الفقراء، إِلاّ أَنّ هجره لها قد هزّها هزًّا موجعًا.

أَمّا خلفُه الأَخ "جوفروا"، وهو، مثله، أَوستراليّ المولد، فقد أَقرّ الأَخ أَندرو نفسه أَنّه منذ انتخابه "خادمًا عامًّا" للجمعيّة، اتّضح أَنّ الروح حلّ عليه، وبات يسدِّد خطواته. وممّا يؤكِّد ذلك أَنّ الأَخ "جوفروا"، شرع، فورًا، في العودة إِلى نظريّات الأُمّ تيريزا، وأَساليبها التي أَثبتت نجاعتها، فاعتمد تثقيف الإِخوة روحيًّا قبل دفعهم إِلى العمل، ومواصلة تثقيفهم الروحيّ، وإِحلال الصلاة مكانًا أَكثر جوهريّةً في حياتهم، ودعوتهم إِلى سلوكٍ أَشدّ صرامةً وانضباطًا، مع الحفاظ على طابع الحنان والفرح والحرِّيَّة، الذي ميَّزهم، وشدَّ إِليهم القلوب.

وقد اتّضح للأَخ "جوفروا" أَنّ الجمعيّة تخطّت طاقاتها في عقد الثمانينات، فأَخذ يحدّ من تدفُّق المرشَّحين، طالبًا منهم إِنهاء دروسهم قبل الانتماء إِلى الجمعيّة، كما عمد إِلى إِغلاق الفروع المترجرجة، بعد أَن كان الأَخ أَندرو لا يتحرّج من افتتاح فروعٍ قوامها اثنان فقط من الإِخوة، لا كاهن بينهما؛ وهكذا، بعد أَن كان عدد الإِخوة قد تجاوز الخمس مئةٍ، مبثوثين في أَربعةٍ وتسعين مركزًا، تناقص ذلك العدد الذي يبلغ، اليوم، أَربع مئةٍ وثمانية وتسعين أَخًا، في سبعةٍ وستّين مركزًا فقط.

غير أَنّ الذين التزموا بتلك الجمعيّة هم الآن أَشدُّ تشبُّثًا بالتزامهم، وطيدو الإِيمان بأَنّ هذا الالتزام هو تلبيةٌ لدعوة الربّ. وخيرُ نموذجٍ لهم ذلك الأَخ الذي زُجَّ به في السجن مع الأَوغاد والجانحين، منذ مستهلّ رسالته، كما ورد في مطلع هذا الفصل، والذي صرّح بعد سنواتٍ:

« قبل التحاقي بالجمعيّة، كنتُ أَتعرَّض لجمٍّ من المشاكل والنزوات والرغبات، كنتُ هشًّا وتعيسًا؛ وإِنّها لروعةٌ ومبعث دهشةٍ دائمةٍ أَن يكون الربّ قد أَنقذ إِنسانًا في مثل هذا الوضع البائس. إِنّه هو الذي دعاني إِلى انتهاج هذه الحياة. واليوم يتعذَّر عليَّ حتّى التفكير، لحظةً واحدةً، بهجر دعوتي بصفتي مُرسَل محبّةٍ. فكُلّما صَعُبَتْ حياتي، وتشدّدت مقتضياتها، ازددتُ التصاقًا بالذي دعاني. لا، لن أَهجره أَبدًا ».

وكانت الأُمُّ تيريزا قد ارتأَت أَن يُساند جمعيَّة الإِخوة المرسلين العاملين، روحيًّا، فرعٌ لها من المتأَمِّلين، المنصرفين إِلى العبادة، يُطلق عليهم اسم "إِخوة الكلمة". وقد فاتحت

بالأَمر قداسة البابا، في طريق عودتها من المؤتمر القربانيّ الذي انعقد في فيلادلفيا في شهر آب ١٩٧٦، فأَيّدها في هذا المنحى وشجّعها. غير أَنّ الأَخ أَندرو رفض فكرة فرعٍ جديدٍ من شأنه أَن يزيد جهودَ جمعيّته بعثرةً. وآلت، أخيرًا، مهمّة تأسيس ذلك الفرع إِلى الإِيطاليّ الأَخ "أَنجيلو ديفاننداً". وكان لذلك التأسيس قصّةٌ طريفةٌ.

وُلد "أَنجيلو" في مدينة باري الإيطاليّة، عام ١٩٤١، ومنذُ صباه استحوذ على شغاف قلبه حبُّ القدّيس الأَب "پيو"، الذي طالما خدم له القُدّاس. وبعد أَن أَصبح "أَنجيلو" راهبًا بينيديكتيًّا، اختلى، في رياضةٍ روحيّةٍ، في منسك الأَب "بيدي غريفيث"، في شانتيفانام بالهند؛ وهناك داهمته الدعوة إِلى حياةٍ مكرّسةٍ لخدمة الفقراء. واتّفق أَن أُهدي إليه، بمناسبة عيد ميلاد ١٩٧٥، كتاب "مالكولم موغيريدج" عن الأم تِيريزَا، الذي يحمل عنوان: "تحفة في سبيل الله". ولدى مطالعته، داخله شعورٌ بأَنّ "بابًا أُشرع أمامه". وبعد أَن أَذن له رؤساؤه بالانضمام إِلى جمعيّة مرسلي المحبّة، كتب، من لوس أَنجيليس، إِلى رئيسها الأَخ أَندرو، واضعًا نفسه بإِمرته. وردّ عليه الأَخ عارضًا خياراتٍ ثلاثةً: فإِمّا البقاء في لوس أَنجيليس، حيثُ لا ضرورة ماسَّةً لوجوده، أَو الالتحاق بمركزٍ جديدٍ في كوريا الجنوبيّة، أَو الشخوص إِلى كلكتّا، والانخراط في الابتداء، علمًا بأَنَّ العيش هناك سيكون شاقّ الاحتمال؛ غير أَنّ خدماته، بصفته كاهنًا، ستكون جزيلة الجدوى. ومال اختيار الأَخ أَنجيلو نحو كلكتّا، ولا سيّما أَنّه كان، يومها، قد تلقّى تأشيرة دخولٍ إِلى الهند، طالما انتظرها. وقد طار، أَوّلاً، إِلى هونغ كونغ حيث قابل الأَخ أَندرو، ومن هناك يمّما، معًا، شطْرَ كلكتّا حيثُ وصلا في العاشر من أَيّار ١٩٧٧.

وكان الأَخ "أَنجيلو"، لسنةٍ خلت، قد التقى الأُمّ تيريزا، وللوهلة الأُولى صرّح: "**لن أَنساها أَبدًا، ولن أُحجم عن شيءٍ لكي أكون طيّبًا مثلما هي طيّبة!**" ولكنّه، آنذاك، لم يستطع تخمين ما ستطلبه منه بعد سنةٍ.

في ذلك اليوم، العاشر من أَيّار ١٩٧٧، إِذن، بعد أَن رحَّبت به الأُمُّ تيريزا، استوضحت عن سبب عدم إِثباته صليب مرسلي المحبّة في قميصه. في واقع الأَمر، لم يكن يحقّ له، بعدُ، إِثبات مثل ذلك الصليب، إذ إِنّه لم يكن قد باشر الابتداء، ولكنّه، بدافعٍ خفيٍّ أَجابها: "أَرجوك أَن تتكرّمي عليّ بهذا الصليب، ممّا سيجعلني أَسعد السعداء". ووافته الأُمُّ بصليبٍ جميل علَّقته عند موقع القلب من قميصه، وهو جاثٍ، وقالت:

"أَخي العزيز،

"تقبّل رمز ربّنا المصلوب هذا، وتأثّر خطاه في نُشدان النفوس. جِئْ به وبنوره إِلى بيوت الفقراء، ولا سيّما أَفقرهم. أُنشر محبّة قلبه حيثما مضيت، واروِ عطشه إِلى النفوس".

وخامر الأَخ "أَنجيلو"، حينذاك، أَنَّ تيَّارًا كان يمرّ بينهما، وأَنّ تواطؤًا صامتًا كان يجمعهما.

وبعد أَيّامٍ، في أَعقاب قدّاسٍ أَبرزت، أَثناءه، عددٌ من مرسلات المحبّة نذورهنّ المؤبّدة، فاجأت الأُمّ الأَخ "أَنجيلو" بقولها: "منذ الآن أُطلق عليك اسم الأَخ لمباشول"، ممّا يعني، في اللهجة البنغاليّة، "الطويل الشعر"، إِذ إِنّه، أَثناء إِقامته في شانتيڤانام، كان قد أَرسل شعره، وعقصه، عند الظَّهر، وفقًا للطَّريقة الهنديّة. ثمّ ضربت له موعدًا، معربةً عن رغبتها في التحدُّث إِليه، قبل سفره إِلى روما. وتوجّس الأَخ خشيةً من أَن تؤنِّبه بشأْن شعره المسترسل، فالتمس من رئيس الابتداء مرافقته.

بيد أَنّ لقاءه بالأُمّ تيريزا قد باغته بمفاجأةٍ بعيدةٍ عن كلّ ما توقّع؛ فإِثر مقدِّمةٍ موجزةٍ تكلّمت فيها الأُمّ عن "الحبّ العامل الذي هو خدمةٌ، والحبّ المتعبِّد الذي هو تأمّلٌ"، أَبلغته رغبتها في إِنشاء أَخويّةٍ في روما قوامها متأَمِّلون، موضحةً أَنّها، في سبيل ذلك، تحتاج إِلى مؤازرة كاهنٍ خبيرٍ في الحياة التأَمُّليَّة. وسأَلته: "هل لك أَن تنضمّ إِليّ في هذه التجربة؟ إِنّك، أَنت الجواب على صلواتي بهذا الشأن".

وقد اعترف الأَخ "أَنجيلو" بقوله: "إِنّ يقينها بأَنّ الربّ قد ساقني إِليها من أَجل هذا الهدف بالذَّات، قد أَذهلني". ومن غير جدالٍ، ولا إعمال فكرٍ، قبلَ العرض؛ وقد برّر ذلك موضحًا: "كنتُ أُدرك أَنّني عثرتُ على ذلك الشيء الذي طالما حدّثني عنه الأَب" پيو": أَي ضربٍ من التحالف بين التأمُّل والعمل، في خدمة الله."

ومنذ وصولهما إِلى روما لم تهدر الأُمُّ ثانيةً من وقتها، بل إِنّها ساعدت الكردينال" پوليتي" في إِثبات الصليب على صدور ستّةٍ من الرجال المتطلّعين إِلى أَن يكونوا "إِخوة الكلمة"، وذلك في الثالث من حزيران ١٩٧٧، الموافق للذكرى السادسة والثلاثين لمولد الأَخ "أَنجيلو"، وقد صرّحت، في هذا السياق:

« فريق المتأمّلين هذا سيكون نظيرًا لذاك الذي أَسَّسته في نيويورك، العام الفائت. فلكليهما النظام عينه، ونَمَطُ العيش نفسه. وفي المستقبل سيصبح هذا الفريق

جمعيَّةً جديدةً... أَرجوكم أَن تصلّوا كثيرًا من أَجلهم ومن أَجلي، لكي نقوى، معًا، على تنفيذ مشيئة الربّ. إِنّ الأَخ "أَنجيلو" عطيّةٌ من الله، حقًّا. وسيكون مؤهَّلاً لتثقيف الإِخوة المتأمّلين، انطلاقًا من خبرته الذّاتيّة... ».

وبتلك المناسبة أَهدت الأُمّ إلى الأَخ "أَنجيلو" نسخةً من الكتاب المقدّس كان قد قدّمه لها الكردينال "كرول". والتمس الأخ منها تسجيل بعض عباراتٍ عليه تكون بمثابة شعارٍ ومثَلٍ أَسمى لإِخوة الكلمة، فدوّنت ما عدّه الأَخ "أَنجيلو" ركيزة الأَخويّة:

« إِخوتي الأَحباء،

اعرفوا كلام الله،

أَحبّوا كلام الله،

عيشوا كلام الله،

هَبوا كلام الله،

وسيجعل كلام الله منكم قدّيسين ».

وطريفٌ ذكرُه أَنّ الأُمّ كانت قد نقدت الأَخ "أَنجيلو" مئتي دولار لمواجهة نفقاتٍ طارئةٍ، ولكن سُرعانَ ما خطر لها أَنّ آخرين فقراء قد يكونون في حاجةٍ أَشدّ إِلى ذلك المبلغ، فاسترجعته، وقالت للأخ بدعابةٍ: "امضِ بلا مالٍ، وضع في الله ثقتك. وإِن أَنتَ نفقتَ جوعًا، أَحطْني علمًا". ثمّ أَضافت، وقد ازدادت ابتسامتها عبثًا: "ولكن لن يحدث ذلك".

لم يكن تأسيس جمعيّة متأَمّلين مهمّةً سهلةً، ولكن الأَخ "أَنجيلو"، على غرار الأمّ تيريزا، كان مؤمنًا: "إِن شاء الله قيام أَخويّة متأَمّلين، فعليه أَن يثبّت جذورها بنفسه".

وكانت الأُمّ تيريزا قد كتبت، في ٢١ كانون الأَول ١٩٧٧، إِلى البابا بولس السادس مؤكِّدةً على جليل شأن "إِخوة الكلمة" بقولها:

« إِنَّ الشبيبة لفي حاجةٍ حارقةٍ إِلى "إِخوة الكلمة" – المتأَمّلين في قلب العالم – بفضل حياة الصلاة، والتعبُّد، والتأَمُّل، والتكفير، والاستسلام التامّ لله، التي يمارسونها، وبفضل حضورهم، وإِعلانهم عن كلمة الله للفقراء، ساعتين أَو ثلاث ساعاتٍ كلّ يومٍ، وبذلك ينادون بالمسيح، في جميع الأُمم، ويجعلون حضور الكنيسة كاملاً ».

ويبلغ، اليوم، عدد "إِخوة الكلمة" عشرين متأَمّلاً، يتعبّدون ويخدمون في ثلاثة مراكز، وسط بُقع البؤس وقيعانه.

الفصل الثاني

طوفان محبّةٍ يغمر العالم

الخطوة الثالثة

على جدار ردهة استقبال جمعيّة مرسلات المحبَّة في كلكتّا لوحةٌ مرسومةٌ باليد، تُبرز نشاطاتٍ على جانبٍ كبيرٍ من التنوُّع، تنسج حياة الأَخوات، وترسم شتّى ملامح جمعيَّتهن؛ وهي تتناول رعاية الأَطفال المهملين، ومشاريع تربويّةً، ودور حضانةٍ، وزيارة الأُسَر المحرومة، وإِطعام الفقراء، وإِيواء مدمني الكحول ومعالجتهم، وافتتاح ملاجئ ليليّةٍ للمُشرَّدين، ومراكز لتنظيم الأُسرة والإِنجاب وفقًا للطَّريقة الطبيعيّة، ومستوصفاتٍ، ومشافٍ، ومراكز لتأهيل البُرْص، والمعاقين جسديًّا وعقليًّا، وللأُمَّهات العازبات، وللمسنّين والمدنفين، ومرضى الإِيدز، فضلاً عن المدارس، ومعاهد التأهيل المهنيّ والنشاطات الرسوليّة من زياراتٍ للسُّجون، واتّصالٍ بالأُسَر، وتربيةٍ دينيّةٍ، وجماعات العمل المسيحيّة، ونشاطاتٍ خاصَّةٍ بأَيّام الآحاد.

وقد عُلّقت في شتّى مراكز الجمعيّة، في العالم، جداول بفروعها التي تغشى القارّات الخمس، والتي يرقى عددها إِلى نحو خمس مئةٍ وستّين مركزًا.

صحيحٌ أَنَّ ذلك النموّ قد تحقَّق شيئًا فشيئًا، تلبيةً للحاجات الطارئة الملحّة؛ غير أَنّ حجم ما أُنجز، وصلابة ما أُنشئ، بالقياس إِلى الحقبة التي تمّ فيها ذلك، يبدوان معجزةً حقّةً، هي معجزة "الخطوة الثالثة" التي أَقدمت عليها الأُمّ تيريزا وجمعيّتها منذ مطلع الستّينات من هذا القرن، وما برحتا ماضيتين فيها بشجاعةٍ، ونجاعةٍ، وسخاءٍ.

فبعد أَن خطت الأُمُّ تيريزا خطوتَها الأَساسيَّة الأُولى بترهُّبها، وتكريس ذاتها

للرَّبّ، ثمَّ خطوتها الثانية التي لا تقلُّ خطورةً، بانتهاجها درب خدمة يسوع في أكثر إخوته ألمًا وحرمانًا، من خلال تأسيسها جمعيّة مرسلات المحبّة، ومشاريع الرحمة المتعدّدة الألوان في كلكتّا التي غدت بوتقةً انصهرت في نارها نفوسٌ كريمةٌ تمرَّست من البذل والإيثار، آنستْ تدفُّق النسْغ ضاجًّا في خلايا شجرتها النامية المتطلّعة إلى التفرُّع والانتشار، بحيثُ غدا كلُّ شيءٍ يحدوها إلى "خطوةٍ ثالثةٍ"، تعتلن عبرَها جمعيّة مرسلات المحبّة على الهند وعلى العالم أَجمع، سيلَ عطاءٍ وعطفٍ، وشهادةً على المطلق، وعلى حبِّ الله الجمّ.

طيلة عشر سنواتٍ، تأهّبت لهذه المهمَّة عاكفةً على تثقيف أَخواتها روحيًّا، مصلِّيةً وعاملةً معهنّ، إلى أَن امتلأنَ بهبات الروح، وعِشنَ عيشة المسيح، مسهِمَاتٍ في آلامه الفدائيّة، منصتاتٍ، في صمت قلوبهنّ، إلى بوح صداقته، وتعاليمه، ورغباته، واثقاتٍ في وعده بأَن يرسل لهنّ الروح القدس الذي سيقود خطاهنّ إلى الشهادة لحبّه كلَّ كائنٍ حيٍّ.

كلكتّا كانت أورشليمهنّ، ومنها انطلقنَ إلى جميع أَرجاء الهند، وأَصقاع المسكونة، معلناتٍ بُشرى حبّ الله.

كانت الأُمّ تيريزا تتحرَّق إلى تتويج ما أَنجزته حتَّئذٍ بتلك الخطوة الثالثة التي ستكون امتدادًا لكلِّ ما سبق، واستيفاءً لشوطه، ولكنّها، في آنٍ واحدٍ، كانت حذِرةً وَجلةً، فالانتشار المنشود، على خيره وجدواه، قد يُسفر عن بعثرة الأَخوات، وتراخي روحانيَّتهنَّ. وفي هذا المضمار، كان لها في توسُّع جمعيّة مرسلي المحبّة المبتسر، وما أَفضى إليه من كبواتٍ وجروحٍ، عبرةٌ ونذيرٌ. فأَعملت الفكر طويلاً، واستغرقت في الصلاة، وبعد أَن أَشبعت الأَمر تأمُّلاً وتقصّيًا وطَّنت العزم على التصدّي لما ارتأت فيه دعوةً إلى شهادةٍ هي في موقع القلب من جوهر رسالتها.

وتفاديًا للهزّات التي أَوجعت جمعيّة مرسلي المحبَّة الشقيقة، وأَرْجحتْها بين ازدهارٍ وتقهقرٍ، أَرست خطط انتشارها على أُسسٍ وطيدةٍ، قائمةٍ على تقيّدٍ صارمٍ بالقوانين، وعلى التثبُّت من تمتّع العناصر التي ستقوم على كواهلها الفروع الجديدة،. بالتمرّس من روحانيّة الجمعيّة، والالتزام. بمبادئها، ولا سيّما مبادئ الفقر والتجرُّد والخدمة، والصلاة المستمرَّة، ولمس يسوع في كلٍّ من إخوته المتألّمين. وقد

صَرَّحَتْ، في هذا السياق: "**إنّ ما يشغلني، على نحوٍ خاصٍ هو هَمُّ أَخواتي، فإِن هنّ افتقرنَ إِلى روحانيّةٍ أَصيلةٍ، لكان كلُّ عملنا عديم الجدوى**". وكم تمنّت لو تستطيع تثقيف جميع المبتدئات بنفسها!

وهي، بالتالي، حرصت على ألاّ تفتتح أيّ فرعٍ جديدٍ بأَقلّ من أَربع أَخواتٍ مُكرَّساتٍ، يؤَمِّن لهنَّ الخدمةَ الروحيّةَ كاهنٌ متين العقيدة، راسخ التقوى، وألاّ تمضي إِلاّ إِلى حيثُ تدعوها سُلطةٌ كنسيَّةٌ.

ولا ريب أَنّ ما أَعقب ذلك من انتشارٍ قد أَرهق، باتّساعه، كاهل الأُمّ تيريزا، وضاعف همومها. ولكنَّها لم تستسلم، قطُّ، لما كان يداهمها من موجات الوهَن والكَلل، بل إِنّها، في صلواتها المتّصلة السحيقة العمق، كانت تودع ضعفَها بين يدَيْ من دعاها وأَرسلها، والذي دأَب على أَن يُسيل في وهنها قوَّةً وزخمًا يؤَهِّلانها للمضيِّ بقَدَمٍ ثابتةٍ.

ولا جَرَم أَنّ فترة الانتظار التي أُلجئت إِليها قد أَسهمت في إِنضاج خطَط انتشار جمعيّتها. فالقوانين الكنسيّة تحظر على جمعيَّةٍ حديثة العهد تأسيس فروعٍ خارج حدود رعيّتها قبل مُضيِّ عشر سنواتٍ على تأسيسها. ولقد حرص المطران" پيرييه"، الذي كانت جمعيّة مرسلات المحبّة خاضعةً لسُلطته، على التقيُّد بتلك المهلة القانونيّة، فلم يُتح للمرسلات الانطلاق إِلى خارج كلكتّا إِلاّ في عام ١٩٥٩، رغم الدعوات المُلحّة من كلّ صوبٍ التي كانت تلتمس حضورهنّ.

شبكة محبّة تلفّ الهند

أَوّل فرعٍ هنديٍّ خارج كلكتّا تأسَّس في ٢٩ أَيّار ١٩٥٩ في مدينة "رانشي"، الواقعة على بُعد نحو مئة كيلومترٍ عن كلكتّا، في الشمال من الهند، والتي تضمُّ رعيّةً كاثوليكيّةً ديناميكيّةً، وفَّرتْ لجمعيّة مرسلات المحبَّة معظمَ عناصرها الأولى الرائدة. وربّما اختارت الأُمّ تيريزا "رانشي"، وأَنشأت فيها أَوّل مركزٍ خارج كلكتّا، اعترافًا بجميل تلك المدينة، وطَمَعًا في استنفار المزيد من الدعوات الكفيلة بتنشيط نموّ جمعيّتها في الخارج، ونفحه دفعًا قويًّا.

وفي العاصمة دلهي قام المركز الثاني للجمعيّة خارج كلكتّا، عام ١٩٦٠، بدعوةٍ

من الأُسقف "جوزيف فيرنانديز" الذي سبق له أَن كان أُسقفًا مساعدًا لكلكتّا، حيث راقب، عن كَثَبٍ، إنجازات الأُمّ تيريزا وأُخِذَ بها كُلَّ مأخذٍ. ومع أَنّ الطائفة الكاثوليكيّة في دلهي أَقلِّيَّةٌ ضئيلةٌ، إلاّ أَنَّه كان يأمل في أن يفضي وجود مرسلات المحبّة في رعيّته إِلى إِبراز وجهٍ مشرقٍ للمسيح، وصورةٍ جذّابةٍ للكنيسة.

ودلهي أكبرُ مدن الهند وأَجملُها، إلاّ أَنَّ ضواحيها تعج بالبؤس، ففيها يقطن مئات أُلوف الفلاّحين الذين هدَّتْهم سنواتُ الجفاف المتعاقبة، فأُلجئوا إِلى بيع نسائهم وأَطفالهم لسداد جزءٍ من ديونهم، وباتوا يعيشون في نبْذٍ تامٍّ، ولا يأبه أَحدٌ بمدّ يد العون لهم. وقد اقتضى ذلك الفقر المدقع المستشري، من المرسلات، جهودًا جبّارةً مضنيةً، كان لها في نفس القاصد الرسوليّ أَبلغُ أَثرٍ، ووقعٌ سحيق الغَوْر في صدور جميع المراقبين، ومنهم سفير سويسرا في الهند، السيِّد "كوتا" الذي كان عالمًا لامعًا، ومسيحيًّا يلتهب بين جنحيه إِيمانٌ مضطرمٌ، وغيرةٌ متّقدةٌ، فتبرّعَ بتمويل دارٍ للأطفال المهملين، وَهَبَها لمرسلات المحبّة، فتولّين إِدارتها بعطفهنّ وبذلهنّ المعهودَيْن.

وكانت شهرة الأمّ تيريزا قد تقدّمتها إِلى دلهي حيث لقيت استقبالاً حارًّا على جميع الأَصعدة، وقد حضر تدشين دار الأَطفال المهملين جواهر لال نهرو وثلَّةٌ من وزرائه؛ وتروي الأُمُّ بهذا الشأن: "**مع أَنّ نهرو كان معتلاً، إلاّ أَنّه غادر فراشه وحضر، وقد وددت إِطلاعه على عملنا، فقال: "لا داعي لذلك، يا أُمّاه، فلو لم أكن مطَّلعًا عليه لما قدمت!**" ومن بعدُ، بات نهرو يستدعي بانتظامٍ الأُمَّ تيريزا للتَّحدُّث إِليها.

جواب نهرو هذا، في بساطته، يقوم بمثابة أَجمل ثناءٍ، واعترافٍ بخدمات الأُمّ تيريزا ومرسلاتها لفقراء الهند، ولا سيّما وقد صدر عمّن كان، طيلة سبعة عشر عامًا، هو التعبير الحيّ عن الشعب الهنديّ.

وبهذه المناسبة، حرصت الأُمُّ تيريزا على التأكيد أَنَّ الخدمة الاجتماعيّة ليست هدفها الأَوحد، وأَنّ اهتمامها ينصبُّ، في المقام الأَوّل، ومن خلال العناية بالأَجساد، على العناية بالأَرواح؛ وقد روت، في معرض حديثها عن حفلة التدشين: « تَمَّ تدشين مركز الأَطفال الجديد في دلهي بحضور السيِّد نهرو، وسفير سويسرا. ولدى وصول السيِّد نهرو برفقة السيِّد كريشنا مينون، قلتُ للجميع: "فلنبدأ بتحيّة سيِّد البيت". ومضيتُ بهم إِلى المُصلّى، حيثُ وقف السيّد نهرو خلفي ضامًّا يديه، في حين صعد

السيِّد كريشنا مينون إِلى الهيكل كي يقرأ عبارةً استوضح فحواها. ثمّ جلسنا خارجًا، تأهُّبًا للاحتفال بالتدشين. وجاء الأَطفال بباقة زهورٍ طوّقوا بها عنق رئيس الوزراء، وأبلغتُه أَنّهم، أَيضاً، قدّموا صلواتهم، وتضحياتٍ صغيرةً مستمطرين عليه النعم».

وقد كان لافتتاح مركز دلهي، فضلاً عن بعده الرسوليّ، بعدٌ استراتيجيٌّ، فوجود الجمعيّة في العاصمة يوفّر لها التسهيلات الإِداريّة الكفيلة بدفع انتشار مؤسّساتها في الهند، كما يضعها على صلةٍ وثيقةٍ بالقاصد الرسوليّ، وبالسفراء الأَجانب الذين قد يمهّدون لتأسيس مراكز للمرسلات في بلدانهم، ويوفّرون لانتشار جَمْعِيَّتهنَّ دفعًا مُجديًا. ودُشِّن المركز الثالث، عام ١٩٦٠، في مدينة "جانسي" حيثُ عكفت المرسلات، أَوّلاً، على العناية بالأَولاد الفقراء واليتامى؛ وسُرعانَ ما اتّضحت لهنّ ضرورة افتتاح مدرسةٍ، ثمّ أَكْبَبْنَ على العناية بالبُرْص، والمرضى، والمسنّين.

وتوالى افتتاح المراكز في شتّى المُدن الهنديّة بوتيرةٍ متسارعةٍ، استجابةً لدعوات أَساقفةٍ كانوا يستعجلون إِنشاء بيوت محتضرين، ومياتم، ومراكز لمعالجة البرص في أَبرشيّاتهم. وهكذا استقرّت المرسلات، على التوالي، في آكرا، وأَسانسول وأمپالا عام ١٩٦١، وفي أمراڤاتي ومهاغالپور عام ١٩٦٢، فضلاً عن إِنشائهنّ مراكز صغيرةً في مختلف المدن.

وكانت الأُمّ توّاقةً إِلى افتتاح مركزٍ في مدينة بومباي، حيثُ أَقوى وأَقدم جماعةٍ كاثوليكيّةٍ في الهند من شأنها إِمدادها بدعواتٍ رهبانيّةٍ غزيرةٍ. ولكن، فيما تبارى سائر أَساقفة المدن الهنديّة في التماس مساعدة مرسلات المحبّة، لم تبدرْ عن رئيس أَساقفة بومباي، الكردينال غاريتاس، وهو أَوّل كردينالٍ هنديّ الجنسيَّة، أَيَّة دعوةٍ لهنّ، دعوة طالما تطلّعت إِليها الأُمّ عَبَثًا. وشكت الأَمرَ إِلى مرشدها الروحيّ، فهمس في أُذنها أَنّ الكردينال شخصيّةٌ رفيعةٌ لم يألَف أَن يبادر بالطلب، بَلْ يُطلَب منه فيلبّي. وأَخذت الأُمُّ بالنصيحة، فدبّجت رسالةً من سطرين، مستوضحةَ هل كان نيافتُهُ راغبًا في عمل مرسلات المحبّة في رعيّته؛ وسُرعانَ ما وافاها الردُّ، بعودة البريد، مرحّبًا. وفي الحال شخصت الأُمُّ إِلى بومباي حيثُ وضع الكردينال بتصرُّف جمعيّتها بناءً مناسبًا، وأكّد استعداده لفرز واحدٍ من خيرة كهنته لرعاية المرسلات روحيًّا. ولم يطُلْ بها الأَمرُ حتّى عادت بفريقٍ من أَخواتها وباشرنَ العمل.

وقد اشتهرت بومباي بكونها أولى المدن الهنديَّة، وعاصمة البلاد التجاريّة والمصرفيّة، وعاصمة السينما الهنديَّة؛ وهي تزدهي بواحدٍ من أَجمل شواطئ النزهة البحريّة، وبداراتها الفاخرة، ومساكنها الفخمة على سفوح كومبالا، فضلاً عن كونها أكثر المدن الهنديّة احتواءً على الكنائس، والمدارس، والمعاهد، والمؤسَّسات الخَيْرِيَّة والاجتماعيّة الكاثوليكيّة.

غير أَنّ بداية رسالة الأُمّ تيريزا في بومباي قد تعرَّضت لمقاومةٍ غير متوقَّعةٍ؛ فهي قد حرصت، مثلما عهدت لدى تأسيس كلِّ مركزٍ جديدٍ، على استكشاف المحيط الذي ستمارس فيه أَخواتُها رسالتهن، واستجلاء الحاجات الأَكثر إِلحاحًا، والأَدعى إِلى الاهتمام، فجاست المدينة سيرًا على الأَقدام، وتوغّلتْ في الضواحي المُهْمَلة والأَحياء البائسة، تواكبُها ثلَّةٌ من الصحافيّين، الذين عندما استوضحوا عن انطباعاتها، أَجابت، غير هيّابةٍ، ولا متحفّظة: "إِنّ أَكْوَاخ بومباي لأَسوأ حالاً من أَكْوَاخ كلكتّا!" وكان لهذا الردِّ الذي نُشر بالأَحرف العريضة على أولى صفحات بومباي وقع القنبلة، وطالعه القوم وكأَنّه طعنةٌ في صدورهم، إِذ كيف تتجرّأ تلك الراهبة الغريبة على تلك المقارنة المهينة بين عاصمتهم، مفخرة الهند، وكلكتّا المدينة القذرة، الصاخبة، المهملة، "المدينة الكابوس" في آسيا كلّها. بيد أَنَّ الأُمَّ، وقد باتت في تحليل البُؤس خبيرةً، دلَّلت على صحَّة قولها بمقارنة عوامل النور والماء، ومعالجة الأَقذار، والتهوية، وتلوُّث الهواء، والقرب من مراكز التسوُّق، إِذ إِنَّها تمكَّنت، في غضون ساعاتٍ معدوداتٍ، أَن ترى، وتقارن، وتروز، وتحكُم؛ وقد أَوضحت أَنّ أَكْوَاخ كلكتّا، في معظمها، ذات طابقٍ واحدٍ يتيح للهواء النقيّ أَن يسري فيها؛ وهي أَقلُّ تكدّساً بالسكّان، وتفسح أَماكن أَوسع لعبث الأطفال. أَمّا في بومباي، فمساكن العمّال شققٌ ضنكةٌ في أَبنيةٍ مشادةٍ على مقربةٍ من المعامل، على أَرَاضٍ غالية الثمن، تُستَغَلّ أَقصى استغلالٍ، فتتسامق إِلى أَربعة طوابق وأَكْثَر، وهي خاليَةٌ من المرافق الأساسيّة فيضطرّ سكّانها إِلى جلب الماء بالدلاء عبر سلالم ضيِّقةٍ، وتهويتها سيِّئةٌ، ويفتقر فيها الأَولاد إِلى مجالٍ للّعب في الهواء الطلْق.

وسحابةَ أَشهرٍ عديدةٍ شُنّت على الأُمِّ تيريزا وأَخواتها حملةٌ عدائيَّةٌ شعواء لم تُفلح في تثبيط عزائم المرسلات اللاّئي تخطَّينها، ومضيْنَ في رسالتهنَّ قُدُمًا، مفتتحاتٍ عدّة مراكز للأطفال، والشيوخ، والبُرْص، والمحتضرين. وراح المناوؤون يخرسون، الواحد

تلو الآخر؛ وبعد لأَيٍ، تجلّى للقوم صوابُ رؤية الأمِّ تيريزا، فحلَّ الاحترام محلَّ النقد.

وممّا حوّل الأذهان نحو تأييد مرسلات المحبَّة أَنَّ إِحدى صُحُف بومباي نشرت صورة امرأة فقيرةٍ وحيدةٍ قضت نحبها على رصيف، ولبثت ساعات قبل أن تُنتَشَل جثَّتُها، ما أَثار ضجَّةً شعبيّةً هادرةً. وتذكَّر الناس ما فعلته الأُمّ تيريزا، في كلكتّا، للمحتضرين المهملين، فَتَبَرَّعَ لها أَحد الكهنة ببيتٍ تابعٍ لأَبرشيّته كي تتّخذ منه مأوًى للمحتضرين المهملين، ما كاد يُباشر نشاطه حتّى أَغفلت الصحف انتقاداتها للأُمّ تيريزا، تلك المرأة الهزيلة جسديًّا، والعملاقة روحيًّا، التي تشنّ، يومًا إِثر يومٍ، حربًا على الموت والبرَص والفقر... "**إِنّها هبة الله لنا**".

أَجل، إِنّها لهبةٌ إِلهيّةٌ، تلك المرأة الهشّة، ذات القلب الرحب الذي يفعمه حبُّ يسوع!

وفي السنة التالية، استقبل رئيس الهند، الدكتور رادا كريشنا، في بومباي، البابا بولس السادس، الذي قدم للاشتراك في المؤتمر القربانيّ، وقد بلغ اندفاع الجماهير للتَّرحيب بالحبر الأَعظم ذروةً من الحماس نادرة المثال، إِذ تراصّ ملايين الناس، على امتداد العشرين كيلومترًا بين المطار والمدينة، كما هي لم تتراصّ لاستقبال أَيّ زعيمٍ من قبل. ففي ذلك البلد العميق التديُّن، كان أَبناء مختلف الطوائف توّاقين للظَّفر بما يدعونه، في الهند، "دارشان"، أَي قبسًا روحيًّا من كاهن المسيح الأَكبر، متدافعين إِلى رؤيته وسماعه، والاتّصال به روحيًّا؛ وحيثُما توجَّه كانت كتلةٌ بشريَّةٌ هائلةٌ تتحرّك معه ملتمسةً بركته. وكان الحبر الأَعظم قد عبَّر عن رغبته في زيارة الأَحياء الفقيرة، والاتّصال ببعض ساكني الأَكواخ، لأَنّه ربأ بنفسه أَن يكون أَقلّ التحامًا بالفقراء من أَبي الهند، المهاتما غاندي، الذي لم يكن يستقلّ من القطارات سوى عربات الدرجة الثالثة، وكان يؤثر التنقُّل على قدميه. بيد أَنّ السلطات الهنديّة لم ترقْ لها الاستجابةُ لرغبة البابا في اجتياز الأَحياء البائسة، يحفّ به جيشٌ من الصحافيّينَ والمصوِّرين، لئلاّ يعرضوا على الملأ صُوَرَ أَلوان البؤس المتفشّي في بلادهم. وارتأى منظّمو المؤتمر حلاًّ وسطاً متمثِّلاً في دعوة الأَب الأَقدس إلى زيارة المؤسَّسات الخيريّة، ومشاريع الأُمّ تيريزا، فكانت سعادته عارمةً عندما اختلط بالأَطفال الأَيتام، وقاسمهم طعامهم، وعبَّر عن عميق تقديره لتفاني القائمين على مثل تلك المشاريع الإِنسانيّة، وترجم هذا التقدير عمليًّا بتقديم سيّارته مساعدةً لمشاريع الأُمِّ تيريزا.

وتوالى تأسيس مراكز جديدةٍ أُخرى في الهند، فعام ١٩٦٣ تأسّس مركــزٌ فـــي پــاتنا، وعام ١٩٦٤ في كلٍّ من پـــارانكاس، وجامــشيدپـــور، وڤـــيكياجويا، ودارجيلينغ؛ وما برحت شبكة مرسلات المحبَّة تلفُّ مدُن الهند بعطاآتها، وبعد إِذ كان عدد مراكزها، في الستّينات، يناهز الخمسة والعشرين، ارتقى إِلى ٨٦ فـــي نهايـــة الثمانينات، ثمّ قفز إِلى ١٨٦ عام ١٩٩١، وما انفكّ ماضيًا في تكاثُرٍ.

وقد واكبت العناية الإِلهيّة ذلك الانتشار بعنايتها الساهرة الرقيقة؛ ففي بومبـــاي، زار الأُمّ تيريزا، يومًا، مديرُ شركةٍ كبيرةٍ، عارضاً تقديم عقارٍ لاستخدام المرسلات، وقد حداه الفضول إِلى استجلاء مصادر تمويل مشاريع الأُمّ، فقالَت له:

– « أَنت، من الذي أَرسلك إِليّ؟

– لا أَحد، يا أُمّاه، ولكنّني استشعرتُ أَنّ ذلك واجبي.

– اعلم، إِذن، أَنّ كثيرين يأتونني يحدوهم نفسُ الدافع. هؤلاء هم ميزانيّتي ».

نموُّ عمل المرسلات الباهر ذاك، وما استفزّه من حماسٍ لدى غيـــر المـــسيحيّين الذين يُمثِّلون ٩٧% من السكّان، واعتراف أَسمى السلطات المدنيّة بجدواه، هذه كلّها كانت ظواهر مدهشةٌ في بلدٍ طالما أَبدى تحفُّظاً وارتيابًا حيال المسيحيّين، لأَنّه غالبًـــا لم يفرِّق بينهم وبين المستعمرين.

كانت المسيحيّة قد انتهت إِلى الهند منذ فجر مولدها، فقد حـــطّ الرســـول متّـــى الرحالَ على شاطئ المالابار عام ٥٢. بيد أَنّ نموّ المسيحيّة في تلك البلاد لم يعهـــد بعض ازدهارٍ إِلاّ في القرن السادس عشر بفضل المرسلين الإِسبان والبورتوغـــاليّين الذين رافقوا المستعمرين. غير أَنّهم استقرّوا في أَغنى مناطق الهند، ولم يسعوا إِلـــى الاندماج بطبقات الشعب الفقيرة.

وهكذا، مع انحسار الاستعمار عن البلاد إِثر استقلالها، وانفتاح الكنيـــسة علـــى الشعب، بعد أن باشرت الأُمُّ تيريزا عملها، ظلَّت الجماعاتُ المسيحيّة الوطنيّة تظهـــر في مظهر فئةٍ منكمشةٍ على نفسها، مرتبطةٍ بغربٍ غنيٍّ، مـــادّيٍّ، متـــسلّطٍ. وكانـــت المؤسّسة الكنسيّة تمتلك أَوقافًا قيّمةً، وقد انصرف اهتمام معظم كهنتها إِلـــى الفـــوز بالتاج الأُسقفيّ، أكثر من اهتمامهم بالفقراء، فضلاً عن أَنّ انتهـــاج درب الكهنـــوت يُمثِّل، لفئة المنبوذين الهنود، ذريعةً مضمونةً للتَّصعيد في السلَّم الطبقيّ.

ولئن أَصابت الكنيسةُ، ثمَّة، بعض تجلَّةٍ واحترامٍ، فبفضل بعض مؤسَّساتها الخَيْرِيَّة، وأَيضاً بفضل مدارسها ومعاهدها التي توفِّر ثقافةً رفيعةً تدفع البورجوازيّة الهنديّة إلى التهافت عليها. وبالإِجمال، كانت الكنيسة المسيحيّة، في الهند، تقف على هامش المجتمع، وفي منأىً عن المُثُل الإنجيليّة.

غير أَنَّ الأُمّ تيريزا، بإِيلائها الأَولويّة لمن تخلّى عنهم الجميع، أَحدثت زلزلةً في المؤسَّسةِ الكنسيّةِ الهنديّة. وكان لا مفرّ لرجال الإِكليروس هناك من لحظ ديناميكيّة التجدُّد الذي أَشاعتْه.

وتوافق بدءُ رسالتها مع استقلال الهند، واندمج في مسيرة الانعتاق من الاستعمار، فهي، على نقيض الأَجانب الذين أَمُّوا الهندَ، لم تسعَ إِلى بثِّ قِيَم الغرب، وأَنماط عيشه وحضارته، بل تمثَّلتْ تمثُّلاً كاملاً بالهنود، واعتنقت لسانهم، وزيّهم، وتقاليدهم، وحضارتهم، بلهَ جنسيّتهم، وكرَّستْ ذاتَها لخدمة فقرائهم، في منأًى عن التبشير، عاكسةً صورةً ثوريّةً تمامًا لعمل الرسالة.

احترامُها الصادق لجميع الآخرين، بلا تمييزٍ، حَملَ الهندوسيّين والمسلمين على تعرُّف الحبّ المطلق النزيه الذي كانت تُضمره لكلِّ كائنٍ بشريٍّ، فاكتشفوا، من خلالها، مسيحيّةً أَصيلةً تستمدُّ سلوكها من الحبّ الإِنجيليّ الشامل.

سرُّ نجاحها يكمن في نأيها عن النموذج الغربيّ في حين كانت الهند تتحرَّر من آثار الاستعمار البريطانيّ. وفي حين كان النموذجُ الغربيّ ينهار، جاءت بنموذجٍ إنسانيٍّ، نابعٍ من حبّ الله، يلاقي هوًى في قلب كلّ إِنسانٍ.

كان غاندي قد أَهاب بالمسيحيّين الغربيّين أن يعيشوا مسيحيّتهم في صدقٍ، كي يشهدوا لمُثُلها السميا، وحثّهم على الدعوة لها بسلوكهم لا بخطاباتهم، على غرار الوردة التي تجتذب بلونها، وفوحها، وصمتها الضاجّ بالنداء. وهذا ما كانته، في الواقع، الأُمّ تيريزا التي لو عَرفها المهاتما عن كَثَبٍ لاستشفّ فيها نموذج المسيحيّ الحقّ الذي يعكس صورة المسيح السنيّة، ويعيش الإِنجيل في الأَعماق، على نقيض الذين يُشوّهون المسيحيّة باعتناقهم اسمها، ونأيهم عن محتواها، ومبادئها التي ينبض بسموّها وحرارتها كلُّ مقطعٍ من الإِنجيل.

"وتكونون لي شهودًا حتّى أَقاصي الأَرض"

في مثل الغيرة التي اندفعت بها الأُمُّ تيريزا إِلى نشر جمعيّتها في المدن الهنديّة، تاقت إلى الشهادة لحبّ الله لدى فقراء العالَم ومتأَلّميه، وهي تعي أَنّ في العالَم أَجمع فقراء ومتألّمين قد تختلف معاناتهم عن معاناة "قومها" الهنود، شكلاً، ولكنّها قد تتخطّاها وجعًا ومرارةً.

وكانت أَنباء إِنجازاتها في الهند قد ذاعت في مختلف أَرجاء الدنيا، وباتت مواقع بؤسٍ كثيرةٌ في العالم تتطلّع إِلى الإِفادة من عطف أَخواتها ورعايتهنّ، على نحو ما أَفادت مثيلاتها في الهند.

وقد اهتزّت مؤسَّساتٌ خيريّةٌ عالميّةٌ كبرى إِعجابًا حيالَ ضخامة بذل جمعيّة مرسلات المحبّة، فأغدقت عليها العون، وغدت توّاقة إِلى تعرُّف الأُمّ تيريزا عن كَثَبٍ، وإِلى الاطّلاع على احتياجاتها، والاستماع إِلى دوافعها ومُثُلها، ومُقوِّمات روحانيّتها، وانهالت عليها الدعوات من كلّ صوبٍ، ولا سيّمَا من منظَّمة الغوث الكاثوليكيّة في الولايات المتّحدة التي أَعدّت برنامج زياراتٍ يغطّي العديد من المدن الأميركيّة والأوروپيَّة، بمناسبة انعقاد المؤتمر الوطنيّ للنساء الكاثوليكيّات، الذي كان عنوان مناقشاته الرئيسيّة: "أَعمال المحبّة تلك". وقد استضافت المؤتمر مدينة لاس ڤيغاس، في تشرين الثاني من عام ١٩٦٠.

وإِنّها لمفارقةٌ طريفةٌ أَن تكون أَوّل مدينةٍ غربيّةٍ تزورها أَميرة الفقر، وأُمّ الفقراء "لاس ڤيغاس"، مدينة القمار، والبطر، والبذخ الوَقح.

وكانت تلك هي المرَّة الأولى التي تنأى فيها عن أَخواتها في الهند، فكتبت لهنّ في الأَوّل من تشرين الثاني عام ١٩٦٠، رسالةً تضجُّ بعواطف الأُمّ الحنون، جاء فيها: "في الخامس من هذا الشهر، وفي الساعة السابعةَ عشرة والدقيقة الخامسة والأَربعين، سأَستقِلُّ طائرة "پان آم" إِلى أَميركا التي سأَصل إِليها في اليوم التالي. إِنَّني أَمضي، ولكنّ روحي وكلَّ كياني يمكثان معكنّ. هي إِرادة الله أَن أَمضي، لذلك فلنسعد. أَثناء غيابي ستتولّى الأخت أَنبيس والمساعدة العامَّة والمجلس العامّ جميع المسؤوليّات. وسيُعنى الربّ بجميعكنَّ إِن بقيتنَّ متَّحداتٍ. تشبَّثْنَ بجمعيَّتكنَّ فالله هو مركزها.

"لستُ خائفةً من مباركتكنّ، لعلمي بأَنَّ أَثمن هبةٍ وهبنيها الربّ هي أَنتنَّ. في طريق عودتي، وفي نحو الخامس عشر من هذا الشهر، سأَمرُّ بروما. وسأَسعى لمقابلة الحبر الأَعظم كي أَلتمسَ منه الاعتراف بجمعيَّتنا. قد لا نكون جديراتٍ به، ولكن إِن كانت تلك هي مشيئة الربّ المقدَّسة لَنِلْناه. سأُودع كلاًّ منكنَّ عند أَقدام نائب المسيح على الأَرض، وإِنّني لواثقة من أنّه، بحبِّه الأَبويّ، سيباركَكنَّ".

وكان في طليعة مستقبليها في الولايات المتَّحدة الكردينال "كوشينغ" رئيس أَساقفة بوسطن، الذي أَطلق عليها، تحبُّبًا، لقبَ "المهاتما غاندي".

وللمرَّة الأُولى تكلَّمت الأُمُّ تيريزا أَمام جمهورٍ حاشد، يتأَلَّف من زهاء ثلاثة آلاف امرأةٍ أَميركيّةٍ، حدَّثتهنَّ عن قصَّة حبِّ الله لأَفقر الفقراء، وعن بطولات فتياتٍ من جميع الطبقات واللغات الهنديّة، انضممنَ إِليها لخدمة المحتضرين والبرص والمشرَّدين والجياع والمرضى. وقد ردّت بإِسهابٍ على مختلف الأَسئلة المتعلّقة بجمعيّتها ونشاطاتها، وكان لحضورها وحديثها وقعٌ فريدٌ، بليغ، امتدّت أَمواجه إِلى شتّى الأَبرشيّات الأَميركيّة كما لم تفعل أَيّة رسالةٍ أُخرى.

أَمّا عن الإِعانات المقدَّمة لمشاريعها فقد أَوضحت أَنّها لا تتسوَّل، ولكنَّها تمضي إِلى أُناسٍ من جميع الأَديان قائلةً: "**جئت لأَهبكم فرصة عمل شيءٍ جميلٍ من أَجل الله**". وَالراغِبُونَ في مثل ذلك العمل يجودون بما يستطيعون. وكان سخاء الأَميركيّين في لاس ڤيغاس مدهشًا، فكرَّةً إِثر كرَّة امتلأ قمَطْرها المصنوع في أَحد أَكْوَاخ كلكتّا من فضلة قماش أُثبتت بأَطرافها مسكاتٌ خشبيَّةٌ، والذي أَلِفَتْ اصطحابَه في كلِّ جولاتها، بمثابة حقيبةٍ يدويّةٍ، وأُفرغ ثُمَّ امتلأ من جديدٍ.

لقد كانت الأُمُّ وهي في لاس ڤيغاس، في العالَم، ولكنَّها لم تكن من ذلك العالَم. وكلُّ ما ودَّت أَن تعود به من تلك المدينة كذكرى، حفنة أَشواكٍ انتزعتها من شجرة صبّارٍ ضخمةٍ، وضفرت منها إِكليلاً توّجت به رأس المصلوب المنتصب خلف هيكل مصلّى الجمعيّة في كلكتّا.

وفضلاً عن لاس ڤيغاس، زارت عدّة مدنٍ صغيرةٍ أُخرى تقطنها أُسَر مزارعين متوسِّطة الحال، وشكرت لجميع المتبرّعين إِعاناتهم لأَطفال الهند وفقرائها.

وقد تسنّت لها زيارة الأُسقف "فولتين شين"، الشهير بأَحاديثه التيليفزيونيّة عن

الأَخلاق الإِنجيليَّة في الحياة اليوميَّة، والذي دعا جميع العاملين معه إِلى الصلاة مع امرأَةٍ فذّةٍ تخوض معركةً بطوليَّةً، ذودًا عن حياض جياع الأَرض.

وقد قدّمت الأُمُّ، هي أَيضاً، حديثين لجماعاتٍ من الكاثوليك الأَميركيّين، الصابين إِلى عيش الإِنجيل في حياتهم اليوميَّة.

وفي سبيل الحصول على مساعداتٍ للبرص زارت ممثِّل منظَّمة الصحَّة العالميَّة في الأمم المتَّحدة، وحدَّثته عن نضالها من أَجل البُرْص في الهند، وقد شاهدت مرافقتُها الدموعَ تنهمر، بصمتٍ، على وجنات الموظّف الكبير، فيما كانت الأُمُّ تيريزا تحدِّثه.

وإِثر تلك الزيارة نشرت مجلّة "اليوبيل" الأَميركيّة المسيحيّة صورةً للأمّ تيريزا على غلافها، ومقالاتٍ مستفيضةً عنها، مثلما فعلت عام ١٩٥٨، وقد أَسهمت تلك المقالات في ذيوع صيت الأُمّ تيريزا في الولايات المتَّحدة، واستدرار العون لمشاريعها، واستنفار المتعاونين مع جمعيَّتها.

وكذلك كانت نتيجة محطَّتها في لندن، التي امتدَّت أُسبوعًا وحَفِلتْ باللقاآت، والأَحاديث الصحافيّة والإِذاعيّة والتيليفزيونيَّة، وكان حصادُها مزيدًا من التعاطف مع مشاريعها، والتعاون مع عمل مرسلات المحبَّة.

ثمَّ توقَّفت في أَلمانيا حيثُ كانت مجلاَّتٌ كاثوليكيّةٌ قد نشرت مقالاتٍ مسهبةً عنها، وحيث كانت مؤسّستا "كاريتاس" و"ميزيريور" تدعمان ماليًّا مشاريعها في الهند، وقد تعهّدت مؤسّسة: "ميزيريور" ببناء مركزٍ للمحتضرين المُهْمَلين في دلهي، على غرار "تيرمال هرايدي"، ولكن شرط أَن تتلقّى بانتظامٍ ميزانيّات تبيّن كيفيّة إِنفاق المبالغ التي سيتمّ التبرُّع بها. غير أَنّ الأُمّ تيريزا قد أَكّدت أَنّ كلّ فلسٍ سيدفع من أَجل ذلك المشروع، سينفق في سبيله بحرصٍ شديدٍ، وأَمانةٍ مُطلقةٍ. أَمّا الميزانيّات فلا يتّسع وقت الأَخوات لإِعدادها، إِذ إِنّ وقتهن وقْفٌ على الفقراء، ولن يهدرنَ ثانيةً منه على أيّ عملٍ آخر. وتمَّ التوصُّل، أَخيرًا، إِلى حلٍّ يقضي بأَن يشخص موظَّفٌ من مؤسَّسة "ميزيريور" إِلى دلهي لتقدير التكاليف، على أَن يضطلع موظَّفون آخرون بإِعداد ميزانيَّة النفقات.

وانتهزت الأُمُّ سانحةَ محطَّتها الأَلمانيّة كي تزور أُسرة إِحدى الأَخوات الأَلمانيّات التي كانت من أولى الأوروپـيّات المنضويات تحت لواء مرسلات المحبَّة.

وإِثْرَ مرورٍ خاطفٍ بسويسرا، شخصت الأمُّ إِلى روما التي كانت تتحرَّق إِلى زيارتها، فللمدينة المقدَّسة، في نفسها، وقعٌ خاصٌّ، وفيها كانت تَتَطَلَّع إِلى مقابلة الحبر الأَعظم، طمعًا في اعترافٍ بابويٍّ بجمعيَّتها التي كانت ترغب في إِخضاعها للسُّلطة الرسوليّة المباشرة، على غرار الرهبانيّات الكبرى، ما يتيح لها إِمكان انتشارٍ عالميٍّ. وبعد أَن حظيت بالمشاركة في قدّاس الحبر الأَعظم، والظَّفر ببركته، تقدّمت بطلبها إِلى الكردينال أَغاجنيان الذي كان يرئس مجمع نشر الإيمان. ومع أَنّ نشاط الدوائر الڤاتيكانيَّة كان متباطئًا من جرّاء انشغالها بالإعداد للمجمع المسكونيّ، إِلاّ أَنّ طلب الأُمّ تيريزا لقي دعمًا من الكردينال كنوكس، القاصد الرسوليّ في دلهي. ومع ذلك، كان على الأُمِّ انتظار بضع سنواتٍ قبل أَن تظفر بمبتغاها.

لقد كان الكردينال كنوكس مقرَّبًا من البابا بولس السادس، وقد هيَّأَ للأُمّ تيريزا موعدًا معه، بمناسبة المؤتمر القربانيّ في بومباي عام ١٩٦٤، وتخلّفت الأُمّ عن ذلك الموعد لانشغالها بإِسعاف زوج محتضرين التقتهما وهي في طريقها إِليه. وحينئذٍ، دعا الكردينال كنوكس الحبر الأَعظم إِلى زيارة مراكز الأُمّ تيريزا، وكانت تلك الزيارة حاسمةً في توثيق العلاقات بين البابا ومؤسَّسة مرسلات المحبَّة. وإِثر ذلك ارتأى الأَب الأَقدس أَنّ طلب الأمّ بالاعتراف الرسوليّ لا يحتمل مزيدًا من التأجيل. فاستعجل الدوائر الڤاتيكانيّة المختصَّة بالنظر فيه. وفي عامِ ١٩٦٥، قبل انتهاء المجمع، أَصدر الڤاتيكان "قرار ثناءٍ" لصالح جمعيَّة مرسلات المحبَّة، وأَلحقها بسُلطته المباشرة، ممّا أَكْسِبهَا دفعًا غنيّ العواقب، فتدفّقت عليها طلبات الانتساب من كلّ أَقطار العالَم، مثلما انهالت عليها الهبات والمساعدات من مختلف المُنظّمات الكاثوليكيَّة، وبات بإِمكان الجمعيّة افتتاح مراكز جديدةٍ في أَيّ مكانٍ من المعمورة، من غير عائقٍ.

وكان قد سبق لمجمع نشر الإيمان أَن عرض، أَثناء زيارة الأُمّ تيريزا الأولى لروما عام ١٩٦٠، تخصيص اعتمادٍ بمبلغ خمسةٍ وعشرين أَلف دولارٍ، كلَّ ثلاثة أَشهرٍ، إِسهامًا في نفقات جمعيّة مرسلات المحبَّة، إِلاَّ أَنَّ الأُمّ رفضت العرض لأَنَّها كانت تأبى أَيَّ دخلٍ ثابتٍ، لتعارضه مع اعتمادها المطلق على العناية الإِلهيّة؛ وحينئذٍ ارتأى المجمع تقديم عونٍ للفقراء وَالبُرْص، فقبلته ممتنّةً.

وكانت زيارتها الأُولى تلك إلى روما فرصة لالتقاء أَخيها "لازار" الذي قدم مع أُسرته من پاليرمو، بعد سنواتٍ طويلةٍ من الفراق.

كما كانت رحلتها الأُولى تلك خارج الهند عاملاً على التعريف بها على أَوسع نطاقٍ في العالَم؛ ولئن هي تحدَّثت أَثناءها أَمام ثلاثة آلاف امرأةٍ في لاس ڤيغاس، إلاّ أنّها باتت، لاحقًا، تُدعى للتَّحدُّث إلى عشرات أُلوف الخلق في مختلف أَصقاع العالم. وقد أَسهمت تلك الرحلة في توثيق علاقاتها بشخصيّاتٍ عالميّةٍ كانت لها خير عونٍ في المستقبل.

وجديرٌ بالتنويه أنّه كان لرجال الإكليروس يدٌ طولى في إذاعة شهرة الأُمّ تيريزا، فعندما كافأتها الحكومة الهنديّة بأَسمى جوائزها عام ١٩٦٢، أَبت، بادئ الأَمر، هَدْر وقتها في الشخوص إلى دلهي لتسلّمها، عادّةً أَنّ مكانها هو بين ظهراني الفقراء لا فوق المنصّات، ولكنّ أُسقف كلكتّا تدخَّل لحملها على تسلّم الجائزة. ومذّاك ما انفكّ رجال إكليروس، من أَسمى المراتب، ينهجون هذا النهج.

فالبابا بولس السادس، بمنحه إيّاها جائزة البابا يوحنّا الثالث والعشرين للسَّلام، عام ١٩٧١، نشر شهرتها بعيدًا خارج حدود الهند؛ ثمّ إنّه منحها الجنسيّة الڤاتيكانيّة، وأَوكل إليها المشاركة في العديد من المؤتمرات الكاثوليكيّة والدوليّة، والتظاهرات ضدّ الإجهاض، والذَّود عن القِيَم المسيحيَّة، وحذا حذوه البابا يوحنّا بولس الثاني الذي دعاها إلى الإسهام في الدفاع عن الأُسرة، والدعوة إلى السلام والمسكونيّة، وعيَّنها سفيرةً للڤاتيكان لبحث عددٍ من القضايا الدقيقة.

وما أكثر أَمثلة تدخُّل كرادلةٍ وأَساقفة لحملها على الاستجابة لدعوات مقابلاتٍ صحفيَّةٍ أَو تيليفزيونيّةٍ، كانت تحاول التملُّص منها!

فقد أَقنع، يومًا، صحافيٌّ كاثوليكيٌّ المسؤولين عن برنامج "ملفّات الشاشة" في التيليفزيون الفرنسيّ، ببثّ برنامجٍ عن "الرسالة في الكنيسة"، بعد أَن تعهّد بإشراك الأُمّ تيريزا فيه. وطار الصحافيّ إلى روما، بصحبة أُسقف، لإقناعها بالإسهام في تلك الأُمسية، ولكنَّها، للوهلة الأُولى، ردّت: "لا أَرغب في الظُّهور على شاشات التيليفزيون، ولا أُحبُّ مثل هذه المداخلات، ولكن إن كان الأَمرُ يتعلَّق بفتح قلوب الفرنسيّين وأَذهانهم على فكرة الرسالة، فأَنا متأَهِّبةٌ لكلِّ شيءٍ. ومُهِّد لذلك البرنامج بحملةٍ إعلاميّةٍ مجلجلةٍ، قائمةٍ، بمعظمها، على إسهام الأُمِّ تيريزا، ولكن ساعة أَزِف

موعد ظهورها، كانت الأُمُّ مُتعَبةً، رازحةً تحت وِقْر هموم جمعيَّتها، فأَبت دخول الستوديو، وكاد البرنامج يُقدَّم في معزلٍ عنها. ولم يُفلح الصحافيّ في اقتلاعها من مقعد السيّارة الذي اعتصمت فيه، إلاّ بتشديده على ما سيُسديه البرنامج من خيرٍ للكنيسة ولِلإنجيل؛ وفي ستوديو التيليفزيون ظلّت واجمةً حتّى تدخَّل كردينال ساوباولو، الذي كان يشارك في اللقاء، فحملها على إسهامٍ فعّالٍ.

وبسبب نفورها من وسائل الإعلام، التمست يومًا من البابا: "**أَيُّها الأَب الأَقدس، هناك العديد من الكرادلة والأَساقفة الذين يحملونني على الاشتراك في لقاءات، وإِلقاء خطاباتٍ، وقد ضقت ذرعًا، فمثل تلك الأمور ترهقني. فأنا سقيمةٌ وعجوزٌ، ومشغولةٌ بأَخواتي المبثوثات في العالَم، فمُرْني أَن أَردَّ على الأَساقفة والكرادلة بأَنّ الحبر الأَعظم قد منعني من الاستجابة إِلى تلك الدعوات**". وقد ردّ عليها البابا يوحنّا بولس الثاني مبتسمًا: "عليَّ أَن أُفكِّر بالأمر". ويبدو أَنّه ما زال يفكِّر.

مع فقراء ڤينيزويلا

وفّر المجمعُ الفاتيكانيّ الثاني لأَساقفة مختلف بلدان العالَم، فرصةً للتَّشاوُر وتبادل شُجونهم وهمومهم، أَثناء فترات الاستراحة بين الجلسات، واتَّفق أَن أَفضى الأُسقف "بينينيز"، راعي أَبرشيّة "بارلينزيميتو" في ڤينيزويلا إِلى الكردينال "جيمس كنوكس"، القاصد الرسوليّ في نيودلهي، بهموم رعيَّته، ولا سيّمَا فقرائها من أَهل البلاد الأَصليّين الذين لا يأبه أَحدٌ بالعناية بهم مادِّيًّا وروحيًّا. وأَرشده الكردينال كنوكس إِلى مرسلات المحبّة، وتعهَّد بنقل رغبته إِليهنّ بنفسه. وتوافق ذلك مع أُمنيّةٍ كان قد عبّر عنها قداسة البابا بولس السادس للأُمِّ تيريزا بأن تولي أَولويّة اهتمام رسالتها إِلى دول أَميركا اللاّتينيّة "حيث الحاجة الروحيّة هي الأَكثر لجاجةً... وحيثُ وجود الكنيسة ضروريٌّ، وغائبٌ، أَو غير كافٍ". فتلك البلاد الشاسعة تضمُّ أكبر عددٍ من الكاثوليكيّين في العالم، ولكنّ معظمهم لا يمارسون دينهم، ولا يفقهون من مبادئه شيئًا. وبما أَنّهم، إِلى ذلك، على فقرٍ مدقعٍ، لم تتردَّد الأُمّ في المثول إِليهم.

وحرصاً منها على تفقُّد المراكز الجديدة، وتحرّي ظروف عيش وعملِ أَخواتها فيها، قبل إِيفادهنّ، طارت الأُمُّ إِلى ڤينيزويلا حيثُ تحدَّثت مع الأُسقف، واطَّلعت على احتياجات رعيَّته، وراجعت السلطات المدنيّة في سبيل الحصول على جميع

التراخيص اللازمة. ولمّا عادت إِلى كلكتّا اختارت ستًّا من خيرة أَخواتها جعلت منهنّ رائداتٍ في تأسيس مراكز في الخارج.

كانت تلك الأَخوات قد تمرَّسنَ من أَعمال العطف، وشتّى ضروب الخدمة في كلكتّا، وبتنَ متأَهّباتٍ لإِفادة سائر فقراء العالم من خبرتهنّ تلك. وقد دهش موظّفو الهجرة الهنود للانقلاب الذي رأوه يتحقَّق تحت أَنظارهم، عندما وافت مواطناتٌ هنديّاتٌ، ملتمساتٍ جوازات سفرٍ إِلى بلاد العالم، للاضطلاع برسالةٍ، بعد أَن أَلِفوا مجيء مرسلين أَجانب إِلى الهند من شتّى بلدان العالم؛ وفي هذه النوبة لم يكن سفر المرسلات بقصد التعلُّم أَو التدرُّب، بل بُغيةَ إِفادة آخرين من خبراتهنّ ومهاراتهنّ في معالجة أَسباب البؤس.

واستقدمت الأُمُّ الأَخوات الستّ، أَوّلاً، إِلى روما، لتزويدهنَّ ببركة الحبر الأَعظم قبل شخوصهنَّ إِلى مقصدهنَّ، حيثُ افتتحنَ، في تمّوز ١٩٦٥، أَوّل مركزٍ خارج الهند، سرعان ما انقلب موئلاً لتثقيف الأَخوات المعدّات للرِّسالة في الدول الناطقة بالإِسبانيّة.

لدى وصولهنَّ إِلى مدينة "كوكوروتاس"، استُقبلت المرسلات بقرع أَجراس الكنائس، وكان الأُسقف والرعيَّة قد هيّآ لهنّ بيتًا أَنيقًا، مع قاعة استقبالٍ مؤثّثةٍ تأثيثًا فاخرًا، ومجهّزةً بستائر جذّابة معلَّقة على النوافذ، في حين جُهّز المطبخ بثلاّجةٍ. غير أَنّ الأَخوات تبرّعنَ لأسَرٍ فقيرةٍ، بكلِّ ذلك الذي رأيْن فيه ترفًا يتعارض وفقرهنّ، واستعضنَ عنه بأَثاثٍ قشف. وقد اغتبط الفقراء بالستائر التي اصطنعوا منها أَغطيةً لأَسرَّتهم، بل، أَحيانًا، أَلبسةً لذواتهم؛ ثمَّ حوّلت المرسلاتُ قاعةَ الاستقبال إِلى مركز تدريب، حيثُ شرعنَ يُلَقِّنَّ الخياطة، والطبع على الآلة الكاتبة، كما أَخذنَ يُعلِّمنَ اللغة الإنكليزيّة في غرفةٍ ملحقةٍ بالكنيسة، فيما كانت نساء المدينة يعلِّمنهنَّ الإِسبانيّة المحلِّيَّة.

وتروي الأخت دولوريس التي كانت عضوًا في فريق المرسلات الأَوّل الذي أَسّس مركز "كوكوروتاس":

« عندما وصلنا، لم يكن لدينا أَيُّ إِلمامٍ بلغة البلاد وعاداتها، وكان كلُّ شيءٍ مختلفًا عمّا أَلفناه، ولكأَنَّ الربّ كان يتحدّانا. ولقد رحَّب بنا القوم ترحيبًا حارًّا، ولقّنونا بضع أَلفاظٍ، ثمّ باتوا يساعدوننا على إِتمام جُمَلنا، إِذ لم يكن لدينا فسحةٌ من وقتٍ لتعلُّم لغة البلاد. لقد كانت "كوكوروتاس" رسالةً رائعةً لي، وَالآن، حتّى بعض مُضيّ سنواتٍ طويلةٍ، ما برح أَبناء تلك البلاد غالين على قلبي ».

ولم تكن المرسلات في حاجةٍ إلى التجوال بعيدًا، في سبيل العثور على الفقراء، ففي بناءٍ مهجورٍ على مقربةٍ منهنَّ كانت تعيش أُسرتان هاجرتا من منطقتهما الجبليّة، آملتين أَن تجدا في المدينة حياةً أَرحم من حياتهما في معقلهما الأَجرد. وكان لإحداهما خمسة أَبناءٍ وللثّانية أَربعةٌ، وكلٌّ منهما تعيش في غرفةٍ واحدةٍ. ومع أَنّ صحن الدار كان يحتض بئرًا، إِلاَّ أَنّ المال الكفيل بابتياع الصابون لم يكن متوفّرًا، فالأُجرة التي يُصيبها ربُّ الأُسرة عن أَيّام عمله النادرة، تكاد لا تكفي ثمنًا للغذاء الأَساسيّ. ولا بِدْعَ إِن ابتُلي معظمهم بطفحٍ جلديٍّ، ومُني أَطفالهم بالتهابات في عيونهم. وكانت المرسلات هنَّ الزائرات الوَحيدَات لأُولئكَ الأَغراب، الذين كانوا في أَشدّ حاجةٍ إِلى الصابون واللباس كي يتأَهّلوا للاندماج بسكّان المدينة.

ونُظَراء تَيْنكَ الأُسرتين كُثُرٌ، ومنهم من يعيشون وحيدين، لا أنيس لهم سوى الفقر والحرمان، مثل تلك العجوز الأَرملة "أَسانثيون" التي هجرها ولداها، وحيدةً، لا مال يُمسك رمقها، أَو يساعدها على العيش، فعكفت المرسلات على تنظيفها، وغسل ثيابها، وأَغطية فراشها، وترتيب مسكنها الوضيع، وإِطعامها، وعندما كنّ يبارحنَها يعهدنَ بها إِلى رعاية الجيران ريثما يعُدْنَ.

وبرزت، ثمّة، كما هي الحال في معظم البلدان، هوّةٌ سحيقةٌ بين الميسورين والمحرومين تنفي أَيّة علاقةٍ بينهم، فجعلت المرسلات من أَنفسهنّ الجسر الذي يربط بين الفئتين، بين من يعيشون في بحبوحةٍ، ومن لا يملكون حتّى الأَساسيّ. وسُرعان ما استدرَّ مثلهنَّ السخاء، ودفع أُسرًا كثيرةً إِلى الاندماج في عملهنَّ، فهذا جزّارٌ يوفّر لهنّ فراخًا ولحمًا، وذاك بائع أَطعمةٍ متجوّلٌ يجود كلَّ يوم بشيءٍ من بضاعته، وآخرون يتبرّعون بالخبز، وهو طعام الفقراء الرئيسيّ، والمرسلات منهم.

لقد احترم الأَهالي فقرَ المرسلات فزوّدوهنَّ بالأَساسيِّ فقط، وطفقوا يوفّرون لهنّ الموادّ التي يتعيَّن توزيعها في مخيّمات البؤْس، وهكذا أَصبحوا لهنّ شركاء في غوث الأَكثر فقرًا.

ووُهبت المرسلات موقعًا خَرِبًا كان يُستخدَم مرمًى للنفايات والأَقذار، وبمساعدة الأَهالي نظّفنَه، وجعلنَ منه مركز تدريبٍ، ومأوًى للمشرّدين.

وإِلى جانب أَعمال العطف التي أَلِفنَها، استدعت الأَخوات مهمّةٌ لم يكن لهنَّ بها عهدٌ من قبل. فقد اتَّضح لهنَّ أَنّ معظم سكّان البلاد، وإِن هم كانوا على المسيحيّة

مولدًا وعمادًا، إلاّ أَنّهم على جهلٍ مطبقٍ بمبادئها، بل إِنّ كثيرين منهم لم يسمعوا حتّى باسم المسيح، ولم يكن لهم بشعائر المسيحيَّة وأَسرارها أَيّة خبرةٍ أَو ممارسةٍ، فتعيَّن على المرسلات تعليمهم مبادئ المسيحيَّة الأَساسيّة، ومساعدة الكهنة أَو الحلول محلَّهم في العديد من مهامّ الرعاية من تعميدٍ، وزيارة مرضى، وحمل القربان إِلى المدنفين، وقد أَفعم ذلك العملُ المرسلاتِ اندفاعًا، فكتبت الأُخت "دوروثي"، رئيسةُ المركز:

« لقد كان ذلك لنا أَمرًا جديدًا كلَّ الجدّة، وخبرةً لم يكن لنا عهدٌ بمثلها من قبل، فقد اكتشفنا أَنَّ الربَّ في حاجةٍ إِلينا، كي نحمله إِلى البشر ».

ولاحظت مرسلةٌ أُخرى: "في ڤينيزويلا، نكاد نكون كهنةً لأَنّنا ننهض بجميع مهامّهم ما عدا الاعتراف وإِقامة الذَّبيحة الإِلهيّة. إِنّه لعملٌ رائعٌ...".

ولقد سُرَّ الأسقف لنهوض المرسلات بأَعباءٍ رعويّةٍ لم يكن لديه من ينهض بها سواهنّ. وآنست المرسلات ارتياحًا إِلى تلك المهامّ، إِلاّ أَنّ الأُمّ تيريزا خشيت أَن تصرفهنّ تلك الاهتمامات، على خطورتها، عن رسالتهنّ الأَصيلة المتمثِّلة في غوث أَفقر الفقراء، فحذَّرتْهنّ، باطّرادٍ، من أَن تحملهنّ تلك عن إِغفال هذه.

معضلةٌ أُخرى استأثرت باهتمام المرسلات، تمثَّلتْ في الوضع الاجتماعيّ المهلهل، والأُسَر المفكَّكة، فلكثيرٍ من الرجال العديد من النساء، وأَطفالٌ من معظمهنّ، ولكن من غير زواجٍ رسميٍّ، فكان على المرسلات توعية النساء اللواتي يتولّين مسؤوليّة الأَطفال، وربط الأسر، ما استطعنَ، بزواجٍ شرعيٍّ، ما أكسبهنَّ ثقة القوم الذين باتوا يلتمسون زياراتهنّ لبيوتهم الرثَّة، والإصغاء إِلى شكاواهم. ومن ثمّ، عندما استوضح أَحدُهم الأُمَّ تيريزا هل في وسع أَخواتها الاستماع إِلى الاعتراف، أَجابت مازحةً: "هذا هو العمل الذي يضطلعنَ به أكثر من سواه، ولكنَّهنَّ لا يستطعنَ منحَ الغفران!" وفي هذا السياق أَفادت الأُخت "نيرمالا" أَنَّ رجالاً أكّدُوا لها استعدادهم للاعتراف بين يديها أَو بين أَيدي أَخواتها، إِذ إِنّهم، بذلك، كأنّهم يعترفون بأَخطائهم إِلى أُمّهاتهم، في حين يشقّ عليهم الاعتراف بها أَمام رجلٍ مثلهم.

وبالإجمال كان على المرسلات، في ڤينيزويلا النهوض بعدَّة أَدوارٍ معًا: فهنَّ الطبيب والمُرشد، ومعلِّمة المدرسة، والمساعدةُ الاجتماعيّة، ورجل الدين، والمؤاسي.

وتشعّب نشاطهنّ في تلك البلاد حيثُ غدا لهنّ خمسة مراكز في مدنٍ مختلفةٍ.

أَميركا اللاتينيّة: أَرض رسالة صعبة

من ڤينيزويلا انطلقت المرسلات إِلى مختلف بلدان أَميركا اللاتينيّة، فافتتحنَ مركزَيْن في كلٍّ من البيرو والأَرجنتين، وأَربعة مراكز في كلٍّ من كولومبيا والبرازيل، ومركزًا في كلٍّ من غواتيمالا والأوروغواي.

لقد وعت الأُمّ خطورة العمل في تلك القارّة التي تضمُّ نحو نصف كاثوليكيّي العالَم، حيثُ كان على مرسلاتها، فضلاً عن معالجة الفقر المدقع، والخَلَل الاجتماعيّ، التصدّي لفَقْرٍ دينيٍّ رهيبٍ لدى ملايين المُعمَّدين الذين لا يفقهون من شؤون دينهم شيئًا، من جرّاء افتقارهم إِلى كهنةٍ وراهباتٍ يثقِّفونهم، ويغذّون إِيمانهم؛ تلك المهمّة كانت ضرورةً حارقةً إِذ إِنّ الكنيسة كانت تفقد كثيرًا من أَعضائها، كلَّ يومٍ، لعجزها عن توفيرها لهم الخدمات الروحيّة الأَساسيّة.

غير أَنّ الأُمَّ تيريزا لم تكن راضيةً عن وتيرة ذلك التوسُّع الذي كانت تتمنّاها أَسرع، ولا عن الحماس المواكب افتتاح تلك المراكز الذي عدَّته أفتر ممّا عهدته في الهند.

والواقع أَنّ الوضع في أَميركا اللاتينيّة كان، عمومًا، دقيقًا وحرجًا، ويضع الأَخوات في مواقف حائرةٍ ممزّقةٍ. فالظُّلم الاجتماعيّ، ثمّة، فادحٌ صارخٌ، والمظلومون المطالبون بحقوقهم غالبًا ما يلجؤون إِلى عنفٍ يؤيِّدهم في نهجه كهنةٌ وأَساقفةٌ أَقعدوا تَبْريره على ما دعوه "لاهوت التحرُّر"، الذي لم تستسغْه روما، وجهدت في لجمه. فقد يحدث، مثلاً، أَن يدَّعي ملاَّكٌ كبيرٌ شراء أَراضٍ شاسعةٍ، ويقوم بتسويرها، في حين هي ملكٌ لمئات الفلاّحين الصغار الذين يحرثونها ويستثمرونها، جيلاً إِثر جيلٍ. وتنحاز السلطة إِلى الملاَّك الكبير؛ فيتظاهر الفلاّحون المظلومون، ويتقدَّم مسيرتَهم صليبٌ، ويحطِّم السورَ كاهنٌ أَو زعيم القرية "باسم الآب والابن والروح القدس"، وتغرق المرسلاتُ في بحرانٍ من الحيرة الممزِّقة، فهنّ يأبين الاشتباك مع السلطات، ويحرصنَ على الانسجام مع موقف روما، ولكنّ قلوبهنّ بكلِّيَّتها مع الفقراء المغموطي الحقوق الذين لا يدركون لتحفّظهنّ سببًا.

لا جَرَم أَنّ وجوهًا نيّرةً جريئةً برزت بين رجال الإكليروس الذين انبروا للذَّود عن حياض المسحوقين، وأَبرزهم الكردينال "دون هيلدركامارا" الذي كان، عام ١٩٥٥، مطرانًا شابًّا معاونًا لأُسقف ريو دي جانيرو، والذي شنّ حملةً شُجاعةً

ومتماديةً، دفاعًا عن "الفافيلوس"، أي سكّان أكواخ الصفيح، وابتنى بيوتًا لإعادة إيوائهم، وأسَّس بنك العناية لإقراض الفقراء، وتمويل الخدمات الطارئة الملحّة، مستمدًّا المال من الإعانات، والمهرجانات التي كان ينظّمها. وقد عُيّن، عام ١٩٦٤، رئيس أساقفة ريسيف؛ وأيقن، أخيرًا، أنّ كلّ ما ينهض به من مشاريع إنْ هو إلاّ علاجٌ مؤقّتٌ محدودٌ، فأهاب بالسلطات أن تتصدّى لإصلاحاتٍ جوهريّةٍ، اجتماعيّةٍ واقتصاديّةٍ، فاتُّهم بكونه شيوعيًّا محرِّضاً، ولكنّه ما انفكّ يجأر أنّ معضلة العصر الكبرى هي الشقّة الماضية في اتّساعٍ بين عالم الفقراء، وعالم الأغنياء؛ ولم يتحرّج من العيش بين ظهراني المحرومين، الذين راح يحثّهم على المطالبة بحقوقهم في منأًى عن العنف، مستمدًّا قوّة نضاله من الصلاة، إذ إنّه كان يستيقظ في نحو الثالثة ليلاً، ويستغرق في الصلاة حتّى الفجر، ما جعل الفقراء يُطلقون عليه اسم "النبيّ". وقد أُعجبت به الأمّ تيريزا، وأطلقت عليه اسم "صوت من لا صوت لهم"، ولكنّها أبت احتذاء التزامه السياسيّ، فما عهدته عن السياسة، سواءٌ في مسقط رأسها، ألبانيا، حيث أودت السياسة بحياة والدها، وهو في مقتبل العمر، أو في الهند، حيث رافق الاستقلال موكبٌ من الفظائع والجرائم الوحشيّة مريعٌ، مقيتٌ، كلّ ذلك جعلها تنأى بنفسها عن كلّ ما يتّسم بطابعٍ سياسيٍّ، وتُقصي أخواتها عنه.

ومن ثمَّ حرصت على ألاّ يَسِم عملَها سوى صبغة الإنسانيّة والحبّ الإنجيليّ، وألاّ يُخالطه أيُّ لونٍ سياسيٍّ. غير أنّ هذا المنحى الذي نحتْه في الهند، فأفلحت فيه، لم يلقَ ترحيبًا، بادئ الأمر، في أميركا اللاتينيّة، حيثُ لا مفرّ من أن يكون المرءُ مع الحكم أو ثائرًا عليه.

ذلك الوضع الخاصّ بأميركا اللاتينيّة قد أوقع الأمَّ تيريزا، أحيانًا، في مآزق حرجةٍ؛ فبعد أن ترسَّخت أقدام جمعيّتها، واستمالت قلوبَ الفقراء بما باتتْ توفّره لهم من خدماتٍ، وبعد أن طبّقت شهرتها الآفاق، تهافت زعماء دول أميركا اللاتينيّة على التماس الالتقاء بها، جاهدين في الظّهور إلى جانبها، معلنين إعجابهم بإنجازاتها، علّهم يُصيبون بذلك قسطًا من الاحترام، و"يُبيِّضون" صورة ديكتاتوريّتهم البغيضة، ما حمل كهنةً منخرطين في النضال الاجتماعيّ على رشق الأُمّ بنقدٍ عنيفٍ مريرٍ، لأنّهم رأوا في مسايرتها للحكّام سذاجةً تؤدّي إلى دعم مواقف الديكتاتوريّين.

ومع ذلك، بعد مضيّ عشر سنواتٍ على تأسيس أوّل فرعٍ للمرسلات في ڤينيزويلا، غدا أساقفةٌ عديدون في كولومبيا وبوليڤيا والبرازيل، وسواها من الدول الأميركيّة اللاتينيّة، يلتمسون افتتاح رسالاتٍ في أبرشيّاتهم، تقديرًا منهم للتأثير الروحيّ البليغ الذي يُحدثه في أوساط الفقراء، عملُ مرسلات المحبّة، اللواتي انضمَّت إليهنّ طائفةٌ من فتيات البلاد يعاضدنهنّ؛ ومع ما جوبهنَ به من نقدٍ، لم يحدْنَ عن نهجهنّ في إيثار العلاقة الشخصيَّة المباشرة، المُحِبّة، المتفهّمة، لكلِّ فردٍ، وللجماهير المهانة، البائسة، المهملة روحيًّا؛ فقد نأين بأنفسهنّ عن النظريّات السياسيّة، ومضينَ في إثر المسيح، وعلى غراره، نحو الفقراء مشرعاتِ القلوب والأيدي، مُتحدِّثاتٍ إليهم باللسان الذي يجيدون إدراكه، معيداتٍ الشعور بالكرامة واحترام الذات لمن فقدوه، وللَّذين نسوا أنّ لهم في عين الربّ قيمةً كبرى، وفي قلب المصلوب مكانةً أثيرةً، مشيعاتٍ عدوى حبّهنّ في نفوس من يخدمنَهم، مستفزّاتٍ من صفوفهم أعوانًا ومساعدين.

نموٌّ ووفاء

بعد أميركا اللاتينيّة، يمَّمتْ مرسلات المحبّة شطْرَ أفريقيا، وقد استُحدث أوّل فرعٍ لهنّ هناك في مدينة "تابورا" بتنزانيا، تمَّ افتتاحه في أيلول ١٩٦٨؛ وعلى نحو ما ألفنَ العمل في الهند انصبّ اهتمامهنّ على رعاية الأشدّ بؤسًا، وعلى تعليمهم، فأنشأن لهم مدارس، ومراكز عنايةٍ بالبُرْص، وبالمتخلّفين عقليًّا.

فريقهنّ الأوّل في "تابورا" كان يتألّف من خمس أخواتٍ يقطنَّ في بيتٍ وضيعٍ من الطين والقشّ، ولا يفقهن لفظةً واحدةً من اللغة المحلّيّة "الكيسواهاي"، فتذرَّعنَ بالإيماآت والبسمات وسيلة تفاهمٍ، ولكن بمؤازرة الأسقف المحلّي، سُرعانَ ما أصبحنَ "أخواتنا"، فلُغَةُ المحبّة عالميّةٌ. وغدا كثيرون من الأهالي يقولون في دهشةٍ: "لقد جئنَ من الهند لكي يُعطيننا، لا لكي يأخذنَ شيئًا". وما لبث أن ارتقى عددهنّ إلى سبعٍ، منهنَّ طبيبةٌ نهضت بمهمّةٍ جزيلة الجدوى، إذا كان المرضى يفتقرون إلى من يُعنى بهم.

ثمّ انطلقنَ إلى كينيا فإيثيوپيا فراوندا، ثمَّ استدعت مصر وفلسطين والأردن ولبنان حضورهنّ، وسُرعان ما انتشرنَ في كلّ أرجاء القارّة الأفريقيّة، والشرق الأوسط.

هذا الانتشار واكبه تزايدٌ مطَّردٌ في عدد المرسلات، إِذ كانت طلبات الانتساب إِلى جمعيّتهنّ تتدفّق بلا انقطاعٍ؛ وإِلى جانب المرشَّحات الهنديّات تقدّمت عشرات المرشَّحات من أَميركا وأوستراليا وأوروپا وأَفريقيا، واليابان، مع أَنّه لم يكن للمرسلات حضورٌ في اليابان، وقد أَقرّت الأُمُّ تيريزا، في هذا السياق:

« **نموُّنا أمرٌ جميلٌ، ينمُّ عن نجاحٍ. غير أَنّ التكاثر العدديَّ ينبغي أَن يرافقه، نوعيًّا، نموٌّ في حياتنا الروحيّة** ». ومن ثمّ لم تنِ تردّد على مسامع المرسلات أَنّ واجبهن هو:

« الحبّ أُسوةً بحبّ يسوع
والمساعدة أسوةً بمساعدته
والعطاء أُسوةً بعطائه
والخدمة أُسوةً بخدمته
والإِنقاذ أُسوةً بإِنقاذه
والمكوث معه كلَّ ساعات النهار
ولمسه تحت ثياب البؤس ».

وقد كتبت لهنّ يومًا، وهي على سفرٍ: "**فوق المحيط، في طائرة الخطوط الهنديّة: مرَّةً أُخرى أَجتاز المحيط كي أُمهّد لكنّ السبيل للبحث عن فقراء الله. نحن لا نبدّل رسالتنا كما يبدّل الإِنسان قميصه. إِنّ الأُمور، اليوم، تتخلخل أكثر فأَكثر، ويجهد القوم في بتر القيود الأَكثر قداسةً. فهل ندعهم يقودوننا، أَو هل نتشبَّث بالمسيح الصخرة؟**"

بهذا العزم على الوفاء مضت أَخوات الأُمّ تيريزا في بثّ رسالة الحبّ في رحاب العالم. وجديرٌ بالتنويه أَنّ الحكومة الهنديّة، بعد إِذ تكاثر عدد مراكز المرسلات في الهند، وكي تتيح للأمِّ زيارتها باطّراد، منحتها بطاقةً مجّانيّةً مفتوحةً على جميع خطوطها الحديديّة؛ وكانت كلّ زيارةٍ لها إِلى أَحد المراكز عيدًا للأخوات فيه، وتشديدًا لعزائمهنّ. وقد صرّحت الأُمّ في هذا السياق: "**طالما منَّ عليَّ الربّ بدعواتٍ، ففي ذلك الدليلُ على رغبته في أَن ننتشر، وحيثما وُجد فقراء مضينا لخدمتهم... لقد كانت هذه السنة مدهشةً بازدهارها، وننتظر المزيد من القادمات**".

في رحاب المدينة الخالدة

في آذار ١٩٦٨ أنفذ البابا بولس السادس إِلى الأُمّ تيريزا دعوةً إِلى افتتاح مركزٍ لها في روما، وقد طوى رسالته على بطاقتَيْ سفرٍ بالطائرة، ذهابًا وإِيابًا، وعلى شيكٍ بمبلغ عشرة آلاف دولارٍ. وقد استطارت تلك الدعوة الأمَّ تيريزا جَذَلاً، فأيُّ شرفٍ لها العمل في قلب المسيحيّة، وفي ظلّ نائب المسيح؛ وكم سرَّتها الاستجابة لمن كرّمها هي وأَخواتها، على الملأ، لدى زيارته لبومباي.

ويبدو أَنَّ روما التي تعلن قداسة بعض الأَشخاص، بعد تمحيصٍ مستفيضٍ، تستشمُّ قداسة بعضهم، وهم، بعدُ، أَحياء.

اصطحبت الأُمُّ الأُختَ فريديريك، وطارت إِلى روما في ٢٢ آب ١٩٦٨، وعندما قابلت الحبرَ الأَعظم أكّدْت له: "**إِن كان، ثمّة، فقراء، فسيسرّني أَن أَفتتح مركزًا في روما**". ولكأَنَّها كانت ترتاب في وجود فقراء في مدينةٍ تضجّ بالبذخ مثل روما، وهي تربأ بنفسها وبأَخواتها عن الاستقرار في مدنٍ تنساب فيها الحياة رخيّةً، في حين يسود الفقر أَماكن أُخرى كثيرةً.

ولم تزر الأُمُّ من روما متاحفها وآثارَها المعماريّة والفنِّيَّة المدهشة التي تجعل من كلّ زاويةٍ فيها مُتعةً للعَين والنفس، بل مضت إِلى الضواحي التي لا يؤُمُّها السائحون، وجاست خلال أَحيائها البائسة، فوقعت على نماذج من الفقر يصعب تخيُّلُها في مدينةٍ تبدو على قسطٍ من الغنى فاحشٍ. وعندما عادت إِلى الحبر الأَعظم اعترفت بمرارةٍ: "**يبدو أَنَّ الربّ قد وفّر لنا عملاً في كلّ مكانٍ**"؛ ولقد أَثبتت لها جولاتها أَنّ بطن العواصم الكبرى الضخم يلتهم الطاقات والأَفراد، ويلفظ بلا رحمةٍ غير المؤَهّلين أَو الذين استُنْزِفتْ قواهم.

وفي كلكتّا صارحت أَخواتها: "**في ضواحي روما بؤسٌ جمٌّ، وقومٌ كثيرون محرومون من الأَسرار، وأَطفال كُثُرٌ لا يتعلَّمون الصلاة، ودعاوة مقاومة لله... وتأشيراتٌ سلبيّةٌ. ولكنّنا سنكون إِلى جانب الأَب الأَقدس، وسنعمل في ظلِّ القدِّيس بطرس**".

وأَمَّ فريقُ المرسلات المدينةَ الخالدة وهنّ يطفرنَ فرحًا، واتَّخذنَ لأَنفسهنّ مقرًّا وسط الفقراء، في إِحدى ضواحي روما حيث انبسط مُجمّعٌ من الأَكواخ يقطنها المشرَّدون

والمدمنون، ومن لا تتيح لهم مواردهم الهزيلة السكن في المدينة، وغالبًا ما يزدهر، في مثل تلك المجمّعات، الجنوح، وتتفاقم المشاكل. في ذلك الوسط الموبوء ابتنت الأَخواتُ كوخًا حوّلنَه ديرًا، كوخًا تميَّز، في مظهره، بما زَيَّنَّه به من نباتات، وعرائش العنب، بحيث هتفت الأُمّ تيريزا بإعجابٍ: "**لقد أَصبحت أَخواتنا بنّاءات من الطراز الأَوّل**"؛ وتميَّز ذلك الكوخ، في باطنه، بانقلابه خليَّة نشاطٍ، وموئل عطفٍ وغوثٍ. وبادئَ الأَمر، لم يَرُقْ للسُّلطات انضمام القادمات الجديدات إِلى من يُعَدّون هامشيّين، ولكنَّها لم تُعارض آملةً في أَن يسهم وجود المرسلات في إِضفاء بعض النظام وسط الفوضى المستحكمة بِالضاحِيَة.

وما لبثنَ أَن افتتحنَ دار حضانة لنحو ستّين طفلاً كي تمكِّنّ أُمَّهاتهم من العمل وكسب الرزق، وعكفْنَ على مساعدة المرضى والعاجزين، وتدريس الأَولاد، وتلقينهم الصلوات، وَإِعْدَادهمْ للأسرار، ورعاية المسنّين. وسُرعانَ ما باتت "الراهبات الهنديّات" – مع أَنّ فريقهنّ كان يضمُّ أوروپـيَّاتٍ أَيضًا – موضع حديث الناس وترحيبهم، وَأَمْسَيْنَ يتلقَّيْن، كلَّ يوم، نَصيبهنَّ من الدجاج واللحوم وشتّى الأَطعمة التي تأباها المطاعم والفنادق، ويرفضها المستهلكون المُترَفون، فيُصلحون، من كلِّ ذلك، أَطعمةً شهيّة للمعوزين والجياع.

وقد أَحدثنَ تحوُّلاتٍ جوهريّةً في مصائر الكثيرين، نظير ذلك الشيخ الطاعن في السنّ، وقد تخطّى الثالثة والتسعين، الذي لم يكن يُخفي مقته للدّين وممثِّليه. ولمّا استجلى دافعهنّ إِلى الخدمة الفَرِحة المجَّانيَّة تلك، أَتيْنَ على ذكر يسوع وتعاليمه؛ وبعد يومين استدعاهنّ قائلاً: "لقد جئْتُنَّ بالله إِلى منزلي، فأتيتنَني، أَيضًا، بكاهن". وقد اعترف وتناول، بعد ستّين سنةٍ من مقاطعة الأَسرار، ولم يلبث أَن لقي وجه ربّه آمنًا مطمئنًّا.

وفي تلك الفترة، كان الأب "لوش جرجي"، مُواطن الأُمّ تيريزا، وأَحد كاتبي سيرتها، طالبًا إِكليريكيًّا في روما، ورغب في زيارة مرسلات المحبَّة، وفي الأَسطر التالية بعض انطباعاته:

« مضيتُ برفقة بعض إِخواني لزيارة المرسلات، وكان من العسير علينا العثور على بيتهنّ في شوارع الضاحية البائسة الموحشة، إِذ لم يكن شيءٌ يُميِّزها عن الأَكواخ المجاورة المصنوعة جميعها من أَلواح الخشب. وعبثًا استوضحنا بعض المارَّة. وبعد أَن جسنا هنا وهناك بلا جدوى، قرَّرنا أَن نتوجَّه بالسؤال إِلى

إِحدى الكنائس حيثُ التقينا كاهنًا، أُستاذًا في معهد، فاستوضحناه أين يمكن العثـــور على الأمِّ تيريزا وأَخواتها، فأَطرق لحظةً، ثمّ أَجاب بلهجةٍ حافلـــةٍ بـــالتهكُّم: "...إِن كنتم تبحثون عن أُولَئِكَ الأَخوات الهنديّات، اللواتي يتعقّبنَ آثار الغجر، فإِنّهنّ يعشنَ بين ظهرانيهم، ويغمرنَ الكنيسة بالخزي...».

ذلك كان جواب ممثِّل إِكليروسٍ مزدهٍ بأَلقابه، مطمئنٍّ إِلى رفاهه وامتيازاته، غير عابئٍ بيسوع الذي تمثّل بالفقراء؛ ويُتابع الأَب جرجي روايته فيقول:

« لقد أَذهلتنا تلك الإِجابة؛ ولكن بفضل ما انطوت عليه من معلوماتٍ، اهتـــدينا، أَخيرًا، إِلى بيت "الأَخوات الهنديّات"، كما كان القوم يدعونهنّ. بيتٍ مغرقٍ في الصغَر والفقر، مثل سائر البيوت المجاورة. ولحسن طالعنا، التقينا فيـــه الأُمَّ تيريـــزا التـــي استقبلتنا برقّةٍ وحرارةٍ. وتحدّثنا عن عملها في الهند، وعن الفقراء والبرص، وأَيضًا عن رعيّتنا في "سكوپـــيي" و"پـــريزن". وقد ذهلتُ للاهتمام والبساطة اللذين كانـــت تُصغي بهما لي. ويا لها من امرأةٍ عميقةِ الفكر! هزيلةٌ، ومعروقة اليَـــديْن، ولكنّهـــا متدفِّقةٌ حماسًا، وكبيرةٌ في قناعاتها وطاقات حبّها. إِلى جانبها، خُيِّل إِلينا أَنّنا خـــارج المدى والزمن، واستشعرنا الاطمئنان والثقة، والسعادة، كما لو كنّا إِلى جانب أُمّنـــا. كان فرحنا من الشدَّة بحيثُ نكاد لا نصدِّقه". كيف لا، والربّ يقطن فيها!

ويمضي الأَب جرجي في سرد روايته، فيُضيف:

« ثمّ انطلقنا لزيارة الجوار، وأَيّ شيءٍ نزور؟ بؤسٌ جمٌّ. كم من مرّةٍ مررنـــا بتلك الضواحي، من غير أَن نرتاب بوجود مثل ذلك البؤس، هنا، على مقربةٍ مـــن طريق "الكاستيلّي" (القصور) يبدو أَنّ هذا الطريق يفصل بين عالَميْن، فمن ناحيـــة، المدينة الأَنيقة الحديثة، بقصورها الرائعة، وشققها الفاخرة، ومن ناحيـــةٍ أُخـــرى الأَكواخ الخشبيّة، وما هو أَسوأ منها. بعض الأُسَر كانت قد أَلحقت الـــضررَ بقنـــاة روما العتيقة، واتَّخذت لها، فيها، مساكن لا أَبواب لها ولا نوافذ، ولا كهربـــاء ولا تدفئة، بل بؤسٌ ونكَدُ طالعٍ! لم نكن لنتخيّل أَنّ روما تنطوي على شيءٍ مـــن هـــذا القبيل، وهي المدينة العالميّة الجليلة الشأْن ».

ولئن لم يفطنْ الأب جرجي ومعظم الآخرين إِلى ذلك البؤس ولم يستشفّوه إِلاّ أَنَّ الأُمَّ تيريزا، بما يعتلج في حناياها من عطفٍ، كانت تستشمّ البؤس في مكامنه وتهرع إِليه.

ويختتم الأَب جرجي سرده فيقول.

« منذ ذلك اليوم غدت الأُمُّ تيريزا جزءًا أَساسيًّا من حياتنا، وأَمسى مركزها في روما، بفقرائه، وأُسَرِه، وأَولاده، واحة حياتنا الروحيّة، ودعوتنا الكهنوتيّة، وحتّى اليوم، يتعذَّر علينا نسيانه. وكنت، آنذاك، قد دوَّنت انطباعاتي عن ذلك اللقاء مع الأُمّ تيريزا، وها هي ذي:

"لستُ أَقوى على إِدراك بساطة الأُمّ تيريزا، وحبّها، وبذل ذاتها للفقراء، مثلما لا أَقوى على إِدراك سلام القلب، والاهتمام، والحبّ التي أَظهرتْها لنا. إِنّها أُختٌ منقطعة النظير، وكذلك هي حياتها وحياة أَخواتها... ما أَبعدنا نحن عن الإِنجيل، في حين هي تمارسه في حياتها اليوميّة، وسط القوم...". »

ولكي توفِّر الأُمُّ لمرسلات المحبَّة حضورًا كثيفًا، وحياةً روحيّةً غنيّةً في روما نقلت إِليها مركز الابتداء الذي كانت قد أَنشأته في لندن.

ثمَّ افتتحت مركزًا آخر في قلب العاصمة، على مقربةٍ من محطَّة "ترميني" الرئيسيّة لاستقبال مُدمني الكحول والمخدّرات الراغبين في الانعتاق من محنتهم، وللمشرّدين الذين لا مأوى لهم، وللباحثين عن آذان تصغي لهمومهم وروايات يأسهم. وإِلى ذلك المركز غالبًا ما يتوافد، ليلاً، طلاّبٌ وأَعضاء منظّماتٍ كاثوليكيّة لمدّ يد العون للأَخوات اللواتي أَنهكهنّ يوم عملٍ مضنٍ. ولنستمع إِلى الأُمّ تيريزا تروي قصَّة إِنشاء ذلك المركز: **"في روما لدينا أَشخاصٌ كثيرون وأَخواتٌ يطوفون الشوارع بين الساعة العاشرة ليلاً والثانية فجرًا، ولا سيّما في منطقة المحطّة، ويأتون بالمشرَّدين الذين لا مأوى لهم، إِلى مركزنا في "سان غريغوريا الشيليو". وأَثناء آخر زيارة لي إِلى روما، بدا لي وضع كلّ أُولئك الخَلْق الذين يعيشون على هذا النحو لا يُطاق. فتوجّهتُ إِلى عمدة المدينة وقلت له: "أَعطوني مكانًا لهؤُلاء الأَشخاص الذين يرفضون المُضيّ إِلى مراكزنا ويؤثرون البقاء حيثُ هم". وكان العمدة الذي حدَّثتُه شيوعيًّا، إِلاّ أَنّه وفريقه قد تصرَّفوا تصرُّفًا رائعًا. ولم يطُلْ بهم الأَمر حتّى منحونا مكانًا إِلى جانب محطّة "ترميني". والآن بات جميع الذين لا مكانَ لهم يرقدون فيه سوى الشارع، يهرعون إِلى ذلك المركز، حيث نوفِّر لهم سريرًا، وفي الصباح يُغادرون".**

وفي أَعقاب فوز الأُمّ بجائزة نوبل للسَّلام، استقبلها البابا يوحنّا بولس الثاني ودعاها إِلى افتتاح مركزٍ لاستقبال الفتيات الأمّهات اللواتي تتفاقم باطِّراد أَعدادهنَّ، والمشكلات التي يصطدمنَ بها.

وأَخيرًا توفّقت الأُمُّ بتحقيق حلمٍ غالٍ طالما راودها بإِيجاد ملجأ للمنبوذين في قلب الـڤاتيكان، رغم وجود الراهبات الفرنسيسكانيّات، وراهبات القدّيس منصور دي پول؛ ولكم تخيَّلتْ: "لو كان، ثمّة، على الأقلّ اثنا عشر فقيرًا من أَفقر الفقراء، بحيث عندما يحين يوم الخميس المقدّس، يستطيع الأَب الأَقدس غسل أَرجل فقرائه هو. أَلن يكون ذلك رائعًا؟" وقد قاوم إِداريّو الـڤاتيكان مشروعها الخياليّ هذا، فحاضرة الـڤاتيكان ضيّقة الرقعة، ومزدحمةٌ، ولا تتّسع لمزيد. ولكنّ الأُمّ وجدت الحليف الذي لا يُقهر في شخص البابا يوحنّا بولس الثاني الذي أَوصى بإِعداد المركز وفقًا لرغبتها، مُزريًا باعتراضات معاونيه، لا بل أَعرب عن حرصه على تسليمها إِيّاه جاهزًا بمناسبة زيارتها الرابعة إلى معقل الكاثوليكيّة. وهكذا كان، فما كادت تستهلُّ تلك الزيارةَ بالتماس البركة، وقبل أن تفتح شفتَيْها بالسؤال، سلّمها مفاتيح المقرّ الموعود، كامل التجهيز. ومذّاك، بات بمكنة "قومها" الفقراء الولوجُ إِلى الـڤاتيكان بلا استئذانٍ، فيحتلّ كلٌّ منهم مقعدًا في إِحدى القاعتَيْن الفسيحتَيْن اللتين يتّسع كلٌّ منهما لستّين شخصًا، إِلى جانب ردهات نومٍ للمُسنّين العاجزين. وكلَّ يومٍ، منذ الساعة السادسة عشرة يشرع طابور بِالتشَكُّل والتمادي، وبعد ساعتين تُفتَح الأَبواب، ويُبدأ بتقديم الطعام بالتوالي لأوّل القادمين، ثمّ للذين يقدمون، من بعدُ، ولا يعود أَحدٌ جائعًا. وقد استوضحت الأُخت المشرفة على الإِطعام من أَين تأتي بالأَطعمة، فأَجابت: "نحن لسنا مضطرّين إِلى ابتياع شيءٍ منها. بادئ الأَمر كنّا نستعطي الخضار واللحوم والفواكه من الأَسواق، أَمّا الآن، فهي تُقدَّم لنا مجّانًا".

وانطلقت المرسلات إِلى مدنٍ إِيطاليّةٍ أُخرى فافتتحنَ عام ١٩٧٣ مركزًا في كلٍّ من أوستيا، وپاليرمو، ثمَّ مركزًا في ناپولي عام ١٩٧٥، ثمَّ في راغوزا بسيسيليا، وفي ريجيو دي كالابريا عام ١٩٧٩.

وفي پاليرمو يحتضن حيُّ المدينة الفقير الذي يحتلُّ مكان القلب من المدينة القديمة دير المرسلات الناهض وسط أَكوَام أَطلال البيوت المُدمَّرة، حيثُ تدأَب ستُّ أَخواتٍ

على رعاية أَربعين من المُهمَلين المحرومين من العناية والحبّ، وقد صرّح أَحدهم:

« حيٌّ الفقراء العتيق، هذا، لم يعد فقيرًا، فقد أَصبح لنا فردوسًا أَرضـيًّا. فحتّـى لـو هجرني أَبنائي منصرفين إلى مهَنهم – وأَحدهم طبيبٌ – فلا الربّ ولا الأَخوات أَهملوني ».

وخليقٌ بالتنويه أَنَّ الأُمّ تيريزا هي التي اختارت، فـي هـذا الحـيّ، مركـزًا لرسالتها، بعد أَن جابت أَرجاء المدينة متحرِّيةً، وأَعلنت للكاردينال پـاپـا لاردو: "هذا هو الحيُّ الذي يناسبنا" ».

وأَمام مناظر البؤس السحيق السائد في ذلك الحيّ يتساءل المرءُ هل من إمكـانٍ لفعل أَيّ شيءٍ. وعلى ذلك ردّت إِحدى الأَخوات:

« في البدء كان الأَمر عسيرًا. فهنا يعيش القوم في عزلةٍ عميقةٍ، ولا يجدون أَيَّ مبرِّرٍ للعيش أو للعمل أو للألم، ويكوّنون عن الله فكرةً منكرةً. ولكنّنـا، بـشهادتنا، وبحبّنا، قد هززنا خمولهم، ومكَّنّاهم من إِعادة اكتشاف بعض القِيمِ الإِنسانيّة. والآن، هم ونحن وجدنا أَنّه بالإِمكان تغيير أمورٍ كثيرةٍ؛ وقد بات التطوُّر جَلِيًّا، وأَمسى أَولاد الحيّ يتميَّزون تميُّزًا واضحًا عن سواهم. وما زال يتعيّن عمل الكثير لهم، وللشُّبان، وللأُسَر، في إِطار الأَبرشيّة. وقد شرعت الأمور تتحرَّك أَيْـضًا بموجـب برامجنـا الطويلة الأَمد، فلنأمل ».

في أوستراليا

عام ١٩٦٩ حطَّ الرحالَ في كلكتّا "جون مـاكجي"، وهـو ثـريٌّ أوسـتراليٌّ، وصاحب نفوذٍ لدى سُلطات بلاده. واتّجه مباشرةً إِلى مركز مرسلات المحبّة الرئيسيّ يرافقه مرشدهنّ الروحيّ الأَب "ليجولي"، واستلَّ من محفظته كدسـةَ أَوراقٍ نقديَّـةٍ ضخمةٍ قدَّمها للأُمّ تيريزا قائلاً: "هذه، أُمّاه، من أَجل البداية"، وعَرض إِمْكَان افتتـاح رسالةٍ في بلده لمساعدة سكّان البلاد الأَصليّين، الذين يُمثِّلون أَقلِّيَّـةً إِثنيّـةً تتعـرّض لمظالم فادحةٍ، وما برحت تعيش عيشةً بدائيّةً، في حرمانٍ مريعٍ؛ وفضلاً عن المـال عرض المساعدة على استقرار الأَخوات هناك.

وقد أَيّد تلك الدعوة وشجّعها أُسقف "بروكين هيل"، الذي أَهاب بالأُمّ تيريـزا أَن تفتتح مركزًا لمرسلاتها في رعيّته.

وفي شهر أَيلول من تلك السنة، رغم إِصابتها بكسرٍ مؤلمٍ في كتفها، اصطحبت الأُمّ خمسًا من أَخواتها إِلى مدينة "بورك"، فوجدنَ البيتَ الذي أُجِّر لهنَّ على وضعٍ من القذارة مريعٍ، فعكفنَ في الحال على تنظيفه، وإِذ لم يكن، في البيت، سوى خمسة أسرّةٍ، كانت إِحدى الأَخوات تضطرّ إِلى الرقاد تحت منضدةٍ. وبُغيةَ تخفيف شيءٍ من آلام كتف أُمِّهنَّ المكسور، عكفت أَخواتها على وضع كدسةٍ من الأَغطية، كلَّ مساءٍ، إِلى جانبها، كي تسند ذراعها؛ ولكنَّهنّ، لدى استيقاظهنّ، كنّ يجدنَ كلاًّ منهنّ مغطّاةً بأَحد تلك الأغطية، لوقايتهن من برْد الليل.

وتركّزت مهمّة المرسلات الأَساسيّة في "بورك" على خدمة سكّان البلاد الأَصليّين المنبوذين، وقد اختارت الأمُّ لتلك المهمّة أَخواتٍ هنديّاتٍ كنّ، مثلهم، منبوذاتٍ، لكونهنّ من الطبقات الاجتماعيّة الدنيا، ومثلهم كنّ داكنات اللون. وقد حوَّلنَ جزءًا من ديرهنّ هناك لتدريب النسوة على الخياطة والطهو؛ وابْتعنَ حافلةً صغيرةً لنقل الأَولاد إِلى المدارس، التي، لولا ذلك، لكانوا قاطعوها.

وقد أَفلحت المرسلات في هدم الحواجز بين الأُوستراليّين البيض، والسكّان الأَصليّين، وفي توثيق علاقاتٍ طيّبةٍ بينهم جميعًا. وإِذ كانت، ثمّة، جماعاتٌ رهبانيّةٌ وسواها، عاكفةٌ على العمل في حقل مساعدة الفقراء، فقد احتفظت المرسلات لأَنفسهن بالمُهمّات الصغيرة التي لا يتّسع وقت الآخرين لها.

وقد أَدّى نجاحهنّ في "بورك" إِلى استدعائهنّ إِلى طرفٍ آخر من البلاد للاضطلاع بنشاطٍ مماثلٍ، كما كُلّفنَ بإِعادة تأهيل مُدمني الكحول في الضواحي. ويومَ تطوَّعت جماعاتٌ أُخرى للتَّصدّي لمثل هذا العمل، تخلّين لهم عنه، عملاً بنظام جمعيَّتهن الذي ينصّ على تخلّيهنَّ عن أَيّة مهمّةٍ تنبري للنهوض بها جماعةٌ أَوفر خبرةً واستعدادًا لمواصلة العمل.

ثمّ دعا الأُمَّ تيريزا الكردينال كنوكس، الذي عُيّن حديثًا رئيس أَساقفةٍ على ميلبورن، إِلى افتتاح مركزٍ في أَبرشيّته؛ وسبق للكردينال كنوكس أَن كان قاصدًا رسوليًّا في دلهي، وراقب عن كَثَبٍ عمل مرسلات المحبّة، ونموّهنّ، ورعاه، وكان للمرسلات خير صديقٍ ومحامٍ لدى الـﭬـاتيكان. لم يَرُقْ الأَمر لبعض مرشدي الجمعيّة وأَعضائها، فميلبورن مدينةٌ غنيّةٌ، لا فقراء فيها، ولا من ينفق جوعًا على

قارعات طرقها. ولكنّ الأُمَّ تيريزا انتفضت على ذلك الاعتراض قائلةً: "وكيف لن يكون لنا عملٌ هناك؟ وماذا عن المحكومين عندما ينهون مدّة سجنهم؟ وماذا عن زوجاتهم اللواتي لا مورد لَهُنَّ، في الغالب! وماذا عن أَولادهم! وماذا عن مدمني المخدّرات والكحول؟ أَلا يوجد منهم هناك مثلما يوجد في كلّ مكانٍ؟ أَليسوا جميعهم أَبناء الله، ويفتقرون إِلى العون والعزاء؟...".

وفي ٢٦ نيسان ١٩٧٠، غادرت الأُمُّ وخمسٌ من أَخواتها إِلى ميلبورن، وبمؤازرة رئيسة راهبات لوريتو هناك، عثرنَ على بيتٍ في الحال، وأَسهم عدد من المتعاونين والطلاَّب في تنظيف المكان، حيثُ استقررْنَ وباشرْنَ رسالتهنّ من غير تلكّؤٍ. وميلبورن ثاني كبريات المدن الأُوستراليّة، ومركزٌ اقتصاديٌّ مزدهرٌ في جنوبيّ البلاد، وسكّانها، آنذاك، مليونان ونصف المليون من الخلق.

وسحابةَ أَيَّامٍ عديدةٍ، طافت الأَخوات بشوارع المدينة العملاقة، ومحطّاتها، وضواحيها، بحثًا عن فقراء ومعوزين. ولكنَّهنّ لم يعثرنَ لا على متسوّلين، ولا على جانحين، ولا على أَحياء زريّةٍ، ولكأنّ المدينة فردوس نظافةٍ، وأَمنٍ، وهدوءٍ، وبحبوحةٍ. وكدْنَ يعدلْنَ عن الإقامة في تلك المدينة، والإِياب إِلى كلكتّا، لو لم تُهِبْ بهنَّ الأُمُّ أَن يحاولْنَ قرع الأَبواب، واستجلاء ما تتستّر عليه البيوت الموصدة، خلف الواجهات المذهّبة. ورغم زيّهنّ الغريب الذي كان يُثير التساؤل، فُتحتْ أَمامهنّ أَبوابٌ وقلوبٌ، فإِذا بهنّ، فجأَةً، في عالَمٍ من الوحدة مُؤْسٍ. وتروي الأُمُّ تيريزا، في هذا السياق: « **زرتُ، في ميلبورن، رجلاً مسنًّا، لم يكن أَحدٌ يعلم أَنّه ما زال حيًّا؛ وتبيَّنتُ ما يغمر غرفته من قذارةٍ وفوضى مقزِّزتَيْن، فبادرتُ إِلى تنظيفها، وترتيبها، ولكنَّه اعترض قائلاً: "دعي عنك، فقد أَلِفْتُ هذه الحال".. ولكنّني لم أَحفل باعتراضه، وأَخيرًا استسلم، وكان في الغرفة مصباحٌ جميلٌ يكسوه الغبار، فسأَلته: "لم لا تضيئه؟" فأَجابني: "لمن، ولا أَحد يزورني؟" وسأَلته: "وهل ستضيئه إِن زارتك الأَخوات باطّرادٍ؟" فأَجاب: "إِن أَنا سمعت صوت إِنسانٍ أَضأته". وبعد فترةٍ، وكنت قد عدتُ إِلى الهند، أَنفذ إِليّ هذه الرسالة: "بلّغوا صديقتي بأَنّ المصباح الذي أَعادته إِلى حياتي مازال مُضاءً"** ».

وفضلاً عن ذلك، لمست المرسلات لدى القوم فقرًا روحيًّا ذريعًا، فعكفْنَ على

إِعدادهم لتقبُّل الأَسرار، وتهيئة الأُسَر لتكريس ذواتها لقلب يسوع. وقدَّم لهنّ الكهنة، في هذا المضمار، العون، وسُرعانَ ما غدا القومُ يُطلعونهنَّ على حالاتٍ تستدعي تدخُّلهنّ.

وعام ١٩٧٢ شرعنَ ببناء ديرٍ لهنّ، ومركزٍ لإعادة تأهيل مدمني الكحول والمخدّرات، وأَصبح ذلك مشروعهنّ الكبير. وقد بارك تدشين ذلك المبنى الكردينال كنوكس في شباط ١٩٧٣، وبتلك المناسبة زوَّدتهنَّ الأُمُّ تيريزا بشعارٍ تمنّت أَن يكون لهنّ دليل حياةٍ، إِذ قالت لهنّ ما كرّرته في مناسباتٍ عديدة: "**لستُ أُريد أَن تحقِّقْنَ المعجزات من غير عطفٍ، بل أوثر أَن ترتكبنَ أَخطاءً، وأَنتنّ تقمنَ بأَعمال العطف**".

ولقد خَبَرت المرسلات، من خلال علاقتهن بالسكارى، أَحداثًا مدهشةً. فذات يومٍ استبدّت رغبة الشراب بسكّيرٍ عجوز كان قد أَقسم على الإِقلاع عن المسكرات، فتوسّل إِحدى الأَخوات قائلاً: "أُختاه، رافقيني إِلى البار، وانتظريني خارجًا، ريثما أَحتسي كأسًا، وأَعدك بأَنّني لن أَتجاوز الكأس الواحدة". وقد علّقت الأخت: "إِنّ إِنقاذ إِنسانٍ ما، يقتضي صبرًا جميلاً".

وذات يومٍ تعارك سكّيران، فجرحَ أَحدُهما الآخر جُرْحًا بليغًا، وقَدِم رجال الأمن لاستجواب الضحيّة، فرفض الإِدلاء باسم رفيقه المعتدي. ولمّا سُئل، لاحقًا، عن سبب صمته أَجاب: "هل مِن شأن عقابه تخفيف آلامي؟" إِنّه لدرسٌ رائعٌ في المحبّة، والصفح، والحكمة، والإِدراك بأَنّ البُغْض والضغينة والثارات الحقيرة تفسد النفس، وتصيبها بالتعفُّن. ومن ذا الذي تميَّز بذلك الموقف النبيل؟ في نظر الآخرين إِنّه لا أَحد، لا شيء، وفي نظر كبار هذا العالَم، إن هو إِلاّ نفايةٌ. وما أَندرَ عدد المغمورين بالأَمجاد، الجاثمين على قمّة النجاح والثروة الجديرين بمعالجة قروح ذلك "العدم" ذي القلب الكبير!

سكّيرٌ آخر شهيرٌ هوجم، يومًا، فهوى فاقد الوعي، وجيء به إِلى "بيت العطف" حيث عالجته الأَخوات، وضمّدنَ جروحه برقّةٍ جعلته يهتف: "إِنّ الربّ يحبّني". ولمّا غادر المركز، آب إِلى أسرته وعمله، ولم يرتشفْ، من بعدُ، قطرة كحولٍ. وقد وافى المرسلات بالراتب الأَوّل الذي قبضه إِثر ذلك الحادث قائلاً: "**أَرجوكنَّ أَن تكنَّ للآخرين حبّ الله، مثلما كنتنَّ لي**".

ومذ أُحيط المدمنون علمًا بوجود مركز المرسلات، الذي دُعيَ بيت العطف،

باتوا يقرعون بابه في كلّ ساعةٍ من النهار والليل، غيرَ مُدركين أَنّ ثمّة ساعاتٍ تحتاج فيها الراهبات إلى الراحة والخلوة.

وفي ميلبورن عُقِد مؤتمرٌ قربانيٌّ، تعاقب على الخطابة فيه ثلاثة خطباءٍ، كانت الأُمُّ أَحدهم، فعالجت موضوعها الأَثير: خدمة المسيح في شخص الفقراء، واكتشاف الربّ المتألّم في إِخوته. وكان لأَقوالها وقناعاتها وقعٌ بليغٌ في قلوب المستمعين وأَذهانهم.

في الأُردنّ وفلسطين

في ربيع عام ١٩٧٠ أَعلنت الأُمُّ تيريزا، مُتَهلِّلةً، أَنَّ أَخواتها سيشخصنَ إِلى الأُردنّ، مسقط رأس المخلص، وسيطأن الأَرض التي وطئتها قدماه، وسيُقمنَ ويعملْنَ حيث عمل، واصطاد، وأَعلن تعاليمه الخلاصيّة، وأَجرى المعجزات، وصُلِب حبًّا بالبشر

وفي ١٦ تمّوز ١٩٧٠، هبطت الأُمُّ في عمّان، برفقة ستٍّ من أَخواتها كنَّ فريقها الأَوّل إِلى الشرق الأَوسط، وقد مكثت معهنّ ستَّة أَسابيع، وأَوجدت لهنّ شقّةً خاصّةً، فعكفنَ، من غيرِ تلكُّؤٍ، على تلقُّن اللغة العربيَّة الذي وجدنَه أَسهل من تعلُّم اللهجات الهنديّة، وعلى التأقلم مع عادات أَهل البلاد وتقاليدهم. وقد شهدت إِحداهنّ:

« لقد كان المسلمون، حقًّا، طيّبين ورقيقين معنا. كانوا يدعوننا "حاجّاتٍ" لأَنّنا نرتدي ثوبًا أَبيض غلى غرار حجّاج مكّة. قد لا يدركون جيّدًا معنى كوننا راهباتٍ، ولكنّهم يحترموننا، وقد شرعنا شيئًا فشيئًا نتعلّم لغتهم ».

ولم تكن بداية رسالتهنّ، في تلك الحقبة المضطربة من تاريخ الأُردنّ، سهلةً، فيوم غادرتهنّ الأُمّ تيريزا، في ٣٠ آب ١٩٧٠، كان عليهن تقبّل "معموديَّة النار"؛ ففي مساء ذلك اليوم، دوّت عمّان دويًّا شديدًا، وخُيِّل إِلى الأَخوات أَنّه أَحد الاحتفالات كتلك التي تقام، في الهند، بمناسبة الأَعياد الهندوسيّة، فاستسلمنَ للنوْم؛ وفي الغداة سألتهنّ الفتاةُ التي كانت تلقّنهنَّ اللغة العربيَّة هل وجدنَ إِلى النوم سَبيلاً، فأَجبنَ بالإِيجاب، فهنّأتهنَّ على "فنّ النوم" الذي يتقنّه، ولكنّها أَسدت لهنّ نصائح مجديةً عن الحرب الأَهليّة.

وفي ١٣ أيلول اهتزَّ مسكنهنّ هزًّا عنيفًا، وَدُمِّرَ بناءٌ قريبٌ منه تدميرًا كاملاً؛ وفي الصباح، إِذ كنّ يجتزنَ الشارع إِلى الكنيسة، أَوقفهنّ مُسلَّحون، مهدِّدين

ببندقيَّاتهم، ولكنَّهنّ لم يفقهنَ من إنذارهم كلمةً، فأَطلقوا عليهنّ النار، ولكنّهم أخطؤوهنَّ، فتابعنَ، ببساطةٍ، مسيرتهنَّ نحو الكنيسة.

وذات ليلةٍ قرع مسلَّحون بابَهنّ، واندفعوا إلى الداخل بشراسةٍ مرعبةٍ، ولكنّهم اكتفوا بتحرّي المكان، ثُمَّ غادروه.

وفي نوبةٍ أُخرى، كدْنَ يتعرَّضنَ للاستشهاد، عندما أَلقى عليهنَّ فدائيّون متطرِّفون القبض، وأَمروهنّ بالاصطفاف عند حائطٍ، وعندما همّوا بإطلاق النار عليهنّ، تراكض الجيران وهم يصيحون: "**أولئك الراهبات قد جئنَ للعناية بفقرائنا**". فتراجع الفدائيّون مستميحين العذر.

وسُرعانَ ما غدا تساقط القنابل يُحاكي هطول المطر، في جوار الدير، محطِّمًا زجاج نوافذه، وحَبَس الراهبات عن أيّ خروجٍ غير ضروريٍّ، وأَفسد لديهنّ "فنّ النوم"، وباتت الأَخوات ونفرٌ من الأَطفال يُصلُّون، ويأكلون، ويرقدون في ممرّات الشقّة؛ ولكن، إذا ما دعا داعٍ لم تكن الراهبات يتهيَّبْنَ من المخاطرة بالخروج، على نحو ما فعلنَ عندما انطلقت اثنتان منهنّ، تحت قذف القنابل، للإتيان بدواءٍ لخادمة الكاهن العليلة.

وذات ليلةٍ، تعالت صيحات "الله أكبر"، وانطلقت النواقيس ترنّ، وتوسَّمت المرسلات في ذلك إيذانًا بإعلان هدنةٍ، ولكنّهنّ أُبلغنَ أَنّ الشعبَ المذعور من احتدام القتال واقتراب ساحته منهم كان يدعو الله لإنقاذه.

وفي تلك الأَيّام العصيبة اتّصلت الأَخوات هاتفيًّا بأُمِّهنَّ ووصفْنَ لها الوضع المريع الذي كنَّ يعشْنَه. فاستوضحت هل هنّ راغباتٌ في مغادرة عمّان، ولكنّهنّ أكَّدْنَ رغبتهنّ في البقاء، فقالت لهنّ مازحةً: "عندما تَمُتْنَ، اتَّصلْنَ بي مجدّدًا"، وأَغرقْنَ جميعهنّ في الضحك، واستأنفنَ صلاتهنّ. وحدَها أُمٌّ أَثبتت حُبَّها اللامتناهي كان بمكنتها إطلاق مثل تلك الدعابة بشأن الحياة والموت، فتثير ضحكًا صادقًا.

وغداة الهدنة انهمكت المرسلات في جلب الطعام والدواء للأطفال والمرضى والجرحى؛ وكانت "معموديّة النار" قد قرّبتهنّ من الشعب المتأَلّم؛ وفي غضون سنتَيْن أُشرعت لهنّ قلوب المنطقة بأَكملها، فتمكَّنَّ من رسم برنامجٍ يَضعهنَّ على احتكاكٍ بكثيرٍ من مواقع البؤس. فبات لهنّ مستوصفٌ في قريةٍ بدويّةٍ يعَالجنَ فيه، يوميًّا، مئتين من المرضى، ولا سيّما الأَطفال. وفي الكرامة افتتحنَ مستوصفًا آخر، ومددْنَ

يد العون لمن كانوا لا يزالون يعيدون بناء بيوتهم المدمَّرة. وفي مركــزٍ للمتــسوّلين والمعاقين، لم يقتصرنَ على إسداء العون الطبِّيّ، بل عمدْنَ إلــى تنظيــف النــزلاء وغسلهم. وفي المخيّم الهاشميّ للاّجئين، افتتحنَ مستوصف الأُمِّ والطفل، الذي، فضلاً عن الرعاية الصحّيَّة، كان يقدّم غذاءً إضافيًّا، وحليبًا للأطفال المعانين سوء التغذية.

كنّ يغمرنَ الجميعَ بعطفهنّ، على غير تمييزٍ في دينٍ أو معتقدٍ؛ وإلى جانب ذلك كُنّ يوفِّرنَ للمسيحيّين ثقافةً دينيّةً أساسيّةً.

وفي مطلع ١٩٧٧، افتتحنَ مركزهنَّ الخاصَّ بالأشخاص المُهمَلين، وكــنّ قــد أَمسيْنَ يتقنَّ اللغة العربيّة المحلّيَّة، فأَسمينَه "بيت السلام"، الذي انتصب في ضــواحي عمّان، وسطَ حقول القمح، وكروم العنب والزيتون، وهو يحضن، إلى جانب المسنّين الذين لا منزلَ ولا مُعيلَ لهم، مختلفَ المعاقين والصمِّ والبكم والعميان. وكــان ذلــك المركز عند افتتاحه يؤوي اثنين وأَربعين رجلاً، وأَربعًا وعشرين امرأةً، ومعظمهــم من المسلمين. وقد أَفادت إحدى الأَخوات عن أُولئك النزلاء: "إنّ إيمــانهم لعميــقٌ، وإنّهم غالبًا ما يتكلّمون عن الله. مرَّةً في الأُسبوع، يوافي شيخٌ فيصلّي مع المسلمين، ويقام للمسيحيّين قدّاسٌ. قبل وجبات الطعام وبعدَها المسلمون والمــسيحيّون، علــى السواء، يتلون صلواتهم. والذين يموتون هنا، يرقدون في سلامٍ".

هذا وكانت المرسلات قد افتتحنَ عام ١٩٧٣ مركزًا في غــزّة للتَّخفيــف، مــا استطعنَ، من معاناة الفلسطينيّين، ثمَّ افتتحنَ مركزًا آخر في نابلس، وقد روى، فــي هذا الشأْن، زوجان أَميركيّان:

« السنة الفائتة، أَثناء زيارتنا للقدس، عزمنا على زيارة نابلس، في الأَراضي التي تحتلّها إسرائيل، وحيث تعمل الأخوات في ظروفٍ شاقّةٍ جــدًّا. فهــنّ يُعنَــيْنَ بالأَطفال والشيوخ القادمين من المخيمات الفلَسْطينيَّة. وكنّا قد حُذِّرنا بعدم المُــضيِّ إلى هناك، بحجّة أَنّ المكان خطرٌ، ولكن بما أَنَّنا كنّا في البلاد، ونابلس لا تبعد أكثر من سبعين كيلومترًا شماليّ القدس، لم يكن معقولاً أَن نمكث في القدس، ولا نزور الأَخوات...

"للمرسلات بيتٌ جميلٌ محاطٌ بأَرض. إنّهنّ خمس أَخوات، ويؤوين كاهنًا إيطاليًّا مُسنًّا. إلاّ أَنّهنّ يعشنَ في عزلةٍ؛ وغالبًا ما تلقّين تهديدات حتّى مــن الفلــسطينيّين

الذين ظنّوهنّ، بادئَ الأمر، مستوطنات يهوديّات، بسبب محاكاة زيّهنّ الأَبيض ذي الحاشية الزرقاء للعلم الإِسرائيلي، بحيثُ رجمهنّ فلسطينيّون بالحجارة. ولكنّهم الآن يأتونهنّ بأبنائهم المعاقين وبشيوخهم.

"ولا ريب أَنّنا تعلّمنا الكثير من خلال مؤازرة الأَخوات في عملهنّ؛ ومن أَهمّ ما تعلّمناه، أَن الإِنسان يكتسب مراسًا عندما يهتمُّ بهشاشة الآخرين قبل الاهتمام بهشاشته الذّاتيّة. ولقد اكتشفنا، أَيضًا، أَنّنا عندما نندفع إِلى العناية بالآخرين، في العمق، وعلى جميع المستويات، لن يعود يتّسع لنا وقتٌ كي نقلق على ذواتنا، فتتبخَّر همومنا ».

وفي أَفريقيا

ذكرنا أنّ أَوّل مركزٍ أَفريقيٍّ لمرسلات المحبّة افتُتح عام ١٩٦٨، في مدينة "تابورا" بتنزانيا، وهو، أَيضًا، كان من ثمار المجمع المسكونيّ الثاني، حيث تنامت إِلى علم أُسقف المدينة "مارك ميهايو" أَنْباء نشاطات مرسلات المحبّة، فدعاهنّ إِلى العمل في أَبرشيّته.

ومن الطريف أَنّه فيما كانت الأمُّ تقوم بمعاملات الدخول، وتشرح عمل المرسلات في مضمار غوث الفقراء، احتجّ أَحد المسؤولين بأن ليس في تنزانيا أَيُّ فقيرٍ، وأَنّ صفة الفقر لا يجوز استخدامها للإِشارة إِلى أَيٍّ من مواطنيه.

وكان الأُسقف قد أَعدَّ لهنّ، قبل مجيئهنّ، مقرًّا رحبًا في ضاحية المدينة، يشبه قريةً صغيرةً، مبنيًّا في ساحةٍ، ومحاطًا بأسواره الخاصّة، على مقربةٍ من مساكن الفقراء، تحيق به مآذن المساجد البيضاء السامقة، وكاتدرائيّةٌ كاثوليكيّةٌ، وكنيسةٌ أَنكليكانيّةٌ، ومتاجر، وحوانيت. وسرعان ما احتضن المكان ثمانين عجوزًا. وعددًا من الأَطفال. وكان للبناء حديقةٌ تحتوي على أَشجارٍ مثمرةٍ، أَضافت إِليها المرسلات أَشجارًا أُخرى، فضلاً عن زراعتهنَّ للخضراوات، لإِطعام نزلائهنَّ.

رئيسة المركز كانت الأُخت "شانتي" الطبيبة، التي ما لَبثت أَن أَصبحت طبيبة المنطقة كلِّها، يقصدها المرضى أَو يستقدمونها من شتّى القرى المجاورة. وباتت سيّارات الشرطة توافي المركز، بين حينٍ وآخر، بأَطفالٍ لا أَهلَ يرعونهم، أَو بمسنّين مُهمَلين.

كانت الحكومة التنزانيّة، برئاسة جوليوس نيريري، تسعى إِلى إقامة نظامٍ اشتراكيٍّ عادلٍ، ولكنّ الأَطفال والمسنّين المُهمَلين ما كانوا في حاجةٍ إلاّ إِلى العطف فحسب، وقد عثروا عليه عند الأُخت "شانتي" وأَخواتها، اللاّئي كنّ ينهضنَ بمهامّ تعجز عنها العشرات، من معالجة مرضى، ورعاية أَطفالٍ ومسنّين، وإِطعام الجميع، وتنظيفهم بلا هوادةٍ، ولا يقتصر عملهنّ على قاطني المجمّع، بل يطال جموعًا من المحتاجين خارجه، ويلبّي احتياجات الغرباء الذين لا يكفّون يقرعون بابهنّ ملتمسين الطعام والعون. وإِلى كلّ ذلك، كنّ يزرن باطّرادٍ، خارج المجمّع، مخيّماتٍ للمتسوّلين والمحرومين، والمُسنّين المُهمَلين، فيغسلنَ العاجزين، ويُنظّفن مساكنهم وثيابهم، ويعالجن مرضاهم.

صحيحٌ أَنّ نفرًا من الفتيات تطوَّعن لمساعدتهنّ، غير أَنّ ما كنّ يضطلعنَ به من عملٍ كان يتطلّب جهدًا متواصلاً، وأَضعاف أَضعاف عددهنّ من العاملين.

وسُرعانَ ما اتّضح لهنّ أَنّ البناء القديم الذي كنّ يشغلنَه، والذي يربي عمره على السبعين سنةً، بات يتداعى، ويستلزم، إثر كلِّ هطول مطرٍ، إِصلاحاتٍ كثيرةً ومكلفةً؛ فانتقلنَ إِلى بناءٍ ملاصِقٍ تخلّى لهنّ عنه الآباء والأَخوات البيض الذين، بعد إِنجازاتٍ مجيدةٍ في أَفريقيا، أَخذ دورهم يتقلّص، كي تحلّ محلَّهم أَخواتٌ قادماتٌ من الشرق، أَكْثَر استجابةً لمتطلّبات العصر، ويُمثِّلنَ نسْغ الكنيسة الجديد.

ثُمَّ، فيما كانت الأُمُّ تيريزا تزور أَخواتها في كاراكاس، وتشدّ في عضدهنّ لمقاومة الظُّروف القاسية التي كنَّ يعشنَ في أَحضانها، رغبت في الانتقال إِلى مدينة "بورت اوپرانس"، عاصمة هاييتي، حيثُ كانت قد استُدعيت لإِنشاء مركزٍ، وكان مثولها إِلى هناك يستلزم تأشيرة دخولٍ؛ ومع أَنّها كانت تحمل جواز سفرٍ ديبلوماسيًّا صادرًا عن حاضرة الڤاتيكان يوفّر لها تسهيلاتٍ جمّةً، ويفتح لها أَبواب الدوَل الموصدة دون حاملي جواز السفر الهنديّ، إلاّ أَنَّهَا كانت، دائمًا، تؤثر استخدام جوازها الهنديّ. وتطوَّعت متعاونةٌ كنديَّةٌ، وكاهنٌ إِسبانيٌّ للحصول لها على تأشيرةٍ من السفارة الهاييتيّة في كراكاس. وقد تركاها في السيَّارة عند باب السفارة، تكرُّ، بصمتٍ، حبَّات مسبحتها، ومثلا أَمام القنصل، الذي رفض للوهلة الأُولى، منحها التأشيرة، ولو لأَربعٍ وعشرين

ساعةً، متذرِّعًا بحجّة انصراف موظّفيه؛ إلاّ أنّه، بدافع الفضول، رغب في معرفَة المزيد عن تلك الراهبة، فأخذ المراجعان يسردان قائمة الجوائز التي كُرّمت بهـا، ويبـدو أنَّ جائزة آل كنيدي كان لها أبلغ وقعٍ عليه، فقال: "ولكن أين هي الأُمّ تيريزا هذه؟ دعـوني أَرَها". وولجت الأُمُّ مكتبه، وقد افترّ ثغرها عن ابتسامتها المعهودة، الحارّة، المـضيئة، وضمّت يديها عند جبينها، وفقًا لأُسلوب التحيَّة الهنديّة، وقالت: "شكرًا، شكرًا"، قبـل أَن تُمنَح شيئًا. وفجأةً تبدّل الموقف، وأَعلن الديبلوماسيّ باندفاعٍ: "أُمّـاه، سـأمنحك فـورًا تأشيرةً، لا لأَرْبَعٍ وعشرين ساعةً، بل لسنةٍ. ولكن هل لديك صورة فوتوغرافيّة؟"... غير أَنّ تلك المرأةَ التي انتشرت صورها في كلّ أَرجاء المسكونة، لم تكن تحمل أَيّة صورة لها. ولم يتراجع الديبلوماسيّ، بل أَعلن: "لا بأس، سأمنحك، مع ذلك، التأشيرة، على أَن تعديني بتقديم رسمٍ لك بحجمٍ كبير كي أُزيّن به مكتبي". وإِذ كان مرافقاها واثقين من أَنّها لن تستجيب لذلك الطلبَ، تولّيا بنفسيهما الوفاء به.

في هاييتي كان يسود فقرٌ مدقعٌ، تدأَب على تخفيف وطأته جماعاتٌ مختلفة مـن المرسَلين والمتطوِّعين. وقد تمثَّل دور مرسلات المحبّة، خلال الفترة الأُولـى، فـي إِدارة دارٍ للمدنفين المُهمَلين؛ ثمّ أَسَّسنَ أَربعة مستوصفاتٍ؛ وبعـد أَن تَبَـرّع لهـنّ متعاونون أَميركيّون ببناء جديدٍ، جعلنَ منه مستوصفًا في الـصباح، ومدرسـةً بعـد الظهر؛ وتلت ذلك مدرسةٌ أُخرى، ومركزٌ لإِطعام مئات الأَطفال.

وفي ١٥ آب ١٩٧٢، افتتحت المرسلات مركزًا في جزر موريسيوس، وما كدنَ يتمكّنّ من لغة أَهل البلاد، حتّى رحنَ يتفقّدنَ البيوت، واتّضحت الحاجة إِلى الخدمـة الطبِّيَّة فتولّتها الأُخت ريلكا، الممرّضة، وتعهّدت وزارة الصحَّة بتوفير الأَدوية، فيما أَدّت أُختٌ أُخرى دروسًا في التجارة والخياطة.

وقد زارت الأُمُّ تيريزا ذلك المركز في ٢٦ آب ١٩٧٣ ما أَثلج صدور أَخواتها؛ وأَجرى معها التيليفزيون، بتلك المناسبة، لقاءً، فركّزت حديثها على المتعاونين مـع عملها الذين كان عددهم ماضيًا في تكاثُرٍ مدهشٍ، وصرّحت: "**إِنّ رغبتنـا هـي أَن يرسل الربّ، أَكْثر فأَكثر، عملةً لحصاده**".

وفي تلك الأَثناء، أَيضًا، من عام ١٩٧٢ ضرب جفافٌ مريعٌ الحبشة، جارًّا، في إِثره، مواكب البؤس والمجاعة والموت. واستُدعيت الأمُّ للإِغاثة، فاصطحبت الأخت

فريديريك، وشخصت إِلى أَدّيس أَبيبا، حيث وفّر لهما الأسقف إمكان دراسة الأَوضاع والعمل في تلك البلاد المنكوبة. وقد طرح عليها أحد الوزراء السؤال التالي:

« – "ماذا تتوقّعين من الحكومة؟

– "لا شيء، فقد جئتُ فقط لعرض استعداد أَخواتي لإِغاثة الفقراء والمتألِّمين.

– "وما هي مؤهَّلاتكنَّ؟

– "نسعى إِلى توفير الحبّ والحنان والعطف إِلى من لا يرغب أَحدٌ فيهم ولا يحبُّهم.

– "وهل ستبشّرنَ وتحاولنَ استمالة القوم إِلى مذهبكنّ؟

– "إِنّ أَعمالنا تعلن للفقراء حبّ الله لهم" ».

وكان لتدخّل الأَميرة "تينايني وورهي هيلاسيلاسي" فضلٌ مؤكَّدٌ، إِذ إِنّها جعلت الإمبراطور، في غضون أَربعٍ وعشرين ساعةً، يُصدر أَمرًا بمنح مرسلات المحبّة تأشيرة دخولٍ، وإِذن إقامة في أَدّيس أَبيبا، حيثُ افتتحنَ مركزهنّ في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٧٣، وشرعنَ برعاية الأَطفال الذين أُجلوا عن المناطق التي ضربها الجفاف، ثمّ أَسَّسنَ مأوًى للأمَّهات العازبات المشرّدات.

وقد برهنت الأُمّ عن شجاعة فائقة، بعد أَن أَطَاحَ انقلابٌ عسكريٌّ بالإمبراطور هيلاسيلاسي، عندما التمست إِذْنًا بزيارته في معتقله، عرفانًا بجميله في تسهيل عمل جمعيَّتها في بلاده.

أَمّا عن أَفريقيا فقد صرّحت الأُمّ: "**إِنّ أَفريقيا قارَّةٌ فقيرةٌ ماديًّا، ولكنّها، روحيًّا، غنيَّةٌ جدًّا. فقيرةٌ، ولكنَّ حقل الرسالة فيها رحبٌ، ممّا يفسح أَمامنا آمالاً عريضةً. للكنيسة، فيها، آفاقٌ مستقبليّةٌ واعدةٌ، ولنا، نحن أَيضًا، فيها، إِمكانات ازدهارٍ جمّةٌ**".

وقد أَنشأت مرسلات المحبّة مراكز في كينيا، وراوندا، ومصر، والعديد من البلدان الأَفريقيّة.

إِنكلترا وإِيرلندا

مع أَنّ نسبة المرسلات الهنديّات كانت تقارب الثمانين بالمئة من مجموع المرسلات في مطلع عام ١٩٧٠، إِلاّ أَنّ حَدْس الأمّ تيريزا كان يوحي لها بأَنّ عدد

القادمات من خارج الهند سيمضي في تصاعُدٍ، في أعقاب إنشاء مراكز خارج الهند، وفي القارّات الخمس، وأنّه لن يكون من اليسير تثقيفهنّ في كلكتّا، إذ تنهض في وجه ذلك عوائق مادِّيَّةٌ وثقافيّةٌ ذات بال، فقرَّرت أن يكون للجمعيّة مركز ابتـداءٍ آخـر، بالإضافة إلى كلكتّا، وارتأت أن تكون العاصمة البريطانيّة مقرًّا له.

وراحت الأمّ، في كانون الأوّل من عام ١٩٧٠، برفقة بعض أخواتها، والسيِّدة "آنّ بليكي"، رئيسة رابطة المتعاونين الدوليّين، يبحثنَ عن مقرٍّ مناسبٍ، فعثرنَ عليه في ضاحية ساوثهول اللندنيّة، حيث تعيش جاليةٌ هنديّةٌ كثيفةٌ. صاحبة البناء لم تُخفِ إلحادَها، وبادرتهنَّ بالقول: "إنّني لا أُومن بشيءٍ، ولكنّني أُومن بعملكنّ". إلاّ أنّ ذلك الإيمان لم يكن من الحرارة بحيثُ يحملها على التساهل في استيفاء ثمن عقارها الذي حدّدته بستّة آلافٍ وخمس مئة جنيهٍ، تُدفع عدًّا ونقدًا في الحال. ولم تكن المرسلات يملكن من ذلك المبلغ بنسًا واحدًا.

وفي ذلك المساء عينه، كان على الأُمّ تيريزا أن تتحدَّث عبر الإذاعة البريطانيّة، فجاءت على ذكر مشروع افتتاح مقرٍّ لجمعيّتها، ومركز ابتداءٍ لها، في لندن، وإذا بالتبرُّعات تتدفَّق، وأُحصي مجموعها، بعد بضعة أيّامٍ، فإذا به ستَّة آلافٍ وأربع مئة وخمسة وتسعون جنيهًا بالضبط، واستلّ "جون بليكي" من جيبه الجنيهات الخمسة اللازمة لإكمال المبلغ، وأُدّي ثمن البناء في الحال.

قد تبدو تلك الحادثة روايةً من نسج الخيال، ولكنّها واقعٌ ماثلٌ لا لَبْس فيه ولا تزويق. وقد صرّحت الأمّ تيريزا، في هذا السياق: "**حدث ذلك في ٨ كانون الأوّل ١٩٧٠، عيد سيّدة الحبل بلا دنسٍ. إنّ العناية الإلهيّة ترافقنا في كلّ مكانٍ**".

فيما بعد، عادت الأُمّ تيريزا إلى لندن كي تفتتح مركـزًا آخـر، في منطقة "براڤنجتون رود" العُمّاليَّة، يهتمُّ اهتمامًا خاصًّا بالسكارى، ومدمني المخدِّرات، والمتسوِّلين، والمرضى، والمُسنّين المُهملين، وبالعمّال الفقراء الذين غالبًا ما يعوزهم سريرٌ يرقدون عليه، ولقمةٌ تُمسك رمقهم.

وذات مساء، رنّ جرس الهاتف، وكان المتكلِّمُ شرطيًّا أَعلم الأُمَّ تيريزا أنَّ، ثمّة، امرأةً سكرى، ملقاةً في شارع، وتأبى التزحزح عن مكانها، ما لم توافها الأُمُّ تيريزا، فجاءتها الأُمُّ برفقة إحدى الأخوات، وما كادت المرأة تراها، حتّى أشرعت ذراعَيْها،

وهتفت بسعادةٍ: "أَيَّتها الأُمّ، أَلم يكن يسوع عطوفًا علينا، بحيث حوّل الماء إِلى خمرةٍ، كي يوفّر لنا ما نشرب؟"

حادثةٌ صغيرةٌ تبرز أَسقام الحضارة الغربيَّة الراهنة.

وفي لندن اطَّلعت مرسلات المحبّة على مآسي شبّانٍ إِيرلنديّين وسكوتلانديّين دفعهم الفقر والصراعات الدامية في بلدانهم للهجرة إِلى حيثُ خُيِّل إِليهم أَنّ الحياة ستكون أَيسر ولكنّ افتقارهم إِلى المؤهِّلات لم يمكّنهم من عملٍ أَرقى من كنس الشوارع، وغسل الأَطباق، ولم يوفّر لهم من الأجر سوى النزر الضئيل الذي يكاد لا يقيهم من الموت جوعًا، وغالبًا لا يكفيهم لأَداء أُجرة سريرٍ ينامون عليه، فيلجؤون إِلى محطّات الأَنفاق، أو إِلى منافذ تهوية المخازن والفنادق الكبرى المدفّأة، حيثُ يتراصّون التماسًا لشيءٍ من الدفء.

وأَلمّت الأُمّ بشتّى ضروب المعاناة التي يئنُّ من وطأتها الإِيرلنديّون، وببؤسهم السحيق، فدعت المتعاونين إِلى اجتماعٍ في دبلن، وأَمامهم أَعلنت عن نيّتها افتتاح مركزٍ في بيلفاست. وتحقَّق مشروعُها بسرعةٍ فَائِقَةٍ، ولم تهدر المرسلات دقيقةً واحدةً، بل عكَفن، بلا تلكُّؤٍ، على مؤاساة الشيوخ، والعجائز والأَرامل الكثيرات اللاّئي فقدنَ، غالبًا، في الحرب الأَهليَّة، أَولادهنَّ، فضلاً عن أَزواجهنَّ. وسُرعانَ ما وجد الجميعُ، في أَخوات الأُمّ تيريزا، أُمَّهاتٍ عطوفاتٍ، وسندًا أَدبيًّا منيعًا.

وحيال مآسي إِيرلندا، اعترفت الأُمُّ بمرارةٍ: "فقر الغرب مشكلةٌ عسيرة الحلّ. فمن الأَعسر العثور على علاجٍ لإِنسانٍ جريح القلب، يرهقه الشعور بأَنّه غير مرغوبٍ فيه، مذعورٍ، ينبذه مجتمعه... إِنّه لصعبٌ أَن يبتسم البشر بعضهم لبعضٍ، فهذه البسمَة هي بداية الحبّ".

وقد اتّضح للأخوات أَنّ الإِدمان على الكحول في بيلفاست هو الآفة الأَدهى التي تُدمِّر الأُسَر. فقد التقينَ، يومًا، فتًى يافعًا يَتَسكَّع في الشوارع، فاستوضحنه عن سبب هجر المنزل، فأجاب: "لديّ أُمٌّ لا تُحبُّني، وأَبٌ ينبذني، فهل تقبلنَني أَنتُنَّ؟"

ولكن لم يَطُلْ بالمرسلات المقامُ في بيلفاست لأَنّ وجودهنّ أَثار حساسيّاتٍ في بلدٍ تحكمه التوتُّرات الطائفيّة. وكان مركزهنّ، هناك، من المراكز النادرة التي اضطررْنَ إِلى إِقفالها، وكان إِغلاقه، في ٢٨ أيلول ١٩٧٢، طعنةً أَليمةً في صدر الأُمّ تيريزا.

وكانت الرغبة في تحقيق الوحدة بين الطوائف المتنابذة قد طغت على الأُمّ تيريزا عندما همّت بافتتاح مركز بلفاست، فأقنعت راهباتٍ أنكليكانيّاتٍ، وامرأةً پروتستانتيّةً، وعددًا من المرسلات المعمدانيّات، بالإقامة تحت سقفٍ واحدٍ مع مرسلات المحبَّة، وبالصلاة والعيش معًا، وبالعمل، متضافراتٍ، في سبيل الوحدة في بيلفاست. ولكن ما إِن وصلت المرسلات للشروع بالعمل، حتّى هبَّت المصاعب، وبرزت مقاومةٌ شرسةٌ من جانب الكاثوليك والپروتستانت على السواء، فجُمِّد مشروع الوحدة. وغدا سوء التفاهم مصدر آلامٍ، فلم ترَ الجماعةُ النور، على نحو ما خطّطت لها الأُمّ تيريزا التي صرَّحت، مَعَ ذلك: "**مشروع جماعة بيلفاست سينجح، فقد حدث الكثير من الآلام وخيبات الألم، كما هو الأمر في حياة يسوع. إِنّ جهود كلِّ أُولئك القوم، سيكون لها سهمٌ وافرٌ في تحقيق الوحدة**".

ومذّاك أُشرعت ثغرةٌ، ولو ضيِّقةٌ، في جدار الشقاق: فقد شرعت المرسلات في القطاع الكاثوليكيّ، والأَخوات الأنكليكانيّات في القطاع الپروتستانتيّ يتقاسمنَ المهامّ. وكانت مشاركتهنّ تلك إِشارة رجاءٍ.

وشهدت الأخت تيريزيانا، الأَميركيّة المولد، التي كانت الرئيسة الإِقليميّة في مناطق إِنكلترا وإِيرلندا عن عملها، فقالت:

« عندما باشرنا عملنا هنا، اكتشفنا أَنّ علينا واجب مساعدة طائفةٍ من المسنّين الحبيسين في مساكنهم. وغالبًا ما اتّفق لنا أَن اكتشفنا أَزواجًا مسنّين يفتقرون إِلى التدفئة في قلب الشتاء، فسعينا كي نوفّرها لهم، أَو أقوامًا يعيشون، لسببٍ ما، في منازل خاليةٍ من أَيّ أَثاثٍ. هناك أُناسٌ بسيطون جدًّا لا يعرفون إِلى من يتوجَّهون. وما أكثر الوحيدين الذين، خلف جدران الأجرّ، يتحرَّقون إِلى زيارة!

"في أَيَّامنا الأولى، أَلِفنا الخروج ليلاً بحثًا عن المشرَّدين. أَمّا اليوم فننظِّم لهم رحلاتٍ، وأَيامًا خاصةً...

"اليوم لدينا مأوًى للرّجال والنساء في "كيلبورن" (بضواحي لندن)؛ وفي شمالي إِنكلترا، بليڤيربول، لدينا مركزٌ للرّجال، وآخر للنساء، و"حساءٌ شعبيٌّ". كما أَنّنا نضطلع بنشاطٍ رعويٍّ، فنزور الأُسَر، ونوفِّر للصِّغار تعليمًا دينيًّا.

"أَثناء تجوالنا، نتلو المسبحة، فهي سلاحنا، وكلامُ الربّ، وبما أَنّ إِبليس يسعى

إِلى التأثير في حياة الناس، علينا المُضيُّ قدُمًا مع يسوع ومريم؛ فهما وحدهما قادران على مسّ القلوب بواسطتنا. إنّنا شديدات التعلُّق بالمسبحة، وأذكر أنّنا تلوناها، يومًا، في ميترو لندن، بصوتٍ منخفض، لأَنّ المسافرين البريطانيّين لا يتكلّمون كثيرًا داخل وسائل النقل المشترك؛ وكان الصمت يخيِّم على العربة، وفجأة تعطَّل القطار، وانحدرنا إِلى الرصيف بانتظار حافلةٍ أُخرى، فأسرّت لي امرأةٌ كانت تقف إِلى جانبي: "أَودُّ أَن تعلمي، أُختاه، أَنّني شاركتكنّ تلاوة المسبحة، وأَضافت أَنّها كانت تأتي، أَحيانًا، إِلى مركزنا للمشاركة في القدّاس. وقد وفّر لنا هذا الحديث الكثيرَ من الارتياح، لأَنّنا نادرًا ما نشهد نتائج عملنا.

"وعندما زارت الأُمّ تيريزا مركز الرجال بلندن، في شهر آذار ١٩٩٤، عاينت قاعتين، فأَعلنت: "هاتان القاعتان ستُستخدمان، منذ الآن، لمرضى الإِيدز. كانت تلك هي المرَّة الأُولى التي تُثار، فيها، أَمامي، إِمكانيّة اهتمامنا بمرضى الإِيدز، أَمّا بالنسبة إِلى أُمّنا فكان الأَمر بديهيًّا، ولا ريب أَنّ قولها كان إِلهامًا ربّانيًّا، فأَنا مازلت أَذكر نظرتها وهي تعلن قرارها. ولقد جهدتُ في تحويل رغبتها إِلى واقعٍ ماثلٍ، مع أَنّ الأَمر لم يكن هيّنًا »

في جحيم بنغلاديش

من جرّاء تقسيم أَمبراطوريّة الهند إِلى دولتَيْن، تقسيمًا عشوائيًا، وجد الباكستان نفسه مشطورًا إِلى جزئَيْن: غربيٍّ وشرقيٍّ، تفصل بينهما مسافاتٌ شاسعةٌ. وناضل الشطر الشرقيُّ منه إِلى أَن فاز باستقلاله ودُعي دولة بنغلاديش، إِلاّ أَنّه كان يعاني أَزماتٍ اقتصاديَّةً مستعصيةً، ومشاكل اجتماعيّةً حادَّةً، تزيدها هوْلاً وفقرًا، دوريًّا، الكوارثُ الطبيعيّة، ولا سيما الطوفانات والأَعاصير المدمِّرة. وإِلى ذلك البؤس الساحق، جاءت الحروب الأَهليَّة والأَجنبيَّة لتَجُرَّ على البلاد مواكبَ المآسي الدامية. فبين عامي ١٩٧٠ و ١٩٧١ تناحر على السلطة كلّ من يحيى خان والشيخ مجيب الرحمن، ما أَضرم نيران فِتَنٍ نكراء، وأَطلق العنان لأَعمال عنفٍ وحشيٍّ، كانت أُولى ضحايا أَهوالها أُلوف الفتيات والنسوة اللائي اغتُصبْنَ، والشيوخ الذين شاهدوا بأمِّ عيونهم تقتيل أَبنائهم وأَحفادهم، والأَطفال الذين أَمسوا لا أَهلَ لهم ولا معيل. ثُمَّ

جاء اجتياح فيالق جيش الباكستان الغربيّ، في محاولةٍ لبسط سطوته وترسيخها، وما واكبه من تنكيلٍ واغتصابٍ وتقتيلٍ، ما أدّى إلى فرار نحو ربع مليون نسمةٍ من الجالية الهندوسيّة إلى كَلكتّا، فيما ناهز مجموع عدد المهاجرين من الباكستان الشرقيّ إلى الهند نحو عشرة ملايين، في مثل سيلٍ هادرٍ جارفٍ، تدفّق على منطقة البنغال، إحدى أفقر مناطق المسكونة، ليُضيف إلى بؤسها السحيق مزيدًا من البؤس، وموكبًا رهيبًا من الأوبئة لم تكن الكوليرا أشدَّها فتكًا.

وكان أفضل اللاجئين حظًّا، أُولئك الذين أَفلحوا في اتّخاذهم ملاجئ من أنابيب ضخمة كانت معدّة لتكون مجاري أَسيقة في مناطق مهيَّأةٍ للبناء؛ في حين أُنشئت مخيماتٌ لسواد اللاجئين، وانتصبت أَكْوَاخٌ مرتجلةٌ على امتداد ثلاثة أَميالٍ لإيواء من انتهوا إلى غاية هجرتهم، وما زال فيهم نسمة حياةٍ تكاد تنطفئ، بعد أَن صُرع الكثيرون من ذويهم ورفاقهم على جوانب الطرقات، وهم يئنّون إعياءً، وسغَبًا وظَمأً، عبر مسيرةٍ محفوفةٍ بالمآسي، وأَشباح الموت. وقد أَعربت رئيسة وزراء الهند، أَنديرا غاندي، عن استعدادها "لاجتياز الجحيم من أَجل مواجهة ذلك الوضع".

وقرّرت الأمُّ تيريزا إرجاء العديد من مشاريعها العالميّة، ومهامِّها الملحَّة، في سبيل التصدّي لمعالجة المآسي التي قرعت بابها، وهرعت إلى خضمّ البائسين المنبسط، مريعًا، على مقربةٍ منها، واختارت خدمة أَكْثَرهمْ عوزًا إلى الغوث: الأطفال، والمرضى المُهمَلين؛ وقد برهنت عن فعاليّةٍ جزيلة الجدوى في قيادة أَعمال الغوث.

واتَّفق أَن تحدَّثت الأُمّ، في غمرة تلك المحنة، إلى عددٍ من رئيساتٍ عامّاتٍ لأَديرةٍ رهبانيّةٍ عن معاناة أُولئك البائسين، مستجديةً إعاناتٍ جسيمةً وفوريّةً لدرء موجةٍ من الكوليرا كانت تُنذر بالتفشّي. وقد تطوَّعت خمس عشرة راهبةً من جمعيّاتٍ مختلفةٍ للعمل معها، متبنّياتٍ، لفترةٍ، أسلوب عيش جمعيّتها الخشن، من نومٍ على الحضيض في قاعاتٍ مشتركةٍ، وتناول نفس الطعام الزهيد، وانتهاج نفس توقيت النوم والاستيقاظ، ولمّا هممنَ بالعودة إلى أَديرتهنّ، عقب الفراغ من مهمَّتهن، ونهضت الأُمّ لشكرهنّ، احتججنَ بأَنَّ الشكر يتوجَّب عليهنّ لها، لأَنَّهنّ تلقَّين من تلك التجربة أكثر، بما لا يُقاس، ممّا أَعطينَ.

وكانت الأُمّ، مع ثُلَّةٍ من أَخواتها والمتطوِّعات معهنّ، قد افتتحنَ على مقربةٍ من

مطار "دمدم" في كلكتّا، مركزًا لأَطفال المهاجرين المشرفين على الموت جوعًا وسقمًا، وكان على الأَخوات مواكبتهنّ برعايةٍ دائمةٍ لا تفتر، تستمرّ ليلَ نهارٍ، فارتجلنَ قاعةً لنومهنّ في المركز نفسه.

كما أَنّهنّ تولّينَ العناية بأَحد مُخيّمات اللاجئين كانت الكوليرا قد شرعت تتفشّى فيه. وقد اتّفق أَن زار السيناتور إِدوارد كينيدي كلكتّا، في تلك الفترة عينها، وأَعدَّتْ له الحكومةُ الهنديّة برنامجًا محَدَّدًا، ولكنّه آثر أَن يطَّلع بنفسه على أَوضاع اللاجئين المأساويّة، وتوخّى زيارة أَحد مخيّماتهم، وفيما كان الموظّفون واللاجئون يزحمونه ويحاصرونه، ويكادون يحجبون عنه رؤية أَيّ شيءٍ، لمح، بغتةً، راهبةً تغسل أَغطية أَسرَّة المصابين بالكوليرا، فدنا منها، ومدّ لها يده مصافحًا، فاعترضت بأَنّ يديها غير نظيفتَيْن، ولكنّه أَجاب مصرًّا: "**بقدر ما تكون يداك متّسخَتيْن يشرِّفُني مصافحتهما، فما تفعلينه لمدهشٌ...**". ولم تكن تلك الراهبة سوى الأُخت أَنيبس، أولى مرسلات المحبّة، وأُولى رفيقات الأُمّ تيريزا.

مرَّةً أُخرى، اجتازت مرسلات المحبّة، بتأَلُّقٍ، امتحانَ المحبّة والعطف، في ظروفٍ لا إِنسانيّةٍ، وفي مخيّماتٍ ساد فيها كلٌّ مؤلمٍ ومقزّزٍ، فاستطاع أَفقر الفقراء أَن يكونوا، أُسوةً بسواهم، شهودًا على حبٍّ لا متناهٍ، لا يُفرِّق بين البشر، بل يرى فيهم جميعًا أَبناءً لله محبوبين.

وحيال جسامة مأساة مهجّري بنغلاديش، استدرّت الأُمّ تيريزا سخاء العالَم أَجمع، ومن خلال كُتيِّبٍ وُزّع في كلِّ أَقطار المسكونة، أَطلقت هذا النداء اللاّهث النابض: "**فلنذكرْ أَنّ شعبَ الباكستان، وشعب الهند، وشعب الڤيتنام، وجميع شعوب الأَرض، كلّهم أَبناء الله أَبدعتهم يده نفسها. اليوم يستثير مهاجرو الباكستان اهتمامنا على نحوٍ خاصٍّ، ولكنّهم جزءٌ من أُسرة الله في هذا العالَم. القضيّة ليست قضيّة الهند وحدها، بل هي قضيّة العالَم بأَجمعه. لدينا ملايين الأَطفال الذين يُعانون سوء التغذية والجوع، وإِن لم يوافِهم العالَم بالطعام والبروتينات فسيلقون حتفهم، وسيتحمّل العالَم وزر موتهم**".

وقد استجاب العالَم، حكوماتٍ ومؤسَّساتٍ ومنظّماتٍ، بشحناتٍ ضخمةٍ من الأَغذية والأَدوية والشاحنات والمتطوّعين الذين ضربوا أَمثلةً وَضَّاءةً في سخاء

البذل، وحنكة الإِدارة، ومهارة العمل، نظير أُولئك المهندسين الأَلمانيّين الذين مدّوا اثني عشر ميلاً من أَنابيب ماء الشرب، وبنوا مجموعاتٍ من الصهاريج المعقّمة، ووقوا، بذلك، مدينة كلكتّا من انتشار وباء الكوليرا في أَرجائها.

وكان نصيب الأُمّ تيريزا وأَخواتها هو العمل الأَصعب والأَقذر، وهو تنظيف خيام المصابين بالزحار والكوليرا والجدريّ وسائر الآفات التي زادها الحرمان انتشارًا وبطشًا.

وقد روت إِحدى الأَخوات في هذا السياق: "كنّا نمضي بشاحنةٍ كلّ صباحٍ، ونشرع بالعمل؛ وكم كان صعبًا تنظيف تلك الأَماكن، وإِضفاء شيءٍ من النظافة على أُولئك القوم. كنّا نُعنى بالمرضى والمحتضرين، ولم يكن من اليسير علينا الاعتياد على بعض أَنماط الموت، ولا سيّما موت الأَطفال، فعندما كنت أَتناول الأطفال الميتين بين يديّ، لم أكن أَشعر لهم بوزنٍ".

وتصدَّت الأُمّ تيريزا لمآسٍ لا تقلُّ إِيلامًا، مآسي قومٍ فقدوا كلَّ ذويهم، وكان حظُّهم من العيش ضئيلاً، ولا سيّما شيوخٍ شهدوا موت أَبْنَائِهِمْ وأَحفادهم، ولم يعُدْ أَحدٌ راغبًا فيهم، فرحَّبتْ بهم مرسلاتُ المحبَّة بعطفٍ جمٍّ، ورعينَهم على نحو ما أَلِفْنَ رعاية نُزلاء "نيرمال هرايدي" حنانًا ورقّةً.

وتُظهر إِحدى الصور التي التُقطت في تلك الفترة الأُمَّ تيريزا تضمُّ إِلى صدرها طفل أَحد اللاجئين، وقد نمّت قسماتُ وجهها عن أَلَم النزاع النفسيّ، وَجَيَشان الغضب، فالطفل كان قد قُذِف به، بكلّ بساطةٍ، وكأنّه نفايةٌ.

وفي غروب عام ١٩٧١ أَعلنت الهند الحرب على الباكستان، مناصرةً منها لاستقلال بنغلاديش، ودفعت هجرةٌ معاكسةٌ بملايين المهاجرين للعودة إِلى بنغلاديش المستقلّة، موطنهم الأَصليّ، واستقلّت الأُمّ تيريزا، والأُخت الطبيبة جيرترود متنَ الشاحنة الأولى المتّجهة إِلى هناك، من أَجل لأْم جراح الحرب.

والتمست السلطات البنغلاديشيّة إسهام المرسلات في إِيجاد الحلول لمشاكل البؤس الحادّة الناشبة بالبلاد، وأَفلحت المرسلات بإِنقاذهنّ من براثن الموت جماعاتٍ غفيرةً من الأَرامل والأَطفال، فأنشأنَ ما لا يُحصى من المشاريع الصغيرة، والبرامج الكبرى لإِعادة التأهيل، وتحقيق الاكتفاء الذّاتيّ؛ وقد حوَّلنَ ديرًا عتيقًا منحهنّ إِيّاه

الأسقف إلى "شيشو بهاڤان" يرعى لا الأطفال الأيتام والمهمَلين فحسبُ، بل أيضًا أولئك الذين كانوا يُعانون سوء التغذية، والذين كانت الأخوات تلقاهنّ أثناء تجوالهنّ بسيّارات المستوصفات المتنقِّلة المعدَّة للعناية بالأمِّ والطفل؛ تلك المستوصفات غدت هي الأمل الوحيد لألوف الأمّهات والأطفال في العثور على طعامٍ وعلاجٍ لم يكن ممكنًا العثور عليهما في أيّ مكانٍ آخر. وقد بات يزدحم، كلّ يومٍ، في أماكن مواقف تلك المستوصفات المعهودة ألوفٌ من الأمّهات والأطفال، في انتظار الغوث؛ ولكن، في بعض الأماكن، كان على المرسلات الهبوط من سيّاراتهنّ، والقفز إلى قوارب بدائيّةٍ، في مياهٍ قذرةٍ، في سبيل المضيّ نحو من يحتاجون العلاج، وغالبًا ما كنّ يعُدْنَ بالأطفال الأكثر وهنًا إلى "شيشو بهاڤان"، حيثُ يعكفنَ على رعايتهم بضعة أشهرٍ، ثُمَّ يُرجعنَهم متعافين إلى أُسرهم. وفي "شيشو بهاڤان" كانت فتياتٌ عديداتٌ يجدْنَ مأوًى مؤقّتًا إلى أن يبرعنَ في مهنةٍ تمكّنهن من كسب معيشتهنَّ.

وفي منطقة "ديكا"، أنشأت المرسلات مرادفًا لنيرمال هرايدي في كلكتّا، بيت عطفٍ لإيواء المشرّدين والمحتضرين المهملين، وكانت الأُخت جيرترود أولى العاملات فيه، وعندما اضطرّت إلى مغادرته، تبرَّعت طبيبةٌ كانت تعمل في مشفى العائلة المقدّسة بالحلول محلّها، والعمل مع المرسلات.

إلاّ أنّ المشكلة الحادَّة المؤلمة، على نحوٍ خاصٍّ، التي تصدَّت لها الأُمُّ تيريزا، فهي معضلة نحو مئتي ألف فتاةٍ اغتصبهنَّ الجند، وحملنَ، مع أنّ أديرة راهباتٍ عديدةً أشرعت أبوابها للفتيات المُهَدَّدات بالاغتصاب، ووفّرت لهنّ، بين جدرانها، ملجأ أمينًا.

فالتقاليد العمياء كان تدين بعارٍ أبديٍّ الفتيات اللاّئي تعرَّضنَ للاغتصاب، فنبذتهنّ وطردتهنّ أُسَرُهنّ، فبعضهنّ فزعنَ إلى الانتحار، وبعضهنَّ آثرنَ الإجهاض أو أجهزنَ على مواليدهنّ ساعة وضعهنّ، وشجَّعتْهنَّ السلطات على المضيّ في هذا المنحى. وقد ثارت الأُمُّ تيريزا على هذا السلوك بعنفٍ، منذرةً بلا هوادةٍ ولا وجَلٍ: "أُولئك الفتيات ضحايا بريئاتٌ، وما تشجيعكم إجهاضهنّ إلاّ مؤازرتهنّ على اقتراف جريمة قتلٍ، ستواكبهنّ ذكراها مدى العمر، ومعالجتكم الجريمة بجريمةٍ أدهى".

وكانت خطوتها الأُولى على درب معالجة تلك المأساة استضافتها، في مراكزها

المتعدّدة، ما استطاعت من أُولئك المسكينات، ضحايا البهيميّة البشريّة، اللواتي بتنَ يجدنَ بين ظهراني مرسلات المحبّة كلَّ عونٍ وتفهُّمٍ وعطفٍ، إِلى أَن يضعنَ أَطفالهنّ الذين استنهضت لهم الأخواتُ متبنّين من كلِّ مكانٍ في العالَم. ثمّ كانت المرسلات يواكبنَ أُولئك الفتيات الأمّهات إِلى قراهنّ، ويسعينَ إِلى تزويجهنّ، والدفاع عن براءتهنّ، وقد كان لموقفهنّ الجريء ذاك وقعٌ حاسمٌ على المسؤولين بحيثُ اضطرّ، أَخيرًا، رئيسُ وزراء بنغلاديش إِلى الإِعلان أَنّ أُولئك الفتيات الأُمّهات اللواتي تعرَّضنَ للاغتصاب ينبغي عدُّهنّ بطلاتٍ قوميّاتٍ، فكان إِعلانُه هذا هدًّا لجدران تقاليد دهريّةٍ غاشمةٍ.

وقد برهنت المرسلات عن جرأةٍ نادرةٍ، وعن شملهنّ الجميع بمحبَّتهنّ وعطفهنَّ من غير تمييزٍ، بتقديمهنّ العون، سرًّا، لشراذم البيهاريّين والباكستانيّين الذين اشتركوا في الاعتداء على البنغلاديش، والمختبئين، خشيةَ الانتقام، ريثما يتيسّر لهم الفرار إِلى وطنهم.

وتدفّقت التبرُّعات من كلِّ صوبٍ، مساندةً لأَعمال الأُمّ تيريزا في بنغلادش، غير أَنّ أَبرزها، وأَعمقها مغزًى، كان تبرّع رهبانٍ في صحراء "أوتاه" الأَميركيَّة، بمبلغ عشرين أَلف دولارٍ كانوا قد وفّروه على مدى سنواتٍ، من أَجل إِصلاح ديرهم ولكنّهم آثروا أَن يدعموا به عمل الأُمِّ تيريزا.

وقد أَنشأت مرسلاتُ المحبّة، في مختلف أَرجاء بنغلاديش، خمسة مراكز كانت تتلقّى، بلا انقطاعٍ، تبرُّعاتٍ تتيح لها المضيّ قُدُمًا في مشاريعها الإِنسانيّة، ولكن، بعد عشر سنواتٍ من الخدمة المتجرِّدة المتواصلة، صدر، في مطلع عام ١٩٨٣ قانون يقضي بمصادرة جميع التبرُّعات الوافدة من الخارج، وبتوزيعها من قبَل مؤسَّساتٍ حكوميّةٍ. وكان هذا القرار يُنذر بالقضاء على مشاريع الأُمِّ تيريزا، فشخصت إِلى بنغلاديش وقابلت رئيس الوزراء، حسين إِرشاد، وأَوضحت له أَنّ الأَخوات، كي يقوَينَ على مواصلة خدمتهنّ، لا بُدَّ لهنَّ من دفقٍ متَّصلٍ من أَموالٍ، وأَدويةٍ وأَغذيةٍ، وأَنذرته، من غير مواربةٍ:

« – "إِذا ما صدر مثل هذا القرار لسحبتُ أَخواتي من بلدكم!" فأجاب بحدّةٍ:

– "إِنّني أَمنعك من سحبهنّ »."

وفي الغداة دعته لمرافقتها إِلى "بيت العطف"، حيث شاهد، بأُمّ عينه، مرضى ومُسنّين مُهمَلين، لا مأوًى لهم سوى ذلك البيت، ولا أَحد يرعاهم سوى مرسلات المحبّة، فصرّح، دَهِشًا:

– "لم أكن أَتخيَّل أَنّ هنا، في المدينة، من شعبنا، من يُقاسي مثل هذا الوضع البائس!"

وقد ازداد إِصرارًا على بقاء المرسلات في بلاده، فاستثناهنّ من قراره، وسمح لهنّ بالاستمرار في تلقّي المعونات الخارجيّة مباشرةً.

في الولايات المتّحدة الأَميركيّة

أَحداث بنغلاديش الموجعة، مضافةً إِلى العمل المضني في مخيّمات اللاجئين الضّاجَّة بالسقَم والروائح المُقزِّزة، ومشاهد البؤس البريء، قد نالت، كلُّها، من الأُمّ تيريزا، إِرهاقًا وانهيارًا، فعجزت عن أَسفارٍ كانت قد خطّطت لها، وعن لقاآتٍ كان يَتَطَلَّع إِليها آخرون بتوق.

ففي شهر آب ١٩٧٠، كانت تُعدُّ للانطلاق بفريقٍ من أَخواتها إِلى ضاحية "برونكس" النيويوركيَّة، لتأسيس أَوّل مركزٍ لها في الولايات المتَّحدة. وقد يُستغرَب مُضِيُّها إِلى بلادٍ مشهورةٍ بأَنّها من أَغنى بلدان العالَم، وهي التي كرَّست جهودها وجهود أَخواتها لخدمة أَفقر الفقراء والمتأَلّمين. ولكن لم يَعُدْ خفيًّا أَنّ في تلك البلاد، ولا سيّما في ضواحي مُدنها الكبرى، ونيويورك في طليعتها، من البؤس، أكثر ممّا تعهده كلكتّا، ولو من نمطٍ مختلف. فقد اكتشفت الأُمُّ تيريزا أَنَّ للغرب، أَيضًا، محروميه الذين قد لا يعانون البَرص أَو الكوليرا، وقد لا يرتدون أَسمالاً، ولا ينفقون جوعًا، ولكنَّهم يقاسون قلق الوحدة والخوف، معزولين عن سائر البشر، ولا سيَّمَا عن الناجحين والنجوم، الذين يغالي القومُ في تبجيلهم ويحسدونهم. ولا مِراءَ أَنّ الجروح التي يحملها أُولئك المهمَّشون في صدورهم لا تقلُّ إِيلامًا عن البَرَص. فمن وراء بريق ترف الاستهلاك، وأَضواء الشاشات ولألائها، استشفّت الأُمُّ تيريزا السلك الدقيق الذي يربط بين القابعين على أَرصفة كلكتّا، وأولئك المنسيِّين والمذعورين في ضواحي روما ونيويورك، وقد اعترفت، بشأن ضاحية برونكس: "**الفقر مبثوثٌ في كلّ مكانٍ، ولكنَّه، هنا، يتجلّى في أَسوأ مظاهره، لأَنَّ القوم، ولا سيما الملوَّنين منهم،**

ليسوا مقبولين ولا محبوبين. وهناك تقوم الأَخوات بمثل ما يقمنَ به في كلّ مكـــانٍ، يزرْنَ الفقراء، ويساندْنَ المرضى، ويُثقِّفنَ الأَولاد، ويناهضنَ التفرقة العنصريَّة".

انغماس الأُمّ تيريزا، إذن، في حمأة بنغلاديش، وما أَفضى إِليــه مــن انهيــارٍ أَقعدها، قد أَجبراها على إِرجاء تأسيس فرعها النيويوركيّ، والكثير من الأَحداث التي كَان مخطَّطًا لها أَن تواكبه، من تقليدها أَوسمةً، ومنحها جوائز، وتكريمها بــدكتوراه فخريّةٍ من جامعاتٍ شهيرةٍ. ولا بِدْعَ أَنّ من أكثر المواعيد الملغيّة خطورةً لقاءً كانت قد دُعيتْ إِليه رئيسات الرهبانيّات النسائيَّة في العالَم، التي كانت، جميعها، تئنّ مــن تدنّي عدد الدعوات، وتصبو إِلى الاستهداء بنهج الأمّ تيريزا، التي كانــت جمعيَّتهــا، رغم ما تتميَّز به من شظَف عيشٍ وقسوته، ماضيةً في النموِّ نموًّا مذهلاً. وقد كتبــت الأُمُّ لأولئك الرئيسات معتذرةً:

« الرئيسات العامّات العزيزات،

"إِنّني آسفةٌ جدًّا لاضطراري إِلى تخييب أَملكنّ. لقد كنتُ أَتطَلَّعَ إِلــى لقــائكنَّ، والاكتساب من خبرتكنّ، ولكن، كما تعلمنَ، أَرهقني العمل مع اللاّجئين، بحيث أَجــد نفسي عاجزةً، جسديًّا، عن المجيء للقائكنّ ».

وكان الكردينال كوك راغبًا في أَن تعمل مرسلات المحبَّة في غَوْث أُسَــرٍ مــن العمّال المهاجرين في "نيو بورغ"، غير أَنَّ الأُمَّ كانت قد سمعت عن جحيم هارلم، في ضاحية نيويورك، وعن حيّ "برونكس"، مُجمَّع السود والبورتوريكيّين، حيث يعشِّش البؤس، وتتفشّى المخدِّرات والجرائم. وإِذ كانت الأُمّ تزور، يومًــا، تلــك المنــاطق الموبوءة، فاجأها كاهنٌ بالسؤال:

« – "مع كلِّ ما في الهند من بؤسٍ، ما الذي دفعك إِلى المجيء إِلى هنا؟

– لكي أَخدم، فحسبُ.

– ولكن كيف تظنّين أَنّك ستستطيعين الخدمة!

– بوسعنا أَن نكون جسرًا بين من يملكون الكثير، والذين يملكون أَقلّ؛ وممّا سيساعدنا على أَن نكون ذلك الجسر، أَنَّ أَخَواتنا، بلون جلدتهنَّ الداكن، هنَّ الأَقرب إِلى الملوَّنين ».

أَمّا بشأن افتتاح مركز "برونكس"، فقــد ارتــأَت الأُمُّ إِيفــاد الفريــق المعــيَّن

للاضطلاع بتلك المهمّة، وتخلَّفت هي عن مرافقته، بعد أَن تعهَّد الكردينال كوك أَمر استقباله وإِيوائه مؤقَّتًا. وقد أَوكلت الأُمُّ إِلى أُختٍ لها أَلمانيّةٍ، الكتابة إِلى إِحدى المتعاونات الأَميركيّات، وجاء في تلك الرسالة:

« في ما يتعلّق بإِعداد مركزنا الجديد أَعلم أَنّك، وجميع الآخرين، ترغبون في جعله على أَجمل نَسَقٍ. ولكنَّ الأُمَّ تيريزا وأَنا نرجوك، بإِلحاح، تفادي كلّ ما لا يتوافق مع فقرنا. ونودّ، لو تستطيعين، الحصول على ستَّة أَسرَّةٍ حديديّةٍ، وبعض الأَثاث البسيط، ومن الأَفضل أَن يكون مُستَعملاً، وغير مُجدَّدٍ، مثل منضدةٍ ومقعديْن خشبيَّيْن بسيطيْن، ومنضدةٍ صغيرةٍ، وخزانةٍ، وبعض رفوفٍ لأَجل الكتب، الخ... إِنّ الصناديق الخشبيّة الفارغة، من كافّة القياسات، قد تكون صالحةً وملائمةً. إِنّني واثقةٌ أَنَّك تدركين مُبتغانا، وأَنّك ستساعديننا على الحفاظ على روح فقرنا.

"ملاحظة: سنجلب معنا معدّات طهونا الهنديّة، وفُرْشَنا ».

تلك الرسالة تعكس حرص الأُمّ الشديد على التشبُّث بالفقر، وخشيتها من أَن ينال منه مجتمعٌ استهلاكيٌّ باتت نيويورك نموذجه الأَمثل.

وكم كانت دهشة رجال الجمارك بالغةً عندما شاهدوا الراهبات الخمس قادمات يحملنَ فُرشهنّ ملفوفةً تحت إِبطهنّ، ومعدّات طهوهنّ الغريبة، الوضيعة، وكأَنّهنّ فئةٌ من المهاجرين الذين كانوا يغشون العالَم الجديد، قبل قرنٍ أَو أَكثر، متأَبِّطيين أَمتعتهم الزريّة. ولم تنْجُ من تلك الدهشة رئيسة دير راهباتٍ سوداواتٍ استضفنَ مرسلات المحبَّة، وكنَّ قد أَعددْنَ لهنَّ مقرًّا لائقًا في ديرهنّ، غير متخيِّلاتٍ أَنّهنَّ سيتشبَّثْنَ بفقرهنّ كلَّ ذلك التشبُّث، حتّى في عاصمة الرفاه العالميّ.

بعد ثلاثة أَشهرٍ قضينَها في ضيافة الراهبات الفرنسيسكانيّات السوداوات، انتقلت مرسلات المحبّة إِلى بناءٍ قدّمه لهنّ الأُسقف الذي استقبلهنّ في حفاوةٍ بالغة. ولكنّهنّ أَنفقنَ أَيّامًا عديدةً في إِفراغ ذلك المقرّ من كلّ "تَرَفٍ نافلٍ"، ممّا يعدّه حتّى فقراء أَميركا ضرورات عيشٍ أَساسيّةً، إِلى أَن جرَّدنَه من الأَسرَّة، والسجّاد، والستائر، والبرّادات، وآلات الغسيلَ وما شابهها، والتي أَنزلْنَها جميعها إِلى الشارع حيثُ بعنَها لباعةٍ متجوّلين، كي يُنفقنَ أَثمانها على الأَكثر فقرًا وحرمانًا، في ذلك الحيّ المضطرب من ضاحية "هارلم"، حيثُ يختلط البغاء بترويج المخدّرات وبالجنوح المتعدّد الأَشكال.

وسُرعان ما رحَّب الأَهالي بالراهبات القادمات، وقد جاء أَحرّ ترحيبٍ بهنّ من الجماعات البورتوريكيّة السوداء، ما أَتاح للمرسلات أَن يحقِّقنَ، في غضون أَشهرٍ معدوداتٍ، مهمّاتٍ جسيمةً.

وسُرعان ما اتّضح أَنّ وجود المرسلات في برونكس كان ضرورةً لازبةً، في إِحدى أكبر مدن العالم، وأَغناها، وَأَكْثَرهَا ازدحامًا بالمُهمَّشين.

وما زالت الأُمُّ تذكر ذلك الرجلَ الذي قرع بابهنّ، وبيده دفتر شيكاتٍ، داعيًا إِيّاها إِلى تدوين المبلغ الذي تحتاج إِليه؛ وشكرتْه الأُمّ موضحةً أَنّها ليست في حاجةٍ إِلى مالٍ؛ غير أَنَّها أَومأت إِلى أَرضٍ مهجورةٍ محاذيةٍ لديرهنّ، تُستخدم مرمى للقمامة، معربةً عن رغبتها في تحويلها إِلى حديقةٍ يعبث فيها أَولاد الشوارع.

وفي الغداة، فوجئت الأُمُّ برتلٍ من الجرّارات والشاحنات تنظِّف المكان، وبضيف الأَمس يُعلن مبتسمًا: "إِنّني مُتعهِّد بناءٍ، وفي غضون أَيَّامٍ ستكون لك حديقتُك".

وقد انصبّ اهتمام مرسلات المحبَّة، في برونكس، على المُسنّين الذين لا يجسرون على مغادرة منازلهم خوفًا من العنف المستشري، وحيثُ غالبًا ما تُكتَشف جُثّةٌ متفسّخةٌ لرجلٍ مسنٍّ، أَو امرأةٍ عجوزٍ، لقيا حتفهما في عزلةٍ مطلقةٍ. وطفقت المرسلات يزرنَ، في المشافي، من تمادى علاجُهم، وسئم أَقرباؤهم من زيارتهم؛ وفي أَيّام الآحاد، كنَّ يشخصنَ إِلى السجن، حيثُ يتلونَ المسبحة، ويُرتِّلنَ القدّاس مع السجناء. أَمّا في مركزهنَّ فكنَّ يستقبلنَ النساء الوحيدات، والمتخلِّفين عقليًّا، ويوزِّعنَ وجبات طعامٍ على نحو ستّين فقيرًا.

وبعد نيويورك، افتتحت المرسلات مراكز في شتّى الولايات: أَركنساس، وكاليفورنيا، وفلوريدا، وميشيغان، وميسّوري، ونيو جرسي، وپينسيلڤانيا، وإِيلينويس، الخ... وقد حدَّدت الأُمُّ لأَخواتها هَدَفًا أَولويًّا، يتمثّل في مكافحة التفرقة العنصريّة، وما انفكّت تردِّد: "**الفقر يغشى العالم، ولكنّه، هنا، مريعٌ، لأَنّ الملوَّنين مرفوضون، وغير محبوبين**".

وبالإِجمال بزّ إِكبارُ الأَميركيّين للأمّ تيريزا إِكبارَ الأوروپيّين لها، فالأَميركيّون أَشدُّ إِعجابًا بالعصاميِّين المولودين من أَسرٍ مُغفَلَةٍ، في مطارح فقيرةٍ، ومع ذلك يُصعِّدون في معارج النجوميَّة العالميّة؛ وكانت الولايات المتّحدة، بعد الهند، البلدَ

الذي شهد امتداد أَرحب شبكةٍ من مراكز الأُمِّ تيريزا فوق أَراضـيه، وتمتَّعـت الأُمّ تيريزا، في وسائل إِعلامه، بأكثف حضورٍ، وأَبلغ أَثرٍ.

لقد رحَّبت الولاياتُ المتَّحدة بالأُمّ تيريزا ترحيبَها بنجمةٍ وبنبيَّةٍ؛ والأُمّ لم تلقَ، بعد الهند، مجالاً لرسالتها أَرحب وَأَكْثَر ملاءمةً من الولايات المتَّحدة، حيثُ اكتشفت أَماكن جديدةً، وأَطلقت مشاريع جديدةً، مع أَنّه، ربّما، ليس، على الأَرض، مثلُ ما بين الهنـد والولايات المتّحدة من تبايُنٍ، تاريخًا، وثقافةً، وتنظيمًا اجْتِمَاعِيًّا، وتقاليد. فالهند، التـي تضرب جذور تاريخها في أَغوار أَلفين وخمس مئةٍ من السنين، مازالت سجينة قيـود نظامٍ طَبَقيٍّ غاشمٍ، يتحكّم بمصائر ملايين المواطنين بلا رحمة؛ وأَمّا طوائفها الدينيّـة المتعدِّدة فلا علاقات في ما بينها، ولا تزاوُرَ ولا لقاء، إلاّ في حالاتٍ نادرةٍ؛ في حـين أَنَّ الولايات المتَّحدة هي مزيجٌ من مهاجرين قادمين من مختلف الآفاق، وهي جاثمـةٌ على ذروة التقدُّم التقنيّ، ولاتني تدحر أَمامها تخوم العلم، والتقنية والاتّصالات، وفيها، أكثر من أَيّ مكانٍ آخر، تنبض وتتفاعل حرِّيَّةُ حركةٍ، وتجديدٍ، وتجربةٍ.

وكانت الأُمّ تيريزا، نوعًا ما، تجسيدًا للحلم الأَميركيّ، صبيَّةً نكرةً، وُلِـدتْ فـي مكانٍ مُغْفَلٍ من البسيطة، ولكنّها تسلّقت، درجةً فدرجةً، سُلَّم الشهرة إِلـى أَن بـات يطاردها الصحافيّون، وتنشر المجلاّتُ الكبـرى صُـوَرها علـى غلافاتهـا، وفـي تضاعيف مقالاتها الرئيسيّة، وتتناقل الإِذاعات والتيليفزيون تصريحاتها؛ وقد عبّـرت سيّدةٌ أَميركيّةٌ عن مدى هَوَس مواطنيها برؤية الأُمِّ تيريزا لمّـا اعترفـت: "عنـدما افتتحت الأُمُّ مركزًا جديدًا في ديترويت، حاولتُ، يائسةً، الظَّفرَ بدعوةٍ لحضور حفلـة ذلك الافتتاح، ولكنّ ذلك كان مستحيلاً، فقـد كـان القـوم يتخـاطفون الـدعوات، واضطرِرْتُ إِلى الاكتفاء بمراقبة الأَحداث على شاشة التيليفزيون".

والأُمُّ، بمجرّد ظهورها، تُلهب خيالَ الأَميركيّين، فهي، أَبدًا، مبتسمةٌ، مشجّعةٌ، نـشيطةٌ؛ وهي بتواضعها وطيبتها، جميلةٌ في عيونهم، تذكّرهم بأَيّـامِ الـروّاد الأَوائـل، وبالفـضاء الرحيب، فتتدافع الجموع كي تكتشف معها عالَمًا جديدًا. وقد تُفجِّر من مكامن نفوس القـوم، الكثير من السخاء، والتقوى، والاندفاع، للذَّوْد عن قضايا الأُمّ السامية، لا بالكلام والمقـالات فحسب، بل بتكريس الذّات والحياة، وبذل الطاقات في سبيل أَعمال المحبّة.

وكانت نيويورك، للأُمّ، بمثابة كلكتّا ثانية، ففيها أَسَّست أَوّل فرعٍ أَميركيٍّ، كمـا

استحدثت فيها أوّل فرعين هامَّيْن جديدَيْن في تاريخ جمعيّتها: فرع المُرْسَلات المتأمِّلات، والمركز الأوَّل لرعاية مرضى الإيدز. وفي نيويورك أطلقت حركة "جسد يسوع" وهي حركة كهنةٍ ينهضون بواجبهم الكهنوتيّ، وفقًا لروحانيّة الأُمّ تيريزا، فيُغدقون رعايتهم الروحيّة على الفقراء. وفي نيويورك، أيضًا، عُرِضَ للمرَّة الأُولى فيلم "الأمّ تيريزا"، في مقرّ الأمم المتّحدة، حيث حيّاها أمينها العامّ دي كويلار على أنّها "المرأة الأشد نفوذًا في العالَم".

لقد كانت نيويورك، للأُمّ تيريزا، معينَ فُرَصٍ ثمينة، ومُنطلقًا إلى العالَم الرحب حيث تذاع أعمالها، وخطاباتها، وصلواتها، وتُصوَّر، وتُعمَّم على المسكونة جمعاء.

ولم يخفَ، مع ذلك، على الأُمّ أنّ نيويورك كتلة تناقضاتٍ هائلة، ففيها تروح المتاجرة بكلّ أصناف الرذائل. ولقد استشفّت، من خلال الفورة العارمة، والحياة المترفة، والثروات التي تُكدَّس بسرعة، وتُنفَق بسرعةٍ أكبر، كراهيةً عرقيّةً متأصّلةً، بحيث لا يجسر إنسانٌ أبيض أن يطأ بعض الأماكن، ولا يجرؤ السود على المخاطرة بتخطّي أماكن أُخرى. ومع ذلك، تحدَّت هي وأخواتها تلك الحواجز، وبحبِّهنَّ، ظهرنَ على كلّ شحناء، واستطاعت الأمُّ أن تصرّح: "**تخاطر أخواتي في شوارع محظورة على البيض، فلا يعترضهنّ أحد، فيرُحْن ويغدون متسربلاتٍ بالساري، وقد قبلهنّ السود لأنهنّ مكبّاتٌ على العناية بأولادهم وشيوخهم**".

ونيويورك هي أكثر مدينةٍ تطير إليها الأُمّ تيريزا، وما تكاد تحطُّ في مطارها حتّى تهرع بها سيّارةٌ إلى مقرّ الجمعيّة في "برونكس"، حيث تعكف في الحال على بحث القضايا الراهنة، واحتياجات القوم الملحّة.

وعلى غرار المهاجرين الذين، بعد أن يحطّوا الرحال في نيويورك يمضون ينشدون، داخل البلاد، مواقع أفضل، راحت الأُمّ تيريزا تبحث عن مواضع ملائمةٍ لاستثمار طاقات أخواتها في مضمار الخدمة.

ولطالما حثّها أُسقف واشنطن، بلجاجةٍ، على افتتاح مركزٍ في رعيّته، ولكنّها تردّدت في الاستجابة لرغبته، بعد أن حاولت إحدى أخواتها ثنيها عن المضيِّ إلى عاصمة السطوة الغاشمة، والصفقات المشبوهة، محذِّرةً إيّاها من أنَّ إقامتها مركزًا هناك قد يُفسَّر على أنّه محاولةٌ للتَّقرُّب من أصحاب النفوذ. غير أنّ مرشدها الروحيّ

قد أَسدى لها نصيحةً مناقضةً، مبيِّنًا أَنّ السياسيّين لا يمكثون إِلاّ لمامًا في العاصمة، حيث تعيش أَكْثَرِيَّةٌ سوداء في ظروفٍ بائسة، لا بل إِنّ طائفةً منهم تعيش دون عتبة الفقر، بحيث تتّسع للمرسلات فسحةُ عملٍ رحبةٌ؛ ذلك فضلاً عن وجودٍ كاثوليكيٍّ راسخٍ في واشنطن، بفضل الجامعة الكاثوليكيّة، وجامعة جورج تاون اليسوعيّة.

وافتُتح أَوّل مركزٍ لمرسلات المحبّة في واشنطن عام ١٩٨١، تلاه، فيما بعد، مركزٌ تأمُّليٌّ. وفي ٢٠ حزيران ١٩٨٥، قلّد الرئيس ريغان الأُمّ تيريزا أَسمى تكريمٍ، وهو وسام الحرِّيّة الرئاسيّ. وكان موعد ذلك الاحتفال قد حُدِّد، أَصلاً، في ٢٣ أَيّار، غير أَنَّ مشاغل الخدمة قد حال، آنذاك، دون حضور الأُمِّ تيريزا. وقد أَثار هذا التأخير اهتمامًا مضاعفًا لدى وسائل الإِعلام. ولمّا قلَّدها الرئيسُ، أَخيرًا، الوسام، بدأ بالتماس العذر لها قائلاً: "**إِنّها لم تستطع الحضور في الموعد المحدّد، لأَنّها كانت مشغولةً، كما هي دائمًا، بخلاص العالم**". **وأَضاف، بعد تقليدها الوسام**: "**هذه هي المرَّة الأُولى التي أَمنح فيها قلادة الحرّيّة، ويخامرني الشعور بأَنّ التي تتلقّاها قد تذيبها كي تبيع ذهبها لصالح الفقراء**". وقد ردّت الأُمُّ أَنَّها، رغم عدم استحقاقها، تقبل هذا الوسام من أَجل مجد الله الأَعظم، وباسم ملايين الفقراء "عسى أَن تنفذ إِلى قلوبهم عطيَّةُ الحبّ هذه، فبتقديمكم إِيّاها، إِنّما لهم تقدِّمونها".

بضعة أَشهرٍ، بعد ذلك، افتتحت الأُمُّ في نيويورك أَوّل مركزٍ لاستقبال مرضى الإِيدز الذين هالها ما يهوون إِليه من عزلةٍ ونَبْذٍ، وربّما من شماتة من رأى في علّتهم عقابًا سماويًّا على شذوذٍ جنسيٍّ، أَو إِدمان مخدّراتٍ؛ فهي، أَيضًا، كانت تمقت الخطيئة، ولكنَّها تُشفق على الخاطئ الذي لا تلمح فيه سوى أَلمه. وقد دشّنت ذلك المركز، الذي أَطلقت عليه اسم "هبة الحبّ" عشيّةَ عيد ميلاد ١٩٨٥، بحضور عمدة نيويورك، وحشدٍ من الصحافيّين، وقد جاءت إِليه بنزلائه الثلاثة الأُوَل من سجنٍ كانوا يقضون فيه أَيّامهم الأَخيرة، حيثُ ضاعفت وحشة السجن آلام احتضارهم المُضنية.

وتروي الأخت دولوريس، في هذا السياق: "الكردينال اوكونور هو الذي ساعدَنا على افتتاح أَوّل مركزٍ لمرضى الإِيدز عام ١٩٨٥. إِنّ الأَوضاع الرهيبة في سجن سنغ سنغ هي التي دفعتنا إِلى إِنشاء هذه المؤسَّسة، وكان نزلاؤنا الأَوائل سجناء أُوكلت إِلينا رعايتهم. كانوا يعالَجون في عدّة مشافٍ حيثُ كنّا نزورهم، وكانوا عمومًا

مساجين ينبذهم الجميع، وتقطر قلوبُهم مرارةً. وما آلم الإِكبابَ على معالجة أَمثال أُولئك الذين حوّلتْهم الحياةُ حطامًا! ولذلك، كنّا نجهد في خلق روح أُسرةٍ بينهم وبيننا، فنتناول وجبات طعامنا معًا، ونُنظِّم لهم لقاآتٍ، وصلواتٍ، وتسلياتٍ. كثيرون منهم كانوا يشعرون بأَنّ أُسَرَهم تنبذهم. ولكن، في أَعقاب قضائهم بعض الوقت معنا، وبنعمة الله، كنّا نفلح في توثيق علاقاتهم بذويهم، فغدا بعضُهم يراسلون، وآخرون يهاتفون. وفيما كانت جماعتنا تنمو، كان أَحد المرضى يشرع بمساعدة آخر... وكانت تلك الخدمات الصغيرة تؤتي ثمارَ حبٍّ، وفرحٍ، تحت أَنظارنا المتأثِّرة".

وتقول الأخت "دولوريس" أَيضًا: "إِنَّ جميع الذين يأتون إِلى مراكزنا، وجميع مرضى الإِيدز يصلون يائسين تمامًا، ولكن بفضل العناية الرقيقة التي تُحيطهم بها أَخواتنا والمتطوِّعون يغزو السلامُ قلوبَهم، وهكذا يغدو لهم مركزنا بيتًا حقًّا. كثيرون يصرّحون: - "هذا هو المكان الأَخير الذي سأعيش فيه وأَبقى". وقد أَجبتهم دائمًا:

« - "بل هو المكان قبل الأَخير. فمن هنا ستنطلقون إِلى منزلكم الحقّ حيثُ ينتظركم الأَب السماوي".

"وكثيرون منهم يتحرّقون، بنفاد صبرٍ، توقًا إِلى أَن يُستقبلوا في المنزل السماويّ ».

وكانت الأمُّ قد افتتحت، في تشرين الثاني من ذلك العام، استجابةً لرغبة الرئيس ريغان، مركزَ استقبالٍ في واشنطن، ثمّ ما لبثت أَن افتتحت مراكزَ مثيلةً له في مختلف أَنحاء البلاد.

ومن جهةٍ أُخرى أَنشأت مركزًا تأمُّليًّا في العاصمة الأَميركيَّة، ومركزًا مماثلاً في شيكاغو، بحيث غدا لها ثلاثة مراكز للمرسلات المتأَمِّلات في الولايات المتَّحدة، قبل أَن تفتتح مركزًا من هذا النمط في كلكتّا.

وكان للأُمِّ، في الولايات المتّحدة، صولاتٌ وجولاتٌ مع المسؤولين، على شتّى الأَصعدة. ففي عام ١٩٧٤، كانت الحكومة الأَميركيّة قد قرّرت وقف تدفُّق المساعدات الغذائيّة إِلى العالَم، وحصرها ببرنامج الغذاء مقابل مشاريع العمل، وقد أَدّى ذلك القرار إِلى تقليص كمّيّات الغذاء التي كانت تساعد الأُمّ تيريزا على تأمين احتياجات "قومها" المعوزين. واتّفق أَن زارت أَخواتها في نيويورك، في تمّوز من ذلك العام، فدعاها السيناتور هيوبرت همفري إِلى الشهادة أَمام لجنة العلاقات

الخارجيّة في مجلس الشيوخ. فكانت لسان حال الفقراء والجياع عندما صرّحت:

« إنّ الفقراء هم أَمل البشريّة، وهم، أَيضًا، أَمل الشعب الأَميركيّ، لأَنّنا، من خلالهم، نرى المسيح الجائع يَتَطَلَّع إِلينا، فهل نرفضه؟

"وعندما تُلغى الهبات الغذائيَّة من أَجل "حالاتٍ صحّيَّة"، ونفتقر إلى ما نقدّمه لهم، نجد أَنّهم سيُحجمون عن الحضور للعلاج. هكذا سيفعل، على سبيل الشاهد، الستَّة وأَربعون أَلف أَبرص الذين نُعنى بهم ».

إِثر ذلك صرّح السيناتور همفري أَنّ كلمات الأُمّ تيريزا كانت إِلهامًا للجنته، وأَضاف: "**كانت تراودني رغبةٌ عارمةٌ في سماع شخصٍ يمارس، في حياته، خصال العطف والحبّ والرقّة، لأَنَّ الحكومات، أَحيانًا، تفقد إِنسانيّتها**".

ثمَّ كان لها لقاءٌ خاصٌّ مع عددٍ من أَعضاء مجلس الشيوخ المعجبين بإِنجازاتها، وقد استأثرت باهتمامهم عبارةٌ وردت على لسانها، وباتت للكثيرين منهم شعارًا، إِذ قالت: "**ليست دعوتي أَن أكون ناجحةً، بل أَن أكون وفيّةً**".

وفي أَعقاب أَسابيع من النقاش بين الحكومتيْن الأَميركيّة والهنديّة، أُعلن عن استئناف توريد الأَغذية الأَميركيّة من أَجل "الحالات الصحّيَّة" للأُسَر المحتاجة، والأَطفال الجياع، و"قوم" الأُمِّ تيريزا التي عبَّرتْ عن أَعمق شكرها، باسم "أَفقر الفقراء".

وقد أَبدى روبيرت مكنامارا، مدير البنك الدوليّ، رغبةً في التحدُّث إِليها، والاطِّلاع على إِنجازاتها في مختلف جيوب الجوع في العالم، وأَعلن عن رأيه بأَنَّها كائنٌ بشريٌّ فذٌّ . وقد كان لرأيه هذا أثرٌ حاسمٌ في منحها جائزة نوبل للسَّلام عام ١٩٧٩.

وأَخيرًا، دُعيت الأُمُّ تيريزا إِلى لقاءٍ مسكونيّ في كنيسةٍ معمدانيّةٍ في واشنطن حيثُ أَدلى سُفراء بشهاداتهم عن غوثها للفقراء واللاجئين؛ ثمّ رنَّم القسّ الدكتور إِيـڤـانس فصلَ إِنجيل القدّيس متّى حيثُ يتمثَّل يسوع بالأَدنَيْن من جياعٍ وعطاشٍ، وعراةٍ، ومشرّدين؛ وأَعلن أَنَّ الأمَّ ستتكلّم، للمرَّة الأولى، في كنيسةٍ پروتستانتيَّةٍ، وكان حديثها تبيانًا لكيفيّة ترجمة ذلك المقطع من الإِنجيل، من أَلفاظٍ مجرَّدةٍ مبهمةٍ إِلى واقعٍ حيٍّ، لصالح الأَشدّ معاناةً في الأُسرة البشريّة؛ وقد سُجّل ذلك اللقاء، ووزّع المتعاونون تسجيلاته على نطاقٍ واسعٍ.

وجديرٌ بالتنويه أَنّ الولايات المتّحدة تحتضن أكبر عددٍ من المتعاونين مع مشاريع الأُمّ تيريزا، بما لا يُقاس مع أَعدادهم في بلدانٍ أُخرى، وهم يؤمّنون لجمعيّة مرسلات المحبّة موارد جسيمةً تتيح لها نشر أَعمال المحبَّة في العالم، وتوسيع رقعة مساعداتها لفقراء البسيطة أينما وُجدوا.

وقد استنهضت أَنباءُ إِنجازاتها التي وجدت لها أَماكن بارزةً في الصحف والمجلاّت، وعلى شاشات التيليفزيون، جمًّا من النفوس السخيّة، والدعوات الراسخة. غير أَنّ وجوب المثول إِلى كلكتّا لقضاء فترة الابتداء هناك قد ثبَّط عزائم الكثيرات من طالبات الانتساب إِلى جمعيّة المرسلات؛ وحينئذٍ قَرَّرت الأُمُّ إِرسالهنّ إِلى روما لممارسة الابتداء فيها، لأَنّها كانت حريصةً على إِبعادهنّ، ولو فترةً، عن محيطهنّ المغرق في الترَف. ولكنّها، بعد عشر سنواتٍ، افتتحت لهنّ مركز ابتداءٍ في سان فرنسيسكو، فتضاعفت الدعوات، ورأت مراكز جديدةٌ النورَ في عشرات المدن الأَميركية. ولا بدعَ في ذلك، فميدان الرسالة والتوسُّع رحبٌ مترامي الأَطراف، والدعوات الثابتة غزيرةٌ، والموارد تتدفّق بسخاءٍ لا يعرف الانكماش، والإِكليروس يساند مرسلات المحبَّة، بلا تحفّظٍ.

سَهَرٌ على روحانية الجمعية

مع انهماكها في تأسيس فروعٍ في شتّى بقاع الأَرض، وحرصها على التثبُّت من سداد نهجها، لم تُغفل الأُمُّ، يومًا، الهندَ، حيث لم تفتر حركة افتتاح مراكز جديدةٍ، ولم تخمد، قطُّ، رغبة الأُمِّ في إِبقاء جذوة حبِّ الرسالة مضطرمةً في صدور أخواتها، فعملت، دائبةً، على إِذكائها. لقد كان ذهنُها وقلبُها مشغولَيْن، أَبدًا، بالحرص على تثقيف الأَخوات وطالبات الرهبنة، وعلى صَوْغ روحانيّتهنّ بيدها، بحيثُ، عندما ستضطرّ هي إِلى السفر، يكنَّ مؤهَّلاتٍ لإِعطاء ما تلقّينَه منها لأَخواتهنَّ المبتدئات. وقد حرصت على زيارة كلّ فرعٍ من فروع الجمعيّة مرّةً كلّ سنةٍ، أَو، أَقلّه، مرَّةً كلَّ سنتين لترسيخ تلك الثقافة، وللتثبُّت من رسوخها.

وكانت كلٌّ من زياراتها تلك عيدًا لأَخواتها، وذكرى لا يُمحى لها أَثرٌ، إِذ يُتاح لكلٍّ منهنَّ النهْل، عن كَثَبٍ، من معين القداسة الثرّ المتفجّر من أُمِّهنَّ العزيزة،

واقتباس نار الحبّ المتضوِّع من كلّ كيانها، والتعلُّم من خبرة عيشها الحميم مع صديقها، وقرينها، وربّها يسوع. وفيما خلا ما كانت تُقسَر عليه، أَثناء تلك الزيارات، من مقابلاتٍ رسميّةٍ وإِعلاميّةٍ، كانت أَعذب ساعاتها تلك التي تقاسم، أَثناءَها، أَخواتها كلَّ مهامّهنّ اليوميّة، حتّى أَوضعها، من كنسٍ، وتنظيفٍ وغسلٍ.

وحيثما مضينَ، في الهند أَو في أوروپا، في أَميركا أَو في أَفريقيا أَو في الشرق الأَوسط، كانت الأَخوات يُجسِّدْنَ رؤية أُمِّهنَّ الحافلة بالحبّ، والنابضة في تضاعيف قوانينهنَّ التي لا يكففنَ يراجعنَها، ويتملّينَ من مضامينها، والتي تُغذِّيها زيارات الأُمّ تيريزا ورسائلها، فضلاً عن نشرةٍ دوريّةٍ تجوب العالَم، وتتيح للأخوات، حيثما كنَّ، تبادل خبراتهنّ وسط أَفقر الفقراء، في شتّى أَركان البسيطة؛ تلك النشرة تحمل العنوان الهنديّ "إِكديل" أي "قلبٌ واحدٌ".

والأمُّ تيريزا دائمة الحرص على تشبُّث المرسلات بزيِّهنَّ المميَّز أَينما ذهبنَ، وعلى عدم المكوث، في بلدٍ ما، أكثر من سنتَيْن أَو ثلاث سنوات. وفي حين تعتمد رهبانيّاتٌ أُخرى على الوقت لتجذُّر راهباتهنّ في بلدٍ ما، اختارت الأُمُّ الحركةَ الدائمة، وجدوى العمل الفوريّ، وهي حريصةٌ على أَن تكون كلُّ مرسلةٍ من مرسلاتها متأَهِّبةً، في كلّ لحظةٍ، لهجر كلِّ شيءٍ، والمُضيِّ إِلى مكانٍ آخر. أَوَليس، في ذلك، حمايةٌ لهنّ من ذواتهنّ ومشاعرهنّ، ومن تعلُّقهنَّ بأَخواتهنّ، وبالذين يعنونَ بهم؟

ومع كلّ انتشارٍ في الداخل والخارج، تظلُّ كلكتّا هي موقع القيادة، وقلب الرسالة. فالسلطات هناك، تُجلّ الأُمّ تيريزا، وتسهّل لها المعاملات، فتشرف، هي بنفسها، على تسلّم موادّ الغوث؛ وضنًّا منها على طعام الفقراء من اختلاسٍ أَو سوء تصرُّفٍ، تجلبه بنفسها، وتقبع على أكياس الأَغذية، على متن الشاحنات، أَثناء نقلها.

وقد بات اندماج المرسلات في حياة كلكتّا تامًّا، حميمًا، حيويًّا، فشعبها يعوّل عليهنّ في جميع احتياجاته أَيّةً كانت؛ فإِذا ما اجتاحت الطوافانات، يومًا، المدينة، وعطّلت فيها كلّ حركةٍ، قصد "شيشو بهاقان" عوضًا عن الأَلف من الخلق الذين يظفرون فيه بالطعام، كلّ يومٍ، عدّة آلاف ممّن لم يعد باستطاعتهم الفوز برغيف خبزٍ؛ ولكن، في آنٍ واحدٍ، تكون مدارس عديدةٌ قد أُغلقت، وحُوّلت تلقائيًّا مخصّصاتها من الخبز والطعام إِلى "شيشو بهاقان"، بحيثُ يظفر كلُّ محتاجٍ بنصيبه.

وفي كلكتّا تشاطر الأمُّ أَخواتها أَفراحهنّ، وأَحزانهنّ أَحيانًا، فعملهنّ محفوفٌ بالمخاطر، وقد يجرّ المآسي؛ فهذه، على سبيل الشاهد، الأُختُ الطبيبةُ ليونيا، المسؤولة عن أَحد مراكز الهند، قدمت إِلى كلكتّا للمشاركة في اجتماع الأَخوات. وفي الحال بدت عليها أَعراضٌ مقلقةٌ؛ وفيما كانت تنظّف أَسنانها اعترتها نوبات تشنّجٍ، وراحت تطلق صيحاتٍ حادّةً جشّاء تحاكي النباح. واتّضح أَنّها، لبضعة أَشهرٍ خلت، كانت تحاول إنقاذ طفلٍ من بين أَنياب كلابٍ جائعةٍ، فعضّها أَحدها، وأَشرعت عضتّه جرحًا عقَّمته الأخت وتابعت عملها، في حين أَنّها كانت، من حيثُ لا تدري، قد أُصيبت بالكَلَب. وظنَّ الطبيب الذي فحصها، في كلكتّا، أَنّها فاقدة الوعي، فأعلن، بصوتٍ مرتفعٍ، أَنّها ستفارق الحياة في غضون ثمانٍ وأَربعين ساعةً، فكان وقعُ ذلك الإِعلان عليها صاعقًا. ولكنّ الأُمَّ تيريزا أَمسكت بيدها، وفي رقّةٍ متناهيةٍ، راحت تردّد على مسامعها: "لقد تسلَّمتُك، في هذا العمل، من أَجل يسوع، وسأَظلّ معك، أُساندك وأَنت تغادريننا إِليه". وبغتةً هيمن على الأخت المصابة سكونٌ أَذهل الأَطبّاء الذين عجزوا عن إِدراك قُدرتها الفائقة على تحمُّل التشنُّجات المؤلمة التي كانت تجتاح جسدَها، في صمتٍ ورباطة جأشٍ، إِلى أَن لقيت حتفَها في المهلة التي قدَّرها الطبيب.

والأُمّ نفسها، إِثر الانهيار الذي انتابها في أَعقاب انشغالها بمأساة بنغلاديش أُجبرت على الظَّفر بفترة نقاهةٍ، في مركز الجمعيّة بدارجيلينغ، وهناك وقعت وكُسرت ساقها، وكانت أَنديرا غاندي أُولى من عادَها.

وجديرٌ بالتنويه أَنَّ رئيسة الوزراء غالبًا ما كانت تهتف إِلى رئيسة مركز مرسلات المحبّة في دلهي لتبلّغها أَنّ ثمار حديقتها من خضارٍ وفواكه هي بتصرُّف المرسلات ونزلائهنّ، وغالبًا ما حوّلت لها ما كان يردها من هدايا. وقد دهشت تلك الأُخت، يومًا، عندما وافتها رسالة من وزيرٍ يلتمس تسليم سائقه أَربعة أَغطيةٍ صوفيّةٍ من تلك التي أَهدتها إِليها أَنديرا غاندي. ولم تهدر الراهبة ورقةً بيضاء لتدوّن عليها ردّها، بل سجّلته على ظهر رسالة الوزير نفسها، بالعبارة الموجزة التالية: "إِنّ الأَغطية باتت ملكًا للفقراء". وإنما هي، في ذلك، كانت تتصرَّف بوحيٍ من سلوك أَمّها تيريزا.

وفي سبيل توفيرها لأَخواتها الثقافة الروحيّة التي كانت عليها حريصةً، افتتحت الأُمُّ في ٢٣ آذار ١٩٧٢، في ميلبورن، مركز ابتداءٍ ثالثًا؛ وكانت تلك مناسبةً للتَّعبير عن سعادتها بازدهار جمعيّتها الذي رأت فيه بركة الله، لأَنّ الجمعيّة هي عمله،

"فمشاريع المحبّة، ما لم يدعمها الربّ، لا تعيش. ولكنّها عندما تكون تعبيرًا عن إِرادته، وعمل يديه، فهو، حينئذ، يضمن لها البقاء".

وفي نطاق تثقيف أَخواتها، أَنفذت إِليهنّ جميعًا، في ٢٨ حزيران ١٩٧٢، رسالةً جاء فيها:

« فلنسألنَّ يسوع أَن يجعل حبّنا لأُمّه أكثر حميميّةً،
كي نحبّها مثلما أَحبّها هو،
ونكون لها معين فرحٍ، مثلما هو كان لها،
ولكي نقتسم معها كلَّ شيءٍ، حتّى الصليب.
ليست القداسة تَرَفًا، بل مجرّد واجبٍ، وسنتمكَّن من بلوغ قداسةٍ ساميةٍ، ببساطةٍ بالغةٍ، إِن كنّا، بكلِّيَّتنا نخصُّ العذراء. فلنهبها حرّية استخدامنا، حرّيّةً كاملةً ».

"حاملات حبّ يسوع" في اليمن

شهد عام ١٩٧٣ إِنشاء مراكز جديدةٍ لمرسلات المحبَّة في غزَّة بفلسطين، وفي كاترين بأوستراليا، وفي ليما بالبيرو، وفي أَدّيس أَبيبا بالحبشة، وفي الڤيتنام الجنوبيّة؛ غير أَنَّ أَبعد المراكز التي افتتحت، تلك السنة، وقعًا، كان ذاك الذي دُشّن في الحديدة، باليمن. فقد عادت الأُمّ تيريزا وأَخواتها بالمسيحيّة إِلى تلك البلاد، حيثُ كانت قد تلاشت آثارها طيلة نحو عشرة قرونٍ.

فحتّى عام ١٩٦٩ كانت اليمن والتيبيت يُعتَبران البلدَيْن الأَكثر انغلاقًا في العالَم، غير أَنّ الهدنة التي أُعلنت، آنذاك، في اليمن، عقب سنواتٍ من الحرب الأَهليّة، أَدّت إِلى فتح الحدود، وكانت الأُمُّ تيريزا، الراهبة المسيحيّة الأُولى التي اجتازتها، بدعوةٍ من محافظ الحديدة الشيخ سنان أَبو اللحوم.

ولتلك الدعوة حكايةٌ طريفةٌ؛ فاليمن كانت قد نُكبت، طيلةَ سنواتٍ، بالجفاف والمجاعة، فضلاً عن الصراعات الداخليّة التي أَعملت الدمار، وقضت على الزرع والضرع؛ وانصبّت عليها الإِعانات من الغرب ومن جهاتٍ أُخرى متعدّدة، ولكن اتّضح أَنَّهَا لم تكن كافيةً؛ ومع أَنّ العلاقات بين الولايات المتّحدة واليمن كانت مقطوعةً، إِلاّ أَنّ الحكومة الأَميركيّة أَذنت لمؤسَّسات الغوث الكاثوليكيّة بتقديم المعونات لليمن، من أَغذيةٍ وأَدويةٍ، ما أَسهم في إِنقاذ حياة الكثيرين.

وفي تلك الأَثناء أَنشأَت حكومة الحديدة – والحديدة إِحدى مدن اليمن الرئيسة، ومنفذ البلاد على البحر الأَحمر – مشفًى، ولكن سُرعان ما اتّضح لها أَنّها تفتقر إِلى جهازٍ طبّيٍّ يَتَمَتَّع بالكفاية، لإِدارته، فالتمست مؤازرة ممثّل منظَّمة العون الكاثوليكيّ في الشرق الأَوسط، الذي جمع لها جهازًا طبِّيًّا من مختلف البلدان، ضمّ، في من ضمّ، أَطبّاء وممرِّضاتٍ متطوّعين من إِيرلندا، بيد أَنّ قليلين منهم رضوا بالارتباط بعقدٍ طويل الأَمد. وفي محاولةٍ لحلّ تلك المعضلة، وتأمين جهازٍ طبّيٍّ ثابتٍ، زار الشيخ أَبو اللحوم، برفقة رجل أَعمالٍ لبنانيٍّ مسلمٍ، المطران "جوزيف هارنيت" ممثِّل منظّمة الغوْث الكاثوليكيّ في الشرق الأَوسط، في مقرّه بروما، معربًا عن رغبته في أَن تتولّى الإِشراف على مشفاه راهباتٌ على غرار أُولئك اللواتي يُشرفنَ على مشافٍ عديدةٍ في بقاع العالَم، موفِّراتٍ خدمةً دائمةً، سخيَّةً وحازمةً. وأكد أَنَّ بمكنة أُولئك الراهبات، إِن وُجدْن، ممارسة جميع شعائرهنّ الدينيّة في بلاده، على أَن ينأينَ عن التبشير.

وأَلمح الأُسقف إِلى راهباتٍ هنديّاتٍ متمرّساتٍ في غوث أَفقر الفقراء ولهنّ خبرةٌ في التعامُل مع المسلمين والهندوسيّين، قد يكُنَّ الردَّ الملائم على تطلُّعاته. ولكنّه، عندما فاتح بالأَمر الأُمّ تيريزا، رفضت رفضًا قاطعًا الإِشراف على أَيّة مؤسَّسةٍ، أَيّةً كانت، فمثل ذلك يتعارض مع قوانين جمعيّتها، ومقوّمات رسالتها المتمثّلة في السعي وراءَ الأَشدّ فقرًا، والمبادرة إِلى مساعدتهم، وفقًا لمقتضيات نذور المرسلات، في حرّيّة مبادرةٍ لا يحدُّها أَيّ قيدٍ. فإِن كان، في اليمن، فقراءُ ومُهمَلون، فهي وأَخواتها متأَهِّباتٌ لغوثهم بأُسلوبهنّ. وقد خفَّف وطأةَ خيبة أَمل الشيخ أَبو اللحوم من جرّاء عدم عثوره على جهازٍ طبّيٍّ ثابتٍ لمشفاه، علمُه بأَنّ هناك راهباتٍ مستعدّاتٌ لخدمة محتاجي بلاده، بطُرُقٍ أُخرى.

ودُعيت الأُمُّ لزيارة اليمن، حيثُ اكتشفت حقلاً رحبًا لنشاط مرسلاتها. وجديرٌ بالتنويه أَنَّ الشيخ أبو اللحوم قد قلَّدها، بتلك المناسبة، سيف شرفٍ، ممَّا جعلها تغرق في الضحك، فأَيُّ بونٍ بين مرسلة المحبَّة والسيف! ولكن لم يخفَ عليها أَنَّ تلك الأُمَّة المحاربة تهدي إِلى من تودُّ تكريمهم سيوفًا. وقد شدَّد الشيخ أَبو اللحوم على استعداده لمساعدة الأَخوات بكلِّ طاقته، ودفع الخوف والأَذى عنهنّ، معلنًا مسؤوليّته الشخصيّة عن أَمنهنَّ، وتأهُّب حكومته لتوفير كلّ عونٍ لهنّ.

ولم تكن للأُمِّ أَيَّة مطالب مادِّيَّةٌ، غير أَنّ شرطها الجوهريّ تمثّل في أَن يواكب المرسلات كاهن يمكِّنهن من الاحتفال بالقدّاس الإِلهيّ، كلَّ يومٍ، مؤكِّدةً: "من الأَهمّيّة بمكانٍ أَن يرافقنا كاهنٌ، إِذ يتعذَّر علينا العمل ما لم نتناول الأَسرار المقدَّسة كلَّ صباحٍ، وإِلاّ لعشنا بعيدًا عن الله". وقد طالبتْ، أَيضًا، بأَن يُؤْذَن لذلك الكاهن بالعمل في الغَوْث الإِنسانيّ سحابةَ مدَّة إِقامته في البلاد. وقد استجابت الحكومة لتلك المطالب، بعد لأْيٍ، على أَن يلتزم الكاهن المرافق بالإِحجام عن التبشير.

وفي ١٢ آب ١٩٧٣، بارك البابا بولس السادس، والمطران "جوزيف هارينت" فريقَ المرسلات المُيمِّمات شطرَ اليمن، اللواتي حططنَ الرحال في الحديدة، بعد عشرة أَيّام سفرٍ، وحلَلْنَ في بناء من حجرٍ رماديّ اللون، أَشاده لهنّ حاكم المدينة؛ وقد تَرَأَّسَتْ الفريقَ الأخت الطبيبة جيرترود، وهي من أُوليات مرسلات المحبّة، وَتَتَمَتَّع بالكفاية المهنيّة، والغيرة الرسوليّة، والجرأَة والمبادرة، وَسُرْعَانَ ما ظفرت بثقة القوم، فتهافت عليها طالبو الشفاء، وعندما هي افتتحت لهم مستوصفًا، بات يتراصّ أَمام بابه، كلَّ يومٍ، مئاتٌ من المرضى. ثمَّ أَنشأت، في مقرِّ المرسلات، مستوصفًا آخر للأُمِّ والطفل، كانت النسوة المسلمات لا يتحرّجنَ فيه من حَسْر الحجاب أَمام طبيباتٍ وممرِّضاتٍ، إِناثٍ مثلهنّ. وكانت الأُخت جيرترود تتعامل، يوميًّا، مع طائفةٍ من الأَمراض الاستوائيّة كالسلِّ، والعمى، وحالات بَرَصٍ عارضةٍ. ثمّ راحت تقود، مع أَخواتها، مستوصفًا متنقِّلاً، قدَّمه لهنَّ المتعاونون الإِيرلنديّون، كنّ يمضينَ به إِلى القرى المجاورة لمعالجة مرضاها، وكان عدد المعالَجين، في مختلف تلك المستوصفات، يناهز الخمس مئة مريضٍ، يوميًّا.

وفضلاً عن ذلك، أَنشأَت المرسلات، في الحديدة، دارًا للعجزة توفِّر لهم إِقامةً نظيفةً، وطعامًا يوميًّا، أُلحق بها مركزٌ للمتخلِّفين عقليًّا دُعي "دار السلام"؛ وإِلى كلّ ذلك، اضطلعت المرسلات بشتّى الخدمات الاجتماعيّة، ومشاريع التأهيل المهنيّ. وقد وصفت الأخت جيرترود جانبًا من نشاطهنّ، آنذاك، فكتبت:

« لا ريب أَنّكم تودّون معرفة شيءٍ عن هذا المكان. وأَبدأ فأَقول إِنّ القوم على فقرٍ مدقعٍ. إِنّهم يعيشون في أَكْوَاخٍ من القشّ حيث يتعذَّر على المرء أَن ينتصب واقفًا، بل عليه أَن ينطوي على ذاته. ولم يكونوا ينعمون بأَيّة خدماتٍ صحّيَّةٍ، فإِذا ما

ابتُلي أَحدهم بسَقَمٍ عضالٍ، ما كان عليه سوى القبوع بانتظار الأَجَل المحتوم. وهم أَحيانًا يكوون بالحديد المحميّ مكان الوجع، فيقضي المرضى نحبَهم من جرّاء الحرق، عوضًا عن الموت من عواقب المرض نفسه...

"إِنّنا ننظّم دروس خياطةٍ للفتيات والنساء المتزوّجات، وحلقات تعليمٍ للبالغين الذين لم تتسنَّ لهم الدراسة في حداثتهم، وتدريسٍ لأَطفال الأَكواخ الفقراء. ولدينا برنامج توزيع أَغذيةٍ يتناول منح حبوبٍ غير مطبوخةٍ للمتسوّلين والأُسَر الفقيرة، وبرنامج غذاءٍ لقاء العمل، وهو يعني الزرَاعَة في أَراضٍ رمليَّة كأرض الصحراء. لدينا مُجمّعٌ شاسعٌ، ولكن ما يسهّل علينا مواجهة الحشد فيه، والتصدّي للنشاطات المتنوّعة، مساعدة فتياتٍ فقيراتٍ، ونساء، وشبّانٍ يمنيّين، يُفصِحون عن طيبةٍ متأَصِّلةٍ، بإِسهامهم في عملنا. ويشترك، أَيضًا، موظَّفون حكوميّون في تقديم خدماتٍ لبني قومهم. وترد مساعداتٌ من كلّ جانبٍ، منها مساعدات المتعاونين، وَالهِبَات الماديَّة ».

وقد استوضحت، يومًا، زوجةُ ديبلوماسيٍّ بريطانيٍّ عمّا يجدر تقديمه من عونٍ، فأَجابتها إِحدى "حاملات حبّ الله" – وهو الاسم الذي أَطلقه اليمنيّون على المرسلات –: "المعاطف". ودهشت المرأة، وقد استغلقت عليها ضرورة الحاجة إِلى معاطف في بلدٍ بمثل حرّ اليمن القائظ؛ ولكنَّ الراهبة سارعت إِلى الإِيضاح بأَنّ من شأن المعاطف أَن تتحوَّل إِلى فرشٍ ممتازةٍ.

وتختتم الأختُ جيرترود رسالتَها بالقول: "رغم فقر القوم الثقافيّ، إلاّ أَن تديُّنهم صادقٌ، ووطيد القناعة، وهم يمارسون إِيمانهم؛ وجميع المساجد تدعو إِلى الصلاة باطّرادٍ، عدّة مرَّاتٍ في اليوم، مذكِّرةً الإِنسان بواجبه نحو الله، داعيةً إِيّاه إِلى تمجيده، وتكريمه، وشكره".

ونلاحظ أَنَّ الأُخت جيرترود لم تأتِ على ذكر الحرِّ القائظ، وظروف العيش الشاقَّة في اليمن، فمثل تلك المصاعب لا شَأْن لها في تقديرها، فهي، كما قيل عنها: "**حالمةٌ شاهدت حاجات القوم، وانطلقت تحلم بتحقيقها بالعمل الشاقّ، والمحبّة الإِنجيليّة، والثقة في العناية الإِلهيّة**".

أَمّا المهمَّة الأَعتى قسوةً التي واجهتها الأُختُ جيرترود، منذ وصولها، مع أَخواتها، إِلى الحديدة، فتمثّلت في توفير حياةٍ أكثر إِنسانيّةً لضحايا الجذام؛ فقد راعت

المرسلات الأَوضاع اللاّإنسانيّة التي كان البُرْص يتخبَّطون في وهادها. وكنَّ، قد انتهَيْنَ، بمشقّةٍ جاهدةٍ، إِلى معاقلهم، في مغاور قُدَّت في سفوح الجبال، عبر دروبٍ غاصّةٍ بالأَقذار والمزابل. وطفق البرص يصيحون، مذعورين، طالبين منهنّ الابتعاد. كانت النسوة متلفّعات بملاآتهنَّ، والأَطفال في أَسمالهم، يبدون كأكياس ترابٍ. وربّما لم يجسر، قطُّ، أَحدٌ، قبل المرسلات، على المجازفة في المثول نحو تلك الأَماكن المرعبة. وقد اضطرّت الراهبات، في سبيل بلوغها، إِلى الخوض، حتّى الركَّب، في الحمأة والقاذورات المتفسّخة، وأَرسلنَ إِلى البرص إِشارات طمأنةٍ، داعياتٍ إِيّاهم إِلى الاقتراب، ولكنّهم ظلّوا، فترةً، مذعورين، معتصمين في معاقلهم، قبل أَن يجرؤ أَفرادٌ منهم على الدنوِّ من الراهبات. وقد أَفلحت الأُخت جيرترود، بفضل صبرٍ جمٍّ، في إِقامة اتّصالٍ معهم، وتبديد مخاوفهم، ثمَّ سار كلُّ شيءٍ حثيثًا، إِذ استطاعت المرسلات، بفضل دعمٍ ماليٍّ حكوميٍّ، تمهيد الطريق المؤدّي إلى مواقعهم، وتحريره من الأقذار، وبناء بيوتٍ لهم، وإِصلاح الأراضي من حولها، وغرس الأَشجار والزهور فيها، بحيث صرَّحت إِحداهنّ: "رأَينا بستانًا ينبت من العدم". وصرَّح شاهدُ عيانٍ: "لقد دفعت الأخت جيرترود أَخواتِها والقومَ إِلى استنبات بستانٍ مترامي الأَطراف، لا يمكن وصفه إِلاّ بأَنّه قطعةٌ من الجنّة". وقد عولج البُرْص، وتلقّنوا طقوس النظافة، ونجا الأَطفال من العدوى، لا بل تعلّم بعض البرص مِهنًا تعينهم على كسب رزقهم. وقد صرّحت إِحدى الأَخوات، وقد عملت في خدمة البرص: "الأَطفال سعداء، وما أَجمل التجوُّلَ فيما بينهم، فهم يحبّوننا".

ولم يكن الأَطفال وحدهم هم الذين أَحبّوا المرسلات، إِذ التمست طائفةٌ من الفتيات اليمنيّات الانضواء تحت راية جمعيتهنَّ، رغبةً في عملٍ مكرَّسٍ لله والقريب. ولكنّ الأخت جيرترود خشيت أَن تُطيح الاستجابة لمطلبهن بوجود المرسلات في اليمن، وأَن تُفسَّر على أَنّها ضربٌ من التبشير، فدعت عددًا ضئيلاً منهنَّ إِلى الاكتفاء بمؤازرتهنّ، أَثناءَ النهار، على مساعدة بني جلدتهنّ، وبموافقةٍ صريحةٍ من ذويهنَّ، على أَن يَعُدْنَ إِلى منازلهنّ قبل حلول الظَّلام، وفي معزلٍ عن أَيِّ التزامٍ.

وبات للمرسلات، في تقدير المسؤولين، شأْنٌ عظيمٌ، بدليل الرسالة التي أَنفذها حاكم الحديدة إِلى الحبر الأَعظم، شاكرًا، معترفًا: **"إِنّ وجود أَخوات الأُمِّ تيريزا قد بعث نورًا جديدًا في حياة شعبنا"**.

وقد دأَبت الحكومة على أَن توفِّر للمرسلات، كلَّ أُسبوعٍ، خروفَيْن أو جديَيْن، إسهامًا منها في إِطعام فقرائهنَّ ونزلائهنّ. وفي مبادرة شكرٍ وتقديرٍ، وتعبيرًا عن رغبةٍ صادقةٍ في بقاء المرسلات في البلاد، عرضت الحكومة اليمنيّة إِشَادَة كنيسةٍ لهنّ، وإِذ لم يكن، ثمّة، خبيرٌ بتصميم الكنائس، طُلب منهنّ وضع مخطَّطٍ كي تنهض الحكومة بتنفيذه. وقد لقي هذا العرض مثل ما لقيت رغبة فتياتٍ يمنيّاتٍ في الترهُّب، من خشية استفزاز مشاعر دينيّةٍ متطرِّفةٍ مدمِّرةٍ؛ فأكّدت المرسلات اكتفاءهنّ بغرفةٍ في بنائهنّ لممارسة شعائر عبادتهنّ، ودعينَ الحكومة إِلى الاستعاضة عن بناء كنيسة لهنّ ببناء مسجدٍ لجموع المسلمين.

وما كادت تنقضي سنةٌ على وجودهنَّ في الحديدة حتّى التمست حضورهنّ سائر المدن اليمنيّة، فافتتحنَ مركزًا في تعز، إِثر زيارة الأمّ تيريزا لتلك المدينة حيثُ طالعت في معاناة بُرْصها مشهدًا يهصر القلب، وجلجلةً دائمةً. وبالتعاون مع الدكتور أحمد الرامي من وزارة الصحَّة، افتتحت مدينةً للبُرْص، أَسمتها "مدينة النور"، وسُرعانَ ما وجد ذلك الاسم تبريره في العناية اليوميّة بالبرص، وتوفير العلاج والطعام لهم. وقد كتبت إِحدى الراهبات من تعز:

« إِنّه لرائعٌ تقبُّل هؤلاء البُرْص الفقراء، بمثل هذا الفرح، بفضل جهود أَخواتنا في سبيل إِدخال الحبّ والرعاية إِلى حياتهم. إِنّهم قومٌ على جانبٍ كبيرٍ من الطيبة، والبساطة والمحبّة والفقر... الله هو لهم كلُّ شيءٍ، ومشيئة الله هي كلّ شيءٍ في ما يحدث لهم ».

ثمَّ بافتتاحهنَّ مركزًا ثالثًا للمحرومين المُهْمَلين في صنعاء، ترسَّخ حضور المرسلات في مواقع ثلاثةٍ رئيسيّةٍ في البلاد؛ وظَلَلْنَ، هنَّ، مخلصاتٍ لإِيمانهنّ، وممارساتهنَّ، محترماتٍ إِيمان القوم الذين عكفنَ على خدمتهم، وشعائرهم. وبعد إِذ اِضْطَرَّ الكاهن الذي واكب مجيئَهنّ للعودة إِلى موطنه، حلَّ محلَّه كاهنٌ من الآباء البيض، كنديُّ المولد، ولكنَّه ذو خبرةٍ عريقةٍ بالبلاد العربيّة، أَكْسَبْته إِيّاها إِقامةٌ طويلة الأَمد في الجزائر.

وقد اتَّضح أَنَّه أَيسر على المرسلات التأَقلم مع البلدان الهندوسيّة والمسلمة من تأقلمهنّ مع بعض البلدان المسيحيّة؛ فهنّ يتقبَّلنَ الثقافات والديانات الأُخرى كما هي؛

ولكن عندما يتعيَّن عليهنَّ الانصهارُ في مجتمعٍ مسيحيٍّ، قد يؤدّي وفاؤُهنَّ المطلَق للإنجيل والكنيسة إلى صداماتٍ وسوء تفاهمٍ مع من يمارسون مسيحيّةً على هواهم.

وربّما زاد من تقدير السلطات اليمنيّة للمرسلات حرصُهنّ على التشبُّث بمبادئهنّ وشعائر دينهنّ، بلا تنازلٍ ولا تهاوُنٍ، كما يستبين من تصريح الأُمّ تيريزا حول تجربة أَخواتها في اليمن، حيثُ قالت:

« أذكر أنّنا عندما شخصنا إلى اليمن، البلد المسلم بأكمله، أَعلمتُ رئيس الوزراء: "إنّني على أُهبةٍ لإيفاد أَخواتي إليكم، بشرط أَن تأذنوا، أَيضًا، لكاهنٍ بالقدوم، فنحن لن نأتي في معزلٍ عن يسوع". وقد تشاوروا فيما بينهم، وأَجمعوا على أَنَّهم إن كانوا يريدون الراهبات حقًّا، فلا مناص من السماح بمجيء كهنةٍ، وأُذن للكهنة بالقدوم. وهكذا، بعد ثمانية قرونٍ، وافى ذلك المرسل من الآباء البيض، الذي جلب نور القربان المضيء إلى تلك الديار. ثمَّ قيل لنا: "لا تعلِّقْنَ الصليب على صدوركنَّ". فمضيت، في الحال، إلى الحاكم وقلتُ له: "إنّ ما نعلّقه هو شعارُنا، وهو التعبيرُ الظاهر على تكريسنا، ويعني أَنّنا نخصّه". وقد قاوموا تلاوتنا للمسبحة في الشارع، ولكنّنا نتلوها في أَيِّ شارعٍ كان، فقد قلتُ لهم: "هذا هو مصدرُ قوَّتنا: أَنّنا نصلّي". وحينئذٍ قال: "ينبغي أَن تمكثن هنا. لقد قبلناكنَّ على ما أَنتنَّ عليه، لا كما يودُّ شخصٌ آخَر أن تكنَّ". وها إنّ الأَخوات، اليوم، هناك، بصليبهن المثبت على كتفهنَّ، والمسبحة التي يتلونَها وهنَّ يجتزْنَ الشوارع ».

وكانت الأُمّ تيريز قد استُوضحت، قبل قدوم مرسلاتها إلى اليمن، عن الرسالة التي سيُتاح لهنّ الاضطلاع بها، فأَجابت أَنَّ حبَّ الله سيتجلّى من خلال عملهنّ، ممّا سيحمل القوم على محبّة الله، وعلى أَن يكونوا مسلمين على نحوٍ أَمثل.

هذا الموقف هو، ربّما، الذي حدا بالعقيد معمّر القذّافي إلى التصريح في شباط ١٩٨١: "إنّنا بحاجةٍ إلى حركة راهباتٍ ثوريّةٍ، لأَنّنا نعدُّ حركات الراهبات المسيحيّات بمثابة تَحَدٍّ للنساء المسلمات".

ولا مراء أَنَّ مرسلات المحبّة قد وفّرنَ، في اليمن، حضورًا مسيحيًّا غاب عنها قرونًا طويلةً؛ وقد ترسَّخ ذلك الحضور، من غير ما حاجةٍ إلى تبشيرٍ، أَو بناء كنيسةٍ،

بل إِنَّه كان حضورَ حبٍّ على غرار حبّ "السامريّ" الذي ضربه يسوع مثلاً لمحبّة القريب الحقّة، حضور عطفٍ وخدمة لإِخوةٍ وأَخوات من الأُسرة البشريّة الواحدة كانوا متألِّمين ومحتاجين.

١٩٧٥: اليوبيل الفضّيّ

فيما كانت مراكز المرسلات تنبت كعشب الربيع في شتّى الأَصقاع، كان انتشار مراكز الجمعيّة في الهند ماضيًا بوتيرةٍ حثيثةٍ، في الفرح والثقة، وكأنّ ريح العنصرة ما انفكّت تملأ أَشرعة نفوس الأَخوات وتدفعها بقوةٍ. وقد صرّحت الأُمّ تيريزا: "أَودُّ أَن يكون في كلِّ مركزٍ سبع أَو ثماني أَخواتٍ، فذلك يُساعد على الاحتفاظ بالمرَح، فالكثرة مفيدةٌ، وتؤازر على مبادراتٍ أكبر وأَوسع مدًى".

ولا ريب أَنَّ يُسر المواصلات، في عصرنا، قد أَسهم في سرعة ذلك الانتشار وفي جعل اتّساع رقعته حَدَثًا فريدًا منقطع النظير، في تاريخ المؤسَّسات الرهبانيّة.

ففي عام ١٩٧٤ أُنشئت مراكز جديدةٌ في كلٍّ من "پاليرمو" بجنوبيّ إِيطاليا، وفي العاصمة الفرنسيّة باريس، وفي ليما بالپيرو، وفي البنغلاديش، ومركزان في غينيا الجديدة.

ومن الطريف ذكره أَنَّ الأخت "ليتسيا" المسؤولة عن أَحد المركزَيْن في غينيا الجديدة أَحاطت الأُمَّ علمًا بأَنَّ الأُسقف قد خصّص مئتي روبيّةٍ شهريًّا عونًا لذلك المركز، فسارعت الأُمُّ إِلى إِبلاغها: "في الشهر القادم، أَعيدي إِلى الأُسقف ماله، واجهدي في حمل الأَهالي على مساعدتكنّ، والنهوض بأَوَدكنّ".

وأَعلمتها المسؤولة عن مركزٍ آخر أَنّ لصوصًا يتسلّقون سطح المنزل الذي يرقدنَ فيه، ويتسلَّلون حتَّى إِلى غرفة نوم الأَخوات، فأَجابتها الأُمُّ، في كثيرٍ من الدعابة: "بما أَنّ أَيّةً منكنّ لا تتمتَّع بجَمَال خارقٍ يُغري باختطافها، وبما أَنّ ما ينشده اللصوص هو المال والمؤونة، فدعنَهم يأخذوا ما يلزمهم، ولتُخْلِد الأَخوات إِلى نوم الصدِّيقين، وسيسهر الربّ عليكنّ".

وكان عام ١٩٧٥، فضلاً عن شهوده تأسيس مراكز جديدةٍ في ناپولي بإِيطاليا، وفي ڤينيزويلا، حافلاً بالأَحداث.

ففي شهر نيسان من ذلك العام، وهبت شركة "آي. سي. آي" البريطانيّة الشهيرة، للموادّ الكيميائيّة، جمعيَّةَ مرسلات المحبَّة بناءً حديثًا في كلكتّا، كان مُعَدًّا لإِيواء مختبراتها المركزيّة، محاطًا بأَراضٍ فسيحةٍ من جميع جوانبه؛ وقد أَطلقت عليه الأُمّ تيريزا اسم "پريم دان"، أَي عطيّة الحبّ؛ وفيما كانت تُعمل الفكر في الاستخدام الأَمثل له، كان قد اكتظّ بالمحتاجين. وما لبث أَن تحوّل مكانُ المعمل القديم إِلى مركزٍ للإِفادة من النفايات، ولا سيما من قشور جوز الهند. فقد عُهِد عن الهنود كلَفهم بارتشاف حليب تلك الفاكهة، واطِّعام لبِّها، وقذف لحائها في الشارع. وقد لقَّنتهم الأُمّ تيريزا تجفيف ذلك اللحاء وتحويله فرشًا، وَأَكْيَاسًا وحبالاً، وهكذا انقلب المختبر القديم يحوّل النفايات ذَهَبًا لصالح الفقراء، وأَثبتت الأُمّ تيريزا عبقريّتها في إِضفاء دفعةٍ ديناميكيّةٍ، وجدوى مطلقةٍ، على كلّ شيءٍ.

وقد أَفردت الأُمّ إِحدى قاعات "پريم دان" للمتخلّفين عقليًّا، وكانت تلك اللفتة فتحًا في الهند. وفي قاعةٍ أُخرى، شاهد صحفيٌّ شابّةً فرنسيّةً منحنيةً على فراش مُقْعَدٍ لا يفقه حرفًا من الكلمات التي تتلفَّظ بها، غير أَنّ نبرة صوتها، ولهجتها، وبسمتها كانت كافيةً لتُشيع في نفسه الراحة والطمأنينة.

وفي تلك الأَثناء حدث طوفانٌ مدمّرٌ في دارجيلينغ، ولتلك المدينة في نفس الأُمّ تيريزا مكانةٌ أَثيرةٌ، ففيها تأهَّبت لحياتها الرهبانيّة، وفيها وُلدت وتبلورت دعوتها الثانية. وهبّت الأُمّ لنجدة المنكوبين في المدينة وفي ضواحيها، وفيما كانت تستقلّ، مع أُسقف المدينة، سيّارة جيب، وتسبر حجم الكارثة، صدمت سيّارتَهما شاحنةٌ صدمةً من العنف بحيث قُذفت الأُمُّ نحو الزجاج الأَماميّ، الذي شرخ رأسها شرخًا بليغًا اقتضى لأُمه تسع عشرة قطبةً. وكانت أَنديرا غاندي، في هذه النوبة أَيضًا، أُولى المسارعات إِلى عيادتها.

وفي شهر تموّز ١٩٧٥، انتدبها الڤاتيكان عضوًا في وفده إِلى المؤتمر الدوليّ ليوم المرأة في مكسيكو، الذي نظَّمته الأُمم المتَّحدة؛ وقد خيَّب ذلك المؤتمرُ ظنَّها، إِذ هيمنت عليه نقاشاتٌ سياسيّةٌ غاب عنها الله. وقد تناولت مداخلاتُها موضوعَي "المرأة والفقر" و"الله حبٌّ"، فتحدَّثت عن كرامة المرأة ووظائفها، والامتيازات التي حباها بها الربّ، فهي مدعوَّةٌ لتكون روح الأسرة، وتوفِّر السعادة

للزَّوج والأَولاد. وأَيّة مهمّةٍ نبيلةٍ بأَن تكون المرأةُ أمَّ الجنس البشريّ، وأَيّة حظوةٍ بأَن تهب ذاتها في مثل السخاء الذي به يهب الربّ ذاته لأبنائه!

وقد اهتبلت بعض الصحف سانحة وجود الأُمِّ تيريزا في مكسيكو كي تنشر نبذاتٍ عن إِنجازاتها في الهند وفي مختلف أَرجاء العالم، من أَجل تخفيف آلام المعوِزين والمتألِّمين، ما حمل الرئيس "پورتيللو" على دعوتها، واستقبالها في قصره بحضور زوجته وثلاثةٍ من أَولادهما الثمانية. وفيما كانت الأُمّ تحدِّثهم عن عملها وعن حبِّ يسوع، كانت زوجة الرئيس تبكي، في حين طلب الرئيس نفسه، بإِصرارٍ، أَن تفتتح الأُمُّ مركزًا لأخواتها في مكسيكو، لا بل إِنّه استعجل افتتاحه، متعهِّدًا بتوفير المكان، ونفقات سفر الأَخوات، وقد التمس من كردينال مكسيكو الضغْط على الأُمِّ في هذا المنحى.

والتمست، أَيضًا، مقابلةَ الأُمّ جماعةٌ من كاثوليكيّي البلاد الراغبين في الإِصغاء إِليها والتعاون معها؛ وأَفضى ذلك إِلى تأسيس مركزٍ في مكسيكو اختارت المرسلات مكانه إِلى جانب مرمى قمامةٍ، وسط قومٍ يعملون في نقب النفايات.

واغتنمت الأُمّ سانحة مجيئها إِلى المكسيك كي تزور مراكزها في الپيرو وڤينيزويلا. وكانت قد زارت، من قبلُ، ليما عاصمة الپيرو بدعوةٍ من رئيس أَساقفتها، ووقفت على أَوضاع مدينةٍ كان عدد سكّانها قد قفز من مليونٍ ونصف مليون نسمةٍ إِلى أَربعة ملايين، في غضون أَقلّ من عشر سنواتٍ، وما انفكّ يتفاقم في اطّرادٍ مقلقٍ مريعٍ؛ وأَثناء زيارةٍ لاحقةٍ اقتيدت إِلى ديرٍ قديمٍ خالٍ منذ سنواتٍ، كان قد بُنيَ قبل نحو قرنٍ في منطقةٍ هادئةٍ منعزلةٍ، غدت، من جرّاء اتّساع المدينة، في قلب منطقةٍ تعجّ بالسكّان والحوانيت؛ ثمَّ تحوّل إِلى مركزٍ لمرسلات المحبّة عام ١٩٧٤، وأُطلق عليه اسم "بيت السلام". ولمّا زارته الأُمّ عام ١٩٧٥، أُعجبت برؤية الخضروات التي استنبتتْها الأَخوات بين أَشجار الدرّاقن والليمون؛ وقد باتت طبقته الأَرضيّة تضمُّ، في أَحد جوانبها، قسم الأَطفال المُهمَلين، وفي الجانب الآخر قسم النساء العاجزات، يقابله قسمٌ للرِّجال المسنّين والمشرَّدين، في حين استُخدمت الطبقة العلويّة ديرًا للمرسلات، ومصلًّى صغيرًا لهنّ.

وكان، ثمّة، شبّانٌ معاقون يشدّ بعضهم أَزرَ بعضٍ، بعد أَن تشرّبوا روح

المرسلات؛ ورجالٌ شيوخٌ قد هدروا كلّ ما ملكوا في الشراب، والتُقطوا، مُدنفين، من الشوارع، وعادوا يعيشون عيشةً طبيعيّةً؛ وكانت هناك، أيضًا، عجائز لا مأوى لهنّ ولا أهل، لفظتهنّ المشافي، فوجدنَ لدى المرسلات الفراشَ النظيف، والاستقبالَ الحارَّ المحبّ؛ أمّا الأطفال فمنهم الأيتام والمعاقون والمهجورون، ومنهم طفلان كانت أُختٌ ممرِّضةٌ تعمل في الجبال، قد عثرت عليهما، وحيدَيْن، جائعيْن، في بيتٍ مظلمٍ قذرٍ، لا يتكلّمان، ولا يستطيعان الانتصاب على سيقانهما الهزيلة، بل يحبوان حبوًا. ولبثت الأُختُ معهما ريثما عاد والدهما من الحقل، وأَفاد أَنّ والدتهما كانت قد لقيت حتفها لسنواتٍ خلت، وأَن لا قبل له على رعايتهما. وقد راعها ذلك، ولا سيما بعد أَن علمت، من الجيران، أَنّ ذلك الوالد كان سكّيرًا لا يُعير أَيّ اهتمامٍ لطفلَيْه اللذَيْن، لولا شفَقة الجيران الذين كانوا يُسكتون جوعهما بين فينةٍ وأُخرى، لقضَيا نحبَهما خَورًا. واستأذنت الأخت الوالد بنقل الولدين إِلى "بيت السلام"، فجاءت موافقته التلقائيّة المندفعة تعبيرًا عن شعوره بالفرَج. وبفضل عطف المرسلات استهلّ ذانك الكائنان الهشّان حياةً جديدةً طبيعيّةً، وشرعا يتحرَّران، رويدًا رويدًا، من عواقب سنوات الحرمان.

وقد استخلصت المرسلات أَنّ طبيعة العمل في ليما لا تختلف عمَّا هي في الهند، إلاَّ في السحَن واللهجات والتقاليد؛ وإِلى جانب عملهنّ في "بيت السلام" كانت الأَخوات يجدْنَ متّسعًا من وقتٍ لزيارة المحتاجين والمرضى في الأَكْوَاخ، وقد تجنَّد لمساعدتهنّ متعاونون من شتّى المهن: أَطبّاء، ومعلّمون، وربّات بيوت. إِلاّ أنّ طائفةً من الثوريّين، ومنهم فئةٌ من الكهنة، دأَبوا على انتقاد عمل المرسلات الذي عدّوه ترسيخًا للفقر والبؤس، فمشكلة البؤس، في نظرهم، لا تُحَلُّ إِلاّ بثورةٍ مُدمِّرة تدكّ الأَوضاع دكًّا. ولكنّ المرسلات نأيْنَ بأنفسهنّ عن مثل ذلك الجدَل الثوريّ، وتابعنَ غَوْثَهنَّ اليوميّ الشخصيّ لكلّ محتاجٍ على أَنّه المسيح المضطهد.

وكان الكردينال رئيس أَساقفة ليما قد أَوكل إِلى الأَب "مولوري" مهمّة العناية الروحيّة بالمرسلات، وكان الأَب المذكور مصابًا في قلبه، يتعرّض بين حينٍ وآخر لأزماتٍ خطيرةٍ، وقد أَوعز إِليه أَطبّاؤه بالعودة إِلى ديره في الولايات المتَّحدة، والتزام عيشٍ هادئٍ يُنقذ أَيّامه المُهدَّدة؛ غير أَنّه مذْ أَخذ على عاتقه رعاية المرسلات زال عنه كلُّ أَلَمٍ، وبات يضطلع بمهامّ لم يضطلع بمثل مشقّتها من قبل، وهو في تمام همّته وعافيته.

أمّا ڤـينيزويلا فكان للمرسلات فيها أَربعة مراكز في مواقع مختلفةٍ. وفي "كاتيا لامار"، بضواحي كاراكاس كانت المرسلات يُعنَيْنَ، على نحوٍ خاصٍّ، بنساء المنطقة، فيرعينَ أطفالهنّ لكي يُتِحْنَ لهنّ العمل بما يُقيم أَوَد أُسَرهنّ، كما كنّ يَـزُرْنَ الأُسَـر الفقيرة والمحتاجة، ويجهدنَ في درء الضيْم عنها. وفيما كانت الأُمّ تـزور بـرفقتهنَّ الأَحياء البائسة، وقع نظرُها على مستودعٍ معروضٍ للبيع، فاستوضحت أَخواتها هـل يجدْنَه ملائمًا لتحويله إِلى مركز للمسنّين المُهْمَلِينَ. وهكذا ولد المركز الخامس فـي ڤـينيزويلا، فديدن الأُمّ تيريزا إِنشاء المرَاكِز أَينما وجدت إِلى ذلك حاجـةً وطاقـةً، فضلاً عن رغبتها في أَن يكون لمرسلاتها مراكزُ متعدِّدةٌ في كلِّ بلدٍ، لكـيلا يبقـينَ معزولاتٍ، بل يتمكَّنَّ من الاجتماع، وتبادُل الخبرات، ومـساندة بعـضهنَّ بعـضًا، وتنظيم رياضاتٍ روحيَّةٍ مشتركةٍ.

وفي أَواخر شهر تمّوز ١٩٧٥ حطَّت الأُمُّ في نيويورك، حيـث وافـت زائـرةً لمركز مرسلاتها في منطقة برونكس الجنوبيّة؛ وبما أَنّ شهري تمّـوز وآب هنـاك يطغى عليهما حرٌّ قائظٌ، كانت الأَخوات قد نظَّمنَ مخيّماتٍ لمئات الـشبّان والفتيـات القادمين من أَدنى دركات السلَّم الاجتماعيّ، ومن أُسَرٍ محطَّمـةٍ، فترعرعـوا فـي الشوارع حيث تلقَّنوا الجنوحَ والجريمةَ والعنفَ وتعاطي المخدّرات.

كان المشتركون في تلك المخيّمات يستهلّون نهارهم بتراتيـل وصـلواتٍ، ثـمّ ينصرفون إِلى مختلف النشاطات المهنيّة من نجارةٍ، ورسمٍ، ومطالعـةٍ، وموسـيقى، وفنونٍ مسرحيّةٍ، ورياضاتٍ متنوّعةٍ، فيُنمّون كفاآتهم، ويستعيدون ثقـتهم بأَنفـسهم؛ ويمضون في نهاية الأسبوع إِلى الريف النظيف يتنزّهون، ويسبحون، ويلهون. وكان ينضمّ إِلى الأَخوات، لمساعدتهنّ، طائفةٌ من المتطوِّعين من كهنةٍ وعلمانيّين.

وفي أَيّام السبت كانت المرسلات يزرنَ السجْن، وقد رافقتهن الأُمُّ تيريزا في إِحدى تلك الزيارات، فأكّدت للسَّجينات كم أَنَّ الربّ يحبُّهنَّ، وكم هنَّ ثميناتٌ في نظره.

ووقفت على أَحوال مسنّين يقضون أَيّامهم في ذعرٍ ورعدةٍ من اعتـداء الـشبَّان عليهم، فيوصدون على أَنفسهم الأَبواب، وسرعان ما يهوون إِلى القذارة، وقد يقضي بعضهم نحبَهم فلا يعلم أَحدٌ بموتهم، إِلاّ بعد أن تسطع روائح تفسّخهم.

ولحظت الأُمّ لدى أُولئك القوم عطشًا متلظّيًا إِلى الحبّ والتقدير والاعتراف، وشعورًا مضنيًا برفض الآخرين، وعدم رغبتهم فيهم، ما حملها على التصريح: "**أَحد أَخطر الأَمراض هو أَن يكون المرء "لا أَحد" في نظر أَيّ أَحدٍ**".

أَمّا أَخواتها فكنّ حريصاتٍ، أَشدّ الحرص، على ممارسة حياة الفقر، في بلاد الترَف، وكَأَنَّهُنَّ أَفقر فقراء الهند؛ فقد ينتقلْنَ بين ليلةٍ وضحاها إِلى بلادٍ مدقعة الفقر، ولا يسوغ لهنّ اعتياد الترَف.

أَمّا قمّة أَحداث عام ١٩٧٥، فكانت الاحتفال بيوبيل الجمعيَّة الفضّيّ، الذي جعل من تلك السنة سنة شكرٍ وتقييمٍ لما أُنجز، وتحفُّزٍ لمستقبلٍ أَزهى؛ ففي السابع من تشرين الأَوّل ١٩٧٥، كانت جمعيّة مرسلات المحبّة تطوي شراع السنوات الخمس والعشرين الأُولى من عمرها الموقوف على عبادة يسوع، من خلال خدمته في أَجساد المتأَلّمين والمحرومين وفي نفوسهم، وتنهي مرحلة ربع قرنٍ من مسيرتها المجيدة على دروب المحبّة والعطاء: "سنوات نِعَمٍ وبركاتٍ استثنائيّةٍ"

نحو شهرٍ قبل ذلك الموعد، أَنفذت الأُمّ تيريزا إِلى الجماعات الدينيّة الثماني عشرة في كلكتّا رسائل تدعوها إِلى المشاركة في شكر الربّ لما مكَّن المرسلات من تحقيقه في سبيل فقراء الهند والعالم. لم تدعُ تلك الجماعات للمجيء إِلى مقرّ جمعيّة مرسلات المحبّة، لهذا الغرض، بل أَهابت بكلّ جماعة أَن تقيم صلاة شكرٍ في مقرّها الخاصّ، موصيةً أَن تتّسم تلك الاحتفالات بالبساطة المطلقة: فلا إِنفاق، ولا حفلاتٍ غنائيّة، ولا أَوسمة، بل، فقط، صلوات شكرٍ، وأَوضحت: "**أَودّ أَن يكون الله هو الوجه المركزيّ في احتفالاتنا، بحيث يستحوذ على اهتمام كلّ فردٍ، ويعترف الجميع أَنّ العمل هو عمله، لا عملنا**".

وأَرفقت الأُمُّ بدعوتها بيانًا موجزًا يقول: "**من فريقٍ يتأَلّف من اثني عشر عضوًا، باتت جمعيَّة مرسلات المحبّة تعدّ اليوم ١١٣٣ عضوًا، منتشرين عبر العالم**". وفصّل البيانُ أَماكن واحدٍ وستيّن مركزًا في الهند، وسبعةٍ وعشرين مركزًا في الخارج.

وقد نشرت صحيفتان محلّيّتان هما "كلكتّا ستيتسيمان" و"كلكتّا هيرالد" برنامج الاحتفالات، والتاريخ الذي اختارتْه كلُّ جماعةٍ لاحتفالها بالحدَث، وأَرفقت ذلك

الإِعلان بمقالاتٍ مستفيضةٍ عن إِنجازات مرسلات المحبّة، مدعَّمةً بالصوَر، تحت عناوين: "**كلكتّا تشكر للأُمّ تيريزا ولمرسلات المحبّة ٢٥ سنة خدمةٍ**".

وقد وصفت مجلّةٌ فرنسيّةٌ تلك الاحتفالات بالقول: "**إِنّه لحَدَثٌ فريدٌ في التاريخ، فقد احتفلت ثماني عشرة طائفةً بعمل الأُمّ تيريزا، إِذ اشتركت الطوائف الثماني عشرة الممثَّلة في كلكتّا في الاحتفاء بالأمّ تيريزا وبرسالتها. حدَثٌ لا سابق له، وفذٌّ في تاريخ البشريّة الروحي**".

وقد استُهلَّت تلك الاحتفالات يوم الأَحد في ٢٨ أَيلول، بقدّاس شكرٍ في كنيسة الناصرة الأَرمنيّة، وامتدَّت حتّى السابع من تشرين الأوَّل، وعكستْ صورةً بيّنةً عن مدى استئثار الأُمّ تيريزا وأَخواتها بقلوب جميع فئات كلكتّا وتقديرها. وإِلى كلّ احتفالٍ كانت الأُمّ تصطحب نفرًا من أَخواتها، فيما كان يتعيّن على الأُخريات المكوث إِلى جانب "قومهنّ" من المرضى، والأطفال، والمحتضرين.

وقد أَبرز القدّاس في الكنيسة الأَرمنيّة قِدَم حضور ذلك الشعب المضطَهد، في الهند. ووصفته إِحدى الأَخوات بقولها: "كان احتفال هذا الصباح فخمًا جدًّا، وغنيًّا بكلّ ما انطوى عليه من عظمة العراقة وروعتها. وقد امتدح الكاهن سعيَ الأُمِّ تيريزا وراءَ الأَبرياء المحكوم عليهم، ولا سيّما الأَطفال، وأَعلن أَنّ السنوات الخمس والعشرين المنْصرمة كانت شاقّةً ووعرةً، وقد خاضت أَثناءَها المرسلاتُ حربًا بطوليَّةً على المَرض والجوع، موفّراتٍ للأَيتام والجياع طعامًا وعملاً وتربيةً، ورعايةً صحّيّةً، مندفعاتٍ في عملٍ يُرضي الربّ".

أَمّا في الكنيس اليهوديّ، فقد أَعلن الحاخام: "بقلبٍ مُفعَمٍ فَرَحًا التأمنا كي نعبّر عن عظيم ابتهاجنا وشكرنا بمناسبة اليوبيل الفضّيّ لجمعيّة مرسَلات المحبّة، لعملهنّ الإِنسانيّ الدافق إِيثارًا، والذي فاض منهنَّ على جميع فقراء العالم". ثمَّ أَنشد المزمور: "هذا هو اليوم الذي صنعه الربّ، فلنفرح ولنتهلَّل به".

وفي الثامن والعشرين من أيلول أُقيمت احتفالاتٌ دينيّةٌ ثلاثةٌ:

أَوّلها في الكنيسة الميتوديّة حيثُ "رتَّل الحضور بكلِّ طاقات صدورهم، فكادوا يُطيحون بسقف الكنيسة، وفي نهاية الطقوس تدافعوا لتهنئة الأُمِّ تيريزا".

وثانيها في كنيسة "سان جيمس" حيثُ أكدَّ القسُّ على حضور الله بين أَبنائه واهتمامه المحبّ بكلٍّ من خلائقه، ولا سيّما المتأَلِّمين، والوضيعين، والجياع، والمنبوذين، وغير المرغوب فيهم، والمُشرَّدين، وشكَرَ للرَّبِّ تعبيره عن اهتمامه بكلٍّ من أَبنائه عبرَ الأُمّ تيريزا وجمعيّتها؛ وقد رتّل الأَطفال نشيدًا يقول: "أُنشدوا أَوّلاً ملكوت الله".

أَمّا في معبد "الجانيّين"، فقد استُقبلت الأُمّ وأَخواتها على إِيقاع الصنوج والطبول تقرعها فتياتٌ؛ وطائفة الجانيّين، التي تعدُّ بضعة ملايين من الأَتباع في الهند تمعن في ممارسة اللاّعنف حتّى حيالَ الحشرات والطيور والبهائم، وغالبًا ما يُسدل رهبانُهم على وجوههم أَقنعةً لئلاّ يبتلعوا أَيّة هامةٍ تسبح في الهواء. وقد راقهم احترامُ الأُمّ تيريزا للحياة البشريّة، وغوثها للمحتضرين المُهمَلين، إذ كان المتقاعدون منهم يقضون أَواخر أَيّامهم في إِنقاذ الحمام المريض في الشوارع. وعقب الاحتفال، وفقًا لطقوس الجانيّين، تحدَّثت الأُمُّ عن خدمة الجار، فيما تحدَّث أَحد رهبان الجماعة عن تعليم "ماها ڤيرا": "عِشْ ودع الآخرين يعيشون". ومن الأَناشيد التي توجز تعاليمه:

« "لَيْتَنِي لا أُلحِقُ أَيَّ أَلمٍ بأَيِّ كائنٍ حيٍّ،

"ولا أَتلفَّظ بأَيّ قولٍ يُجانب الحقيقة،

"ولا أَشتهي امرأة أَحدٍ أو ثروته،

"ولا أَنهل، أَبدًا، رحيق الرضى...

"وليَسُد العالمَ حبٌّ متبادَلٌ،

"وليُقم الضلالُ بعيدًا...

"وليفهم الجميع سُنَن الحقيقة، وليحزنوا بفرحٍ، وليتحمَّلوا الآلام بصبرٍ...».

وممَّا أَثّر تأثيرًا بليغًا بالأُمِّ تيريزا أَنّ إِحدى الراهبات الجانيّات، ما انفكّت، طوالَ فترة الاحتفال، في فعل كفّارةٍ مذهلٍ، تقتلع بأَصابعها شعر رأسها، شعرةً فشعرةً، ولا تبدو على محيّاها أَيّة أَمارة أَلمٍ، وقد بلغ التأثّر بالأُمِّ تيريزا بحيثُ شعرت أَنّ عليها مشاركتها كفّارتها، فمدّت يدها تحت غطاء رأسها، وانتزعت بضع شعراتٍ، محاولةً، ما استطاعت، احتمال الأَلَم من غير تأفّفٍ. وقد صرَّحت: "لقد كان ذلك مؤلمًا جدًّا، ولكنّني توخَّيتُ فعلَه، ولن أنسى أَبدًا أَنّ راهبةً جانيّةً، وقد انثال الدم حول جمجمتها، ما انفكّت، بكلّ هدوءٍ، تقتلع شعرها راضيةً بالأَلم".

وقد وافق يومُ الأوّل من تشرين الأَوّل عيدَ القدّيسة تيريزا الطفل يسوع، شفيعة الأُمّ تيريزا، ما دعا إِلى احتفالٍ عائليٍّ خاصٍّ، فأَقام الأَب "ڤان إِكزيم"، الذي واكب الأُمّ تيريزا منذ مستهلِّ رسالتها، متوليًا إِرشادها الروحيّ، قدّاسًا في مصلّى المركز الأُمّ، اشتركت فيه جميع الأَخوات من جميع مراكز كلكتّا؛ وفي المساء قدَّمنَ تمثيليَّةً صوَّرنَ فيها، بالغناء والرقص، خطوات مسيرة مرسلات المحبّة، من دعوةٍ وقبولها، واندفاعهنّ في رسالة الحبّ، وانتشارهنّ في أَنحاء العالم. ثُمَّ شاهدنَ، للمرَّة الأُولى، فيلم مالكولم موجيريدج "شيءٌ جميلٌ في سبيل الله"، كانت قد جاءت به السيِّدة "آنّ بليكي"، رئيسة رابطة المتعاونين، كي تعرضه على المرسلات بهذه المناسبة.

وبما أَنّ ذكرى مولد غاندي السنويّة المئة والستّ، كانت تقع في الثاني من تشرين الأَوّل، أَبت تلك التي تبنَّت الهندَ وطنًا لها إِلاّ أَن يكون لأَبي الأُمّة مكانه في أُسبوع اليوبيل، فدشّنت، بتلك المناسبة، مركز إِعادة تأهيل البرص في تيتاغار، الذي أُطلق عليه اسم "غانديجي پريم نيڤاس" أَي "مركز غاندي للمحبّة"، وقد تولّى إِدارته الإِخوة، مرسلو المحبّة. وبذلك أَصابت الأُمّ ثلاثة عصافيرَ بحجرٍ واحدٍ: فأحيت ذكرى رسول اللاعنف الذي طالما طالب المرسلين المسيحيّين بعيش عظة الجبل، عوضًا عن التحدُّث عنها، وقد وجدت رغبته أَروع تحقيقٍ في عمل وحياة مرسلات المحبّة ومرسليها؛ ثُمَّ إِنَّهَا أَبرزت عمل إِخوتها مرسلي المحبّة، الذين، مع قضائهم اثنتي عشرة سنةً من الدأب إِلى جانب المرسلات، ومع تولّيهم العناية بجناح الرجال في "نيرمال هرايدي"، كانوا مايزالون شبه مُغْفَلين في الهند؛ وأَخيرًا أَشركت، في يوبيل جمعيّتها، حتّى تلك الفئة من الأَبرياء المنكودي الطالع، الذين تتنكَّر لهم حتّى ذووهم: البُرْص. وقد اشترك في تدشين "غانديجي پريم نيڤاس" أَرفع المسؤولين، وعلى رأسهم حاكم البنغال وزوجته، وقد صرّح الحاكم، السيّد "دياس" أَنّ ذلك الاحتفال كان له تجربةً روحيّةً غنيَّةً.

وفي مساء ذلك اليوم عينه ترأس القسُّ "بونتين" صلاة شكرٍ في "مجمع كنيسة الله"، وقد استقبل الأُمَّ تيريزا وأَخواتها عند باب الكنيسة، وواكبهنّ إِلى الداخل حيثُ ازدحم خلقٌ غفيرٌ. وكانت قد عُلِّقت عند الهيكل لافتةٌ جسيمةٌ كُتب عليها: "مرسلات المحبّة – ٢٥ سنة – فلتعش المحبّة". وافتتح القسُّ الاحتفال بحديثٍ عن الجمعيّة،

وعن تعاون شتّى الفرقاء في سبيل جلب حبّ المسيح إلى يائسي كلكتّا، ومجّد الربّ لكلِّ ما حقّقه بواسطة مرسلات المحبّة؛ ثمّ أَنشدت جوقات الشبّان، باللهجتين الهنديّة والبنغاليّة، تراتيلَ تفاعل معها الجمهور بالتصفيق، وبهتاف: "هلليلويا – آمين – بارك الله الأُمّ تيريزا".

وفي الثالث من تشرين الأوّل، احتفلت باليوبيل، احتفالاً بسيطًا، جماعة "براهمو ساماج"، وهي جماعةٌ هندوسيّةٌ إِصلاحيّةٌ رأت النور في الهند، وكان الدكتور "روي" رئيس وزراء البنغال، الذي ساند، بكلِّ طاقاته، بداية عمل الأُمّ تيريزا، أَحد أَعضائها.

وكتبت إِحدى الأَخوات عن يوم الرابع من تشرين الأوّل: "في الصباح وجدنا ذواتنا، فجأةً، داخل معبد "شري لاكشمي نارايان" الهندوسيّ. وعندما انحدرنا من الحافلة التي بعثت بها السيِّدة "سارالا بيرلا" كي تأتي بنا إِلى مكان الاحتفال، تدافع القوم للمس قدمي الأُمِّ تيريزا، ومضوا بها إِلى قرب الهيكل، فيما كنّا نسير في إِثرها. وقد رفعت السيِّدة بيرلا نفسها صلاة الشكر، والتمست طول العمر للأُمّ تيريزا، والبركة للجمعيّة؛ واشترك الكاهن والجمهور في الابتهال مردِّدين، في تقوى عميقةٍ، أَسماءَ الله الأَلف. وقد اتَّسم الاحتفال بالجلال، وتمَّ كلّه باللغة السانسكريتيّة".

وبعد ظهر ذلك اليوم، كان للأُمّ تيريزا وأَخواتها موعدٌ في معبد الفارسيّين الزردشتيّين الذين اشتهروا بتأثيرهم البالغ في الاقتصاد الهنديّ، وفي تحرير الهند، رغم ضآلة عديدهم؛ وبهياكلهم حيث تُحاط النارُ بتكريمٍ عميقٍ؛ وبأَبراج الصمت حيث يعرضون موتاهم طعمةً للنسور، تفاديًا لتلويث الأَرضَ، والذين، إِلى كلّ ذلك، يلتزمون بشرائع أَخلاقيّةٍ صارمةٍ، ويؤمنون بالدينونة الأَخيرة، أسوةً بأتباع الديانات السماويّة.

وقد تكلّم بلسان الجماعة الدكتور "انكيساريا" مؤكِّداً أَنّ المسيح قد خلّف في تضاعيف التاريخ أَثرًا لم يُجارِه فيه أَحدٌ، بفضل رسالة الحبِّ التي جاء بها: حبِّ جميع البشر على أَنَّهم إِخوةٌ، حبٍّ يتجلّى بالنوايا الطيِّبة، والكلمات العذبة، والعمل الصالح؛ وحبّ الأَطفال لأَنَّهم أَبرياء الأَرض، والاهتمام بجميع من يعانون مرضًا وألمًا وحاجةً. ثمّ أَضاف: "واليوم، ها هي ذي، فيما بيننا، ابنة المسيح التي أَرست كلَّ حياتها على تعاليم سيِّدها". ثمَّ أَهاب بالأُمِّ تيريزا أَن تخاطب الحضور فاستهلّت كلامها بالقول: "إِنّني شديدة الامتنان للرَّبِّ من أَجل هذه السانحة الرائعة التي أَتاحت لي الاجتماع بكم،

كي نشكر معًا الله لما عمله فينا، وعبرَنا، من أَجل فقراء العالم. بفضل تعاونكم معنا أمكننا أَن نقبل العمل ونواصله، واضعين حبَّ الله موضعَ عملٍ معاش".

ثمَّ قدَّمت الشكرَ لجميع من امتلكوا جرأَة قول "نعم" لخدمة الفقراء، للآباء الذين وَهبوا أبناءهم لخدمة الله، وللفقراء "الذين قبلوا حبَّنا، بمثل هذه الثقة العمياء، وقبلوا عطفنا وخدمتنا، ولنشكر، أَيضًا، أُلوف الذين آزرونا على مساعدة الفقراء، الأَغنياء الذين فتحوا قلوبهم، وأَعطوا حتّى أَوجعهم العطاء، والفقراء الذين اقتسموا، مع سواهم، القليل الذي امتلكوه، وكان لديهم من الجرأة ما جعلهم يقتسمون كلَّ شيءٍ".

وأَنهت الأُمّ كلمتها بالتماس صلاة الجميع: "**صلّوا لأَجلنا لكيلا نفسد عمل الله، لأَنّ العمل هو عمله**".

وقد استُهلَّ يوم الأَحد الخامسِ من تشرين الأَوَّل، بقُدَّاسٍ صباحيٍّ في كاتدرائيّة سيِّدة الورديّة. وإِثر القدّاس، مباشرةً، شخصت الأُمُّ وأَخواتها إِلى معبد طائفة الجانيّين المنفصلين، وقد تميّزت عظة كاهنهم "موني سري" بالتأكيد على تفاعل الأَديان، وأَثرها الخيِّر في حياة منطقة البنغال، وتحدَّث عن الصلاة كمصدر قوَّةٍ لامتناهيةٍ، وأَسهب في الإِشارة إِلى المصادر المسيحيّة فقال: "إِنَّ قدرات الصلاة الفائقة لا تكمن في ما نتلفَّظ به من كلماتٍ، بل في القلب الذي تصدر عنه، فقد قال يسوع الناصريّ: "إِن ردَّدتم: "يا ربّ، يا ربّ" ولم تفعلوا شيئًا، فلا شأنَ لما تُردِّدون". وفي إِشارةٍ أُخرى إِلى التعاليم المسيحيَّة أَضاف: "إِن لم تحبّ أَخاك الذي تراه، فكيف لك أَن تحبَّ الله الذي لا تراه؟" وختم بقوله: "الكلمات جسدٌ، والأَفكار روحٌ، والروح، أَبدًا، واحدٌ، وهو هو نفسه في جميع الأُمم، وجميع حقب التاريخ. فلتولد صلاتنا من الروح، ولا تكُنْ مُجَرَّد لحمٍ ودمٍ".

أَمّا في معبد السيخ، فقد جلست الأُمُّ تيريزا بين رجلَيْن ملتحيَيْن ومتعمِّمَيْن، لإِقامة صلاة الشكر في قاعةٍ مزدحمةٍ؛ ومعروفٌ عن طائفة السيخ، التي وُلدت في القرن السادس عشر، أَنّها انتبذت مفهوم الطبقات الهندوسيّ، وأَرست عقيدتها على مزيجٍ من التعاليم الهندوسيّة والإِسلاميّة؛ وقد اشتهرت ببسالة رجالها في ساحات الوغى، كما اشتهرت بعطفها على فقراء الهند، والغرباء، والجياع، بحيث باتت تُقدِّم الطعام مجَّانًا في الكثير من أَماكن عبادتها.

وفي كنيسة مار توما السريانيّة، رُتِّل نشيدٌ خاصٌّ بالمناسبة استُهلَّ بهذا القول:

"يا ربَّ الحبِّ والرحمة، نشكرك من أَجل جميع الذين التزموا بعمل الرسالة في كنيستك، وفي هذه الساعة نشكرك شكرًا خاصًّا لهدايتك التي أَفضت إِلى تأسيس جمعيَّة مرسلات المَحَبَّة".

وتلتْ هذا المقطعَ تسعة مقاطع مماثلةٌ كان الجمهور يردِّد، في ختامها: "نشكرك، يا ربّ"

وقد جاء في المقطع الأَخير منها: "من أَجل النموِّ الروحيِّ، والقدرة على الخدمة، وازدياد الحبِّ والحكمة، ومن أَجل جميع النعم التي أَفضْتَها على الأَخوات، من خلال خدمتهنَّ للفقراء والمرذولين، نشكرك يا ربّ".

أَمّا في كاتدرائيّة القدِّيس بولس، فكان مركز تأهيل المعاقين قد أَعدّ، بحبٍّ ودقَّةٍ، برنامجَ الاحتفال، مساءَ يوم الأَحد، الخامس من تشرين الأَوّل؛ ووُضِعت لهذه الغاية صلواتٌ بشكل دعاءٍ، وأَجوبةٌ من الجمهور عليها، وكلّها مستقاةٌ بعنايةٍ من قوانين جمعيّة مرسلات المحبّة، ومن الإِنجيل. وقد ترأس الاحتفال المطران برايان في الكاتدرائيّة الفسيحة التي اكتظَّت بالحضور، واستُهلّ الاحتفال بتطوافٍ اشترك فيه رجال إِكليروس من جميع الطوائف، وراء رايةٍ كُتب عليها: "كنيسة الهند الشماليّة – وحدةٌ – شهادةٌ – خدمةٌ".

وراءَ الأُسقف، سارت الأُمُّ تيريزا، يليها حاكمُ البنغال وزوجته، وقد قرأ كاهنٌ مقطعًا من قوانين الجمعيّة يقول: "الله محبّةٌ. وعلى مرسلة المحبّة أَن تكون رسول حبّه". وردَّ الحضورُ بالقول: "ينبغي أَن ننشر حبَّ الله على الأَرض".

ثمَّ تلا الكاهنُ مقاطعَ مُسهَبةً من قوانين الجمعيّة اختتمها بهذا القول: "إِنّ روح جمعيَّتنا هو روح حبٍّ واستسلامٍ تامٍّ، وثقةٍ مُحبّةٍ، وفرحٍ، كما عاش يسوع وأُمُّه هذه كلّها، حسب الإِنجيل". وقد ردّ الجمهور، من البرنامح المطبوع: "لقد كان المسيح بالكامل تحت تَصرُّف أَبيه، من أَجل فداء الكثيرين...".

وقد علَّقت إِحدى الأَخوات: "لقد كانت تجربةً رائعةً حقًّا، أَن نسمع جمهورًا بمثل هذا الحشد، وعلى هذا القدر من التنوُّع، ومن جميع الطبقات الاجتماعيّة، يقرأُ ويتأَمَّل كلمات الإِنجيل، ومقاطع قوانيننا التي وهبتنا إِيّاها أُمُّنا تيريزا، والتي غدت، نوعًا ما، هديَّةً عالميّةً لهم جميعًا!"

وحول موضوع "الفقر مَهْرُنا"، تحدَّثت الأُمّ تيريزا عن دعوة الأَخوات الخاصّة، ثمَّ شكرت جميع الذين ساعدوا في العمل طوال تلك السنين، وجميع الأَخوات والإِخوة والمتعاونين، ووجّهت كلمات شكرها الأَخيرة "للفقراء الذين تقبّلونا طيلة هذه السنوات".

وقد تشكّل الكورس من بناتٍ سبق للمرسلات أَن استقبلتهنَّ في "پريم دان" ومن أُخريات ترعرعنَ في "شيشو بهاڤان". وقدَّم أَطفالٌ من الأَكواخ مصنوعاتٍ يدويّةً باسم فقراء كلكتّا، واشترك في تقديم هذه الهدايا صبيٌّ معاقٌ، وأَحدُ نزلاء مشفى البُرْص.

وأَخيرًا حلّ يوم السابع من تشرين الأَوَّل، يوم اليوبيل، فكان قمّة الاحتفالات. ومنذُ السادسة والنصف، صباحًا، احتشدت جميع المرسلات العاملات في كلكتّا في مُصلّى المركز الأُمّ، وقد اصطفَّت إِلى جانب الأُمِّ سبعةٌ من الرائدات الإِحدى عشرة، اللواتي كُنّ أُوليات المنضمّات إِلى الجمعيّة، فيما تغيَّبت الأُخت "جيرترود" التي ترأس مراكز اليمن، والأخت "ليتيسيا" رئيسة مركز پاپوا في غينيا الجديدة، وقد أُنفِذتْ إِلى كلٍّ منهما رسالةٌ تؤكِّد مدى قربهنَّ من قلوب المحتفلات في كلكتّا. وجديرٌ بالذِّكر أَنَّ رابعة القادمات الأوليات، وتاسعتهن كانتا قد غادرتا الجمعيّة أَثناء فترة الابتداء.

واشترك مع الأسقف، في الاحتفال، الكهنةُ الذين كانوا للمرسلات مُرشِدين سحابةَ خمسةٍ وعشرين عامًا، وخدم القدّاسَ العلمانيُّ الذي جعل من منزله مهدًا للرّسالة الوليدة، السيِّد ميشيل غوميز، فيما جلست، في الصفِّ الأوَّل، زوجته وابنته التي جاءت بأَطفالها الثلاثة.

وضمَّ الحضورُ الأَخ أَندرو رئيس مرسلي المحبّة، وعددًا غفيرًا من الإِخوة المرسلين؛ وجلس في المقدّمة من اعتبرتهم المرسلات أَثمن هديّةٍ لهنّ: بعض الذين التقطنَهم، لخمسةٍ وعشرين سنةً خلت، على الأرصفة، وأَفضنَ عليهم كنوز عطفهنَّ، فَبعثْنَهم من موتٍ محتَّمٍ، في ظروفٍ بشعةٍ ذميمةٍ، إِلى حياةٍ كريمةٍ.

وأَنشدت المرسلات تراتيل خاصَّةً، كانت قد أُعدَّت منها نسخٌ كثيرةٌ، أُرسلت إِلى جميع مراكز المُرسلات في الهند والخارج، لإِنشادها في تلك المناسبة عينها، تعبيرًا عن اشتراكهنّ، جميعًا، بقلبٍ واحدٍ، وبروحٍ رسوليٍّ واحدٍ.

وقد توافق يوم السابع من تشرين الأَوَّل مع حلول عيد الفطر، فاحتشد، في ميدان كلكتّا، نحو خمسة آلاف مسلمٍ، إِثر أَدائهم صلاة العيد، لرفع صلاةٍ خاصَّةٍ شكرًا على

ما قامت به المرسلات من أَفعال رحمةٍ، سحابة ربع قرنٍ، فيما انتصبت الأُمُّ تيريزا وطائفةٌ من أَخواتها بطرف الميدان، مطأطئاتٍ الرؤوس، ومكثت فئةٌ منهنَّ داخل الحافلة التي جاءت بهنّ إِلى موقع الاحتفال، احترامًا لشعور المسلمين وتقاليدهم.

ثمَّ حضرنَ احتفالاً آخر في معبدٍ بوذيٍّ أَهدى راهبٌ، في ختامه، إِلى الأُمّ تيريزا شمعتَيْن كهربائيَّتَيْن، استقرّت إِحداهما إِلى جانب مصباح الهيكل في مُصلَّى الدير؛ ولئن كان البوذيّون لا يؤمنون بإِلهٍ واحدٍ، إِلاَّ أَنَّهم يشاركون المسيحيّين التزامهم بواجب الرحمة حيالَ سائر البشر. وقد أَعرب أَحدُ الزعماء البوذيّين عن يقينه بأَنَّ الأُمّ تيريزا هي، في ضوء التعاليم البوذيَّة، كائنٌ نيِّرٌ يدعى "ناظر نحيب العالم"، وقد شبَّهها بإِلاهةٍ بوذيّةٍ، من جرّاء "إِسالتها الفرح في أَحزان البشريّة".

وعلّقت إِحدى الأَخوات على هذه السلسلة من الاحتفالات الفريدة في تاريخ الديانات بالقول: "يخامرنا الشعور بأَنَّ هذا النمط من الاحتفال باليوبيل الفضِّيّ كان، حقًّا، هبةً من الروح القدس، الذي أَوحى لأُمِّنا فكرة عقده بهذا الأُسلوب الفذّ. ولم يكن علينا، نحن، أَن ننشغل بتحضير سوى القليل، فمضينا في عملنا كالمعتاد".

ولقد أَثبتت الأُمُّ أَنَّ كلَّ سعيٍ مُخلصٍ وصادقٍ نحو الله، لا يمكن أَن يُنكر على الآخرين، أَيّةً كانت دروبهم، مثل هَذا السعي، وَأَكّدْت، بفعالها، أَنّ الصلاة، إِن هي إِلاّ عمل الروح في المصلّين، وهكذا جعلت من طقوس الملايين من مختلف طوائف أَبناء الأُسرة البشريّة، في ذلك الأسبوع المقدَّس من تشرين الأَوّل ١٩٧٥، توجُّهًا مشتركًا نحو هدفٍ واحدٍ، نحو اللاّنهائيّ.

وأَثناءَ أُسبوع اليوبيل لم تبارح ذهن الأُمّ تيريزا الأُسرة الكريمة التي استضافتْ في منزلها رائدات مرسلات المحبَّة، يومَ كانت جمعيَّتهنَّ وليدةً تحبو متلمِّسةً طريقها، والخدمات الجليلة التي أَسدتْها لهنَّ، فاقتَنَصت من وقتها المزدحم، دقائقَ زارت أَثناءها، مع طائفةٍ من أَخواتها، آلَ غوميز، تعبيرًا عن شكرٍ عميق الغور، وعرفانًا بجميل لا سبيل إِلى الذُّهول عنه.

وقد حرصت الأُمُّ على مقاسمة أَصدقائها الفقراء أَفراح الجمعيّة؛ وإِذ هي عَهِدت كَلَف الهنود بالسينما، دعت جموعًا منهم إِلى مشاهدة فيلم "بن حور"، وكان معظمُهم يَلِجون دارَ السينما للمرَّة الأُولى في حياتهم. أَمَّا أَثمان البطاقات فتبرَّع بها متعاونون.

حتَّئذ كانت الكنيسة الكاثوليكيّة في الهند مرادفًا لمعاهد ومدارس راقيةٍ، ولكنَّ الأُمَّ تيريزا وأَخواتها أَبرزْنَ لها صورةَ موئل عطفٍ ومحبَّةٍ، وعاملَ تقدُّمٍ اجتماعيٍّ، ووحدةٍ تَصِل جميع أَجناس البشر، أَبناء الله الواحد.

واحتُفِل بيوبيل الجمعيَّة في جميع مراكز الجمعيّة، في الهند وخارجها، وبرهنت الجموع التي احتَشدت في كلِّ مكانٍ، لهذه الغاية، عن عميق تقديرها لعمل المرسلات وصادق حبِّها لهنَّ، وعبَّر بعضُها عن تلك المشاعر بالرقص والغناء، على نحو ما فعل الجمهور الذي اشترك في قُدَّاس اليوبيل في "تابورا" بتنزانيا.

وكانت الأُمُّ قد أَنفذت رسالةً "**إِلى أَعزّائي الأَخوات والإِخوة، وفقرائنا والمتعاونين معنا، وجميع الذين شاركونا عملنا، في العالَم أَجمع:**

"**بعد أَن أَنفقنا خمسةً وعشرين عامًا معًا في خدمة الله، مقدِّمين، بكلِّ قلوبنا، خدمةً مجَّانيَّةً للمسيح في صُوَره البائسة، والتي، خلالَها، عِشنا، وعملنا، وصلَّينا معًا، فلنقل، معًا أَيضاً:**

"**شكرًا يا يسوع، لاختيارك إِيّانا مرسلاتٍ لمحبّتك،**

شكرًا يا يسوع، لإِيكالك إِيّانا جسدَك ودمَك،

شكرًا يا يسوع، لإِيلائك إِيّانا حُظوة خدمة الفقراء،

شكرًا يا يسوع، لكلِّ شيءٍ، وخاصَّةً لكونك يسوع لكلّ فردٍ، ولحبِّك إِيّانا كما يحبُّك الآب".

وفي غروب يوم السابع من تشرين الأَوّل أَعلنت الأُمُّ تيريزا: "فلنلتزم بالجهد كي نُعِدَّ اليوبيلَ الذَّهبيَّ ليسوع...". فالعيد، عندها، تحفُّزٌ لقفزةٍ جديدةٍ، ولشوطٍ أَبعد.

وفي اليوم التالي، شخصت إِلى مدينة "كوتاك" في أوريسّا، حيثُ افتتحت مركزًا، استجابةً لطلب رئيسة الوزراء المحلِّيَّة، التي كانت عاتبةً على الأُمّ لإِغفالها تلك المنطقة.

ولم يكدْ ينصرم أُسبوعٌ على اختتام احتفالات اليوبيل، حتّى غادرت الأُمُّ تيريزا إِلى نيويورك، للمشاركة في القمَّة الروحيَّة التي دعا إِليها "هيكل التفاهم" بمناسبة الذِّكرى الثلاثين لولادة الأُمم المتَّحدة. و"هيكل التفاهم" منظَّمة غير حكوميّة تضمُّ ممثِّلين عن مختلف الديانات، وترمي إِلى إِيجاد سُبُلٍ تسمح للطاقات الروحيّة بحلِّ مشاكل العالم، تحت شعار "واحدٌ هو روح الإِنسان".

وقد أَتاحت تلك الرحلةُ للأُمِّ تيريزا سانحةَ المشاركة في الاحتفال بيوبيل جمعيَّتها، في روما، يوم العشرين من تشرين الأوّل، في كاتدرائيّة القدّيس يوحنّا، وقد ترأسه الكردينال "پوليتّي" يُواكبه ستّون كاهنًا، بحضور حشدٍ غفيرٍ من المتعاونين، ومن فقراء روما وضاحيتها.

وقبل انعقاد المؤتمر، شخصت الأُمُّ إِلى جامعة كارولينا الشماليّة في ولمنغتون، حيثُ تسلَّمت جائزة "أَلبيرت شفايتزر" في الإِنسانيّات، وقد شُبِّهت بأَلبيرت شفايتزر الذي قاده مبدأ "احترام الحياة" إِلى تكريس حياته لشفاء فقراء أَفريقيا، قاطني الغابات.

ويوم الجمعة في ٢٤ تشرين الأَوّل ١٩٧٥، في القاعة المحاذية لمقرّ الأُمم المتَّحدة بنيويورك، جلس إِلى جانب الأُمّ تيريزا، في إِطار مؤتمر القمَّة الروحيَّة، كلٌّ من "اللورد أَبوت كوشو أوهتاني" ممثِّلاً عن البوذيّة، والحاخام روبيرت غورديس، ممثِّلاً عن اليهوديّة، والدكتور سيِّد حسين نصر، ممثِّلاً عن الإِسلام، في حين كانت الأُمّ تيريزا هي المتحدّثة باسم المسيحيّة. وقد رحَّب أَمين عام الأُمم المتّحدة "كورت ڤالدهيم" بالمحاضرين والحضور؛ وانعقد المؤتمر تحت شعار قول الراهِب المسيحيّ "توماس ميرتون": "إخوتي الأَعزّاء، نحن، في الواقع، واحدٌ، ولو خيّل إِلينا أَنّنا غير ذلك. وما يتوجّب علينا أَن نكون، هو ما نحن عليه الآن، حقًّا".

تحدَّثت الأُمُّ تيريزا عن حبِّ الله، قلب رسالة يسوع، داعيةً المشاركين من جميع الديانات إِلى خدمة الفقراء والمتألِّمين، على أَنّهم "إِخوةٌ وأَخواتٌ في الأسرة الواحدة التي براها الله المحبُّ الواحد".

وعلَّقت إِحدى الصحف بالقول إِنّ المؤتمر استمع إِلى قدّيسةٍ حيَّة، موضحةً أَنّ إِرهاق سني الكدِّ والسهَد لم يُفقدها شيئًا من توقُّد قريحتها، فعيناها البنِّيَّتان ما زالتا متألِّقتَيْن، وما برحت العزيمة تقطر من أَقوالها، وما انفكّ أُسلوبها هو علامتها المميّزة: الاتِّصال الشخصيُّ الذي يبثُّ في اليائسين شعورًا بالكرامة.

ثمَّ أَلقت الأُمُّ طائفةً من المحاضرات في عدّة جامعاتٍ أَميركيّةٍ، حيثُ حيّى الأَساتذةُ عملَها، واحتشد الأُلوف للاستماع إِليها، وللتشرُّف بمصافحتها إِن تسنّى لهم ذلك.

وقد عرَّفتها مجلّة "تايم" بالقدِّيسة الحيَّة، وعرَّفت القدّيسَ بأَنّه إِنسانٌ يشعّ منه نورُ الله. وكم من الناس شاهدوا ذلك النور مشعًّا منها! وأَضافت المجلَّة أَنّ القدّيس المعاصر هو مَن يتحلَّى بصفات بطولةٍ وشجاعةٍ، لا هوادة فيها، تُنصِّب منه للآخرين أُسوةً ومثالاً. وارتأى كاتب المقال أنّ من بين من يجسِّدون هذه الصفات رجلاً وامرأةً، كلاهما من الهند: المهاتما غاندي، والأُمُّ تيريزا.

ومضى تكاثُر عدد المرسلات بوتيرةٍ مُذهلةٍ تكاد، مع ذلك، لا تفي بالاحتياجات المتزايدة إِلى خدماتهنّ. وفي غروب عام ١٩٧٥، أَبرزت، في المركز الأُمّ، اثنتا عشرة مرسلةً نذورهنّ المؤبَّدة، واثنتي عشرة مرَّةً تكرَّر هذا المشهد:

ينادي الشمّاس الإِنجيليّ باسم كلِّ راهبةٍ، على التوالي، فينعقد الحوار التالي:

– "هل دعوتني، يا ربّ؟

– "أُختي العزيزة، ماذا تطلبين من الربّ ومن كنيسته؟

– "أَطلب اتّباع يسوع، قريني، والثبات في هذه الرهبانيّة حتّى مماتي.

– "وهل أَنتِ عازمةٌ على توثيق اتّحادك بالمسيح، برباط النذور المؤبَّدة؟

– "إِنّني لعازمةٌ.

– "هل أَنت عازمةٌ، بعون الله ونعمته، على انتهاج حياة عفّةٍ وطاعةٍ وفقرٍ، على غرار المسيح وأُمِّه العذراء مريم، والثبات فيها؟

– "إِنَّني لعازمةٌ.

– "هل أَنتِ عازمةٌ، بنعمة الروح القُدُس، على وضع كلِّ حياتك، وكلِّ قلبك، في خدمة فقراء الله مجّانًا؟

– "إِنّني لعازمةٌ.

– "هل أَنت عازمةٌ على نشدان حبِّ الله الكامل، وحبِّ القريب، بلا انقطاعٍ، متَّبعةً، بفرحٍ، الإِنجيلَ ونظامَ هذه الجمعيَّة الرهبانيّة؟

– "إِنَّني لعازمةٌ!"

وحينئذٍ تتلو الناذرة نصَّ نذورها، وتشخص إِلى الهيكل، حيث تودع هذا النصّ، كي تضمَّه إِلى تقدمة جسد الربّ ودمه.

وفي تلك الأَثناء، تكون الأُمّ تيريزا وأَخواتها جاثيات، وقد تجلّت وجوههنّ بفعل الصلاة. وعندما تجثو الأمّ تيريزا لتصلّي، تبدو وكأَنّها عند قدمي الربّ، بل لكأَنّها في انخطافٍ.

ثلاث مراحل

مع احتفال جمعيَّة مرسلات المحبَّة بيوبيلها الفضّيّ، تبرز مراحلُ ثلاثٌ في مسيرة الأُمِّ تيريزا: الأُولى، ويمكن تسميتها مرحلة السنوات البطوليّة، كانت سعيًا نحو غدٍ مجهولٍ، لا دليلَ له سوى إيمانٍ صُلْبٍ متحفِّزٍ لتحدّي كلِّ الصعاب، وبحثًا عن سندٍ، وأَخواتٍ، ووسائل عملٍ، واعترافٍ رَسميٍّ. وسرعان ما شرع الحلم يتجسَّد؛ فالرفيقات يقدمنَ، وبوادر العمل تتبلور في مشاريع قد تكون بدائيّةً، ولكنَّها رائدةٌ في مجالها؛ وجمعيَّتها تفوز باعتراف الكنيسة، ولكن طيلة عشر سنواتٍ يظلُّ نشاطها محصورًا في كلكتّا حيث تصوغ نماذج لما تصبو إِلى تعميمه في كلِّ أنحاء الهند، وجميع أَرجاء المسكونة. وقد أَثبتت الأمُّ، في تلك المرحلة، للكنيسة وللعالَم، أَنَّهَا اختيرت، حقّا، لدعوةٍ من الله فريدةٍ، وأَنَّها وافت الدنيا بنفحةٍ قشيبةٍ منعشةٍ.

المرحلة الثانية هي مرحلة الجهد: فقد راحت أَفواج المنتسبات الجديدات تتدفَّق بكثافة، وشرعت مشاريع الأُمِّ المتميِّزة تتخطّى تخوم كلكتَّا إِلى سائر مناطق الهند، وتتخطّى تُخوم الهند إِلى العالَم الفسيح، وبدأت شهرة الأُمّ تطبّق الآفاق، ووسائل الإعلام تنشر صُوَرها وأَنباء إِنجازاتها على الملأ، وانطلقت الدوَل تتنافس على إِجزال الجوائز وآيات التكريم لها.

وفي أَعقاب احتفال الجمعيّة بمرور ربع قرنٍ من تاريخها المدهش بإِنجازاته المثيرة، وخصبه المنقطع النظير، بدأت المرحلة الثالثة، مرحلة السنوات المجيدة، حيثُ تسارعت وتيرة افتتاح مراكز جديدةٍ، وتكريس أَخواتٍ جديداتٍ يُضخّمنَ باطّرادٍ صفوف الجمعيّة التي عهدت فترة ازدهار مذهلةً.

في مطلع الثمانينات كانت الأُمُّ قد استوفت من العمر سبعين عامًا، وتوقَّع البعضُ أَن يفتُر نشاطها، فتنْصرف إِلى ترسيخ أُسُس مراكزها القائمة؛ ولكنّ ما حدث فعلاً كان على نقيض ذلك، فلكأنّ ريح شبابٍ متأجِّجٍ كانت تنفخ في أَشرعتها، وتدفع بها إِلى مغامراتٍ جديدةٍ تملأُ بها الأَرض حبًّا لله وللبشر. لقد تسارعت وتيرةُ نشاطها، وازدادت جدوًى، مستفيدةً من الدعم المنيع الذي اكتسبته في الوسط الكنسيّ، ومن قِبَل عظماء العالم، الذين أَمسوا يتشرّفون باستقبالها، وتلبية طلباتها.

ففي غروب السبعينات كانت الأُمُّ قد صرّحت: "السنة القادمة سنحتفل بيوبيل يسوع الفضّيِّ، بافتتاحنا خمسةً وعشرين مركزًا جديدًا ننصب فيها خمسةً وعشرين هيكلاً للرَّبّ".

وفي السنة التالية أَعلنت: "سنجعل يوبيل يسوع ذهبيًّا بافتتاحنا خمسةً وعشرين مركزًا آخر". وقد وفت بوعدها إِذ افتتحت في تَيْنك السنتين ٥٢ مركزًا، ما ارتقى بعدد مراكز مرسلات المحبّة من ١١٢ إِلى ١٦٤ مركزًا، منها سبعون مركزًا خارج الهند. ومضى التوسُّع على تلك الوتيرة المدهشة طيلة الثمانينات، فبلغ عدد المراكز عام ١٩٨٦، ٣١٥ مركزًا، من غير أَن تطرأ أَيّة أَمارات وهنٍ أَو تراجعٍ على نموّ الجمعيَّة وازدهارها.

وفي عام ١٩٨٦ ذاك، تفوَّق عددُ المراكز المنشأة خارج الهند على عددها في الهند، إِذ أَصبح ١٦٩ مركزًا مقابل ١٤٦. فارتكاز الجمعيَّة على قاعدةٍ صُلبةٍ في الهند قد أَتاح لها الانصراف إِلى توسيع شبكة مراكزها في الخارج.

وكانت الأُمُّ قد صرَّحت عام ١٩٨٤: "أكثر من مئة أُسقفٍ راسلونا مطالبين بافتتاح مراكز في أَبرشيّاتهم". هذا العدد من رعايا العالم التي تلتمس حضور أَخواتها كان يُثلج صدر الأمِّ التي عبَّرت عن بهجتها بتصريحها: "كان لنا حضورٌ في ٣٥ بلدًا، ثمّ امتدَّ هذا الحضور إلى ٥٤، فإِلى ٦٥ ثمَّ إِلى ٧٧ بلدًا، وها نحن الآن حاضرات في ٨٥ بلدًا؛ وبات تخطّي رقم المئة بلدًا أَمرًا سهلاً بل محتَّمًا، فتدفّق الدعوات الجديدة في تعاظمٍ مطّردٍ، والمرشَّحات الجديدات يقدمن من بولونيا، ويوغسلافيا، وفرنسا، وإِيطاليا، والولايات المتَّحدة، والفيليبين وأَفريقيا، ومن سبعين بلدًا، فضلاً عن الهند التي تظلُّ منبع الدعوات الثرّ، والأَسخى عطاءً.

هذا الانتشار المذهل لم يكن له أيُّ تفسيرٍ طبيعيٍّ؛ فقد كان عمل الله.

مراحل ثلاثٌ ترمز إِليها ثلاث وثائق محفوظةٍ، وثلاث صُوَرٍ معبِّرةٍ.

أَمّا الوثائق، فأَولاها بطاقة نقلٍ مجّانيّةٌ في ترام كلكتّا، صالحةٌ لمدَّة سنةٍ، تبرّعَ بها للأمّ أَحدُ موظَّفي المدينة، يوم كانت لا تكفّ تجري من كوخٍ إِلى كوخٍ، وقد رأى قدَميْها الداميتين، من جرّاء ذلك السعي المتَّصل، ولا سيّما عندما تعود في المساء منهكةً إِعياءً. تلك البطاقة ترمز إِلى السنوات العشر البطوليَّة، حيثُ كان عمل الأُمّ مقتصرًا على كلكتّا، وعلى وسائل ضئيلة.

الوثيقة الثانية: بطاقةٌ مجّانيَّةٌ للتَّنقُّل بواسطة الخطوط الحديديَّة، في عربات

الدرجة الثانية، صالحةٌ للسَّفر عبر جميع الأَراضي الهنديّة للأُمّ تيريزا ولمرافقةٍ لها، منحتْها وزارةُ النقلِ؛ إنَّها رمزٌ لسنوات الجهد، عندما كانت الأُمُّ ناشطةً في افتتاح مراكز في الهند، مسافرةً بلا كَلَلٍ، وعندما كان إشعاعها إلى الخارج ما زال محدودًا.

الوثيقة الثالثة بطاقةُ سفرٍ مجّانيّةٌ على جميع طائرات الخطوط الجويّة الهنديّة، قدَّمتها لها رئيسة الوزراء أنديرا غاندي، وكانت أَسفارها إلى الخارج قد أَمست متواترةً، ووقتُها بات ثمينًا، وَغَدَتْ في حاجةٍ إلى أَجنحةٍ لتطير، مثل ملاك رحمةٍ، حيثما استدعى الشقاءُ غوثًا. بطاقةٌ ترمز إلى السنوات المجيدة، وقد أَمست الأُمُّ تعمل بوتيرةٍ أَسرع، وبجدوى أَوفر، وأَصبح العالم كلّه يُسبغ عليها التكريم ويلتمس حضورها. وقد يفرض عليها تزامن الضرورة الملحَّة، والوقت القصير، استخدام طائرةٍ خاصّةٍ يتبرَّع بها أَحدُ المتعاونين أَو أَحد الرؤَساء.

المسيرة، إِذن، ابتدأَت سعيًا شاقًّا على الأَقدام، ثمّ، كسبًا للوقت وتوفيرًا للعناء المفرط، استخدام للترام، ثمَّ بعد أَن اتّسعت رقعة عملها، وتشعّبت، لجوءٌ إلى القطارات، فإلى الطائرات النفّاثة.

أَمَّا الصوَر فأولاها للأُمّ تيريزا ولنفرٍ من رفيقاتها الأُوليات، في المركز الأُمّ، فور شرائه. البذرة أُلقيت في التربة، والجماعة الأُولى تعيش عيشة أُسرةٍ متحابّةٍ، تحدوها آمال عريضةٌ.

الصورة الثانية تُظهر الأُمّ تضمُّ يتيمًا، ضحيَّة حرب البنغلاديش، ومحيّاها يضجّ بالرأفة والأَلم، أَلم المسيح نفسه.

وفي الصورة الثالثة تمسك الأُمّ بيد الحبر الأَعظم، وهو يهبط درجات الهيكل، فرحةً بوجودها إلى جانبه، وبالعمل معه. وإلى هذه الصورة يحسن إضافة صورةٍ أُخرى، وربّما أَخيرةٍ، مع قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني، وهي تقدِّم له خليفتَها على رأس مرسلات المحبّة، الأمّ نيرمالا؛ وفي مبادرةٍ عفويّةٍ، يقبِّل الحبر الأَعظم رأسها، فتقبِّل هي، في آنٍ واحدٍ، راحةَ يده، تعبيرًا بليغًا عن الصلة الوثيقة الحميمة بين ممثّل يسوع على رأس كنيسته، وممثِّلة يسوع بين فقرائه وإخوته المتألِّمين؛ صلةٌ هي امتدادٌ لصلتها بالبابا بولس السادس الذي كان قد أَوكل إليها مهمّةً لم تسعَ، قطُّ، إليها، ولم تخطرْ لها ببالٍ، عندما انتدبها سفيرةً متجوّلةً، وكلَّفها بالذَّود عن بعض مبادئ

الكنيسة التي كانت عميقة الإيمان بها، فقامت بدورٍ نَبَويٍّ، ولم تكفَّ تعلن الحقائق المسيحيّة الجوهريّة، بلا وَجَلٍ ولا مراوغةٍ، أُسوةً بيسوع الذي أَعلن البشرى، ودافع عن حقّ كلّ إِنسانٍ في الاعتراف، والعدل، والإيمان والعبادة.

تلك هي صورة السنوات المجيدة: صلاةٌ وجهدٌ، ولكن من غير عرقٍ ودموعٍ، بل فرحٌ لا قرارَ لغوره، الفرح الذي يبثُّه الربّ في قلوب أَوليائه، فرح العمل باسم الآب.

مذْ باشرت الأُمُّ رسالتها، أَطلقت شعار: "**فلنجهد في إِنجاز شيءٍ جميلٍ في سبيل الربّ**". وقد أَنجزت تلك المهمَّة في مثل معزوفةٍ ثلاثيّة المقاطع، مضت نغماتها تتصاعد إِلى أَن اكتملت في نهايةٍ متأَلِّقةٍ. وحينئذٍ "قد يتوارى الملحّن، وتتبدَّل عناصر الجوقة، ويتخلّى القائد عن مكانه لآخر، ولكنّ المعزوفة باقيةٌ تدعو مزيدًا من المستمعين إِلى تمجيد الرب...".

غير أَنّ ما لا تُبرزه الوثائق، ولا تكشف مكامنه ودقائقه الصوَر هو مجموع الآلام، والجهود، والضُّغوط، وأَفعال الإيمان والحبّ، التي حفلت بها حياة الأُمّ تيريزا، والتي لا يعرفها إِلاَّ من خَبَر تجربة الخضوع المطلق لمشيئة الربّ.

١٩٧٦: عام "دارشان"

جاء اليوبيل دافعًا إِلى انطلاقةٍ جديدةٍ زاخرةٍ بالزخم والحيويَّة، في حياة الجمعيّة، فكان عام ١٩٧٦ للأُمّ تيريزا عام حركةٍ دائبةٍ لا تفتر، فهي أَبدًا في الأَجواء أَو على الطرقات، ساعيةً إِلى تأسيس مراكز جديدةٍ، أَو إِلى تفقُّد المراكز القائمة وترسيخها. وهي محطُّ أَنظار الملايين من ناشدي "الدارشان". و"دارشان" لفظةٌ هنديّةٌ تعني التملّي من تأمُّل قدّيسٍ، واقتباس روح قداسته؛ فالأمّ تيريزا، أَينما شخصت، لحقتْ بها قلوبُ الصابين إِلى مشاهدتها، والتبرُّك بها، والاستماع إِليها، فهي حضور الله المشعُّ من خلالها، الذي يشدّ إِليها المتعطِّشين إِلى رؤية الله. وَهِيَ، استجابةً لرغبات التوَّاقين إِلى اقتسام خبراتها الفذّة، تقضي الساعات الطوال متحدِّثةً إِلى الجماهير الغفيرة، من فوق منصّاتٍ دوليّةٍ، وكراسٍ جامعيّةٍ، ومنابر شعبيّةٍ، في شتّى أَرجاء المسكونة، باثَّةً، في بساطةٍ وعمقٍ، ما يزدحم في صدرها، وينسج لحمة حياتها، من حبّ الله، وحبّ إِخوته المحرومين والمتأَلمين.

ولا بدْعَ إِن ذاعت لها صورةُ راهبةٍ معاصرةٍ سيطر عملُها على اهتمام أَجهــزة الإِعلام، تقضي قسطًا رحبًا من وقتها مسافرةً إِلى مختلف أَركان المعمــورة، حيــثُ تُدعى للتَّحدُّث، أَو إِلى حيثُ تدعوها الأَحداثُ للبذل والغَوْث.

تلك الأَسفار المتواترة كانت ترهقها، ولكنَّها لا تُقْعِدها؛ وقد شــكت، يومًــا، إِلــى مرشدها الروحيّ: "**ثمَّة فتراتٌ أَشعر فيها أَنَّني فارغةٌ تمامًا مثل صدفةٍ أُفرغــتْ مــن محتواها، مثل شيءٍ لا قِوامَ له، لا سَنَدَ لي، وحيدةٌ، تعيسةٌ**". فأَوضح لها مرشدها أَنَّ الربّ يمتحننا، أَحيانًا، متظاهرًا بالتخلّي عنّا، فيُخامرنا مثلُ شعور يسوع في الجسمانيّة.

في السادس من كانون الثاني ١٩٧٦، افتتحت ثالِــث مركــزٍ لمرســلاتها فــي بومباي، أَطلقت عليه اسم "آشا دان" أَي "عطيّة الرجاء"، وقد أَشرع أبوابه لاســتقبال المرضى، والمحتضرين المُهمَلين. وأَعلنت الأمُّ، في تلك المناسبة: "**آشا دان**" **عطيَّــة رجاءٍ، وحبٍّ، ليس فقط للفقراء والمعوزين، بل، أَيضاً، لكم ولي، وفيما نحن نرحِّب بعطاياكم النقديّة والعينيّة، إلاّ أَنّني أَشدُّ رغبةً في أَن تأتوا، بين حينٍ وحــينٍ، إِلــى هذا المركز، وتهبوا المقيمين فيه حضوركم. ابتسموا لهــم، المــسوهم، دعــوهم يشعرون أَنّكم لهم إِخوةٌ وأَخواتٌ. لقد صرّح غاندي:** "**من يخدم الفقراء، يخدم الله**".

وفي شهر شباط دكَّ زلزالٌ عنيفٌ مدنًا وقرًى في غواتيمــالا، زارعًــا الــدمار والموت. وعلى خلاف عادتها، لم تنتظر الأمُّ تيريزا أَن توافيها دعوةٌ من هناك، بــل قرَّرت إِيفاد فريقٍ من أَخواتها، في الحال، لتقديم ما يمكنهنّ مــن غــوْثٍ، واكتفــت بإِعلام كردينال غواتيمالا عن تأَهُّبها لإِنفاذ ذلك الفريق، مع حُبّها، فأَجاب الكردينــال شاكرًا، مرحِّبًا بحرارةٍ.

وفي آذار ١٩٧٦ شخصت إِلى مدينة "غانكتوك"، عاصمة ولاية "سكيم" تمهيــدًا لافتتاح مركزٍ هناك.

وفي الثامن من نيسان يمَّمت ثلاثُ مرسلاتٍ شطرَ المكسيك، للشروع بتأســيس المركز الذي كان قد طالب به الرئيس "پــورتيللو".

ثمَّ طارت الأُمُّ إِلى الولايات المتَّحدة، وقد عرَّجت، في طريقها، على روما حيثُ فوّضها الرهبان البينيدكتيّون باستخدام ديرهم، لاستقبال مُشرَّدي روما، فحوَّلتْه مأوًى للمشرَّدين الجانحين، وموئلاً للمحتضرين المُهمَلين.

وكانت شيكاغو هي محطَّتها الأولى في الولايات المتَّحدة، خلال أُسبوع الفصح، حيث كان الاتّحاد الوطنيّ للتَّعليم الكاثوليكيّ يعقد مؤتمره العامّ الثالث والسبعين. وكان رئيسه قد أَعرب عن حرصه الشديد، وتوقه المُتَّقد، إِلى إِسماع صوت الأمّ تيريزا في ذلك المؤتمر. وكانت الأمّ قد ردّت على تلك الدعوة بقولها: "**ينبغي أن تُصلّوا، حقًّا، من أَجلي بحرارة، لكي أَدع يسوع يستخدمني استخدامًا كاملاً أَثناء إِقامتي في الولايات المتَّحدة، لأَنّني مُغرقةٌ في الصغَر، والفراغ، والعدَم، بحيث إِنّ يسوع وحده يستطيع أَن ينحني سحيقًا كي يستخدم واحدةً مثلي...**".

وكانت الأمّ تيريزا هي بؤرة الضوْء المُشرقة في ذلك المؤتمر حيثُ أَدلت بحديثَيْن، أَوَّلهما مساء ٢١ نيسان، وثانيهما صباح ٢٧ نيسان، وقد أَربى جمهور كلٍّ منهما على ستّة آلاف مستمعٍ، بحيث اضطرَّ الحضورُ إِلى الوقوف، ملءَ الردهة الفسيحة، طيلةَ مدَّة حديثها.

وكانت فترة الصوْم الكبير فُرصةً لشحذ سخاء الطلاّب الأَميركيّين الذين نفّذوا قولاً مأثورًا: "**فليكن صومُ المؤمن مأدبةً للفقير**"، ولا سيّمَا بعد أَن أَبرز المعلّمون مأساويّة معاناة الأَطفال في بلدانٍ مثل الهند، بحيثُ تخطَّت تبرّعات الطلاّب، في شتّى المدارس الكاثوليكيّة، مليون دولارٍ.

وخاطبت الأمُّ المعلِّمين بقولها: "**إِنَّ أَعظم هبةٍ يستطيع الربّ أَن يهبكم إِيّاها هي صَوْغ الربّ في أَذهان الصغار. فافعلوا ذلك بعنايةٍ... ليس التعليم مُجرَّد مهنةٍ، بل هو عمل إِيمانٍ، إِيمانٍ بأَنَّ الله هو مَنْ نعلِّم. عليكم أَن تعلِّموا قيمة الحياة، فهي حياة الله. إِنَّ أَخواتي لا يعلّمنَ دائمًا كما تعلّمون، بل هنَّ يعلِّمنَ، أَيضاً، بأَيديهنّ، الأيدي التي تخدم الفقير بحبٍّ**".

ومن القاعة الفسيحة المكتظّة بكهنةٍ وعلمانيّين ارتقوا إِلى أَرفع سلالم العلم والمعرفة، ارتفع إِليها سؤال:

- "هلاَّ حدَّثتِنا عن حبّ الله لكِ؟"

فأَجابت: "**لولا حبُّ الله الرقيق، في كلّ لحظةٍ من النهار، لما كنّا شيئًا... وتواضع الله هو استخدامه لكم ولي في عمله العظيم. وهكذا نقتسم الدعوة العظمى**

إِلى أَن نكون ملك يسوع الذي جاء ببشرى حبّ الآب لكلِّ منّا، حبًّا شخصيًّا...".
ومضت تسرد أَمثلةً على حبّ الله، وعنايته الساهرة التي لا تغفل.

وفي شيكاغو اقتيدت بسيَّارةٍ إِلى "داڤينپورت" في ولاية "إِيوا"، حيثُ دعت جامعة لويّولا إِلى حفلة تكريمها بدكتورا فخريّةٍ في الآداب الإِنسانيّة، إِذ "إِنَّ الأُمَّ تهب أَصدقاءَها حياتها، وأَصدقاؤها هم المرضى، والجرحى، والمحتضرون، والوحيدون، في عالمنا الفاسد. لقد أَغدقت عونها على أَعزّ الإِخوة وأَصغرهم، إِخوتها وإِخوتكم، وإِخوة المسيح".

وفي "داڤينپورت" كرَّمها الأُسقف "أوكيڤا" بجائزة "السلام على الأَرض" قائلاً: "**لستُ أَظنُّ أَنَّنا سنحظى، وأَنا حيٌّ، بحضور شخصيّةٍ في مثل عظمة الشخصيّة التي تشرِّفنا، اليومَ، بوجودها معنا**".

وفي مدينة بوسطن، بعد أَن تحدثت إِلى حشدٍ من جميع راهبات الأَبرشيّة، سعدت بلقاء أُسَرٍ كانت، بمساعدتها، قد تبنَّت أَطفالاً هنودًا، وقد اشتدّ صخَب الأَطفال من حولها، وكلٌّ يودّ إِعلامها باسمه الجديد.

وفي مدينة "سكرانتون" بولاية پنسيلڤينيا، تحدَّثت إِلى المجلس الرعويّ للنساء الكاثوليكيّات، الذي أُشرعت أَبوابه لجميع شعب سكرانتون، فما لبث أَن تحوّل إِلى حدَثٍ مسكونيٍّ، حطَّم جميع التخوم المذهبيَّة والطائفيَّة، إذ اشترك فيه ممثّلو مختلف الطوائف، كما أنّه انقلب اجتماع صلاةٍ، شأنه شأن جميع اللقاآت المُتَمحْورة حول الأُمّ تيريزا، ضمَّ أكثر من أَربعة آلافٍ وخمس مئة من الخلق. وقد توّج عمدة المدينة اللقاء بتقديم مفتاحها إِلى الأُمِّ تيريزا، في حين قلَّدها عميد الجامعة قلادة الخدمة الإِنسانيّة. وطوَّقت زوجةُ أستاذٍ جامعيٍّ هنديّ المولد عنقَها بالزهور، في حين صرَّح ذلك الأستاذ الهندوسيّ المذهب: "**مرَّةً كلّ عدَّة قرونٍ، يختار الله من يُرسله ليكون حلقة اتّصالٍ بينه وبين أبنائه**". وشبّه فعالها بفعال بوذا وغاندي، ونظرائهما من عمالقة الروح.

ودعتها راهباتٌ معلّماتٌ إِلى قضاء يومٍ معهنّ، في جامعة سكرانتون التي يُديرها آباء يسوعيّون؛ وقد علَّقنَ على أَحد الجدران لافتةً كبيرةً سُجِّل عليها قول الأُمّ تيريزا المأثور: "اعملوا شيئًا جميلاً في سبيل الله". وخاطبتهن الأُمّ تيريزا قائلةً: "**إِنّنا نعمل،**

جميعًا، كي نجلب المسيح إِلى الجامعات، والمعاهد العليا، أَو لكي ننحدر به إِلى غياهب المخيّمات... العمل الذي تنهضون به هو عطيَّة الربّ لكم. اليومَ، بات التحدُّث عن الفقراء ممارسةً شائعةً، غير أَنّ معرفة الفقير، وحبّه، وخدمته، أَمرٌ مختلفٌ تمامًا. القدّيسة تيريزا الصغيرة قالت: "في قلب الكنيسة، سأكون الحبّ، وهذا ما نحن عليه: حبٌّ في قلب الكنيسة. كلمة سرّ المسيحيّين الأَوّلين كانت الفرح. فلنخدمنَّ الربّ بفرحٍ!"

وفي مدينة "اللينتون" عُطِّلت المدارس كي يستطيع الطلاَّب الحضور للاستماع إِلى الأُمّ تيريزا؛ وقد صرّح أُسقف المدينة أَنَّ زيارتها "حَدَثٌ تاريخيٌّ في حياة الجماعة الدينيّة". ولقد كانت حدَثًا، حقًّا، إِذ انتظم الطُلاَّب اثنين اثنين، وصفًّا صفًّا، ومدرسةً مدرسةً، في موكبٍ لا تقع العين على نهايةٍ له، تقوده راهباتٌ من سبعٍ وثلاثين رعيّةً. وقد اغرورقت عينا الأمّ فرحًا، وهي تشهد هذا الدليل الناطق على كنيسةٍ حيّةٍ؛ وأَفضت الأُمُّ برسالتها، رسالة حبّ يسوع وخدمته في المحتاجين، حبٍّ ينشأ في البيت، ثمّ ينتقل إِلى الجوار، فإِلى المدينة، فإِلى الأماكن البعيدة. ودعت الصغار، بنحوٍ خاصٍّ، إِلى رؤية يسوع في الآخرين، حتّى عندما يكون ضحيَّة تشويه الأَلم.

ثمَّ طارت الأُمُّ إلى تورونتو، بكندا، تنفيذًا لارتباطٍ سابقٍ، للمشاركة في اجتماعٍ للشبيبة، كانت قد حضرت جلساته في السنة السابقة، وكانت مع "جان ڤانييه" المتحدِّثَيْن الرئيسيَّيْن فيه. و"جان ڤانييه" هو منشئ مؤسَّسة "السفينة"، وهي من أَشهر المؤسَّسات العالميّة التي تُعنى بالمتخلّفين عقليًّا. وقد صرَّحت فتاةٌ حضرت ذلك اللقاء: "**إِنّ مُجرَّد مشاهدة الأمّ تيريزا، قد أَطاح بالكثير من رِيبتي المتعلّقة بشؤون الدين. فكم هي تبدو مفعمةً بالله، ومفعمةً بالحبّ!**"

وكانت الأُمُّ قد دُعيت، من قبلُ، إِلى التحدُّث أَمام جمهورٍ من ثلاثة آلاف شخصٍ في مدينة تورنتو عينها، إِلى جانب "جان ڤانيه" الذي بدا، بقامته الشامخة، ماردًا أَمام ضآلة حجمها. وقد اعترتها الرهبةُ من التحدُّث أَمام مثل ذلك الحشد. غير أَنّ "جان ڤانييه" شجّعها، وشدّ من أَزرها. وإِثر الفراغ من اللقاء، الذي استغرق ثلاث ساعات، وبعد أَن أَصبحت في الشارع المعتم، أَمسكت الأُمُّ بيد امرأَةٍ، وبادرتها بالقول: "**عليَّ أَن أَشكرك أَعظم الشكر لما فعلته لي، هذه الليلة**". وردَّت المرأَة مستغربةً، دهشةً، بأَنَّها لم تفعل ما يستأهل كلَّ ذلك الشكر. إِلاَّ أَنَّ الأُمَّ أكدَت: "**بل إِنَّكِ**

فعلتِ الكثير؛ فعندما شرعتُ بالكلام لمحتُ عينيْك ترمقانني بحبٍ جمٍّ، ممّا أَولاني الثقة وأَوحى إِليّ بأَنني لن أَتعثَّر. وحينئذٍ حدَّقتُ فيكِ، ووجّهتُ لكِ حديثي، هذا المساء. ولذلك أَودّ أَن أَشكر لك مساعدتك"!

كم كنتِ، أَيَّتها القدّيسة، في تواضعك العذب، تمتلكين سرَّ الرقَّة الإِنسانيّة النادرة!

وفي شهر أَيّار منحها قلادة "الفقير الصغير" معهدُ الفرنسيسكانيّين في مدينة "أَوماها" بنبراسكا، وصرّح رئيس المعهد: "**إِنَّ الأُمَّ تيريزا تُجسِّد، في عصرنا، روح المحبَّة المسيحيَّة التي أَفعمت حياة القدّيس فرنسيس الأَسّيزي**".

وفي مدينة "أوماها" تلك، كان بانتظارها شبّانُ "مدينة الفتيان" التي كان قد أَسَّسها الأَب فلاناغان، والتي أَمست، منذ أَجيال، ملجأً للفتيان المشرّدين، والذين لا حماية لهم، والفارّين، والذين يواجهون مختلف أَصناف المشاكل. وكانت فعال أُولئك الشبّان قد استأثرت بالإِعجاب العامّ، بحيثُ أُنتج عنهم فيلمٌ في هوليود، اضطلع بدور الأَب فلاناغان فيه الممثِّل الشهير "سبنسر تراسي". وقد قُدّم للأمّ، بتلك المناسبة، تمثالٌ يُصوّر فتًى حاملاً فتًى آخر على كاهليه، ونُقش تحته القول المأثور: "إِنّه ليس ثقيلاً، يا أَبتاه، فهو أَخي". وقدَّمت الأُمُّ ذلك التمثالَ لإِخوتها المرسَلين في كلكتّا، ما نسج وشائج تعاونٍ بين "مدينة الفتيان" ومرسلي المحبّة.

ثمَّ طافت في ولاية تكساس، حيثُ كانت قد ارتبطت بإِلقاء محاضراتٍ في خمسٍ من مدنها. وكان البَوْن بين تلك المدن من الشسوع، والوقت المفسوح لها من الضِّيق، بحيث تبرّعَ مالك طائرةٍ خاصَّةٍ بنقلها في معظم مراحل تلك الرحلة. وفي كلِّ محطّةٍ كانت أَوسع القاعات قد استؤجرت كي تتيح لها التحدُّث فيها. وغصَّت كبرى الكاتدرائيّات بالمؤمنين الذين توافدوا للصَّلاة معها.

وتبرَّعت لها رعيّة "توسا" بمبلغ عشرين أَلف دولارٍ، هو حصيلة تضحياتٍ فرضها على ذواتهم أَبناءُ الرعيّة. مبلغٌ جسيمٌ بالقياس إِلى رعيَّةٍ صغيرةٍ فقيرة. وأَعلنت الأُمّ أَنَّها ستستخدمه لمشاريع غَوْثها في المكسيك، ما أَثلج صدر الأُسقف المولود في المكسيك، والذي كانت تربطه بشعب تلك البلاد وشائج وثيقةٌ. ويومين، بعد ذلك، زار الأُسقفَ رجلٌ غريبٌ، وقدَّم له شكًّا بمبلغ عشرين أَلف دولارٍ بالضبط، مساعدةً لرعيَّته. إِنّ كرَمَ العناية الإِلهيّة لا يُضاهى!

أمّا في مدينة "فورث وورث"، فقد أَعلنت عن المكان الذي كان على الأُمّ أَن تتحدَّث فيه أَضواءٌ فوسفوريّةٌ ضخمةٌ، كتلك التي تُعلن عن الأَفلام السينمائيّة والمباريات الرياضيّة الكبرى، وقد رسمت حروفها الجسيمة المتلألئة عبارة: "الأُمّ تيريزا الكلكتاويّة، الساعة الثامنة مساءً". وقد نظَّم اللقاء مركز التجدُّد الكاثوليكيّ في تكساس الشماليّة، الذي يضمُّ جماعةً من العلمانيّين والكهنة والراهبات الساعين إِلى إِبقاء القِيَم المسيحيّة حيَّةً في جميع مرافق الحياة. وقد قدَّم المشاركون في اللقاء هبة خمسةٍ وعشرين أَلف دولارٍ أَميركيٍّ للأمّ تيريزا كي تباشر بها نشاطاتها في غواتيمالا والمكسيك.

وأَثناء جولاتها في الولايات المتَّحدة، كان الصحافيّون يحاصرونها في كلّ مطارٍ، ويمطرونها بأَسئلتهم؛ وقد سُئِلت، يومًا:

– "هل شاهدتِ معجزات؟ وإِن كان الأمر كذلك، فما هي المعجزة الكبرى التي كنت عليها شاهدةً، أَثناء عملك؟"

فأَجابت:

– **"هناك ضربٌ من المعجزة اليوميّة، فما من يومٍ يمرّ لا يُظهر فيه الربّ لفتةً رقيقةً، وإِشارةً على حبّه وعنايته، مثل اليوم الذي بتنا فيه بلا طعامٍ من جرّاء الأَمطار والطوفانات، فإِذا بمدارس كلكتّا تُغلَق، ويُحوَّل إِلينا كلُّ الخبز الذي كان مخصَّصًا لها، لكيلا يجوع قومُنا الذين اطَّعموا، طيلة يومين، من الخبز ما لم يعودوا، معه، قادرين على اطِّعام أَيّ شيءٍ آخر. أَمّا المعجزة الكبرى، فهي أَنَّ الربّ يسعه العمل مستعينًا بمن هم لا شيء، بهناتٍ ضئيلةٍ مثلنا".**

– "وهل يتّفق لك أَن تغضبي، وهل يخامرك أَحيانًا الشعور بالإِحباط؟

– **"أَجل ينتابني الغضبُ أَحيانًا، ولا سيَّمَا عندما أُشاهد الهدْرَ، وعندما تكون الخيرات المهدورة هي ما يفتقر إِليه قومنا، والتي كان من شأنها إِنقاذهم من الموت؛ أَمَّا الشعور بالإِحباط فهو غريبٌ عنّي".**

وعلى سؤالٍ عن أَصعب قطاعٍ من عملها ردَّت:

– **"إِنّه الدعاوة الإِعلاميّة؛ وإِن أَنا لم أستأهل المثول إِلى السماء بفضل أَيّ شيءٍ آخر، فأَظنُّ أَنّني سأشخص إِليها بفضل مضايقات وسائل الإِعلام".**

وعلى سؤالٍ آخر: "هل تشعرين أَنّ الكنيسة، أَو الكنائس تُنفق الكثيرَ من المـــال على أُمورٍ نافلةٍ، وعلى البذخ، فيما يُعاني خلقٌ غفير العوَز؟" أَجابت:

– "**إنّك تتكلّم عن الكنيسة، أَلا فاعلم أَنّنا، جميعنا، الكنيسة، وما علينا أن ندين سوى ذواتنا، وأَن نذكر أَبدًا أَنّنا سنُدان على ما فعلنا من أَجل يسوع الجائع، يسوع الذي لا مأوى له. هذا ما لا يسوغ أَن نُغْفِله أَبدًا**".

– "هل لديك أَيُّ تنبُّؤٍ عن المستقبل؟"

– "**ومن أَنا كي أَتنبّأ؟ أَنا لا أَحد. إِنّني أَعلم شيئًا واحدًا: لو كان لدى الناس مزيدٌ من الحبّ بعضهم لبعض، لكانت حياتنا أَفضل؛ ولو أَدرك مزيدٌ من القوم أَنّ يسوع كان في جوارهم فبادروا إِلى المساعدة لكانت الأُمور خيرًا ممّا هي الآن بما لا يُقاس**".

وطُرح عليها السؤال الذي ما انفكّ يقضّ مضاجع الكثيرين ويُحيِّرهم:

– "كيف يُمكن لإلهٍ رحيمٍ أَن يسمح بمثل هذه الآلام: أَطفـــالٌ ينفقـــون جوعًـــا، وجموعٌ تقضي نحبها في زلزال بغواتيمالا؟ ما قولك في ذلك؟"

فردّت بصوتٍ خفيضٍ، متأَمِّلٍ، خاشعٍ:

– "**ما عسى كانت حالنا، لولا كلّ هذا الأَلم؟ إِنّه أَلمٌ بريءٌ علـــى غـــرار أَلـــم المسيح الذي تألَّم من أَجلنا، وكلُّ أَلمٍ بريءٍ يلتقي بأَلمه في عمل الفداء. إِنّه إِسهامٌ في عمل الفداء، يُشارك في إِنقاذ العالم من مصير أَسوأ**".

وسأَلتها فتاةٌ، بحرقة:

– "أَليس شبه مستحيلٍ أَن يكون المرء مسيحيًّا في مجتمعنا؟"، فأَجابت:

– "**أَجل، إِنّه لأَمرٌ شاقٌّ. ولن نقوى عليه، في معزلٍ عن المساعدة، ومن غير صلاةٍ. "لدينا، نحن الكاثوليكيّين، جسد المسيح الذي يزوِّدنا بما نحتاج إِليه من قوّةٍ. إِنّ يسوع يأتي إِلينا، تحتَ عَرَض الخبز، كي يظهر لنا حبّه، ويجعل ذاته هو الجائع كي نطعمه. إِنّه دائمًا حاضرٌ في الجائع، والمشرَّد، والعريان**".

وبالإِجمال، عملت الأُمّ تيريزا بنـــصيحة رئيـــسها الكنـــسيّ الأَوّل، المطـــران "بـــيريبيه" الذي حثّها على أَلاّ ترفض، أَبدًا، التحدُّث إِلى الجموع. وقد أَعربت، هـــي نفسها، عن قناعتها بأَنّ "**الجموع تسمع الكثير من الأُمـــور الـــسيِّئة، وأَنـــا، عمـــلاً بنصيحة الأسقف، أَمضي إِليهم لأُخبرهم شيئًا من الأشياء الجميلة، ومن البشرى**".

ولكأنّه بات من رسالتها "الوعظ في المطارات".

وفي طريق عودتها إِلى كلكتّا، عرّجت الأُمّ على أَفريقيا، حيث كان لها تسع عشرة طالبةً ومبتدئةَ أَفريقيّات. وحرصًا منها على توفير نفقات السفر الباهظة التي يستلزمها شخوص المبتدئات إِلى كلكتّا، ارتأت افتتاح مركز ابتداءٍ في مدينة "تابورا" التنزانيّة، ولا سيّمَا أَنّ أَفريقيا بلادٌ واعدةٌ، يتّسع فيها حقلٌ للرّسالة فسيحٌ. وقد جاءت بأربع مبتدئاتٍ إِلى الهند كي يتمرّسنَ من روح الجمعيّة، وبعد سنة إِعدادٍ، أَرسلتهنّ مع أَربع أَخواتٍ هنديّاتٍ لافتتاح مركزٍ جديدٍ في أَفريقيا.

في غواتيمالا

في ١٤ أَيّار ١٩٧٦، حطّت الأُمُّ في مطار غواتيمالا، حيثُ كان ينتظرها الأُسقف والقاصد الرسوليّ. وفي الحال، عقدت معهما اجتماعًا في دار المطرانيّة التي لم يكن الزلزال قد نال منها، وبادرت بالقول: "**لقد قرّرتُ إِيفاد الأَخوات، مع الحبّ، من الهند إِلى غواتيمالا، ونحن راغباتٌ في العمل حيثُ القوم هم أَشدُّ فقرًا، وحيثُ لا أَحد آخر يرضى بالعمل**". وسألها الأُسقف: "ماذا عن ديركنّ؟"، فأَجابت: "**نحن، في روما، نعيش في ثكناتٍ، ويسعنا، هنا، العيش في كوخٍ مُسبقِ الصنع. كلّ ما نحتاج إِليه حجرة نومٍ، وحجرة طعامٍ، ومطبخٌ، وسيسعنا تَدَبُّر ذلك. ولكن علينا أَن نكون على مقربة من الشعب**". واستوضحت عن المنطقة الأشدّ معاناةً، فوصف لها الأسقف مكانًا احتلَّ فيه أَربعة آلاف مهجَّرٍ أَرضًا تخصُّ الدولة، كان قبل الزلزال قفرًا، وباتت تمتدّ فيه مساحاتٌ شاسعةٌ من الخيام والأَكواخ المصنوعة من شتّى الموادّ، وحيث لا ماء ولا كهرباء؛ وقد أُطلق على المنطقة اسم "الرابع من شباط"، وهو تاريخ حدوث الزلزال المشؤوم.

وفي الغداة جاست الأُمُّ خلال مواقع بؤسٍ مترامية الأَطراف، تكدَّست فيها أُلوف الأسر تحت خيامٍ، أَو في أَكْوَاخٍ مسقوفةٍ بألوَاح الصفيح، وقد جاءت تلك الأسر بما استطاعت إِنقاذه من أَغطيةٍ وأَدوَات طهوٍ، وأَحيانًا من صُوَرٍ مقدّسة باهتة. وكان كثيرون من أولئك المنكوبين قد فقدوا إِخوةً وأَخواتٍ، أَو أمّهاتٍ أو آباءً، في انتفاضة الأَرض المباغتة القاتلة.

ثمَّ اقتيدت إِلى كوخٍ فسيحٍ حُوِّل إِلى مُصلًّى، يحتفل فيه القومُ بالقدّاس، وقدَّم

كاهنٌ لمرسلاتها ثلاثَ حُجَرٍ صغيرةٍ، ملاصقةٍ للكنيسة، سُرعانَ ما حلّت فيها الراهبات الأَربع اللائي وصلنَ إِلى غُوَاتيمَالا مصطحباتٍ أَدوات الطهو، وفُرْشًا، ونحو طُنَّيْن من موادّ الإِغاثة التي ارتضت شركة الطيران نقلها مجّانًا.

ومضت الأمّ تتقصّى أَحوال القرى المجاورة إِلى أَن عثرت على قريةٍ مغرقةٍ في الفقر تدعى "نيتانيا"، يخدم رعيَّتَها كاهنٌ يتدفّق غيرةً، عرضت عليه الأُمّ أَن تعمل أَخواتها وسط فقراء رعيّته، فاستطاره العرضُ فرحًا؛ وما لبث أَن قَدِم فريق المرسلات برئاسة الأخت "پريميلا"، المتمرِّسة في خدمة الفقراء في الهند. وقد شرعنَ بتعليم النسوة مِهَنًا تُكسبهنّ لقمة العيش، فاللواتي، منهنّ، لم يكنّ يتمتَّعنَ بأَيّة مهارةٍ علَّمتهنَّ صنع أَكْيَاسٍ من نفايات الورق، يبعنَها لأَصحاب الحوانيت؛ أَمّا اللواتي كنّ على قسطٍ من مهارةٍ، فلقَّنتهنَّ الخياطة والتطريز، ومهنًا أُخرى كفيلةً بتوفير دخلٍ مجزٍ لهنَّ ولأسرهنّ.

وما انصرمت أَشهرٌ معدوداتٌ، حتّى افتتحت الأَخوات "منزل المحبّة" الذي راح يستقبل المرضى، والعجزة، والمُهمَلين، فضلاً عن مستوصفٍ يعالج، كلَّ يومٍ، أَكثر من مئة مريضٍ، ومركزًا للشبّان. وبفضل المساعدات التي تدفَّقت، بات بمكنة المرسلات إِطعام مئةٍ وخمسين طفلاً، كلَّ يومٍ.

وقد صرّحت رئيسة المركز، الأُخت "پريميلا": "**إِنّ الله فائق الطيب معنا، فهو يلبّي احتياجاتنا قبل أَن نذكرها. وقد كان الأمر كذلك مذ قدِمنا إِلى هذه البلاد. ثمّة معجزةٌ تتحقَّق كلَّ يومٍ**".

مكسيكو

وصلت مرسلات المحبّة إِلى مكسيكو، زهاءَ نصف قرنٍ بعد حظر ممارسة الدين المسيحيّ في المكسيك. وكانت عاصمة البلاد تعجّ بنحو ١٥ مليون ساكنٍ لا ينِي عددهم يتضخّم كلَّ يومٍ، على إِيقاع نسبة ولاداتٍ فريدة الكثافة، وتدفُّق المزارعين من قراهم إِلى المدينة.

وقد استأجرنَ بادئ الأَمر مسكنًا مؤقّتًا، ورحنَ يبحثْنَ عن مقرٍّ دائمٍ، فَعَرَضَ عليهن كاهنٌ مكانًا كان قد استُخدم، فيما مضى، مستوصفًا للفقراء، مغرقًا في الرطوبة، يحتوي حجرةً واحدةً تستنير بنافذةٍ، وعددًا من الحُجَر العمياء المعتمة التي لا نافذة لها.

وكادت الأَخوات يقبلنَ بالمكان سكنًا لهنّ، فهنّ لا يحفلنَ بعتمةٍ أَو رطوبة، ولا يحْجمنَ عن أَيّة تضحيةٍ، لولا أَنَّ الأُمّ تيريزا رفضت بحزم، فالرطوبة قد تُصيب أَخواتها بالسقَم والسلّ، والعتمةَ قد تشيع في نفوسهنّ الكآبة. إِنَّهَا تقتضي منهنّ حياةً فقيرةً وبسيطةً، ولكنّها تأبى لهنّ ظروف عيشٍ وبيلةً تنال من أَجسادهنّ وأَرواحهنّ.

ورحنَ يجسْنَ خلال مواقع البؤس، فتبيّن لهنّ أَنّ المطارح التي سبق أَن زارتها الأُمّ تيريزا، عام ١٩٧٥، كانت مُرهفةً، قياسًا إِلى الأَماكن التي عثرنَ عليها، والممتدّة على مدى كيلومتراتٍ من الأَكواخ المسقوفة بالصفيح المموَّج، والتي تسدُّها، غالبًا، أَبوابٌ من الورق المقوّى، أَو أَلواحٌ خشبيّة لا إِطار لها، تُثبَت ليلاً وتُزاح في النهار. وفوق كلّ ذلك، تموج سحبٌ كثيفةٌ من دخان المعامل، وأَرتال السيّارات، مخلِّفةً هواءً مُلوَّثًا يُصيب معظم السكّان بأَسقامٍ تنفُّسيَّةٍ؛ ويُضاعف كثافة التلوُّث حرقُ جزءٍ من النفايات والإِطارات العتيقة ليلاً. ومع ذلك، عندما كانت الأُخت "فريديريك"، المُلمّة باللغة الإِسپانيّة تسأل القومَ عن احتياجاتهم، كانوا يُجيبون: "**نحتاج إِلى كلمة الله**". لقد أَلِفوا جوع المعدة، ولكنّ جوع الروح ظلَّ فيهم ساغبًا ملحاحًا.

ومن الفقراء انطلقت المرسلات إِلى الأَفقر، فإِلى الأَشدّ إِيغالاً في الفقر، إِلى العائشين حول مرمى نفاياتٍ في منطقةٍ مهجورةٍ، دائبين على تنقيب آلاف أَطنان النفايات التي تقذِف بها المدينةُ الأَخطبوطيّة، لاستخراج ما يستطيعون بيعه لقاء بضعة بيزواتٍ، مُستعينين على دعم دخلهم الهزيل بتربية الدواجن التي تشاركهم التنقيب في أَكْوَام النفايات.

وآنست المرسلات أَنّ أُولئك البائسين هم "قومهم" حقًّا. حينئذ شخصت الأُمُّ تيريزا إِلى رئيس الجمهوريّة، وأَطلعته على اختيارها العمل إِلى جانب أُولئك الساعين إِلى ما يُمسك رَمَقهم، ويصون كرامتَهم، بالإِكباب على النفايات، وسط المشقّة والقذارة.

ووفى الرئيسُ بوعده، فتبرَّع لها بسيّارة نقلٍ، وبرقعة أَرضٍ كي يُشاد عليها مركزٌ على مقربةٍ من مرمى النفايات، حيثُ كان الأَخ الفرنسيسكانيّ "ڤاسكودي كيڤوغا" قد أَنفق عمره في غَوْث الهنود الفقراء، في القرن السادس عشر، وقد خلّد ذكرَه تمثالٌ ما زال منتصبًا عند مدخل كنيسةٍ عتيقةٍ.

وسُرعانَ ما نهض على تلك الأَرض مجمَّعٌ يضمُّ ملجأً للعجزة والمُحتَضرين

المُهمَلين، ومستوصفًا، وملجأً للأطفال، وديرًا للمرسلات. وفي وسط المجمّع، انبسطت حديقةٌ يعبث الأَطفال في جَنَباتها، ويتنشّق المُسنّون فيها نسيمًا نظيفًا؛ واتّضح أَنّ معظم الأَطفال الذين تعيَّن على المرسلات رعايتهم كانوا مبتلين بعاهاتٍ أو بإعاقاتٍ، وأَنّ كثيرين منهم كانت قد التوت أَجسادهم من الجوع، وأُصيبوا بأَسقامٍ تنفُّسيَّةٍ، وبالزحار، ولكنَّ شهرَيْن من عناية المرسلات كانا، غالبًا، كافيين لإِسالة مصول العافية في أَجسادهم العليلة.

وفي أَيّام الآحاد، كانت الكنيسة تغصّ بالفقراء المحيقين بأَخواتهنّ المتلفّعات بالساري الأَبيض ذي الحاشية الزرقاء.

وقد عاضد المرسلات نفرٌ من المتعاونين الذين أكبّوا على تعليم الصغار، والراغبين من البالغين، القراءة والكتابة، وباتوا يقودون المرضى، والحبالى، الموشكات على الوضع، إِلى المشافي، ويضعون سيّاراتهم بتصرُّف المرسلات لدى ابتياعهنّ الطعام لنُزلائهنّ، أو لدى زيارتهنّ "قومهن". ومن الأَماكن التي كانت المرسلات يختلفْنَ إِليها باطّرادٍ مطار مكسيكو الدوليّ حيثُ كانت شركات طيرانٍ عديدةٌ تتبرّع لهنّ بالفائض من وجباتِ طعام المسافرين، والتي كان يعدُّها نُزلاء المرسلات المُسنّون ولائم فاخرةً.

"أَخوات الكلمة"

لقد آمنت الأُمّ تيريزا، دائمًا، أَنّ الصلاة والتأمُّل هما خير عضدٍ لعمل جمعيّتها، وأَغنى معينٍ يرفدها بالطاقة. وفضلاً عن ارتباط مراكزها بشراكةٍ روحيّةٍ مع أَديرةٍ تأمّليَّةٍ عبرَ العالم، ما انفكّت تحتضن، في صدرها، رغبةً مستعرةً في أَن يكون لجمعيَّتها الناشطة في الخدمة فرعُها التأمُّليّ الخاصّ؛ وكانت قد استشفّت لدى الأُخت "نيرمالا" - التي خلفتها على رئاسة الجمعيّة في ربيع عام ١٩٩٧ - فضلاً عن تأثيرٍ كاريسماتيٍّ بليغٍ، ميلاً شديدًا إِلى الاستغراق في التأمّل والصلاة، وتفاعلاً حميمًا مع كتابات القدّيس الأَب شارل دي فوكو. وقد أَوفدتها الأُمّ لقضاء فترة تأمُّلٍ وتعبُّدٍ في منسك الأَب "بيدي كريفيت"، في منطقة "تاميل نادو"، بجنوبيّ شرقيّ الهند، وكان شبه مقرّرٍ أن تُكلَّف الأُخت نيرمالا بافتتاح أَوّل فرعٍ تأَمُّليٍ، على سفح الهيمالايا.

ولكنَّ الأُمَّ فاجأت الجميع عندما ارتأَت أَن تكون نيويورك الصاخبة، هي التربة التي تحتضن الغرسة الأُولى لفرع الجمعيّة التأَمُّلِيّ، حيث سيعيش نفرٌ من مرسلات

المحبّة كلمة الله في إفخارستيّا عبادةٍ وتأمُّلٍ. وإذ كانت الولايات المتَّحدة الأَميركيّة تحتفل، عام ١٩٧٦، بالذِّكرى المئويّة الثانية لتأسيسها، أَجمع كاثوليكيّو البلاد على إِحياء تلك الذِّكرى بمؤتمرٍ قربانيٍّ عالميٍّ، وقرَّرت الأمُّ أن تهدي إِلى الولايات المتّحدة، بهذه المناسبة، أَوّل فرعٍ تأمّليٍّ لجمعيّتها.

وفي ٢٥ حزيران ١٩٧٦، بارك تدشين فرع "أَخوات الكلمة" الكردينال كوك الذي قدَّم لهنَّ، لهذا الغَرَض، ديرًا قديمًا في منطقة برونكس البائسة السيِّئة السمعة، قائمًا وسط بيوتٍ محروقةٍ، وجدرانٍ سوّدتها أَلسنة النيران؛ وقد علَّقت الأُخت نيرمالا على اختيار تلك البيئة بقولها: "هذا هو المكان المناسب، إِذ لا يُحيق بنا سوى الفقراء، فاقدي الأَمل". هذا الأَمل المفقود كانت مهمَّة "أَخوات الكلمة" بعثه من جديدٍ.

أَمّا الأُمُّ تيريزا فقد صرَّحت: "**هذه هي هديَّةُ الربّ لشعب الولايات المتَّحدة، وشعوب العالَم أَجمع. إِنّه نصْبُ حبٍّ، بمناسبة المؤتمر القربانيّ الدوليّ. إِنّ الأَخوات يتوخّينَ عيش كلام الله في العبادة والتأمُّلات الإِفخارستيّة، متّحداتٍ بمريم، أُمّ الله، التي وهبت البشر جميعًا "الكلمة الذي صار جسدًا"**".

أُولئك "المتأمِّلات في قلب العالم" كنَّ يمثِّلنَ صيغةً جديدةً للحياة التأمليّة، فهنَّ يُحاكينَ المتأمِّلات التقليديّات في قسوة حياتهنّ، وشظفها وتضحياتها، وفي وقفِ ساعاتٍ من نهارهنّ على الصلاة والتأمُّل، ولكنَّهنَّ، خلافًا لهنَّ، غيرُ منحجباتٍ عن العالَم، بل يمضينَ إِلى كنائس الرعايا لمشاركتها الذَّبيحة الإِلهيّة، ويُشرعنَ مُصَلاّهنّ لمن يبتغون مشاركتهنّ التأمُّل، ويستضِفْنَ نساءً علمانيّاتٍ، بضعة أَيّامٍ، لصلاةٍ مشتركةٍ، ويزرْنَ المرضى في المشافي، والذين أَقعدهم المرَض في منازلهم، ويتحدَّثْنَ إِلى جوارهنّ عن الله، فنظامهنّ يقتضي منهنَّ تكريس ساعتَيْن، كلَّ يومٍ، للتَّحدُّث عن يسوع. إِنّهنَّ مزيجٌ فريدٌ خصبٌ من تأَمّلٍ، وتعبُّدٍ، وخدمةٍ ورسالةٍ. فقد أَضفنَ إِلى النظرة الشاقوليّة إِلى الحياة التأَمُّليّة على أَنَّها علاقة النفس بخالقها، بُعْدًا أُفقيًّا يجعلها مشاركةً للبشر في حياة الله. وقد تميّزت "أَخوات الكلمة" بزيٍّ أَبيض بكامله.

وسُرعانَ ما انقلب مُصلاّهنّ واحة هدوءٍ وسلامٍ، وزُيِّن بما يوحي بالفقر وحبّ الجمال، إِذ وُشّي بالنباتات الخضراء.

وغدا مقرُّهنَّ محجّةً لناشدي نسمةٍ سماويّةٍ. فالأَولاد لا يكفّون يقرعون بابهنّ

قائلين: "نريد رؤية يسوع". وتروي الأُخت نيرمالا أَنّ سِكّيرًا قَدِمَ، يومًا، يستجدي مسبحةً، ثمّ عاد، بعد فترةٍ، بباقة زهورٍ متواضعةٍ، أَودعها أَمام بيت القربان...

وكانت الأُخت "نيرمالا" تصطحب أَخَوَاتهَا إِلى حديقةٍ قريبةٍ لتتنسُّم هواءٍ منعشٍ، فيدنو منهنّ قومٌ ملتمسين صلواتهنّ، في حين يرشقهم شبُّانٌ ثائرون بمقذع الشتيمة. وكنَّ يتعرَّضْنَ، أَحيانًا، لأحداثٍ غريبةٍ، فذات يومٍ شخصْنَ إِلى حديقةٍ جنوبيّ برونكس، وبعد أَن صلّينَ معًا تبعثرْنَ في جنبات الحديقة، حيثُ انتحتْ كلٌّ منهنَّ مكانًا تُصلّي فيه على انفرادٍ. واختارت الأخت نيرمالا، لذلك، صخرةً جاثمةً على مرتفعٍ، فقبعت عليها. وإِذ بشابٍّ، في العقد الثاني، مرتدٍ ثيابًا داكنةً، يقف على مقربةٍ منها، ويصيح باتجاهها: "ماذا قال إِرميا؟" وإِذ لم تُجبْ، أَعاد طرح سؤاله، بلهجةٍ أَعنف، وصوتٍ أَقوى جهارًا، فأجابته بجرْسٍ خافت: "لقد قال إِرميا أَشياءَ كثيرة، فما الذي تقصده؟" فصاح: "لقد تنبّأ إِرميا بأَنّ الله سيُعمِل غضبَه، وسيصبّ سيول دمٍ على الأَرض".

ومضت الأُخت نيرمالا تورد آياتٍ، من العهد الجديد، عن أَمير السلام الذي سينشر سلامه على جميع البشر؛ إِلاّ أَنَّ الشابَّ عاد يجأر: "إِنّني أُعِدُّ لحربٍ، إِنني أَداة دمارٍ"، ورفع إِصبعين بعلامة النصر؛ واستوضحته الأُخت عن اسمه، فإذا به "حسن"، فقالت له: "اسمك يعني الصلاح، وبمثل هذا الاسم لا يسعك أَن تكون أَداة دمارٍ".

ولكنّ "حسنًا" ارتقى المرتفع الصغير الذي جثمت عليه الأُخت نيرمالا، وأَشهر في وجهها مديةً ذات نابضٍ، فرفعت، هي، تلقائيًّا، في وجهه مسبحتها وصليبها وقالت: "هذه هي أَسلحتي، وهي تعني الحبّ، وتعني، أَيضاً، أَنَّ بوسع الأَسد والحمل التعايُش بسلامٍ". ولم يكن لديها ما تضيفه، فصمتت. وفي تلك الأَثناء، عادت الأَخوات للانضمام إِلى رئيستهنّ، وتجمهر من حولهنّ الناس، فأَغمد حسن سكّينه، وانطلقت المرسلات يصلّينَ، ثمَّ رنَّمْنَ المزمور التاسع عشر، فشاركهنّ حسن الصلاة، ثمّ أَعلن: "سأَحميكنّ في هذه الحديقة، كما لو كنت ملاك هذا المكان الحارس".

ثمَّ قابلت الأَخواتُ حسنًا، مرّات عديدةً، لاحقًا، فكان يلقاهنّ دائمًا بدماثةٍ. وقد صرّحت الأُخت نيرمالا: "إِنَّني ممتنَّةٌ، له لأَنَّه علَّمنا أَنَّ إِحدى وسائل إِعلان الكلمة هي الخروج إِلى حديقةٍ، أَو مكانٍ عامٍّ، مع الأَخوات، والشروع بالصلاة، وترتيل المزامير. وحينئذٍ لن نحتاج إِلى السعي وراءَ القوم، بل هم يأتون إِلينا".

وقد جاء أَخواتِ الكلمة، يومًا، نفرٌ من المقيمين في محيطهم، شاكين من افتقادهم صوت ناقوس التبشير منذ فترةٍ، وشخصت الأَخوات إِلى الكــاهن، خــادم الرعيّــة، مستوضحاتٍ سبب ذلك الصمت، فأجاب أَنَّ مشاغله لا تتيح له فسحةً لقرع الناقوس، وأَنَّ لا مال لديه يمكّنه من استئجار من يقوم بتلك المهمّة، التــي تطــوَّعن لتولّيهــا. ومذّاك نعم الفقراء بالصلاة على أَنغام ناقوس التبشير.

وعندما تدفَّقت طلبات الانتساب إِلى الفرع التأَمُّليّ، بوتيرةٍ متــسارعةٍ، عملــت الأُخت نيرمالا على افتتاح مركزَيْن آخرين في الولايــات المتّحــدة، أَحــدهما فــي بروكلين، والآخر في إِحدى ضواحي واشنطن، على مقربةٍ من مركــزٍ لمرســلات المحبّة العاملات.

ويبلغ عدد "أَخوات الكلمة" اليوم أَربعًا وتسعين مرسلةً، مبثوثات في سبعة عشر مركزًا عبر العالم.

وسُئلت الأُمُّ تيريزا، يومًا، عن أَخواتها المتأَمِّلات، فأفلتت منها هذه الرغبة الحبيسة: "كم أَودُّ أَن أَختلي هناك، وأَلاّ أَعيش إِلاّ عيشة التأمُّل، وأَن أَمكث مع يسوع فحسب".

المؤتمر القربانيّ في فيلادلفيا

بين الأَوَّل والثامن من شهر آب ١٩٧٦، إِذن، انعقد المؤتمر الإِفخارستيّ العالميّ الحادي والأَربعون، في فيلادلفيا، بمناسبة احتفال الولايات المتَّحدة بذكرى تأسيــسها المئويَّة الثانية؛ وقد استقطب زهاء مليون مشتركٍ، انضمَّ إِليهم عشرات الأُلوف مــن خارج الولايات المتّحدة. وكانت الأُمُّ تيريزا، بلا منازعٍ، نجمــة المــؤتمر المتأَلِّقــة، شعبيًّا ورسميًّا؛ فقد كانت الجماهير تسعى وراءها، بلا انقطاعٍ، أَحيانًا فقط من أَجــل التحديق إِليها، واقتباس "دارشان" منها، أَو التماسًا لصلواتها، أَو في سبيل الإِفــضاء إِليها بما يرين على صدور بعضهم؛ ومَن لا يتسنّى له التحدُّث إِليها يكتفــي بلمــس ساريها؛ أَمّا هي فكانت تجهد في الاستجابة للجميع، ولكنّها لم تكن تستطيع أَن تخطو خطوةً واحدةً حتّى تزحمها الجموع، وتكاد تطيح بجسمها الهزيــل، ممّــا اســتدعى إِحاطتها بثمانيةٍ من رجال الأمن، حيثما تجوّلت، وقد اعترفت، فيما بعد: "كان أَســوأ عقابٍ لي أَن أُوأكَب على هذا النحو".

وكانت الأُمُّ تُستدعى، باطِّرادٍ، للتَّحدُّث إِلى جماعةٍ هنا، وجماعةٍ هناك، بحيث لا يتَّسع لها وقتٌ للتَّواري، لحظاتٍ، في غرفةٍ جانبيَّةٍ، كي تتَبلّغ بضع لقماتٍ سريعةٍ تُمسك رمقها؛ وحتّى حينئذٍ، كان بعض المعانين يتسلَّلون في إِثرها للبوح بما يُثقل صدورهم، فتُغفل الطعام من أَجل الإِصغاء إِليهم.

وطيلة ثمانية أَيّامٍ ظلَّت الأمُّ موضع "دارشان" عارمٍ، فمُجرَّد مشاهدة تلك المرأة التي لمست يداها البُرْص بعطفٍ، والتقطت المحتضرين من فوق الأَرصفة وأَكْدَاس النفايات كان يقرِّب القومَ من يسوع معلِّمها. والذين لم يُقيَّض لهم الاشتراك في المؤتمر، يتسنّى لهم "دارشان" عبرَ التليفزيون؛ ففي الأَوَّل من آب أُجريت مع الأُمِّ مقابلةٌ تيليفزيونيّةٌ امتدَّت ساعةً كاملةً أَتاحت لجميع الأَميركيّين رؤيتها والاستماع إِليها، وممّا قالته: "إِنّنا نهب المحتضرين الحبّ والعناية، وكلَّ ما يستطيع الأَغنياءُ الظَّفر به لقاء مالهم، نهبهم إِيّاه حبًّا بالله... إِن لم يلبِّ شعب الولايات المتّحدة احتياجات سائر الشعوب، فسيفتقر إِلى لمسة المسيح في حياته؛ فإِنّ ما أُعطيَه، أُعطيَ للمشاركة، لا للاستئثار".

وقد دوَّنت "إِيلين إِيغان"، كاتبةُ سيرة الأُمّ تيريزا، التي لازمتها طيلة أَيّام المؤتمر، وواكبتها في الكثير من تَحَرُّكَاتهَا عبرَ العالم، انطباعاتها عن تلك الفترة، فكتبت:

« من اللحظات التي كان لها في نفسي أَبلغ أَثرٍ، لحظة وافت إِحدى غرف المسرح الصغيرة أُمٌّ تحمل طفلةً هزيلةً، متوسِّلةً الأمَّ تيريزا أَن تصلّي لكي لا تفقد الحياة، فهي ما برحت في أُسبوعها العاشر، وقد قرَّر الأَطبّاء إِجراء عمليَّةٍ جراحيَّةٍ لقلبها الواهن. وأوضح صديقٌ للأُسرة أَنَّ الطفلة مونغوليّةٌ، وأَنّها، في حال شفائها، تتطلَّب عنايةً متّصلةً مدى الحياة. ومع ذلك، كانت الوالدة لا تني تردّد: "أُريد أَن تعيش طفلتي. إِنّني أريد هذه الابنة، صلّي لكي تعيش "شانون". وكانت الدموع تنثال على وجنتي الوالدة عندما لامست الأُمُّ تيريزا، برفق، رأسَ الطفلة المغمضة العينين، الشاحبة المحيّا، فيما تدلّت ذراعاها وكأَنّ لا حيلةَ لها. وبدا أَنّ حضور الأُمّ تيريزا قد آسى الوالدة التي توقّف هطل دموعها، عندما شرعت الأُمُّ تقول: "الربّ وهبك نعمة الحياة الكبرى هذه. وإِن هو شاء أَن تردّيها له، فهبيه إِيّاها عن طيب خاطرٍ، وبحبٍّ...".

"وأَثناء مواكبتي الأُمّ تيريزا في العديد من أَسفارها، تبيَّنتُ كم يأتيها القوم بشجونهم، ومآسيهم الأَليمة... الذين ناؤوا بأَبهظ الأَثقال يجدون في تعاطفها وحبّها

المتفهّم معينَ قوّةٍ، ويستعيد معظمهم الأَمل. وقد جيء إِليها، يومًا، بفتًى يافعٍ كان قد فقدَ، من جرّاء انفجارٍ، يديه وعينيه، وبعد أَن تحدَّث إِليها حديثًا مستفيضاً، قال مبتسمًا: "إِنّني أَصلح لإِسداء النصائح، وهذا هو العمل الذي سأَضطلع به". لقد تحرَّر من مأساته، واكتشف وسيلةً لمساعدة الآخرين، وقد عاضدته الأُمُّ في كفاحه الرامي إِلى التفكير بالآخرين لا إِلى التفكير بنفسه ».

وكان قد طُلِبَ من الأُمِّ تيريزا أَن تدلي، كلَّ يومٍ من أَيّام المؤتمر، بحديثٍ في موضوعٍ مختلفٍ؛ وقد توجَّست، بادئ الأَمر، خشيةً من عجزها، ولكنَّها، جريًا على ما أَلِفَتْه، كانت تستسلم كلِّيَّةً لوحي الروح القدس، متَّبعةً إِلهامه، مقتصرةً على تبليغ رسالته، "فالجوهريّ ليس ما نقول، بل ما يقوله لنا الربّ، وما يقوله من خلالنا. ستكون جميع أَقوالنا نافلةً، باطلةً، إِن هي لم تنبع من داخلنا: إِنَّ الأَقوال التي لا تعكس نور المسيح، إِنّما تزيد الظُّلمة ادلهمامًا".

وتكلَّمت الأُمّ، في المؤتمر، باسم جميع الجياع، روحيًّا وجسديًّا؛ ولدى افتتاح جلسات المؤتمر، تلت صلاةً فوق منضدةٍ كُوِّمت عليها أَرغفةٌ مستديرةٌ، ثمّ كسرت أَحدها واقتسمته مع الموجودين، ونال كثيرون كِسَرًا صغيرةً منه.

وممّن شاركوها التحدُّث حول موضوع "الحرّيّة والعدالة"، الكردينال البرازيلي دون هيلدر كامارا الذي، على غرارها، كان لسان حال الجياع والمنسيّين، والأَب "پيردرو أَروبي" الرئيس العامّ على الجمعيّة اليسوعيّة الذي أَهاب بالكاثوليكيّين الأَميركيّين أَن يستغنوا عن وجبة طعامٍ أُسبوعيًّا، والتبرّع بما يوفّرونه، أَي وسطيًّا دولارًا واحدًا، كلّ أسبوعٍ، عن كلّ فردٍ، في سبيل مكافحة الجوع في العالم.

وبلغ التأَثُّر ذروتَه لحظةَ قطع الكاردينال دون هيلدر كامارا خطابه معلنًا عن رغبته في تقبيل يدي الأُمِّ تيريزا، ومضى نحوها حيثُ كانت جالسةً على المنصّة، وأَخذ بين يدَيْه يدَيْها اللتَيْنِ طالما جادتا بالعطاء، فلثمهما بتواضعٍ وإِجلالٍ، وعندما انتصبت واقفةً عانقها العناق اللاّتينيّ التقليديّ، وفيما هي أَطرقت خجلاً وخفَرًا، شقَّ أَجوازَ السماء دويٌّ تصفيقٍ كثيفٍ متَّصلٍ، واغرورقت آلاف العيون بالدموع.

لقد كان مؤتمر فيلادلفيا الإِفخارستيّ مناسبةً للّقاء الأَوّل بين ذيْنك الكائنَيْن

العملاقَيْن المتشابهيْن في ضآلة حجمهما، وعظمة شخصيَّتيهما، وخدمتهما ليسوع عبر فقرائه. وكانت الأُمُّ، في أَحد أَحاديثها المرتجلة، قد تلفّظت بهذا القول البليغ: "**لن تستطيعوا أَن تُعطوا ما لا تعيشون**". ولقد كانت، هي نفسها، مصداقًا على صحّة هذا القول، ولئن تأثّر الجمهورُ بأَقوالها وأَقوال دون هيلدر كامارا، إِلاّ أَنّه كان أَبلغ تأثُّرًا بشهادة حياتيهما المجسِّدة لرسالة يسوع الإِنجيليّة. ولئن انطوت مهمّةُ دون هيلدر كامارا على التصدّي للبُنى الاجتماعيّة التي تهضم الفقير حقوقه، وتسومه خسْفًا، فقد اقتصرت مهمَّة الأُمّ تيريزا على خدمة من أَغفلتهم جميع البُنى الاجتماعيّة: المنبوذين، والمُهجَّرين، والمهمَّشين، وضحايا البَرَص. وقد سردت الأُمّ حكايا عمّا خبرت في تاريخ مكافحتها الجوع والحرمان في كلكتّا، وسائر بلدان العالم.

وأُقيم، بتلك المناسبة، قدّاسٌ عن نيَّة الحرِّيَّة والعدالة، ترأَسه رئيس أَساقفة كراكوفيا، الكردينال كارول ڤويتيوا – الذي أَصبح البابا الحاليّ، يوحنّا بولس الثاني – يُحيق به أَربع مئة أُسقفٍ وكاهنٍ، حول هيكلٍ جسيمٍ أُشيد في العراء.

واشتركت الأمُّ في احتفال غسل أَرجل، فغَسَلت قدمي أَحد أَفراد جماعة المينونيّين، وهم من أَقدم كنائس السلام، وكان تأثّر الرجل بذلك الحدَث بليغًا، لا يمّحي.

وعقد ثلاث مئة لاهوتيٍّ وزعيم جماعاتٍ دينيّةٍ حلقاتٍ حول المائدة الإِفخارستيّة، وانضمّت إِليهم الأُمُّ تيريزا، فوزَّعت عليهم صلاة الكردينال نيومن، ودعتهم إِلى الصلاة معًا:

« اللهمّ، أَعنّي على نشر عُرف شذاك، حيثُما ذهبت،
"اغمر نفسي بروحك وحياتك،
"تغلغل في كياني، وامتلكه بعمقٍ، فلا تعود حياتي كلُّها سوى إِشعاع حياتك ».

ودعا اللاهوتيّون الحضورَ إِلى التمثُّل بإِيمان الأُمِّ تيريزا التي كانت تجسّد القول المأثور: "**الإِفخارستيّا المحبوبة، هي الإِفخارستيّا المُعاشة**".

وفي نهاية قدّاسٍ خُصِّص للشباب، طُلب من الأُمّ، على حين غرَّةٍ، ومن غير سابق إِشعار، اختتامه بكَلمةٍ منها، فرسمت بإِبهامها إِشارةَ صليبٍ على شفتيها، وقالت:

« لقد ناشد يسوع القومَ قائلاً: "إِن شئتم أَن تكونوا تَلاميذي، فليحمل كلّ منكم صليبه، ويتبعني...

"واليوم يعيش يسوع آلامه، من خلال شباب العالم، في المتألِّمين، والجياع، والمعاقين، في ذلك الصبيّ الذي يأكل كسرة خبزٍ قضمةً قضمةً، لأَنّه يخشى، عندما يفرغ من التهام تلك الكسرة، ألاّ يجد سواها، فيعود يُصارع الجوع.

"هذه محطّةٌ للصَّليب، فهل أَنتم فيها مع ذلك الصبيّ؟

"وثمّة أُولئك الآلاف الذين يقضون نحبهم لا افتقارًا إِلى كسرة خبزٍ، بل افتقارًا إِلى الزهيد من الحبّ، وإِلى الاعتراف بوجودهم. وهذه، أَيضاً، محطَّة صليبٍ، فهل أَنتم فيها؟

"وثمّة شبّانٌ يهوون ساقطين، مثلما هوى يسوع، كرَّةً إِثر كرّةٍ، من أَجلنا. فهل نحن متأهِّبون، مثل سمعان القيرواني، كي نقيل عثارهم، ونلتقط الصليب؟

"القوم في الحدائق، والمدمنون، والذين لا مأوى لهم، يتطلّعون إِليكم. فلا تكونوا أولئك الذين ينظرون ولا يرون، بل انظروا وروا.

"يمكننا مباشرة محطَّات الصليب، خطوةً خطوةً، بفرحٍ. فيسوع جعل نفسه خبز حياةٍ من أَجلنا.

"لدينا يسوع، في خبز الحياة، كي يزوِّدنا بالقُوَّة ».

وكان أَحد مواضيع حديثها "المرأَة والإِفخارستيّا"، وشاركها التحدُّث في ذلك الموضوع كلٌّ من "دوروثي دي" و"روزميري غولدي"، والكاتبة "إِيلين إِيغان". ونوَّهت الأُمّ تيريزا بأنَّ مريم، أُمَّ الكنيسة، كان بوسعها أَن تقول عن يسوع: "هذا هو جسدي"، وأَنّها باستسلامها لمشيئة الربّ، أَصبحت أُمّ الله. وعندما هجر يسوعَ أَتباعُه، واصلت مسيرتَها معه، وكانت هي التي مكثت إِلى جواره عندما سيم المهانة، وعومل وكأَنَّه أَبرص، وأَنكره الجميع، وصُلِب.

"فهل نحن نبقى إِلى جانب قومنا، عندما يتخلّى عنهم الآخرون، ويُقْذَف بهم خارجًا، وعندما يعانون ما يعانون؟ هل ننفحهم حبَّنا المتفهِّم؟ هل لدينا مثل عينيْ مريم العطوفتَيْن؟ هل نفهم آلامهم؟ هل نقرّ بمعاناتهم؟

"لقد بدأت المسيحيّة بالعطاء. فقد أَحبّنا الله بحيثُ أَعطانا ابنه الخاصّ. ويسوع

أَخذ الخبز، أَبسط الأَطعمة، وحوّله إِلى جسده، جعل نفسه خبزًا حيًّا، كي يُشبع جوعنا إِلى الله".

وعبَّرت الأُمّ عن بعض انطباعاتها عن المؤتمر، فقالت: "**لم تكن، ثمّة، أَيَّة مظاهر فخامةٍ، بل كان كلُّ شيءٍ بسيطاً. وقد جرى تطوافٌ ضمّ أَربعة آلاف شخصٍ مغرقين في الخشوع... وقد شارك في بعض الاحتفالات مؤمنون من طوائف أُخرى، وَغسل بعضُنا أَرجل بعضٍ، وتبادلنا قبلة السلام، وكسرنا الخبز وتناولناه معًا، ولكن عندما كنّا ننتهي إِلى الذبيحة الإِفخارستيّة، كانوا يغادرون، وكان ذلك مؤلمًا، موجعًا**".

أَمّا صحيفة نيويورك تايمز، فقد أَوجزت وصف تعلُّق الجمهور بالأُمّ تيريزا عندما كتبت في ٣ آب ١٩٧٦: "**لقد أَصبحت الأُمّ تيريزا الوجه الأَكثر جاذبيّةً في المؤتمر... فَأَيْنَمَا ذهبت، انطلقت الجموع في إِثرها، أَمَلاً في لمس أَهداب ثوبها، أو في سماع كلامها**".

مصالحة وعالميّة

كانت الأَشهر الأَربعة الأَخيرة من عام ١٩٧٦ حافلةً، خصبةً، لم تكفّ الأُمُّ تيريزا، خلالَها، عن ذَرْع المسكونة من طرفٍ إِلى طرفٍ، مستجيبةً لدعوات مسؤولين ومحتاجين، زارعةً كلمات الإِنجيل، شاهدةً عليها بحياتها، مؤسِّسةً مراكز جديدةً، متفقِّدةً أَحوالَ المراكز القديمة، شادَّةً عضد القائمات عليها، مخفِّفةً، ما استطاعت، وطأَة الشقاء البشريّ.

فعقب المؤتمر القربانيّ في فيلادلفيا، زارت الأُمُّ أَخواتِها في برونكس، ثمّ عرَّجت على مكسيكو، متفقِّدةً أحوال مركز الجمعيَّة هناك، وكم كانت دهشتها بالغةً عندما أَبلغتها أَخواتها أَنَّ الفقراء المكسيكيّين، عندما يقابلونهنّ، لا يطالبونَ بكساءٍ أَو طعامٍ، بل يتوسَّلون أَن "**علِّمنَنا كلام الله**". أَليس رائعًا أَن يعتلج مثل هذا الجوعُ في صدور أولئك القوم؟"

وإِثر بضعة أَيّامٍ اعتكافٍ ونقاهةٍ في روما، شخصت إِلى مدينة "ليبشتاد" الأَلمانيّة للمشاركة في مؤتمر المتعاونين مع الأُمِّ تيريزا الدوليّ. ثمَّ يمَّمت شطرَ مدينة "تيزيه" الفرنسيّة، التي أَمست عاصمة المصالحة بين مختلف الطوائف المسيحيّة،

بفضل جهود القسّ الـبروتستانتيّ، الأَخ روجيه، الذي بارك البابا يوحنّا الثالث والعشرون جهوده في هذا المنحى؛ وبعد أَن اشتركت معه في صلاةٍ شارك فيها زهاء ثلاثة آلاف شابٍّ وشابّةٍ، عكفت معه على وضع "صلاة الفقير" التي تقول:

« يا ربّ، أَبا كلِّ إِنسانٍ،
"إِنك تدعو كلاًّ منّا إِلى حمل الحبِّ إِلى حيثُ الفقراءُ مهانون،
"والفرحِ إِلى حيث الكنيسة تُسام الذُّلّ،
"والمصالحة إِلى حيثُ الناس منقسمون،
"الأَب عن ابنه، وَالأُمّ عن ابنتها، والزوْج عن زوجته،
"والمؤمن عمَّن يجدون الإِيمان مُحالاً،
"والمسيحيّ عن أَخيه المسيحيّ الذي لا يحبُّه.
"أَنت أَشرع لنا السبيل،
"لكي يُصبح جسدُ يسوع المسيح، الجريح، كنيستك،
"خميرة مشاركة
"لفقراء الأَرض، ولكلِّ الأُسرة البشريَّة ».

وفي ٢٥ تشرين الثاني ١٩٧٦، دُعيت إِلى اجتماعٍ في سنغافورة ضمَّ ثلاث مئة ممثِّلٍ عن أكثر من عشر دياناتٍ، قدموا من سبع عشرة دولةً أَسيويّةً؛ وأَمام هذا الحشد كرَّرت الأُمّ دعوتها إِلى الحبّ، وسيلةً للظُّهور على الشرّ، قائلةً: **"نحن لسنا في حاجةٍ إِلى مدافع وقنابل، بل في حاجةٍ إِلى الحبّ والرحمة للتَّغلُّب على الشرّ... إِنّ جميع أَعمال الحبّ هي أَعمال سلامٍ".**

ولدى عودتها إلى كلكتّا زارها الأَخ روجيه، قادمًا من "تيزيه"، ومعًا أَعدّا نداءً إِلى المصالحة جاء في مطلعه:

« كلٌّ منّا يواجه تحدّي معاناة العالَم، وإِزاء جميع جروح البشريّة، نجد أَنّ الفرقة بين المسيحيّين باتت لا تُطاق. إِنّنا مستعدّون لوضع خلافاتنا جانبًا، متحرِّرين من خوف أَحدنا من الآخر...»

كانت الأُمُّ، أَثناء أَسفارها، حريصةً على تفقُّد مراكزها النائية، والتثبُّت من بقاء

جذوة الرسالة مضطرمةً في صدور أَخواتها، ولا سـيَّمَا الرئيـسات مـنهنَّ، إِذ إِنّ القليلات من المرسلات اللواتي حنثنَ بعهودهنّ، وهجرنَ الجمعيّـة، كـنّ رئيـسات مراكز فقدْنَ شيئًا فشيئًا اندفاعهنّ الأَصيل، وتراخينَ، يومًا إِثر يومٍ، في تشبُّثهنَّ بالفقر المقدّس، وابتغينَ العزاء في أُمورٍ بشريّةٍ، واقتسمنَ قلوبهنّ بين الله والبشر، فتخلّـى عنهنَّ الله. ويهصر الحزن قلب الأُمّ كلما ذكرت أُولئك اللوَاتي، بعدَ أَن نذرْنَ، لم يكنّ وفيّاتٍ لنداء الربّ.

ولكن أَمثال هؤلاء نادراتٌ، ما كان يتيح للأُمّ أَن تجوب العالم ناعمةَ البال، ففي المركز الأُمّ تحلُّ محلَّها، أَثناءَ غيابها، أُولى أَخواتها، ويدُها اليمنى، الأخت أَنيـيس، تعاضدها الأُخت فريديريك، فيما تتولّى العنايةَ بشيشو بهاڤـان الأُخت فابيين، وهـي الفرنسيَّة الأُولى التي انضمّت إِلى الرعيل الأَوّل من المرسلات.

إِنّ الأُمَّ تقتضي الكثير من أَخواتها لأَنَّها، هي نفسها، تعطي الكثير، ولا تطلـب منهنَّ أَبدًا ما لا تنهض، هي نفسها، بأَكثر منه. و"بناتها" اللائي جاء معظمهـنّ مـن شتّى أَرجاء الهند، أَو ممّن هجرنَ أَوطانهنّ في أوروبـا، وعشنَ معها فـي الهنـد، رغم قسوة المُناخ، ووعورة أُسلوب العيش، عيشةً تستلزم جرأَةً نادرةً، وتضحيةً بـلا تحفُّظٍ، لم يتخاذلْنَ أَثناءَ المسيرة، فلا المغريات المادّيّة تستهويهنّ، ولا حتّى أَسـباب الرفاه الطبيعيّة تستلفتهنَّ، ولا شقاق يفرِّقهنَّ، فقد وهبنَ قلوبهنَّ، بلا رجعـةٍ، لقـرينٍ إِلهيّ وجدنَ فيه المثل الأَسمى في البذل والإِيثار، ومنه يـستمددْنَ قـوَّة الوفـاء لـه ولإِخوته المحرومين؛ وبما أَنَّهنَّ يسلَخْنَ ساعاتٍ طوالاً خارج حرَم الدير، يعقدْنَ معه حوارًا متَّصلاً، ويكتشفنَ حضوره في كلّ مكانٍ؛ وأَثناء تنقُّلاتهنّ تحتفظ أُولئك اللواتي دُعينَ "الراهبات الراكضات"، بمسابحهنّ بين أَناملهنّ، مستوحياتٍ من كـرِّ حبّاتهـا زخمًا ودعمًا.

وشهد عام ١٩٧٧ إِنشاء سبعة مراكز خارج الهند، وثلاثةٍ في الهند، وفي كـلِّ من تلك المراكز كانت المرسلات يبادرنَ إِلى تلبية الحاجات الأَشدّ إِلحاحًا.

ففي شباط من ذلك العام، بات الساري القطنيّ الأَبيض ذو الحاشية الزرقاء شائعًا في مانيلا، عاصمة الفيليـبين، حيثُ كان عدد المرضى والمحرومين، المحتاجين إِلى رعايةٍ، لا يُحيط به إِحصاءٌ.

وقد انطلقت الأُمُّ بخمسٍ من أَخواتها إِلى منطقة "توندو" العاجّة بآلاف الأَكـــواخ الزريّة. وهناك التقيْنَ، ليسَ فقط بقومٍ يفتقرون إِلى كلِّ شيءٍ، بـــل بخمـــسِ شـــابّاتٍ راغباتٍ في الانضواء تحت لواء جمعيّة مرسلات المحبّة؛ وفي نهاية السنة كان عدد المرشَّحات قد ارتقى إِلى تسعٍ، فقرَّرت الأمُّ افتتاح مركز ابتداءٍ في مانيلا، وأَقامــت على إِدارته الأُخت أَندريا التي كانت أَوَّل رئيسةٍ على فرع برونكس الأَميركيّ.

وفي شهر آذار من تلك السنة، اصطحبت الأُمُّ فريقًا إِلى "كريلمـــا" فـــي غينيـــا الجديدة، كان من أَعضائه الأُخت "ليتيسيا"، التي كانت قد اكتسبت خبرةً راسخةً فـــي التعامل مع أَهالي أوستراليا الأَصليّين.

ثمّ رافقت الأُمَّ ثلاثُ أَخواتٍ إِلى "پـــورت اوپـــرانس" عاصمة جزيرة هـــاييتي، التي تُعَدّ من أَفقر المطارح في العالم، والتي وُصفت بأَنّها "كلكتّا المصغَّرة". وتعـــيَّن على المرسلات تعلُّم اللغة المحلِّيَّة – الكريول – وهي مزيجٌ من فرنسيّةٍ، وإِســـبانيّةٍ، وإِنكليزيّةٍ، وأَفريقيّةٍ. وقد وجدنَ حاجات القوم هائلةً فشُغلنَ بها، بحيثُ لم يعُد يُفـــسَح لهنَّ متَّسعٌ من وقت لكتابة رسالةٍ.

وفي شهر آب استقرَّت المرسلات في مدينة روتيردام الهولنديّة، حيثُ حللْنَ في مسكنٍ متواضعٍ داخل حيٍّ عمَّاليٍّ، وشرعْنَ يـــرعَيْنَ المتخلّفـــين عقليًّـــا، والفقـــراء، والمُسنّين الوحيدين واليائسين.

وفي ذلك الشهر عينه أَنشأنَ مركزًا في أَدّيس أَبيبا بالحبشة أَطلقنَ عليه اسم "بيت السلام".

وفي ١٤ أَيلول اشتركت الأُمُّ في المؤتمر القربانيّ الوطنيّ التاســـع عـــشر فـــي مدينة پـــيسكارا الإِيطاليّة، وانتهزت تلك السانحة لتقديم أَخيها لازار وأُسرته، وفريق مرسلي المحبّة، وإِخوة الكلمة إِلى قداسة البابا بولس السادس؛ ويـــذكر الأَخ أَنجيلـــو ديـــڤـــانندا أَنَّه سمع، آنذاك، الحبرَ الأَعظم يعترف لـــلأُمّ تيريـــزا: "**إِنَّنـــي تلميـــذك المتواضع في مدرسة المحبّة**".

ثمّ استدعاها الإِعصار المروِّع الذي أَودى بحياة نحو خمـــسةٍ وعـــشرين أَلـــف ضحيّة، في منطقة "أَندرا پـــراديش" الهنديّة، فانضمّت إِلى فِرَق الإِنقاذ، مـــا أَفـــضى إِلى إِصابتها بالملاريا.

وقد جعلت الأُمُّ من الأَوَّل من تشرين الثاني، يوم عيد جميع القدّيـــسين، موعـــد

الذِّكرى الخامسة والعشرين لتأسيس "نيرمال هرايدي". وقد تضافر مئاتٌ من مواطني كلكتّا، منهم أَصحاب نوادٍ، وشركاتٌ تجاريّةٌ، على تقديم وقتهم وهداياهم كـي يـنعم نزلاء المقرّ المئة والخمسون، في ذلك النهار، بمأدبةٍ فاخرةٍ، وتسعد كلُّ نزيلةٍ بساري جديدٍ، وكلُّ رجلٍ بثيابٍ قشيبةٍ، ويزدهي كلُّ فـراشٍ بأَغطيـةٍ جديـدةٍ، زرقـاءَ أَو خضراء.

وعام ١٩٧٨ أَسَّست مرسلات المحبَّة خمسةً وعشرين مركزًا جديدًا، منها سـتّة عشر مركزًا في الهند، وتسعةٌ خارجها.

ففي الرابع والعشرين من أَيّار افتتحْنَ مركزًا في مدينـة "زارات" بـالأَرجنتين. وفي الثامن من حزيران التقت الأمُّ مواطنها الأَب "لوش جرجي" الذي كان قد أُنبـئ بافتتاحٍ وشيكٍ لمركزٍ للمرسلات في زغرب بيوغوسلافـيا، فجاء يعرض إِقامة قدّاسٍ لجميع الأَلبانيّين المقيمين في زغرب، تكريمًا للأُمِّ تيريزا. وقد أَطلعته على عزمهـا افتتاح مركزٍ لجمعيّتها في موطن رأسها، سكوپـيي، في العام التالي، وقالت، في شبه اعتذار: "لقد نسيتُ لغتنا الأَلبانيّة، فأَنا، منذ خمسين عامًا لم أَتكلّمها"، فأَجابها:

- "أُمّاه، إِنّكِ تتكلّمين بلغة الروح، تلك التي يفهمها جميع سكّان البسيطة".

فردّت: "حسنًا قلت، فليس ما يجمعنا كلَّنا مثل هذه اللغة".

وفي اليوم التالي، أَثناء قدّاس الأَلبانيّين تحدَّث الأُسقف عن الدعوات، ودعا الأمَّ تيريزا إِلى مخاطبة الجمهور، فنوَّهت بأَنَّ أُمّها، بعد أَن وافقت على دخولها الـدير، قالت لها: "**امضي، يا ابنتي، ولكن لا تكـوني، أَبـدًا، إلاَّ خاصّـة الله والمـسيح!" واستأنفت قائلةً: "وهكذا، إِن لم أكن وفيّةً، فسيحاكمني، لا الله وحـده، بـل أُمّـي، أَيضاً، التي ستسألني: "يا ابنتي هل عشتِ لله وحده؟"**

وفي العاشر من حزيران احتُفِل بقدّاس شكرٍ من أَجل "وفاء الـشعب الكرواتـيّ للكنيسة الكاثوليكيّة طيلة ثلاثة عشر قرنًا". وفي نهاية القدّاس، قدَّم الأُسقفُ للمـؤمنين الأُمَّ تيريزا، وأَخواتها الأَربع، اللاّئي قدمنَ لخدمة فقرائهم، ومنهنّ الأُخت مارتا، من مواليد "كوسّوڤـو"، وهي الأَلبانيّة الأُولى التي انضمَّت إِلى مرسلات المحبّة. وبعـد ظُهر ذلك اليوم، كُرِّس المركز الجديد الذي اتَّخذ له مقرًّا في بيـتٍ صـغيرٍ خلـف

الكاتدرائيّة. وقد صرَّحت الأُمّ: "ستمكث أَخواتي هنا للعمل بين الفقراء، الذين لا شيءَ ولا أَحَد لهم. نحن لم نأتِ بصفة مساعدات اجتماعيّاتٍ، ولكن، كما هي الحال في كلِّ مكانٍ في العالم، سنعمل هنا حبًّا بالله، وإِشاعةً لرأفته".

أَمدًا طويلاً، كانت قد حُظِرت على الأُمّ تيريزا العودة إِلى مسقط رأسها، غير أَنّ يوغوسلاڤيا استقبلتها، آنذاك، بترحيبٍ حارٍّ، وقدّمت لها سيّارة إِسعافٍ ما زالت تجوب شوارع كلكتّا، وقد كُتِب على جَانِبَيْهَا: "من شعب زغرب إِلى مرسلات المحبّة".

وقد تلت المركز الأَوّل في يوغوسلاڤيا مراكزُ عديدةٌ لمرسلات المحبّة اللواتي استثار مثالهنّ اندفاع أَنفارٍ من الفتيات اللائي التمسنَ الانضواء تحت لواء جمعيتهنّ، فكنّ، إِثر فترة تدريبٍ واختبارٍ في موطنهنّ، يقضينَ فترة ابتدائهنَّ في روما، وقد أَبرزت عديداتٌ منهنَّ نذورهَنَّ المؤبَّدة.

أَمّا "سكوپيي" فقد باتت شهيرةً وفخورةً بكونها مسقط رأس الأُمِّ تيريزا.

ولدى عودتها إِلى كلكتّا في الثالث من تمّوز، أَوصت الأُمُّ أَخواتها باستهلال عملهنَّ الطبِّيِّ، في مركز البُرْص، بالصلاة، وبإِبداء مزيدٍ من الرقَّة والعطف نحو المرضى، موضحةً: سيُساعدكنّ ذلك على تذكُّر أَنَّكنَّ تلمسنَ جسد المسيح. إِنّه في ظمأ إِلى هذه اللمسة. أَفتبخلْنَ بها عليه؟"

وفي الخامس عشر من أيلول دُشّن أَوّل مركزٍ للمرسلات في پاناما، في مدينة "إِلدورادو" وفي اليومَيْن التاليَيْن، كانت الأمُّ في مدينة فريبورغ الأَلمانيّة، بدعوةٍ من الأَساقفة الأَلمان، للاحتفال بيومٍ كاثوليكيٍّ. وقد تخلَّف عن الحضور الكردينال كارول ڤويتيوا – حاليًّا البابا يوحنّا بولس الثاني – بسبب وفاة البابا بولس السادس الذي قالت فيه الأُمّ: "**بولس السادس كان قدّيسًا، حقًّا. كان يُحبّ الفقراء، ويؤثر مرسلات المحبّة. الآن، وقد عاد إِلى بيت الآب، بات بوسعنا الاستشفاع به. إِنَّ الموت جميلٌ عندما نعرف أَنَّه عودةٌ إِلى البيت الذي علينا، جميعًا، المثول إِليه**".

وفي ٢٣ أَيلول، كانت تلك التي سمّوها "**نور الحبّ الذي لا يكلّ**"، في ليڤرپول بإنكلترا، لتدشين مركزٍ جديدٍ هناك دعته هديَّة الحبّ. وكما أَلِفتْ أَن تفعل في مناسباتٍ مماثلةٍ دعت الحضور إِلى البحث عن المعوزين والمُهمَلين المنسيّين في جوارهم القريب، والعكوف على مؤاساتهم. وأَشادت بسخاء الطلاّب

الأوروپـــيّين الذين، بتضحياتهم الصغيرة، يوفّرون لقمة العيش الـــصحِّيَّة لأَتــرابهم الفقراء في الهند؛ وضربت أَمثلةً عن معجزات العناية الإلهيّة التي تعتلن كلّ يومٍ، فكم من مرَّةٍ تمضي أَخواتها للتَّسوُّق ويعدْنَ بالمشتريات من غير أَن ينقص فلسٌ واحدٌ من محافظهنّ؛ وروت كيف شخصت، يومًا، إلى مدينة حيدر آباد، في الهنـــد، لافتتـــاح مركزٍ فيها، ففاجأها رجلٌ هندوسيٌّ، لم تكن قد رأته، قطّ، من قبل، بتقديمه لجمعيّتهـــا بيته الجَميل والحديقة الملحقة به، وكان قد سجّلهما باسم مرسلات المحبّة قبل قـــدوم الأُمّ تيريزا.

وفي عام ١٩٧٨، أَسَّست مراكز جديدة في كلٍّ من بنغلاديش، والفيليـــــپيـــن، وڤـــينزويلا، وتنزانيا.

أَمّا عام ١٩٧٩، فقد شهد تأسيس ثلاثة عشر مركزًا جديدًا في الهنـــد، وأَربعـــة عشر مركزًا خارجها، منها مركز في مدينة "إيسّن" الأَلمانيّة، افتتُح في ١٥ حزيران، وأَشرفت على إدارته ثلاث أَخواتٍ هنديّاتٍ، وأُختٌ بلجيكيّةٌ، استهدفْنَ، فـــي المقـــام الأَوّل، مواجهة جنوح المراهقين.

وبعد أَيّامٍ، افتتحت الأُمُّ، بنفسها، مركزيْن جديدَيْن في الولايات المتّحدة، أَحدهما في سانت لويس، والآخر في ديترويت. وأُنشئ هذا الأَخيـــر فـــي منطقـــة أَكْـــوَاخٍ، وساعدت الأُمُّ أَخواتها في تنظيفه، عاملةً بيدَيْها، مثلهنَّ، طيلة ثلاثة أَيّامٍ. وقدَّمت لَهنَّ الرعيَّة الأَثاثَ الضروريّ متضمِّنًا ثلاّجةً سارعت الأُمُّ إلى إعادتهـــا، عمـــلاً بتقليـــد الجمعيّة الذي ينفي من عيش المرسلات كلّ وسائل الرفاه، ولا سيّمَا في بلادٍ مهووسةٍ بالرفاه ووسائله مثل الولايات المتّحدة؛ فهي تأبى لنفسها ولأَخواتها أَيّ متـــاعٍ يعجـــز أَفقر الفقراء عن اقتنائه، وتخشى، إن هي تهاونت بشأن ثلاّجةٍ، أَن تتهاون أَخَوَاتهَـــا بشأن سِلعٍ أُخرى، فلا يتحرَّجنَ، مثلاً، من اقتناء تيليفزيون من شأنه التهام قسطٍ مـــن وقتهن الذي وقفنَه على الله والفقراء.

وغداة افتتاح مركز ديترويت احتفل ستّة كهنةٍ بالقدّاس، ترحيبًا بالأَخوات، وفـــي ختامه تحدَّثت الأُمّ، فأَثارت بعض المواضيع الأَثيرة على نفسها، ثمّ أَضافت: "هديّتي لكم هي أَخواتي... **فحافظوا على فقرهنّ**..." فقر الأَخوات وصيَّتها، وشاغلها، فهـــو، وحدَه، ضمان ثباتهنَّ وجدواهنّ.

وروى "پــول شارون" الذي كان له سهمٌ في تأسيس مركز ديترويت:

« لقد شرعنا بتأثيث المنزل، غير أَنَّ الأَخوات رفضْنَ ثلاّجةً قُدِّمت لهنَّ هديَّــةً. ولمّا شاهدتُ الأمَّ تيريزا قادمةً حاملةً قِمَطْرها الزريّ المُثبَت بحبالٍ غليظةٍ، لم أَقــوَ على حبس دموعي. **بشريًّا يتعذَّر تفسير الأُمِّ تيريزا.** إِنَّها إِحدى معجزات الله تتجلّى تحت أَنظارنا. إِنَّها دليلٌ حيٌّ حارقٌ على حبّه لنا. ثمّة، دائمًا، مبعث دهشةٍ وتأثّرٍ في رؤية ما تتميَّز به من بساطةٍ وتواضعٍ، تلك الأُمُّ التي تُشعّ، في كلّ مكانٍ، حــضور يسوع. ومذ يتَّصل بها المرء، يؤنس، في داخله، فرحًا يستعصي على الوصف ».

وفي عام ١٩٧٩ اقتحمت مرسلات المحبّة مدينة بيروت حيــث كــان العنــف المجنون مستعرًا، وكانت قد أَعلنت: "**علينا المضيُّ إِلى بيــروت، فالنـــاس، هنـــاك، يقتتلون**". وشخصت إِلى تلك المدينة الضحيّة، بحثًا عن مكانٍ ملائمٍ، بصحبة الأُخت "داميان" التي روت: "وصلنا إِلى شارع في منطقةٍ محايدةٍ، وكان المقاتلون يتراشقون بالرصاص من كلا الجانبَيْن؛ وإِذ لم أَعثر علَى اللفظة العربيّة المناسبة، صحت بكــلّ قواي: "ستوب"، وتوقّف إِطلاق النار، برهةً، ريثما اجتزنا الشارع الخالي".

وبعد ثلاث سنواتٍ رغبت في استطلاع أَوضاع أَخواتها الستّ الــصامدات فــي أَتّون العنف ذاك، واللواتي كنّ قد اتَّخذنَ لهنّ مقرًّا في منطقة "مار تقلا" في القطــاع الشرقيّ من المدينة. وفي سبيل بلوغ هدفها، استقلّت طائرةً من رومـــا إِلـــى أَثينـــا، وطائرةً أُخرى من أَثينا إِلى لارنكا، ثمّ استقلّت مركبًا قطع المــسافة بــين قبــرص وبيروت في غضون سبع عشرة ساعةً. وكانت ترافقها "آنّ پــيتري" التي سبق لهـــا أَن أَخرجت فيلمًا عن "عالم الأُمّ تيريزا"، والتي روت: "وصلت الأُمّ تيريزا والقصف في ذروة احتدامه. ولم تكن المواقع المستهدَفة تبعد أكثر من خمسة أَميال عن بيــت الأَخوات. القنّاصون في كلّ مكانٍ، والدمار مريعٌ".

وأَطلع رئيس بعثة الصليب الأَحمر إِلى لبنان الأُمَّ تيريزا على أَوضـــاع أَطفـــالٍ معاقين عقليًّا يقيمون في مأوًى بالطابق العلويّ من دار العجزة الإِســلاميّة، الواقعــة إِلى جوار مخيّمٍ للفلسطينيّين، والتي أَلحقت بها القنابل أَضرارًا جسيمةً، وقــد باتــت حاجات الأَطفال إِلى الطعام، والماء، والمأوى، حادّةً مأساويّةً، فقرّرت الأُمّ استضافة كلّ أُولئك المعاقين الصغار في مقرّ أَخواتها اللائي كنّ افتــتحْنَ ملجــأً للمــشرَّدين

والمُهمَلين. وتمثّلت المشكلة في اجتياز الخطّ الفاصل بين المنطقة الغربيّة ومعظم سُكَّانها من المسلمين، والمنطقة الشرقيَّة، ومعظم سكّانها من المسيحيّين، وكلتاهما تتبادلان، بلا انقطاعٍ، رشقًا غزيرًا مجنونًا.

وحذّر كثيرون، ومنهم زعماء روحيّون، الأُمّ تيريزا من الإِقدام على مجازفةٍ محفوفةٍ بالمخاطر، ولكنّها لم تأبه، بل أَعلنت: "غدًا سنجتاز منطقة القتال، وسنعود بالأَطفال". فاعترض بعضهم: "وكيف ستتّقين الرصاص الذي قد يقضي عليكنّ جميعًا؟"، فردّت بحزمٍ:

– "غدًا ستسود الهدنة، وسيتوقّف القتال".
– "وأَنّى لك التنبّؤ بذلك؟"
– "لقد صلّت الأَخوات، وسيتوقّف إِطلاق النار".

في ليلة ١٢ آب ١٩٨٢ تلك، كانت الأُمُّ قد أَوقدت شمعةً عن نيّة السلام، أَمام صورةٍ للعذراء حاملةً الطفل يسوع، وعندما انتهت الشمعة، في ذوبانها، إِلى مستوى يسوع، في الساعة الخامسة، والدقيقة الأَربعين، صباحًا، أُعلن عن وقفٍ لإِطلاق النار. وفسَّرت الأُمّ ذلك بقولها: "**ينبغي أَن نصدّق أَقوال يسوع حرفيًّا، فقد قال: "اطلبوا، تَنالوا"، وإِنّنا نطلب، فإِن كان ما نطلبه يخدم مجده، وهَبَناه، وإِلا فلا داعي للإِلحاح، فالله عليمٌ بما هو خيرٌ لنا**".

ويومها مضت الأمُّ بأَربعٍ من سيّارات الصليب الأَحمر إِلى المنطقة الغربيّة التي أَشاعت فيها الحرب دمارًا، فأَنقذت سبعةً وثلاثين وَلَدًا تتراوح أَعمارهم بين سبعة أَعوامٍ، وواحدٍ وعشرين عامًا، كانوا قد انتهوا إِلى أَسحق دركات اليأس، منهم المشوَّهون، والمشلولون، والمتخلِّفون عقليًّا تخلُّفًا ذريعًا. ربّما لم يكونوا واعين للفظائع التي انتشرت من حولهم، ولكنّهم كانوا قادرين على معاناة الجوع والعطش والرعب، فمثل تلك المعاناة لا تحتاج إِلى قسطٍ كبيرٍ من الذَّكاء.

وقد طافت الأُمُّ بين أُولئك الأَبرياء المساكين فقبَّلت صغارَهم، الواحد تلوَ الآخر، وصافحت الكبار منهم، ثمّ، بالتعاون مع رجال الصليب الأَحمر الدوليّ، ومتطوّعين، حملت بعضًا منهم، واقتادت القادرين على السير إِلى السيّارات، وانطلق الموكب

عائدًا إلى مركز مار تقلا. وبعد يومين، أَعادت الكرَّة، فأَجلت سبعةً وعشرين آخرين من الأَولاد المعاقين.

وقد علَّق رئيس بعثة الصليب الأَحمر على ذلك: "**إنّ ما أَذهل الجميع هو طاقتها المتدفّقة، فقد رأَت المشكلة، وجثت على ركبتيها، وصلَّت مدى ثوانٍ، ثمّ راحت تدوِّن ثبتًا بالإمدادات التي كانت في حاجةٍ إليها... لم نتوقَّع من قدّيسةٍ أَن تكون على هذا القدْر من الفاعليّة والجدوى. لقد كانت هي الجواب على الصلاة، فالمشكلة هي أَنّه، في زمن الحرب، يُركِّز الاهتمام على الحالات الطارئة، في حين يُغْفَل العميان، والصمُّ، والمعتوهون، والمصابون بالشلَل التشنُّجي، مع أَنّهم الأَكثر احتياجًا إلى المساعدة. وقد أَدركت الأُمّ تيريزا ذلك الواقع، تلقائيًّا. إنَّهَا مزيجٌ من قائدٍ عسكريٍّ والقدّيس فرنسيس والأَسّيزي**".

وتدفَّقت الإعانات من كلِّ صوبٍ، وسُرعان ما توفَّرت أسرَّةٌ لجميع المعاقين وجاد حتّى من حرمتهم الحرب معظم مواردهم بأَغذيةٍ وأَلبسةٍ وموادّ أُخرى.

واستُدعيت الأُخت الطبيبة "جيرترود" من اليمن لتقديم العون الطبِّيّ؛ ولكن الأُمّ، حيالَ هشاشة الأَوضاع في لبنان، أَقرّت: "**كلّ ما يسعنا فعله هو أَن نقدِّم لهؤلاء القوم عنايةً مُحِبَّةً ورقيقةً. إنّهم بين يدي الله...**".

وعندما طالبتها الصحافة اللبنانيّة بتصريح، نأَت بنفسها عن مستنقع السياسة، وردّت على أُولئك الغارقين في خضمّ الحرب والعنف، بتلاوتها على مسامعهم صلاة القدّيس فرنسيس الأَسّيزي: "اللهمَّ اجعلني أَداة سلامك...".

وكان قداسة البابا بولس السادس قد أَنفذ، في أَيّار ١٩٧٩، إلى مرسلات المحبَّة بركةً خاصّة جاء فيها: "تذكَّرنَ دائمًا، أَخواتي المحبوبات في المَسيح، قيمةَ تكريسكنّ، فمن خلال تكريس ذواتكنّ للرَّبّ يسوع، تستجبْنَ لحبّه، وتكتشفْنَ احتياجات إِخوته وأَخواته في العالَم أَجمع...".

وفي شهر أَيلول اجتاح مدينة كلكتّا طوفانٌ أَوقف كلَّ حركةٍ فيها، غير أَنّ المرسلات واصلنَ عملهنّ وسط الغمر، دائباتٍ على رعاية المرضى والأَطفال، وقد استخدمْنَ، لهذه الغاية، شاحنةً كبيرةً كان قد تَبَرّع بها لهنّ البابا بولس السادس.

وفي ٢٩ أَيلول، من ذلك العام، أَحدثت المرسلات مركزًا في راوندا حيث يتفاقم الفقر على وتيرةٍ تكاثر السكّان الجامح. وقد استقبلت مدينة كيغالي بالترحيب فريقهنّ المؤلَّف من أَربع أَخواتٍ هنديّات، وواحدةٍ تنزانيّةٍ، وسُرعانَ ما اتّضح لهنّ أَنّ ميدان العمل فسيح، فكتبت إِحداهنّ، الأُخت جوانا: "البلاد جميلة، ولكنّها تفتقر إِلى كلّ شيءٍ".

وقد شهد عام ١٩٧٩، أَيضاً، مولد مراكز جديدةٍ لمرسلات المحبّة في كلٍّ من "ريجيو كالابريا"، و"راغوزا"، و"كوراتو" في إِيطاليا، و"زغرب" في يوغوسلاڤيا، و"تولوكا" في المكسيك، و"سلڤادور باهيا" و"شيمبوت" في البرازيل، و"نيروبي" في كينيا، و"سانفيل" في هاييتي.

وإِذ تعذّرت على الأُمِّ المشاركة في افتتاح كلِّ تلك المراكز، كانت توكل أَخواتها إِلى المسؤولين الكنسيّين في الأماكن التي توفدهنَّ إِليها، وإِلى المتعاونين، إِن وُجدوا، وتوصي بهنّ: "**إِليكم أَخواتي، اعتنوا بهنّ، وساعدوهنّ على الحفاظ على فقرهنّ، ففقرنا هو بائنتنا. لا تدعوا أَخواتي يفقدْنَ حبَّهنَّ للفقر**".

وكانت منظَّمة الأمم المتّحدة قد أَعلنت سنة ١٩٧٩ سنة الطفل العالميَّة، فحرصت مرسلات المحبّة على إِمتاع أَطفال كلكتّا بأَجمل احتفالٍ. فتبرَّع سيرك بتقديم أكثر أَلعابه إِدهاشًا أَمام ثلاثة عشر أَلف طفل، واشترك، أَيضاً، في إِبهاجهم مُمثِّلون هزليّون، وفِرَقٌ موسيقيّةٌ عسكريّةٌ، وقد نُظِّمت تنقُّلات الأَطفال في حافلاتٍ وترامات، وسيّاراتٍ مدرسيّةٍ، وقُدِّمت لهم وجبات طعامٍ فاخرةٌ مُعدَّةٌ مُسبقًا. وواكب حاكم البنغال الشرقيّ ورئيس الوزراء الأُمَّ تيريزا التي تحدَّثت إِلى الأَطفال برقّةٍ وحبٍّ جمَّيْن.

وتتويجًا لاحتفال المرسلات بيوم الطفل وُهِبْنَ بناءً ملاصقًا لشيشو بهاڤان، قد طالما تمنَّيْنَ الحصول عليه، لمعالجة مشكلة الاكتظاظ في مركزهنّ ذاك.

وفي عام ١٩٧٩، أُعيد انتخاب الأُمّ تيريزا للمرّة الرابعة، ولمدَّة ستّ سنواتٍ أُخرى، رئيسةً عامَّة على جمعيّتها، فبقيت "أُمًّا للجميع".

وفي تلك السنة أَيضاً مُنِحت الأُم جائزة نوبل للسَّلام، فكان ذلك الحدَث مُفترَقًا في تاريخ جمعيّة مرسلات المحبّة، التي باتت جميع وسائل الإِعلام العالميّة تُشيد بمآتيها الإِنسانيّة السامية، وتعرِّف بها تعريفًا مُسهبًا، فانهالت عليها التبرُّعات بكثافةٍ مضاعَفة، وتدفَّقت عليها طلبات الانتساب، فمضى ازدهارها وتكاثر عدد أَعضائها في تصاعُدٍ مذهلٍ.

وذاعت شهرة الأُمِّ تيريزا حتّى أَقاصي المسكونة، حتّى غدت وسائل الإعلام ترصد تَحَرُّكَاتهَا، وتردِّد أَقوالها، وتعدِّد مآثرها، وباتت، هي، أكثر من ذي قبل، موضع "دارشان" الجماهير في الهند وفي العالم.

وتمضي المسيرة حثيثة الخطى

في مطلع الثمانينات كانت الأُمُّ قد أَشرفت على السبعين من العمر، ولكنّها عوضاً عن الاستكانة إِلى راحةٍ مستحقّة، ضاعفت نشاطها، مرسِّخةً قواعد جمعيّتها، ضاربةً لها جذورًا، ومادَّةً لها فروعًا في شتّى أَرجاء المسكونة، مستفيدةً من خبرتها التي اكتملت نضوجًا، ومن نفوذها العالميّ الذي اكتمل رسوخًا، ومن الدعم السخيّ المندفع الذي باتت تنعم به على جميع المستويات.

ففي شهر شباط ١٩٨٠ تبرّعت لها شركة هنديّة بمبلغ عشرين أَلف روبية لإِنشاء موئلٍ للمسنّين في ولاية بيهار.

وفي ٢٩ أيّار التقت في "كيغالي" رئيسَ جمهوريّة رواندا، والتمست منه مؤازرة أَخواتها اللوَاتِي كنَّ، لتسعة أشهر مضت، قد افتتحن هناك مركزًا، وذكَّرته بأَنَّ الفقراء هم الأَغنياء الحقيقيّون في عيني الربّ.

وفي ١٣ حزيران، عيد قلب يسوع، مضت بثلاث أَخواتٍ هنديّاتٍ، وبأُخرى بلجيكيّةٍ، لافتتاح مركزٍ في مدينة "غاند" البلجيكيّة، وانتهزت تلك السانحة لزيارة "ذاتها الأُخرى" "جاكلين دي ديكير".

ثمّ طارت الأُمُّ إِلى برلين الغربيّة، حيثُ كانت قد دُعيت للاشتراك في "يومٍ كاثوليكيٍّ"، تلبيةً لرغبة سبعة آلاف شابٍّ طالبوا، بلجاجةٍ، أَن تكون الأُمُّ أَحد ثلاثة خطباء، والآخران أُسقفان. وكان شعار مداخلة الأُم تيريزا: "إِنّ حبّ يسوع هو الأَقوى"، فتحدَّثت عن طهارة القلب، وخاطبت الشباب قائلةً: "**حتّى إِن كان بعضكم قد خطئ في هذا المجال، فالغفران دائمًا متوفّرٌ**". واتّضح، إِثر حديثها، أَنّ مئات الشبّان حاصروا كراسي الاعتراف. وقد اختتمت حديثها بهذا السؤال المثير الذي طرحته بنبرةٍ منتصرةٍ: "**أَيًّا كان حجم الشرِّ في العالم، أَفَليس حبُّ المسيح هو الأَقوى؟**" فدوّت هتافات التأييد والتأكيد، كهزيم الرعد، تشقُّ عنان السماء.

وبمناسبة ذلك اللقاء تبرَّعت لها الممثِّلة الشهيرة "ماريّا شلّ"، والدة النجمة "رومي شنيدر" بكامل أَجرها عن دورها في مسلسلٍ تيليفزيونيٍّ، وقيمته مئتان وثمانون أَلف دولار. وقد علَّقت الأُمّ: **"المال لا ينفكّ يأتي. نحن ننشد، أوّلاً، ملكوت الله، ونوهب الباقي. ننفق باليُسرى ما نتلقّاه باليُمنى. وحتّى الأَطفال يساعدوننا. ما نكاد نطأ بلدًا حتّى تتقاطر الهبات. فقرنا هو قوّتنا وحرّيّتنا".**

وفي العشرين من حزيران طارت الأُمّ إِلى مدريد برفقة أَربع أَخواتٍ إِحداهنّ ڤينيزويليّةٌ تتقن الإِسپانيّة. واستقبلتها في المطار ثلّةٌ من المتعاونين؛ وقد أَثار جوازُها الهنديُّ شبهةَ رجال الأَمن، إِلى أَن أحيطوا علمًا بهويّتها، فسارعوا إِلى الترحيب بها. وكان بوسعها تخطّي كلِّ الحواجز بإِبراز جواز سفرٍ صادرٍ عن الڤاتيكان، إِلاّ أَنَّها آثرت عدم استخدامه لأَنّها كانت تعدُّه امتيازًا، وتحرص على أَن تُعامَل أُسوةً بأَيِّ هنديٍّ عاديٍّ. وقد استهلّت زيارتها إِلى إِسپانيا بالتخشُّع في مُصلّى مركز المرسلات، وبالاشتراك في الذَّبيحة الإِلهيّة.

وكان، ثمّة، شابٌّ إِسپانيٌّ يدعى "پاسكوال" قد فتنته سيرة الأُمِّ تيريزا، فشخص إِلى كلكتّا كي يراقبها عن كثَبٍ، ولكنّه عاد خائبًا لأَنّها كانت غائبةً. ثمّ كانت زيارتها إِلى إِسپانيا فرصة عمره، فبات يتعقّب آثارها ملازمًا إِيّاها ملازمة ظلِّها، ويقدِّم لها ولأَخواتها جمًّا من الخدمات. وكم كانت دهشته عارمةً عندما شاهد، في الغداة، حاملةَ جائزة نوبل للسَّلام تُلقِّن أَخواتها الطريقةَ المثلى لشدِّ الحبال المعدَّة لتجفيف الغسيل، مبيِّنةً لهنّ الارتفاع الملائم، والاتّجاه الذي يمنع ظلال الأَسطحة من حجب أَشعّة الشمس. ولمّا سمعها تبيِّن لهنّ الحاجة إِلى خزائن لترتيب أَمتعتهن، تَبَرَّعَ بتأمينها لهنَّ، فرحَّبنَ بعرضه.

ولحظ "پاسكوال" أَنَّ الأُمَّ كانت فريسة القلق، لأَنَّها كانت مُنْتَظَرَةً في زغرب، يوم الخامس والعشرين من حزيران، من أَجل افتتاح مركزٍ جديدٍ في مسقط رأسها "سكوپيي". وقد أَغفلت حجز مقعدها على الطائرة اليوغوسلاڤيّة، وكان الغد يوم أَحدٍ تغلق فيه المكاتب؛ إِلاَّ أَنّ "پاسكوال" هدَّأ من روعها، فهو موظَّفٌ في مكتب سفرٍ، وَأَكّدَ أَنّه سيسوّي الأَمر. وقد علَّقت الأُمّ على ذلك ضاحكةً: **"هكذا تجري الأمور دائمًا، فقد نبحث، أَحيانًا، عن وسيلةٍ لحلِّ مشكلةٍ، وقبل أَن نعثر عليها، يباغتنا**

بالحلِّ المنشود من لا عهدَ لنا به، ومن لا خَطَر لنا، يومًا، ببالٍ". ذلك جـزءٌ مـن "المعجزات الصغيرة" التي تفرش درب مسيرة الأُمّ تيريزا.

وفي صباح اليوم التالي، إذ كانت تهمُّ بالمثول إلى الكنيسة، سيرًا على الأَقدام، أَقنعها الشابّ "پـاسكوال" باستقلال سيّارته الصغيرة. وفي بعض الطريق، باح لها برغبته في خدمة الآخرين، معترفًا بجهله السبيل الأَمثل إِلى ذلك، فقالت له: "**إِحـدى أَفضل الوسائل، وهي بمتناول يدك، تتمثَّل في أَدائك واجبات عملك على خير وجه. فالمهمُّ هو الحبّ، وإِن أَنت سكبتَ في عملك حبًّا، حوَّله الربّ إِلى خدمةٍ. أَلم يتَّفـق لك أَن تذرّعت بالكثير من الصبر حيال عملاء مكتبك؟... إِذن، نفِّذ عملك في حـبٍّ وصبرٍ . هكذا ستخدم الآخرين. ثمَّ صلِّ، صلِّ بلا انقطاعٍ**".

وأَمام باب الكنيسة لمحت متسوِّلاً كان من الواضح أَنّ إِحدى ذراعيه مـشلولة، فقالت لـپـاسكوال: "**انظر، هذا هو أَحد أَفراد أُسرتنا**". ومع أَنَّ جمهورًا حاشدًا كان ينتظرها داخل الكنيسة، انحدرت من السيَّارة، ومضت إِلى المتسوِّل، مبتـسمةً لـه، متحدِّثةً إِليه، مداعبةً ساعده بعطف. ولم يكن المسكين يفقه أَيّة لفظةٍ إِنكليزيّةٍ، ولكنَّـه كان يُدرك، في أَعماق كيانه، عذوبة المبادرة؛ وكانت حرارة بسمتها لقلبه بلسمًا.

وكان قد أُعلن عن مقابلةٍ مع الأُمّ في التليفزيون الإِسـپـانيّ. ومع مقـت الأُمّ لمثل تلك اللقاءات، إِلاّ أَنَّها كانت أَقلَّ اضطرابًا من المخرج الشهير القدير الذي شهد معاونوه أَنَّهم لم يروه، في يومٍ، متأثِّرًا، ومنفعلاً كما رأوه يومذاك. وطيلة اللقاء لـم تبارح المسبحة أَصابع الأُمّ التي، كُلما همّت بالكلام، كانت ترسم إِشارة صليبٍ علـى شفتيها؛ وممّا أَفضت به، يومَها، قولُها:

– "**لو ذادت الأُممُ عن حياض سكّان الأَكواخ، ووفّرت لهم الطعـام، والـسقف والكساء، لعمّت العالَمَ أَجمع السعادة**".

وردًّا على سؤال حول الرسالة أَعلنت: "**إِنّه يستحيل الالتزام بعملٍ رسوليٍّ على من لا يحمل بين جنحيه روح الصلاة. علينا أَن نعي أَنّنا والمسيح واحدٌ**".

ولمّا حان اختتام اللقاء سألها المذيع: "ما هي رسالتك إِلـى الإِسـپـانيّين؟" فاكتفت بِالردّ:

- "**أَن يُصلّوا**".

ردٌّ واضحٌ، وجيزٌ، وافٍ؛ غير أَنّ المذيع كان يتوقّع إجابةً أكثر إِسهابًا، ففوجئ، وأُسقط في يده، وتلعثم، إِذ كان لا يزال لديه، من وقت البرنامج، بضع دقائق لا يدري بما يشغلها. ولكنَّ الأُمّ سارعت إِلى إِنقاذه من ورطته عندما انتصبت واقفةً، وأَعلنت:

- "فلنحوّل شعارنا إِلى فعلٍ".

وشرعت تتلو "أَبانا" فنهض جميع من في الستوديو مشاركينها الصلاة؛ وكان ختامًا رائعًا.

وفي المطار، إِذ كانت تهمّ باستقلال الطائرة إِلى زغرب، سأَلها پاسكوال:

- "تسافرين، إِذن، وحدك؟"

- "**لا، نحن، دائمًا، ثلاثة: يسوع، وملاكي الحارس، وأَنا**".

وقبل مغادرتها إِسپانيا، باحت لرئيس رابطة المتعاونين أَنَّها لم تُقَبَّل، قطّ، في حياتها مثلما قُبِّلت خلال الأَيّام المعدودات التي أَمضتها في مدريد. أَمّا هي فكانت تُقبِّل الأَطفال بحرارةٍ، والعجائز الفقيرات بصدقٍ، ولكنّها تعاني ضيقًا ممّن يقبِّلونها في تجلَّةٍ تلامس عبادة الأَوثان. وكانت وصيَّتها الأَخيرة: "**ساعدوا الأَخوات على الاعتصام بالفقر**". فقد كانت تعلم كم يصعب، أَحيانًا، على أُولئك الأَخوات الحبيبات اللواتي كانت تقدِّرهنَّ أَرفع تقديرٍ، رفض هدايا شخصيَّةٍ تُقدَّم لهنّ ببراءةٍ وصدق، إِذ إِنَّ قوانينهنّ تنصّ: "**إِنّنا لا نقبل أَيّة تقدمةٍ من ذوينا، وأَصدقائنا، والمحسنين إِلينا، لاستعمالنا الخاص. وما يُقدَّم لنا يُسلَّم لرئيستنا من أَجل استخدام الجميع، أَو لكي يُستَخْدَم في العمل**".

وأَثناء وجودها في إِسپانيا، صدرت إِحدى الصحف بعنوان: "الأُمُّ تيريزا المدريديّة". ولما عُرضت عليها قالت عابثةً: "أَلا تخشون غضب أَهالي كلكتّا؟"

ولكن من ذا الذي يستطيع ادّعاء امتلاك الأُمّ تيريزا، وهي ملك العالم أَجمع، وإِشعاعها يمتدُّ إِلى كلِّ ركنٍ من أَركان المسكونة؟

وفي تلك الحقبة أَفضت إِلى أَحد الصحافيّين أَنَّها تكاد تنهار تحت سيل طلبات

افتتاح مراكز جديدةٍ يناهز عددها ألفًا وثلاث مئة، وبعضُها قادمٌ من بلدان تعلن عداءَها للدين المسيحيّ. غير أَنَّها أكّدت أَنَّ الأَخوات مصمِّماتٌ على "فتح جميع الأَبواب".

وتوالى افتتاح المراكز الجديدة بخطًى حثيثةٍ، ففي الخامس من آب ١٩٨٠، أُنشئ مركزٌ في مدينة "كابو" في الفيليپين، وفي الخامس عشر من الشهر عينه، افتُتح مركزٌ ثانٍ في الأرجنتين، وفي الثالث من تشرين الأَوّل أُسِّس أَوّل مركزٍ في فرنسا، إِذ استقبلت مدينة مرسيليا الأُمَّ تيريزا، وأَربعًا من أَخواتها، إِحداهنّ فرنسيّةٌ. مركزٌ صغيرٌ، ولكنَّ محيطه يعجُّ بالغجر والمغاربة.

وفي ٢٧ تشرين الأَوّل، استقبل الأُمَّ رئيسُ الجمهوريّة الفرنسيّة "ڤاليري جيسكار ديستان"، وقد حضر اللقاء الأَب "كريستيان دالّو" الذي كان قد خلف الأَب "غوري" على رئاسة رابطة أَصدقاء الأُمّ تيريزا الفرنسيّين، وعلى تحرير مجلّة "حبّ بلا حدود". وقد سأَلها الأَب بتلك المناسبة: "ما هو أَوّل هدفٍ يتعيَّن على المتعاونين السعي إِليه؟" فأَجابته: "**أَن يكونوا قدّيسين**". وقد لحظت الأُمُّ أَنَّ الأَب "دالّو" يُغرق في إِعمال الفكر، فأَهابت به، بالأَحرى، أَن يمعن في الصلاة والاستسلام للمشيئة الإِلهيّة.

وفي عام ١٩٨٠ تحقَّقت واحدةٌ من أَغلى أَماني الأُمِّ تيريزا، عندما جاءت بفريقٍ من أَربع مرسلاتٍ إِلى مسقط رأسها "سكوپيي". وقد صرّحت، مرحةً: "**أَعطيتم فردًا، وها إِنّي أَعود إِليكم بأَربعةٍ**". ولكن حزَّ في نفس الأُمِّ أَلاّ تستطيع إِرشاد أَخواتها إِلى مرابع صباها، ولا إِلى الكنيسة التي نالت فيها الأَسرار، ولم يتسنَّ لها التخشُّع عند لحد أَبيها، فقد كان الزلزال الذي ضرب المدينة عام ١٩٦٣ قد أَطاح بمعالم كلِّ تلك الأَماكن العزيزة.

في ما بعد، كتبت الأُخت جوزليت، رئيسة مركز "سكوپيي"، التي كانت قد خدمت من قبلُ في نيويورك: "نحن أَربع أَخواتٍ: هنديّتان، ومالطيّةٌ، وأَلبانيّةٌ. ديرنا صغيرٌ، لا يحتوي إِلاّ على ثلاث غرفٍ. ونحن نمضي إِلى كلِّ مكانٍ على متن درّاجاتٍ. في نظر الكثيرين ممّن طغت المادّة على أَذهانهم، نحن فتياتٌ مجنوناتٌ، غريبات الأَطوار. وذلك الحكم لا يزعجنا، لأَنّنا مجنوناتٌ إِكرامًا لمن بلغ به الجنون أَنْ فعل الكثير من أَجلنا. جلُّ مبتغانا أَن يُسهم جنوننا في نشر مجده.

"بين من نزورهم، ونُعْنى بهم، ثمّة المُسنّون، والعميان، والمُقعدون، والفقراء.

الكاثوليكيّون قلّةٌ، ولكنّنا نزور كلَّ الجماعات بما فيها الغجر. نطوف، جاهداتٍ، ما استطعنا، للدّلالة على حبِّ الله. وهناك الكثير ممّا يسعنا قوله في "قومنا"، فكم هم طيِّبون! النساء المسنّات رائعاتٌ، إذ إنَّ كثيراتٍ منهنَّ يعدُدْننا بنات لهنّ، وإذا ما تأخّرنا في زيارتهنّ عاتبنَنا قائلاتٍ: "أَين كنتنّ، يا بنات؟ هل نسيتنَّ أُمّكنَّ؟"

"لدينا عجوزٌ عمياء تعنى بحفيدها، وهي لا تني تقول: "لولا الأَخوات لما ظفرتُ بشيءٍ من البندورة والفليفلة، وكلِّ تلك الخضراوات الطازجة!"

وقد شهد عام ١٩٨١ تحطيم الرقم القياسيّ في إنشاء مراكز جديدةٍ خارج الهند بلغ عددها ثمانية عشر مركزًا فضلاً عن المراكز التي افتُتحت في الهند نفسها. من تلك المراكز ثلاثة في الولايات المتّحدة. واثنان في المكسيك، ومركز في كلٍّ من هاييتي، وبوليـڤـيا، وكولومبيا، والشيلي، والحبشة، واليابان، وكوريا الجنوبيّة، وماكاو وأوستراليا.

وفي الثلاثين من آذار افتتحت مرسلات المحبّة مركزًا في برلين الشرقيّة، تلبيةً لدعوةٍ من الأسقف المحلّي، وقد استقررْنَ في شقّةٍ بسيطةٍ، وباشرنَ عملهنّ بزيارة الجوار، بحثًا عن الوحيدين، والمرضى، والمحتاجين.

وفي شهر أَيّار، أنشأنَ مركزين في مصر، أَحدهما في القاهرة، والآخر في الإسكندريّة، وقد خاطبتهنّ السيِّدة جيهان السادات قائلة: "بما أَنَّكنَّ تقمْنَ بكلّ شيءٍ ومجّانًا، فيحقُّ لكنَّ أَن تُعاملْنَ بالمثل".

وفي الخامس عشر من تمّوز ١٩٨١، وصلت إلى "بيلابو" في الكاميرون أَربع مرسلاتٍ هنديّاتٌ وأُخرى هولنديّةٌ، ترافقهنّ الأخت "ريجينا" المسؤولة الإقليميّة عن أفريقيا. وقد باشرنَ، في الحال، بتعليم النساء الخياطة والتطريز، وتلقين الأَطفال النظافة والعلوم الأساسيّة، كما انصرفنَ، نظرًا لقلّة عدد الكهنة، إلى تدريس مبادئ المسيحيّة.

وكان قد انعقد، في ٢٤ نيسان ١٩٨١، مؤتمرٌ دوليٌّ عن الحياة وتنظيم الأُسرة بالوسائل الطبيعيّة، وأَعلنت الأمّ بهذه المناسبة: "**إنّ الإجهاض هو أَبشع عملٍ من أَعمال إبليس تؤدّيه يدُ إنسانٍ. إنّنا ننفق الملايين لكي نطيل حياة إنسانٍ مسنٍّ، في حين يتمّ القضاء على جمٍّ من الحيوات الفتيّة المتطلّعة إلى المستقبل. فلنسأل السيّدة العذراء أَن**

تجتثّ من قلوب الأُمّهات هذه الرغبة المريعة في القضاء على الطفل الذي يحملنَه في أَحشائهنّ... في كلّ مكانٍ، نلحظ ضربًا من نفاد الصبر للقضاء على حياة الله...".

وفي شهر أَيّار، استجابةً لنداء الأُمّ تيريزا، أَنفذت كندا عددًا من الحاويات التي يتّسع كلٌّ منها لعشرين طنًّا، حاملةً مختلف المساعدات للحبشة وتنزانيا، كما أَرسل الدانمرك عشرات آلاف الأَغطية، والأَدثرة الصوفيّة إِلى فقراء هاييتي.

وشنَّ الشبّان اللوكسمبورجيّون حملةً شعارها: "فلنحرمنّ أَنفسنا بعض الحلوى لتأمين حياة أَحد أيتام الأُمّ تيريزا". وكتب إِلى الأُمّ شابٌّ مصابٌ بشلَل في يمناه، ولا عزاء له سوى التدخين: "لقد حرمتُ نفسي من التدخين طيلة أُسبوعٍ، لكي أُوافيك بالمال الذي وفّرته".

وبفضل موجة السخاء هذه تمَّ تبنّي مئات الأَطفال.

وفي ٢٧ أَيّار ١٩٨١، ترأَّست الأُمّ احتفال نذورٍ في روما، إِذ نذرت سبع فتياتٍ نذورًا مؤقّتةً، وعلّقت الأُمُّ بزنّار كلّ منهنَّ صليبًا بعد أَن قبَّلَتْه بِخُشُوعٍ، وذكَّرتهنَّ بفضيلة الفقر التي لا يسوغ أَن يحدْنَ عنها قيد أنملة، قائلةً: "**على كلِّ أُختٍ أن تستطيع التحديق في فقيرٍ وتقول له بصدقٍ: "إِنّني أعرف الفقر فهو رفيقي، وأُحبّ الفقر فهو أُمّي، وأَخدم الفقر فهو سيّدي**".

وفي نفس اليوم أَبرزت ستّ عشرة راهبةً نذورهنّ المؤبَّدة، ممَّا أَتاح للأُمّ افتتاح مراكز جديدةٍ.

وفي اليوم التالي احتفل الكردينال كنوكس، يواكبه نحو ثلاثين كاهنًا، بقدّاسٍ بمناسبة اليوبيل الذَّهبيّ لترهُّب الأمّ تيريزا، فيما هي كانت منهمكةً بإِيفاد المرسلات الجديدات إِلى مراكزهنّ في مختلف أَرجاء المسكونة، وتتأَهَّب للسَّفر، في مساء ذلك اليوم عينه، إِلى البرازيل، حيث ستكون إِقامتها خاطفةً.

وفي السابع من تمّوز شاركت بصلاةٍ لأَجل السلام، في لندن، وصرّحت: "**لكي نتلو صلاةً من أَجل السلام، ينبغي أَن نكون قادرين على الإِنصات، لأَنّ الربّ يتكلّم في صمت القلب. الإِنصات هو التمهيد للصَّلاة وللسَّلام. علينا امتلاك جرأة الإِنصات، وامتلاك الوقت للإِنصات... إِنَّ أَعمال الحبّ هي أَعمال سلامٍ. إِن افتَقرنا إِلى السلام فلأَنّنا نسينا أَنّنا ملكٌ بعضنا لبعضٍ.**

"إنّ أَفدح ظلمٍ أَلحقناه بالفقراء هو زعمنا أَنّهم لا يصلحون لشيءٍ، بحيثُ نسوا اللمسة البشريّة، وسعادة رؤية محيّا يبتسم لهم. إنّ الصلاة العاملة هي حبٌّ، والحبّ العامل هو خدمةٌ، وعندما سينصبُّ كلُّ اهتمامنا على خدمة الفقير، سيتحقّق تلقائيًّا السلام على الأَرض".

ومن أَهمّ المراكز التي تأسَّست عام ١٩٨٢ تلك التي أُنشئت في سيتوبال بالبرتغال، وفي فلورنسا بإِيطاليا، وفي برشلونة بإِسپانيا، وفي دبلن بإيرلندا، وفي كيانبيان في أوستراليا، وفي جينكينز بولاية كينتوكي، وفي سان فرانسيسكو بالولايات المتّحدة، وفي تامپيكو بالمكسيك، وفي ريودي جانيرو في البرازيل، وفي كافا بالحبشة، وفي جيتيرانيي ببوروندي، وفي سان خوسيه بپاناما، وفي باهيا بالسلڤادور.

وفي الخامس من تشرين الأوّل، شخصت الأُمُّ إِلى مرسيليا بحثًا عن مركزٍ أوسع يمكّن أَخواتها من استقبال عددٍ أكبر من الفقراء والمرضى.

وفي تلك الأَثناء كانت تشغلها أَنباء أَخواتها، فهنّ، في أَدّيس أَبيبا، يجهدنَ في إِبقاء جذوة الحياة مشتعلةً في صدور أَلفين من الفقراء، لابسي الأسمال البالية؛ وفي تنزانيا يفجّرنَ عواصف من الفرح الذي يدفع بالبعض إلى الرقص، بفضل توزيعهنّ السكَّر، والبازلاّء الحلوة الطعم، والصابون.

وهزّتها مآسي "قوم السفن"، أولئك اللاّجئين الفارّين من رزايا الحروب والاضطرابات الدامية في مختلف البلدان الأَسيويّة، التائهين في عرض البحار، والذين يرفضهم الجميع؛ فعزمت على إِيفاد فريقٍ من أَخواتها إِلى هونغ كونغ بغية مساعدتهم.

وفضلاً عن هذا المركز الذي افتتحنَه في هونغ كونغ عام ١٩٨٣، أَنشأت مرسلات المحبّة أكثر من خمسة عشر مركزًا جديدًا خارج الهند منها مركزٌ في الخرطوم عاصمة السودان، وقد افتُتح في ١٦ آب ١٩٨٣.

وفي منتصف عام ١٩٨٣ كان الإِرهاق قد نال من الأُمّ، ولكنّها كانت تأنف من الشكوى، وتأبى الاستكانة للعلاج، في حين أَنّ ملايين من المرضى لا يقوون على استشارة طبيبٍ؛ إِلاَّ أَنّها في السادس من حزيران ١٩٨٣، إِذ كانت، في روما، تحاول النهوض من سريرها هوت أَرضًا، وانتابتها، من سقطتها، آلامٌ حادَّةٌ، ظنَّت، معها، أَنّ أَضلعها قد تحطَّمت، وقُسِرتْ على الاستشفاء، فاتَّضح أَنّها مصابةٌ باضطراباتٍ

قلبيَّةٍ حادّةٍ؛ وقيل لها إنّها لو لم تقع وتُنقل إِلى مشفًى لأَطاحت بها ذبحةٌ قلبيّةٌ، على حين غرّةٍ. وأُرغمت على السكون، طيلة شهرين، في مشفيَيْن من مشافي العاصمة الإِيطاليّة، هما "جيميلّي" و"سلفاتورموندي"، وبالانقطاع التامّ عن العالم، بِلا هاتفٍ، ولا زياراتٍ، ولا بريدٍ. ومع ذلك، هرع إِلى عيادتها عظماء العالم، وفي مقدّمتهم ملك بلجيكا وملكتها، وانهالت عليها البرقيّات من كلِّ صوبٍ، منها برقيّةٌ من الرئيس الهنديّ، وأُخرى وقَّعها الرئيس ريغان وعقيلته نانسي، وأُخرى من رئيس جمهوريّة اليمن. وكانت أكثر الرسائل تأثيرًا تلك التي أَنفذها رجلٌ هندوسيٌّ من كشمير، أَعلمها فيها أَنَّه يتضرّع من أَجلها، إِلى الإِلهة كالي، كي تنتزع منها القسم السقيم وتضعه فيه، وتأخذ منه القسم المعافى وتضعه فيها.

عزاؤها الأكبر، أَثناء تلك الخلوة القسريّة، كان السماح لها بالتعبُّد ساعتين يوميًّا أَمام القربان الأَقدس الذي يُؤتى به إِلى غرفتها، واحتفال كاهن بالذَّبيحة الإِلهيّة أَمام سرير مرضها.

وفي فسحة التأَمُّل تلك، دوَّنت بأَحرفٍ من نارٍ، كلماتٍ لاهثةً، مسكوكةً، تمثِّل أَهمَّ صوى مسيرتها، وأَبرز مُثُل حياتها، جاء فيها:

« الكلمة صار جسدًا، وخبز حياةٍ،
الضحيَّة المقدَّمة عن خطايانا على الصليب،
التضحية المقدَّمة، في الذَّبيحة المقدَّسة، عن خطايا العالَم وخطاياي،
الكلمة التي ينبغي قولها،
الحقيقة التي ينبغي إِعلانها،
الطريق الذي يتعيَّن انتهاجه،
النور الذي يجب بثُّه،
الحياة التي يجب عيشها،
الحبُّ الذي ينبغي اختباره،
الفرح الذي ينبغي نشره،
التضحيةُ التي يجب تقديمها،
السلام الذي يتعيَّن منحه،

خبز الحياة الذي يجب اطِّعامه،
الجائع الذي ينبغي تغذيته،
العطشان الذي يجب إِرواؤه،
والعريان الذي يتعيَّن إِكساؤه،
المشرَّد الذي يتحتَّم إِيواؤه،
المريض الذي ينبغي شفاؤه،
الوحيد الذي ينبغي حبُّه،
غير المرغوب فيه الذي ينبغي الترحيب به،
الأَبرص الذي ينبغي غسل قروحه،
المتسوِّل الذي ينبغي الابتسام له،
السكِّير الذي ينبغي الإِنصات له،
المتخلِّف عقليًّا الذي تنبغي حمايته،
الطفل الذي ينبغي تقبيله،
الأَعمى الذي تتعيَّن قيادته،
الأَخرس الذي يجب التكلُّم عنه،
المشلول الذي يجب عونه على السير،
ومدمن المخدّرات الذي يجب إِغاثته،
البغيُّ التي يجب إِنقاذُها من الخطر وحمايتها،
السجين الذي يجب زيارته،
والشيخ الذي يجب خدمته.
يسوع هو إِلهي،
يسوع هو قريني،
يسوع حياتي،
يسوع حبّي الوحيد،
يسوع هو من لا أَستغني عنه،
يسوع هو كلُّ شيء لي ».

ومع أنّه فُرضت عليها راحةٌ تنفي كلَّ جهدٍ، وحُظِرَ عليها حتَّى حمل طفلٍ، إلاَّ أنّها كانت تشعُر أنَّها خَزنت من الطاقات الجديدة مؤونةً لعدّة سنواتٍ وصرّحت لأَحد الصحافيّين، لدى مغادرتها المستشفى: "يُقدِّر الأَطبّاء أنّني سأعيش ثلاثين سنةً أُخرى". ولئن هي لم تعِش، في الواقع، سوى نصف تلك المدَّة، إلاَّ أنّها اندفعت في حمّى نشاطها المألوف، لتجعل مها حقبةً خصبةً معطاءً، مع ما كان ينتابها، بين فينةٍ وفينةٍ، من انتكاساتٍ صحِّيَّةٍ تُلزمها السكون.

وفي الحال شخصت إلى مركز "شانتي ناغار" للبُرْص، حيثُ كان الكاهنان الأَخوان "پيير وريمون جاكار" يدرّبان الإِخوة والأَخوات، وأَطبّاء، ومتعاونين على الجراحة الخاصّة بالبرص، جراحة تجتثُّ العظام النخرة، مبقيةً على السليم منها في مأمنٍ من زحف الداء، ويدرِّبانهم أَيضاً على تجهيز الأَطراف التي انتزعت أَجزاء منها، جراحيًّا، بأَجهزةٍ اصطناعيّةٍ تُصنّع محلِّيًّا بكلفةٍ زهيدةٍ، وتُمكّن من الحركة والعمل. وقد وافت أَخواتٌ من أَماكن نائيةٍ أَحيانا للتدرُّب على تلك الأَساليب، في سبيل إِسباغ قسطٍ أوفر من الجدوى على عملهنّ، ولا سيّمَا أَنَّهنّ قد بتنَ يعالجنَ، في مختلف مراكزهنّ، ما يناهز مئتي أَلف أَبرص. وقد صرَّحت إِحداهنّ للأَخوين جاكار: "إنكما تواجهان مشكلاتنا بتقنيّةٍ بسيطةٍ وإنسانيّةٍ".

وفي خريف ١٩٨٣، كانت الأُمّ تزور مركز جمعيّتها في مدريد، وقد تميَّز ذلك الخريف ببردٍ قارسٍ، واستوضحت عن أَماكن إِقامة الفقراء الذين يتوافدون لتناول الطعام في مركز المرسلات، فكان الجواب مؤسيًا: "حيث يستطيعون؛ فمن، منهم، يملك بعض مال يرقد في نزلٍ رخيص الأجرة، ولكنَّ معظمهم يلتجؤون إِلى أَماكن خربةٍ مهجورةٍ، أَو إِلى منافذ المترو، كما هي الحال في باريس". فانتفضت الأُمُّ وردّت، وكأَنَّها أُصيبت بطعنةٍ: "**أَلا يُقلقكم ألاَّ يجد سقفًا يسوعُ الذي تلقَّيناه في الإفخارستيّا؟**"

وفي اليوم التالي، أَثناءَ اجتيازها المدينة بالسيّارة لمحت بناءً كبيرًا خاليًا، واستعلمت عن أَصحابه فإذا به يخصّ شركة بناءٍ كبرى، لم يكن بمكنتها التخلّي عنه لفقرائها، ولكنّها عرضت التبرُّع برقعة أَرضٍ مساحتها أَربعة آلاف مترٍ مربّعٍ، لا تحتاج إِلاّ لموافقة البلديّة لكي تصبح أرضًا معدَّةً للبناء، بعد أَن أُقحمت في نطاق

الحزام الأخضر وعندما يتعلَّق الأَمر بالفقراء لا يصمد حاجزٌ في طريق الأُمِّ تيريزا، التي سعت، في الحال، إِلى مقابلة الملكة "صوفيا"؛ ودبَّرت لها الملكةُ لقاءً مع عمدة مدريد، الماركسيّ الملحد، الذي لم يتردّد في الاستجابة لطلبها، وسُرعانَ ما تحوَّلت الأرض إِلى بناءٍ يؤوي ثمانين مشَرَّدًا.

وفي تلك الأَثناء، وبعد أَن ارتقى عدد مراكز المرسلات في اليمن إِلى ثلاثةٍ، إِثر افتتاحهنّ مركزي صنعاء وتعز، بعدَ الحُدَيْدة، حصلت الأمّ للكاهنين الأَخوين جاكار على تأشيرة سفرٍ إِلى اليمن، كي يفيدا الأَخوات والمتعاونين معهنّ من خبرتهما في جراحة مرضى الجذام، وفي تصنيع أَطرافٍ اصطناعيّةٍ لهم.

ومضت الأُمُّ تتحدّى إِرشادات الأَطبّاء الذين أَوعزوا إِليها بالاستسلام إِلى الراحة، ذارعةً العالم بلا هوادةٍ. فها هي ذي، في ٢٣ تشرين الأوّل، في مدينة "تيزيه" تعقد مع الأَخ "روجيه" اجتماعًا مسكونيًّا. وفي اليوم عينه تمثل إِلى مدينة "أورليان" الفرنسيّة، حيث تتحدَّث إِلى جمهورٍ معظمه من الشبَّان، فتقول لهم: "**إِنّ حبَّ شابٍّ لفتاةٍ، وحبَّ فتاةٍ لشابٍّ لأَمرٌ رائعٌ. ولَكن فليحبَّ أَحدُكم الآخر بقلبٍ نقيٍّ. إِنّ أَعظم هديّةٍ يستطيع شبّانٌ تقديمها، يومَ زفافهم، جسدٌ طاهرٌ وقلبٌ نقيٌّ. فلنَسأل السيِّدة العذراء أن تُبقي طهارتنا كاملةً. ستكون مريم، أَبدًا، أُمّنا، إِذا ما التفتنا إِليها، ولنتلُ المسبحة في كثيرٍ من الحبّ**". ثمّ أَردفت: "**لم يكن العالم، قطُّ، في حاجةٍ إِلى القداسة مثلما هو الآن. بَلَدكُمْ، فرنسا، قد أَنجب العديد من القدّيسين، وزوَّد العالَم بالعديد من المُرسلين، فحافظوا على هذه الهبة السنيّة... إِنّني مدينةٌ بالكثير إِلى الأُسَر الفرنسيّة التي وهبت بنيها لخدمة أَفقر الفقراء، وإِنّني لواثقةٌ من أَنَّ العديدين منكم، وقد جاؤوا هنا للصَّلاة هذا المساء، سيُنصتون إِلى نداء يسوع...**".

ومن أُورليان طارت إِلى هولندا للتَّحدُّث إِلى جماعةٍ من الراهبات، في ٢٤ تشرين الأَوّل، وقد استهلّت حديثها بالتضرُّع إِلى العذراء، سائلةً: "**هبينا قلبًا مثل قلبكِ، فائق الطهر والروعة، والتنزُّه من الدنس، مفعمًا حبًّا وتواضعًا، لكي نكون قادراتٍ على استقبال يسوع في خبز الحياة، ونحبّه، ونخدمه تحت أَعراض الفقراء المفجعة**".

في تلك الأَثناء، كانت المراكز التي أنشئت في مختلف أَرجاء المسكونة تترسَّخ

وتزدهر؛ فعلى سبيل المثال، مركز النيبال الذي أنشأته، عام ١٩٨٠، أَربع مرسلاتٍ باتَ يضمّ ستًّا منهنّ يتكلّمنَ لغة البلاد، وقد تطوّعت لمساعدتهنّ طبيبةُ أطفالٍ أَميركيّةٌ، وثُلّةٌ من المتعاونين يساعدنَهنَّ على العناية بالأَطفال الذين يتوافدون لتلقّي طعامٍ يوميٍّ قوامُه الذُّرة، والسوجا، والقمح، والحليب، وفي تعليم اليافعين مبادئ القرَاءة والكتابة والنظافة.

وظلَّ إنشاء المراكز الجديدة ماضيًا في تسارُعٍ واتّساعٍ.

وبدعوةٍ من رئيس أَساقفة "وارسو"، الكردينال "غلمپ" زارت الأُمّ تلك المدينة، حيثُ أَعدّت لإرسال أَربعٍ من أَخواتها أنشأن مركزًا هناك عام ١٩٨٤. ولا مراءَ أَنّ مساندة البابا يوحنّا بولس الثاني، الپولونيّ المولد، قد أَسهمت، بنجاعةٍ، في ترسيخ جذور مرسلات المحبَّة في تلك البلاد التي رفدت جمعيّة مرسلات المحبَّة بالعديد من الدعوات. وقد مهّدت تجربة المرسلات في پولونيا لانتشار وجودهنّ في العديد من الدول القابعة وراء الستار الحديديّ آنذاك.

وخلال عام ١٩٨٤، استُحدثت مراكز جديدةٌ في أَلمانيا الشرقيّة، وكندا، وسري لنكا، وفي نورستن بپنسيلڤينيا في الولايات المتّحدة، وأُنشئ مركزٌ خامسٌ في الحبشة، في مدينة "آلاماتا".

وفي شباط ١٩٨٥، قدّمت حكومة هونغ كونغ للأُمِّ تيريزا بيتًا عتيقًا كي تحوّله إلى مأوى للمسنّين؛ وفي سبيل تأثيثه تبرّع أَحد النوادي بأربعين أَلف دولارٍ، كما تبرّع فندق "مانداران" بثماني مئة غطاءٍ صوفيٍّ.

وفي ٣٠ و ٣١ أَيّار ١٩٨٥ ترأست الأُمُّ تيريزا، بدعوةٍ من رئيس الوزراء الفرنسيّ "لوران فابيوس"، لجنة الشرف لمؤتمرٍ حول حقوق الإنسان، وقد ركّزت حديثها على حقِّ الله الذي يسمو فوق كلّ حقٍّ، وعلى واجب البشر إزاءه.

وقد أَعلنت، بتلك المناسبة عن قرب افتتاح مركزٍ لمرسلات المحبّة في باريس. وفي هذا السبيل التمست من عمدة المدينة، جاك شيراك، إيجاد بيتٍ كفيلٍ بأَن يصبح لذلك المركز مقرًّا، فوعد ووفى. وفي الخامس عشر من حزيران، استقرَّت أَربع مرسلاتٍ في العاصمة الفرنسيّة، وفي السادس من تمّوز، استقبلنَ أُمَّهنَّ التي وافت لزيارتهنَّ. وكانت الأُمُّ مؤمنةً بضرورة وجود أكثر من مركزٍ للأخوات في البلد الواحد، ممّا يزيح عن صدورهنّ الشعور بالعزلة.

واهتبل الصحافيّ "كريستيان راڤـاز" مناسبة زيارة الأُمِّ للعاصمة الفرنسيّة، فدعاها إلى القناة الثانية في التيليفزيون الفرنسيّ، وعبّر عن اكتشافه لديها "**طفولة النفس وراء التجاعيد**". وَمَعَ أَنّها كانت "غائبةً" غيابًا تامًّا عن صخب الستوديو واهتماماته، كان حضورها مدهشًا؛ فمسبحتها لا تبارح يدها، وهي، حيثما مضت، تفضي بالرسالة التي تعتلج نارها في أغوار كيانها، داعيةً إلى الصلاة والحبّ، في تصميمٍ وعنادٍ يحرّرانها من وقر السنين المتراكم، وعبء التعب والإِرهاق.

وإِليكم بعض الأَسئلة التي طُرحَت عليها، أَثناء ذلك اللقاء، وأَجوبتها عليها:

س- "ما هي أَسباب الإِلحاد؟

ج- "سببا الإلحاد الرئيسان في العالم الغربيّ هما سوء فهم الحبّ، والافتقار إلى الصلاة والخشوع. القومُ، اليوم، شديدو الانشغال بمشاكل الحياة اليوميّة، ومن ثمّ لا يبالون بما هو جوهريٌّ، ويظنّون أَنَّهم يعيشون لأَنَّهم يفعلون الكثير، ولكنّهم ينأون عن الحياة الحقَّة، ولا يتَّسع وقتهم كي يحدّقوا في قلوبهم.

س- "أَتعتقدين أَنّ، ثمّة، انحطاطًا في القِيَم الأَخلاقيّة؟

ج- "إِنّ سبب معظم مآسي العالم هو الحطّ من الكرامة الإِنسانيّة، والافتقار إِلى الحبّ، وعدم احترام الحياة... الناس طموحون إِلى المال والسلطة، ولا يقفون أَيَّ قسطٍ من وقتهم على الصلاة. الله لا يتعيَّن علينا اكتشافه عقليًّا، بل علينا استقباله في قلبنا... الأَعمال الصالحة هي أَعمال الحبّ والسلام التي يوحيها الربّ.

س- "ما هي مكافأة أَخواتك الأَساسيّة؟

ج- "الجمع بين الأَغنياء والفقراء. من قبلُ كان القوم يتحدَّثون عن الفقراء، أَمّا اليوم فقد باتوا يتحدَّثون إِليهم... إِنّه، حقًّا، عملٌ يمجِّد الله أَن يقتسم الأَغنياء خيراتهم مع الفقراء والمتألِّمين. تحويل القلوب ينبغي أَن يتمَّ بالقدوة. يجب أَن نعطي شبيبتنا، من جديدٍ، مثال التجرُّد. إِنّهم يتدفّقون طاقةً خلاّقةً، وإِرادةً رائعةً للإِسهام في أَعمالٍ صالحةٍ باسم الله".

وفي تلك الحقبة، راحت الأُمُّ تُعِدُّ لانعقاد مجمع الجمعيَّة العامّ، وهو، في حياة الجمعيّة، حدَثٌ خطير الشأْن.

مجمع عام ١٩٨٥

في أَيلول ١٩٨٥ أَعلنت الأُمُّ: "سنعقد مجمع جمعيَّتنا العامَّ، الذي أَعددنا له إِعدادًا جيّدًا؛ وقد صلَّت جميع مراكزنا كثيرًا لهذا الغرض، وسيُستهلُّ المجمع برياضةٍ روحيَّةٍ مدى ثمانية أَيّام، وستُصلّي أَثناءَها المشتركات، من جديدٍ، بحرارةٍ. ومن المتوقَّع أَن يندرج المجلس في هدوءٍ، فنحن لا نواجه أَيّة صعوبةٍ. لقد صُدّقت قوانيننا منذ عشر سنواتٍ، ولا يتعيَّن علينا إِعادة النظر فيها؛ ولم تطلب منّا روما سوى تعديل بعض تفاصيلها لكي نجعلها أكثر تجاوبًا مع القانون الكنسيّ، إِنّها تعديلاتٌ طفيفةٌ. ولن يطول أَمَد انعقاد المجمع، وقد قدمت من مختلف أَرجاء العالَم الأَخوات اللواتي سيشتركنَ فيه. إِنّها لمتعةٌ رؤيتهنَّ وقد عدنَ إِلى المركز الأُمّ... عددهنّ سبعٌ وستّون يمثِّلنَ جميع القارّات، وسيكون من حقّ المدبِّرات الستّ والرئيسات القطريّات المشاركة. وقد أَوفدت كلُّ منطقةٍ قوامُها مئة أُختٍ أَو أكثر مندوبَتيْن، وكلُّ منطقةٍ تعدُّ أَقلَّ من مئة أُختٍ مندوبةً واحدةً".

أَمّا تعيين المندوبات فهو من حقِّ الأَخوات اللواتي أَبرزنَ نذورهنّ، في كلّ منطقةٍ؛ وقد تسنّى لأَصوات الأَخوات الشابّات اللواتي يطغى عددهنّ على القديمات، في هذا الإِجراء الديمقراطيّ، دورٌ غالبٌ مؤثِّرٌ.

وكانت تلك المناسبة سانحةً للأمِّ كي تستعرض قوّاتها، وتجدِّد اتّصالها بعناصرها، وتصغي إِلى تقارير أَخواتها عن تطوُّر عملهنَّ، وتشدَّ من عضدهنّ، وتشحذ عزائمهنَّ، قبل عودتهنَّ إِلى حقول عملهنَّ حيثُ ينشطنَ للحصاد في حقل الربّ، فيؤبنَ عائداتٍ إِلى مراكزهنّ بروحٍ مُتجدِّدٍ، وقوى أَشدّ حيويّةً، متأَهِّباتٍ لاستئناف عملهنَّ بمزيدٍ من الاندفاع، وبحبٍّ أَوفر نقاءً.

أَمّا التساؤُلات الرئيسة التي كان على المجتمعات الإِجابة عليها، فيمكن إِيجازها بالتالي:

– ما هو وضعنا الراهن؟ هل نحن وفيّاتٌ لقوانيننا؟ ما هي الصورة التي نعكسها عن ذواتنا؟ ما هي أَخطاؤنا؟ ما الذي يتوجَّب علينا إِصلاحه، أَو تعديله، أَو تغييره؟

وكان دور الأُمِّ المستقبليّ، داخل الجمعيّة، يواجه خيارَيْن: فإِمّا أَن يُعاد انتخابها

رئيسةً عامَّةً، فتواصل نشر جمعيَّتها في العالم، وفي آنٍ واحدٍ، تستمرّ في تلبية رغبة الأب الأقدس في التحدُّث إلى الأُمم نيابةً عنه، أو الاستقالة من منصبها، والتخلّي عن مهامّها الإداريَّة، فتؤمِّن، وهي حيَّةٌ، انتقالاً ليِّنًا منسجمًا، وتكتفي، في الجمعيّة، بدور المُرشد المُطاع، مسدِّدةً خُطى خليفتها، منصرفةً إلى تثقيف الأَخوات الروحيّ، غارسةً فيهنَّ تعليم الجمعيّة الأَصيل، وتقاليد المؤسَّسة التي أنشأتها؛ وربما هي كانت أَشدّ ميلاً إلى الخيار الثاني، فراحت تحثُّ أَخواتها: "**أَرجوكنّ، لا تنتخبنَني**"، مضيفةً: "**ينبغي أَلاَّ يؤثِّر أَحدٌ على خياركنّ، فاقترعنَ بهدي ضميركنّ**".

وذكَّر الكاهن الذي أَلقى مواعظ الخلوة الروحيّة بعهد الريادة وأَيّامه البطوليّة، التي أَعقبتها فترة استقرارٍ وانتشارٍ واسع الآفاق، ما يدعو إلى التطلُّع بثقةٍ، في روح إيمانٍ ووحدةٍ، إلى المستقبل الذي هيَّأه لهنَّ الربّ.

وأُعيد انتخاب الأُمّ بالإجماع، ولدى فرز أَوراق الاقتراع تبيَّن أَنَّ كلَّها تحمل اسم الأُمّ، عدا ورقةً واحدةً حملت اسم الأُخت "جوزيف ميكائيل"، وكان من الواضح أَنَّها ورقة الأُمّ؛ وتفاديًا لما قد تثيره إشاعة اختيار الأُمّ لخليفتها، أَغفل الكاهن قراءة تلك الورقة، واحتفظ بالأَمر سرًّا، مُؤْثِرًا ارتكاب مخالفةٍ تنظيميَّةٍ على استفزاز حساسيَّاتٍ لا طائلَ تحتها.

وبما أَنَّ القوانين لا تسمح بانتخاب رئيسةٍ عامّةٍ لأَكثر من دورتين متعاقبتين إلاّ بموافقةٍ خاصَّةٍ من روما، فقد قُدّم طلبٌ بهذا الاستثناء لصالح المؤسِّسة؛ وكان الفاتيكان يتوقَّع مثل هذا الطلب، فسارع إلى تأكيد موافقته، في غضون ثلاثة أَيّامٍ.

بيد أَنّ الإجماع على الاحتفاظ بالأُمِّ تيريزا على رأس جمعيَّتها لم يكن إجماعًا على مستشاراتها ومساعداتها المقرَّبات، لا بل إنَّ التصويت، في هذا الشأن، جاء بصدمةٍ للأمّ، وأَثبت أَنَّ الأَخوات قد بتنَ يتمتَّعنَ بالنضوج والاستقلال الفكريّ، إذ أَعربنَ عن احتجاجهنَّ على صرامة المجلس السابق، وإيثارهن الرقَّة واللين، بإقصائهنَّ عن المجلس اثنتَيْن من أكثر الأَخوات قربًا من الأُمِّ، وهما الأُخت "فريديريك" مستشارتها الأُولى، والمكلَّفة بالقيام مقامها، أثناء غيابها عن كلكتّا، والأُخت "جوزيف ميكائيل" مستشارتها الثانية التي كانت تشارك الأُمّ إدارة الجمعيَّة وتثقيف المبتدئات، والتي كانت الأُمُّ قد صوَّتت لها لتكون خليفتها. ولكنَّ الأُمَّ برهنت

عن تقديرها لمعاونتَيْها هاتين، فعيَّنت الأُخت "جوزيف ميكائيل" رئيسةً إِقليميّةً لكلّ أوروپا، والأُخت "فريديرك" رئيسةً إِقليميّةً لكلِّ أَميركا وانتُخبت الأخت "أَنييس" الرقيقة، ورفيقة الأُمِّ الأولى، مستشارةً أُولى لها، وقد اعتبرتها الأُمّ، دائمًا، "ذاتها الأُخرى". ولم يضمّ المجلس الجديد سوى أُختٍ واحدةٍ غير هنديّةٍ، هي الأُخت "أَندريا"، الأَلمانيَّة الجنسيّة.

غير أَنّ ما أَثلج صدر الأُمِّ، فوق كلّ شيءٍ، هو "**القرار الذي اتُّخذ بالإِجماع بمواصلة تكريس ساعةٍ تعبُّد يوميَّة للقربان الأَقدس، في جميع مراكزنا. فبفضل هذه العبادة قد فزنا بما فزنا به من نتائج طيِّبةٍ. إِنَّ ساعة اتّحادٍ مقدَّسٍ بالربّ أَمام القربان، كفيلةٌ بتوفير بركاتٍ عظمى لعملنا**".

الصلاة، الصلاة أَيضاً وأَبدًا، هي كلمة سرّ السنوات المجيدة.

مراكز ضحايا داء الإِيدز

لقد جئنا، آنفًا، على ذكر افتتاح أَوّل مركزٍ لاستقبال ضحايا الإِيدز في نيويورك، عشيّة عيد ميلاد ١٩٨٥. ولا جَرَم أَنَّ دوافع عديدةً قد حدت بالأُمِّ تيريزا إِلى العناية بتلك الفئة السحيقة البؤس؛ فمن مهمّات دعوتها الجوهريّة المبادرة إِلى غوث الأَكثر معاناةً. ومَنْ كان أَقسى معاناةً من أُولئك المساكين الذين لفظهم الجميع، بل أَنِفوا الدنوَّ منهم، ولا سيّمَا في تلك الحقبة من الثمانينات، عندما كان شائعًا أَنّ أيّ اتّصالٍ بهم، أَو حتّى مجرَّد لمسهم، كفيلان بنقل عدواهم المرعبة، بحيثُ كان حتَّى حرّاس السجون يأبون خدمة السجناء المبتلين بذلك الداء، ورفاق سجنهم يهدّدونهم بالقتل تحسُّبًا من عدواهم.

وفي تضاعيف ذلك الواقع المأساويّ، استشفَّت الأُمّ دافعًا آخر يحدوها إِلى غوثهم، فهي وأَخواتها قد تعهَّدنَ بالاضطلاع بالمهمّات المغرقة في الوضاعة التي يترفَّع عنها الآخرون، وبالمضيِّ إِلى حيثُ الحاجة هي الأَشدُّ لجاجةً. ومَن، أكثر من أُولئك الذين تنكَّر لهم حتّى ذووهم، وفقدوا كلَّ أَملٍ في الحياة، كان في حاجةٍ إِلى مأوًى يتأَهَّبون فيه للعودة إِلى أَحضان الربِّ في فرحٍ وسلامٍ؟ أَولَم تكن، بفعلها ذاك، إِنَّما تكرِّر ما باشرت به رسالتها في كلكتّا، حيثُ كانت أَوَّل من انعطف على المدنفين المرميّين على الأَرصفة الذين لفظهم مجتمعهم وعلى البُرْص الذين نبذهم حتّى ذووهم؟

وقد برهنت الأمُّ وأَخواتها أَنَّ المحبَّة هي أَنفذ عدوى من الإِيدز، إِذ هرع العديد من المتطوِّعين والمتطوِّعات لمدِّ يدِ العَوْن لأُولئك البؤساء، وأَثبتْنَ، أَيضاً، أَنّ تقواهنّ العميقة الحارَّة، وتجرُّدهنَّ البطوليّ، ينهضان عامل فداءٍ كفيلاً بإِعادة الكثيرين من نُزَلاء المركز إِلى حظيرة الربّ.

إِنَّ الداخل إِلى مركز مرضى الإِيدز، في نيويورك، يلاحظ، على يمينه، مُصلًّى صغيرًا، ومصباحًا مضاءً أَمام القربان المقدَّس، وعلى الجدار صليبًا كتبت إِلى جانبه صرخة المصلوب: "**أَنا عطشان**". وإِلى جانب الصليب ينتصب لوحٌ أَسودٌ دوَّنت عليه الأُمُّ بيدها صلاة "السلام عليك يا مريم" وأَبرزت بحروفٍ جسيمةٍ عبارتها الأخيرة: "الآن وفي ساعة موتنا".

ويتأَلّف البناء من أَربع طبقاتٍ، أُطلق على كلٍّ منها اسمٌ رمز، فعُرّف الأَوّل باسم يسوع الملك، والثاني باسم القدّيس يوسف، والثالث باسمِ قلب مريم الطاهر، والرابع باسم قلب يسوع الأَقدس. وقد ضمَّت كلُّ غرفةٍ سريرين، ورفًّا عليه نسختان من الكتاب المقدّس، إِحداهما بالإِنكليزيّة، والأُخرى بالإِسپانيّة، وعلى لوحةٍ مثبتةٍ على الجدار، هذا النصّ الذي وضعته الأُمُّ تيريزا، وهو بمثابة نشيدٍ للحياة:

« الحياة فرصةٌ، فاغتنمْها،
الحياة جمالٌ، فاعجبْ به،
الحياة نعيمٌ، فتذوَّقه،
الحياة حلمٌ، فاجعل منه واقعًا،
الحياة تحدٍّ، فجابهه،
الحياة واجبٌ، فتمِّمْه،
الحياة لعبةٌ، فالعبْها،
الحياة ثمينةٌ، فدارِها،
الحياة ثروةٌ، فاحفظها،
الحياة حبٌّ، فتمتّع به،
الحياة سرٌّ، فاهتك حجبه،
الحياة وعدٌ، فأوفِ به،

الحياة حزنٌ، فتغلَّب عليه،
الحياة نشيدٌ، فأَنشده،
الحياة جهادٌ، فأَقدم عليه،
الحياة مأساةٌ، فواجهها بكلّ طاقاتك،
الحياة مغامرةٌ فاقتحمْها،
الحياة سعادةٌ، فاستحقَّها،
الحياة هي الحياة، فدافع عنها ».

الأَمنيَّة الكبرى التي راودت الأُمَّ، لدى افتتاحها ذلك المركز، كانت رؤية نزلائه يثوبون إِلى الله، ويكتشفون الحبَّ الحقَّ؛ وقد تحقَّقت أُمنيّتها تلك إِلى أَقصى مدًى. فقد كان يسوع يعيش حقًّا في ذلك البيت، حيث كانت تتحقَّق المعجزات، كلما عاد أَحدهم إِلى الآب، عودةَ الابن الشاطر. يسوع كان على مقربةٍ منهم، فيما بينهم، تحت أَبصارهم، متواريًا في بيت قربانه الصغير، أَو معتلنًا في محبّة الأَخوات، وعطفهنَّ، ورقَّتهنَّ، ومجابهتهنَّ أَعتى المخاطر، بدافع المحبَّة.

ذلك المنزل، منزل العطف، ربّما كان الأَوَّل من نوعه حيث يشعر أُولئك الذين نبذهم الجميع أَنَّهم محبوبون حقًّا، وأَنهّم "أَحدٌ" في نظر الآخرين. وقد حوَّل ذلك حياتَهم جذريًّا، بحيثُ، عندما كان يحين أَجَل أَحدهم، كان يموت ميتةً رائعةً، متحرِّرًا من رهبة الموت، متطلِّعًا إِلى السلام في أَحضان الله.

أَوَّل النزلاء، وكان من عتاة المقاتلين في الڤيتنام، وافى المركز متوسِّلاً: "علِّمنَني الصلاة"؛ وكان من عمق التأَثُّر بسلوك المرسلات، بحيث غدا يرتدي ثوبًا أَبيض، ويطوِّق عنقه بالمسبحة. ولما انطفأَ، بسكون، وهو في الثامنة والثلاثين من العمر، أَعاد لخالقه نفسًا مُطهَّرةً.

نزيلٌ آخر، واسمه "توم"، صرَّح لأَحد الصحافيّين، بضعةَ أَيّامٍ قبل قضائه نحبه الذي كان يستشعره وشيكًا: "لستُ أَظنُّ أَنَني كنت سأَلتقي الله لولا هذه التجربة الموجعة. ثَمَّة آخرون يفتقرون إِلى الفرح الذي نلتُه، والذي اقتضى منّي سنواتٍ من الأَلم قبل أَن أَعثر عليه. أَمّا الآن، فحسبي أَن أَجثو على ركبتي وأُصلّي كي أَشعر بحياةٍ جديدةٍ تنبعث من أَحشائي؛ إِنّه لأَروع شعورٍ في العالم، وكم أَودُّ أَن أَجهر به فوق الأَسطحة!"

أَمَّا لرفاق محنته، فكان "توم" لايني يردِّد: "لقد حان الأَوان لكي تردّوا لله شيئًا، على الأَقلّ الصلاة. لا تقنطوا، بل تحدَّثوا إِلى المسيح المقيم فيكم، فهو المخرج الوحيد، كلُّ معجزةٍ ستأتيكم منه. إِنّكم ستقوَوْن على احتمال أَلمكم، إِن شاركتم المسيح فيه، فقد شهدتُ موت الكثيرين من قبلي، كانوا، في لحظاتهم الأَخيرة، ينادون يسوع قائلين "ارحمني، يا الله"، وكان الربّ يهبهم، أَخيرًا، السلام".

وكان قبوله الأَلم برضًى، واستغراقه في الصلاة، وما يشهده من وَرَع الأَخوات قد حَدَتْ، جميعُها، بتوم إِلى التماس العماد، وإِلى الموت موت القدّيسين. وكانت قد تسنَّت له فرصةُ مقابلة الأُمِّ تيريزا، أَثناء إِحدى زياراتها للمركز فاعترف: "عندما هي تحدِّثك، تهزّك عاصفةٌ داخليَّةٌ رقيقةٌ. إِنّها تتلفَّظ بعباراتٍ بسيطةٍ، تتقلب في ذهنك حقائق صاعقةً".

وتروي الأُمُّ بعض ذكرياتها عن ذلك المركز فتقول: "**في نيويورك افتتحنا مركزًا لمرضى الإيدز. وقد شرعنا بإِقامة خمسة عشر سريرًا، سُرعان ما شُغِلت كلّها؛ وكان أَوّل ضيوف المركز أَربعة شبّانٍ فرّوا من السجن، لأَنّهم رفضوا الموت فيه. وقد أَقمتُ في المركز مصلًّى صغيرًا، عسى أَن يقترب من يسوع شبّانٌ يجهلونه، أَو هم ابتعدوا عنه، إِن كان لهم في ذلك رغبةٌ؛ وشيئًا فشيئًا، انفتحت قلوبهم، بفضل الله؛ وإِبّان آخر زيارةٍ لي إِلى ذلك المركز كانت حالة أَحد الشبّان تستدعي نقله إِلى المستشفى، ولكنّه، قبل أَن يمثل إِليه، قال لي:**

"**أَيَّتها الأُمُّ تيريزا، أَعدُّك صديقةً لي، وأَودُّ أَن أَتحدَّث إِليك...**".

وكان قد انقضى على آخر اعترافٍ ومناولةٍ له عشرون سنة. وهذا ما أَفضى به إِلى الأُمّ:

"**عندما يشتدّ بي الصداع (والصداع من أَعراض داء الإيدز)، أُفكِّر بيسوع وهو مكلَّلٌ بالشوك؛ وعندما يؤلمني ظهري أُفكِّر فيه وهو يُجلَد، وعندما تؤلمني يداي ورجلاي، أَذكر مسامير صلبه**".

ثمّ أَردف:

"**عِقْبَ تَلَقِّي العلاج في المشفى أَعيدوني إِلى هذا المنزل، فأنا راغبٌ في الموت فيما بينكم وبحضورك**ِ".

وتتابع الأُمُّ روايتها فتقول:

"**وأَذِنَ الطبيب بإِعادته، وقد رافقتُه إِلى المُصلّى، وشهدتُه يدعو المصلوب في حرارةٍ أَثَّرت فيَّ أَبلغ أَثَرٍ. وقد تولَّد لَدَيَّ انطباعٌ بأَنّ حوارًا مفعمًا حنانًا كان ينساب بين الربّ وبينه. وقد فارق الحياة بعد ثلاثة أَيّامٍ، وفي تلك الأَثناء كان قد تحوّل تحوُّلاً مدهشًا.**

"**لم أَسمع، قطُّ، أَحدًا، يتحدَّث إِلى الله على هذا النحو، فحبُّه كان مفعمًا تفهُّمًا. لقد كان يفهم يسوع. قد يتعذَّر إِدراك كيف استطاع ذلك الرجل، فجأةً، أَن يؤنس هذا الحبَّ المُغرق في الرقَّة. لقد أَدرك، بغتةً، الله نفسه**". ثمَّ أَضافت الأُمّ، في احترامٍ وتواضعٍ جمَّين: "**وأَنا أَيضاً**".

وجديرٌ بالتذكير أَنَّ فكرة إِنشاء ذلك المركز ما كادت تنضج في ذهن الأُمّ تيريزا حتّى هرعت إِلى عمدة نيويورك، فبسطتها بين يديه، طالبةً منه مكانًا حريًّا بأَن يصبح موئلاً لضحايا الإِيدز المنبوذين. ولم يتردَّد العمدة لحظةً، بل منحها، في الحال، مكانًا لهذا الغرض. وبعد أَيّامٍ معدوداتٍ، كان النزلاء الثلاثةُ الأَوائل قد وجدوا فيه ملجأً آمنًا. وارتفعت أَصوات بعض الصحافيّين بالاحتجاج، ولكنَّ العمدة ردَّ عليهم قائلاً: "**كيف يمكن رفض طلبٍ كهذا لقدّيسةٍ؟ الأُمّ تيريزا هي قدّيسةٌ حيَّةٌ، وربّما هي القدّيسة الوحيدة في أَيّامنا هذه**".

ثمّ، في الثامن من تشرين الثاني ١٩٨٦، افتتحت الأُمُّ مركزًا آخر لضحايا الإِيدز في واشنطن، العاصمة الأَميركيّة، نزولاً عند رغبة الرئيس ريغان، وأَسمته "عطيّة السلام". وأَثناء القدّاس الذي أُقيم بتلك المناسبة تحدَّثت ببلاغةٍ عن "مشاركة فرح الحبّ".

وبعدئذٍ، افتتحت مراكز أُخرى، لنفس الغرض، في مختلف الأَماكن، وفي تيَّارها اندفع الإِخوة مرسلو المحبّة، وحذت حذوَهم جماعاتٌ كثيرةٌ، من طوائف مختلفةٍ، وأَثبتت المحبَّة المسيحيَّة، في تصدّيها لذلك التحدّي الكبير، طاقاتها الرائعة، وآتت ثمارًا يانعةً.

١٩٨٦

واستمرَّت المسيرة حثيثة الخُطى، وإِلى جانب تأسيس مراكز جديدةٍ في شتّى بقاع العالَم، تواترت الدعوات إِلى الأُمّ تيريزا، كي تتحدَّث في مختلف الأَماكن

والمناسبات، وإِلى جماهير من مختلف المشارب والأَعمار، فظلّــت، مــع عُمرهــا ووَهنها، لا يفتر لها نشاطٌ، ولا تهمد لها حركةٌ.

ومن المراكز الجديدة التي تأسَّست، في تلك السنة، أَوّل مركزٍ في دمشق، فــي حيّ باب شرقي، حيث عكفت المرسلات على العناية بعشرات المــسنّين والمــسنّات المُهمَلين الذين لا سندَ هم ولا معيل. وقد تسنّى للدِّمشقيّين أَن يروا فيهنَّ نموذجًا فــذًّا للعطاء المجّانيّ السخيّ، والتضحية السمحاء، والتجرُّد المطلق. ثمَّ انطلقنَ إِلى أَماكن أُخرى من سوريا فأسَّسن مركزًا في مدينة حلب، وآخر بدير الزور، ثمّ مركزًا ثانيًــا في دمشق، بمنطقة الدويلعة.

إِنهنّ، حقًّا، شعاع نورٍ سماويٍّ متأَلِّقٍ في ليلٍ داجٍ من الأَثَرة والمادِّيَّة المهيمنتَيْن، وومضة أَمَل منعشةٌ في عالمٍ فقد روحه.

فأَلف تحيَّة شكرٍ ومحبَّةٍ لَكنَّ، يا بنات الأُمّ تيريزا، اللــواتي هجــرنَ مــواطنهنَّ وأُسَرهنّ كي يخدمنَ أَبناء وطني المُهمَلين، الوحيدين، المحطَّمين، ويعشنَ التطويبات، في الواقع اليوميِّ الموجع، على أَرض بلادي، قدوةً سنيّةً لكلّ مؤمنٍ بالله وبالإِنسان.

وفي ١٤ تمّوز ١٩٨٦، افتتحت المرسلات مركزًا في أَثينا، في بيتٍ سرعان ما اتَّضح ضيقُه وضرورةُ استبداله بآخر أَوسع لاستيعاب جموع المحتاجين.

وفي ٢١ تمّوز، دُعيت الأُمُّ للتَّحدُّث عن الفقر في مــزار "بــــاري ليمونيــال" الفرنسيّ، فميّزت بين الفقر المُذلّ المفروض على فئاتٍ عريضةٍ مــن المظلــومين، والفقر الطوعيّ كذاك الذي اختارته وتبنَّته المرسلات، وهو مصدر حرّيّةٍ وقداســة؛ وقد روت قصَّة رجلٍ هوى إِلى الفقر بعد غنًى، فلجأ إِلى أَحد مراكز المرسلات، إِلاَّ أَنّه أَعلن عن عدم قدرته على تناول طعام الفقراء، فردَّت عليه الأُمّ برِقَّة: "**ولكنّنــي، أَنا، أَتناوله**". فأَطرق، ثمّ قال: "**إِن كنت تتناولينه حقًّا، فسأَتناوله أَنا أَيضاً**". وتعلّــق الأُمُّ على ذلك بقولها: "**لقد كان جريحًا في داخله، وقد عملتُ على لأم هذا الجرح**".

وممّا صرَّحت به، في تلك المناسبة: "**إِنَّ فرنسا بلدٌ غنيّ نسبيًّا، ولكنَّ فيه الكثير من الفقراء... أَنا لستُ أَملك إِعطاءَكم ذهبًا ولا فضّةً، ولكنَّني أقدّم لكــم أَخــواتي، فاسعوا معهنّ كي ينال كلُّ إِنسانٍ قسطه من الحبّ والرعاية... إِنّنا نــساعد أُلــوف**

الأُلوف من البشر، ويتسنّى لنا دائمًا اقتسام كسرة خبزٍ أَو طبق طعامٍ مع جائعٍ... أَنتم، أَيضاً، عليكم أَن تعملوا لكسب عيش أُسرتكم. ولكن فلتكن لديكم الجرأة على مشاركة من لا يملك، فتنفحونه، ولو مجرَّد بسمةٍ أَو كأس ماءٍ، أَو تدعونه إِلى الجلوس لتبادل بضع كلماتٍ معه، أو تكتبون رسالةً نيابةً عن مريضٍ في مستشفًى... كلّما قلَّ مالُنا ازداد عطاؤنا".

ثمَّ قامت الأُمُّ بجولةٍ في الشرْق الأَوسط تفقّدت، أَثناءَها مراكز جمعيّتها في اليمن، وفلسطين، والأُردنّ.

وفي نهاية شهر تمّوز، افتتحت مرسلات المحبَّة مركزًا جديدًا في إِسپانيا يتَّسع لثمانين نزيلاً. وكان يوم السادس عشر من آب يوم حدادٍ للجمعيّة، بسبب غرق مرسلتَيْن في محلّة "ديهرادون" التي تبعد نحو مئتي كيلومترٍ عن دلهي، من جرّاء إِطاحة طوفان بالجسر الذي كانت تمرُّ فوقه سيّارة الإِسعاف التي كانتا تستقلاّنها؛ وقد غصَّت الكنيسة التي أُقيمت لهما فيها صلاة الجنازة بهندوسيّين ومسلمين توافدوا للتّعبير عن عرفانهم بالجميل للرّاهبتَيْن اللتيْن أَغدقتا على شعبهم الحبَّ والرعاية.

وفي الرابع عشر من أيلول عادت الأُمُّ إِلى باريس، حيثُ تحدّثت إِلى خمسة آلاف شخصٍ، في إِطار مؤتمر الأُسرة الدوليّ التاسع، وممّا أَدلت به، في تلك المناسبة: "**إِنَّ العذراء الفائقة الطهر ما كادت تتسلّم يسوع حتّى سارعت إِلى إِعطائه الآخرين، وسارعت، أَيضاً، إِلى النهوض بعمل خادمةٍ متواضعةٍ في منزل نسيبتها أَليصابات. وحدَث، حينئذٍ، أَمرٌ غريبٌ. فقد طفر فَرَحًا طفلٌ لم يولد بعد. أَوَلَيس غريبًا أَن يستخدم الله طفلاً للإِعلان عن مجيء المسيح؟ نحن نعلم أَنَّ هذا الطفل قد بات، اليومَ، هو الدريئة للقضاء على صورة الله وحضوره. فأَنتم وأَنا قد أَبدعتنا يدُ الله عينها، لكي نُحِبّ ونُحَبّ... وإِذ نحن ملتئمون هنا، فلنشكرنَّ، لحظةً، ذوينا الذين رغبوا فينا، ووهبونا هذه الهبة الرائعة، هبة الحياة...**

"إِنّنا نجتاز أَوقاتًا عصيبةً، فكم من الأُسَر المحطَّمة والتعيسة، لأَنّ أَفراد الأُسرة ما عادوا يُصلّون معًا، ولا يقتسمون، ولا يشجّع أَحدهم الآخر!

"غالبًا ما أَقول للشبّان: إِنَّ الحبّ بين شابٍّ وفتاةٍ لأَمرٌ رائعٌ. ولكن تأَكّدوا من أَن تتحابّوا بقلبٍ طاهرٍ وجسدٍ نقيٍّ. وما أَجمل هذا الحبّ! ولكن إِن أَنتم فقدتم الطهر

والعفّة والبكارة، شرع الشرُّ يتغلغل إِلى حياتكم. علِّموا أَولادكم أَن يحبَّ بعضكم بعضًا، ويتبادلوا الاحترام. ففي معظم مدارس اليوم لم تَعُدْ تُلقَّن هذه الأمور. أنتم وحدكم قادرون على ذلك، وبمكنتكم تعليم أبنائكم المشاركة".

وقد اغتنمت الأُمُّ تلك المناسبة للتَّحدُّث مُطوَّلاً مع عمدة باريس، آنذاك، السيّد جاك شيراك، وأَفضت إِليه برغبتها في افتتاح مركزٍ لمساعدة البغايا اللواتي بتنَ ضحايا تجارةٍ واسعةٍ بشعةٍ. وقد اعترف شيراك بتأثّره البالغ من طيبة الأُمّ تيريزا، وبساطتها، وبذل ذاتها المطلق.

ويوم الإِثنين، في ٢٧ تشرين الأوّل، كانت الأمُّ في أسّيزي، بدعوةٍ من البابا يوحنّا بولس الثاني، إِلى جانب زعماء روحيّين لمختلف أَديان العالم، وممثّلي شتّى الأمم واللغات والثقافات، وقد التأَموا كي يرفعوا، معًا، إِلى العليّ، صلاةً مشتركة من أَجلِ إِحلال السلام الذي أَخفقت في إِحلاله الجهود المؤتلفة لسياسيّين ورجال دولةٍ، وأَقطاب فكرٍ.

وأَيُّ مكانٍ كان أَحقَّ بذلك اللقاء من مسقط رأس "الفقير الصغير" ومربع حياة بطل التجرُّد والسلام والحبِّ الشامل: "فرنسيس الأَسّيزي"؟ وأَيُّ وجهٍ كان أَجدر بالمشاركة في ذلك المسعى من صانعة السلام، التي تكرِّر، بحرارةٍ وصدقٍ، كلَّ يومٍ، مع أَخواتها ومتعاونيها، صلاة السلام المنسوبة إِلى فرنسيس الأَسّيزي، وتحمل المحافل الدوليَّة على تلاوتها كلما تسنَّت لها، في سبيل ذلك، فرصةٌ، والتي آمنت، بعمقٍ، أَنّ أَعمال عطفها إِنّما هي أَعمال سلامٍ؟

لقد شخصت الأُمّ تيريزا إِلى أَسّيزي للصَّلاة من أَجل السلام الذي كان يُغتال، كلَّ ساعةٍ، في لبنان، والعراق، وإِيران، ونيكاراغوا، وأَفغانستان، وأَنغولا، وسريلنكا، وفي مختلف أَرجاء المسكونة.

وكان لقاء أَسّيزي الذي ضمَّ أَصحاب نوايا طيِّبة في القارّات الخمس، وممثِّلين عن مختلف الأَديان والمذاهب، يوم صلاةٍ، وصومٍ، وتوبةٍ، وبرهانًا على أَنّ الله لم يمُتَّ، وصفعةً للرَّاغبين في رؤية شعلة الدين تخبو وتنطفئ.

وكان السلام يعني للمجتمعين التعايش والصداقة، والمشاركة في جميع هبات الله، واحترام كلّ إِنسانٍ، أَيّةً كانت جنسيّته، ووضعه الاجتماعيّ، ومعتقداته، ولغته.

وبعد أَن أُطفئت أَضواء آلات التصوير، وصمتت الإِذاعات، وتفرَّق القوم،

اختلت الأُمّ وأَخواتها للتّأمُّل في الدعوة السامية الأَصيلة الفذَّة، التي انطلقت من أَسِّيزي، وتجسَّدت في فرنسيسها، الذي اعتنق الفقر طوعًا في سبيل إِصلاح كنيسةٍ تصدَّعت بعض جدرانها لعدم اتّكائها على أُسُس الإِنجيل الصلبة.

أَوَلم تكن الدعوة التي استحوذت على الأُمّ تيريزا، وهي في طريقها إِلى دارجيلنغ، في منتصف هذا القرن تحاكي تلك التي هزّت كيان فرنسيس في كنيسة القدّيس داميانوس، لنحو ثمانية قرونٍ خلت؟ أَولَيست حياة الفقر والخدمة التي تعيشها مرسلات المحبّة اليوم، هي مثال الحياة التي تخيَّلها ودعا إِليها، وعاشها الأَسّيزي؟

وفي ٨ كانون الأَوَّل، عيد سيّدة الحبل بلا دنسٍ، أَبرزت خمسون مرسلةً نذورهنَّ في كلكتّا. وفي ذلك اليوم عينه افتُتحتْ عدّة مشاغل، في مركز "جولا" للبُرْص، منها مشغل أحذيةٍ طبّيَّةٍ، ومشغل أَلبسةٍ مجهَّزٌ بستّ آلات خياطةٍ جديدةٍ، كما فُتحت مدرسةٌ جديدةٌ عوضًا عن تلك التي أَطاحت الأَمطار الموسميّة بسقفها.

أَمّا الحَدَث الأَبرز، في عام ١٩٨٦، فكان افتتاح مركزٍ في كوبا.

كوبا

أَحاطت الأُمُّ، يومًا، مرشدَها الروحيَّ، في اندفاعٍ حارٍّ، علمًا بأَنَّها التقت الرجلَ الجسيم الملتحي، "فيدل كاسترو". ومنذ ذلك اليوم، لمَ ينفكّ يراودها حلمُ افتتاح مركزٍ لجمعيَّتها في جزيرة كوبا الجميلة، التي تسودها الفوضى، حيثُ الكاثوليك مضطهدون، ومدارسهم مغلقةٌ، وكهنتهم وراهباتهم مُعتَقَلون، أَو هم قد طُردوا خارج البلاد، وحيثُ الوظائف حِكْرٌ على أَعضاء الحزب الشيوعيّ دون سواهم.

كان الإِيمان، في كوبا، يتعرَّض لخنقٍ بطيءٍ منتظم، وكانت الأُمُّ تيريزا توّاقةً إِلى النفخ في جذوة ذلك الإِيمان، وإِضرامه، من جديدٍ، في صدور الشعب المغلوب على أَمره، المحروم من نور المسيح وحبّه. ولكنّها، طيلة سنواتٍ، لم تجد إِلى تحقيق ذلك الهدف سبيلاً.

ومع كرّ السنين، اكتسب كاسترو اتِّزانًا وتبصُّرًا، وتبيَّن أَنَّ شيوعيّته لم تأْتِ الشعب الكوبيّ بالسعادة التي كان يصبو إِليها. وأَبى، هو نفسه أَن يصفه التاريخ بجلاَّد الدين المسيحيّ. وفي عام ١٩٨٥، أَفضى بسلسلة أَحاديث إِلى كاهنٍ دومينيكيٍّ

من "ساو پـاولو" جُمعتْ في كتابٍ أَصاب انتشارًا واسعًا. وفي تضاعيف تلك الأَحاديث اعترف كاسترو بحنينه إِلى طفولته التي درجت في جوٍّ مسيحيٍّ مؤمنٍ، وإِلى سني دراسته التي تابعها في مدرسةٍ كاثوليكيّةٍ؛ ولكنّه، لاحقًا، قاوم الكنيسة التي اتّهمها بالتواطؤ مع الرأسماليّة، وبمعاداة الثورة، فأمّم مدارسها ومؤسَّساتها، وطرد، أَو سجن، أَساقفتها وكهنتها، بحيثُ لم يبقَ منهم سوى نحو مئتين يرعون أكثر من عشرة ملايين مؤمنٍ.

ولكنّه، بعد أن أَوغل في العمر، وخُيِّل إِليه أَنّه حطَّم حَقْوَي الكنيسة، وبات لا يتوجَّس أَيَّة خشيةٍ من الكاثوليكيّين، بعد ما سامهم من خسْفٍ وتنكيلٍ، بحيثُ ما عاد لهم نفوذٌ يُخيف، ولا صوتٌ يدوّي، وكأَنَّهم قد ارتدّوا إِلى عهد الدياميس، حينئذٍ، لم يجد غضاضةً من التساهل بالسماح لراهبةٍ هزيلةٍ بافتتاح مركزٍ لمرسلاتها في بلده.

وكانت الأُمُّ تَتَطَلَّع إِلى تلك السانحة بتوقٍ عارمٍ، لأَنّها كانت ترى في الشعب الكوبيِّ قطيعًا تائهًا لا راعي له. إِلاَّ أَن كاسترو حذَّرها قائلاً:

– "أُمّاه، إِن كنت راغبةً في افتتاح مركزٍ في كوبا، فأَهلاً بك. ولكن عليَّ إِنذارك بأَنّ ما من فقراء في كوبا، فالجميع يفوزون بما يحتاجون إِليه.

– **"ولكن لا ريب أَنّ هناك قومًا تُعَساء يفتقرون إِلى مواساةٍ، وصداقةٍ واهتمامٍ. وسيكون عملنا مختلفًا بعض الشيء، عمّا هو في أَماكن أُخرى، ليس إِلاّ"**.

كانت الأُمُّ تَتَطَلَّع إِلى رسالةٍ روحيّةٍ في كوبا، قائمةٍ على تعزية الحزانى، والتحدُّث عن الله إِلى الباحثين عنه، ومعاضدتهم، وتنويرهم، وتزويدهم بالأَمل الذي أَخفقت الأيديولوجيّة الشيوعيّة في توفيره لهم. وكانت تعي أَنَّ مهمّةً جسيمةً كهذه تستلزم أَخواتٍ مؤهَّلات يتقنَّ اللغة الإِسپانيّة، ويؤثّرنَ، بحضورهنّ الكثيف الفاعل، وبشهادتهنَّ للمحبَّة المسيحيَّة الأَصيلة، وبحَدبهنَّ على جميع المتأَلّمين، والذين يعانون النبذ والهجران، على نقيض سيطرة پروليتاريا مبهمةٍ تجهل أَيّ اهتمامٍ بالفرد.

في ختام لقائهما طلبت الأمُّ بإِلحاحٍ: صلِّ لأَجلي، وأَنا سأُصلّي لأَجلك"، فأجاب: "سأُصلّي لكي تفتتح الأُمُّ تيريزا مركزًا في بلادي".

وراحت الأُمُّ تتخيّل، مأخوذةً، كاسترو راكعًا يخاطب الربّ!...

رغم الهوَّة السحيقة التي كانت تفصل بينهما عقائديًّا، كانت تجمع بينهما وجوه شبهٍ متعدِّدةٌ. فكلاهما عُمِّد عمادةً مسيحيّةً، وكلاهما يقطنهما همٌّ إسعاد الفقراء، وكلاهما اجتاز أَشواطاً شاسعةً وراء مثاله المتمثِّل في خدمة المحرومين، هي متلفِّعةً بالساري الوضيع ومنتعلةً خفًّا، وهو في زيّه القتاليّ، ومداسه الثقيل.

وأَخيرًا انقلب الحلم واقعًا، وافتُتح مركزٌ لمرسلات المحبّة، في كوبا، يوم ذكرى تأسيس جمعيتهنَّ، في السابع من تشرين الأَوّل ١٩٨٦. وقد رأى أساقفة البلاد وكهنتها، في ذلك الحدَث نافذةً تُشرَع على حقبةٍ قشيبةٍ في العلاقات بين الدولة والكنيسة، حقبة تسامحٍ يحلُّ فيها الاحترام والتعاون محلَّ الصدام والاضطهاد والريبة.

وعادت الأُمُّ تحلم في التمهيد لزيارة راعي النفوس، الحبر الأَعظم، إِلى كوبا، علَّه يبلِّغ ذلك الشعب المحروم رسالة السلام والمحبّة والعدل، وحرّيّة الضمير. ولطالما صلّت إِلى أَن تحقَّق حلمها أَخيرًا. ولئن كان الأَب الأَقدس هو الذي مهَّد لها الدرب إلى پولونيا، فهي كانت الرائدة في كوبا، ومهَّدتْ له درب زيارتها.

"إِنّني أَحمل يسوع حيثُما ذهبت"

في ١٧ كانون الثاني ١٩٨٧، افتتحت مرسلات المحبَّة في "پورت أوپرانس" بهاييتي مركزًا جديدًا قوامه ثماني أَخواتٍ كنَّ يضطلعنَ بأَعباء تنوءُ بها العشرات. فقد كنَّ يُشرفنَ على مركزٍ لأَطفالٍ وأَحداثٍ مصابين بسوء التغذية، وعلى مدرستَيْن، وثلاثة مستوصفاتٍ، ويوزِّعنَ ما يتلقَّينَ من مساعداتٍ وتبرُّعاتٍ على زهاء خمس مئة أُسرةٍ. رئيسة ذلك المركز، الأُخت "سوزانا"، المشبعة بروح الأُمِّ تيريزا، صرّحت: "**لستُ أَدري لمَ اختارني الربّ، بل كلّ ما أَعلم، أَنّه، وقد اختارني، ينبغي أَن يهبني نعمته. إِنّني أَعيش، يومًا فيومًا، متوقِّعةً كَلَّ شيءٍ منه ومن حبّه**".

وفي شباط، اصطحبت الأُمُّ أُختَيْن طبيبتَيْن، وشخصت معهما لزيارة مركز المرسلات في "جولا"، بمنطقة أوريسّا، حيث كنَّ قد أَنشأنَ عدّة مصانع ومشاغل متعدِّدةٍ، وقد أُعجبت بما تحقَّق من إِنجازاتٍ، ولا سيّمَا أَنَّ الأَخوات، ورغم الجفاف السائد، كنَّ قد أَفلحنَ، بفضل أقنية الريّ التي حفرنَها، في الاستمرار في زراعة الخضراوات لإِطعام نزلائهن والمحتاجين.

وفي شهر أَيّار، ما كادت الأُمُّ تفرغ من ترؤّس الاحتفال بإِبراز اثنتَيْن وسبعين مرسلةً نذورهنّ المؤَبدّة في كلكتّا، حتّى طارت إِلى روما. إِنّها في حركةٍ دائمةٍ لا تهدأ ولا تفتر.

أمّا الحدث الأَبرز، في عام ١٩٨٧، فكان زيارة الأُمّ إِلى الاتِّحاد السوفيتيّ الذي مهَّد لاقتحام مرسلات المحبّة معقل الشيوعيّة. وكانت الأُمّ تولي أَهمِّيَّةً خاصَّةً لعمل أَخواتها الذي ينشر حبَّ الله الفاعل حيثُ الحكّام يُنكرون على الله وجوده، كي تثبت، مع أَخواتها، أَنَّ الدين ليس أَفيونًا للشعوب، كما زعم ماركس، بل هو، للمتأَلِّمين على هذه الأَرض، بلسم عزاء، ومعين قوّةٍ وفرحٍ حقٍّ. ولا مراء أَنّ شهرة الأُمّ تيريزا العالميّة، التي أكسبتها جائزةُ نوبل اتِّساعًا ورسوخًا، كانت تُشرّع أَمامها جميع الأَبواب، حتّى أَبواب الدوَل التي كانت تجهد في وأْد الإِيمان بالله، لا سيّمَا وقد أَدرك الجميع نأيها بنفسها عن المصطرعات السياسيّة، وإِقامتها علاقاتٍ متوازنةٍ مع جميع عظماء العالم، ورؤساء الدوَل، بلا تمييزٍ. وهكذا استطاعت النفاذ إِلى بعض الدوَل الشيوعيّة، في شرقيّ أوروپا، مثل يوغوسلافيا، وپولونيا، وأَلمانيا الشرقيّة، وقد ساعدتها على ذلك جنسيَّتُها الهنديّة، إذ كانت للهند علاقاتٌ مميَّزةٌ مع دول أُوروپا الشرقيّة.

وظلّت الأُمّ تَتَطَلَّع إِلى قلعة الشيوعيّة، الاتّحاد السوفييتيّ، وقد شرع ذلك الحلم يتلمَّس طريقه إِلى التحقيق يومَ منحت اللجنة السوڤييتيّة للسَّلام جائزةَ مهرجان السينما في موسكو للفيلم الذي صوَّرته آن بيتري وشقيقتُها عن الأُمِّ تيريزا وعملها، والذي عُرض، للمرَّة الأولى، في قاعة مداولات الأُمم المتَّحدة. وارتأت اللجنة انتهاز تلك السانحة لدعوة الأُمّ إِلى زيارة الاتِّحاد السوفييتيّ. وقُبَيْل سفرها، في العشرين من آب ١٩٨٧، صرّحت للصّحافة: "**أَودّ أَن أَصطحب يسوع حيثما ذهبت**". وقد ملأت حقيبتها إِيقوناتٍ، ومسابحَ، وصورًا مقدّسة، وهي عازمةٌ على توزيعها على من ستصادفهم. وقد نال حصَّتَه منها رئيسُ لجنة السلام السوڤييتيَّة الذي قلَّدها ميداليّةً ذهبيّةً، لإِسهامها في الدفاع عن السلام والصداقة بين الشعوب.

وحاول الإِعلام الروسيّ عدم إِضفاء أَيّة دعاوةٍ على زيارة الأُمِّ تيريزا لموسكو، واقتصر التيليفزيون على عرض لمحةٍ خاطفةٍ للأُمِّ أَثناء مؤتمرٍ صحفيٍّ، وهي جالسةٌ تحت صورةٍ متجهِّمةٍ لكارل ماركس. وعقب مغادرتها، سعى مراسلو الصحف

الأَجنبيّة إِلى معرفة هل هي مُنحتْ إِذنًا بافتتاح مركزٍ لجمعيَّتها، فكان جواب الناطق الرسميّ باسم الحكومة: "بما أَنّها لم تتقدَّم بطلب فتح مركزٍ لها في الاتِّحاد السوفييتيّ، فمثل هذا الترخيص لم يُمنَح ولم يُرفض". أَمَّا الأُمُّ فقد صرَّحت: "أَودُّ تقديم أَخواتي هديَّةً للشعب الروسيّ، وآمل أَن أَعود إِلى موسكو، وأَن يُفسح لي، آنذاك، مزيدٌ من الوقت لتقييم الوضع". ومع أَنّ تلك الزيارة كانت خاطفةً، ولم تُتح للأمّ سوى إِلقاء نظرةٍ عابرةٍ على وضع المسيحيّين في روسيّا، إِلاَّ أَنَّ مرسلات المحبَّة توسَّمن فيها خيرًا عميمًا، لا بل إِنَّ بعض الأَخوات شرعنَ يتعلَّمنَ اللغة الروسيّة، موقنات بأَنّ أُمَّهنَّ ستنجح حيثُ فشل البابا نفسه، وانطلقنَ يُصعِّدنَ، لهذه الغاية، صلواتٍ حارّةً.

وبعد أَن أَطلعت قداسةَ البابا على نتائج زيارتها، بعثت برسالةٍ إِلى "ميخائيل غوربتشيف" طالبةً السماح بإِقامة مركزٍ لجمعيَّتها في بلاده، وقد جاء في رسالتها: "لدينا أَخواتٌ عاملاتٌ، وَأَخَوَاتٌ متأَمِّلاَتٌ، أُولئك يعملنَ، وهؤُلاء يكرِّسنَ حياتهنَّ للصَّلاة. فاختاروا منهنَّ من تشاؤون". وكانت الأُمُّ تَتَطَلَّع إِلى الاستقرار في أوكرانيا التي تضم أَقلِّيَّةً كاثوليكيَّةً مرتبطةً، روحيًّا، بالكرسيِّ الرسوليّ، حيثُ سيكون من اليسير العثورُ على كاهنٍ يوفِّر لأَخواتها الرعاية الروحيّة، وحيثُ كانت تأمل في استنفار دعواتٍ محلِّيَّةٍ كفيلةٍ بدعم رسالتها في روسيّا.

وفي نهاية شهر تشرين الثاني، أَثناء انعقاد اللقاء التاريخيّ بين غوربتشيف وريغان في واشنطن، كانت الدفعة الأُولى من المرسلات الأَميركيّات اللائي تلقَّينَ تثقيفهنّ الروحيّ في دار ابتداءٍ بسان فرنسيسكو، مُقْدِمات على إِبراز نذورهنّ المؤَبَّدة، فحرصت الأُمُّ على حضور النذور بنفسها، علَّ وجودها، آنذاك، في الولايات المتَّحدة يؤَثّر في قرار "غوربتشيف". وقد صدَق حَدْسها، إِذ أَنفذ "غوربتشيف" أَحد معاونيه لإِبلاغها موافقته على افتتاح مركزٍ في بلاده، فاستطاعت، لدى عودتها إِلى كلكتّا، في ١١ كانون الأَوّل، أَن تنقل إِلى أَخواتها البشرى: "**سنمضي إِلى روسيّا، فقد تلقَّيت من "غوربتشيف" تصريحًا بافتتاح مركزٍ هناك**".

إِثر ذلك قامت الأُمُّ ببضع زياراتٍ إِلى موسكو تمهيدًا لتأسيس أَوّل فرعٍ لجمعيّتها، وكان من المتوقَّع أَن يتمَّ ذلك في أَيّار ١٩٨٨، غير أَنّ الإِجراءات كانت

أَطول ممّا توقَّعتْ؛ وهي لم تكن تسعد كثيرًا بتلك الزيارات، لأَنَّها كانت تضطرّ إِلى الإِقامة في فندقٍ، فلا يتسنّى لها التعبُّد أَمام القربان، ولا حضور قدّاسٍ.

في تلك الأَثناء، وفي ١١ أَيار ١٩٨٨، حطَّت الأُمُّ في باريس للمشاركة في المؤتمر العامّ الرابع للمتعاونين مع الأُمّ تيريزا، الذي انعقد في العاصمة الفرنسيّة، بين ١٢ و٢٣ أيّار، وقد احتفظت للجلسة الختاميَّة بمفاجأة إِعلانها عن افتتاحٍ قريبٍ لمركزٍ في موسكو، وانطوى إِعلانها ذاك على تأثُّرٍ يتعذَّر وصفُه.

وقد استقبلتها أَخواتها في باريس ومرسيليا ببهجةٍ عارمةٍ، وأَثلج صدرَهنَّ رؤيتها تشارك في جلسات المؤتمر، وكأَنَّ كلَّ التعب الذي ينوء به جسدُها النحيل لم يستطع النيل من بسمتها ومرحها واندفاعها.

واغتنمت الأمُّ سانحة تلك الزيارة إِلى فرنسا لتحقيق هدفَيْن غاليَيْن على قلبها، أَوّلهما خاصٌّ، وقد تمثّل في زيارة مدينة "ليزيو" مسقط رأس شفيعتها، وشفيعة جميع المرسَلين والمُرسَلات، القدّيسة تيريزا الطفل يسوع. ولا مراء أَنّ الأُمّ، بحياتها كلّها، قد استلهمت، بل جسَّدت أَمثل تجسيدٍ قول شفيعتها: "**إِنَّ ربَّنا في حاجةٍ إِلى حبّنا... إِنّه في حاجةٍ إِلى عملنا... إِنّه لم يجد غضاضةً في استعطاء بعض ماءٍ من السامريَّة، عندما قال: "أَعطيني لأَشرب". هو، الخالق، التمس حبّ خليقته، فقد كان ظمئًا إِلى الحبّ**".

سنين طويلةً راودتها أُمنيَّة زيارة "ليزيو"، ولكنَّها لم تكن تجد من الوقت متَّسعًا إِلى أَن حان الأَوان، وكانت قد بلغت من العمر عتيًّا.

أَمّا الحدَث الآخر، فكان افتتاحها، في ١٤ أَيّار ١٩٨٨، المركز الثالث في فرنسا، بمدينة ليون، على مقربةٍ من محطَّة القطار الرئيسة، حيثُ باتت المرسلات يُطعمنَ، كلَّ يومٍ، مئات الجياع.

وفي شهر تمّوز افتتحت مرسلات المحبّة مركزًا آخر في السلفادور.

وأَخيرًا، في الثامن من كانون الأوّل ١٩٨٨، دُعيت الأُمُّ إِلى موسكو لافتتاح أَوَّل مركزٍ لها في الاتّحاد السوفييتيّ، مكرَّسٍ لفائقة القداسة العذراء مريم؛ وقد شخصت إِلى العاصمة الروسيّة من روما، في الخامس عشر من كانون الأَوّل؛ ومع أَنّها وصلت في الساعة الحادية عشرة ليلاً، مُتْعبةً، مُنهكةً، إلاَّ أَنَّها لم تُحجم عن المشاركة

في مؤتمرٍ صحفيٍّ، وقلبها يضجُّ فرحًا لاستطاعتها، أخيرًا، العمل في بلدٍ نفى الله رسميًّا، منذ سنواتٍ.

وكانت السلطات الروسيّة قد خصَّصت لإقامة المرسلات ثلاث غرفٍ في الطبقة الأخيرة من مستشفى "بورديكنو" فاتَّخذت الأَخواتُ من إِحداها منامةً لهنَّ، ومن الثانية حجرة طعامٍ، أَمَّا الثالثة فخصَّصْنَها له... ليسوع، وحوَّلْنَها إِلى مُصلًّى. مُصلًّى في مشفًى حكوميٍّ سوڤييتيٍّ! أمرٌ يصعب تخيُّله في تلك الحقبة، ويحمل أَملاً زاهيًا بالمستقبل. صحيحٌ أَنَّ زيارة ذلك المُصلّى كانت محظورةً على المرضى، غير أَنَّ قيامه على مقربةٍ منهم كان لهم مبعث عزاءٍ، وشمسًا تنير نفوسهم، ولا سيّمَا أنّه أُذِن للرّاهبات بالإِفادة من خدمات كاهنٍ، ومن إِقامة شعائرهنَّ الدينيَّة.

صباح السادس عشر من كانون الأَوَّل، احتفلت المرسلات بأَوَّل قدّاسٍ لهنَّ في كنيسة سيِّدة السلام، في العاصمة السوڤيتيّة؛ وفيما كانت الأُمُّ وأَخواتها يُرتِّلنَ، كانت العَبَرات تكاد تخنقهنَّ، عبرات فرحٍ وشكرانٍ. وفي مساء ذلك اليوم عينه، ظهرت الأمُّ تيريزا على شاشة التيليفزيون الروسيَّ، وتلكَّأَت الكاميرا فوق يدَيْن معروقتَيْن مجعَّدتَيْن تكرّان، بخشوعٍ، حبّات المسبحة.

وفي اليوم التالي، حضرت القدّاس في الكنيسة الپولونيّة، فتجمهر من حولها من شاهدوها على شاشاتهم، فوزَّعت على جميعهم إِيقوناتٍ صغيرةً، ومسابح.

وفي صباح الثامن عشر من كانون الأَوَّل، مباشرةً في أَعقاب مشاركتها في الذَّبيحة الإِلهيّة، طارت إِلى ييريڤان، عاصمة أَرمينيا، حيثُ كان زلزالٌ مدمِّرٌ قد دكّ مدنًا وقرًى أَرمنيّةً بكاملها. وعبَّر طاقم الطائرة عن سعادتهم بوجودها معهم، فدعوها إِلى حجرة القيادة حيثُ أهدت إلى القبطان تمثالاً صغيرًا للعذراء، احتلّ، في الحال، مكانَه في مقدّمة الطائرة. أَمّا الركّاب، فكانوا لا يكفّون يفيضون تعبيرًا عن حبورهم وامتنانهم، مُردِّدين: "شكرًا، أُمّاهُ، لمجيئك معنا، إِنَّنا نحبُّك".

في ييريڤان اصطحبها نائب رئيس لجنة السلام لزيارة البطريرك الأَرمنيّ في مقرِّه؛ وقد قطع البطريرك اجتماعًا هامًّا كي يرحِّب بزائرته أَجمل ترحيبٍ وأَحرَّه. وانتهزت الأُمُّ تلك السانحة كي تلتمس منه السماح بمجيء كاهنٍ كاثوليكيٍّ، وفريقٍ من أَخواتها، فرحَّب بطلبها على أَن يحظى بموافقة السلطات الحُكُوميَّة.

وبعد ظهر ذلك اليوم، زارت المستشفى الذي كان يُعالَج فيه ضحايا الزلزال من الأَطفال، وقد تيتَّم الكثيرون منهم في لحظاتٍ، وأُصيبوا بجروحٍ بليغةٍ مؤبَّدةٍ في قلوبهم وأَجسادهم، ووزَّعت عليهم الإِيقونات، وأَفلحت في نشر البسمات على تلك الوجوه التي جمَّدتها الكآبة.

وفي الغداة زارت مشفًى آخر، كان يُعالج فيه البالغون، وكان لزيارتها نفس المفعول الخيِّر، إِذ استشفّ فيها القوم رسولاً من السماء، فحاولوا مسّ ثيابها، وقدميها، ملتمسين بركتها.

وظهيرة ذلك اليوم، دبَّرت لها زوجة عمدة بيريـڤان لقاءً مع رئيس الوزراء الذي كان يزور أَرمينيا برفقة وزير الخارجيّة، ورئيس الحزب الشيوعيّ في أرمينيا. وكانت تلك فرصةً فريدةً للأُمِّ كي تلتمس السماح بمجيء أَربعٍ من أَخواتها، وكاهنٍ كاثوليكيٍّ إِلى أَرمينيا، للعناية بالمرضى والمشرَّدين، فاستُجيب لطَلَبها؛ وهرعت الأمُّ إِلى حجرةٍ مجاورةٍ كانت أَخواتها يتلون فيها المسبحة، ووجهها يشعُّ اغتباطًا، وأَبلغتهن البُشرى السارّة. وهتفت، أَيضاً، إِلى كلكتّا، ناقلةً إِلى أَخواتها هناك النبأَ المثير، وطالبةً إِرسال الأَخوات إِلى روسيّا.

وفي العشرين من كانون الأَوَّل، سألها مذيعٌ تيليفزيونيٌّ: "ما هو هدف قدومك إِلى الاتّحاد السوڤييتيّ؟" فردّت ببساطةٍ: "**جئت أقدّم حبّي وخدماتي**".

وفي اليوم التالي، وصلت أَربع مرسلاتٍ قادماتٍ من روما، ثمَّ، بعد يومَيْن قدمت من النمسا اثنتان أُخريان برفقة الأب "ليو". وعشيَّة عيد الميلاد، تحلَّقْنَ، جميعهنَّ، مع أُمِّهنَّ للاحتفال بقدّاس منتصف الليل، حول مغارةٍ مُرتَجَلَة، وانطلقت أَصواتهنَّ بالتراتيل يُخالطها نشيج دموع الفرح. ويومَ عيد الميلاد يمَّمت أَربعٌ منهنَّ شطْرَ أَرمينيا، برفقة الأمِّ، والأَب "ليو".

وفي الثلاثين من كانون الأوّل استقبل وزير الصحَّة، السيِّد شاڤوز، الأُمّ تيريزا، فعبّر عن سروره بلقائها، وعن شكر دولته لحضورها إِلى الاتِّحاد السوڤييتيّ، وأَنهى حديثه بالقول: "مع أَنّني مُلحدٌ، سأُصلّي من أَجلك، ومن أَجل أَخواتك". كان ذلك في غروب عام ١٩٨٨، حيثما كان الله ما زال محظور الإِقامة، رسميًّا، في تلك البلاد.

"**أَليس ذلك رائعًا؟**" كما أَلِفَت أَن تهتف الأمُّ تيريزا تعبيرًا عن فرحها ودهشتها. ولكنّ الأَروع هو ما أَشرعته "البيريسترويكا" من حرِّيَّةٍ دينيّةٍ، دفعت أُلوف البالغين الروس إِلى التماس سرّ المعموديّة، وأَدَّت إِلى إِعادة افتتاح كثيرٍ من الكنائس، وانبثاق الإِيقونات الثمينة من مكامنها لكي تتلقّى تكريمًا علنيًّا. واندفعت مرسلات المحبّة في ميدان رسالةٍ أُشرع أَمامهنّ على مصراعيه، فبات لهنَّ عام ١٩٨٩ مركزان في موسكو يُعنيان بالمرضى الميؤوس من شفائهم، والمسنّين المُهمَلين ومرضى الإِيدز، ومركز في مدينة "سپتياك" الأَرمنيَّة للعناية بضحايا الزلزال، وفي عام ١٩٩٠، ارتقى عدد المراكز إِلى عشرةٍ، واحدٌ منها في سيبيريا، وتمثَّل هدفُ الأُمّ تيريزا في الارتقاء بعدد المراكز في روسيًّا إِلى خمسة عشر مركزًا.

ومضت الأُمُّ، رغم عبء السنين، ووقرها الباهظ من جُهدٍ وتَعَبٍ، وسَهَرٍ وسفَرٍ، تواصل زرع موائل الحبّ والخدمة، في كلِّ أَرجاء المسكونة، وترفد جحافل مرسلاتها، حاملاتٍ حبّ الله إِلى العالَم، بعناصر فتيَّةٍ متفجِّرةٍ اندفاعًا وغيرةً.

ففي شباط ١٩٨٩، افتتحت مركزًا جديدًا في مدينة فينكس بولاية أَريزونا الأَميركيّة، حيث الشتاء لطيفٌ معتدلٌ، ما يستجلب شراذم المشرَّدين الذين يرقدون على الأَرصفة، ومعظمهم من المكسيكيّين الذين دخلوا البلاد خلسةً. ولقد لقيت المرسلات، ثمَّة، استقبالاً حاشدًا فخمًا، واستقررْن في مسكنٍ مؤقَّتٍ، ريثما يُفرَغ من بناء بيتٍ فسيحٍ يتيح لهنّ استقبال المزيد من المحتاجين. وكانت تنتظرهنّ مهمَّةً شاقَّةً، فالمدينة تضمُّ عصاباتٍ منظَّمةً متناحرةً من الفتيان مروِّجي المخدِّرات ومتعاطيها. غير أَنَّهنَّ، وقد صاغتهن روحانيّة الأُمّ تيريزا، كنَّ متأَهِّباتٍ لأَعصى المهمَّات وأَعتاها، وقد هبَّ لمساندتهنَّ متعاونون يُذلِّلون الكثير من الصعاب على دربهنَّ؛ وقد اتَّفق، في أَعقاب لقاء صلاة، أَن طلب أَحدهم من كلِّ قادرٍ التبرُّع بعلبة كونسروة، فكانت الحصيلة أَربعين طنًّا منها.

وكان أَيّار موعد نذور المرسلات الجديدات، ومناسبةً تفعم نفس الأُمِّ غبطةً وهي ترى جيشها يتضخَّم عددًا، ويزداد أُهبةً لاقتحام مواقع البؤس والحرمان والعزلة، ولتحويلها إِلى موائل عطفٍ وعزاءٍ ومحبّةٍ، في كلّ بقعةٍ من بقاع المسكونة.

وقد تمَّ الاحتفال بنذور الربيع في كلكتّا يومي الرابع والخامس من أَيّار ١٩٨٩،

فأبرزت سبعٌ وعشرون أُختًا نذورهنّ المؤَبَّدة، وخمسٌ وأَربعـون مـنهنَّ نـذورهنّ الأُولى؛ أَمّا في روما، فجرت احتفالات النذور في ١٢ أَيّار، في كنيسة القدّيس برنابا، حيث أَبرزت عشر مرسلاتٍ نذورًا مؤَبَّدةً، وأَربع عشرة مـنهنّ نـذورهنّ الأولـى؛ وطُوِّقت أَعناق الناذرات بقلادات الزهور على الطريقة الهنديّة، وكانت فرصةً لذوي الراهبات وأَصدقائهم كي يحيّوا الأُمّ تيريزا، ويتعرَّفوا بها. وفي صباح ذلـك اليـوم عينه، كانت الأُمُّ قد شاركت الحبر الأَعظم الذَّبيحة الإِلهيّة في مُصلاّه الخاصّ، وفـي الإِثر استقبلها قداسته بفرحٍ عارمٍ.

وفي اليوم التالي، الثالث عشر من أَيّار، طارت الأُمُّ إِلى وارسو حيثُ أَبـرزت إِحدى عشرة مبتدئةً نذورهنّ الأُولى، واغتنمت الأُمُّ تلك السانحة للتَّخشُّع، عند ضريح الأَب القدّيس "كولبي" في ديره.

وفي صيف تلك السنة مُنحت الأُمّ، أَخيرًا، إِذنًا بزيارة مسقط رأسها، أَلبانيا، التي أَمَّتها برفقة أُختٍ يوغوسلافـيّةٍ تتكلّم لهجة أَهل البلاد، ومنتج فيلم "الأُمّ تيريزا" الذي كان راغبًا في عرضه بتلك المناسبة؛ واصطحبت الأُمُّ، أَيضاً، الرفيق الذي لا تقـوى على مبارحته، اصطحبت يسوع في برشانةٍ مكرَّسةٍ ضمن حافظةٍ خاصّة. وبعـد أَن زارت حاكم البلاد استوضحته، مودِّعةً، هل بمكنتها العودة مع عددٍ مـن أَخواتهـا، وأَبى الديكتاتور الإِجابة في الحال، غير أنّه، في ٨ أَيلول من ذلك العام، أَعلن عـن موافقته على افتتاح مركزٍ لمرسلات المحبّة في أَلبانيا.

وفي تلك الأَثناء، وهب عمدة نيويورك، السيِّد إِدوار كوش، مرسلات المحبّـة، بناءَين في جنوبيّ برونكس ما أَتاح لهنّ إِيواء أَربعة وستّين نـزيلاً إِضـافيًّا، وقـد وصف العمدة الأُمّ تيريزا بقوله: "**إِنَّها شخصيَّةٌ قويَّةٌ جدًّا، وما تفعله لا يمكن وصفه إِلاّ بأَنَّه لا يُصدَّق. أَعتقد أَنَّها قدّيسةٌ حيَّةٌ**".

وفي آنٍ واحدٍ تطلَّعت الأُمُّ إِلـى اقتحـام دول أوروبـا الـشرقيّة، الواقعـة تحت السيطرة الشيوعيّة، وأُولاها هنغاريا، حيـثُ كـان مئـات المتعـاونين مـع عمل الأُمّ تيريزا يعملـون خفيـةً، ويجتمعـون خلـسةً، بـسبب تعـذُّر ظفـرهم باعترافٍ رسميٍّ؛ وقد أَلِفوا الالتقاء، إِثر خـروجهم مـن الكنيـسة؛ ورغـم سـرِّيَّة نـشاطهم، كـانوا منظَّمـين تنظيمًـا رائعًـا، ومهتمّـين بالعميـان، والوحيـدين،

والأَطفال المتعدِّدي الإِعاقات. وما انفكّوا يتطلَّعون، بتوقٍ، إِلى افتتاح مركزٍ للمرسلات في بلدهم، حيثُ كانت قد تسلَّلت، ووُزّعت مجّانًا، عشرة آلاف نسخةٍ من كتاب بعنوان: "الأُمّ تيريزا ومرسلات المحبّة" مترجمٍ إِلى الهنغاريّة. وأَخيرًا، في ١٢ تموز ١٩٨٩، أَوردت صحيفة "الأُسّيرفاتوري رومانو" هذا النبأ: "الجماعة الأُولى من مرسلات المحبَّة التي استقرَّت في هنغاريا تتأَلَّف من أَربع أَخواتٍ: هنديَّتين، ونمساويَّةٍ، وفرنسيَّةٍ. تلك هي المرَّة الأولى التي يُسمح فيها للأُمِّ تيريزا بإِيفاد أَخواتها إِلى ذلك البلد، حيث وصلنَ في ١٦ حزيران برفقة الأمِّ المؤسِّسة؛ وقد باشرنَ خدمتهنَّ الإِنجيليَّة وسط فقراء بودابست، وفي رعيّةٍ تقع على بعد ثلاثين كيلومترًا من العاصمة حيثُ يُقمنَ.

"منذ سنواتٍ عديدةٍ، كانت الأُمّ تيريزا تترقَّب فرصة إِيفاد أَخواتها إِلى هنغاريا، وفي سبيل تحقيق هذه الرغبة كانت على اتّصالٍ بالكردينال ليكاي، إذا كان يُساورها الشعور بضرورة بعث طاقاتٍ روحيّةٍ جديدةٍ في تلك البلاد، في أَعقاب أَربعين سنةً من غياب الجمعيَّات الرهبانيّة الذي أَفضى إِلى فراغٍ مريعٍ.

"إِثر مساعٍ متعدِّدةٍ قام بها رئيس أَساقفة المجر الكردينال "لاسلو ياسكاي"، وبفضل الأَوضاع المستَجدَّة في البلاد، ظفرت الأُمُّ بالترخيص المطلوب؛ وقد استُقبل وصول الأُمِّ تيريزا الكلكتّاويّة وأَخواتها بترحابٍ حماسيٍّ. ونُظِّمت لقاءاتٌ معهنَّ في ثلاثٍ من كنائس العاصمة، وتدفَّق المؤمنون بكثافة، بحيثُ لم تتوفّر للجميع أَماكن داخل الكنائس. وفي كلِّ من تلك اللقاءات كانت الأُمُّ تخاطب الحاضرين بعباراتٍ مؤثرةٍ، مفعمةٍ ببساطةٍ إِنجيليّةٍ، وتدعوهم إِلى مشاركة أَخواتها مهامهنَّ الرسوليَّة والخيريّة. وقد أَظهر حماس الاستقبال، بوضوحٍ، الرغبة العميقة الغَوْر، والكامنة منذُ زمنٍ في نفوس المؤمنين، في حضور راهباتٍ إِلى جانب الفقراء والمتألِّمين. وسُرعانَ ما تجلّى أَثر وجود مرسلات المحبّة، من خلال التماس أَربع فتياتٍ الانضواء تحت لواء جمعيّتهن".

ولكن، في خريف عام ١٩٨٩، أَخذت صحَّة الأُمِّ تتدهور.

الأَزمة القلبيّة الثانية

وأَخيرًا نال الإِرهاقُ، والجهدُ الذي لا عهدَ له براحةٍ، من قوى الأُمِّ تيريزا، ففي الثالث من أَيلول ١٩٨٩، شرعت تتقيّأ، وانتابتها حمّى شديدةٌ، فأُدخلت إِلى مشفى وودلاند في كلكتّا، حيثُ لبثت أَيّامًا عديدةً، خاضعةً لعنايةٍ فائقةٍ، بإِشراف خمسةٍ من أَشهر الأَطبّاء، ما لبث أَن انضمَّ إِليهم الطبيب الذي كان قد عالجها في روما، عام ١٩٨٣، موفَدًا من قبل قداسة البابا، ونطاسيٌّ أَميركيٌّ بارعٌ. واتّضح أَنَّها كانت تعاني من انسداد شريانين، فعولجت للقضاء على ذلك الانسداد. وكان مرضها قد أَقضَّ مضجع أَميركيٍّ ينتج أَجهزةً منشِّطة للقلب، فأَنفذ لها أَربعةً منها، وزُوِّدت بأَحدها، فأَوعزت بالاحتفاظ بالثلاثة الأُخرى للمحتاجين من "قومها"، علَّها، بذلك تواصل خدمة الفقراء، حتّى بعد وفاتها.

وقد لاحظ أَحد الأَطبّاء أَنَّها كانت تتحمَّل، في صمتٍ وصبرٍ جميلٍ، آلامًا مبرّحةً، فعاتبها لإِحجامها عن استدعائه لإِغاثتها، واحتجّت بأَنَّها آثرت التحاشي عن إِزعاجه، ولكنَّه كان متيقِّنًا من أَنَّها كانت سعيدةً بتقديم آلامها، وتتقبَّل، بفرحٍ، "قبلة يسوع"، كما أَلفت أَن تسمّي الأَلَمَ. وقد ردَّت على برقيّةٍ من قداسة البابا تمنّى بها لها الشفاء: "**إِنني أُقدِّم كلَّ آلامي من أَجلكم**".

وعاشت كلكتّا، والعالَمُ معها، تلك الأَيّام، على إِيقاع النشرات الصحِّيَّة الصادرة عن المستشفى، والتي كانت تتناقلها الإِذاعات والصحُف وتيليفزيونات العالَم. وتدفَّقت البرقيَّات وتمنِّيات الشفاء من كلِّ صوبٍ، تحمل تواقيع زعماء العالم، كالملكة إِليزابيت، والرئيس جورج بوش وأَمثالهما، في حين تعالت سُحُبُ التضرُّعات من كلِّ أَرضٍ متوسِّلةً لشفاء من كانت حياتها كلُّها سيلَ خيرٍ وحبٍّ؛ وقد صلّى بحرارةٍ خاصّةٍ أَخوات الأُمّ، ونزلاء مراكزها العديدة المبثوثة في العالَم، من محتضرين، ومسنّين، ومرضى، وأَطفالٍ، وبُرْصٍ، ومشرَّدين. فقد كانت لجميعهم أُمًّا رؤومًا.

وفي كلّ زاويةٍ من شوارع كلكتّا ارتجل الفقراء هياكل صغيرةً صمدوا عليها صورة الأُمِّ تيريزا محاطةً بصورتي يسوع والعذراء، وأَضاؤوا أَمامها الشموع، وتعالت التضرُّعات من أَجل شفائها؛ وارتدت تلك التضرُّعات حرارةً خاصَّةً في السابع من تشرين الأَوّل، ذكرى تأسيس جمعيّة مرسلات المحبَّة.

وفي ذلك اليوم عينه افتتحت المرسلات العاملات في مدينة مرسيليا مركزًا جديدًا، وكانت الأُمُّ تيريزا حاضرةً في قلوب الجميع أثناءَ صلاة التدشين.

وعقب شهرٍ مُقْلِقٍ، شرعت الأُمُّ تستعيد بعض قواها، وتوقّع، أخيرًا، الأَطبّاء، شفاءَها، فعادت تُعِدّ الخطط لافتتاح مراكز جديدةٍ.

وحالما سُمِح بعيادتها، تعاقب الرسميّون إلى جانب سريرها، وفي طليعتهم رئيس الوزراء راجيف غاندي الذي قطع حملته الانتخابيّة كي يعبّر لها عن تمنّياته بشفائها، وقد ضمَّته بحنانٍ بين ذراعيها، وذكَّرته بأنَّها عرفتْه مذْ كان رضيعًا.

وعادتها أيضاً صديقتها "آنّ بليكي"، رئيسة رابطة المتعاونين الدوليَّة، فضمّتها بقوّة بين ذراعيها، وبكتا معًا؛ وكانت تلك هي المرَّة الأولى التي تطلق فيها الأُمُّ العنان لمشاعرها، التي أَلِفَتْ ضبطَها. وقد أسرَّت لصديقتها: "**إنَّ آلامي قد حملت العالَم كلَّه على الصلاة**".

وزارتها، أيضاً، ابنة أَخيها لازار، التي نذرت الإقلاع عن التدخين من أَجل شفاء عمَّتها، على أن تلتزم عمَّتُها بنصائح الأَطبَّاء الذين أوعزوا إليها بالحدّ من وتيرة نشاطها المحموم. وقد برهنت الأُمُّ لابنة أَخيها عن احتفاظها بمرحها عندما طلبت منها تلاوة هذه الصلاة: "**يا يسوعُ اطلبْ من أُمّك أَن تشفي الأُمَّ لكي تمضي بك إلى أَلبانيا**".

وفي ١٤ تشرين الأَوَّل، غادرت الأُمُّ المستشفى، وبُغيةَ توفير السكينة والراحة لها، اقتيدتْ إلى أَحد مراكز الجمعيَّة بعيدٍ عن المركز الأُمّ، ممّا كفِل إقصاء سَيْل الزائرين عنها؛ وأَقامت في حجرةٍ محاذيةٍ للمصلّى بحيثُ تظلُّ إلى جوار القربان المقدَّس.

وإثرَ شهر نقاهةٍ عادت إلى "البيت" حيثُ استقبلتها أَخواتها بأَناشيد الشكر والتسبيح، ولكنَّها لم تنعم إلاّ بهدنةٍ قصيرةٍ، إذ تعرَّضت في ٢٩ تشرين الثاني لنكسةٍ استدعت مداخلةً جراحيّةً جديدةً: وصرَّح طبيبها: "**كم هي هشَّةٌ، وفي آنٍ واحدٍ، كم هي متدفِّقةٌ نشاطًا!**"، فهي ما انفكّت تحلم باقتحام سائر دول أوروپا الشرقيَّة التي كانت متلهّفةً لاستقبال أَخواتها إثْرَ انهيار الستار الحديديّ، وتدحرُج المارد الشيوعيّ ذي الساقين الخزفيّتين؛ فقد كانت تتوسَّم في ذلك الحدَث دعوةً إلى إعادة الله إلى البلدان التي جهد حُكّامها السابقون في نفيه عنها.

في عظة عيد ميلاد ١٩٨٩، كان قداسة البابا قد التمس بركةً خاصَّةً "لأَرض رومانيا الكريمة التي تحتفل بالميلاد وهي ترتعد خوفًا، حزينةً لفقدان حيواتٍ بشريّةٍ عديدةٍ، وفرحةً بعثورها، من جديدٍ، على درب الحرِّيَّة".

وفي ٣٠ نيسان ١٩٩٠ شخصت الأُمّ تيريزا إِلى بوخاريست لافتتاح مركزٍ للأطفال. وقد قدَّرت المنظماتُ الإِنسانيّة أَنَّ عدد الأطفال الأيتام، والمنسيّين، والذين كان محكومًا عليهم بالعيش في مؤسَّساتٍ زريّةٍ، يربو على مئة أَلف طفلٍ يعانون الإِهمال وسوء التغذية، والجرَب، وكلِّ ضروب الحرمان المادِّيّ والعاطفيّ؛ وإِثر زيارة أَحد المتعاونين إِلى دار أَيتامٍ تفوح منها روائح البول والقاذورات، وصفها بقوله: "شاهدتُ صبيًّا ممدَّدًا على سرير بلا أَغطية، فوق قطعةٍ من البلاستيك الأَزرق، وسط بركةٍ من القيءِ والبَوْل وكان يأكل من ذلك المزيج المُنكَر".

وبموافقة وزارة الصحَّة، اصطحبت مرسلاتُ المحبَّة ستّين طفلاً من ميتمٍ كان نحو مئةٍ وثمانين من نُزَلائه الصغار قد لقوا حتفهم في الشتاء السابق، وافتتحنَ لهم مأوًى مجهَّزًا بأَسرَّةٍ وأَغطيةٍ، بفضل مساعدة رجل أَعمالٍ رومانيٍّ. وزوَّدنَهم باللباس النظيف، والطعام المنتظم الوافي، فضلاً عن البسمة وفيض الحبّ.

ثمّ، في ١٣ أَيّار ١٩٩٠ لقيت الأُمُّ استقبالاً حارًّا في مدينة "نيتا"، بوسط تشيكوسلوفاكيا، حيث أَنشأت مركزَيْن، وتقاطر القومُ للتَّرحيب بها وبأَخواتها، حاملات الله، المتلفّعات بالساري القطنيّ الأَبيض، بالأَهازيج ودموع الفرح.

وكانت المرسلات، قبل ذلك، قد أَعدْنَ إِحياء عادة تقديم الأَطعمة للمسنّين المشرّدين والمرضى، في المركز الذي أَنشأنه، في بودابست بالمجر.

وفي ٢٨ آذار ١٩٩٠، كان قد زار الأمَّ تيريزا، في كلكتّا، ياسر عرفات برفقة قرينته، وقدَّم لها شيكًا بمبلغ خمسين أَلف دولارٍ ملتمسًا افتتاح مركز لمرسلات المحبّة في كلِّ من بيت لحم والقدس.

ومنذ تلك الحقبة باتت حياة الأُمّ تيريزا سجالاً بين مرضٍ واستشفاءٍ، ونشاطٍ مندفعٍ، ويُهيمن عليها الشعور بأَنَّها أَنجزت القسط الأَكبر من مهمَّتها، ولكن ما زال عليها الكثير الذي يتعيَّن إِكماله، فتُسابق الزمن قبل أَن يتداركها. وربما كانت هذه الرغبة الجامحة في العمل، رغم هشاشة صحَّتها، هي سرّ عمرها المديد. وعندما

كانت تُسأَل لمَ لا تمنح ذاتها قسطًا كافيًا من الراحة كانت تجيب: "**سيُفسح لي كلّ وقت الأَبديّة للرَّاحة، أمّا هنا فثمَّة الكثير الذي يتوجَّب فعله**".

وما انفكّ يلهب خيالها حلمان غاليان: إِقامة مراكز لجمعيّتها في كلٍّ من الصين ذات الوزن الفريد في العالَم، ومسقط رأسها أَلبانيا.

الصين

ذلك البلَد الأَكثر كثافةً سكَّانيّةً في العالَم، كان له على الأُمِّ تيريزا سحرٌ دائمٌ، وحتّى ساعة وفاتها ما انفكّت تحلم بوجود مرسلاتها فيه.

منذ عام ١٩٨٤، أَعلنت للكردينال كازاروليّ، وزير خارجيّة الفاتيكان: "إِنّنا نسعى للمضيّ إِلى الصين". وفي هذا السبيل، كانت قد اتّصلت بالسفير الصينيّ في دلهي، وعرضت خدمات أَخواتها في بلاده؛ وعملاً بالارتياب الحَذِر الذي تفرضه وظيفته الدبلوماسيّة، استوضح السفيرُ هل البابا هو الذي دفعها في هذا المسعى، ولكنَّه، فيما بعد، شاهد المرسلات وهنَّ يعملنَ، فزار مراكز المحتضرين، وعاين، بأُمِّ عينه، الحبَّ الجمَّ، والتفاني اللاّمحدود اللذين كانا يحدوانهنّ إِلى خدمة أَشخاصٍ مجهولين التُقِطوا من الشارع، فنال منه التأَثُّر كلَّ مبلغٍ. وقبل مغادرته صرَّح للرّاهبات: "إِن كان بوسعي أَن أُسدي لكنَّ أَيّة خدمةٍ، فلا تترددْن في إِعلامي".

ولا ريْب أَنّ تلك الزيارة، فضلاً عن عدد الجوائز ورِفْعتها التي كُرّمت بها الأُمّ كان لها أَبلغ أَثرٍ في حمل الحكومة الصينيّة على دعوة الأُمّ لزيارة بلدها. وقد أَمَّتها في يوم صيفٍ رائعٍ، برفقة الأُخت دوروثي الدائمة الابتسام، والتي كان لها بالشرق الأَقصى خبرةٌ راسخةٌ.

بعض بوادر انفراجٍ كانت قد شرعت تظهر إِثر تسلّم "دينغ كسياپينغ" مقاليد السلطة؛ وكان البابا توّاقًا إِلى تسوية أَوضاع الإِكليروس المدعوّ "وطنيًّا" والذي كان قد قطع، منذ سنواتٍ عديدةٍ، كلَّ علاقة له بالڤاتيكان، وبات الكهنة والأساقفة يُنتَخَبون ويُرسَمون في استقلالٍ تامٍّ عن السلطة البابويّة. أَمّا الذين أَصرّوا على الوفاء للبابا فقد تعرَّضوا للاضطهاد، وأودعوا السجون والمعتقلات، وخضعوا لغسل دماغٍ لا يرحم.

وكان "ماوتسيتونغ" قد توخّى "التخلُّص من جميع الهيئات الدينيّة"، ومع ذلك أعلن مسؤولٌ دينيٌّ أنّه ما زال هناك خمسون مليون مؤمن، وكان حريًّا به القول أنّه لم يبقَ، في الصين، سوى خمسين مليون منهم، فذلك عدد ضئيل مقارنًا بما يناهز مليار نسمةٍ.

وكانت الأُمّ قد عرفت وأَحبَّت الشعبَ الصينيَّ من خلال جاليته في كلكتّا المتميِّزة بالمبادرة، والعزيمة والنشاط والسخاء، والتي كانت تؤدِّي لمرسلات المحبّة خدماتٍ جليلةً مجّانيّةً.

إِثْرَ عودتها من زيارتها الخاطفة إِلى الصين، أَعلنت الأُمّ أَنَّها قابلت الزعيم "دينغ كسياو پينغ"، وابنه المعاق الذي دعاها لزيارة مركزٍ للمعاقين يتولّى إِدارته، فهنّأته الأُمُّ بحرارةٍ قائلةً: "إِنّك تقوم بعملٍ رائع؛ إِنّه حقًّا عمل الله"، فأَجاب:

– "ولكنّني لا أُومن بالله، فأَنا شيوعيٌّ.

– "لا شأن لذلك، فإِنّك تنهض بعمل محبّةٍ، وتنهض به في سبيل الله". ولمّا ودَّعته خاطبته بقولها المعهود: "صلِّ من أَجلي، وسأُصلّي من أَجلك".

لم تكن شديدة التفاؤُل بقرب افتتاح مركزٍ في الصين بعد أَن أَوضحت للمسؤولين هناك شروطها المتمثِّلة في أَن تُستدعى من قبل أسقفٍ محلّيٍّ، وأَن تعتمد على كهنةٍ يُعنون بحاجات الأَخوات الروحيّة، ولم يكن من اليسير توفير هذه الشروط.

وفي ١٩ كانون الثاني ١٩٨٨ أَبلغ رئيس أساقفة كلكتّا الأُمّ تيريزا نبأً سارًّا، لدى عودته من اجتماع أساقفةٍ أسيويّين في سيؤول، وكان بعض أولئك الأَساقفة قد سافروا إِلى الصين في محاولة إِعادة ربط كاثوليكيّي تلك البلاد بالكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ، واستوضحوا هل يُسمح للأمّ تيريزا بافتتاح مراكز هناك، وقد أَجاب الرسميّون الصينيّون بأَنَّ بلدهم يُرحِّب بالأم تيريزا وأَخواتها، ولكن بشرطَيْن: أَن يتَّسم عملهنَّ بطابعٍ اجتماعيٍّ صرفٍ، كالعناية بالمسنّين، وأَن يكون منزَّهًا من أَيَّة صبغةٍ دينيَّةٍ أَو روحيَّةٍ، وأَن تتخلّى المرسلات عن زيّ الساري الهنديّ، ويتبنَّينَ الزيَّ الصينيّ. ولم يكن بوسع الأُمّ التوافق مع ذيْنك الشرطَيْن.

ومع أَنّها زارت الصين ثانيةً عام ١٩٩٣، إِلاَّ أَنّها ظلّت، حتّى وفاتها، تداعب حلم افتتاح مراكز لمرسلاتها في ذلك البلد الرحيب حيثُ ملايين القلوب كانت تنتظرها، وتلتمس من زوّارها الصلاة لتحقيق هذا الحُلم.

١٩٩٠- استقالة وإِعادة انتخاب

حيال ازدهار جمعيَّتها المدهش، وتكاثُر الفروع المستلهَمة منها، كتبت الأُمُّ: "**ما ظننْتُ أَنَّ عملنا سينمو وفق هذه الوتيرة السريعة، وسيتَّخذ مثل هذا الحجم. لم أَشكَّ، قطُّ، في أَهليَّته للعيش، لأَنّني كنتُ قانعةً بأَنَّه طالما باركه الربّ سيزدهر. بشريًّا كان ذلك يبدو مستحيلاً، لأَنَّنا كنّا نفتقر إِلى الخبرة، وليس بيننا من يمتلك ما ينشده العالَم. ولكن لدينا قناعتنا بأَنَّ الله يستخدمنا، وأَنَّنا أَدواتٌ صغيرةٌ بين يديه؛ وطالما التزمنا بهذه القناعة، ليس لدينا ما نخشاه، وسيواصل عملُنا ازدهارَه**".

إِلاَّ أَنّها، إِحساسًا منها بأَنَّ جسامة مهامّها لم تعد تتوافق مع قواها المنهارة، التمست من الحبر الأَعظم اعتزال منصبها كرئيسةٍ عامّة، ووافق قداسته على طلبها. وفي الخامس والعشرين من آذار ١٩٩٠ عمَّمت الأُمُّ على مراكز جمعيَّتها البيانَ التالي:

« وفقًا للبند ٨٦ من نظامنا يمكن للرَّئيسة العامّة، من جرّاء السنّ أو المرض، التخلّي عن مهامّها؛ وقد حداني عاملا السنّ – فسأَبلغ الثمانين هذه السنة – والمرض، إِلى استئذان الحبر الأَعظم بعقد مجمعٍ عامٍّ لانتخاب رئيسةٍ عامَّةٍ جديدةٍ؛ وقد أَذن الأَب الأَقدس بذلك. وبالتالي، ببركة الربّ، وبمساعدة أُمّه مريم، سنعقد هذا المجمع في ٨ أيلول ١٩٩٠. أَتمنّى أَن تتقبَّلنَ هذا القرار بفرحٍ، وتُقدِّمنَ لجمعيَّتنا كلّ ما من شأنه تمكينها من تحقيق وعد أُمّكم: إِعطاء الكنيسة قدّيسين ».

وفي ١١ نيسان ١٩٩٠ أَعلن الـڤـاتيكان عن قبوله استقالة الأُمّ تيريزا، وعن انعقاد مجمعٍ لانتخاب خليفةٍ لها في ٨ أيلول.

في الواقع لم تتلقَّ الأَخوات الإِعلانَ بفرحٍ، بل انتابهنَّ الذُّهول والقلَق، ولا سيّمَا أَنَّهنَّ لم يأْلَفْنَ ابتعاد الأُمِّ الحبيبة عن دفّة سفينتهنّ، وكنَّ يؤثرنَ الاحتفاظ بها أُمًّا حتّى مماتها؛ في حين أَنَّ كثيرين من رجال الإِكليروس، ومن المتعاونين مع الأُمِّ تيريزا كانوا يباركون مبادرة استقالتها الكفيلة بتأمين انتقال السلُطَات، داخل جمعيّة مرسلات المحبَّة، انتقالاً ليّنًا، مع بقاء الأُمّ مرشدةً روحيّةً ثمينةَ الخبرات، تدعم مركز خليفتها.

وتلقَّفت وسائل الإِعلام النبأ بكثيرٍ من الفضول، وقليلٍ من الدقَّة أَحيانًا، كما فعلت، مثلاً صحيفة "الفيغارو" الفرنسيّة التي أَصدرت عنوانًا عريضاً يقول: "وداعًا يا

كلكتّا"، مع أَنّ كلكتّا كانت ستظلُّ أَبدًا، وفي جميع الحالات موطن الأُمِّ، ومقرَّ إِقامتها. ونشرت صحيفة "فرانس سوار" النبأ في صفحتها الأُولى على أَربعة عواميد تقول: "الأُمُّ تيريزا: أُسطورةٌ تمضي". أَمَّا صحيفة "كورّييري دي لاسيرا" الإِيطاليّة فكتبت، تحت عنوان: "استقالت تيريزا الكلكتّاويّة: فلم تعد تقوى على الاستمرار: "ستبلغ، قريبًا، من العمر ثمانين عامًا. جسدها المنهار الذي لا تسنده سوى إِرادة البقاء من أَجل الآخرين، وسوى صمودٍ جديرٍ بآباء الصحراء، يبدو منهكًا. وقلبها الذي أَوهنته النوبات المتعاقبة لا يُتيح لها المُضيّ في تفقّد مراكزها التي تنبثق، كالمعجزة، الواحد تلوَ الآخر، في مكامن البؤس والمرض، في كبريات المدن الأوروپيّة والأَميركيَّة، والأَسيويَّة. ومن شأن جمودها إِلحاق الأَذى الذَّريع بجدوى رسالتها الرحّالة. ولذلك اختارت الأُمّ إِيكال إِدارة الجمعيَّة لأختٍ أَحدث سنًّا..."

وراحت الصحف تُطلق التكهُّنات حول الخليفة الأَوفر حظًّا بتولّي الرئاسة بعد الأُمّ تيريزا، التي كانت حريصةً على أَن يندرج المجمع في جوٍّ من السرِّيَّة، والسلام، والصلاة.

وريثما حان موعد المجمع استأنفت الأُمُّ نشاطها المألوف، في همَّةٍ تُزري بهمَّة الشباب؛ ومن أَهمِّ المشاريع التي احتفلت بإبرازها إِلى النور، في تلك الفترة، تدشينها في الحادي والعشرين من نيسان ١٩٩٠ مُجمّعًا ضخمًا في كلكتّا، ضمّ العديد من المراكز الخيريّة، في احتفالٍ غمرته البهجة. وكانت الحكومة الهنديّة قد تنازلت لها عن قطاعٍ مُهمَلٍ من المدينة، لقاء أَجرٍ رمزيٍّ قدره روبيَّةٌ واحدةٌ، سنويًّا. وبرهنت الأُمّ، مرَّةً أُخرى، عن روحها المرِحِ والعمليّ، عندما علَّقت على ذلك بقولها: "إِنّه لأمرٌ ممتازٌ أَن تظلَّ الحكومة مالكةً للمكان، فإذا ما احتاجت الطرقات إِلى إِصلاح دفعت، هي، النفقات". وكان رجلُ أَعمال متعاونٌ مع الأُمِّ تيريزا، قد تعهّد بكلّ أَعمال البناء التي ضمّت مراكز لإِعادة تأهيل مدمني المخدّرات، والخارجين من السجون، والمتخلِّفين عقليًّا، والمعاقين، وضحايا سوء التغذية. انقطعت للعمل في ذلك المجمَّع خمس عشرة مرسلةً تساعدهنّ ثلَّةٌ من المتطوّعين والمتعاونين.

وأخيرًا أَزف موعد الثامن من أَيلول، وكانت الأُمُّ قد اختارت للمجمع مكانًا يبعد نحو عشرين كيلومترًا عن المركز الأُمِّ، ليكون في منأًى عن الفضول، وصَخَب

وسائل الإِعلام. ووفقًا للمألوف، مُهِّد له برياضةٍ روحيَّةٍ امتدَّت ثمانية أَيّـام، سـادها الصمت، والتأمُّل، والمشاركة الروحيّة مع الروح القدس، وارتقى عدد المشاركات في المجمع إِلى نحو مئة مرسلةٍ.

وقد أَنفذت الأُمّ إِلى جميع أَخواتها رسالةً ثانيةً مفعمةً سكينةً واستسلامًا للمـشيئة الإِلهيّة، واعترافًا برفعة شأن جميع عناصر الجمعيّة، حتّى المغفلة منها، جاء فيها:

« هذه الرسالة ستحمل إِلى الجميع صلاتي وبركتي؛ وحبّي وعرفاني بالجميـل يتّجهان إِلى كلٍّ منكنّ لما كنتنّ، ولما فعلتنَّ طيلة هذه السنوات الأَربعين.

"إنّ حضوركنَّ، والعمل الذي حقَّقتُنَّه في العالَم من أَجل مجد الله وخير الفقراء كان معجزةً حيَّةً، معجزة حبِّ الله وحبِّكنَّ. وقد أَظهر الله سناه باسـتخدام العـدم. فلنعتصم بعَدَمِنا لكي ندعَ الربّ حُرًّا باستخدامنا من غير استشارتنا. ولنـرضَ بمـا يُعطي، ولنُعطِه ما يعطينا، ولنعطه ما يأخذ، بابتسامةٍ كبيرةٍ.

"مع اقتراب المجمع العامّ، قلبي مفعمٌ حبًّا، توقُّعًا للأَشياء الجميلة التـي سـيحقّقها الربّ بواسطة كلٍّ منكنَّ. وإِنّي أَعلم أَنّكنَّ ستتقبَّلنَ بفرحٍ تلك التي سيختارها الربّ لتكون رئيستكنَّ العامَّة. رائعةٌ هي سُبُل الربّ إِن نحن أَتحنا له أَن يستخدمنا كما يشاء ».

ولكن، قُبَيْل انعقاد المجمع، كانت الأُخت أَنييس رفيقـة الأُمّ الأُولـى، ومـدبّرة الجمعيّة الأولى آنذاك، والأخت نيرمالا رئيسة فرع المتأمِّلات، – وهي التي خلفـت الأُمّ تيريزا على رئاسة الجمعيّة في آذار ١٩٩٧ – قد زارتا "الأَب فـان إِكزيم" الذي واكب نشوء الجمعيّة، والذي كانت الأُمّ تيريزا تعدُّه شريكًا فـي تأسيسـها؛ وكـان، حينئذٍ، معتكفًا، طريح الفراش؛ وقد استوضحتْه الأختان عن حقِّ المرسلات في إِعادة انتخاب الأُمِّ تيريزا، رغم استقالتها التي قبلتها روما، وحجَّتهنَّ في ذلـك أَنَّ الأُمّ مـا برحت نشيطةً، وتنهض بأَعمالٍ لا يقوى على مثلها سواها، وأَكّدَتَا إِجماع الأَخـوات على التشبُّث بها رئيسةً عليهنّ طالما ظلّت على قيد الحياة، وقادرةً على العمل. وبيّن الأَب إِكزيم لزائرتَيْه أَنّ من حقّ الأَخوات إِعادة انتخابها، فهي بصفتها عـضوًا فـي المجمع، تَتَمَتَّع، كجميع الأُخريات بالحقّ في أَن تنتَخِب وتُنتَخَـب، علـى أَن يوافـق الفاتيكان على إِعادة انتخابها، بعد أَن تولّت الرئاسة دوراتٍ عديدةً متعاقبةً. وعـادت المرسلتان، تطفران فرحًا، لنقل البشرى السارّة لأَخواتهما.

وفيما كانت وسائل الإِعلام ماضيةً في تكهُّناتها حول الخليفة المحتملة، فاجأت الأَخواتُ المشتركاتُ في المجمع العالمَ بإِجماعهنَّ على إِعادة انتخاب الأُمِّ تيريزا، وأَقمنَ، بذلك، دليلاً علنيًّا وجماعيًّا على اعترافهنّ بأَفضال تلك التي قَطَنها، أَبدًا، همُّ مآسي الآخرين، وعلى يقينهنّ بأَنَّ مجرَّد حضورها، رغم عوائقها الجسديّة، يمثّل ضمانًا لجدوى المشاريع التي كانت الجمعيّة مُقْدِمةً عليها، والتي كانت تحتاج إِلى سحر تأثيرها، ولاسيّمَا في الدوَل التي كانت خاضعةً للحكم الشيوعيّ. لقد أَثبتت مرسلاتُ المحبَّة، مجدّدًا، أَنَّهنَّ لا يرتضينَ بسوى أُمّ تيريزا واحدةٍ يلتمسنَ منها المضيّ قُدُمًا في مهمّتها، ولو أَدّى ذلك إِلى قضائها نحبها وهي تعمل، وبقاءَها رئيسةً عامَّةً عليهنَّ طالما ظلَّ لديها، على ذلك، بقيّةٌ من طاقة.

ومع عزوف الأُمِّ عن الرئاسة، إِلاّ أَنَّه شقَّ عليها تخييبُ رجاء أَخواتها، فأَعلنت: "**إِنّني معتلّةٌ، وقد شختُ، ولم أَعدْ قادرةً على إِدارة هذه الجمعيّة كما كنتُ أَفعل لعشر سنواتٍ خلت... ولكن إِن كانت تلك هي مشيئة الربّ، فسأفعل ما بوسعي فعله**".

وقد أَشاع قرارُ إِعادة انتخاب الأُمِّ تيريزا الاطمئنان والفرح في الفاتيكان الذي سارع إِلى الموافقة عليه، واحتفظ لنفسه بحقِّ إِعلانه على الملأ.

وبتوجيه من الأَب الأَقدس تقرَّر الاستعاضة عن ستِّ مدبِّراتٍ بأَربع فقط، على أَن تتولّى كلٌّ منهن مهامّ محدَّدةً، ممّا يُخفِّف من أَعباء الرئيسة العامّة، ويتيح لها التفرُّغ للمهمّات الخطيرة، فتكون المدبِّرةُ الأولى ساعدَها الأيمن، وتحلّ محلَّها في حالات السفَر والعجز، وتضطلع بإِدارة الأَعباء اليوميَّة، فيما تنهض المدبِّرة الثانية بأَمانة الجمعيّة العامَّة. وقد انتُخبت الأخت "فريديريك" مدبِّرةً أُولى، والأخت "جوزيف ميخائيل" مدبِّرةً ثانيةً، والأُخت "برسكيلا" مدبِّرةً ثالثةً، والأخت "مونيكا" مدبِّرةً رابعةً. وكانت الأُخت "فريديريك" قد تولَّت، من قبلُ، مهمَّة المدبِّرة الأُولى لفترة ستّ سنواتٍ، وهي إِنكليزيَّةٌ مالطيّة المولد، أَمّا المدبِّرات الثلاث الأُخريات فهنديّات. وكانت الأخت "مونيكا" هي الوحيدة التي تتولّى مركز مسؤوليّةٍ هامًّا للمرَّة الأُولى.

مرسلات المحبّة في بغداد

كانت الاستعداداتُ لحرب "عاصفة الصحراء" كابوسًا يؤرِّق الأُمّ تيريزا، فكتبت إِلى كلٍّ من الرئيسيْن جورج بوش وصدَّام حسين الرسالة التالية:

« أكتب إِليكما، والدموع في مآقيَّ، وحبُّ الله في قلبي، كي أَتوسَّل إِليكما، باسم الفقراء، وباسم الذين ستحولّهم إِلى فقراء الحربُ التي نخشاها إِن هي تمّت. أَرجوكما، من كلّ قلبي، أَن تفعلا كلَّ مستطاعٍ لإِحلال سلام الله، وللمصالحة.

"لكلٍّ منكما أَسبابه، وهمٌّ مواطنيه، ولكن أَنْصِتا لمن جاءَ ليعلِّمنا السلام. إِنّكما تمتلكان وسائل تدمير حضور الله وصورته، وخلائقه من رجالٍ ونساءٍ وأَطفالٍ. أناشدكما الإِنصات إِلى مشيئة الله الذي خلقَنا لنعيش في حبِّه، لا لكي يُدمِّرَنا بُغْضُنا المتبادَل.

"في المدى القريب، قد يكون غالبٌ ومغلوبٌ في هذه الحرب التي نخشاها جميعنا. ولكن أَيّة كانت النتيجة، لا شيءَ يبرِّر الآلام والموت التي ستسبّبها أسلحتكما...

"أُناشدكما، وأناشد حبّكما لله وللقريب. باسم الله، وباسم الذين سيعانون البؤس من جرّاء أفعالكما، لا تدمِّرا الحياة والسلام. بل فلينتصر الحبُّ والسلام، وليبقَ اسماكما رمزًا للخير الذي ستحقِّقانه، وللفرح الذي ستنشرانه، وللحبِّ الذي ستشاركان في بعثه... ».

وكان البابا بولس السادس قد جعل من الأُمِّ تيريزا سفيرةً للڤاتيكان في العالَم ينتدبها للتَّحدُّث نيابةً عنه في محافل دوليَّة متعدِّدة؛ وعلى نهجه سار البابا يوحنّا بولس الثاني، الذي توسَّم فيها دعمًا منيعًا للكنيسة. وقد أَوفدها في مطلع عام ١٩٩٠ إلى بغداد للمشاركة في مؤتمر المسؤولين الدينيّين حول أَزمة الخليج. وكانت تلك مناسبةً لِلأمّ كي تسبُرَ معاناة الشعب العراقيّ من جرّاء عواقب الحرب؛ وقد نأَتْ بنفسها عن أَيِّ حكمٍ سياسيٍّ على الأَحداث، وانصبَّ كلُّ اهتمامها على معاناة الناس، وصرَّحت بهذا الشأْن: "لقد مضيتُ إِلى العراق حيثُ وقفتُ على تمزُّقات مضنية: بيوتٌ كثيرةٌ مدمَّرةٌ، وشيوخٌ بلا مأوًى، وطوابير ممّن يتّمتْهم الحربُ، وأَطفالٌ يعانون سوء التغذية".

واستوضحتْ وزيرَ الصحَّة عن احتياجات العراق الطبِّيَّة والإِنسانيّة، وأَذهلتها مأساويّة النقص في الأَغذية والأَدوية الأَساسيّة، فاستنفرت المتعاونين معها عبر العالم الذين هرعوا إِلى إِرسال مئات أَطنان الأَدوية والأَغذية إِلى ذلك الشعب المُمتَحَن.

وأَخذت الأُمُّ تُعِدُّ العدّة لافتتاح مركزٍ للمسنّين وآخر للأطفال والأيتام في العراق.

وفي عام ١٩٩١ شخصت، ثانيةً، إِلى بغداد، بدعوةٍ من الرئيس العراقيّ، مصطحبةً، أَوّلاً، اثنتين من أَخواتها. وعرضت عليها الحكومةُ بناءً رسميًّا كبيرًا كي تجعل منه مأوًى للأطفال؛ ولكنّها لم تكن تستسيغ الأَبنية الفخمة الخاوية من الروح. وما عتَّمت أَن اكتشفت، في قلب العاصمة العراقيّة، بيتًا مبنيًّا داخل سور دير للبينيدكتيّين، سُرعان ما أُهِّل لاستقبال الأَطفال المعاقين والمصابين بسوء التغذية. وقدَّمت لها الحكومة العراقيّة، أَيضاً، سيّارةً حُوِّلت إِلى مستوصف متنقِّلٍ، للعناية بالمرضى البؤساء، والعاجزين عن التنقُّل. وسرعان ما التحق بالأُمِّ وأُختيْها خمسُ مرسلاتٍ أُخرياتٍ لمواجهة الاحتياجات الجسيمة.

وأَخيرًا، في ٢٥ تشرين الأَوَّل من عام ١٩٩١، تمَّ افتتاح "دار المحبّة" في بغداد، التي عكفت على غوْث جميع المنكوبين العراقيّين أَيًّا كان دينهم أَو جنسهم.

وكان القوم يتزاحمون لرؤية الأُمِّ، ويأتونها بأَولادهم كي تباركهم، وكان إِيمانهم يثير اندفاعها، فكتبت: "**من كان يظنّ أَنَّ مرسلات المحبَّة سيأتين إِلى هذه المناطق فيشهدنَ لكلمة الله بمحبَّتهنَّ؟ لم أكن أَتخيَّل أَنَّ حضورنا سيوفّر لكلّ هؤلاء هذا القدر من الفرح. وكم من الآلام هنا!**"

وغادرت الأُمُّ بغداد في ٣٠ حزيران على متن طائرةٍ تابعةٍ للأُمم المتَّحدة، ومن وحي مآسي الحرب كتبت إِلى "أَبنائها الأَعزاء عبر العالَم":

« إِزاءَ الآلام المريعة التي تولِّدها الحرب، يجول في خاطري أَنّ أَقوالاً وأفعالاً خاليةً من المحبَّة قد تؤتي نفس النتائج، فلا تدمِّر البيوتَ فحسب، بل تدمِّر صميمَ قلب الحبّ، وَالسلام، والوحدة، محطِّمةً صرح مجتمعنا الرائع الذي أَشادته سيّدتنا العذراء بحبٍّ جمّ. أعلم أنّكم، جميعكم، تحبّون أمّكم العذراء، وأَنَّكم لن تدَّخروا جهدًا لتعبِّروا لها عن حبِّكم وشكركم. ولستُ أَطلب منكم سوى أَمرٍ واحدٍ: كونوا مرسلي محبَّةٍ حقيقيّين، وارووا عطش يسوع إِلى النفوس، بسعيكم لخلاص وتقديس جماعتكم، وأُسرتكم، والفقراء الذين تخدمونهم. ولْنُصَلِّ ».

وفي تلك الأَثناء، أَنشأَت مرسلاتُ المحبّة، أَيضاً، في أَدّيس أَبيبا، مركزًا لاستقبال مرضى الإِيدز، فارتقى، بذلك، عدد مراكزهنّ في الحبشة إِلى تسعةٍ.

وزارت الأُمُّ، سرًّا، كلاًّ من كمبوديا ولاووس، حيثُ كان النظام الشيوعيُّ قد أَمعن في اضطهاد الجماعات المسيحيّة التي كانت، من قبلُ، مزدهرةً؛ وقد تحدَّثت إِلى حكّام البلاد الجُدد، وظفرت بالموافقة على افتتاح مركزٍ في كمبوديا، نهض شاهدًا على عطف المسيح في تلك البقعة الجريحة من العالم.

أُمنيّةٌ غاليةٌ تتحقَّق: مرسلات المحبّة في أَلبانيا

ظلَّت الأُمنيّة الأَغلى على قلب الأُمّ هي توفير وجودٍ لجمعيّتها في موطن آبائها وأَجدادها، أَلبانيا، التي تضمُّ نحو ثلاثة ملايين نسمةٍ، منها ١٢% على الكاثوليكيّة، و١٦% على الأورثوذكسيَّة، ومعظم الباقين مسلمون. وكانت تلك الدولة قد انفردت بإِعلان ذاتها دولةً ملحدةً، ومارست إِلحادًا من التشدُّد والمغالاة، بحيثُ كان يُحكم بالإِعدام رميًا بالرصاص على كلّ من يُقبَض عليه متلبِّسًا بذكر اسم الله. وقد حُظِر، مدى سنواتٍ طويلةٍ، كلُّ ممارسةٍ دينيّةٍ، ومنذ عام ١٩٦٧، بقيادة الطاغية "أَنـڤير هودجا" الذي حكمَ البلاد بالحديد والنار، أُغلقت المساجد والكنائس، وسائر أَماكن العبادة، وهُدِم بعضها، في حين حُوّل بعضُها الآخر إِلى نوادٍ ودورٍ للسِّينما؛ وقد زُجَّ في السجون بمئات الأَساقفة والكهنة والراهبات، سيموا العذاب واستُشهد العديد منهم في سبيل إِيمانهم بالمسيح. أَمَّا الذين نجوا من الموت فلم يكن يُسمح لهم بالتجوُّل إِلاّ بترخيصٍ، وكانوا يخضعون لرقابةٍ صارمةٍ.

وكان الطلاّب يُحرَّضون على الوشاية بوالديهم، إِن هم صلُّوا، أَو احتفظوا بإِيقوناتٍ وصلبانٍ وأَناجيل. وكان التعليم الدينيُّ محظورًا، وعلى المؤمنين أَن يتكتّموا على إِيمانهم.

ولطالما طوت الأُمّ بين ضلوعها سرَّ حزْنٍ بليغٍ، لكيلا تُشهِّر بحكومة أَلبانيا التي حظرت على أُمِّها وأُختها الكبرى السفر إِلى إِيطاليا لمشاهدتها ومشاهدة أَخيها لازار، رغم وساطة شخصيّاتٍ رفيعةٍ كالرئيس ديغول، والرئيس كينيدي، وأَمين عام الأمم المتّحدة يوتانت، وأنديرا غاندي، وطائفةٍ من وزراء خارجيّة العالم. وكم حزَّ في نفس الأُمّ، وهي التي أَنفقت حياتها في خدمة المرضى والمحتضرين، ألاّ تُمنَح فرصة تخفيف آلام وأحزان أَحبِّ كائنَيْن على قلبها، في وحدتهما ومرضهما.

وفي أَعقاب وفاة الديكتاتور، أُذِن للأُمّ، في آب ١٩٨٩، بزيارة أَلبانيا، وكانت

تلك خطوةً أولى مهَّدت لتحقيق أُمنيَّتها بافتتاح مراكز لجمعيّتها في موطن آبائها. وقد لحظت، أَثناء تلك الزيارة، تعطُّش المسيحيّين إِلى كلّ ما يرمز إلى الدين من صلبانٍ وإِيقوناتٍ، وكتبٍ مقدَّسةٍ، وكتب صلواتٍ.

وشرعت الأَوضاع تشهد انفراجًا بين عامي ١٩٨٩ و١٩٩٠، ولكنَّه كان انفراجًا خجولاً وئيدًا، متردِّدًا، لم يواكب التحوُّلات الجذريّة التي حدثت في سائر الدوَل التي كانت خاضعةً للحكم الشيوعيّ.

وفي غروب عام ١٩٩٠، وافق حاكم البلاد الجديد "رامز عاليا" على ترميم بعض أَماكن العبادة؛ وفي الرابع من كانون الأَوّل من ذلك العام، أَمضت الأُمّ، في تيرانا، يومًا تفقَّدت فيه تقدُّم بناء مركزٍ لأَخواتها هناك. وقد رحّب بها الرئيس "عاليا"، وهنّأها على عملها الإِنسانيّ، قائلاً: "**يُسمّونك الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة، ولكنّك، هنا، الأُمّ تيريزا الأَلبانيّة**". وقد أكدْت له الأُمُّ أَنّها، وأَخواتها، لا يرغبنَ إِلاَّ في تقديم بعض الحنان والحبِّ لشعبه. وردّ عليها الرئيس أَنّ السماح بافتتاح مركزٍ لها في البلاد يقتضي منه خرق القانون، فأجابته: "**إِنّني مستعدَّةٌ لخرق القانون من أَجل مجد الله**".

وأَخيرًا في الثاني من آذار ١٩٩١، طارت الأُمُّ إِلى تيرانا برفقة فريقٍ من أَخواتها وكاهنٍ كرواتيٍّ، وكان بانتظارهنّ بيتٌ على مقربةٍ من كنيسةٍ بات لهنَّ مقرًّا. وهكذا اكتملت فرحتها بافتتاح أَوَّل مركزٍ لمرسلات المحبّة في تيرانا، حيثُ مكثت ستّة أسابيع، وتسنّى لها التخشُّع أَمام قبرَيْ أُمّها وأختها؛ وكان تأثّرها بالغًا، عندما لحظت أَنَّ أَيادي مجهولةً كريمةً كانت دائبةً على العناية بذينِك القبرَيْن. وقد أَثلجت صدرها رؤية الجموع تتراصُّ، كلَّ يومٍ، أَمام مركز المرسلات، فترحِّب بهم، رغم وهنها، مشرقةَ المحيّا، وتباركهم مؤكِّدةً: "**لقد جئناكم بحبِّنا الرقيق، وبعنايتنا، كما نفعل في كلِّ مكانٍ في العالم؛ سنبدأ بتؤدةٍ، وسندرس احتياجاتكم**". وكان الشعب يواجه المرسلات، أَينما مضينَ، بهتاف: "نونًا تيريزا، نونا تيريزا".

وفي غضون ثلاثة أسابيع افتتحت الأُمُّ مركزَيْن آخرَين في أَلبانيا، وقد وهبتها الحكومة بناءين كانت تشغلهما مؤسَّساتٌ حكوميّةٌ، وبناءً على إِلحاحها أَعادت للفرنسيسكانيّين بناءً آخر كانت قد صادرته، ووهبه الفرنسيسكانيّون لمرسلات المحبّة

اللواتي ابتعنَ، أَيضاً، بيتًا صغيرًا حيثُ كنّ يعلّمنَ مبادئ الدين المسيحيّ قومًا كـانوا في جوعٍ شديدٍ إِلى الله.

وبفضل مساعي الأُمِّ الحثيثة أُعيد افتتاح عدَّة كنائس ومساجد كانت قد أغلِقَتْ منذ عشرين سنةً. إِحدى تلك الكنائس هي كاتدرائيّة القلب الأَقدس التي كانت قد حُوِّلـت إِلى مسرحٍ شعبيٍّ، وأزيل عنها الصليب، وقد بادر، في حينه، رجلٌ مسلمٌ إِلى جمـع أَدوات التقديس والذَّبيحة وإِخبائها؛ وقد فاض فرحًا وسعادةً بإعادتها للأُمّ تيريزا، كي تُستخدم من جديدٍ في ما وُجدت من أَجله؛ وقد تراصّ الآلاف للمشاركة في حـضور القدّاس الأَوّل الذي احتُفِل به، بعد إِعادة افتتاحها.

ثمّ جاهدت الأُمُّ لإعادة تأهيل جامعٍ، وقد دأبت هي وأَخواتها على تنظيفه، ممّـا أَسهم في توثيق العلاقات بين المسلمين والمسيحيّين.

وقد احتفل بقدّاس تدشين مركز مرسلات المحبّة الأَوّل فـي أَلبانيـا، الأَب "زفّ پـللومبي" الذي كان قد اعتُقل سنواتٍ طويلةً، على غرار معظم الكهنة.

عن ذلك المركز كتبت الأُمُّ تيريزا: **"حاليًّا مؤسَّساتٌ كثيرةٌ تودُّ أن تستقرّ فـي أَلبانيا، ولكنّ ذلك متعذِّرٌ عليها؛ فلِمَ أُذِنَ لنا؟ لستُ أَدري. ولكن، على كلّ حالٍ، وبما أنّنا بتنا هناك، يتوجَّب علينا أَن نصبح أَمثلةً للحقيقة.**

"في ١٥ آب ١٩٩١، أَعدّت أَخواتنا في أَلبانيا مئتين وخمسين طفلاً للمناولـة الأولى، وهنَّ يُعدِدْنَ الآن ثلاث مئة ولدٍ لعيد الميلاد. وقد جاءتنا عـشرون طالبـة رهبنةٍ بعضهنّ لم يُعمَّدْنَ بعد، وإِنّني على عجلةٍ لإرسالهنّ إِلى روما.

"أَلبانيا، رسميًّا، بلدٌ ملحدٌ، وكان من يتلفّظ باسم الله يُعْدَم فـي الحـال، رميًـا بالرصاص. ولكن عندما التمستُ إِذنًا للرّاهبات بدخول تلك البلاد، اضطُرَّت الحكومة إِلى الشروع بتعديل القوانين. وقد أَعَدْتُ فتح ستّ كنائس، وكاتدرائيَّتيْن، وجـامعٍ، وكانت الكاتدرائيّات القديمة قد حُوِّلت إِلى دورٍ للسينما وملاعب لكرة الطائرة؛ أَمَّـا الجامع فقد انقلب مأوىً للفقراء، وقد وهبتنا الحكومة مقرًّا للفقراء كي نتمكّن مـن إِخلاء الجامع، وقد سهّل هذا الحَدَث البسيط، إِلى حدٍّ بعيدٍ، التفاهم بين الكاثوليكيّين والمسلمين".

واتّضح أَنّ حقل الرسالة في أَلبانيا من الاتّساع بحيثُ لم تكتف الأُمّ بثلاثة مراكز، بل أَلحقتها برابعٍ فخامسٍ، وكلّلت ذلك بإِنشاء مركزٍ سادسٍ للمرسلات المتأَمِّلات، علَّه يكون معين بركةٍ لجميع المراكز الأُخرى.

وبرهن الربّ عن عميق حبِّه للأُمّ تيريزا عندما حقَّق أمنيَّتها الغالية تلك، بما تخطّى كلَّ توقُّعاتها وأَحلامها.

وفي عام ١٩٩١، أُعيدت العلاقات الدبلوماسيّة بين الڤاتيكان وأَلبانيا، وكانت قد قُطِعَتْ منذ عام ١٩٤٥.

الفصل الثالث

شهرةٌ عالميّةٌ وشلاّل تكريم

"رائعةٌ في سبيل الله"

لا شيءَ، ظاهريًّا، كان يجمع بين الأُمّ تيريــزا و"مــالكولم موجيريــدج"، فهــو بريطانيٌّ أَصيلٌ، وصحافيٌّ عالميٌّ، وكاتبٌ موهوبٌ، شُبِّهتْ مذكّراته بكتابات كارليل وروسّو. اعتنق الشيوعيّة في صباه، واندفع في تيّارها، وأَقام في الاتّحاد السوفييتيّ، مراسلاً لصحيفة "مانشستر غارديان" اليساريّة، وتخبَّط في يمٍّ من الريَــب، وأشــفى، يومًا، على الانتحار. أَمّا هي فقد استحوذ على ذهنها وقلبها حبُّ الله والفقــراء، منــذ طراوة عودها، ثمَّ استولى عليها همُّ جمعيَّة مرسلات المحبَّة، التي أَسَّستها لنشر خدمة أَضعف أَعضاء الأسرة البشريّة؛ وكان إِيمانها راسخًا لا يتزعزع.

كلاهما أَمّا كلكتّا؛ وافاها مالكولم في الثلاثينات يوم كانت محجَّــة النخبــة مــن البِريطَانيِّينَ، ومربع تَرَفهم، قبل عهدها بتدفُّق اللاجِئِينَ الهادر، وباســتغلال معامــل الخيش وأَمثالها لعمّالها استغلالاً وفَّر لأَرباب المصانع ثرواتٍ طائلةً، وحوّل جماعات العمَّال إِلى أَكْوَامٍ من النفايات البشريّة، ممّا قلب المدينة كابوسًا مريعًا. ومــع ذلــك، ومع أَنّه غشيها وهي في أَوْج عزِّها، أَلفاها مدينةً لا يُطاق العــيش فيهــا، وتــنفَّس الصعداء يوم هجرها؛ ولا بدْعَ، بالتالي، إِن أَخذَ منه الدهش كلَّ مأخذٍ عندما علــم أَنَّ راهبةً يوغوسلافيّةً اختارت العيش بين أَكْوَاخهَا، مع ما صارت إِليه المدينة، ولا سيَّمَا حواشيها، من انحطاطٍ، وقذارةٍ، وبؤسٍ. هو جاء كلكتّا، وهي في قمّة أَلقهــا، ونفــر منها، ففرّ هاربًا، وهي جاءتها في غمرة انحطاطها وقرَّرت المكوث فيها. ولا ريــب

أنَّه استشفّ، في قرارها هذا، دليل شخصيَّةٍ فريدةٍ، عنيدة الإِرادة، صلبة التصميم، راسخة الإِيمان، فشدَّه الفضول إِلى معرفتها عن كَثَبٍ، ولا سيَّما بعد أَن نشرت مجلّة "لوك"، مقالاً مستفيضًا عنها، بعنوان "كيف تنشأ القدِّيسة". واهتبل موجيريدج سانحة وجود الأُمّ تيريزا في لندن، بُغيةَ تأسيس أَوّل فرعٍ لجمعيّتها فيها، فأَجرى معها لقاءً تيليفزيونيًّا لصالح محطَّة الإِذاعة والتيليفزيون البريطانيَّة.

فيما يتعلّق بموجيريدج كان ذلك اللقاء جزءًا من عمله الروتينيّ في محطَّة الإِذاعة البريطانيّة، أَمّا للأُمِّ، فكان واجبًا لا تستسيغه كثيرًا، فالتحدُّث إِلى وسائل الإِعلام لا يستهويها، وإِن هي أَقدمت عليه، فبصفته جزءًا من واجبات رسالتها؛ وقد صرّحت، لاحقًا: "**دُعيتُ إِلى الردّ على أَسئلة مالكولم موجيريدج، وأَنا أَجهل من هو**".

حينذاك لم يَجُلْ ببال أَحدهما أَيُّ أَثرٍ سيكون لذلك اللقاء في مسيرة كلٍّ منهما.

وتمّ اللقاء في دير الطفل المقدَّس، حيثُ وصلت الأُمّ متأَخّرةً بعض الشيء، عن موعدها، وكانت أَمارات نفاد الصبر قد شرعت تظهر على موجيريدج؛ وهمَّت الأُمُّ بالتحدُّث إِلى أَصدقائها، غير أَنَّ الصحافيّ شدَّها بعنفٍ، ومضى بها، بخطًى حثيثةٍ، إِلى حيثُ كانت الكاميرات تنتظرها.

وُلوجُها حجرةَ التصوير كان حَدَثًا نادرًا، فمع بساطتها وتواضعها، اتَّضح لموجيريدج أَنَّ وجهها، الذي لم يكن قد رآه حتّئذٍ، يتميَّز عن جميع الوجوه الأُخرى، ويرتدي طابعًا ومعنًى يجعلان منه وجهًا يتعذَّر نسيانه، ما أَوحى له هذا القول: "**مع ما نحن فيه من أَنانيّةٍ وميولٍ جسديّةٍ – يعجز حتَّى الزمن عن شفائها – نبتهج لرؤية نفسٍ متحرِّرةٍ من رداءاتنا**".

كان الصحافيّ قد أَعدّ لضيفته أَسئلةً شبيهةً بتلك التي أَلِفَ طرحها على نُظَرائها، ولكن سُرعان ما اتّضح له أَنّها من نمطٍ مختلفٍ عن كلِّ من عرفهم وأَجرى معهم لقاءاتٍ، فمعظم هؤلاء يتوخّون إِبراز شخصيَّاتهم، ويملؤون وقت اللقاء بِثَرْثَراتٍ جوفاء، ويناقشون في ما يجهلون، ويجهدون في التدليل على أَنَّ كلَّ شيءٍ موضع شكٍّ، في حين كانت الأُمُّ تردّ بأَجوبةٍ وجيزةٍ، بسيطةٍ، صادقةٍ، مكثَّفةٍ، نابعةٍ من قناعاتٍ عميقةٍ مُعاشةٍ، بحيث شرعت تخامر "موجيريدج" الخشية من أَلاَّ يستطيع المضيَّ في الحوار، مدّة نصف ساعةٍ، حسب ما كان مقرَّرًا.

لقد انحسر اللثام، فجأةً، وفي غضون دقائق، أَمام "موجيريدج"، عن عالَم الأُمّ تيريزا الفريد، واستقرَّ في خَلَده أَنَّ كلَّ ما يُدبّجه من مقالات تصف البؤس في كلكتّا، لا يُساوي بسمةً توجِّهها إِلى طفلٍ يتيمٍ تلك التي انحصر كلُّ زادها في إِشعاع محبّة المسيح من قلبها وعلى شفتَيْها؛ فقلبُها يَتَّسع للجميع، لأَنَّهم كلّهم أَبناء الله، الذين من أَجلهم مات يسوع، وكلّهم يستأهلون الحبَّ كلّه، على السواء. تلك المساواة هي وحدها الصادقة والمتينة، مساواةٌ تعجز عن فرضها الشرائع والقوّة، والاحتجاجات، والثورات، ولا يمكن أَن تنبع إلاّ من حبِّ الله الذي يَهمي مطرُه وتسطع شمسه على الأَخيار والأَشرار، الفقراء والأَغنياء، بلا تمييز.

وقُيِّض لموجيريدج التيقُّن من أَنَّ تمثُّل الأُمِّ تيريزا وأَخواتها بالفقراء ليس صيغةً بلاغيّةً فحسب، فهنَّ يَطعَمْنَ نفس طعامهم، ويلبسنَ نفس لباسهم، ويعادلنَهم حرمانًا، فقد امتنعنَ، مثلاً عن استخدام المراوح، وكلّ ما من شأنه تخفيف وطأة حرِّ البنغال القائظ، ممّا لا يقوى على استخدامه الفقراء؛ وحتّى أَثناء انصرافهنّ إِلى الصلاة في المُصلّى المشرع النوافذ أَملاً في عبور نسماتٍ منعشةٍ، تذكِّرهنَّ، أَبدًا، صيحاتُ الجَلَب والصخَب المتدفّقة، باطّرادٍ، من الشارع، بالدافع الذي حدا بِهنَّ إِلى المجيء، وبالدور الذي دُعينَ إِلى أَدائه.

وقد ردَّت الأُمُّ على النقد الذي يندِّد بضآلة الوسائل الطبِّيَّة التي تستخدمها، هي وأَخواتها، في معالجة مرضاهنّ، بأَنَّ المشافي والمؤسَّسات الطبِّيَّة هي المكان المُعيَّن للعلاج، وهي تتمنّى أَن تتزوَّد تلك المؤسَّسات بأَكثر ما تستطيع من الوسائل الحديثة وأَجداها، أَمّا هي وأَخواتها فمهمَّتهنَّ تقديم شيء آخر: محبّة المسيح، ولا سيّما لمن تأبى المشافي والمؤسَّسات الطبّيّة العنايةَ بهم، لأَنَّها لا تجد في شفائهم أَملاً.

وانتهى "موجيريدج" إِلى هذه النتيجة: "**من الواضح أَنَّها، إِحصائيًّا، لا تفعل سوى القليل الذي لا يُعتدُّ به، بيد أَنَّ المسيحيّة ليست رؤيةً إِحصائيّةً للحياة: ففرح السماء بخاطئٍ واحدٍ يتوب أَعظم من فرحها بتسعةٍ وتسعين صالحًا يمارسون حياتهم في الفضيلة؛ منطقٌ يتحدّى الإِحصاء. وتؤكّد الأُمّ أَنّ النشاطات الاجتماعيّة تستهدف نتيجةً، أَمّا الحبُّ المسيحيُّ فيستهدف الإِنسان، هي تتشبَّث بالأَرقام وهو يَتَطَلَّع إِلى الإِنسان الذي هو، أَيضًا، الله**".

وأَشار "موجيريدج" إِلى التزايُد المرعب في نسبة الولادات في كلكتّا، متسائلاً عن جدوى اهتمام الأُمِّ بأَطفالٍ مهجورين سيُكتب عليهم، عاجلاً أو آجلاً، الموتُ من سَقَمٍ أَو من سوء تغذيةٍ. ولكن اتَّضح، له من ردِّها، كم كان بعيدًا عن رؤيتها لذلك الواقع، ولكأَنَّه كان يستفسر شاعرًا عن جدوى انتشار الأَزاهير في الحقول. ثمّ جاءه الردُّ القاطع يوم صوَّرها وهي تمسك بيدها طفلةً هزيلةً كانت قد أَنقذتها من براثن الموت، وبدا وجودُها كلُّه وكأَنَّه معجزةٌ، وقد هتفت الأُمّ في اندفاعٍ ودهشةٍ: "**انظروا إنّ الحياة تخفق فيها!**" وكان محيّاها مشرقًا، منتصرًا، ممّا حمل "موجيريدج" على التعليق: "**من شأنها أَن تكون لجميعنا أُمًّا تمجِّد خيرنا المشترك، الحياةَ فينا، وفي عالمنا، وفي الكون، حياةً قد تكون شعلةً هشَّةً أَو جمرًا مضطرمًا، ولكنّها، أَبدًا، نفحةٌ إِلهيّةٌ لا يجرؤ أَحدٌ على إِطفائها، حتَّى بدافع حججٍ إِنسانيّةٍ ساميةٍ**".

ويمضي "موجيريدج" في تعليقه قائلاً: "**إِنَّ منطق الأُمّ، في هذا المجال مُحكَمٌ، وكلُّ منطقٍ آخَر يفسح المجال للجريمة. فإِمّا أَن تكون الحياة دائمًا، وفي كلّ ظرفٍ، مقدَّسةً، أَو إِنّها مجرّدةٌ من القيمة الذّاتية، ولا يُعقَل أَن تكون طورًا هذه، وتارةً تلك. إِنَّ الله الذي تخدمه الأُمُّ تيريزا لا يسعه أَلاّ يكترث بسقوط عصفورٍ. ولئن ازورّ الإِنسان المخلوق على صورة الله عن هذا الحبِّ الشامل، وصاغ أَحكامه انطلاقًا من احتياجاته ومخاوفه، فالأَمر مريعٌ، ويحمل في طيَّاته عواقبَ مُرعبةً.**

"**ولئن كان الخَلَف سيُعنى بنا وبأفعالنا، فإِنّني أَتساءل عمّا سيُصدره من حكمٍ في جيلٍ أَفلح في تطوير تقنيةٍ قادرةٍ على إِنتاج كلِّ شيءٍ حسب رغبته، ومتمكِّنةٍ من اكتشاف الكون بل من استعماره، ومع ذلك يستحوذ عليه الرعب من الافتقار إِلى الطعام والمجال. لا جَرَم أَنَّ هذا الموقف هو الأكثر حقارةً وإِثارةً للسُّخرية. عبر تاريخ البشريّة قضى دعاةُ الحدِّ من الإِنجاب وممارسوه على ذواتهم، تاركين المستقبل للمُنجبين، وارتكبوا إِبادةً جنسيّةً ذاتيةً منقطعة المثال**".

تلك هي بعض الخواطر التي عَبَرت في خَلَد "موجيريدج" أَثناء لقائه الأَوّل بالأُمِّ تيريزا. ولكنّه كان يخشى أَلاّ يكون لبساطة حديثها واقتضابه أَثرٌ كافٍ في الجمهور، فَضْلاً عن أَنَّ الإِخراج الفنّيَّ كان من الضحالة بحيث خطر للمحطّة أَن تعرض ذلك اللقاء في وقتٍ متأَخِّرٍ من أَيّام الأُسبوع، وفي فترةٍ تكون فيها كثافة الاستماع

متراخيةً. غير أَنّ أَصدقاء الأُمِّ أَفلحوا في جعله يُذاع عشيّة يوم أَحد، فإِذا بأَصدائه تتخطّى كلَّ توقُّعٍ، على نحوٍ لم يسبق له نظيرٌ. وانهال على المحطّة طوفانٌ من الرسائل، ومن الهبات والتبرُّعات لدعم عمل مرسلات المحبَّة، بحيثُ اضطرّت المحطّة، استجابةً لرغبات آلاف المشاهدين، إِلى عرض اللقاء من جديد. فكان لإِذاعته، في الكرَّة الثانية، مثلُ ما كان لإِذاعته الأُولى من أَصداء مدوِّيةٍ أَذهلت "موجيريدج" نفسه الذي تدفّقت عليه رسائل التهنئة، كما لم يعهد، قطُّ، بمناسبة أَيٍّ من برامجه. وبالإِجمال اتَّضح أَنّ كلام الأُمّ تيريزا اقتحم بعمقٍ كيان الكثيرين من المشاهدين، وهزَّها هزًّا عنيفًا، وأَخذ تأثيرُه فيهم كلَّ مأخذٍ.

ولقد تجلّى بوضوحٍ أَن استثارة السخاء، والنفاذ إِلى نفوس المشكّكين لا يحتاجان إِلى تقنياتٍ معقّدةٍ، وإِلى حِيَلٍ فنِّيَّةٍ بارعةٍ، بل "**يكفي أَن يبرز على الشاشة نورُ محيّا يتدفَّق محبَّةً، وجه إِنسانٍ لا يعني له العالم شيئًا، ويعني له المسيح كلّ شيءٍ، إِنسانٍ تحرَّر من عبوديّة الأَنا والجسد كي يعيش حرِّيَّة أَبناء الله. وحينئذٍ لن يبقى للأَضواء الكاشفة وللكاميرات أَيُّ دورٍ...**". إِنّ ما حقَّقته راهبةٌ أَلبانيّة المولد، هنديّة الجنسيّة، بدا اضطرابها واضحًا إِزاءَ الكاميرا، لم يُفلح في فعله أَيُّ رئيس أَساقفةٍ أَو عالمٍ دينيٍّ، ما أَدهش الجميعَ حتّى "موجيريدج" نفسه الذي اعترف: "**رسالتُها كانت عَين الرسالة التي دوَّت للمرَّة الأولى لأَلفَيْن من السنين؛ وقد أَثبتت الأُمّ تيريزا أَنّ تلك الرسالة لم يتبدَّل لها معنًى، ولم تفقد من سطوتها شيئًا**"، ولكأَنَّ رسول الأمم كان لسان حالها عندما قال: "لم يعتمد كلامي وتبشيري على أُسلوب الإِقناع بالحكمة، بل على أَدلّة الروح والقوّة، لكيلا يستند إِيمانُكم إِلى حكمة الناس، بل إِلى قدرة الله".

حصيلة ذلك اللقاء التليفزيونيّ تجاوزت عشرين أَلف جنيهٍ من التبرُّعات التي تدفَّقت على صناديق المتعاونين مع الأمّ تيريزا.

وتذكر الأمّ تيريزا عن ذلك اللقاء: "**كان "موجيريدج" قد أَعدّ لائحةً بالأَسئلة، وطرح اثنين منها أَجبته عليهما، ثمَّ تولَّيتُ المبادرة، فأَغفل ورقته**".

معظم الأَسئلة التي كان "موجيريدج" قد أَعدَّها تتعلَّق بالأمِّ تيريزا، وهي تأبى التحدُّث عن ذاتها، ولا ترغب إِلاّ في التحدُّث عن الله، فالعمل كلُّه عمله، وليس لها فيه فضلٌ؛ وقد أُسِر موجيريدج، وهو الصحافيّ العريق المُحنَّك، بشخصيَّتها،

وديناميكيَّتها، ومنعة إِيمانها، فتركها تفرض عليه موضوع حديثها، أَي حبَّ الله الذي كان الدافع الوحيد الذي حدا بها وبأَخواتها إِلى تكريس حياتهنَّ لخدمته في إِخوةٍ وأَخواتٍ لهنَّ، متأَلِّمين.

وأَثناء التصوير في مركز البُرْص، غالبًا ما تخلّى موجيريدج وكين عن الكاميرا لمساعديهما، لأَنّ العَبَرات كان تُغشّي أَبصارهما، عَبَرات تأَثُّرٍ يندُّ عن الوصف، فيما كانت الأُمّ وأَخواتها، وكأَنَّهنَّ خارج نطاق العالَم، وغير آبهات بِالكَاميرَاتِ، يفضْنَ حبًّا صرِفًا على إِخوةٍ أَعزَّاء متأَلِّمين. وقد صرَّح موجيريدج في هذا السياق: "**في كلّ أَسفاري حول العالَم، لم أَشهد مركزًا لمعالجة البرص يُشرف عليه إِنسانٌ مؤمنٌ بفلسفةٍ إِنسانيّةٍ صرْف**".

ويوم قرَّر الفريقُ تسجيل قدّاس المرسلات في المركز الأُمّ، كان يوم إِضرابٍ شامل في كلكتّا، بحيثُ، للمرَّة الأُولى، ساد المُصلّى الصمت، مذْ أَقامت المُرْسَلات في ذلك البناء.

وقد راز "موجيريدج" مدى قسوة حياة مرسلات المحبّة الموغلة في الشظف، وفق المعايير البشريّة، ولكنَّه لاحظ: "**لم أَلقَ، قطُّ، نساءً مشعّات، سعيداتٍ، يغمرهنّ مثل هذا الجوّ من الفرح**"، فالفرح، في رأي الأُمّ، قرين المحبّة، والفقراء يستأهلون أَن يُخدَموا بفرح. ويضيف "موجيريدج": "**بتقبيله قروح الأَبرص المنفِّرة، وجد القدّيس فرنسيس الأَسّيزي الاندفاع لغزو العالَم، ولاستقطاب الأَشخاص الجريئين، في عهده، الذين لم يُقدّم لهم سوى مجد التجرُّد من كلّ شيءٍ، على أَرضٍ قاحلةٍ، حبًّا بالمسيح، ولو هو اقتضى أَقلَّ من ذلك، لكانت الاستجابة أَدنى. مع معرفتي للهند منذ عهدٍ بعيدٍ، لم أكن أَتخيَّل ممكنًا اجتذاب فتياتٍ هنديّات كريمات المحتد إِلى خدمة المحرومين والمنبوذين، الذين التُقطوا من شوارع كلكتّا؛ ومع ذلك، تلك هي المهمّة الأُولى التي توكلها إِليهنّ الأُمُّ تيريزا عندما يأتينَها طالباتٍ الانضمام إِليها. وهنَّ ينهضنَ بهذه المهمّة، لا بدافع الطاعة، بل في فرحٍ واندفاعٍ؛ ويتنافسنَ على امتياز الاضطلاع بها**".

وخليقٌ بالتنويه أَنّه، بعد أَن عُقِد الاتّفاق على تفاصيل الفيلم، واتُّخذت لتحقيقه التدابير، وقُبَيْل الشروع بالتنفيذ، قالت الأُمّ تيريزا لموجيريدج: "**والآن فلنحقّق رائعةً في سبيل الله**". ولقد نزلت تلك العبارة من نفس الصحافيّ منزلةً ساميةً، فتبنّاها عنوانًا للفيلم، ولكتاب عن الأُمّ تيريزا نشره متزامنًا مع الفيلم.

ولفت ذانكَ العملان أَبصار العالَم صوب منجزات الأُمّ تيريزا، وأَذاعا ملحمتها الرائعة الفذّة إِلى أَركان المعمورة؛ فالكتاب نُشر في أَماكن مختلفةٍ، وتُرجم إِلى عشرات اللغات حتّى القليلة الانتشار كالسكندينافيّة والمجريّة، وطُبع، أَيضًا، بلغة "براي" لغير المبصرين، وسُجّل على كاسيتات، كتابًا ناطقًا؛ أَمّا الفيلم فقد تحدَّث بلغة العطف على شاشات التيليفزيون، وفي نوادٍ خاصّةٍ بالمتعاونين مع الأُمّ تيريزا في شتّى أَنحاء المسكونة؛ وكانت تلك هي المرَّة الأُولى التي تُصبح فيها راهبةٌ حيّةٌ نجمةَ شاشةٍ.

ومذّاك تكثَّف اهتمام العالَم بعمل مُرسَلات المحبّة، وباتت حشود رجال الإِعلام والمصوِّرين يترصَّدون الأُمَّ تيريزا في المطارات؛ ومع نفورها من صخَب الإِعلام كانت تتحدَّث وتردُّ على الأَسئلة لقناعتها بأَنَّ العالَم، أكثر من أَيّ وقتٍ آخر، في حاجةٍ إِلى البشرى.

وقد استشفّ "موجيريدج"، بحَدْسه الثاقب، أَنَّ الأمّ تيريزا خير من يستأهل الترشيح لجائزة نوبل للسَّلام، وفي سبيل دعم ذلك الترشيح، ضمَّن كتابه عنها بضع صفحاتٍ تضمَّنت طائفةً من أَقوالها المأثورة.

وقد وقف كلّ دخله من الفيلم والكتاب على دعم مشاريع الأُمّ، ولمَّا صدرت الطبعة النيويوركيّة من كتابه، في تشرين الأَوّل ١٩٧١، أَجرى معها عدّة لقاءاتٍ تيليفزيونيّةٍ في الولايات المتَّحدة، ممّا زاد من شدِّ الأَنظار إِليها.

وفي أَعقاب الفترات التي أَمضاها بالقرب من الأُمِّ تيريزا، تهيّأ لموجيريدج أَن يصرِّح: "**من شأن الخلَف أَن يقرّر بشأن قداسة الأُمّ تيريزا، ولكنَّني أَقتصر على القول أَنّها، في عهد ظلمةٍ، نورٌ يدفئُ ويضيء، وفي عهد قسوةٍ، تجسيدٌ لكلّ حبِّ المسيح. وفي عصرٍ خلا من الله، هي الكلمة القاطنة بين ظهرانينا، ممتلئةً نعمةً وحقيقةً**".

لا جرَم، إِذن، أَنَّه كان لموجيريدج فضلٌ محقَّقٌ في التعريف، عالميًّا، بالأمِّ تيريزا وبعملها؛ غير أَنَّ أَثر الأُمّ في شخصيّة "موجيريدج" وفي مسيرة حياته لم يكن بأَقلّ شأنًا. فطيلة فترة تصوير الفيلم، دأب على مشاركة المُرسلات قدّاسهنَّ الصباحيّ، إِلى جانب الأُمّ تيريزا، ولكنَّه، خلافًا لهنَّ، لم يكن يقترب من الأَسرار. وقد اتَّفق، آنذاك، أَن تبرّع للأمّ ببضع مئاتٍ من الجينيهات، فسارعت الأُمُّ إِلى شراء

كأسٍ وصينيّةٍ للتّقديس كي تُستعملا في مُصلّى مركز الابتداء الجديد، وقالت له: "**هكذا ستَكون، كلَّ يومٍ، قريبًا من جسد المسيح**".

لقد كان "موجيريدج" شديد الإعجاب بعمل الأُمّ، وبصيرًا بدوافعها القائمة على هوًى مضطرمٍ ليسوع، وقد أَحدثت خبرته بها، في نفسه، تحوُّلاً عميق الغور، عبَّر عنه، ببلاغةٍ، في كتابه: "**يسوع، اكتشفته من جديد**". وكانت الأُمّ قد كتبت له في أعقاب ظهور فيلمه عن مرسلات المحبة:

« أظنّ أَنَّ الفيلم قد ساعد القوم على التقرُّب من الله، ومن ثمَّ فقد تحقّق أَملك وأَملي. اليوم، أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، أَظنّ أَنّ عليك استخدام المواهب الرائعة التي منحكَها الربّ في سبيل مجده الأَعظم. كلُّ ما لديك، كلُّ ما أَنت، كلّ ما بوسعك أَن تصير وتفعل، فليكن من أَجله، ومن أَجله وحده. إنّ ما يحدث اليوم على سطح الكنيسة سيعبر، وفي نظر المسيح، الكنيسة هي هي، اليوم وأَمس وغدًا. لقد خامر التلاميذَ نفسُ مشاعر الخوف، والريبة، والفشَل، والخيانة، ولكنَّ المسيح لم يؤنّبهم، بل قال: "يا أولادي القليلي الإيمان ما تخشون؟" أَودّ أَن نتعلّم الحبّ، على نحو ما أحبّ هو، ومنذ الآن... المسيح يرغب في أَن يكون، هو، غذاءَك. الغذاء الحيّ وفيرٌ أَمامك، ومع ذاك أَنت تُعرِّض نفسك للموت جوعًا. إنَّ الحبَّ الشخصيّ الذي يكنُّه لك المسيح لا حدودَ له، في حين أَنَّ العائق الذي يُبعدكَ عن الكنيسة محدودٌ، فاستعن باللاّمحدود على تخطّي المحدود؛ فقد خلقك المسيح لأَنَّه بحاجةٍ إليك. إنّني أَعلم ما يُساورك: رغبةٌ عارمةٌ يواكبها فراغٌ قاتمٌ، ومع ذلك يسوع هو الذي يحبُّك ».

كانت الأُمّ تصبو إلى رؤية "موجيريدج" في أَحضان الكنيسة التي كَلِفَتْ، هي، بها، وخضعت لها بلا تحفُّظٍ؛ ولكن كانت تنهض في وجه "موجيريدج"، دون تحقيق هذه الرغبة، عوائق نابعةٌ من ظلالٍ في تاريخ الكنيسة القديم، ومن بعض ممارساتها الراهنة، ولا يشفع بكلِّ ذلك سوى مثال الأمّ تيريزا وعملها؛ إلاّ أَنّه كان يربأ بنفسه أَن يرتمي في أَحضان الكنيسة لهذا السبب فحسب. في أَغوار ذاته، كان يتمنّى أَن يكون واحدًا من أُولئك الذين يدعوهم الناقوس فيهرعون إلى الكنيسة، فعلى حدّ قوله: "وحدها دون جميع الدوَافع التي تجمَع البشرَ كالإثارة، والطمع، والفضول، والحقارة، والبغض، عبادة الله هي التي تؤلِّف من البشر أُسرةً متحابّةً، وتُزيل الخلافات بين

الطبقات والأَجناس، والفوارق التي يولِّدها تباينُ الثروات والمذاهب، فيهوون جميعهم راكعين أَمام الأَب السماويّ، وابنه المتجسّد، معترفين بأَخطائهم، منعشين رجـاءَهم، مستمدّين من البارقة الرائعة المشرَعة أَمامَهم على الأَبديّة، وعلى مقام خلودهم، طاقة انتزاع يومٍ آخر من براثن الحياة الزائلة الفانية".

كان ينشد قناعات تتغلغل إِلى أغوار كيانه معترفًا: **"كلُّ ما أَستطيع قوله هو أَنَّه لو اتّضح لي بجلاءٍ أَنَّني أَستطيع، بكلِّ صدقٍ وحقيقـةٍ، الانتمـاء إِلـى الكنيسة، لاندفعتُ إِليها بنفاد صبرٍ وفرحٍ جمَّيْن، ولا سيّما أَنَّ ذلك سيُسعد الأُمّ تيريزا"**.

وفي تلك الأَثناء كتبت له الأُمّ: **"لستُ أَدري ما الذي يولِّد في قلبي الرغبة فـي المجيء إِلى إِنكلترا، عندما ستتناول يسوعَ للمرّة الأولـى. وأَعتقـد أَنَّ يـسوع لا يستثير رغبةً لا ينوي تحقيقها"**.

وصَدَق حَدْسُها، وتحقَّقت رغبتُها يوم ميلاد ١٩٨٢، عندما قُبِل في أَحضان الكنيسة الكاثوليكيّة "مالكولم موجيريدج" وزوجته "كيتي". وقد هزّ ذلك الحدَثُ انكلترا هزًّا.

كان الصحافيّ، آنذاك، على مشارف الثمانين من عمـره، وقـد شـرح علـى صفحات مجلّة "تايمز" تأثير الأُمِّ تيريزا في مـسيرته نحـو الكنيـسة الكاثوليكيّـة، فأَوضح: **"إِنّ ما أَدهشني هو رؤيتها لكون المرء مسيحيًّا، وقدرتُها المُذهلـة علـى الحبِّ الممتدِّ إِلى العالم أَجمع، والحيِّز الذي تحتلّه الإِفخارستيّا في حياتها، وتفهُّمها للوهن البشريّ"**. وفي أَعقاب سنواتٍ من التلمُّس والريب، اعترف الصحافيّ والكاتب الكبير موجيريدج: **"كنتُ أَعمى، وَالآن أُبصر.. ويتولاّني شعور بأَنّي عائدٌ إِلى منزل الآب"**، المنزل الذي يَعْمَهُ الكثيرون عن بابه المُشرع على مصراعيه.

نموذجٌ فذٌّ للتّأثير الخيِّر المتبادَل الذي تولِّده صداقةٌ ساميةٌ صادقةٌ.

تكريمٌ وجوائز

قلّما ظفر عبقريٌّ أَو شهيرٌ، أَثناء حياته، بمثل ما ظفرت بـه الأُمُّ تيـرزا مـن تكريمٍ؛ ولئن كُرِّم آخَرون من جرّاء عملٍ خارقٍ قفز بهم فجأةً إِلـى قمَّـة الـشهرة والمجد، أَو تتويجًا لحياة جهدٍ وعطاءٍ أَو بحثٍ، أَو نتيجة تقلُّدهم مناصب رفيعةً تلفت إِليهم أَنظار ذوي الشأْن، وغالبًا ما يكون تكريمهم ضربًا مـن المجاملـة، أَو تبـادل

المصالح، إلاّ أَنَّ تكريم الأُمِّ تيريزا الذي امتدَّ على مدى أَربعة عقودٍ، كان اعترافًا بعملٍ إِنسانيٍّ متَّصلٍ واكب كلَّ مرحلةٍ من مراحل تقدُّمها المطّرد على درب العطاء، وكلّ درجةٍ ترتقيها في سلَّم إِنجازاتٍ مدهشةٍ، انعكست آثارها الخيِّرة على محرومي المسكونة جمعاء؛ فالمؤَسَّسات الإِنسانيَّة تجد في عملها المنقطع النظير في اتّساعه وشموله أُسوةً فذّةً، ومثالاً رفيعًا، والجامعات والمؤسَّسات العلميّة تعترف بأَنّ كلّ ما تُلقّنه من معرفةٍ وعلم لا يرقى إِلى مستوى ما علَّمته الأُمُّ حول حقائق الوجود.

كانت الأُمُّ، بالفطرة، تمقت كلَّ مظاهر التكريم، وتنفر من كلّ وسائل الدعاوة، ولكنّها سُرعانَ ما أَدركت، بواقعيَّتها الراسخة، أَنَّ ما يحيط بتكريمها من تغطيةٍ إِعلاميّةٍ يُعرِّف العالَم بخطورة شأن عملها، فيستدرُّ لها كرم المتبرِّعين الذي يُمكِّن من تحقيق مشاريع ثبتت ضرورتها، وافتقر تنفيذها إِلى مُقوِّمات التمويل، ويستفزّ لجمعيَّتها دعوات نفوسٍ سخيَّة اجتذبتها مُثُل التضحية والخدمة، ويدفع إِلى احتذاء قدوتها وقدوة أَخواتها أُولئك الذين أَدركوا، أَخيرًا، أَنَّ سعادة الحياة عطاءٌ وفداءٌ؛ ويوقظ الضمائر الغافية على مآسي الحرمان والفقر؛ وفوق كلّ ذلك، أَدركت الأُمُّ أَنَّ تكريمها إِن هو إِلاّ اعترافٌ بالفقراء، وتكريمٌ للمنبوذين.

ولا مراءَ أَنّ ما حظيت به الأُمُّ من جوائز وتكريم، اكتسب لها تقدير الحكومات والمسؤولين، فأشرع أَمام رسالتها ومرسلاتها أَبواب البلدان، ووفَّر لجمعيّتها انتشارًا رحبًا حوَّلها ينابيع خيرٍ، وبيادر حصادٍ وفيرٍ.

وربّما هي توسَّمت في مظاهر التكريم والمكافآت دليلاً على أَنَّ أَعمال محبَّتها قد بلغت مراقي الكمال الذي يستأهله الفقراء والمتأَلّمون، فكان لها ذلك مصدر عزاءٍ وتشجيعٍ.

أَوّلُ من كرَّمها، اعترافًا بأَياديها البيضاء، كان البلد الذي تبنَّته وطنًا لها واعتنقت جنسيَّته، عندما أَعلن رئيس جمهوريَّة الهند، في ١٩٦٢/١/٢٦، عن منحها وسام "يادما شري"، أَي "اللوتس العجائبيّ". صحيحٌ أَنَّ ذلك الوسام ليس أَرفع تقديرٍ حكوميٍّ هنديٍّ، إِلاّ أَنَّه كان يُمنح، للمرَّة الأولى، لشخصٍ من غير مواليد الهند، وبالأحرى لراهبةٍ مسيحيّةٍ. وقد أَثار ذلك التكريمُ اللغَطَ والغيرةَ لدى بعض رجال الإِكليروس العاملين في الهند. فوسْوَس بعضُهم في أُذن الأُسقف "دايِر" المُعَيَّن حديثًا رئيس أساقفة على كلكتّا، أَنَّ الكبرياء قد تتسلَّل إِلى نفس الأُمّ بفضل ذلك التكريم، فعليه أَن يمنعها

عنه؛ بيد أَنَّ الكهنة الذين كانوا يعرفونها عن كَثَب سارعوا إِلى دحض تلك الافتراءات مؤكِّدين للأُسقف أَنَّ الكبرياء غريبةٌ عن الأمِّ ولن تعرف، يومًا، إِلى نفسها سبيلاً، وأَنّ حسبه أَن يوضح لها أَنَّ ذلك التكريم لا يستهدفها شخصيًّا، بل يكافئ جهود جميع المُرسَلين الناشطين في ميدان الخدمة في الهند. وعندما هي مثلت أَمام الأُسقف معبّرةً عن عدم رغبتها في الشخوص إِلى دلهي لتسلُّم الوسام، أَجاب: "بل عليكِ أَن تمضي وتتسلّميه".

وفي دلهي التي أَمَّتها في شهر أيلول من ذلك العام، رفضت الليموزين الرسميّة التي أَنفذها المسؤولون كي تقلّها إِلى مكان الاحتفال، وآثرت المضيَّ في شاحنةٍ باليةٍ تخصّ مركز جمعيَّتها هناك، وبها استعرضت صفوف الحرس الجمهوريّ والخيّالة المتأَلِّقين، ومنها انحدرت إِلى القاعة المهيبة حيث اجتمع رئيس الجمهوريّة ورئيس الوزراء، وحشدٌ من الرسميّين، ونفرٌ من المحتفى بهم. كم كانت بساطتها على تناقضٍ مع الجوِّ الفخيم المحيط بها!

السيِّدة پانديت نهرو، شقيقة جواهرلال، وسفيرة الهند في الأمم المتَّحدة، وصفت الاحتفال الذي شهدته بقولها: "**تلك الراهبة المتلفِّعة بالساري، والتي هي تجسيدٌ للتَّواضع نفسه، صعدت إِلى المنصَّة، وتسلّمت الوسام وكأَنَّها تتلقّى بين ذراعيها طفلاً مريضاً أو إِنسانًا محتضرًا؛ وقد استحوذ على الجمهور التأَثُّر والحميًّا، فانطلق تلقائيًّا يصفِّق ويهتف. واغرورقت عينا رئيس الجمهوريّة بالدموع. وقد سألتُ أَخي: "أَليس ذلك مثيرًا؟" فأَجابني: "لستُ أَدري ما تشعرين به، ولكنَّني جاهدتُ طويلاً لكي أَحبس دموعي**".

ولمّا قفلت الأُمُّ عائدةً إِلى كلكتّا، قلَّدت الميداليَّة الذَّهبيَّة التي كُرِّمت بها عنقَ تمثالٍ صغيرٍ للسَّيِّدة العذراء ينتصب داخل واجهةٍ في "نيرمال هرايدي"، وما برحت تلك الحلقة الأولى في سلسلةٍ متماديةٍ من مظاهر التكريم التي قُلّدتها، فيما بعد، تزيّن تمثال تلك التي تعدُّها الأُمُّ تيريزا هي الوحيدة الجديرة بالتكريم؛ ولم يجُلْ، قطُّ، ببالها أَنَّها استأهلت، يومًا، أَيَّ تكريمٍ.

في تلك الأَثناء، وفي ٣١ آب ١٩٦٢، كانت الأُمُّ قد نالت أَوَّل جائزةٍ عالميّةٍ عندما منحتها حكومةُ الفيليپين جائزة الرئيس الراحل "رامون ماغسا يساي"،

بصفتها "المرأة الأَكثر استحقاقًا في آسيا عن تعاونها وتفهُّمها اللاّمحدودَيْن، وتفانيها الذي لا يكلُّ في خدمة الفقراء".

وكانت الأُخت "فرانسواز" رئيسة مركز أكرا قد هتفت لها، قُبَيْل ذلك، طالبةً مبلغ خمسين أَلف روبيةٍ لإِنشاء مركزٍ للأَطفال المهجورين "شيشو بهاڤان"، في تلك المدينة، واضطُرّت الأُمّ إلى الردِّ عليها:

– "إِنَّه لمبلغٌ جسيمٌ، يا ابنتي، ولستُ أَملك منه فلسًا الآن. سأَتّصل بك قريبًا".

وإِذ بجرس الهاتف يرنُّ من جديد، وكان المتحدِّث مندوب وكالة صحافةٍ أَجنبيَّةٍ يقول:

– "الأُمُّ تيريزا؟ يسرُّنا إِبلاغك أَنَّ الحكومة الفيليپينيَّة قد خصَّتْكِ بجائزة ماغسايساي، فلك أَخلص تهانينا؛ ونعلمك أَنَّ مبلغ الجائزة هامٌّ.

– "إِنّني لا أَستأهل أَيَّة جائزةٍ، وإِنَّما مكافأتي هي فرحي بخدمة يسوع في الفقراء.

– "ولكن ما ستفعلين بمبلغ الخمسين أَلف روبيَّةٍ الذي يُرافق الجائزة؟

– "ماذا؟ خمسون أَلف روبيَّةٍ؟ أَظنُّ أَنَّ الربّ يُريد، حقًّا، إِنشاء "شيشوبهاڤان" في اكرا".

ومذّاك غدت ترى في الجوائز تدخُّلاً من العناية الإِلهيَّة لتحقيق مشاريع رسالتها.

إِحدى الأَخوات كانت إِلى جانبها أَثناء تلك المكالمة الهاتفيّة، وقد هرعت كلتاهما إِلى المُصلّى لتقديم الشكر، وسمعت الأُمُّ أُختَها تتمتم: "أُومن، يا ربّ، ولكن زدني إيمانًا".

تلك الجائزة التي أَجمع مؤتمرٌ للدُّول الآسيوية على منحها إِيّاها، بصفتها "المرأة الأَكثر استئهالاً لإِسهامها في التفاهم بين الشعوب"، أَفضت إِلى إِدراج اسم الأُمّ على صفحات الصحافة العالميّة، وأَتاح للحكومة الهنديّة أَن تفخر بإِحدى مواطناتها التي ظفرت بتقديرٍ آسيويٍّ رفيعٍ شاملٍ؛ وقد أَشرعت الجائزةُ للأُمِّ أَبوابَ الفيليپين حيثُ باتت تلقى ترحيبًا حارًّا، كلّما شخصت إِليها، وحيثُ أَنشأَت مراكز عدَّةً بمساعدةٍ سخيَّةٍ من حكوماتها المتعاقبة.

ثمّ جاء دور الكنيسة الكاثوليكيّة كي تكرِّم تلك التي أَبرزت وجه المسيحيّة المشرق، وجهَ رحمةٍ، وعطفٍ وخدمةٍ، فأَعلن البابا بولس السادس من خلال رسالة ميلاد ١٩٧٠: "في أَعقاب مشاوراتٍ مستفيضةٍ، وإِعمال فكرٍ طويلٍ، مُنِحتْ جائزة البابا يوحنّا الثالث والعشرين للسّلام لراهبةٍ متواضعةٍ، صموتٍ، هي الأمُّ تيريزا التي

ما فتئت، منذ عشرين عامًا، تحقِّق على جميع دروب الهند رسالة حبٍّ رائعة لصالح البُرْص، والمسنّين، والأَطفال المهجورين. إِنّنا ندعو الجميع إِلى التطلُّع بإِعجابٍ إِلى مثال رسولة حبّ المسيح الباسلة هذه".

كان البابا يوحنّا الثالث والعشرون، أَسابيعَ قليلةً قُبَيْل وفاته، قد أنشأَ تلك الجائزة، وكانت الأُمُّ تيريزا هي أَوّلَ من آلت إليه؛ وعاد البابا بولس السادس فكرَّر، في رسالة عيد الظُّهور، في كاتدرائيَّة القدّيس بطرس، رغبته في أَن ينفـذ مثـال الأُمّ تيريـزا الإِنجيليُّ إِلى قلوب العالَم أَجمع، وأَعلن أَنَّه سيسلِّمها الجائزةَ بنفسه. وكانـت لجنـة الجائزة في الـڤـاتيكان حريصةً، أكثر من أَيِّ وقتٍ مضى، على إِبـراز دور تلـك الراهبة التي لم تسعَ، يومًا، إِلى إبراز ذاتها، "**فحيث تنصبُّ الرزايا من كلِّ نوعٍ على البشر، تهرع الأُمُّ تيريزا ومُرسَلات المحبَّة لمدِّ يد الغوث، وتوفير العزاء، شاهداتٍ علَى المحبَّة الأَخويَّة لكلِّ كائنٍ بشريٍّ، أَيًّا كان**".

لم تُبلَّغ الأُمُّ قرار منحها الجائزة إِلاَّ في ٢٣ كانون الثاني ١٩٧١، إِثر عودتهـا من عمَّان، واحتُفِل بتقليدها إِيَّاها في السادس مـن حزيـران ١٩٧١، وقـد واكـب الاحتفال حادثٌ طريفٌ، فقد قدمت الأُمّ وأَخواتها إِلى الـڤـاتيكان بالترام، وكانت كلُّ أُختٍ تحمل بطاقةَ دعوةٍ خلا الأُمَّ تيريزا، وفي حين دخلت جميع الأَخوات إِلى مكان الاحتفال، صدَّ الحرسُ السويسريّ الأُمَّ تيريزا، وكأَنَّها دخيلةٌ؛ وقد روت فيما بعد:

« كنتُ أَبحث، حائرةً، عن وسيلةٍ للخروج من ذلك المأزق المحـرج، عنـدما أَسعفني حسنُ الطالع بوصول أُسقفٍ يعرفني، فأَفهم الحـرّاسَ الحقيقـة، فـذُهلوا، واحمرّوا خجلاً، وأَمعنوا في التماس العذر؛ لولا ذلك الأسقف لما تسلّمت الجائزة ».

وشهدت الاحتفالَ الهيئةُ الديبلوماسيّة المعترَف بها في الـڤـاتيكان، ونحو خمسة عشر كردينالاً، وحشدٌ من الأَساقفة والوجهاء؛ وقد أَعلن الكردينال "ڤـيّو"، وزيـر خارجيّة الـڤـاتيكان، آنذاك، أَنَّ لجنة الجائزة استوحت شعار يوم السلام: "كلُّ إِنسانٍ أَخٌ لي"، ثمَّ حيّا الأمَّ تيريزا بقوله:

"**إِنَّه لمن العسير الاختيار بين مختلف الشخصيّات والمؤسَّسات التـي تميَّـزت بمآثرها في خدمة الإِخوة البشر؛ وقد وقع خيارنـا علـى الأُمّ تيريـزا بوياكـشيو**

مؤسِّسة جمعيَّة مرسلات المحبّة، مكافأةً لحياتها المكرَّسة بالكامل لخدمة أفقر الفقراء، وللمواساة التي تقدّمها لأقسى الآلام، وللرَّحمة التي تبرهن عنها حيالَ أَعتى الكوارث"، وأَوضح أَنَّ البابا بولس السادس وجد الأُمَّ تيريزا خليقةً بأَن يلفت إِليها أَنظارَ عالَمٍ يدمِّره سيلٌ من البُغض والقسوة.

وأَعلن قداسةُ البابا: "**لقد مُنحتْ هذه الجائزة من أَجل نشر الخير، وبأَمَل أَن ينهض هذا الخيرُ قُدوةً تُحتذى، نُبرزه لأَنظارنا وأَنظار الجمهور. إِنَّ الشرَّ مُعْدٍ، ولكنَّ الخير، أَيضاً، يُشيع عدواه؛ غالبًا ما يتحقَّق الخيرُ بوسائل لا تتوافق وجسامةَ مهمّاته، وقد يتفاقم هذا التفاوت مع مضيِّ العمل قُدُمًا. وحينئذٍ يكتسب العمل قيمةً تتخطّى قدر الإِنجاز الفعليّ، ويمسي شهادةً تستلفت الرأْي العامَّ إِلى وجود معضلة تقتضي حلاًّ، وتعلُّم، في صمتٍ، لا واجبَ حلِّها فحسب، بل، أَيضاً، إِمكان هذا الحلّ. إِنَّ الأُمّ المتواضعة التي يسعدنا أَن نرى فيها آلاف الذين كرَّسوا وقتهم كلَّه لتوفير خدمةٍ شخصيَّةٍ للأَشدّ احتياجًا، قد أَصبحت قدوةً ورمزًا لاكتشاف سرِّ سلام العالَم الذي ننشده جميعًا. إِنَّ مرسلة المحبّة هذه هي، أَيضاً، رسول إِخاءٍ، ولذلك نمنحها جائزة السلام**".

واختتم الأُسقف بينيلّي الاحتفال بالتصريح: "**أَعتقد أَنَّ أَبانا الأقدس قد ابتغى التذكير بأَنّه ما زالت، ثمّة، فسحةٌ للرَّحمة مع وجود الدولة المشرفة. فالعون الذي تقدِّمه الدولة لا يسعه أَن يشمل جميع الاحتياجات، ويعجز عن تلبية الحاجة البعيدة الغور إِلى الاتِّصال الإِنسانيِّ، وإِلى الدفء الإِنسانيّ الذي يفتقر إِليه المحروم افتقارًا ذريعًا... في عالَمٍ يُسيطر فيه، أكثر فأكثر، قانون الموهبة والجدوى، منح قداسته الجائزةَ لراهبةٍ تكرِّس ذاتها لخدمة الأَقلّ قدرةً على الإنتاج من بني البشر، أُولئك الذين لا قِبَل لهم على إِعطاء أَيّ مقابلٍ لمجتمعنا الاستهلاكيّ. إِنَّ عمل الأُمّ تيريزا قائمٌ على التجرُّد التامِّ، والصدق، والأَصالة... الحياة والموت لا يخضعان لمخطَّطاتنا، والحبُّ لا يُخَطَّط له أَبدًا**".

وكان أَمين عامّ الأمم المتَّحدة "يوتانت" قد أَنفذ إِلى الفاتيكان البرقيّة التالية: "بناءً على ما اطَّلعتُ عليه عن الأُمِّ تيريزا وعملها، أَظنُّ أَنَّها تستأهل هذا التكريم الموسوم باسم يوحنّا الثالث والعشرين، سلف صاحب القداسة، الذي عَهِد عنه العالَم أَجمع الطيبة والسخاء".

أَمّا مقدار الجائزة النقديّة البالغ ٢١٥٠٠ دولار، فقد ساعد الأُمّ على توسيع مركز البُرْص في "شانتيناغار".

وقد أَسرَّت الأُمُّ، وكأَنَّها تستميح الصفح عن تلك الجوائز: "**هذه الجوائز ليست لي، بل لقومي، ومن ثمّ فهي لا تجد سبيلاً إِلى إِثارتي. إِنَّها لأولئك الفقراء الذين شرع العالَم يعترف بهم، ويقبلهم، ويحبُّهم. إِنَّ العالَم أَجمع بدأ يعرفهم؛ وإِنَّ مجرَّد كثرة ما يُكتَب عنهم يعني أَنَّ العالم بات مهتمًّا بهم**".

وقد شهد عام ١٩٧١ شلاَّلاً من الجوائز ومراسم التكريم الأُخرى التي تدفَّقت على الأُمِّ تيريزا:

ففي شهر أَيلول، تلقَّت، في مدينة بوسطن الأَميركيّة، جائزة "السامريّ العطوف" اعترافًا عادلاً بجهودها من أَجل تخفيف بؤس فقراء العالَم ومحروميه. "هذا العمل هو تحريضٌ للآخرين، ونموذجٌ رائعٌ للطَّريقة التي ينبغي أَن نهتمَّ بها بكلِّ كائنٍ بشريٍّ".

وفي ١٦ كانون الأَوَّل تلقَّت، في واشنطن، جائزة "ج. ف. كينيدي" بحضور عشيرة آل كينيدي بأكملها، وقد أَلقى السيناتور إِدوارد كينيدي كلمةً جاء فيها: "في جغرافية رحمتها المنقطعة النظير، تدرك الأُمّ تيريزا أَين ينبغي أَن تنشئ مراكزها، وفي إِيمانها المثاليّ، لا تشكُّ، أبدًا، في حصولها على الوسائل اللازمة لتحقيقها. ويشرِّفنا التأكيد على أَنَّ ثقتها تُكافأُ دائمًا، وبغزارةٍ".

ذلك التكريم، أَشاع شهرة الأُمِّ تيريزا ومُرسَلات المحبّة في الولايات المتَّحدة؛ أَمّا جائزته النقديّة البالغة مئةً وعشرين أَلف دولار، فقد استُخدمت لإِنشاء مركزٍ لاستقبال الأَطفال المعاقين، والمشلولين، والمتخلِّفين عقليًّا، في منطقة "دمدم" على مقربةٍ من مطار كلكتّا.

وقد جاء في رسالةٍ للأُخت أَندريا: "إِنَّ الجائزة التي تلقَّتها أُمُّنا هي وعاءٌ ثقيلٌ وجسيمٌ من الزجاج، قائم على قاعدةٍ فضّيَّةٍ نقشت عليها هذه الكلمات: "رئيس الملائكة العظيم رافائيل، أكثر الملائكة قدرةً، شفيع العلم والشفاء، حامي الشابّ طوبيّا، ومُعين أَبي الآباء إِبراهيم، ونموذج المعرفة والحبّ. إِلى الأُمّ تيريزا التي أَبدعت أَساليبُ نضالها شيئًا جميلاً من أَجل الله. جائزة ج. ف. كينيدي".

ثمَّ، في ٢٩ تشرين الأَوّل ١٩٧١، أَمام جميع أَساتذتها ومُعيديها، وطُلاّبها،

منحتها جامعة واشنطن دكتورا فخريّةً في علم الاجتماع، "لأنَّها أَظهـرت، بحياتهـا وأَقوالها، الطريقةَ التي يمكن بها حلُّ المشاكل الاجتماعيّة التي يتخبَّط بهـا، اليـوم، معظم البشريّة".

وعادت الهند فعبَّرت، مرّةً أُخرى، عن عميق تقديرها للأُمِّ تيريزا عندما نفحتها، في ١٥ تشرين الثاني ١٩٧٢، جائزةَ نهرو للتَّفاهم بين الشعوب، وكان منح تلك الجائزة قـد تقرَّر في موعدٍ سابقٍ، غير أَنَّ أَسفار الأُمِّ المتواترة قد أَفضى إِلى إِرجاء ذلك التكـريم؛ وقد دعاها الرئيس "جيري" الذي قلَّدها الجائزةَ بنفسه "كورونادوت" أَي "ملاك الرحمة"، لأَنَّها أعادت للإِنسان الرجاء في الحياة الذي افتقده. وممّا جاء في خطابه:

« الأمُّ تيريزا هي من النفوس المتحرِّرة التي تخطَّت جميع حـواجز الأَجنـاس والأَديان والعقائد والدوَل. في عالَم اليوم المضطرب الذي تكدِّره الخلافات العديـدة والشحناء، تأتي حياة الأُمِّ تيريزا وإِنجازاتها بأَملٍ قشيبٍ في مستقبل البشريّة". ثـمَّ أَضاف: "لقد كان المهاتما غاندي يؤنس انجذابًا شديدًا نحـو عظـة يـسوع علـى الجبل... وَالأُمّ تيريزا وأَخواتها يستمددْنَ وحيهنَّ من الإِنجيل... إِنّنا نكرِّم، اليـومَ، نفسًا مكرَّسةً لله، امرأةً أَدركت أَنَّ الحب المسيحيَّ هو عملٌ من أَجل الخيـر. إِنّنـي متفائلٌ لأَنّني قانعٌ أَنَّه طالما كان هناك أَمثالٌ للأمِّ تيريزا، سيُتاح للإِنسانيّة أَن تعيش في الرجاء...». ثمَّ التفت إِلى الأُمّ وأَعلن: **« لن يكون أَبدًا إِسهامٌ في الإِخاء البشريّ أكبر من عملٍ راسخٍ، ومتوافقٍ مع الاحتياجات مثل عملك ».**

وقد علَّلت لجنة الشؤون الثقافيّة منح هذه الجائزة بالقول: **"نـادرًا مـا تتـسنّى مشاهدة تضحيةٍ في مثل تجرّد ودأب تضحية الأُمّ تيريزا لصالح أَعـضاء المجتمـع البشريّ الأَشدّ وهنًا وفقرًا وحرمانًا. هذا الإِيثار في الخدمـة الـذي لا يميِّـز بـين الجنسيّات والطبقات والأَديان، على غير توقُّعٍ لأَيِّ اعترافٍ رسميٍّ، ينهض نموذجًا رائعًا لما يمكن لعملٍ صَموتٍ، ومُجْدٍ، ومُتعبٍ، أَن يُسهم فيه مـن نـشرٍ للـصَّداقة والتفاهم بين الشعوب".**

وتحدَّثت الأُمُّ أَمام حشدٍ من الوُزراء والشخصيّات، والسيِّدة أَنديرا غاندي، نائبـة رئيس الوزراء آنذاك، فقالت:

« ما الذي يفعله إِخوتي وأَخواتي والمتعاونون معي في العالم أَجمـع؟ إِنَّهـم،

بعملهم لخير الآخرين، إنّما يُعلنون عن حبّ الله. إنَّ الذين جاؤوا ليؤازرونا على مساعدة اللاجئين البنغاليّين قد اعترفوا أنَّهم تلقّوا ممَّن خدموهم أكثر ممّا تلقّى هؤُلاء منهم. هذا الشعور يُساور كلاًّ منّا. إنَّ شعبنا يفتقر، في المقام الأَوّل، إلى مثل هذا اللون من المساعدة ».

ثمَّ التفتت إلى المسؤولين المحيقين بها، وتساءلت: "ما الذي فعلته الهند مِنْ أَجل الأَربعة ملايين أَبرص لديها؟" فاعترى الحاضرين الذُّهول؛ وانطلقت الأُمُّ تروي بعضًا من خبراتها في مجال مساعدة البرص، واختتمت حديثها بإِعلانها: "**أَنتم وأنا، فقط بتضافرنا معًا، يمكننا إِرواء عطش حبٍّ هؤلاءِ القوم**".

ثمَّ نهض وزيرُ التجارة، السيِّد جورج، وقد أَخذ منه التأَثُّر كلَّ مأخذ، وصرَّح: "**لقد علَّمتنا الأُمُّ تيريزا معنى الحبّ. تلك المرأة المتواضعة النحيلة قد قدمت من بلادٍ بعيدةٍ كي تكرِّس حياتَها لخدمة سكّان أَحياء كلكتّا الفقيرة، وهي لم تستخدم، لتحدِّثنا، أَيّ نصٍّ مكتوب، ولم يكن لديها، أَمام المذياع، سوى قلبها، وببساطةٍ أَماطت اللثام عن أَسباب أَلم قلوب البشر: الشعور بعدم حبِّ الآخرين لهم، وعدم رغبتهم فيهم**".

ثمَّ أَقبلت عليها السيِّدة أَنديرا غاندي، مغرورقة العينَين، كي تشكر لها عملها في سبيل مواطنيها؛ وقد صرَّحت، في هذا السياق: "**قد يكون بمقدور الإِنسانيّة، يومًا، وضعُ حلولٍ مُرضيةٍ لمشاكل جميع البشر المحرومين. وبانتظار ذلك، طالما ظلَّ العطف عاملاً جوهريًّا في المصير البشريّ، وظلَّت آمال البشريّة محتقرةً في بعض أَماكن من العالم، وظلَّ بشرٌ يضيقون ذرعًا بما هم فيه، فلا بدّ لهم من الاتِّكاء على بعض أَشخاصٍ يمثِّل لهم العطاءُ كلَّ شيءٍ. إِنَّ الأُمَّ تيريزا هي الرمز الحيُّ لتلك الرحمة الجمّة**".

وكرَّمت بريطانيا الأُمَّ تيريزا، عندما قلَّدها الأَمير فيليب، بحضور زوجته الملكة إليزابيث الثانية، بتاريخ ٢٥ نيسان ١٩٧٣، جائزة تمپلتون "لنشر الإِيمان في العالم وتنشيط معرفة الله من قبل الإِنسانيّة جمعاء"، فقد كان السيِّد "تمپلتون"، مؤَسِّس تلك الجائزة، يؤمن بأَنَّ "عالَمًا رحبًا يستلزم إِدراكًا أَعمق لموارد الإِنسان الروحيَّة، ولعظمة الله اللاّمتناهية، وحبِّه اللاّمحدود".

وقد خاطبها عمدة لندن بقوله: "**أَعلم جيِّدًا أَنَّك آخر من يسعى إِلى جوائز، ولكنَّك أَوَّل من يستحقُّها**".

أَمّا الأَمير فيليب فقال: "**للوهلة الأولى يبدو غير منطقيٍّ تمامًا أَن تُؤْتي جائزة نفعًا ما للدين... وفي حالة جائزة ذات دافعٍ دينيٍّ، من المحقَّق أَنَّ أُكثر من يستحقُّها هم أولئك الذين لم يناضلوا، قطُّ، من أَجل الظَّفَر بها، إِذ كيف يمكن تخيُّل أَن يقرِّر إِنسانٌ، بعقلٍ باردٍ، مبادرة عملٍ ذي طابعٍ دينيٍّ بغيةَ نيل جائزة؟**" ثمَّ أَضاف: "**ولكن لمّا اطَّلعتُ على اسم التي فازت بالجائزة، جال في خاطري أَنَّ السيِّد تمپلتون كان سيوافق معي على أَنَّ الأُمَّ تيريزا قد أَسبغت على هذه الجائزة معنًى... إِنَّنا اليوم، نشهد عملها بإِعجاب... إِنَّ من شأنِ الطيبة، التي بفضل الأُمِّ تيريزا قد أَضاءَت العالَم، أَن تستفزَّ فينا التواضع والإِعجاب والحماس. وما يسعنا أَن نقول فيها غير ذلك في حين أَنَّ أَعمالها هي التي تتحدَّث عنها بذاتها؟ إِنَّ الأُمَّ تيريزا تستمدُّ كلَّ قوَّتها من الله. وكانت قد تعلَّمت من أُسرتها الرحمة الإِلهيّة. أَرجو أَن يغدو مثلها وتعليمها وسيلةً تظهر بجلاء للكثيرين أَنَّ الروح المسيحيّ شيءٌ حيٌّ... فوق كلّ اعتبارٍ، ما فعلته يتَّسم بالطيبة، والعالَم اليوم في حاجةٍ يائسةٍ إِلى مثلِ هذا النمط من الطيبة، وهذا اللون من الرحمة العمليّة الفاعلة**". ثمَّ أَضاف الأَمير فيليب: "**ما كان بوسع الأُمّ أَن تحيا مثل هذه الحياة، أَو أَن تحقِّق مثل هذا العمل لولا إِيمانٌ منيعٌ... إِنَّها بشهادتها تُظهر قدرةَ الإِيمان**".

وأَعرب، أَخيرًا، الأَمير فيليب عن شكره لله ولعمل الأُمّ تيريزا، وللَّجنة التي لفتت إِلى الأمِّ اهتمام الرأي العامّ.

ثمَّ تحدّثت الأُمُّ تيريزا فقالت: "**بمنحكم إِيَّاي هذه الجائزة، إِنَّما منحتموها، في الواقع، لأَشخاصٍ، في العالَم أَجمع، يشاركونني مهمَّة نشر الله بين البشر**".

وبعد أَن سردت أَمثلةً على مآسي الوحدة التي يقاسيها العالَم الغربيّ، أَضافت: "**لقد استخدمني المسيح وسيلةً لتوحيد البشر، وإِنَّني واثقةٌ، قبل كلِّ شيءٍ، من أَنَّ القوم ينزعون إِلى الاتِّحاد لأَنهم يحتاجون إِلى الله**".

وعندما بارحت، أَخيرًا، قاعة الاجتماع، نسيت فيها براءة الجائزة التي مُنحتها. أَمّا مبلغ الجائزة وقدره أَربعة وثلاثون أَلف جينيه إِسترليني فقد تحوَّل إِلى مركزٍ جديدٍ لخدمة البرص.

وجديرٌ بالذِّكر أَنَّ الأَمير فيليب أَقام، بتلك المناسبة، مأدبةً لم تشتمل إِلاّ على لونٍ واحدٍ من الطعام، تمشِّيًا مع التزام الأمِّ تيريزا بالفقر، وعملها مع الفقراء.

وفي فترةٍ لاحقةٍ من عام ١٩٧٣، تلقّت الأُمّ، في لوس أَنجيليس، جائزة "لويز دي ماريَّاك"، مؤسِّسة رهبنة بنات المحبّة التابعة للقدّيس منصور دي پـول.

وفي الولايات المتَّحدة، أَيضاً، مُنِحت، عام ١٩٧٤، جائزة "الأُمُّ والمعلّمة"، وهو عنوان رسالةٍ هامَّة من رسائل البابا يوحنّا الثالث والعشرين، تكريمًا مـن رهبانيّـة القدّيس فرنسيس الأَسّيزي الثالثة؛ ومنحتها، أَيضاً، جامعة القدّيس فرانسوا كزاڤـييه، التي يديرها الآباء اليسوعيّون الكنديّون، دكتورا فخريّةً.

وفي شهر تشرين الأَوّل من عام ١٩٧٥، قلَّدتها منظَّمة الأَغذيـة والزراعـة – فاو– في روما، ميداليّة "سيريس" إِلهة الخصب، وقد سُكّت تلك الميداليّة خاصَّةً لِـلأمّ تيريزا، فحُفِرت على أَحد وجهيها صورة للأمّ تيريزا وسنبلة قمحٍ، وهـذه الكلمـات: "سيريس، فاو، روما، الأُمّ تيريزا"، وعلى الوجه الآخر طفلٌ هزيلٌ تحيق بـه يـدان تمدّان له وعاء طعامٍ، وهذه الكلمات: "طعام للجميع؛ السنة المقدّسة ١٩٧٥". وقلّـدها تلك الميداليّة مديرُ المنظَّمة العامّ، اللبنانيُّ "إدوار صوما"، شخصيًّا، تقديرًا لـسلوكها المثاليّ حيالَ جياع العالم وفقرائه. وما لبثت الأُمُّ أَن باعت تلك الميداليّة الذهبيّة كـي تدعم، بثمنها، مشاريعها الإِنسانيّة.

وفي نفس السنة مُنِحت، في كاليفورنيا، جـائزة الـــپـــيرت شـــڤـــايتزر للإِحسان، التي أُسِّست تخليدًا للإِنسانيّ الشهير، والمرسل المسيحيّ (١٨٧٥– ١٩٦٥) الذي كان قد حصل على جائزة نوبل للسَّلام عام ١٩٥٢.

وكرَّمتها جامعة "سانتينكيتيان" الدوليَّة التي كان قد أَسَّسها شـاعر الهنـد الكبيـر طاغور، دكتورا فخريّة عام ١٩٧٦؛ وقد تلقّت ذلك التكريم من يد رئيـسة الـوزراء، آنذاك، السيِّدة أَنديرا غاندي؛ وفيما كانت الأُمُّ في طريقها إِلى نيودلهي لهذا الغـرض، صرَّحت: "**أَتساءَل لمَ تغمرني الجامعات والمعاهد بالأَلقاب الفخريّة... إِنّها لا تعني لي شيئًا؛ ولكنَّها، في الواقع، مناسبةٌ للتَّحدُّثِ إِلى قومٍ لم يسمعوا، قطّ، باسم يسوع**".

وقد علَّقت صحيفة "ديكا هيرالد بينغالور" على ذلك الحَدَث بقولها: "**قليلون هـم الذين يتسنّى لهم خلق أُسطورتهم، وترسيخ حقّهم الحـصريّ فـي الخلـود، منـذ**

وجودهم على الأَرض. لقد أَصبحت الأُمُّ تيريزا قدّيسةً وأُسطورةً حيّةً، وهي على قيد الحياة، بفضل حياةٍ مكرّسةٍ بأَكملها لخدمة أكثر أَهل الأَرض بؤسًا". وتُظهر صورةٌ التُقطت حينذاك، السيِّدة أَنديرا غاندي، إِثر تقليد الأُمِّ الوشاح الرمزيّ، ترسم على جبينها نقطةً حمراءً. وقد علَّقت الأُمّ على ذلك: "إِنَّه لتقليدٌ رائع، فذلك يعني للهندوسيّ أَنَّ جميع أَفكاره واهتماماته ينبغي أَن تكون مركَّزةً على الله". ومن، أكثر من الأمِّ تيريزا، جديرٌ بذلك الرمز؟

ومرَّةً أُخرى كرّمها الأَمير فيليب، بصفته عميد جامعة كمبريدج، إِذ منحها، في العاشر من حزيران ١٩٧٧، دكتورا في اللاهوت من تلك الجامعة العريقة، المهيبة. وقد ورد في خطاب الأَمير قوله: "إِنَّ منح الجامعات أَلقابًا فخريّةً، لا يعد وكونه تقليدًا صوريًّا، لا نفع له، ولكن بأَيّة وسيلةٍ أُخرى يمكن لجماعةٍ أكاديميّةٍ التعبير عن إِعجابها بأَفرادٍ أَسهموا إِسهامًا جوهريًّا في حضارتنا؟ وبما أَنَّ مهمَّة الجامعات تتمثَّل في دفع تقدُّم المعرفة والكفاءة لدى البشر، فلديها كلُّ الأَسباب لتكريم من عملوا بنجاحٍ محقَّقٍ في هذا المضمار".

ويمكن تلخيص ردِّ الأُمّ تيريزا بهذه العبارة التي تعكس عنها صورةً أَمينةً: "**تعلمون جيِّدًا أَنني لم أَدرس اللاهوت، ولكنّني أُحاول، فقط، أَن أَعيشه دائمًا**". وبات منظر الأُمّ طريفًا عندما اعتمرت القبَّعة الأَكاديميّة، وتلفَّعت برداء الأَساتذة الجامعيّين فوق ساريها، ولم يَعُدْ باديًا من زيِّها سوى خفَّيْها، وقدَمَيْن عاريتَيْن.

وتوالت الجوائز ومراسم التكريم، فتلقَّت الأُمّ، في ٢٣ تموز ١٩٧٨، في نيودلهي جائزة "أوبي" (O B E) الأوستراليّة.

وفي الأَوَّل من آذار ١٩٧٩، أُقيم حفل تكريمٍ للأُمِّ في الأَكاديميّة الوطنيّة في روما حيث تسلَّمت من يد رئيس الجمهوريّة الإِيطاليّة، اليساندرو پيرتيتي، جائزة "بلزان" وقيمتها المادِّيَّة ثلاث مئة وخمسةٌ وعشرون أَلف دولارٍ. وكانت تلك الجائزة قد أُنشئت عام ١٩٦٠ بهدف إِنماء الثقافة والعلم والمبادرات الأَكثر جدارةً على المستوى الإِنسانيّ من أَجل السلام والإِخاء عبر العالم. لقد أسهمت تلك الجائزة في إِذاعة شهرة الأُمّ في أوروپا، وقد كافأت "العطفَ النادر الذي به كرَّست الأُمّ تيريزا حياتها كلَّها كي تساعد، في الهند، وفي مطارح أُخرى من العالم، ضحايا الجوع والبؤس والمرض، والمهجورين، والمحتضرين، محوِّلةً حبَّها للإِنسانيّة المتألِّمة إِلى عَمَلٍ لا يعرف الكَلَل".

ثمّ، في ١٦ تموز ١٩٧٨، تلقّت من جامعة "تمـــپـــل" في فيلادلفيا، بالولايـــات المتّحدة دكتورا فخريّةً.

أمّا قمّة التكريم فكانت جائزة نوبل للسَّلام التي اختيرت الأُمُّ لنيلها عام ١٩٧٩.

جائزة نوبل للسَّلام، عام ١٩٧٩

في ١٦ تشرين الأوَّل ١٩٧٩، كانت الأُمُّ عائدةً من عملها في مركز المحتضرين بكاليغات، وإذ بقاعة الاستقبال في المركز الأُمّ تغصُّ بالصحافيّين والمصوِّرين مـــن مختلف الجنسيّات، رغم أَوامرها الصارمة القاضية بحظر دخول مثل هؤُلاء، خـــشية تعكير صفاء سكون الدير. ولكن سُرعانَ ما زالت دهشتُها عندما تبين أَنَّ حدَثًا فريدًا قد برَّر نقض تعليماتها؛ ففي ذلك اليوم، كان قد اهتزَّ العالَم، واهتزّت كلكتّا على نحوٍ خاصٍّ، عندما أَذاعت وسائل الإِعلام العالميَّة نبأ إِسناد جائزة نوبل للسَّلام، عن تلـــك السنة، لتلك الراهبة الأَلبانيّة المولد، الهنديّة الجنسيّة، التي أَصبح اسمها مرادفًا للحدب على الفقراء، والحبِّ اللاّمشروط، وبذل الذّات، والتضحية بلا حدودٍ.

وكان ردُّ فعلها الأَوَّل تصريحها: "**لستُ جديرةً بهذه الجائزة**"، وإِعلانها أَنَّها لن تقبلها إِلاّ "**باسم الجياع، والعريانين، والمشرَّدين، والمشوَّهين، والعميان، والبرص، وكلِّ الذين يشعرون أنهم غير محبوبين، وأَنَّ المجتمع لا يُعنى بهـــم ولا يرِيـــدهم، وجميع المَنْبُوذِينَ والمهانين في العالم؛ باسمهم أَقبل هذه الجائزة، آملةً أَن تـــستفزّ محبّةً متفهِّمةً بين الأغنياء والفقراء. شخصيًّا أنا لا أَستاهل الجائزة، ولكنَّني أَتقبَّلها بامتنانٍ باسم جميع الفقراء**". وقد أبلغت لجنة الجائزة فـــي أوســـلو بقرارهـــا ذاك، فوافقت اللجنة عليه.

فورَ تبلُّغها النبأ، كانت الأُمُّ قد تسلَّلت إِلى المُصلّى حيثُ جثت مشاركةً من نذرتْ له نفسَها وحياتها تأَثُّرها بالحدَث، مستلهمةً ما يتعيَّن عليها من سلوكٍ إزاءَه، وشاكرةً له اعتراف العالَم بالفقراء الذين خدمته من خلالهم. وفي إِثرهـــا تـــسلَّلت أَخواتهـــا، حافياتٍ، صامتاتٍ، وتحلَّقنَ من حولها يساندنَها بصلواتهنَّ؛ ثمَّ انطلقـــت حنـــاجرهنَّ بنشيد تسبيحٍ وشكرانٍ.

وفي ذلك المساء كان عليها التصدّي لمداهمة رجال الإِعلام والأَصدقاء للمركـــز

الأُمّ مداهمَةً صاعقةً، لَجبةً؛ وقد أَسرَّت للمقرَّبين منها أَنَّه أَحبُّ عليها غسل قروح البرص، من مواجهة الصحافيّيَن والمصوِّرين؛ وصرَّحت، في الغداة، متنهِّدةً: "لقد حدث، ليلةَ أَمس، ما يُشبه انقضاض عقبان"؛ ولكن سُرعانَ ما تغلَّب عليها حبُّها الفرنسيسكانيّ لجميع المخلوقات، فأَردفت: "ولكن حتّى العقبان قد تكون جميلةً".

لا جَرَم أَنّ ذلك الاعتراف العالَميّ بعمل الأُمّ تيريزا كان يمثِّل تقديرًا لإِنجازاتها في سبيل المحرومين التي تخطّت أَنباؤها الحدود؛ إِلاَّ أَنَّه أَسهم، معًا، في نشر إحاطة العالم علمًا بنشاط مرسلات المحبَّة، ومآثرهنَّ، ودوافعهنَّ الكمينة، ولا سيّمَا أَنَّ الأمّ تيريزا هي من القلائل، من خارج عالم السياسة، الذين كرَّمتهم لجنة نوبل بجائزتها الرفيعة العالميَّة الأَصداء.

وفي هذا السياق، كتبت "واشنطن پوست": "**المهمُّ في هذا الاختيار هو مثال التضحية بالذَّات في سبيل الآخرين... بين فينةٍ وأُخرى تستخدم لجنة نوبل تلك الجائزة للتَّذكير بأَنَّ السياسة ليست السبيل الوحيد إِلى بناء السلام**".

وعلى صفحاتها الأُولى كرَّست الصحف العالميَّة قداسةَ الأُمِّ، فوصفتها الإِكسپرس بأَنّها "**القدّيسة تيريزا الكلكتّاويّة**"، فيما أَعلنت "نيويورك تايمس" بأَنّها "**قدّيسةٌ لجميع العصور**".

وأَبرق لها صاحب دار نشرٍ أَميركيّة: "**أُهنّئك على وفائك لدعوتك الأَصيلة ولرسالتك**". وفي ذلك القول دليلٌ على أَنَّ العالَم قد أَدرك دوافعها الصميمة، وكونَها امرأة إِيمانٍ، وحبٍّ، وتضحيةٍ.

ويمكن القول إنَّ الأُمَّ تيريزا هي من أكثر الذين مُنحوا جائزة نوبل للسَّلام استئهالاً لها، لأَنّها أَسهمت في ترسيخ السلام بالطريقة المُثلى، أَي بتأكيدها الجريء على حرمة الكرامة البشريّة التي لا يسوغ انتهاكها، أو حتّى المساس بها.

وكان قد دعم ترشيحها، بقوّة، روبيرت مكنمارا، مديرُ البنك الدولي، الخبير باحتياجات الشعوب، وكان لدعمه أثرٌ حاسمٌ في ترجيح كفَّة الأُمّ تيريزا لتلك الجائزة التي كان يتنافس عليها مئات أَصحاب الأَسماء الطنّانة، ولم يكن أَهمّهم الرئيس كارتر؛ وكانت حجَّة مكنمارا أَنَّ الأُمَّ تيريزا، أكثر من أَيِّ شخصٍ أَو مؤسَّسةٍ في العالم، تُسدي المساعدة لأَكثر من يستأهل المساعدة. فهي تهرع إِلى تلبية احتياجات

المُعدَمين الذين بلغ منهم سوءُ الطالع أَن لم يعد لهم من يلوذون به، وإِلى خدمتهم بصرف النظر عن دينهم أو جنسهم أَو جنسيّتهم، أَو انتماءاتهم السياسيَّة، لمجرّد قيمتهم الذَّاتيّة، وكونهم كائنات بشريَّةً، وأَبناء الله.

وليست خدمتها اندفاعًا عاطفيًّا، بل هو عملٌ واقعيٌّ مُجدٍ، وهو، فضلاً عن ذلك، عملٌ عالَميٌّ، بفضل مراكز جمعيَّتها المبثوثة في جميع أَرجاء المسكونة، وأُلوف المتعاونين معها في كل مكانٍ.

وأَهمُّ ما في عملها الرسالة التي يحملها: أَنَّ السلام الحقيقيّ ليس مجرَّد غيابٍ للعدوان، بل، بالحريّ، هو السكون الناجم عن نظامٍ اجتماعيٍّ يُعامِل فيه كلُّ فردٍ الآخر بعدلٍ وعطفٍ. ولقد أَثبت تاريخ الخلافات البشريّة الضارب في القدم أَنَّه، في معزلٍ عن الاعتراف بذلك الواقع الذي نهض عمل الأمِّ تيريزا برهانًا ساطعًا عليه، ستظلُّ آفاق السلام العالميّ مشحونةً بالغيوم الدكناء".

غير أَنَّ جائزة السلام قد حرمت الأُمَّ السلام، أَشهُرًا طويلةً، إِذ حاصرها الصحافيّون والمراسلون والمصوِّرون، وفرق التيليفزيون والأَصدقاء، والرسميّون، فضلاً عمّا انهال من أَكْدَاس البرقيّات والرسائل من رؤساء دولٍ ووزراء، منهم الرئيس تيتو، وعضوٌ في حكومة الصين الشيوعيّة، ومن الرئيس كارتر الذي كان ينافسها على تلك الجائزة، والذي أَبرق لها قائلاً: "**إِنَّ البشريَّة مدينةٌ لك بكلِّ ما فعلتِه، وبقدوة بذل الذّات في سبيل الآخرين التي قدَّمتها. أَتمنّى لك أَعظم نجاحٍ في خدمة الإِنسانيّة**". وقد جاء في برقيَّة رئيس جمهوريّة الهند: "**إِنّك تسيرين بحرصٍ وأَمانةٍ في خطى أَمير السلام**".

ولكي تدرأ عنها ذلك السيل الهادر الذي كان من شأنه صرفها عن عملها الجوهريّ، أَعلنت الأُمُّ اعتكافها في خلوةٍ روحيّةٍ، مدَّة تسعة أَيّامٍ، واختلت بمساعداتها، ومستشاراتها، ومجلس إِدارة جمعيَّتها، بُغية إِنجاز القضايا العالقة الملحّة.

ولكنَّها لم تستطع الإِمعان في التواري، وكان عليها أَن تمثل في التاسع من تشرين الثاني ١٩٧٩، إِلى نيودلهي حيثُ أَعدّت الحكومة الهنديّة لمن رفعت اسم الهند عاليًا، وكانت لها مبعثَ فخرٍ واعتزازٍ، احتفالاً تكريميًّا اشترك فيه جميع أَعضاء الحكومة، فضلاً عن حشدٍ من كبار المَدعوّين. وقد افتتح رئيس الوزراء "شري شاران سينغ" الاحتفال بقوله:

"لخمسين سنةً خلت قدمت الأُمّ تيريزا إِلى الهند... وهي، في الهند وحدها، تُعنى بستّة وخمسين أَلف أَبرصٍ، وبعددٍ غفيرٍ من الفقراء وغير المرغوب فيهم. يلزمنا مواهب شكسبير وميلتون لوصف أَفضالها على هذا البلد. إِنَّ أُسلوبها في خدمة البشريَّة هو، حقًّا، منقطع النظير".

وتلاه وزير الخارجيّة فقال:

"لقد التأمنا، اليوم، لنهنّئ الأُمّ تيريزا، باسم الشعب الهنديّ والحكومة بعد أَن تلقَّت مؤخَّرًا، وتلقّى، من خلالها، شعبُنا كلُّه تكريمًا عظيمًا.

"إِنَّها تجسِّد العطف والحبَّ كما لم يجسّدهما سوى القليلين عبر التاريخ. إِنّ وجودها ما بيننا، يمثِّل للعاصمة الهنديّة نفحة النعمة الإِلهيّة، والتواضع السحيق، وهما جزءٌ من تراثنا. إِنّ كلّ حياتها رمز تعاونٍ ورحمةٍ هما من ضرورات الحياة الأَساسيّة التي تكثر حولَها الأَحاديث، وتتجاهلها الأَفعال.

"لم يعُدْ، اليوم، عملُ جمعيَّتها، جمعيَّة مرسلات المحبَّة، محصورًا في الهند، بل قد تخطّاها إِلى القارّات الأَربع. إِنَّ ما تقدّمه من رجاءٍ وعونٍ للفقراء والمعوزين والمنبوذين يترجم مثاليّةً تعلن انتصارها على المادِّيَّة والانعزاليّة. إِنَّ الأُمَّ تيريزا تبرز لنا جوهر الغوث المتجرِّد تجرُّدًا تامًّا، والدعوة التي تقود إِلى مسح الدموع عن جميع العيون على نحو ما كان يفعل المهاتما غاندي.

"هذه الجائزة وهذا التكريم يأتيان مثلما تأتي الأَوراقُ والزهورُ كي تتوِّج الشجرة. إِنَّها بمثابة واجبٍ تؤَدّيه الإِنسانيَّة نحو العليّ. هذه الجائزة تلي جائزة نهرو، وتكمل جميع مراسم التكريم الذي أَولته الكنيسة والعالَم الأكاديميّ للأمّ تيريزا. وجميعها تظهر أَنَّ الحبَّ هو الحقيقة الكبرى، وأَنَّ العون الذي يُسدى للآخرين هو السعادة العظمى.

"إِنَّ حياة الأُمِّ تيريزا تنهض شاهدًا على إِيمانها بحضور الله الكثيف في صميم كلِّ أَلمٍ، وتذكِّرنا بأَنَّه، في كلّ معاناةٍ من أَجل الآخرين، من يُعطي هو أَوفر سعادةً ممّن يتلقّى. إِنّنا نتوسَّم فيها ملاك الرحمة الذي يرفع شعلة الواجب واحترام الآخرين، في عالَمٍ من اللامبالاة.

"إِنّنا سعداء بكوننا شهودًا على حياتها وأَتعابها، ومن خلالها نعود فنكتشف، في

وجودنا، معنى الرقَّة، والاهتمام بالآخرين، والحبّ، والإيمان الحاضر في كــلّ مكــانٍ. وعملها يتيح لنا أَن نلتقي، من جديدٍ، تقاليدنا، وقيَمنا الهنديّة. لقد أَعادت الحياة إِلــى أُسَرٍ عديدةٍ بسكبها زيت الشجاعة في أوصالها، وأَعادت شُعْلَة الرجــاء إِلــى عيــون الكثيرين، وبعثت الإيمان في نفوسٍ تائهةٍ، وأَحيت، من جديدٍ، أَحلامًا محطَّمةً...

"**لقد ذكَّرت الأُمُّ تيريزا العالَم بما هو خالدٌ لا ينضب، ما يطهِّر القلب ويملؤه. كلُّ شيءٍ لديها جديرٌ بالحبِّ، ولا شيءَ، على الإِطلاق، دنيءٌ أَو منفِّرٌ؛ وليس الأَبرص، لها، أَقلَّ جَاذِبِيَّةً من محيًّا وسيمٍ...**".

وكانت الحكومة قد أَعدَّت، لتلك المناسبة، مأدبةً فــاخرةً، ولكــنَّ الأُمَّ اعتــذرت معلنةً: "**لن أَستطيع أَن أَتناول هذه الأَطعمة، ناعمةَ البال، في حين ما برح الكثيرون من إخوتي وأَخواتي ينفقون جوعًا. حسْبي، أَنا، كسرة خبــزٍ، وكــأس مــاء**". ثــمَّ سارعت إِلى المغادرة، فهناك الكثيرون من المتألِّمين كانوا ينتظرون عنايتها. وكــان لمَثَلها وقعٌ بليغٌ، إذ ارتدّ معظم المدعوّين عن المائدة النفيسة، وتقرَّر توزيع الطعــام على الفقراء. وفي إِثر الأمِّ تيريزا انطلقت الحكومــة بأَكملهــا للعنايــة بالمتــألِّمين، ولنستمع إِلى الأمِّ تيريزا تروي:

« إِثر رفضي المأدبة، اندفعتْ، تلقائيًّا، الحكومةُ الهنديّة وجميعُ الوزراء، وفي طليعتهم رئيسهم، لزيارة المحتضرين، وتحيَّتهم، ولمسهم بأَيديهم. وكان ذلك، فــي البلاد، حَدَثًا لا يُصدَّق أَن يوافي أَشخاصٌ مرموقون مــشهورون لزيــارة البــرص والمحتضرين. شيءٌ مذهلٌ يتخطّى كلَّ خيالٍ وتوقُّعٍ. يتعذَّر تصوُّر معنى ذلك، وفقًــا لعقليّة القوم، فقد كان المرضى مذهولين لا يدرون ما يفعلون، ولا يصدِّقون وجــود كلِّ تلك الشخصيّات بين ظهرانيهم. إِنَّ الله يُعدّ شيئًا عظيمًا لشعبنا، ولنــا جميعًــا، وللعالَم؛ إِنّني على يقينٍ من ذلك ».

قُبَيْل مغادرتها إِلى أوسلو عمَّمت الأُمُّ على أَخواتها المرسلات، الرسالة التالية:

« في الثامن من كانون الأَوَّل، سأكون، بإِذن الله، في أوسلو عاصمة النورويج؛ وبما أَنّ لجنة جائزة نوبل قد أَنفذت إِليَّ بطاقتَيْن بالإِضافة إِلــى بطــاقتي الخاصّــة، وتعبيرًا، فوق كلِّ شيءٍ، عن الحبّ والعرفان بالجميل لكلِّ أَخواتنا من الرعيل الأَوَّل، لما تحلَّيْن به من شجاعةٍ بالانضمام إِلينا، عندما لم يكن لدينا شيءٌ، ولفرحهنَّ بعــدم

امتلاك أيّ شيءٍ سوى امتلاك يسوع بالكامل، ولحبِّهنَّ الفقراء من جرّاء حبِّهنَّ ليسوع، سأَصطحب معي إِلى أُوسلو الأختيْن المرسلتَيْن أَنييس وجيرترود".

في ذلك اليوم الموافق لعيد سيّدة الحبَل بلا دنسٍ، كانت الشمس ساطعةً في سماء أُوسلو، غير أَنَّ أَشعّتها كانت عاجزةً عن بعث الدفء في جوِّها الصقيعيّ. ولكَنَّ الدفء كان يغمر القلوب. وعندما انحدرت من الطائرة، في الساعة ١٥،٣٠، تلك التي دعوها "الملاك المتلفّع بالساري الهنديّ" أَو "ملاك السلام الأَبيض"، بخطًى رشيقةٍ، واثقةٍ، وقد أَشرق محيّاها ببسمةٍ مشعّةٍ، بادر إِلى استقبالها رئيس لجنة جائزة نوبل وزملاؤه، وحشدٌ من الرسميّين، وممثّلون دينيّون، منهم أُسقف أوسلو، وأسقف كرواتيا؛ وقد سارع أَحد المستقبلين إِلى نزع معطفه وإِلقائه على كتفي الراهبة الضئيلة الحجم، ليقيها من لسعات برد بلاد الشمال.

وكان قد نُظّم مؤتمرٌ صحفيٌّ في قاعة الصحافة بالمطار، فتعاقب على طرح الأَسئلة ممثّلو معظم وكالات الأَنباء الأَجنبيّة، والإِذاعات العالميّة، وتناول معظم الأَسئلة قضايا الجوع والسلام والعدل في العالم. وقد ردَّت الأُمّ على صحفيٍّ بقولها: "**أَنت وأَنا علينا السعي في سبيل السلام. إِنَّه واجبٌ علينا وعلى جميع البشر إِنّ السلاح الأَقوى لبلوغ السلام هو الحبُّ والحياة مع الله**".

وسأَلها أَحدُهم عن مدى الإِرهاق الذي ينال منها، من جرّاء عدد المحتاجين الغفير الذي يتعيَّن عليها الاهتمام بهم، فأَجابت: "**بل إِنّي أَهتمّ بهم واحدًا واحدًا**"، ثمَّ كرّرت تأكيدها بأَنَّ انتشالها أَوّل محتضرةٍ من الشارع كان خطوتها الحاسمة نحو العناية بالمحتضرين.

وأَشار صحافيٌّ إِلى أَنَّها وُلدت في يوغوسلافيا، وعاشت في الهند، في حين أَنَّ أَخواتها يعملنَ في العالَم أَجمع، وسأَلها: "فكيف تصفين، أَنت، انتماءَك؟" فردَّت: "**بالدم والمنشأ أَنا أَلبانيّةٌ تمامًا، وبجنسيّتي أَنا هنديّةٌ، وأَنا راهبةٌ كاثوليكيّةٌ، وبدعوتي أَخصّ العالَم أَجمع؛ أَمّا بقلبي فإِنّي أَخصّ بالكامل قلب يسوع**".

ثمَّ اقتيدت الأُمُّ عبر شوارع أُوسلو المزدانة بصُوَرها، وعبارات التقدير والدعم، إِلى السفارة الهنديّة حيثُ كان السفير قد دعا إِلى حفل ترحيبٍ وتعريفٍ بالأُمِّ تيريزا،

دعا إِليه وزيرَ خارجيّة النورويج، ووزير العدل، وأَعضاء الأسرة المالكة، ونُوّابًا في البرلمان، ورسميّين وسفراء. وكانت ابنة السفير قد زيَّنت، للمناسبة، دار السفارة وفقًا للتَّقاليد والأَساليب الهنديّة. وكان السفير قد توقَّع حضورًا كثيفًا، فشطر المدعوّين إِلى فئتين لكلٍّ منهما موعدٌ، بحيثُ يُغادر ضيوف الموعد الأوّل قبل قدوم ضيوف الموعد الثاني؛ إِلاَّ أَنَّ تأخّر وصول الطائرة التي أَقلّت الأُمَّ إِلى أُوسلو، وتمادي المؤتمر الصحافيّ الذي عُقد في المطار، وكثرة الأَسئلة التي طُرحت، كلّ ذلك أفضى إِلى اختلاط ضيوف الموعديْن معًا حتّى ملؤوا كلّ ركنٍ وزاويةٍ في السفارة؛ وقد اكتفت الأُمّ بكأس ماءٍ صرفٍ، غير أَنَّها قابلت حتّى آخر ضيفٍ ببسمتها المتألّقة الحارّة التي كانت تمحو عن وجنتيْها ما حفرته السنون من غضونٍ.

وكانت الأَيَّام الأَربعة التي أَمضتهَا الأُمّ في أوسلو فرصةً للذين ما زالوا يجهلونها كي يتعرَّفوها عن كَثَبٍ، فغشا العاصمةَ النورويجيّة مئات الصحافيّين والمصوِّرين، وفِرَق التيليفزيون، وباتت وسائل الإِعلام تحاصرها وتترصَّد كلَّ حركةٍ من حركاتها ما أَضناها، وقد ظلّت، حتّى مماتها، كلّما ذكرت تلك المحنة القاسية تقول: "**هذه الحملة الإِعلاميَّة، وحدها، كفيلةٌ بتأهيلي للمثول مباشرةً إِلى السماء**".

ولذلك آثرت الإِقامة في ديرٍ للرّاهبات حرصنَ على درء غزو الإِعلام عنها، فقد كانت في حاجةٍ إِلى سند الربّ لتقوى على مواجهة مظاهر التكريم المضنية، ومحاصرة الإِعلام؛ ولكنّها كانت موقنةً بأَنَّ تلك المناسبة توفّر فرصةً نادرةً لإِسماع صوت الإِنجيل، وكلمة الله، فتعلن حبَّ الله لجميع أَبنائه المحزونين، وتذود عن المبادئ المسيحيّة الراسخة، ولاسيَّما حقّ الجنين المقدَّس بالحياة. وكانت تتأَهَّب لإِعلان كلّ ذلك على مسامع ملوك ووزراء وسفراء وبرلمانيّين، وأساتذة جامعاتٍ، ومن خلال وسائل الإعلام، على مسامع عشرات الملايين من المستمعين والمشاهدين، ففي تلك المناسبة كان جمهورها العالم أَجمع.

في دير الراهبات، الذي رفرف عليه علمٌ نورويجيٌّ منبئًا بوجود ضيفٍ رفيعٍ، ظفرت الأُمُّ بلحظات سكونٍ، استغرقت، أَثناءَها، في التأَمُّل والصلاة، تأَهُّبًا للحدَث، كما أَنَّها نعمت بجوٍّ عائليٍّ، بفضل وجود أَخيها لازار وابنته، وذاتها الأُخرى، "جاكلين دي ديكير"، ورئيسة رابطة المتعاونين الدوليَّة، "آنّ بليكي"، ووفدٍ من مسقط رأسها سكوپيي.

اليوم التالي، التاسع من كانون الأوّل، كان يوم صلواتٍ واجتماعاتٍ حميمةٍ. وقد استهلّته الأُمُّ بقدّاسٍ في كاتدرائيّة القدّيس أوسلاف الكاثوليكيّة، اشترك معها فيه حشدٌ حاشدٌ، وأعقب القدّاس حفل استقبالٍ وقّعت الأُمّ، في نهايته، على مئات الصورَ التقويّة التي حملتْ كلٌّ منها بعض خواطرها، أو مقطعًا من الإنجيل. وبعد الظُّهر حضرت، مع ذويها، قدّاسًا خُصِّص للجالية الكرواتيّة، في مقر إقامتها بدير القدّيس يوسف، ووجَّهت، أثناءَه، للحضور، كلمةً جاء فيها:

« إن نحن كنّا عاجزين عن رؤية يسوع في القريب، ففي ذلك الدليل على أنَّ ثمّة خطأً في سلوكنا. القوم، اليوم، قلقون، وخائفون، ويفتقرون إلى السلام... شخصيًّا أنا لستُ في حاجةٍ إلى ما أُوهَب من مالٍ وسواه، ولكنَّني أتلقّاه من أَجل الفقراء الذين في سبيلهم نعمل ونعيش، بما أنَّهم إخوةٌ لنا وأخواتٌ. أَجل، يلزمنا مالٌ، ولكن من أَجل مضاعفة قيمته لا بدَّ من تَنْبيله بالحبّ ».

ثمَّ استرقت الأُمُّ بضع ساعاتٍ للاجتماع بممثّلين عن المتعاونين مع عملها في العالَم، وفي سياق حديثها معهم صرَّحت أنّها باتت تعمل أقلَّ ممّا أَلِفتْ عمله من قبل، فدهشوا لقولها، وهم العالمون بجسامة مسؤوليّاتها، ودَأْبهَا الذي لا يعرف الكَلَل. إلاَّ أنَّها أَوضحت: "**لقد وزَّعتُ العمل بين الأَخوات توزيعًا واسعًا بحيثُ سألنني: "أُمّاه، ماذا ستفعلين أَنت، إذن؟**" **وأضافت ضاحكةً: "أَخبرتُهنّ أَنني سأُعنى بمحبَّتهنَّ"**.

وفي المساء التأَم في كاتدرائيّة أوسلو اللوثيريّة جمعٌ غفيرٌ، حولَ صلاةٍ مسكونيّةٍ عن نيّة محتاجي العالَم، ونيَّة السلام، والوحدة والمحبّة المتبادَلة، وبلغ التأثُّر ذروته عندما تلا الجميع، بصوتٍ واحدٍ، قانون الإيمان، وصلاة يسوع: "أبانا"، وعند باب الكاتدرائيّة كان ينتظر الأمَّ مئاتٌ من الفتيان والفتيات رافعين المشاعل التي أنارت ليل أوسلو باعثةً بعض دفءٍ في جوّه الصقيعيّ، وانطلقوا بالأمِّ، في تطوافٍ، إلى بيت جمعيّة الرسالة النورويجيّة، حيثُ كانت جمعيَّةٌ من النساء قد أَعدَّت عشاءً لخمس مئة مدعوٍّ. وعند مدخل المكان، انتصب مئة فتاةٍ صغيراتٍ، في زيّ ملائكةٍ، يستقبلنَ الأمَّ تيريزا، وقدَّمنَ لها مبلغًا متواضعًا، من تضحياتهنّ. أَمّا التقدمة التي خفقت لها القلوب تأثُّرًا، وصفَّقت لها الأَيادي بحماسٍ، فكانت مبلغ ثلاثين كورونة نورويجيّة تبرَّع بها صبيٌّ في السادسة من عمره، أَرفق بها بطاقةً تقول:

"أَيَّتها الأمُّ تيريزا، إِنَّ "يان پـيكو" يحيّيك، ويحبُّك كثيرًا".

وقد أَعلن رئيس لجنة نوبل، آنذاك، أَن مجموع تبرُّعات الشعب النرويجيّ قد ارتقت إِلى مبلغ ٣٥٩١٥١ كورونة؛ وقد شكرت الأمُّ للجميع سخاءَهم قائلةً: "**ما فعلتموه ليس من أَجلي، بل من أَجل فقرائي، والمسيح المتألِّم فيهم. أُؤكّد لجميعكم دعائي وامتناني**".

وتحدَّث رئيس الأَساقفة الكاثوليكيّ فقال: "**أَيَّتها الأُمُّ تيريزا، نشعر بإِشعاع الحبّ منك، ذلك لأَنّك مضطرمةٌ وتحترقين من أَجل الآخرين. وإِنّه لخيرٌ لنا أَن نكون في حضور من يحترق لأَجل الآخرين**".

وفي العاشر من كانون الأَوّل ١٩٧٩، كان جمهورٌ كثيفٌ قد تراصَّ لتحيَّة "أُمّ السلام" بأساليب وعباراتٍ مختلفةٍ، في الساحة المنبسطة أَمام جامعة أوسلو، التي احتُفِل على مدرَّجها بتسليم الأُمِّ جائزة نوبل للسَّلام، بحضور ملك النورويج، أولاف الخامس، وحشدٍ من الديبلوماسيّين، وكبار المدعوِّين. وأمام هذا الجمهور من المشاهير، وذوي السلطان، المتأَنّقين، اقتيدت إِلى المنصّة، وسط هزيمٍ من التصفيق المدوّي، الراهبة المحدودبة، القصيرةُ القامة،المتلفّعة بالساري الخاميّ البسيط، والمنتعلة خفًّا على قدمَيْن عاريتَيْن؛ ورحَّب بها رئيس لجنة نوبل النورويجيّ الپروفسّور سانّس، الذي استهلَّ الاحتفال، في الساعة الثالثة عشرة، بخطابٍ جاء فيه أَنَّ عام ١٩٧٩ قد شهد الخلافات بين الدول والشعوب، والأيديولوجيّات تستعر وتتفاقم، وتقود موكبًا لجبًا من اللاّإِنسانيّة والوحشيّة، وشهد اندلاع الحروب، وانفلات العنف، والتعصُّب مُمْسِكًا بيد القحة والاستهتار، وازدراء الحياة البشريّة، والكرامة الإنسانيّة، كما شهد سيول اللاجئين المشرَّدين، وأَقوامًا أَبرياء يسقطون ضحايا الإِرهاب الأَعمى. ثمَّ أَشار الپروفسّور سانّس إِلى امرأة الرحمة في عهدٍ يقع فيه الملايين ضحايا اللارحمة القصوى، وَأَكّدَ إِمكانَ إِيجاز حياة وعمل الأُمِّ تيريزا بشعار "البيرت شفايتزر": "احترام الحياة"، مبيِّنًا أَنَّ حدبها على الفقراء لم يخالطْه أَيُّ تنازلٍ أو شفقةٍ، بل كان شهادة إِيمانها بكرامة كلِّ إِنسانٍ، وأَنَّ منجزاتها استهدفت بناء جسورٍ بين مختلف التيّارات التي تشطر الأسرة البشريّة.

وتساءل الپروفسّور سانّس هل يمكن لأَيّ بناءٍ سياسيٍّ أَو اجتماعيٍّ أَو

فكريٍّ، على المستوى الوطنيّ أو الدوليّ، مهما كان الناهضون به عقلانيّين وجادّين وأَصحاب مُثُلٍ ومبادئ، أَن يؤدّي إِلى شيءٍ آخر سوى إِشادة منزلٍ على أَساسٍ من رملٍ، ما لم يُلهم البنّائين روحُ الأُمّ تيريزا.

ثمّ أَعلن: "**إِنَّ ما يميِّز عملَها هو احترام الفرد بسبب قيمته الذَّاتيّة وكرامته. إِنَّ القوم الأَكثر وحدةً وبؤسًا، والمحرومين الذين يتضوَّرون جوعًا، والبرص والمهجورين يلقون لديها، ولدى أَخواتها، ترحيبًا مقرونًا بتعاطفٍ حارٍّ، خالٍ من كلّ تعالٍ، يُلهمه احترامها للمسيح الحاضر في كلِّ إِنسانٍ... في نظرها من يتلقّى، هو أَيضاً من يُعطي، بل هو الأَوفر عطاءً. إِنَّ العطاءَ من صميم الذَّات هو الذي يهب الفرح الحقّ، ومن يُتاح له العطاء هو الذي يتلقّى أَثمن هبةٍ. وحيثُ يرى الآخرون عُمَلاء وزبانيةً، هي ترى رفاق عملٍ تعقد معهم علاقةً مبنيَّةً على اعترافٍ بالجميل، بل على تفاهُمٍ واحترامٍ متبادلَيْن، وعلى اتّصالٍ بشريٍّ حارٍّ ومُغنٍ ... تلك هي حياة الأُمّ تيريزا وأَخواتها، حياة فقرٍ صارمٍ، حياة أَيَّامٍ وليالٍ من الجهد طويلةٍ، حياةٌ لا تفسح مَجَالاً إِلاَّ لأَثمن الأَفراح**". ثمَّ أَضاف: "**إِنَّ الأُمّ تيريزا تعمل في العالَم كما تراه، سواء في أَكوَاخ كلكتّا، أَو في سائر المدن والقرى؛ ولكنَّها لا تفرِّق بين فقراء وأَغنياء، أَفرادًا وشعوبًا؛ إِنَّها لم تهتمَّ يومًا بالسياسة، غير أَنَّ كلّ عملٍ اقتصاديٍّ أَو اجتماعيٍّ، أَو سياسيٍّ، تحدوه نفس أَهدافها، ينسجم انسجامًا تامًّا مع إِنجازاتها**".

وأَورد البروفسّور سانّس هذا القول لصحافيٍّ هنديٍّ: "**إِنَّ مرسلات المحبّة، بأُسلوبهنَّ الهادئ، وساريهنّ، وإِلمامهنّ باللهجات المحلِّيَّة... قد أَمسينَ يجسِّدنَ ليس أَفضل ما في المحبَّة المسيحيَّة فحسب، بل أَفضل ما في الثقافةِ والحضارةِ الهنديَّتَيْن، منذ بوذا حتَّى غاندي**"، ثمَّ أَضاف أَنَّ أَيَّة مساعدةٍ على مستوًى دوليٍّ قد تخدم قضيَّة السلام، إِن هي لم تمتهن كرامة الأمم الفقيرة، وأَهاب، في إِلحاحٍ، بالدول الغنيَّة أَن تقدِّم مساعداتها بنفس روح الأُمّ تيريزا.

ثمّ قُدِّمت للأُمّ براءة الجائزة البالغة قيمتها النقديّة نحو مئةٍ وتسعين أَلف دولارٍ، وميداليّةٌ ذهبيَّةٌ نُقشت عليها عبارة "من أَجل السلام والإِخاء بين البشر"، أَولَيس هذا هو الهدف الذي نادت به ببلاغةٍ، وناضلت في سبيله بشجاعةٍ، وسعت من أَجله بلا كَلَلٍ؟ أَولَم يعترف العالَم، في هذا المضمار، بتصميمها الثابت، وجرأة مبادراتها، وبذل ذاتها

بلا حسابٍ؟ غير أَنّ ما كانت راغبةً في الإِعلان عنه على الملأ هو دافعها ومعين قوَّتها النابعان من الوحيد الذي وقفت له حياتها: يسوع، معلِّم الحبّ الأَكبر.

ولمّا باتت وحيدةً على المنصَّة، تحت الأَضواء المسلّطة عليها، وقد أَشرق محياها ببسمةٍ رائعةٍ محت منه آثار السنين، وبرزت ضآلة حجم عملاقة القلب والروح تلك، تولَّت مقاليد الأُمور، وأَدارتها كما تشاء، فحوّلت المكان، هنيهةً، إِلى معبد صلاةٍ، إِذ استهلّت حديثها بالقول: "**بما أَنّنا في معرض السلام، فلنُصلِّ معًا من أَجل سلام العالم، ولنسأل الربّ أَن يهبَناه، ويجعلنا أَدوات سلامه**". وأَهابت بالثماني مئة مدعوّ أَن يتلوا معًا صلاة السلام الخالدة، المعزُوَّة إِلى القدّيس فرنسيس الأَسّيزي، وكانت نسخةٌ منها قد وُضعت على مقعد كلٍّ منهم. ثمّ انطلقت أَمام تلك الكوكبة من نجوم المجتمع تقرّظ الفقراء، وتمتدح عظمتَهم الحقَّة، وسخاءهم السمْح، مؤيّدةً أَقوالها بشواهد من خبراتها.

ومع إِدراكها أَنّ ملايين الأَنظار والأَسماع كانت شاخصةً إِليها، عبرَ شاشات التيليفزيون في العالَم أَجمع، لم تستعِنْ بأَيّة ورقةٍ مكتوبةٍ، ولم تُلقِ خطابًا مُعَدًّا مسبَّقًا، بل رسمت إِشارة صليبٍ على شفتيها، وتركت قلبها والروح الساكن فيها يتحدَّثان ببساطةٍ وتلقائيّةٍ، وكأَنَّها تتحدَّث إِلى أَصدقاء؛ لا ريب أَنَّ خطابها المرتَجَل كان أَبسط خطابٍ تُلُفِّظ به في مثل هذا المقام، ولكنَّه، بالتأكيد، كان من أَبلغها أَثرًا.

وقد تناولت مواضيعها الأَثيرة المرتكزة على الحبّ والحياة، فتحدَّثت، بعباراتٍ مؤثِّرةٍ، عن حبِّ البشر، وعن فرح خدمة يسوع في الفقراء، وعن كرامة جميع البشر بصفتهم أَبناء الله، وعن حقّ كلّ مخلوقٍ، حتَّى الجنينِ المقبل على الحياة، بالوجود والحبّ. وممّا جاء في خطابها:

« **فلنشكر لله هذه السانحة الجميلة، وفرح نشر السلام، فرح حبّ أَحدنا للآخر، وفرح الاعتراف بأَنَّ أَفقر الفقراء هم لنا إِخوةٌ وأخواتٌ.**

"**فلنشكر لله هذه السانحة المتاحة لنا جميعًا، اليوم، وهبة السلام هذه التي تذكِّرنا بأَنّنا خُلقنا لنعيش هذا السلام، وبأَنّ يسوع قد تأنّس ليحمل هذه البشرى للفقراء. مع كونه إِلهًا، أَصبح إِنسانًا يحاكينا في كلِّ شيءٍ خلا الخطيئة، وأَعلن بوضوحٍ أَنَّه جاء لينشر البُشرى، وبشراه كانت سلامًا لكلّ الناس سليمي النوايا،**

وهذا ما نتوق إِليه جميعنا: سلام القلب. والله قد أَحبَّ العالم حبًّا من العظمة بحيثُ أَعطاه ابنه – أَجل، لقد كانت عطيَّةً حقّةً – ولا ريب أَنَّه عطاءٌ أَوجع الله؛ لقد أودعه أَحشاء العذراء مريم؛ وماذا فعلت، هي، به؟

"حالما حلَّ يسوع في حياتها، سارعت مريمُ إِلى نشر البُشرى؛ وما إِن انتهت إِلى بيت نسيبتها حتَّى توثَّب، فرحًا، الجنينُ في أَحشاء أليصابات؛ ذلك الطفل الذي لم يكن قد رأى النور بعدُ، كان أَوَّل رسول سلامٍ، بعد أَن تعرَّف أَمير السلام، وأَدرك أَنَّ المسيح قد جاء حاملاً البشرى لكم ولي ».

ومع أَنَّ النورويج كانت قد أتاحت، حديثًا، الإِجهاض، وتعهَّدت الدولة بتمويله، لم تحجم الأُمُّ عن شنّ حملةٍ عنيفةٍ على الإِجهاض قائلةً:

"إِنَّنا نتحدَّث عن السلام، ولكنّني أَشعر أَنّ أكبر مدمِّرٍ للسَّلام، اليومَ، هو الإِجهاض. فهو حربٌ مباشرةٌ، قتلٌ مباشرٌ، جريمةٌ ترتكبها الأُمُّ نفسها؛ إِنَّنا نقرأ في الكتاب قول الربّ بوضوحٍ: "حتَّى إِن استطاعت أُمٌّ أَن تنسى وليدها، فلن أَنساك. لقد حفرتك على راحة يدي". إِنّنا، جميعنا، محفورون على راحة يد الربّ، وعلى قربٍ وثيقٍ منه. وهذا الطفل الذي لم يولَد بعد قد حُفِر على راحة يد الله. إِنَّ أكثر ما يهزُّني هُوَ مطلع العبارة: "حتّى إِن استطاعت أُمٌّ أَن تنسى وليدها" – وهذا أَمرٌ محالٌ – ولكن حتّى إِن هي استطاعت أَن تنسى، فأنا لن أَنساك.

"نحن، الموجودين هنا، لقد أَرادنا آباؤنا، ولولا إِرادتهم لنا، لما كنّا هنا. وأَبناؤنا نريدهم ونحبُّهم، ولكن ماذا عن ملايين الآخرين؟ شعوبٌ كثيرةٌ تهتمُّ بأَطفال الهند وأَطفال أَفريقيا، حيثُ أَعدادٌ كبيرةٌ منهم تموت من سوء التغذية، أَو من الجوع، وما أَشبه ذلك. بيد أَنَّ الملايين يُقتلون عمدًا، بمشيئة أُمَّهاتهم. وهذا هو مدمِّر السلام الأدهى، اليَوْم. فإِن كان بوسع أُمٍّ أَن تقتل ابنها، فما المانع من أَن أَقتلك وأَن تقتلني؟ لا فرق بين الأمرَيْن... هذا العام هو عام الطفل، فما الذي فعلناه للطِّفل؟... »

وسرت رعشةٌ دَهشةٌ وتأثُّرٌ في الجمهور، عندما التفتت الأُمُّ إِلى ملك النورويج مؤكِّدةً: **"أَجل، يا صاحب الجلالة، إِنَّ الإِجهاض جريمةٌ، بل من أَبشع الجرائم"**. وفي جرأةٍ نادرةٍ أَضافت: **"إِنَّ الدول التي حلَّلت الإِجهاض هي الأدقع فقرًا، لأنها تخشى**

الصغار، وتخاف من الطفل الذي سيولد، وتحكم عليه بالإِعدام، لأنَّها ترفض إِطعــام طفلٍ إِضافيٍّ".

وتحدثت الأُمّ عن الأَساليب الطبيعيَّة لتحديد الإِنجاب وتنظيمه كبديلٍ للإِجهاض؛ ثمَّ أَوردت أَمثلةً من تجاربها عن عظمة نفوس الفقراء، وعن الافتقار الروحيِّ إِلــى الحبّ والكرامة المنتشر في الغرب، وعن جهود أَخواتها في سبيل معالجته.

وأَطلقت رسالة الحبّ التي تمتلك عليها قلبها وعقلها، فقالت:

« لا يكفي أَن نقول: أُحبُّ الله، ولكنَّني لا أُحبُّ قريبي؛ فالقدِّيس يوحنّا يقــول: إِنَّك كاذبٌ إِن ادَّعيتَ أَنَّك تحبُّ الله، وأَنت لا تحبّ قريبك، إِذ كيف لك أَن تحــبَّ الله الذي لا تراه، إِن لم تكن تحبُّ جارك الذي تراه، وتلمسه، وتعايــشه. وإِنَّــه لمــن الخطورة بمكانٍ أَن ندرك أَنَّ الحبَّ، كي يكون صادقًا، ينبغي أَن يوجــع. إِنَّ حــبَّ يسوع لنا يوجعه، أجل، إِنَّه يوجعه ».

وتحدَّثت، أَخيرًا، باسم الفقراء، فقالت: "**لا ينشد الفقراءُ شفقَتنا وتنازلَنا، بل هم في حاجةٍ إِلى حبِّنا القادر على تقبُّلهم وفهمهم**".

من المحقَّق أَنَّ أَقوال الأُمِّ لم تلقَ من الجميع نفس القدر من الترحيــب، ولكــنَّ الجَميع قابلوها بنفس القسط من التقدير لصدقها. أَمَّا هي فقد غمرت نفسَها الــسعادةُ، لأنّها استطاعت أَن تشهد أَمام العالَم أَجمع بما آمنت به، وعاشت من أَجله بكلِّ كيانها.

وكانت الأُمّ، في بادرةٍ فريدةٍ، قد طلبت من لجنة نوبل إِلغاء المأدبــة التقليديّــة الفخمة التي تقام للفائزين، وتخصيص معادل كلفتها للفقراء، ممَّا وفَّر لهؤلاء خمــسة عشر أَلف وجبةٍ؛ وقد شحذت المبادرةُ سخاءَ الشعب النورويجيّ؛ فمن المعــروف أَنَّ ثمّة جائزةً موازيةً لجائزة نوبل الرسميّة، تدعى "جائزة الشعب"، يتبرّع بهــا أَفــراد الشعب النورويجيّ، وبها يعبّرون إِمَّا عن تأييــدهم لقــرار لجنــة نوبــل، أَو عــن معارضتهم لها، وإِيثارهم مرشَّحًا آخر استبعدته اللجنة، كما حدث عام ١٩٧٣، عندما أَسندت اللجنةُ الجائزة إِلى هنري كيسنجر والدوق تو، فيما آثر الــشعب النــورويجيّ منح جائزته للأسقف البرازيليّ دون هيلدر كامارا.

أَمَّا عام ١٩٧٩، فقد اتَّفق الاختيار الشعبيّ، والاختيار الرسميّ؛ وفي مبادرةٍ رقيقةٍ،

أُنيطت مهمّة جمع الجائزة الشعبيّة بالطائفة الكاثوليكيّة الضئيلة العدد، في النِـورويج؛ إلاَّ أنَّها لاقت من كلِّ أَفراد الشعب اندفاعًا عارمًا، وسخاءً سمْحًا، وكــان الأكثــر انــدفاعًا الأَطفالُ والطلاّب، الذين نظّموا لها دعاوةً مجلجلــة فــي وســائل الإِعــلام المرئيّــة والمسموعة، وفي المدارس، وقارعات الطرق، بحيثُ كادت قيمة الجائزة الشعبيَّة تربــو على قيمة الجائزة الرسميّة؛ وقد أَثلج ذلك قلبَ الأُمِّ فرحًا، فكلُّ تكريمٍ تُحــاط بــه تعــدُّه تكريمًا للمسيح والفقراء، وَجَمِيعهمْ، في اعتبارها واحدٌ؛ وقد تحوَّلت المبالغ الوفيرة التي تدفَّقت عليها بتلك المناسبة، غوثًا للمحتاجين، وبيوتًا للمشرَّدين، ومراكز عنايةٍ بالبُرْص؛ واتّفق أَن استوضحها صحفيٌّ فيمَ ستستخدم تلك الأَموال فقالت: "**لقد أنفقتُها كلَّها، فــي فكري**"، فالمشاريع التي ثبتت ضرورتها، والتي كانت تفتقر إِلى تمويل، لا تُحصى.

وفي إِثر إِلغاء المأدبة الرسميّة أُقيم حفل استقبالٍ وتهنئةٍ بسيطٌ في أَحد الفنــادق، حيثُ اكتفت الأُمّ بكأس ماءٍ صرفٍ، قام لها مقام مأدبةٍ؛ والتمس منها أَحد المهنِّئين أَن تريه الميداليّة التي كُرّمت بها، فلم تستطع أَن تذكر أَين أَودعتها، ومضى أَصــدقاؤها بحثًا عنها، إِلى أَن عثروا عليها بين المعاطف المعلّقة في مدخل القاعة.

وظلَّت الأُمُّ تردّد: "**منذ قدومي إِلى هنا، ما انفككْت أَتلقّى مظاهر الحــبِّ؛ لقــد غُمِرتُ بالحبّ، وسأَعود بالحبّ إِلى الهند**".

هذا الحبُّ المُشبع إِعجابًا لخَّصته صحيفة "أفتنســپــوستن" النورويجيّة بقولهــا: "**ما أَروع رؤية عالَم الصحَافَة مفتونًا، ولو لمرَّةٍ واحدةٍ، بنجمةٍ حقيقيَّةٍ، نجمةٍ بــلا أَهدابٍ مزيَّفةٍ، ولا تبرّجٍ، ولا جواهر، ولا معطفٍ من الفرو، ولا حركاتٍ مــسرحيّةٍ. فرحها يكمن في التفكير بإِنفاق قيمة جائزة نوبل الماليّة لــصالح أَفقــر الفقــراء، والأَكثر بؤسًا في العالم**".

وقد أَسهمت جائزة نوبل في فرض صورة الأُمّ تيريزا ومثالها على الــرأي العــامّ العالميّ، فأفاضت معظم الصحف في العالم، على تبايُن اتّجاهاتها ومشَاربها، في التحدُّث عنها، وفي إِبراز نشاطاتها في مضمار غوث المحرومين، وصون كرامة المنبوذين.

وفي المقتطفات التالية نماذج ممّا جاء في بعض تلك الصحف:

فقد كتبت: "الغارديان" اللندنيّة في ١٨/١٠/١٩٧٩:

"إِنَّ نشاط الأُمِّ تيريزا الفريد يستأهل أَسمى مديحٍ، فقد كرَّستْ زهاءَ ثلاثين سنةً لخير هذه الإِنسانيّة التي يعلَمُ الله وحده كم من آلافٍ أَفرادها، وربّما الملايين منهم، يموتون من الحرمان".

وجاء في صحيفة "ڤردنس غانغ" النورويجيّة، في نفس التاريخ:

"هذه السنة، أُسندت جائزة نوبل للسَّلام إلى امرأةٍ قضت كَلَّ عمرها في خدمة الآخرين، موقظةً فيهم الأَمل، ومحرّرةً إِيّاهم من البؤس، مُحترِمةً، وغامرةً بحبِّها كلاًّ منهم، غيرَ عابئةٍ بطبقته، أَو بمركزه الاجتمَاعِيّ".

أَمّا صحيفة "تورنتوستار" الكنديّة فقد كتبت في ١٩٧٩/١٠/١٩: "لم يبقَ مثال الأُمّ تيريزا عقيمًا ومجهولاً، فقد ظفرت باعترافٍ عامٍّ بأَنَّ الطيبة والحبَّ، واحترام القريب والإِيمان بكرامة الحياة الإِنسانيّة كلّها قيمٌ جوهريةٌ. وبإِقرارها أَنَّ هذه القِيَم هي الطريق الوحيدة المؤدِّية إِلى السلام، أَعربت لجنة جائزة نوبل، في الواقع، عن اعترافها بما أَسفرت عنه أَعمالها من نتائج".

وفي نفس النهار كتبت "نيويورك تايمز":

"كم كانت الأُمّ تيريزا صادقةً مع نفسها عندما صرَّحت، بشأن منحها جائزة نوبل: "إِنني لا أَستأهلها". لم يكن ذلك التصريح دليلاً على تواضعها الشخصيِّ فحسب، بل كان يُعبّر، أَيضاً، عن قناعتها الراسخة بأَنّها، وهي تخدم الفقراء وتساعدهم، إِنّما تؤدّي، في الحقيقة، واجبَها، بل أكثر من ذلك، واجبنا جميعًا".

وكتبت "إِنديان إكسپرس" الصادرة في نيودلهي:

"إِنَّ مثال التزامها المطلق وجرأَتها في مكافحة البؤس البشريّ يدفعان أُلوفًا من الرجال والنساء إِلى عمل شيءٍ في سبيل هذه المُثُل العظيمة. إِنَّ نشاط محبَّتها الرسوليّ قد ارتدى صيغةً قشيبةً، عام ١٩٥٠، عندما أَحدثت مؤسَّسةً لخدمة فقراء الهند، وفقراء أَماكن أُخرى"

وَأَكّدْت صحيفة "تايمز أف إِنديا" الصادرة، أَيضاً، في نيودلهي:

"حقًّا كان اختيار لجنة جائزة نوبل مدهشًا في صوابه... وإِنّه لحسنٌ أَن يعترف العالَم بأَنَّه ما زال بوسع الفضيلة، والرجاء، والحبّ، التغلُّب على الاستهتار

والبؤس... إنّ البشريّة ترى في الأُمّ تيريزا ما يميّزها عن الآخرين، لأنّها أعادت إلى الإنسان الرجاء في ذاته".

أمّا صحيفة "ستيتسمان" الصادرة أيضاً في نيودلهي في ١٩/١٠/٧٩، فأعلنت: "نادرًا، بل ربّما أبدًا، لم يلقَ تكريمٌ نظيرَ هذا الإجماع الذي ناله، هذه السنة، إسناد جائزة نوبل للسّلام للأمّ تيريزا الكلكتّاويّة".

وفي نفس النهار كتبت "ذي تريبيون" الصادرة في شانديغراه:

"إنَّ الأُمَّ تيريزا قريبةٌ من القداسة قربًا يكاد لا يتخيَّله إنسان عصرنا. إنَّ عملها قد تخطّى أتعاب وجهود كلِّ المناضلين في سبيل السلام".

وأصدت لها صحيفة "ديكان هيرالد" الصادرة في بنغلور: "لقد أمست الأُمُّ تيريزا قدّيسةً وأُسطورةً، وهي حيّةٌ، لأنّها كرّست ذاتها كلّيًّا لخدمة البائسين، والذين يعانون أشدّ حاجةٍ إلى التفاهم والحبّ".

وكتب "روبير سيرّو" في مجلّة "ماتش": "إنّها من جنس مجانين الله، من جنس القدّيسين".

وكتبت مجلّة "لوپوان" التي دعت الأُمّ تيريزا "الأُمّ البسمة": "لئن ظفرت الأُمّ تيريزا بجائزة نوبل للسّلام، فلأنّها، منذ أكثر من ثلاثين سنةً، اختارت منزلاً في قلب شقاء العالم".

ووصفتها مجلّة "نوڤيل أوبسيرڤاتور" بأنّها "بسمةٌ في الجحيم".

وكتب أُسقفٌ يوغوسلاڤيٌّ في مجلّة دريتا: "لقد أصبحت أُختًا وأُمًّا لجميع المحتاجين إلى حبِّ الأسرة، وصداقة الأخ، ودفء الأُمّ، بإشراع قلبها لاستقبالهم جميعًا... في الواقع إنّها، حاليًّا، مصدر فخرٍ واعتزازٍ لجميع المسيحيّين".

ولاحقًا، علّقت الأُمُّ تيريزا نفسها: **"لقد مُنحتُ جائزة نوبل، من أجل الفقراء؛ ولكنّني أعتقد أنَّ هذه الجائزة هي أرْفَع ممّا تمثّل، فلقد خلقت التزامًا وجدانيًّا في العالَم، بتذكيرها أنَّ الفقراء هم إخوتنا، وأنّ علينا أن نُظهر لهم حبّنا، وأن نهبَهم هذا الحبَّ المعزّي في العطف الإلهيّ، والرجاء والفرح النابعيْن من حبِّ الله. على شعلة الحبِّ والتفاهم أن تضطرم في ما بيننا، أوّلاً، ثمَّ حيال من نلتقيهم يوميًّا..."**.

وقد اتَّضح للكثيرين أَنَّ لجنة نوبل، بمنحها تلك الجائزة للأمِّ تيريزا، إِنَّما كرَّمت نفسها، وأَثبتت قدرتها على الاختيار الصحيح أَحيانًا.

وكان البابا يوحنّا بولس الثاني قد أَعرب عن رغبته في لقاء الأُمّ تيريزا، وهي في طريق عودتها من أوسلو، فسعدت بتلبية رغبته، وقد هنّأها الحبرُ الأَعظم بحرارةٍ قائلاً: "**امضي، وتكلَّمي هكذا في كلِّ مكانٍ**". وتعبيرًا عن محبَّته وتقديره، دعاها مع أَخواتها إِلى الاشتراك معه في الذَّبيحة الإِلهيَّة، في مُصلاّه الخاصّ، صباح ١٩٧٩/١٢/١٣. وقد اصطحبت الأمُّ خمسًا وعشرين من أَخواتها الناذرات، وخمس عشرة مبتدئةً، قبعنَ على الحضيض كي يتّسع المكان لجميعهنَّ. وعقب القدّاس، حثَّهنَّ الأَب الأَقدس على المُضيّ قدمًا في نشر البُشرى بين الفقراء. وقد علَّقت الأمُّ تيريزا بقولها فيه: "**إِنَّه أَبٌ حقًّا، وهو في مثل تواضع الطفل وبساطته**".

وبعد أَيَّام، بمناسبة عيد الميلاد، وأَمام الجموع المتراصَّة في ساحة القدّيس بطرس، أَشاد الحبر الأعظم، وبعباراتٍ تفيض حبًّا وتقديرًا، بعمل الأُمّ تيريزا وأَخواتها.

ونظرًا لما باتت تَتَمَتَّع به الأُمّ من احترامٍ لدى جميع الفئات، زاده رسوخًا ظفرها بجائزة نوبل، ولما عُهِد عنها من نزاهةٍ وحيادٍ، كُلِّفت، آنذاك، بمهمّةٍ سرّيّةٍ تقتضي التوسُّط للإِفراج عن رهائن السفَارَة الأَميركيّة في طهران. وفي ١٩٧٩/١٢/١٣، زارت السفَارَة الإِيرانيّة في روما، وأَوضحت للموظَّف الذي استقبلها: "أَنا لا أَهتمُّ بالسياسة، وليس لديَّ وقتٌ للاستماع إِلى نشرات الأَنباء، أَو لمطالعة الصحف، ولكن طُلب منّي التوسُّط، وإِنَّني أَفعل ذلك بصفة أُمٍّ مشتاقةٍ لبنيها؛ إِنَّني متأهّبةٌ للسَّفر إِلى إِيران، أو للتَّحدُّث بالهاتف إِلى آية الله؛ وبانتظار قراركم، سأُصلّي".

وقد تريَّثت بضعة أَيَّامٍ في روما، بانتظار ردٍّ إِيرانيٍّ لم يَرِدْ قطّ؛ فأعرضت عن المهمّة، وآثرت العودة إِلى مهامّ العطف التي كانت تنتظرها. ولكنَّها اهتبلت سانحة الأَيّام القلائل التي تلبَّثت، أَثناءَها، في روما، لتحقيق حلمٍ طالما راودها ولم يتَّسع له وقتها حتَّئذٍ، فزارت الدياميس، وتعقَّبت آثار شهداء المسيحيّة الأوائل الذين سقوها بدمائهم.

وفي الطائرة التي كانت تعود بها وبالأُخت جيرترود إِلى كلكتّا سُئلت هل كانت

راغبةً في طعامٍ خاصٍّ، فأَجابت أَنَّها ورفيقتها صائمتان استجابةً لنداء الأَساقفة الهنود، الذين أَعلنوا يَوْم الحادي والعشرين من كانون الأَوَّل يوم صيامٍ من أَجل السلام، وهكذا أَنهت، في الصوم والصلاة، مرحلة جائزة نوبل.

وكان يُخيَّل إِليها أَنَّها ستظفر، أَخيرًا، في كلكتّا، بالسلام والسكون، والتفرُّغ لمهامّ رسالتها، ولكنَّها لم تكن تعلم أَنَّ البلد الذي تبنَّته كان يُعدّ لها مراسم تكريمٍ فريدةً، وصاخِبَةً، تعبيرًا عن اعتزازه بها.

تكريمٌ يتواصل، وينابيع سخاءٍ تتفجَّر

لا ريب أَنَّ ظفر الأُمّ بجائزة نوبل كان منعطفًا خطيرًا في تاريخ جمعيَّة مرسلات المحبَّة، إِذ عرَّف العالَم أَجمع بمآثر الأُمّ تيريزا وأَخواتها، وبالخدمات الجُلّى المفعمة رقَّةً وعطفًا التي يُغدِقنَها على المحتضرين والمرضى والبُرْص، والأَطفال المهجورين؛ ومن ثمَّ تكثَّفت قوافل الصحافيّين وناشدي أَمثلة المحبَّة المجرَّدة التي تدفَّقت على كلكتّا، لتقصّي أَفعال المرسلات اليوميّة، وتضحياتهنّ الصغيرة السامية التي تتوالى وتتكرَّر، في كلِّ لحظة، بلا هوادةٍ ولا ملَلٍ؛ وكانت بُغية القادمين النفاذ إِلى دوافع المرسلات الكمينة التي أَهَّلتهن لتلك المنجزات المذهلة، ممَّا فجَّر ينابيع السخاء حيالها في مختلف أَرجاء المسكونة، وضَمِن للأمِّ ولجمعيّتها دعمًا وحمايةً وتعاونًا من قبل المسؤولين في كلِّ مكانٍ، فساعدها على حلِّ مشكلاتٍ كثيرةٍ حيثما برزت، وعلى إِنماء مشاريعها، ومضاعفة مراكزها في الهند، وفي المسكونة كلّها.

وقد كان لتلك الإِيقونة وجهها الآخر المختلف، فالأُمّ تيريزا تضيق ذرعًا بمظاهر التكريم والتمجيد، وتستشعر منها ضيقًا، ولا سيّما وأَنَّها تلتهم جزءًا من وقتها، وهي به ضنينةٌ، لأَنّه وقفٌ على الفقراء والمتأَلِّمين، فضلاً عن أَنَّ تواضعها الصادق السحيق كانت تجرحه شعائر التبجيل والتقريظ.

فلدى عودتها من أوسلو، استقبلتها كلكتّا بحفاوةٍ رسميَّةٍ بالغةٍ، واندفاعٍ شعبيٍّ عارمٍ، عبَّر عن ذاته بالطبل والمزمار؛ وانهال عليها طوفانٌ من الرسائل والبرقيَّات، وحاصرت مركزَ الجمعيّة كتائبُ الصحافيّين والمصوِّرين. وكان الإِعياء، في تلك الأَثناء، قد نال من الأمِّ، وانتابتها الحمّى، في حين كانت تستدعيها مهمّاتٌ ملحَّةٌ، ولا

سيّما تلك المتعلِّقة بتعيين أَماكن عمل مرسلاتٍ جديداتٍ أَبرزنَ نذورهنّ المؤبَّدة في تلك الفترة، فاعتكفت، شهرًا كاملاً، ريثما هَمَدَ الصخَب. ولكنَّها لم تجد سبيلاً إِلى تفادي جميع مظاهر التكريم، ولا سيّمَا تلك التي حرص على التعبير عنها الشعب الهنديّ، الذي أَبى أن يكون أَقلّ من الشعب النورويجيّ اندفاعًا يُذكيه عرفانٌ بجميل من أَسموها "ما تيريزا"، ومَن كانت للهند مبعث اعتزازٍ، ولم تتردّد في الردّ على صحافيٍّ في أوسلو استوضحها إِن هي كانت تعدُّ ذاتها مواطنةً عالميَّةً بقولها إنَّها "مجرَّد مواطنةٍ هنديّةٍ".

لقد حرص الشعب الهنديّ على التعبير عن حبّه وامتنانه لمن أَمست أُمَّ الهند، فأُصدر، لهذا الغرض، طابعٌ بريديٌّ يحمل صورة الأُمّ، وعبارة "علامة حبٍّ"؛ وكانت تلك هي المرَّة الأولى التي تُصدر فيها الهند طابعًا تكريمًا لإِنسانٍ ما زال حيًّا. وقد أُصدرت منه أَربعة نماذج تُظهر الأُمّ في مواقف مختلفة، وتحمل عباراتٍ مأثورةً لها، بخطّ يدها، مثل "الله يُحِبّكُمْ، أَحبّوا بعضكم بعضاً كما هو يحبّكم؛ باركّكم الله"، ممهورةٌ بتوقيعها الشهير؛ وهكذا غزت رسالتُها البيوت، ومجموعات هواة جمع الطوابع.

وقد تبرَّع رئيس الوزراء، شخصيًّا، بنفقات طبع ذلك الطابع التي بلغت خمسةً وعشرين ألف روبيّةٍ، وتطوَّع طلاّبٌ للتَّرويج لذلك الطابع، ولملصقاتٍ أُخرى تحمل صورة الأمِّ تيريزا، دعمًا لمشاريع مرسلات المحبَّة.

وقلَّدت الحكومةُ الهنديّة من كانت خير سفيرةٍ للهند في العالَم أَسمى وسامٍ وطنيٍّ، وهو وسام "بهارات راتا" أَو"جوهرة الهند"، التي لم تُمنح، من قبلُ، إِلاّ لسبع عشرة شخصيَّةً رسميَّةً رفيعة المستوى، وكانت الأمُّ أَوَّل شخص من غير مواليد الهند يُكرَّم بها. وقد قلَّدها إِيّاه، في ٢٢ آذار ١٩٨٠، رئيس الجُمْهُورِيَّة "ريدّي" بحضور رئيسة الوزراء أَنديرا غاندي، وحشدٍ من المدعوّين، في احتفالٍ مهيب؛ وقد قال فيها الرئيس "ريدّي": "**إِنّها تجسِّد، في ذاتها، العطف وحبَّ الإِنسانيّة – كما لم يفعل سوى القليلين سواها عبرَ التاريخ... لقد كرَّست حياتها كلَّها لخدمة الآخرين، واقتسام آلامهم. هذه القِيَم الجوهريّة التي يقتضيها الوجودُ الإِنسانيّ غالبًا ما تُؤَكَّد في الأَقوال، ولكنَّها تُنكَر في الأفعال**".

وسط فخامة ذلك الاحتفال، تميَّزت الأُمّ ببساطتها، في الساري الخاميّ، والخفَّين اللذيْن انتعلتهما على قدمَيْن عاريتَيْن، وصليب يسوع المثبت على كتفها؛ وقد اصطحبت الأخت "دوروثي"، وهي رابعة المنتميات إِلى جمعيّة مرسلات المحبّة. يوم انضمامها كانت الأمّ قد هتفت: "حمدًا لله، لقد أَصبحنا خمسًا". أَمّا في هذا اليوم، فكان بوسعها أَن تعلن: "نحن الآن أَلفٌ وخمس مئة مرسلةٍ في ثلاثين بلدًا".

وبعد أَن صافحت الأُمُّ جميع الرسميّين، وَاسْتَقَرَّتْ في مكانها، استلَّت مسبحتها، ومضت تكرُّ حبّاتها في خشوع؛ يومَها لم تعِظ بكلامها، بل بورَعها، وبمثال استغراقها في الله.

وعقب الاحتفال أَعلنت الأُمُّ للصَّحافيّين أَنَّها قبلت ذلك التكريم باسم جميع الفقراء، وباسمِ ممثّلي جميع الأديان الجاهدين في سبيل خدمة الفقراء؛ وطوال الأربعِ وعشرين ساعةً التي تلت، ما انفكّت جميع وسائل الإِعلام الهنديّة تذيع للهند كلِّها، في اللغات الستَّ عشرة الرسميّة، واللغات الثانويّة المئة واثنتين وخمسين أنّ لدى المسيحيّين شيئًا جيِّدًا يعطونه، شيئًا يفيد الجميع، ويحتاج إِليه المجتمع حاجةً جوهريّةً، وأَنَّ الأمَّ تيريزا قد قدمت إِلى بلادهم لهذه الغاية. ذلك، أَيضاً، كان تعريفًا بالإِنجيل الذي قاد حياتها، وكان حادي أَخواتها.

ولا بدْعَ إِن كرَّمت الهندُ الأُمَّ وأَخواتها، فمرسلات المحبّة ينهضنَ بجمٍّ من المهامّ التي ترغب الحكومةُ الهنديّة في الاضطلاع بها، ولكنَّها تعجز عنها، لافتقارها إِلى الوسائل البشريّة والمادِّيَّة، فضلاً عن أَنَّهنَّ ينهضنَ رمزًا للتَّسامح، وركيزةً للسَّلام، في بلدٍ تمزّقه التوتّرات العرقيّة والدينيّة.

وتوالت الدعوات وحفلات التكريم في مختلف المدن الهنديّة، وفي كثيرٍ من تلك المدن كانت تلك، للأمّ، مناسباتٍ ثمينةً لافتتاح مراكز جديدةٍ. وفي تلك الأثناء كانت تتدفّق برقيّاتٌ ودعواتٌ أُخرى من شتّى أَرجاء المسكونة تعرض تكريمًا، أَو وسامًا، أَو دكتورا فخريّةً، ولكنَّ الأُمّ الضنينة بوقت الفقراء، كانت تضطرّ إِلى إِرجاء الاستجابة للكثير من تلك الدعوات.

غير أَنَّ واحدةً من شعائر التكريم قد نزلت من قلبها منزلةً مستحبّةً، على نحوٍ خاصٍّ، عندما أُعلن، في ٢٨ حزيران ١٩٨٥، عن اعتبارها "مواطنةً ممتازةً"، في مسقط رأسها "سكوپيي" الذي كانت قد رحلت عنه لاثنتين وخمسين سنةً خلت.

ولكن، في غمرة تلك الموجة العارمة من بوادر التكريم، حدثت مأساةٌ أليمةٌ، عندما شبَّ حريقٌ في أحد مراكز الجمعيَّة في لندن أوقع ضحايا بين نزلائه المرضى، ما مزج حلاوة الانتصار بطعم المرارة، وذكَّر المرسلات بأنّ الصليبَ ملازمٌ لعملهنَّ حتّى في أوج النجاح.

وقد تجلَّت آثار جائزة نوبل في فخامة الاستقبال التي باتت تُقابَل بها الأُمّ، على نحو ما حَدَث لدى زيارتها لـڤينيزويلا بين ٢٢ و٢٦ تمّوز، وكانت قد طالما زارت تلك البلاد من قبل؛ غير أَنَّ شاهد عيانٍ روى:

"في هذه النوبة فُتحت للأمِّ الأبواب على مصاريعها، فدخلت تحت أنوار التيليفزيون الساطعة، ووسط حشدٍ من الصحافيّين".

وتميَّزت تلك الزيارة بحَدَثَيْن: الاحتفال بمضيّ خمس عشرة سنةً على تأسيس مركز مرسلات المحبّة في ڤينيزويلا، ومنح الأُمّ وسام "رتبة المحرِّر".

ولكن، قبل مثولها إِلى ڤينيزويلا، كان عليها أَن تتوقّف في غواتيمالا، حيثُ كان البابا يوحنّا بولس الثاني قد أَوفدها مندوبةً عن الڤاتيكان، ثمّ عرَّجت على پاناما للإِشراف على تأسيس مركزٍ جديدٍ هناك.

وأَدركها الوقت، بحيثُ تضاءلت فُرَص وصولها إِلى ڤينيزويلا في الوقت المحدَّد لتسلّم الوسام؛ ولم يكن الوسام، بذاته، يهمّها في شيءٍ، ولكنّها كانت تمقت التأَخُّر عن المواعيد، ولا سيَّمَا أَنَّ الحكومة الڤينيزويليّة كانت قد أَعدَّت، لتلك المناسبة، احتفالاً فخمًا نظَّمت جميع تفاصيله بدقّةٍ، بحيثُ كان من شأن أَيّ تأخيرٍ إِفساد كلّ شيءٍ. وتفاديًا لذلك، قرَّر الرئيس الڤينيزويليّ إِنفاذ طائرته الخاصَّة كي تأتي بِالأم من پاناما، ولمّا حطَّت الطائرة عائدةً إِلى مطار كاراكاس، اعترى الأُمّ الارتباك لكونها، مع الأخت دولوريس، رائدة مرسلات المحبّة في ڤينيزويلا، راكبتَي الطائرة الوحيدتَيْن. وقد التمس فريق الطائرة حُظْوة صورةٍ تذكاريّةٍ معهما، وجهدت مضيفةٌ أَنيقةٌ، أَثناء ذلك، في الوقوف أَقرب ما أَمكن من الراهبة المحدودبة، الضئيلة الحجم، المغضَّنة المحيّا.

ولدى تسلُّمها الوسام من يد رئيس الجمهوريّة "دهيريرا مپنيس"، صرَّحت الأُمُّ: "**شخصيًّا، أَنا مقتنعةٌ بعدم استئهالي هذه الجائزة؛ ولكنَّني أَقبلها من أَجل مجد**

الله، وتكريمًا للفقراء، لا في ڤـنيزويلا فحسب، بل في العالم أَجمع؛ إِنَّ هذا الوسام هو للفقراء الذين لستُ لهم سوى اليد، والحبّ، والعرفان بالجميل". وقال رئيس الجمهوريّة: "**هذه البادرة لا تتوخّى أَن تكون سوى اعترافٍ رمزيٍّ بالعمل المسكونيّ الذي تضطلع به الأُمّ تيريزا لصالح الإِنسانيّة المهملة، عمل لا يستهدف مطلق الفقراء، بل أَفقر الفقراء**".

واعترف المترجم، الذي كان ملحدًا، بأَنَّ تلك المناسبة قد أَثَّرت فيه أَثرًا لم يعهد أَبلغ منه في حياته، إِذ اعتراه شعورٌ بترجمة أَقوال قدّيسةٍ حقَّةٍ، أَقوالٍ في منتهى البساطة، ومنتهى الأَصالة.

ومن الطريف أَنَّ الأُمَّ نسيت الوسام في مكان الاحتفال، ولمّا أُتي به لها، من جديدٍ دسَّته في قمطرها الزريّ. ولطالما تكرَّر مثل هذا السهو، ولطالما أَغفلت الأُمّ اصطحاب شهادات التقدير التي كانت تُعطاها؛ وهي لم تُعنَ، قطّ، بإبرازها، بل كانت، أَبدًا، تودعها طيَّ الخفاء.

وكان قد أُعدَّ لها، بمناسبة الجائزة، عشاءٌ فاخرٌ، وحُجز لها، فيه، مقام الشرف، ولمرافقيها أَماكن متميِّزةٌ، ولكنَّها انسلَّت ماضيةً إِلى مركز جمعيَّتها حيثُ اكتفت بوجبةٍ متواضعةٍ تُزري بها وجباتُ أَفقر فقراء الحيّ.

وكان لها موعدٌ مع القاصد الرسوليّ في كاراكاس، وفي طريقها إِليه، مرّت السيّارة التي كانت تقلُّها بجانب كوخٍ، فالتمست من الكاهن الذي كان يرافقها أَن يتوقَّف، واستلفت اهتمامَها رجلٌ هَرِمٌ أَشدّ إِيغالاً في الفقر من سواه، فجاءته، وحدَّثته برقَّةٍ، وغسلته، ونظَّفت مسكنه الزريّ، ذاهلةً عن كلّ مفهومٍ للوقت، وبالطبع انتهت إِلى موعدها مع القاصد الرسوليّ، وقد مضى عليه وقتٌ طويلٌ. وقد علَّق مرافقها، الأب "هيلاريو رودريغيز"، على ذلك بقوله: "**من أَجل الفقراء، وَمِنْ أَجلهم وحدهم، تتخلّى الأُمّ تيريزا عن دقَّة مواعيدها؛ فخدمة الفقراء تتبوَّأُ لديها الأولويّة الأولى، قبل القاصد الرسوليّ...**" بل قبل الحبر الأَعظم نفسه، كما تبيَّنّا سابقًا.

في حزيران ١٩٨١ دعاها الرئيس ريغان وعقيلته إِلى البيت الأَبيض حيثُ أَقاما لها حفل تكريمٍ، وقلَّداها وسامًا رفيعًا.

وفي كانون الأوَّل من تلك السنة كرَّمتها جامعة القلب الأقدس الكاثوليكيّة في روما بدكتورا فخريّةٍ في الطبّ والجراحة، وقد جاء في تبرير القرار: "**لقد جهدت الأمُّ تيريزا بكلّ الوسائل، متخطِّيةً عوائق ومصاعب لا توصف، في تقديم مؤاساة الطبِّ التطبيقيّ، والمساعدة المبذولة بالحبِّ الأكثر تجرُّدًا، لأجساد البُرْص المتألِّمة، وللمحتضرين المهمَلين، والأطفال السقماء، والجياع، لليائسين من الشفاء، وللكثيرين من ضحايا مجتمعٍ لا يرحم**".

في تلك الأثناء، قدِم إلى كلكتّا فريقٌ يابانيٌّ آخر، برفقة راهبةٍ يابانيّةٍ كانت قد قضت سنةً في الهند، بُغيةَ تصوير فيلمٍ وثائقيٍّ عن مرسلات المحبَّة، وتردَّدت الأُمُّ في الاستجابة لطلبهم، أوّل الأمر، ولم تستسلم إلاّ بعد أن قنعت بأنَّ من شأن الفيلم تعريف آلاف اليابانيّين بجانبٍ من حبّ يسوع للعالَم. وحينئذٍ ارتأت تصوير احتفالٍ بنذورٍ مؤبَّدةٍ، يجري أثناءَ ذبيحةٍ إلهيّةٍ فسَّرت لهم فحواها. وإثرَ القدّاس والنذور صُوِّر حفل تهنئة المرسلات الجديدات تهنئةَ عرسان، بحضور ذويهنّ ومَدْعُوِّينَ عديدين؛ ولدى وصول المرسلات الجديدات رُسم صليبٌ على جبينهن، واقتدنَ، اثنتَيْن اثنتَيْن، في تطواف، وسط الرقص والغناء، فيما كانت بتلات الزهور تهمي عليهنَّ من الشرُفات، وعلى وقع أنغام أناشيد هنديَّةٍ تصوِّر فرحهنَّ الجمَّ باقترانهنّ بعريسهنَّ الإلهيّ. وكانت لحظات سعادةٍ تندُّ عن الوصف، تمنَّى الجميع، معها، لو توقّف عندها الزمن، لكي تدوم.

ثمَّ شخصت المرسلات الجديدات إلى مغارة العذراء، في صدر فناء المركز الرئيسيّ، حيثُ تقبّلتهنَّ الأُمُّ تيريزا، قارئةً على مسامعهنَّ بيانًا يؤكّد أنَّهنّ بتنَ جزءًا كاملاً من جمعيَّة مرسلات المحبَّة، وأضافت بضع توصياتٍ حول الحبِّ الذي يتعيَّن عليهنَّ إضماره ليسوع وللفقراء الذين سيتعرَّفنَه من خلالهم.

وكان المصوِّرون اليابانيّون يجهدون في تركيز كاميراتهم على الأمِّ تيريزا، التي كانت دائبةً على الانتقال من راهبةٍ لأُخرى، لكي تدع الكاميرات تستقرُّ على أخواتها. فمع أنَّ صُوَرها من أكثر الصورَ شيوعًا وانتشارًا، إلاّ أنّ الأُمَّ تيريزا قد تحاشت، ما استطاعت، عن الوقوف أمام كاميرا، ورفضت، أبدًا، إعادة لقطةٍ أو عبارةٍ تعذَّر على المصوِّرين التقاطها من النوبة الأُولى.

وفي الخامس عشر من تشرين الأَوّل ١٩٨٢، شخصت الأُمّ إِلى كلّيَّة الطبّ في جامعة لوڤان، حيث كُرّمت بدكتورا فخريّة في الطبّ، وقد صرَّح عميدُ الكلّيَّة أَنَّ الأَطبّاء، مع جهدهم في إِنقاذ مرضاهم، إِلاّ أَنَّه يُسقط في يدهم أَمامَ نزاعهم وموتهم؛ أَمّا الأُمّ تيريزا، فتُنقذهم من الوحدة واليأس، وتساعدهم على الموت بكرامةٍ، مقدِّمةً، بذلك، شهادة "طبيبٍ مسيحيٍّ".

ومرَّةً أُخرى أَعلنت الحكومة البريطانيّة، في ١٩٨٣/١١/٢٤ عن منحِ الأُمّ وسام الاستحقاق، وهو أَرفع وسامٍ بريطانيٍّ، ومحصورٌ بثمانين شخصًا فقط، يقلّده الملك أَو الملكة شخصيًّا؛ وقد قلَّدتها إِيّاه الملكة اليزابيث الثانية، بعد نحو عامٍ، أَثناءَ زيارةٍ لها إِلى الهند.

ومن الطريف أَنّ أَوّل ما فعلته الأُمُّ، إِثر تقلُّدها الوسام، استيضاحها الملكة عن صحَّة حفيدها الصغير وليم. وكأَنَّ صحَّة طفلٍ أَرجح في كفَّة معاييرها من وسامٍ رفيعٍ.

ولم يتخلَّف الاتِّحاد السوڤييتيّ عن ركب مُكرِّمي الأُمِّ تيريزا، فقد أَنعم عليها الصندوق السوڤييتيّ للطُّفولة بالميداليَّة الذَّهبيّة التي يُكرِّم بها، كلَّ سنةٍ، شخصًا تميَّز بعمله الدوليّ في خدمة الأَطفال؛ وقد أَعلن السيِّد "أَلبير لوخانوف"، في تلك المناسبة: "**تنهض الأُمّ تيريزا رمزًا للإِنسانيّة، والطيبة، والرحمة التي تُعلّمنا جميعًا كيف يمكننا أَن نعيش بالحبّ**".

وفي آب ١٩٩٢ قلَّدها الكردينال جون اوكونور رتبة القدّيس كولومبوس غوديوم، ومنحها شيكًا بمبلغ مئة أَلف دولارٍ.

وفي الشهر عينه استُقبلت، بصفة عضو شرفٍ، في معهد إِيرلندا الطبِّيّ الملكيّ.

وفي كانون الأَوّل ١٩٩٢، كافأتها منظَّمة الأُونيسكو في كلكتّا "**تتويجًا لحياةٍ مكرَّسةٍ لخدمة الفقراء، ونشر السلام، ومناهضة الظُّلم**"، ومُنِحت شيكًا بمبلغ خمسين أَلف دولار من أَجل إِشادة مركزٍ جديدٍ للمعاقين.

وفي حزيران ١٩٩٣، نالت وسامًا بابويًّا.

وفي العشرين من آب ١٩٩٣، كانت الأُمُّ مدعوّةً إِلى نيودلهي لتسلّم جائزة راجيف غاندي للسَّلام، في احتفالٍ حضره نحو أَلف مدعوٍّ. ولكن، بضع ساعاتٍ قبل الشروع بالاحتفال، انتابتها حمّى شديدةٌ، وشخَّص الطبيب إِصابتها بالملاريا، فكُلِّفت

إِحدى أَخواتها بتسلّم الجائزة نيابةً عنها، فيما مُضي بها إِلى مشفًى حكوميٍّ حيثُ أُحيطت بعنايةٍ دقيقةٍ. وقد أَبدى رئيس جمهوريَّة الهند قلقَه عليها، وتواردت استفسارات عن صحَّتها من سفراء ورؤساء العالَم أَجمع. وعندما سُمِح لها، بعد عشرة أَيّامٍ، بالعودة إِلى كلكتّا وضع رئيس الوزراء بتصرُّفها طائرته الخاصّة، وكانت سيّارة إِسعافٍ في انتظارها في مطار كلكتّا، ولكنّها آثرت السير إِلى الخارج حيثُ استقلّت شاحنة الجمعيَّة المقرقعة، لتعود بها إِلى البيت.

وفي تشرين الأَوَّل من عام ١٩٩٤، نالت جائزة يوتانت للسَّلام، اعترافًا بخدماتها الدؤوبة للإِنسانيّة.

وفي أَيلول من عام ١٩٩٦، منحتها حكومة الولايات المتَّحدة جنسيَّة الشرف، تقديرًا لأُسلوبها في العناية بالمرضى، ومحبَّة الفقراء، وإِظهارها لكلِّ إِنسانٍ، بأعمالٍ ملموسةٍ، كيفيّة تحقيق حلم مجتمعٍ أَفضل، وأَوفر عدالةً.

من الواضح أَنَّ ما جئنا على ذكره من جوائز وشهادات تقديرٍ لا يمثِّل ثبتًا كاملاً شاملاً لكلِّ ما أُغدق منها على الأُمّ تيريزا. فتلك التي لم تجلس، يومًا، على مقعدٍ جامعيٍّ، نالت من الدكتورات الفخريّة ما لم ينلْه، وما لم يستأهله مثلها أَحدٌ. وتلك التي لم تدرس، يومًا، اللاهوت، عاشت أَسراره في عمقٍ لم يتيسَّر إلاّ لقلَّةٍ سواها في تارِيخ اللاهوت، وتلك التي لم تتبع سوى دورةٍ وجيزةٍ من التمريض نالت أَرفع شهادات الطبّ التقديريّة بجدارةٍ، إِذ قلّما شفى نطاسيٌّ ولو قسطًا يسيرًا ممّا هي شفت من عِلَلٍ جسديّةٍ ونفسيّةٍ، وفي مثل تفانيها وجدواها.

وقلَّما انهالت الأَوسمة والجوائز مثلما انهالت عليها، مع أَنَّها كانت أَقلَّ الناس سعيًا إِليها، وأَكثَرهمْ عزوفًا عنها. فعلى نقيض نجوم المجتمع الذين يُغذّون شهرتهم بإِبراز صورةٍ لهم غالبًا ما تكون مزوَّقةً وزائفةً، لم ترتح الأُمُّ، يومًا، إِلى الأَضواء والمديح، بل كانت دائمًا تشعر بغربةٍ وضيقٍ، وسط الأَمجاد والشهْرَة التي تعدُّها ضربًا من الاغتصاب.

وهي لم تكن تُعير مناسبات التكريم كبير اهتمامٍ، ولم نكن تُعدّ لها الخطابات المنمَّقة، بل تقتصر على الاختلاء، بضع دقائق، في المُصلّى، قبل مثولها إِلى مكان الاحتفال، وتتخشَّع، أَيضاً، في السيّارة التي تقودها إِليه مستلهمةً الروح في ما يتوجَّب

عليها قوله، وقد أَفضت، يومًا، لمرافقٍ لها: "هذه الدعاوة، وَهَذِهِ الأضواء... كلُّ ذلك ضرب من الإذلال، ارتضيتُه مثلما ارتضيتُ جائزة نوبل، لأَنّه تكريمٌ للفقراء". وغالبًا ما غادرت قاعات الاحتفال حيثُ تتوالى خُطَب تقريظها الرنّانة كي تمضي إِلى حيثُ ينتظرها "العمل الحقيقيّ"، كما حدث، يومًا، في نيودلهي، بعد أَن منحتْ جائزةً ثقيلةً من الفضّة؛ وفيما كان الخطباء يتعاقبون على مديحها، انسلَّت خلسةً كي تلحق بطائرةٍ ميمِّمةٍ شطرَ كلكتّا، ناسيةً الجائزة التي سارعت إِلى بيعها حالما أُرسلت لها؛ وكذلك كان مصير معظم الجوائز عندما كانت تجد إِلى بيعها سبيلاً.

من أَجل "قومها" الفقراء المنبوذين، فقط، كانت تتقبّل التكريم والجوائز، فهي اعترافٌ بهم، وإِيقاظٌ للضَّمائر على أَوضاعهم المأساويّة، واستدرارٌ للسخاء في سبيل غَوْثهم.

وقد انقلبت الجوائز التي كُرّمت بها مصدر تمويلٍ هامًّا للكثير من مشاريعها؛ فمشاريعها هذه، باتّساعها وتعدّدها، تستلزم ميزانيّاتٍ تعجز عنها الدول والشركات العالميّة المتعدِّدة الجنسيّات؛ ومع ذلك تُقِرُّ الأُمُّ تيريزا بأَنَّها لم تشكُ، يومًا، من العَوز، فالأَموال الوفيرة كانت تتدفَّق عليها من كبار المحسنين والمؤسَّسات، ومن المتعاونين مع عملها في العالَم، والتقادم الصغيرة كانت تتوارد عليها من أَفرادٍ يحرمون ذواتهم كي يكون لهم في عملها سَهْمٌ. وهي كانت تتقبّل كلَّ ما يُجاد عليها به، فالتصدُّق حقٌّ لكلّ إِنسانٍ.

وكانت تشكر بصدقٍ وحرارةٍ كلَّ المحسنين، غير أَنّها لا تُسهب في الإِشادة بالإِحسانات الجسيمة المبالغ، لكيلا تغمط قدرَ الذين يعطون القليل يقتطعونه من احتياجاتهم؛ ولكنَّها لم تكن تُحجم عن ضرب المثل بهؤلاء، اقتداءً بيسوع الذي أَعلن إِكباره لفلس الأَرملة، ولم يأبه لجسامة مبالغ من يتصدَّقون بجزءٍ من فائضهم.

ففي المحافل العامَّة، وأَمام وسائل الإِعلام، أَشادت مرّاتٍ ومرّاتٍ بذلك الصبيّ في الثالثة من عمره، الذي وافاها ببضع قطع سكَّرٍ حرم نفسه منها من أَجل أَطفال "شيشوبهاڤان"، وبأَطفالٍ هنودٍ ضحّوا بأَلواح من الشوكولاته من أَجل أَطفال الحبشة الجياع، وبطفلةٍ باعت دُماها كي تتبرّع بثمنها للفقراء؛ وبمتسوّلٍ أَلقى بين يديها كلَّ غلّة يومه، خَجِلاً لضآلتها، ونام على الطوى؛ وبمُضيفةٍ جوِّيَّةٍ انتزعت من إِصبعها خاتمًا ثمينًا طالبةً بيعه وإِطعام المعوزين بثمنه. هذه المبادرات الضئيلة مادِّيًّا، والعظيمة بمغزاها، هي التي أَشادت بها، وضربَتها مثلاً.

ولقد نُسجتْ من حول الأُمِّ شبكة سخاءٍ تديرها وتلهمها العناية الإِلهيَّة، تتيح لها مواجهة احتياجات آلاف المحرومين الذين تعهَّدت مصيرهم.

فكم من الأَبنية التي تنازل لها عنها أَصحابُها فسارعت إِلى تحويلها إِلى ملاجئ للمشرَّدين، ومستوصفاتٍ، ومدراس، ومراكز لأَطفالٍ مهجورين، ومآوٍ لمحتضرين، ومصلَّياتٍ، وأديرة، وبيوتٍ لأَخواتها ولضيوفهنَّ الأَثيرين: الفقراء الذين لا سَنَد لهم؛ فيما تعهّد أَساقفةٌ وكهنةٌ أَلمانيّون بتقديم أَواني التكريس والتقديس لكلِّ مركزٍ جديدٍ تفتتحه مرسلات المحبّة، وتعهَّدَ متعاونون إِيرلنديّون بتقديم إِيقونات درب الصليب للغاية نفسها.

وكم من الحفلات الموسيقيّة، والمباريات الرياضيّة خُصّص ريعها لأَعمال مرسلات المحبّة، وكم تعهَّد متعاونون بنفقات تأسيس مراكز بأَكملها؛ وكم من الأَراضي قُدّمت للمرسلات مجّانًا لإِنشاء مراكز لهنَّ عليها!

بقدر ما كانت مرسلات المحبَّة يعطينَ كان يُجزَل لهنَّ العطاء، وبقدر ما كانت الأُمُّ تنجز كانت تُكرَّم، فيستثير تكريمُها السخاء، وتتحوَّل الجوائز التي تُمنحها إِلى مزيدٍ من المنجزات.

"المرأَة الأقوى سطوةً في العالَم"

ليلة السادس والعشرين من تشرين الأَوَّل ١٩٨٥، شهدت قاعةُ المداولات في الأمم المتّحدة حَدَثًا فريدًا قلّما تكرَّر أَو كان له نظيرٌ. ففي تلك القاعة التي غدت سوق عكاظ الأَزمنة الحديثة، والتي طالما دوَّت في جنباتها خطابات الزعماء والرؤساء، الحافلة بالعبارات المنمَّقة، وبتصريحاتٍ غالبًا جوفاء، لا تجد، حتّى في نفوس مطلقيها، أَيَّ صدًى، والتي طالما كانت مسرحًا لتراشُق التهَم المتبادلة، ومنبرًا لتصريحاتٍ طنّانةٍ ظاهرها مُثُلٌ ساميةٌ وباطنها نفاقٌ، ووكرًا لمساوماتٍ لا تخدم سوى مصالح الدوَل الكبرى، في تلك القاعة، التأَم، تلك الليلة، نحو أَلفٍ من كبار المدعوّين الذين قدم بعضهم في أَفخم مظهر: سياسيّون، وديبلوماسيّون، وأَقطاب مالٍ وصناعةٍ وإِعلامٍ، فنّانون ونجوم مجتمعٍ، من كلِّ أُفقٍ ومشربٍ، التأموا لغرضٍ لم يألفوه، قطُّ، ليكرِّموا امرأةً ضئيلة الحجم، مغضَّنة المحيّا، متلفّعةً بساري من القطن الخشن، كانت أَعمالها في خدمة الأَشدّ بؤسًا قد أَثارت إِعجاب الكون، ولم تكن أَقوالها، يومًا، سوى انعكاسٍ لما عملت وعاشت.

وقدَّم الأَمين العامّ للأُمم المتّحدة ضيفة الشرف بهذه العبارة: "**نحن في قاعة المداولات، وقد تعاقب على هذه المنصَّة رجالٌ يُفترَض أَنَّهم الأَقوى سلطةً في العالم؛ والآن نحظى باستقبال المرأة التي تَتَمَتَّع بأقوى سلطةٍ على الأَرض. إِنَّها أَرفع شأنًا منّي ومنّا جميعًا. إِنّها الأُمم المتّحدة، إِنَّها سلام العالم**".

لا ريب أَنَّ أَمين عامّ تلك المؤسَّسة الكونيَّة قد عرف، عن كَثَبٍ، كثيرين من أَساطين السياسة، وزعماء العالم، وتسنّى له أَن يسبر مدى نفوذهم وسطوتهم، ومع ذلك لم يتردَّد في وصف امرأةٍ ترتدي زيَّ الفقراء، وتنتعل خفَّيْن على قدَمَيْن عاريتَيْن، بالمرأة الأنفذ سلطةً في العالم. وكانت تلك هي المرَّة الأُولى التي تُنسَب فيها قوّة السلطة إِلى تلك المرأة التي أَجمع العالَم على الاعتراف بسموّ قداستها.

على ذلك القول علَّق الكردينال أوكونور: "**هل هي، حقًّا، المرأة الأَشدّ سطوةً في العالم؟ ما من إِنسانٍ في الدنيا أَقلُّ منها اهتمامًا بالأَلقاب. إِنَّني واثقٌ من أَنَّ الأَمين العامَّ يعلم أَنَّ كلَّ سلطةٍ في نظرها تكمن في يسوع، وتمرُّ عبره، وهي من أَجله، وتدين له بالفضل؛ وهو يعلم، يقينًا، أَنَّ سُلطتها هي سُلطة الصلاة، والامتثال التامّ لمشيئة الله، وحبّ كلِّ حياةٍ إِنسانيّةٍ. لن يُنكر أَحدٌ أَنّ الأمَّ تيريزا شخصيّةٌ فذَّةٌ، إِذ حسْبُها أَن تظهر حتّى تأسُر الجميع، ولكن هل ذلك عائدٌ لما تمتلكه من سحرٍ، أَم لأَنَّها عاكفةٌ دائمًا على تنظيف الأرض، وغسل البرص، وعلى الإِفادة من مناسبة جائزة نوبل كي تحدِّث العالَم أَجمع عن حبّ يسوع؟**"

وسواءٌ أكانت الأَكثر سطوةً أم لا، فمن المحقَّق أَنَّ عالَم السلطة السياسيّة والمادّيّة يصغي إِليها من واشنطن إِلى بكّين، وأَنَّ المؤمنين يرون الإِنجيل الذي تحمله إِليهم كما لم يحمله أَحدٌ قطُّ.

وقد أَحاط أَمين عامّ الأُمم المتّحدة جمهورَه المتميِّز علمًا بأَنَّهم سيشهدون العرض الأَوَّل لفيلم بعنوان "الأمّ تيريزا"، يُبرز نضال تلك التي التأَموا لتكريمها، ومآثرها فقد كانت فئةٌ من المتموِّلين قد رغبت في تقديم مادّة سينمائيّة أَنظف وأسمى ممَّا درجت على تقديمه دورُ السينما وشاشاتُ التيليفزيون، فكلّفت "آنّ بيتري" وأُختها جانيت بتصوير فيلم عن إِنجازات تلك التي عمَّت مشاريعُ محبَّتها المسكونةَ جمعاء؛ وقد استمرَّ التصوير

خمسَ سنوات في أكثر من عشرة بلدانٍ مختلفةٍ، وأَفضى إِلى كيلومتراتٍ من الصورَ التي اقْتُطِفَتْ منها مادَّةٌ مكثَّفةٌ لا تتجاوز مدّة عرضها ثمانين دقيقة.

وقبل عرض الفيلم، تلا مخرجه "السير ريتشارد أتينبورو"، رسالةَ تهنئةٍ من الرئيس ريغان جاء فيها: "**لا يجهل بلدٌ في العالم إِشعاع تلك المسيحيّة الرائعة**". وأعلن راجيف غاندي، رئيس وزراء الهند آنذاك: "**إِنّنا نفخر بأن تكون الأمُّ تيريزا قد اختارت الهند وطنًا تنتمي إِليه... ومع ذلك، هي لا تخصّ الهند وحدها، بل تخصّ العالم أَجمع**".

وعُرض الفيلم على شاشةٍ جسيمةٍ، مُظهرًا، بحدّةٍ، شتّى ضروب معاناة أَقوامٍ لا يُحصى لهم عددٌ في الهند، وغواتيمالا، والحبشة ولبنان؛ وتعاقبت مناظر الأَماكن والمُدُن، حيثُ تُغدق الأُمّ وأَخواتها رعايتهنّ، وعزاءَهنّ، وحدبهنّ على كلِّ بائسٍ منسيٍّ.

وما إِن انتهى العرض حتَّى تقدّمت الأُمُّ تيريزا إِلى مقدَّمة المسرح، ضئيلة الظلّ، ساحرة التأثير، فانتصب الجمهور واقفًا يحيّيها، وقد اغرورقت عيونٌ كثيرةٌ بالدموع. وانتهزت الأُمُّ تلك السانحة الفذَّة كي تكرِّر ما فعلته يوم تسلُّمها جائزة نوبل للسَّلام، فدعت الحضور إِلى الصلاة، محقِّقةً ما عجزت عنه أَعظم الدوَل. فلأربعين سنةً خلتْ، إِبّان تأسيس الأمم المتّحدة، كان قد عُرض اقتراحٌ بافتتاح الجلسات بالصلاة، غير أَنَّ الكتلة الشيوعيّة قاومت الاقتراح، فطُوي. وها هي ذي راهبةٌ نحيلةٌ، تحمل، بين جنحيْها، إِيمانًا لا يتزحزح، تدعو الجميع إِلى الصلاة، فلا يجرؤ أَحدٌ على معارضتها، وقد خاطبتهم قائلةً: "**بما أَنَّ القوم هنا يلتئمون باسم السلام، فلنسأل الربّ أَن يهبنا السلام**". وشرعت بتلاوة صلاة السلام المنسوبة إِلى القدّيس فرنسيس الأَسّيزي، والتي وُزِّعت نسخٌ منها على جميع الحضور الذين اشتركوا في تلاوتها. وقد صرّحت الأُمّ، فيما بعد: "**لقد صلّوا في قاعة الأمم المتَّحدة الفسيحة كما لم يُصلُّوا، قطُّ، من قبل**".

أَمّا رئيس أَساقفة نيويورك الذي شارك في الاحتفال فقد علَّق: "لم أستطع مراقبة الجميع، ولكن استنادًا إِلى دويّ الأَصوات، لستُ أَعتقد أَنَّ الذين لم يستجيبوا لدعوتها إِلى الصلاة كانوا كُثُرًا".

ولم تقتصر جرأةُ الأُمّ على دعوة ذلك الجمهور الشديد الاختلاط إلى الصلاة، بَـلْ إنَّها لم تتحرَّج من التطرُّق لموضوع الإجهاض الذي كان هاجسها الدائم، مع علمها بأنّ لفئة عريضةٍ من الحاضرين، ولاسيّمَا الحكّام منهم، موقفًا مباينًا سيكون كلامها دينونـةً قاسيةً له؛ وقد صرَّحت، في هذا السياق: "**عندما ندمِّر طفلاً مقبلاً إلى الوجـود، إنمّـا ندمِّر الله... إنّنا نخشى الحرب النوويّة، ونرهب هذا المرَض الجديد المريع (الإيـدز) ولكنَّنا لا نتهيَّب من التضحية بطفلٍ. لقد أَصبح الإجهاض عدوَّ السلام الأَكبر**".

ومن بعدُ، عُرِض فيلم "الأُمّ تيريزا" في كثيرٍ من بلدان العالم، فـي آنٍ واحـدٍ، وأَحدث، في كلِّ مكانٍ، نفسَ القدْر من التأثير البليغ.

إلاَّ أَنَّ بعض عباراتٍ وردت في الفيلم أَثارت الاعتراض؛ فقد اعترض، مـثلاً، الأب "إكزيم"، مرشد الجمعيّة، على عبارة أُوردت على لسان المرسلات تقول: "نحن لا نقوم بالتبشير" وقد رأى أَنَّها تحتاج إلى إيضاحٍ. فمن المحقَّق أَنَّ مُرسلات المحبّـة قد احترمنَ، أَبدًا، جميع الأَديان، ولم يسعينَ، يومًا، إلى ردّ إنسانٍ عن دينه، ولكـن، على حدّ قول الأَب "ڤـان إكزيم": "ليست المرسلات مساعداتٍ اجتماعيّاتٍ، بل عليهنّ نشر بشرى الإنجيل، فتلك المهمَّة هي من صُلب قوانينهنّ. رسالتهنَّ هي نشر الكلمة الطيِّبة بأُسلوب عيشهنّ، وفعالهنّ، وإذا اقتضت الظروف، بأَقوالهنّ. وإن هنّ لم يفعلنَ ذلك خُنَّ دعوتهنّ الرهبَانيَّة".

وأَصدت الأُمّ تيريزا لذلك القول بتأكيدها: "الناس لا يفهموننا، ولا يؤوِّلون عملنا التأويل الصحيح، فنحن لسنا مساعدات اجتماعيّاتٍ، ولا معلّماتٍ، أَو ممرّضـاتٍ، أَو طبيباتٍ، بل نحن راهباتٌ. إنَّ كلَّ ما أَفعله، فليسوع أَفعله، ويسوع هو من أَخدم فـي الفقراء، هو من أَخدم أَربعًا وعشرين ساعةً في اليوم".

ذلك هو ملخّص هاجسها الدائم، ودافعها المحرِّك، وهذا هو الروح الذي جهـدت لبثّه في صدور أَخواتها، وهنَّ لسنَ بحاجةٍ إلى الجأر بقناعاتهنّ لأَنَّهنَّ يعشنَها في كلّ لحظةٍ بوفاءٍ.

الفصل الرابع

رحيلٌ وخلودٌ

"غيومٌ في أفق المغيب"

مع ما كُرِّمت به الأُمُّ تيريزا من تقديرٍ ومكافآتٍ، ومع ما حقَّقته من إِنجازات، لم ينجُ غروبُ حياتها من المنغِّصات، وقد تكدَّرت، على نحوٍ خاصٍّ، سنواتها السبع الأَخيرة بالمرض والفواجع والنقد المرير.

ففي ٢٦ كانون الأَوّل ١٩٩١، أَثناء زيارةٍ لها إِلى المكسيك، أُصيبت بالتهابٍ رئويٍّ، وقد ذُهل الطبيب الذي عادها، عندما تبيّن أَنَّها، مع وضع قلبها الخطير، كانت على سفرٍ دائمٍ، غير مزوَّدةٍ بأَيَّة عقاقير احتياطيّةٍ. ونُقلت، قسرًا، إِلى مشفًى في كاليفورنيا حيثُ أُحيطت برعايةٍ مشدَّدةٍ؛ وقد حاولت الفرار من المشفى ولكنَّها اصطدمت بالحراسة الساهرة الشديدة المفروضة عليها. وقد اغتنمت فرصة وجودها في المشفى كي توجِّه نداءً إِلى أَهالي سان دييغو للإِقدام بسخاءٍ على التبَرُّع بالدم. ورغم العاصفة الهوجاء التي هبَّت في اليوم التالي، تضاعَف عدد المتبرّعين، منذئذٍ.

وفي أَعقاب ثلاثة أَسابيع من الرعاية تمكَّنت من مغادرة المشفى، ومن استعادة وتيرة نشاطها المحموم.

وفي شباط ١٩٩٢، شخصت إِلى روما حيثُ كان البردُ قارسًا؛ وبما أَنَّ غرف الراهبات تفتقر إِلى أَيّة تدفئةٍ، حاولت أَخواتها توفير بعض دفءٍ لها، حرصًا على سلامتها، غير أَنَّ أَقصى ما سمحت به تغطية البلاط بالورق المقوَّى درءًا لنزِّ الصقيع. ومع وهنها ظلَّت دائبةً على افتتاح مراكز جديدةٍ، ومنها مركز للكهنة المرسلين في روما.

وفي السابع من أَيّار ١٩٩٣، انعقد مجمع المتعاونين في انفيرس ببلجيكا، احتفاءً بذكرى ميلاد "جاكلين دي ديكر" الثمانين. وفي تلك المناسبة أَعلن الأَخ "جوف"، رئيس مرسلي المحبّة، عن نيَّة الأُمّ تصفية اتِّحاد المتعاونين، ومجالس إِدارته العليا، بعد ما أُشيع عن استخدام بعض أعضاء تلك المجالس لأَموال الفقراء، من أَجل تنظيم أَسفارهم، وتوزيع نشراتهم؛ وقد دحض مسؤولو الاتّحاد كلَّ تلك الاتِّهامات، ودلّلوا بالبرهان القاطع أَنَّها باطلةٌ لا سَنَد لها، فهم يؤَدُّون نفقات سفرهم، وطبع وتوزيع نشراتهم من جيوبهم الخاصّة، وهم حريصون حرصَ الأُمّ نفسها، على عدم التفريط بفلسٍ من مال الفقراء.

إِلاّ أَنّ الأُمَّ كانت تتوجَّس خشيةً من أَن يتحوّل الاتِّحاد إِلى مؤسَّسةٍ، مع ما تنطوي عليه المؤسَّسات من محاذير ومواطن ضعفٍ، وأَن يفقد، بذلك، بساطته الأَصيلة، وتلقائيَّته العذبة، فتتوثَّق علاقته بالمال، في حين كانت الأمُّ تتوخّى أَن يكون المتعاونون قلبًا واحدًا، مشتركين في فرح حبِّ القريب، في معزلٍ عن الرتب الإِداريّة، على أَن تتولّى المرسلات بأنفسهنَّ الشؤون الماليّة بتعاونٍ وثيقٍ مع المتعاونين.

وظلَّ الأَمر بين أَخذٍ وردٍّ، إِذ كان يحتاج إِلى دراسةٍ أَوفى، وإِلاّ أَدَّت تصفية مجالس المتعاونين إِلى اضطرابٍ خطيرٍ في جمع موادِّ الإِغاثة وتوجّهها إِلى غاياتها، فالمرسلات لا يمتلكن كفاءةً للنهوض بتلك المهمَّات.

ولدى عودة الأُمِّ إِلى روما، انزلقت على الأَرض، فكُسرت ثلاثٌ من ضلوعها؛ ومع ذلك، ما عتَّمت أن استعادت عصا الترحال، وشخصت إِلى پولونيا وإِيرلندا، حيث مُنحت وسام الحرِّيَّة الإِيرلنديّ في دبلن، في الثاني من حزيران ١٩٩٣.

في آب ١٩٩٣، أَحيت ذكرى ميلادها الثالثة والثمانين في أَحد مشافي دلهي. وفي ١٧ أيلول كانت تتأرجح بين الحياة والموت، أثناء عمليَّةٍ استهدفت فتح شرايين قلبها المسدودة؛ وأَنفذ إِليها قداسة البابا رسالةً تقول: "**إِنَّ العالم كلَّه في حاجةٍ إِليك**". وقد أَذهلت الأَطبَّاء بإرادتها الشفاء لإكمال المهامّ التي كانت تحلم في إِنجازها.

وفي تلك الأثناء فُجعت بوفاة مرشدها الروحيّ الأَب "ڤان إِكزيم" الذي واكب مسيرتها منذ بدايتها؛ وقد تعذَّر عليها الاشتراك في جنازته؛ وفُجعت أَيضاً بوفاة صديقتها "آن بليكي" التي تولَّت، سنواتٍ طويلةً، مهمَّة التنسيق بين رابطات المتعاونين في العالم.

وفي غروب شهر تشرين الأَوَّل ١٩٩٣، في طريق عودتها من سنغفورة، حطّت في الصين مرَّةً أُخرى، غير أَنّ مساعيها لافتتاح مراكز هناك كانت لا تزال تصطدم بعقباتٍ.

وفي ٣ حزيران ١٩٩٤، لبَّت، غير راضيةٍ، دعوة الرئيس كلينتون للمشاركة في "وجبة صلاةٍ وطنيّةٍ" في واشنطن؛ وتحدَّثت بإِسهابٍ، مركِّزةً حديثها على إدانة الإِجهاض. وعندما فرغت من حديثها لم يصفِّق لها أَحدٌ من الجالسين على مائدة الرئيس؛ غير أَنَّ كلينتون اعتذر، فيما بعد، عن ذلك السلوك السمج. وبعد سنةٍ زارتها هيلاري كلينتون وابنتها في دلهي، وكانت وجهات نظرهما، بشأْن التبنّي، متطابقةً. وفي ١٥ حزيران، افتتحت الأُمُّ مركزًا للأطفال في واشنطن.

في آذار ١٩٩٤، قامت بزيارةٍ ثالثةٍ إِلى الصين، أَحاطتها بالكتمان، وكان الفشل نصيبها، مثل سابقاتها.

وفي تشرين الثاني ١٩٩٤، شُنّت عليها حملة تشهيرٍ شعواء، فاتُّهمت، من خلال برنامجٍ تيليفزيونيٍّ بريطانيٍّ بالديماغوجيّة والرجعيّة، وبخدمة سلاطين الأرض، وقد كُرّرت تلك التهم في كتابٍ حمل عنوان: "الأُمّ تيريزا: النظريّة والتطبيق". وكان ردّ الموالين لها حادًّا مُفْحِمًا، غير أَنَّ البعض، مع إِيمانهم ببطلان التهم الموجّهة إِلى الأُمّ، اعترفوا بوجود ثغراتٍ في عملها.

وهكذا، قبل أَن يُقيَّض لها مواجهة وجه ربّها في سلامٍ وسكينةٍ، على غرار

المحتضرين الذين كانت تُعدُّهم لتلك المواجهة، كان عليها أَن تلمسَ، في غروب حياتها، ثمن أَن يكون المرء رمزًا للمعارضة.

وفي عام ١٩٩٥، وهي في الخامسة والثمانين، تعرَّضت، في الهند نفسها، لحملات انتقادٍ عنيفةٍ من جهاتٍ مختلفةٍ؛ فاتَّهمها رجل دينٍ هندوسيٌّ بمحاولة اجتذاب أَهالي المناطق الفقيرة في شمال شرقيِّ البلاد إِلى اعتناق الدين المسيحيّ، وشراء ضمائرهم بشيءٍ من الأَرزّ. وناهض آخرون موقفها من وسائل منع الحمل، في بلادٍ بات تحديد النسل فيها ضرورةً لازبةً.

وأَخيرًا، اصطدمت بعددٍ من الأساقفة المسيحيّين الذين شنّوا حملةً لصالح المنبوذين الهندوسيّي الأَصل، الذين اعتنقوا الدين المسيحيَّ للتَّحرُّر من لعنة النبذ، ولكنَّهم ظلّوا مَقْصِيّين عن الوظائف العامَّة، واستهدفت الحملةُ إِقرار منحهم نسبةً من وظائف الدولة.

وقد شاركت الأُمُّ، بادئ الأَمر، بتلك الحملة، ولكن عندما قاومتها، بعنفٍ، طائفة "جاناتا" المتطرِّفة، أَعلنت أَنَّها لم تكن على علمٍ بالمطالبة لهم بنسبة توظيفٍ، ممَّا أَثار سُخْط الأَساقفة الذين اتَّهموها بالتذبذب والتخاذُل.

ومع ذلك، ما انفكّت الأُمّ دائبةً على السفر للمشاركة في افتتاح مراكز جديدة، وحضور الاحتفالات بنذور المرسلات الجديدات. ففي عام ١٩٩٥، نذرت ستٌّ وسبعون مرسلةً نذورهنَّ النهائيّة، وباشرت اثنتان وخمسون الابتداء.

وفي ليلة ٣١ آذار ١٩٩٦، سقطت الأُمّ من سريرها فكُسر عظم فخذها، ولكن لم يمضِ على الحادثة شهران حتّى شخصت، من جديدٍ، إِلى الولايات المتَّحدة، وروما، وإِيرلندا، وإِنكلترا. وفي كلِّ مكانٍ كان يتحلَّق حولها المتعاونون للصَّلاة معها. وما كادت تعود إِلى الهند حتّى فُجعت بنبأ مصرع رئيسة مركز الجمعيّة في نيويورك والرئيسة الإِقليميّة في أَميركا، في حادث سيّارة، وكانت المرسلتان تعتزمان الحضور إِلى كلكتّا للمشاركة في المجمع العامِّ المكلّف بانتخاب رئيسةٍ جديدةٍ. وعجزت الأمُّ عن السفر إِلى الولايات المتّحدة، فكلَّفت الأُخت "نيرمالا" النيابة عنها في جنازتهما.

وفي الأسبوع الثالث من آب ١٩٩٦، تأزّم وضع الأُمّ تأَزُّمًا مقلقًا، ونُقلت إِلى مشفى "وودلاند"، ولكنَّها استعادت وعيها يوم ٢٥ آب، وعشيّة ذكرى ميلادها السادسة

والثمانين، استطاعت التنفُّس من غير حاجةٍ إِلى أوكسيجين، وشرعت تــردُّ، خطِّيًّــا، على برقيّات التمنِّيات التي انهالت عليها من العالَم أجمع. وفي السادس مــن أيلــول، أَرغمت الأَطبّاء على السماح لها بمغادرة المشفى، في الساعة الخامسة صباحًا، وهي تعلن أَنَّ صحَّتها وحياتها بين يدي الربّ.

وفي العاشر من أيلول، الموافق للذكرى الخمسين ليوم الوحي بدعوتها الثانيــة، سُمح للأُختَين أَنييس وجيرترود بزيارتها، غير أَنّها آثرت قضاء ذلك اليوم، وحيــدةً، في التأمُّل والراحَة.

وأعيدت إِلى المشفى، في ١٦ أيلول، إِثر وعكةٍ طارئةٍ، ولكنَّهــا غادرتــه يــوم الخامس والعشرين، وهي نشطةٌ مشرقةٌ.

وفي ٢٢ تشرين الثاني، انتابتها أَزمةٌ قلبيّةٌ جديدةٌ استدعت عمليّةً دقيقةً، وكــان موتها متوقَّعًا في كلّ لحظةٍ، وصلَّى العالم كلُّه، بكلِّ مذاهبه، لشفائها؛ إِلاّ أَنَّها، بــدت مستسلمةً، تنتظر موتًا ساجيًا كذاك الذي ساعدت الكثيرين على مواجهته. ولكنَّها في الرابع من كانون الأَوَّل، أَعلنت أَنّها تشعر بتحسُّنٍ، وترغب في العودة إِلــى البيــت، حيث من شأن الفرح المنبعث من أَخواتها تزويدها بالعافية. وقد غادرت المشفى فــي ١٩ كانون الأَوَّل، وباتت تقضي معظم وقتها مستلقيةً، متأَلِّمةً، وعلى خلاف ما عُهــد عنها، كانت تئنُّ، أَحيانًا، من الأَلَم؛ وكان مرشدها الروحيّ الأَب "ڤــان إِكــزيم" قــد تنبّأ لها، قُبَيْل وفاته: "أَنتِ، أَيضاً، ستكون لك جلجلتك".

ما كان يرفدها ببعض عزاءٍ وقوَّةٍ، أَثناءَ استشفائها، السماح لكاهنٍ بإِقامة القدَّاس، في غرفتها، كلَّ يومٍ، ثمَّ، بعد أَن عادت إِلى البيت، حضورها القدَّاس، يوميًّا، علــى كرســيِّها المتحرِّك، مع أَنَّ أَخواتها، في الأَشهر الأَخيرة من حياتها، أَمسكنَ عــن قــرع نــاقوس الاستيقاظ في الرابعة والنصف صباحًا، كي يدعنَها تنعم ببضع ساعات نومٍ إِضافيّةٍ.

عشيّة عيد ميلاد ١٩٩٦، تحدّثت إِلى وفدٍ من المتطوّعين والمتعاونين، غير أَنّها، في ٦ كانون الثاني ١٩٩٧، عجزت عن النهوض من سريرها للاشتراك في الذكرى السابعة والستّين لوجودها في الهند.

وباتت تترقّب، في ســكونٍ، موعــد العــودة إِلــى منــزل الآب، وتــستعجل انتخاب خليفةٍ لها على رأس جمعيّتها.

الرحيــل

حتّى ربيــع عــام ١٩٩٧، ظلّــت الأُمّ تيريــزا رئيــسة جمعيَّــة مرســلات المحبَّة، التي امتدَّت فروعها إِلى معظم أَنحاء المعمــورة، فعــدد المرســلات بــات يناهز الأَربعة آلاف وخمس مئة، وهو يتضخَّم بنحو مئتــي راهبــةٍ مكرَّســةٍ كــلَّ سنةٍ؛ ومراكزها في مطلع عام ١٩٩٧، بلغت ٥٦١ مركــزًا؛ فــضلاً عــن ســبعة عشر مركزًا تضمّ أَربعًا وتسعين مرسلةً متأمّلــةً. أَمّــا عــدد المرســلين العــاملين فيناهز الخمس مئة مرسلٍ فــي ســبعةٍ وســتّين مركــزًا، فــضلاً عــن عــشرين متأمِّلاً موزَّعين في ثلاثة مراكز، وخمسةٍ وعشرين كاهنًا في أَربعة مراكز.

ورغم وقر سنيها، ووهنها، وقلبها المتهادي، ظلَّت الأُمُّ تُعنى بذلك الجيش مــن حاملات وحاملي حبِّ الله إلى العالم، تتفقَّدهم، وتبثّهم روحها إِرثًا كفيلاً بالحفاظ على حيويّة الجمعيّة المعجزة التي أَنشأَتها بعَوْنٍ مذهلٍ ما انفكّت العناية الإلهيّة ترفدها به. إِنَّها، أَبدًا، تعمل وتعلِّم، وتصلّي وتسافر، ولو أَنَّها اضطرّت، في أَيَّامها الأَخيرة، إِلى استخدام كرسيٍّ بعجلاتٍ في تنقُّلاتها.

وتواترت عليها هجمات المرض، وشُــغِلت وســائل الإعــلام بمتابعــة أَنبــاء استشفائها، وتوعّكها، وإِبلالها، وواكــب العــالَم، بقلــوبٍ واجفــةٍ، تلــك الــشعلة الضئيلة الغالية التي تكاد تطفئها نسمةٌ عــابرةٌ؛ وتبــيَّن مــشاهدو التيليفزيــون كــم باتت تضيق ذرعًا بالعناية الطبِّيَّة البالغة التي كانت تُحــاط بهــا، وقــد شــوهدت، يومًا، تصيح بحشدٍ من الأَطبَّاء انحنوا فــوق ســرير مرضــها: "**مــا بكــم كلُّكــم تهتمّون بي، وهناك أُلوف المحتاجين إِلى علاجٍ، وما من يعبأ بهم!**"

وبين التاسع والرابع عشر من كانون الثاني ١٩٩٧، قــدمت إِلــى كلكتّــا مئــةٌ وعشرون مرسلةً، من العالَم أَجمع، للاشتراك في المجمع المكلَّف بانتخاب خليفةٍ للأُمّ تيريزا. وكان من المقرَّر عقد ذلك المجمع في منطقة "دمدم" على مقربةٍ من مطــار كلكتّا، غير أَنَّ وضع الأُمِّ الصحِّيّ حتَّم عقده في المركز الأُمِّ الذي حُظِر ولوجه على كلِّ غريبٍ، كي تتحرَّر الأمّ من الزيَارَات، وتنعم بالراحة.

افتُــتح المجمــع فــي ١٩٩٧/١/١٧، وطالــت النقاشــات، إذ كانــت كــلُّ مشتركةٍ تحمل اقتراحاتٍ تستهدف تطوير عمــل مرســلات المحبَّــة؛ وقــد طُلــب

منهنّ تدوين تلك الخواطر خطّيًّا في سبيل بحثها مليًّا وجماعيًّا. وممّا أسهم في إِطالة أَمَد المجمع أَنّ عددًا من المشتركات القادمات من الخارج لم يحتملنَ طقس كلكتّا فتوعّكنَ، واقتضى الأَمرُ نقل بعض من كان متوقَّعًا تكليفهنّ بمهمَّات أَساسيّة في الجمعيّة إِلى المستشفى.

ويوميًّا، كانت عشر مرسلاتٍ يتناولنَ، متناوباتٍ، الغداءَ مع الأُمِّ تيريزا، التي تنتهز تلك السانحة لتُعمِّق معهنَّ النقاش، وتبثّهنَّ النصح والإِرشاد، وترسِّخ فيهنَّ روح الرسالة إِرثًا يضمن استمرارها ونموَّها.

وقد مازجت جوَّ المجمع مسحةُ حزنٍ، بسبب وضع الأُمِّ الصحِّيّ، وبسبب احتضار رفيقتها الأُولى، وذراعها اليمنى، الأُخت "أنييس" التي كانت ضحيّة سرطانٍ منتشرٍ؛ وكانت الأُمّ قد رجتها، بتوجّع، أَلاَّ تقضي نحبها قبلها، إِذ لن تقوى على فراق من كانت الحلقة الأُولى في سلسلةٍ من الأَخوات غاليةٍ على قلبها، ولا تني تمتدُّ وتمتدُّ. وكانت المرسلات يتناوبْنَ في السهر على أُختهنّ "أَنييس"، ولكن في الليلة التي بارحت فيها الدنيا، كانت الأُمُّ تيريزا قد أَمرتْهنَّ بالمضيِّ إِلى أَسرَّتهنَّ، وسهرت، وحدها، على ابنتها وأُختها الأُولى؛ وفي اليوم التالي، حضرت كلّ مراسم الدفن، وظلَّت منتصبةً حتى طُمِر القبر تمامًا، وعندما حاولت إِحدى أَخواتها إِبعادها عنوةً، اعترضت قائلةً: "لمَ جئتُ، إِذن؟"

وأَخيرًا، في ١٣ آذار ١٩٩٧، انتُخبت الأُخت "نيرمالا"، خليفةً للأُمّ تيريزا على رأس جمعيّة مرسلات المحبَّة التي باتت قادرةً على الانطلاق بجناحيْها الخاصّين، بعد أَن اكتسبت من روح الأُمّ وإِرشادها طاقةً على المضيّ قُدُمًا في الدرب الذي انتهجته لها.

والأُخت "نيرمالا" طالما عملت إِلى جانب الأُمِّ تيريزا، وكانت لها مستشارةً ومساعدةً وتولَّت في الجمعيّة مسؤوليّاتٍ خطيرةً، وكانت رئيسة أَوّل مركزٍ تأمُّليٍّ وهي، مع عدم تخلّيها عن وداعتها العذبة، قويَّة الشكيمة، منيعة الشخصيّة.

إِنّها من مواليد النيبال، في شماليّ الهند، وابنة ضابطٍ في الجيش الهنديّ؛ وقد اعتنقت المسيحيَّة في السابعة عشرة من عمرها مع أُختٍ لها؛ ومن الطريف أَنَّ أُختها هذه قد أَصبحت كرمليّةً رسوليّةً، وانتُخِبت رئيسةً لديرها، يومًا واحدًا قبل انتخاب نيرمالا رئيسةً لجمعيّة مرسلات المحبّة.

وفيما كانت تتابع دراستها في معهدٍ للفتيات في مدينة پـاتنا، وقعت بين يـديها مجلّة "يوبيل" الأَميركيّة حيثُ طالعت مَقَالاً مُسهَبًا عن الأُمّ تيريزا وإِنجازاتها، فكانت تلك المطالعة بمثابة الومضة التي أَنارت دربها، والـصاعقة التـي هـزَّت كيانهـا، فشخصت، في الحال، إِلى كلكتّا لتقصّي الأَمر، ومكثت فيها إِلى أَن غدت مرسلةً من مرسلات المحبَّة، وكانت السادسة والسبعين في ترتيب طليعة المنضمّات إِلى جمعيّة الأُمّ تيريزا.

وسُرعانَ ما استشفّت فيها الأُمّ روحانيّةً ساميةً، وحنكةً وطيدةً، وتأثيرًا بليغًا فيمن حولها، فأسندت إِليها مهمّاتٍ دقيقةٍ، في مختلف أَنحاء العالم، وجعلتها من مُـساعداتها المقرَّبات.

شاعت السكينة في نفس الأُمّ تيريزا، بعد أَن انحلَّت قضيَّة خلافتهـا، غيـر أَنَّ أَخواتها ما برحنَ يعددنَها أُمَّهنّ. وقد اتّفق أَن سافرت الرئيسة الجديدة المنتخبة إِلـى نيروبي، فرحَّب بها كاهنٌ يسوعيٌّ قائلاً: "أَهلاً بك أَيَّتها الأُمّ نيرمالا في نيروبي وفي أَفريقيا"، فاعترضت "أَرجوك، أَبتِ، أَن تدعوني الأُخت نيرمالا فليس لدينا سـوى أُمٍّ واحدةٍ، هي الأُمُّ تيريزا".

وما انفكّت الأُمُّ، حتّى بعد تخلّيها عن الرئاسة، تسافر إِلى أَهـمّ مراكزهـا فـي العالم، كي تودع فيها بصمتها الأَخيرة، وترسِّخ فيها وصيَّتها، وصيَّة الفقر، والحبّ، وخدمة الأَكثر معاناةً.

ففي شهر أَيّار ١٩٩٧، شخصت إِلى روما كي تقدِّم خليفتها للأب الأَقدس. ومن المشاهد التي يتعذَّر محو ذكراها، مشهدُها، في تلك المناسبة، مع قداسة الحبر الأَعظم الذي أكبَّ على رأسها يُقبّله بوَرَعٍ وحنانٍ، وهي تطبع على باطن كفِّه قبلـةً بنويّـةً تتفجَّر حبًّا.

ومن روما طارت إِلى واشنطن، فنيويورك، بعد أَن عرَّجت على بولونيـا؛ ثـمَّ عادت إِلى روما في نهاية شهر حزيران، ولكنَّها كانت من الوَهَن بحيث لم يجرؤ أَحدٌ على المخاطرة بإِعادتها إِلى كلكتّا، مع رغبتها في ذلك، وظلَّ جميع مرافقيها معهـا، حتّى خليفتها الأُخت "نيرمالا".

وأَخيرًا، في العشرين من شهر تمّوز، قرَّرت الأُمُّ الإِياب إِلى كلكتّا؛ وقد زُوّدت الطائرة التي استقلتها بسبع أُسطوانات من الأوكسيجين تحسُّبًا للطَّوارئ. وخلافًا لجميع المخاوف من أَن يقضي عليها حرٌّ كلكتّا في تلك الفترة من السنة، استعادت نشاطها، وراحت تستقبل الزائرين من كلّ أَرجاء العالَم؛ وظلَّت تداعب حلم السفر إِلى الصين.

ويوم الخامس من أَيلول ١٩٩٧، فُجع العالم بنبأ انطفاء الأُمّ تيريزا في الساعة التاسعة والنصف صباحًا؛ فقد استسلم، أَخيرًا، ذلك القلب الذي طالما ناضل وخفق حبًّا لجميع أَبناء الله، ولا سيّمَا لأَشدّهم حرمانًا وبؤسًا، وحمل إِليهم حبَّ الله اللاّمحدود.

وعكست وسائل الإعلام العالميّة فجيعة الدنيا بأَسرها من أَعظم زعمائها حتّى أَفقر فقرائها، واستذكرت فِعال الفقيدة المذهلة في خدمة المحرومين التي لم يسبق لإِنسانٍ أَن نهض بمثلها عمقًا، واتّساعًا، وصدقَ محبّةٍ، وشمولاً إِنسانيًّا، وأَصالةً إِنجيليّةً. وهكذا كان موتها فرصةً لها أُخرى كي تعلن عن الحافز الجوهريّ الذي حدا بها إِلى تحقيق منجزاتها العملاقة، بدافع حبِّها المضطرم ليسوع الذي تُيِّمت به في الإِنجيل، وفي الافخارستيّا، وفي أَجساد الفقراء، والمرضى المُهمَلين، والبُرص؛ ومن خلال رعايتهم كانت تسمع، كلَّ لحظةٍ، همسه الحاسم، المعزّي، الدافق بالطاقة: "**كلُّ ما تفعلونه لأَحد إِخوتي هؤلاء المتأَلِّمين، فلي تفعلونه**".

لقد استحوذ، فجأةً، شعورٌ مرهقٌ باليُتم على ملايين الفقراء، والمتأَلِّمين والوحيدين الذين جاءَهم وجود الأُمّ تيريزا وحبُّها بالعزاء والطمأنينة والخلاص. وعلى أُلوف المتعطِّشين إِلى نسمةٍ من السموّ المنعش، وإِلى مثالٍ في القداسة المستقاة من الإِنجيل، كانت الأُمّ تيريزا لهما خير إِشعاعٍ وأُسوةٍ.

وعبَّر العالَم عن تقديره لها وعرفانه بجميلها من خلال جنازةٍ أَرادتها الحكومة الهنديّة رسميّةً، فاشترك فيها ممثّلو مختلف الديانات التي احترمتها الأُمُّ جميعَها، ومعظم بلدان العالم التي تمثّلت بملوكٍ، ورؤساء وزاراتٍ، وسفراء، ومندوبين، فقدَّمت كلُّ دولةٍ باقة حبٍّ، ووفاء، وشكرٍ لمن كانت حياتُها حبًّا دافقًا، وبذلاً بلا حسابٍ، وعطاءً لا ينضب، وعطفًا يبلسم القلوب والأَجساد الجريحة، وبقعةَ نورٍ تضيء النفوس المتطلّعة إِلى نفحةٍ علويّةٍ.

وبرهنت الحكومة الهنديّة عن عميق تكريمها للأُمّ تيريزا، عندما قرّرت نقل

جثمانها إِلى المكان الذي أُقيمت فيه الجنازة على عربة المدفع عينها التي استُخدمت لنقل جثمانَي زعيمَي الهند الخالدَيْن: المهاتما غاندي، وجواهر لال نهرو، ولم تُستخدَم، منذئذٍ، إِلى أَن تشرّفت بنقل جثمان من حقّ لها أَن تتبوّأ، في مصافّ عظماء الهند والبشريّة، مكانةً فريدةً.

ربّما كان من شأن الأُمّ إِيثار الاستعاضة عن تلك الجنازة الفخمة بجنازةٍ بسيطةٍ بين "قومها" الفقراء، غير أَنّ هؤلاء قد تسنّى لهم التعبير عن مشاعرهم بمرورهم أَمام جثمانها المسجّى، قبل موعد الجنازة الرسميّة، وبتملّيهم، للمرَّة الأَخيرة، من رؤية تلك التي ملأت قلوبهم حبًّا وعزاءً، وبتراصّ مئات الأُلوف منهم على الطرقات الممتدَّة بين مكان الجنازة ومثوى الأُمّ الأَخير في مركز جمعيَّة مرسلات المحبّة في كلكتّا.

وقد عبّر الفقراء، أَيضاً، عن حزنهم ووفائهم بإقامة آلاف الهياكل الصغيرة التي نُصبت فوقها صُوَر الأُمّ تيريزا مكلّلةً بالورود، وقد أشعلت أَمامها الشموع، في زوايا البيوت، وعلى قارعات الطرق.

لقد اختارت الأُمّ الهند موطنًا، وكلكتّا مقامًا، وتمنَّت دائمًا أَن تموت وتُدفَن فيها، فتحقَّقت أُمنيّتها، وبات مثواها الأَخير في ركنٍ من ذلك البيت الذي منه انطلقت رسالتها المعجزة.

وقد تعاقب الخطباء على الإِشادة بمآثر الأُمّ تيريزا، وكثرت فيها الأَقوال، غير أَنّ أَبلغ ما قيلَ فيها تصريح زعيم طائفة السيخ بأَنَّ العالَم لم يعهد للأُمّ تيريزا مثيلاً، قطُّ، وقول خليفتها الأُخت نيرمالا: "**لقد أَحبّ يسوع الفقراء حبًّا من العظمة بحيثُ أَرسل لهم الأُمَّ تيريزا**".

ماذا بعد الأُمّ تيريزا؟

كثيرًا ما طُرح هذا السؤال، مع أَنّه، اليوم، يبدو نافلاً، بعد مضيّ نحو نصف قرنٍ على تأسيس جمعيّة مرسلات المحبّة، وبعدما لاقت هذه الجمعيّة من انتشارٍ ورسوخٍ في معظم بقاع المسكونة، وبعد أَن انتُخبت خليفةٌ للأُمّ أَثناء حياتها.

لقد بات العالَم كلُّه، والكنيسة على نحوٍ خاصٍّ، يعترفان بجلال شأن جمعيّة مرسلات المحبّة، على أَنّها الإِجابة المثلى على معظم تساؤلات عصرنا واحتياجاته، ممّا يدعم الاعتقاد بأَنَّ بقاءَها وازدهارها أَمرٌ محقّقٌ.

لم يُقلق، يومًا، بالَ الأُمّ تيريزا مصيرُ جمعيّتها، فقد أَودعته بين يدي الربّ، وهي موقنةٌ أَنَّه، طالما ظلَّ العمل عمله، فمن المؤكَّد أَنّه سيوفّر له أَسباب الصمود. أَوَلم ينطوِ قانون جمعيّة مرسلات المحبَّة على هذا التصميم: "**فلندع الله يخطّط للمستقبل**". وعندما يخطِّط الله، فلا خوفَ ولا قَلَق.

لا جَرَمَ أَنَّ لغياب الأُمّ تيريزا أَثرًا بليغًا سيولِّد شعورًا ملموسًا بالفراغ، فالجمعيّة وليدتها، منها انبثقت جميع أَفكارها، وبروحها نمت وازدهرت؛ وقد اضطلعت، هي، فيها، بأَدوار التصميم، والهندسة، والبناء، والتجميل معًا؛ ومع أَنَّها تقيَّدت بإِطار النظام الكنسيّ العامّ، إلاّ انَّ التنظيم كلَّه نبع من فكرها، وحدْسها وإدارتها. وقد انتصب البناء على قواعد متينةٍ، صُلبةٍ، وتسامقٍ، وأثبت مناعته وقدرته على الصمود، شاهدًا على عبقريَّة مهندسته، وأَصالة فكرها.

فقد كان هاجس حياة الأُمّ أَن تجعل من أَخواتها مرسلاتٍ جيّداتٍ، ومن طرازٍ فريدٍ، ولئن هي أَسَّست معظم المراكز، إلاّ أَنَّها كانت تنتدب لمواقع المسؤوليّة فيها أَخواتٍ مؤهَّلاتٍ روحيًّا. ولئن لفَّ الكتمانُ، بل الإغفال، أَسماء معظمهنّ، إلاَّ أَنَّ المسؤوليّة التي تولَّيْنَها، بجرأةٍ وجدارةٍ، قد أَنضجتهن؛ وكثيراتٌ هنَّ اللواتي عملنَ إِلى جانبها، وتملَّينَ من روحها الذي سيظلُّ، أَبدًا، يخفق فيهنّ.

ثمَّ إِنَّ إِيمان المرسلات الراسخ بوجودِ شفيعةٍ مسموعةٍ لهنَّ في السماء، فضلاً عن شفاعة كتائب لَجِبةٍ من الذين ساعدنَهم على المضيّ إِلى العالَم الآخر، بكرامةٍ وفرحٍ وسكونٍ، سيرفدهنَّ بالزخم والدعم.

لقد كانت الأُمُّ تيريزا، هي، مؤلِّفة معزوفة جمعيّتها وملحّنتها، وموزِّعتها، وقائدتها؛ وقد قادت جميع تجاربها ووعت ما تستطيع استنباطه من موسيقيّاتها، بيد أَنَّ تلك المعزوفة قد حُفظت عن ظهر قلبٍ، وباتت من الإِحكام بحيثُ يقوى أَيُّ قائدٍ ماهرٍ مُشبعٍ بروح مؤلِّفها أَن يؤدّيها أَداءً رائعًا.

لقد نعمت الأُمُّ تيريزا بما قلّما نَعِم به مؤسِّس جمعيّةٍ، إِذ مع ما لاقته جمعيَّتها من ازدهارٍ سريعٍ ومذهلٍ، ومن تكاثُر عدد أَعضائها ومراكزها على إِيقاع وتيرةٍ فذّةٍ، لم يعترض أَحدٌ على زعامتها، ولم يتمرّد أَحدٌ على مبادئها، ولم يُشكّك أحدٌ بصحّة

رؤيتها، وأَظهرت أَخواتها، جميعهنّ، اندفاعًا حماسيًّا في التشبُّث بروحانيّتها، وحتّى بعد أَن أَوهنها العمر، وأَضناها المرض أَبَيْنَ سواها أُمًّا لهنّ.

وقد اتَّفق، يومًا، أَنّ كاهنًا يحمل أَفكارًا تقدُّميَّةً تحدَّث في جمعٍ من رئيسات رهبانيّاتٍ عديدةٍ، وأَعلن أَنَّ توجيهات المجمع المسكونيّ الثاني تقضي بتحوُّلٍ في ممارسة السلطات، يُستعاض، بموجبها، عن الأَمْرِ بالتشاور بين الرئيسة والمرؤوسة؛ ومع أَنَّ الأُمَّ تيريزا لم تستصوب ذلك المنحى، إِلاّ أَنَّها ارتأت تجربته، فاستدعت إِحدى أَخواتها وسأَلتها: "ما رأيك في الذَّهاب إِلى المكان الفلانيّ، وهل ترتضينَ بالعمل الفلانيّ؟" فانفجرت الأُخت بالبكاء قائلةً: "لِمَ تعاملينني، أُمّاه، على هذا النحو؟ هل لحظتِ لديّ أَيَّ تقصيرٍ في ممارسة نذْر الطاعة؟ أَولَم أَعتدْ أَن أَمتثل للأوامر بلا نقاشٍ؟"

وبعد أَيّامٍ التقت الأُمّ الكاهنَ الذي كان قد حثَّ الرئيسات على تغيير أُسلوبهنّ في إِصدار الأَوامر، وروت له ما حَدَث، فقال: "إِن كان الأَمر في جمعيَّتكنَّ على هذا النحو، فهنيئًا لكنَّ، ولا بأس في أَن تمضينَ قُدُمًا على ما أَنتنَّ عليه".

مثل هذا الوفاء، افتقر إِليه فرنسيس الأَسّيزي الذي عُزِل وهو، بعدُ، حيٌّ، وتمرَّد عليه رهطٌ من إِخوته، وأَزروا بمبادئه؛ وقد عانى الأَب پيير، في مرحلةٍ من مسيرته، مثل هذا الانقلاب عليه، في صفوف مؤسَّسة عمَّاوس؛ وحتَّى غاندي كان أَقرب أَتباعه إِليه، جواهر لال نهرو، لا يُشاطره كلَّ إِيمانه، ويُعارض الكثير من مبادئه ورؤاه.

أَوَليس تكاتف مرسلات المحبَّة، الذي لا ثغرةَ فيه، حولَ أُمِّهنَّ، وإِجماعهنَّ على الوفاء لمبادئها وروحانيّتها، ضمانًا لبقاء الجمعيّة، واستمرار انتشارها؟

ومن المؤكَّد أَنَّ الأُمّ تيريزا قد نالت من ذيوع الصيت، ومن الجوائز العالميّة، ومن الاحترام الدوليّ، ما كان يمكِّنها من الاتّصال المباشر بأَيِّ رئيس دولةٍ أَو زعيمٍ، فتظفر بما تشاء، وتُشرع أَمامها جميع الأَبْوَاب؛ ومثل هذا قد لا يتيسَّر لخليفاتها، غير أَنَّ هؤُلاء الخليفات سينعمْنَ طويلاً بما خلّفته لهنَّ أُمُّهنَّ من رصيدٍ ونفوذٍ يسهِّل مهامَّهنَّ.

وقد كان للعلاقة الفريدة والحميمة التي ربطت بين الأُمّ تيريزا والبابويْن بولس السادس، ويوحنا بولس الثاني، الفضل في تمتُّع مرسلات المحبَّة، داخل الكنيسة، بامتيازاتٍ استثنائيَّةٍ، ولم يكن أَقلَّها السماحُ لجمعيّتهن، دون سواها من الرهبانيّات،

بافتتاح مركزٍ في قلب الـڤاتيكان المزدحم، وهو أَمرٌ كان يبدو محالاً. وقد أَدركت إِدارة الـڤاتيكان تلك العلاقة المميَّزة بين الأُمِّ والأَب الأَقدس، فعمدت إِلى تلبية جميع رغباتها، ولو اضطرَّت، في سبيل ذلك، إِلى خرق جميع التقاليد المعهودة. وقد لا يكون لخليفات الأُمِّ تيريزا مثلُ هذه الحُظْوة في المستقبل؛ غير أَنَّ جمعيَّة مرسلات المحبَّة قد أَثبتت، خلالَ العقود الخمسة من عمرها، عن حيويَّتها، وأَصالتها، وخدماتها الجليلة للكنيسة، واستقطابها لدعواتٍ خيِّرةٍ جعلت منها واحدةً من كبرى الرهبانيّات النسائيّة في العالَم، ممّا سيكفل لها موقعًا خاصًّا، وتقديرًا من أَسمى السلطات، فهي، بلا ريبٍ، قد أَسهمت، أكثر من أَيّة مؤسَّسةٍ أُخرى، في جعل نظرة العالم إِلى الكنيسة، وإِلى المسيحيّة عمومًا، أكثر إِيجابيّةً، وأَوفر احترامًا.

وقد يطرأ بعض تبدُّلٍ في مواقف بعض الحكومات من جمعيّة مرسلات المحبَّة، ممَّا قد يحدُّ من سرعة انتشارها أَو يضطرّها إِلى انتهاج مسيرةٍ أكثر حذرًا وتريُّثًا في بعض الأَماكن، ولكنَّها طالما اعتصمت بمبدإ الخدمة المجّانيّة المجرَّدة، التي لا تفرِّق بين الأَديان والأَجناس والطبقات، وطالما ظلَّت وفيَّةً لرسالتها المستوحاة من المحبَّة الإِنجيليّة الشاملة، بعيدةً عن النزاعات الإِيديولوجيّة، والصراعات العقائديّة، فستظلُّ معظم الدوَل ترحِّب بها، وتلتمس خدماتها.

وقد تحمل ضرورات التطوُّر الجمعيّة على إِدخال تعديلاتٍ على ممارساتها وأَساليبها، ولكنَّها، طالما بقيت ملتزمةً بأَهدافها الأَساسيّة، ولا سيّمَا بفقرها الذي حرصت عليه الأُمُّ تيريزا أَشدَّ حرصٍ، وأوصت بالحفاظ عليه، بإِصرارٍ، فستظلّ في مأمنٍ من الانزلاق والضلال. أَفَلم تتنبَّأ الأُمُّ تيريزا نفسُها: "**طالما ظللنا مقترناتٍ بفقرِنا، ولم نتحوَّل، بلا وعيٍ، إِلى خدمة الأَغنياء، فسيسير كلُّ شيءٍ على خير نَسَقٍ**"؟

وقد لا تتّصف جميعُ خليفات الأُمّ تيريزا بمثل اندفاعها، وسرعتها في التنفيذ، والتصدّي لما يبدو مستحيلاً، ولكن، طالما لم يخنقْ حرفُ القانون روح المبادرة، ولم يلجم النظام اندفاعَ المحبّة، فالجمعيَّة مهيّأَةٌ لمزيدٍ من الإِنجازات، بل لأَروعها؛ ومن المرجَّح أَنَّ حضور الأُمّ تيريزا غير المنظور سيظلُّ يحوم في جوِّ جمعيّتها، ويظلِّلها سنواتٍ طويلةً.

لا مراءَ أَنَّ الأُمَّ تيريزا واحدةٌ من الشخصيّات الفذّة ذات التأثير النفّاذ التي تــأتي بها العناية الإِلهيّة، في فتراتٍ معيَّنةٍ من الزمان، كي تُصلح الفساد، وتردم الهــوّات، وتنير الدروب، وتذكِّر بأَسمى تعاليم المسيح؛ شخصيّةٌ قلّمــا يجــود بمثلهــا تــاريخ البشريّة. غير أَنَّ الجمعيّة التي أَنشأتها، وأَنمتها على ذراعيْها، مسلَّحةً بإِيمانٍ يزعزع الجبال، وباندفاعٍ لا يصمد في وجهه حاجزٌ، قد تشرّبت روحَها، وباركها الله، لأَنّهــا من صنع يديه، فلا بدَّ من أَن تصمد وتمضي في النموّ.

وكانت الأُمّ قد سُئلت، يومًا: "ماذا سيحلّ بجمعيَّتك، بعد موتك؟" فأَجابت: "سأُعنى حينئذٍ بالأَمر... أَظنُّ أَنّ الربّ سيجد أُختًا أَوفر منّي جدوًى، وسيحقِّق أُمورًا عظيمةً، لأَنَّ العمل عمله... سيجد الله سواي مثلما وجدني".

فاعني، أَيَّتُها القدّيسة، بتلك المأثرة الرائعة التي أَبدعتِها، فهي سندُ الكنيسة، وأَمَل العالَم.

الجُزْءُ الثَّانِي

رحلةٌ في رحابِ نفسٍ

حضورٌ ساحر

الصورة التي خلَّفتْها الأُمّ تيريزا في الأَذهان هي صور سنواتها الأَخيرة، بعد أَن طبَّقت شهرتُها الآفاق، وباتت من الشخصيّات النادرة الذائعة الصيت، التي تتناقل صُوَرَها شاشاتُ التيليفزيون، وتُردِّد أَنباءَها وسائلُ الإِعلام. تلك الصورة تُبرز امرأةً ضئيلة الطيف، قصيرةَ القامة، محدودبةَ الظَّهر، حفرت الأَيّام على محيّاها غضونًا لزيزةً تختزل تاريخًا حافلاً بحكايات المحبَّة، والتضحية، والبذل السخيّ.

ما لم تكن تعمل أَو تُصلّي، وتسنّى لها التحديق إلى وجه أيِّ إِنسانٍ، سالَ ناظراها بفيضٍ من العطف والطيبة، وأَشرق مُحيّاها ببسمةٍ دافئةٍ مُضيئَةٍ تمحو منه التجاعيد، وتُسبغُ عليه خلودًا لا عمرَ له، وسِحْرًا فريدًا، فيبدو وكأَنَّه مشروع إِيقونةٍ.

حضورُها كثيفٌ، فذٌّ، بليغ التأثير. من يقف في إِزائه يُداخله اليقينُ بأَنّه لن يُصادف أَبدًا حضورًا مماثلاً في حياته. فمع أَنّها ليست، ظاهريًّا، سوى شَبَحٍ هزيلٍ، في أَبسط زيٍّ وأَفقره، تجتذبُ، تلقائيًّا، ومن غير جهدٍ. تُدهش بهشاشتها الجَسَديَّة التي يُخيَّل معها أَنّ نسمةً قد تُطيح بها؛ ومع ذلك، لا شيءَ يصرعُها، ففيها تسكن قوَّةٌ إِلهيّةٌ تضفي عليها مناعةً صُلْبةً، وحجمًا يتجاوز حجمَها، وتسمو بها إِلى قِمَمٍ عُلْويّةٍ شامخةٍ. أَولَم تَصِفْها أَنديرا غاندي: "**تبدو ضئيلةً، ولكن لا شيءَ فيها ضئيلٌ أو صغيرٌ**"؟

مُجرَّدُ حضورها يأسر الأَفراد والجماهير، وسحرُها لا يُقاوَم، ويظلُّ يفعل فعلَه مهما نال منها النصَب والإِرهاق. هذا السحْر، بفضل ما يغمره من سموٍّ فائق الطبيعة، يستعصي على الوصف، يأخذ بمجامع قُلُوب محاوريها، ويُفحم مُناوئيها، وهو ما وصفه "جان غيتّون" بقوله: "السحر حضورٌ للشخص يتخطّى حدوده، ويُعبِّر عن ذاته بنوع من اليُسر في الحركات والأَقوال، والأَعمال، ومناهج السلوك الأَكثر تضحيةً، بحيثُ يَبدو عملُ من ينعم بتلك النعمة، وكأَنَّه عبثٌ إلهيٌّ، ينبع، بلا جهدٍ، من اتّصاله الدائم بمنبع الخير".

ويقول الصحافيّ والكاتب البريطانيّ "مالكولم موجيريدج"، الذي عمل مع الأُمّ تيريزا عن كَثَبٍ، وعرَّف العالَم بها، وبها تحوَّلت مسيرة حياته: "**إنّ قبَسًا من حبِّ الله الجمّ قد استقرَّ عليها، فأَسبغ على مُحيّاها الأَليف إِشعاعًا ملموسًا، ونمطًا فريدًا من النور**"، **فقد عاشت على اتِّصالٍ حميمٍ بالربّ، بحيث كان ينبعث منها سحرٌ يحاكي ذلك السحر الذي كان ينبعث من يسوع، ويجتذب في إِثره الجموع في أورشليم والجليل، ويجعل من مجرّد حضوره وعدًا بالخلاص**".

وقال الشيخ خالد بنتونس: "**إِنّها تجلٍّ إِلهيٌّ يأخذ بشغاف قلوب جميع من يؤمنون بالله، أَو، على الأقلّ، ببعض صفاته، وأَهمّها الحبّ**".

وهي، بحبّها وإِيمانها، توسَّمت في كلِّ متألّم ومحرومٍ وفقيرٍ - وأَيُّ إِنسانٍ لا يكابد نمطًا من الأَلم والحرمان والفقر؟ - صورةَ المسيح نفسه، فمضت إِلى كلّ إِنسانٍ، مُنتهجةً الدرب الأَكثر مباشرةً، كي تؤاسي كلَّ وجعٍ في جسده، وكلَّ معاناةٍ في روحه.

والحبُّ المشعُّ منها ليس مُجرَّد عاطفةٍ مجرَّدةٍ أو خاطرةٍ، بل هو حالةٌ، ونمط عيشٍ دائم النبض؛ وبوسع كلّ إِنسانٍ، مسيحيًّا كان أَو مسلمًا أَو هندوسيًّا أَو ملحدًا، أَن يستحمّ في مياه ذلك الحبّ المُنعشة.

إِنّها كائنٌ من إِيمانٍ لا يستهدف خلاص الذّات فحسب، بل من إِيمانٍ منفتحٍ على جميع الآخرين. إِنّها درسٌ من الإِنجيل، في أَسمى معانيه وأكملها، درس ليس كلاميًّا، بل درسٌ حيٌّ مُلقًى بعبارات الحياة النابضة.

منها تنبعث نفحة إِيمانٍ تتفاعل مع كلّ شَيْءٍ في طريقها، ومنها يشعُّ حضورٌ سرِّيٌّ، ولكنَّه من الكثافة بحيثُ يشعر من يدنو منها أنّه يستغرق في نورها، وحبِّها، وفرحها.

حضورها يوقظ الناس من سُباتهم، بفضل قدرةٍ فريدةٍ لديها على الاتّصال مع كلِّ كائنٍ بشريٍّ، وقُدوةِ حياتها التي تُزعج، وتتحدّى، وتدعو إِلى الانعتاق من الأنانيّة واللامُبَالاة.

فذلك الوجهُ الذي سقطت عنه جميعُ الأَقنعة، وتجلَّت فيه صورةُ الله، هو دعــوةٌ لجميعنا كي نسلخ أَقنعتنا، ونرى ذواتنا على حقيقتها، وفي واقعها.

إِنَّها مرآةٌ يتبيَّن فيها المرءُ قذارته وصَغارته، فيستعر فيه ظمأٌ متلظٍّ إِلى الطهر، وإِلى الاقتداء بمثالها؛ أَمّا إِذا تغلَّبت فيه الكبرياء، فتتولَّد لديه رغبــةٌ فــي إغمــاض العينَيْن، والهرب.

لقد كانت تقرأ بوضوح كوامن أَعماق الآخرين، ولكنَّها لا تحكم ولا تدين، بــل تكتفي بالابتسام، وتولِّد الرجاءَ في حياةٍ مُتَجدِّدةٍ.

إِنَّ مثالها يسمح بتذوُّق طعمٍ مُسبَقٍ لذلك الكمال، وتلك السعادة، وذلك اللانّهائيّ التي نسعى جميعنا إِليها بطُرُقٍ مختَلفةٍ. ولأَنَّ نظير ذلك المثال نادرٌ تَتَمَتَّع الأُمُّ بجاذبٍ فريدٍ.

ومن شأن أُسلوب عيشها دفع الجميع إِلى تغيير أسلوب عيشهم، وإِلــى أنــسنته، والسموِّ به، ذلك لأَنَّ الله يقطنها، ولأَنَّها حبٌّ متَّقدٌ، وشفافيةٌ لا غَبَشَ فيهــا، بعــد أَن أَحرق الحبُّ منها كلَّ كَدَرٍ، فباتت قادرةً على اكتشاف الحجم الحقيقيِّ لكلِّ إِنسانٍ، في ما يتخطّى بؤْسَه، وانحطاطه الجسديّ، والازدراءَ المنْصَبَّ عليه، يحدوها اليقين بأَنَّ الإِنسان، في حقيقته، لا قياسَ له.

وكلُّ مَنْ حَظِيَ بتوقُّف نظرتها الصافية عليه، انتابه الشعورُ بأَنَّها أَوَّل نظرة حبٍّ صادقٍ تحطُّ عليه، فيتحرَّك كلُّ شيءٍ في أَحشائه، وتتفجَّر كلُّ ينابيع الخير فيه.

بفضل تلك الموهبة السنيّة، تمكَّنت الأُمُّ من استنباط خير ما في نفوس المُتعــاونين معها، ودفع أَخواتها – ومعظمهنَّ بسيطاتٌ – نحو إِنجازاتٍ جبّارةٍ تتخطّــى مــواهبهنَّ وقدراتهنَّ الإِنسانيّة. وبفضل قدرتها على تخمين ما يعتمل في أَذهان الآخرين وقلــوبهم، وعلى النفاذ إِلى مظانّ أَسرارهم، استطاعت أَن تشيع في بعض محاوريها العــزاء، وأَن تُفجِّر لدى آخَرين ينابيع السخاء، وأَن تحمل سواهم على فعل ما كانوا يخشَوْن أَو يأبون.

وقد روى، في هذا السياق، شاهدُ عيانٍ: "لقد شهِدتُ الرئيس ريغان لا يقوى على مقاومتها، كما شهدتُه يُغرِق، بحضورها، في الضحك كالأَطفال. ويسعني، اليوم، سَرْدُ حادثةٍ ظلَّت، في حينها، طيَّ الكتمان، يومَ كانت الحربُ مستعرةً في أنغولا، بمشاركة جيشٍ كوبيٍّ منيعٍ، فضُرِب حِصارٌ اقتصاديٌّ على ذلك البلد، وبات الأَنغوليّون يعيشون في جحيمٍ لافتقارهم إلى كلّ شيءٍ، وأَمسى مئاتٌ من أَطفالهم يلقون حتفهم، كلَّ يومٍ، جوعًا وسقْمًا. والتمست الأُمّ تيريزا من الرئيس ريغان إرسال معونةٍ إنسانيَّةٍ مستعجلةٍ إلى أَنغولا، فلم يقوَ على مقاومتها، وغدت مصالح الدولة عديمة الشأْن إزاءَ طلبها؛ فأنفذ المعونةَ سرًّا، خارقًا قوانين بلاده؛ ولو شاع الأَمرُ، آنذاك، لسَبَّب له مصاعب جمّةً. ذلك دليلٌ على أَنَّ مقاومة الأُمّ تيريزا متعذِّرةٌ".

وقد برعت الأُمّ في استخدام شعبيَّتها الواسعة، وإرادتها الفولاذيّة التي صاغتها على كرّ السنين، فباتت تتَّصل مباشرةً بمن يمسكون بمقاليد الأمور في العالَم، فتظفر، في الحال، بما تبتغي، إذ يندُر أَن يردَّ لها زعيمٌ طلبًا. وأَمسى مُجرّدُ توقيعها على قصاصة ورقٍ يفتح لها جميع الأَبواب. في مستهلِّ رسالتها جهدتْ كثيرًا كي تظفر بمركزٍ للمحتضرين، وآخر للبُرْص، ولكنَّها، وقد ذاعت شهرتها، وترسَّخ نفوذُها، لم تحتجْ إلى أكثر من سُوَيْعاتٍ كي تفتتحَ، في نيويورك، مركزًا لضحايا الإيدز، بدعمٍ وعونٍ من أَرفع السلطات، رغم الاحتجاجات الصاخبة.

وقد أَكْسبهَا مزيدًا من نفوذٍ انضواءُ أُلوف الشخصيّات تحت لواء المتعاونين مع عملها، وإسهام المسؤولين الكنسيّين في تشجيع مشاريعها ودعمها، بتوصيةٍ من الأَب الأَقدس.

لقد كانت تمتلك قدرةً فريدةً على تجنيد الرأْي العامّ، وإلهام تطلّعاتٍ رائعةٍ، واستنهاض الهِمَم. مراكزها وضيعةٌ، ومهامُّ أَخواتها بسيطةٌ، خفيّةٌ، خاليةٌ من أَيِّ مظهرٍ خارقٍ، ومع ذلك، وبفضل ما استنفرته من تعاون الكثيرين، أَنقذت مئات أُلوف البائسين، وأَسبغت على وجود الكثيرين معنًى ورَوْنقًا.

ومن تأثير سحرها أَنَّ كلَّ من التقاها، يومًا، انطبعت في نفسه، ذكرى لا تمَّحي؛ فهناك من تلقّى منها ابتسامةً، فبات يبكي كلّما ابتعد عنها، وكأَنَّه يودّع كلَّ جمال الكون وفرحه؛ وقد اعترف "مالكولم موجيريدج" بقوله: "**لم أَلقَ، يومًا، إنسانًا في**

مثل أَسر تأثيرها، فلقاؤها، ولو مدى لحظةٍ، يُخلِّف، دائمًا، ذكرى لا تُنسى. وقد شاهدت قومًا يذرفون الدموع لدى مغادرتها، مع أَنَّ علاقتهم بها اقتصرت على مجرَّد مشاركتها كوبَ ماءٍ، أَو على بسمةٍ واجهتهم بها".

الفقراء، ولا سيّمَا الأَطفال منهم، كانوا يتراصّون من حولها هاتفين: "ما"، "ما تيجي" (أُمّاه)، لا لأَنّهم بحاجةٍ إِلى ما يسألونه، أَو يبوحون به لها، بل لمجرّد الرغبة في الاتّصال بها، والتأكُّد من وجودها إِلى جانبهم. إِنَّ مجرَّدَ بسمتها "بَرَكةٌ" تفجِّر البسمات على الشفاه، وتُشعِل في العيون فرحةً متأَلِّقةً؛ ومجرَّد حضورها يُسعد المحرومين.

وقد امتدَّ تأثيرها الآسر إِلى الذين لم يعرفوها قطُّ إِلاَّ من خلال وسائل الإِعلام، وعبر ما طالعوه عنها، فتحوَّلت، به، حياتُهم كلُّها.

وتجلّى سحرُها، أَيضاً من خلال أَحاديثها، فمع أَنّها لم تكن، قطُّ، خطيبةً مفوَّهةً، وقد أَحجمت، طويلاً، عن التحدُّث في محافل عامّةٍ، خجَلاً وخفرًا، إِلاَّ أَنّها، بعد أَن أَدركت خطرَ شأن الكلمة في نشر البشرى بحبّ الله، باتت ترتجل الأَحاديث في مختلف المناسبات، ببساطةٍ مدهشةٍ، وعفويّةٍ تتدفَّق تلقائيًّا من أَعماقها، ومن أَتُّون قلبها المضطرم بحبّ الله، ومن خبرةٍ عايشت بؤس العالم، وخبرت قسوةَ الفقر وعظمةَ الفقراء. ومع أَنَّ أَحاديثها تخلو من كلِّ أَساليب البلاغة والبيان، وتحفل بتكرار ما سلف لها أَن قالته مرارًا، إِلاَّ أَنَّ مستمعيها يقعون تحت سحرٍ يودّون لو يدوم، لأَنَّه سحر الإِنجيل الذي جُبلتْ به، وشهدتْ له بحياتها وأَقوالها التي لا تتنافر بينها ولا تناقض، بل تطابقٌ مُطلَقٌ.

وقد أَمست أَحاديثها تُسجّل وتذاع على مختلف شاشات العالَم الغربيّ، وأَثير إِذاعاته، والأَفلام التي تُصوِّر فِعالَها تُعرَض في المدارس والأَبرشيّات، والمراكز الجماعيّة في بلدانٍ كثيرةٍ. فكان لها أَثرٌ بليغٌ فعَّالٌ في ضمائر ومصائر لا يُحصى لها عدد، بحيثُ قيل إِنّ ظهورها المتعاقب على شاشات تيليفزيون اليابان قد عرَّف بالمسيحيَّة أكثر ممّا فعلته الرسالات خلال نصف قرنٍ.

وقد روى الأَب جوزيف، رئيس "الكهنة مرسلي المحبَّة" الذي رافقها في بعض أَسفارها: "لن أَنسى أَبدًا ذلك الأَميركيَّ الجسيم، الذي تتجلّى عليه مخايل رجل

الأَعمال، الذي كان يذرع ممرّ الطائرة جيئةً وذهابًا، وفجأةً انفجر بالبكاء. وأَدركتُ أَنّ نظره التقى أَنظار الأُمّ تيريزا التي ابتسمت له، ثمّ استدعته للجلوس إِلى جانبها؛ لستُ أَدري ما أَفضتْ به إِليه، ولكنّه عاد إِلى مكانه، وقد تبَدّل تمامًا، وتحوّل. لن نعلم، أَبدًا، هل كان ذلك الحديث الموجز قد قلب حياته، ولكنّني متأَكّدٌ من أَنّها كانت لحظاتٍ لها في مسيرته حسابٌ. وهناك الآلاف من أَمثاله".

واعترف الكردينال "دون هيلدر كامارا"، الذي لم يتحرَّج من الجثوِّ أَمامها، وتقبيل يديها أَمام جمهورٍ حاشدٍ: "**يكفي التقاء الأُمِّ تيريزا الكلكتّاويّة مرَّةً واحدةً، كي يتعذَّر نسيانها. ليس المهمَّ ما تقول، فالعالم حافلٌ بالأَقوال الجميلة، بل المهمّ هو ما هي عليه**".

وزارَ، أَيضاً، مراكزَها في كلكتّا، عام ١٩٨٦، رئيسُ أَساقفة كانتربوري، فلم يتمالك نفسه من الجثوّ أَمامها، وتقبيل يدَيْها، معترفًا بأَنَّ تلك التجربة قد استثارت فيه أَقوى مشاعر تواضعٍ وحماسٍ انتابته خلال حياته كلّها.

وصرّح آخر: "إِنّ مطالعتي مواضيع تتعلّق بالأُمّ تيريزا قد قلبت وجودي. فبعد أَن يعرفها المرء، يتعذَّر عليه أَن يبقى على ما هو عليه".

ومن عناصر سحر شخصيَّتها تفاؤلٌ لا يتزعزع، واندفاعٌ مُعْدٍ، فقناعاتها، وقدوةُ سلوكها، دعوةٌ إِلى العمل. إِنّها تحدِّد، بأَلفاظٍ واضحةٍ، الواجبَ الأَدبيّ المفروض على كلّ فردٍ، موقظةً فيه ذلك الصوتَ الخافت الذي يجعله يشعر، أكثر فأَكثر، بصغَره.

وهكذا استطاعت تبليغ العالَم معنًى جديدًا لكرامة كلّ كائنٍ بشريّ، وربّما كان ذلك هو إسهامها الكبير في حياة عصرها وثقافته. لقد بشّرت، في كلِّ مكَانٍ، باحترام أَبناء الله، أَيًّا كان وضعُهم الاجتماعيّ وجنسهم ودينهم. وقد وعى الأَب الأَقدس ما تَتَمَتَّع به من سحر تأثير، فدفعها نحو استثمار هذه الموهبة الإِلهيّة.

وقد دأَبت الأُمّ، بلا هوادةٍ ولا كَلَلٍ، على استنفار الآخرين للعمل، وكان تأثيرها الفريد يكهربُهم، ويدفعهم إِلى العمل إِلى جانبها، أَو على غرارها، وإِلى اقتسام قناعاتها ومُثُلها. لقد امتلكتْ كلَّ صفات الرائد والقائد: من تصميمٍ، ورؤيةٍ واضحةٍ للهدف، وتخطيطٍ مُحْكَمٍ، وسرعة تنفيذٍ. وماهرةً كانت في اجتذاب الاتباع والمساعدين، وفي جمع فريقٍ مندفعٍ متضامنٍ من حولها، تبثُّ الحماس في صدور

أَفراده، وتحملهم على فعل ما لم يكونوا يظنّون أَنّهم قادرون على فعله. لا تتردَّد، ولا ترجئ عملاً، وتنقضّ مباشرةً على هدفها، ولا سيّمَا إِن كان الهدف خدمة الربّ وفقرائه، فهذه مهمَّة لا تحتمل تأجيلاً. وهي لا تطلب، أَبدًا، من أَفراد فريقها ما لم تكن قد أَنجزته، هي نفسُها، بل تشرع بضرب المثل الذي يتعيَّن على أَعوانها احتذاؤه، وأَعوانها، وفي طليعتهم أَخواتها، يُصغون إِليها، ويؤمنون بأَقوالها، بلا تحفُّظٍ، ويندفعون في إِثرها بحماسٍ، يحدوهم اليقين بأَنَّ هدفها الوحيد هو تمجيد الله الذي سيتحقَّق بتوغُّل أكبر عددٍ من البشر في مناهج القداسة.

ومن المحقَّق أَنَّ عشرات الأُلوف قد استلهموا عملها، ومع أَنّ معظمهم لم يقابلوها، قطُّ، إِلاّ أَنَّهم بمُجرَّد مطالعتهم مقالاتٍ وكتُبًا عنها وعن مشاريعها، وجدوا أَنفسهم مندفعين في تيّارها، تيّار البذل السخيّ.

إِنَّ الذين يُصغون إِليها، كبارًا وصغارًا، مثقَّفين وأُميِّين، يؤخَذون بسحرها، ويتعلّقون بشفاهها، لا بسبب كلماتها، التي تبدو عاديّةً، بل بسبب شخصيّتها، وما تسكبه منها في أَقوالها. نفحةٌ سرِّيّةٌ عُلويّةٌ تحوم فوق مستمعيها، وتواكب أَقوالها، وتستحوذ على الأَذهان، وتنعكس نورًا في القلوب، بحيثُ تستبدّ بمستمعيها الرغبة في الاقتراب منها، واقتسامها، وهي، في ضآلتها، وهزالها، ووهنها تهب ذاتها للجميع.

والذين يدنون منها لا يكتفون بالشدّ على يديها، بل يُنحون عليها تقبيلاً وتبجيلاً، كما يفعلون للملكات، ولأَصحاب السيادة والغبطة؛ وما ذلك السلوك التلقائيّ سوى اعترافٍ بفضل الله بما يوفّره من عونٍ لأَذهاننا المتعثّرة، وقلوبنا الوجلى، بإِعلانه حقائقه الأَبديَّة، عبرَ تلك المرأة البسيطة الساعية إِلى تحقيق مشاريع عطفه الرائعة.

والأُمُّ، في ما آمنت به، لا تُساوم ولا تتنازل، ولا تلجأ إِلى أَيّة مداورةٍ كفيلةٍ بتوفيق أَقوالها مع ما يُرضي مستمعيها. إِنَّها تتحدَّث ببساطةٍ نيِّرة، يفقهُها ويتأَثّر بها، على السواء، أَلمعُ المفكرين، وأَبسطُ العامَّة. ورسالتها هي، أَبدًا، ذاتُها، أَبدًا مُؤثّرةٌ، وأَبدًا قشيبةٌ، تُبرز وجهَ الحقيقة الساطع الذي لا يسعه أَن يكون تافهًا أَو مملاًّ، كما هو، غالبًا، حالُ ظلِّ الحقيقة النظريّ والتعليميّ.

وقد أَصبحت أَيَّةُ بطاقة دعوةٍ تتضمَّن وعدًا بحديثٍ من الأُمّ تيريزا تجتذب أكثف حضورٍ.

لقد غدا المُرَبّون الدينيّون يضربون، بها، مثلاً للكنيسة الحيّة، ولـروح المسيح الأَبديّ المعاصرَة، ولروح إِنجيله الفاعل في عالم اليوم، بكلِّ أَصالته الصافية، وبكلّ اقتضائه ممّن يملكون المالَ والقدرةَ على تعزية المحرومين وغوثهم.

أَمّا لغير المسيحيّين فقد انتصبت مثالاً للفضيلة والسخاء والحبّ، وقد كرّستْ كتُبٌ مدرسيَّةٌ مقاطعَ عنها، واستفاضت نشراتٌ عديدةٌ في وصف أَعمالها الخيريّة.

وكثيرةٌ هي القلوبُ الفتيّة السخيَّة، المُشرعة على الحبّ والإِعجاب، التي نبضت حماسًا أَمام تلك المرأة الكريمة التي تخلّت عن كلِّ شيءٍ، لخدمة المحتاجين، وكثيرون هم الذين رغبوا في مقاسمتها عملها لفترةٍ محدَّدةٍ، أَو مدَى الحياة، ولا سيَّمَا أولئك الذين، أسوةً بها، استطاعوا أن يستشفّوا وجه يسوع في الفقراء، وانبروا لخدمته فيهم.

وقد أَوجز "روبير ماسّون" سحر حضور الأُمّ تيريزا بقوله: "**وسط جمهورٍ متأنّقٍ، على مسرح التليفزيون، كانت هي الأَجمل، جمالاً لا عمرَ له، جمالاً شفّافًا، جَمَالاً يقول شيئًا متفرِّدًا، بل يقول أَحدًا. إِنّ تيريزا لن تموت أَبدًا، فقد دخلت في أَبدَيَّتِهَا**".

ذلك السحر المنبعث من الأُمّ تيريزا ليس مدينًا، في شيءٍ، لمواهب استثنائيّةٍ، فكريَّةٍ أَو جسديَّةٍ، فهي لم تكن عبقريّةً، ولا هي تميَّزت بمهاراتٍ خارقةٍ، أَو بمظهرٍ فاتنٍ، بل كان ينبع من انغماسها في أغوار الله، ومن عيشها الدائم في حضورهِ الحميم، بحيثُ بات الربّ يستخدمها كما يشاء، ويصوغ منها التحفةَ التي يريد. وتلك التي صاغتها يدا الربّ، وشعَّ منها نورُه، كان لابدّ أَن تُشيع، من حولها، سحرًا فائقًا، يؤَهِّلها للنهوض بما انتدبها له الربّ من مهمَّاتٍ ساميات.

إِشعاع الربّ هذا هو، أَيضاً، مفتاح لغز نشاطها العارم الذي لم تكن تُؤَهِّلها له صحَّةٌ هشَّةٌ واكبتها منذُ صغَرها حتّى رحيلها، رغم إِعلانها عن تمتُّعها بصحَّةٍ منيعةٍ. ولم تكن تلك الصحَّة، في الواقع، سوى رغبةٍ عارمةٍ في أن تلبّي، بأقصى استطاعتها، احتياجاتٍ حارقةً، وآلامًا صارخةً، تناديها بلا هوادة. فقد عُهد عنها أَنَّها كانت تطوي النهار والليل في الخدمَة، ولا تنام إِلاَّ لمامًا، سُوَيْعاتٍ قليلةً لا تتعدّى الثلاث يوميًّا، ولا تنال من الطعام سوى بلغاتٍ زهيدة؛ ومع ذلك أَنجزت، بمفردها، من الأَعمال، ما يعجز عنه عشرات الرجال الأَشدّاء، وتصدَّت لأَشدّ المهامّ قسوةً وبعثًا على النفور. ولا ريبَ أَنّها، تحت ستار وهنها، كانت تُخبئُ طاقاتٍ زاخرةً، عنيدةً.

ويشهد جميع من عرفوها عن كثَب أَنَّها كانت فوّارة الحيويّة والنشاط، ميَّالةً دائمًا إِلى الحركة. وكانت، كلّما زارت أَحد مراكز جمعيَّتها، سعت إِلى تغيير وضع أَثاثه، ونقل مُصلاّه إِلى مكانٍ أَفضل.

النار المتأَجِّجة في أَتّون نفسها كانت تطغى على كلّ كَللٍ أَو وهَنٍ، وتزوِّدها بقُدرةٍ على الاحتمال منقطعة النظير. وقد شهد الأَب "جوزيف"، أَيضاً، في هذا السياق: "**قمتُ بعدَّة أَسفارٍ، عبر القارّات، برفقتها. وكنتُ، مثل كلّ الناس، عقبَ خمس عشرة ساعة طيرانٍ، أشعر بالإنهاك، أَمّا هي فلم تكن تشعر، قطّ، بأيّ شيءٍ من ذلك. إِنَّها امرأةٌ لا تتغذّى إلاّ بالزهيد من الطعام، ولا تنام أكثر من ثلاث ساعاتٍ يوميًّا، ولكنَّها، أَبدًا، في أَفضل حالٍ. هي نفسُها تُدرك أَنّها تمارس حياةً غير طبيعيَّةٍ، وإِن لم يكن ذلك بفضل النعمة الإِلهيّة؟ فبفضل ماذا إِذن؟ أَثناء السفر، معظم الناس يستسلمون للنعاس ما خلاها، وتستقبل، بدماثتها المعهودة، كلَّ من يودّون التحدُّث إِليها**".

كانت، دائمًا، مُرهَفةَ الإِنصات لنداءات الأَلَم والحرمان، فتهرع إِلى تلبيتها، غافلةً عن أَوصابها وتَعَبها، مُستمدَّةً فيضَ قوَّةٍ ممّن في سبيله كانت تندفع إِلى خدمة المتأَلّمين والمحتاجين، مستعجلةً الزمن؛ ورُبما كان ذلك الاندفاع المدعَّم بأَزرٍ سماويٍّ هو تفسير عمرها المديد.

وقد ساعدها على ممارسة ذلك النشاط العارم حرصُها على استخدام الوقت بكلِّ ثوانيه، وضنُّها بكلّ لحظةٍ منه، فهو ملكٌ للفقراء، ولأَبناء الله المحتاجين. ومع ميلها إِلى الدعابة والمرَح، لم تكن تملك لا الوقت ولا الرغبة في الثرثرة.

ولكن، مع كلّ ما أَنجزتْه، وما تسنَّمتْه من قِمَم الشهرة، وما ظفرتْ به من تكريمٍ وجوائز عالميّةٍ، لم تَحِدْ، قيدَ أُنملةٍ، عن تواضعها الأَصيل السحيق.

"من وضع نفسه ارتفع"

أَوّلُ ما يستلفت، تلقائيًّا، من خصال الأُمِّ تيريزا، تواضعٌ سحيقٌ، صادقٌ، لا تَصنّع فيه، ولا رياء، مقتبسٌ من عيشها الدائم في حضور الله الغامر، وإِيمانها الوطيد بأَنَّها لا تتعدَّى كونها أَداةً طيِّعةً في يده، "**قلمًا صغيرًا هزيلاً يكتب به الله ما يشاء،**

ومهما بلغت الأَداة من نقصٍ وعدم كفايةٍ، فالربّ يكتب كتابةً رائعةً" و"عندما نقـرأ رسالةً لا نفكّر بالقلَم الذي استُخدم لكتابتها، بل ينحصر تفكيرنـا بالـشخص الـذي كتبها. وهذا، بالضبط، ما أَنا بين يدي الله، قلمٌ صـغيرٌ؛ إِنَّ الله يكتـب، بأُسـلوبه الخاصّ، رسالةَ حبِّه للعالم، بواسطة أَعمالٍ أَمثال أَعمالنا".

ذلك كان انطباع الدالاي لاما الذي أَقرّ: "**منذُ الوهلة الأُولـى أُخِـذْتُ بتواضـع سلوكها المُطلَق. من وجهة نظرٍ بوذيَّة، يمكن اعتبارها "بوذيساتـڤـا"، أَي إِنـسانًا حكيمًا انتهى إلى حافّة الاستنارة، ولَكِنَّهُ عَزَفَ عن خلاصه النهائيّ لكي يعود إِلـى الأَرض، بُغيةَ مساعدة المتأَلّمين على التحرُّر**".

وذلك كان، أَيضاً، انطباع كاتب سيرتها "ناڤـين شولا"، الهندوسيّ، منذُ أَوّل لقاءٍ له بها، وقد عبَّر عنه بقوله: "ما الذي جعلها متميّزةً على هذا النحو؟ هل حـضورُها المتواضع هو الذي جعل الغرفة الفسيحة، التي كنّا جالسين فيها، تبـدو صـغيرةً؟ أَم الساري المرقّع بعنايةٍ في عدَّة مواضع، والذي كانت ترتديه، أَو قمطـر القمـاش ذو المماسك الخشبيّة الذي كانت تحمله، هو ما كان يُسبغ عليها ذلك المظهر المتواضع؟"

لقد أَيْقنَتْ، بعمقٍ، أَنَّ كلَّ ما أَنجزته، إِنَّما كان عمل الله، "ولكي يبقـى كـذلك. ينبغي أَن نظلَّ، بين يدَيْه، أَدواتٍ طيّعات، نضطلع بمهمّتنا الصغيرة ونمضي". وقـد آمنت أَن ليس في مسيرتها ما تعدُّه من وحي إِرَادَتها الخاصَّة، أَو من نتاج جهودها، ولا تني تردِّد، مع رسول الأمم: "**لستُ، أَنا، حيّةً بعد، بل هو المسيح يحيا فيَّ**".

وسُئلتْ هل هي شاهدت، في حياتها، معجزاتٍ، فأَجابت: "**المعجزة الكبرى هـي أَن يستخدم الله مساعدين عديمي الشأن، ووضيعين مثلنا، لتحقيق عمل حبّه**".

سيرتُها الخاصّة، انتهت وهي في الثامنة عشرة من عمرها، يومَ قرَّرتْ أَن تكرِّس ذاتها للمسيح، وعبرَه، لإِخوته البشر في كلّ مكانٍ. وهي، عندما أَغفلت ذاتها وجـدتها، بفضل ذلك التحوُّل المدهش الخاصّ بالمسيحيّة، والذي يعتلن فـي الـصلب والقيامـة، ويستخلص الحياة من الموت. وبقدر ما هي امَّحت اكتملت واغتنت شخصيَّتُها.

يوم ترهَّبت اختارت اسم تيريزا تيمُّنًا بقدّيسة "ليزيو" الـشابَّة، طفلـة الـروح، "تيريزا الصغيرة"، التي حقَّقت أُمورًا عاديّةً بحبٍّ مـدهشٍ، لا بتيريـزا الأَڤيلاّويَّـة

"الكبيرة"، مع أَنّ جسامة إِنجازاتها، وتوثُّق علاقاتها بزعماء الكنيسة والعالَم جعلت منها شخصيّةً كبيرةً جدًّا، واستحقّت لها اسم "الأُمّ" فحسب، أُمّ العالم أَجمع.

وهي لم تُعنَ، قطّ، بسيرتها الذاتيَّة، لاعتقادها بأَنّها غير جديرةٍ بالاهتمام؛ وإِن هي روت نتفًا منها، إِلاّ أَنّها لم تكن تُعير اهتمامًا لدقَّة التواريخ والأَمكنة، بل كلُّ ما يعنيها هو ما ينهض دليلاً على حبِّ الله، ولا سيّمَا حيالَ الفقراء، وعلى روعة استخدامه لها ولأَخواتها. ومن المحقَّق أَنَّها، لولا رغبتها في إبراز كرامة الفقراء، وواجب كلِّ إِنسانٍ حيالَهم، لطوت جميع فعالها، وفعال أَخواتها، في غياهب السرّ.

ومن الطريف أَنَّها، مع ما أَصابت من شهرةٍ ونفوذٍ، لم تمتلك، يومًا، بطاقاتٍ شخصيَّةً، أَو أوراقًا خاصَّةً تحمل اسمها، بل كانت جميع رسائلها، حتَّى الموجَّهة لأَرفع الشخصيّات شأْنًا، مخطوطةً على أَوراقٍ مُنتَزعةٍ من دفترٍ عاديٍ، مثل الرسالة التي عبّرت بها عن امتنانها لقداسة البابا بولس السادس لإِهدائه إليها السيَّارة الفخمة المقدَّمة له، أَثناء زيارته للهند.

لم تكن، يومًا، سوى ممثّلة الفقراء والمحرومين، ومع ذلك استطاعت النفاذ إلى أَرقى مراكز السلطة في العالم، فاستخدمت بعضاً من سُلطتهم في سبيل من عكفت على خدمتهم، ومع ذلك ظلّت تجسيدًا للتَّواضع.

ومع أَنَّ رئيس جمهوريّة الولايات المتَّحدة بات يدعوها إِلى العشاء، والبابا يكلِّفها بمهامّ دقيقةٍ، وملكات إِنكلترا وبلجيكا وإِسپانيا يُصغينَ إِليها باحترامٍ، إِلاَّ أَنَّها ما انفكَّت تشعرُ براحةٍ أَوفرَ بين فقراء كلكتّا، واليمن، ولندن، وروتردام، وبرونكس، وهارلم، منها في البيت الأَبيض، أَو قصر بيكينغام، أَو الـڤاتيكان، وظلَّت دائبةً على مهامّها اليوميَّة الشاقَّة، الموغلة في الوعورة والبعث على النصَب والنفور.

وقد أَمست هدفًا أَثيرًا لوسائل الإِعلام، ولكنَّها كانت تضيق ذرْعًا بتلك الدعاوة وتُصرِّح أَنّه أَحبُّ إليها الإِكباب على تنظيف أَبرص، من الوقوف أَمام كاميرا.

ونالت من الجوائز العالميَّة أَرقاها، ومن التكريم ما لم يطمع بمثله إِنسانٌ، ولكن لا الجوائز، ولا مراسم التكريم استطاعت انتزاعها من هُوَّة تواضعها، بل كانت لها مناسباتٍ ثمينةً كي تشيد بعظمة الله العامل من خلالها، وبروعة الفقراء الذين كرَّست ذاتها لخدمتهم. وقد حرصتْ على أنْ تسلك أَخواتُها مسلكَها قائلةً: "إِنّني أُهيب، أَبدًا،

بالأَخوات ألاّ يخجلنَ عندما يُهنِّئُهنَّ الناس على ما يفعلنَ، بل ينبغي أَن يُظهرنَ للجميع ما يفعله الله من خلالنا، نحن أَدواته الوضيعة. وكلٌّ ذلك يؤول إِلى مجده...".

وقد اختارت لنفسها ولأَخواتها من المهمَّات أَصغرَها، والتي يأنف منها الجميع، وتصدَّت لها بوسائل صغيرةٍ، وتوخَّت أَن تتحلّى أَخواتها قبل أَيّ شيءٍ بالتواضع، وأَلاَّ يتطلَّعنَ إِلى الإنجازات التي تُدهش وتصدم، بل أَن يقتصرنَ على المهامّ الأَكثر وضاعةً وأَن ينهضنَ بها بِأَوْفَر قسطٍ من الحبّ. ولم تدفعهنَّ إِلى دراساتٍ عليا، وإِلى نيل شهاداتٍ جامعيّةٍ مرموقةٍ، ولكن عندما أَبدتْ كثيراتٌ ممَّن ظفرنَ بمثل تلك الشهادات رغبتهنَّ في الانضواء إِلى جمعيَّتها، رحَّبتْ بهنّ بعد أَن تيقَّنت من تأَهُّبهنَّ للبذْل في جميع ميادين الخدمة المتواضعة، وفي التصدّي لأَيِّ عملٍ وضيعٍ، بحبٍّ كبيرٍ.

ذلك الواقع عبَّرت عنه إِحدى المرسلات، وكانت، في ذلك، لسانَ حال جميع أَخواتها بقولها: "لقد اخترنا، طوعًا، استخدام وسائل بسيطةٍ ووضيعةٍ، في سبيل تجسيد حبِّ المسيح واهتمامه بالفقراء، لأَنَّنا اخترنا، بكامل حرِّيَّتنا، أَن نتبع صِغَر المسيح، لكي نحبّه ونخدمه في مهمَّاتٍ عاديَّةٍ جدًّا، ولأَنَّنا نشاهده من خلال مظهر فقرائنا الأَليم. جمعيَّتنا، وجميع أَعضائها، بحاجةٍ إِلى حرِّيَّة الانطلاق، بحثًا عن فقراء قُرى الصفيح المبثوثة في جهات العالم الأَربع. ولذلك نحن لا نملك من المدارس النظاميَّة، والمستشفيات، ومراكز التأهيل، إِلاّ ما هو ضروريٌّ للمُهمَلين، بلا سقفٍ، وغير المرغوب فيهم. وإِنّه لشرَفٌ عظيمٌ، وامتيازٌ لنا أَن نستطيع، بمهامِّنا الوضيعة، حبَّ يسوع وخدمته، تحت مظهر أَفقر الفقراء الأَليم. وإِنّنا لنشكر لله ولفقرائنا أَن يرتضوا حبَّنا وخدمتنا المتواضعة، ممَّا يجعل وجودنا، كمُرسَلات محبَّةٍ، ممكنًا... إِنّنا نَتَطَلَّع إِلى أَن نظلَّ، أَبدًا، أَوفياء، لتوصية أُمِّنا: تحقيق المهامّ الأَكثر وضاعةً، بحبٍّ كبيرٍ".

وبفضل هذا الحبّ تتَّخذ الأَعمال الصغيرة بعدًا جمًّا، على حدّ قول الأُمّ تيريزا: "**في ذاته، عملنا ضئيل الشأْن، متواضعٌ، بل مغرقٌ في التواضع، ولكنّ عظمته تكمن في كونه روحيًّا، لأَنَّ حبّ الله هو الذي يحدوه**".

وهكذا أَيقنت مرسلات المحبّة أَن لا وجودَ للمستحيل، مع وجود إِلهٍ كلّيّ القدرة أَطلقْنَ له حرِّيَّةَ استخدامهنّ كما يشاء، فحقَّقْن المستحيل باقتصارهنّ على "الوسائل

الصغيرة"، وبامِّحائهنَّ حيال جسامة مهامِّهنَّ امِّحاءً وقاهنّ من خيبة أَمل المتنطِّحين للأُمور الكبيرة بوسائلهم الخاصَّة.

وبفضل التواضع توغَّلت الأُمّ تيريزا في اندماجها بمن أَحبَّت، ومن وقفت على حبِّه حياتها، وقد تنامى إِلى سمعها، يومًا، قول أَحدهم: "إِنّ جسم الأُمِّ تيريزا لا ينفكّ ينكمش ويتضاءل فعلّقت بالقول: "**ليتَني أُصبح أَصغر فأَصغر بحيثُ أَستطيع التسلُّل إِلى قلب يسوع**".

وهي ما تني تبشّر عالمنا الذي خلا من الله أَنَّ الله وحده هو خلاص العالَم، وأَنّه يُخلِّص برقَّةٍ، وأَناةٍ، وتواضعٍ، إِذ إِنّه صار بيسوع، فادينا، أَصغرَ صغار البشر.

ولئن هي نزعت إِلى الكتمان والبساطة في أَقوالها وكتاباتها، إِلاَّ أَنَّ إِنجازاتها تتمّ عن اندفاعٍ مضطرمٍ، وعظمةٍ فذّةٍ، عظمة من يحقّق، ببطولةٍ، أَعمالاً بسيطة؛ فتواضعها السحِيق لم يقف حاجزًا في وجه إِرادتها الصلبة، وتصميمها العنيد.

واقعيّةٌ وشمولٌ

مع أَنَّ الأُمَّ تيريزا غائصةٌ في الله، مندمجةٌ فيه، لا تحدوها إِلاّ دوافعُ حبّه، وغاياتُ خدمته، إِلاّ أَنَّ قدميْها راسختان على أَرض الواقع الذي تراه رؤيةً نيِّرةً، وتنبري، مندفعةً لتلبية احتياجاته. ومع إِيمانها الراسخ بأَنَّ الله هو ربُّ العمل، وأَنَّها لا تستطيع، في معزلٍ عنه، شيئًا، إِلاّ أَنَّها هرعت، أَبدًا، إِلى اتّخاذ المبادرات، مردّدةً: "**علينا أن نجهد وكأَنَّ كلَّ شيءٍ يتعلَّق بعملنا، وأَن ندعَ الباقي للربّ**".

في أَعماقها كان يضجُّ روح الريادة، واندفاعٌ إِلى المبادرة يلامس المجازفة، وصُبُوٌّ إِلى اقتحام معاقل المستحيل. ثمَّ إِنَّها، باختيارها اسم تيريزا، اندفاعًا في تيّار القدّيسة تيريزا الطفل يسوع، أَعربت عن نزعةٍ متأَصّلةٍ إِلى الحياة التأَمُّليَّة السحيقة. وفيما قدماها ثابتتان على أَرضٍ صُلبةٍ، كان كلُّ كيانها ذائبًا في الفائق الطبيعة، محقِّقةً توازُنًا مدهشًا بين الأَرض والسماء، بين إِرادةٍ عنيدةٍ، واستسلامٍ مُطلَقٍ لله، وعاقدةً وحدةً رائعةً بين الحرِّيَّة البشريَّة والخضوع لمخطَّط العناية العطوف. وقد صرَّحت، في هذا السياق: "**إِنَّ تقدُّمي على دروب القداسة يعتمد على الله وعليّ، على نعمة الله وإِرادتي. المرحلةُ الأُولى نحو القداسة هي التصميم على بلوغها**".

هذا التوازن بين القيمة الكبرى المولاة لأَصغر المهامّ اليوميَّة، والمشاركةِ في

لانهائيَّة الحياة الإِلهيَّة، في انطلاقةٍ واحدةٍ، تتناول الكيانَ كلَّه، محوِّلةً وهَن النفس إِلى قُوَّةٍ لا تُقْهَر، ومُتيحةً نشاطًا خصبًا في غمرة التأَمُّل، وقارنةً، في مبادرةٍ واحدةٍ، الغَوْثَ المادّيَّ الروتينيَّ بالاندماج الصوفيّ الأَكمل، والعملَ بدافع الحبّ بالغوص في أَسرار الحبِّ الأَسمى. هذا التوازُن، حقَّقتْه الأُمُّ تيريزا بفضل سنوات التجرُّد، والتضحية المعاشة التي أَفضتْ إِلى صوْغ إِيمانٍ مضطرمٍ، وإِرادةٍ حازمةٍ، وحكمةٍ ذات صفاءٍ منقطع النظير، وقداسةٍ راسخةٍ، وبفضل وضعها موضعَ التنفيذ المبادئ الروحيَّة التي أَقْعَدتْ عليها رسالتها، والدعوة التي حملتها إِلى الآخرين.

وهي، في واقعيَّتها المتبصِّرة، ومذْ غشتْ، مع أَخواتها، الشوارع، يحدوها هاجسُ إِغاثة الملهوفين، حرصتْ على عدم التمييز بينهم، على أساس جنسٍ أَو دينٍ، ولم تستهدف التبشير بالمعنى المعهود، ولا الدعاوة الدينيَّة؛ فقد أَدركت أَنَّ التعصُّب الدينيّ دليل ضعفٍ في الإِيمان، لا دليل قُوَّةٍ فيه.

لقد أَقامت الأُمُّ، دائمًا، وزنًا راجحًا للعلاقات الإِنسانيَّة والشخصيَّة، ولشهادة الحياة وقدوتها، وكانت قاعدةُ نهجها الثابتة مؤازرة الهندوسيّين كي يكونوا هندوسيّين جيِّدين، ومساعدة المسلمين على ممارسة إِسلامهم على النحو الأَمثل، وحمل المسيحيِّين على أَن يكونوا أَعمق وأَصدق مسيحيَّةً.

ولا بدْعَ بالتالي، إِن بات الموظَّفون الحكوميّون المناوئون للمرسلين الأَجانب والدائبون على طردهم، في بلادٍ كثيرةٍ، يدينون للأُمّ تيريزا وأَخواتها بأَعمق احترامٍ وتقديرٍ. ولئن هي كانت أُوروپيّة المولد، إِلاّ أَنَّها جعلت موطنها الهند، لا بل كلَّ بقعةٍ في العالَم يقيم على أَديمها قومٌ يعانون. لقد أَثبتت أَنَّها مرسلةٌ من طرازٍ فذٍّ، صانعةٌ ممتازةٌ للسَّلام بين الأُمم، ومبشِّرةٌ بمستقبل أَفضل.

عملُها كلُّه كان تلبيةً لاحتياجاتٍ حارقةٍ تناديها، فلا تقف، حيالَها، منظِّرةً، محلِّلةً الأَسباب، مُعِدَّةً الخطَط للقضاء عليها قضاءً مُبرَمًا، بل كانت تتساءَل عمّا يترتَّب عليها، في الحال، لتخفيف الأَلَم، وبعث الأَمَل، وتُسارع إِلى فعل ما يُمكنها، ويتوجَّب عليها فعله بلا تلكُّؤٍ ولا إِرجاءٍ، على نقيض السياسيّين، وعلماء الاجتماع الذين يتيهون في البحث عن حلولٍ جماعيَّةٍ شاملةٍ، ويستصغرون الجهود الفرديَّة، فلا يفعلون شيئًا، وتتعثَّر حُلولُهم الشاملة الجذريّة، وتمتزج بالأَنانيَّة الفرديَّة التي تُفسد كلَّ شيءٍ.

هذا الموقف عبَّرت عنه الأُمُّ بقولها: "**لو أَنّني كرَّستُ نفسي للذَّوْد عن عدْل الغد، لمات، اليومَ، المعوزون بين يديَّ افتقارًا إِلى كوب حليبٍ**".

لم تُخطِّط لمشاريعها، وهي قابعةٌ وراءَ مكتبٍ، بل كانت تلك المشاريع استجابةً لنداءٍ ملحٍّ، وتلبيةً لحاجاتٍ آنيّةٍ، قائمةٍ، تلبيةً تتلاءم مع تلك الحاجات ومع الوسائل المتوفّرة في مكانٍ وزمانٍ محدَّدَيْن. ولا عجبَ، إِذن، إِن بدأت تلك المشاريع متواضعةً، ثمّ نمت مع ازدياد الحاجة وتوفُّر الوسائل، وامتدَّت إِلى أَماكن كثيرةٍ. فقد كان يقطُن الأُمَّ اليقينُ بأن خدمةً تُسدى، ولو لامرأَةٍ واحدةٍ أَو ولدٍ، من شأْنها الحدّ من كتلة الأَلم، ولو في حدودٍ ضيِّقةٍ. قد تكون قطرةً في محيطٍ، ولكنَّ تضافر القطرات وتعاقبها وتمازجها من شأنها رفد المحيط، وفوق كلِّ ذلك، هي كفيلةٌ بصوْغ كتلة حبٍّ تدفئ قلبَ العالَم، وتُثلج قلْبَ الله.

وغالبًا ما كرَّرت الأُمُّ القول إِنّها، لو لم تنحنِ على محتضرةٍ ملقاةٍ في ركنٍ من حيٍّ زريٍّ، ولو هي أَعرضت عنها، وتابعت سيرها غير مكترثةٍ، أَو مقتصرةً على انتقاد المسؤولين، وعلى شفقةٍ عقيمةٍ، لما أُنشئت في كلكتّا، وفي العديد من مُدن العالَم، عشرات بيوت المحتضرين، التي تنهض شاهدًا على العطف والحنان والسخاء.

لقد أَيقنت أَنّ العملَ الفوريَّ هو الردُّ الأَمثل على احتياجات البائسين، فلم تهدر دقيقةً في التنظير، والشفَقة العقيمة، بل انبرت للعمل بلا تلكؤٍ. ويُروى، في هذا السياق أَنّ رئيسة دير راهباتٍ قد شكت لقداسة البابا بيوس الحادي عشر من تقهقر عدد الدعوات في جمعيَّتها، مؤكّدةً أَنّ أَخواتها يُصلّين من أَجل مزيدٍ منها. فأَجابها الحبر الأَعظم: "ثمّة قولٌ هندوسيٌّ مأثورٌ مفادهُ: "عندما تصلّي، عليك أَن تحرّك قدمَيْك". وقد أَدركت الأُمّ، ببداهتها الواقعيّة، مغزى هذه الحكمة، ودأَبت، مع أَخواتها، على تحريك أَقدامهنّ باتّجاه الأَكثر معاناةً وفاقةً، فحقّقْنَ المعجزات.

حسابها وجغرافيَّتها كانا مبنيَّين على الرأفة، ولو هي أَولت الأَولويّة للأَرقام والنتائج والجدوى، لما أَقدمت، قطُّ، على جمع المحتضرين من شوارع كلكتّا. ومع ذلك فالذين أَنقذهم عطفُ مُرسلات المحبّة يربو عددهم على مئات الأُلوف من فقراء، وجياعٍ، ومرضى، وضحايا مجاعاتٍ وكوارثٍ، لمجرَّد أَنَّ أُولئك المرسلات أَلمَمْنَ بمآسيهم، فاندفعنَ إِلى غَوْثهم، وبذلنَ، في هذا السبيل، ذواتهنَّ، وكلَّ ما ملكت أَيامينهنّ، غير حافلاتٍ بوصف المنظّرين لسلوكهنَّ باللاعقلانيّ.

ودأَبت الأمُّ على الإِهابة بالمتعاونين معها أَلاّ يتطلَّعوا إِلى مآتٍ خارقةٍ، وأَوعزت إِليهم أَن "ابدأُوا بدايةً متواضعةً، ولا تقيموا للأَرقام والنتائج وزنًا. إِنّ أَصغر عمل حبٍّ نحو الفقير والمرذول هامٌّ ليسوع. فكلُّ كائنٍ بشريٍّ من يد الله انبثق، ونحن ندرك كلَّ الحبّ الذي يكنُّه الربّ لنا".

وهي، في واقعيّتها المتبصِّرة، لم تسمح لرؤية الشقاء والبؤس أَن تصبح عادةً تعجز عن هزّ مشاعرها، بل كان كلُّ لقاءٍ لها معهما صدمةً تدفعها إِلى مزيدٍ من البذل والخدمة.

لم تنتظر الأمّ أَن تتوفّر لديها وسائل العلاج الحديثة المكتملة، والكوادر الطبِّيَّة الرفيعة الكفاءة كي تشرع بمعالجة المرضى المهمَلين؛ ولا سيَّمَا بعد أَن شهدت المؤسَّساتِ الطبِّيَّةَ التي تَتَمَتَّع بتلك المزايا تحكمُها شريعةُ الجدوى، فتستضيف مَنْ تأمل شفاءَهم أَو القادرين على دفع مبالغ جزيلةٍ، وتلفُظ كلَّ الآخرين، في حين هي آمنت بضرورة العناية بهؤُلاء الذين ترفضهم المؤسَّسات، ومنحهم الرعاية الصحِّيَّة، ومعها الحبَّ والكرامة، والشعور بأَنَّهم محبوبون، لأَنَّهم، كسائر البشر، أَبناءُ الله، ولأَنَّهم، من جرّاء فقرهم وأَوصابهم، أَثيرون لدى يسوع الذي مثَّل نفسه بهم.

وقد آثرت الأُمّ تيريزا الاقتصارَ على الضروريّ المجدي من الأَجهزة، وعدم المبالغة في تحديث مراكزها، خشية انقلابها إِلى مؤَسَّساتٍ، كما آثرتْ أَن يعمل فيها أَخواتٌ لها، قليلاتٌ منهنَّ مؤهَّلات طبِّيًّا، ولكنَّ قلوب جميعهنّ زاخرةٌ بالحبّ، واستبعدت أَيَّ طبيبٍ يعمل بأَجرٍ، وآثرت الأَطبّاء المتطوِّعين، من جرّاء حرصها على أَن يكون الحبُّ هو المهيمن في مراكزها، والرغبةُ في الخدمة هي حادي العاملين فيها.

رُبَّما رأى من أُوصدت قلوبُهم دون كلِّ عطفٍ، وحسرتْ أَبصارهم عن كلِّ سامٍ، في موقفها هذا، موضعَ ثلبٍ وتجريحٍ، وأَنحوا عليها باللوم لأَنّها لم توفّر لنُزَلاء مراكزها أَحدث أَساليب العلاج، واكتفت بالبدائيِّ منها. وقد ذَهلوا أَنَّ المؤسَّسات التي كان من واجبها علاجُهم قد رذلتْهم لفقرهم وقذارتهم، وهُزال الأَمل في شفائهم، فباتوا يحتاجون، قبل كلِّ شيءٍ، إِلى لمسة عطفٍ تعيد لهم الشعور بإِنسانيَّتهم؛ وأَخذوا عليها أَنَّها تكتفي بإِطعامهم سمكةً، وكان الأَولى بها تعليمهم الصيد؛ وغفلوا عن أَنَّ من

انتهوا إِلى مراكزها قد أَمسوا من الخَوَر بحيثُ باتوا عاجزين حتَّى عن مضغ الطعام، وعن الانتصاب على أَقدامهم، فأَنّى لهم القدرة على الإِمساك بقصبة الصيد؟ لقد أَدركت الأُمّ، بواقعيّتها، وغاب عن منتقديها، أَنَّ واجبها الأَوَّل كان إِتاحة الفرصة لهؤلاء كي يستقيموا واقفين، ويستعيدوا قواهم، ولذلك ردَّت عليهم: "أطعموهم السمكة، وأَنا كفيلةٌ بتعليمهم الصيد!" وقد أَخذوا عليها كثرة عدد الوفيّات في مراكزها، وغرب عن بالهم أَنَّ جميع من جيءَ بهم إِلى تلك المراكز كانوا مرشَّحين للموت، كالكلاب الجرباء، في العراء، وسط إِهمالٍ وازدراءٍ شاملَيْن، في حين أَنَّ من مات منهم في مراكزها مات ميتةً كريمةً قد يتمنّاها كثيرون حتّى من الأَثرياء، محاطين بالعطف، والحنان، والكرامة اللاّئقة بأَبناء الله.

إِنَّ الذين شهدوا محتضرين مُهمَلين على مشارف نهاية حياتهم، وأَطفالاً التُقطوا من بين القمامة، لا يستطيعون إِلاّ أَن يُكبروا عمل الأُمِّ تيريزا، ويستصْوِبوا سلوكَها. فأُولئك الذين باتوا هياكلَ عظميَّةً مجرَّدةً، والأَطفال المنتفخو البطون الذين فقدوا البصَر لافتقارهم إِلى الفيتامين، والبُرْصُ المشوَّهون، المُقرَّحون، المرذولون، والذين توقَّفت آفاقهم عند احتياجاتهم البيولوجيّة، يحتاجون، قبلَ أَيِّ شيءٍ، إِلى رمَق العيش، ولمسة العطف، واستعادة الشعور بالكرامة، بحيثُ تغدو كلُّ جرعة ماءٍ تُقدَّم لهم بحنانٍ، وكلُّ لفتة عطفٍ نحو طفلٍ مهجورٍ، وكلُّ زيارةٍ لمسنٍّ وحيدٍ، هدايا لا تُقدَّر بثمنٍ. حيالَ تلك المآسي، تُمسي مفاهيم الجدوى باطلةً. ومثلُ أُولئك الفقراء لا يسوغ تعليلهم بآمال مستقبلٍ أَفضل، لا يزال تحقيقه حلمًا واهيًا في ضمير الغيْب، ولا تُحلُّ مشاكلهم الراهنة بالنظريّات، بل ببذل الذَّات بسخاءٍ وحبٍّ، وكانت الأُمّ تيريزا عملاقةً في بذل الذّات، وفي الحبّ.

ذات يوم، التمست الأُمُّ من حاكم منطقةٍ في الحبشة التنازُل عن رقعة أَرضٍ لبناء مشفًى، فأَجابها أَنَّ هذه الأُمور هي من شأن الثورة، فردَّت: "**أَعلم، ولكنَّني، أَنا أَيضاً، ثوريَّةٌ؛ غير أَنَّ ثورتي تأتي من الله، وهي قائمةٌ على الحبّ**".

ولم تنكر الأُمّ، يومًا، ضرورة تغيير البُنى الاجتماعيَّة نحو مزيدٍ من العدالة، وتخطيط الدولة في سبيل إِنماءٍ يعمُّ خيرُه الجميع. ولكن إِلى أَن يتحقّق كلُّ ذلك لم يكن بوسعها رؤية الناس ينفقون جوعًا وسقمًا، أَمام عتبة بيتها، وهي غير مباليةٍ.

وهي، عوضاً عن إيغار صدور الناس بعضهم على بعض، إيغارًا من شأنه الإضرار بالجميع، توخَّت أَن تكون بينهم جسرًا، وصلة خيرٍ وتعاوُن.

هذه الواقعيَّة وَقَت الأُمَّ من التيه في شموليَّةٍ وهميَّةٍ تدّعي الحَدب على الفقراء، في حين هي تنفر من الفقير من لحمٍ ودمٍ، في وضاعته وبؤسه، عندما هي تصادفه، حقًّا؛ فهي، في منطق عطفها، كانت تؤثر الأَفرادَ على الجماهير، وقد أكّدت: "**إنّني أُومن بالعلاقة بين شخصٍ وشخصٍ. كلُّ إنسانٍ هو، لي، المسيح، وبما أَنّ المسيح فريدٌ، فهذا الشخص هو، في نَظري، فريدٌ في العالم**". وهكذا سمت بها واقعيَّتها إلى قمَّةٍ من الصوفيَّة شامخةٍ.

غير أَنَّ واقعيَّتها المفعمة محبَّةً قد أَفضت بها إلى شموليَّةٍ حقَّةٍ لا تستثني من حبِّها وعطفها أَحدًا، لأَيّ سببٍ كان، بدليل قولها: "**لا تهمُّنا عقيدة الأَشخاص الذين نُبادر إلى نجدتهم، بل ما ننَظر إليه هو مدى حاجتهم**". وقد كان كلُّ سلوكها مصداقًا لقولها هذا، فهي عندما تلتقط محتضرًا على رصيفٍ، لا تُعير أَيَّ بالٍ لدينه أو انتمائه أَو ماضيه، بل كلُّ ما يهزّها ويعنيها هو مدى معاناته.

ومن ثمّ، لم تتوانَ عن افتتاح مراكز لاستقبال ضحايا الإيدز في مراحل مَرَضهم الأَخيرة، رغم انتقادات كثيرةٍ، بعضها صادر عن رجال دين ادَّعوا أَنَّ أُولئك المرضى إنّما كانوا ينفِّذون عقابًا استأْهله سلوكُهم المشين، في حين هي صدفت عن مثل تلك الاعتبارات وتركت الدينونة للدَّيّان، ولم ترَ، في أُولئك المساكين، سوى معاناتهم من السقَم، والنبذ، والوحدة القاتلة، فحرصت على بلسمة قلوبهم، وبعث العزاء في لحظاتهم الأَخيرة، ومُصالحتهم مع الله، وتأْهيلهم للقائه بثقةٍ واستسلامٍ.

والأُمُّ تيريزا، في شموليَّتها، هي، هي، دائمًا نفسها، في جميع الظُّروف، وحيالَ الجميع، لا يتأثّر سلوكها بمن تتعامل معهم، فكلّهم، في نظرها صورةٌ لله، ومن ثمَّ هي لا تؤثر منهم بمزيدٍ من حبٍّ واحترامٍ إلاّ من كان أَوجع أَلمًا، وأَعمق حاجةً. إنّها منفتحةٌ على كلِّ إنسانٍ، سواءٌ هو كان من عليَّة القوم أَو من أَوضع دركاته، من ذوي السلطان، أَو ممّن لا حَوْل لهم ولا طَوْل، من الأَثرياء أَو من الأَكثر فاقةً، وفي هذا السياق صرَّحت كاتبة سيرتها "إيلين إيجين": "**لنحو ثلاثين سنةً خلَتْ، شاهدتُ الأُمَّ تيريزا تنهض بمهامّها الوضيعة الخفيَّة في شوارع كلكتّا، خادمةً رجالاً ونساءً**

وأَطفالاً شبه أَمواتٍ، يمدُّون نحوها أَيادي نحيلةً مجرَّدةً، ملتمسين شيئًا من الحـــبّ والعطف. وكان هدف الأُمّ تيريزا أَن تظهر لهم أَنَّ الربّ يحبُّهم من خلال حبِّها لهم. وقد شاءت العناية الإِلهيّة، في مراميها الخفيّة، أَن تصبح تلك المرأةَ الضئيلة الحجم وجهًا عالَميًّا شهيرًا. إِنّها تتعامل مع العظماء، وأَصحاب النفوذ، ورؤساء الـــدول، ومالكي خيرات هذا العالم، مثلما تتعامل مع أَفقر الفقراء، كما لو كان كـــل مـــنهم شخص يسوع بالذّات".

لقد كان إِيمانها راسيًا على عقيدةٍ كاثوليكيّةٍ صلبة الأُسُس، غير أَنَّها مثَّلت الوحدة المسيحيّة الجوهريّة، والشمول الإِنسانيّ بكلِّ مداه. فقد وقاها الحبُّ، الذي تلقَّتْه مـــن عقيدتها ذاتها، من كلِّ انكماشٍ على الذَّات، وعلى فئةٍ دون سواها، إذا كـــان، علـــى غرار حبّ معلّمها يسوع، منفتحًا على البشريّة جمعاء، من غير تفرقةٍ أَو تمييزٍ؛ وقد قيل فيها إِنَّها كاثوليكيّةٌ ممتازةٌ، ولكن لا شيءَ لديها حصريٌّ، بحيثُ التقى فيها جميع المسيحيّين، بشتّى طوائفهم، والبشر أَجمعون.

في هذا السياق، قال الشيخ خالد بنتونس، رئيس رابطة أَصـــدقاء الإِســـلام فـــي فرنسا: "**إِنَّها تتكلّم عن يسوع، ولكنَّها لا تفرضه على أَحد... إِنَّ رسالتها شـــاملةٌ**". فهي، مع تجذُّرها المطلق في المسيحيَّة، تمثّل تجاوزًا لكلِّ الخلافات الإِيديولوجيَّـــة أَو الثقافيَّة أَو الدينيَّة أَو الطائفيّة. ولا بدْعَ في ذلك، فالمسيح ليس حِكْرًا على المسيحيّين، بل هو مبدأٌ إِلهيٌّ شاملٌ، وهو، للجميع، السراط والحقّ والحياة. ومـــن ثـــمّ، توسَّـــم الجميع في عمل الأُمّ تيريزا إِنجازًا إِلهيًّا، لا تحدُّه طائفةٌ أَو انتماءٌ.

فلا غرابة، إِذن، إِن دعاها رئيس وزراء البنغال، وهو شـــيوعيٌّ، "أُمَّ البنغـــال"، ودعاها آخَرون، "أُمَّ العالم"، أو "الأُمّ" فحسب.

وقد أَوجز "مالكولم موجيريدج" مزايا واقعيَّتها بقوله: "**إِنَّها، فـــي عـــالَم اليـــوم، شخصيَّةٌ فريدةٌ، لا بالمعنى المعهود الذي يرسم هالةً من نورٍ فوق الرؤوس، بـــل، بالحريّ، على نقيض ذلك. فقد انغمست في صميم البشريَّة، بكلّ ما ينطـــوي عليـــه من شائعٍ، وتمثَّلت بالأَلم والشقاء البشريَّيْن... لولا النعمة الخاصَّة التـــي قدَّســـتها، لربّما كانت شخصًا قاسيًا، فظًّا.**

ولكنَّ الربّ حوَّل تلك القسمات لصالحه، إِذ ليس من هو أَقلُّ منهـــا عاطفيَّـــةً،

واستسلامًا للأَحلام، وأَعمقَ واقعيَّةً، فهي، مثلاً، ريثما أَنشأت مركزًا لإِعادة تأهيل البُرْص، ووفّرت لهم عملاً كريمًا، لم تجد غضاضةً في تركهم يتسوَّلون لكسب عيشهم، وكانت، كلّما التقت أَحدهم، استوضحته عن حصيلة تسوُّله".

ولا جَرَم أَنَّ أَبرز وجوه واقعيَّة الأُمّ تيريزا يتمثَّل في حَدْسها الثاقب، وسداد رؤيتها للأُمور، وقراءتها علامات الأَزمنة، لا في الكُتُب، والمجلاّت والإِحصاءات، بل في عيون الأَطفال الجياع، وأَنّات المحتضرين، وجدْعات البُرْص وتشوُّهاتهم، وفي شحوب مرضى الإِيدز المريع؛ وحيالَ كلّ اكتشافٍ من هذا القبيل كانت تنبري لإِنجازاتٍ بطوليّةٍ، تعدُّها، هي طبيعيّةً، عاديّةً.

إِنَّها لم تسمح، يومًا، للآراء الشائعة، أَو للدِّعايات المغرضة، والإِيديولوجيَّات المحدودة الآفاق أَن تفسد حكمَها المبنيَّ على وحي قلبها النابع من إِيمانها بحضور يسوع في كلِّ إِنسانٍ، حضورٍ يزداد تجلِّيًا في الأَكثر أَلمًا وحرمانًا. وهي، في مجال تقرير ميادين عملها، تُصغي إِلى إِلهام حدْسها، وبما أَنّ هذا الحدْس قائمٌ على حبٍّ إِلهيٍّ، فهو قلّما يُخطئ.

وفي هذا السياق كتب "مالكولم موجيريدج"، أَيضاً: **"تنعم الأُمُّ تيريزا بامتيازٍ لا يُقدَّر بثمنٍ، يتمثّل في إِعراضها الدائم عن مشاهدة التيليفزيون، وعن الإِصغاء إِلى الإِذاعَات، وعن مطالعة الصحف، ممّا يؤهِّلها لتكوين فكرةٍ جليَّةٍ عمّا يجري، حقًّا، في العالم.**

"ما لا يُصدَّق أَنّها، مع افتقارها إِلى فسحةٍ من الوقت كي تُطالع الصحُف، أَو تشاهد التيليفزيون، كان لديها شبهُ حدْس عن الأَماكن التي تواجه مصاعب، وعن العلاج اللازم لها".

وقال "ديسدموند دواغ": **"إِنَّ لديها حَدْسًا أَكِيدًا، وحكمةً عميقةً. فإِن اعترضتها مشكلةٌ تصدَّت لها حتّى تعنو لها الأمور"**. فهي واثقةٌ من أَنَّ الله لا يوحي أَبَدًا برغبةٍ لا يبتغي تحقيقها، ولكنّها لا تعاند في أُمورٍ لا يُكتب لها النجاح، ليقينها بأَنَّ الربّ غير راغبٍ فيها.

أمّا الصحافيّ الفرنسيُّ "ساندرو بورديبيون" فقد اعترف: **"أَظنُّ أَنّ ما من فيلسوفٍ أَو مُوالٍ للنزعات الإِنسانيّة قد تميَّز، مثلها، بحسٍّ حادٍّ بقيمة كلّ كائنٍ بشريٍّ".**

ووصفها راؤول فوليرو، وكان من أَوائل الشهود الغربيّين على عملها: "**الأمُّ تيريزا هي الحبّ. إنّني أَرمق هذه البطلة، هذه القدّيسة، فأَلمح محيًّا مشدودًا، وعينَيْن جافّتَيْن، فهي تُمسك نفسها عن هدْر ذرَّةٍ من قواها في عذوبة الدموع العقيمة. ليس فيها شفقةٌ بالمعنى العاطفيّ، فالشفقة هي صيغة الحبّ الوبيلة، أَمّا هي، فهي الحبُّ، إنَّها ذلك العطاء المتبصِّر، الإراديّ، العنيد**".

وحدْس الأُمّ كان يُمكّنها من قراءة دخائل النفوس، وفي هذا السياق تروي فتاةٌ كانت تراودها دعوة الرهبنة، ولكنّها كانت ما انفكّت فريسةً للرِّيَب والتساؤُلات، فشخصت إِلى مركز مرسلات المحبَّة في كلكتّا، وإِذ بالأُمّ، على شرفة غرفتها، تستقبل زائرين. وتُضيف الفتاة: "قبل أَن يحين موعدي استقبلت الأُمُّ زوجيْن هنديَّيْن، ثمَّ التفتت فجأةً نحوي، وحدَّقت فيَّ، وقالت: "متى ستقرِّرين؟" فذُهِلتُ، لأَنّ أَمر دعوتي كان كمينًا طيَّ سرّي، ولم أُفاتح به أَحدًا. ومع ذلك اكتشفتْ هويَّتي ودخيلتي، اكتشافًا لم أَستطع إِلى تفسيره سبيلاً. لقد هزَّني الأَمرُ هزًّا، بحيثُ قضيتُ بقيَّة النهار في المُصلّى أَبكي، محاولةً تهدئة روعي. واتَّضح أَنَّ عليَّ أَن أَحزم أَمري، وأَتَّخذ القرار الذي كنتُ أُرجئه، منذ زمنٍ، حول السبيل الذي يتعيَّن عليَّ انتهاجه".

وبدافع واقعيَّتها عرفت الأُمُّ الإِفادة من النفوذ الذي باتت تَتَمَتَّع به، بعد أَن ذاعت شهرتُها وطبَّقت الآفاق، وأَمسى لها مكانةٌ رفيعةٌ في تقدير عظماء الأرض، فلم تتوانَ عن استخدام ذلك النفوذ لصالح المحرومين والمحتاجين، وفي هذا السياق صرّح المطرب الشهير "بوب جيلدوف": "كانت تدرك أَنّها، بفضل النفوذ الأَدبيّ الذي تَتَمَتَّع به، كان من اليسير عليها أَن تشخص إِلى المطار، فتطلب بطاقةً مجّانيّةً إِلى واشنطن، وحالَ وصولها، أَن تلتمس مقابلة رئيس الولايات المتَّحدة، وهي واثقة من أَنَّه لن يجرؤ على رفض طلبها".

وكتب الأَميركيّ "روبيرت فولغام": "**لستُ أَفهم لُغَتها، غير أَنَّ فصاحة حياتها هي التي تكلِّمني، فيُداخلني شعورٌ بالعقاب والبَرَكة معًا. لا أَظنُّ أَنَّ شخصًا واحدًا يستطيع إِنجاز أُمورٍ كثيرةٍ في هذا العالَم؛ ومع ذلك، كانت هناك، في أُوسلو، وكانت تبعث برسالةٍ إِلى البسيطةِ كلّها.**

"**لستُ أُشاركها طريقتها في فهم الله، ولكنّ قوَّة إِيمانها تغمرني خجلاً، وهكذا أَنا أُومن بالأُمّ تيريزا.**

"وفيما أَنا أصارع مشاعر الكبت الناجمة عن عجزي الشخصيّ، تمضي هي، قُدُمًا، مغيِّرةً وجهَ العالَم. وفيما أَنا أَقف "أَتمنّى" المزيدَ من السلطة والوسائل، في ذلك الوقت عينه "تستخدم"، هي، ما تملك كي "تحقّق" أكبر قدرٍ من الأَشياء الممكنة. هذا الواقع يحيّرُني، ويقلقُني، ويخجلُني.

"فما الذي تملكه، هي، ولا أَملكه أَنا؟

"إِذا ما ساد على الأَرض، يومًا السلام وحسْن النوايا، فسيتمُّ ذلك بفضل أَمثال الأمِّ تيريزا، فالسلام ليس أَمرًا "يُتَمنّى"، بل ينبغي صنعه، وبناؤُه، وعيشُه، وتوفيرُه!"

فيها يجد محبّو المسيح تعبيراً أَسهلَ منالاً لسرِّ حبِّ الله من جميع النظريّات والطروح الميتافيزيقيَّة أَو الأَدبيّة. إِنَّها تجربةٌ حيّةٌ، وليست استنتاجًا، إِنَّها طريقة عيشٍ، وليست إيديولوجيّةً؛ تصدم المخيِّلة أكثر من العقل؛ إِنَّها من عالم الحساسيّة الروحيّة أكثر ممّا هي من عالم الحساسيّة الفكريّة، ومداها يتخطّى، بعيدًا، مدى الكلمات والخواطر.

وقد قيل: **"كلُّ قولٍ قد يُعارضه قولٌ آخر، ولكن أَيُّ قولٍ بوسعه معارضة الحياة؟"**

"لا يزور الفقير سوى الله" (طاغور)

واقعيَّة الأُمِّ تيريزا أَتاحت لها اكتشاف رسالتها الخاصّة بوضوحٍ، وشقَّ طريقها إِليها بتُؤَدةٍ، وثقةٍ، وجهدٍ. فهي، مذْ وطئت قدماها أَرض الهند، استشفَّت مدى فقر القوم الذين دُعيت إِلى العيش بين ظهرانيهم، فصدَمها ذلك الواقعُ صدْمةً هزَّت كيانها في الصميم، وأَثارت في أَعماقها نداءً ما انفكّ يهتف، ويلحُّ في النداء، حتّى استجابت له. فحتّى بعد أَن حقَّقت حلمَها في الرهبنة، وأَمست مديرة التدريس في مدراس "لوريتو" في كلكتّا، ومع قناعتها بأَنَّ التدريس رسالةٌ ساميةٌ، إلاّ أَنَّ النداء ما انفكَّ ملحاحًا، تواكبه نصيحة أُمِّها بأَن تهب ذاتها، بالكامل، لله، حُبًّا بالفقراء، إِلى أَن غدا النداءُ الخافتُ دعوةً مباشرةً، صاخِبَةً، مُهَيْمنةً، على درب "دارجيلينغ"، فقلبتْ كيانَها، وحوّلت مسيرتَها، مثلما حوّل انقضاضُ الربّ مسيرةَ بولس، عند مشارف دمشق.

وكان الصوت يهمس في داخلها: "امضي إلى الفقراء، من غير تمييزٍ بين طبقاتٍ ومعتقداتٍ. اخدميهم، متوسِّمةً فيهم الربّ المتألِّم، ابحثي عنهم في الشوارع، والساحات، وعلى الأَرصفة، ووسط الأَكواخ والأَحياء البائسة. كوني، ليلَ نهارٍ معهم، فيما بينهم، ولأَجلهم".

أَليمًا كان انسلاخُها عن جمعيّة "لوريتو"، وعن كلّ ما عهدته فيها من سعادةٍ ومكانةٍ، غير أَنَّ النداءَ كان أَقوى أَسْرًا، ودعوتها الجديدة كانت واضحة المعالم لا لَبْس فيها: خدمة الفقراء، وخدمة الربّ من خلالهم.

وقد باشرت رسالتَها هذه، وفي يدها خمسُ روبيّاتٍ، وزّعتها في لحظات، وفي صدرها بركان إيمانٍ وحبٍّ ما انفكّ يزمجر ويتفجّر، ويصُبُّ حممه على العالَم أَجمع؛ وقد اعترفتْ آنذاك: "يتراءى لي أَنّني غارقةٌ وسط محيطٍ من الأَلم واليأس. لقد شاءَ الله أَن أكون راهبةً حُرَّةً، لابسةً رداءَ الصليب".

ومنذ الوهلة الأولى، أَدركت أَنَّ خدمة الفقراء، بصدقٍ، تقتضي مشاركتَهم فقرَهم، والعيشَ مثل عيشهم، لكيلا تنقلب الخدمةُ إِحسانًا متعاليًا، فاختارت الفقرَ أُسلوبَ عيشٍ، واعتمدت الساري القطنيَّ الرخيص المُحاكي لباس أَفقر نساء الهند زيًّا رهبانيًّا لها ولأَخواتها، كي تُثبت لقومها – الفقراء الهنود – أَنَّها منهم ولهم، وأَنَّ مسيحيَّتها تعيشها بينهم ومن أَجلهم، على خلاف الراهبات الأُخريات اللواتي يرتدين زيًّا مميَّزًا، وتحدوهم عقليَّةٌ مختلفةٌ. ومُذّاك احتلّت، بين الهنود، مكانةً أَثيرةً، وبات لها زيُّها درعًا. وخليقٌ بالتنويه أَنَّ الساري الخاميَّ ذا الحاشية الزرقاء، الذي تبنَّتْه مرسلاتُ المحبّة، لا جَيْبَ له، للدَّلالة على إِمعانهنّ في الفقر. ولا ريب أَنَّ الفقراء أَكْبَرُوا حرصهنَّ على العيش مثل عيشهم، ممّا زادهم لهنّ حبًّا، وبهنَّ ثقةً.

وعندما أَسَّست الأُمُّ جمعيَّتها، في مدينةٍ تتميَّز بالحرمان، أَرست دعائمها على الفقر، فقرٍ اختياريٍّ، بُطوليٍّ، مطلق. فهناك الفقر الذي يفرضه المجتمع على فئةٍ عريضةٍ من أَعضائه، الفقر الذي يبدو وكأَنّه قَدَرٌ غاشمٌ، وفي سبيل مكافحة هذا النمط من الفقر اختارت الأُمُّ تيريزا وأَخواتُها المرسلات، ممارسة فقرٍ مماثلٍ في كلِّ أَوجه حرمانه، ولا يختلف عنه إلاّ في كونه طوعيًّا.

لقد تميَّزت جمعيَّةُ مرسلات المحبَّة بنَذْرٍ رابعٍ، أَضفنَه إِلى النذور الرهبانيّة

الثلاثة المعروفة، يلتزمنَ، بموجبه، بخدمة أَفقر الفقراء، ومن أَعماق القلب، مجّانًا؛ وهذا النذْر يرتدي، لديهنَّ، خطورةً جوهريَّةً، بحيثُ يقاومنَ، بعنادٍ، كلَّ ما قد يعني خرقًا له، حتّى لو أَوعز بذلك مسؤولون كنسيُّون، كما حَدَثَ عندما أَمر أسقف مرسلات محبَّةٍ، يُشرفنَ على مستوصف، باستيفاء قسطٍ زهيدٍ من نفقات العلاج، فأَبت الأُمّ تيريزا، وآثرت إِغلاق المستوصَف.

مثل هذه الخدمة تقتضي معرفةَ الفقراء، والتشبُّه بهم، ومشاركتهم حِرمانهم، بحيثُ تستطيع مُرسَلات المحبَّة القول لهم بصدقٍ: نحن أَيضاً، مثلكم، لم نجد إِلى النوم سبيلاً، بسبب الحرِّ الخانق، ومثلكم لا مروحة لدينا، ونرقد على اليابسة، ونجتزئ بالزهيد من الطعام، ونلبس أَفقر الثياب، ونمضي في الحياة، لا نمتلك لأَنفسنا، من متاعها، شيئًا.

فحتَّى الساري الذي يتلفَّعْنَ به، تعيرهنّ إِيّاه جمعيَّتُهنّ، وليس ملكًا لهنَّ. وفي هذا السياق تؤكِّد الأُمُّ تيريزا أَنَّ ثمَّةَ بَوْنًا بين أَن يمتلك المرءُ ثوبًا واحدًا يخصُّه، وبين أَن توضع الثياب في تصرُّفه، وهو لا يمتلكُها.

وما أَقلَّ المتاعَ الموضوع تحت تصرُّفهنّ: دلوٌ مُرقَّمٌ يحتوي على بضع ملابس داخليَّةٍ، وطَبَقٌ من الصفيح، ودفترٌ صغيرٌ تُدوّنَّ فيه خواطر روحيّةً. وهنَّ لا يحتجنَ إِلى أكثر من ذلك، إِذا ما أُمِرْن بالانتقال إِلى مركزٍ آخر، انتقالٍ قد يُؤْمرنَ به، في أَيّة لحظة.

فقرٌ موغلٌ في الحرمان والتضحية، لا يقوى العالَم على إِدراكه. فعلى حدِّ قول الأُمِّ تيريزا: "في نظر العالَم يبدو من الحمق اجتزاؤنا بطعامٍ زهيدٍ، وازدرادُنا برغُلاً خشنًا لا طعمَ له؛ وعدمُ امتلاكنا سوى ثلاثة أَثوابٍ مرقَّعةٍ مصنوعةٍ من قماشٍ خشنٍ، أَو من جلابيب قديمةٍ؛ ولكنَّنا نُعنى بها خيرَ عنايةٍ، لأَنَّنا نأبى أَن يكون لنا ثوبٌ إِضافيٌّ؛ وانتعالُنا، بطيبةِ خاطرٍ، أَحذيةً غير متجانسةٍ ومشوَّهة؛ واغتسالُنا بدلو ماءٍ داخلَ مقاصيرَ ضنكةٍ؛ ورغم تصبُّبِنا عَرَقًا، إِباؤُنا استخدام المروحة؛ ورفضُنا دعوة القوم إِلى موائدهم حتَّى عندما يُمضُّنا الجوع، ويلهبُ حلقَنا العطش؛ وأَلاَّ نمتلك لا راديو ولا قارئ أسطوانات من شأنهما بعث شيءٍ من الراحة في أَعصابنا المنهكة، إِثر يومٍ من الجهد المُضني؛ وأَن نسافر سيرًا على الأقدام أَو على

متن الدرّاجات تحت وابل المطر، أَو في أَتّون قيظ الصيف؛ وأَلاّ نعرف سوى الدرجة الثانية من الترام، أَو الدرجة الثالثة من القطارات الشديدة الازدحام؛ أَن نرقد على الحضيض، بعد أَن عزَفْنا نهائيًّا عن الفُرْش السميكة الليِّنة التي من شأنها توفير الرفاه لأَجسادنا المنهكة المتأَلِّمة؛ وأَن نحبّ الركوع على بُسُط المُصلّى الخشنة؛ أَن نفرح باقتسام قاعات نومٍ جماعيّةٍ في المشافي كي نظلّ على مقربةٍ من فُقَراء المسيح، عوضاً عن الإِفادة من الغُرَف الخاصّة التي تُقدَّم لنا؛ وأَن نفخر بالعمل كالحمّالين، داخل مؤسَّساتنا وخارجها، في حين يسعنا استخدام عمّالٍ، والاكتفاء بالمهامّ الخفيفة؛ أَن نتذوَّق متعةً في تنظيف المراحيض، وإِزالة الأَقذار، وكأَنَّنا نضطلع بأَجمل مهنةٍ في العالَم، وأَن ندعو ذلك تمجيدًا لله! ما أكثر الذين يفكِّرون على هذا النحو، ويعتبرون أَنَّنا نهدر حياتنا الثمينة، وندفن مواهبنا! أَجل، على ضوء العقل وحده، حياتنا أكثر من مهدورةٍ، ولا مبرِّر لوجودنا خارج المسيح!"

أَو لم يرشُقْ بتهمة الجنون الأُمَّ تيريزا، في مستهلِّ رسالتها، كهنةٌ استكانوا إِلى حياةٍ ناعمةٍ، نظيفةٍ، منظَّمةٍ، بسبب هجرها مركز مديرة تدريسٍ في معهدٍ راقٍ، من أَجل التطواف بين أَقذار الأَكواخ؟

أَجل، قد يبدو ذلك جنونًا، ولكنَّه مُستَلهَمٌ من الجنون الأَعظم، جنون ابن الله، الذي مع أَنَّه الغنيُّ الأَوحد، ومالك الأَكوان، استغرق في الفقر، لمَّا تأَنَّس، كي يفتدينا، إِنَّه جنون الصليب، وجنون الإِنجيل.

الرغبة في التمثُّل بذلك الفقير الأَعظم هي التي حدتْ بأَسرابٍ من الفتيات، كان بعضهنَّ يعِشْنَ في بحبوحةٍ ويُسرٍ، إِلى التجرُّد من كلِّ شيءٍ، في سبيل خِدْمَة الفقراء، حبًّا بمن جعل ذاته فقيرًا من أَجلهم.

وقد اعترفت إِحداهُنّ: "منذ سنواتٍ عديدة، يدعوني يسوع إِلى أَن أكون راهبةً، وسعيتُ لاكتشاف أَين يُريدني أَن أَمضي، فاتَّضح لي أَنَّ الراهبات، في أَماكن كثيرةٍ، يملكنَ مثل ما أَملك، بحيثُ لا يسعني، معهنَّ، التجرُّد من أَيِّ شيءٍ...". وقد عَثَرتْ على ضالَّتها في جمعيَّة مُرسَلات المحبَّة، حيثُ استطاعت التجرُّد من كلِّ شيءٍ، وممارسة الفقر التامّ، فوجدت حُرِّيَّتها. وعلى غرارها، نهجت الكثيرات ممّن كانت تعتمل في نفوسهنَّ الرغبة في الزهْد المُطلَق، فتخلَّيْنَ عن يُسرِ العيش، وعن

شهاداتهنّ الجامعيّة، وأحلامهنّ الدنيويّة، وإِرادتهنّ الخاصَّة، كي يكنّ، بكُلِّيَّتهنَّ، في تصرُّف يسوع، أَدواتٍ طيِّعاتٍ في خدمته، وخدمة إِخوته المحرومين. لقد ابتَغيْنَ منح كلِّ شيءٍ، أَو لا شيء.

وقد أَدركت الأمُّ هذا الصبُوَّ إِلى العطاء الكامل الذي يُراود نفوسًا سخيَّةً، وضرورةَ هذا البذل التامِّ في سبيل خدمةٍ أَصيلةٍ كما يتجلّى من قولها المأثور: "عندما يُطلب من الناس كلُّ شيءٍ، يُعطون كلَّ شيءٍ، بل يعطون أكثر؛ أَمّا إِن طُلِب منهم القليل، فلا يعطون شيئًا".

ولئن كانت أَيَّةُ حياة رهبانيّةٍ مكرَّسة تستلزم سخاءً جمًّا، إِلاّ أَنّ حياة مُرسَلات المحبَّة تقتضي بطولةً حقَّةً؛ ولقد أَثبتت أُولئك المُرسَلاتُ أَنّ بوسع البطولة أَن تتحوَّل إِلى ممارسةٍ يوميّةٍ.

وفي الفقر المُطلَق، اكتشفت مُرسَلات المحبَّة الحرِّيَّة المُطلقة. وما تني الأُمُّ تردِّد: "**الفقر حرِّيَّة، لأَنَّ ما لا أَملكه لا يؤرِّقني، ولا يحدُّ من حرِّيَّتي في المشاركة والعطاء، وبذل الذَّات. والفقر لنا حرِّيَّةٌ مُطلَقةٌ تسمح لنا أَن نُحدِّق في يسوع ونقول: "كنتَ غنيًّا، وأَمسيتَ فقيرًا لإِغنائنا"، "الفقر هو قوَّتنا وفرحنا"، "نحن في حاجةٍ إِلى الفقر كي نعيش أَحرارًا، مادِّيًّا وروحيًّا، ولكيلا نصبح عبيدًا للمال... علينا أَلاَّ نكرّس ذواتنا إِلاّ للفقر، فالمسيح قد اختار الفقر، وإِن نحن ابتغينا أَن نكون له، فعلينا أَن نكون، أَيضاً، فقراء"، "الفقر هديّةٌ رائعةٌ لأَنَّه يوفّر لنا الحرِّيَّة، ويعني تضاؤل الحواجز التي تحول بنا دون الله**".

ولكي تحتفظ الأُمُّ تيريزا بحرِّيَّة الخدمة، رفضت، بحزمٍ، أَيَّة مساعدةٍ حكوميَّةٍ مطَّردة، أَو أَيَّ دعمٍ من السلطة الكنسيَّة لكيلا تُقيَّد يداها، ويُفرَض عليها قبولُ فئةٍ من الفقراء، وردُّ فئةٍ أُخرى، ولكيلا تُقسَر على انتهاج أَساليب خدمةٍ لا تتوافق وما أَمرها الله به.

لقد آمنت الأُمُّ، إِيمانًا راسخًا، بأَنَّ الوفاءَ للفقر، وحده، هو ضمانُ الوفاء للمسيح، وللرِّسالة التي انتُدبتْ لها، هي ومرسلاتها؛ وهي لا تني تؤكِّد: "**إِنَّ الفقر ضروريٌّ لنا، ضرورةَ العمل...**" و"**حالما نبدأ نتعلّق بالمال، نشرع نفقد صلتنا بالربّ. إِنّني وطيدة اليقين بأَن البقاء سيُكتب لجمعيَّتنا طالما ظلَّت راسيةً على فقرٍ فعليٍّ وأَصيلٍ**".

"**نحن، مُرسلات المحبَّة، ينبغي أَن يكون الفقرُ الصارم حرزَنا، لأَنَّنا نأبى أَن نُفضي**

إِلى مثلٍ ما انتهت إِليه رهبانيَّاتٌ أُخرى عبر التاريخ، فنبدأ بخدمة الفقراء، وننتهي، لاشعوريًّا، بخدمة الأَغنياء".

ومن ثمَّ، كانت الأُمُّ، كلّما افتتحت مركزًا جديدًا، في مدينةٍ غريبة، توسَّلت أَهل تلك المدينة مساعدة أَخواتها على الإِخلاص لنذْر الفقر؛ وكلّما زارت أَحدَ مراكزها، حرصت، في المقام الأَوَّل، على التثبُّت من ممارسة الفقر، ممارسةً لا غُبارَ عليها، فالفقر هو حصن الحياة الرهبانيَّة، فالأَخوات يتلقَّيْنَ الكثير من الهبات للفقراء، وهي تربأُ بهنَّ من الانزلاق في تجربةٍ شراء أَشياء ليست، أَساسيًّا، ضروريّةً، أَو إِنفاق أَيِّ مالٍ على غير أَفقر الفقراء. وبدافع هذا الحرص، كانت تعكف على تدقيق سجلاّت محاسبة الرئيسات.

وقد دأَبت الأُمُّ على ترسيخ روح الفقر هذا في أَخواتها، ورئيسات مراكز جمعيَّتها، ولمّا بادرتْها إِحداهنَّ، يومًا، بالقول: "ينبغي أَن نمتلك سيَّارة إِسعافٍ لنقل مرضانا إِلى المشفى في حال الضرورة، أَجابتها: "ما زال الوقتُ مبكِّرًا لامتلاك سيَّارة إِسعافٍ، فأَنتِ جديدةٌ في المنطقة، والأَخلق بك أَن تشرعي بمعرفة الناس، فامضي إِلى الأَرياف سيرًا على قدَميْك، وتحدَّثي مع من تلتقين، واكتشفي نَمَط عيشهم واحتياجاتهم، واكتسبي منهم أَصدقاء. وإِن كنتِ، بعد ذلك، ما زلتِ في حاجةٍ إِلى سيَّارة إِسعافٍ، فسيهبك الله إِيَّاها. ولكن قد تُراودُك، حينئذٍ، تجربة الإِقلاع عن السير".

وكم سارت الأُمُّ تيريزا، في مستهلِّ عهد جمعيَّتها، وكم ذرعت شوارع كلكتّا وأَزقَّتَها، إِلى أَن تورَّمت ساقاها، ودميت قدماها، فيما كان قلبها يطفر فرحًا لتشبُّهها بالفقراء، ولعيشها في ما بينهم، ولتمثُّلها بيسوع! فعلى حدّ قول "جاك غايّو": "بأُصوله، بمولده، بموته كان يسوع منبوذًا... هناك قومٌ يصرخون، وقد ننزع إِلى خنق أَصواتهم لأَنّها تُزعجنا، ولكن أَليست هي نداءات الروح العامل في صميم التاريخ؟ إِنّها مبعث حياةٍ للكنيسة لأَنَّها تدفعها إِلى الخروج من ذاتها. وهي ما لم تندمج في تلك التربة، ماتت".

لم تبتغِ الأُمُّ تيريزا الفقرَ من أَجل الفقر نفسه، بل ابتغتْه سبيلاً إِلى الاتّصال بالله، وإِلى معرفة الفقراء عن كَثَبٍ، تمهيدًا لخدمتهم على النحو الأَمثل، وإِلى إِغناء القلب بتحريره من عبوديَّة المال، حطام الدنيا، وإِلى تزويده بالحريَّة، والمنعة، والفرح.

لقد أَدركت الأُمّ، ومعها أَدركت أَخواتها أَنَّ محبَّة إِنسانٍ ما تعني التأَلُّم معه، ومن أَجله، وأَنَّ الذَّوْد عن حياض الفقراء يقتضي ممارسة الفقر؛ وحتّى إِن افتقرت بعض المرسلات إِلى العلم والفصاحة، وعجزنَ عن تفسير سرِّ دعوتهنّ، إِلاّ أَنَّهنَّ عِشْنَ هذا السرَّ بكثافةٍ، ممتلئاتٍ من بذل الذّات، حقًّا.

وهذا ما عبَّرتْ عنه الأُمُّ تيريزا بقولها: "**لقد ابتغى يسوع خلاصَنا، بمقاسمتنا حياتنا ووحدتنا، ونزاعنا وموتنا" وهو، باتّحاده بنا اتّحادًا حميمًا، استطاع افتداءَنا. ونحن، جميعنا، مدعوُّون إِلى التمثُّل به. إِنّه واجبٌ علينا افتداء كل معاناة الفقراء التي لا تقتصر على الفقر الماديِّ، بل تطالُ، أَيضاً، العُرْيَ الروحيّ. علينا مقاسمتهم هذه المعاناة، ولن يسعنا افتداؤهم إِلاّ باتّحادنا بهم، أَي بإِعادة الله إِلى حياتهم، وبقيادتهم إِلى الله**".

الفقر، على حدّ قول الأُمّ تيريزا، "**هو أَحد تطويبات يسوع. الفقر الحقُّ هو التجرُّد الفِعْليّ عن الأَشياء، وعن النافل، هو عامل تحرُّرٍ وإِغناءٍ. وإِدراك هذا الفقر هو، دائمًا، نعمةٌ من الله، ودعوةٌ داخليَّةٌ إِلى تحقيق ملكوت الله**".

وممارسة الفقر تؤَهِّل لمعرفة الفقراء، واكتناه معاناتهم، ومحبَّتهم، وهذه المحبّة هي أَكثر ما يفتقرون إِليه. فقد آمنت الأُمُّ أَنَّ العطاء، بلا محبّةٍ، إِنّما هو إِهانةٌ، ودأَبت على منح الفقراء حبَّها، قبلَ الأَشياء الماديَّة الكفيلة بتخفيف آلامهم، وبمداواة حرمانهم.

لقد اعترفت الأُمّ تيريزا بتوجُّعٍ: "**عندما أَشهد اللاّمبالاة والازدراء السائدَيْن من حولنا حيالَ الفقراء، أُدرك، على نحوٍ أَفضل، ما عاناه المسيح من حزنٍ لأَنَّ خاصَّته لم تستقبله. والذين، اليومَ، يتجاهلون الفقراء ويرذلونهم، ما زالوا يتجاهلون يسوع ويرذلونه**".

ولاحظت: "**في أَيّامنا، بات التحدُّث عن الفقراء أَمرًا شائعًا، ولكنَّ التحدُّث عنهم شيءٌ، ومعرفتُهم، والتحدُّث إِليهم، وخدمتهم شيءٌ آخر**".

وهي وقفت حياتها، وكرَّست جمعيَّتها لخدمتهم، حبًّا بهم، وبالمسيح الذي يمثِّلون: "**لقد أَخذتُ على عاتقي تمثيل فقراءَ العالَم أَجمع، غير المرغوب فيهم، الذين لا يُحبُّهم أَحد، المرذولين، وضحايا العنف؛ والعميان والبُرْص، ومدمني الكحول،**

والمهمَّشين، وجميع الذين انتهى بهم الأَمر إِلى نسيان ما هي الحرارة البشريّة، والمحبَّة، والعلاقة بالآخرين. وقد استقرَّ في قناعتي أَنَّ أَدهى الآلام، وأَقسى العذاب، يكمنان في شعور الإِنسان بأَنَّه نافلٌ، وغير محبوبٍ، ومُهْمَلٌ، ومحتَقَرٌ، وبأَنَّه لا شيء، ولا يُمثّل شيئًا لأَيّ إِنسانٍ.

"**ومن جهتي أَجهد كي أُقدِّم للفقراء، بحبٍّ، ما يستطيع الأَغنياءُ نيلَه بِمَالِهِمْ. إِنّني لن أُقدم على لمس أَبرص مقابل عرضٍ بمبلغ مليار دولارٍ، ولكنّني أَفعل ذلك مَجَّانًا، وبطيبة خاطرٍ، حبًّا بالله**".

وقد أَمست الأُمُّ شاعرة الفقراء والوضيعين، على غرار الأَسِّيزي، بل غدت لهم سفيرةً في كلِّ أَرجاء المسكونة، واكتسبت لهم الاعتراف، والكرامة، وسخاءَ العطاء.

لقد جعلت شعارَ مرسلاتها: "**فلندَع الفقراء يلتهمونا**"، وأَهابت بهنّ أَن يسعَيْنَ إِليهم أَينما كانوا، فحتّى "لو كان فقراء على القمر لشَخَصْنا إِليهم"، "**الفقراء هم علّةُ وجودنا، لقد خُلِقْنا من أَجلهم، وكرَّسنا ذواتنا في سبيلهم، ولا تُراودُنا أَيَّةُ تجربةٍ بالإِعراض عنهم**".

ولقد استبانت نمطَيْن من الفقر: الفقر المادِّيّ الأَكثر تفشِّيًا في العالَم الثالث، والفقر الروحيّ المستفحل في الدول المتقدِّمة، والذي قد يكون أَدهى من ذاك، وتصدَّت لكليهما بكلِّ طاقات حبِّها.

كان الفقرُ المادِّيُّ هو أَوّل ما سعت إِلى معالجته، يومَ كان نشاطُها محصورًا في كلكتّا؛ وقد ارتاعت لمّا شهدت درك الانحطاط السحيق الذي قد يُفضي إِليه الفقرُ، عندما يستشري، ويتمادى، ويُهَيْمن. "فلئن كان الإِنسان قد خُلِق أَدنى من الله قليلاً، إِلاّ أَنّ الفقر قد لا يجعله يسمو على البهيمة إِلاّ بقدرٍ زهيدٍ. فهو لا يعود يُفكِّر إِلاّ بطعامه، ويغدو وجودُه كلُّه قائمًا على همٍّ بقائه على قيد الحياة. عقله في عطلةٍ، وعيناه فارغتان من كلِّ تعبيرٍ وكلِّ محتوًى. إِنَّ أَسوأ ما في الفقر إِفراغ الإِنسان من كلِّ مقوِّمات الإِنسان، وحتّى من الشعور، ومن المرارة، ومن الغضب: فراغٌ مريعٌ، ولكأَنَّ القبَس الإِلهيّ قد اضمحلَّ، فلم يعد صَدْرُ الفقير هيكلاً لشيءٍ. إِنَّه، حقًّا، المسيح وقد انحدر إِلى الجحيم. إِنّه الإِنسان المحشور في عزلةٍ رهيبةٍ، بلا فكرٍ، ولا كيانٍ. وفقدانُ الكيان هو فقدانٌ للشعور، وغيابُ الله، إِنَّه الجحيم. والأَمل الوحيد المتبقّي هو

أَنَّ المسيح قد انحدر، حقًّا، إِلى ذلك الجحيم من أَجلنا، ولذلك، يظلُّ الإِنسان إِنسانًا، ولا يفقد أَبدًا إِنسانيَّته، لأَنَّ من جعل ذاته إِنسانًا يسكنُه، وهو أَوثق حميميَّةً له من ذاته، وهو خلاصه".

أُولئك الذين أَمسوا حطامًا بشريًّا، وفقدوا إِنسانيَّتهم، وانحصر أُفقهم كلُّه في كسرة خبزٍ، أَو طبق أَرزٍّ ينقذانهم من أَجلِ مُنذرٍ، أَفاضت الأُمُّ وأَخواتُها عليهم حبَّهنَّ، فأطعمنَهم، ونظَّفنَهم، وكسونَهم، وفوق كلِّ شيءٍ، أَعدنَ إِليهم الشعورَ بكرامتهم، وَأَكّدْنَ لهم أَنّ ثمَّة من يحبُّهم، ويُعنى بأَمرهم؛ وإِذ بمن كان الفقرُ أَفقده كلَّ شعورٍ بذاته، يشرع يطلبُ أَن تُقَصَّ أَظافره، وتُصلح لحيتُه، ويلتمس قميصًا نظيفًا، مُثبتًا أَنَّه قد ظفر بالخلاص، واستعاد طعم الخير والجمال، وانتقل من مستوى الوجود البيولوجيّ الصرف إِلى المستوى الجماليّ. لقد بعثه الحبُّ مخلوقًا جديدًا، وأَعاد إِليه إِنسانيَّته، مُبرزًا فيه صورة الله، بعد أَن كان الأَلَم والفاقة قد انحدرا به إِلى العَدَم.

ولو أَنَّ عمل مرسلات المحبَّة انحصر في هذا الإِنجاز وحده، لكان حَسْبهنَّ إِنجازًا؛ أَمّا الذين لا يرون من الأُمور سوى سطحها وقشورها، ولم يلحظوا التحوُّل المذهل الذي أَحدثه عطفُ مرسلات المحبَّة على "قومهنّ"، والذين عجزوا عن تبيُّن قدرات الحبّ اللاّمحدودة التي ينبغي أَن تكون بدءَ كلِّ عملٍ وختامَه، فقد راحوا يتشدَّقون بالنقد متذرِّعين بضآلة الخدمات الصحيَّة، وافتقارها إِلى الحداثة؛ والواقع أَنّه، حيالَ معجزات حبِّ المرسلات، وما أَحدثته من تحوُّلاتٍ مذهلةٍ، لا يسوغ التحدّث بمنطق الجدوى، بل يجدر الصمت والإِعجاب.

وعندما انطلقت الأُمُّ من إِطار الهند، وبات العالَم كُلُّه مسرح رسالتها، وَقَفَتْ على نمَطٍ آخر من الفقر، فقرٍ روحيٍّ، يترافق أَحيانًا مع الفقر المادّيّ، ويزيده إِيلامًا وتعقيدًا. وقد وصَفَتْه بقولها: "**الفقراء هم الوحيدون، والجياعُ لا إِلى الطعام فحسب، بل إِلى كلمة الله؛ الجاهلون والعطاش لا إِلى الماء فحسب، بل أَيضاً إِلى المعرفة والسلام، والحقيقة، والعدل، والحبّ؛ غير المحبوبين والمحتاجون لا إِلى لباسٍ فحسب، بل إِلى الكرامة البشريّة؛ غيرُ المرغوب فيهم، والطفل الذي لم يرَ النورَ، بعدُ، والمعانون من التفرقة العنصريّة؛ المشرَّدون، والمهجورون، والمفتقرون لا إِلى سقفٍ من قرميدٍ فحسب، بل أَيضاً إِلى قلبٍ يفهمُهم، ويضمُّهم، ويُحبُّهم؛**

المرضى المحرومون، المحتضرون، والمسجونون، لا بأَجسادهم فحسب، بل أَيضاً في قلوبهم ونفوسهم، الذين فقدوا كلَّ رجاءٍ وإِيمانٍ في الحياة؛ مُدمنو الكحول والمخدِّرات الذين فقدوا الله، وكلّ أَملٍ في قدرات الروح...

"كثيرون هم الذين يمكن تسميتُهم بالهامشيّين، الذين يعيشون في وحدة مفتَقرين إِلى الشعور بالحبّ، الذين يخنقهم الخوف، المعزولون عزلةً تامَّةً.

"ذلك هو النبذ، في أَيّامنا، وهو شائعٌ في بلدانٍ غنيَّةٍ مثل أوروپا واليابان، والولايات المتَّحدة، وأَيضاً في الهند؛ حيثما وُجد بشرٌ، ثمَّة قومٌ جياعٌ إِلى الحبّ.

"هل تعرف، أَنت، قوماً يعيشون إِلى جوارك، جائعين إِلى الحبّ، يلتمسون شيئًا من الحنان، ويحتاجون إِلى شيءٍ من العناية؟ ربَّما داخل أُسرتك من يُعاني من الشعور بالعزلة، مريض، وربما نسي أَنّه ينتسب إِلى أسرة...

"لستم بحاجة للمثول إِلى الأَكواخ كي تجدوا الفقراء والمفتقرين إِلى الحبّ، ففي كلِّ أُسرةٍ في جواركم، ثمَّة من يتأَلَّم.

"لقد لحظتُ، في الدول الغنيَّة، جوعًا إِلى الحبّ مريعًا. وحيثما مضيتُ، أَصطدم بالعزلة، وبالشعور الرهيب بالافتقار إِلى الحبّ، وباللاّمبالاة العامَّة. إِنّه لمرضٌ مخيفٌ، أَشدّ خطرًا من السلِّ أَو البرَص... وكم تبيَّنتُ كثرة الذين يتلهَّفون إِلى لمسة يدٍ صديقةٍ، أَو إِلى سماع نبرة ودٍّ في صوتٍ إِنسانيٍّ... الفقر الأَكبر يقبع في القلوب".

وفي تحليلٍ لهذه الآفة، ترى الأُمُّ أَنَّها ناجمةٌ عن تفتُّت خليّة الأُسرة، والانسياق المحموم في تيّار المجتمع الاستهلاكيّ، كما يتّضح من قولها: **"الحبُّ يولد ويعيش في الأُسرة؛ وغيابُ هذا الحبّ عن الأُسَر يولِّد، لعالَم اليوم، الأَلَم والشقاء. الجميع يبدون مستعجلين، ويسعون كالمجانين خلف التقدُّم الماديّ والثراء، ولم يعد لديهم فسحةُ وقتٍ ليتعايش بعضُهم مع بعضٍ، تعايُشًا لائقًا. لم يعد يتَّسع وقت الأَبناء للاهتمام بوالديهم، ولا وقت الوالدين للاهتمام بأَبنائهم، ولا بأَنفسهم. وبالتالي، فإنّ انهيار سلام العالَم ينشأ من انهيار الأُسرة".**

وفضلاً عن هذين العاملَيْن ترى الأُمُّ للفقر الروحيِّ سببًا آخر، متمثِّلاً في فقدان الإِيمان، وتؤكِّد، في هذا السياق: **"في معزلٍ عن الله، نحن بشرٌ عاجزون عن إِعطاء أَيِّ شيءٍ سوى الأَلَم والوجع".**

وقد أَسَّست مرسلات المحبَّة، في الغرب، مئات المراكز، لمواجهة هـذه الآفـة الروحيّة المريعة، بمبادراتٍ قد تبدو صغيرةً، ولكنّها مُشبَعةٌ حبًّا وتضحيةً.

وعندما تقارن الأُمُّ بين الشمال والجنوب، بين الدوَل الغنيَّة، والدوَل الفقيـرة، لا تتهيَّب من إِبراز "الغنى الداخلي" الذي تكتشفه لدى فقراء العالَم الثالث الذين عايشتهم، وفرح الحياة المتدفّق منهم، وروح التعاضد والسخاء الذي يحدوهم؛ وهي تكتشف في جميع الفقراء، أَيًّا كان نَمَطُ فقرهم، جوهرةً ثمينةً، وصورةً للمسيح تجعلهم عظيمـي الشأن، جديرين بالحبّ. وقد أَعلنت، يومَ تسلُّمها جائزة نوبل للسَّلام: "**كـم الفقـراء عظماء! إِنّهم ليسوا بحاجةٍ إِلى شفقتنا ورثائنا، بل إِنّهم يستحقّون حبّنا**".

مصيرنا مرتبطٌ بموقفنا منهم. فنحن "**سنُدان وفقًا لتعاملنا مع الجياع والمرضى، وغير المرغوب فيهم، ووفقًا للحبِّ الذي سنبرهن لهم عنه. إِنّهم رجاؤنـا، وأَمـل خلاصنا، وعلينا أَن نمضي إِليهم، ونعامل كلاًّ منهم، كما لو كنّا نعامل يسوع نفسه؛ أَيًّا كانوا، وحيثما وجدوا، علينا أَن ننظر إِليهم نظرتنا إِلى المسيح**".

إِفاضة الحبّ، هذا ما توخّت الأُمُّ تيريزا أَن تتميّز به جمعيَّةُ مُرسلات المحبّـة، بدليل قولها: "**كثيرةٌ هي المؤسَّسات التي تُعنى بالفقراء، ولن نكون إِحداها. فـنحن لسنا مجرَّد مؤسَّسةِ عونٍ اجتماعيّ، بل علينا أَن نكون أكثر من ذلـك، وأَن نَهَـب أكثر، أَن نهب ذواتنا، وأَن نهب الله من خلال خدمتنا**".

وكانت الأُمُّ قد رسمت هدفها، متمنِّيةً أَن تتبنّاه كلُّ واحدةٍ من أَخواتها، بقولهـا: "**ينبغي أَلاّ يبتعد أَحدٌ عنّي، إِلاّ وهو يشعر أَنّه بات أَفضل حالاً، وأَوفر سعادةً. علـيّ أَن أُشعّ طيبة الله بين المرضى، وأَن أكون، أَبدًا، جاهزةً للابتسام للأَطفـال الـذين أَستقبلهم، وللمحرومين، ولكلِّ من أُحبّ وأَخدم، ولمن أَعيش بين ظهرانيهم. ولـن أكون قد أَعطيتُ سوى اليسير إِن أَنا اقتصرتُ على توزيع الأَطعمة والعقاقير، ولـم أَهب قلبي**".

ومع كلِّ ما أَعطت، لم تزعم الأُمُّ، يومًا، أَنَّ لها على فقيرٍ منّةً أَو فضلاً، فالمال من الله يأتي وإِلى إِخوته يُعطى؛ وهي بفضل بذل ذاتها في خدمة الفقراء، تظلُّ على اتّصالٍ محيٍ، ومُغْنٍ، ومثيرٍ، بيسوع الذي على حبّه وقفت وجودَهـا، ومـن خـلال مخايل الفقير رأته. ومن ثمَّ كانت أَبدًا شديدة الامتنان للفقراء، والتقدير لهم. وما أكثر

ما أَشادت بروعتهم وبأَفضالهم، موقنةً أَنَّها تتبادَل معهم العطاء، لأَنّها تتلقّى منهم الحبَّ، والفرحَ، ولمس الله فيهم:

"إذا ما تأَمَّلنا الفقراء، أَدركنا أَنَّهم خيرُ المعلِّمين لنا، وهم يُشرِّفوننا عندما يُتيحون لنا أَن نخدمهم. إِنَّنا نساعدهم على الانعتاق من الشقاء، ولكنّهم، هم، يقدّمون لنا ما هو أكثر من ذلك، إِذ يلقّنوننا أُسلوب عيشٍ مختلفٍ، يتمثّل في استخدام الأَشياء من غير أَن نكون لها سجناء.

"الفقراء يعلّموننا الكثير بواسطة فقرهم؛ يعلّموننا التسلُّحَ بالثقة والصبر في المحن. إِنّ خدمتنا لهم امتيازٌ حقيقيٌّ لنا. بغَوْثنا إِيَّاهم، وهم صورة المسيح المتألّم، يسعنا لمس يسوع نفسه، المتأَلِّم في إِخوته. ولكن لكي نقوى على خدمة الفقراء بجدوى، ينبغي أَن نفهمهم؛ ولكي نفقه معنى الفقر، علينا اقتسامه. بعملنا معهم سنتمكَّن من التمثُّل ببؤسهم خير تمثُّلٍ، وعلى أَخواتنا أَن يشعرنَ بمحاكاتهنَّ لهم في الحرمان أَمامَ الله، واختبار معنى العيش في معزلٍ عن أَيِّ ضمانٍ، والاعتماد على الله بشأن الغد.

"إِنَّنا مديناتٌ للفقراء، لأَنَّهم، بإِيمانهم، وتسليمهم، وصبرهم في المعاناة، يلقِّنوننا أَعظم درسٍ. وينبغي أَن نكون لهم شديدات الامتنان، لأَنّهم يتيحون لنا لمس المسيح.

"إِنّنا نتلقّى كلَّ شيءٍ مجّانًا، ومجَّانًا نعطي كلَّ شيءٍ حبًّا بالله، وقومُنا، الفقراء، ممتلؤون عظمةً، وهم يعطوننا أكثر ممّا نعطيهم، ويوفّرون لنا فرحًا أكبر بمجرَّد قبولهم القليل الذي نوفِّره لهم.

"ولقد ساعدَنا الفقراءُ على اكتشاف معنى حبِّ الله وخدمته، وذلك لن نكتشفه وندركه على نحوٍ كاملٍ إِلاّ في السماء، ففي السماء فقط سندرك ما نحن مدينون به للفقراء، إِذ إِنَّنا، بسببهم، استطعنا أَن نحبّ الله أكثر".

"ليس الجمال في الفقر، بل في الشجاعة التي يبرهن عليها الفقراء، بابتسامهم، وبتشبُّثهم بالرجاء رغم كلِّ شيءٍ. أَنا لستُ معجبةً بالجوع، والرطوبة والبرد، بل بالقدرة على مواجهتها بالبسمة، وبالرغبة في الحياة. إِنَّني معجبةٌ بحبّ الفقراء للحياة، وبطاقتهم على اكتشاف الغنى في أَصغر الأَشياء. ففي حين يَتَمَتَّع

أَفقر الفقراء بالحرِّيَّة، نُصدّع رؤوسَنا بحثًا عن المال. الفقراء هـم أَعظـم ثـروةٍ بشريّةٍ في هذا العالَم، ومع ذلك نحن نزدريهم، ونعاملهم وكأَنّهم نفاياتٌ".

ولا ريبَ أَنَّ شبَكة الخدمة التي نسجتها مُرسَلات المحبَّة حولَ العـالَم؛ بهـدَف مساعدة الفقراء تقتضي إِنفاق أَموالٍ طائلة؛ فهنَّ يُطعمـنَ، يوميًّـا، أُلـوفَ الأَفـواه الجائعة، ويعالجنَ عشرات أُلوف البُرْص، فضلاً عن عنايتهنَّ بأَعـداد غفيـرةٍ مـن المحتضرين والمهمَلين في كلِّ مكانٍ، ومن الأَطفال الذين لم يعرفوا، قطٌّ، بيتًا سـوى "شيشوبهاڤـان"، ولا أُمَّهاتٍ سوى مُرسلات المحبَّة. هذا، بالإِضافة إِلى نحو خمـسة آلاف مرسَلةٍ ومُرسَلٍ، في ستّ مئةٍ وستّين مركزًا مبثوثة في العالَم، تَستَلْزِم، مهمـا قتَّرت نفقاتها، فيضاً من الأَموال. ومن أَين لهنَّ ذلك، وهنَّ قد نذرنَ فقـرًا مُطلَقـا لا يحدْنَ عنه، ولا يقبلنَ، بشأنه، مُسَاومةً أَو تنازُلاً؟

لقد شُبِّهت الأُمّ تيريزا بالملك ميداس الذي يُحوِّل إِلى ذهبٍ كلّ ما يلمسه، فحيثُما هي ذهبت تدفَّقت عليها الشيكات والهبات النقديَّة التي مكَّنَتْهَا من إِنشاء مراكز جديدةٍ تجاوز عددُها، أَحيانًا، ستّةً وعشرين مركزًا في السنة الواحدة، ومن إِعالـة مئـات المراكز الأُخرى القائمة، ومن غَوْث مئات أُلوف المحتاجين.

ولا ننسَ شبكة المتعاونين مع مرسلات المحبَّة، في العالم أَجمع، التي تؤَمِّن لهنَّ مبالغ جزيلةً تُمكِّنهنَّ من المضيِّ في أَعمال غَوْثٍ من كلِّ نوعٍ. هـذه المبـالغ هـي حصيلة تبرُّعاتٍ يوميَّةٍ، تلقائيَّةٍ، يُلهمها، ويستدرُّها مثالُ مُرسَلات المحبّة، في البـذْل بلا حسابٍ، وفقرهنَّ المدهش. فلو خامرَ المتبرِّعين، لحظةً، أَنَّ ما يجودون به يُنفَـق في غير وجوه العطف على المتألِّمين، وإِغاثة الملهوفين والمحتاجين، أَو أَنَّ جـزءًا، ولو طفيفًا، منه يُستخدَم في رفاه المُرسلات لتوقَّف العطاء، ونَضَب السخاء.

وخيرُ مثالٍ على تقشُّف المرسلات، المكتب الإِداريُّ الضنْك، في المركـز الأُمّ، الـذي تُدار منه شؤون الجمعيّة العالميَّة التفرُّعات، والذي يُصار إِليه عبر ممرّاتٍ مضاءَةٍ بمصابيح كهربائيّةٍ نائسة، شحيحة النور، تقتيرًا في النفقات، وحيثُ تعمل ثلاث أَخواتٍ، مُـستخدِماتٍ ثلاث آلاتٍ كاتبةٍ باليةٍ، مغرقةٍ في العتق، بواسطتها يوثِّقنَ علاقاتٍ مع أَكثر من مئة بلدٍ فـي العالَم، وفي تقشُّفٍ مطلقٍ يستبعد أَدنى وسائل الرفاه، وجميـع الأَجهـزة الحديثـة، حتّـى الضروريّ منها؛ وكان الهاتف هو التنازل الوحيد الذي أَقدمت عليه الأُمُّ، بعد لأيٍ.

لقد ضمنت الأُمُّ، أَبدًا، للمتبرِّعين، إِنفاق كلِّ فلسٍ واحدٍ في المشروع المخصَّص له، ولكنَّها أَبت تقديم كشوف حساباتٍ مفصَّلةٍ، لأَنَّ ذلكَ العمل، ولا سيّمَا بعد اتِّساع رقعة مشاريع الجمعيَّة وتشعُّبها، يقتضي من عددٍ من الأَخوات وقف ساعاتٍ طويلةٍ من وقتهنَّ على إِنجازه، في حين أَنَّ هذا الوقت مكرَّسٌ للفقراء والمحتاجين. وقد وثق المتبرِّعون بصدق الأُمّ، وبزُهدها، وزُهد أَخواتها في المال، فأَجزلوا لهنّ العطاء.

وهكذا، استطاعت مئات مراكز مرسَلات المحبَّة المُضيَّ قُدُمًا في توفير مساعداتٍ مطَّردةٍ بلا انقطاعٍ، وتلالٍ من الأَغذية، وعشرات أُلوف الأَغطية والأَلبسة، وأَطنانٍ من الأَدوية، يتولّى أُلوف المتعاونين في العالَم جمعَها، وتعبئتها، وشحنها إِلى حيثُ تُشير الأُمُّ إِلى أَنَّ، ثمَّة، حاجةً ملحَّةً إِليها.

ولم تُغْفِل الأُمُّ، يومًا، التعبير للمتبرِّعين عن تقديرها وشكرِها، عبر رسائل موجزةٍ، صادقةٍ، نابضةٍ حبًّا، واندفاعًا وامتنانًا تُبقي جُذوة الإِيثار مُتَّقدةً في صدور أُولئك الذين يرغبون، هم، أَيضاً، في الإسهام بعملها، وسكب، ولو بضع قطرات ماءٍ، في محيط الحبّ الذي تغمر به العالَم.

وكانت الهباتُ التي تقدِّرها تقديرًا خاصًّا، وتحرص على أَلاَّ تهدر منها فلسًا واحدًا، تلك التي تدعوها "مال التضحية"، التي يجود بها قومٌ غير ميسورين، يقتّرونها من طعامهم ومن أَحلامهم، كي يقدِّموها لمن هم أَشدُّ فقرًا. قد يصومون، في سبيل توفيرها، عن وجبات طعامٍ، أَو يستغنون عن أَلبسةٍ تروقهم، مستعينين عنها بأُخرى رخيصة الثمن، أَو يصدفون عن احتفال عرسٍ يوفّرون نفقاته لمساعدة المحتاجين.

ذاتَ يومٍ، التقت الأُمُّ في ردهة استقبال المركز الرئيسي شخصَيْن سويسريَّيْن كانت تتجلّى عليهما أَمارات البحبوحة، وشابًّا بنغاليًّا يناهز الثامنة عشرة من عمره. أَحدُ السويسريَّيْن كان مدير مصرف أَعلن أَنّه دائبٌ على التبرُّع بمبالغ جزيلةٍ لمشاريع الأُمِّ تيريزا، منذ سنواتٍ طويلةٍ، فقالت له: "الحمد لله"؛ وصرَّح الآخر، وكان مدير سلسلة مخازن كبرى، أَنَّ شركته تتبرّعَ بواحدٍ بالمئة من أَرباحها للمشاريع الخيريَّة، واستوضح هل بوسعه مساعدة مشاريع الأُمِّ، فأَعلمته أَنَّ جمعيَّتها افتتحت، حديثًا، مركزًا في رومانيا، حيثُ كثيرون يعيشون في فقرٍ مدقعٍ، ويعانون البرْد، وهم

في حاجةٍ حارقةٍ إِلى الأَطعمة، والأَلبسة، والأَغطية، التي أَوعزت إِليه بإِرسالها إِلى أَخواتها هناك، لتوزيعها على المحتاجين.

وجاءَ دور الشاب البنغاليّ الذي بدا مرتبكًا، متلعثِمًا، فهدَّأَت الأُمُّ من روعه، إِلى أَن استطاع الاعتراف بأَنَّه، في ذلك اليوم، قد تسلّم راتبه الأَوَّل، وقدره ستّ مئة روبيّةٍ، وقد قرَّر توزيعه على الفقراء، فأَشارت إِليه والدته بتقديمه للأُمِّ تيريزا، فهي أكثر درايةً بالمعوزين. قال ذلك، وجثا، فوضع الظَّرف عند قدمي الأُمّ تيريزا التي سارعت إِلى إِنهاضه، ومباركته، وقد أَخذ منها التأَثُّر كلَّ مأخذٍ، فذلك المبلغ الزهيد كان يعادل، لديها، تضحياتٍ جسامًا تحمَّلها الشابُّ وذووه، سنواتٍ طويلةٍ، وكان لديها أَغلى من كلِّ أَموال مدير المصرف، ومدير المخازن الكبرى.

ومع كلِّ حاجةِ الأُمّ اللازبة إِلى المال، لم تسعَ إِليه، ولم تستجدِه، بل أَهابت، أَبدًا، بالمتبرِّعين أَن يولوا الحبَّ الأَولويَّة على العطاء المادِّيّ؛ وما أكثر ما ردّدت مثل هذا القول: "**ليست هبات المال هي التي يتوجَّب علينا استدرارُها، بل هبات الحبِّ... نحن لا ننظِّم جبايةً، ولا نستجدي الناسَ مالاً، بل نودُّ أَن نوفّر لهم سانحةً لمحبَّة الآخرين، هذه فرصةٌ لهم. إِنّني أُوثر أَن يهب الناس أَيديهم للخدمة، وقلوبهم للحبّ...**".

مَن، سوى الأُمّ تيريزا، يتوجَّه إِلى المتبرِّعين بمثل هذا القول: "**أَودُّ أَلاّ تهبوا من فائضكم، فإِنّي آبى أَن أكون ذريعةً لطمأنة ضمائركم، بل أُريد أَن تعطوا ما هو غالٍ عليكم، وأَن تحدوكم الرغبة في مقاسمة الفقراء فقرَهم وآلامهم**"؟

وقد حَرصت الأمُّ على التحرُّر من همِّ المال. ولطالما أَكّدت أَنَّ تَوفُّره لم يكن، قطُّ، لها مبعث قَلَقٍ، فالعَمل الذي تنهض به هو عمل الله، فإِن هو شاءَ نجاحه وفَّر له أَسبابَ النجاح، وإِن هو حجب عن مشروعٍ ما تلك الأَسباب، استدلَّت أَنَّ الربّ غير راغبٍ فيه، فصدفت عنه غيرَ نادمةٍ ولا مُحبَطة.

لقد آمنت الأُمُّ، حرفيًّا، بقول يسوع أَنَّ الأَبَ السماويّ، الذي لا تسقط شعرةٌ من رؤوسنا إِلاّ بمعرفته، والذي يُطعم طيور السماء، ويكسو زنابقَ الحقل، لن يضنَّ بطعامٍ ولباسٍ على الواضعين كلَّ ثقتهم فيه. ومتسلِّحةً بهذا الإِيمان أَبت، بعنادٍ، أَن يتحوَّلَ عملُها إِلى مشروعٍ تجاريٍّ أَو استثماريٍّ، بلْ حرصتْ على أَن يظلَّ عملَ

محبَّةٍ صرفٍ، ولم تنِ تُذكِّر أَخواتها: "**صدِّقْنَ قولَ الربّ، حرفيًّا، انشُدْنَ، أَوّلاً، ملكوت الله، وستُعطَيْن كلّ شيءٍ آخر، علاوةً**".

ولطالما أكَّدت، في هذا السياق: "الربّ يعلم، دائمًا، ما نفتقر إِليه، ويوفِّره لنا في الوقت المناسب، وسيظلُّ يوفِّره لنا دائمًا. مع أَنّنا لا نَتَمَتَّع بأَيّ دخلٍ مادِّيٍّ منتظمٍ، ولا بأَيَّة مساعدة، أَو أَيَّة حمايةٍ اجتماعيَّةٍ، ولا بأَيّة مساندةٍ ماليَّةٍ من قبل الإِكليروس، لم نجد، قطُّ، أَنفسَنا مُضطَرَّاتٍ إِلى صدِّ أَيِّ كان لافتقارنا إِلى الوسائل... إِنّني أَقبل كلّ ما أُعطى من أَجل الفقراء؛ أَنا، شخصيًّا، لستُ في حاجةٍ إِلى شيءٍ، ولكنَّني لا أَرفضُ ما يُقدَّم لي من أَجل الآخرين، بل أَتقبَّل كلّ شيءٍ".

إِلاّ أَنَّها، أَحيانًا، ترفض. ترفض دعمًا حكوميًّا أَو كنسيًّا من شأنه أَن ينال، يومًا، من حُرِّيَّتها، فيدفعها إِلى فعلٍ ما لا تُطيق، أَو يحول دون فعلها ما هي مؤمنةٌ به؛ وترفض هباتٍ قيِّمةً إِذا ما وجدتْها غير متلائمةٍ وروح رسالتها. ففي عام ١٩٨٥، كان عدد المبتدئات، في كلكتّا، قد تكاثر بحيثُ ضاق بهنَّ المركز الأُمُّ، والمركز الآخر في بارك ستريت. واضطُرَّت الحديثاتُ السنِّ منهنَّ إِلى الرقاد على حُصُرٍ، على الحضيض، الواحدة بجانب الأُخرى، من جرَّاء الافتقار إِلى فسحةٍ للأسرَّة. وفي تلك الأَثناء، عرضت امرأَةٌ ميسورةٌ وهبهنّ بيتًا جميلاً، في الجوار، كان موقعه ملائمًا جدًّا. ولكنَّ الأمَّ وجدت أَنَّ ضخامة بناء البيت، وموقعه المتميِّز، لا يتوافقان مع تثقيف فتياتٍ سيتعيَّن عليهنّ قضاء حياتهنَّ مع الفقراء، في أَماكن زريّةٍ. فرفضت تلك الهبة؛ ولمَّا اعترض البعضُ، بأَنّه كان حريًّا بها أَخذ البيت، وبيعه، وشراء مكانٍ آخر مناسبٍ، بثَمنه، أَجابت أَنَّ من شأن ذلك إِحزان المالكة التي كانت راغبةً في رؤية بيتها يتحوّل إِلى مركزٍ لمرسلات المحبَّة، وأَضافت: "**إِن وجدنا أَنّ هبةً ما لا تناسبنا، نرفضها، بكلِّ بساطةٍ، وعندما سنحتاج إِلى شيءٍ، سيتدبَّر الله أَمره**".

وقد رفضت الأُمُّ عرض رجلٍ ثريٍّ بفتح حسابٍ مصرفيٍّ لها، بمبلغٍ طائلٍ، على أَن تنفق من فوائده، ولا تمسَّ أَصل الرأسمال، فردَّت العرض قائلةً: "**وما نفع ذلك المال، إِن كنتُ عاجزةً عن استخدامه في الوقت المناسب، حيثُ تستدعي الحاجة؟ إِنّي آبى أَن تتحوّل مهمَّتنا إِلى مشروعٍ ماليٍّ، بل عليها أَن تبقى عمل حبٍّ**".

ثقتها بأَنَّ الله يتدبَّر كلّ شيءٍ، ثقةٌ لا تتزعزع، وهي تعلن، بهذا الشأن: "**المال؟ لا أُفكِّر به أَبدًا، فهو يصل دائمًا. نحن ننهض بمهمّاتنا إِكرامًا للرَّبّ، وعليه أَن يسهر علينا**"؛ "**لستُ أُريد أَيَّ ضمانٍ مادّيٍّ للأَخوات، لا نبتغي حسابًا مصرفيًّا، ولا وسيلةً مضمونةً للعيش، بل علينا أَن نمضي قُدُمًا مُسلَّحاتٍ بثقتنا في العناية الإِلهيَّة فحسب. الخطر الأَدهى الذي يتربَّص بنا هو أَن نغتني**"؛ "**ليس لدينا أَيُّ دعمٍ حكوميٍّ ثابتٍ، ولا أَيّ دخلٍ خاصٍّ، ولا نملك سوى الضّمان الناجم عن الثقة بالله، فهو يُعنى بالزهور، والطيور، والأَشجار والعالم أَجمع، وسيُعنى، أَيضاً، بفقرائنا**".

هذه الثقة المطلقة بالعناية الإِلهيَّة، وطَّدتها خبرةٌ طويلةٌ؛ فما أكثر الأَحداث التي، على مدى السنين، أَثبتت لها أَنَّ الربّ ساهرٌ عليها وعلى أَخواتها، وعلى مشاريعهنّ، وأَنَّه لا يتوانى عن التدخُّل، عند الاقتضاء، تدخُّلاً مدهشًا يفوق كلَّ توقُّعاتهنَّ، مُرسِّخًا ثقتهنَّ فيه.

وكم أَشادت الأُمُّ بذلك السهر الإِلهيّ، بامتنانٍ وشكرٍ، على حدّ قولها: "**صحيحٌ أَنَّه لا فائض لدينا، ولكن لم نفتقر، قطُّ، إِلى الضروريّ، فالهبات تصل، أَحيانًا، على نحوٍ غير متوقَّعٍ، بل مُعْجِزٍ أَحيانًا. فكثيرًا ما نستيقظ، ونحن مفتقراتٌ إِلى كلِّ شيءٍ، لا نملك سوى قلَقٍ عجزنا عن خدمة الفقراء؛ ولكن، في الساعات التالية تأتينا مؤوناتٌ غير متوقَّعة، من محسنين مُغْفَلين، من حيثُ لا ندري، من أَشخاصٍ ينتمون إِلى شتّى الديانات، أَو، ربّما، لا ديانةَ لهم، من أَغنياء وفقراء**".

وقد سُئِلت الأمُّ، يومًا، هل هي كانت شاهدةً على معجزاتٍ، فأَجابت أَن لا يومَ يمرُّ لا تشهد فيه معجزات العناية الإِلهيَّة، ولفتات الربّ الرقيقة المدهشة المعبِّرة عن حبِّه وحنانه.

وليس كاقتران جسامة العمل الذي نهضت به مرسلات المحبّة، بانعدام مواردهنّ الخاصَّة الثابتة، واعتمادهنَّ، في كلّ لحظةٍ، على سخاء الله عبر محبّيه، دليلاً لا يدع للرّيبة مكانًا، على أنّ العمل هو عمل الربّ.

كان غاندي قد كتب: "**الامتلاكُ ينطوي على رغبةٍ في التحوُّط للمستقبل. أَمّا الباحث عن الحقيقة، المطيعُ لشريعة الحبِّ، فلا يسعه ابتغاء الاحتفاظ بشيءٍ، اتِّقاءً**

لغائلات الغد. إنّ الله لا يصنع مؤونةً للغد، ولا يخلق أكثر ممّا هو ضروريٌّ لفترةٍ محدَّدةٍ. فإن نحن آمنّا بعنايته، وثقنا من أنّه سيهبنا، كلَّ يومٍ، خبزنا، أي كلَّ ما نحتاج إليه. إنَّ القدّيسين والأَبرار الذين حدا حياتَهم هذا الإيمانُ، تَبيّنوا، دائمًا، أَنَّ التجربة قد نهضت مصداقًا لذلك الإيمان وتبريرًا له. إنّ جهل أَو تجاهل هذه الشريعة الإِلهيَّة التي تمنح الإِنسان، كلَّ يومٍ، خبزَه لا أكثر، هما اللذان أَفضيا إِلى خلق جميع صنوف اللاّمبالاة، وجميع مواكب الشقاء التي تجرُّها. إنَّ الغنيَّ يمتلك الكثير من الأَشياء النافلة التي لا يحتاج إِليها، والتي، بالتالي تُهْمَل وتُهْدَر، في حين يَنفُق ملايين الناس جوعًا لافتقارهم إِلى ما يطعمون، فلو لم يحتفظ كلّ امرئٍ إلاّ بما يحتاج إِليه، لما افتقر أَحدٌ إِلى شيءٍ، ولاكتفى كلُّ امرئٍ بما يملك".

هذا النصُّ كان من شأن الأُمّ تيريزا أَن تكتبه، حرفيًّا، ومن المحقَّق أَنّها عاشته، وأَخواتها، بحذافيره، باستغنائهنّ عن كلِّ نافلٍ، بل عن الضروريّ أَحيانًا، وباتِّكالهنّ المطلق على العناية الإِلهيَّة.

حلمان بشريَّان كبيران وُلدا على أَرضٍ واحدةٍ، فلِتيريزا وغاندي رؤيةٌ أَساسيّةٌ واحدةٌ للشرِّ الجوهريّ الذي تنبع منه كلُّ المظالم. كلاهما آمَنَ أَنّ القضاء، في قلب الإِنسان، على روح الامتلاك، ينطوي على الحلّ الوحيد الكفيل بتحرير الإِنسانيَّة من دائرة الجَوْر واللاّمساواة. كلاهما آمن أَن لا سبيلَ إِلى الكفاح، في هذا المضمار، من غير الاعتماد على الثقة بالله، فألقيا بنفسَيْهما بين يدي الغد، كما يقذف الإِنسان نفسَه في الفراغ.

وعندما قرَّرت الأُمُّ، عام ١٩٨٧، افتتاح فرعٍ للمرسلات المتأمِّلات في كلكتَّا، لإيمانها بأَنّ صلوات المتأمِّلات من شأنها استمطار البركات على مراكز الأَخوات العاملات، فوجئت برجلٍ بنغاليٍّ، غير مسيحيٍّ، يهبها بيتًا على بعد ثلاثين كيلومترًا من المدينة؛ فهو، أَيضاً، كان يؤمن بنِعَم الصلاة، ويعرف أَنَّ المُرسَلات يُصلّينَ كثيرًا،فرغب في أَن يكون بيتُه موئلاً لصلواتهنّ.

معتمدةً على الثقة بالعناية الإِلهيّة، أَقدمت الأُمّ عَلَى أَجرأ المشاريع، وهي لا تملك، لتحقيقها، سوى الرغبة في الخدمة، فإِذا بالوسائل تتوفّر تلقائيًّا. وكانت على سفرٍ دائمٍ في سبيل إِنشاء المراكز، وترسيخها، وتفقُّدها، وكلُّ زادها قِمَطْرٌ بالٍ من

القماش ينطَوي على جواز سفرٍ عتيقٍ، وبضع إِيقونات ومسابح، ولم تحتجْ، يومًا، إِلى شيءٍ آخر؛ وعملاً بنصيحة يسوع لم تكن تحمل للطَّريق شيئًا، لا مِزْوَدًا، ولا خبزًا، ولا فضَّةً. وقد اتَّفق أَن عرضت مؤسَّسةٌ مصرفيَّةٌ تزويدها بالشيكات السياحيّة لأَسفارها، فقيل لها: "**إِنَّ الأُمّ تسافر بلا مالٍ، ولا شيكات، ولا نقود. فأَصدقاؤها والمتعاونون معها يقتادونها من المطار، ويتعهَّدون بكلِّ نفقاتها، فلا تحتاج إِلى حمل أَيِّ مالٍ**". وما الأَصدقاء والمتعاونون سوى ممثِّلين للعناية الإِلهيّة.

وظلَّ سيلُ الهبات يتدفَّق، وسيل عطاء الأُمِّ يغمر المسكونة. وبقدر ما كان بذلها يتعاظم، كان العطاء يزداد سخاءً، بحيثُ استطاعت الأُمّ أَن تعلن: "نحن لا نملك أَيَّ دخلٍ، ومع ذلك أَنا غارقةٌ تحت ركام من الأَشياء المحيقة بنا. إِنَّ المال يُرعبني أَكثر ممّا يؤَرِّقني، ولا سيَّمَا عندما يتدفَّق علينا بغَزارةٍ. ولكنَّه، بفضل الله، يتبدَّد بنفس الوتيرة". فحاجات المحرومين كثيرةٌ، والمالُ الذي يأتي يُنفَق في الحال.

ولا يقتصر فقر مرسلات المحبَّة على الزهد بالمال، وبكلّ ما من شأن المال توفيره من رفاهٍ ويُسرٍ، بل إِنَّ أَقسى ما فيه هو التضحيةُ التامَّة والأَبديَّة بالإِرادة الخاصّة، والجاهزيَّة الدائمة لتنفيذ ما تقتضيه الطاعة في كلّ آنٍ. والطاعة هي من خصال مُرسلات المحبَّة المميِّزة.

فهذه فتاةٌ تطلب الانضواء تحت لواء الجمعيَّة لإِشباع رغبتها في رعاية البُرْص؛ رغبةٌ، لا ريب، حميدةٌ. ولكنَّ الأُمَّ تيريزا تفسِّر لها أَنّها، لكي تكون مُرسَلة محبَّةٍ حقَّةً، عليها أَن تُغفِل رغباتها، ولا تَتَطَلَّع إِلاّ إِلى تنفيذ رغبات الربّ التي تتجلّى من خلال أَوامر رئيساتها. فارتضت بكلِّ المهامِّ الوضيعة التي كُلِّفت بها، وكانت العناية بالبُرْص إِحداها؛ ولكنَّها عادت لا تُؤْثِر مهمَّةً على أُخرى، فجميعها تنفيذٌ لمشيئة الله، ووسيلةٌ للمسه، والاندماج به.

وهذه فتاةٌ إِسبانيَّةٌ أَنهت دراستها الطبِّيَّة، وكانت كَلِفةً بمهنتها التي تأَهَّبت لها تأَهُّبًا جادًّا وجاهدًا، ولكنّها ما كادت تشرع بممارستها حتّى استولت عليها الدعوة إِلى الانضمام لمُرسلات المحبَّة. تلك الدعوة كانت تعني احتمال التخلّي عن المهنة التي أُولعت بها؛ وقد أُنذِرت، منذ شُخوصها إِلى الديْر، بأَنَّ شهاداتها الجامعيَّة لن توليها أَيّ امتيازٍ عن أَخواتها، وأَنّها، مع وجوب الإِفادة من مؤَهِّلاتها الطبِّيَّة، قد تُكلَّف بأَيَّة

مهمَّةٍ أُخرى تضطلع بها المرسلات. فارتضت الأَمر، واندفعت في إِطاعة الأَوامــر، مشيعةً الفرح فيما حولها؛ وفي الواقع، توفَّرت لها فُرَص ممارسة الطبِّ، في نطـاق الخدمة الرسوليَّة، أكثر ممَّا كان سيتوفَّر لها، في عيادتها الخاصَّــة، كـسبًا للعـيش، وطموحًا في المركز.

ولا تتخلّى المُرسَلَةُ عن إِرادتها الخاصَّة فحسب، بل إِنّها لا تعدُّ أَيَّ شيءٍ ملكًـا لها، حتّى وقتها ووجودها اللذَيْن باتا مرهونَيْن للخدمة؛ وهذا مـا عبَّـرت عنـه الأمُّ تيريزا في رسالةٍ إِلى صديقتها "جاكلين دي ديكير" قالت فيها: "**إِنني أَفتقر إلى وقـتٍ أَستطيع اعتباره خاصًّا لي**"، "**وقتي كلُّه في تصرُّف الآخرين**".

لا بل إِنّ مرسَلة المحبَّة تتخلّى عن ذويها، ولا تعود تـراهم إِلاّ فـي مناسـباتٍ نادرةٍ، فهي عندما تُبرز نذورَها تتَّخذ الفقراءَ أَهلاً لها، ويُمسي وجودُها كلُّـه وقفًـا عليهم.

ومن وجوه فقرهنَّ زُهدهنَّ حتّى بعملهنَّ ونتائجه: "**مهما كان عملك جمـيلاً، لا تتعلَّق به، وكن دائمًا متأَهِّبًا للتَّخلّي عنه، فما تفعله لا يخـصُّك. والمواهـب التـي خصَّك بها الله ليست ملكَك، بل إِنّك مُنِحتَها لكي تستخدمها لمجد الله**".

وزهْدنَ، أَيضاً، في جني ثمار جهدهنَّ، ووقفنَ موقفًا واحدًا من النجاح والفـشَل. فعليهنّ أَن ينهضْنَ بواجبهنَّ، ويدعنَ النتائج بين يدي الربّ. وقد بلوَر هذا الموقـفَ قولُ الأُمّ تيريزا المأْثور: "**لا يطلب الربّ منّي النجاح، بل يطلب الوفـاء فحـسب**". ولئن كان شفاء المريض هو مكافأة المداوي، إِلاَّ أَنَّ مكافأة المرسلات هي فـرحهنَّ بالانكباب على لمس يسوع في جسد كلِّ متأَلِّمٍ، وإِغداق عنـايتهنَّ وعطفهـنَّ عليـه، تحدوهنّ رغبةٌ صادقةٌ في شفائه، وإِزالة أَلمه؛ غير أَنَّ الشفاء يظلُّ شأْن الله وحـدَه، وحسبُهنَّ أَن يبذلنَ، في سبيله، ذواتهنَّ، وكنوز حبِّهنَّ.

وقد لخَّصت الأُمُّ تيريزا صوفيّة فقر جمعيَّتها بقولها:

« المسيحُ الذي، مع غناه، صار فقيرًا، وأَعطى كلَّ شيءٍ لأَجل فدائنا، يـدعونا إِلى الإسهام في فقره، لكي نغتني به؛

"الشهادة لوجه يسوع الحقيقيّ (الفقير المتواضع، صديق الفقراء والـضُّعفاء، والمُحتَقَرين) والشهادة لكنيسة الفقراء التي يترتَّب عليها تبشير الفقراء بالإِنجيـل،

سماعُ نداء الفقراء، الذي يُهيب بنا أَن نكفِّر عن أَنانيَّة الإِنسان وخطيئته، الناجمَتيْن عن جشعه الذي لا يرتوي إِلى الثروات المادِّيَّة وإِلى السلطان الـذي يدفعـه إِلـى اقتراف المظالم حيالَ الآخرين، ولا سيّمَا في حقبتنا.

"وجوابُنا على دعوة الله هذه هو نذرُنا الفقر، واختيارُنا حياةً فقيرةً في الواقـع وفي الروح، حياة شظَفٍ ودَأَبٍ، بعيدةً عن جميع الثروات المادِّيَّة.

"بهذا النذْر نتنازل لله، طوعًا، عن حقّنا الطبيعيّ، وعن حرِّيَّتنا في تقبُّل كلِّ مـا يتميَّز بقيمةٍ ماليَّةٍ، وفي التصرُّف به، وبالتالي، نحـن لا نحفـظ، ولا نُعطـي، ولا نُقْرِض، ولا نستقرض، أَبدًا، متاعًا ذا قيمةٍ ماليَّةٍ، من غير استئذان رئيستنا.

"وحيالَ الله، فقرنا هو أُسلوبنا المتواضع الذي به نعترف أَنّنا خطأةٌ، عاجزون، وعَدَمٌ، ونعترف بحاجتنا إِليه، حاجةً نعبِّر عنها برجائنا فيه، وبجاهزيَّتنا لتقبُّل كلّ ما يأتي به، وكأَنّه آتٍ من عند أَبٍ لنا.

"وعلى فقرنا أَن يحاكي فقر الإِنجيل الأَصيل، فيكون: وديعًا، رقيقًـا، سـعيدًا، منفتحًا، ومتأَهِّبًا دائمًا للعطاء، تعبيرًا عن الحبّ؛ فالفقر حبٌّ قبل أَن يكـون زُهْـدًا، ويقتضي التحرُّر من الأَنانيَّة؛ وإِنّنا نبتهج بفقرنا مع السيِّدة العذراء، التي أَعلنـت بكلِّ صدقٍ: "غمر الجياع بالخيرات، وصرف الأَغنياء فارغي الأَيدي".

ولا ريبَ أَنَّ الفتيات اللواتي انضمَمْنَ إِلى جمعيَّة مُرسلات المحبَّة، كان يحدوهنَّ اليقين بأَنَّهنَّ يحقِّقْنَ وجودهنّ بتقديمهنَّ كلَّ شـيءٍ لله، وبتخلّـيهنَّ عـن مركـزهنَّ، وأُسرتهنّ، ومستقبلهنَّ في العالم، وبتفانيهنَّ، جسدًا وروحًا، في خدمة أَفقر الفقـراء، وهنَّ مقتنعاتٌ بأَنَّ عطاءَهنَّ لن يكون، أَبدًا، كافيًا إِزاءَ ما مُيِّزْنَ به من دعوةٍ رائعةٍ.

ولا جَرَمَ أَنّ ممارسةَ الفقر الكامل، على هذا النحو، كلَّ يومٍ، وكلّ لحظةٍ، مـدى العمر كلِّه، ومقاوَمةَ إِغراءات المتعة واليُسر والامـتلاك، والقـدرةَ علـى العـيش باستمرارٍ في مستنقع الحرمان، والنبْذ، والأَلم، والمرَض، رغم كلّ بواعـث النفـور والإِحباط، أَمرٌ بالغ الصعوبة، يقتضي بطولةً من نمطٍ فريدٍ، وتمرُّسًا منيعًا، وسندًا لا قِبَل للبشر على توفيره.

فكيف تقوى مُرسلاتُ المحبّة على كلِّ ذلك؟ ذلكمُ هو سرُّهنَّ.

سرُّ الأُمّ تيريزا

بشريًّا يتعذَّر تفسير الأمّ تيريزا: هذا ما أَجمع عليه جميعُ من عرفوها، أَو اطَّلعوا على فعالها. فأَن يُنفقَ المرءُ عمرَه كلَّه في غوْث المحتاجين، ومعالجة المرضى، وغسل البرْصِ ومداواتهم، وتعزية المحتضرين ومؤاساتهم، وسط التأَوُّه، والأَنين، والروائح المقزِّزة؛ وأَن يكرِّر ذلك، كلَّ يومٍ، وكلَّ ساعةٍ، بل كلَّ دقيقةٍ، ليس فقط بلا تأَفُّفٍ، ولا تشكٍّ، ولا نَدَمٍ، بل بفيضٍ من الفرح والغبطة، فمثلُ ذلك لا قِبَل للطَّاقة البشريَّة على احتماله.

قد يكون المحتاج الذي يُخدَم عذبَ المعشر، عارفًا بالجميل، صموتًا، ومع ذلك، تستلزم خدمتُه قسطًا وافرًا من التضحية، وضبط النفس؛ ولكنَّه قد يكون أَحيانًا، عدوانيًّا، مشاكسًا، ناكرًا للجميل، سكّيراً، أَو مدمن مخدِّراتٍ، وأَمثال هؤُلاء كُثُرٌ، وحينئذٍ تغدو المثابرة على خدمتهم تتخطّى القدرات البشريَّة، بل تصبح ضربًا من المعجزة المستمرَّة.

وقد يُفلح في الدأَب على مثل تلك الخدمة فردٌ أُوتي مواهبَ استثنائيَّةً، ونعمةً سماويّةً خاصةً، أَمّا أَن تتَّخذه نهجَ حياةٍ آلافُ الفتيات، القادمات من مشارق الأَرض ومغاربها، متباينات المشارب، والتربية، والمؤهَّلات، ولكن مُجمِعاتٌ، رغم ذلك، على طقسٍ واحدٍ من الخدمة المجّانيَّة، المتواصلة بلا انقطاعٍ، فذلك لغز لا بُدَّ من استجلائه.

وتكفينا الأُمّ تيريزا مؤونةَ الاستغراق في البحث عن مظانّ ذلك السرّ، فهي غالبًا ما قالت لمُرشدها الروحيّ: "**قلْ لهم، للَّذين يسأَلون، وللَّذين يسمعون، للَّذين يعرفوننا والذين يجهلوننا، قلْ لهم أَيّة قوَّةٍ هي دافعنا، وهدفنا، ومحرّكنا: إِنّها يسوع. فكلُّ ما نفعل هو من أَجل يسوع**"، "**يسوع هو تفسير حياتنا**"، "**إن أَنتم نزعتم المسيح من حياتي، لتحوَّلت حياتي إِلى أَقلَّ من لا شيء**"، "**دعوتنا هي أَن نكون خاصَّة المسيح، وما عملُنا سوى وسيلةٍ لتحويل حبِّنا للرَّبِّ إِلى دليلٍ ملموسٍ. لقد بذل يسوع حياته حبًّا لنا، بموته على الصليب، وبتحويل ذاته إِلى خبز حياةٍ، وعلى هذا النحو نحن نريد أَن نجسِّد حبّنا له، بمحبَّتنا، وخدمتنا، ورعايتنا أَفقر الفقراء بحنانٍ... حياتُنا كلُّها، وحياة جمعيَّتنا، موجَّهتان نحو يسوع وخدمته، إِنّنا نعيش من أَجله لكي نخدمه، ونحبَّه، ساعياتٍ إِلى حمل الجميع على معرفته وحبّه... إِنّنا نعمل**

كلَّ شيءٍ بيسوع، ومع يسوع، لأَنّه، هو الذي يهبنا القوَّة والعزاء والفرح كي نعمل من أَجله. إنّه يسير معنا، ويقودنا، ويعلِّمنا، ونحن نفعل كلَّ شيءٍ من أَجله بخدمتنا إيّاه من خلال الفقراء، وبتعرُّفنا إيّاه في المحتاجين والمرضى، وبمؤاساتنا إيّاه في إخوتنا وأَخواتنا المتأَلِّمين".

إنَّ مُرسَلات المحبَّة مؤمناتٌ، إيمانًا راسخًا، بأَنَّهنَّ يُشاهدنَ يسوع شخصيًّا، ويلمسنَه لمسًا حسِّيًّا مُفْعَمًا خشوعًا وحبًّا، في أَجساد المتأَلِّمين والفُقَراء، والبُرْص، والمنبوذين، على نحو ما يلمسنَه في الإِفخارستيّا، بنفس الإِيمان، ونفس الشعور الملتهب.

والأَمثلة البليغة التعبير عن هذا الإيمان كثيرةٌ، نجتزئ منها بالمثالَيْن التاليَيْن، ترويهما الأُمّ تيريزا:

« أَنفذْتُ طالبةً، كانت من أُسرةٍ ميسورةٍ، وأَتمَّت دراساتٍ عليا، مع طائفةٍ من الأَخوات إلى "تيرمال هرايدي"؛ وقبل انطلاقهنَّ قلتُ لهنّ: "لقد لاحظتُنَّ بأَيِّ مقدارٍ من الحبّ والرقَّة يُعامل الكاهنُ جسدَ المسيح، أَثناءَ القدّاس. فاجهدْنَ في التمثُّل به أَثناء وجودكنَّ في منزل المحتضرين المُهملين، إذ إنَّ يسوع موجودٌ، أَيضاً، هناك تحت أَعراض الأَلم". ولمّا عُدْنَ، بعد ثلاث ساعاتٍ، جرت الفتاةُ الجامعيَّة إلى مكتبي، مشرقةَ المحيَّا، وهتفت: "أُمّاه، طوال ثلاث ساعاتٍ، لمستُ جسَد يسوع!" وسأَلتُها: "ماذا فعلتِ؟ ما الذي حدَثَ؟"، فأَجابت: "إثرَ وصولنا، جيءَ بمريضٍ التُقِط منْ الشارع، وكانت الديدان تغشى جسده؛ لم يكن الأَمر سهلاً عليَّ، ولكنَّني كنت موقنةً بأَنني أَلمس جسد المسيح".

"وذات يوم، عادت مجموعةٌ من المبتدئات من "تيرمال هرايدي"، حيثُ عُنينَ بمحتضرٍ لم يكن سوى هيكلٍ عظميٍّ؛ وكنَّ بالغات التأَثُّر؛ واستوضحتُهنَّ عن انطباعاتهنَّ، فأَجابت إحداهنّ، وكانت لسان حال جميعهنَّ: "أُمّاه، لم أَشعر، قطُّ، بحضور المسيح، مثلما شعرتُ به عندما لمستُ هذا المريض ».

وإذا ما ذكرنا أَنَّ الأُمَّ تيريزا وأَخواتها مفتوناتٌ بيسوع، عاشقاتٌ له، هائماتٌ به، كرَّسنَ له قلوبهنَّ وكلَّ حياتهنَّ، بلا تحفُّظٍ ولا رجعةٍ، لأَدركنا سرَّ اندفاعهنَّ في

خدمته، ومؤاساته، وتعزيته من خلال أَصغر إِخوته، وأَعمقهم حرمانًا، فالعاشق يفعل كلَّ شيءٍ، بحميَّةٍ، في سبيل من يحبّ.

ولم تُخْفِ الأُمُّ، يومًا، أَنّ يسوع هو حبُّها الأَوّل والأَخير، بل حبُّها الوحيد، فقد أَعلنت جهارًا: "**لستُ أَخشى القول إِنّني متيَّمةٌ بيسوع، فهو لي كلُّ شيءٍ**". وما مراكز العطف التي أَنشأتها، عبر العالَم، إلاّ الدليل على رغبتها في رعايته من خلال أكثر إِخوته تألُّمًا. أَولَم تعلن الأُمُّ، أَيضاً، "**إِنَّ عملنا، مهما بلغ من الجمال، وسيلةٌ لا غايةٌ. الجوهريُّ هو انتسابنا ليسوع. وما العمل الذي نحقِّقه سوى حبِّنا ليسوع مترجمًا إِلى عمل**".

إِنَّ تأمل الأُمّ تيريزا في معاناة يسوع، من جرّاء تجسُّده، يوري فيها حريقًا، فتستولي عليها رغبةٌ جامحةٌ في تلطيف تلك المعاناة، والتعويض عمَّا ناله من عقوق بني البشر ونكرانهم، كما يتَّضح من قولها: "**كلّما ابتغى يسوع أَن يبرهن لنا عن حبِّه، رذله البشر. فقبل ولادته، بحث والداه عن نزلٍ بسيط، ولكن لم يستقبلْهم أَيُّ نزلٍ، لأَنَّهم كانوا فقراء؛ وحينئذٍ، أَشرعت الأَرضُ المغذِّيةُ مغارتها، واستقبلت ابن الله. وكذلك، قبل الصلب والقيامة، رذله شعبُه، رفضه وآثر قيصر، نبذه وآثر باراباس، وفي نهاية الشوط، بدا وكأَنَّ أَباه رذله، لأَنَّه كان مُثقَلاً بخطايانا، وفي وحدته صاح: "إِلهي، إِلهي، لمَ تخلَّيتَ عنّي؟"**

"**وأَمسُ الله لا يختلف عن اليوم. ولذلك ما انفكّ يسوع يحمل خطايانا تحت ملامح أُختي وأَخي في الأَلَم. فهل أَنا أُريده؟ إِن لم نَتَدَرَّع بالحيطة لغدا فقهاءُ هذا العالم حاجزًا يحول بنا دون رؤية الله. لا ننسينَّ أَنّ يسوع قال: طوبى لأَنقياء القلوب، لأَنَّهم سيشاهدون الله**".

نقاء القلب هذا الذي تُغذّيه، وتوطِّده الحياةُ المكرَّسة، هو الذي يُمكّن المرسلات من لمس المسيح في أجساد المتأَلِّمين، فيوفِّرنَ السلام للمحتضرين، ويبلْسِمْنَ قروح البُرْص، ويحافظْنَ على قبس الحياة، في صدور الأَطفال المهجورين.

على نقيض العاملين في مجال الطبّ، والمساعدين الاجتماعيّين، الذين يعملون بدافعٍ مادِّيٍّ، أَو من أَجل هدفٍ إِنسانيٍّ، وفقًا للوائح وقوانين محدَّدةٍ، تعطف مُرسلات

المحبَّةَ على المعوزين والمتألِّمين، إكرامًا للألوهة الكامنة فيهم، وللتَّماثُل القائم بينهم وبين حبيبهنَّ يسوع، ولذلك يخدمنَه بكلِّ كيانهنّ، وكلِّ حبّهنَّ، بلا هوادةٍ ولا ملَلٍ.

إِنَّ الأُمَّ تيريزا وأَخواتها، في المقام الأَوَّل، متعبِّداتٌ متأمِّلاتٌ، ودعوتهنَّ راسيةٌ على واقع حضور الله في الإِنسان المتألِّم؛ ومن ثمَّ، عندما ينكببْنَ على خدمة من جرَّدهم الفقرُ والنبذُ والأَلَمُ حتّى من إِنسانيَّتهم، إِنّما يستغرقنَ في التملّي من حضور الله فيهم، بحيثُ يغدو عملهنَّ امتدادًا وتعميقًا لتعبُّدهنَّ، بل يغدو صلاةً متَّصلةً أَربعًا وعشرين ساعةً في الأَربع وعشرين ساعةً، سواءٌ هي ارتدت شكل تأَمُّلٍ أَو صورة خدمةٍ، خدمةٍ ترقى، رغم وضاعتها ورتابتها، إِلى ذُرى اللاّنهائيّ، وتتَّسم بصوفيَّةٍ ساميةٍ.

ولم تكفّ الأُمُّ تيريزا عن التأكيد أَنّ الشأن كلَّ الشأْن ليس لجسامة العمل وعظمته، بل لمقدار الحبّ الذي يُسكَب فيه.

وبالتالي لا يُقتضى من المُرْسلات مؤهِّلاتٌ فذَّةٌ، بل حسبهنَّ أَن يُحببْنَ يسوع، وكلَّ إِنسانٍ، بكلّ طاقاتهنَّ، وكلِّ قلوبهنَّ، وأَن يكنَّ متأَهّباتٍ للعطاء، في هذا السبيل، إِلى أَن يوجعهنّ العطاء، على حدّ قول أَمِّهنَّ، وقدوتهنّ، وملهمتهنَّ الأمّ تيريزا. ولا بدْعَ إِن اتَّصفت مُرسَلات المحبَّة بالبساطة والشفافية، وإِن تميَّزت روحانيَّتهنَّ بالصلابة، أكثر من تميّزها بالعمق.

هذا الإِيمان، وهذه الممارسة هما، في ذاتهما، معجزةٌ ومنبع معجزات تتجلّى في إِنجازات مُرسَلات المحبَّة المدهشة. وهما اللذان يدفعان بآلاف الفتيات إِلى بذل ذواتهنّ بالكامل من أَجل العناية بالجسد الجريح. فهذا الجسد عينه، وهذان الساعدان، وهاتان الساقان المعروقتان، وهذا الصدْر الذي يستنشق، بمشقّةٍ، نسمة الحياة، وهذه النظرة التي انطفأ منها كلُّ أَلَقٍ، هذه كلُّها عرشٌ حقيقيٌّ للحضرة الإِلهيّة. كيف لا، والمسيح الذي ارتدى جسدًا يُحاكي جسدَنا، قد شاء ذلك، والمسيحُ ما زال حيًّا، حاضرًا، فاعلاً في القربان، مثل حضوره في كلّ متألِّمٍ ومحتاجٍ.

وهذا ما يفسِّر استقبال مرسلات المحبَّة لكلّ قادمٍ مستغيثٍ، استقبالاً مجَّانيًّا، لا تحفُّظَ فيه ولا شرطَ، وسعيهنَّ إِلى إِغاثة كلّ ملهوفٍ، أَيًّا كَان، بلا حسابٍ ولا تمييزٍ.

يُرحّبنَ بكلّ محتاجٍ، ولا يتأَفَّفْنَ من استقبال الشخص عينه مرّاتٍ، فقد يوافيهنَّ أَحدهم منهارًا خائرَ القوى، فيستقبلنَه، ويُعالجنَه، وما إِن يستعيد بعضَ قواه، حتّى تستبدَّ به الرغبة في التسكُّع، فيغادرهنَّ، ثمّ، بعد فترة، قد تطول أَو تقصر، يؤوب وهو أَسوأُ حالاً ممّا كان، فيستقبلنَه بأَذرعٍ مُشرَعةٍ، وكأَنَّه يغشى مركزهنّ للمرَّة الأُولى، ويُعدِنَ الكرَّة من جديدٍ. وقد يكون ممّن يَسِمُهم المجتمع بالميؤوس منهم الذين لا خيرَ منهم يُرتجى، ولكن، في نظر مرسلات المحبَّة، ما من إِنسانٍ ميؤوسٍ منه، فكلُّ فردٍ، أَيَّةً كانت حاله، وحتّى الأَكثر مدعاةً لليأس، ينطوي على وعدٍ كمينٍ.

هذه النظرةُ إِلى كلِّ إِنسانٍ على أَنّه هيكل الله هي التي تحدِّد سُلَّم أَولويّات الأُمّ تيريزا التي قد تتعارض وأَولويّات الآخرين؛ فعملها لا يستهدف الجدوى، بالمعنى الاقتصاديّ، بل الشخص البشريَّ الذي تتوخّى إِبلاغه حبّ الله، ولو هي آثرت الجدوى على الحبّ، لأَغدقت العلاجَ على مَن شفاؤه مضمونٌ أَو مأمولٌ، وأَغفلت من لا رجاءَ في شفائه.

وهي لا تتساءَل عمّا يتوجّب على المجتمع والعالم فعله، وتقبع منتظرةً تَحَرُّكهمَا، بل إِنّها تُضفي على كلِّ معضلةٍ وجهًا إِنسانيًّا، وتواجه كلَّ متأَلِّمٍ أَو محتاجٍ بالحبّ قبل كلِّ شيءٍ، وتُسائل ذاتها عمَّا يقتضيه يسوعُ منها حياله، في الحَال، وتتفاعل، بصدقٍ مع جروحه.

وقد أَفضى ذلك إِلى اتّهامها من قِبَل من يُحمِّلون الآخرين أَحمالاً باهظةً، لا يمدّون يدًا لرفعها، بالتقصير في الخدمة الطبّيَّة، وبمعالجة المشكلات المستفحلة بالمسكّنات عوضاً عن السعي إِلى حلِّها جذريًّا، وهم لو لمحوا أَبرصَ منبوذًا، أَو مُدْنفًا بائسًا ملقًى على قارعة الطريق لفرّوا منهما، يسدّون آنافهم تقزُّزًا.

ومع ذلك، لا مناصَ من الإِقرار أَنّ الأُمَّ تيريزا، بأُسلوبها الذي يتوسَّم، قبلَ كلّ شيءٍ، وجه المسيح المتأَلّم في الإِنسان الجريح، وينحني عليه بالحبّ الصادق، والعطف الفاعل، أَصابت من الجدوى ما لم يُصبْه المنظِّرون، والمبشِّرون، وَالمُتَثَقِّفُونَ، وعلماء المجتمع، فقد أَعادت إِلى الحياة عشرات الأُلوف ممَّن كانوا متروكين لموتٍ مُحَتَّمٍ مهينٍ؛ وفضلاً عن ذلك، عبَّأَت الرأْي العامّ لصالح الفقراء والمنبوذين كما لم يُعبّئْه أَحدٌ سواها. وبفضلها أَمسى الفقراء ينعمون بمزيدٍ من

الاعتراف والمحبَّة والحماية؛ فتلك المرأة الضئيلة الطيْف قد أَيقظت ضميرًا جديدًا لدى جماهيرَ غفيرةٍ، ضميرًا كفيلاً بالتصدّي، بجدوى، لمظالم مجتمعنا. وهكذا، حتّى في مفهوم الجدوى، كان لعمل الأُمّ تيريزا مغزًى جسيمٌ، وبعدٌ سحيقٌ.

لقد صارح مسؤولٌ هنديٌّ مرسلاتِ المحبَّة قائلاً: "**أنتنَّ ونحن نسعى في سبيل نفس العمل الاجتماعيّ، ولكن بين عملكم وعملنا فرقٌ لا نقوى على تخطّيه، فنحن نعمل من أَجل "شيءٍ"، وأَنتنّ تعملنَ من أَجل "أَحدٍ"**"، ويسوع هو من عناه بلفظة "أَحدٍ".

من يعمل لقاء أَجرٍ يبذل أَقلَّ ما يستطيع من جهدٍ، أَمّا من يعمل في سبيل من يحبّ، فلا حدودَ لبذله. ولم تُخْفِ الأُمُّ تيريزا عن أَخواتها: "**ما لم يؤلمنا العمل، فهو مجرَّد عملٍ اجتماعيٍّ**". "**نحن، قبل كلّ شيءٍ، راهباتٌ، ولسنا مساعداتٍ اجتماعيَّاتٍ، ولا معلّماتٍ، ولا ممرِّضاتٍ ولا طبيباتٍ؛ إِنّنا نخدم يسوع في الفقراء، ونَعنى به، ونُلْبِسُه، ونزوره، ونعزّيه في الفقراء، والمُهملين، والمرضى، والأَيتام، والمحتضرين...**".

لقد آمنت الأُمّ تيريزا وأَخواتها أَنَّ ما دُعينَ إِليه هو رسالةٌ ساميةٌ، يستَرْخِصْنَ في سبيلها كلّ غالٍ: "**كما أَنَّ الآب أَرسل يسوع، أَرسلَنا، نحن أَيضاً، مفعماتٍ بروحه، كي نعلنَ، في العالم أجمع، لأَفقر الفقراء، إنجيل حبّه ورأفته. واجبنا الخاصّ هو إِعلان يسوع للأُمَم كلِّها، ولا سيّمَا لمن كُلِّفنا برعايتهم**".

الأَلَم شائعٌ على هذه البسيطة، والعالم جاهدٌ في شفائه، أَو، أَقلّه، التخفيف من وطأته؛ وقد جعل من هذه المهمَّة صناعةً غالبًا ما تكون مورد أَرباحٍ طائلة، صناعةً قد تواكبها بعض مشاعر إِنسانيّةٍ، وقد تكون مجرَّدةً منها. ولكنَّ الأُمّ تيريزَا وأَخواتها دأبنَ على التعامل مع الأَلَم بحبٍّ، تعاملاً شخصيًّا حافلاً ببذل الذّات، بل ارتقَيْنَ بالأَلم إِلى قِمَمٍ صوفيَّةٍ، وجعلنَ منه، في أَنوار الصليب، نبع خلاصٍ لصاحبه وللمتعاملين معه.

لقد حطَّت الأُمّ على الأَلم نظرةً يحدوها الرجاء، وآمنت أَنَّ ما من إِنسانٍ غير قابلٍ للشفاء أَو للإِصلاح. فكلّ وضعٍ مهما بدا مُغرِقًا في دواعي اليأس، يظلّ يحمل، بفضل الإِيمان والحبّ، وعدًا سرِّيًّا.

وإِن كان يسوع ما انفكّ يتأَلّم في كلكتّا ونيويورك، وهونغ كونغ، ولندن،

ودمشق، فذلك يعني أنّه ماضٍ في عمليّة الفداء، وأنّ رسالة الأُمّ تيريزا وقوافل السائرين في إثرها، تُمثّل الحبَّ في صميم حياة من يتألّمون، وأنّ يسوع مازال حاضرًا في قلوب بشرٍ وأجسادهم، وأنّ الألَم، لمن يتقبّلونه، لا يمكنه أن يظلّ عديم المعنى، وباعث عزلةٍ ووحدة، بل يغدو عامل فرحٍ وخلاصٍ.

وبخدمتهنّ المتألّمين، حبًّا بيسوع، تسهم مُرسلات المحبّة في عمل فدائه، مزوّدات بقوّةٍ منه. "**إنّه يهبنا القوى الضروريّة التي تؤهّلنا للحياة التي نمارسها. في معزلٍ عنه لن نقوى على فعل ما نفعل طوال حياتنا، غير متوقّعاتٍ أيّ عرفانٍ بجميلٍ، ولا راجياتٍ سوى التألّم مع ذاك الذي أحبّنا بحيثُ بذل حياته من أجلنا. من غير يسوع، لن يكون لحياتنا معنًى، وستستعصي على الفهم**".

هذا الإيمان بخطورة الرسالة وبأنّ العمل من أجل يسوع هو الذي يضفي على حياة المرسلات معنًى، عبّرت عنه إحدى المرسلات بقولها:

"**مهمّتنا تتمثّل في حثّ المسيحيّين، وغير المسيحيّين على السلوك بحبّ. وكلُّ عملٍ مؤدّى بسخاءٍ يُقرّب، دائمًا، الإنسانيّة من الله.**

"**مهما فعلتُ، فمن أجل يسوع أفعله، وإلاّ كانت أعمالي عديمة الشأن والجدوى. وإذ أعلم لمن أفعل ما أفعل، أستطيع أن أفعله بمزيدٍ من الحبّ، والعطف، حيالَ مَن يتألّمون، ومجرّد هذه المعرفة يُسبغ على حياتي مزيدًا من معنًى يترسّخ يومًا إثر يومٍ**".

في مُصلّى كلّ مركزٍ من مراكز مرسلات المحبّة ينتصب صليبٌ كُتِبَت إلى جانبه، بحروفٍ كبيرةٍ، صَيْحة المصلوب: "أنا عطشان"، ولقد بات نقعُ غُلّة هذا العطش هو هاجس المرسلات الدائم. ووسيلتهنّ إلى ذلك، الإكباب على مؤاساة كلّ ألَمٍ يشهدنَه لدى من دعاهم يسوع إخوةً له، أي جميع البشر المتألّمين، أيًّا كان مذهبهم، لا يُميّزن أحدًا عن آخر، إلاّ بمدى معاناته، لأنّهنّ يرمقنَ الجميع بعَينَيْ يسوع. وقد استقرّ في يقينهنّ أنّ كلّ تقصيرٍ في هذا المجال يعطّل عمل الفداء، تعطيلاً يتحمّلنَ، هنّ، تَبِعته، كما يتبيّن من قول أُمّهنّ: "**إن نَفَقَ بعض فقرائنا جوعًا، فما سبب ذلك أنّ الله لم يُعنَ بهم، بل لأنّنا، أنتم وأنا، لم نعطِ بالقدر الوافي، ولم نكنْ أداة حبٍّ بين يدي الله، ولم نتعرّفهُ، هو المسيح، عندما جاء مرّةً أُخرى، مُمَوَّهًا بزيٍّ بائس، في كلّ إنسانٍ مرذول**".

فعليهنَّ، إذن، كي يُمسينَ أدوات طيِّعاتٍ بين يدي الربّ، أن يقدِّمن له كلَّ كلمةٍ يتفوَّهنَ بها، كلَّ حركةٍ يؤدّينها، وكلَّ فكرةٍ تجول بخاطرهنّ؛ وهكذا يغدو كلُّ عملٍ ينهضنَ به، مهما كان ضئيلاً، عمل حبٍّ جليل الشأن في عيني الربّ، ويغدو يسوع هو الذي يعمل معهنَّ، ومن خلالهنّ، في الفقراء ومن أجلهم، ويمتزج العمل بالعبادة، فيُمسي العالَمُ كلُّه ديرًا لهنّ.

هذا التحوُّل الجوهريّ لا يخفى على العيون البصيرة، وقد استشفَّه مسؤولٌ رفيعٌ في كلكتّا أعلن: "**عندما ألمح المرسلات في شوارع كلكتّا، ينتابني الشعور بأنَّ يسوع المسيح قد عاد إلى عالمنا، وهو يجتازه محققًا الخير بواسطتهنَّ**".

وعلى هذا القول علَّقت الأُمّ تيريزا: "**على الذين يشاهدوننا أن يكتشفوا يسوع فينا. فطالما كانت جمعيَّتي هي عمل الربّ، ستعيش، ولكن إن لم تكن الأخوات وفيَّاتٍ، فلن يعملنَ لمجد الربّ، وعندئذٍ من الأفضل أن يُزيل الربّ هذه الجمعيّة**".

ولكنّ الأُمّ ومُرسَلاتها قد أثبتْنَ، حتّى الآن، وفاءَهنَّ المطلق، وعملنَ كلَّ شيءٍ حبًّا بيسوع، لا حُبًّا عاطفيًّا رومانسيًّا، بل حبًّا واقعيًّا فاعلاً، حبًّا نابعًا من أعماق كيانهنّ.

ولا ريبَ أنَّ مشهد عطفهنَّ يبلغ ذروة التأثير عندما يُغدقْنَ عنايتهنَّ الغيرى، وحبّهنَّ الصافي على محتضرين انتهوا إلى عتبات الموت، ولا أمل في شفائهم، أو على برصٍ نفر منهم الجميع ونبذوهم.

كان طاغور قد قال: "**من يزور الفقير غير الله؟**" ولنا أن نتساءَل من ينحني على مدنِفٍ، وحيدٍ، مهملٍ، وعلى جسد أبرص متآكلٍ سواه، وسوى أدواته الطيِّعات؟

ولقد اتَّقدت، أبدًا، في صدر الأُمِّ رغبةٌ عارمةٌ في إشعاع يسوع، وفي مشاركتها الآخرين حبَّه، على حدِّ قولها: "**أودُّ أن يتعلَّم الكثيرون معرفة الله، ومحبَّته وخدمته، ففي ذلك يكمن الفرح الحقّ؛ وأودُّ أن يمتلك كلُّ إنسانٍ ما أملك، ولكنَّ الأمر أمرُ خيارٍ. فمن رأى النور استطاع الاهتداء به، وأنا لا أقوى على إعطاء النور، وإنّما أستطيع توفير وسيلة رؤيته. فلئن تنفَّستُ في "كاليغات"، وعملتُ، وخدمتُ القومَ فيه بحبٍّ وتضحيةٍ، فحينئذ سيشرعون، تلقائيًّا يُفكِّرون بالله، وهكذا سيتوصَّلون إلى معرفته، وإذا ما عرفوه رغبوا في حبِّه وإذا ما أحبُّوه خدموه**".

وقد كان لمثال المرسلات أَثر عدوًى خيِّرةٍ في بعض من أَسهمنَ في إِنقاذهم. فمن المعروف أَنّهنَّ لا يقتصرنَ على معالجة عشرات أُلوف البُرْص، بل يسعيْنَ إِلى توفير حياةٍ جديدةٍ سليمةٍ لهم، ولهذا الغرض أَسَّسْنَ عدَّة مراكز لإِعادة تأهيلهم، في الهند وخارجها، كي يُتحنَ لهم عيشًا طبيعيًّا، ويرسّخْنَ لديهم الشعور بأَنَّهم بشرٌ سويّون أَبدعتهم يد الله العطوف.

ومن الشائع في مراكز البُرْص رؤية سِحَنٍ متجهِّمةٍ، تعكس الشعورَ المضني بالنبذ حتّى من الأَقربين؛ ولكن، في أَحد تلك المراكز كان شابٌّ في الثالثة والعشرين من العمر مشرقًا، سعيدًا بخدمة رفاق محنته البُرْص. وكانت المُرسلات قد أكّدن له شفاءَه التامَّ من علَّته، ومع ذلك أَبى مغادرة المركز والعودة إِلى منزله، وحياته الحرَّة. ولمّا استُوضح عن السبب أَجاب: "علامَ أَرجع إِلى جماعة نبذتني؟ هنا أَعادوا لي الكرامة، وأَعطوني مبرِّرًا للعيش؟ أُريد أَن أُعطي إِخوتي، حتّى آخر حياتي، مثلما أُعطيتُ، مجّانًا".

لقد أَمست مُرسلات المحبَّة دعوةً إِلى العطاء، وإِلى الالتزام بعمل المحبَّة، وإِلى المشاركة مع الأَكثر حرمانًا، ولا سيَّمَا لمن غفت في صدورهم رغبة العطاء، منتظرةً مثالاً يوقظها، ويُطلقها، ويُشجّعها.

وقد اندمجْنَ بيُسرٍ في مجتمعاتٍ لا يكففنَ يقرعنَ أَبواب المحرومين فيها للوقوف على احتياجاتهم، ويقرع الفقراء أَبوابهنَّ فيُعطينَ ما يُعطَوْن، ومعه حبَّهنَّ.

إِنَّهنَّ امتدادٌ لفعل التجسُّد، فمن خلالهنَّ يحضر يسوع في أَماكن جديدةٍ، ويعمل، ويتابع مسيرة مجيئه إِلى أَرض البشر. وهنَّ يجهدنَ في اكتشاف أُسلوب عمل النعمة في الظُّروف الراهنة، واستجابة البَشر لها، وطريقة إِسهامهنَّ في عملها.

إِنَّهنَّ صلة حبٍّ تمدُّ جسورًا بين المحظيّين والمحرومين، وتنسج سلسلة محبَّةٍ، وصلاةٍ، وإِحسانٍ. ونشاطهنَّ يتعدّى مجرّد اقتسام الخيرات المادّيَّة التي توفّرها الهبات والتضحيات إِلى تبادُل الاحترام والتفاهم، والتعاطف، وانفتاح القلب.

ويولِّد تكرار أَفعال المحبَّة تحوُّلاً في الطباع والسلوك. وقد يحمل الميسورين على تقليص إِنفاقهم على ذواتهم، عندما يدركون عدد الذين، من حولهم، يفتقرون إِلى مقوّمات العيش الأَساسيَّة.

وهكذا تمسي مرسلات المحبّة واحات حبٍّ، ومنارات تشعّ نور المسيح الذي يسطع من خلالهنّ. فحبُّهنّ يبادر، ويوحّد، وينتشر، ويتخطّى الصعاب والحدود، ويُطهّر، ويعيد للناس كرامتهم، ويخلّصهم، ويغمرهم بالسعادة.

وقد أَدركت الأُمُّ تيريزا، وفي تيّارها أَخواتُها، أَنَّ الفقراء في حاجةٍ إِلى الإِيمان، والرجاء، وفي حاجةٍ إِلى الله، وأَنَّ من يحاول حرمانهم كلَّ ذلك يقترف جريمةً بحقّهم، فعزمنَ على أَن يوفّرنَ لهم الرجاء والعزاءَ والثقةَ في عطف الله وحبِّه. والقوم البسطاء ليسوا حمقى يسهل خداعهم، بل هم يمتلكون حَدْسًا صائبًا؛ وقد تساءَلوا عمّا حمل أُولئك الشابّات، ومنهنَّ مثقَّفاتٌ، على معاملتهم وكأَنَّهم إِخوةٌ وأَخواتٌ، وعلى غسل قروحهم، ومؤاساتهم بابتسامةٍ مُشرقة، ونفسٍ طيِّبة، من غير أَن تبدر منهنّ، يومًا، لَفْظَةٌ نابيةٌ، أَو تعبيرٌ عن نفاد صبرٍ، أَو اقتضاء أيٍّ مقابلٍ، حتّى مشاركتهنّ الإِيمان بحبيبهنَّ يسوع. وقد أَصابت أَفكار القوم كبد الحقيقة فأَدركوا أَنَّ أُولئك الفتيات إِنْ هُنَّ سوى انعكاس حبّ الله، ومن خلال آلامهم، أَفضوا إِلى الله. أَمّا المرسلات فقد بلَّغْنَ رسالة الخلاص، لا بالخطابات المنمَّقة، بل بالحبّ الفاعل، والعمل العطوف، والتضحية بالذّات بلا حسابٍ.

إِنَّهنَّ حبٌّ، والحبّ إِشعاعٌ، ونورٌ، وفرحٌ.

معجزة الفرح

باندماجهنَّ بيسوع، وبعيشهنَّ به ومعه وله، حقَّقت مُرسَلات المحبّة المعجزات؛ ولكنَّ الأُمَّ تيريزا تعلن أَنَّ "**المعجزة ليست في عملنا ما نعمل، وكما نعمل، وسط ظروفٍ بالغة المشقَّة والقسوة، بل في أَن نكون، مع ذلك، سعيداتٍ**".

فالفرح هو إِحدى مميِّزات مُرسلات المحبَّة. وقد أَطنبت قوانينهنَّ في الإِشادة به، والتشديد عليه، فقد جاء فيها:

« الفرَح هبةٌ مُحَقَّقةٌ من الروح القدس، وإِحدى خصائص ملكوت الله، لأَنَّ الله فرحٌ. لقد شاءَ المسيح اقتسام فرحه مع تلاميذه: "ليكون فرحي فيكم، ويكون فرحكم كاملاً". وكان الفرح هو قوَّة السيِّدة العذراء، فالفرح وحده كان كفيلاً بنَفْحها الطاقة على اجتياز تلال يهوذا، كي تمضي لمساعدة نسيبتها أَليصابات، وهي مندفعةٌ عطفًا.

"الفرح صلاةٌ: وهو دليل سخائنا واتّحادنا الحميم والأَكيد بالله،

"الفرح حبٌّ: فالقلب الفرح هو ثمرة قلبٍ محبٍّ، ومن يهب بفرَحٍ، يُعطِ أكثر، والله يحبُّه. الفرح شبكة اتّصالٍ تتيح لنا النفاذ إِلى النفوس، بل هو ضرورةٌ وقوَّةٌ حتّى على المستوى الجسديّ، لأَنَّه يساعدنا على أَن نكون، دائمًا، جاهزين لعمل الخير من حولنا. إِنَّ أُختًا تشيع الفرح، تشهد من غير حاجةٍ إِلى كلامٍ. إِنَّ فرح الأخت هو إِشعاعُ حبِّ الله، والرجاءُ في سعادةٍ أَبديّةٍ، وشعلةُ حبٍّ حارقٍ. والوسيلة المُثلى للتَّعبير عن شكرنا لله وللآخرين هي أَن نتقبَّل كلَّ شيءٍ بحماسٍ ».

إِنَّ فرح مرسَلات المحبَّة يبدو مفارَقةً بالقياس إِلى عملهنَّ الدؤوب المتواصل، المُضني، في خدماتٍ تنفر منها الطبيعة البشريَّة، وإِلى نمط عيشهنَّ الموغل في الشظف والوعورة. غير أَنّه، في واقع الأَمر، الثمرة الطبيعيَّة لخدمتهنَّ المجانيَّة وللحبّ الذي يحدوها، ففرحهنَّ ينبع من إِيمانهنَّ بأَنَّهنَّ، عبرَ أَفقر الفقراء، إِنّما يؤاسينَ حبيبهنَّ يسوع، ويروينَ العطش الذي أَلهب أَحشاءَه على الصليب.

صحيحٌ أَنَّ حياتهنَّ ليست بهيجةً بالمعنى المألوف للكلمة، فمُستنقع الأَلَم والحرمان الذي انغمسنَ فيه، لا يُشيع، في ذاته، البهجة، إِلاَّ أَنّهنَّ يجهدْنَ، ببشاشةٍ، في تحويل الشقاء البشريّ المحيق بهنَّ، إِلى "رائعةٍ في سبيل الله". وحتّى عندما يَعِشْنَ وسط المشاهد المنفِّرة، والروائح المقزِّزة، ويكرِّرْنَ نفسَ الأَعمال الشاقَّة العسيرة الاحتمال، كلَّ يومٍ، بل كلَّ ساعةٍ، بلا هوادةٍ، العمر كلَّه، يَبقَيْنَ مأخوذاتٍ بما يُذهلهنَّ عن كلِّ مكدِّرٍ. ولا بِدْعَ إِن انبثق منهنَّ، تلقائيًّا، دفق نورٍ وفرحٍ، فالبهجة معطفٌ يخفي حياةً من التضحية.

وبما أَنَّهنَّ يعملنَ كلَّ شيءٍ، بحبٍّ، من أَجل يسوع الذي يلمسنَه باستمرارٍ في القربان، وفي الصلاة، وفي هياكل المتأَلِّمين، فلا بُدَّ من أن تكون حياتُهم رائعةً ومنبع فرحٍ.

وفي هذا السياق كتب عضوٌ في الأَكاديمية الفرنسيَّة، ردًّا على سؤالٍ طرحته مجلَّةٌ: **"إِنَّ فرحًا جليًّا يقطن من يجدون سبيل التطَلُّع نحو المستقبل، ممّا ينفحهم القوَّة، ويؤازرهم على تخطّي المنغِّصات. تلك هي حال الأُمِّ تيريزا الكلكتّاويَّة التي تجوس خلال مراكز البُرْص المزدحمة، صامتةً. حاولوا أَن تتحمَّلوا، ولو لساعاتٍ معدوداتٍ، ما تتحمَّلُه الراهبات المتلفِّعات بالساري الأَبيض، ذي الحاشية الزرقاء،**

سحابة حياتهنَّ، من فقرٍ مُطلَقٍ، وقيظٍ لاهبٍ، وروائح خانقةٍ، وحياةٍ مشتركةٍ بأكملها، وبواعث تقزّزٍ من كلٍّ ضربٍ، ومجاورةٍ للكواسر. اكتفوا بأربع ملاعق من الأَرزِّ، يوميًّا، ولا سيّمَا إِن كنتم من الذَّوّاقين المرهَفين، تدركوا أَنَّ الحبَّ أَقوى من كلِّ شيءٍ. أَعتقد أَنَّ المرء يسعد عندما يكرِّس حياتَه لمثَلٍ أَعلى".

وفَرَح مرسَلات المحبَّة، أَيضاً، نتيجةٌ تلقائيَّةٌ للفقر الطوعيّ الذي حرَّرهنَّ من عُبُوديَّة الرغبات المادّيَّة، ونَهَم الاستهلاك الذي لا قرار له، وحَصَر مطامعهنَّ في التماس ملكوت الله. وقديمًا قال القدّيس اينياس: "**سيكون أَمرًا مُستغرَبًا أَن يتَّسم بالحزن راهبٌ لا يلتمس غير الله غايةً، وأَن ينعم بالسعادة من ينشد كلَّ شيءٍ خلا الله**".

وإِلى ذلك، رأَت الأُمُّ تيريزا أَنَّ الفرح هو أَحد الشروط الأَساسيَّة لخدمةٍ صادقةٍ، مُحبَّةٍ، خصبةٍ. فالفقراء لا يستأهلون الخدمة المتفانية فحسبُ، بل يستأهلون التضحيةَ في سبيلهم، ويستحقّون الفرح الذي يواكب التعبير الإِنسانيّ عن الحبّ؛ وستكون جميع الكلمات باطلةً إِن لم تنبع من الداخل، فالكلمات التي لا تشعُّ نور المسيح تكثِّف الظُّلمات... والقداسة الحقّة تتمثّل في تنفيذ مشيئة الربّ بابتسامةٍ.

وتضيف الأمّ: "**روح جمعيَّتنا: الاستسلام التامّ، والحبُّ الواثق، والفرح. فعلينا أَن نتمكَّن من إِشعاع فرح المسيح، ومن التعبير عنه عبرَ عملنا. فلو اقتصرت أَعمالُنا على الجدوى، ولم تُوفِّر أيَّ فرحٍ، لما استطاع، أَبدًا، فقراءُ، الارتقاء إِلى سماع الله، كما نتوخّى، ولا الاقتراب منه كما ندعوهم. إِنَّنا نودُّ أَن يشعروا أَنَّهم محبوبون، وإِن نحن مضينا إِليهم بوجهٍ مكتئبٍ لما زدناهم إِلاّ قنوطًا**".

وكَانت الأُمُّ مدركةً أَنَّ طبيعتنا البشريَّة ملتصقةٌ بجلدنا من المهد إِلى اللحد، وأَنَّ علينا النضال، كلَّ يومٍ، كي نتغلَّب على ذواتنا. وكانت تعلم أَنَّ حتّى أَخواتها قد يتعرَّضنَ لنوباتٍ عارضةٍ من الإِحباط، ولذلك صرَّحت: "**إِذا افتقرتْ أَيَّةٌ من الأَخواتِ إِلى السكون النفسيّ، منعتُها من زيارة الفقراء، الذين لديهم ما يكفي من أَسباب الحزن فهل نجسُر على مُضاعفتها عبرَ كآبتنا الخاصَّة؟**"

الراهبة الفَرِحة ملحٌ للجماعة، وهي أَشبه بشعاع شمس حبِّ الله، ولا يُساور الأُمَّ قلقٌ على أَخواتها إِلاّ عندما تراهنَّ يفقدنَ الفرح.

ولا يخفى عنها أَنَّ الفرح ليس مجرَّد طبعٍ أَو مزاجٍ، بل هو نعمةٌ تُكتَسب

بالتمرُّس من بذل الذَّات، ومن العيشِ الحميم مع يسوع في الإفخارستيّا وفي الخدمة الكفيل بتزويد المرسَلات بالفرح، فيضطلعنَ بمهامِّهنَّ مبتسماتٍ مُشرقاتٍ، ويتمكنَّ من نشر البُشرى بفرحهنَّ.

وهي لا تني تدعو أَخواتها إِلى الابتسام في وجه الصعاب، وإِلى إِثارة البسمة من حولهنّ، ساعيةً، بلا هوادةٍ، إِلى ترسيخِ الفرح في نفوسهنّ، لقناعتها بأَنَّ الأُخت التي تمرَّست من الفرح أَقَلُّ شعورًا بالتعب، وهي دائمة التأهُّب للانطلاق إِلى عمل الخير، وبأَنَّ الذين وُهِبوا نعمة الفرح مؤهَّلون لارتقاء أَشمخ القِمَم.

وآمنت الأُمُّ "**أَنَّ الحزنَ كالآكلة التي تلتهم حتّى العظام، وأَنَّ المكرَّسين الذين تطغى عليهم الكآبة كابحٌ يمنع نشوءَ الدعوات الروحيَّة، فالشبَّان، على غرار الله، يحبُّون من يعطون بقلبٍ فرِحٍ**".

وفي الخَامس من تمّوز ١٩٦٦، كتبت الأُمُّ تيريزا من ڤينيزويلا إِلى المبتدئات في كلكتّا: "**أَيَّتها المبتدئات البشوشات، أَستطيع أَن أَسمع من هنا موسيقى ضحكات فرحكنَّ. أَيَّتها المُكرَّسات الشابّات، إِنَّ قرع أَقدامكنَّ، في سعيكنَّ نحو النفوس، ينبغي أَن يكون ليسوع موسيقى عذبةً، أَيَّتها الطالبات المتواضعات، احتفظنَ بنور المسيح مصباحًا مشتعلاً ممتلئًا، أَبدًا، زيتًا، لكي تُمسين نورًا حقًّا ليسوع في الأَكواخ**".

وقد أَيقنت الأُمُّ أَنَّ الفرح هو ترياق الأَلَم، وخميرة خصبه، فأَهابت بأَخواتها إِلى التأَلُّم بفرحٍ، وإِلى العطاء بفرحٍ، فأَفضل عطاءٍ ما واكبتْه بسمةٌ. ومن كان متأَهِّبًا دائمًا كي يقول "نعم" لله، فلكأَنّه بسمة الله المُشعّة على الجميع، وهو قادرٌ على العطاء، حتّى الأَلَم، بفرحٍ.

وهكذا يصبح الفرح مصدر حبٍّ، وصلاةٍ، وقوَّةٍ، فالذي يُعطي بفرحٍ يزداد قدرةً على العطاء، والقلب الفرح هو دائمًا متَّقدٌ حبًّا.

ولا يسوغ، إِذن، أَن يقفَ شيءٌ حائلاً دون الفرح: "... **ينبغي أَلاّ يزعجنا أَيُّ شيء، بحيث يملؤنا حزنًا وإِحباطًا، ويستلب فرحَنا بالقيامة. الفرح، دائمًا، أَمرٌ شاقٌّ، وهذا هو سببٌ أَوْلى للسَّعي إِلى اكتسابه، وإِنمائه في قلوبنا. وحتّى لو كان لدينا القليل لنعطيه، يبقى لدينا الفَرَح المتفجِّر من قلبٍ يعشق الله**".

وكانت الأُمُّ تشهد بدهشةٍ فعل الفرَحَ لا على نشاط أَخواتها وسلوكهنَّ فحسب، بل، أَيضاً على من يخدمنَهم، ولذلك أَهابت بهنَّ أَن يُشِعْنَ الفرحَ الذي وُهِبْنَ نعمتَه من حولهنَّ موضحةً: "**غالبًا ما نلحظ كيف يعود الفرح فيقطن الأَكثر حرمانًا، عندما يشهدونَ كم كثُرٌ نحن المعنيّين بهم، والمعبِّرين لهم عن حبِّنا، حتّى إِنَّ صحَّة السقَماء منهم تشهد تحسُّنًا**".

إِنَّه دائمًا مبعث إِعجابٍ منظر راهباتٍ شابّاتٍ ومُسنّاتٍ، يخدمنَ في مشافٍ، وينهضنَ، بلا انقطاعٍ، بنفس المهامّ الوضيعة، وسط مواكب المرض والأَلَم، والوجوه التي تتغيَّر باستمرارٍ، ومع ذلك لا ينفكُّ يتدفَّق من كلِّ كيانهنَّ فرحٌ يشعُّ على وجوههنَّ المشرقة، ونظراتهنَّ الوديعة، فرحٌ ملموسٌ، ولكنَّه ينبع من عالَمٍ آخر علويٍّ. هذا الفرح عينُه هو الذي يتضوَّع، كالعطر، من حياة مُرسَلات المحبَّة القَائِمَة على البذل الكامل، والاتّحاد الوثيق بيسوع، فرحٌ يشعُّ من كلِّ منهنَّ، ويلفُّ بشذاه كلَّ جمعيَّتهنّ. لا جَرَم أَنَّ عيشهنَّ مغرقٌ في القسوة، وأَنَّ الفقر والحبّ يسلخانهنَّ عن ذواتهنَّ، إِلاّ أَنَّهنَّ يجدْنَ في ذلك البذْل المطلَق معينَ سلامٍ لا يقوى أَحدٌ على سلبهنَّ إِيّاه. وفرحهنَّ معدٍ، فحضورُهنَّ يضفي على نفوس الآخرين فرحًا نقيًّا بسيطًا. فهنَّ يزرعْنَ الحبَّ، ويطردْنَ أَبالسة الأَلم.

ومفارقة هذا الفرح الغامر تكمن في تفجُّره وسطَ حالاتٍ من الشقاء والأَلم البشريَّيْن مؤهَّلةٍ، في ذاتها، لتوليد الحزن واليأس. إِذ كيف يتسنّى الاعتصام بالفرح بين ظهرانَيْ بشرٍ محطَّمين، وجروحٍ متفسِّخةٍ، وأَنّات وجعٍ، وموتٍ لا يرحم؟ وحدهم فاقدو الشعور أَو القدّيسون يقوَوْن عَلى ذلك، ومُرسلات المحبَّة ينتمينَ إِلى طرازٍ نادرٍ وسامٍ من القداسة.

هذا الفرح الصامد، رغم كلّ أَسباب الكآبة، طابعٌ مميَّزٌ، يجتذب منذُ الوهلة الأُولى، انتباه المراقبين. وقد شهدت عليه فتاةٌ تطوَّعت للعمل، فترةً، في مركز للمحتضرين، فكتبت: "**جميع الأَخوات، بلا استثناء، فرحاتٌ، ذكيَّاتٌ، سعيداتٌ، متيقِّظاتٌ، طيِّباتٌ. وعلى وجوههنَّ يشيع فرحٌ عميق الغَوْر. قد يكون عملهنَّ مغرقًا في القسوة، ولكنَّهنَّ يظهرْنَ وكأَنَّهنَّ لا يحفلْنَ لا بالقيظ الخانق، ولا بالروائح الكريهة، ولا بالقذارة التي عليهنَّ العمل وسطها. إِنَّ العمل معهنَّ، يوميًّا، مصدر فائدةٍ كبرى وإِغناءٍ روحيٍّ. هنا جميعهنَّ يفعلنَ كلَّ شيءٍ، ولا تتميَّز إِحداهنَّ بعملٍ**

أَرقى أَو أَدنى؛ وتنهض الرئيسةُ بنفس عمل سائر الأَخوات، وكذلك تفعل الأُمُّ كلَّما زارت أَحد المراكز".

وشهدت متطوِّعةٌ أُخرى: "**إِنهنَّ، دائمًا، فرحاتٌ، وليست فرحتهنَّ مموَّهةً، ولكنَّها صادقةٌ؛ إِنَّها بهجةٌ تنبع من أَعماق الكيان. إِنِّي واثقةٌ أَنَّ بهجتهنَّ الخارجيَّة هي تعبيرٌ عن فرحهنَّ الداخليّ. إِنَّ كلَّ من يعمل معهنَّ يعلم كم من الوقت يقضينَ في المُصلّى، راكعات، وتتعاظم سعادتهنَّ عندما يُصلِّينَ. فهنَّ متشوِّقات إِلى الامتلاء بالطاقة كي يقتسمنَ مع آخَرين هذا الزاد الروحيّ... لديهنَّ رغبةٌ فرِحةٌ في إِعطاء ما يمتلكْنَ، وفضلاً عن ذلك، لا يحتفظْنَ بأيِّ متاعٍ مادِّيٍّ، بل يتخلَّيْنَ عن كلِّ ما يُعطَيْنَ من لباسٍ، وطعامٍ، ومالٍ. وكلُّ ما يأتيهنَّ، يمضي، في الحال**".

وتقرُّ الأُخت كاتيري: "كنتُ أَعمل في نيويورك، في مركزٍ للشلَل الدماغيّ، وكنتُ أُصلّي، كلَّ يومٍ. وقد استوضحني أَحدُهم عمَّا يجعلني دائمًا سعيدةً، ولكأَنَّه يُلمح إِلى أَنّني، ربما، عاشقةٌ... والواقع أَنني كنت أَعي كم يغمرني حبُّ الله، ولا سيّمَا أَنّي كنتُ أَشعر أَنني أَتوغَّل، كلَّ يومٍ، تقرُّبًا منه، وكان هذا يُفعمني فرحًا...".

لقد تيقَّنت المرسَلات أَنّ أعمال الحبّ هي، دائمًا، منبع فرحٍ، بحيثُ لا تبقى لهنَّ حاجةٌ إِلى البحث عن السعادة، بل حسبُهنَّ أَن يُحببْنَ الآخرين ويخدمنَهم بعطفٍ حتّى تهبط عليهنَّ سعادةٌ لا يشوبها كَدَرٌ.

وجديرٌ بالتنويه أَنَّ الأُمّ تيريزا قد اتَّصفت، منذ صغرها، بالمرَح، وقد شهدت الراهبات اللواتي زاملنَها في "لوريتو هاوس" أَنَّه كان لديها ميلٌ شديدٌ إِلى المرح، وتستملح الطرف، وتضحك لها من أَعماقها. ويتجلّى مرحُها من خلال رسائلها إِلى أَخواتها، حيث نكاد تُسمَع رنّة ضحكتها. وربما كان أَحد أَسباب إِيثارها للفقراء أَنَّهم أَكثر ضحكًا من الأَغنياء الذين ينزعون إِلى وقارٍ مصطنعٍ. وعلى نقيض ذلك، تجد الأُمُّ في الفرح ما يوالي أَهدافها؛ ويروق لها القول إِنَّ وجهًا مبتسمًا هو جزءٌ حميمٌ من الحبِّ المسيحيّ، وتحرص على أَن تدوّي مراكز مرسلاتها بالضحك، على نحو ما كانت الطرقات تدوّي بضحكات فرنسيس الأَسّيزي وإِخوانه.

وهل من عجبٍ، بعد ذلك، إِن رأى فيها زعيمٌ بوذيٌّ الكائنَ النيِّر المسمّى "رقيب دموع العالم"، من جرَّاء إِسهامها الفَرِح في أَحزان الإِنسانيّة؟

حياة صلاة وعمل

من شأن عمل المُرسَلات أَن يكون بالغ القسوة والوعورة، لولا حياةٌ قائمةٌ على صلاةٍ كثيفةٍ مُتَّصلةٍ. هذا ما آمنت به الأُمُّ تيريزا، ورسَّخته في نفوس أَخواتها.

رسالتُها تحدٍّ دائمٌ للطَّبيعة البشريَّة. والله، وحده، هو القادر على مساندة تلك الطبيعة، وتمكينها من التغلُّب على ذاتها، وعلى ميولها نحو التخاذُل، والتواني، والتماس كلِّ هيِّنٍ مريحٍ، عذب المذاق، والنفور من كلِّ وعرٍ يستلزم بذلاً وتضحيةً.

والصلاة هي الوسيلة الوحيدة للاتِّصال بالله، واستدرار أَزره وقوَّته. هي السبيل إِلى الله، ولا حيلةَ، من أَجل نشدانه وبلوغه، سوى الالتزام بالصلاة. في معزلٍ عن الصلاة يُمسي الوفاءُ للرِّسالة مستحيلاً، لأَنَّ الصلاة عودةٌ إِلى النبْع لاستمداد المنعة والصمود. "**ففي معزلٍ عن التضحية، والصلاة، والتوبة، وعن شحنة حياةٍ روحيَّةٍ كثيفةٍ، لن نقوى على المضيِّ في رسالتنا حتّى نهاية الشوط**". لا بل إِنَّ الأُمَّ تيريزا لاتنِي تؤكِّد: "**لولا الصلاة، لما استطعتُ المضيّ في عملي، ولو نصف ساعةٍ؛ وبالصلاة أستمدُّ قوَّتي من الله**"، "**نحتاج إِلى الصلاة مثل حاجتنا إِلى التنفّس. وفي معزلٍ عن الصلاة لا نقوى على فعل شيءٍ**"، "**الغذاءُ الروحيُّ الذي يسندني هو القدّاسُ الذي، لولا مؤازرته، لما قويتُ على الصمود، نهارًا، بل ساعةً واحدةً**".

ولا بِدْعَ، بالتالي، إِن أَولَت الأُمُّ الأَولويَّة للصَّلاة على العمل، فإِن لم تسكب الصلاة مياهَ قدراتها الإِلهيَّة يتعذَّر العمل. وعلى الصلاة أَن تسبقَ العملَ، وتُعدَّ له، وتواكبَه، وتتغلغل فيه إِلى أَن تحوِّله، هو نفسه، إِلى صلاةٍ. "**حياتُنا مرتكزة على الصلاة والعمل، وعملنا ينجم عن تأمُّلنا، وعن اتِّحادنا بالله في عملنا. إِنَّنا نجهد في أَلاَّ تنفصل الصلاة عن العمل في حياتنا**".

لقد قدَّمت الأُمُّ الصلاة على العمل، لإِيمانها بأَنَّ العمل، في معزلٍ عن الصلاة، وبعيدًا عن الله، باطلٌ؛ ولكنَّها لم تستهِنْ بقيمة العمَل: "**سنحوِّل عملنا إِلى صلاةٍ، ولكن لا يَسعُنا الاستعاضة عن العمل بالصلاة**"، فكلاهما، في رسالتها، متلازمان، متكاملان، أَساسيَّان، ولا يحول أَيٌّ من الصلاة أَو العمل دون الآخر. فالصلاة إِعدادٌ للعمل، القائم على بذلِ أَقصى وخدمةٍ بلا حدودٍ، وتأهيلٌ له، والعمل مع يسوع، وبه، ولأَجله، صلاةٌ متَّصلةٌ، وامتدادٌ للتّأمُّل والعبادة.

ولم تنِ الأُمّ تيريزا تكرِّر: "**نحن لسنا مساعداتٍ اجتماعيَّات، بل نحن، في المقام الأَوَّل، متأَمِّلاتٌ، أَي غارقاتٌ في حضور الله**". وصلاة المُرسَلات وتأَمُّلهنَّ مرتكزان على الإفخارستيّا المؤمنة بحضور يسوع الفعليّ في القربان، وبحضوره المماثل في أَجساد المتأَلِّمين. صلاتهنَّ عميقةٌ ومستمرَّةٌ تبقيهنَّ على صلةٍ حميمةٍ دائمةٍ بالله، وتؤَهِّلهنَّ ليكنَّ أَدواتٍ طيِّعاتٍ في خدمته. فالصلاة، في نظر الأُمِّ، هي البقاءُ، أَربعًا وعشرين ساعةً في الأَربع وعشرين ساعةً، على وفاقٍ مع مشيئة يسوع المتمثِّلة في العيش من أَجله، وبه، ومعه.

نهارُ مُرسَلات المحبَّة يُستهلُّ بصلاةٍ شخصيَّةٍ، وصلاةٍ جماعيَّةٍ، وبالإِفخارستيّا التي هي محْوَر وجودهنَّ. وفي المساء، يتخفَّفْنَ من عناء النهار وهمومه بساعة سجودٍ أَمام القربان الأَقدس. تلك الساعة التي كانت أُسبوعيَّةً في مطلع عهد الجمعيَّة، غدت، بإِجماع إِرادة المرسَلات، يوميّةً، وقد اتضح أَنّها معين طاقةٍ ومنعة، وتجدُّدٍ روحيٍّ. وقد اعترفت الأُمّ تيريزا بذلك بقولها: "**إِنّ عملنا مع الفقراء كبيرٌ، ومع ذلك، لا تنتقص تلك الساعةُ منه شيئًا. ومع أَنَّ آخرين يتذرَّعون بحجَّة كثافة العمل للتَّنكُّب عن مثل ساعة السجود هذه، يسعني التأكيد أَنّني لحظتُ تغيُّرًا هامًّا يطرأُ على جمعيَّتنا منذُ شرعنا نمارس ساعة عبادة الإفخارستيّا يوميًّا، فقد غدا حبُّنا ليسوع أكثر حميميَّةً وتبصُّرًا، ومحبَّتنا المتبادَلة أكثر تفهُّمًا، وحبُّنا للفقراء أَعظم، وما هو أكثر بعثًا للدَّهشة، تضاعف عدد الدعوات في جمعيَّتنا.**

"**في صمت التأَمُّل ندَّخر قوَّةً داخليَّةً، نعود فنسكبها في العمل، ونستخدمها للنهوض بمهامّنا الوضيعة، أَو لمواجهة المسؤوليّات الجسيمة التي تقع على عاتقنا**"، "**التعبُّد وقلبُ يسوع يسيران جنبًا إِلى جَنْب، ونحن نسعى إِلى جعل حياتنا تعانق الإِفخارستيّا على نحوٍ أَوثق، بحيثُ نكون أَشدَّ اتِّحادًا بقلب يسوع. إِنّنا نحتفظ بالقربان المقدَّس في مراكزنا، وثمَّة، دائمًا، من يتعبَّدون أَمامه. القلب المقدَّس هو مركز الحبّ، والإِفخارستيّا هي قوَّتنا، وفرحُنا، وحبُّنا، وسلامنا**".

وفضلاً عن ذلك لا تكفُّ المرسَلات عن تلاوة المسبحة أَثناء تنقُّلاتهنّ، بحيثُ أَمسينَ يقسنَ المسافات بعدد بيوت المسبحة التي يستغرقُها اجتيازُهنَّ لها. وتظلّ كلُّ لحظةٍ من عملهنَّ مُشبَعةً بالصلاة، لأَنَّ خدمتهنَّ للفقراء والمتأَلِّمين هي امتدادٌ للإِفخارستيّا، واتِّصالٌ

حميمٌ بيسوع. ومن ثمَّ، مع غوصهنَّ في مستنقع الشقاء، وعيشهنَّ وسط لَجَب البؤْس، يظلَلْن على صلةٍ متَّصلةٍ بالربّ، مستغرقاتٍ في التأمُّل فيه.

وتؤَكِّد خبرةُ المرسلات شأنَ الصلاة في حياتهنَّ، فهذه الأُخت "دولوريس" المشرفة على "نيرمال هرايدي" تصرِّح: "**كلَّ صباحٍ، منذ استيقاظهنَّ، تدرك الأَخوات أَيَّة مصاعب سيُواجهنَ، والتي قد تكون شاقَّةً جدًّا. إنَّ الصلاة تهبهنَّ قوًى، وسندًا، ودعمًا، والفرَح الذي يَقتضيه عملنا... إنَّ العمل المتواصل والبذل المستمرَّ مستحيلان في معزلٍ عن نعمة الله، التي، لولاها، لتعذَّر علينا العيش**". إنَّ الصلاة سلاحٌ أَساسيٌّ لنجاح مُرسلات المحبَّة، وهي، غالبًا، مستجابةٌ.

وتُقِرّ الأخت "جيرمين خوسية"، الناشطة في "شيشوبهاقان" بكلكتّا: "لستُ أَدري كيف سيسعنا احتمال هذا الحرّ، وهذا الجهد الكثيف، في معزلٍ عن الصلاة. ولكنَّ عملنا مكرَّسٌ بأَكمله لله، ونحن سعيداتٌ بالنهوض به".

لقد ابتغت الأُمُّ أَن تكون أَخواتُها ممتهناتِ صلاة، كي يبقَيْنَ أَميناتٍ لرسالتهنَّ، فالصلاة للنفس مثل ما الدم للجسد. إنَّها تقرِّب من الله، وتنقِّي القلب، والقلب النقيُّ يرى الله، ويتحدَّث إِليه، ويكتشف حبَّه في كلِّ إِنسانٍ. ومن كان قلبه نقيًّا، كان شفّافًا أَمام الله، لا يُخفي عنه شيئًا، ويقدِّم له، بحريَّةٍ وبهجةٍ، ما ينتظره منه.

الصلاة تُعطي دفعًا، وتسدِّد الخطى، لأَنَّها تؤَهِّل لرؤية العالَم بعيني الله. وهي توسِّع آفاق القلب بحيثُ يتأَهَّل لاحتواء الربّ الذي يهب ذاته. والربّ يلبّي ما يُطلَب منه لأَجل إِحلال ملكوته على الأَرض، ويستجيب بطيبة خاطرٍ للصَّلاة المستمرَّة المتواضعة، الوطيدة الإِيمان. ولقد حرصت الأمُّ تيريزا، مع كرِّ السنين، على تكريس مزيدٍ من الوقت للصَّلاة، فالصلاة حاجةٌ لازبةٌ لتزويد الأَخوات بالحافز، ومساندة حرارة اندفاعهنَّ. وقد أَيقنتْ، أَبدًا، أَن لا إِيمانَ بلا صلاةٍ، ولا حبَّ بلا إِيمانٍ، ولا خدمةً متفانيةً لأَفقر الفقراء، بلا حبٍّ وقد حملت الأُمُّ جماعاتٍ بشريَّةً متنوّعةً على الصلاة، فحقَّقت، بإِيمانها وجرأَتها التي لا تُقهَر، نصرًا مبينًا، إِكرامًا للرَّبّ.

ويُمثِّل تعليم الصلاة عنصرًا أَساسيًّا من نشاط مُرسلات المحبَّة، فهنَّ يُدرِنْ مدارسَ الأَحَد في الكثير من الأَبرشيّات والمدارس. وأَثناءَ بحثهنَّ عن أَطفال الفقراء لإِفادتهم من هذه المدارس، يلتقينَ كهولاً راغبين في تعلُّم مبادئ دينهم وممارستها،

فيفتتحْنَ لهم مدارس، أَيضاً. وهنَّ يُشجِّعنَ الصلاة في المنازل، بتكريس الأسر لله الذي هو حبٌّ، ويساعدنَ المرضى والمحتضرين على الصلاة، وعلى تقديم آلامهم لله الآب. وإِذا ما أَشرف أَحد مرضاهنَّ على نهاية أَجله، شرعنَ بالابتهال له، قبل مبادرته بالعلاج، وقد تفعل الصلاة ما لا يفعله الدواءُ، أَحيانًا.

ولطالما حثَّت الأُمُّ الأُسر على التمرُّس من عادة الصلاة الجماعيَّة، التي تضمن وحدتها، وتضامنها، وتماسكها؛ وقد عزت الكثير من كوارث مجتمعنا الاجتماعيَّة إِلى التخلّي عن صلاة الأُسَر الجماعيَّة.

وقد جهدت في تبسيط الصلاة لمن يجهلونها أَو يتهيَّبونها؛ فما هي سوى الاتِّجاه صوب الله ببساطةٍ، مثل مُضيٍّ ولَدٍ نحو أَبيه، وهي التحدُّث إِلى الله تلقائيًّا ومُباشرةً، فهو أَبٌ للجميع؛ وهي حوارٌ مع الله، يحدِّثنا فنُصغي إِليه، ونتحدَّث إِليه فيستمع إِلينا؛ وكلّما صلَّينا غدت الصلاة أَسهل، وكلّما غدت أَسهل، صلَّيْنا أكثر. وعندما نصلّي، تجد مشكلاتنا حلاًّ، في حدود ما هو جيِّدٌ لنا، في حكم الله.

وقد أَقامت الأُمُّ تيريزا، كما قلّما أَقام أَحدٌ سواها، توازُنًا تامًّا، بل اندماجًا كاملاً بين التأمّل والرسالة، بين فرعي الصليب، أَحدهما المشرئبّ نحو السماء، والآخر المشرَع على مشارق الأَرض ومغاربها.

ولئن كانت شفيعتها، القدّيسة تيريزا الطفل يسوع، التي حلمت بحياةٍ رسوليَّةٍ، ولكنَّها عاشت وماتت حبيسة ديرها، مذ ولجته، قد أُعلنت شفيعةً للمرسَلين، فيحقُّ للأُمِّ تيريزا، التي عاشت على حركةٍ متَّصلةٍ عبر العالَم، أَن تُعلَن شفيعةً المتأَمِّلات المحصَّنات. فقد جعلت من حياتها الحافلة بالنشاط والإِنجازات العمليَّة، تأَمُّلاً دائمًا، وعلاقةً لا تفتر بيسوع. لقد حقَّقت أَحلام شفيعتها الرسوليَّة تحقيقًا مدهشًا منقطع النظير، ولم تقلَّ عنها تأَمُّلاً وصوفيَّةً، وانغماسًا في الله، وقد أَشركت، في عمل رسالتها، مئات أُلوف المكرَّسات المتأَمِّلات، والمرضى المقعَدين الذين قدَّموا آلامهم إِسهامًا في عملها الجمّ. لقد أَنشأَت من المراكز والمؤسَّسات، على مدى الكون، ما تعجز عنه الشركات الدوليّة المتعدّدة الجنسيَّات، ومع ذلك مارست حياةً روحيَّةً كثيفةً تحسدها عليها كثيراتٌ من الراهبات المتأَمّلات المحصَّنات؛ لقد كانت متأَمِّلةً، ديرها العالَم.

التأَمُّل هو دافع عملها، وملهمه، ومصدر قوَّته، وهو الذي يغذّي لديها الصلاة،

لأنَّه يتيح فسحةً من الصمت للإصغاء إِلى الله. فالله صديق الصمت، ومن خلاله يتكلَّم؛ ويسوع حاضرٌ أَبدًا، ولكن لا يسعنا سماع صوته إلاّ من خلال الصمت؛ وصوته قوَّتنا، وكلامه غذاءُ حياتنا، وسبيلنا إِلى الاتّصال به، إِذ "**ليس المهمّ ما نقول، بل ما يقوله الله لنا، وما يقوله من خلالنا**".

بالإِصغاء إِلى الله يتكلَّم فينا نكتشف ذواتنا، ونلمس وَهننا، وضآلتنا، وعَدَمنا، وفراغنا، فنوغل في التواضع، ونزداد اعتمادًا على الله، وثقةً به، وحينئذٍ، سيكون بمكنة الربّ أَن يملأنا بذاته؛ وبالإِصغاء إِلى الله يتطهَّر قلبنا، فنرى الله في كلِّ إِنسانٍ، فيحبّ بعضنا بعضاً مثلما هو أَحبَّنا؛ وبالإِصغاء إِلى الله نكتسب رؤيةً جديدةً نيِّرةً لكلّ شيءٍ، فيستقيم سلوكنا، ونُمعن في البذْل سخاءً.

ومثلما أكّدَت الأُمُّ تيريزا أَنَّ الصمت ضرورةٌ جوهريَّةٌ للحياة الرهبانيَّة كذلك أكّدَتْ أَنَّ على كلِّ إِنسانٍ أَن يفسح، في داخله، حيِّزًا يستطيع فيه الإِخلاد إِلى الصمت حتّى وسط أَشدّ صخَب العالم ضجيجًا؛ ومن ثمّ، عندما هي قرَّرت إِنشاءَ أَوَّل مركزٍ تأَمُّليّ لجمعيَّتها، عزفت عن إِنشائه في أَحضان السكون المُهَيْمن على سفوح الهيمالايا، وآثرت إِقامته وسط صَخَب مدينة نيويورك، ليقينها بأَنَّ المدينة المأخوذة في دوّامة الضجيج هي الأَكثر حاجةً إِلى محطّات الصمت.

وعلى الصمت أَن يشمل الإِنسانَ بكامله، وجميع حواسّه، فهو، على حدِّ قول خوري أَرس: "**إِطباق الفم، وإِغماض العينَيْن، وفتح القلب**".

صمت اللسان يعتقنا من الثرثرَة الباطلة، ويهبنا علمًا وفيرًا للتَّحدُّث عن المسيح؛ وصمت العينَين يُقصي عنّا أَشباح البُطل والزيف، ويمكِّننا من رؤية الله، فالعينان نافذتان، ويمكن أَن يعبر من خلالهما الله أَو العالَم إِلى قلبنا، وغالبًا ما تلزمنا شجاعةٌ فائقةٌ كي نبقيهما موصدتَيْن؛ وصمت الأُذنَينْ يدرأ ضجيج العالم، ونداءات ترَّهاته، ودعواته الباطلة.

وصمت القلب يحرِّره من هواجسه، وأَهوائه، وذكرياته، وميوله الوبيلة، فيستطيع الاندماج بالحبّ الصافي الذي لا كدَر فيه، وبالسلام الراسخ الذي لا يزعزعه قَلَقٌ؛ وصمت العقل يحرِّره من شكوكه وصراعاته، فيستنير بنور الحقيقة الأَبديَّة. وفي هذا السياق قالت الأُمُّ تيريزا:

« إنّنا في حاجةٍ إِلى الصمت لكي نكون وحيدين مع الله، ولكي نكلّمه، ونتملّى من كلامه، ولكي نتجدَّد ونتحوَّل. الصمت يهبنا نظرةً قشيبةً على الحياة، ويملؤنا بطاقة الله التي تمكِّننا من العمل بفرحٍ. ينبغي أَن ننشد الصمت الداخليَّ، صمتَ العينَيْن اللتَيْن ينبغي أَن نُغمضهما عن أَخطاء الآخرين، وعن كلِّ ما من شأنه أَن يبعث في النفس الريبة والاضطرابات؛ وصمت الأُذنَيْن اللتَيْن عليهما الإصغاء إِلى صوت الله، وصيحات الفقير المحتاج؛ والإمساك عن سماع صوت الشرّير، وَالطبِيعَة البشريَّة المنحطَّة، والأَلفاظ المنافية للمحبَّة. وصمت اللسان بتسبيح الله، وبنشر كلمته المحيية التي تنير، وتلهم، وتوفِّر السلام، والرجاء، والفرح، وبتفادي كلِّ قول ينطوي على ظلمةٍ، واضطرابٍ ووجعٍ، وموتٍ؛ وصمت الفكر الذي ينبغي أَن يظلَّ مشرَعًا على الحقيقة، وعلى معرفة الله في الصلاة والتأَمُّل، ومُغْلَقًا على الأَكاذيب، والترَّهات، والأَفكار المدمِّرة؛ وصمت القلب، كي نحبّ الله بكلِّ نفسنا، وكلِّ فكرنا، وكلِّ قوّتنا، ولكي نحبَّ بعضُنا بعضًا، ونتجنَّب الأَثَرةَ، والبغض، والحَسَد، والطمع، ولا نرغب إِلاَّ في الله وحده ».

وحينئذٍ، يمتلئ قلبنا بالله، والحبِّ، والعطف، والإِيمان، ويتسنّى للِّسان أَن يتلفَّظ بكلام الله المحيي؛ وتغدو قدرة الله قدرتنا، فنقوى على تحقيق كلّ مهامّنا كما هو يشاؤها؛ وبالإِجمال، تقول الأُمُّ تيريزا: "**الصمت يولِّد فرح القلب، وفرح خدمة الله، وقيامنا بواجبنا**". ويغدو ممكنًا تنفيذ نصيحة القدّيس أوغوسطينوس: "**فلتمتلئوا، أَوَّلاً، وبعدئذٍ، سيكون بوسعكم إِعطاء الآخرين**".

وخير مثالٍ للصَّمت والتأَمُّل تجده الأُمُّ في اعتكاف يسوع، في عزلةٍ تامَّةٍ، طيلة أَربعين يومًا، وإِنفاقه ساعاتٍ طوالاً، قلبًا لقلبٍ مع الآب، في صمتٍ مطلقٍ. فذاك الذي تكلَّم بسلطانٍ، كان قد أَمضى شبابه صامتًا.

وأَسبغت الأُمُّ على الحياة التأَمُّليَّةِ بُعْدًا جديدًا، عندما جعلت نشرَ كلمة الخلاص عنصرًا هامًّا من عناصرها، فأَبَت أَن تظلَّ أَخواتُها المتأَمّلات منحجباتٍ عن العالم، بل أَوعزت إِليهنّ بالشخوص إِلى الشوارع، والساحات والحدائق، لإِسماع كلمة الخلاص، وإِشباع جوع الناس إِلى الله، وحثَّتْهنَّ على مزيدٍ من الصلاة، كي يساعدهنَّ الربّ في نشدانهنَّ للنفوس المتعطّشة إِلى الحياة الروحيَّة، وكي يلهمهنَّ الكلمات

الكفيلة ببعث السلام في القلوب القلقة، وإنارة العقول الحائرة، وقيادة التائهين إلى بيت الآب، فينفّذنَ قول القدّيس دومينيك: "**أعطوا الآخرين ما تأمَّلتموه، وأعلنوا ما كشفتْه لكم الصلاة عن مجد الله**".

وكانت الأُمُّ قد أَوجزت رؤيتها للتأمُّل كعنصرٍ جوهريٍّ من عناصر رسالة جمعيَّتها: "**في رأيي ليس التأمُّل احتباسًا في حجرةٍ مظلمةٍ، بل إتاحتنا ليسوع أَن يعيش آلامه، وحبَّه، وتواضعه فينا، وأَن يُصلّي معنا، ويُقيم معنا، ويقدِّس العالَم من خلالنا**". ولكي نستطيع أَن نعمل، ونرى، ونحبّ، ينبغي أَن نكون متّحداتٍ اتِّحادًا وثيقًا بالمسيح، وأَن تكون صلاتُنا عميقةً.

ولقد أَجمع الذين عرفوا الأُمَّ عن كَثَب أَنَّ رؤيتها، وهي تصلّي، حَدَثٌ مدهشٌ ومُعْدٍ، وتجربةٌ فذّةٌ، لشدَّة اندماجها في الله، عندما تحني رأسها فيلامس الحضيض تعبيرًا عن إجلالها لله، وذوبانها فيه، واستسلامها المطلق له. كم هي ضئيلةٌ، في صَدْر المُصلّى المُعْتِم، ممحيَّةٌ، جاثيةٌ، محدَوْدبةٌ، مشبكة اليدَيْن، أَو ممسكةٌ بمسبحتها، في تقوًى صوفيّةٍ تتخطّى المألوف! عيناها محدِّقتان إلى القربان المقدَّس، ويُهَيْمن عليها تواضعٌ سحيقٌ. ولا مفرَّ لمن يعرف من هي من أَن يتخلّى عن صَلَفه، وأَن يُفتَن بهدوئها، وسجوِّها، وفرحها وتقواها. إنَّ وجهها، وهي تصلّي، مشروع إيقونةٍ.

وقد احتلّت العذراء مَرْيَم حَيِّزًا هامًّا في تعبُّد الأُمِّ تيريزا وصلاتها؛ فالعذراء كانت لها، دائمًا، النموذج الأَسمى للتّأمّل الصامت في أَقوال يسوع، وللحبّ المبذول خدمةً فرِحةً مجّانيَّةً. ولا عجب، بالتالي، إن انتصبت، في أَماكن عديدةٍ من مراكز المرسلات، تماثيلُ للعذراء، في أَشكالٍ متنوِّعةٍ: سيِّدة الحبل بلا دنسٍ، كما ظهرت في لورد، أَو ملكة السماء محاطةً بالنجوم والأَنوار، أَو في مخايل امرأةٍ هنديَّةٍ ترتدي ثوبًا أَبيض، وقدماها تطآن زهرة لوتوس.

ولم تخلُ، يومًا، حقيبةُ الأُمِّ تيريزا من تمثالٍ للسَّيِّدة العذراء، فعلى حدّ قولها: "**مريم، دائمًا، رفيقة سفري، حيثما ذهبتُ**". وتلقي الأُمّ الضوء على تعبُّدها وتعبُّد أَخواتها، بقولها:

« **التعلُّق بسيِّدتنا العذراء، والثقة البنويّة العميقة، والمحبَّة التي تكنُّها الأَخوات**

لمريم، ليست بديلاً للتَّعلُّق الأَشدّ كثافةً، والأَكثر جوهريَّةً، التي يخصُّنَّ بها يسوع. إِنَّها ليست تقوًى بديلةً تنافس تلك، بل على نقيض ذلك، هذه التقوى الأُخرى، تدعم بذل الذّات التامّ للمسيح، والاقتداء بحياته وقداسته. مريم هي الصلة الأُولى بين السماء والأَرض. لقد تجسَّد ابن الله فيها وبها. وعلى الصليب أَعطاها تلاميذه، من خلال ذاك الذي أَحبَّه حبًّا جمًّا: القدّيس يوحنّا. وبذلك خلق المسيح صلةً أُخرى بين من يتبعونه بإِيمان: إِذ بات لهم وله أُمٌّ واحدةٌ، وبات بوسعنا أَن نقول ما قاله: "مريم هي أُمّي ».

وقد استجاب الله لصلواتها وصلوات أَخواتها، بفضل إِيمانها بقدرات الصلاة اللامحدودة، وبوعد يسوع في الإِنجيل، إِذ ما فتئت تردِّد: "**يجب تصديقه حرفيًّا**". فباعتمادها على وعد الله وعطفه، وبإِيلائها الربّ ثقةً مطلقةً، فازت بكلّ ما توسَّمت فيه إِسهامًا في إِقرار ملكوت الله.

ولئن هي أَفلحت في فعل ما فعلت، فلأَنّها "**امرأة صلاةٍ وإِيمانٍ، إِيمانٍ في الصلاة، وصلاةٍ يُساندها الإِيمان**".

ولا ريب أَنَّه كان لاستغراقها في الصلاة، ولقربها الدائم والحميم من الله الأَثَر الأَبلغ في صوْغ شخصيَّتها الفذّة.

ثمرةُ الصلاة: الإِيمان

الإِيمان، الذي يُغذّيه صبُوٌّ عارمٌ إِلى القداسة، نعمةٌ سنيَّةٌ ينفثُها الله في صدور جميع خلائقه، ولكن ليس الجميع، في تقبُّلها واحتضانها والعيش بها، سواسيةٌ. فثمَّةَ من يوصد دونها ذهنه وقلبَه، فيرفضها، ومن يغلِّب عليها الشهوة والأَنانيَّة والكبرياء، فينبذها، وثمَّة من يجاهد في سبيل الحفاظ عليها جهادًا مُضنيًا؛ وثمَّة من يولد في شبه دفيئةٍ تُعدُّه، منذ صغره، للتَّشبّث بها، غير أَنَّ العادة والرتابة غالبًا ما يفضيان، لديه، إِلى فتور الإِيمان، وإِخماد الرغبة في القداسة؛ وحينئذٍ لا بدَّ من بطولةٍ حقَّةٍ تذكي، كلّ يومٍ، جذوة الإِيمان، وتشحذ التطلُّع إِلى القداسة.

والأُمُّ تيريزا تنتمي إِلى هذه الفئة الأخيرة، فقد وُلدت في أَحضان الإِيمان، ورضعته، ونمت به، وأنمتْه فيها، وعاشت به حياتَها كلَّها، وقد اعترفت: "**في الثامنة عشرة قرَّرتُ**

هجر منزلي وموطني، وانتهاج درب الرهبنة، ومُذَّاك لم أشكَّ، لحظةً واحدةً، في كوني اتّخذتُ القرار السليم، فقد كانت تلك مشيئة الربّ، وكان ذلك اختياره".

لقد كان دربُها، دائمًا، من وضوح المعالم بحيثُ لم تحِدْ عن جادَّته، وكان الربّ الذي اتَّبعتْه من القُرْب الحميم بحيثُ لم تنفصل عنه يومًا؛ ومن خلال جميع أَقوالها وأَفعالها، تجلّى، أَبدًا، نور العنصرة الأُولى الذي سيظلُّ يتألَّق فيها حتّى يومها الأَخير.

إِنَّها معجزة عنصرةٍ دائمة التجدُّدِ، فهي لم ترتبْ، يومًا، في حبِّ يسوع لها وحبّها له، ولا في صدق إِنجيله الذي آمنت به حرفيًّا؛ ولا ريب أَنّ تلك هي ظاهرةٌ استثنائيَّةٌ في تاريخ الصوفيّة، إِذ قلّما نجا قدّيسٌ أَو مؤمنٌ من هجمة شكٍّ، أَو من اجتياز ليل ظلامٍ دامسٍ، توارى، في ثناياه، الله.

هذا التحرُّر من الشكوك والريب لا يتسنّى إِلاّ لمن أَفرغوا ذواتهم من كلِّ أَثرةٍ وطمعٍ في مغنمٍ شخصيٍّ، والتمسوا الله وحده، كما يتجلّى من عمل الأُمّ تيريزا، التي آمنت، وأَثبتت، في الواقع، أَنَّ ما من عملٍ يؤتي ثمارَ خلاصٍ، ما لم يكن عمل الله، وأَنّ ما من عملٍ جميلٍ إِلاّ ما قام على ثقةٍ بالربّ مطلقةٍ، وتجرُّد من كلِّ أَثرةٍ وأَنانيّةٍ من شأنهما إِصابة الإِيمان بالهزال، بل القضاء عليه؛ ولقد أَثبتت الأُمّ، أَيضاً، أَنَّ الإِيمان، لكي يكون صادقًا وفاعلاً، ينبغي أَن يعبِّر عن ذاته ببذلٍ سخيٍّ، فالحبُّ والإِيمان يسيران جنبًا إِلى جنبٍ، ويكمِّل أَحدهما الآخر.

وأَنّى للأُمِّ تيريزا أَن تشكَّ في الربّ، وهي التي عاشت معه لحظةً فلحظةً، وساعةً فساعةً، وكرَّستْ له قلبَها، وعَقلَها، وكلَّ كيانها، ووقفت على خدمته كلَّ ثانيةٍ من عمرها، فلم يبقَ لديها مُتَّسعٌ من وقتٍ للتَّفكير في ذاتها، ولا طاقة على الشعور بغير حبّ الله؟

هذا التعايش الحميم الدائم مع الربّ قد فجّر قوَّة الأُمّ تيريزا الجبَّارة، وديناميكيَّة عملها الفذّ ووحدته، ومكَّنها من إِنجازاتٍ عظيمةٍ في بساطةٍ متناهيةٍ، ومن ارتقاء أَشمخ ذرى القداسة بخطواتٍ وئيدةٍ، مطمئنَّةٍ، ومن البقاء ثابتةً في عالمٍ دائم التحوُّل والتبدُّل، وصادقةً وسط مهازل التاريخ وزَيْفه.

وقد تكون الديناميكيَّةُ وليدةَ الهوى أَو الطموح، أَو حساب المصلحة، ولدى قلَّةٍ

من الناس قد يكون دافعها الإِيمان. والأُمُّ تيريزا خير مثالٍ لتلك الفئة التي يحدوها الإِيمان، إِيمانٌ واثقٌ، بعيدٌ، كلَّ البُعد، عن الإِيحاء الذّاتيّ أَو التعصُّب، إِيمانٌ يُفرز قوَّةً داخليَّةً لا تقاوَم.

والإِيمان هو الوسيلة الوحيدة التي مكَّنت مرسلات المحبَّة من النهوض بدعوتهنَّ الخاصَّة، على حدِّ قول الأُمّ: "**تلزمنا عيون الإِيمان العميق كي نرى المسيح في الأَجساد المنهكة، وتحت الأَسمال المنفِّرة، التي تخفي، بين طيَّاتها، أَجمل بني البشر؛ وتلزمنا يدا المسيح لكي نلمس، بحبٍّ، تلك الأَجساد التي قرَّحها الأَلم**".

إِنَّ العمل الذي اضطلعتْ به الأُمُّ تيريزا لا يُساعد، في ذاته وطبيعته، على ممارسة الإِيمان، لتعرُّضه، في كلِّ لحظةٍ، إِلى ما يُظهر الله في مظهر الظالم العاتي، اللاّمبالي بآلام خلائقه، وإِلى ما يبرز هيمنة قوى الشرّ. والإِيمان الحقُّ هو الذي لا تزعزعه هذه الظَّواهر، ويظلُّ ثابتًا مع ذلك، و"رغم كلِّ شيءٍ".

وربَّما كان التناقض الجذَّاب، في شخصيَّة الأُمِّ تيريزا، يكمن في أَنَّها، مع غوصها الدائم في مستنقعات الأَلم والبؤس البشريَّيْن، تُشِعُّ، دائمًا، سكونًا وفرحًا، ومع تطوافها وسط مآسٍ محيطةٍ، لا تريم عن إِيمانها الصامد بحبِّ الله الجمّ، "**الحبّ رغم كلّ شيءٍ**"، على حدِّ قول الأَب پيير. فقد يتبادر إِلى الأَذهان أَنَّ إِلهًا قادرًا على إِزالة الأَلم من الوجود، ومع ذلك يسمح باستمراره، إِنَّما هو وحشٌ وليس إِلهًا محبًّا؛ بيد أَنَّ الأُمَّ تيريزا ترى الأَمر على نقيض ذلك، فالأَلم والموت جزءٌ جوهريٌّ من علاقتنا بالخالق، وعامل سموٍّ لوضعنا البشريّ. إِنَّ الذين يرون في الأَلَم، والشيخوخة، والوهَن، انحطاطًا للإِنسان، قد لا يجدون غضاضةً في إِزالة المتألّمين والشيوخ، والقضاء على الضُّعفاء، في حين أَنَّ لا شيء يجمع البشر مثل تجربةِ الأَلم المشترك، والصليب الذي يرفض الكثيرون النظر إِليه، والإِصغاء إِلى رسالته؛ ففي الجلجلة، اقترن أَعظم أَلمٍ بأَعظم فرحٍ، وأَعظم حبٍّ.

يقول الأَب پيير: "**الإِيمان هو الحبَّ، رغم كلِّ شيءٍ؛ والحبّ هو أَن يُجرَح المرء بأَلم الآخرين، وأَن يتَّحد معهم لكي يتذوَّق، ولو للحظات، ووسط الدموع، الفرح المستعصي على الوصف، النابع من شعورنا المشترك بأَنَّ كلاًّ منّا محبوبٌ، وقادرٌ على الحبّ**"، ومدعوٌّ إِلى بذله.

فالإيمان والحبُّ متلازمان، ولا إيمان مع الأَنانيَّة، ومن افتقر إِلى الإيمان عثر عليه في خدمة الآخرين، بلا حسابٍ، وحتّى الوجع. وفي هذا السياق تقول الأمُّ تيريزا: "**ينبغي أَن نؤمن، وإِيماننا يتجلّى بالحبّ. أَحبّوا حتّى يوجعكم الحبّ، فالحبُّ الحقُّ يوجع دائمًا**".

وقد أَقرَّت الأُمُّ تيريزا، أَيضاً: "**الإيمان يجعل عملنا سهلاً، أَو، على الأَقلّ، يساعد على احتماله؛ وما لم يكن، ثمَّة، إِعدادٌ ملائمٌ، ودعواتٌ خاصَّةٌ، لبات هذا العمل ذاته عائقًا في وجه حياتنا الروحيَّة، إِذ إِنَّنا نواجه، باستمرار، التجديف، والكفر، والإِلحاد**". "**الإيمان هو قدرةٌ لنا وطاقةٌ، فكما أَنَّنا لا نرى بلا عيونٍ، ولا نسير بلا أَرجلٍ، لن ندرك الله بلا إِيمانٍ**". وكانت الأُمُّ قد أَلقت الضوءَ على سرِّ إِيمانها بقولها: "**إِنّني أفتقر تمامًا إِلى الخيال، ولا أَستطيع تخيُّل الله الآب، ولكنَّني أَرى يسوع**". وعلى هذه الرؤية أَشادت إِيمانها.

بفضل هذا الإِيمان المتبصّر الواثق بالربّ، لم تُحجم الأُمُّ، يومًا، عن أَيِّ عملٍ توسَّمت فيه خدمةً للمحتاجين، وتعبيرًا عن حبِّها لله، ولم تصدَّ أَيًّا ممَّن طرقوا بابها، والتمسوا غوثها؛ وبات كلُّ شيءٍ يبدو لها سهلاً وطبيعيًّا، حتّى ما بدا لسائر الناس متعذِّرًا.

رغم كلّ بواعث الشكِّ، واليأس والإِحباط، آمنت الأمُّ تريزا ورجت، وعلى هذين الإِيمان والرجاء بَنَتْ، مع أَخواتها، كلَّ مشاريعهنَّ، وبَنَيْنَها، أَيضاً، على حبٍّ عارمٍ، حبٍّ لله، ولجميع الذين اعتبرهم يسوع إِخوته، أَي البشر أَجمعين، ولا سيّمَا المتأَلِّمين منهم، والذين انتُهِكت كرامتهم.

لقد قال القدّيس أوغوسطينوس: "**من يؤمن بالله يلمسه**"؛ وقد لمست الأُمُّ تيريزا وأَخواتها الله، بلا انقطاعٍ، من خلال إِيمانهنَّ بحضوره الحقيقيّ في الإِفخارستيّا التي يشتركنَ بها، كلَّ صباحٍ، ويستغرقْنَ في تأَمُّلها، كلَّ مساءٍ؛ ومن خلال إِيمانهنّ بحضوره، الذي لا يقلّ حقيقةً، في أَعضاء المتأَلِّمين الذين يرعينَهم، وفي نفوس المُعْوزين الذين وقفْنَ حياتهنَّ على مؤاساتهم وتعزيتهم، ومن خلال الصلاة والتأَمُّل اللذيْن يُبقيانهنَّ على صلةٍ حميمةٍ دائمةٍ به. وتتميَّز الأُمُّ تيريزا بإِيمانها بسرّ الإِفخارستيّا الذي ما برح من الأَسرار التي يصعب إِدراكها؛ فيوم أَعلنه يسوع، ازورَّ عنه كثيرون من أَتباعه، وقد

تعذَّر عليهم اكتناهُه، وهو ما زال، حتّى اليوم، مُسْتَغلِقًا على الكثيرين؛ غير أَنَّ الأُمَّ، بإِيمانها البسيط، وبحبِّها المبذول في الخدمة، قد نفذت إِلى مكامنه الخفيَّة، وتوغَّلت في صميمه، كما لم يفعل، ربّما، أَحدٌ من اللاهوتيّين، فلمست، في القربان، وجود يسوع الفعليّ الذي ساعدها على لمسه في أَجساد إِخوته المتأَلِّمين، كلَّ يومٍ، فكانت لها الإِفخارستيّا، دفعًا ومعين قوَّةٍ لمزيدٍ من الخدمة المتفانية، وكانت تلك الخدمة نبراسًا يسكب مزيدًا من نورٍ على سرّ الإِفخارستيّا، يُعينها على اختراقه والاستغراق فيه.

هذا الاستغراق في سرّ الإِفخارستيّا، مكّنها من توغُّلٍ أَبعد مدًى في سرَّي التجسُّد والفداء، فباتت ترى الله في كلِّ إِنْسَانٍ، لأَنَّ يسوع تأَنَّس لافتداء جميع بني البشر، أَبناء الله الواحد، أَيًّا كان دينهم، وأَيَّة كانت عقيدتهم؛ وباتت تراه، أَيضاً، متأَلِّقًا في عيني كلّ طفلٍ، فالطفل مثالٌ فريدٌ للإِيمان؛ لا بل هي أَمست ترى في الأَلم نفسه دليلاً على حبِّ الله، فالمصلوب مُشرعٌ، أَبدًا، ذراعَيْه، لضمِّ كلِّ متأَلِّمٍ، ورأسه منحنٍ لتقبيله؛ ولم تنِ الأُمُّ تؤكِّد: "**عندما تتأَلّمون، ففي ذلك الدليل على أَنَّ الله يُعنى بكم، فهو، عندئذٍ، يقيم إِلى جانبكم، ولا يُشيح عنكم نظرَه. الأَلَم يُشرع فينا مجالاً، ويطرد "أَنانا" الصغيرة، كي يفسح حيِّزًا لله**".

وهكذا حقَّ للأُمِّ تيريزا أَن تعلن: "**لم أَدرس اللاهوت، ولكنَّني أَجهد، دائمًا وببساطةٍ، أَن أَعيشه**". كثيرون هم الذين يتكلَّمون في الإِيمان، ولكنّ قلّةً تعيشه، والأُمُّ تيريزا من أكثر من عاشوا إِيمانهم بكثافة. ولقد رأى فيها البابوات المتعاقبون واحدًا من معلِّمي الكنيسة. فهي، وإِن لم تؤَلِّف مجلَّداتٍ مسهبةً في اللاهوت، لاهوتيَّةٌ بملء معنى الكلمة، فاللاهوتيُّ ليس من يُخضِع الله لتحليلات عقله الباردة، بل هو من اختبر الله، ومن همس الله كلماته في أَعماق كيانه، فبات بوسعه أَن يتكلَّم عن الله، كلامًا حيًّا. إِنّها لاهوتيَّةٌ لأَنَّها عاشقةٌ لله، وعاشقةٌ للبشر، ولأَنَّها تنثر في العالَم مقاطع من الإِنجيل كانت شبهَ منسيَّةٍ؛ وفي هذا سرُّ إِشعاعها.

ومن الحقائق التي احتلَّت من إِيمان الأُمّ تيريزا مكانةً فريدةً يقينُها بأَنَّ الموت ليس نهايةً بل هو بدايةٌ، وامتدادٌ أَبديّ لحياةٍ بدأَت على الأَرض، وستكتمل وتستمرّ في السماء؛ وقد أَكْسبهَا هذا الإيمان سكينةً أَمام جميع أَحداث الحياة، وحرَّرها من كلِّ خوفٍ، فمن آمن بالله لم يَهب الموتَ، ولا أَيّ خطرٍ سواه.

ومن العقائد التي آمنت بها الأمُّ تيريزا بقوَّةٍ، أَيضاً، شراكة القدّيسين التي حملتها على عقد شراكةٍ روحيَّةٍ كثيفةٍ خصبةٍ مع أُلوف المتــألِّمين والمُقعَــدين، والرهبــان المتأمّلين والراهبات المتأَمِّلات، والمتعاونين الذين تسلَّلتْ إِلى نفوسهم روحانيّــة الأُمّ تيريزا، ليقينها بأَنّ لصلوات كلِّ أُولئك أَثرًا بليغًا في تزويد أَخواتها العاملات بالمنعة، والطاقة، والقداسة. وقد عزت الأُمُّ، يومًا، ازدهارَ جمعيَّتهــا إِلــى مركــز "نيرمــال هرايدي"، موئل المحتضرين في "كاليغات"، إذ إِنّ أُلوفًا من الفقراء لقوا حتفهم فيــه، وهم يؤدّون فعل حبٍّ على سرير موتهم، ولم يرفض أَحدٌ منهم المضيَّ، راضيًا، نحو الله؛ ومن ثمَّ، لا عجب في أَن تنصبَّ نعمةُ الله على مشاريعها.

ولقد صرَّحت الأمُّ تيريزا، في هذا السياق: "**غالبًا، عندما يرهقني العمل، يجول بخاطري المرضى المتعاونون معنا، وأُخاطب يسوع: "أَلقِ أَنظارك علــيهم، أبنائــك أُولئك المتألِّمين، وبارك عملي حبًّا بهم". وفي الحال ينتابني شعور بالارتيــاح. إِنّ هؤُلاء المتعاونين المرضى هم كنزُنا الكمين، وقوَّة مُرسلات المحبَّة السرِّيَّة؛ وإِنّني، شخصيًّا، أُونس الكثير من الفرح، وتجتاح نفسي طاقةٌ جديدةٌ، كلما فكَّرتُ بمن هــم متَّحدون معنا روحيًّا**".

وقد ولَّد فيها هذا الإِيمان ثقةً في الله بلا حدودٍ، واستسلامًا مُطلَقًــا بــين يديــه حرَّراها من كلّ خوفٍ، ودفعاها إِلى خوض مغامراتٍ مدهشة، تبــدو حمقــاء، فــي اطمئنانٍ ورباطة جأشٍ، ليقينها الوطيد بأَنَّ العمل إِنَّما هو عملُ الــربّ، فــإِن كــان يبتغيه، حقًّا، ضمن له أَسباب النجاح، ومقوِّمات الحياة، وإِن لم يفعل، استــشفَّت فــي ذلك دليلاً على أَنّه غير راغبٍ فيه، فانصرفت عنه، غير نادمةٍ ولا محبطةً.

وتوضح إِحدى المرسلات في هذا الشأْن: "إِنَّ ثقتنا فــي العنايــة الإِلهيَّــة مــن الرسوخ بحيث لا نسعى إِلى تخزين ما قد نحتــاج إِليــه، ولا نعتمــد، فــي تــأمين احتياجاتنا، إِلاّ على ما نُعطى على نحوٍ عفويٍّ، غير متوقَّعٍ. هكــذا سنــستمرُّ فــي استدرار بركاتِ الله، ولا سيّمَا إِن نحن حافظنا على عيشة التقشُّف".

من كان هاجسَه المالُ والامتلاك، سعى تلقائيًّا، وَأَكْثَر فأَكثر، إِلى المزيد منهما، وسيطرت تلك الرغبة على كيانه، فتبخَّرت ثقته في الله. أَمّا من اعتمد، اعتمادًا كلّيًّا،

على العناية الإِلهيَّة، فهو ينعم بحرِّيَّةٍ لا حدود لها، في اتّحادٍ لا يني يزداد التصاقًا بالله؛ ولا غرو أَنَّ هذه الثقة المطلقة بالله كانت مفتاح نجاح الأُمِّ تيريزا، وازدهار جمعيَّتها. أَلم يقل القدّيس يوحنّا الصليبي: "لا يمكن لله إِلهام رغباتٍ يتعذَّر تحقيقها؟" والربّ، عندما دعا الأُمّ إِلى العيش عيشة الفقراء، تعهّد بتأمين احتياجاتها، واحتياجات أَخواتها وجمعيَّتها، فانطلقت على دروب المجهول، غير وجلى ولا هيَّابةٍ، مدركةً أَنَّ عليها الاكتفاء بالزاد الضئيلِ الذي باشرت به رسالتها الجديدة، والمضيّ، خطوةً خطوةً، عبر أَعمالٍ صغيرةٍ، مهتمَّةً بالحاضر، غير قلقةٍ على الغد، فكلُّ قلقٍ من هذا القبيل، إِنّما هو ارتيابٌ في الله، وهي موقنةٌ بأَنَّ يسوع يُطالبها بالاطمئنان إِليه وحده، واضعةً ثقتها فيه وحدَه، مستسلمةً له من غير تحفُّظٍ؛ وقد برَّر يسوع هذا الاستسلام وكافأه، فالأُمُّ تيريزا تعترف: "**كلُّ يومٍ من أَيّامي مفاجأَةٌ لي، فأَنا لا أَطلب، أَبدًا، مالاً، ومع ذلك أَشهد باستمرار ولادة مشاريع جديدةٍ. كلُّ ذلك يحدث لأَنّني مستسلمةٌ استسلامًا كاملاً بين يدي الله**".

وعن الأُمّ تيريزا كتب الأَب هنري: "إِنَّ أكثر ما يثير الدهشة هو مقدار الخير الجمِّ الذي حقَّقتْه القدرةُ الإِلهيَّة بواسطة هذه الأَداة الوضيعة. إِنَّ الربّ يستخدم هذه المرأة بخصالها العظيمة، وبنقائصها، أَيضاً، مثل ضآلة ثقافتها، كي تنجز عمله، لأَنَّها خاضعةٌ له خضوعًا تامًّا. إِنَّها تطيع كلَّ ما يوحي لها أَو يأمرها به، من غير أَن تطرح سؤالاً. إِنّها تعمل في ثقةٍ مطلقةٍ بقدرته، بحيثُ لا يبدو لها أَمرٌ مستحيلاً. إِنَّ كلَّ ما تفعله، فبالله تفعله، والربّ يستخدم خصالها الروحيَّة، وأَوهانها، كي يؤتي بها ثمارًا مدهشةً".

كلّما التفتت الأُمُّ إِلى المهامّ الجسام الموكلة إِليها، ازدادت نحو الربّ اندفاعًا، وبين يديْه استسلامًا، ومنه التماسًا للعون. أَولم تُصرِّح: "**إِنّني أَحتاج إِليه أَربعًا وعشرين ساعةً في الأَربع والعشرين ساعةً، ولو كان، ثمَّة، مزيدٌ من الساعات لازداد احتياجي إِليه**"؟

وكلّما اشتدَّت الصعاب عتوًّا، ازدادت هي توغُّلاً في تسليم أُمورها للرَّبّ: "**عندما يبدو لي كلُّ شيءٍ مضطربًا، وأُونس أَنّني نظير سفينةٍ لا دفَّةَ لها، عليَّ أَن أستسلم ليسوع كلِّيًّا، وأُحجم عن قيادة عمل الربّ**".

وهي، بُغيةَ ضمان استمرار مسيرة جمعيَّتها على نفس السراط، لا تنــي تحــثُّ أَخواتها على انتهاج الاستسلام عينه مردِّدةً: "**دعوا يسوع يــستخدمكنَّ مــن غيــر استئذانكنَّ، وعليكنَّ أَن تكنَّ أَدواتٍ طيّعاتٍ بين يديه، وآنيةً شفّافةً تُشعُّ حــضورَه، يحيا فيكنَّ، ويتجلّى من خلالكنَّ**".

لقد كانت، بكلِّ كيانها، وكلِّ حياتها، أَداةً بتصرُّف المسيح، وقد اقتضى منها ذلــك التجرُّد من ذاتها، وأَنانيَّتها، وأَهوائها، وإِفراغ ذاتها من كلِّ ما ليس لله، كي يحتلَّها الربّ بالكامل، فهي موقنةٌ أَنَّ "**الله لا يستطيع أَن يفعل شيئًا، في إِنسان ممتلئٍ بذاته. عليَّ أَن أُفرغ ذاتي من ذاتي إِفراغًا تامًّا، كي أُتيح له أَن يفعل ما هو يشاء. أَروع ما فــي الله أَنَّه لا يفرض ذاته على أَحدٍ قسرًا، وهو لا يمتلكنا إِلاّ بقدر المكان الذي نضعه تحــت تصرُّفه. حالما يُفرغ امروٌ ذاته من ذاته، كلِّيَّةً، يمتلك الله، مدى حياته**". وتــضيف الأُمّ تيريزا باندفاع: "**إِنّني مستعدَّةٌ للتَّخلّي عن حياتي، ولكن لن أَتخلّى عن إِيماني**".

وهي لا تني تذكِّر: "**ما نحن سوى أَدواتٍ صغيرةٍ، ولكنَّ تلك الأَدوات، مجتمعةً، بين يَدي الربّ، كفيلةٌ بتحقيق المعجزات... علينا أَن نضع أَيدينا وعيوننا وقلوبنــا بتصرُّف المسيح كي يعمل من خلالنا، وكلّما أَمعنّا قربًا من يسوع، ازددنــا قربًــا، بعضُنا من بعض، وازددنا التحامًا بالفقراء**".

والأُمُّ موقنةٌ أَنَّ الإِيمان، مثل كلِّ قوّةٍ حيَّةٍ، إِن لم يَنْمُ، هزُلَ ومات، لذلك لم تكفَّ يومًا، عن دعوة أَخواتها، – ودعوتنا جميعًا – إِلى إِنماء الإِيمان وإِنضاجه بممارســة حياةٍ مسيحيَّةٍ كثيفةٍ، خصبةٍ، وبالصلاة، والرجاء، والحبّ؛ فالإِيمــان، مــع الرجــاء والحبّ، الفضائل الثلاث الأَساسيَّة للحياة الداخليّة. وإِنماء الإِيمان يقتــضي، أَيــضاً، معرفة الذَّات على نحوٍ أَدقّ، فهذه المعرفة تضعنا أَمام أَوهاننا وخطايانا، فتولِّد فينــا التواضع، والتسامح حيالَ ضعف الآخرين، وتعمِّق شعورَنا بالحاجة إِلى الله، وتزيدنا اعتمادًا عليه، والتصاقًا به، حبًّا له، والتماسًا لوجهه بتقديس الذّات. وهي تؤكّد:

« سيكون نشاطنا رسوليًّا بقدر ما نسمح للمسيح أَن يعمل فينا ومــن خلالنــا. علينا أَن نصبح قدّيسين، لا لمجرَّد الرضى عن ذواتنا، بل لأَنَّ ذلــك هــو الــسبيل الوحيد الذي يؤَهِّلنا لإِفساح مكانٍ ليسوع في ذواتنا، ولكي نتيح له أَن يحيــا مــلءَ حياته فينا... ينبغي أَن نكون مثل زجاجٍ شفّافٍ يُرى الله من خلاله ».

وهذا يقتضي حياةً منزَّهةً من كلِّ شائبةٍ، وطهرًا لا كَدَر فيه، "**فكلُّ كَدَرٍ يلوِّث الطهر ستارٌ يحجب رؤية الله. وليس الكَدَر هو الخطيئة بحقّ الطهارة فحسب، بل كلَّ ما يحول بنا دون الله، ويثنينا عنه، وكلُّ ما يُنقصُ محاكاتَنا للمسيح، كلُّ ما هو بغضٌ، وغيــاب محبَّة. إن ملأَتنا الخطيئة، تعذَّر على الله ملؤُنا، فالله نفسُه لا يقوى على ملءِ ما هــو ممتلئٌ: لذلك نحن في حاجةٍ إلى الغفران، وإلى إفراغ ذواتنا لكي يملأنا الله**".

يسوع هو النور، والمرسلات هنَّ الأَسلاك الكفيلة بإشعاع هذا النور، ولكــن "**لا جدوى من الأَسلاك الدقيقة في المصباح إن لم يمرّ بها التيّار. أَنتم وأَنــا الأســلاك، والربّ هو التيَّار، وعلينا تمكين التيّار من العبور فينا، ومن استخدامنا لإشعاع النور في العالم**". وبالتالي، فعلى كلّ مرسلةٍ "**أن تدع يسوع يُشعُّ من خلالها، ويحيا حياتــه فيها، بين الأَكواخ، وأن يجد فيها المريض والمتأَلِّم ملاك عزاءٍ ومؤاساة، حقًّــا، وأَن تدع أَولاد الشوارع يتعلَّقون بها لأَنّهم يذكِّرونها بأَنَّ المسيح هو صديق الصغار**".

وتُهيب الأُمّ بأَخواتها: "**امضينَ قُدُمًا في إعطاء القريبين منكنَّ يسوع، لا بالكلام، بل بالقدوة، وبالحبّ الذي يجمعنا، بإشعاعنا قداسته، ونشر شذا حبِّه، حيثما ذهبتنَّ. ولتكن كلُّ قوَّتكنّ في فرح يسوع. كنَّ سعيدات وفي سلامٍ. إنَّكنَّ خاصتّه، فقلنَ لــه: "إنّني لك، ولو أَنَّك قطَّعتني إربًا إربًا، لكان كلُّ جزءٍ منّي بأَكمله لك**".

وقد عاشت الأُمُّ في أَغوار حضور الله، وفي اتِّحادٍ دائمٍ ووثيقٍ معــه، إلــى أَن تجلّى من خلالها، فاستطاعت التأكيد: "**حياتي مكرَّسةٌ للمسيح، بهِ أَتنفَّس، وبه أَرى؛ هو الذي يفعل كلَّ شيءٍ، لا أَنا. أَنا واثقةٌ من ذلك ثقةً مطلقةً**". وبذلك سلكت طريقًا معبَّدةً نحو القداسة.

والقداسة، في نظر الأُمِّ تيريزا، "**ليست تَرَفًا موقوفًا على الــبعض، بــل هــي واجبي وواجبكم، وفرضٌ على الجميع، وبلوغُها بسيطٌ، فلئن، نحن تعلَّمنا الحــبّ، تعلَّمنا، أَيضاً، أَن نكون قدّيسين. وإن نحن شئنا أَن نتأَهَّل للحبّ، توجَّب علينــا أَن نصلّي. وشيئًا فشيئًا، تخلق فينا الصلاة قلبًا طاهرًا قادرًا على رؤيــة الله. وعنــدما نكتشف الله، لا يلبث حبُّه أَن يعتمل في أَعماقنا، وتغزونا رغبةُ الحبّ لا بالأَقوال، بل بالأَفعال**"، وعندما يعيش يسوع فينا، يتسنّى لنا أَن نهبه الآخرين.

والخطوة الأُولى نحو القداسة، تكمن في التصميم على بلوغها. وقلّما امتلك أَحدٌ مثلَ تصميم الأُمِّ تيريزا. وكانت شفيعتها، القدّيسة تيريزا الطفل يسوع، قد قالت: "**إِنَّ إِبليس يخشى النفوس التي تَتَمَتَّع بالتصميم**". ولا ريب أَنّ إِبليس كان يرتعد خشيةً من تلك الراهبة الضئيلة الطيْف، الفولاذيّة العزيمة، المدعوَّة الأُمَّ تيريزا، التي أَعلنت: "**بإِرادةٍ ثابتةٍ ومستقيمةٍ، سنحبُّ الله، وسنختاره، وسنُسرع إِليه، وسنظفر به**".

والتصميم يواكبه اتِّخاذ الخطوات الكفيلة ببلوغ الهدف؛ وها هي ذي الأُمّ تعلن: "**أُريد أَن أكون قدّيسةً، وهذا يعني أَنني أُريد تجريد ذاتي من كلِّ ما ليس الله؛ أُريد أَن أَعصر قلبي، وأُعرّيه، وأُفرغه من كلِّ شيءٍ مخلوقٍ؛ أُريد أَن أَعيش في الفقر والزهد، وأَن أَتخلّى عَنْ إِرادتي، وميولي، ونزواتي، وشهواتي العابرة، وأَحلامي؛ أُريد أَن أَجعل ذاتي عبدةً أَمينةً لمشيئة الله**". وتنفيذ مشيئة الله يعني الرضى بما يُعطينا، وإِعطاءَه بفرحٍ ما يأْخذه منّا، وإِفساح المجال للنعمة كي تعمل عملها فينا، باستسلامنا له. كلُّ ما يقتضيه يسوع منّا هو أَن نهبه ذاتنا، فنبرهن عن فقرنا ونكراننا لذاتنا بالكامل.

وبفضل حياتها الحميمة في الله، واستسلامها المطلَق له، تمكَّنت الأُمُّ من تحقيق ما وطَّنت عليه عزمها، فتسنّمت من القداسة قممًا شامخةً، وكانت قدّيسةً حيَّةً، نرى فيها ونسمع كيف يفكّر القدّيسون، ويعملون ويعيشون. وتجلَّت قداستها للجميع بحيثُ أَعلن الشيخ البُخاريّ، إِمام مسجد دلهي الأَكبر: "**إِنّها قدّيسةٌ، وستبقى خالدةً**".

والقداسة مثالٌ يدعو إِلى الاحتذاء به، وقوَّةٌ تحمل عدوًى خيّرةً، وفي هذا السياق تقول الأُمّ تيريزا: "**علينا أَن نكون ملءَ الحبّ، وملءَ الإِيمان، وملءَ الطهر، حبًّا بالفقراء الذين نخدمهم؛ ويوم نكون قد تعلَّمنا رؤية الله، وتبيَّنّا إِرادته، ستصبح علاقتنا بالفقراء وسيلةً لقداسة عظمى لنا وللآخرين**". ولا ريب أَنَّ الأمَّ كانت للكَثيرين حافزًا نحو القداسة، لأَنَّها، بإِيمانها اللاّمحدود، أَصبحت صورةً حيَّة ليسوع.

ولطالما ردَّدت أَنَّ القداسة هي دعوةٌ كلِّ إِنسانٍ، وعندما استُوضِحتْ عن النصيحة التي يحسن توجيهها للمتعاونين مع عملها في العالَم، أَجابت، بلا تردُّدٍ، وبإِيجازٍ: "**أَن يصبحوا قدّيسين**"، وأَن يُبرزوا، أينما وُجدوا، وأَينما وضعهم الربُّ، عطف الله وحبَّه، فيما حولهم.

أمّا المتطوِّعون الذين يقضون فترةً قصيرةً أَو طويلةً، في مساعدة المرسـلات، والذين قد لا يكون لعملهم، في ذاته، كبير شأنٍ، فتتمنّى لهم الأُمُّ أَن تكون تجـربتهم تلك خبرةً روحيّةً خصبةً، وخطوةً أُولى على درب القداسة؛ وهي لا تطلب منهم، بعد عودتهم إِلى بلادهم وأَعمالهم المعتادة، أَن يوافوا فقراءَها بالمـال والهـدايا، بـل أَن يظلّوا يذكرون يسوع، متّحدين معه بالصلاة، ناشرين محبّته وعطفه في جوارهم.

رَمْزُ الحبّ الفاعل

"**ثمرة الإيمان هي الحبّ**"، هذا ما صرَّحت به الأُمُّ تيريزا، وإِيمانها الذي سَـبرْنا عمقَه ورسوخَه قد آتى جنًى وفيرًا من الحبّ، حُبٍّ تُرجِمَ أعمالاً مدهشةً، وبذلاً بـلا حسابٍ، وعطفًا بلا حدودٍ، وخدمةً بلا هوادةٍ.

لقد كانت حياتها كلُّها مثالاً ساميًا لحبٍّ متدفِّقٍ، وغدا اسمها مرادفًا للحـبّ فـي المسكونة كلِّها. فقد كان حبُّ يسوع أسوتَها، وملهمَها، ودافعَها. ويسوع قال: "**ما من حبٍّ أَعظم من أَن يبذل المرءُ حياته عن أَصدقائه**"، وفي تيّاره، بـذلت الأُمُّ وأُلـوف أَخواتها حياتهنَّ في سبيل كلِّ مفتقرٍ إِلـى الحـبّ، إِكرامًـا ليـسوع، وللمحتـاجين، والمنبوذين، والمتألِّمين الذين تَمثَّل يسوع بهم.

قال القدّيس فرنسيس السالزي: "**قياس حبّ الله هو حبُّه بلا قياسٍ**". وسرُّ قداسة الأمِّ تيريزا أَنَّها أَحبَّت حبًّا منزَّهًا من كلّ قيدٍ، وهذا الحبُّ هو من الواقعيَّـة بحيـثُ يفيض منها تلقائيًّا، وبهدوءٍ، بحيث ينفذ تأثيره في جميع من يشهدونه.

قانون إِيمانها، ومصدر إِلهامها، ومُرتَكَز حياتها، ومنبع روحانيَّتها، قولُ يـسوع: "**كلُّ ما تفعلونه لأَحد أَصاغر إِخوتي، فلي تفعلونه**". وهي أَعلنت: "**لقد صدَّقت يـسوع حرفيًّا، فإِن شئتم الاقتداء بمثالي، فافعلوا ما فعلت تسمعوا الربّ يقول لكـم: "جعـتُ فأَطعمتموني، وعطشتُ فسقيتموني، كنتُ غريبًا فاستقبلتموني، وعريانًا فكسوتموني، ومريضاً فعدتموني، وسجينًا فزرتموني، فتعالوا يا مباركي أَبي**". ولقد امتدَّت خدماتها إِلى ضحايا جميع آفات عصرنا، كما كان من شأن يسوع أَن يفعل، لو كـان مـا زال يسير على أَرضنا، وبذلك نهضت شاهدةً على روحه، وحبِّه المعاصرين لكلِّ زمنٍ.

كلُّ حبٍّ بشريٍّ محدودٌ حتمًا، أَمَّا الحبُّ الذي كان يلهب نفس الأُمِّ تيريـزا فـالله

يملؤه، ومن ثمَّ هو حبٌّ بلا حدود؛ وهو ليس مجرَّد حبِّ إنسانٍ لله، أَو مجـرَّد حـبّ إِنسانٍ لإِنسانٍ، بل هو حبٌّ صوفيٌّ، حبُّ الله لأَبنائه أَجمعين، مساويًا فيما بينهم، فقلبها يتَّسع للبشر أَجمعين، إِذ إِنَّ جميعهم، في نظرها، أَبناء الله، الذين، من أَجلهم مـات المسيح، وجميعهم جديرون بحبّها. وإِن كان الآب قد أَحصى كلَّ شعرةٍ في رؤوسهم، وإِن كان يسوع لم يُقصِ أَحدًا منهم عن الخلاص، الذي في سبيله صُلِب، فمن الـذي يجسر على إِقصائهم عن تقدير البشر، ومن ذا الذي يستطيع أَن يقرِّر أَنَّ على حياتهم أَن تنتهي، أَو أَلاّ تبتدئ؟

وفي هذا السياق كتب "مالكولم موجيريدج": **"لم أَجد، قطُّ، معنًـى أَوفـر كمـالاً للمساواة الإِنسانيَّة ممّا وجدتُ في علاقات الأُمِّ مع الفقراء. إِنَّ حبَّها لهـم، الـذي يعكس حبَّ الله، يُساوي بينهم مساواته بين إِخوة أسرةٍ واحدةٍ وأَخواتها، أَيّةَ كانت الفوارق بينهم عقليًّا، وجمالاً، وسحرًا. إِنّها المساواة الوحيدة"**.

ويُصدي لهذا القول العالمُ اليهوديُّ إِيمانوئيل ليـڤيناس، الذي أَوجز انطباعه عن الأُمِّ تيريزا بتصريحه: "إِنَّها امرأةٌ قادرةٌ على توحيد البشر أَكثر ممّا تستطيع العقائـد والآيات. ولو أَنَّ الديانات قد عبَّرتْ عن ذاتها بأَمثال الأُمِّ تيريزا، لما حدثت الحروب الدينيَّة البتّة. ولكنّ تلك الحروب مستمرَّةٌ، اليوم، على نحوٍ خفيٍّ، فاترٍ... وفي إِزائها تمثِّل الأُمّ تيريزا الإِنسانيّةَ الأَكثر امتلاءً".

لقد اعترفت الأُمّ تيريزا: **"قالت القدّيسة تيريزا الطفل يسوع: "في قلب الكنيسة سأَكون الحبّ"، وهذا ما نحن عليه: حبٌّ في قلب الكنيسة"**. ولكنَّ حبَّها تخطّى تخومَ الكنيسة بالمعنى الحصريّ إِلى العالم أَجمع، كما يتَّضح من قولها: "نحن نعلم أَنَّ هـذا العالَم الذي يبدو شديد الثقة بذاته، قاسيًا وصلِفًا، في حاجةٍ إِلى قلبٍ، ونحن نريـد أَن نصبح لهذا العالَم قلبًا مفعمًا حبًّا".

ولكن، مع مسكونيَّتها الشاملة هذه، لم تَعْلَق الأُمُّ بفخٍّ خطيرٍ، كثيرًا ما وقـع فـي شباكه منظِّرون يتحدَّثون عن حبٍّ إِنسانيٍّ رحبٍ، مُبهَمٍ، ولكنَّهم يربأُون بأنفسهم عـن التنازل لمدّ يد العون لمحتاجٍ أَو متأَلِّمٍ يصدفونه في طَريقهم، أَو يـسكن علـى بعـد خطواتٍ منهم.

ولفظة "الحبّ" قد تُطلَق على مفاهيم من التبايُن بحيثُ قد تبلغ مبلغ التناقض؛ أَمّا الحبُّ الذي فهمته وعاشته الأُمّ تيريزا، فهو، قبل كلِّ شيءٍ، عطاءٌ وتضحيةٌ، وعمــلٌ محسوسٌ؛ وسخاؤُها لا ترافقه أَيّة شفقةٍ، وحنانها لا يحتاج إِلى ظرفٍ خــاصٍّ كــي يتدفَّق، بل هو اندفاعٌ تلقائيٌّ، يتفجّر من أَغوار ذاتها، جارفًــا حبًّــا يتخطّــى جميــع الحدود؛ وحبُّها ليس نظريًّا، بل هو خدمةٌ فعليَّةٌ، وبذلٌ حتّى الوجــع؛ لــيس عاطفــةً وانفعالاً، ولا هو خيالٌ وخواطر، فالأُمُّ تنأى بنفسها عن الكلمات الطنّانة، والأَهــداف المدهشة، ولا تضحّي، في سبيل البشريَّة، بأَيّ إِنسانٍ. وهي لا تتعامل إِلاّ مع أَفــرادٍ، فهي لا تؤمن إِلاَّ بيسوع واحدٍ، وتشاهده في كلّ فردٍ تنكبُّ على رعايته، وكأَنّه، دون سواه، يسوع عينه؛ وحبُّهَا له هو"افتداؤه"، والحلــول محلَّــه فــي محنتــه، وتحمُّــل مسؤوليَّته. حبُّها منزَّهٌ من كلّ عاطفيّةٍ وبيلةٍ، وكلّ رياءٍ. إِنّه حبٌّ واقعيٌّ، نــاريٌّ، لا شيءَ فيه رخوٌ أَو لزجٌ، حبٌّ يعبّر عن نفسه بأَفعالٍ بسيطةٍ، متواضعةٍ، إِنَّه نثرٌ بسيطٌ ينطوي على روائع شعريَّةٍ، لا بل شعرٌ رفيعٌ يسجّل، بشيءٍ من القــسوة، فــي نثــر الحياة اليوميَّة.

في معاييرها، ليس لجسامة الإِنجازات وتعدُّدها أَيُّ شأنٍ، بل الــشأْن كلُّــه لمــا يُسكَب في العمل من حبٍّ، بحيث تتساوى، في نظرها ونظر أَخواتها، كبار الأَعمــال وصغارها، وهذا ما يفسِّر إِيثارهنّ للمهامّ التافهة أَو المقزِّزة التي يأنفهــا الآخــرون ويصدفون عنها.

خدمتهنَّ البشرَ، من أَجل يسوع، تعني الموت معه لكي يعيش إِخوته المتــأَلِّمون، ويظفروا بنعمة القيامة؛ والموت مع يسوع لا يعني فقط الرضى بكلِّ ما هو صــغيرٌ وتافهٌ بطيبة خاطرٍ، بل السعي الدائب نحو كلِّ صــغيرٍ وضــئيل الــشأن. وحــبُّهنَّ مستوحى من مثال الصليب، ومنه أَدركنَ أَنَّ الحبَّ تضحيةٌ، وأَنَّ عليهنَّ المضيَّ فــي إِغداقه حتّى ينالهنَّ من العطاء الوجع، ومن الحبِّ الأَلم.

حبُّهنَّ استجابةٌ لصيحة المصلوب: "**أَنا عطشان**"، تلك الصيحة التي لا تني تتردَّد في حناياهنَّ مثل لازمةٍ موجعةٍ تذكِّرهنَّ بآلامه، ومثل نشيد حماسيٍّ يُضرم رغبــتهنَّ في نقع غلَّة هذا العطش، على غير اكتراثٍ بثَمَنٍ، فينبع كلُّ ما يفعلْنَ، وما يفكِّرنَ به، من نار تلك الرغبة المستعرة أَبدًا.

لقد تبنَّت الأُمُّ قول شفيعتها تيريزا الطفل يسوع: "**الحبّ هو عطاء كلّ شيءٍ، وعطاء الذَّات**"، فجلعت منه منهاج عملها وعمل مرسلاتها، وعملت بشعار يوحنّا الصليبي: "**حيثُ الحبُّ مفقودٌ، فلنضع حبًّا**". وقد عبَّرت عن حبّها بالخدمة، فأفصحت خدمتها عن حبِّها الجمّ.

إِغداق الحبِّ المجّانيّ، من أَعماق القلب، هو دعوة مرسلات المحبّة المميّزة؛ وما أكثر ما أكّدت الأُمُّ على هذا التميُّز، بإِعلانها أَنَّ مؤَسَّساتٍ حكوميَّةً وإِنسانيّةً عديدةً تُحقِّق الكثيرَ في مضمار الغوْث، بيد أَنَّ مهمَّة جمعيَّتها تكمن في تقديم شيءٍ آخر: حبِّ يسوع؛ فإِنَّ أَصغر بادرة حبٍّ أَوفرُ نفعًا من جميع الأَعمال مجتمعةً؛ ومن يحبّ الله حقًّا، يجد كسبًا ومكافأةً في فقدان كلّ شيءٍ، وفي فقدان نفسه، أَيضاً، من أَجل الله.

ذاتَ يومٍ التمس منها مسؤولٌ حكوميٌّ تلقين نحو عشرين موظَّفًا طريقة اكتساب قلوب الفقراء، فأَوضحت أَنَّ ما من وسيلةٍ لذلك سوى الحبّ، وبذل الذّات، بذلاً تامًّا.

ولطالما حذَّرت الأُمُّ أَخواتها من شرْك العمل من أَجل العمل نفسه، ما قد ينأى بهنَّ عن رسالتهنَّ، موضحةً يقينها بأَنَّ حتّى من يُنهك نفسَه بالعمل، بل يُهلكها فيه، لا طائلة من عمله ما لم يغمره الحبّ، وإِلاّ لما كان عمله أكثر من مجرَّد عملٍ اجتماعيٍّ، جيِّدٍ جدًّا، ومُفيدٍ بالتأكيد، ولكنَّه ليس عمل يسوع، ولا جزءًا من فدائه للعالم، ولا إِشعاعًا لحبّه. وما العمل من أَجل العمل فحسب، العمل الخاوي من الحبّ، سوى عبوديَّةٍ، في حين أَنّ رسالة المحبَّة هي تقديم حبّ يسوع للعالَم أَجمع، لأَنَّ المرسَلات هنّ حاملات حبّ الله، حبٍّ مضطرمٍ يضيءُ الكونَ شمسًا وأَرضاً.

مثل هذا العمل المُفْعَم حبًّا يتعذَّر في معزلٍ عن الأَلَم والتضحية بالذَّات، ويستحيل في معزلٍ عن الإِيمان، فعلى حدّ قول الأُمّ تيريزا: "**إِنَّ حبًّا كبيرًا مجرَّدًا من الإِيمان، هو، في نهاية المطاف، حبٌّ يائسٌ؛ فمن أَشرَع نفسه لكلِّ أَلَم العالم، على غير إِيمانٍ بأَنَّ الله يتأَلَّم معنا، ويُشرع لنا، سرِّيًّا، نافذةً على النور، يحكم على نفسه بالسحق؛ إِنَّه الصليب بلا قيامةٍ**" وحدَه الإِلهيُّ الأَبديُّ يمكن احتماله، ولأَنَّ حبَّ الأُمّ تيريزا يضرب جذوره في الأَبديَّة، وفي حبِّ الله، يغمره السكون، ويفيض فرحًا.

لم تكفَّ الأُمُّ، يومًا، تردِّد: "**... أَحبُّوا حتّى الأَلَم، فالحبُّ الحقيقيُّ، دائمًا، مؤلم**".

ولقد اختارت لنفسها ولجمعيَّتها مقرًّا في قلب شقاء العالم. وما إِيثارها العيش بين أَكْوَاخ كلكتّا القذرة، وفي أحضان المرَض، والشقاء، والحرمان إلاّ الدليل على روحٍ شديدٍ الاقتضاء، وإِيمانٍ لا يتسرَّب إِليه شكٌّ، ومحبّةٍ لا عهد لها بتردُّد.

وكانت إِحصاءاتٌ أُجريت في مطلع الثمانينات قد أَظهرت أَنَّ أَقلَّ من نصف سُكّان الهند يعيشون فوق مستوى الفقر، وأَنّ نحو خمسة عشر بالمئة فقط ينعمون بغذاءٍ كافٍ، وأَنَّ موت الأَطفال هو من أكثر نتائج الجوع مأساويّةً، إِذ يقضي نحْوُ نصف مليون طفلٍ نحبَهم، كلَّ سنةٍ، من جرّاء سوء التغذية، في حين يعاني ستّون بالمئة من الأَطفال الهنود اضطرابات نموٍّ. ولا عجَب، بالتالي، إِن اختارت الأُمُّ العمل في الهند، فثمَّة أَفقر الفقراء الذين نذرت لخدمتهم وُجودَها، وقد تبنَّت جنسيَّتهم لتكون واحدةً منهم.

سلاحُها العطف، وما العطف سوى مشاركة الآخرين أَلَمهم؛ وبدافع العطف طالما هي خَبَرت الجوعَ، والعطش، والبرد، والقيظَ، والإِنهاك، فشاركت الذين أَضنتهم المجاعة في إِيثيوبيا، والذين هجّرهم دمار الإِعصار في بنغلاديش، قَلَقَهم ومآسيهم، وآست اللاّجئين في مخيَّماتهم، وأَغاثت الملهوفين في بيروت تحت وابل الرصاص، وعزَّتِ أَمَّهاتٍ ثكالى، وأطفالاً أيتامًا، وعالجت بُرْصًا عاث في جسمهم الداءُ فسادًا وآكلةً، وعاضدت ضحايا مرض الإِيدز في صراعهم المرير مع الموت والنبْذ، وأَدخلت نور الطمأْنينة إِلى قلوبٍ كانت الوحدة قد أَشاعت فيها الظّلمة واليأس، وجثت على الحضيض تصلّي من أَجل المحتضرين؛ وكم سطع عطفها، وهي تؤاسي من واكبهم النبذ سحابةَ حياتهم، كي ينعموا بسُويْعاتٍ من الشعور بالكرامة والحبّ، قبل رحيلهم إِلى العالَم الآخر. إِنّ هذا الموقف، وحدَه، كفيلٌ بتخليد مثال عطفها وحبِّها.

دافعُها نشر المحبَّة المسيحيّة المُشِعَّة من قلبها وعلى شفتَيْها، ونشدان يسوع الذي تتعرَّفه في المحتضر المهمل على الرصيف، وتسمع صوته، صوت طفل بيت لحم، في صيحة الولد التائه، أَو في شكوى الطفل الهزيل؛ ومن خلال جَدَعات البُرْص، ترى يدَيْه اللتَيْن أَعادتا البصر للعيون المصابة بالعمى، واستقرَّتا على رؤوسٍ معذَّبةٍ، فهدّأَت آلامها وثوراتها، وشفت الأَجساد المريضة، والأَعضاء العليلة.

لقد سكَنَها هاجس الآخرين على نحو ما سكن همُّ الآخرين قلبَ العذراء في قانا الجليل. وفي هذا السياق كتب أَحد الذين عرفوها عن كَثَب:

"كلما التقيتُها حدَّثتني عن الآلام السائدة في بنغلاديش وليما، وعن الفقر في نيويورك وكاراكاس، وعن البَرَص في اليمن، وعن المخاوف في تانزانيا. هاجس الأَلَم، والظّلْم، والخصومات، مستحوذٌ عليها، إلاّ أنَّه هاجس حبٍّ. فلديها رغبةٌ عارمةٌ في إِيجاد الحلول، وتوفير الخبز للجياع، وإِبلاغ اليائسين رسالة يسوع. إنَّها على غرار يسوع، تحمل قلبًا بحجم الكون، يجرحه بؤسُ العالَم".

حتّى في أَوج ساعات مجدها، ما انفكَّ هاجسُ الآخرين يُحاصرها. فيوم حصلت على جائزة نوبل صرَّحت: "**هذه الجائزة جاءت في وقتها، فكثيرون من شبَّاننا راغبون في الزواج، ولكنّهم عاجزون عنه لافتقارهم إِلى سكنٍ؛ وسنسعى لكي يكون لكلٍّ منهم بيته الصغير**".

وعندما أَهدى إليها أُسقفٌ يوغوسلافيٌّ مسبحةً كان قد أَهداها إليه البابا بولس السادس، قالت: "**أَقبلها إِن أَنتَ أَذنتَ لي بتقديمها لأَوّل شابٍّ وشابَّةٍ يعقدان زواجهما**".

وكما سكَنَها هاجسُ الآخرين، سكَنَها علَى نحوٍ أكثر رقَّةً وحرارةً، هاجسُ أَخواتها، فقد كانت لكلٍّ منهنَّ أمًّا مدهشةً، تفيض حنانًا واهتمامًا، وتعلم عنهنَّ كلَّ شيءٍ، وإِن لم تُظهر ذلك دائمًا.

وقد أَوردت مجلَّةٌ فرنسيَّةٌ هذا القول: "**لا يشغل الأُمَّ تيريزا من همٍّ سوى أن تستشفَّ، من خلال أَفقر الفقراء، وجه المسيح المجروح، المصفوع، المشوَّه، والمهان، وأَن تعبده تحت ملامح نزاعه. هذا الوجه، تشاهد الأُلوف منه في شوارع كلكتّا المريعة، الموحلة، الكريهة الرائحة، والمكسوَّة بالقذارة.**

"**إنّ مراكز مُرسَلات المحبَّة، ترحِّب بجميع النفايات البشريَّة من مصدورين، ومرضى، وبُرْصٍ، أُولئك الذين يهجرهم البشر، ويحبُّهم الله. مثل ذلك كان يحدث لعشرين قرنًا خلت، في فلسطين، مع يسوع. إِنَّ الإِنجيل لم يمُتْ**".

ولكأَنَّ حبَّ الأُمِّ تيريزا ليسوع قد أَلقى على كاهلها كلَّ بؤس العالَم، فقضت عمرها، لم تهدر منه ثانيةً واحدةً، في محاولة مداواة هذا البؤْس، كما يتَّضح من قولها: "**إِن مات، أَحيانًا، فقراء، جوعًا، فليس لأَنَّ الربّ لم يكترث بهم، بل لأَنَّكم أَنتم، ولأَنّني أَنا، لم نُعطِ، ولم نكن أَدوات حبٍّ بين يدَي الله، ولأَنّنا لم نتعرَّفه، هو المسيح، الذي عاد إِلينا، متستِّرًا في زيٍّ بائسٍ، زيّ الإِنسان المنبوذ**".

ولطالما أَهابت بالعالَم أَجمع، ولا سيَّمَا بالمتعاونين الذين يستوحون نهجَ مسيرتهم الروحيَّة من قدوتها، إِلى مؤاساة المسيح في الفقراء: **"لا تهدروا طاقاتكم في أُمورٍ تافهةٍ... انظروا وشاهدوا: في كلِّ مكانٍ جياعٌ ينتظرونكم، لا تديروا لهم ظهوركم، فهم المسيح"**، **"في مجال خدمة الفقراء، على المتعاونين أَن يعيروا اهتمامًا خاصًّا لمن يشعرون أَنَّهم غير محبوبين، والذين يجدون ذواتهم محرومين من الحبّ. فأَكثر ما في الأَلَم هولاً هو شعورُ المرء بأَنَّه غير مرغوبٍ فيه، وغير محبوبٍ، ومنبوذٌ من الجميع. وما من خطيئةٍ أكبر من الخلوّ من الحبّ والعطف، ومن اللاّمبالاة الرهيبة حيال من هم على هامش النظام الاجتماعيّ، مُستَغلّون، وضحايا الفساد، والحاجة والمرض"**.

و**"عندما يكتشف قومٌ اعتادوا النبْذَ والإِهمال أَنَّهم محبوبون، ومُرحَّبٌ بهم، ويشهدون أُناسًا يكرّسون لهم وقتهم وطاقاتهم، يدركون أَنّهم ليسوا نفايةً بشريَّةً"**. **"لنسلك بحيثُ، عندما يرانا الفقراءُ، ينجذبون نحو يسوع، ويدعونه إِلى أُسَرهم وحياتهم، إِذ ينبغي أَن يلقى فينا المرضى، وجميعُ المتأَلّمين ملائكة عزاءٍ وعطف"**. **"إِنَّ الربّ يستخدمنا في حبّه للعالم، وفي حين يصرُّ العالَم على أَن يجعل من الله أَثرًا من الماضي، عليكم، أَنتم، بنقاء سيرتكم، وبفضل عطفكم، أَن تبرهنوا للعالَم أَنّ الله معاصرٌ"**.

لقد أَحبّت الأُمّ تيريزا الله حبًّا كاملاً، عاشته بكلّ وترٍ من كيانها، قبل أَن تدعو إِليه الآخرين؛ أَوَلَم تصرِّح: **"بيسوع أَتنفّس، وبه أَرى... أَحبُّ يسوع من كلّ قلبي، وبكلّ كياني؛ لقد وهبته ذاتي بالكامل، وكلَّ شيءٍ، حتّى خطاياي، وقد قبلني زوجةً بكلّ حنانه وحبّه"**؟

ولا بأس من أَن نروي، من جديدٍ، حكاية أُسقف بروكسيل الذي قال: "اصطحبتُ الأُمَّ تيريزا كي أريها كاتدرائيَّة بروكسيل الجميلة، التي لها من العمر قرون. وفي نهاية الزيارة سأَلتُها: "أُمّاه، ما الذي أَثار إِعجابك أكثر من سواه؟ وما الذي بدا لك الأَجمل؟" فأَجابتني، بلا تردُّد: "يسوع، يسوع في بيت القربان". فخيَّم علينا الصمت برهةً، وجال في خاطري: هذه المرأَة عاشقة!"

وشهد الأَب جوزيف، رئيس فرع الكهنة مُرسَلي المحبَّة، الذي عَرَف الأُمّ تيريزا عن كَثَبٍ: **"لقد اكتشفتُ لديها عذوبة ورقَّة عاشقات المسيح الكبريات"**.

وهي التي كانت قد أَعلنت: "**إِنّ روح جمعيَّتنا هو أَن نكــون دعــاة حــبّ الله وعطفه**"، قد حرصت على أَن تخفق قلوبُ جميع أَخواتها بمثل حبِّها، فأَهابت بهنّ أن يستغرقن في حبّ يسوع هاتفةً: "**علينا التوغُّل في عشق الله بحيث يتعذَّر القول إنَّ، ثمّة، امرأةً واحدةً في العالم، تحبّ زوجها أكثر ممّا نحبُّ، نحن، يــسوع**". ولكــي تكون حياتهنَّ مرآةً تعكس، بأَمانةٍ، هذا الحبّ، تناشدهنّ: "**كنَّ التعبير الحيّ عن عطف الله، وليتجلَّ حبُّه على محيَّاكنَّ، وفي عيونكنّ، وبــسمتكنّ، وحــرارة تحيَّــتكنَّ، لا تقتصرنَ على الجود بالرعاية، بل جُدْنَ بقلوبكنّ...**". جــودٌ حتّــى الأَلَــم، فعمــل المرسَلات يستلزم بطولةً خارقةً، لا يبلغنَها إِلاَّ بالتمرُّس من حبّ يسوع، ومن العيش فيه، وبه، وله، بلا هوادة ولا تحفُّظ، وحاديهنّ السهَر مع يسوع، في نزاعه، طالمــا تصاعدت من الأَرض أَنّاتُ نزاعٍ وأَلمٍ.

لقد أَحبَّت الأمُّ تيريزا على غرار يسوع، ومن أَجل يسوع، فهي، عندما تشخص بنظرها إِلى الصليب، تُدرك أَنَّ يسوع قد أَحبَّ البشر حبًّا جمًّا، بلا قيــاسٍ؛ وعنــدما تحدِّق إِلى بيت القربان، تتبيَّن مدى الحبّ الذي لا ينفكُّ يُسبغه علينا، فتــستعر فيهــا الرغبة في مقابلة حبّه بحبٍّ مماثلٍ. وتدرك أَنّ على الحبّ، كي يعــيش أَن يتغــذّى بالتضحيات: "**إِنّ قول يسوع أَحبّوا بعضكم بعضًا يجب أَن يكون لنا لا نورًا فحسب، بل نارًا تحرقنا داخليًّا**".

وتحدِّق الأُمُّ في البشر فتشهد في كلِّ كائنٍ بشريٍّ جوعًا مريعًا إِلــى الله؛ رغــم جميع المظاهر، فتقول: "**قد جعل يسوع ذاته خبزَ حياةَ كي يسَكِّن هذا الجوع، ويتأَكّد أَنَّنا نفهم هذا الحبَّ الذي يحمله لنا. إِنّه في جوعٍ إِلى حبّنا. لقد جعل نفسه الجــائع وقال: "جعتُ فأَطعمتموني**".

وقد آلت الأُمّ على ذاتها وعلى جمعيَّتها نشر حبّ الله بين البشر؛ تلك هي دعوتها ودعوة مُرسَلاتها التي تفرض عليهنَّ تحويل حبِّهنَّ للمسيح إِلى عملٍ حــيٍّ. والــدعوة، عندما تُعاش في اتِّحادٍ حميمٍ بالله، ينفحها الربّ نعمةً خاصَّةً بحيثُ يتخطّــى المكــرَّسُ وضعَه الطبيعيّ، ويُسهم في الخير الإِلهيّ. فالله عطفٌ، والعطف عطــاءٌ، والمحبَّــة لا تعطي فحسب، ولكنَّها تحطّم كلَّ حاجزٍ، وتقتسم مع الآخرين، ولا تدافع عن ذاتها.

والأُمُّ تيريزا، مذ استجابت لدعوتها، لم يخامرها، يومًا، فيها، ارتيابٌ، بل كانت

دعوتها ثابتةً صلبةً؛ غير أنّها كانت، أبدًا، غير راضيةٍ عمّا تعطي بالقياس إلى احتياجات الآخرين، وإلى ما يقتضيه يسوع منها، متطلّعةً أبدًا إلى المزيد من البذل. وهي تعترف بأسًى: "**ينتابني الحزنُ، أحيانًا، عندما أتبيّن ضآلة ما نفعل قياسًا إلى المهمّة التي يتعيّن علينا تنفيذها. إنّ ما نحقّقه يكاد لا يُمثّل أكثر من قطرة ماءٍ في المحيط، ومن الضآلة بحيث لا شأن له وسط جسامة الآلام البشريّة**".

ومع ذلك حقّقت الأُمّ ومرسلاتها الكثير المدهش، بل المعجز؛ فقد تسلّحت بالحبّ، وأعلنت: "**فلنغزُ العالَم، لا بالقنابل والبنادق، بل بالحبِّ والتفاهم! إنّنا في منتهى الصغر، ولكن بوسعنا المخاطرة في أكثر الأماكن وعورةً، بلا وَجَلٍ، لأنّ يسوع معنا، ولا يتخلّى عنّا أبدًا**". "**أظنُّ أنّ الطريقة المُثلى لإظهار حبّنا لله هي في أن نرحّب به، أيًّا كان المظهر الذي يأتينا فيه؛ فإن شاء أن يقتحم حياتنا بالمهانة والألَم، فلنقبله، وإن شاء أن يأتي وسط الدعاوة، فأهلاً به. النجاح والفشل لديه سيّان، وكذلك ينبغي أن يكونا لنا. إنّ الصحّة والمرض يأتياننا من يدٍ محبّةٍ واحدةٍ: وفي قدرتنا على تقبُّل مهما يعطي، وفي إعطاء مهما يأخذ، بابتسامةٍ كبيرةٍ، تكمن القداسة**". "**نحن راهباتٌ ودعوتنا أن نكون ليسوع على نحوٍ مطلقٍ، ولأنّني أخصُّه، فعملي هو وسيلة عيشي حبّي له واقعيًّا**". و"**لكي نستطيع أن نخصَّ الله، بالكامل. علينا التخلّي عن كلِّ شيءٍ، وحينئذٍ فقط، سنقوى على أن نحبَّ حقًّا...**".

وفي هذا السبيل تخلّت الأُمُّ وأخواتها عن كلّ شيء: عن الخيرات المادّيّة بنذر الفقر، وعن الإرادة الذّاتيّة بنذر الطاعة، وعن كلِّ حبٍّ سوى حبّ الله، بنذر العفّة، فاستطعنَ الاندفاع إلى خدمةٍ مجّانيّةٍ، متفانيةٍ، من أعماق القلب.

ويقينها بأنّ الله معها، ولن يتخلّى عنها، قد زوّدها بمنعةٍ فريدةٍ، فعلى حدّ قول أوليفييه كليمان: "إنّ الحبّ الحقّ، عندما يضرب جذوره في الله، يستطيع أن يخلق ديناميكيّةً قادرةً على التدخُّل في التاريخ، وعلى تحويله تحويلاً أكثر إيجابيّةً". والأُمّ كانت، بحياتها، وأقوالها، وأفعالها، ضميرَ الحبّ، ورغبة تخليده، وإشاعة عدواه في العالم، بل كانت الحبَّ المتجسِّد الذي يُمكن جسُّه فيها، واقتباسه منها، بعد أن أدركت ضرورته التاريخيَّة، وبذلك أسهمت في إعادة بناء العالم؛ وكانت الدليل الحيّ على ما يستطيع المسيح أن يدفع إليه مُحبّيه من تضحياتٍ تتخطّى طاقاتهنّ، بمجرّد حبّه".

وممّا زادها منعةً إيمانُها بأَنَّ نجاح الحبّ يكمن في مجرَّد الحبّ، لا في نتائجه. فغالبًا ما تكون تلك النتائج مخيِّبةً للآمال، محبطةً للجهد، ولكنّ الأُمّ لم تستسلم، يومًا، للإحباط، لأَنَّ أَعمالها لم تكن سوى فائض حبّ الله، الذي كان يتفجَّر من داخلها، وليقينها بأَنَّ كلَّ ما تفعله إنّما من أَجل يسوع تفعله، مستسلمةً له، صائرةً أَداةً طيِّعةً بين يديه، مكرِّرةً القول: "**فلنعقد العزم على أَن نكون حبًّا صافيًا ليسوع في العالم، باستسلامنا لحبّه، وبكوننا أدواتٍ لحبّ الآخرين، وأَيضاً بأَن نكون في تصرُّفه، بحيث يستطيع، في كلِّ لحظةٍ، أَن يستخدمنا من غير استئذاننا**".

وتلهُّفُها إلى إرواء عطش المصلوب يذكي، في خدمتها، غيرةً متَّقدةً، فهي، عندما ترى في الفقراء صورة المسيح الذي ما انفكّ يعاني آلام صلبه في كلٍّ منهم، لا تستطيع سوى تقديم شهادة حبِّها متخطّيةً كلَّ دواعي النفور الطبيعيَّة، متغلِّبةً على كلّ كَلَلٍ وملَلٍ، مستلهمةً منهم مزيدًا من الحبّ ليسوع، كما يتّضح من قولها: "**في الهيكل نلتقي فقراءَنا وآلامهم، ومن خلالهم نرى هذه الآلام تتحوَّل إلى وسيلةٍ لحبٍّ أكبر، ولسخاءٍ جمٍّ**"، حبّ الله، وحبّ الإنسان، عندها، متلازمان لا يستقيم أَحدهما في معزلٍ عن الآخر.

من خلال الفقراء يستعطي الله حبَّنا، ولكأَنَّه يضع نفسه تحت رحمتنا؛ إنّه يأبى أَخذ شيءٍ لا نعطيه إيّاه، وأَصغر الأَشياء ثمينٌ في نظره؛ ومن ثمّ تؤكِّد الأُمّ تيريزا: "**وفاؤنا للمهمّات الصغيرة هو الأُسلوب الذي نضع فيه حبّنا موضع التنفيذ**".

"**ازرعوا الحبَّ في العالَم فينبت**"، هذا ما قاله القدّيس يوحنّا الصليبي، ولا غروَ أَنَّ الأُمَّ تيريزا كانت من أكثر من زرعوا بذور الحبّ، وشهدوا وفير جناه. والحبُّ، في نظرها ينبغي أَن يكون بديهيًّا كالعيش والتنفُّس، وأَن ينمو يومًا إثر يومٍ. "**الحبُّ ثمرة جميع المواسم، وهو في متناوَل كلِّ يدٍ**". ومبدأ سلوكها: "**إنّني ملكُك طالما كنتَ في حاجةٍ إليَّ، فأُبادر إلى مساعدتك**". ويشهد من عَرَفوها عن كثَب أَنَّها كانت تفيض حبًّا، وتحزن لكلِّ إخلالٍ بالمحبّة لدى الآخرين.

وهي لم تفوِّت فرصةً كي تشهد للحبّ، وتدعو إلى المشاركة. ففي أَحاديثها إلى المتعاونين، لا تكفّ تردّد على مسامعهم:

« **لقد دعا الله كلاًّ منكم باسمه، أَنتُم ثمينون لديه لأَنَّه يُحبُّكم، وقد غرس الحبَّ في قلوبكم كي تبلّغوه الآخرين؛ لا تخافوا من بذل حبِّكم، حبٍّ حتّى الأَلم.**

"الحبُّ ينشأ في البيت، وبيتكم ينبغي أَن يكون مركز الحبّ، والمكان الذي يشعُّ منه، قبل كلّ شيءٍ، حبُّ الله... ينبغي أَن تكونوا شعلة حبِّ الله الملتهبة لمن يعملون معكم، ويعملون من أَجلكم. فهل هم يُطالعون فرح الحبّ على محيَّاكم، وهل يقرؤون فيكم فرحَ حبٍّ طاهرٍ؟ هل يرون يسوع فيكم؟

"يجب أَن تكون أُسرة المتعاونين ناصرةً جديدةً حيثُ يسود الحبُّ والفرح والسلام، والوحدة، وحينئذٍ فقط ستستطيعون أَن تعطوا الآخرين ».

وهي لا تني تحثُّ الجميع على العطاء:

« أَعطِ ما لا ترغب في الاستغناء عنه، شيئًا غاليًا عليك؛ حينئذٍ يصبح العطاء تضحيةً، وكلُّ تضحيةٍ تُبذَل بحبٍّ، مجديةٌ، ومرضيَّةٌ لدى الربّ...

"العطاء والأَخذ من خصائص الله، فاقتسموا، إِذن، ما تلقَّيتموه، حتّى حياتكم ».

إِنّها شاعرة الحبّ، ولكنَّها شاعرةٌ واقعيّةٌ، لا تدعو إِلى حبٍّ خياليٍّ، بل إِلى حبٍّ واقعيٍّ يبدأ في البيت ومن القريب: "**إِنَّه لأَسهل أَن نحبّ البعيدين؛ الحبُّ ينبغي أَن يكون شخصيًّا**".

جغرافيّتها هي جغرافية العطف، تدفعها إِلى غَوْث كلّ ملهوفٍ في أَيّة بقعةٍ من المسكونة.

ومعيار حبّ البشر هو حبُّ الله لنا: "**فليحبّ بعضكم بعضًا كما أَحببتُكم**" قال يسوع، و"**الله قد خلق العالم من أَجل سعادتنا، وعلينا فقط أَن نفتح عيوننا كي نرى لفتات عنايته الرقيقة، ممّا يدفعنا إِلى التوغُّل في حبّه**"، و"**عندما نحبّ الله بعمقٍ، نحبُّ تلقائيًّا قريبنا، وبقدر ما ينمو حبُّنا لله، نكتشف قيمة خلائقه السامية فنندفع إِلى العناية بها**".

وَالأُمّ تيريزا تحبُّ الحياة، لأَنَّها هبة الله، وتنبري للذَّوْد عن حياضها. ولكي تضمن ازدهار الحبّ ترشد إِلى سُبُل إِنمائه:

« لكي نتمكّن من الحبّ، يلزمنا قلبٌ طاهرٌ، وطهرُ القلب نظفر به بالصلاة".

"إِن نحن أَردنا أَن نُحِبَّ ونُحَبَّ، حقًّا، علينا أَن نتعلَّم الصلاة، ونلقِّنها لأَبنائنا، فنلصلِّ معهم.

والخدمة هي أَبلغ أُسلوب عبَّرت به الأُمُّ عن حبّها لله وللإِنسان، بدليل قول ذلك الشابِّ الكنديِّ لها: "**لقد جَعلتِ حياتكِ خبزًا للآخرين**".

"**الإيمان هو ثمرة الصلاة، فالصلاة تحملنا على القول: "أُومن"؛ وثمرة الإيمان هي الحبّ، فالإِيمان هو الذي يحملنا على القول: "أُحبّ"؛ وثمرة الحبّ هي الخدمة، فالحبّ هو الذي يحملنا على القول: "أريد أَن أَخدم"** ».

وقد أَقرَّ رئيس ديرٍ فرنسيسكانيٍّ أَنّ الأُمَّ تمثِّل، في عصرنا، روح المحبَّة المسيحيَّة التي أَفعمت حياة فرنسيس الأَسِّيزيّ.

ووصفها زعيمٌ هندوسيٌّ بقوله: "**إنّها واحدةٌ من النفوس النادرة التي تخطّت جميع الحواجز العرقيَّة، والدينيَّة، والوطنيَّة، فهي لا تَتَطَلَّع إِلى أَيّ امتلاكٍ، ولا إِلى أَيَّة سعادةٍ، ولا حتّى إلى الخلاص. إِنَّها إحدى منشدات الله المكرَّسات بالكامل لإِزالة آلام الآخرين، على غرار المهاتما غاندي**".

ويقرُّ الأَخ أَنجيلو ديـڤانندا أَنّه سمع البابا بولس السادس يقول للأُمّ: "**إِنّني تلميذك المتواضع في مدرسة المحبّة**".

أَمّا البابا يوحنّا بولس الثاني، فقد أَعلن، يومَ وفاتها، أَنّها "**مثالٌ مُشرِقٌ للطَّريقة التي يتحوّل فيها حبّ الله إِلى حبّ القريب، وحبّ الأَفراد المهجورين**".

أَجل، لقد كانت حياتُها كلُّها شهادةً حيّةً على حبٍّ بلا حدودٍ.

الأُمّ تيريزا والكنيسة

الكنيسة، في نظر الأُمّ تيريزا، امتدادٌ للمسيح ولتجسُّده، ولعمله الفدائيّ، ولذلك هي تحبُّها، وتُجلُّها وتخضع لها، وتتقبَّل سلطتها، من غير تساؤل، كما يتقبَّل الفَلاّحُونَ الفصول، والبحَّارون العاصفة، ولا يخطر لها لا تأليهُها، ولا تحدّيها.

في مجال العقيدة، الأُمُّ تيريزا محافظةٌ، تقليديَّةٌ، مندفعةٌ في تيَّار الكتاب المقدَّس، والآباء، والتقليد المُتداوَل عبر أَجيال المؤمنين، بقيادة رُعاتهم الذين اختارهم الله. ولا بدْعَ، بالتالي، إِن عدَّها البابا بولس السادس عزاءَه الأَكبر في الكنيسة، واختارها سفيرةً له في العالَم كي تذكِّر بالعقائد الأَساسيَّة، مثل نبذ الإِجهاض، واحترام حقّ الجنين بالحياة، والتنديد بوسائل منع الحمْل الاصطناعيَّة بدافع الأَنانيّة والشهوة؛

ومقاومة الدعاوة الإلحاديَّة، وإحياء التعبُّد لقلبَي يسوع ومريم. هذه المبادئ باتت تلقى من الإعراض والاستخفاف ما يجعل حتّى بعض كبار مسؤولي الكنيسة يحجمون عن الخوض فيها علنًا، في حين أَنَّ الأُمَّ تيريزا، بفضل ما تنعم به من احترامٍ جميع الفئات، التي تقدِّر صدقها وقداستها، لا تتهيَّب من تناولها بجرأةٍ وصلابةٍ، غير مكترثةٍ بما قد يجرُّه عليها ذلك من نقدٍ، واتّهامٍ بالرجعيَّة.

ومع أَنَّ عددًا من كبار شهود الكنيسة، أَمثال الكردينال دون هيلدركامارا، والأَب پيير، والأخت إيمانوئيل، لم يتردَّدوا في إعلان معارضتهم لبعض التوجيهات الكنسيَّة، لأَنَّهم رأَوها غير متوافقةٍ مع احتياجات الشعب وطاقاته، إلاّ أَنَّ الأُمَّ تيريزا اندفعت، دائمًا، للدّفاع عن عقيدة الكنيسة الرسميَّة المعلنة، ولم تُبدِ، يومًا، حيالها، روح انتقادٍ أكثر ممّا يبديه طفلٌ حيالَ أُمّه.

بيد أَنَّ هذا الوفاء المطلَق، وهذا الخضوع التامّ للسُّلطة الكنسيَّة الذي رضعته الأُمُّ منذ طفولتها، لم يمنعها، يومًا، من إعلان استنكارها لكلِّ موقفٍ من قبل الإكليروس يتعارض وروح الإنجيل؛ فعندما أَخذت عليها راهباتٌ من جمعيَّةٍ أُخرى تدليلَها للفقراء، ذكَّرتهنَّ بخدمتهنَّ الممالئة للأغنياء، خلافًا لما يقتضيه يسوع، ولم تتحرَّج من الإعلان أَمام البابا يوحنّا بولس الثاني، ومئات الأَساقفة الملتئمين في روما، بمناسبة مؤتمرٍ حول قضايا الأُسرة: "**لم أَخشَ، قطُّ، التطلُّع إلى الصليب، إلى أَن وافتني، يومًا، امرأةٌ تحمل رضيعها بين ذراعيها، وأَخبرتني أَنَّها استعطتْ شيئًا من الحليب لطفلها من ديرَيْن أَو ثلاثة أَديرةٍ أَوصدت أَبوابها دونها، ورُدَّ عليها من الداخل: "أَيَّتها الكسلى، امضي فابحثي عن عملٍ". ولمَّا انتهت إلينا، سلَّمتني ابنها، فلم يلبث أَن لفظ أَنفاسه بين يديّ. عندئذٍ، فقط، خجلتُ من التحديق في الصليب**".

والمدهش أَنَّ التزام الأُمِّ بالدفاع عن تعاليم الكنيسة، حتّى التي لا تلقى شعبيَّةً، لم يصرف عن حبِّها واحترامها، حتّى غير المؤمنين، والمسيحيّين الذين خيَّب سلوكُ مسؤولين كنسيّين آمالَهم، وأَتباع دياناتٍ أُخرى، فهؤلاء جميعهم لم يتوقّفوا عند موقفها ذاك من الكنيسة بدافع وفاءٍ وصدقٍ، بل حدَّقت أَبصارهم إلى الحياة التي تعيشها، المتدفّقة حبًّا، وبذلاً، وتجرُّدًا. أَولم تُصرِّح هي نفسها: "**انتسابي إلى الكنيسة الكاثوليكيّة، ليس لي عائقًا، ولا يقيِّدني**"؟ فحياتها البطوليَّة تشفع لها بكلِّ قولٍ وموقفٍ.

أَمّا في ميدان رسالتها، فالأُمُّ متمرِّدةٌ، ثوريَّةٌ، تقدُّميَّةٌ، تحفر في حقـل الرسـالة أثلامًا بكرًا، وتشرع، أمامها، آفاقًا قشيبةً، رحبةً؛ فاعتمادها الساري الهنديّ الـشعبيّ زيًّا رسميًّا لمرسلاتها في حين كان الغربيّون، في الهند، يحرصون على التميُّز بزيِّهم الخاصّ، كان ثورةً حقيقيَّةً في المجال الرهبانيّ، وإيمانًا بـضرورة الانـدماج فـي المجتمع، الذي فطنت له رهبانيَّاتٌ أُخرى، متأَخّرةً.

هي، إذنْ، في مجال الرسالة، ثائرةٌ، ولكنَّ ثورتها مقصورةٌ على الإبداع، وعلى اكتشاف وسائل جديدةٍ من شأْنها إرواء عطش المصلوب؛ وقد تتمرَّد علـى بعـض التقاليد، ولكنَّ تمرُّدها نابعٌ من أَمانتها، ومن إيمانٍ في مثل رسوخ الجبال؛ وهـي لا ترضى بغير الروح القدس دليلاً لها، فإذا ما حاول بعض المتحذلقين من رجال الدين ثنيها عن تشدُّدها، في ما أَرست عليه رسالتها من فقرٍ وطاعةٍ، هبَّت فـي وجههـم، كلبوءةٍ تذود عن صغارها؛ ولم تتهيَّب من الإعلان في مجمعٍ حاشدٍ من الراهبـات: "**إنَّ آلام الكنيسة نابعةٌ من الحُرِّيَّة والتجديد اللذَيْن أُسيءَ فهمهما. لن نظفر بالحرِّيَّة إلاّ بتنازلنا عن إرادتنا كي نخضع لإرادة الربّ؛ ولن نتجدَّد إلاّ بفضل التواضع الذي يتيح لنا اكتشاف ما ينبغي أَن يتجدَّد فينا. لا تصدِّقْنَ من يأتونكنَّ بعبـاراتٍ منمَّقـةٍ متأَلِّقةٍ عن الحرِّيَّة والتجدّد، فإنّهم يخدعونكنَّ**".

وقد تميَّزت الأُمّ بذوْدها الجريء القاطع عن فقر مرسلاتها، فلدى تأسيس أَوّل مركزٍ لجمعيَّتها في نيويورك أَعلمها الكردينال أوكونور عن عزمه تخصيص خمس مئـة دولارٍ شهريًّا لكلٍّ من مرسلاتها، فرفضت بحزمٍ، ورجته أَلاّ يناقش هذا الموضوع، من بعدُ.

وعندما شرعت بتأسيس مركزٍ في فرنسا، كانت السلطات الكنسيَّة هناك قد أَعـدَّت معاملةَ إشراك المُرسَلات اللواتي سيتولَّيْن العمل فيه بالتأمين الاجتمـاعيّ والـصحّيّ، فرفضت الأُمّ الأَمر رفضاً قاطعًا؛ وقيل لها إنَّ مثل ذلك التأمين تدبيرٌ مألوفٌ لا يرفضه أَحدٌ، فأَجابت: "إن كان جميع الفقراء الذين سنُعنى بهم ينعمون بمثله، سـنفكّر، حينئـذٍ، بالأَمر، وإلاّ فنحن نرفض أَن نكون أَفضل حالاً من أَيٍّ منهم"، وأُقفل المحضر.

وقد قاومت بضراوةٍ جميعِ محاولات رجال الإكليروس للنيْل من صرامة قوانين جمعيَّتها المتعلّقة بالفقر، وبالطاعة، أو بالتعبُّد.

وقد أَمستْ، في هذا المضمار، أُسوةً ومرجعًا لراهباتٍ كثيراتٍ، حتّى من جمعيَّاتٍ أُخرى، نظير أُولئك الكرمليَّات الأَميركيّات اللواتي اعتصمنَ في أَحد أَجنحة ديرهنّ، بعد أَن سمحت رئيسته بإدخال التيليفزيون، والموسيقى، والصحف، والحلوى إلى الدير؛ وقد التمست المعتصمات من الأُمّ تيريزا التدخُّل لدى قداسة البابا لإِنقاذهنّ من هذا الاتّجاه المدمِّر للحياة التي نَذرنَها.

ومن الممارسات التي بدت، في المجال الرهبانيّ، ثوريَّةً بجرأَتها، إِقدام الأُمّ على المخاطرة بإِيفاد أَخواتها إِلى بلادٍ بعيدةٍ، لا أَثرَ في بعضها للمسيحيَّة، وبعضُها يناهض الدين؛ وتكليفهنَّ بمهامّ تبدو مخاطراتٍ حمقاء بين البُرْص، والمدمنين، والسكارى والمجرمين، عزلاواتٍ إلاّ من إِيمانٍ لا يهاب الموت، وثقةٍ بالله لا تتزعزع؛ إِنَّها وأَخواتها يرتمين في المجهول مطمئنّاتٍ، بلا تهيُّبٍ ولا وَجَلٍ، ليقينهنَّ بأَنَّهنَّ إِنّما يرتمين في حضن أَبيهنَّ الساهر عليهنَّ.

ولا بدْعَ إِن عدّها البعض تقدُّميَّةً، فهي المثال الحيّ على ديناميكيَّة الكنيسة التي تأبى القهقرى، والماضية، دائمًا، قُدُمًا مكتشفةً أَفضل الوسائل لخدمة الربّ، ونشر بُشرى خلاصه.

ولا غروَ أَنّ الأُمَّ قد أَدَّت للكنيسة خدماتٍ جليلةً، فقد برّأَتها من تُهَم ممالأة الأَغنياء، والتسحُّب عند أَقدامهم، والسعي النهِم إِلى الاغتناء، مظهرةً الذين، من مسؤوليها، ينهجون هذا النهج، خونةً للمسيح؛ وقد أَزالت عن صورة الكنيسة كثيرًا ممّا غشاها من كَدَرٍ، معيدةً لها رونق أَصالتها الإِنجيليَّة، بصفتها السنَد والملاذ، والأُمّ، للفقراء والمتأَلِّمين الذين تمثَّل بهم مؤسِّسها يسوع؛ وأَبرزت الوجه المشرق للمسيحيَّة، وجه الحبّ الشامل، والعطف على المستضعفين، من غير ما حاجةٍ بها إِلى كلامٍ وخطاباتٍ، وبمجرَّد مثال حياتها، وحياة أَخواتها.

ولا نغفلنَّ المصالحةَ التي أَجرتها الأُمّ بين الكنيسة ودُوَلٍ كانت قد أَعلنت عليها حربًا مثل كوبا وروسيّا، وأَلبانيا، وإِسهامَها في إِعادة افتتاح واستخدام كنائس كانت قد أُغلقت وانتُهِكت حرماتها.

وبعيدًا، كلَّ البُعْد، عن روح التظاهر والتعصُّب، تشبَّثت الأُمّ بإِيمانها، وممارساتها الجوهريَّة، فلم ترضَ أَن تخدُمَ أَخواتُها في اليمن أَو في روسيَّا، إِلاّ إِذا واكبهنَّ كاهنٌ

يؤَمّن لهنَّ الخدمات الروحيَّة، ولا سيَّمَا القدّاس اليوميّ، وسرّ الإفخارستيّا. ولم تتخلَّ، لا هي ولا أَخواتها، في أيّ مكانٍ، أَيًّا كان موقف أهله من الشعائر المسيحيّة، عن رمز انتمائهنّ وإيمانهنَّ: الصليب المثبت على أكتافهنّ، والمسبحة التي يكررْنَ حبَّاتها أَثناءَ سيرهنّ، كي يبقَيْن على اتِّصالٍ دائمٍ بمعلّمهنَّ وحبيبهنَّ يسوع.

غير أَنّها، في المقابل، لم تضحِّ للمظاهر الجوفاء، فعندما عرضت سُلطات الحُدَيْدة، في اليمن، بناءَ كنيسةٍ للمرسلات، أَعلنت عن اكتفائها بمُصلًّى صغيرٍ في غرفةٍ داخل مقرِّهنَّ، وطالبت السلطات، عوضًا عن ذلك، ببناء مسجدٍ، تعاطفًا مع مشاعر المسلمين.

ولطالما أكبرت الأُمّ صفة الكهنوت، وامتياز الكهنة، كما يتَّضح من أَقوالها: "**لم أَلمس، قطُّ، عظمةَ الكهنوت مثلما لمستُها في اليمن، فمجيء الكاهن كان يعني حضور الهيكل وبيت القربان. ومع الكاهن جاءَ يسوع، فالذين يأتون للعمل يعلمون أَنَّ مركزنا، في المقام الأَوَّل، هو مركز صلاةٍ.**

"**وكانت لي تجربةٌ مماثلةٌ في الحبشة، حيثُ، في أَماكن عديدةٍ، كان المُرسَلون قد طُرِدوا، والكنائس أُغلقت. وقد أَوضحتُ أن لا راهباتٍ بلا كاهنٍ، فتمَّت الموافقة، وأعيد فتح الكنيسة.**

"**وبالتالي، كم الكاهن عظيمٌ، وكم هو ضروريٌّ أَن يكون قدّيسًا وحاضرًا كي يهب أَخواتنا يسوع! إِنّنا نحتاج إِلى الكاهن لكي يعلِّمنا الصلاة، وانتهاج درب القداسة، ونحتاج إِليه كي يعطي أَخواتنا يسوع!**"

وتناشد الأُمّ الكهنةَ بحرارةٍ أَن يرتقوا إِلى ذرى القداسة، والتمثُّل بيسوع كي يكونوا أَهلاً للدَّعوة التي دُعوا إِليها، ونكاد نلمس نارَ إِيمانها عندما تُهيب بهم:

« **كم ينبغي أَن يكون طاهرًا قلبكم كي تستطيعوا القول: "هذا هو جسدي"، وكم ينبغي أن تكون نقيَّةً أَيديكم الكهنوتيَّة، كي تهبوا الغفران في كلّ وقتٍ! إِنّها لنعمةٌ كبرى أَن يكون الله قد اختاركم، لتقودوا كلَّ النفوس".**

"**العالَم أَجمع في جوع إِلى الله، وعليكم، أَنتم الكهنة، أَن تُشبعوا هذا الجوع، بعطف المسيح وحبّه، فأَعطوا العالَم يسوع هذا الذي يُضرم قلوبكم.**

"**ليكُن كلُّ كائنٍ بشريٍّ لكم بمثابة يسوع، ولتكونوا، أَنتم، حضور يسوع. كونوا**

قدّيسين، علِّمونا القداسة. علِّمونا الصلاة، التي تطهِّر قلوبنا، والتي تساعدنا على المضيِّ قُدُمًا في دروب الإيمان. ذكِّرونا بضرورة التأمُّل، معين الحبّ والخدمة، أنتم الذين كرَّسوا حياتهم وقلوبَهم، عليكم أَن تكونوا فقراء، طاهرين، وقدّيسين، لكي تستطيعوا التلفُّظ بعبارات التكريس، ولكي توزّعوا علينا، فيما بعد، الخبز الذي يقوِّينا، وينهَدُ بنا إِلى القداسة.

"لم تكن، قطُّ، الكنيسة والعالَم أَجمع، في حاجةٍ إِلى كهنةٍ قدّيسين مثلما هما اليوم. إِنّ عيون الجميع شاخصةٌ إِليكم.

"مثلما صار كلمة الله جسدًا كي يعيش ما بيننا وفينا، كذلك أُرسِل الكاهنُ ليكون، هو أَيضاً، هذا الحبّ الحيّ، حبّ الله للإِنسانيَّة. الكاهن هو تلك الشعلة، الشعلة المتَّقدة، وشمس الحبّ الإِلهيّ. إِنَّه تألُّق الفرح الأَبديّ ورجاؤه. ولذلك عليه أَن يكون، بكليَّته، بتصرُّف الآب، متَّحدًا اتّحادًا كاملاً بالابن، معبِّرًا عن كلّ حبّ الآب والابن والروح القدس، بسلوكه، ومواقفه، وأَعماله. فإِنّ الله يحبُّنا، اليوم، من خلال كلّ كاهنٍ، يحلُّ محلَّ المسيح بالذات. كلُّ كاهنٍ هو المسيح... والقداسة للكاهن بديهيَّةٌ، فمن واجبه أَن يكون قدّيسًا لأَنّه على صلةٍ وثيقةٍ بيسوع. فعلى كلماته أَن تكون قدّيسةً، وعلى حياته أَن تكون قدّيسةً، وعلى لمسته أَن تكون قدّيسةً؛ ومن شأْن قداسته أَن تتيح للمسيح العيش فيه... قداسة الكاهن تتمثَّل في امتزاجه الوثيق والحميم بيسوع بحيثُ يصلّي فيه، ويعمل فيه، ويمثِّل مع الآب واحدًا، فيه. تلك هي قداسته التي لا يمكن أَن تقارَن بأَيّة قداسةٍ أُخرى، فالمقارنة الوحيدة، والتنافس الوحيد اللذان يسوغ للكاهن خوضهما في مضمارِ القداسة هما يسوع نفسه؛ إِذ عليه أَن يتمثَّل بالمسيح، بحيثُ يسع المسيح أَن يوجَدَ فيه، وأَن يُحبَّ الآبُ العالَم، من خلاله".

وكانت الأمُّ قد هتفت، في أَثناء جلسة سينودوس، مُخَاطِبَةً البابا: **"أَيُّها الأَب الأَقدس، أَعطِنا كهنةً قدّيسين بحيثُ لن يسعَ أَخواتنا ومتطوِّعينا إِلاّ أَن يحذوا حذوهم؛ أَعطِنا كهنةً قدّيسين!"**

وعُهد عن الأُمّ تيريزا عقدُها علاقاتٍ مميَّزة، مبنيَّةً على صداقةٍ واحترامٍ متبادلَيْن مع عددٍ من الكهنة والأَساقفة، والكرادلة، وخاصَّة مع البابويْن بولس السادس، ويوحنا بولس الثاني اللذيْن اتَّفقا على اعتبارها سفيرةً للكنيسة في العالَم.

البابا بولس السادس هو الذي أَطلق شهرتها، في أَعقاب المؤتمر القربانيّ في بومباي، عام ١٩٦٤، عندما أهدى إِليها سيّارته التي باعتها بالمزاد، وموّلت بثمنها مشاريع إِنسانيَّةً غاليةً على قلبها.

ثمّ زارته الأمُّ في الـڤاتيكان، وتحدّثت إِليه في كثيرٍ من الورَع والإِجلال، وكان هو، لها، أَبًا طيّبًا، فاقترح بعض تعديلاتٍ على نظام جمعيَّتها، كفيلةٍ بتدعيمها، وترسيخ أُسُسِها، ثمّ كاشفها بما كان يُدمي قلبه من جرّاء خيانة بعض من كرّسوا حياتهم للرَّبّ، ثمّ حنثوا بوعدهم.

وعندما تبيَّن الأَب الأَقدس ما تنعم الأُمّ به من تأثيرٍ، كلَّفها بالتحدُّث في مظاهراتٍ عامَّةٍ، على نحو ما فعلت في ملعبٍ لكرة القدم في مدينة ميلانو، حيثُ احتجَّت على مشاريع قوانين كان من شأنها المسّ بحقوق الأُسرة.

وفي أَيّار ١٩٧٨، قُبَيْل وفاته، دعاها قداسته إِلى لقاء خاصٍّ معه، فاصطحبت عددًا من أَخواتها، والمتعاونين الإيطاليّين، وعندما قدَّمت له إِحدى الأَخوات عقدًا من الورد، طوَّق به عنق الأُمّ تيريزا قائلاً: "**أُمّاه، إِنّني خادمك غير المستحقّ**".

ولم يكن خليفته، يوحنّا بولس الثاني، بأَقلَّ منه صداقةً وتقديرًا للأُمّ تيريزا؛ فهو، بفضل حدْسه الذي يتيح له تقييم الأَشخاص، منذ النظرة الأولى، سُرعان ما استشفّ تأثيرها الكاريسميّ، فاستخدم ذلك التأثير لدى أَقوامٍ من مختلف المذاهب والمشارب؛ واكتشف فيها مساعِدَةً محنَّكةً، جديرةً بالثقة، فجعل منها سفيرته المتجوّلة، متحدِّثةً، بجرأة، عن كلّ ما آمن به من مبادئ، وما عزم على مكافحته من آفاتٍ. وقد حَرص على أَن تكون إِلى جانبه في مناسباتٍ علنيّةٍ عديدةٍ؛ وفي ٢٦ تشرين الأَوّل ١٩٨٥، دعاها إِلى المشاركة في السينودس الملتئم في روما، حيثُ كانت من المدعوّات النادرات إِلى جانب الكرادلة والأَساقفة، دليلاً على اعتماد الحبر الأَعظم على مشورتها، وخبرتها، في قَضَايَا جوهريّةٍ في حياة الكنيسة. وعندما كاشفته بمشروع فرعٍ للكهنة المتعاونين مع رسالتها أعرب عن رغبته في أَن يكون أَوّلهم.

لقد انعقدت، بين يوحنّا بولس الثاني، والأُمّ تيريزا، صداقةٌ روحيَّةٌ متينة الوشائج، مبنيَّةٌ على احترامٍ وإِعجابٍ متبادَلَيْن، وعلى توافقٍ مطلَقٍ حول مبادئ

الإيمان والسلوك، صداقةٌ تتجلّى، بِوُضُوحٍ مؤثّرٍ من خلال صُوَر لقاآتهما. وقد عبَّر الحبر الأعظم عن متانة تلك الصداقة أثناء زِيَارَته للهند، وتفقُّده مراكز الأمّ، وإِشادته بها جهرًا كما لم يُشِدْ، قطّ، بأيّ إِنسانٍ حيٍّ.

وكان، كلّما استقبلها استقبالاً خاصًّا في مقرِّه، انشرح صدرُه، وبدا مبتهجًا ودودًا، بحيثُ لا يتحرَّج من الترتيل معها ومع أَخواتها. كان يُفضي إِليها بكوامن صدره، ويقاسمها فترات استرخائه.

وقد أَعطى الدليل على تقديره وإِيثاره لها، عندما خصّ جمعيّتها، دون سائر الجمعيّات، بافتتاح مركزٍ لها في قلب الڤاتيكان يُعنى بالفقراء، والمحرومين، والمرضى والمسنّين، محقّقًا لها، بذلكَ، حلمًا طالما راودها، رغم معارضة إِداريّي الفاتيكان المتذرِّعين بحجَّة ضيق رقعته وازدحامه.

وقابلت الأُمّ صداقة البابا بقلب مفعمٍ سرورًا وإِيمانًا؛ فلقد كانت محبَّتها له بلا حدودٍ، ولا تتدنّى سوى قليلاً عن حبّها ليسوع. وبوحيٍ منه غالبًا ما تحدَّثت باسم ضمير العالَم الذي تنيره الشريعة الإِلهيّة ووصايا المسيح، في صراحةٍ قد تصدُم أَحيانًا، ولكنّها، دائمًا، تقابَل بالاحترام، إِذ إِنّ لها، في نصاعة حياتها، مصداقًا وشفيعًا.

وبالإِجمال كانت الأُمّ، طوال حياتها، صوت الكنيسة الجهير الصافي، وصورتها الناصعة المتألّقة، وقدّمت للكثيرين من غير المسيحيّين، نموذجًا لمسيحيّةٍ بوسعهم احترامها بلا تحفّظٍ. وبكلّ لحظةٍ من حياتها شهدت لحبّ يَسُوع وعطفه نحو جميع البشر، بلا تمييزٍ، فكانت رسول حبّه، وأبرزت له وللكنيسة وجهًا متألّقا، محبَّبًا.

إِنجازٌ تاريخيٌّ: جمعيّة مرسلات المحبّة

في غضون أَقلّ من نصف قرنٍ، أَمست النبتة التي غرسها الربّ بيد الأُمِّ تيريزا، شجرةً، وارفة الظّلال، تمتدُّ غصونها إِلى العالم أَجمع؛ فجمعيَّة مرسلات المحبّة، اليوم، مؤسَّسةٌ عالميَّةٌ، لها فروعٌ متعدِّدةٌ، وحضورٌ فاعلٌ، في جميع قارّات المسكونة، وعملها متعدِّد الوجوه، يتضمَّن شتّى ضروب الخدمة، فمنه:

– نشاطٌ رسوليٌّ يشتمل على مدارس الأَحد للتَّنشئة الدينيّة، ودراساتٌ إِنجيليَّةٌ، وجماعات عملٍ كاثوليكيٍّ، وزيارة المشافي، وملاجئ الأَطفال، والسجون.

– نشاطٌ طبِّيٌّ : عبر مستوصفات ثابتةٍ أَو متجوِّلةٍ، ومراكز لمعالجة البُرْص، وإِعادة تأهيلهم، فضلاً عن العناية بالأَطفال المُهمَلين، والمعاقين جسديًّا وعقليًّا، وبالمحتضرين المهجورين والفقراء، ومرضى السلّ والإِيدز، بالإِضافة إِلى مراكز لمعالجة سوء التغذية.

– نشاطٌ ثقافيٌّ: يتجلّى في مدارس ابتدائيَّةٍ في الأَحياء الفقيرة، ودروس في الخياطة، والنجارة، ومعاهد مهنيّةٍ، وبرامج زراعيَّةٍ، وتثقيفيّةٍ.

– نشاطٌ اجتماعيٌّ: يندرج في ملاجئ للمشرَّدين، والمدمنين على الكحول والمخدّرات، والأمَّهات العازبات، ومراكز لتنظيم الإِنجاب وفق الأَساليب الطبيعيَّة.

– خدمات طوارئ: توفِّر توزيع الأَغذية والكساء، وأَطعمةً مجفَّفةً، ووجباتٍ باردةً، وإِسعافاتٍ عاجلة للأُسر.

ومن أَهمّ معالم الجمعيّة في كلكتا:

– "نيرمال هرايدي": المُشرَع الأَبواب لاستقبال كلّ منبوذٍ أَشفى على الموت وحيدًا، ملقًى على قارعة طريقٍ، أَو على مرمى قمامةٍ، حيثُ يتلقّى، ربّما للمرَّة الأُولى والوحيدة في حياته، الحبَّ، والرعاية والشعور بالكرامة البشريّة.

– "شيشوبهاڤان": حيثُ يفيض حبُّ المُرسلات والمتطوِّعين على أَطفالٍ تخلّى عنهم ذووهم قسْرًا أَو جُبْنًا؛ وقد أُلحق به مستوصفٌ يأتي إِليه الآباء بأَطفالهم المرضى، فضلاً عن رعايته للأطفال المقيمين؛ ومستوصفٌ للعموم يعالج فيه ثلاثة أَطبّاءٍ نحو أَلفَيْ مريضٍ كلَّ أُسبوع؛ وتقدِّم مطابخ "شيشوبهاڤان"، يوميًّا، الطعام لآلاف المحتاجين، الذين ربّما كَانت لهم تلك الوجبة هي الوحيدة التي تقيم أَوَدهم.

– قرية البُرْص: "غانديجي پريم نيڤاس"، حيثُ يُعنى البُرْص الذين تعافوا بإِخوتهم المصابين، وحيثُ يعيش البُرْصُ في بيوتٍ خاصّةٍ، عيشةً عائليَّةً طبيعيَّةً، ويؤَدّون مهامّ توفِّر لهم الثقة بذواتهم.

ولهذه المعالم أَمثلةٌ تحاكيها في جميع أَرجاء الهند، وشتّى بقاع المسكونة. وفي جميع هذه المراكز تسود قاعدةٌ واحدةٌ: الخدمة المجّانيّة، من أَعماق القلب، لأَفقر الفقراء. والخدمةُ مستوحاةٌ من مثال المسيح الذي قضى سنواته العلنيَّة الثلاث يشفي المرضى، ويبرئ البُرْص، ويفتح عيون العميان على النور، ويحرّر النفوس المتألّمة

من شياطينها. والخدمةُ مبذولةٌ في سبيل المسيح الذي تمثّل بكلّ محتاجٍ، فهي، إذن، امتيازٌ سامٍ تسعى المُرسلات إلى استحقاقه، في كلّ لحظةٍ، بمزيدٍ من التفاني والبذل.

وتنفرد مُرسَلات المحبَّة بخدمة من يأبى الجميع خدمتهم: "**إن كانت منظّمةٌ أُخرى أجدرَ منّا بالعناية بأيّ أحدٍ، لأَوكلناه لها. ولكنّنا لا نرفض، أبدًا، أحدًا. ومراكزنا هي، غالبًا، الملاذ الأَخير لمرضى كثيرين يرفضهم الجميع**".

ومن مميّزات مُرسَلات المحبَّة أَنَّهنّ لا يقبعْنَ بانتظار أن يأتي إليهنّ المحتاجون والمنبوذون، بل يسعينَ، هنَّ، بحثًا عنهم. وفي هذا السياق تقول الأخت "شارمين خوسيه": "نحن قوم الشوارع، نعمل في الشوارع، ونُصلّي أثناء سيرنا... كلُّ أُختٍ تختصُّ، كلَّ يومٍ، بشارع تذرعه لعون الفقراء. ونمضي، أيضاً، إلى القرى المفتقرة إلى الموارد، حيثُ نفتتح مراكز طبّيَّةً. أَحيانًا نعالج حتّى أَلفَيْن وخمس مئة مريضٍ أُسبوعيًّا، داخل مركزنا وخارجه. معظم أَخواتنا ممرِّضاتٌ متمرِّساتٌ، وبعضُهنّ طبيباتٌ. ولدينا، أيضاً، مدرسةٌ تستقبل أَطفال الشوارع الذين تُساءُ معاملتهم، ويُدفَعون إلى الشذوذ، وهم، غالبًا لا أُسَر لهم ولا بيت، ولا يظفرون بما يأكلون، فنرحِّب بهم، ونعلّمهم، ونطعمهم، ونكسيهم، إلى أَن نجد من يتبرّعَ بتكاليف مدرسةٍ حقيقيَّةٍ لإكمال تثقيفهم. أَمَّا الأَطفال المعاقون جسديًّا، أَو عقليًّا، فيمكثون معنا".

وتقول الأخت "دولوريس" المشرفة على "نيرمال هرايدي":

"لا نسأَل أَحدًا عمّا دفعه إلى الشارع، فلا حاجة بنا إلى الإلمام بقصَّته؛ ولا نحكم على القوم انطلاقًا من الوضع الذي انتهوا إليه، وعلى الأَسباب التي حدتهم، أَيَّةً كانت، لأَنّ ما يحتاجون إليه هو شيءٌ من الحبّ والعناية: إننا نُعنى فقط بمن يُؤتى بهم إلينا، والربّ يحقِّق الباقي من خلالنا". وذلك، عملاً بقول الأمّ تيريزا: "**لا تهتمّوا بالبحث عن أَسباب مشاكل الإنسانيّة الكبرى، بل اكتفوا بفعل ما تستطيعون فعله لحلّ هذه المعضلات بتقديم مساعدتكم لمن يحتاجون إلى العون**".

حاجات العالَم في تفاقمٍ، ونشاطات مُرسَلات المحبَّة، بالمقابل، في ازديادٍ: "**كلَّ يومٍ يزداد حجم عملنا، اليومَ أكثر من أَمس، وأَقلَّ من غدٍ. عملنا لا يهدأ، ومراكزنا ملأى. نداءات الفقراء تتعاظم، وكذلك ينمو عملنا**". ومع ذلك يعجز عمل المُرسلات عن

اللحاق بوتيرة الحاجة إليه، وهذا ما كان يُحزن الأُمّ تيريزا من غير أَن يحبطها: "**تعلم علم اليقين، بأَنّ عملنا ليس سوى قطرةٍ في المحيط، ولكن لولا عملنا لافتقد المحيط هذه القطرة. فعلى سبيل المثال، افتتحنا مدارس لتعليم الأَطفال الفقراء حبّ الدراسة، وممارسة النظافة؛ ولو لم نفعل، لظلَّ أُولئك الأَطفال يتسكّعون في الشوارع**".

حياة المرسلات خدمةٌ متصلةٌ ومجّانيّةٌ لا تتوقّع ثوابًا أَو جزاءً، وخدمةٌ من كلّ القلب بلا تحفّظ؛ خدمةٌ مجرّدةٌ، وفيضُ حبٍّ؛ لا تَتَطَلَّع إِلى الأَعمال الجسيمة المدهشة، بل تُؤْثِر الأَعمال البسيطة الخفيَّة، الصعبة التي ينفر منها الآخرون أَو لا يتَّسع لها وقتهم؛ خدمةٌ تتكرَّر، كلَّ يومٍ، بلا ملَلٍ ولا تأفُّفٍ؛ خدمةٌ لا تتوقّع حتّى رؤية ثمار جهودها، فحسبُها أَن تكون حُبًّا بلا حسابٍ.

خدمةٌ يتعذَّر تفسيرها بشريًّا، ويكمن مفتاح سرِّها في حبٍّ ليسوع بلا حدود؛ خدمة تُبذَل إِكرامًا له، واقتداءً به، وقد أَوجزتها الأُمّ تيريزا بقولها: "**نعمل ذلك في سبيل يسوع، مع يسوع، وبيسوع، فهو من نرى في قريبنا المُعدَم. وعلينا أَن نحبّ مثلما أَحبّ يسوع، بلا حدودٍ، ولا نوايا مبيَّتةٍ، ولا رغبةٍ في مكافأةٍ... علينا أَن نحبّ كما أَحبّ يسوع الذي مات حبًّا بنا**".

وفي هذا السبيل تلتزم مرسلات المحبَّة، فضلاً عن النذور الرهبانيَّة الثلاثة المعروفة، بنذرٍ رابعٍ، نذر حبٍّ، يربطهنّ كلّيًّا بأَفقر الفقراء، ويُخضعهنّ خضوعًا تامًّا ومطلقًا للعناية الإِلهيّة.

حياتهنَّ، لا ريب، شاقَّةٌ وقاسيةٌ، ولكنَّها تصبح ممكنةً، بل هي تتحوّل إِلى معين فرحٍ، عندما تُعاش بعَوْن يسوع، وفيه؛ وبالتالي تُخضِع مُرسَلة المحبَّة حياتها إِخضاعًا محكمًا للإِفخارستيّا. "**ففي الإِفخارستيّا، نرى يسوع تحت أَعراض الخبز، وفي الفقراء نراه تحت مظاهر الفقراء الأَليمة**". الإِفخارستيّا والفقراء حبٌّ واحدٌ.

والأُمّ تيريزا، مثال مرسَلات المحبَّة الأَكمل. عاشت كلَّ لحظةٍ من حياتها مع يسوع، سواءٌ في القدّاس، أَو عندما تكون إِلى جانب من تخدمهم. في نظرها لا فرقَ بين المسمَّر على الصليب، والذي يحتضر في "كاليغات"، ولا وجودَ لأَحدهما في معزلٍ عن الآخر. وحبُّ القريب هو، لها، حبُّ الله؛ وقد أَوجزت رسالتها بقولها:

« اليومَ الفقراءُ جياعٌ إِلى الخبز والأَرزّ، وإِلى الحبّ، وكلمة الله الحيّة. وهم عطاشٌ إِلى الماء، والسلام، والحقيقة، والعدل؛ وهم مجرَّدون من اللباس، والكرامة الإِنسانيَّة والعطف.

"الفقراء يحتاجون إِلى ملاذٍ، إِلى مأوًى من حجرٍ، وإِلى قلبٍ فرحٍ يفهم، ويحمي ويحبّ. إِنَّهم سُقماء يفتقرون إِلى عنايةٍ، ولفتة عطفٍ، وبسمةٍ دافئةٍ.

"الحبيسون"، وغير المرغوب فيهم، وغير المحبوبين، والمدمنون على الكحول، والمهجورون، والوحيدون، والمنبوذون، والبُرْص، وكلُّ الذين باتوا عبئًا على المجتمع، وفقدوا كلَّ أَمَلٍ، وكلّ إِيمانٍ في الحياة، الذين ما عادوا يعرفون البسمة، الذين نسوا مجرَّد لمسة يدٍ صديقةٍ، كلُّ هَؤُلاءِ يفتقرون إِلى مؤاساتنا، فإِن نحن أَدرنا لهم ظهرنا، فإِنَّما نديره للمسيح؛ وفي ساعة موتنا سنُدان وفقًا لموقفنا منهم، ولن يكون أَمامَنا سوى احتمالَيْن: "هلمُّوا" أَو "ابتعدوا" ».

ولم تُعرِض الأُمّ وأَخواتها، يومًا عن فقيرٍ، بل واجهنَه بقلبٍ مُشرَعٍ لحبّه، وخدمته، إِكرامًا ليسوع.

وكان عملهنَّ مرضيًّا في عينيّ الربّ، فاعترفت الأُمّ: **"قد بارك الله مشروعَنا، إِذ أَعطانا دعواتٍ كثيرةً ورائعةً. فتياتٌ كثيراتٌ وهبنَ ذواتهنَّ، واخترْنَ العفّة من أَجل خدمة الفقراء، ولكي يلمسنَ المسيح تحت مظاهر الفقراء والمتأَلِّمين.**

"وقد تدهشون عندما تعلمون ما يجول في خاطر تلك الفتيات، بناتكنّ، وما يكتبنَه لنا: "إِنني راغبةٌ في حياة فقرٍ، وصلاةٍ، وتضحيةٍ تقودني إِلى خدمة الفقراء".

فتياتٌ وشبّانٌ كرَّسوا ذواتهم لله ولإِخوانهم، مقتفين مثال عطف الأُمّ تيريزا؛ قوم بسطاءٌ شفّافون، سخاؤهم بطولةٌ، أَدركوا أَنَّ حُبّ إِنسانٍ ما يعني التأَلُّم معه ومن أَجله، إِكرامًا لمن بذل حياته حبًّا بهم، سلاحُهم ملءُ عطاء الذّات، بدافع الحبّ.

وفريق المُرسلات فريقٌ متمرِّسٌ، صقلته الأمُّ تيريزا بيدها، فهي تعرف كلاًّ منهنَّ معرفةً متبصِّرةً، وتعلم ما تستطيع توقُّعه من كلِّ منهنَّ. وقد أَجادت اختيار من عيَّنتهنَّ رئيساتٍ على مراكزها الرئيسيّة، فأَحسنَّ العمل؛ وبفضل مواهبهنَّ وتقواهنَّ، ازدهرت الجمعيَّة ازدهارًا مُذْهلاً.

كثيراتٌ منهنَّ حصلنَ على شهاداتٍ عاليةٍ في الطبِّ، والتمـريض، والتـدريس، ولكنَّهنَّ لا يشرطنَ أَن يكنَّ، في الجمعيَّة، معلّماتٍ، أَو طبيباتٍ، أَو ممرّضـاتٍ، بـل يتوخَّين، قبل كلّ شيءٍ، أَن يضعنَ ذواتهنَّ، بلا تحفُّظٍ، في خدمة المسيح، وأَن يعشنَ له وحده، وينفِّذنَ العملَ الذي أَعدَّه لهنَّ.

وقد أَثار عملهنَّ الدهشة والإِعجاب، فقد كتب، على سبيل الشاهد، حاكم الحُديدة، في اليمن: "**ماذا فعلت الأَخوات هنا؟ لا شيءَ سوى إِطعام المسيح الجائع، وإِكساء المسيح العاري، وإِيواء المسيح المشرَّد؟**"

وكتب شاهدُ عيانٍ، رَصَد أَعمال المرسلات في أوستراليا: "**إِنّ الخيرَ، كالشرِّ، مُعْدٍ، وأَمثلةٌ كمثال الأمِّ تيريزا مذهلةٌ. فثمّة، الآن، آلاف الفتيات اللاّئي كرَّسنَ ذواتهنَّ لخدمة الأَكثر فقرًا. في أوستراليا زرتُ ملاجئ للمُشرَّدين، ورأيت فتياتٍ هِنْدِيَّاتٍ من جمعيّة مُرسلات الأُمّ تيريزا، يخدمنَ الأُسْتُرَالِيِّينَ. فقراءُ في بلدٍ غنيٍّ تخدمهم فقيراتٌ أَتَيْنَ من أَحد أكثر بلدان العالَم فقرًا، وكُنَّ من الكثرة بحيث استطعنَ أَن ينتشرنَ في العالَم، ويضطلعنَ بما كرَّسنَ له حياتهنَّ**".

تحمل المرسَلات إِلى العالَم حبَّ يسوع، وفرحه، ورجاءَه؛ وعندما يغشَيْنَ الطرقات، في الصباح الباكر، تتدفَّق في الأَجواء موجاتُ حبٍّ وسخاءٍ، وخلجاتٌ تحمل الرجاء، معلنةً لبائسي المدينة اللاإِنسانيَّة: "**نحن هنا، نحبُّكم، فلا تخافوا**".

وقد نمت جمعيّات الأُمّ تيريزا، وتشعَّبت، بحيثُ مثَّلت المسيح كاملاً، فاستطاعت الأُمُّ أَن تعلن بفرحٍ جمٍّ: "**لأسرة رسُل المحبَّة خمسة فروعٍ: الإِخوة العاملون والأَخوات العاملات، وهم يدا يسوع؛ والإِخوة المتأملّون والأَخوات المتأَمّلات، وهم قدما يسوع، لأَنّهم يتعهَّدون بالسعي في إِثْر النفوس، والآباء رسُل المحبَّة، وهم قلب يسوع**".

وقد استثار مثالُ الأمّ تيريزا من الإِعجاب ما حدا بملايين الذين خفقت قلوبُهم بمُثُل الحبّ والبذل، إِلى التضامن مع عملها، فتكاتفوا لتوفير المال لمشاريعها، والمساعدات لفقرائها، ولحذو حذوها خادمين المعوزين في جوارهم، وفي الأَماكن التي وضعهم فيها الربّ، وموفِّرين العزاء والمؤاساة. وكانت الأُمُّ لهم الدليل والهادي، وطالما حثّتهم على إِيثار أَعمال الحبّ البسيطة على تقديم المال مهما ضخُمت مبالغه.

وهي، بذلك، أَيقظت ضمائر العالَم على أَوضاع الفقراء واحتياجاتهم المادِّيَّة والنفسيَّة، وأَعادت لهم اعتبارهم وكرامتهم، محطّمةً، في سبيل ذلك، أَحيانًا، تقاليد دهريَّةً. وقد صرَّحت الأُمُّ، في هذا الشأْن:

« عملنا جميلٌ جدًّا، وقد باركه الربّ... وهو ليس، في ذاته، أَمرًا فائقًا للطَّبيعة. إِنّه قائمٌ على أَفعالٍ شديدة البساطة، كثيرون، في العالَم، يفعلون مثلَها. وعلى أَيَّة حالٍ، إِنَّ ما نسعى إلى تحقيقه قد جعل الناس يدركون ويلمسون أَنَّ الفقراء إِخوةٌ لنا، وأَنَّ الله خلقهم بحبٍّ، مثلنا. وقد استنفر ذلك، وما انفكّ يستنفر تضامنًا فعليًّا بين شتّى الطبقات. لقد شرع الناس يهتمّون بالمحرومين، ويُغدقون عليهم بسخاءٍ، مقدِّمين مساعدتهم للمحتاجين الذين يصادفونهم.

"ففي كلكتّا، على سبيل الشاهد، عددُ المتعاونين غير المسيحيّين، الآن، أكبر كثيرًا من السابق. وهم يقدمون إِلى مراكزنا بانتظام لتولّي مهامّ وضيعةٍ، كالتنظيف، وغسل الأَلبسة، والطهو، وإِطعام الفقراء والمرضى... وهم يحتفلون، شخصيًّا، بالمناسبات الهامَّة، والأَعياد، إِذ يأتون بأَنفسهم لتقديم الطعام لفقرائنا ومرضانا. وبوسعي التأْكيد أَنَّ مثل ذلك لم يكن ممكنًا تصوُّره في بلادٍ كالهند، حتّى سنواتٍ قليلةٍ... إِنّني غالبًا ما أَدعو القوم لزيارة بيت المحتضرين، لا من أَجل تقديم شيءٍ، فالتقادم متوفِّرةٌ، بل رغبةً منّي في أَن يعودوا الفقراء المحتضرين، ويبتسموا لهم، ويمكثوا إِلى جانبهم. إِنّ لمثل مظاهر الودّ هذه قيمةً جزيلةً لدى المحرومين".

مثل تلك الأَعمال تُغني نفوس من يضطلعون بها، وتوسّع قلوبهم، وتدفعهم على معارج القداسة.

لقد وعدت الأُمُّ تيريزا بتزويد أُمِّها الكنيسة بالقدّيسين، وكانت أَخواتها باكورتهم. فهي أَبت أَن تكون مُرسَلات المحبَّة مجرَّد راهباتٍ جيّدات، بل ابتغتهنَّ قدّيساتٍ. وقد اعتزمت أَن تهب الربّ تقدمةً كاملةً، ووحدَها القداسة كفيلةٌ بتحقيق هذا الهدف. وبالتالي، لم ترضَ لأَخواتها، دون القداسة، مصيرًا. وفي هذا السبيل كرَّست لتثقيف أَخواتها على القداسة كلَّ ما أوتيتْ من وقتٍ وجُهْدٍ، فقد كانت تدرك ما يتوقَّع الربّ منهنَّ، وبأَيّةِ حرارةٍ عليهنَّ أَن يحببْنَ الربّ الذي عقدنَ عليه قرانهنَّ، ممّا أَولاهنَّ كرامةً فائقةً، وشرفًا رفيعًا، وفي آنٍ واحدٍ، مسؤوليّةً باهظةً.

وقد أَعدَّتْهنَّ للتّحلّي بجميع الفضائل الكفيلة ببلوغ القداسة، من صلاةٍ متّصلةٍ، وتأمُّلٍ، والتصاقٍ دائمٍ بالربّ.

ورسَّخت فيهنَّ روح الفقر والسخاء في البذل، فدعتهنَّ إلى ممارسة حياةٍ مغرقةٍ في الشظف والقسوة، تتاخم أقصى حدود الطاقة البشريّة؛ طالَبَتْهنّ بكلّ شيءٍ، فأعطينَ كلّ شيءٍ وأكْثَر، في حين لم تطالب رهبانيّاتٌ أُخرى أعضاءَها إلاّ بالقليل، فلم يعطوا شيئًا. شعارُ الأُمّ تيريزا: "**إعطاء كلّ شيءٍ أو لا شيء**"، وقد برهن عن جدواه؛ ففي حين شهدت جمعيَّتها في أقلَّ من نصف قرنٍ، ازدهارًا مذهلاً، واستقطبت زهاء خمسة آلاف عضوٍ مندفعين في أشقّ ميادين الخدمة، وقفت رهبانيّاتٌ أُخرى شاهدات مُحْبَطاتٍ على تراجع دعواتها، وكلّما هي تراخت في ممارساتها الرهبانيّة ظانَّةً أنَّها، بذلك، قد تجتذب منتسبين جددًا، ازدادت هزالاً وقفْرًا؛ وهذا ما تفسّره الأُمّ تيريزا بقولها: "**في حقبةٍ يشكو فيها البعض من أزمةٍ في الدعوات الرهبانيَّة، مُدَّعين أنّ شباب اليوم غير مستعدّين لممارسة حياةٍ قائمةٍ على التواضع، والفقر والطاعة، لستُ أرى شيئًا من هذا. اطلبوا منهم، فقط، فعل أمرٍ صعبٍ، إكرامًا ليسوع، تجدوهم يتطوّعون**".

فالحياة المكرَّسة للربّ تعني انقطاعًا تامًّا عن حياة العالَم، ومعاييرها، وأهدافها المادِّيَّة؛ وتعني التضحية بالأنانيّة، والأهواء، والرغبات الشخصيّة، والنزوات، والخيرات الأرضيّة، وتطلُّعًا إلى ما هو أسمى وأبقى؛ أمّا متى تراخت الممارسات الرهبانيّة، وغدا الكهنة والراهبات لا يختلفون، في حياتهم اليوميَّة، عن سواهم، يُشبعون معظم رغباتهم، ويُحجمون عن التضحية، ويختزلون الصلاة، ويستخفّون بالأسرار؛ أو متى أنستهم شهاداتٌ علميّةٌ رفيعةٌ هدف حياتهم الجوهريّ، وسرَّبت إليهم كبرياء العقل، فشقَّت عليهم الطاعة، حينئذٍ تغدو لهم سائر نذورهم، بل تغدو دَعْوَتهمْ ذاتها عبئًا عليهم، وقيدًا يتمنّون، في قرارة نفسهم، الانعتاق منه، لأنَّهم يكونون قد حطّموا العلاقة الوثيقة بمن كرَّسوا له ذواتهم، وفقدوا الدافع إلى ذلك التكريس؛ ولا عجب إن لم يَعُدْ يرى فيهم الشباب جاذبًا إلى التمثّل بهم، لأنَّ حياتهم فقدت معناها الأصيل، وقدرتها على إشاعة العدوى.

أمَّا من يشهد حياة مرسلات المحبَّة، بكلّ وعورتها، وتجرُّدها، وبذلها المعطاء،

فلا يسعه إِلاَّ أَن يُعجَب بها ويُكبرها، حتّى لو كان غير مؤمنٍ، ولا يستميله النهج على غرارها؛ أَمّا من اعتلجت في حناياهم رغبةٌ إِلى حياةٍ محرَّرةٍ، وإِلى البذل والتضحية، فلا بُدّ من أَن تكون لهم حياةُ الأُمّ تيريزا وأَخواتها نداءً وتحدّيًا.

ومع أَنّ كثيراتٍ من مرسلات المحبَّة قد جئنَ من أُسَرٍ ميسورةٍ، وتزوّدنَ بقسطٍ وافٍ من الثقافة، وأَحيانًا بشهاداتٍ جامعيَّةٍ، غير أَنّهنَّ، منذُ ساعة انتسابهنّ الأولى إِلى الجمعيَّة، ينغمسنَ في حمأة الشقاء البشريّ؛ فخلافًا لسائر الرهبانيَّات التي تقتضي من مبتدئاتها الانحباس في أَديرتهنَّ، تطالب الأمُّ تيريزا مبتدئاتها، منذُ اللحظة الأولى، بقضاء بضع ساعاتٍ، كلَّ يومٍ، في خدمة أَفقر الفقراء؛ وخلال سنوات نذورهنّ المؤقَّتة يصبح وقتهن كلُّه وقفًا على خدمة المحرومين وجرحى الحياة، بحيث تغدو الخدمة وفرَحُها جزءًا صميمًا من كيانهنَّ قبل التزامهنّ بنذورٍ مؤبَّدةٍ.

ولا بِدْعَ، إِذنْ، إِن بلغت نسبة الثبات، في جمعيَّة مرسَلات المحبَّة، سبعةً وتسعين بالمئة، وإِن كان نكوصُ القليلات، في الغالب، لدواعٍ عائليَّةٍ. فهنَّ قد جئْنَ إِلى الجمعيَّة لأَنَّهنَّ رغبنَ في منح خير ما عندهنَّ، وابتغينَ ارتقاء قمَّة القداسة، بإِعطائهنَّ كلَّ شيءٍ، مضحّيات، طوْعًا وبفرحٍ، بمركزهنَّ الاجتماعيّ والأُسرويّ، ومستقبلهنَّ، وإِرادتهنَّ، موقناتٍ أَنَّ تضحيتهنَّ، في الواقع، ضئيلةٌ، وعطاءَهنَّ، أَبدًا، غير كافٍ، لقاءَ الحُظوة الرائعة التي دعينَ إِليها، حظوة لمس الربّ، وعبادته، وخدمته من خلال أَفقر فقرائه.

كانت دعوتهنَّ تحدِّيًا فقبلنَه، وعزمنَ على عطاء كلّ شيءٍ، متطلِّعاتٍ إِلى الأَقسى والأَشقّ، لكي يكنَّ جديراتٍ بخدمة الفقراء، وخدمة الله فيهم؛ فتلك الخدمة هي ذريعتهنَّ كي يعبِّرنَ ليسوع عن حبِّهنَّ.

وقد حرصت الأُمّ على أَن تتمرّس أَخواتُها، أَبدًا، بالفضائل التي لا تقوم حياةٌ رهبانيَّةٌ في معزلٍ عنها، والتي كثيرًا ما غدت موضع شكٍّ وتساؤلٍ، كالتواضع، والطاعة، والفقر.

فالتواضع شرطٌ جوهريٌّ للحياة مع الله، ولبلوغ القداسة، ومثال التواضع الأَسمى في نظر الأُمّ تيريزا، هو السيِّدة العذراء، التي سمت فوق كلّ الخلائق، لأَنّها ارتضت أَن تكون أَمة الله. وقد برهنت على تواضعها عندما هرعت إِلى قريبتها أَليصابات

بمجرَّد علمها أَنّها حاملٌ، في شيخوختها، وبحاجةٍ إِلى مساعدةٍ، وانبرت لخدمتها مع علمها أَنَّها تحمل، في أَحشائها، ابن الله، وطَفَر الجنينُ فرَحًا في أَحشاء أَليصابات لمَّا شعر بدنوّ يسوع منه، في أَحشاء مريم. من ذلك الحدَث تستخلص الأُمُّ تيريزا: "**هذه هي دعوة المرسلات: اصطحاب يسوع معهنَّ إِلى حيثُ هو مجهولٌ، وإِعلان حضوره للعالَم، وإِطلاع البشر على حبِّه لهم، وهو الذي تمنّى أَن يولد بينهم ولادة طفل**"، "**هذا بالذّات ما يتوجَّب عليكنّ بصفتكنَّ حاملات رسالة المسيح، وتلك هي المهمَّة التي يتعيَّن علينا تحقيقها بصفتنا رسولات المحبّة**".

ويوم التمست رئيسات رهبانيَّات أُخرى نُصح الأُمّ تيريزا، نصحتهنَّ بالتواضع على غرار السيِّدة العذراء، إِذ إِنَّ تقبُّل مشيئة الله، بكلّ تواضعٍ، نعمةٌ تُكتَسب بالصلاة المتواترة، وبالتعايُش الوثيق مع يسوع.

والراهبة المتواضعة، عمومًا، راهبةٌ مطيعةٌ، والطاعة تعبيرٌ عن الخضوع لمشيئة الله، وهي لا تأتلف مع أَيِّ صنفٍ من أَصناف الكبرياء. وقد غدا معروفًا أَنَّ التمرُّد على الطاعة هو أَحد الأَسباب الجوهريَّة في تقهقر الدعوات الرهبانيَّة. ولا ريب أَنَّ ازدهار جمعيَّة مُرسلات المحبَّة مدينٌ، إِلى حدٍّ بعيدٍ، لتمرُّسهنَّ بنذر الطاعة. وقد أَوردنا، سالفًا، أَنَّ كاهنًا شابًّا تحدَّث، يومًا، في جمعٍ من رئيساتِ رهبانيّاتٍ، كانت الأُمّ تيريزا إِحداهنّ، وممّا جاء في حديثه أَنّ المجمع الڤاتيكانيّ الثاني أَوصى الرئيسات بالتخلّي عن أُسلوب الأَمر، وباستمزاج رأي الراهبات قبل تكليفهنَّ بأَيَّة مهمَّةٍ، ومع أَنَّ الأُمّ رأَت في هذا القول تزويرًا لروح المجمع الڤاتيكانيّ، وتشويهًا للحياة الرهبانيَّة، شاءت اختباره، فاستدعت إِحدى أَخواتها وسأَلتها: "هل توافقين على المهمَّة الفلانيّة، وما رأيك في القيام بعملٍ كذا؟" وصُعِقت الأخت المسكينة، وانفجرت بالبكاء متسائلةً: "لمَ تعاملينني، أُمَّاه، على هذا النحو؟ وهل سبق أَن تأَفَّفتُ من أَيِّ تكليفٍ، أَو تمرَّدتُ على أَيِّ أَمرٍ؟". وحينئذٍ، تأَكّدت الأُمُّ أَنّ ما أَنشأَت عليه أَخواتها هو الأَساسُ السليم لحياةٍ رهبانيّةٍ راسخةٍ. وقد صرَّحت، في هذا السياق، أَمام جمعٍ من راهباتٍ هولنديَّات، في ٢٤ تشرين الأوّل ١٩٨٣: "**تواجه الحياةُ الروحيَّة، اليومَ، أَزمةً كبيرةً. صدِّقنَني، يا أَخواتي، سيسير كلُّ شيءٍ على خير نَسَقٍ، إِن نحن أَطعنا في استسلامٍ. أَطِعْنَ الكنيسة، وأَطعْنَ الأَب الأَقدس، فهو**

يُحبُّنا برقَّةٍ، ويريدنا قريناتٍ ليسوع المصلوب. تجارب كثيرةٌ تُحيق بنا، وتدفعنا في اتّجاهٍ معاكسٍ لدعواتنا ولذواتنا. وقد نُدعى إلى التغيُّر والتجدُّد، ولكن ليس هذا هو المطلوب منّاً، فشبابُنا يقتضي منّا القداسة، واستسلامًا تامًّا لله".

وقد طلبتْ، يومًا، الانضمامَ إلى جمعيَّة مُرسَلات المحبَّة طبيبةٌ شابَّةٌ كانت تلتهب، في صدرها، رغبةٌ حارقةٌ في خدمة البُرْص؛ ولكنَّ الأُمّ أَوضحت لها أَنَّها إن كانت راغبةً في خدمة يسوع، فلا يسوغُ أَن تضع لخدمتها شروطًا وحدودًا، وإن هي شاءت الانضمام إلى جمعيّة المُرسلات فعليها القبول بأيّة مهمّةٍ قد تُنتَدَب لها؛ وامتثلت الشابَّة، وقد هيّأَت لها رسالتُها فُرَصًا ثمينةً للعناية بالبُرْص، في مراكز مختلفةٍ، وفي مستوصفاتٍ متنقّلةٍ، غير أَنَّها اضطلعت، أَيضاً، بمهامّ عديدةٍ أُخرى، فأشرفت على إنشاء مراكز جديدةٍ في الولايات المتَّحدة، وأَميركا اللاّتينيَّة، وتولَّت تثقيف المبتدئات في الفيليپين، وكانت، أَبدًا، دائمة الجاهزيَّة، تتدفَّق فرحًا، وقد رسَّخت، في صدور طالباتها المبتدئات ما تلقَّنته من الأُمّ تيريزا حول طبيعة عمل المُرسَلات، حيثُ كلُّ لفظةٍ، وتحيّةٍ، وحركةٍ قد يكون صلاةً، وحيثُ العمل ضربٌ من العبادة. وقد خلصت تلك الأُخت – واسمها أَندريا – إلى هذا الاستنتاج: "**شابّات اليوم ينشدْنَ تحدِّيًا أَصيلاً، فعليًّا، وما يقتضي التزامًا كلّيًّا؛ إنَّهنَّ راغباتٌ في أَن يرينَ أكثر من رغبتهنَّ في أَن يسمعنَ. إنَّهنَّ يتطلَّعنَ إلى أَمثلةٍ يحتذينَها، وإنَّ مشاهدتهنَّ للفتيات اللاّئي التزمنَ التزامًا مُطلقًا بخدمة أَفقر الفقراء، فشاع منهنَّ فرحٌ لا يستطيع منحَه إلاّ المسيح، تُمثِّل، في ذاتها، أُسوةً وتحدِّيًا...**".

ولم تنِ الأُمّ تذكِّر أَخواتها بأَنَّ مهمَّتهنَّ الأَساسيَّة المتمثِّلة في العمل وسط الفقراء هي امتيازٌ لهنَّ، وهبةٌ من الله، مردّدةً على مسامعهنَّ قول القدّيس منصور دي پول للرّاغبين في الانضواء تحت لواء جمعيَّته: "**لا تنسوا أَنَّ الفقراء هم معلّمونا، ويحقّ لهم حبُّنا وطاعتنا**". وتضيف الأُمُّ: "**أَعتقد أَنّنا لو مضينا نحو الفقراء، بمثل هذا الحبّ لا تحدونا سوى الرغبة في إعطائهم الربّ، وفي تسريب فرح المسيح وقوَّته إلى أُسَرهم، ولو هم، عندما يشاهدوننا يرونَ فينا يسوع وحبَّه وكرَمه، إذنْ، لغدا العالَم، في الحال، غنيًّا بالسلام، ومُفعمًا بالحبّ**".

بتمرُّسهنَّ بهذه الفضائل، وبتشبثهنَّ بالفقر، سارت مُرسَلات المحبَّة على خطى أُمِّهنَّ تيريزا، في معارج القداسة، وغدونَ منارات تشعّ نورَ يسوع، وفرحَه، وبُشرى خلاصه، في جميع أَرجاء المسكونة.

وبالإجمال شُبِّهت جمعيَّةُ مُرسلات المحبَّة بكاتدرائيَّةٍ، الرسالاتُ مداميكها، والحبُّ أَساساتها، كلُّ حجرٍ فيها صغيرٌ، ولكنَّ حجارها مندمجةٌ في مجموعٍ يؤكِّد خَطَر شأنها، وبتآلفها مع أَحجارٍ أُخرى تكوِّن صرحًا رائعًا معماره الأُمُّ تيريزا، ولكنَّها ليست مهندسته، فالعمل يتخطّاها.

بيد أَنَّ هذا العمل، مع روعته، لم يسلم من تشدُّقات من لا يحسنون إلاّ النقد. وقد صُوِّب معظم النقد إِلى إِعراض الأُمّ تيريزا عن البحث في أَسباب الفقر الأَساسيَّة، وعدم تصدّيها لجذور الفقر والأَلم، وإِحجامها عن التنديد بالبُنى الاجتماعيّة الظالمة، وعن المشاركة في مناوأة الحكومات التي لا تولي الشؤون الاجتماعيّة الاهتمامَ الأَوّل.

والواقع أَنَّ الأُمَّ قد تحرَّت عن جوهر المشكلة، فدأَبت على إِيقاظ الضمائر، وإِصلاح قلوب صانعي القوانين ومنفِّذيها، بإِسماعهم أَنَّات المسحوقين، ودعوتهم إِلى الاستجابة لها. فليست الشرائع هي التي توجّه سلوك البشر، بَلْ القناعات؛ ومن ثَمَّ كان من الأَولى بها مخاطبة الضمائر، وهزّ القلوب، فتسير القوانين وفقا لها. وخير دليلٍ على ذلك أَنّ الإِجهاض كان مُحرَّمًا في جميع البلدان المتحضّرة، وكان السجْن عقاب كلّ طبيبٍ يزاوله، ولكنَّ نُزوع الناس المتعاظم إِلى عبادة اللذَّة، وإِلى التحرُّر من قيود الأَخلاق قد ضغط على الحكومات، باتّجاه تحليل الإِجهاض، بل تمويله على نفقة الدولة. وقد سعت الأُمّ في الاتّجاه المعاكس، في محاولةٍ لإِصلاح الضمائر والنفوس، علَّها تضغط على القوانين كي تنسجم مع مبادئ الدين والأَخلاق والإِنسانيّة، وتكون تعبيرًا عنها.

وأُخِذَ على الأُمّ مسايرتها لبعض الطغاة من الحكّام. والواقع أَنّها فرضت على ذاتها أَلاّ تدين أَحدًا، وأَن تسعى، أَبدًا، إِلى استنباط الخير الكامن في صدر كلّ إِنسانٍ، حاكمًا كان أَو محكومًا؛ ولم تكن مسايرتُها، يومًا، تواطؤًا، فقد نهضت كلُّ حياتها شاهدًا على إِيثارها المظلومين، والذَّود عن حياضهم، بكلّ ما أُوتيت من طاقةٍ.

وأُخِذَ على مراكزها هُزال الوسائل الطبِّيَّة. ولهذا المأخذ وقعٌ خاصٌّ في الغرب حيث أَمعن الطبُّ في الاختصاص والحداثة. ولكن، مع أَنَّ بين المُرسَلات عددًا لا يُستهان به من الطبيبات والممرِّضات، ومع سعي المرسلات إِلى توفير أَفضل علاجٍ، فضلاً عن توفير الأَدوية مجَّانًا لمن لا قِبَل لهم على ابتياعها، لم تدَّعِ جمعيَّة مرسلات المحبّة، يومًا، أَنّ الطبَّ هدفٌ لها أَو مهنةٌ؛ وقد أَوعزت، أَبدًا، الأُمّ تيريزا وأَخواتها إِلى سائقي سيّارات الإِسعاف أَن يطوفوا بالمغاثين على جميع المشافي، ويحاولوا إِيداعهم في أَكْثَرِهَا أَهْلِيَّة لمعالجتهم، وأَلاّ يأتوا مراكز المُرسَلات إِلاّ بمن رفضت جميع المشافي استقبالهم؛ وهؤلاء تكبُّ المُرسَلات على معالجتهم بكلّ خبراتهنَّ، وبكلّ قلوبهنَّ، رافداتٍ العلاج بالحبّ الذي تخلو منه معظم المؤسَّسات الطبّيَّة، والذي قد يكون، أَحيانًا، أَقدر على الشفاء من الدواء.

ولا غَرْوَ أَنَّ مرسلات المحبَّة قد وفّرنَ لمرضى بلدان العالَم الثالث ولبُرْصه ما لم يكن بوسع أَحدٍ أَن يوفِّره لهم، حتّى في مجال الطبّ، ووفَّرنَ لبؤساء الدول الغنيَّة من العطف والاهتمام، والعزاء، والأَمل، ما باتت مجتمعات تلك البلدان المتردّية، بسرعةٍ واستمرار، إِلى قيعان الأَنانيَّة، والانكماش على الذَّات، عاجزةً عن توفيره، فغدت فئاتٌ واسعةٌ من أَفرادها تعاني الوحدة والعزلة، والنبذ، واليأس.

وقد كتب الأَخ "جوف"، رئيس مرسلي المحبَّة، في هذا الشأن:

« إِنَّ الانتقادات الموجَّهة إِلينا مشوبةٌ بالمغالطة، فهي لا تفرِّق بين العمل التنظيميّ الرامي إِلى تغيير الأَوضاع الاجتماعيّة، وعملنا القائم، أَوّلاً، على إِعادة الكرامة لمن هووا إِلى القعر.

"إِنَّ المساعدات من أَجل التنمية ضروريّة، ولكنَّها ليست أَوّلَ ما يحتاج إِليه فقراؤنا. فعندما يحتضر إِنسانٌ على الرصيف وحيدًا، يكون قد فات وقتُ البحث عن الأَسباب التي أَفضت به إِلى هذا المصير، أَو وقتُ وضع ثبْتٍ بجميع البرامج الاجتماعيّة التي كان من شأنها الحؤول دون ذلك.

"إِنّنا نعي ضرورة أَن يدرس آخرون، ويضعوا موضع التنفيذ، حلولاً سياسيَّةً واجتماعيَّةً واقتصاديَّةً تمنع أَن يُترك مثل هذا المحتضر في هذا الوضع المثير

للشفقة؛ ولكن، وقد انتهى الآن إلى هذا الدرك، فرُحماكم دعونا نساعده على الموت في سلامٍ وكرامةٍ. في أَغلب الأَحيان تضطرُّنا الحاجة الملحَّة إِلى تقديم مساعداتٍ قصيرة الأَجل، وفي تلك الأَحوال، لا يُراودنا إِلاّ سؤالٌ واحدٌ: هذا الرجل، أَو هذه المرأَة يعانيان الهجران والوحدة، فما يسعنا أَن نفعل من أَجلهما، في الحال؟

"إِنَّنا نرحّب، بفرحٍ، بالحلول السياسيَّة الكفيلة بتحسين أَوضاع الفقراء، ولكنَّنا لا نمتلك لا الوقت، ولا الوسائل، ولا حتّى الدعوة لتكريس ذواتنا لهذه المهمّة. إِنَّ الربّ، في حكمته، يوحّد جميع الإِرادات الطيّبة، وهو يعلم أَنّ ما من إِنسانٍ يقوى، بمفرده، على حلّ مجمل القضايا على جميع المستويات، وحيثما برزت، ولذلك هو يدعو بعضَ الناس إِلى تولّي نمطٍ من الأَعمال، ويدعو آخَرين إِلى تولّي نمطٍ آخر منها". »

وأَخيرًا، أُخِذَ على الأُمّ تيريزا ممارسةُ سُلطةٍ مطلقةٍ على جمعيَّتها، واتّباعها سياسةً شديدة المركزيَّة، ولكن مثل تلك السياسة، في فترة التأسيس، كانت ضروريّةً، وبالغة الجدوى، فقد مكَّنتها من اتّخاذ أَخطر القرارات ومن تنفيذها بلا تلكُّؤٍ ولا تردّدٍ، وفي سرعةٍ مذهلة. ولو لم تنهج الأُمّ هذا النهج لاقتضى تأسيس المراكز التي أَحدثتها في العالَم قرونًا، أَو لربما تعذَّر على الإِطلاق.

وعلى أَيَّة حال، كانت سُلطتها تفيض حبًّا وعطفًا، ولم تشكُ منها أَيّةٌ من أَخواتها اللواتي أَجمعنَ على إِعادة انتخابها، رغم إِرادتها، وخلافًا لرغبتها، كرَّةً إِثر كرَّة.

ولا جَرَم أَن كثيرًا من الانتقادات التي رُشِقت بها الأمّ، كانت ردّ فعلٍ يائسٍ ممّن فضحت حياتُها البطوليَّة ضحالتَهم وتخاذلَهم؛ وكان الأولى بهم أَن ينافسوها بذلاً، وعطفًا، وتضحيةً، عوضًا عن القبوع في مقاعد وثيرةٍ، وإِطلاق الأحكام السهلة؛ وهذا ما عبَّر عنه الأَخ "أَندرو" الذي قال: "لو لم أكرِّس حياتي للفقراء والمتأَلّمين، على نحو ما كرَّست حياتها، لكان من شأن انتقاداتي الصغيرة، إِبراز حماقتي".

وبالإِجمال، قياسًا إِلى أُوقيانس المحبَّة الذي سكبته الأُمّ تيريزا على المسكونة، يبدو كلُّ نقدٍ لها، ولو كان مبرَّرًا في بعض نواحيه، قطرة ماءٍ على صخرةٍ، تحت شمسٍ ساطعةٍ.

شاهدة حبّ الله

يومَ كُرِّمت الأُمُّ بجائزة نوبل للسَّلام، تبارت الصحف في إِبراز صفاتها، بعباراتٍ موجزةٍ، فقيل: "**بات لجائزة نوبل ملاكها**"، "**النوبل لأمّ الفقراء**"، "**نوبل المحبَّة**"، "**نوبل الفقراء**"، "**الأُمّ بسمة**"، "**الأُمّ تيريزا المحبّة**"، "**نوبل للّتي تُصلّي**"، "**كوفئت الطيبة والقداسة**"، "**القدّيسة تيريزا الكلكتّاويّة**"، "**قدّيسةٌ حيّةٌ**".

حتّى الذين لا يستطيعون تحديد ماهيّة القداسة، وصفوها بالقداسة، بدافع بلاغة شهادة حياتها، وإِعجاز منجزاتها، وبكونها قوَّةً تتخطّى الطاقات البشريّة، و"**امرأةً فريدةً تشرّف الجنس البشريّ**".

وقد حاول بعضُهم تعريف القداسة بأَنّها نافذةٌ يُستَشَفُّ، من خلالها، عالمٌ آخر، وتعريف القدّيس بأنَّه إِنسانٌ يتألّق من خلاله نور الله؛ والقداسة، إِلى ذلك، صبوٌّ دائمٌ، مضطرمٌ، إِلى الكمال، في حياةٍ متَّصلةٍ بالله، مندمجةٍ به، ذائبةٍ فيه، مناضلةٍ بلا هوادةٍ، ومنتصرةٍ على داوعي التواني، ومغريات الدنيا.

وقد استوفت الأُمُّ تيريزا جميع مقوِّمات القداسة، فكانت حياتُها كلُّها مناقضةً صارخةً وصريحةً لكلِّ ما يؤمن به ويعيشه العالَم المادّيّ؛ واتَّضح، من كلِّ ما فعلت، أَنَّها كانت تستقي طاقاتها من ينابيع غير أَرضيّةٍ، ولا مادّيّةٍ، فقد رأت الله في كلّ إِنسانٍ، ولا سيّمَا في من أهملهم الناس ونبذوهم، والله هو من أَمحضت له حبَّها، وعبَّرت عن هذا الحبّ بخدمة من شاءَ يسوع أَن يتمثّل بهم من بني البشر، فأشاعت حبَّه، وأَشعّت نوره ما بينهم.

وفي سبيل هذا الحبّ تخلّت عن كلّ شيءٍ، عن كلِّ حبٍّ آخر، وعن كلّ عاطفةٍ دنيويَّةٍ، وكلِّ شهوةٍ، أَو متعةٍ، أَو رفاهٍ، وكلّ امتلاكٍ، بل تخلّت عن ذاتها، وإرادتها الخاصَّة، لتكون بكاملها، ملكَه وملك من أَحبَّته فيهم؛ لقد أَفرغت ذاتها لكي تمتلئ بهِ، وتفيضه على إِخوتها وإِخوته الأَثيرين، أَفقر الفقراء؛ وبفعلها هذا، الذي أَحرزت في مضماره شأوًا بعيدًا، أَشرعت القلوبَ والأَذهانَ على مُثُلٍ غير مُثُل الامتلاك والاستهلاك، والأَثرة وحبّ الذَّات، وأَيقظت الضمائر على واجبات المشاركة، والعطف، والحبّ.

ولم تعُدَّ القداسةَ والكمالَ تَرَفًا، بل واجبًا يمكن، وبالتالي ينبغي بلوغه، فكلّ ممكنٍ، في نظرها واجبٌ، ولم ترتضِ بأَقلَّ منهما غايةً لنفسها، ولكلّ من انضمّوا إِلى فريق عملها، فمضت، أَبدًا، صُعُدًا في مراقيهما، على مَتْن إِرادةٍ عازمةٍ لا تخور، وثقةٍ في عناية الله المحبَّة لا يُداخلها شكٌّ، وحبٍّ لله مُستَعرٍ لا يهمد له اضطرامٌ، وعطفٍ بلا حدودٍ لا يستثني من حنانه أَحدًا.

لقد هزّت معاناةُ المحرومين أَوتارَ كيانها، ففعلت ما لم يفعله إِنسانٌ من أَجل مؤاساتهم، واستنفرت، في هذا السبيل، أُلوف الإِخوة والأَخوات الذين اندفعوا في تيّارها، ومئات أُلوف المتعاونين من شتّى المشارب والمذاهب والجنسيَّات، الذين حذوا حذْوَها ففاضوا سخاءً. ولكي تخدم المحرومين على الوجه الأَكمل، عاشت عيشة أَكْثَرهم حرمانًا، ولكي تتعرَّف احتياجاتهم، شاركتهم مصيرهم مشاركةً صادقةً بطوليَّةً، ووهبتهم خمسين سنةً من عمرها، بأَيّامها ولياليها، وكلِّ ثانيةٍ فيها، بكلّ ما في كيانها من طاقةٍ، وبكلّ ما في قلبها من حبٍّ، فغدت تجسيدًا للمحبَّة في قرننا العشرين، وبفضلها بات العالم أكثر وعيًا لفقر الفقراء، وأَوفر إِلمامًا باحتياجاتهم، وأَعمق شعورًا بواجبه نحوهم.

أَحبَّت الله بكلّ كيانها؛ وبما أَنّ الله قد تجسَّد في إِنسانٍ، وخلَّد حضوره في سرٍّ علويٍّ، وتمثّل بكلّ بائسٍ منبوذ، فقد أَقبلت، بحميَّة العاشقين وسخائهم، على عبادته في سرِّه، ولمسه ومؤاساته في ممثّليه، ومن تلك العلاقة الحميمة المتَّصلة بإِلهٍ كليِّ القدرة، استمدَّت قدراتٍ ليس للعالَم عهدٌ بمثلها، وتسنّمت قممًا من كمال الروح شامخةً.

وتحقَّق فيها قول الشاعر سعيد عقل: "تعرف فتقدر، تحبُّ فتبدع، تكون فتشعّ حقيقةً وجمالاً".

وقد أَشعَّت الأُمّ تيريزا حقيقة الشاهد الصادق، الذي لا سبيلَ إِلى الطعن بشهادته لأَنَّها شهادةُ حياةٍ مضرَّجةٍ بدماء جهاده؛ وأَشعّت بجمال القدّيس الذي أَضفى على حياته وجه الأَبديَّة، وتأَلّق نوره أَمام الناس فمجَّدوا الله الذي يرى الأَعمال الصالحة، ويحسن تقديرها.

إِنَّ الأُمَّ تيريزا تنتصب، في عصرنا، شاهدًا عملاقًا على حبّ الله، وعلى

القدرات الهائلة التي يؤتيها العمل بدافع هذا الحبّ، وعلى مثاله. فلقد دأبت على تحقيق تحفةٍ من أجل يسوع، وأنفقت كلَّ لحظةٍ من عمرها في إكمال تلك التحفة، وصقلها، بحيث تغدو، كلّ يومٍ، أوفر جمالاً، وكمالاً، وروعةً، وبُعْدَ إِشعاعٍ.

وشهادتُها تُسبغ على حياتنا معنًى، وتوجد لقلقنا مخرجًا، وتظهر، ببساطةٍ، أَنّ مصير الإِنسان يتخطّى حدوده البشريَّة، أيًّا كان مدى تشوُّهه الظاهر.

الذين عرفوها عن كثبٍ، أخذ منهم مثالُها كلَّ مأخذٍ. وقد قيل: "**لا يخرج أَحدٌ سالمًا من مواجهته مع هذه المرأة التي يبدو إِيمانها الكثيف، وقدرتها على الالتزام يتجاوزان الإِدراك، أَو ينتميان إِلى عهدٍ غير عهدنا**".

ولم تكن شهادتها أَقلَّ نفاذًا أو بلاغةً في من سمعوا أَو قرأوا عنها، بل امتدّ إشعاعها إِلى جميع أَنحاء المسكونة، بنفس القوَّة الآسرة المحرّكة.

وكانت شهادتها ضرورةً حيويَّةً لعمرنا، فهي، في المقام الأَوّل، شهادةً على وجود الله، وعلى حبِّه، وعلى قدراته اللامحدودة. فخير دليلٍ على الله، في أَيّامنا، وجهٌ مثل وجهها، وبسمةٌ نظير بسمتها، وعملٌ يحاكي عملها، وفَرَحٌ من نَمَط فرحها الساجي المفعم سلامًا، ونورٌ يسطع بمثل أَلَق النور المنبعث منها. فعلى الروحيّ، اليوم، أَن يتجلّى في وجهٍ، وفي حياةٍ؛ وحقائقُ الوجود الأَساسيَّة لا تكتسب مزيدًا من مصداقيّةٍ بمجرَّد تكرار إِعلانها، بل هي تتجسَّد وتُشعُّ عندما تُعاش بصدقٍ. والأُمّ تيريزا، بشخصها وبحياتها، كانت كلمة الله الحيّة، وإِن كان "كلّ قولٍ قد يناقضه قولٌ، فأَيُّ قولٍ يقوى على مناقضة الحياة؟"

شهادتُها تُسائل كلَّ مؤمنٍ، فقد اعترف الأَب "جيرجي": "**كم نحن بعيدون عن الإِنجيل، في حين هي تعيشه، بعمقٍ، في حياتها اليوميّة!**"

إِنّها دعوةٌ لجميعنا كي نحطّم القيود التي تحول بنا دون العطاء المطلق، ودون القداسة؛ أَمامها نشعر بذنب القصور والجُبْن، ولو أَنَّها لم تَدِنْ، يومًا، أَحدًا، ولم تشهّر بأَحدٍ.

وقد أَقرَّ "أوليفييه كليمان": "**مع الأُمّ تيريزا ينتابنا الشعور بأَنّنا نلمس مباشرةً إِشعاع الحبّ الإِلهيّ، وحضور المسيح في الروح القدس. عندما نلتقي**

أَمثالَها على دربنا يعترينا إِحساسٌ بكثافةٍ وشفافيةٍ مشرَعتَيْن على نورٍ أَقوى من كلِّ ظلماتنا. وربّما هنا، في تلك اللقاءات، تبدأ الأَبديَّة".

بيد أَنّ شهادتها تسائل، أَيضاً، الملحدين والمادِّيّين، الذين يتعذَّر عليهم تجاهُل القوَّة الروحيَّة التي تُشعُّها، والحياة والنور المنبعثَيْن منها، مؤكِّدَيْن أَنَّها ليست منبعهما. إِنّها لغزٌ يتحدّى الأُطُر العقلانيَّة، التي تزعم تفسير كلِّ شيءٍ، وتستفزّ تساؤلاً تلقائيًّا: في معزلٍ عن هذا العطف الخلّاق، المفعَم حبًّا أَقوى من الموت، أَيُّ معنًى لكلّ تلك القدرة المادِّيَّة التي نكدّسها؟

إِنّها تثير التساؤل وترشد إِلى الدرب، وهي، في مواجهة الإِلحاد المستفحل شهادة إِيمان أَقدر إِقناعًا من جميع حجَج اللاهوتيّين، وخطَب الوُعّاظ.

ولا جَرَم أَنَّ في تخصيص مجلاّتٍ عالميَّة كبرى، مثل مجلَّة "تايم" صُوَر غلافاتها، ومقالاتٍ مستفيضةً عنها، دليلاً دامغاً على أَنّ حتّى أكثر وسائل الإِعلام إِمعانًا في العلمانيّة وبعدًا عن الدين، ليست في نجوةٍ من شهادةٍ إِنجيليَّةٍ صِرْفٍ، مثل شهادة الأُمّ تيريزا.

بعضُ من كتبوا سيرتها غير مسيحيّين، منهم هندوسيّون، ومنهم يهودٌ، ومنهم من يجهرون بإِلحادهم، غير أَنَّ جميعهم اعترفوا بأَنَّ ما أَنجزته من أَعمالٍ، وما ارتقته من قمم الروح، يستحيل في معزلٍ عن حبّ يسوع وقدراته. وفي شهادتهم هذه عينها دليل على مدى إِشعاع تأثيرها.

فهي، بدافع حبّها ليسوع، قد عقدت، مع كلّ كائنٍ، علاقةً تتخطّى جميع القيود، والتعاليم، والمذاهب، وسيظلّ عملها ومثُلُها صفحةً مشرقةً في تاريخ الإِنسانيّة، بقطع النظر عن جمعيَّتها التي قد تخلِّد رسالتها، أَو قد لا تكون، دائمًا، لها وفيَّةً.

إِنَّها، حقًّا، عطيَّة ثمينةٌ من الله للعالَم أَجمع، فحياتها كانت مليئةً بالله، ومليئةً بالآخر الذي، هو، دائمًا، صورة الله.

إِنّها شخصيَّةٌ فذَّةٌ من تلك الشخصيَّات النادرة التي، بفضلها، لا يمكن اليأس من شيءٍ أَو من أَحدٍ، من جرّاء إِيمانها بأَنَّ الشرَّ لن ينتصر أَبدًا، ولن يُفلح في تدمير ما يحمل ختم الله وبصمته.

إِنَّها رمز القيامة، والحبّ اللاهب الذي يصرخ في آذاننا أَنَّ على الأَوضاع أَن تتغيَّر، وسط عالمٍ اعتاد، منذُ أَمَدٍ طويلٍ، مجاورة جميع أَنماط البؤس البشريّ، في لامبالاةٍ مُخْزِيةٍ.

إِنَّها ابنة عصرنا، ورسالتها ستدوّي، أَبدًا، في ضمائرنا، وضمائر الأَجيال القادمة؛ وما أَحوج عالَمنا إِلى مثل هذه الرسالة الكفيلة بريّ عطشنا إِلى الحبّ، والجمال، والعظمة، والرجاء، والتسامي!

إِنّها بوصلة تهدي العيون الباحثة إِلى معنى الوجود الحقّ، وهي الدليل على أَنَّ الله لم يتخلَّ عن شعبه، وأَنَّ يسوع ما انفكّ يدعم كنيسته، بإِنهاضه، في كلّ عصرٍ، شهودًا على حبّه للبشر، وعلى قدرات محبَّته على صنع قدّيسين وأَبطالٍ، يستحوذون على إِعجاب كلِّ إِنسانٍ يخفق قلبُه بتقدير الخير والمحبّة.

لقد دأَبت الأُمُّ على التأكيد بأَنَّ كلّ ما فعلته، بالقياس إِلى جسامة احتياجات الفقراء، لا يتخطّى كونه قطرةً في محيطٍ، بيد أَنَّ في تلك القطرة يكمن محيطٌ من الإِشعاع البعيد المدى. ولا غروَ أَنَّ ما هو مرشَّحٌ للخلود، أكثر من عملها وإِنجازاتها، هو مثال حياتها، وروحانيّتها، ورسالتها. فقد أَلهمت جماهيرَ لا يحصى لها عددٌ، ووجَّهت حياتها الروحيَّة، وأَضفت بعدًا جديدًا على المحبَّة المسيحيَّة، باعثةً فيها نَفَسًا قشيبًا، مبرزةً عالميَّتها وشمولها، والضرورة الحيويّة إِلى محبَّة الأَكثر حرمانًا، الفقراء، والمتواضعين، والمحزونين، والوحيدين، وأولئك الذين يمرّ بهم المجتمع ولا يراهم، فمن خلال هؤُلاء، في المقام الأَوّل، يودُّ يسوع أَن يُخدم. لقد هزَّت وجدان العالَم، لا كما يفعل نبيٌّ ينذر بالكوارث، بل بإِصدائها لقول القدّيس يوحنّا: برهنوا عن حبّكم لله غير المرئيّ، بحبّكم وخدمتكم جاركم الذي تستطيعون رؤيته".

وبمثال فقرها وسخاء بذلها، انتصبت وسط عالمنا المعاصر، اللاهث في سعيه الدائم إِلى الرفاه والترَف، صورةً حيّةً للمعمدان. فزيُّها الرثُّ، والخفُّ الزريُّ في قدميها، والمسبحة التي لا تبارح يدها، وكلامها الصريح المنزَّه من كلّ رياءٍ ومواربةٍ، والفكرة الوحيدة التي تحرّكها، كلّ ذلك يذكِّر القوم بملكوت الله الذي تدعو إِليه. لقد كانت سبَّابةً مُصَوَّبةً نحو السماء، وكان صِغَرُها وتواضعها يرتقيان بها فوق عظماء هذا العالَم، الذين وفَّرت لهم فرصة ارتقاءٍ روحيٍّ. وبقدوتها الصادقة،

المتواضعة، كانت تدفعهم إلى حرمان أَنفسهم من بعض متعةٍ ورفاهٍ، وإِلى اقتسام خيراتهم مع الفقراء، وفي قلوبٍ كثيرةٍ أَيقظت الشعور باحتياجات إِخوةٍ لهم، بعد أَن ذكَّرتهم بقول المسيح الذي ولّدَ اندفاعها وتفانيها: "كلُّ ما تفعلونه للأصغر من إِخوتي، فلي تفعلونه".

لقد ذكَّرت عالَمَنا، المسترسل في مادِّيَّته، بأَنَّ الإنسان هو، قبل كلّ شيءٍ، روحٌ، ويحتاج، مثل حاجته إلى الطعام والكساء والسقف، إِلى الشعور بكرامته، لكونه ابن الله، وإِلى الحبّ، وإِلى اهتمام الآخرين، وتقديرهم له.

وبقدوتها أكّدت أَنَّ الكون لن يصطلح حالاً ما لم يَسُدْهُ الحبُّ، ويستولِ على النفوس فيغيِّرها، وأَنَّ الثورات، إِن لم يكن الحبُّ أساسَها وهدفَها، لن تُفضي، في نهاية المطاف، سوى إِلى تغيير وجه البؤس، وأَنَّ الثورة الحقيقيَّة الوحيدة هي "ثورة الحب".

والحبّ هو ما عاشته الأُمُّ تيريزا بكلِّ جوانحها، ونادت له بصوتٍ جهير.

كثيرون، اليوم، هم الذين يعانون سكرات موتٍ مستمرٍّ، لأَنَّهم لم يتوفَّقوا إِلى لقاء الكائن القادر على أَن يقول لهم بصدقٍ: "أَنت محبوبٌ، بوسعك أن تعيش، بوسعك أَن تكون ذاتك". وقد امتلكت الأُمّ تيريزا، كما لم يمتلك سوى القليلين، مفتاحَ سرّ تلك الكلمة الطيّبة، الصادقة، التي توفّر مبرّرًا للعيش، والتي يتوق كثيرون إِلى سماعها.

وقد زرعت الشكَّ في نفوس المادِّيِّين بإبرازها صورة الطيبة الرائعة، وبإِقامتها الدليل، في كلّ لحظةٍ من حياتها، على إِمكان التعايُش السلميّ، بفضل محبَّة كلّ فردٍ، واعتباره فريدًا، وعلى أَنَّ السعادة ممكنةٌ مع الزهد، والصدوف عن كلّ امتلاك، وأَنَّها، حينذاك، سعادةٌ عميقة الجذور، ثابتةٌ، صامدةٌ في وجه تقلُّبات الظّروف، والقيَم الزائلة. فمن معايشتها للفقراء تعلَّمت أَنَّ حياةً متخفّفةً من الامتلاك قد تولّد الفرح والحرّيّة، وأَنَّ التمتّع بالجمال ممكنٌ في معزلٍ عن امتلاكه وانتهاكه.

ومارست الأُمُّ مجّانيّةً مطلقةً، فبرهنت على أَنَّ مثل تلك المجّانيّة، في اللحظات المأساويّة، هي وحدها التي تنطوي على معنًى.

ومن أَكْوَاخ كلكتّا البائسة حملت رسالةً روحيَّةً إِلى مجتمعاتٍ تدَّعي التقدُّم، من شأنها زعزعة الآراء الرائجة، ولذلك كانت تزعج.

بدعوتها المحظيّين إِلى انتهاج دروبٍ غير دروب الثــروة، والرفــاه، وهَــوَس الامتلاك، كانت تزعج.

وبتنديدها بجريمة الإِجهاض، بدوافع أَنانيَّةٍ، كانت تزعج.

وبإِعلانها أَنّه أَحَبُّ عليها غسل أَبرص من الوقوف أَمام الكاميرات، كانت تــزعج من انحصر همُّهم في أَن يكونوا اسمًا طنّانًا، هو نتاج إِعلامٍ زائفٍ، عوضاً عن فرض ذواتهم على إِعلام لا يسعه سوى الاعتراف بالبطولة الحقَّة، مِثْلَمَا هي فرضت ذاتها.

والانزعاج والقلق هما بداية طريق التساؤل والتحوُّل؛ وهل من يزعج أكثــر مــن يسوع وإِنجيله، اللذيْن يزعجان الأيديولوجيّات التي تحاول طمس الله، ويزعجان الخطيئة التي يحاول فقهاءُ العالَم التقليلَ من شأنها، ويزعجان الادّعاء والحماقة الــشائعَين فــي عهدنا؛ كلُّ هذه تقف حيال حياة الأُمّ تيريزا، وإِنجازاتها، خرساءَ، مرتبكةً، مصعوقةً.

وبروحانيَّتها القائمة على حبِّ يسوع الذي قال: "كنتُ جائعًا فأَطعمتموني" و"كلُّ مــا تفعلونه لواحدٍ من أَصاغر إِخوتي، فلي تفعلونه"، فتحت العيون علــى الــسراط القــويم المفضي إِلى تحقيق الذّات، في نجوةٍ من الأَوهام والأَضاليل. وقد اعترفت، هي نفــسها: "**أُريد أَن يتعلَّم الكثيرون معرفة الله، ومحبَّته، وخدمته، ففي ذلك يكمن الفرح الحقّ...**"

في كلماتٍ وجيزة، جعلت منها "بطاقتها الشخصيَّة"، حدّدت الأُمّ تيريــزا معــالم الطريق الذي انتهجته، والجدير بأَن يكون للآخرين دليلاً:

« ثمرة الصمت: الصلاة،

وثمرة الصلاة: الإِيمان،

وثمرة الإِيمان: الحبّ،

وثمرة الحبّ: الخدمة،

وثمرة الخدمة: السلام »

فمن الإِنصات إِلى صوت الربّ الهادي، وُلِدَتْ دعوتُها، ومن استمرار إِنــصاتها إِليه نمت رسالتها وقداستها، وبوحي ما بلّغها صوت الربّ، في صمت تأمُّلها، تحرَّر قلبُها من كلِّ قيدٍ بشريٍّ، واستغرقت في صلاةٍ متَّصلة، فكان عملها صلاةً، وصلاتها عملاً، ومن صلاتها التي كانت علاقةً حميمةً بالربّ، استمدَّت قوَّةً خارقةً مكَّنتها من

ممارسة حياةٍ هي، في نظر البشر، مستحيلةٌ، ومن اجتذاب آلاف الفتيات والشبّان إِلى انتهاج مثل حياتها، ومعهم، جميعًا، أَنجزت عملاً معجزًا. والصلاة رسَّخت إِيمانها الذي لا يتزعزع في أَنَّ عملها إِنّما هو عمل الربّ، فتنهض بما يتوجَّب عليها، وبكلّ ما تقوى عليه، على أَن يتعهّد الربّ بالنتائج، وقد كافأ الربُّ إِيمانها، فنثر المعجزات اليوميَّة في طريقها، وواكب مسيرتها بلفتات عنايته وعطفه المذهلة.

وكانت الأُمّ تيريزا تؤمن مثلما هي تتنفَّس، بتلقائيَّة، من غير توتُّرٍ ولا تشنُّجٍ، من غير ارتيابٍ ولا تردُّد، فبدا لها كلُّ ما أَقدمت عليه، وكلُّ ما أَنجزته عاديًّا، طبيعيًّا؛ وإِيمانها الذي لم يكن، قطُّ، نقاشًا فكريًّا، بل عملاً واثقًا، فاعلاً، أَبقى جذوة حبّها مضطرمةً أَبدًا، حبّها ليسوع، وحبّها لجميع البشر بلا تمييزٍ، فهما متكاملان، بل كلاهما واحدٌ. وكانت حياتُها كلُّها نشر شذا حبّ الله في العالَم، وإِبلاغه من افتقروا إِلى الحبّ، ومن خَوَتْ قلوبُهم منه، من غير ما حاجةٍ إِلى خطاباتٍ ومواعظ.

وقد ترجمت حبَّها إِلى خدمةٍ مجبولةٍ بالعطف، شملت كلّ فقيرٍ، وجائعٍ، ومحرومٍ، ومريضٍ، ومنبوذٍ، وحبيس الوحدة والهجران، في شتّى البلدان والأَصقاع. وبدعوتها الجميع إِلى اقتداء مثال خدمتها، وإِلى المشاركة الطوعيَّة بين البشر، وبإِحلالها الحبّ محلّ الطمع في قلوب البعض، ومحلّ النقمة في قلوب آخرين، أَرست أُسُسَ سلامٍ عالميٍّ، قائمٍ على التآخي، والتعاون، والمسامحة. ولا بِدْعَ إِن أَعلنت صحيفة "أوسيرفاتوري رومانو"، يومَ وفاتها، أَنَّها نموذجٌ لإِنسانيَّة المستقبل، أَي لإِعادة التوازن بين العلاقات البشريَّة، وثروات الأَرض.

وقد توَّج كلَّ ذلك فَرَحٌ عميق الغور، ثابتٌ، مشعٌّ، لم يكدّرْهُ، في شيءٍ، عيشُها في مستنقع المَرض، والحرمان، والآلام الجسديَّة والنفسيَّة، ففرحها ينبع من علاقتها الحميمة بالربّ، من الصلاة المستمرَّة، والإِيمان الراسخ، والحبّ المتدفّق، والخدمة التي تعبّر عن العطف، ومن السلام الذي خيّم على نفسها المستغرقة في الربّ، وحياتها المنسجمة مع إِيمانها؛ وكان فرحها هذا عونًا لها في خدمتها ومشاريعها، ومصداقًا لإِيمانها، وتأكيدًا لقداستها التي قُيِّض لنا أَن نراقبها بدهشةٍ، وحبٍّ، وإِيمانٍ.

الأُمُّ تيريزا أكثر من شخصيّةٍ بارزةٍ في تاريخ المسيحيَّة، فهي، في تضاعيف تاريخ البشريَّة، حَدَث فذٌّ، جَلَلٌ.

ملاحـــــــق

ملحق ١

طرائف من حياة الأم تيريزا

تمهيد

على درب مسيرتها الطويلة، الحافلة بالنشاط واللقاءات مع شتّى فئـات النـاس، جمعت الأُمّ تيريزا حصادًا وفيرًا من الخبرات، ووقفَتْ شاهدةً على أحـداثٍ مميَّـزةٍ بسيطة الظّاهر، عميقة المغزى، كان لها في نفسها وقعٌ خاصٌّ؛ وقـد دأبـت علـى الاستشهاد بتلك الأَحداث في شتّى المناسبات، كبيرها وصغيرها، غيـر هيَّابـةٍ مـن تكرارها، مؤكّدةً، كلّ مرَّةٍ، على تفاصيل تخدم غايتها من روايتها، بحيثُ غدا بعضها شائعًا، كلاسيكيًّا، نظير حادث الأسرة التي كان أَفرادها الثمانية يتـضوَّرون جوعًـا، بعد أَن قضوا أَيَّامًا على الطوى، ولمّا وافتهم الأُمّ تيريزا بشيءٍ من الأَرزّ، شـطرته ربَّة الأسرة إِلى قسمين متساويَيْن، احتفظت بقسمٍ منه لأُسرتها، وسارعت بتقديم القسم الآخر لأُسرةٍ مُسلمةٍ مجاورةٍ كانت تعاني، أَيضاً، الجوع. وفي روايتها لتلك الحادثـة تتوقَّف الأُمّ، مرَّةً، على روح الإِيثار والمشاركة، وتؤكِّد، مـرَّةً أُخـرى، إِعجابهـا باطّلاع تلك الأُسرة المحتاجة على احتياجات الآخرين، في حـين أَنّ كثيـرين مـن الميسورين لا يعبؤون باحتياجات سواهم؛ وتُبرز، في روايةٍ ثالثةٍ، إِحجامها، في تلك الليلة، عن تزويد تلك الأُسرة بالمزيد من الأَرزّ، الكفيل بإِشباعها، كي توفّر لها متعة تذوُّق فرح العطاء والمشاركة.

وقد جهدنا، ما استطعنا، في دمج رواياتٍ متعدّدةٍ للحدَث الواحد، بحيث تـؤدّي جلَّ ما رمت إِليه الأُمّ من دروسٍ وعبَرٍ.

وفضلاً عمّا اقتبسته الأُمُّ تيريزا من الآخرين، ثمّة، من أَصدقائها، من دوّنوا لها مواقف مُشعَّةً، وأَنماط سلوكٍ طريفةً، جديرةً بالتأَمُّل والإِعجاب، تساعد على التوغُّل في معرفة شخصيَّتها الفريدة، كما أَوردوا عنها شهاداتٍ ذات دلالاتٍ مثيرة.

من هذه الومضات والطرائف، حزمنا ضمّة أَزاهيرَ أَخّاذةٍ، هي بعض ما أَنتجته حديقة سيرة الأُمّ تيريزا الغنّاء.

ملامح شخصيّة

- – في مُستَهلّ دعوتها الثانية، يوم كانت الأُمّ تيريزا تقضي أَيَّامًا مُضنيةً في الأَكواخ، داهمتها حمّى شديدةٌ، وأَثناء نومها المضطرب، حلمت بأَنّها تواجه القدّيس بطرس الذي حظر عليها ولوج الفردوس قائلاً: "اغربي عن وجهي، فما من أَكْوَاخ في السماء"، فردَّت عليه غاضبةً: "إِن كان الأمر كذلك، فسأَملأ السماء بسكّان الأَكواخ، وحينئذٍ ستضطرّ إِلى الإِذن لي بالدخول".

  وقد علَّقت الأُمُّ على ذلك: "مسكينٌ القدّيس بطرس، فقد تعيّن عليه، منذئذٍ، أَن يكون يقظًا، فأَصدقاؤنا، بفضل آلامهم، قد حجزوا لأَنفسهم أَماكن في الفردوس، منذ عهدٍ بعيد، وما عليهم، في نهاية الشوط، سوى تسلّم تذاكرهم... يجول بخاطري أُلوف الذين توفّوا في مراكزنا، والذين كُتب لهم أَن ينعموا ببطاقاتٍ إِلى فردوس القدّيس بطرس".

  ويوم سيستدعي الربّ قرينته الوفيّة، شعلة الحبّ المضطرم، سينظّم لها، من جمهور أَعزّائها "أَفقر الفقراء"، الذين غدوا، وإِلى الأَبد، أَغنياء، موكبًا مجيدًا يرافقها نحو حبيبها الأَبديّ.

* * *

- – وردت إِلى الأُمّ تيريزا رسالةٌ تختلف عن أُلوف الرسائل التي تتدفَّق عليها باطّرادٍ، وقد باح مرسلها بأَنّه كتبها في اليوم الذي كان قد اختاره ليضع نهايةً لحياته. ولكنّه، عشيَّة ذلك اليوم، وبعد أَن فرغ من إِحكام خطّة انتحاره، الذي كان يبرِّره، عقلانيًّا، خير مبرّرٍ، وفيما كان يسعى إِلى ما يشغل به اللحظات الأَخيرة المتبقِّية له، وقع على سيرة الأُمِّ تيريزا بقلم الكاتب والصحافيّ

البريطانيّ "مالكولم موجيريدج"، وانطلق يُقلِّب صفحاته في شيءٍ من اللامبالاة. وما كاد يتوغَّل في صفحات الكتاب حتَّى شرع يستيقظ لديه اهتمامٌ متجدِّدٌ بالحياة، بعدما طالع عن تفانٍ في سبيل الآخرين، لم يكن له به عهدٌ، حتّئذٍ.

* * *

- – رئيسة مركزٍ جديدٍ لمرسلات المحبَّة، افتُتح في الولايات المتَّحدة، كتبت: "مكثت الأُمُّ تيريزا معنا ثلاثة أيَّامٍ، ويا لها من حُظْوة! منذ الصباح حتَّى المساء، كانت تشاركنا عملنا، مضطلعةً بأكثر المهامّ وضاعةً وبعثًا على النفور؛ وفي آنٍ واحدٍ، لم تكن تتهرَّب من مطاردةٍ متَّصلةٍ من قبل أشخاصٍ راغبين في رؤيتها والتحدُّث إليها. لقد علَّمتنا أشياء كثيرةً ونهضت عنّا بأعباء عديدةٍ، ولا سيّمَا أنّنا كنّا نواجه، للمرَّة الأُولى، مهمّة تأسيس مركزٍ جديدٍ. ونرجو ألاّ ننسى أبدًا، تلك الأيّام الثلاثة، برفقة أُمِّنا العزيزة، بدءًا بأمثلة الصلاة، والرقَّة، والطيبة، والمحبّة، التي ضربتها لنا".

* * *

- – كاهنٌ إيرلنديٌّ، متدفِّقٌ غيرةً، طالما سعى جاهدًا إلى ردِّ صديقٍ له إلى جادّة الإيمان التي جار عنها، غير أنّ حججه وصلواته ظلّت، طيلةَ سنواتٍ، عقيمةً؛ ومع أنَّ الحوار بين الراعي والخروف الضالّ ظلَّ متَّصلاً، والصداقة بينهما قائمةٌ، إلاّ أنّ الخروف كان يأبى العودة إلى الحظيرة، إلى أن اجتازت الأُمُّ تيريزا بالمدينة، وعلى نحو ما يحدث حيثما مرّت، توافد القوم من كلّ صوبٍ، ونُظّم لقاءٌ في الكاتدرائيّة التي اكتظّت بالحضور. وبعد أن اشتركت الأُمُّ بالصلاة مع الجمهور، تحدَّثت عن موضوعها الأثير: محبَّة أفقر الفقراء، ومن خلالهم حبّ يسوع.

واتَّفق أن غشى "الخروف الضالّ" الكاتدرائيّة، بتلك المناسبة، على غير عهده، وفي ذلك المساء عينه، بُعَيْد اللقاء، اتَّصل بصديقه الكاهن قائلاً:

– "أبتِ، أُريد العودة إلى أحضان الكنيسة

– "وما الطارئ؟

– "لقد حدَّثتْني الأمُّ تيريزا!

- "ماذا؟ حدَّثتك الأمُّ تيريزا؟ كيف ذلك والكاتدرائيّة كانت تضمُّ خمسة آلاف شخصٍ؟
- "أَجل، صحيح، ولكنَّ كلماتها كانت موجَّهةً إِليَّ
- "وماذا قالت لك؟
- "قالت: "باركك الله"
- "أَنا نفسي ردَّدتُ هذا القول على مسامعك مرارًا وتكرارًا، ولم أُفلح في النفاذ إِلى قناعتك...
- "أَجل، ولكن الأُمَّ تيريزا قالتها من أَعماق قلبها"

* * *

- - يوم زارت الأُمّ تيريزا إِسپانيا للمرَّة الأولى، كان مُنَظِّمو الزيارة قد أَعدّوا لها برنامجًا سياحيًّا إِلى الأَماكن التي يحجّ إِليها الناس، على أَنّها أَماكن مقدّسةٌ، ولكنَّها رفضت، مؤكِّدةً أَنَّ وقتها وقفٌ على الفقراء، وهي به ضنينةٌ، وأَنَّها، حيثما شخصت، فهاديها وهدفها الأَساسيُّ الاتّصال بالفقراء، بحيثُ لا تهدر دقيقةً واحدةً في غير ذلك.

غير أَنَّ أُمنيَّةً ظلَّت مستحوذةً عليها زمانًا طويلاً، إِذ كانت توَّاقة إِلى استراق نصف نهار فقط لزيارة ثلاثة أَماكن في فرنسا لها، في نفسها، مكانةٌ أَثيرةٌ: قرية أرس التي اشتهرت بخوريها القدّيس "جان ماري ڤياِّني"؛ وكرمل "ليزيو" حيثُ عاشت وماتت القدّيسة تيريزا الطفل يسوع، التي اختارت الأُمُّ اسمَها وشفاعتها السماويّة عندما نذرت تكريس ذاتها للرَّبّ عام ١٩٢٩؛ وأَخيرًا "لورد" حيث ظهرت العذراء للفتاة "بيرناديت سوبيرو"، وأَعلنت عن ذاتها أَنَّها التي حُبل بها بلا دنسٍ.

وربّما غرب عن بال من كانت مدرِّسة جغرافيا أَنّ المسافات بين تلك الأَماكن الثلاثة تجعل اجتيازها ضربًا من المحال في غضون يومٍ كاملٍ، ولو في زيارةٍ تقويّةٍ خاطفةٍ.

* * *

- – روت السيّدة "آنّ بليكي" رئيسة الرابطة الدوليّة للمتعاونين مع الأمّ تيريزا:

"كنتُ أَتجوّل، يومًا، مع الأمِّ تيريزا، في شوارع كلكتّا، وفجأةً دنا منّا شابٌّ، وانحنى ليُقبّل أَقدام الأُمّ، وأَحاطها علمًا بأَنّه سيعقد قرانه، في غضون ساعاتٍ معدوداتٍ. وأَوضحت لي الأمّ تيريزا أَنَّ ذلك الشابّ كان قد استُقبل – لبضعة أَشهرٍ خلت – في منزلٍ للمحتضرين المهملين، إِذ كان مشرفًا على الموت، بسبب الجوع والسلّ، وقد تلقّى كلّ ما كان يلزمه من عنايةٍ، وتلقّن مهنة مسح الأَحذية، وها هوذا قد بات قادرًا على إِنشاء أُسرةٍ، ومباشرة حياةٍ جديدةٍ".

* * *

- – في أَحد مراكز مرسلات المحبّة توثَّقت وشائج مودَّةٍ حميمةٍ بين أَحد المتطوِّعين المتعاونين، وفقيرٍ مسنٍّ كان يكابد شقاءً سحيقًا. واتَّفق أَن غاب المتطوِّع، بضعة أَيّامٍ، في سفرٍ، وبعث إِلى صديقه المسكين ببطاقةٍ رقيقةٍ؛ ولمّا عاد وجده يحتفظ بها بحرصٍ شديدٍ، احتفاظه بكنزٍ ثمينٍ، وقد اعترف له:

– "أَتعلم، هذه هي المرّة الأُولى التي أَتلقّى فيها رسالةً باسمي".

* * *

- – أَحاط كاهنٌ بريطانيٌّ كاثوليكيٌّ الأُمَّ تيريزا بعزمه على المثول إِلى الهند، لخدمة فقراء الأَكواخ، وبرغبته في الانضواء تحت لواء مُرسَلي المحبّة. ومع أَنّه كان يبدو عنصرًا ناضجًا كفيلاً بدعم جمعيّة المرسلين، نصحته الأُمّ بالعدول عن عزمه قائلةً: "**لا، يا أَبتاه، ابقَ حيثُ أَنت، واعنَ بفقراتك. ففقراء بلادي أَسهل معالجةً، إِذ حسبهم كسرة خبزٍ وثوبٌ يستر جسدهم. أَمّا فقراء بلدكم، فالفقر ملتصقٌ بفكرهم، ومن ثمّ فإِنّ اجتثاث فقرهم أَشدُّ وعورةً**".

* * *

- – في مُستهلّ عهد تأسيس جمعيَّتها راجعت الأُمُّ مكتبًا بلديًّا التماسًا للإِعفاء من بعض الضرائب لجمعيّتها ولجمعيّةٍ من الكرمليّات، فهؤُلاء محصَّناتٌ ولا يستطعنَ الخروج من ديرهنّ ويحتجنَ إِلى من يمثِّلهنّ. وقد ردّ الموظَّف بأَنَّه سيستجيب لطلب مرسلات المحبّة بما أَنَّ كلَّ عملهنّ موقوفٌ على خدمة

الفقراء، ولكنَّه لا يرى مبرِّرًا يشفع بالكرمليَّات فهنَّ لا يفعلنَ لأَحدٍ شيئًا، فانتفضت الأمُّ معترضةً وقالت: "كيف ذلك؟ أَلا تعلم أَنّني لا أَستطيع عمل شيءٍ في معزلٍ عنهنَّ. إِنَّهنَّ ضرورةٌ أَساسيَّةٌ لعملي، فهنَّ اللواتي يظفرنَ لي بعون السماء الذي أَفتقر إِليه. لقد كرَّسنَ كلَّ حياتهنَّ للصَّلاة من أَجل احتياجات البشر".

* * *

- – إِحدى وسائل الاتّصال الأَكثر بلاغةً وإِشاعةً للعدوى لدى الأُمِّ تيريزا هي الابتسامة، ابتسامةٌ دائمةٌ، طبيعيَّةٌ، تلقائيَّةٌ، وقد أَشاعت عدوى ابتسامتها إِلى العديدات من أَخواتها. إِحداهنَّ، وهي إِسپانيّةٌ، تعذَّر عليها تعلُّم الإِنكليزيّة، لغة التخاطب المشتركة بين المرسلات؛ ومع ذلك أُوكل إِليها العمل في مركزٍ للمسنّين المهملين في لندن حيثُ كُلِّفت برعاية مسنٍّ بريطانيٍّ، وسُرعان ما نشأت بينهما علاقة توادٍّ متبادَلةٌ.

كان من المتعذّر عليها التحدُّث إِليه بلغته الإِنكليزيّة، وكان هو لا يفقه من الإِسپانيّة حرفًا، ومع ذلك انعقد بينهما حديثٌ مستفيضٌ متَّصلٌ، ومع أَنَّ كلاًّ منهما كان يتكلَّم بلغته، كان يسود بينهما تفاهمٌ لا غبارَ عليه، وقد أَفضت الأُخت بالقول:

"إِنّه يتحدّث إِليّ، يتحدَّث بلا انقطاعٍ، عندما أكون معه. لا أَفقه ما يقول، ولكنّي أَظنّ أَنَّه يروي لي سيرة حياته. وأَنا أَتحدث إِليه، ولستُ أَعتقد أَنَّه يفقه لغتي الإِسپانيّة، ويبتسم أَحدنا للآخر كثيرًا، ونتفاهم تفاهمًا مطبقًا من خلال ابتساماتنا".

* * *

- – تأكيدًا منها على ما يوفِّره الثوْب الرهبانيّ من حمايةٍ، تروي الأمُّ الحادثة التالية: "طارد رجلٌ راهبةً كانت قد استبدلت ثوبها بلباسٍ مدنيٍّ، وحاولت النجاة منه، ولكنَّه كان يجري بخطواتٍ أَسرع من خطواتها؛ وفي تلك الأَثناء لمحت شرطيًّا فاحتمت به، وأَدخلها الشرطيّ إِلى مكتبه، ثمّ خرج لملاحقة الوغد الذي لاذ بالفرار. ولمّا عاد إِلى مكتبه، سأَلها:

- "ما الذي حملك على الاعتقاد بأنّني قادرٌ على حمايتك؟
- "لقد استنتجت من ثوبك الرسميّ أنَّك رجل أَمن.
- "وكيف يتهيّأ للرَّجل الذي طاردك، وأَنت خالعةٌ ثوبَك الرهبانيّ، أَنَّك راهبةٌ؟"

* * *

- – من المعروف أَنَّ ملكة بلجيكا، فابيولا، وملكة إِسپانيا، صوفيا، كانتا صديقتيْن حميمتَيْن للأمّ تيريزا؛ وترقى صداقتها للملكة فابيولا إِلى مطلع السبعينات عندما زارت بروكسيل، فجاء من يبلِّغها أَنَّ الملك بودوان راغبٌ في رؤيتها، ولمّا مثلت أَمامه، التمست منه أَن تصحبه إِلى المستشفى حيث كانت الملكة فابيولا تعالَج، إِذ إِنَّ هذه الأَخيرة كانت متحرِّقةً إِلى رؤية الأُمّ، والتحدُّث إِليها. وقد التمست منها الملكةُ الصلاة من أَجلها، وفي الحال، استلَّت الأم مسبحتَها، وحذا حذوَها الملك والملكة والمرافقون، وراحوا يصلّون معًا. وقد أَشادت الأمّ بعمق إِيمان العائلة المالكة وببساطته.

ثمّ في ٢٤ حزيران ١٩٨٠، كانت الأمُّ في مدريد، تردُّ على أَسئلة الصحافيّين عندما اتَّصل بها أَمين عام القصر الملكيّ يطلب من الأمّ تيريزا "أَن تتفضّل فتنتظر نصف ساعةٍ، لأَنَّ جلالة الملكة صوفيا ترغب في مقابلتها والتحدُّث إِليها في الحال".

ووافت الملكة في الموعد المضروب، بعد أَن جهدت في الإِفلات من استقبالٍ رسميٍّ كان مقامًا في القصر، بمناسبة ذكرى مولد الملك، وكان كلّ مبتغاها رؤية الأُمّ والتحدُّث إِليها، وإِبلاغها أَسَفَ الملك خوان كارلوس لتعذُّر مجيئه، فقد كان شديد الرغبة في مقابلتها. وأَعربت الملكةُ عن رغبتها في مشاركة مرسلات المحبّة ساعة السجود في مركزهنَّ بين حينٍ وآخر.

وقد استخلصت الأُمُّ أَنَّ بين الملكتين توافقًا كبيرًا، قلبًا وروحًا.

* * *

- – التمست الأمُّ تيريزا صلاة الحبر الأَعظم، البابا يوحنّا بولس الثاني، قائلةً:
- "باركني، أَيُّها الأَب الأَقدس، وصلِّ من أَجلي لكيلا أُفسد عملَ الله.
- "أَجل أُمّاه، وأَنتِ، أَيضاً، صلّي من أَجلي لكيلا أُفسد كنيستي".

- – جاءت الأُخت أَنييس – أُولى مرسلات المحبّة – الأُمَّ تيريزا بطفلٍ يحتضر، وتلقائيًّا، قبل أَن توافيه بعلاجٍ، تلت الأُمُّ صلاتي "أَبانا" و"السلام"، ثمّ طلبت من كاهنٍ كان حاضرًا أَن يبارك الطفل ففعل.

وفي اليوم التالي كانت الأمّ تيريزا غائبةً، غير أَنّ إِحدى أَخواتها جاءت الكاهنَ بالطفل، فإِذا به متعافٍ، وقالت:

– "أَبتِ، بالصلاة، نحن نحصل هنا، كلّ يومٍ، على عجائب".

* * *

- – في أَحد المؤتمرات عُرِض فيلمٌ أَعقبه نقاشٌ؛ وكان الفيلم يُظهر طفلاً وليدًا اتّضح أَنّه موغوليٌّ مصابٌ بتخلُّفٍ عقليٍّ سحيقٍ، وكان، في آنٍ واحدٍ، مبتلى بانسداد في أَمعائه يقتضي عمليّةً جراحيّةً عاجلةً، وإِلاّ كُتب عليه الموت. وطُلبت موافقة والديه على إِجراء العمليّة. ولكنَّ أُمّه، وكانت ممرّضةً، رفضت خوفًا من أَن يفسد وجود طفلٍ متخلّفٍ عقليًّا، في المنزل، حياةَ أَخويه السويَّيْن. وادَّعى الوالد أَنَّ زوجته، بصفتها ممرضةً، هي أَدرى بما يتوجّب عمله، – فانضمّ إِلى موقفها الرافض، وكان مصير الطفل الموت.

وأَثناء النقاش تساءَل البعض هل كان من واجب المستشفى الحصول من المحكمة على إِذن بإِجراء العمليّة رغم رفض الوالدين، بغية إِنقاذ حياة الطفل. أَمّا الامُّ تيريزا فأَعلنت تلقائيًّا وباندفاعٍ: "بأَمرٍ من المحكمة أَو بغير أَمرٍ منها، كنت سأَختطف الطفل وأَهرب به إِلى حيثُ سيتمّ إنقاذ حياته، غير حافلةٍ حتّى بمطاردة الشرطة لي؛ لم أكن لأَتخلّى عن ذلك الطفل بأيّة حالٍ".

* * *

- – كانت الأمُّ، يومًا، في مطار يُحيق بها الصحافيّون من كلّ صوبٍ، ويكادون يخنقونها، ويصوّبون إِليها عدسات عشرات الكاميرات، وذكَّرها أحد الصحافيّين بقولها إنّ على الناس تحمُّل التضحيات للمشاركة في آلام صليب المسيح، فما هو نوع إسهامها في ذلك الصليب؟ فأَجالت طرفها في المحيطين بها وقالت مبتسمةً: "هؤلاء" (الصحافيّون)

* * *

- – كاهنٌ فرنسيسكانيٌّ، كَلِفٌ بالفقر، روى مسيرة دعوته التي ولّدتها رؤيا وصفها بقوله: "رأيت، في روما، كاتدرائيّة اللاطران، أمَّ الكنائس الرومانيّة، وعلى بعد ثلاث مئة مترٍ منها، انتصب تمثال القدّيس فرنسيس، وذراعاه ممدودتان صوب الكاتدرائيّة، مثلما كان أثناء رؤياه في سان داميانو، يوم قال له يسوع: "فرنسيس، ألستَ ترى كنيستي تنهار؟". وبعد أن أَصلح بناءَ الحجر، أَدرك فرنسيس أنَّ مهمَّته الملحّة هي إِصلاح كنيسة تلاميذ يسوع، كنيسة أَحجارٍ حيَّةٍ... وإِذ كنتُ أُحدِّق فيه، رأيتُ بغتةً الأمَّ تيريزا إِلى جانبه، مادَّةً، هي أَيضاً، ذراعَيْها نحو الكنيسة الأمّ، مشاركة فرنسيس نفس الروح، في خدمة الجميع، وتجرُّد العيش، والانسلاخ عن خيرات العالَم المادِّيّة. وقد أَهابت بي أَن أَتبع "الفقير الصغير" الأَسيزي، على نحو ما كانت تتبعه هي نفسها".

وأَضاف قائلاً: "هذه الرؤيا كشفت لي عن واجبي المتمثّل في خدمة يسوع بتجرُّدٍ مطلقٍ، وخدمة أُمّي الكنيسة في فقرٍ تامٍّ، ووَرَعٍ كلّيٍّ".

* * *

- – في مطلع عام ١٩٨٧ جمَّدت السلطات الجمركيّة في مرفأ كلكتّا، فترةً طويلةً، شحنةً من الثياب المستعملة، مُعدَّةً للتَّوزيع مجّانًا على الفقراء؛ وعندما قرَّرت الإِفراج عنها، أَخيرًا، طالبت بدفع رسوم تخزينٍ باهظة. وأُحيطت الأُمُّ، التي كانت غائبةً، علمًا بالأَمر، فشخصت إِلى مديريّة المرفأ، حيث كان نائب المدير يرئس اجتماعًا، فدخلت الأمُّ، بدماثتها المعهودة الفريدة، وتواضعها المؤثِّر، وحيّت الحاضرين على الطريقة الهنديّة، ضامّةً يديْها عند جبينها، ثمّ عرضت مطالبها المتمثّلة في إِعفاء الثياب المفرج عنها من دفع الرسوم لأَنّها مُعدَّةٌ للتَّوزيع مجَّانًا على الفقراء. ووعدها نائب المدير بتحقيق مطلبها، فقالت له باسمةً: "إِنّنا نتقبّل بامتنانٍ كلَّ المِنَح التي تمنّ علينا بها الحكومة؛ ولكن عليكم أَن تعلموا أَنّنا لا نملك ما ندفعه بالمقابل". ولمّا عاد المدير الذي كان غائبًا ذلك اليوم أعلن: "لقد فوتُّ فرصةَ حياتي. فكم كنت أَودّ أَن أكون موجودًا لاستقبال الأمِّ بنفسي!"

* * *

- – تهتمُّ مرسلات المحبّة بالأَطفال المُهمَلين الذين يتسكّعون، وينجرفون إِلى سرقاتٍ صغيرةٍ فإِلى جرائم، وتدمَّر حياتهم منذ مستهلّها.

وجاءت، يومًا، عجوزٌ هرمةٌ بحفيدها إِلى شيشوبهاقان، إِذ كانت تخشى أَن تلقى حتفها وتدعه وحيدًا. ودرس الولد ونجحَ في امتحاناته. ولمّا سئل عمّا يطمح أَن يصبح في المستقبل، أَجاب بحماس: "سأُصبح الأمّ تيريزا". وقد أَمسى، فيما بعد، كاهنًا.

* * *

- – مجرمٌ كان، حقبةً طويلةً، نزيل سجنٍ، بات يختلف إِلى مراكز المرسلين والمرسلات ويؤدّي لهم خدماتٍ عديدةً، وقد صرّح: "أنتم، إِخوةً وأَخواتٌ، قد انتصرتم عليَّ، فإِنّكم تحبّون حتّى الأَوغاد".

* * *

- – في مطار فيوميتشينو بروما كانت الأُمُّ تيريزا وأَخواتُها يتأَهَّبنَ للسَّفر إِلى نيودلهي، وقد انتثرت من حولهنّ أكوامٌ مكدَّسةٌ من الرزم، بعضها في علبٍ من الكرتون مربوطةٌ بحبالٍ غليظةٍ، وبعضها مصرورٌ بأوراق جرائد، وقد جمعنَ فيها حصيلة التبرُّعات التي وردتهنّ من ألبسةٍ وأَطعمةٍ وسواها كنَّ ينوينَ اصطحابها لتوزيعها على فقراء الهند. وجُنّ جنون رجال الجمارك وموظّفي المطار لرؤيتهم تلك الأَكداس الغريبة، وراحوا يجرون في كلِّ اتّجاهٍ، يصيحون ويؤشِّرون إِشاراتٍ عنيفةً بأيديهم وأَوجههم، محاولين التعبير عن استنكارهم لتلك "الفضيحة"، فيما كانت الأمّ تيريزا وأَخواتها يذرعنَ صالة المطار، راكعاتٍ على ركبهنّ؛ وفي تلك الأَثناء وصل شقيق الأمّ تيريزا، لازار، كي يودِّعها، ووقف دهشًا أَمام منظرٍ مُضحكٍ مُبكٍ، ودنا من شقيقته مستوضحًا، فقالت له: "إِنّنا جاثياتٌ متضرّعاتٌ إِلى الربّ كي يلهم هؤلاء السادة السماح لنا باصطحاب هذه الهدايا إلى أَصحابها". وفي تلك اللحظة، حضر ضابطان من ضبّاط المطار، فأبلغا رجال الجمارك والأُمَّ تيريزا أَنّ الأَمر قد سُوّي، وأَنّ بوسعها المضيّ برزمها، راجيانها، فقط، أَن تسرع في إِخلاء قاعة المطار منها.

وقد علّق لازار على ذلك بقوله: "على هذا النحو تعمل شقيقتي وتنال غايتها. لقد أَحبّت دائمًا الضحك، ولم تتغيَّر. إِنَّها، أَبدًا، نفس الفتاة الواسعة الحيلة، القويّة الشكيمة، ابنة الأُسرة التقيَّة، الحسنة التدبير. من لا شيءٍ أَنشأَت منظَّمةً عالميّةً، من غير أَن يخامرها حول المستقبل أَيُّ قلقٍ. كلمة سرّها هي "العناية الإِلهيّة". إِنّها تثق بها، وتعلم، بخبرتها، أَنَّ الربّ يتكفّل بكلّ شيءٍ. وهكذا، ليس ما يدعوها إِلى الجزع بشأن حاضرٍ أو مستقبلٍ".

* * *

- – كان رئيس وزراء الهند قد قدَّم مشروع قانونٍ يقضي بإِخضاع كلّ تبديلٍ في وضع الأَفراد الدينيّ أَو الطائفيّ إِلى موافقة الشرطة، واحتجَّت الأمُّ تيريزا بكتابٍ جاء فيه:

« عندما تسلّمتم مقاليدَ الحكم باسم الله، اعترفتم بحقّه الأَسمى على بلدنا وشعبنا. وما كان أَجمله اعترافًا! ولكنّني، الآن، أَخشى أَن تكونوا قد أَحجمتم عن تنفيذ ما تعهَّدتم به، ولذلك أَتوجّس على شعبنا خشيةً.

"لقد حلّلتم الإِجهاض، ممّا زرع الأَحقاد وسط أُمَّتنا. فإِن كان متاحًا لأُمٍّ أَن تقتل ابنها، فعلامَ لا يحقّ لنا قتل الآخرين الذين يضايقوننا؟... إِنّ انحلال الأَخلاق ماضٍ في تفاقمٍ، وأُسَرًا عديدةً تتحطّم، وحالات الجنون لدى أُمَّهات قتلنَ أَبناءَهنَّ الأَبرياء تتزايد على نحوٍ مقلقٍ، وأَفضلهنّ حالاً يتعرَّضنَ لصدمةٍ نفسيّةٍ قد تكون وخيمة العواقب.

"أَيُّها السيّد ديسّاي، قد تواجهون الربّ قريبًا، فأَيُّ تبريرٍ ستستطيعون تقديمه لتدمير حياة كلّ أُولئك الأَطفال الذين كانوا مقبلين إِلى الوجود؟

"لقد وعينا المشكلات الجديَّة التي يطرحها النموُّ العشوائيّ في عدد السكّان، ولذلك لجأنا إِلى أكثر الأَساليب المتوفّرة نزاهةً وجدوًى، لجعل التكاثر السكّانيّ في الهند، أكثر عقلانيّةً، وقد أَسهمنا، بحماسٍ، في تنظيم الإِنجاب، باستخدام الطرق المأذون بها، والتي تضفي على الأُسرة صحّةً ومنعة نفسٍ.

"بعد أَن استغرقتُ في الصلاة والتكفير، أكتب إِليكم ملتمسةً منكم أَن تضعوا أَنفسكم في حضور الله، قبل الإِقدام على الخطوة الكفيلة بالقضاء على فرح شعبنا وحرِّيَّته. فهذا الشعب، وأَنتم به أَعلم، شعبٌ يخاف الله، ويعيش في حضوره. أَمّا مشروع القانون المزمع عرضه على البرلمان، بحجّة الحرّيّة الدينيّة، فهو خطأٌ ذريعٌ، إِذ لن يبقى للحرّيّة سبيلٌ، عندما يتعذَّر على المرء اختيار ما يمليه عليه ضميره.

"إِنّ إِخوتنا في "أرونشال" مذعورون. فهم، حتّى الآن، كانوا يعيشون في سلامٍ مقدَّسٍ، ولكن قد بوشر الآن باستخدام ذرائع دينيّةٍ لتقويض حبّهم المتبادل، لمجرّد كون بعضهم مسيحيّين، وآخرين هندوسيّين، وآخرين مسلمين.

"كلٌّ يطلق على الربّ اسمًا مختلفًا، فهذا يدعوه "أشوار"، وذاك يدعوه "الله" وآخر يدعوه باسم آخر. ولكنّنا، جميعنا، نعترف بأَنّه هو الذي خلقنا من أَجل أَسمى ما في الوجود: أَن نُحِبّ ونُحَبّ.

"إِنّ أَبا وطننا غاندي قد قال: "من خدم الفقير، خدم الله"... إِنَّ حبّ الله وخدمته في الفقراء، ذلكم هو دافع حياتي ومبعث فرحها. وبسلوكي هذا، أُعلن عن حبّ الله وعطفه لكلٍّ من إِخوتي المتألّمين.

"أَستحلفكم بالله، أَيُّها السيّد ديسّاي، وأَيُّها السادة أَعضاء البرلمان، أَلاّ تقضوا على الحرِّيَّة التي تمتّع بها دائمًا شعبنا، حرِّيَّة حبّ الله وخدمته، وفقًا لضميره ومعتقداته. ولا تستصغروا الديانة الهندوسيّة بادّعائكم أَنَّ الفقير الهندوسيّ يبيع إِيمانه لقاء طبق أَرزٍّ. فمع خبرتي الطويلة الراسخة لم أَشهد مثل ذلك، قطُّ، مع أَنّنا نُطعم أُلوف الجياع من كلّ دينٍ وطبقةٍ. إِنّ أُلوفًا منهم قد قضوا نحبهم بين سواعدنا، سعداء، في سلام الله الذي كانوا به يؤمنون".

وقد رفض البرلمان التصويت على مشروع القانون ذاك، ما أَدّى إِلى سقوط الوزارة.

* * *

- – قال الصحافيّ الفرنسيّ "روبير ماسّون" عن الأُمِّ تيريزا: "إِنَّ كلَّ لقاءٍ لها مع الشقاء البشريّ، والبؤس السحيق، يُلحق بها صدمةً مقيمةً. ليست تيريزا سوى حبٍّ مضطرمٍ، وليس في كيانها سوى الشفافية، لأَنَّ الحبَّ أَحرق كلَّ شيءٍ آخر. من يدنو منها يدهش لهشاشتها الجسديّة، ولكن لا شيءَ يقوى على تحطيمها، لأَنَّ قوَّةً إِلهيّةً تسكنها، وترقى بها فوق مستوى البشر".

"إِنَّ أَولويّة حياتها تتجلّى للعيان بوضوحٍ ساطعٍ: الحبّ... إِنّها لا تعرف التلفُّظ إِلاّ بهذه الكلمة. إِنَّها درسٌ من الإنجيل، بكلِّ ما تنطوي عليه هذه العبارة من معنًى، درسٌ حيٌّ يُعبَّر عنه بسلوكٍ معاشٍ. إِنَّها تدعونا، صارخةً، إِلى أَن يحبَّ بعضُنا بعضًا. إِنَّها تذكِّر الغربيّين المحظيّين مادِّيًّا بافتقارهم إِلى الجوهريّ، والجوهريّ هو الحبّ. إِنّها لا تسأل، أَبدًا، إِن كان من تساعدهم هم من المؤمنينَ، بل تقتصر على استيضاح احتياجاتهم، وتأخذ على عاتقها الوجع الذي يؤلمهم. إِنَّها الحبُّ، في أَقصى ما انتهى إِليه. إِنّها تعيش إِيمانها، ولكنّها لا تتصبّب من ذاتها معلِّمةً، ولا تقسر أَحدًا بأَيّة طريقة.

"أَمّا في كلكتّا فهي تكنُّ احترامًا سحيقًا لإِخوانها المسلمين والهندوسيّين، وهي على اتّصالٍ وثيقٍ بهم.

"إِنّها من الأَشخاص النادرين الذين يتعذّر، معهم، اليأس من شيء أَو من أَحد".

* * *

- – تروي الأمّ تيريزا:

"ذات يومٍ كنت أَسير في شوارع لندن، فشاهدت رجلاً منطويًا على ذاته، موغلاً في البؤس، فَأَخَذتُ يده، وشدَدْتُ عليها، وسألته عن حاله، فحدَّق فيَّ وقال: "منذ زمنٍ طويلٍ لم أَشعر بحرارة يدٍ بشريّةٍ". ثمّ استقام ووجّه لي ابتسامةً رائعةً. لا ريب أَنَّها كانت بسمته الأَولى منذ عهدٍ بعيدٍ".

- – تؤمن الأُمُّ تيريزا أَنَّ جميع البشر إخوةٌ وأَخواتٌ، أَيًّا كان الحزب السياسيّ الذي ينتمون إِليه، ولون جلدتهم، واللغة التي يتكلّمونها.

وفي عام ١٩٨٥ دعتها الحكومة الشيوعيّة الصينيّة لزيارة بلادها، فسأَلها أَحد الحاكمين:

- "في نظرك من هو الشيوعيّ؟"

فأَجابت:

- "إِنّه ابن الله: أَخٌ أَو أُختٌ لي".

وقد استغلّت صحيفةٌ رسميّةٌ هذه الإِجابة لتنشر على صفحتها الأولى عنوانًا يقول: "الأُمّ تيريزا تؤكِّد أَنَّ الشيوعيّين هم أَبناء الله".

* * *

• - قالت الأُمّ تيريزا: "في نيويورك، تضطلع أَخواتنا بمهمّاتٍ صغيرةٍ، فيُساعدنَ الأَطفال، ويزرْنَ المعزولين والمرضى وغير المرغوب فيهم. لقد بتنا ندرك، اليومَ، أَنّ أَقسى آلام المرء كونه غير مرغوبٍ فيه. ذلك هو نمط الفقر الذي نلقاه هنا في ما حولنا...

"وعندما قيل لي إنَّ الأَخوات لم يحقِّقنَ أَيَّ مشروعٍ كبيرٍ، وإنَّهنَّ ينهضنَ، في هدوءٍ، بمهامّ صغيرةٍ، أَجبت إنَّهنَّ حتّى لو لم يساعدنَ سوى شخصٍ واحدٍ، فسيكون الأَمر حسنًا. فيسوع لم يكن ليحجم عن بذل حياته عن شخصٍ واحدٍ، وعن خاطئٍ واحدٍ".

* * *

• - روت الأُم تيريزا:

"زار مقرَّنا في كلكتّا وفدٌ هامٌّ من أساتذة الجامعات في الولايات المتَّحدة؛ وقبل مغادرتهم سألوني:

- "أَعطينا نصيحةً كفيلةً بمساعدتنا في مسيرة حياتنا، وبحثِّنا على أَن نكون أَفضل مسلكًا"، فأجبتهم:

- "ابتسموا بعضكم لبعضٍ. يبدو لي أَنّه لم يعد لدينا الآن فسحةٌ من الوقت حتّى نبتسم".

فهتف أَحدهم:

- "أَيّتها الأُمُّ تيريزا، من الواضح أَنَّك لستِ متزوِّجةً".

- "بلى، ولكنَّني أُؤَكّد أَنني أَلقى مشقّةً، أَحيانًا، في الابتسام ليسوع، لأَنّه يقتضي منّي الكثير!"

- – دُعيت الأُمّ تيريزا إِلى حديثٍ في محطّة تيليفزيون نيويوركيّة ضمن واحدٍ من برامج الصباح التي تساعد الأَميركيّين على هضم إِفطارهم الدسم. ولم تكن قد أَلِفَتْ أُسلوب المَحطّات الأَمريكيّة حيثُ الدعايات التجاريّة تهيمن على جميع البرامج وتشوّهها بمداخلاتها ومقاطعاتها المتلاحقة، وقد أَدهشها زيّ محاورها على شاشة المراقبة الماثلة أَمامها، بشعره المطليّ بالأَخضر، وأَنفه البنفسجيّ، وشاربيه الزهريّين. غير أَنّ ما بلغ بها قمّة الدهشة هو الدعايات التي كانت تحثّ المستهلكين على تناول أَصنافٍ متنوّعةٍ من الخبز الخاصّ الخالي من الغذاء، والكفيل بالمحافظة على الرشاقة؟ وسرعان ما استبانت للأمّ سخريّة المفارقة، فهاجسها الدائم هو البحث عن وسائل لإطعام الجياع، وإِكساء هياكلهم العظميّة المجرَّدة بشيءٍ من اللحم. فتنهّدت وهتفت بصوتٍ مرتفعٍ: "يبدو لي أَنّ ستوديو التليفزيون يفتقر إِلى وجود المسيح!"

كانت تلك هي المرّة الأولى التي يسمع فيها المشاهدون كلمةَ حقٍّ تُفلت من براثن الرقابة، وتشذّ عن جعجعة المطحنة التي تصنع خرافة القرن العشرين، خرافة العثور على أَسرار السعادة والنجاح.

وقد ساد الصمت، في الستوديو، لحظاتٍ، وخُيِّل إِلى البعض أَنّ الأَضواء ستُطفأ، ولكنَّ المطحنة التي لا ترحم عادت تجعجع وتخلط في دقيقها الغثّ بالسمين؛ وظلّت ملاحظة الأمّ تيريزا جديرةً بأن تُحفظ في سفر الحياة.

* * *

- – أَثناء لقاءٍ تيليفزيونيٍّ في كندا ضمّ العالِم "جاك مونود" الحائز جائزة نوبل في البيولوجيا، و"جان ڤانييه"، رائد العمل في مضمار مساعدة المتخلّفين عقليًّا، وَالأُمّ تيريزا، انطلق "جاك مونود" يعرض بإِسهابٍ نظريّته المؤكِّدة أَنَّ مصير البشريّة مسجّلٌ بأكمله، وبحتميّةٍ لا ترحم، في نظامنا "الجينيّ". واستوضح المذيعُ الأمَّ تيريزا عن رأيها في ذلك، فاقتصرت على الإِجابة: "**إِنّني أومن بالحبّ والرأفة**". ومع ما كان لمداخلة المسيحيّ العملاق "جان ڤانييه" من وزنٍ وأَثرٍ، إِلاّ أَنّ صدى تلك العبارة الموجزة التي فاهت بها الأمُّ تيريزا قد تردّد بعيدًا، بعيدًا، بحيثُ أَنّ "جاك مونود" نفسه قد أَعلن بأَنّها أوشكت أَن تهزّ إِلحاده الراسخ.

- – تروي الأُمّ تيريزا: "إِحدى أَخَواتنا كانت قد مضت للدراسة في الخارج، وفي نفس النهار الذي كان عليها فيه تسلّم شهادتها، سقطت تحت وطأة المرض الذي كان ينخرها منذ زمنٍ، وأَثناء احتضارها، تساءلت: "لِمَ دعاني يسوع لخدمته فترةً على هذا القدر من القِصَر؟" وقد أَجابتها رئيستها: "يسوع يريدك أنتِ، لا أَعمالك". وقد أَشاعت فيها هذه الكلمات سكونًا عميقًا".

* * *

- – "التقطنا، مرّةً، أَربع نساءٍ ملقيّات على الرصيف، وكانت إِحداهنّ في حالةٍ مريعةٍ، تغطّي جسمها القروح، وتعجُّ فيه الديدان. فقلت لأَخواتي إِنّني سأُعنى بها شخصيًّا، بينما هنّ يُعنَيْنَ بالثلاث الأخريات. وقد بذلتُ، فعلاً، لهذه المرأة، كلَّ ما كان بوسع قلبي بذله. وبينما كنت أُلقيها على سريرها، شدَّت على يدي، وقد ارتسمت على ثغرها ابتسامةٌ لامتناهية الروعة! وبمشقَّة قالت: "شكرًا"، ثمَّ انطفأَت.

كم انطوى موقفها على العظمة، عظمة الحبّ! لقد كانت جائعةً إِلى الحبّ، وقد تلقّت هذا الحبّ قبل وفاتها. لم تتفوّه إِلاّ بلفظةٍ واحدةٍ، وكانت كافية للتَّعبير عن محبّتها الرقيقة.

لقد أَعطتني أكثر كثيرًا ممّا أَنا أَعطيتها. أَعطتني حبَّها وشكرها، ولم أَتمالك من التفكير: "لو كنت في مثل وضعها، ما عساني كنتُ فعلت؟" وكان جوابي الداخليّ صريحًا: "ربّما كنت فعلت كلّ شيءٍ كي أَلفت نظر الآخرين إِليّ، قائلةً لهم: "إِنّني جائعةٌ، إِنّني عطشى! إِنّي موشكةٌ على الموت!"

أَمّا هي، فعلى نقيض ذلك، امتلكت الجرأة والحبّ، بحيث استطاعت إِبلاغهما لي، عوضًا عن الاحتفاظ بهما لنفسها، والانطواء على ذاتها.

* * *

- – "طرح عليّ، يومًا، صحافيٌّ سؤالاً غريبًا:

– "هل أَنتنّ، أَيضاً، تعترفنَ بخطاياكنّ؟"

فأَجبته: "أَجل، أَنا أَعترف كلَّ أُسبوعٍ".

فقال: "لا ريب أَنَّ الله يتطلَّب منكنَّ الكثير، إِن كان عليك أنتِ نفسك أَن

تعترفي". فرددتُ عليه: "قد يتّفق أَن يسيء ابنك السلوك، فما الذي يحدُث عندما يأتيك مُعلنًا: "أَبتاه، إِنّني آسف!" وما الذي تفعله؟ إِنّك تضمّ ابنك وتقبّله. لماذا؟ لأَنّ هذه هي طريقتك لكي تقول له إنّك تحبّه. هكذا يفعل الله، فهو يحبّك بحنانٍ".

سواء كنّا خطئنا أَو ارتكبنا هفوةً، فلنتصرَّف بحيث يساعدنا ذلك على التقرُّب من الله، ولنقل له بتواضعٍ: "أَعلم أَنّه ما كان عليّ أَن أَتصرّف على هذا النحو، ولكنّني أُقدِّم لك هذه الهفوة".

إِن كنّا قد ارتكبنا خطيئةً أَو هفوةً فلنمضِ إِلى الربّ ولنقل له: "إِنّني آسفٌ، إِنّني نادمٌ!". إِنَّ الله أَبٌ رؤوفٌ، ورحمته أكبر من خطايانا، وسيغفر لنا.

* * *

- – "استقبَلْنا، يومًا، صبيًّا كان قد فقد أُمّه التي تُوفِّيت في مركزنا للمحتضرين في كلكتّا، بعد أَن كانت أسرتها، التي عهدت البحبوحة والثراء، قد فقدت كلَّ شيءٍ. وفيما كان الصبيُّ ينمو أَبدى رغبةً عارمةً في أَن يصبح كاهنًا، وعندما استجليتُ دافع تلك الرغبة كان جوابه تلقائيًّا: "أُريد أَن أَفعل لسائر الأَولاد شيئًا ممّا فعلته لي، أَيَّتُها الأُمّ تيريزا. أُريد أَن أُحبّ مثلما أَحببتني، وأَن أَبذل ذاتي مثلما بذلت ذاتك من أَجلي". وقد أَصبح، اليومَ، هذا الشابُّ كاهنًا، كاهنًا يُحبُّ بصدقٍ جميع من لا شيءَ ولا أَحدَ لهم، غير المحبوبين، الذين نسوا معنى الحبّ البشريّ، والصلات البشريّة، جميع الذين لا يتوجَّه إِليهم أَحدٌ ببسمة.
- – "ذات صباحٍ، فيما كنتُ عاكفةً على تنظيف المرضى، وافاني أَحد كهنة الإِلهة "كالي" وانحنى أَمامي، ولمس بيديه قدميَّ، ثمّ رفعهما إِلى رأسه، وانتصب واقفًا أَمامي وقال: "إِنّني، منذ عشرين سنةً، أَخدم الإِلهة كالي في معبدها، وها هي ذي الإِلهة، أُمّنا، تنتصب الآن أَمامي في هيئةٍ بشريّةٍ، فاسمحي لي أَن أكرِّمها".

* * *

- – "تلقَّيت رسالةً من رجلٍ برازيليٍّ يتبوّأ مركزًا اقتصاديًّا واجتماعيًّا رفيعًا.

وفي تلك الرسالة يقول إنّه كان قد فقد، فقدانًا كاملاً، الإيمان في الله والبشر، وهمدت همّته، فهجر عمله، ولم تعد تشغل باله سوى فكرةٍ واحدة: الانتقام. ولكنَّه إذ كان مارًّا، يومًا، أَمام مخزنٍ لبيع الأَجهزة الكهربائيّة المنزليّة، استوقفه، على شاشة تلفاز، ريبورتاج عن "بيت المحتضرين"، وعن أَخواتنا اللواتي يرعَيْن المرضى والمُدنفين. فجثا راكعًا، وهو الذي، منذ سنواتٍ، لم يتلُ صلاةً، شرع يخاطب الربّ، وقد عقد العزم على العودة إليه، وعلى استعادة الثقة بالبشريّة، بعد أَن أَدرك أَنَّ الربّ ما زال يُحبّ العالم".

* * *

- – استقبلنا في مركزنا في ميلبورن رجلاً كان مرميًّا في أَحد شوارع المدينة، وكان سكّيرًا عتيًّا مدمنًا منذ سنواتٍ طويلةٍ. وقد تعهّدته أَخواتنا، واقتدنَه إلى مستشفى الرحمة، الذي كنّا قد افتتحناه في تلك المدينة. ولمّا شهد بأَيّ عطفٍ كنَّ يحُطنَه، ويجهدنَ في شفائه، قال في ذاته: "إذن إنَّ الله يحبّني". وفي غضون أَسابيع معدوداتٍ، أَبلّ تمامًا من مرضه، وبارح المستشفى، وانقطع نهائيًّا عن تناول الكحول، واستعاد عمله. وعندما تسلّم أَوّل راتب، زار الأَخوات برفقة زوجته وأَبنائه، وقدّم لهنَّ مبلغًا متواضعًا من المال قائلاً: "أَودّ أَن تكنَّ للآخرين شهادةً حسّيّةً على حبّ الله، مثلما كنتنَّ لي".

* * *

- – دُعيت الأُمّ، يومًا، لزيارة البيت الأَبيض، وقد أَبدت الصورَ الفوتوغرافيّة التي التُقطت لها أَثناء تلك الزيارة دهشتها، وسئلت عمّا أَدهشَها فأَجابت: "كثرة الأماكن الخالية التي قد يسعد الذين لا مأوى لهم في احتلالها".

* * *

- – قيل للأُمِّ: "إنّك المرأة الأَشدّ نفوذًا في العالم"، فأَجابت: "ليت الأمر كذلك، إذن لأَحللتُ السلام في العالم أَجمع".

* * *

- – من طرائف فقر رائدات المحبَّة أَنَّهنّ كنَّ، أَحيانًا، يصطنعنَ ثيابهنّ من

أَكْيَاس قمحٍ مستعمَلةٍ. وكانت إِزالة الكتابة المطبوعة عليها تستعصي على الغسيل، بحيثُ تظهر على ساري بعضهنَّ عبارة: "يُحظر إِعادة بيعه"... وكنّ يصطنعنَ من الأَقمشة العسكريّة الأَميركيّة الخاكيَّة اللون قمطرات يدسسنَ فيها زجاجات ماءٍ ترافقهنّ أَثناء النهار، لئلاّ يحرمنَ الفقراء ماءَهم الثمين. وذات عشيّة عيد الميلاد افتقرت أولئك الرائدات إِلى شال يتلفَّعنَ به لحضور قدّاس منتصف الليل، فاضطررنَ إِلى التلفُعّ بأغطية أَسرَّتهنَّ من أَجل المثول إلى الكنيسة.

وكنَّ ينظّفنَ أَسنانهنّ برماد موقد المطبخ.

* * *

- – إِحدى المرسلات الأُوليات روت: "في أُمِّنا كنّا نرى تجسيدًا لقوانينا، وفرح الفقر والعمل الدؤوب". وذكرت أَنّها، إِثر انضمامها الحديث إِلى جماعة الأُمّ تيريزا، قصدت المراحيض فألفتها قذرةً، فارتدّت عنها متقزّزة. وجاءت الأُمّ تيريزا في إِثرها، فشمّرت عن ساعديها، وتناولت مكنسةً، وعكفت على تنظيفها. وكان ذلك للراهبة الجديدة درسًا لا سبيل إِلى نسيانه.

* * *

- – تروي الأُمُّ تيريزا: "أَثناء طوافانات كلكتّا الكبرى، لم نكفّ عن تحضير الطعام ليلَ نهارٍ، من أَجل خمسة آلاف شخصٍ، وكان الجيش يزوّدنا بالموادّ الغذائيّة. وذات يومٍ أَلهمني صوتٌ داخليّ الانعطاف عن الجادّة، والاتّجاه نحو منطقةٍ مجهولةٍ، فإِذ بقريةٍ صغيرةٍ كانت المياه تُنذر بالإِطاحة بسكّانها، فوفّرنا بواخر لترحيلهم، ولولا تدخّلنا لقضوا نحبهم غرقًا. وقد أَوعزتُ، حينئذٍ، إِلى أَخواتي المبتدئات أَن يصلّينَ كي يتوقّف المطر الذي كان ينهمر مدرارًا منذ أَيّامٍ عديدةٍ. وكنَّ مئة وثماني وسبعين راهبةً ملتئمات في مصلّى مركزنا. عندما شرعنَ يصلّين أَمام القربان المقدّس، كانت الأَمطار ما برحت تتساقط. ولكن بعد برهةٍ وجيزةٍ، فتحت باب المصلّى، فإِذا بالمطر قد انقطع، وانجلت رقعةٌ من السماء الزرقاء فوقنا. أَجل، إِنّي أومن بالمعجزات".

* * *

• – كانت الأَخوات الأُوليات دائبات على صنع فراشٍ لقادمةٍ جديدة، وافتقرنَ إلى القطن، فأَعطتهنَّ الأُمُّ وسادتها لاستخدامها في هذا الغرض. وشقّ عليهنّ ذلك، فَأُمّهنَّ هي الأَحوج إِلى الراحة، بعد كلِّ ما تتجشَّمه من عناءٍ، سحابة النهار. وإِذ كانت مصرَّةً على التضحية بوسادتها طرق البابَ رجلٌ إِنكليزيّ كان مزمعًا على العودة إِلى بلاده في الغد، وخطر له أَنّ فراشه قد يكون ذا نفعٍ للمرسلات.

من روائع العطاء

• – تروي الأُمّ تيريزا:

« لبضع سنوات خلت، زارني راهبان بوذيّان يابانيّان، وأَبلغتهما أَنَّ أَخواتنا لا يتناولنَ أَيَّ طعامٍ، كلَّ يوم خميسٍ من كلِّ أُسبوعٍ، وأَنّنا، بما نوفّره من مالٍ، عن هذا السبيل، نبتاع طعامًا للفقراء. ولست أَدري ما هما خبّرا به سائر الرهبان، لدى عودتهم إِلى اليابان، ولكن عقب فترةٍ وجيزةٍ، شرع قومٌ كثيرون هناك يصدفون عن وجبة طعامٍ، يومًا في الأُسبوع، ويضعون جانبًا ما يوفّرونه، إِلى أَن بعثوا لي، يومًا، بكلّ ما جمعوه. أَليس ذلك رائعًا؟ بفضل هذا المال، أَنشأْت طبقةً جديدةً في البناء المخصّص للفتيات المصابات باضطراباتٍ عقليّةٍ في "تينغرا"، وتَمكَّنتُ من استقبال نحو مئة سجينةٍ أُطلق سراحهنَّ، وستصل اثنتان وعشرون أُخريات في الأسبوع القادم. إِنَّ لله طرُقًا مدهشةً لتأمين احتياجاتنا ».

* * *

• – تذكر السيِّدة "جوزيفا غوسيلكي"، منسِّقة حركة المتعاونين مع الأُمِّ تيريزا في أَلمانيا، أَنَّ سيِّدةً عجوزًا عندما شعرت بدنوّ أَجلها، طلبت أَن تخلو جنازتها من الزهور والأَكاليل، وأَن يُستخدَم المال الذي سيُوفّر، من هذا السبيل، لمساعدة فقراء الأُمّ تيريزا.

* * *

• – كتب شابٌّ وفتاةٌ: "نحن مخطوبان، وسنعقد زواجنا في غضون شهرٍ. وقد اقترحنا على ذوينا وأَصدقائنا أَلاّ يقدّموا لنا هدايا، بل أَن يتبرّعوا بأَثمانها لفقراء الأُمّ تيريزا. نودُّ أَن يتمَّ زواجُنا في إِطارٍ ضيِّقٍ من الأَقرباء، بلا تَرَفٍ ولا تبذيرٍ".

- – إِحدى المتعاونات النمساويّات كانت تزيِّن إِصبعها بخاتم من الماس، تحتفظ به بحرصٍ وحبٍّ جمَّيْن، إِذ إِنّه كان هديّةً من زوجها المتوفّى. واتّفق أَن فقدته، فاغتمّت غمًّا مُمضًّا، لما كان يمثّل لها من قيمةٍ عاطفيّة. وكانت تملك من المال ما يسمح لها بشراء خاتمٍ بديلٍ، ولكنَّها آثرت أَن تتبرَّع للأُمِّ تيريزا بقيمته، لكي "تتألَّق عيون أَطفال الأمّ تيريزا مثل حجار الماس".

* * *

- – أَرسلت مدرِّسةٌ للتَّعليم الدينيّ إِلى أَحد مراكز المتعاونين مع الأُمّ تيريزا هبةً تكمن قيمتها في مغزاها الأَدبيّ أكثر من مقدارها المادّيّ، إِذ أَرفقت بالهبة هذه الملاحظة: "هذه هديّة أَطفالٍ في الصفّ الخامس يتأَهَّبون للمناولة الأولى، وقد تقبّلوا جميعهم، بطيب خاطرٍ، فكرةَ حرمان أَنفسهم من جزءٍ هامٍّ من الهدايا التي يتلقَّونها بهذه المناسبة، مؤكِّدين لي أَنّهم سيسعدون أكثر بتذكّر ذلك الحدَث العلنيّ، لأَنّهم سيكونون قد أَسهموا في إِنقاذ حياةٍ. لقد ابتغوا اقتسام فرحهم مع بضعة أَصدقاء صغارٍ هنودٍ".

* * *

- – عزم عددٌ من الأَطفال النمساويّين على الانضواء تحت لواء المتعاونين مع الأُمِّ تيريزا وبلّغوها قرارهم هذا برسالةٍ كُتبتْ باليد، ووقَّعها كلٌّ منهم، هذا نصّها:

"عزيزتنا الأُمّ تيريزا،

"منذ أَيّام، حدّثونا عنك، من خلال التعليم الدينيّ، وأَرَوْنا صُوَرًا تظهر بؤس القوم في كلكتّا، وما تفعلينه من أَجلهم. وقد تأَثَّرنا تأَثُّرًا بالغًا بحبِّك لأولئك البؤساء، وباهتمامك بمن لا مأوًى لهم، وبرعايتك للمحتضرين الذين تهبينهم الرجاء، وتدعمين إِيمانهم. لقد برهنتِ لنا على أَنّ مبعث السعادة ليس الثروة، بل حبّ الله وابنه يسوع، ومحبّة القريب. إِنّك تقدّمين لنا قدوةً عظيمةً، ونحن عازمون على القيام بكلّ ممكنٍ للتَّمثُّل بك، ولمؤازرتك. إِنّنا نبتغي إِقامة ملكوت الله من حولنا، وتعريف الآخرين بحبّ الله. "الهبة المتواضعة التي نقدّمها لك دليل إِعجابنا بعملك، وإِنّنا نسأَل لك وللمتعاونين معك القدرة على خدمة

الآخرين، ومزيدًا من الصبر والفرح. إنَّنا نحملك في صلواتنا ونستمطر عليك أغزر البركات الإلهيّة، فقول يسوع في عظة الجبل تلقى، هنا، بلا ريبٍ، تطبيقها: "طوبى للرُّحماء لأنَّهم يُرحمون".

* * *

- – إِحدى المتعاونات السويسريَّات أَشرفت على ذكرى ميلادها الثمانين، وشرع أَقرباؤها وأَصدقاؤها وجيرانها يتأهَّبون لمشاركتها الاحتفال بهذه المناسبة، وتهنئتها ببلوغ هذه السنّ وهي في أَتمّ صحّةٍ. ولكن تلك "الجدّة" الطيِّبة رغبت في مشاركة مدعوِّين غير هؤلاء، فجمعت من مدّخراتها مبلغ ٨٠٠ فرنكٍ سويسريٍّ أَرسلته إِلى خازن المتعاونين مع الأُمّ تيريزا مرفقًا بهذه الملاحظة: "عوضاً عن الاحتفال بعيد ميلادي مع أُسرتي التي لا تحتاج إِلى شيءٍ، أُوثر دعوة بعض المحتاجين الذين تعنى بهم الأُمّ تيريزا، كي أُوفّر لهم سانحة التنعُّم بعيدٍ بسيطٍ".

* * *

- – الأَطفال المتعاونون: لقد استشعر الأَطفال، بالفطرة، عظمةَ ما تؤدّيه الأُمّ تيريزا وأَخواتها من خدماتٍ لأَفقر الفقراء، ممّا فجَّر لديهم ينابيع السخاء، وأَدّى إِلى التزام بعض طلاَّب المدارس، باتوا من أَشدّ المتعاونين مع الأُمّ تيريزا اندفاعًا، بتقديم مبالغ محدَّدةٍ، شهريًّا، لدعم نشاط مرسلات المحبّة. وفي مطلع الثمانينات أَظهرت جغرافية المدارس التي ارتبطت بمثل هذا الالتزام، في مختلف البلدان، التوزيع التالي: ١٢٠ مدرسةً في أَلمانيا، و٩٦ في إِنكلترا، و١٠ في أُوستراليا، و١٣ في بلجيكا، و٧٠ في كندا، و١١٠ في الدانمرك، و١٤ في إِسپانيا، و٢٥٠ في الولايات المتّحدة، و٥٠٠ في فرنسا، و٩٥ في هولندا، و١٤ في الهند، و٢٥٠ في إِيرلندا، و١٠ في إِيطاليا، و٩ في اللوكسمبورغ.

وقد أُجريت، منذ سنوات، مباراةٌ فريدةٌ بين مختلف المدارس الأَلمانيّة لتبيُّن أَيّة منها ستتبرّع بالمبلغ الأَكبر، وكانت الفائزة مدرسة فتياتٍ في شتوتغارت ارتقت حصيلة تبرّعاتها إِلى ٢٢٢٢ ماركًا؛ رقم يصعب نسيانه.

وفي إِسـبـانيا يوفِّر طلاب العديد من المدارس الخاصّة والمدارس الحكوميّة، على السواء، جزءًا ممّا يتلقّونه من ذويهم، لنفقاتهم الخاصّة من شرابٍ وحلوى وسواها، ويبعثون بالمبالغ التي تجمع، عن هذا السبيل، إلى مرسلات المحبّة.

وقد كتبت متعاونةٌ يابانيَّةٌ: "إِثر اطّلاعي على تقرير حول وضع الأَطفال في الهند، تحدَّثتُ عنه إلى ابنيَّ البالغين الثامنة والخامسة مِن عمرهما. نحن لسنا أغنياء، والمعيشة باتت أَصعب من أيِّ وقتٍ مضى، من جرّاء التضخُّم والركّود. ومع ذلك ما زلنا ننعم "بتَرَف" ثلاث وجباتٍ وافيةٍ يوميًّا. ولكن إِن كان البشر، في العالم أَجمع، إِخوةً، على حدّ ما جاء في التقرير الذي طالعته، فعلامَ لا نقتسم خبزنا مع إخوتنا الأشد فقرًا؟ لقد اقترح ابني البالغ من العمر ثماني سنواتٍ فكرةً، تقبّلناها جميعنا، تقضي بامتناعنا عن تناول الحلوى ثلاث مرّاتٍ في الأسبوع لصالح أَطفال الهند الفقراء...".

وكان أَطفالٌ فرنسيّون قد تطوَّعوا لهدفٍ محدَّدٍ: تخصيص مدَّخراتهم لتغطية نفقات أَسفار الأُمّ تيريزا، المتزايدة تواترًا وبُعدَ مسافات. ومع أَنَّ أَسفار الأُمّ تيريزا قد مضت في ازديادٍ، إلاّ أَنَّها باتت أَدنى كلفةً، بعد أَن تبرّعت لها شركات طيرانٍ عديدةٌ ببطاقاتٍ مجّانيّةٍ؛ ومع ذلك لم ينَلْ سخاءَ الأَطفال الفرنسيّين أَيُّ ركودٍ، وأَصبحت مدَّخراتهم تُنفَق على أَوجهٍ أُخرى من نشاطات الأُمّ تيريزا.

وقد كتبت مُنسّقة المتعاونين الدانمركيّين عن المتعاونين الصغار في بلدها:

"منذ عشر سنواتٍ ما انفككنا نرسل شحناتٍ من علب الحليب المجفّف وحبوب الفيتامين، مشتراةٍ بفضل تبرّعات أَطفال مختلف المدارس الحريصين على مدّ يد العون لأَطفالٍ هنودٍ في مثل سنّهم. وتنطوي كلُّ شحنةٍ شهريّةٍ على ٣٢٠ صندوق حليبٍ ومئتي أَلف حبّة فيتامين. وأَثناء العطل المدرسيّة، نفلح في مواصلة هذه الشحنات بفضل مساهمات أَفرادٍ، ومؤسَّساتٍ خاصّةٍ".

وقد قامت مجموعة طلاّب كنديّين بمبادرةٍ كان لها وقعٌ بليغٌ في نفس الأُمّ تيريزا، عندما فرضوا على ذواتهم أَصوامًا لمدّة ٢٤ ساعةً، أيّامًا متعدّدةً، كي يختبروا المعاناة المفروضة على أَطفال الهند الفقراء. وقد نظّمت تلك المجموعة ما دعته "طنّ الجوع"، المتمثّل في شراء وشحن طُنّ أَغذيةٍ لأَطفال الهند، بواسطة المال المدَّخر، نتيجةً لتلك الأَصوام الطوعيّة.

* * *

- – كانت الأُمُّ في زيارة لـڤـينيزويلا، فاستوقفها في الشارع متسوِّلٌ وقال لها:

– "أيَّتها الأُمّ تيريزا، الجميع يقدّمون لك هباتٍ، وأَنا أَيضاً، بودّي أَن أُقدّم شيئًا، فهاكِ كلّ ما لديّ".

وكان كلُّ ما لديه "بوليـڤـار" واحد، رجا الأُمّ أَن تَتَقَبَّلَهُ من أَجل الفقراء.

وقد علَّقت الأُمُّ، التي طالما قيَّمت الهبات بما تنطوي عليه من حبٍّ، أكثر من تقديرها قيمتها المادّيّة:

– "شعرتُ في أَعماقي أَنَّ هذا الفقير قد أَعطاني أكثر من جائزة نوبل، لأَنَّه أَعطاني كلّ ما كان يملك. ومن المرجّح أَنّه، في تلك الليلة، نام على الطوى".

- – بعض الهبات ترفق بملاحظاتٍ مثل هذه:

"إِليكم هذا الشيك المتواضع. كنت قد اعتزمت شراء معطف لهذا الشتاء؛ ولكن بعد إِعمال الفكر، وجدتُ أَنَّ بوسعي استخدام المعطف الذي أَملكه، سنةً أُخرى أَو سنتَيْن. قيمة الشيك تعادل ثمن معطفٍ جديدٍ... بإِمكانه أَن ينتظر مؤقَّتًا".

وكتبت عاملة مقسمٍ هاتفيٍّ في الريف: "أَبعثُ إِليكم بحوالة بريديّة قدرها، ٥٢٥ فرنكًا، أَي ما يعادل، تقريبًا، ثمن وجبات العشاء مدَّة شهرٍ؛ فقد أَقلعتُ عن العشاء في النزْل الذي أُقيم فيه، لاعتقادي بأَنَّ شخصًا ينعم بصحّةٍ ممتازةٍ مثلي، بوسعه الاستغناء عن وجبة طعامٍ لصالح الفقراء. وبنيَّتي الاستمرار في موافاتكم بمثل هذا المبلغ، كلَّ شهرٍ".

* * *

- – في نشرة المتعاونين الدوليّة، كتب مندوب المتعاونين الدانمركيّين:

"إنّ حياكة الأغطية والكنزات تؤدّي إلى تلاقي العديد من الرجال والنساء المسنّين الوحيدين، والمرضى المبثوثين في البلاد. ثمّة جيرانٌ متلاصقو المساكن كان يجهل أحدُهم الآخر باتوا أصدقاء، وهناك مرضى ومسنّون كثيرون، نزلاء مصحّاتٍ كانوا يعانون من الوحدة والسقم، اتّحدوا ووجدوا لحياتهم هدفًا؛ ونزلاء مستشفياتٍ وجدوا دافعًا للحياكة في سبيل مساعدة الأطفال الفقراء، وفي الآنِ عينه، تحرَّروا من مشاكلهم الخاصّة. وهكذا استطعنا أن نرسل إلى كلكتّا وبومباي وداكا ١٢١٩ غطاءً صوفيًّا، و ٢٣٤٤ كنزةً. وقد تعاون معنا أيضاً نحو ٢٥٠ طالبًا من جميع أنحاء البلاد. وهكذا أمسى طلاّبٌ أطفالٌ ويافعون كثيرون على معرفةٍ بظروف عيش الأطفال الفقراء في الهند وبنكلاديش؛ وفي سبيل غوثهم يتقبّلون تضحياتٍ شخصيّةً، ويختبرون فرح العطاء. لقد أرسلنا إلى الهند وبنكلاديش ١٩٠ برميل حليبٍ مجفَّفٍ، وثلاثة ملايين ومئتي ألف حبّة فيتامين و ١٧٨٨٥٠ كيلو أغذيةٍ معدَّةٍ للرُّضَّع".

* * *

- – روت الأُمّ تيريزا: "تلقَّيتُ، يومًا، خمسة عشر دولارًا من رجلٍ اضطرّ إلى البقاء مستلقيًا على ظهره منذ أكثر من عشرين سنةً، وكانت يده اليُمنى هي العضو الوحيد الذي يستطيع تحريكه؛ وكانت لفافة التبغ هي رفيقه الوحيد، وقد أعلن لي: "لقد أقلعتُ، أُسبوعًا، عن التدخين، وها إنّي أُرسل لك المال الذي وفَّرتهُ". أيَّة تضحيةٍ رهيبةٍ تحمَّل هذا الرجل، وكم تألَّم لكي يشارك، وما أجمل ما فعل! بهذا المال ابتعتُ خبزًا وأعطيتُه للجياع، ممّا وفَّر سرورًا عميقًا للَّذي أعطى وللَّذي أخذ على السواء.

* * *

- – "لن أنسى أبدًا ذلك اليوم، في ڤينيزويلا، حيث زرتُ أُسرةً كانت قد أهدت إلينا حَمَلاً، وقد جئتُها شاكرةً، فلقيت، ثمّة، ولدًا معاقًا إعاقةً ذريعةً، وسألتُ أُمّه: "ما اسم هذا الولد؟" فتلقّيت جوابًا من أجمل ما سمعت: "إنّنا ندعوه "أُستاذ الحبّ" فهو لا يكفّ يلقّننا طريقة الحبّ. إنّ كلّ ما نفعله له هو، عمليًّا، تعبيرٌ عن حبّنا لله".

- – "إنني أَذكر أَبدًا تلك المرأة التي التقيتُها في الشارع، والتي كانت تبدو مشرفةً على الموت جوعًا. فقدَّمت لها طبق أَرزٍّ، ظلّت، فترةً طويلةً، تحدّق فيه، وعندما حاولتُ إِقناعها أَن تتناول منه، أَعلنت "لا أَستطيع أَن أُصدِّق أَنَّ هذا أَرزٌّ، فقد مضى زمنٌ طويلٌ لم أَتناول فيه طعامًا". لم تدنْ أَحدًا، ولم تشكُ من الأَغنياء، ولم تتلفَّظ بأَيّة عبارةٍ تنطوي على مرارةٍ. كلُّ ما في الأَمر أَنَّها لم تستطع أَن تصدّق أَنَّ ما قدّمتُه لها كان أَرزًّا حقًّا".

* * *

- – "منذ فترةٍ قمت برحلةٍ إِلى الحبشة، حيثُ كانت أَخواتنا يعملنَ، أَثناء الجفاف المريع المعروف الذي ضرب تلك المنطقة. ولما هَمَمْتُ بالرحيل وجدتُ نفسي محاطةً بطائفةٍ من الأَولاد، كان كلٌّ منهم يودّ أَن يهب شيئًا، وكانوا يهتفون: "خذي هذا للأَولاد، احملي هذا لهم، أَعطيهم هذا...". كم من الهدايا لفقرائنا! ثمّ أَتاني طفلٌ كان قد تلقّى، للمرَّة الأُولى في حياته، لوحَ شوكولا، قائلاً: "لا أُريد أَن آكله، خذيه وأَعطيه للأَولاد". عظيمًا كان عطاءُ ذلك الطفل، فبإِعطائه ما كان يرتدي، في نظره، ثمنًا لانهائيًّا، إِنما كان يعطيه عطاءً كاملاً"
- – كثيرًا ما اتُّهمتْ الأُمُّ تيريزا بتدليلها الفقراء وإِفسادهم، بتوفيرها لهم كلَّ احتياجاتهم بلا مقابل. وقد واجهتها إِحدى الراهبات، يومًا، أَثناء اجتماعٍ حاشدٍ بهذه التهمة مدَّعيةً أَنَّها بسلوكها هذا تسلب الفقراء كرامتهم. وصمتت الأُمُّ لحظاتٍ، ريثما هَمَدَ اللغَط الذي أَثارته هذه التهمة، وردّت:

"ما من أَحد يدلِّلنا بقدر ما يدلّلنا الربّ نفسه. فكم من منَحٍ مجّانيّةٍ جاد بها علينا! لا أَرى أَحدًا منكم هنا يستخدم نظاراتٍ، ومع ذلك كلّكنَّ ترون جيّدًا. فماذا لو أَنَّ الربَّ طالبنا بأَجرٍ لقاء النظر؟ ثمّ إِنّنا نتنفّس بلا توقّفٍ، ونعيش بما لا نؤدّي له ثمنًا. فماذا لو أَنّ الربّ قالَ لنا: "اعملوا طيلة أَربع ساعاتٍ فتحقّ لكم ساعتان من النور! "كم منّا، حينئذٍ، سيقوون على العيش؟"

ثمّ أَردفت:

"ما أكثر الرهبانيّات التي تبذل جهودها في سبيل خدمة الأَغنياء، ورعاية رفاههم! فأَيُّ ضيرٍ في أَن تضطلع جمعيّةٌ واحدةٌ بالاهتمام بالفقراء، وحتّى بتدليلهم؟"

فساد صمتٌ سحيقٌ، ولم ينبسْ أَحد بلفظةٍ".

عناية إلهية

زار الأب "دالّو" منسّق رابطة المتعاونين الفرنسيّين كلكتّا، وقد دهش لرؤية مقرّ "شيشوبهاڤان" مزدانًا بالشرائط والزخارف المنتشرة في كلّ أرجائه، ممّا يشيع فيه جوّ عيدٍ، فسأل الأمّ: "هل تحتفلون هنا، كلّ يومٍ، بعيد الميلاد؟" فأجابت مؤكّدةً أنَّ كلَّ يومٍ في ذلك المركز يُعدّ عيدًا. وفي تلك الأثناء وافته الأخت أنييس تحمل بين يديها طفلاً يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة، وقالت: "لم آتِكَ به لكي تعطيه دواءً، بل لكي تصلّي له. فباركه، يا أبتاه". وباركه الأب، وهو موقنٌ أنَّه لن يلبث أن يلقى حتفه... وما هي إلاّ سويعات حتّى عادت لتنبئه، وهي تفيض فرحًا، بأنَّ الطفل أحسن حالاً؛ وحيال دهشته، أعلنت: "هنا، أبتاه، بفضل الصلاة، نحصل، كلَّ يومٍ، على معجزاتٍ".

فالمعجزات، للأخت أنييس، وللأمِّ تيريزا، أمرٌ غايةٌ في البساطة. إنّهما تصلّيان فحسب، وتحدث المعجزات.

وتقول الأمُّ تيريزا، في معرض حديثها عن سهر العناية الإلهيّة: "كلّ يومٍ يشهد ضربًا من الأعجوبة، وفي كلّ أعجوبةٍ تعبيرٌ عن رعاية الله الرقيقة، ودليلٌ على حبّه وعطفه غير أنَّ المعجزة الكبرى تتمثّل في استخدام الله أشخاصًا على هذا القدر من ضآلة الشأن والتفاهة، من أمثالنا، لكي يحقّق مشاريع حبّه".

- – أوعزت الأمُّ، يومًا، إلى أخواتها في مدينة "غاند" البلجيكيّة: "تضرَّعنَ إلى الربّ كي يكون لكنّ مركزٌ أوسع من شأنه استقبال أشخاصٍ مسنّين لامعينَ لهم".

وقد صلّت الأخوات بكلِّ قلوبهنّ، وماكاد ينقضي سوى وقتٍ قصيرٍ، حتّى توفّيت امرأةٌ طاعنةٌ في السنّ، كانت تقطن في منزلٍ ملاصقٍ لمركزهنّ. وعندما فُضّت وصيّتها، فإذا بها وقفت منزلها لصالح مرسلات المحبّة.

* * *

- – جاءت مقرّ المرسلات امرأةٌ مجهولةٌ مدَّعيةً أنَّها في حاجةٍ حارقةٍ إلى مبلغ مئتي دولارٍ، وكان ذاك كلّ ما بحوزة المرسلات من مالٍ: ومن غير تحقُّقٍ من هويَّة المرأة، وصدق ادّعاء حاجتها، نفحتها الأمُّ تيريزا كلَّ ما لديها.

وبعد دقائق قرع باب المرسلات شابٌّ أشقر لم يكن للمرسلات به معرفةٌ، فسلّمهنّ ظرفًا وانصرف، وإذا بالظرف يحتوي على ٢٠٥ دولار تمامًا.

● – لقد انتشرت، أبدًا، عجائب العناية الإِلهيّة على درب مسيرة الأُمِّ تيريزا، كما يتَّضح من الأَحداث التالية:

– ذات يوم نفد الأَرزّ لدى المرسلات، ولم يبقَ منه ما يطعمهنَّ ويطعم الفقراء المزدحمين عند بابهنّ، وإِذا بامرأةٍ تقدم بكيسَيْن من الأَرزّ قائلةً: "شيءٌ ما دَفَعَني لآتيكنَّ بهذا...".

– وأُبلِغت الأمُّ، يومًا، أَنَّه لم يبقَ لديهنّ حطبٌ، فأَوعزت إِلى الأَخوات بالتجمّع في المصلّى حيثُ التحقت بهنَّ، وتمتمت هذه الصلاة: "ربّاه، لقد قلتَ إِنَّك ستستجيب لمن يسألك، فأنعم علينا، إِذ لم يبقَ لدينا حطبٌ". وفي نهاية الصلاة، حضر رجلٌ بشاحنةٍ محمَّلة حطبًا... واستطاعت الأَخوات خَبْز أَرغفتهنَّ.

– ورد إِلى المرسلاتِ خمسةٌ وتسعون طردًا من الحليب المجفّف، وإِذ لم يتوفّر لها مخزن، أُودعت في فناء الدير؛ وفجأةً انهمرت الأَمطار الموسميّة طيلة خمسة أَيّامٍ متّصلةٍ. ولمّا صحا الطقس، وعادت الشمس إِلى الإِشراق، تبيَّنت الأَخوات، مذهولاتٍ، أَنَّ أَيّة علبةٍ لم تُصَب بعطبٍ، ما خلا علبةً واحدةً عطب غطاؤها من غير أَن تتسرّب قطرة ماء إِلى الحليب في داخلها؛ وقد علّق أَحد الشهود، مدهوشًا: "أَيّ زوجٍ من بني البشر يستطيع أَن يفعل ذلك لحبيبته؟!"

– وافى، يومًا، الأُمَّ تيريزا أَبٌ ملهوفٌ، فابنه المريض في حاجةٍ إِلى دواء لا وجود له في كلكتّا، وبقاؤه على قيد الحياة مرهونٌ بتناوله إِيّاه في الحال. وكانت الأمُّ تيريزا هي أَمله الأَقصى، في مواجهة أَجَلٍ مخيفٍ. والتفتت الأمّ إِلى رزمة أَدويةٍ كان جيء بها إِليها قبل لحظات، وفتحتها على عجلٍ، وإِذ بالدواء المطلوب على رأس الأَدوية التي زخرت بها الرزمة.

* * *

● – عادت الأَخوات من عملهنّ المضني، فأَبلغتهنّ الأُخت المسؤولة عن الإِطعام أَن ليس لديها ما يكفي إِحداهنّ، وأَوعزت إِليهنَّ الأُمُّ بالشخوص إِلى المصلّى وبالصلاة. وإِذ بالباب يُقرع، وبمتسوّلٍ يستجدي ما يسُدُّ به رمقه، فأمرت الأُمُّ بإِعطائه كلَّ الطعام المتبقّي، واستأنفت، مع أَخواتها، الصلاة؛ وما هي سوى دقائق معدوداتٍ حتَّى قرعت الباب امرأةٌ جاءت بمؤونةٍ وافرةٍ من الأَغذية، وكانت قد شعرت بدافعٍ ملحٍّ إِلى موافاة المرسلات بها في، تلك الساعة.

كم الفقراء رائعون!

من الحكايات التي يطيب لِلأمّ روايتها:

"لدينا في ميلبورن، بأُوستراليا، مركزٌ للعناية بالمُدمنين على الكحول، الـذين لا يعبأُ أَحدٌ بهم؛ وقد قام أَحدهم، يومًا، بضرب رفيقٍ له ضربًا وحشيًّا مبرِّحًا. ما حملَني على استدعاء رجال الأمن الذين استجوبوا الجريح عن اسم المعتدي، فراح الجـريح يختلق مختلف أَصناف الأكاذيب، مظهرًا، بوضوحٍ، عدم رغبته في البَوْح بالحقيقـة، والوشاية بالذي اعتدى عليه، واضطرّ رجال الأَمن إلى العودة خائبين.

"فسأَلتُ الضحيَّة: لمَ أَبيتَ الكشف عن هويّة الذي ضربك؟ فحدَّق إليّ وقال: لـم يكن من شأن عقابه أَن يخفّف آلامي".

"هذا الرجل الذي كتم اسم المعتدي عليه كي يجنّبه عقابًا مـن شـأنه أَن يسبِّب له الآلام، نموذجٌ عن قلوب أَصدقائنا الفقراء الجديرين بكلّ إِعجـابٍ! فمثل مشاعر الإِخاء الحارّ هذه رائجةٌ فيما بينهم؛ وبالحقيقـة أُولئـك الـذين ندعوهم فقراء، أَغنياء جدًّا بالحبّ!"

* * *

- – "كم من آباءٍ وأمَّهاتٍ شهدتهم يحرمون ذواتهم من الأَشياء الضروريّة، بـل لا يتحرَّجون من التسوّل من أَجل تنشئة أَبنائهم.

لقد رأيت امرأةً تُقبِّل، بحنانٍ لا يوصف، واحدًا من أَبنائها، مشلولاً منـذ المهد، كانت تقابل آلامه بحبٍّ مُفعَمٍ عطفًا.

وأَذكر أُمًّا كان لها اثنا عشر ولدًا، وكان بكرهم معاقًا إِعاقـةً سـحيقةً، جسديًّا وعقليًّا، إِلى حدٍّ يصعب وصفه. وقد عرضتُ عليها استقباله في أَحـد مراكزنا حيثُ يوجد أَولادٌ في مثل حاله، غير أَنَّ المرأة انفجـرت بالبكـاء قائلةً: أتوسّل إِليك، أُمّاه، ألاّ تكلّميني عن ذلك. ارحميني ولا تعرضي علـيَّ هذا العرض. فهذا الولد هو، لي ولأُسرتي، أَجمل هديّة من الله. كـلُّ حبّنـا يجهد في الإِحاطة به، وإِن أَنتِ أَخذتِه منّا، لفقدت حياتُنا كلَّ هدفٍ".

* * *

- – التقطتُ من الطريق ولدًا جائعًا يعلم الله كم يومًا قضى على الطوى. كانت عيناه تلتمعان من الحمّى، من جرّاء الجوع، ولست أَظنّ أنني أَو أَنّكم قادرون على اكتناه معنى الجوع حقًّا. وقد أَعطيته كسرة خبزٍ، فأَخذ يقضم منها قضماتٍ صغيرةً، فشجَّعته: هيّا تناول خبزتك، وعندما ستفرغ منها سأُعطيك خبزةً أُخرى. وأَجابني الولد المسكين: إِنّني أَخشى أَن أَعود فأَجوع، بعد أَن أكون قد التهمتُ كلَّ شيءٍ.

ذلك الصغير، مع حداثة سنّه، كان قد خَبَر معنى الجوع... وقد جئتُ به إِلى مركز الأَطفال الذي نديره، فحمَّمناه جيّدًا، وأَلبسناه ثيابًا نظيفةً، ولكنّه، بعد ظهر ذلك اليوم، فرّ، فسعينا في إِثرِهِ، وأَعدناه إِلى المركز، غير أَنّه لاذ، مجدّدًا، بالفرار، فأَوعزتُ للأخوات: "راقبنَه عن كَثَبٍ، ولكن لا تُضيِّقنَ عليه الطوق، وحاولنَ معرفة إِلى أَين يمضي، وسبب عدم رغبته في البقاء هنا". وفرَّ ثانيةً، فانطلقت إِحدى الأَخوات في إِثره، ووَجدته تحت شجرةٍ، عرضةً للأنواء. وكانت أُمُّه إِلى جانبه تطهو شيئًا ما، والله أَعلم بما استطاعت نبشه من القمامة كي تُصلح منه طعامًا. ولم تنسَ الأُخت، قطّ، الإِعجاب الذي استفزَّه فيها الحبّ المتبادَل بين الأُمّ وابنها. فمع حرصنا على توفير أَفضل طعامٍ للمحرومين في مراكزنا، ما فتئ ذلك الولد يردّد: "هذا ليس بيتي، أَودُّ الرجوع إِلى بيتي"

"بيته كان ذلك الملجأ، تحت شجرةٍ، في العراء، حيثُ لا شيء سوى فراش قشٍّ زريٍّ، بلا وسادةٍ ولا أَغطيةٍ. ومع ذلك كان ذلك الملجأ، لذلك الطفل، هو المنزل حيث يلقى حنان أُمّه، التي كانت، هي أَيضاً، تحبُّه بكلّ روحها، ما كان يضفي على كليهما السعادة، لأَنّهما كانا يُقيمان معًا ولأَنَّ حبَّهما المتبادَل كان حسبهما".

* * *

- – "طفلٌ من كلكتّا علّمني معنى الحبّ الحقّ. فقد اتَّفق، يومًا، أَن افتقرنا إِلى السكَّر، ولستُ أَدري كيف علم ذاك الطفل البالغ من العمر أَربع سنواتٍ، في مدرسته، أَنَّ الأُمَّ تيريزا لم تعد تمتلك سكَّرًا لأَجل فقرائها الصغار؛ ولمّا عاد إِلى منزله، قال لوالديه: "سأَمتنع، طيلة ثلاثة أَيّام، عن تناول السكَّر الذي

سأُوفِّره من أَجل الأُمِّ تيريزا". ولم يكن ذووه قد زارونا، قطُّ، لتقديم أيِّ شيءٍ. ولكن، بعد ثلاثة أَيّامٍ، اصطحبوا طفلهم، الذي كان، مع صغره المتناهي، يحمل بين يديه بضع قطع من السكَّر. صحيح أَنّ طفلاً مثله لا يستهلك الكثير، ولكنّه جاءنا بما كان قادرًا على استهلاكه طيلة ثلاثة أَيّام. ذلك الطفل كان يكاد لا يقوى على لفظ اسمه، إِلاّ أَنّ الحبَّ الذي اصطبغت به فعلته قد أَثّر فيَّ تأثيرًا عذبًا، وقد أَثبت لي أَنَّ ما يُعطى، حبًّا بالله، يكتسب قيمةً بلا حدودٍ".

* * *

- – "أَعطت أَخواتُنا طفلةً قطعةَ خبزٍ، ولم تكن الفتاةُ قد تناولت طعامًا منذ فترةٍ طويلة، واتّضح لي أَنّها كانت تتناول منها فُتاتًا، فقلت لها: إِنّني أَعرف أَنّك جائعةٌ جدًّا، فلمَ لا تأكلين خبزك دفعةً واحدةً؟ فأَجابت: "أَودّ أَن يدوم أَطول وقتٍ ممكنٍ".

"كانت تخشى الشعور بالجوع مجدَّدًا، بعد الفراغ من التهام خبزتها. ولذلك كانت تقضم منها قضماتٍ صغيرةً جدًّا. وإِلى جانبها جلست طفلةٌ أُخرى، ولكنّها لم تكن تأكل شيئًا، فظَنَنْتُ أَنّها فرغت من تناول خبزها، ولكنَّها باحت لي: إِنَّ أَبي مريضٌ، وأَنا أَتضوَّر جوعًا، ولكنَّني واثقةٌ أَنّه سيسعد لو جئتُه بقطعة خبزٍ.

"تلك الفتاة الفقيرة الكريمة ارتضت، تلقائيًّا، العزوف عن إِشباع جوعها، كي توفِّر لوالدها المريض فرح تلقّي كسرة خبزٍ...

"رائعون هم الفقراء! إِنَّهم لا يحتاجون إِلى شفقتنا المتعالية، بل إِنَّهم جديرون بإِعجابنا، ويستأْهلون حبَّنا!

"يلزم إِيمانٌ راسخٌ من أَجل اكتشاف المسيح في الأَجساد المتأَلِّمة، وتحت الأَسمال الزريَّة التي تستر أَجمل بني البشر وعلينا أَن نمتلك يدي يسوع، كي نلمس تلك الأَجساد التي شوَّهتها الآلام والأَوجاع".

* * *

- – "بمناسبة اليوبيل الفضيّ لتأسيس بيت المحتضرين، أَقمنا احتفالاً للأَطفال، وتولّى

مديرو شركاتٍ كبرى توزيع الطعام على أَطفال الضواحي. وكانت الأَخواتُ قد أَعددنَ للأكثر حرمانًا ثيابًا مناسبةً، كي يبدوا في مظهرٍ يليق بالاحتفال. وأَظنّ أَنَّهم قد عبثوا جميعهم، وأَصابوا متعةً كبرى. وجرى الاحتفال في إِحدى حدائق كلكتّا حيث طفتُ بين الجموع، فاتَّضح لي أَنَّ أَولادًا كُثُرًا لم يتذوَّقوا قطعةً واحدةً من محتويات الكيس الذي وُزِّع عليهم، والذي كان يحتوي حلوى، وسكاكر، وفواكه مجفَّفةً؛ وعندما استطلعتُ السبب أَجابوا أَنَّ لديهم إِخوةً وأَخواتٍ كانوا يرغبون في اقتسام تلك الطيِّبات معهم. إِنَّ الأَطفال الفقراء من السخاء بحيثُ يقتسمون كلَّ شيءٍ، وربّما هم كانوا، في ذلك، أكثر سخاءً من أَبناء الأَغنياء.

"وأَجمل ما في ذلك الاحتفال أَنّ الذين جعلوه ممكنًا بفضل هباتهم الكريمة قد حرصوا على أَن يخدموا بأَيديهم، وفي كثيرٍ من المودّة، الأَطفال الذين توخَّينا تدليلهم".

* * *

- "في غواتيمالا التُقِط رجلٌ من الشارع، وجيء به إِلى مركزنا هناك، وقد أَعياه المرض وهدَّه الجوع، بحيثُ فقد كلَّ قدرةٍ على المقاومة. ولكن، شيئًا فشيئًا، وبفضل فيضٍ من الرعاية، أَفلح في النهوض من الهاوية، وحينئذٍ، صرَّح لأَخواتنا: أُريد أَن أَمضي، وأَن أَدع هذا السرير لآخر قد يكون أكثر احتياجًا إِليه منّي، آخر قد يكون في مثل وضعي عندما أَنقذتموني.

"وهو الآن يعمل، ويحقّق بعض المكاسب، وكلّما توفَّر لديه بعض مالٍ، ذكر المرضى الذين تعالجهم أَخواتنا، فيعودهم، ويأتيهم دائمًا بشيءٍ ما، وهو، رغم فقره، لا يأتيهم، أَبدًا، صفر اليدين. ذلكم مثالٌ من كرم "زبائننا".

* * *

- "يوم كنتُ لا أَزال راهبةً في جمعيّة سيّدة اللوريت، كانت، ثمّة، طفلةٌ لا تتجاوز السادسةَ أو السابعة من العمر، شديدة العدائيّة. وبدت، ذات يومٍ، أكثر شراسةً من المألوف، فأَخذتُها من يدها، قائلة: "تعالي، سنقوم بجولة". وكانت تمتلك بعض المال، الذي أَطبقت عليه يدها بحرص، فيما أَمسكتْ بيدها الثانية يدي، وراحت تقصّ عليَّ مشاريعَها: "سأشتري هذا، ثمّ سأَبتاع ذاك...".

وفجأةً صادفنا متسوِّلاً أعمى، فجادت عليه بكلّ ما لديها. ومنذ ذلك اليوم، انقلبت فتاةً أُخرى. لقد كانت شديدة البشاعة عندما كانت تتشبَّث بكلّ ممتلكاتها، ولكنّ فعلها السخيّ قد حوّل حياتها".

* * *

- - "في أعقاب نيلي جائزة نوبل للسَّلام، شاء الكثيرون تكريمي، فأغدقوا عليّ هباتٍ سخيّةً لأَجل فقرائنا. وقد دنا منّي متسوّلٌ، بدوره، وقال لي: "أَيَّتها الأُمُّ تيريزا، أَرى أَنَّ الجميع يقدِّمون لك الهدايا، وأَودّ، أَنا أَيضاً، أَن أُقدّم شيئًا، فاقبلي هذا، إِنّه كلّ حصيلتي اليوم. قروشٌ قليلةٌ، ولكنَّها لك، فخذيها".

"وأَجلتُ في خَلَدي: "إِن أَنا قبلتها لم يبقَ له من حيلةٍ سوى النوم على الطوى، وإِن أَنا رفضتُها فقد أُهينه، فقبلتُها. ولا أَذكر أَنَّني قرأت، يومًا، على وجه متبرّع بمالٍ أَو بطعامٍ فرحًا أَعظم من فرح ذلك المتسوِّل الذي سَعِدَ بأَن يقدّم، هو أَيضاً، شيئًا. ذلكم هو فرح الحبّ.

"إِنَّ عطاء ذلك المتسوِّل قد وفّر لي من الفرح أكثر من هدايا سائر المتبرّعين النفيسة، لأَنَّ ذلك الرجل أَعطى كلَّ ما كان يملك، فيما الآخرون كانوا يعطون بعضًا من فائضهم النافل".

* * *

- - "في الساعة التاسعة مساءً قُرِعَ البابُ فنزلتُ في الحال لأَستطلع من يدعوني، فألفيتُ أَبرصَ يرتعد بردًا. سأَلتُه عمّا يحتاج إِليه، وقدَّمتُ له طعامًا وغطاءً يقيه قسوة ليالي كلكتّا، فرفضهما، ومدَّ لي صحيفة تسوُّله قائلاً بلهجته البنغاليّة: "أُمّاه، سمعت الناس يقولون أَنّكِ مُنحتِ جائزةً؛ وفي هذا الصباح عقدتُ العزم على موافاتك بكلّ حصيلة تسوُّلي طيلةَ النهار. وإِليك بها". كانت تلك الحصيلة ٧٥ پاييزه (ثلاثة أرباع روبية)، ما زلت أَحتفظ بها على مكتبي، لأَنّ هذه الهديَّة المتواضعة تنبئ بعظمة القلب البشريّ. إِنَّه لشيءٌ رائع".

* * *

- - "زارني شابٌّ وفتاةٌ تزوّجا حديثًا ونفحاني مبلغًا ذا بالٍ، من أَجل الفقراء، فسألتهما كيف استطاعا توفير كل ذلك المبلغ، فأَجابا: "لقد تزوّجنا منذ يومين

فقط، ولكنّنا كنّا، مسبقًا، قد عقدنا العزم على التخلّي عن الزينات، والاحتفالات المألوفة، لكي نعطيكِ ما كان من شأننا أن ننفقه على ذلك". كنت أَعلم أَيّة تضحية يعني ذلك السلوك لأسرةٍ هندوسيّةٍ، فسألتُ: ولكن، لمَ فعلتما ذلك؟ فأجابا: لأَنَّ حبّنا المتبادَل من الكِبَر بحيث ابتغينا اقتسامه مع فقرائك. ولا يسعنا التعبير عمّا وفّر لنا ذلك من فرحٍ".

* * *

- – "إِنّنا نعالج أكثر من ٥٣ أَلف أَبرص؛ وقد افتتحنا، لهذا الغرض، بمؤازرة الحكومة الهنديّة، مراكز إِعادة تأهيلٍ.

"ونعلم جميعنا أَنَّ البُرص كانوا، منذُ الماضي السحيق، وحتّى في أَيّام المسيح، منبوذين من الجميع، وكان عليهم الاختباء في المقابر، والتواري عن أنظار الجميع. لا بل كان عليهم قرع جرسٍ صغيرٍ، عند مرورهم، لكي يبتعد المارَّة عن دربهم. ولكن، اليوم، بات حبّ يسوع يحدو الكَثيرينَ إِلى الدنوّ منهم، وعدد الذين يشعرون أَنّهم مدفوعون إِلى الاهتمام بهم ما انفكّ يتفاقم، بحيث أَمسى برصٌ كثيرون يتبيَّنون، أكثر فأكثر، أَنّ ثمّة من يحبّونهم، ولا يتحرَّجون من الاقتراب منهم.

"وفي مراكزنا للبرص، حيثُ نقدّم جميع أَصناف العناية، نفتتح أَيضاً مراكز للأطفال، فمعجزة الله هي أَنَّ طفلاً مولودًا من أبوين أَبرصَين لا يرث عدوى الداء، بل إِنّه يولد سليمًا تمامًا.

"وقبل ولادة الطفل، نُعِدُّ والدَيْه للانسلاخ عنه فور رؤيته النور، حتّى قبل أَن يقبّلاه، أَو أَن ترضعه أُمّه، فمنذ تلك اللحظة نحن نتعهّده.

"وذات يومٍ راقبتُ والدَيْ طفلٍ، في اليوم الثالث من عمره، وقد وُضِع بينهما. كان كلٌّ منهما يتأَمّله مأخوذاً به. كانت أَيديهما تدنو منه، ثمّ لا تلبث أَن تتراجع. كانا ينحنيان عليه، ويكادان يقبّلانه، ثمَّ يبتعدان عنه. لن أَنسى، أَبدًا، حنان ذينك الأَبوَيْن وحبَّهما لصغيرهما. وكنت آخذ الطفل بين ذراعيّ، وأُوجّهه نحوهما، وأَرقب الحنان الجمّ المنبعث من أَنظارهما، والذي كان يؤثّر فيّ تأثيرًا بليغًا. أَيُّ أَلمٍ، بل أَيّ نزاعٍ كانا يعانيان! كانا يتألّمان لاضطرارهما إِلى الانسلاخ

عنه، ولكنَّهما، إذ كانا يحبّانه أكثر من ذاتهما، قويا على ذلك. كان يُسمح لهما برؤيته، من غير لمسه. وما كان أجمل رؤية التضحية الجسيمة التي كان ذانك الوالدان الأبرصان يتحمّلانها من أجل تجنيبه العدوى، ولكي ينمو أبناؤهما في سعادةٍ، على غرار جميع الأولاد الأصحّاء!"

* * *

- – "تلقَّيتُ بطاقةً جميلةً من فتاةٍ ما زالت صغيرةً جدًّا، كتبت فيها أنّها مقبلةً على الاحتفال بمناولتها الأولى، وأنّها قالت لوالديها: لا تشتروا لي فستان المناولة الأُولى، فسأرتدي ثوبًا عاديًّا، وأعطوني ثمن الثوب الجديد كي أُرسله إلى الأمّ تيريزا، من أجل أبنائها".
- – "إنني أعتقد أنّ أعظم كرامةٍ بشريّةٍ، لا بل قمّة الوجود يمثلان في الموت بسلامٍ مع الرب.

"ذات يومٍ التقطت رجلاً من مجرى ساقيةٍ، وكان جسمه مكسوًّا بالأقذار والطفيليّات؛ وجئت به إلى أحد مراكزنا. أتعرفون ما قاله ذلك الإنسان؟ إنَّه لم يبثّ شكواه، ولم يُنْحِ باللاّئمة على أحدٍ، بل اقتصر على القول: "لقد عشت دائمًا في الشوارع كالحيوان، وسأموت كملاكٍ، محاطًا بالحبّ والرعاية". وقد أنفقنا ثلاث ساعاتٍ في تنظيفه، وحينئذٍ، التفت نحو الأُخت وقال: "أُختاه، إنّي ماضٍ إلى بيت الربّ". ولم أشهد، قطُّ، على محيّا إنسانٍ نظيرَ البسمة التي غشت محيّاه.

* * *

- – "لن أنسى أبدًا الفترة التي غشتْ فيها كلكتّا طوافاناتٌ مريعةٌ. وكانت، ثمَّة، مجموعةٌ من الشبُّان الشيوعيّين الأشرار، الذين ألفوا قضاء وقتهم في القتل، والقنص، والحرق، وما شابه ذلك. ولكن عندما اندرأت الطوافانات، وارتفع منسوب المياه إلى العُنق، جاءَنا نحو ثلاثين من أولئك الشبَّان قائلين: "نحن بتصرُّفكنَّ، فما يسعنا أن نفعل من أجلكنَّ؟" وقد عملوا معنا طيلة الليل، وهم يحملون القوم على كواهلهم. وقد استعصى على الحكومة فهم كيف تحوَّل أُولئك الشبَّان الذين اعتادوا أن يعيثوا فسادًا، إلى ما يشبه الحملان، وباتوا ينهضونَ بأوضع المهامّ.

"هؤلاء الشبَّان جياعٌ إِلى المسيح، ويعتمدون علينا كي نطرح عليهم تحدِّيًا، ويكفي أَن نمدّ لهم يدًا".

* * *

- – "عندما زرتُ تانزانيا، جاءَني جميعُ زعماء العشائر، شاكرين لي وجود الأَخوات فيما بينهم، وأقرّوا بأَنَّهم لم يروا، قطُّ، حبَّ الله فاعلاً، قبل أَن يشهدوا ما عملته الأَخوات من أَجل اللاجئين، الذين توافد منهم اثنا عشر ألفًا، دفعةً واحدةً؛ وكانت الأَخوات الشابّات يسعين في كلِّ اتجاهٍ، يدفُنَّ الأَموات، ويحملنَ المرضى، الخ... وكان ذلك فتحًا للمنطقة بأَسرها، ولعموم الشعب التانزانيّ، الذي لم يشهد، قطّ، عملاً مماثلاً، حيًّا وحقيقيًّا، ومفعمًا فرحًا. وقد أَخبرتني الأَخوات أَنَّ التجّار، أَثناء تلك الفترة، كانوا يقولون لهنَّ: "تعالَيْنَ، يا أَخواتنا، وخذْنَ ما تحتجنَ إِليه"؛ وكنَّ يشخصْنَ إِلى الحوانيت، فيأخذنَ ما يحتاج إِليه اللاّجِئُونَ، بلا مقابلٍ. كم كان الأَمر جميلاً! إِنّه الدليل على أَنَّ حبَّ الأَخوات للمسيح قد أَصاب الجميعَ بعدواه!"

* * *

- – "هناك ذكرى لن تبارح ذاكرتي أَبدًا، فقد جاء بيت المحتضرين في كلكتّا، يومًا، رجلٌ لم أَعرف عنه شيئًا، وبضع دقائق قبل وصوله، كان قد جيء برجلٍ التُقِط من فوق تلّة قمامةٍ، وقد نشطت في جسمه الديدان؛ وانبرت إِحدى الأَخوات للعناية به، من غير أَن تلحظ أَنَّ، ثمّة، من يراقب طريقة لمسها له، ونظرتها إِليه، والابتسام له، وبالإِجمال كلّ مسلكها المطبوع بالعطف. وكنتُ هناك، عَرَضاً، فيما كان الزائر يراقب الأُخت عن كثبٍ. ثُمَّ دنا منّي وقال: "لقد وصلت إِلى هنا، وأَنا لا أومن بالله. ولكنّني شاهدتُ حبَّ الله فاعلاً، رأَيتُه من خلال يدَيْ هذه الأُخت، ومن خلال بسمتها، وحَدبها على الفقير المريض. أَجل، أُمَّاه، إِنني أُومن الآن"

* * *

- – "في اليمن تعهَّدنا بالعناية بالبُرْص. وعندما تبيَّنتُ روائح إِنتانهم، وافتقارهم إِلى العناية بأَجسادهم، اشتكيت إِلى الربّ: "يا إِلهي يسوع، كيف يمكن أَن

تهمل ذاتك إِلى هذا الحدّ، وأَن تدع تلك الروائح تفوح منك؟". ثمّ التمستُ من رجلٍ ثريٍّ أَن يبني للبُرْص مسجدًا، وقد استهجن ذلك الطلَب صادرًا عن راهبةٍ كاثوليكيّةٍ. ومع ذلك بنى الجامع، وعندما فرغ منه أعرب عن رغبته في بناء كنيسةٍ".

* * *

• - "وافى رجلٌ مركز "نيرمال هرايدي" ومضى مباشرةً إِلى القسم المخصَّص للنساء، وتوقّف بجانب أُختٍ كانت تعنى بامرأةٍ تغمرها القذارة والديدان، وحدَّق في يديها، ومحيّاها، وعينَيْها، فأَدرك في الحال أَنّ حبّ الله هو الذي كان يهبها القوَّة للقيام بمهمّتها. حينئذٍ عاد إِليّ قائلاً: "كنتُ قد جئتُ مفعمًا حقدًا، ولكنّني أَعود، وقد استقرّ الله في صميم قلبي. لقد اكتشفت الله على وجه هذه الأُخت التي تعنى بامرأةٍ فقيرةٍ مريضةٍ، وكأنّها المسيح نفسه".

* * *

• - "ذات يومٍ صادفتُ، في أَحد شوارع مدينةٍ أُوروپيّةٍ كبرى، رجلاً تعتعه السكر إِلى حدٍّ مريعٍ. كان يبدو بليغ الحزن، سحيق الانحطاط، فدنوتُ منه، وأَخذت يده في يدي، وشددتُ عليها قائلةً: "كيف حالك؟" فأجاب: "آه، أَخيرًا، بعد سنين طويلةٍ، أَشعر، للمرّة الأُولى، بحرارة يدٍ بشريّةٍ". وانفرجت أَساريره، وأَشرق محيّاه، وافترَّت شفتاه عن بسمةٍ. أَولَيس، في ذلك، دليلٌ جديدٌ على أَنّ فعلةً صغيرةً تتمّ في حبٍّ، كفيلةٌ بزرع الفرح والسلام؟

"ومرَّة أُخرى، فيما كنت أَذرع الشارع، حثّ رجلٌ، من خلفي، الخُطى حتّى لحق بي، وسألني:

- "أَلستِ الأمَّ تيريزا؟

- "بلى

- "هل تسمحين بإِرسال إِحدى أَخواتك إِلى منزلي؟ فأَنا نصف أعمى، وزوجتي على شفا الجنون، ولا نرغب في شيءٍ سوى سماع صوتٍ بشريٍّ. فهذا هو الشيءُ الوحيد الذي نفتقر إِليه".

"وقد أَكّدت لي هذا الواقعَ الأَخواتُ اللواتي أَنفذتُهنَّ بتلك المهمّة، فقد كان

الزوجان يمتلكان كلَّ ما يحتاجان إِليه، ولكنّهما كانا غارقين في وحدةٍ مريعةٍ، مفتقريْن إِلى أَيّة علاقة صداقةٍ أَو مودّةٍ أَو أَيّ ارتباطٍ أسرويٍّ. ربّما كان لهما أَبناء بعيدون عنهما، ولكنّهما كانا كائنين محرومين مـــن المحبّـــة، ويظنّـــان نفسيهما قد أَصبحا عديمي الجدوى، وكانا يذوبان في وحدتهما.

"في بعض البلدان، مثل إِنكلترا، لدينا جماعاتٌ صغيرةٌ مهمَّتها الاستماع إِلى الآخرين، أَفرادها يزورون أَقوامًا لا يشكون من أَيّة علَّةٍ ظاهرةٍ، ويقتصرون على الجلوس إِلى جانبهم وتركهم يتكلّمون ويُفرغون كلَّ ما في جعبتهم من حاجةٍ إِلـــى الكلام. إِنّ المتقدّمين في السنّ – وعلّتهم تتفاقم كلّما أَوغلوا في العمـــر تقـــدّمًا – يسعدون بالعثور على من يصغي إِليهم حتّى ولو لم يملكوا ما يتحدَّثون به ســـوى أَحداثٍ جرت لهم قبل ثلاثين حولاً. إِنَّ الإِنصات لمن لا أَحد ينصت لـــه، لعمـــلٌ جديرٌ بالثواب، وكثيرون هم الذين يعانون هذا الداء منذ شرعت الأسر تتفتَّت".

الآفة الكبرى

- – المرض الأَدهى، في حقبتنا هذه، ليس البَرَص، ولا السلّ، بل أَلَم الذين يشعرون أَنَّهم غير محبوبين، ولا حمايةَ لهم، وأَنَّ الجميع ينبذونهم. أَدهى الآفات هي افتقادُ الحبّ والعطف، واللاّمبالاة الرهيبة التي يواجه بها كلّ فردٍ أَقاربه الأَدنَيْن، الـــذين يعيشون على مقربةٍ منه، ضحايا للاستغلال، والفساد، والفقر، والمرض. إِنَّه لمن السهل الإِشفاق على شقاء من هم بعيدون عنّا، ثمّ نسيانه في الحال. أَجل، أَكثر من جميع أَمراض الجسَد، أكبر آفةٍ، في أَيّامنا، هي الوحدة، والنبذ، والشعور بنـــسيان ماهيّة الفرح البشريّ، والإِحساس الطبيعيّ بالحبّ والرعاية. أَظنّ أَنَّ مثـــل هـــذه الحالات قد توجد حتّى بين الذين يعيشون داخل أسرةٍ، بـــل حتّـــى بـــين مـــن لا يفتقرون إِلى شيءٍ، بل قد يكونون على يُسرٍ وبحبوحةٍ. ثمَّة حاجـــةٌ هائلـــةٌ إِلـــى العطف، وافتقارٌ قاسٍ إِلى الحبّ، ذلك هو الفقر الحقّ...

* * *

- – "ذات يومٍ، زرت مأوى للعجزة، هو من أَفضل المآوي مـــن نوعـــه فـــي إِنكلترا، كانت أَخواتنا يهتممْنَ به. وكان، ثمَّة، عددٌ ضئيلٌ من المسنّين. لـــم

أرَ، قطُّ، ما يحاكي ذلك المأوى في حسن استقباله، ومع ذلك لم أُفلح في بعث ظلِّ بسمةٍ على محيًّا واحدٍ من النزلاء، الذين ظلّوا جامدين، محدّقين بالباب، فسألْتُ الأُخت المسؤولة: "لمَ هم على كلّ ذلك القدر من الخمول، وما سرّ اختفاء البسمة بينهم؟" فأنا قد ألِفتُ رؤية وجوهٍ مبتسمةٍ، وإنّني، في الواقع، أظنّ – لا بل إنّني متيقّنةٌ – أنّ البسمة تجتذب البسمة، كما أنّ الحبّ يستفزّ الحبّ". وأجابتني الأُخت: "هكذا هو حالهم، كلّ يومٍ. إنّهم في انتظارٍ دائمٍ لإنسانٍ يزورهم. إنّ الوحدة تلتهمهم من الداخل، فيُنفِقون وقتَهم يترقّبون، يومًا إثر يومٍ، زيارةً، ويفقدون الاهتمام بكلّ ما يحيق بهم.

- – "في حالاتٍ كثيرةٍ تضطرّ أَخواتنا إلى العمل، ليلاً، في ذرع الشوارع بحثًا عن المشرَّدين والمهملين، ومع ذلك لا تبارح شفاهَهنّ بسمةٌ مفعمةٌ فرحًا وعذوبةً، وكأنَّ كلَّ شيءٍ على خير نَسَقٍ. وغالبًا ما أقول لهنّ: "علينا أن نكون ملائكة عطفٍ وعزاءٍ. علينا أن نُظهر لأَولاد الضواحي صورةَ مسيحٍ صديقٍ للصِّغار، وأن نحبّ الفقراء بمثل حبّ المسيح، ونقدِّم لهم العون من قبلِه، وأن نكون كرماء معهم، بمثل كرم المسيح، وأن نخدمهم بمثل غيرته، ونخلِّصهم على نحو ما خلَّصهم".

* * *

- – "روت لي الأَخوات أنَّهنَّ قصدنَ منزلاً قيل لهنَّ إنَّ شخصًا قد توفّي فيه، منذ أمدٍ غير محدّدٍ، وفتحنَ الباب عنوةً، فوجدنَ جثّةً متفسّخة التهمتها الفئران. وقد حاولنَ عبثًا معرفة هويّة صاحبتها أو اسمها، وإن هي كانت تعمل، وبما كانت تعتاش، وإن كانت متزوِّجةً ولها أولادٌ... ولكن لم يستطع أحدٌ أن يوفّر لهنَّ أيّة معلومات من هذا القبيل. أليس ذلك نمطًا من البؤس المريع: الوحدة، والشعور بفقدان الحبّ، وبلامبالاة الآخرين، وبعدم وجود أيّ إنسانٍ قريب؟ هذا ما يتعيّن علينا أن نتيقّظ له كي نتحاشى عن تسلُّل العزلة إلى داخل أُسَرنا. إنّ "بيت المحتضرين" الذي نديره هو بيت المسيح الذي لا بيت له. وفقراؤنا الجائعون هم المسيح نفسه الذي يموت جوعًا".

* * *

- - "اشتركتْ معنا بالقدّاس، هذا الصباح، امرأةٌ من مستوًى اجتماعيٍّ رفيـــعٍ، ولم تكفّ، طيلة الوقت، عن النحيب، ولكأنّها تعاني نزاع الجسمانيّة. وكـــان سبب حزنها أَنَّ أبناءَها وزوجها قد تخلّوا عنها. أبناؤها كانوا قد فقدوا الإِيمان واستسلموا للدَّعارة. إنَّنا لن نُدرك، قطّ، أَلَم هذه المرأة المريع، ولا آلام آلاف الأسر التي تعاني، يومًا إثر يومٍ، مثل هذا النزاع. ولذلك نحن في حاجةٍ إلى كهنةٍ قدّيسين يوفّرون لنا - مثلما فعل ملاك الربّ للقدّيس يوسف - تفسيرًا، ويقدِّمون لنا العون، ويؤكّدون لنا أَنّ الربّ لا يزال يحبُّنا، رغم كلّ شيءٍ".

ملحق ٢

مقتطفاتٌ من أقوال الأم تيريزا

توطئة

لم تكتب الأُمُّ تيريزا إِلاّ القليل، فتراكُمُ شواغلها لم يكن يَدَعُ لها فُسحةً من وقتٍ للكتابة؛ والرسائلُ القليلة التي دبَّجتها، في سياق رسالتها، والتي طوتها على توجيهاتٍ لأَخواتها، أَو لجماعات المتعاونين مع عملها في العالَم، كانت تقتطع، لكتابتها، لحظاتٍ تسترقها من سُوَيعات نومها، في أَواخر الليل، عقب يومٍ مرهِقٍ من العناء؛ ثمَّ، بعد أَن تواترت أَسفارها، باتت تخصّص لكتابتها الساعات التي تنفقها في الجوّ، متحرِّرةً من المراجعات وضغوط العمل. ولم يكن ما تكتبه، إِذَّاك، في الغالب، سوى جزءٍ من عملها اليوميّ، متمِّمٍ له.

بيد أَنَّ الأُمَّ تيريزا قد تحدّثت كثيرًا، ولا سيَّمَا بعد أَن ذاعت شهرتها، واتّضح للمسؤولين الكنسيِّين مدى تأثيرها في الناس، فباتت تُستدعى للتَّحدُّث على شتّى المنابر، وفي مختلف المناسبات، ومع أَنَّ تلك الأَحاديث غدت جزءًا هامًّا من رسالتها، إِلاَّ أَنّها لم تكن تمتلك الوقت لإعدادها أَو لتدوينها؛ بل كانت تكتفي بالاختلاء بضع دقائق في المُصلّى، أَو حتّى في السيَّارة التي تقودها إِلى غايتها، وقبل الشروع بالحديث، ترسم بإِبهامها على شفتَيْها إِشارة صليبٍ، ثمَّ تستسلم لوحي الروح الذي يتحدَّث فيها، ولوَحْي خبرتها العريقة مع الله، ومع إِخوته المتألِّمين. أَوَلم تؤَكِّد غالبًا: **"ليس المهمّ ما نقول، بل ما يقوله الله لنا، ومن خلالنا"؟**

ومن خلالها كان الروحُ ينطق بأَقوالٍ بسيطةٍ، بليغةٍ، مؤَثِّرةٍ، توقظ الضمائر، وتحرِّك الأَحشاء، وكثيرًا ما تزعج، فتقتحم حصونَ اللاّمبالاة، وتُسرِّب التساؤل إِلى

قلاع القناعات المنكمشة على ذاتها؛ وفي جميع الأَحوال، تُلقي أَشعّة نورٍ منعشٍ، تعكس صورة حياتها المستغرقة في الله، وتُضفي على كلّ شيءٍ ضوءًا قشيبًا.

كانت الأُمُّ تيريزا تتحدَّث مثلما تعيش، ببساطةٍ وصدقٍ، ومن ثمَّ هي تستخدم لغةً شعبيَّةً يفهمها الجميع، لغةً تُخاطب المثقَّفين، والقومَ البسطاء، بنفس التلقائيَّة والبداهة، لغةً خاليةً من أَساليب البيان والبلاغة.

وقد تزدحم، في الجملة الواحدة، مشاريع أَفكارٍ عديدةٍ، متداخلةٍ، متكاملةٍ، وقد تتعاقب الجمل في تبسيطِ وتأكيدِ فكرةٍ واحدةٍ تودّ ترسيخها، وكأَنّها لقمةٌ مضغتها، بتؤَدةٍ وعنايةٍ، كي تُشبع بها جوع محيطها الروحيّ؛ ومن ثمَّ لا تنجو، أَحيانًا، من التكرار، ولكنَّه تكرارٌ لا نافلَ فيه ولا ملَل، بل هو كدَفق النبع، متشابهٌ أَبدًا، جديدٌ أَبدًا.

أَقوال الأُمّ تيريزا تُبَلْوِر شخصيَّتها، وتُشرعُ نافذةً على روحانيَّتها، وعلى غنى تجربتها في معايشة الله، والتمعُّن في الإِنجيل، وعيشه، واقعًا، في تربة البؤس البشريّ، والحبّ الإِلهيّ.

كُتُبٌ كثيرةٌ جمعت مقتطفاتٍ من أَقوال الأُمّ تيريزا، وقد أَسهبنا في إِيراد الكثير منها في سياق نصّ الكتاب، ويسرُّنا أَن نورد المزيد، في هذا الملحق، علَّه يساعد على التوغُّل في اكتشاف هذه الشخصيَّة الفذَّة، والاغتناء بتجربتها الفريدة.

"أَحبّوا بعضُكم بعضًا"

– لكي نبرهن للربّ وللقريب عن حبّنا، لسنا في حاجةٍ إِلى القيام بأُمورٍ عظيمةٍ بل إِنَّ ما نودعه من حبٍّ في ما نفعل هو الذي يجعل، من تقدمتنا، شيئًا جميلاً في عيني الربّ.

– لا تبحثوا عن الأَعمال التي تستلفت الأَنظار؛ فالمهمّ هو بذل الذات، ومستوى الحبّ الذي تودعونه كلاًّ من أَعمالكم.

– يتقبَّل الله الأَشياءَ الصغيرة عندما يراها مصنوعةً بحبٍّ كبيرٍ.

– لا تخشوا أَن تحبّوا حتّى يوجعكم الحبّ؛ فلكي يكون الحبُّ صادقًا ينبغي أَن يوجع.

– إِنَّها، حقًّا، لرائعةٌ رقّة حبّ الله لنا. فإِن تأمَّلناها، لساعدنا ذلك على أن نحفظ قلوبنا طاهرةً، وعلى أَلاّ ندع حبَّنا للآخرين يتراخى.

– الحبُّ يقوم على التضحية، وعلينا أَن نظلَّ نغدقه حتّى ينالنا من بذله الوَجَع.

– شعوري، وأَنا بين عليّة القوم، لا يختلف عن شعوري، وأَنا وَسْط فقراء كلكتّا، الذين علينا أن نعبّر لهم عن حبّنا، وأَن نقودهم إِلى الله، لأَنّ الله حبّ.

– اجهدوا في العثور على من يحتاجون إِليكم، واعقدوا معهم علاقاتٍ شخصيّةً، وأَدّوا لهم الأَفعال الصغيرة التي لا يجد أَحدٌ لأَدائها متّسعًا من وقت.

– بوسعنا رؤية الفرح يعود إِلى حياة الأَشدّ بُؤْسًا عندما يعلمون أَنَّ الكثيرين منّا يفكِّرون بهم ويحبّونهم. وحينئذٍ، حتّى صحَّتهم تشهد تحسُّنًا.

– هؤلاء هم القوم الذين يتعيّن علينا أَن نعرفهم؛ إِنّهم يسوع أَمسِ، واليوم، وغدًا. أَنتم وأَنا، علينا أَن نعرف من هم، وهذه المعرفة ستقودنا إِلى محبَّتهم، وحبُّنا لهم سيحملنا على خدمتهم. فلا نقتصرنَّ على العطاء، فالمال ليس كافيًا؛ إِنَّهم بحاجةٍ إِلى أَيدينا كي نخدمهم، وإِلى قلوبنا كي تحبَّهم.

– ما دين يسوع سوى الحبّ وإِشاعة الحبّ.

– علينا أَن نحبّ الأَقربين منّا في أُسرتنا، ومن ثمَّ أَن ننشر الحبّ على من هم في حاجةٍ إِلينا. علينا أَن نسعى إِلى معرفة الفقراء من حولنا، ففقط عندما نعرفهم نفهمهم ونحبّهم، وفقط عندما نحبّهم نستطيع أَن نخدمهم.

– من شأْن كلّ عمل حبٍّ يتحقّق في إِخلاصٍ تامٍّ، أَن يقرّب النفوس من الله.

– كونوا طيّبين ورحماء، ولا يأتينّ إِليكم أَحدٌ إِلاّ ويعود أَفضل حالاً، وأَوفر فرحًا. كونوا التعبير الحيَّ عن طيب الله، وليتأَلّق الطيب على وجوهكم، وفي عيونكم، وفي بسمتكم، وفي استقبالكم المُفْعَم حرارةً.

– إِنّني أُدرك، أكثر فأكثر، أَنّ أَسوأ سَقَمٍ يمكن لإِنسانٍ اختباره هو أَن يكون مرذولاً. لقد اكتشفنا اليوم علاجًا للبرص، وبات لَلبُرْص أَملٌ في الشفاء؛ وثمَّة علاجٌ للسِّلّ، وبوسع المصدورين أن يظفروا بالشفاء أَيضاً؛ ولكلِّ سَقَمٍ علاجٌ، ومنه شفاءٌ، ما خلا سَقَم النبْذ، إِلاَّ حيثُ توجد أَيدٍ متأَهّبةٌ لخدمة المنبوذين، وقلوبٌ تُحبُّهم؛ وفيما عدا ذلك لستُ أَظنُّ أَنَّ لذلك المرض المريع شفاءً.

– لو استطاع كلُّ امرئٍ أَن يرى صورة الله في قريبه، فهل تظنّون أَنّنا سنحتاج بعدُ، إِلى مصفّحاتٍ وقوّاد جيوش؟

– أَحببْ الربّ إِلهك بكلِّ قلبك، وكلِّ نفسك، وكلِّ فكرك. تلك هي وصيَّة إِلهنا العظيم، وهو لا يأمرنا بالمستحيل.

– ما عملُنا سوى التعبير عن حبِّنا لله. علينا أَن نصبّ حبّنا على إِنسانٍ ما، فالبشر هم وسيلة تعبيرنا عن حبّنا لله. بما أَنّنا لا نستطيع رؤية يسوع، فكيف نعبّر له عن حبّنا؟ إِنّنا نرى قريبنا، ومن ثمّ يسعنا أَن نعمل له ما من شأننا أَن نفعله للمسيح.

– الحبُّ الحيُّ يؤلم، فيسوع مات على الصليب كي يثبت حبَّه لنا؛ وعلى الأُمّ أَن تتأَلَّم كي تضع وليدها. وأَنتم لن تستطيعوا أَن تحبّوا بعضكم بعضًا بلا تضحيةٍ.

– الخطيئة الكبرى هي غياب الحبّ والعطف، واللاَّاكتراث الرهيب، حيالَ القريب المرميِّ على حافّة الطريق، مُعَرَّضًا للاستغلال والفساد والفاقة والمرض.

– إِنَّ العمل من غير حبٍّ، إِن هو إِلاّ عبوديَّةٌ.

– الحبّ ثمرة كلّ المواسم، وفي متناول جميع الأَيدي. وبإمكان كلّ فردٍ أَن يحياه ويتعهّده بلا أَيَّة حدودٍ.

– الحبُّ رداءٌ تتسحَّب حاشيتُه في الرغام، فيَكنس ما في الشوارع والأَزقّة من أَقذارٍ.

– "ما تفعلونه للأَصغر من إِخوتي فلي تفعلونه... هذه وصيَّتي: أَحبُّوا بعضكم بعضًا". إِذا أَلغيتم هذه الوصايا لانهار عملُ الكنيسة العظيم بأَكمله.

– إِنَّها، حقًّا، لرائعةٌ رقّة حبّ الله لنا. فإِن تأَمّلناها، لساعدنا ذلك على أن نحفظ قلوبنا طاهرةً، وعلى أَلاّ ندع حبَّنا للآخرين يتراخى.

– إِن كنتم، حقًّا، تُشعّون بالحبّ، فمن الطبيعيّ أَن تحاولوا تحقيقه أَعمالاً حيَّةً.

ولن تتمكّنوا من ذلك إِلاّ إِذا صلَّيتم، فمن شأن الصلاة أن تهبكم قلبًا طاهرًا، وبوسع القلب الطاهر أَن يرى الله. وعندما نرى الله، نشرع نحبّ بعضنا بعضًا، مثلما هو يحبّنا.

– نحن نعلم أَنَّ يسوع المسيح قد جاء إِلى العالم كي يُظهر لنا حبَّه الجمَّ. وكم قد أَحبّنا! ونحن نعرف الصليب، وعندما ننظر إِليه، ونتأَمّل فيه، ندرك أَنَّ حبَّه لنا هو الذي دفعه إِليه. ولذلك علينا أَن نحبّ حتّى الأَلم.

– المهمّ ليس كميّة ما نعطي، بل الحبّ الذي به نعطي، وكذلك طريقة عيشنا مع الآخرين.

– قد نعمل حتى ينالنا الإِنهاك، بل إِلى أَن يقضي علينا العمل، ولكن إِن لم يكن عملنا مشبعًا بالحبّ، فهو باطلٌ.

– إِنّ ما نحتاج إِليه هو أَن نحبّ من غير أَن ننضُب. كيف يبقى المصباح مشتعلاً؟

باستهلاكه الدائم قطرات زيتٍ متناهية الضآلة. وما هي قطرات الزيت في مصابيحنا الخاصّة؟ إنّها جزئيّات حياتنا اليوميّة الصغيرة: الأَمانة، أَو عبارة ملاطفةٍ، أَو اهتمامٌ بالآخرين، أَو أُسلوبنا في الصمت، وَالتطَلُّع، والتحدُّث، والتصرُّف. لا تبحث عن يسوع بعيدًا عنك، فهو ليس هناك في الخارج، بل فيك. دع مصباحك مضاءً، تتعرّف عليه.

– من اليسير محبَّة من هم في أَقصى الدنيا. ولكن ليس من السهل محبّة من هم قريبون منّا. إِنّه من الأَيسر علينا تقديم طبق أرزٍّ لإِسكات الجائع من تعزية البائس والمنبوذ باستقباله في منزلنا.

– عندما يرى كلٌّ منّا الله في الآخر، سيحبّ بعضنا بعضًا كما يحبّنا الله جميعًا. وبذلك ننفّذ وصيّته بأَن نحبّ بعضنا بعضاً. هذا كلّ ما جاء يسوع يعلّمنا: أَنَّ الله يُحبُّنا، وأَنّه يريد أَن يحبَّ بعضُنا بعضًا على غرار حبّه لنا.

عندما نُعنى بمريضٍ أَو بمحتاجٍ، فإِنّنا نلمس جسد المسيح المتألّم؛ وهذا الاتّصال يكفي لينفث فينا البطولة، وينسينا الميل الطبيعيّ إِلى النفور. يلزمنا عيونٌ نيّرةٌ، وإِيمانٌ عميقٌ لكي نتبيّن المسيح في الجسد المحطَّم، وتحت الثياب الرثَّة حيثُ يتوارى أَجمل بني البشر ويلزمنا يدا المسيح لنستطيع لمس الأَجساد التي دمَّرها الأَلم والعذاب. الحبّ الأقصى لا قياسَ له، بل يكتفي بالعطاء فحسب.

بقدر ما يبدو العمل منفّرًا، ينبغي أَن يكون الحبُّ أكبر، ولا سيّمَا عندما يتعيّن غوث الربّ المتخفّي تحت أَسمال الفقراء.

لكي نتمكّن من الحبّ يلزمنا الإِيمان، فالإِيمان هو الحبُّ الفاعل، وما الحبُّ الفاعل سوى الخدمة.

– يجب أَلاّ نخشى حبَّ المسيح، وأَن نحبّ كما هو أَحبّ. ولننهض بعملنا – ولو كان بسيطًا ومتواضعًا – حبًّا بالمسيح، حبًّا فاعلاً.

– الإِكباب على خدمة الآخرين هو ثمرة الحبّ. فالحبّ يحدونا إِلى القول: "أريد أَن أَخدم". وثمرة الخدمة المسداة هي السلام، وعلينا، جميعنا، أَن نجهد في سبيل السلام.

الصلاة

– الصلاة هي رؤية العالَم بعينَي الله.

– الحبُّ يقتضي قلبًا طاهرًا، وسيكون قلبُنا طاهرًا عندما نصلّي. فالصلاة اتِّصالٌ جيّدٌ، وعلاقةٌ طيِّبةٌ بالله. إِنَّنا نسمعُ الله في قلوبنا، ونكلّمه في داخلنا.

ولكن من أَين ينبع ذلك؟ من الأسرة. الأُسرة التي تجتمع لتُصلّي تظلُّ متَّحدة، وطالما كان أَعضاء الأُسرة، متّحدين، فسيحبُّ بعضُهم بعضًا، كما يحبُّهم الله فرديًّا.

كرِّسوا، على الأَقلّ، ساعةً، كلَّ يومٍ، للصَّلاة، فتتطهَّر قلوبكم، وفي الآنِ عينه، ستنالون النور، ووسائل للتَّعامل مع الجميع بحبٍّ واحترامٍ؛ فالحبُّ العميق، والسخاء السمح هما، أَبدًا، ثمرة الصلاة التي تقرِّبنا بعضنا من بعضٍ.

علينا أَن نستعيد عادة تلاوة المسبحة داخل الأسرة، فقد ينجم عن ذلك مزيدٌ من الحبّ والوحدة.

إِن دخلت الصلاة إِلى حياتنا، وإِن صلَّيْنا حقًّا، حينئذٍ سنعرف الفقراء، الذين قد يكونون من أَفراد أسرتنا؛ وإِن نحن عرفنا الفقراء أَحببناهم، وعملنا من أَجلهم، فالخدمة هي ثمرة الحبّ.

الفقراء هم صلاتنا، فالله فيهم وفينا، ونحن نلقاه فيهم. الصلاة هي عمل شيءٍ من أَجل المسيح. الصلاة كامنةٌ في كلّ شيءٍ؛ الصلاة هي العمل.

أُهيب بكم أَن تصلّوا، فبفضل الصلاة ستتشرعون تعرفون، قبلَ كلِّ شيءٍ، مَن يعانون العوَز داخل أُسرتكم، وهذه المعرفة ستمكّنكم من تحويل بيوتكم إِلى موائل حبٍّ، وسلامٍ، وفرَحٍ.

– الصلاة، في نظري، هي المكوث أَربعًا وعشرين ساعةً، يوميًّا، في اتِّحادٍ مع وصيَّة يسوع بالعيش من أَجله، ومعه، وفيه.

– قد لا تستطيعون تلاوة صلواتٍ طويلةٍ، ومع ذلك صلّوا قائلين للرَّبّ: "اللهمَّ أُحبِّك"

– يريدنا الله قريبين منه، والقدّيس يوحنّا يقول إنّ الله يفتح لنا قلبه. أَصبحوا صغارًا تَلجوه. صلاتنا هي دعاءُ طفلٍ مليءٍ ورَعًا رقيقًا، واحترامًا، وتواضعًا، وسكونًا، وبساطةً.

– تكفي التفاتَةٌ فكريَّةٌ نحو الله: "يا ربُّ أُحبُّك، وأَثق بك، وأومن بك، وأَحتاج إِليك". إِنّ عباراتٍ موجزةً مثل هذه، لهي صلواتٌ رائعةٌ.

– عندما ننتهي إِلى فتراتٍ تتعذَّر علينا فيها الصلاة، فلندع، بكلّ بساطةٍ، يسوع يتلو "أَبانا" في صمت قلبنا. فلئن عجزنا عن الكلام، تكلَّم هو، وإِن عجزنا عن الصلاة، صلّى هو؛ فلنعطِه، إِذن، عجزَنا وعَدَمنا.

– لكي تكون الصلاة خصبةً يجب أَن تنبع من القلب، وتكون قادرةً على مسّ قلب الله. جميع أَلفاظنا ستكون نافلةً ما لم تنبع من الداخل. والكلماتُ التي لا تشيع نور المسيح، تزيد الظلمة ادلهمامًا.

– ليست الصلاة الكاملة في كثرة الكلام، بل في حرارة الرغبة التي ترتقي بالقلب إِلى يسوع.

– أَحبّوا الصلاة، ولْتُساوركم، غالبًا، أَثناءَ النهار، الرغبة فيها. وحينئذٍ لا تتقاعسوا عنها، فهي توسِّع آفاق القلب، بحيثُ يتأَهّل لاحتواء الربّ الذي يهب ذاته. اطلبوا، وابحثوا، وسيُصبح قلبكم من السعة، بحيثُ يتقبَّل الربّ، ويحتفظ به احتفاظَه بملكٍ خاصٍّ.

– الأَيدي المتشابكة للصَّلاة، الأَيدي التي تكرُّ حبَّات المسبحة، قادرةٌ على بثّ حرارة الله. عليكم أَن تخوضوا هذه التجربة، فعلامَ لا تحاولون؟

– سأَلني أَحدُهم: "أَيُّ نصحٍ تسدينه للسِّياسيّين؟" وأَنا لا أَهتمّ بالسياسة، غير أَنّ إِجابةً قد بادرتني عفوًا، فقلتُ: "أَظنُّ أَنّهم لا يفطنون للصَّلاة بالقَدْر الكافي. وإِنني واثقةٌ من أَنّهم سينهضون بمهامِّهم على وجهٍ أَمثل إِن هم استعانوا بالصلاة...". وهذا ما نحتاج إِليه، عندما نضطرّ إِلى اتّخاذ قراراتٍ بشأن الآخرين.

– الناس جياعٌ إِلى كلام الله الذي يؤتي السلامَ، والوحدةَ والفرحَ. ولكن لا يسعك أَن تُعطي ما لا تملك. ولذلك يتحتَّم عليك أَن تعمِّق فيك حياة الصلاة. كن صادقًا في صلواتك، والصدق كامنٌ في التواضع؛ ولن تظفر بالتواضع إِلاّ بقبول الإِهانات. كلّ ما يُقال في التواضع غير كافٍ لتعليمك إِيّاه؛ وكلُّ ما تقرأ عن التواضع غير قادرٍ على تلقينك إِيّاه. ولن تتعلّم التواضع إِلاّ بتقبُّلك الإِهانات، والإِهانات ستصادفكَ على مدى حياتك؛ غير أَنّ أعظمها هي معرفة أَنَّك لا شيء، وهذا ما ستتعلَّمه عندما ستجد نفسك في مواجهة الربّ، في الصلاة.

– غالبًا ما تُمثِّل نظرةٌ عميقةٌ وحارَّةٌ إِلى المسيح أَفضل صلاةٍ: أُحدِّق فيه، وَهُوَ يُحدِّق فيّ. وفي مواجهة الله، لا يمكنك أَن ترى سوى أَنّك لا شيء، ولا شيءَ إِطلاقًا.

– بعد أَن تكون أَخواتنا قد قضيْنَ النهار وهنّ يصلّينَ بعملهنَّ الذي ينهضنَ به مع يسوع، ومن أَجل يسوع، وبيسوع، يُنفقنَ، في آخر النهار، ساعة صلاةٍ وعبادةٍ معه. أَثناء النهار نكون قد لمسنا يسوع، تحت أَعراض الفقير والأَبرص الزريَّة، وفي آخر النهار نلمسه شخصيًّا في محراب الصلاة.

– لا يمكن أَن يلتزِم بالرسالة المباشرة من ليس إِنسانَ صلاةٍ. علينا أَن نعي أَنّنا والمسيح واحدٌ، مثلما هو يعي أَنّه والآب واحدٌ. ولن يكون نشاطنا رسوليًّا، حقًّا، إِلاّ بقدر ما نسمح للمسيح أَن يعمل فينا، ومن خلالنا، بقدرته، ورغبته، وحبّه.

– كيف نعرف أَنَّ الله يحبُّنا؟ حسبُنا أَن نحدِّق في المصلوب: ذراعاه أَبدًا منبسطتان لضمّنا، ورأسه دائمًا منحنٍ كي يقبّلنا، وقلبه أبدًا مشرعٌ لاستقبالنا.

لقد جعل المسيح من ذاته خبز الحياة لأَنّه شاءَ أَن يهبنا ذاته بطريقةٍ فريدةٍ، بسيطةٍ، وملموسةٍ، ولأَنَّه من العسير على البشر أَن يحبّوا إِلهًا لا يقوون على رؤيته.

– الإِفخارستيّا هي سرّ الصلاة، ونبع الحياة المسيحيَّة وذروتها. غير أَنّ إفخارستيّانا تظلّ غير مكتملةٍ، إن لم تَقُدْنا إِلى محبَّة الفقير وخدمته.

– لا يمكننا الفصل بين الإِفخارستيّا والفقير، أَو بين الفقير والإِفخارستيّا. فقد أَشبع يسوع جوعي إِليه، وبات عليّ إِشباع جوعه إِلى النفوس، والحبّ.

– الله صديق الصمت، والصمت يتيح لنا رؤيةً جديدةً لكلّ شيءٍ.

– إِنَّ يسوع حاضرٌ، أَبدًا، ينتظرنا، ويسعنا سماع صوته في الصمت.

– الصلاة هي اكتشاف الإِنسان ذاتَه بالإِصغاء إِلى الله يتكلَّم.

– قد تجد مشقَّةً في الصلاة، إِن، أَنتَ، جهلتَ طريقها. وعلى كلٍّ منّا أَن يُساعد نفسه على الصلاة، فيشرع باللجوء إِلى الصمت، فلا يسعنا أَن نضع نفسنا في حضور الله المباشر، ما لم نمارس الصمت، داخليًّا وخارجيًّا.

التزام الصمت الداخليّ ليس بالأَمر السهل، ولكنَّه جهدٌ لا بدَّ منه. غير أَنَّنا، في الصمت وحده، نكتشف قدرةً جديدةً، والوحدة الحقّة، إِذ تصبح قدرة الله قدرتنا، فتمكِّننا من تحقيق كلّ شيءٍ كما ينبغي، ومن تحقيق وحدة أَفكارنا وأَفكاره، وصلواتنا وصلواته، وحياتنا وحياته. الوحدة هي ثمرة الصلاة، والتواضع والحبّ.

في صمت القلب يتكلَّم الله، وإِن أَنت واجهتَ الله في الصمت والصلاة، كلَّمك الله. وستعلم، حينئذٍ، أَنّك لا شيء. وعندما تدرك عدمَك وفراغك، سيكون بمكنة الله أَن يملأك بذاته؛ إِنَّ نفوس المصلّين الكبار هي نفوس صمتٍ سحيقٍ.

الصمت يُرينا كلَّ شيءٍ بوجهٍ قشيبٍ؛ ونحن في حاجةٍ إِلى الصمت للنفاذ إِلى النفوس. فالجوهريّ ليس ما نقول، بل ما يقوله الله، ما يقوله لنا، وما يقوله من خلالنا. وفي مثل هذا الصمت سيسمعنا، وسيُخاطب نفسنا، وسنسمع صوته...

في صمت القلب يتكلّم الله، وما عليك سوى الإِنصات له. وعندما سيمتلئ قلبك بالله، وبالحبّ، وبالرأفة، وبالإِيمان، يتسنّى لفمك أَن يتلفّظ.

تذكّر، قبل أَن تتكلّم، ضرورةَ الإِصغاء، وحينئذٍ فقط، من أَغوار قلبك المزدهر يمكنك أَن تتكلّم، وسيسمعك الله...

يسوع نفسه قضى أَربعين يومًا في عزلةٍ تامّةٍ، وأَنفق ساعاتٍ طوالاً، قلبًا لقلب مع الآب، في صمت الليل.

ونحن مدعوّون للاعتكاف، بين حينٍ وحين، في صمتٍ أَشدّ عمقًا، وفي العزلة مع الله، فنكون بمفردنا معه، في منأًى عن كتُبنا، وأَفكارنا، وذكرياتنا، بل في تجرّدٍ تامٍّ، مقيمين في حضوره، صامتين، فارغين، ساكنين، منتظرين.

ما هو التأَمُّل؟ إِنَّه عيش عيشة يسوع، هكذا أَفهمه؛ إِنَّه محبَّة يسوع، وعيش حياته في صميم حياتنا، وعيش حياتنا في صميم حياته... لكي نرى، ونتأمّل، يلزمنا قلبٌ طاهرٌ، منزَّهٌ من الحسد، والغضب، وروح الخصام، وخاصّةً، من غياب المحبّة. في رأيي ليس التأَمُّل احتباسًا في حجرةٍ مظلمةٍ، بل إِتاحتُنا ليسوع أَن يعيش آلامه، وحبّه، وتواضعه فينا، وأَن يُصلّي معنا، ويقيم فينا، ويقدّس العالَم من خلالنا.

– لا نملك سوى صلاةٍ واحدةٍ، واضحةٍ، أَساسيّةٍ: إِنَّها يسوع نفسه. والصوت الوحيد الذي يرتفع من الأَرض إِلى السماء، هو صوتُ يسوعُ المسيح. الصلاة، إِذن، تعني، قبل كلّ شيءٍ، الاتِّحاد بالمسيح. كثيرون هم الذين يفقدون طعم الحياة والعمل، ويغمر نفوسَهم الغيظُ والفراغُ، لمجرَّد أنّهم تنكّبوا عن الصلاة. إِنّني أؤكّد، مرَّةً أُخرى، أَمرًا خطيرًا: الصمت بما يشيعه من سلامٍ، يهيّؤنا لسماع صوت المسيح. الصمت، شأنه شأن إِغماض العينين، يتيح لنا رؤية الله. عينانا نافذتان يعبر منهما المسيح أو العالم، وعلينا غالبًا أَن نملك الجرأة والقدرة، بالروح، على إِطباقهما.

– الصلاة الفكريَّة هي التي تنبع من الفكر والقلب معًا. ينبغي أَلاّ يغرب عن بالنا أَبدًا أَنَّنا مَدْعُوُّون إِلى الكمال، وأَنَّ علينا السعي إِليه بلا هوادةٍ. وممارسة الصلاة الفكريَّة اليوميّة شرطٌ لا محيد عنه لبلوغ هذه الغاية، وفي معزلٍ عنها، تغدو القداسة مستحيلةً لأَنَّها الهواء الذي تتنسّمه النفس.

إِنّ ملكة الصلاة لا يمكن اكتسابها إِلاّ بالدعاء الفكريّ، والتأمُّل الروحيّ. والصلاة الفكريّة تنمو بمقدار ما تنمو البساطة أَي إِغفال الذَّات، وتجاوز الجسد والحواسّ، وتجدُّد التطلُّعات التي تغذّي الصلاة. وهي تتمثَّل، حسب قول القدّيس جان ڤيانّيه في "إِطباق العينين، وإِغلاق الفم، وفتح القلب". إِنَّنا، من خلال الصلاة الصوتيَّة نتحدَّث إِلى الله، ومن خلال الصلاة الفكريّة، الربّ هو الذي يُحدِّثنا، وينساب فينا، عبر هذا الحديث.

يجب أَن تُصاغ صلواتُنا من كلماتٍ حارقةٍ تتفجّر من أَتّون قلوبنا المفعمة حبًّا. في

صلواتك توجّه إلى الله بكثيرٍ من الإجلال والثقة. لا تتخامل ولا تستعجل، لا تهتف، ولا تتذرّع بالصمت، ولكن في خشوعٍ، وعذوبةٍ فائقةٍ، وبكلّ بساطةٍ، ومن غير أيّ تصنّعٍ، قدِّم لله تسبيحك من كلّ قلبك وكلّ نفسك.

الله حيــاتنا

– لا يسعُنا أن نمكث دائمًا في حضور الله، إن لم نُلزم ذواتنا بالصمت الداخليّ والخارجيّ، ومن ثمَّ، علينا أن نألَف صمت الفكر والعينَيْن واللسان.

– صمت اللسان يساعدنا على التحدُّث، بإسهابٍ، إلى المسيح، وصمت العينَيْن يساعدنا على رؤية الله.

– يسوع ينتظرنا دائمًا في الصمت، ففي هذا الصمت سيصغي إلينا، وسيتحدَّث إلى نفوسنا، وفي هذا الصمت سنسمع صوته.

إنّه لعسيرٌ بلوغ الصمت الداخليّ، ومع ذلك علينا أن نجهد كي نصلّي. في هذا الصمت، سنجد طاقةً جديدةً، واتّحادًا حقيقيًّا، وستكون طاقة الله طاقتنا، لكي نحقّق كلّ شيءٍ على خير نَسَقٍ.

– هذه الكلمات تبعث فيّ شعورًا مزدوجًا بالامتلاء والفراغ معًا: "يا إلهي، ما قيمة قلبٍ حتّى تترقّبه، وتتودَّد إليه على هذا النحو، بمنحه كلَّ قلبك كما لو لم يكن لديك ما تفعله سوى ذلك؟"

– يُؤْثر الربّ أُولئك الذين يستطيع أن يُسبغ عليهم أكبر عطاءٍ، الذين ينتظرون منه الأَكثر، الذين يحتاجون إليه أكبر احتياجٍ، والذين يعتمدون عليه في كلّ شيءٍ.

– يقول القدّيس أوغوسطينوس: "الأَشياء الصغيرة تظلُّ صغيرةً، ولكن ما أَعظم أَن يظلّ المرء وفيًّا في الأمور الصغيرة". أَليس ربُّنا هو ذاته تمامًا في قربانةٍ صغيرةٍ أَو في قربانةٍ كبيرةٍ؟

– لا تبحثوا عن يسوع بعيدًا عنكم. إنّه ليس هناك، بل في داخلكم، احتفظوا بمصباحكم مضاءً دائمًا، تجدوه، لا محالة.

إنّ الله في داخلي

– فلنسأل سيّدتنا العذراء أَن تهبنا قلبها المفعم سناءً وطهرًا ونقاءً، وحبًّا وتواضعًا، كي

نستطيع استقبال يسوع في خبز الحياة، ونستطيع حبّه مثلما هي أَحبَّته، وأَيضًا لكي نكون أهلاً لأن نتعرّف يسوع تحت قناع أكثر الفقراء فقرًا، مثلما استطاعت أُمُّه أَن تراه فيهم.

– يحسن بنا أَن نتوجّه إِلى الربّ، وأَن نطرح على أَنفسنا هذا السؤال: هل أُحبّه حقًّا، بقبولي الإِسهام في آلامه؟

اليوم، أَيضاً، يبحث يسوع عمَّن يعزّيه. اذكروا ما حدث في الجسمانيّة: كان يبحث عمّن يقف إِلى جانبه أَثناءَ نزاعه. في حياتنا شيءٌ مماثلٌ. هل سنوفِّر له إمكان مشاركته حزنه؟ هل أَنتم مستعدّون لتعزيته؟

إِنّه يأتي إِليكم من خلال الجائع، والعريان، والوحيد، والسكِّير، والبغيّ. يأتي إِليكم في ملامح مُتسوّلٍ مُتَشَرِّدٍ، وقد يأتي إِليك من خلال أَبيك، أَو أُمّك، أَو أُختك أَو أَخيك. فهل أَنت مستعدّ أَن تقتسم معهم فرح الحبّ؟

ولذلك نحن نحتاج إِلى الإِفخارستيّا، وإِلى حياة صلاةٍ كثيفةٍ، فلنسأل العذراء أَن تعلِّمنا الصلاة.

– لا جدوى من الأَسلاك الدقيقة في المصباح، إِن لم يمرّ بها التيّار. أَنتم وأَنا الأَسلاك، والربّ هو التيَّار. وبقدرتنا تمكين التيّار من العبور فينا ومن استخدامنا لإِشعاع النور في العالم.

– سحابة النهار نظلُّ على صلةٍ بالله المستتر في أَجساد فقرائنا الجريحة.

– فليحفظكم الربّ في قلبه، فهو المكان الوحيد الذي يسعنا أَن نقيم فيه معًا.

– حياتي مكرّسةٌ للمسيح، به أَتنفّس، وبه أَرى.

– الإِيمان هبة الله، ولا حياة في معزلٍ عنه. على عملنا، كي يؤتي ثماره، أَن يخصّ الله وحده. ولكي يكون جميلاً يجب أَن تقوم دعائمه على الإِيمان. إِنّ انعدام الإِيمان ناجمٌ عن الإِمعان في الأَنانيّة ونُشدان الربح الشخصيّ. ولكي يكون الإِيمان حقيقيًّا، ينبغي أَن يكون سخيًّا، فالحبّ والإِيمان صنوان متكاملان.

– في رسالةٍ إِلى أَخيها لازار كتبت الأُمّ تيريزا بتاريخ ٥ كانون الأَوّل ١٩٧٥:

"يسوع هو الحبّ اللامتناهي. وهو وحده كفيلٌ بملء حياتك، ووحدَه يستطيع أَن يحبّك. هو، وحده، سعادة قلبنا وسلامه. إِنَّ يسوع العطوف يقبع في بيت القربان من أجلك ومن أَجلي، لكي نستطيع، أَنت وأَنا، أَن نرحّب به كلَّ يومٍ في قلبنا. أُخيّ، امضِ إِلى يسوع، وهو سيملأ نفسك فرحًا، وحبًّا، وسلامًا جمًّا، لا يستطيع العالم أَجمع أَن يعطيك مثله، أَو أَن يسلبك إِيَّاه...".

– عندما يتزوّج رجلٌ وامرأةٌ عليهما أَن يهجرا كلَّ شيءٍ كي يتفرَّغ كلٌّ منهما لحبّ الآخر. وكذلك هو أَمر الراهبات، فلكي نستطيع أَن نخصَّ الله بالكامل، علينا التخلّي عن كلِّ شيءٍ، وحينئذٍ فقط، سنقوى على أَن نحبّ حقًّا. ما أكثر ما يُساء فهم "الحبّ"، وما أكثر ما يُتاجَر به!

– قدِّمْنَ لله كلَّ كلمةٍ تتلفَّظنَ بها، وكلّ حركةٍ تنهضنَ بها. علينا أَن نتوغّل في عشق الله، بحيث لا يمكن إن يقال إنّ ثمّة امرأةً واحدةً في العالم تحبّ زوجها أكثر ممّا نحبّ نحن المسيح.

– حيثُ يوجد الله، ثمّة حبٌّ، وحيث يوجد الحبّ، يوجد دائمًا تعاونٌ.

– ما أَوسع البَوْن بيننا وبين المسيح! وما أَضأَل ما لدينا من حبٍّ، وعطفٍ، ورأفةٍ، وطيبةٍ! وكم نحن غير جديرين بأَن نكون قريبين منه، وبأَن ندخل قلبه! ومع ذلك قلبه مُشرَعٌ على مصراعَيْه لضمّنا. رأسه مازال مكلَّلاً بالشوك، ويداه ما برحتا، اليوم، مسمَّرتين على الصليب. فلنتساءَل: "هل هذه المسامير هي مساميري؟ هل هذه البصقة على وجهه هي بصقتي؟ في أيّ موضعٍ من جسمه ومن فكرهِ تألَّم بسببي؟" فلنطرح على ذواتنا هذه التساؤلات من غير قلقٍ ولا جزعٍ، ولكن بقلبٍ وديعٍ ومتواضعٍ. ولنكتشف أَيّ جزءٍ من جسده قد جُرح بسبب أَخطائنا. ولا نسيرنّ وحيدين بل فلنضع يدنا في يده، فهو حاضرٌ للصَّفح سبعين مرَّةً سبع مرَّاتٍ. إنَّ أَبانا يحبُّنا. لقد دعانا وأَطلق علينا اسمًا؛ ونحن نخصّه بكلّ ما يعتورنا من شقاءٍ، وخطيئةٍ، وخصالٍ".

– الله هو الطهر عينه، ولا يمكن لأَيّ غير طاهرٍ أَن يتجلّى أَمام وجهه، ومع ذلك، لستُ أَظنُّ أَنَّ بوسع الله أَن يبغض، لأَنَّ الله حبٌّ، ولأَنَّه يحبُّنا رغم وهننا وخطايانا. الله أَبٌ محبٌّ، إنّه أَبونا، وما علينا سوى أَن نلتفت إِليه. كلُّ كَدَرٍ يلوِّن الطهر ستارٌ يحجب رؤية الله. وليس الكدَر هو الخطيئة بحقّ الطهارة فحسب، بل كلّ ما يحول بنا دون الله، ويثنينا عنه، كلُّ ما يُنقص محاكاتنا للمسيح، كلُّ ما هو بغضٌ وغياب محبّةٍ؛ إن ملأَتنا الخطيئة، تعذَّر على الله ملؤُنا، فالله نفسه لا يقوى على ملء ما هو ممتلئٌ. ولذلك نحن في حاجةٍ إلى الغفران، وإِلى إِفراغ ذواتنا، لكي يملأَنا الله.

– كلُّ إِنسانٍ هو، لي، المسيح، وبما أَنّه لا يوجد سوى يسوع واحدٍ، فهذا الشخص عينه، في هذه اللحظة بالذَّات، هو الشخص الوحيد في العالم.

– امضينَ قدمًا في إِعطاء القريبين منكنَّ يسوع، لا بالكلام، بل بالقدوة، وبالحبّ

الذي يجمعنا به، بإشعاعنا قداسته، ونشر شذا حبّه حيثما ذهبتنّ. فلتكن كلّ قوّتكنَّ في فرح يسوع. كُنّ سعيدات وفي سلامٍ. إنّكنّ خاصتّه، فقلنَ له: "إنّني لك، ولو أنت قطّعتني إربًا إربًا، لكان كلّ جزءٍ منّي بأكمله لك". فليكنْ يسوع فيكنَّ الضحيَّة والكاهن.

يجب أن نفرغ ذواتنا، إذا شئنا، أن يملأنا الله.

– سيُحقِّق يسوع فيك أُمورًا عظيمةً إن أنت أتحت له أن يعمل ولم تمنعه.

"القداسة"

– ليست القداسةُ ترَفًا موقوفًا على نُخبةٍ، بل جميعنا مدعوُّون إليها، أنت، وأنا، وجميع الآخرين. وإنّها لغايةٌ سهلة المنال، فمتى تعلّمنا الحبَّ، تعلّمنا القداسة. وإن نحن شئنا أن نتأهّل للحبّ، توجَّب علينا أن نصلّي؛ وشيئًا فشيئًا تخلق فينا الصلاة قلبًا طاهرًا قادرًا على رؤية الله؛ وعندما نكتشف الله، لا يلبث حبُّه أن يعتمل في أعماقنا، وتغزونا رغبة الحبّ، لا بالأقوال، بل بالأفعال.

الخُطْوة الأولى نحو القداسة هي إرادة بلوغها. إنّ يسوع يُريد أن نكون قدّيسين كما أنّ أباه قدّيسٌ. إنّ القداسة تتمثّل في إتمام مشيئة الله بفرَحٍ.

قوْلي: "أُريد أن أكون قدّيسًا" يعني: "سأتعرّى من كلّ ما ليس الله. سأُفرغ قلبي من كلِّ الأشياء المادّيَّة، سأتخلّى عن إرادتي الخاصَّة، وأذواقي، ونزواتي، وذبذباتي، أُريد أن أصبح عبدًا مندفعًا للمشيئة الإلهيّة.

بإرادةٍ لا تنثني سأُحبُّ الله، وسأختاره، وسأندفع إليه، وأنضمّ إليه، وسأجعله خاصَّتي. وهكذا يتعلَّق كلُّ شيءٍ بهذه الكلمات: "أُريد" أو "لا أُريد". عليَّ أن أنفثَ كلَّ طاقتي في قول "أريد".

وبلوغ القداسة يقتضي التواضع والصلاة. وقد لقَّننا يسوع كيف ينبغي أن نُصلّي، كما دعانا إلى تعلُّم أن نكون وَدُعَاء ومتواضعي القلب، باحتذاء مثاله، ولن يتحقَّق شيءٌ من ذلك ما لم نكتنهْ معنى الصمت؛ فالتواضع والصلاة ينموان في أُذُنٍ، وذهنٍ، ولسانٍ تذوَّقت طعم الصمت أمام الله، الذي يتحدَّث إلى القلب، من خلاله.

– لقد جعل يسوع من ذاته خبز حياةٍ كي يجعل منّا قدّيسين. وكيف لنا أن نصبح قدّيسين؟ بأن نحبَّ بعضُنا بعضًا، وخصوصًا بأن نحبَّ الفقراء، لأنّ يسوع جاءَ إلى العالَم كي يعلن للفقراء هذه البشرى: إنَّ الله حبّ، الله يحبُّنا.

– علينا بلوغ القداسة، لا رغبةً في الشعور بأَنَّنا قدّيسون، بل لأَنّه ينبغي أَن يحيا المسيح ملءَ حياته فينا. ومن ثمَّ علينا أَن نكون ملءَ الحبّ، وملءَ الإِيمان، وملءَ الطهر، حبًّا بالفُقراء الذين نخدمهم، ويومَ نكون قد تعلَّمنا رؤية الله، وتبيَّنّا إِرادته، ستُصبح علاقاتُنا بالفقراء وسائلَ لقداسةٍ عُظمى لنا وللآخرين.

– ينبغي أَن نحاكي زُجاجًا شفّافًا يُشاهَد الله من خلاله. غالبًا ما يغشى الزجاجَ غبارٌ وقذارةٌ، ولكي نُزيل تلك الأَقذار، ينبغي أَن نتحرّى ذواتنا، فنعود "تقيّات القلوب"، وهو يستطيع مساعدتنا على نزع غشاوة القذارة عن نفوسنا، إِذا أَتحنا له أَن يفعل...

– السهر على احتياجات الآخرين هو بدءُ القداسة. وإِن أنتم تعلَّمتم فنَّ استشفاف احتياجات الآخرين والمبادرة إِلى تلبيتها لازددتم تمثّلاً بالمسيح. فقد كان رقيق القلب وكان همُّ الآخرين يشغل أبدًا باله. إنَّ دعوتنا، لكي تكون جميلةً، يجب أن تكون مليئةً برعاية الآخرين ومراعاتهم. في كلِّ مكانٍ صنع يسوع الخير، وقد اقتصرت مهمّة السيِّدة العذراء في قانا على التفكير في احتياجات الآخرين، وإطلاع يسوع عليها.

– الرضى بكلِّ ما يُعطينا الله، ومنحه كلّ ما يأخذه منّا، يعني إفساح المجال للنعمة كي تعمل عملَها فينا. القداسة الحقيقية هي تنفيذ مشيئة الله ببشاشةٍ.

– لا سبيلَ إِلى بلوغ القداسة من غير أداء ثمنٍ مرتفعٍ من تضحياتٍ، وتجارب، وكفاحٍ، واضطهاداتٍ.

– أَعتقد أَنّ القداسة وحدها تقوى على درء الخطيئة والأحزان، وآلام البشر، بدءًا بآلامنا. فنحن، أيضاً، علينا أن نتألّم، ولكنَّ الألم هديّةٌ من الله، إِن نحن عرفنا أَن نستخدمه على نحوٍ صحيحٍ. إنَّ الصليب لا ينفصل عن حياتنا، ولذلك فلنشكر الربّ.

– القداسة هي النعمة الكبرى التي قد يهبناها الربّ الذي خلقنا لهذه الغاية، والخضوع لمشيئته هو أكثر من واجبٍ. إِنّه سرُّ القداسة نفسه.

– لقد خُلِقْنا من أَجل غايةٍ ساميةٍ، إِنّنا مخلوقون لكي نصبح قدّيسين بما أَنّنا قد خُلِقْنا على صورة الله.

بتصرّف يسوع

– لستُ أَظنُّ أَنَّ أَحدًا يفتقر مثلَ افتقاري إلى رحمة الله. فكم ينتابني أَحيانًا الشعور بعجزي ويأسي. وأَعتقد أَنَّ هذا ما يحمل الربّ على استخدامي. فأَنا عاجزةٌ عن أداء أَيِّ

قسط من عملي بنفسي، ولذلك أَحتاج إِليه أَربعًا وعشرين ساعةً في الأربع والعشرين ساعةً. ولو كان، ثمّة، مزيدٌ من الساعات، لازداد احتياجي إِليه.

– دعوا يسوع يستخدمكم من غير استئذانكم.

– إِنّني أُهيب بكلٍّ منكم، فقيرًا، شابًّا، أَو كهلاً: قدّموا أَيديكم لخدمة يسوع في الفقراء، وقدّموا قلبكم لحبّه فيهم.

– فلنحذر من تسلُّل الكبرياء أو العُجْب إِلى عملنا، فعملنا هو عمل الله. ضعنَ ذواتكنَّ، كلّيًّا، تحت تأثير يسوع، لكي تعتمل أَفكاره في أَذهانكنَّ، ولكي ينجز عمله بأَيديكنَّ. وحينئذ ستصبحنَ كُلِّيَّات القدرة به هو الذي سيقوّيكنّ.

– على كلِّ رسولة محبَّةٍ أن تصبح عونًا للمسيح في الأَحياء البائسة، وعليها، من ثمَّ، أن تعي ما يتطلّبه منها الله والمجتمع: أي أَن تَدَعَ يسوع يُشعّ من خلالها، ويحيا حياته فيها، بين الأكواخ، وأَن يجد فيها المريضُ والمتأَلّمُ ملاك عزاءٍ ومؤاساةٍ حقًّا، وأن تدع أَولاد الشوارع يتعلّقون بها لأنّهم يذكّرونها بأَنّ المسيح هو صديق الصغار.

– ما نحن، جميعنا، سوى أَدواتٍ، نضطلع بمهمتنا الصغيرة ونمضي.

– فلنكن غُصنًا جيّدًا في الكرمة، يسوع، بتقبُّله في حياتنا كما يحلو له أن يأتي: حقيقةً نتعلَّمها، وحياةً نحياها، ونورًا يُضيء، وطريقًا نسلكه، حبًّا يؤَهّلنا للحبّ، سلامًا ننشره، وفرحًا نمنحه، وتضحيةً نُقدّمها ضمن عائلاتنا، ومع جيراننا، ومع البعيدين عنّا.

– على كلّ أُختٍ، وكلّ أخٍ، وكلّ متعاونٍ، الجهدُ في التقدُّم المستمرّ في مجال التشبُّه بالمسيح، كي يتسنّى ليسوع أن يَحيا في عالم اليوم، حياةَ الرأفة والإِنسانيّة. ينبغي أن يكون حبُّكم للمسيح كبيرًا. احتفظوا بنور المسيح متّقدًا دائمًا في قلبكم، فهو وحده الطريق الذي ينبغي اجتيازه، والحياة التي يتعيّن عيشها، والحبّ الذي ينبغي أن يُحَبّ.

– قد يقتضي يسوع منّا الكثير، وعندئذٍ علينا أَن نُقدّم له ابتسامةً جميلةً.

– في ١٧ أيلول ١٩٨٧ أَعلنت أَمام البرلمان الكنديّ في "أُوتاوا":

"غالبًا ما نشهد شتّى أَنواع الأَسلاك الكهربائيّة، من جديدٍ وقديمٍ، من رخيصٍ وغالي الثمن، ولكن إِن لم يَسْرِ بها التيّار، تظلُّ بلا جدوى، فلا نورَ من غير تيّارٍ. هذه الأَسلاك هي أَنتم وأَنا، والتيّار هو الله وبوسع الله استخدامنا كي يُنتج نور العالم، وبوسعنا رفض ذلك الاستخدام، فنُتيح للظُّلمات أن تنتشر. اسعوا بكلّ قلوبكم، أَن تكونوا ذلك النور الساطع... إِنّ الكثير يعتمد على وحدة القلوب. إِنّ قوّةً فائقةً تشرع تتعاظم في العالَم بفضل هذه المشاركة المستمرَّة في الصلاة، والأَلم، والعمل؛ والله هو واهب هذه القوَّة.

– إنَّ يسوع يوفّر لي فرصةَ إطعامه بإطعام الجياع، وإكسائه بإكساء العراة، وشفائه بمؤاساتي المرضى، وإيوائه باستقبالي من لم يعد لديهم سقفٌ.

– إن كنتَ، حقًّا، مغرمًا بالمسيح، فستُحقّق عملك، مهما كان وَضِيعًا، على نحوٍ أفضل، ومن كلِّ قلبك، وسيكون قلبك هو الشاهد على حبّك.

اسلكوا سلوك أَبناء النور

– إنّ تعابير العطف، كالبسمة، أو مساعدة أَعمى على اجتياز شارعٍ، وأصغر الأعمال التي تُؤدّى في حبٍّ، تتحوّل إِلى أعمال سلامٍ.

– إعملوا بكل وسعكم، بحيث يرغب من يشاهدكم، في الأسرة أو خارجها، أن يحذو حذوكم، ويتمثّل بكم، ويضرب أَمثلةً على الحبّ والفرح والسلام، وليكن حبّكم المتبادَل عونًا لكم.

– إنّنا ننتهي بحياتنا إلى فشلٍ ذريعٍ، إن لم نستخدمها إلاّ بتوجيه العقل، ولن يكون لها معنًى ما لم نُنْعِم النظرَ في فقر المسيح.

– سواءٌ كنت هندوسياً أو مسلماً أو مسيحيّاً، طريقة حياتك هي الدليل على كونك تخصّ الله حقًّا أم لا.

– اعتقادي الراسخ أنّ على المسيحيّين أن يكونوا للآخرين نوراً. فإن كنّا مسيحيّين توجّب علينا أَن نتمثّل، إِلى أَقصى مدًى، بالمسيح.

– أولئك الذين تعدُّهم الدولة، ويعتبرهم المجتمع نافلين لا جدوى منهم، وَالذين لا يتّسع للاهتمام بهم وقت أَحدٍ، عليك أنت، وعليّ أنا، بصفتنا مسيحيّين، أن نعثر عليهم ونساعدهم. إنّهم هنا، لكي نستطيع العثور عليهم.

– قولوا للعذراء القدّوسة أن تقول ليسوع: ليس لديهم خمرٌ، وهم في حاجةٍ إِلى خمر التواضع والرقّة والكياسة.

– وحده من يؤمن أَنّ الحياة الدنيا هي نهاية كلّ شيءٍ يخشى الموت وإذا استطعنا إِقامة الدليل على أَنّ الموت إِن هو إِلا المضيّ إِلى البيت، بيت الله، فحينئذٍ سيزول كلّ خوفٍ.

– أَيّةً كانت عقيدتنا، علينا أَن نتعلّم الغفران، إِن كنّا نتوخّى أَن نحبّ حقًّا.

– أن نكون سعداء مع الله يعني:

أَن نحبَّ مثلما هو يحبّ،

وأَن نساعد مثلما هو يساعد،

وأن نعطي مثلما هو يعطي،
وأن نخدم مثلما هو يخدم.

– الإخلاص، والرقَّة، وعبارات العطف الوجيزة، وبعض التفكير في الآخرين، وبضعة أعمالٍ بسيطةٍ منسوجةٍ من صمْتٍ، ونظراتٍ، وأفكارٍ، وكلماتٍ، وإنجازاتٍ، هذه هي قطرات الحبّ التي تجعل حياتنا تنساب في كثيرٍ من الروعة.

– لو لم أُنقذ تلك المرأة الأولى بالتقاطها من الشارع، لما نعم الألوف، بل الملايين الذين التُقطوا في إثرها، بأيّ عونٍ.

– أيّةً كانت المسيرة، لا بدّ من خطوةٍ أُولى.

– لا يمكننا أن ندع أحد أبناء الله ينفق كبهيمةٍ في مجرور أسيقة.

– ما النقد سوى كبرياءٍ مموّهةٍ. فالنفس المخلصة مع ذاتها لا تهبط أبدًا إلى درَك النقد. النقدُ هو سرطان القلب.

– حَسْبُ كلمةٍ، أو نظرةٍ، أو إشارةٍ، كي يدلهمَّ بالظُّلمة قلبُ من نحبّ.

– إبدأ، في البيت، بقول كلمةٍ طيّبةٍ لابنك، أو زوجك، أو زوجتك. إبدأ بمدّ يد العون لمحتاجٍ في جماعتك، أو في مكان عملك، أو في المدرسة. ابدأ بتحويل كلِّ ما تفعله إلى شيءٍ جَميلٍ من أجل الربّ.

– علينا أن نجد من الوقت فسحةً لكي يحدّق أحدنا إلى الآخر، لكي نتبادل التحيّة، لنقتسم لحظة فرحٍ، لكي نكون ما يتوقّعه منّا أبناؤنا.

– "ثورة الحبّ" تبدأ ببسمةٍ. ابتسم خمس مرّاتٍ يوميًّا لمن لا رغبة لديك في الابتسام له.

– التزم، من كلّ قلبك، بأن تكون نورًا متألّقًا. إنّ حبّ الفقراء يحاكي جُذوةً ملتهبةً.

– فلنقلّل الكلام، ولنتناول مكنسةً ننظّف بها بيت فقيرٍ.

– علينا أن نعلن عن المسيح بأحاديثنا، وبطريقة كلامنا ومشينا، وضحكنا، وبحياتنا، بحيث يعلم الجميعُ أنّنا خاصّته.

– وحدة المسيحيّين على قدرٍ كبيرٍ من الخطورة، فالمسيحيّون يعكسون نورهم على الآخرين في العالم أجمع. وكوننا مسيحيّين يُلزمنا بالتشبُّه بالمسيح. لقد قال غاندي، يومًا، إنّه لو عاش المسيحيّون حياتهم المسيحيّة بكلّ عمقها، لما بقي هندوسيٌّ واحدٌ في الهند. إنّ ما يتوقّعه العالم منّا هو أن نعيش مسيحيَّتنا بعمقٍ.

– لا يسوغ لنا أن ندين، أَو نحاكم، أو نُصْدر آراء تجرح الناس. فربّما هناك من لم يسمع، قطُّ، عن المسيحيّة؟ ومن ثمّ نحن لا ندري بأَيِّ أُسلوبٍ سيظهر له الربّ ويجتذبه. وبالتالي، من نحن حتّى ندين؟

– العالم غاصٌّ بالكراهية والصراعات، ولن نوفّق إِلى القضاء عليها بالبنادق والقنابل، أَو أيّ سلاحٍ جارحٍ، بل سنقضي عليها فقط بمبادرات حبٍّ وفرحٍ وسلامٍ.

– المُسنّون يُقدّرون وجود من يُصغي إِليهم، حتّى لو كان ما سيدلون به من قولٍ يعود إِلى عشرين أَو ثلاثين سنةً خلت.

الإصغاء، عندما يأبى الآخرون أن يُصغوا، هو، بلا ريبٍ، عملٌ نبيلٌ.

– إِذا ما أُهِنّا، توجّب علينا، حينذاك، مشاركة المسيح، وحَسْبُنا لذلك أن نذكر أَنّ يسوع هو الذي يوفّر لنا، بواسطة هذا الشخص، وذلك الظّرف، فُرصة عملٍ جميلٍ في سبيلِه.

– الله نفسه يعجز عن ملء قلبٍ مُفعَمٍ كبرياءً، وخبثًا، وحسدًا. فلنتجنَّبها جميعًا.

– عندما يدنو منّا الأَلم، فلنتقبَّله ببسمةٍ. فأَعظم عطايا الله أَن نستقبل بالبسمة كلَّ ما يعطينا، كلَّ ما يقتضي منّا.

– كلُّ شيءٍ يتراخى اليوم، والقوم يسعون إِلى حلّ أَقدس القيود، فهل ندعهم يقودوننا؟

– سُئل، يومًا، هندوسيٌّ: "ما هو المسيحيّ؟"، فأَجاب: "المسيحيّ إِنسانٌ يعطي". العطاء هو أَن نقدّم لمن يُحيقون بنا الحبَّ الذي تلقّيناه، العطاء حتّى ينالنا من العطاء الوجع، فالحبّ الحقيقيّ يكلّف. إِنَّه يستحوذ على وقتنا، ويدَيْنا وقلبنا، ويحملنا على اقتسام كلّ ما نملك... في اليمن اتَّضح للمسلمين أَنَّ الأَخوات يترجمنَ حُبَّهنَّ للمسيح إِلى وقائع ملموسةٍ قائلين: "إِنها المرَّة الأولى التي نشهد فيها الحبّ المسيحيّ يتجلّى على هذا النحو الحيّ"... لقد أَدركوا أَنهم أَمام "نساءٍ" مكرّساتٍ للرَّبّ يحملنَ رسالة حبّه.

– في ١٩٦٦/١٠/٣١ عمّمت الأُمّ على أَخواتها قاعدة السلوك هذه، التي تصلح لكلٍّ منا:

"أقلّي، ما أَمكنك، التحدُّث عن ذاتك،

واهتمّي بشؤونك الخاصّة، وتنكّبي عن الفُضول،

ولا تحشري نفسك في شؤون الآخرين.

تقبَّلي، بفرحٍ، المعارضة والتقويم،

وأَغضي عن أَخطاء الآخرين،
ارتضي أَن تُلامي، وإِن كنتِ بريئةً،
وتقبَّلي الإِهانات والجروح،
والازدراءَ، والإِهمالَ، وبغضَ الآخرين.
كوني طيِّبةً ورقيقةً، حتّى في سورة الغضب،
ولا تلتمسي الانفراد بالمحبّة والإِعجاب،
ولا تتعالي؛
تنازلي، في النقاش، حتّى إِن كنتِ مُحقّةً،
واختاري، أَبدًا، الأَكثر مشقّةً".

– تحدَّثت الأم تيريزا إِلى "سيّدات المحبّة" في لوس أَنجيليس، فروت أَنّ أخواتها دهشنَ، يومًا، لانبعاث روائح تفسُّخ من أَحد المساكن، حيثُ اكتُشِفت جثّة امرأةٍ لم يحفل بشأنها أحدٌ من جيرانها، وَأكدت أَنَّ مثل هذه الحالات ليست، للأَسف، نادرةً، وأَضافت: "قد يكون بإِزاء منزلكنّ أَعمى سيسعد لو تطوّعتنَّ لقراءة الصحيفة على مسامعه، أَو أُسرةٌ ستسعد بإِيكال أحد أَبنائها لكنَّ لمدَّة نصف ساعةٍ؛ إِنّها أُمورٌ ضئيلةٌ لا يلحظها الناس، ولكنّها، يا سيّدات المحبّة، ليست هناتٍ لا قيمة لها، بل هي دلائل حبِّكنَّ للمَسيحِ، وهذا هو ما أُطالبكنّ به: أَن تضعنَ أَنفسكُنَّ بتَصَرُّف الفقراء، أينما وجدتنَّهم، وأن تهبْنَ قلبكنَّ لحبّهم. وهكذا، جميعنا معًا، سنفلح في غَمْر الكون حبًّا وسلامًا".

– إِن كنتَ متواضعًا، لن يؤثِّر فيك شيءٌ، لا المديح ولا الازدراء، إِذ إِنّك ستكون، آنذاك، عليمًا بما أَنتَ؛ وإِن أُدِنْتَ لم ينلْكَ الإِحباط، وإِن وَصفَك أَحدٌ بأَنَّك قدّيسٌ، لم يكن لك ذلك موضع فخرٍ.

إِن شعرتَ بالإِحباط ففي ذلك الدليل على الكبرياء، وعلى توهُّمك بقدراتك الخاصّة. لا تحفل، أَيضاً، بما يفكّر به الآخرون، بل كن متواضعًا، فلن يزعجك شيءٌ أَبدًا.

– كن دائمًا أَمينًا في الأَشياء الصغيرة، ففيها تكمن قوّتنا. وليس، لدى الله، شيءٌ صغيرًا، بل كلّ شيءٍ، في نظره، ذو قيمةٍ لانهائيّةٍ...

لا تَتَطلَّع إِلى الأَعمال المدهشة، بل علينا أن نعزف، طوعًا، عن كلِّ رغبةٍ في التمَتُّع بمشاهدة ثمار جهدنا، وأَن نقتصر على تحقيق ما نستطيع، على أفضل ما نستطيع، وأَن ندع الباقي بين يدي الربّ.

– تحت عنوان "أَعمالٌ لا أحلام"، أَسدت الأمُّ تيريزا هذه التوصيات:

"كونوا مُتنَبِّهين لتبيُّن احتياجات الآخرين، ومُستعدّين لتلبيتها، كأَن تحملوا عن آخَر دلوَ ماءٍ، أَو أن تساعدوه على مائدة الطعام.

اعقدوا مع الآخرين علاقاتٍ؛ أَصغوا إِلى الآخرين، واحترموا آراءهم، واسمحوا لهم أَن يعبّروا عنها بصراحةٍ.

كونوا كُرَماء، ولكن بتكتُّمٍ، وأعطوا خير ما لديكم. من يعمل بلا ضجيجٍ، خيرٌ ممّن يضجّ بعمله.

كونوا صانعي سلام. تصالحوا. ابتسموا خمس مرّاتٍ، يوميًّا، لمن لا ترغبون في الابتسام له.

انهضوا مدافعين عن عقائدكم، ولا تُبدِّلوا مواقفكم، أَينما كنتم، في البيت، أو في المدرسة، أو في الكنيسة، حتّى لو كان من شأن عقائدكم أَن تفقدكم شعبيَّتكم.

عوا المظالمَ الاجتماعيَّة، ولكن لا تحاولوا تغيير العالَم دفعةً واحدةً. وعوضاً عن التحسُّر على الجياع في العالَم، أَطعموا جارًا جائعًا.

كونوا أَوفياء لالتزاماتكم اليوميَّة: الدراسة، أو الصلاة، أَو العمل، وفوا بوعودكم، وعودوا جارَكم المريض.

كونوا متأَهِّبين لتقبّل أَوهانكم وفشلكم، بلا غضبٍ ولا إِحباطٍ. استسلموا بكلِّيَّتكم لله، وهو سيستخدمكم لتحقيق أشياء عظيمةٍ، شرط أَن تزدادوا إِيمانًا بحبِّه وضعفكم".

فقراء وأَغنياء

– إنّنا نساعد الفقير على الانعتاق من الشقاء. ولكنَّه، هو، يُقدّم لنا ما هو أكثر من ذلك. إنَّه يعلّمنا أُسلوبَ عيشٍ مختلفًا يتمثَّل في استخدام الأَشياء من غير أَن نكون لها سُجَناء.

– الفقراءُ قومٌ على قدْرٍ وافرٍ من العظمة والعذوبة؛ وفي العالم هم الذين يستأهلون جزيل امتناننا، بقدر ما هم رائعون في طاقتهم على التحمُّل والألم.

– أَعتقد أنَّ أَرفع الناس شأْنًا، في عالم اليوم، هو الفقير، لأَنّه يمتلك قدرة الألَم والعمل الشاقّ.

– لا يحتاج فقراؤُنا إِلى شفقةٍ وتنازلٍ، بل إِلى حبٍّ ومساعدةٍ. وعلينا أَن نعي أنَّ

الفقراء جديرون بالحبّ، وأنهّم عُظَماء: فمن شأْن ذلك أن يدفعنا إِلى حبّهم وخدمتهم. – لا يحقٌّ لنا دينونة الأغنياء. ومن جهتنا نحن لا نرغب في صراع الطبقات، بل في لقاءٍ يتيح للأغنياء إِنقاذَ الفقراء، وللفقراء إِنقاذَ الأغنياء.

– ليس الجوعُ جوعًا إِلى الخبز فحسب، بل هو، أيضاً، جوعٌ إِلى الحبّ، إِلى أَن يُحَبّ المرء ويحِبّ.

إِنّه لمريعٌ الجوعُ إلى الحبّ، والعزلةُ أَيضاً جوعٌ مريعٌ.

وقد يكون العُرْيُ أكثر من عري اللباس. فهو عارٍ، أَيضاً، من فقَدَ فضيلةَ الطهر. عندما تفقد الطهارةُ نقاءَها، وتفقد العفَّةُ عفافها، حينئذٍ يفقد المرءُ نعمة الله الرائعة: الكرامة.

– إنَّ أَخواتنا، أثناء نشاطهنّ، يتصدّين لجمٍّ من الرزايا في بلادٍ عديدة، فمسرح عملهنَّ هو حيثُ تبلغ الآلام البشريّة ذروتَها. غير أنَّ فقراءَنا ينطوون على مزايا رائعةٍ. علينا، فقط، أَن نعرفهم، ولا يمكننا أَن نعرفهم إلاّ إِذا مضينا إِليهم.

– إِن كنّا نتعرَّف المسيح تحت شكل الخبز، فلن نجد مشقّةً في التعرُّف عليه من خلال المظهر الزريّ الذي يبدو عليه الفقير المتألّم.

– الفقراء، والبُرْص، والمرذولون، وحتّى السكّيرون هم أَشخاصٌ جميلون، وللعديد منهم شخصيّةٌ رائعةٌ. هذه التجربة التي نكتسبها حين نخدمهم، علينا أَن نبلّغها لأولئك الذين لم يتسنَّ لهم مثلها. إِنَّها إِحدى أكبر مكافآت عملنا.

– بُرصنا، وسقماؤنا، والمفتقرون إِلى الحبّ، والمُهملون، جميعُهم في حاجةٍ إِلى الحبّ، وإِلى العطف، وإِلى اتّصالٍ إِنسانيّ. في القربان، أَثناءَ القدّاس، نرى ونلمس جسد المسيح. بمثل هذه اللمسة، وهذا الحبّ، وهذا الإِيمان، يجب أن نلمس جسد المسيح في الفقير.

– المسيح، اليومَ، موجودٌ في المنبوذين، والعاطلين عن العمل، والجياع، والعراة، والمشرّدين، الذين يبدون نافلين في نظر الدولة والمجتمع، الذين لا يعبأ بهم أَحدٌ، ولا يتّسع وقت أَحدٍ للاهتمام بهم. ولكن علينا أَنتم وأَنا، المسيحيّين، الجديرين بحبّ المسيح، إِن كان حبُّنا صادقًا، أَن نبحث عنهم ونساعدهم. إِنّهم ماثلون هنا لكي نجدهم.

– من خلال عملي في الأَكواخ البائسة، تعلَّمتُ أَنَّ الفقراء هم الذين يُدركون أكثر من سواهم معنى الكرامة الإِنسانيّة. فمشكلتُهم الكبرى ليست في الافتقار إلى المال، بل في نكران حقّهم بالإِنسانيّة والحبّ.

– الفقراءُ هم آمالُ البشريّة، ونحن سنُدان وفقًا لتعاملنا مع الجياع والمرضى، وغير المرغوب فيهم، ووفقًا للحبّ الذي سنبرهن لهم عنه. إنّهم رجاؤنا، وأمل خلاصنا، وعلينا أَن نمضي إليهم، ونعامل كلاًّ منهم كما لو كنّا نعامل يسوع نفسه. أيًّا كانوا، وحيثما وُجدوا، علينا أَن ننظر إليهم نظرتنا إلى المسيح.

– الأمَم مشغولةٌ، اليومَ، بحماية أَراضيها، وهي، في هذا السبيل، تُنفق المالَ والطاقةَ، وقلّما تعرف عن الفقر والآلام السائدة في بلدانٍ يعيش أَقوامُها في أكواخٍ زريّةٍ. فلو اهتمَّت تلك الأمم بالدفاع عمَّن لا حمايةَ لهم، وبتوفير الطعام والمأوى والكساء لهم، أظنُّ أَنَّ العالَم بأَسره سيكون سعيدًا.

– في الفقير نلمس حقًّا جسد المسيح. في الفقير نُطعم المسيح الجائع، ونُلبس المسيحَ العريان، ونؤوي المسيح المشرَّد. والفقر ليس مجرّدَ تضوُّرٍ إلى الخبز، وافتقارٍ إلى الكساء، واحتياجٍ إلى منزلٍ من آجرٍّ، فاليومَ المسيحُ جائعٌ في كلِّ فقيرٍ. وحتّى الأَغنياء يعانون من الجوع إلى الحبّ، والاهتمام، وإلى أن يرغب فيهم آخَرون، ويكون لهم إنسانٌ يخصُّهم.

– الفقراءُ بحاجةٍ إلينا، ولكنَّ حاجتَنا إلى الفقراء أكبر. فالفقر الأَعظم يكمن في افتقارنا إلى الحبّ.

– الفقر حرِّيَّةٌ لأَنَّ ما أَمتلكه لا يمتلكني، ولا يقيِّدني، ولا يمنعني من المشاركة ومن العطاء.

– كلُّ خيرات هذا العالم هي عطايا مجّانيّةٌ من الله، ولا يحقُّ لأَحدٍ امتلاكُ ثروةٍ نافلةٍ، فيما آخرون يقضون نحبهم جوعًا.

– في اللقاء بين الفقير والغنيّ يصبح الغنيُّ أَفضل حالاً لأَنَّه يُظهر للفقراء حبَّ الله، والفقيرُ يُصبح أَفضل حالاً بفضل الحبّ الذي يتلقّاه من الغنيّ.

– لستم بحاجةٍ للمثول إلى الأَكواخ كي تجدوا الفقراء والمفتقرين إلى الحبّ. ففي كلِّ أُسرةٍ، في جواركم، ثمَّة من يتأَلَّم.

– كم من الناس يتلهّفون إلى سماع نبرة ودٍّ، في صوتٍ إنسانيٍّ.

– ليس العري فقط افتقارًا إلى اللباس، بل هو أَيضاً فقدان الكرامة الإنسانيّة التي قد يتّفق لنا فقدانها، والتي جرّدْنا منها، ظلمًا وافتئاتًا. الفقراءَ الذين نَعُدُّهم أَشخاصًا نافلين، لا مستقبلَ لهم، ولا فائدةَ منهم ترجى، ونملك، في وصفهم، مجموعةً واسعةً من النعوت.

هذا هو العري اليوم. فالنبذ لا يتمثّل في الطرد فحسب، بل نحن نمارس شتّى أَنماط النبذ. ولكي نتجنّب ذلك، ينبغي أَن نفسح للصّلاة مكانًا في حياتنا، علينا أَن نـصلّي، مـستمدّين عونًا من خبراتنا وأَساليبنا الخاصّة. إنّنا، جميعنا، نعي أَنَّ هناك إلهًا يحبّنا؛ وهـو الـذي خلقنا، وإِليه نلتفت صارخين: "إلهي، بادر إِلى غوثي. أريد أن أكون طيِّبًا، أُريد أَن أكـون قدِّيسًا، أُريد أَن أُحبّ"...

إِنَّ الله خلقنا من أَجل هدفٍ عظيم: أَن نُحِبّ، وأَن نُحَبّ، ويريد أَن يُحبّ بعضُنا بعضًا مثلما يُحبّنا هو نفسه...

ولكي يتجسّد هذا الحبّ على نحوٍ حسّيٍّ ومُحيٍ، بذل المسيحُ نفسه، وتحوّل إِلى خبز حياةٍ. ويريد أَن يحبَّ بعضُنا بعضًا، وأَنْ نهب بعضنا لبعضٍ ذواتنا إِلى أَن ينالنا من العطاء الوجع. إِنَّه لا ينظر إلى ما نعطي، بل ما له، في عينه، وزنٌ، هو الحبّ الذي به نعطي.

العطاءُ يُسبِّب دائمًا بعض الوجع. العطاء هو الحبُّ الحسّيّ، العطاء يفرض الحبّ. إِنّ يسوع، الغنيَّ بطبيعته، جعل نفسه فقيرًا من أَجلكم ومن أَجلي؛ وأَشكُّ أَنَّه كان بوسعنا أَن نحبّ الله، لو لم يجعل يسوع ذاته واحدًا منّا. ولكي يمكِّننا من حبّ الله، جعل ذاته شـبيهًا بنا في كلِّ شيءٍ، عدا الخطيئة. ولم يكتفِ بتبنّي فقرنا، بل جعل ذاته خبز حياةٍ، وقال لنا: إن لم تأكلوا جسدي، وإِن لم تشربوا دمي، لن تكون لكم الحياة.

حتّى الطفل يستطيع أَن يأكل خبزًا.

فتأَمّلوا تواضع الله! جعل ذاته واحدًا منّا، خبز حياةٍ لكي يُشبع جوعَنا إِلـى الحـبّ، لأَنّنا خُلِقْنا على صورة الله، وبما أَنّ الله حبٌّ، خَلَقنا كي نحبّ، خلقنا لمصيرٍ سامٍ.

– يوم يُؤْنس اليائِسُ المرذولُ أَنّه محبوبٌ حقًّا يولَد من جديدٍ.

– من لا يعرفون إِعطاء الحبّ وتقبُّلَهُ هم، أَيّةً كانت ثروتهم، أفقر الفقراء.

– الفرق بين فقر البؤساء وفقرنا هو أَنّنا قبلنا الفقرَ طائعاتٍ... من المحقَّق أنَّه لولا القناعة بأَنّ المسيح هو من نراه من خلال المحرومين، لتعذّر علينا هذا النمط من العيش.

– إِنّنا نعمل من أجل الذين لا يقوَوْن على الصمود في حلبة سباق النموّ المجنـون. وعلينا العناية بهم، فكلّ ناجحٍ توازيه طغماتٌ من المسحوقين. إِنّها لمأساةٌ.

– في السماء فقط سندرك ما نحن مدينون به للفقراء، لأَنّنا، بسببهم، اسـتطعنا أَن نحبّ الله أكثر.

– لم أَشكُ، يومًا، من العوزَ، ولكنَّني أَتقبّل كلَّ ما يجود عليّ به الناس من أَجل الفقراء، ولا أردّ أَبدًا إِحسانًا، فللجميع حقُّ التصدُّق؛ ولا يساورني الغضب إِلاّ عندما أَرى الناس يقذفون بما لا يزال صالحًا للاستخدام.

– إِنّني غالبًا ما أُردّد على مسامع الناس: "أَودّ أَلاّ تهبوا من فائضكم النافل. فإِنّي آبى أَن أكون ذريعةً لطمأنة ضمائركم، بل أريد أَن تعطوا ما هو غالٍ عليكم، وأَن تحدوكم الرغبة في مقاسمة الفقراء فقرهم وآلامهم".

– من كلّ أَرجاء العالَم يقدم شبّانٌ إِلى الهند، لكي يمارسوا حياة فقرٍ أَقصى، أَشدّ إِيغالاً في الفقر من حياتنا نفسها، تحدوهم الرغبة في الانعتاق من البحبوحة التي عهدوها في البيئة التي وُلدوا وعاشوا في أَجوائها، وهم يَصبْون إِلى أَن يكونوا نماذج حيّةً لفقر المسيح. إِنّ معرفة روح الفقر غير كافيةٍ، بل ينبغي تذوُّق الفقر نفسه. والفقر يعني عدم امتلاك أيّ شيء؛ وكُثُرٌ هم، اليوم، أُولئك الذين وُلدوا في البحبوحة، ويرغبون في معرفة عدم امتلاك أَيِّ شيءٍ.

من شأن الثروات الماديّة أَو الروحيّة أَن تخنقك، إِن لم تحسن استخدامها. فالله نفسه لا يسعه أن يضع شيئًا في قلب ممتلئٍ حتّى التخمة، وستنبعث من هذا القلب، يومًا، لا محالة، شهوةٌ إِلى المال، وإِلى كلّ ما يمكن للمال الفوز به، والسعي إِلى النافل والمترَف من الطعام، واللباس، واللهو. وستمضي الحاجات في تفاقمٍ إِذ يستدعي بعضُها الآخر وفي نهاية المطاف، سينشأ، لا مناصَ، شعورٌ بعدم الرضى لا يمكن السيطرة عليه؛ فلنبقَ، ما استطعنا، خالي القلوب لكي يسع الله ملأَنا.

ولنا، في ربّنا المثال الحيّ: فمنذ يوم وجوده البشريّ الأَوّل، خَبَر فقرًا لن يستطيع اختباره أيّ إِنسانٍ أَبدًا، "فمع أَنّه غنيٌّ، جعل نفسه فقيرًا". لقد أَخلى ذاته من كلّ غنًى، ومن هنا ينبع التناقض: فإِن شئت أن أكون فقيرًا، على غرار المسيح الذي اعتنق الفقر رغم غناه، ما عساني أفعل؟ عارٌ علينا أَن نكون أَغنى من يسوع الذي، من أَجل خلاصنا، كابد الفقر...

– فيما يخصّنا، نحن مرسلات المحبّة، ينبغي أَن يكون الفقر الصارم حرزَنا. فنحن نأبى أن نُفضي إِلى مثل ما انتهت إِليه رهبانيّاتٌ أُخرى عبر التاريخ، فنبدأ بخدمة الفقراء، وننتهي، لاشعوريًّا، بخدمة الأَغنياء. لكي نفهم ونساعد من لا يملكون شيئًا، علينا أَن نعيش مثل عيشهم. الفرق الوحيد بيننا وبينهم هو أَنّهم فقراء بقدَرهم، فيما نحن فقراء باختيارنا.

أَمام الله، فقرُنا هو أُسلوبنا المتواضع في تقبُّل وضعنا، وضع الخطيئة، والعجز؛ والعدَم الأَقصى هو أُسلوب اعترافنا بعرينا، الذي نعبِّر به عن رجائنا في الله، وانتظارنا تلقّي كلِّ شيءٍ منه، بصفته أَبانا. ينبغي أَن يكون فقرنا فقرًا إِنجيليًّا أَصيلاً: مُحبًّا، رقيقًا، سعيدًا، مُعاشًا بقلبٍ منفتحٍ، مستعدًّا دائمًا لإِعطاء إِشارة حبٍّ. فالفقر هو حبٌّ قبل أَن يكون زهدًا، والحبّ يقتضي العطاء، والعطاء يقتضي التحرُّر من كلّ أَنَانيَّة.

– لا يغرُبنَّ أَبدًا عن بالنا أَنَّ خدمة الفقراء توفّر لنا فرصةً سَنيّةً لتحقيق شيءٍ يرضي الله. فعندما نكبُّ، بكلِّ قلوبنا، على خدمة الفقراء، إِنّما نخدم المسيح من خلال وجهه المشوَّه، وهو نفسه سيُعلن: "لقد فعلتم ذلك من أَجلي".

– الجائزة التي يكافئ بها الله تجرُّدَنا من ذاتنا، هي ذاتُه.

– قال يسوع الذي لا يخدع: "كنتُ جائعًا فأَطعمتموني".

وكلّما حرمتم ذواتكم شيئًا كنتم تودّون تناوله، وأَعطيتموه للفقراء، فأَنتم تطعمون المسيح الجائع، وتُلبِسون المسيح العاري، وتستقبلون المسيح المرذول.

– لن أَملّ من التكرار: إِنَّ شعبنا (الفقراء) لعظيمٌ، إِنَّ الفقراء لعظماء، ولهم كرامتهم؛ وعلينا أن نحبّهم، ولكن ليس بدافع الرأفة. علينا أَن نحبّهم حبًّا حقيقيًّا، لأَنّ يسوع يتوارى تحت مظهرهم الرثّ، ويتجلّى من خلال الإِنسانيّة المتأَلِّمة فيهم. آلام الفقراء، يا لها من سرٍّ! إِنّهم إِخوةٌ لنا وأَخواتٌ، إِنّهم ذوونا. البرص، والمحتضرون والجياع، والذين لا يملكون ما يسترون به عريهم: هؤُلاء هم يسوع نفسه.

– الفقراء المحتاجون إِلى خدماتنا يصلون، أحيانًا، إِلى مراكزنا في أوضاعٍ مُريعةٍ حقًّا: قذرين تغشاهم القُرُوح، وتُهدِّدهم الأَمراضُ الوبيلة. ونشرع بتنظيفهم، وتلقائيًّا أتولّى بنفسي الحالات الأشدّ صعوبةً. ومع أنّنا نجهل أسماءَهم ومحتدهم، تعاملهم الأَخوات دائمًا بحبٍّ جمٍّ. وغالبًا ما أوضح لهنَّ: "إِنّ المسيح نفسه هو الذي تخدمنه في شخص الفقراء، جروحه هي التي تعالجنَها، وقروحه هي التي تنظِّفنَها، وشفتاه هما اللتان تضمِّدنَهما. عليكنَّ أَن ترينَ من وراء المظاهر، وأن تتذكّرنَ الأَقوال التي تلفَّظ بها يسوع منذ زمنٍ طويلٍ، والتي ما انفكّت تتميّز بمعاصَرةٍ حارقةٍ: "إِنَّ ما تفعلونه للأَصغر من إِخوتي، فلي تفعلونه". إِنّه، بذلك، كان يؤكِّد أَنَّنا نخدمه، هو، عندما نهتمّ بالمتواضعين.

– القوم الذين يحبُّ بعضُهم بعضًا، حقًّا، هم أَسعد الناس، هذا ما نخبره مع فقرائنا، فهم يحبّون أبناءَهم وأسرتهم، ويكادون يفتقرون إِلى كلّ شيءٍ، وغالبًا ما يفتقرون، حقًّا،

إلى كلِّ شيءٍ، ولكنَّهم سعداء. وإذا ما راقبناهم، عن كَثَبٍ، لأَدركنا أَنَّهم خير المعلّمين، وأَنَّ بوسعنا أَن نتلقّن منهم دروسًا جميلةً جدًّا. فأولئك الذين لا يملكون شيئًا، ولا يأبه بهم أَحدٌ، وكأَنّهم لا وجود لهم في نظر الآخرين، يحترم بعضهم بعضًا. ولكن علينا أَن نصلّي كي نُدركَ ذلك.

الأَلم

– الأَلَم، في ذاته، ليس بشيءٍ، غير أَنّ الأَلَم المُقْتَسَم مع آلام المسيح هبةٌ سنيَّةٌ. فأجمل هبةٍ يظفر بها الإِنسان هي أن تتسنّى له المشاركة في آلام المسيح. إِنّها هبةٌ من الله ودليلٌ على حبِّه، لأَنّ الآب برهن، من خلال تلك الآلام، عن حبّه للعالم بتقدمة ابنه كي يموت من أجلنا. والمسيح يبرهن أنّ العطاء الأَكبر هو الحبّ، بمجرد اختياره الأَلَم وسيلةً يقي بها عن خطايانا.

– عندما يوافيكم الألم، استقبلوه بالبسمة، إِنّ أعظم هبةٍ قد يمنّ بها الربّ عليكم أن تتحلّوا بجرأةٍ تمكّنكم من أن تتقبّلوا بالبسمة مهما أعطاكم، ومن إِعطائه كلَّ ما يرغب في استرداده.

سأل التيليفيزيون السكوتلاندي الأم تيريزا عن الألم، وسماح الله به، فأجابت:

– إِنّه أمرٌ يصعب إدراكه، إنه سرّ حبّ الله. ولذلك لا نستطيع حتى أن ندرك لماذا كابد يسوع كلَّ تلك الآلام،، لماذا كان عَلَيْهِ معاناة تلك الوحدة في الجسمانيّة، وآلام الصلب. ذلك هو سرّ حبّه الجمّ. هذا الألم الذي نشهده الآن يبدو وكأنّه المسيح يقاسي، مرّةً أُخرى، آلامه فينا. وبالتالي، إِن تقبّلَ امرؤٌ الألم، لا من أجل ذاته، بل بصفته عطيّةً ومشاركةً، فهذا في نظري دليلٌ على أنّ ذلك المرء قد بات من القرب من يسوع على الصليب، بحيث يستطيع تقبيله. في نظري الألم هو قبلة يسوع. ونحن نشهد قومًا رائعين يتألّمون على نحوٍ جديرٍ بالإعجاب، في استسلامٍ ورضًى.

س – كيف يمكن أَن يكون الألم جديرًا بالإعجاب؟

ج– إذا ما قُبل وفقًا لمغزاه الصحيح، على أنّه قادمٌ من يد الله، من أجل تقديسنا وتطهير نفوسنا، والتكفير عن خطايا العالم، وهو، حينئذٍ، يجلب السلام، ويستحقّ الإعجاب؟

س – ولكن أَليس الله إله حبّ؟

ج – إنّ الله لا يبتلينا بالأَلم لكي يعذّبنا، بل لكي يشدّنا إليه.

– ما لم نتألّم، لن يتعدّى عملنا كونه نشاطًا اجتماعيًّا محمودًا ومفيدًا، ولكنّه لن يكون عمل يسوع المسيح، ولن يكون إِسْهَامًا في الفداء. لقد ابتغى يسوع مساعدتنا بمشاركته حياتنا، وعزلتنا، ونزاعنا، وموتنا. لم يكن بدٌّ من اتّحاده بنا كي يخلّصنا؛ ومتاحٌ لنا أن ننهج النهج عَينه، فمآسي الفقراء التي لا تقتصر على بؤسهم الماديّ، بل تشمل انحطاطهم الروحيّ، ينبغي أَن تُفتدى، وعلينا اقتسامُها، وفي سبيل ذلك لا بدّ من أَن نكون معهم واحدًا لكي نخلّصهم، أي لكي نجلب الله إِلى حياتهم، ونجلبهم إِلى الله.

– الألم يتعاظم في عالم اليوم، فالناس جياعٌ إِلى ما هو أَجمل وأكبر ممّا يستطيع الناس، في جوارهم، أن يعطوهم، هناك جوعٌ عظيمٌ إِلى الله، في عالم اليوم، والألم في كلِّ مكانٍ، كبيرٌ، والجوع، أَيضاً، كبيرٌ، جوعٌ إِلى الله، وإِلى الحبّ المتبادل.

ثمّة جوعٌ إِلى الخبز، ولكن هناك، أَيضاً، جوعٌ إِلى الحبّ، والعطف، والاهتمام. ذلك هو الفقر السحيق الذي يولِّد الجمَّ من الآلام.

– إِنّني، حيال الأَلَم البشريّ، أُونس عجزًا ذريعًا. ومع أَنَّ ذلك يبدو مفارقةً، لستُ أَجد ما أَقوله للبؤساء سوى: "إِنَّ الله يحبُّكم". ولكي أُقدِّم لهم تفسيرًا منطقيًّا، تتبادر دائمًا إِلى ذهني حججٌ مثل هذه: "إِنّ آلامكم دليلٌ على أَنَّكم قريبون جدًّا من يسوع المصلوب، ومن القرْب بحيث ينحني عليكم كي يُقبِّلكم". أَذكر أَنّني قلتُ ذلك لامرأة مصابةٍ بسرطانٍ كانت تحتضر، يُحيق بها أبناؤها الذين ما زالوا أَحداثًا. ولم أَستطع أَن أُميِّز ما الذي كان يمزّقها أكثر: أَهو اضطرارها إِلى ترك أَبنائها وحيدين، عُزّلاً، أَو أوجاع مرضها. وقد قلت لها: "إِنَّ ذلك يُظهِر أَنَّك قريبةٌ من يسوع المصلوب، بحيثُ يستطيع أَن يشاركك آلامَه، ويضمَّك بين ذراعَيْه". فضمّت يديها وأَجابت: "أُمّاه، قولي ليسوع أَن يظلَّ يقبّلني".

– لن يغيب أَبدًا الأَلَم غيابًا كاملاً عن حياتنا. لا تخف، إِذن، من الأَلَم، فقد يغدو أَلَمُك خميرة حبٍ عظيمةً، إِن أَنت أحسنت استخدامه، وبخاصّةٍ إِن أنت قدّمته من أَجل سلام العالَم. في ذاته الأَلَم عقيمٌ، غير أَنَّه، إِن عيش في مشاركةٍ مع آلام المسيح، قد ينقلب هبةً رائعةً، وإِشارةَ حبٍّ. إِنَّ الأَلم الذي كابده المسيح نفسه قد انقلب هبةً، بل أَعظم هبة حبٍّ، فمن خلال آلامه، افتُديَتْ خطايانا.

أُذكر أنَّ آلام يسوع تنتهي دائمًا بفرح القيامة. ومن ثمّ عندما تعاني، في قلبك، آلام المسيح، تذكَّر أَنَّ طيف القيامة سيلوح، لا محالة: فلا تدع أبدًا المرارة تنال منك، بحيث تنسى فرح المسيح القائم من الموت.

التواضع

– إِن شئنا، حقًّا، أَن يملأنا الله، فينبغي أَن نُفرغ ذواتنا بواسطة التواضع، من كلّ ما هو، فينا، أَنانيّة.

– لم يتعلّم أَحدٌ دروس التواضع مثل مريم. فقد كانت الأَمة. وكون المرء عبدًا يعني أَن يكون بتصرُّف كائنٍ آخر، وأَن يُستخدَم وفقًا لرغبته، بكلّ فرحٍ وثقةٍ.

– إِن تواضعتم لن يقوى شيءٌ على المساس بكم، لا الكِبْرِيَاء، ولا المحن، لأَنّكم تعرفون ما أَنتم.

– ما التواضع سوى الاعتراف بالحقيقة.

– القدّيس بولس يتساءل: "أَيّ شيءٍ نملكه ولم نُعطَه؟"

فإِن كنتُ قد أُعطيتُ كلَّ شيءٍ، أَيّ فضلٍ لي؟ وعندما تترسَّخ لدينا هذه القناعة، لن نعود نرفع رأسنا زهوًا، أَبَدًا.

– عندما يشرع المرء يقول: "أَنا من يعمل، هذا هو عملي"، حينئذٍ، تتسلّل إِليه الأَنانيّة ويصبح كلُّ شيءٍ عديم الجدوى.

سرّ الأُمّ تيريزا ومرسلات المحبّة

– إِنَّ سرّي لبسيطٌ: إِنّني أُصلّي، وبصلاتي أَتولَّه بالمسيح، وأُدرك أَنَّ الصلاة له هي حبُّه، والعمل بأَقواله، وتنفيذ مشيئته.

إِنَّ فقرائي، في أكواخ العالَم، هم بمثابة المسيح المتأَلِّم، فيهم يعيش ويموت ابن الله، ومن خلالهم يُبرز لي وجهه الحقّ. الصلاة تعني لي أَن أَظلَّ، أَربعًا وعشرين ساعةً في الأربع والعشرين ساعةً، على وفاق مع مشيئة يسوع، المتمثّلة في العيش من أَجله، وبه، ومعه.

إِن صلّينا، آمنّا،

وإِن آمنّا، أَحبَبْنا،

وإِن أحبَبْنا، خدَمنا

حينئذٍ فقط، سنقوى على تحويل حبِّنا لله إِلى فعل حياةٍ، عبر خدمة المسيح، المستتر تحت مظهر الفقير المؤسي.

- بتاريخ ١/١٠/١٩٦٠ أنفذت الأمُّ إلى جميع أخواتها خلاصة تأمُّلاتها:

"التصميم على تسنُّمِ مراقي القداسة يعني التخلّي عن كلِّ ما ليس الله، وتعرية القلب، وإفراغه من جميع الأشياء، والعيش في فقرٍ وتجـردٍ، والتنكُّب عـن الإرادة الذاتيّـة، والميول، والنزوات، والأحلام، وتقديم الذَّات لله في عبوديَّةٍ طوعيةٍ. أجل، هذا ما أسـأل الربّ، كلَّ يومٍ، أن يهبه لكلِّ واحدةٍ منكنّ".

- علينا أن نجد الله، ولا يسعنا العثور عليه وسط الصخب والاضطراب. انظروا إلى الطبيعة، وارقبوا كيف تنمو أشجارها وزهورها وأعشابها في صمتٍ مطبقٍ، وكيف تتحرَّك النجوم، والقمر والشمس، في صمتٍ... إنّنا بقدر ما نتلقّى، في صلواتنا الصامتة، بـنفس القدر نستطيع أن نعطي في حياتنا الناشطة. إنّنا بحاجة إلى الصمت كي نمسّ النفوس.

- إنَّ يسوع يطالبني بأن أطمئنَّ إليه وحده، وأن أضع كلَّ ثقتي فيه وحده، مستسلمةً له من غير تحفُّظٍ. عندما يبدو لي كلّ شيءٍ مضطربًا، وأشعر أنَّني مثل سفينةٍ لا دفّة لها، عليَّ أن أستسلم له كليًّا، وأحجم عن محاولة قيادة عمل الربّ. وعليَّ ألاّ أحـصي عـدد مراحل السفر التي يدعوني إلى اجتيازها، والتخلّي عن الرغبة في تبـيّن مـدى تقـدّمي بوضوحٍ، وفي معرفتي الأكيدة للشوط الذي اجتزته من مسيرة القداسة. إنّني أتضرّع إليه أن يجعل منّي قدّيسةً، ولكن عليَّ أن أدع له اختيار نمط القداسة، وبنحوٍ خاصٍّ، اختيـار الوسائل الكفيلة ببلوغها...

- لحظه دخل يسوع حياة العذراء مريم، كانت لحظة "مناولتها الأولى". ثمّ جرت كي تقدّمه للآخرين. على نحوٍ ما، كانت مريم مرسلة المحبَّة الأولى، وحاملة رسالة حـبّ الله الأولى، ونحن، مثل مريم، ننعم بامتياز حمل يسوع إلى الآخرين.

- إنّنا نحاكي سمات جراح يسوع الخمسة، فعلى يمناه أخواتُنا المتـأمّلات، وعلـى يسراه إخواننا المتأمّلون، وعلى قدمه اليمنى الأخوات المرسلات، وعلى قدمـه اليُـسرى الإخوة المرسلون، وعلى جنبه المتعاونون معنا.. ألا ترون أنّ بوسعنا اللجوء إلى الجراح الخمسة؟ المتأمّلون هم اليدان لأنّهم يضمّونهما في الصلاة، والمرسـلون العـاملون هـم القدمان لأنَّهم ينطلقون إلى العالَم أجمع، والمتعاونون هم القلب لأنّهم، في البيـت، وفـي الأسرة، يعيشون عاطفيًّا. وبوسعنا جميعًا أن نجد في قلب يسوع العزاء.

معًا نستطيع أن نحقِّق شيئًا جميلاً لله.

إكليريكيٌّ شابٌّ، كان قد عمل، فترةً، إلى جانب مرسلات المحبّة، التمس، في صيف ١٩٧٩، شهادة الأُمّ تيريزا كي يبلّغها إلى رفاقه، فقالت:

"نحن هنا من أَجل يسوع. نحن، في المقام الأوّل، راهباتٌ، ولسنا مساعداتٍ اجتماعيَّاتٍ أَو مدرِّساتٍ أو ممرِّضاتٍ، أَو طبيباتٍ، مهمّتنا خدمة يسوع في الفقراء. إنَّه هو مَن نعالج ونطعم ونكسي ونعزّي، من خلال الفقراء، والمنبوذين، والمرضى والأَيتام، والمحتضرين. كلّ ما نفعله من صلاةٍ، وعملٍ، وأَلمٍ، كلّ يومٍ، بالاتّحاد مع يسوع، كلّ ذلك هو له ومن أَجله، وليس لحياتنا معنًى آخر.

"هذا ما يعجز الكثيرون عن فهمه، إنّنا نخدم يسوع أَربعًا وعشرين ساعةً باليوم، وهو يهبنا قوَّته. نحن نحبُّه في الفقراء، ونحبّ الفقراء فيه؟ ولكنّ الأولويَّة للرّبّ دائمًا. إنّه يمنحنا الطاقات اللازمة لعيش هذه الحياة، ولعيشها بفرحٍ، وذلك مستحيلٌ في معزلٍ عنه.

"المعجزة ليست في العيش والعمل مثل ما نعيش ونعمل، بل في الفرح الذي يواكب مسيرتنا؛ ونحن ماضياتٌ قُدُمًا، نعطي على غير أملٍ في مكافأةٍ لمجرَّد يقيننا من أنّنا نتألّم معه، وَأَنَّهُ أَحبَّنا بحيثُ بذل ذاته عنّا. في معزلٍ عن يسوع لا معنى لحياتنا...

"ليس عملنا سوى تعبيرٍ ضئيلٍ عن حبّنا لله. وبالتالي عندما يداهمنا الأَلم، نحاول تقبُّله ببشاشةٍ، فأكبر عطيّةٍ يمنّ بها علينا الربّ، هي امتلاك الجرأة على الابتسام، لكي تكون قلوبنا مشرَعةً على ما يريد أَن يرسله لنا، ولكي نعطيه ما يطلبه منّا.

"قل لرفاقك إنّ المسيح يدعو، وإنّه هو النداء والدعوة. قل لهم إنَّنا لن نُسأَل، في الآخرة، عن كميّة الأَعمال الصالحة التي أنجزناها، بل عن مقدار الحبّ الذي أودعناه عملنا. علامَ لا نصغي إلى المسيح يئنّ بردًا وازدراءً، وجوعًا، ووحدةً، ويأْسًا؟

"يجب أن نعطي، ولكن لا من فائضنا، فهذا العطاء لا شأن له. بل إن ما يُعتَدّ به هو عطاؤنا ذواتنا، ووقتنا وحياتنا.

"من الذي سيهب لعزاء يسوع؟ إن تعزيته وحدها تستأهل أَن يُعاش من أَجلها".

وفيما الإكليريكيّ عائدٌ إلى ديره، وكلُّ كيانه يضجّ بما سمع، ذكر الأصوات التي كانت تنبعث من المصلّى، أصوات الأَخوات اللوَاتي تحلّقن حول يسوع في القربان، وذكر كيف كان حبُّ يسوع وحده هو الذي يدفع المرسلات إلى عملٍ تنفر منه الطبيعة البشرية، يؤدّينَه في صبرٍ لامتناهٍ، وفرحٍ لا يُعَكِّرهُ تخاذلٌ أَو ندمٌ أَو تأفّف؛ وتذكر الأطفال المشلولين

والمعاقين الذين، مع ذلك، كانوا يضحكون ويضجّون حيويّةً، وتراءى له سماع صوت الربّ في طلاوة عظة الجبل: "أمجّدك، يا أبا السماء والأرض، لإخفائك هذه الأمور عن الحكماء والأقوياء، ولإعلانها للصغار".

– الناس، اليومَ، في ظنيّ، يعتقدون أَنَّ الفقراء ليسوا بشرًا مثلهم، وينظرون إليهم من علُ. ولكنّهم، لو كانوا يحترمون الفقراء بعمقٍ، فإنّني واثقةٌ عن أَنَّ ذلك سيسهّل عليهم الاقتراب منهم، ورؤية أَنهّم أَبناء الله، وأَنَّه يحق لهم التمَتُّع بخيرات الوجود، وبالحبّ والمساعدة، أُسوةً بأَيٍّ كان. في حقبة النموِّ هذه، الجميع في عجلةٍ من أَمرهم، ويتدافعون، فيسقط أَقوامٌ منهم على الطريق، لأَنَّهم لا يمتلكون القدرةَ على الجري؛ وهؤلاء هم الذين نريد أَن نحبَّهم، ونخدمهم ونعنى بهم.

– إِنَّنا نتعرَّض دائمًا لخطر أَن نصبح مجرَّد عمَّالٍ اجتماعيّين، أَو أن نعمل من أجل العمل فحسب؛ نتعرّض لهذا الخطر، عندما ننسى في سبيل من نفعل ما نفعل. ما أَعمالنا سوى التعبير عن حبِّنا للمسيح. يجب أَن تكون قلوبُنا مملوءةً حبًّا له. وبما أَنَّ على هذا الحبّ أَن يُتَرجَم إِلى عملٍ، فمن الطبيعيِّ أَن يسمح لنا أفقر الفقراء التعبير عن هذا الحبّ.

– الفقر لنا في مثل ضرورة العمل. إِنَّ الربّ يعلم، دائمًا، ما نفتقر إِليه، ويوفّره لنا في الوقت المناسب، وسيظلّ يوفّره لنا. ومع أَنّنا لا نعتمد على أَيّ دخلٍ ثابتٍ، ولا على أَيّة مساعدةٍ، ولا أَيّة حمايةٍ اجتماعيّةٍ، ولا على أَيّ عونٍ ماليّ من الإكليروس، لم نجد، قطّ، أَنفسنا مضطرّاتٍ إِلى رفض غوث أيّ إِنسانٍ، بسبب نقصٍ في الوسائل المادّيّة.

إِنّ يسوع وفيٌّ لقوله: فنحن في عيني أَبيه أَجلُّ شأنًا من الزهور، ومن عشب الحقول، ومن طيور السماء.

– إِنّني وطيدة اليقين بأَنَّ البقاء سيُكتب لجمعيّتنا، طالما هي كانت راسيةً على فقرٍ فعليٍّ وأَصيلٍ. فالجمعيّات التي تمارس الفقر بإِخلاصٍ تَتَمَتَّع بمنعةٍ روحيَّةٍ، وليس ما يجعلها تخشى الزوال. إِنَّني لا أكفُّ أَقول للأَخوات إِنَّ علينا أَن نسعى لنكون فقراء، أكثر فأكثر، وأَن نكتشف أَساليب جديدةً لعيش الفقر الذي نذرناه، وأَن نفرح للفُرَص التي توفّرها لنا الظُّروف كي نعيش، على نحوٍ أَفضل، هذا الفقر الرائع.

– لا دخلَ في حسابنا للونٍ أو جنسيّةٍ أو دينٍ. فما نبتغيه هو أَن نهب أَبناء الله رقَّة حبّنا وعنايتنا.

– رسالتُنا هي الاهتمام بالقضايا، فرديًّا لا جماعيًّا. إِنَّنا نُعنى بالشخص لا بالجماعات. إِنّنا نسعى في إِثر الشخص الذي يُمثِّل يسوع.

– لم يقل لنا يسوع: أَحبّوا العالَم أجمع، بل قال: أَحبّوا بعضُكم بعضًا.

لا يسع الإِنسان أَن يحبَّ إِلاّ شخصًا واحدًا في آنٍ واحدٍ. وإِن هو تطلَّع إِلى الجمهور لتاه؛ وفيما هو يتكلّم عن جوعٍ مُبْهَمٍ، ينفُق جارٌ له بالقرب منه. فمن شاءَ أن يفعل شيئًا جميلاً في عيني الربّ، عليه الاقتصار على أُسرته الخاصَّة، والفقراء الذين يحيقون به.

– إِنّنا لا نجابه أَيّة مشقّة بالعمل في بلدانٍ متعدّدة الأَديان، كما هو شأن الهند. فإِنّنا نستشفّ في الجميع، وفي كلّ فردٍ، أَبناء لله حقيقيّين، وواجبنا أَن نجتذب المسيحيّين وغير المسيحيّين إِلى القيام بأَفعال محبّةٍ. فكلُّ عملٍ، وكلُّ فعل محبّةٍ يُؤَدَّيان بنيّةٍ مستقيمةٍ يسهمان في تقريب النفوس من الله. وعندما يكتشف الناسُ اللهَ في أَغوار قلوبهم يصبحون له أَعوانًا. إِنَّها لهديّةٌ رائعةٌ تلك التي حبانا بها الربّ، عندما هيّأ لنا فرصة خدمته في شخص الفقراء.

– بيتنا بيت الفقراء الذين لا يغشون أَماكن عبادةٍ للصّلاة، لأَنَّهم لا يستطيعون الخروج إِلى الشارع وهم عراةٌ، والذين لا يأكلون، لأَنَّهم ما عادوا يملكون على الطعام قدرةً، والذين لا يبكون، لأَنّ مآقيهم جفّت.

– بيتنا هو بيوت الفقراء، والأَزقّة التي يموت فيها الجياع.

– إِنّنا لا نستخدم ديرنا إِلاّ لأجل إِصابة بضع ساعات راحةٍ، وللصَّلاة.

– نحن في حاجةٍ إِلى الصلاة، فلولا طاقات الصلاة، لغدت حياتنا لا تُطاق

– إِنّني أجهل المستقبل، ولكنَّني، اليوم، إِذا ما أُوكلت إِليّ حياةٌ، وقفتُ عليها كلَّ ما أملك من حبٍّ وقوَّةٍ، كي أُساعدها على النموّ حتّى التمام، فالله قد خلق ذلك الكائن على صورته.

– إِنَّني لا أُفكِّر أبدًا بالغد، فأَمسِ مضى، والغدُ لم يأتِ بعد، ولا يسعني الاهتمام إِلاّ بيومٍ واحدٍ في آن. إِنّني من الصغَر بحيث لا أقوى على التفكير بالغد.

– لدينا خمسةٌ وثلاثون أَلف أَبرص، ومع ذلك لا نردُّ منهم أَحدًا، مع أَنَّنا لسنا نملك شيئًا. لقد كان الأَمر دائمًا كذلك، مع أَنّ لا راتبَ لنا، ولا دخلَ، ولا شيء، إِنّنا نتلقّى مجّانًا، ومجَّانًا نُعطي. وهذه هي أَجمل عطايا الله.

– ثقتنا في العناية الإِلهيّة هي إِيماننا الراسخ الحيّ بأَنَّ الله يقدر ويُريد مساعدتنا. إِنّ يسوع يحثُّنا على هذه الثقة بقوله: "كلّ ما تطلبونه في الصلاة، إِن كنتم مؤمنين، تحصلون عليه".

– كلُّ يومٍ من أَيّامي مفاجأةٌ لي، فأَنا لا أَطلب أبدًا مالاً، ومع ذلــك أَرى باســتمرارٍ مشاريع جديدةً تولد. وكلُّ ذلك يحدث لأَنَّني مستسلمةٌ استسلامًا كاملاً بين يدي الله.

– ما نحن سوى أَدواتٍ صغيرةٍ، ولكنَّ تلك الأَدوات، مجتمعةً، بين يدي الربّ، كفيلةٌ بتحقيق المعجزات.

– إِنّني قلم الله، قطعةُ قلمٍ صغيرةٌ يكتب بها ما يشاء.

– عليكم أَن تدركوا أَنَّ هذه البرصاء هي يسوع، وإِنّما نحن ننظِّف فيها جروح ربّنا. وما لم نؤمن أَنَّ هذه المرأة هي جسد المسيح، لتعذّر علينا فعل ذلك.

– سأَقبل أَيَّ طفلٍ، في أَية ساعةٍ من الليل أَو من النهار. أَعلموني فقط، وسأَحــضر لاصطحابه.

– إِنَّنا نضع أيدينا وعيوننا وقلبنا في تصرّف المسيح، لكي يعمل من خلالنا؛ وكلّمــا أَوغلنا قربًا من يسوع، ازددنا قربًا بعضنا من بعضٍ، وازددنا قربًا من الفقراء.

– عملُنا بين أَفقر الفقراء ليس مهنةً، بل هو دعوةٌ اخترناها، من أجل إِرواء عطش المسيح، بالاستسلام التامِّ له، وعلى غير اكتراثٍ بالثمن.

– لكي نكون قادرين على الطاعة، ينبغي أَن نكون أحرارًا، ولذلك ننذر الفقر الــذي يحرّرنا من كلِّ قيدٍ.

– الإِيمان هبةٌ من الله، فلا حياة بلا إِيمانٍ. ولكي يكون عملنا مثمرًا وجميلاً، ينبغي أن ينهض على أُسس الإِيمان.

– في معزلٍ عن التضحية والصلاة والتوبة، وعن شحنة حياةٍ روحيّةٍ كثيفــةٍ، لــن نستطيع أَبدًا المضيَّ في عملنا حتّى نهاية الشوط.

– سنخطئ، حقًّا، إِن لم نقدّم سوى خدماتنا، إِذ يترتّب علينا تقديم قلبنا للجميع.

إِنَّ المؤَسَّسات الحكوميَّة تحقّق الكثير في مضمار الغَوْث. وعلينا أَن نقدّم شيئًا آخر: حبّ المسيح.

– كلّ إِنسانٍ يتعرّض للتَّجربة. ولكن، طالما كان يسوع واقعًا حيًّا في حياتي، فلست أَخاف.

– لقد أَثَّرت فيَّ مطالعة الإِنجيل، ولا سيَّما المقاطع التي يقول فيها يسوع إِنَّــه يَعُــدُّ موجَّهًا إِليه كلَّ ما يُفعَل للأَطْفَالِ، والفقراء، والمرضى والمهجورين. وقد انتابني، حينئــذٍ، الشعور باكتشاف طريقي الحقّ.

– المرسلة هي حاملة حبّ الله، هي لهيبٌ مضطرمٌ يُضيء العالَم أجمع، شمسًا وأرضًا.

– لو أنّني كرَّستُ ذاتي للذَّود عن عدل الغد، لمات المُعْوِزون بين يديَّ، افتقارًا إلى كوب حليبٍ.

– لسنا جمعيّةً تسعى إلى جباية المال، ولم نألف الاستعطاء. بل إنَّ العملة الوحيدة التي نقيم لها وزنًا هي عملة الحبّ، الذي نشرع بنشر فيما حولنا، في جوارنا، وبين أقربائنا. ولذلك نحرص على وقاية عملنا – وهو رسالةٌ حقَّةٌ – ممّا قد يجعلنا نبدو وكأنّنا جمعيَّةٌ تستهدف الربح. نحن نعطي الكثير، وبالتالي نحن قادرون على إعطاء كل ما نتلقّاه، ونعيش يومًا فيومًا، واثقاتٍ من العناية الإلهيّة، مدركاتٍ فرح الفقر وحرِّيَّته، وسعادة المشاركة. نشعر أنَّنا ملتزماتٌ وجدانيًّا باحترام نوايا من يقدِّمون لنا الهبات. إنَّ السخاء يولِّد السعادة

– بنذر العفّة لستُ أعزف عن وضع الزواج فحسب، بل إنني أُفوِّض الله أن يستخدم بحرِّيَّة جميع أفعالي الداخليّة والخارجيّة، وجميعَ ارتباطاتي. وجدانيًّا لم يعد بوسعي أن أُحبّ كائنًا آخر مثلَ الحبّ الذي يمكن لامرأةٍ أن تكنَّه لرجلٍ، ولم يعد يحقّ لي أن أخصّ بمثل هذا الحبّ سوى الله وحده.

هل يعني ذلك أنَّنا بتنا، كالأحجار، كائناتٍ بشريةً خاليةً من القلب؟ وهل بوسعنا أن نقول ببساطةٍ: "لا همّ، فجميع الناس لديّ سواءٌ"؟ كلاّ، وكلاّ، إطلاقًا. بل علينا أن نظلّ كما نحن، وأن نحتفظ بكلّ ذلك في سرّ الله الذي كرَّسنا له حياتنا كلَّها، العامَّة والداخليَّة.

لا تعني العفَّةُ أنّني عزباءُ فحسب، بل تعني أنني أُحبُّ المسيح حبًّا لا مشاركةَ فيه. فالعفَّة أكثر عمقًا، وحيويّةً، وواقعيّةً. إنَّها تعني حبَّه، هو، بأمانةٍ تامّة، وبرقّة، في الحرّيّة والفقر. يجب أن يكون قول يسوع: "أَحبّوا بعضكم بعضًا كما أَحببتكم" (يوحنّا ١٥:١٢)، نورًا يضيء دربنا، ونارًا تلتهم أنانيّتنا. الحبّ، كي يعيش، يجب أن يتغذّى بالتضحيات، وفي مقدَّمتها التضحية بالأنا.

والزهد يعني أنّني أُقدّم إرادتي الخاصّة، وعقلي، وحياتي، في موقف إيمانٍ. قد تكون نفسي غارقةً في الظّلمة، وحينئذٍ ستكون المحنة هي الامتحان الأكيد لزهدي المطلق. والزهد يعني، أيضًا، الحبّ. وبقدر ما نمضي قدُمًا في الزهد، نزداد حبًّا بالله وبالإنسان.

– إحدى الأخوات، بعد أن أبرزت نذورَها المؤبّدة، صرّحت: "كنتُ أصبو إلى حياةٍ

قاسيةٍ تنطوي على تضحيةٍ... إنّني سعيدةٌ جدًّا لأنّني أشعر بكلِّ ما أستطيع إعطاءه للفقراء... كانوا قد حدَّثوني عن صرامة حياة الجمعيّة، وبما أنَّه كان لديَّ الكثيرُ ممّا أَودُّ أن أَهبه لله، جئتُ إلى هنا، وكان ذلك تحدِّيًا لي".

– الطاعة: الوفاء للنظام هو أثمنُ وأرقُّ زهرة حبٍّ يسعنا، نحن الراهبات، تقديمها للرَّبّ كلِّيّ القدرة. فالنظام هو التعبير عن مشيئة الربّ، وعلينا الخضوع له، في كلِّ حينٍ ومكانٍ، وحتّى نَفَسنا الأخير. الوفاء في أدقّ التفاصيل ليس في سبيل مصلحتنا الخاصَّة، ممّا ينمّ عن صغارة روحٍ، بل من أجل الهدف السامي الذي هو مشيئة الله... عليَّ أن أَتشبَّث بالنظام، تشبُّث ولدٍ بأُمِّه.

صفات الرئيسات

في ١٦ تموّز ١٩٦٥، أَوصت الأمُّ من أصبحنَ رئيسات مراكز: "فلتكن كلٌّ منكنَّ، على حدِّ قول الأَب الأقدس، خادمة خادمات الله. عليكنَّ أن تَخدُمْنَ لا أن تُخْدَمْنَ، واذكرنَ، أبدًا، أَنَّ الأَخوات هنّ موضع اهتمامكنَّ الأَوّل فساعِدْنَهنَّ على التشبُّث بالمسيح، واعرفنَ كلَّ واحدةٍ منهنّ عن كَثَبٍ".

وأَوضحت الأمُّ أَنَّ من صفات الرئيسة أَن تكون أُمًّا، فلا تثبِّط العزائم، ولا سيّما عزيمة من يقعنَ في خطأٍ. ولتكن أُولى المهتمَّات بشؤون البيت، غير متميِّزةٍ، في شيءٍ، عن الأخريات من حيثُ الطعام، واللباس، والسكن. ولتثق بالأَخوات، وتعتصم بكتمانٍ تامٍّ حول ما قد تبوح به لهنَّ الأخوات، ولا سيّما في ما يتعلَّق بأُمورهنَّ الشخصيّة. وفوق كلِّ شيءٍ، عليها ضرب المثل في التواضع، والطاعة، والاتحاد بالرئيسة العامّة.

حوار

س– ما هو العائق الأَكبر الذي تصدفينه في عملك؟

ج– عدم بلوغي القداسة بعد.

س– ما أكثر ما يُقلقك أَثناءَ سفرك؟

ج– عدم قدرتي على نشر حبّ يسوع، وإِشعاعه إِلى أَبعد حدٍّ.

س– كيف لنا أَن نؤمن بعطف الله، مع وجود جمٍّ من الآلام؟

ج– في ذاته الأَلم نافلٌ؟ بيد أَنَّ الأَلَم الذي يُشركنا بآلام المسيح هو عطيّةٌ سنيّةٌ لحياة الإِنسان، بل هو أَروع العطايا.

س- الأَلم عطيةٌ! كيف يمكن ذلك؟

ج- أَجل، بل هو إِشارة حبٍّ، بما أَن الله اختاره كي يُظهر للعالم أنه يحبُّه إِلى حدٍّ التضحية بابنه لافتدائه. والمسيح، بحياته وآلامه، كفَّر عن خطايانا.

س- ما الذي يتعيّن علينا أَن نفعل عندما يحلّ الأَلم؟

ج- ينبغي أن نتقبّله بالبسمة، لأَنّه العَطِيَّة العظمى. ينبغي أَن نتحلّى بالجرأَة على تقبُّل كلّ ما يُرسله لنا، وأَن نعطيه، ببسمةٍ سخيةٍ، كلّ ما يسلبنا.

س- ما هي الكنيسة؟

ج- أنتَ وأنا. يسوع في حاجةٍ إِلى البشر، والكنيسة هي أَتباعه.. فليحبَّ بعضُنا بَعْضًا في الهند، وفي أوروبا، وفي كلّ مكانٍ، فتتفجّر المعجزات.

س- أَلا تحتاجين إِلى مالٍ، أَو إِلى دعاوةٍ لكي تنمو مشاريعك؟

ج- لا، لست بحاجةٍ إِلى دعاوةٍ، لأَنّ عمل الله ينبغي أن يتحقّق وفقًا لمشيئته، وهو يملك وسائل التعريف به.

الفــرح

- ينبغي أن تكون البهجة إِحدى ميزات حياتنا، فالشخص المرح مِلحٌ للجماعة.

البهجة معطف يخفي حياةً من التضحية.

إِنَّ الذين وُهبوا نعمة المرح، غالبًا ما يبلغون قمم الكمال. فلنكن للمرضى والمتأَلّمين ملائكة مواساةٍ وعزاءٍ حقيقيِّين.

- ليس الفرح مجرَّد طبعٍ، ولا ريب أنّه يعسر على المرء أن يكون دائمًا، فرحًا، في خدمته الله والنفوس. ومع ذلك علينا السعي لاكتساب نعمة الفرح وإنمائها في قلوبنا. الفرح صلاةٌ، والفرح قوّةٌ، والفرح حبٌّ، الفرح شبكة حبٍّ تصطاد النفوس. الفرح حاجةٌ لنا، ومصدر طاقةٍ، حتَّى جسديًا. فالأخت التي تمرّست من الفرح أقلُّ شعورًا بالتعب، وهي على أُهبةٍ دائمةٍ للانطلاق إلى عمل الخير... لا يساورني القلق على الأَخوات إلاّ عندما أَراهنّ يفقدنَ الفَرح. إنَّ الله فرحٌ، وهو حبٌّ؛ والفرح أَملُ سعادةٍ أَبديّةٍ، وشعلة حبٍّ مضطرمٍ. والأخت الفَرِحة أَشبه بشعاع شمس إِله الحبّ.

- في مؤتمر للرهبان والراهبات انعقد في الولايات المتحدة حول "الإِفخارستيا والفرح" قالت الأُمّ: "لقد أَوكلتْ إِلينا الكنيسةُ رسالةً عظيمةً، رسالةَ جلب المسيح إِلى قلوب

شعبنا. فعلينا أن نهبهم يسوع. ولكن، ما لم نمتلك يسوع، لا نستطيع إعطاءَه. ولذلك نحن في حاجةٍ إلى الإفخارستيّا. صحيحٌ أنَّ أُسلوب حياتنا شاقٌّ، وينبغي أن يكون كذلك. ولا تكمن المشقّة في الفقر الماديّ فحسب، بل في أنّنا نعاني فقر كوننا محاطين بالمعذّبين، وبالموت، ووحدهما الإفخارستيّا ويسوعُ قادران على تزويدنا بالفرح فنضطلع بمهمّاتنا مبتسماتٍ. ولقد عملت أخواتنا الكثير لنشر البشرى، بفرحهنّ"

– لكي نشيع الفرح، لا بدّ من أن نمتلك الفرح في أُسرتنا. فالسلم والحرب يبدآن من الأسرة.

– يهبنا الله الفرح لكي نشيعه، بدورنا، بين الآخرين. وقد يبتلينا بالهموم لكي نتمرَّس من مجابهتها. الحياة أوفر سعادةً عندما يعرف المرءُ اقتسامها، والحبُّ أَشدُّ عذوبةً عندما نحبّ القريب، والمهامُّ الأَشدّ إرهاقًا تخفُّ وطأتها عندما نَعْتادها. علينا أَن نجهد كي نعكس الروعة الإلهيّة على من يعيشون إلى جانبنا. فلنتعلَّم أَن نسامح بحبٍّ، وأَن ننسى بتواضعٍ، فنعثر على السلام الحقّ، ونزرع الإِخاء الحقّ.

متفرّقات

رسالة إلى المتعاونين

أودّ أَن يبذل المتعاونون في منطقتكم جهدًا أكبر في سبيل خدمة الفقراء. اجهَدوا في اكتشاف المعزولِ والمُهمَل والمُعاق، واستشفّوا من خلالهم المسيح في مظهره المتألِّم.

إِبداءُ بسمةٍ، أَو القيام بزيارةٍ وجيزةٍ، أَو إِشعال نارٍ لدى إِنسانٍ وحيدٍ، أَو القراءة على مسامع آخر، تلك هي مهامٌّ ضئيلةٌ، بل ضئيلةٌ جدًّا، ولكنَّها ستمثّل حبَّكم الفاعل لله. وحتّى لو تضاءَلت إلى حدٍّ كبيرٍ، حصيلتنا من المال المَجْبيِّ، في هذه السنة، نكون قد نشرنا وأَشعَعْنا، أكثر فأكثر، حبَّنا ليسوع؛ إِذ ينبغي أَن نطعم الجائع لا خبزًا فحسب، بل حبًّا وحضورًا، وتواصلاً. وحينئذٍ، في هذه السنة، سيتفجّر، حقًّا، حبّ الله على الأَرض. أَلبسوا المسيحَ العاري، بعبارات المحبّة، وبحفاظكم على سمعة القريب. هبوا المسيح المشرَّد سقفًا بجعلكم بيتكم ملاذَ سلامٍ وفرحٍ وحبٍّ، وباهتمامكم بالجميع، بكلّ فردٍ ضمن أُسرتكم، وفي علاقتكم بالقريب.

فلنجهد، منذ البدء، في أَن نعيش روحَ مرسلات المحبّة، المتمثِّل في استسلامٍ مُطلقٍ

لله، وثقة مُحبّةٍ في كلّ إنسانٍ، وفرحٍ مُشرَعٍ على الجميع. فإن نحن اعتنقنا هذا الروح، كنّا، مؤكَّدًا، متعاوني المسيح الحَقِيقيِّينَ، وحاملي حبّه. هذا الروح ينبغي أن يشعَّ من قلوبكم، على أُسرتكم، ومحيطكم، ومدينتكم، وبلَدكم، والعالم أَجمع. علينا أَن نرغب، أكثر فأكثر، في جمع رأسمال حبٍّ، وعطفٍ، وتفاهمٍ، وسلامٍ، وسيأتي المال، إِن نحن التمسنا، أَوّلاً، ملكوت الله، وسنُعطى كلَّ شيءٍ آخر.

الموت

ليس الموت، في نهاية المطاف، سوى الطريق الأَسهل والأَسرع للعودة إِلى الله. إِنَّه اللحظة الجوهريَّة، في كلّ حياةٍ بشريّةٍ، وتتويجٌ لهذه الحياة.

يمكن أن يكون الموت جميلاً، وأن ينقلب احتفالاً. إِنّه ساعة الرحيل حيثُ يعود المرءُ إلى بيته. لا ريب أَنَّنا سنفتقد من يُتوفّى، ولكنّ ذلك لا يجرِّد الموت من رونقه، فهذا الذي مضى إِلى الله، قد عاد إلى منزله لدى الربّ".

السلام

في رسالةٍ إِلى المتعاونين كتبت الأمّ تيريزا:

"سنجعل من هذه السنة، على نحوٍ خاصٍّ، سنةَ سلامٍ، وفي هذا السبيل، سنجهد في التحدُّث أكثر عن الله وإِلى الله، وأقلَّ مع الناس وللناس. ولنكرز بسلام المسيح على نحو ما فعل هو، فقد فعل الخير في كلِّ مكانٍ، ولم يتخلَّ عن أَعمال العطف، لأَنَّ الفرّيسيّين وسواهم انقلبوا عليه، وحاولوا إِفساد عمل أَبيه، بل ظلَّ ينشر الخير حيثما ذهب.

لقد كتب الكردينال نيومن: "ساعدني، يا ربّ، على نشر شذاك حيثُما مضيت، ولأبشّر من غير كرازةٍ، بلا كلماتٍ، بل بقدوتي، بقوّة الجذب، بأُسوة أَفعالي، وبظهور ملء الحبّ الذي يكنُّه لك قلبي".

ما أَفعال محبَّتنا سوى أَفعال سلامٍ، فلنحقّقها بحبٍّ، وبمزيدٍ من الجدوى، كلٌّ منّا في مهامّه اليوميّة، في بيته، وفي علاقته مع جاره.

فهو، أَبدًا، المسيح نفسه الذي قال:

"كنتُ جائعًا لا إلى طعامٍ فحسب، بل إِلى سلامٍ يشعّ من قلبٍ طاهرٍ؛

"كنتُ عطشانًا لا إِلى ماءٍ، بل إلى السلام الذي يطفئ العطش المتلظّي في غريزة الحرب؛

"كنت عريانًا، لا من كساءٍ، بل من الكرامة الرائعة، الكامنة في أجساد الرجال والنساء؛

"كنت بلا مسكنٍ، لا افتقارًا إِلى مأوًى من حجرٍ، بل إِلى قلبٍ متفهّمٍ، يدفئ ويحبّ".

فلنكن ذلك لأخينا، حيثما وُجدت مرسلات المحبّة، والمتعاونون معهنّ. ولنُشِع سلام الله، ولنضئ نوره، ولنطفئ، في العالم وفي قلب البشر، كلّ حقدٍ وإِرادة سيطرةٍ.

العذراء

أَتعرفونَ لماذا نحبُّ السيّدة العذراء هذا الحبّ؟ لأَنّها مرآة حبّ الله التي لا كدَر فيها.

الخطيئة العرضيّة

إن هي ارتُكبت عمدًا، وأصبحت خبزًا يوميًّا، أفضت إلى هزالٍ أخلاقيٍّ، وإِلى تفتّت الحياة الروحيَّة، وانهيارها.

كلّ شيءٍ يبدأ من المنزل

– لديّ انطباعٌ بأنَّ العالم الراهن يشكو من الدوار؛ وأَلمه بليغٌ لأنّ الأسر تكاد تُقفِر من الحبِّ، لم يعد لدينا وقتٌ كي نهتمَّ بأَبنائنا، ولكي نهتمّ بعضنا ببعضٍ، ولكي نعيش عيشةً سويّةً مع الآخرين.

الحبّ ينشأ ويعيش في المنزل. وغياب هذا الحبّ يولّد آلام عالم اليوم وتعاسته. جميعُنا نبدو مستعجلين، ونجري جري المجانين وراء الحداثة والثروة. يبدو أَنّ الأَولاد لم يعدْ لديهم فسحةٌ من الوقت للاهتمام بذويهم، وأنّه لم يعد لدى الأَهل متَّسعٌ من الوقت للاهتمام بأَبنائهم، ولا بذواتهم. ولا عجب، بالتالي، إِن بات المنزل نفسه هو مصدر تحطُّم سلام العالَم.

من أَين ينشأ الحبُّ والسلام؟ من صميم الأسرة. وكيف يبدآن، ومن أَين يولدان؟ من الصلاة؛ فطالما ظلّ أفراد الأسرة متَّحدين، أَحبَّ بعضُهم بعضًا، كما أَحبَّهم الله. إِنَّ الحبَّ داخل الأسرة لرائعٌ.

لا ننسينّ أَبدًا أَنَّ الحبَّ يبدأ من البيت. إِنَّ الأمور، اليومَ، سيِّئةٌ جدًّا، لأَنَّ أُسرًا كثيرةً محطَّمةٌ وتعيسةٌ، لمَ؟ لأَنَّها لا تجتمع للصّلاة المشتركة، ولا تقتسم الهموم والمتاعب، وما يُراد تحقيقه. ليس الفقر هو سبب هذا الوضع، بل الجشع الذي بات بلا وازعٍ، الذي يتغلغل إِلى حياتنا، ويُقطِّر فيها القَلَق.

كيف يتسنّى لرجلٍ وامرأةٍ أن يبقيا متّحدين، إن لم يمتلكا قلبًا طاهرًا، فرحًا، وما عليهما أَن يفعلا في هذا السبيل؟ الصلاة، والدعاء للسَّيِّدة العذراء.

إنْ تحابَّ أَبٌ وأُمّ، نسج أبناؤهما على منوالهما، فسكن الحبُّ حياتهم، وعندما سيصبح لهم، بدورهم، أَولادٌ، سيدركون طريقة السلوك المثلى.

علِّموا أَبناءَكم الحبّ، لأَنّ معظم المدارس قد تقاعست عن تعليمه. أَنتم وحدكم، أَيّها الوالدون، قادرون على مساعدة أبنائكم على بلوغ هدف الحياة، الذي خُلقوا من أَجله، أَي أَن يُحبّوا ويُحَبّوا.

علِّموا أَبناءَكم المشاركة، فهي شيءٌ حسنٌ جدًّا، وجزيل الفائدة.

– ورّث الصلاة لأسرتك ولأَحفادك، علِّمهم الصلاة، فالطفل الذي يُصلّي سعيدٌ، والأسرة التي تصلّي أُسرةٌ متَّحدةٌ. يكثر الحديث عن حالات أُسَرٍ محطَّمةٍ، ولو تحرّينا عن السبب لوجدنا أَنّ تلك الأُسَر لم تعرف، قطُّ، الصلاة المشتركة، ولم تقدّم، قطُّ، ذاتها للرَّبّ بالصلاة.

الأسـرة

إن كان العالَم يعاني، اليومَ، كلّ ما نشهدُه من فوضى وأَلَمٍ، فيبدو لي ذلك ناجمًا عن فقدان الحبّ في المنزل وفي حياة الأسرة. فوقتُنا لم يعد يتّسع لأَبنائنا، كما لم يعد يتّسع لاهتمام أَحدنا بالآخر، لم يعد يتّسع لكي يتذوّق أَحدُنا الآخر. فلو استطعنا، فقط، أن نُقحم في حياتنا الحياةَ التي كان يسوع ومريم ويوسف يعيشونها في الناصرة، ولو استطعنا تحويل بيوتنا إلى ناصرةٍ أُخرى، لساد العالَم، في اعتقادي، السلامُ والفرح.

الحبُّ يبدأُ من المنزل، ويعيش في الأُسَر، ولذلك يعرف عالمُ اليوم، الكثيرَ من الأَلَم، والقليلِ من السعادة. وإن نحن أَنصتنا إلى يسوع لقال لنا ما سبق أن قاله: "أَحبّوا بعضكم بعضًا مثلما أَنا أَحببتكم". فلقد أَحبّنا من خلال الأَلم، والموت من أَجلنا على الصليب؛ وإن نحن شئنا أن نحبّ بعضنا بعضًا، إن شئنا أَن نُقحم هذا الحبّ في الحياة، لتعيَّن علينا أن نبدأ به في الأسرة.

يجب أَن نجعل من بيوتنا مراكز عطفٍ، وألاَّ نكفَّ عن الغفران.

اليومَ، يبدو أَنَّ كلَّ شيءٍ يدور في إِعصار السرعة الجامحة، وقلق الإِنماء والثروة، بحيث إنَّ وقت الأَبناء لم يعد يتَّسع لوالديهم، ولم يعد يتّسع وقت أَحد الوالدين للآخر. إنّ تحطُّم سلام العالَم، من الأسرة يبدأ.

إِنَّ الأَشخاص المتحابّين، بعمقٍ وصدقٍ، هم أكثر أهل الدنيا سعادةً؛ ونحن نشهد ذلك حتّى لدى أَفقر الفقراء الذين يحبّون أَبناءَهم، ويحبّون بيتهم؛ قد لا يمتلكون سوى النـزر اليسير، أَو قد لا يملكون شيئًا على الإِطلاق، ومع ذلك تغمرهم السعادة.

إِنَّ الحبَّ الحيَّ يوجع؛ فيسوع، كي يبرهن عن حبّه لنا، مات على الصليب، والأمّ، كي تضع ابنها، تعاني الأَلَم، ووجود الحبّ المتبادَل الحقّ يقتضي التضحية.

الناسُ المتحابّون، حقًّا، حبًّا واقعيًّا هم الأَكثر سعادةً في العالَم. والفقراءُ هم، على ذلك، الدليل الحيّ. فهم يحبّون أَبناءَهم، ويحبّون أُسَرهم، ولا يحولُ امتلاكُهم القليل، أَو عدم امتلاكهم شيئًا، دون سعادتهم.

نصٌّ وضعته الأُمُّ تيريزا مع الأَخ روجيه شولتز، رئيس دير "تيزيه":

بُقَعٌ فسيحةٌ من العالَم، تغشاها صحارى روحيّةٌ. ثمَّةَ شُبّانٌ يحملون سِمات تخلّياتٍ بشريّةٍ، وشكٍّ خبيثٍ، ولَّدتها تحطّماتٌ نفذت آثارُها إِلى صميمهم. ويستحوذ الارتياب على شبّانٍ لا يعودون قادرين على الثقة بالله، وعلى الإِيمان، بعد أن فقدوا الثقة في من وضعهم الوجودُ أَمانةً بين أَيديهم... عن ذلك ينشأ الإِحباط والريبة: فما الجدوى من الوجود، وهل للحياة من معنًى، بعدُ؟

شابٌّ من نيويورك، في معرض حديثه عن مثل الابن الشاطر قال: "في أُسرتي ليس الابن هو الذي رحل، بل الأَب هو الذي رحل عنّا". وهناك والدون، مع توفيرهم لأَبنائهم احتياجاتهم المادّيّة، هم عنهم غائبون غيابًا ذريعًا...

ولانفصال الأَجيال عواقب أُخرى: فكم من المسنّين يضطرّون إِلى إِنهاء حياتهم في عزلةٍ، مع امتلاكهم ما يقوم مادّيًّا بأَوَدهم، وكأَنَّه لم يبقَ لهم من مخرجٍ سوى انتظار الموت.

ومن ثمّ، في حقبة الانفصالات، والهزّات العنيفة، نتجرَّأُ فنطلق نداءً إِلى أَبناء الأَجيال كلّها: كونوا أَحياء، لا نصف أَموات، ابحثوا عن يسوع الحيّ، انشدوه، ولو خُيّل لكم أنّكم فقدتموه. إِنّه يحبّكم، وعندما ستعثرون عليه، ستعثرون على كل الحبّ والسلام والثقة، وحينئذٍ ستصبح الحياة جديرةً بأَن تُعاش".

صلوات

١– اللهم أَعطِني أَلاّ أَتكلَّم مثلَ نحاسٍ يرنّ، أو مثل صنجٍ يطنّ، بل اجعلني أَتكلّم بحبٍّ.

هبْني القدرة على الفهم،
وإِيمانًا ينقل الجبال، ولكن مقرونًا بالحبّ،
علِّمني ذاك الحبّ الصبورَ دائمًا، والرقيقَ دائمًا،
الذي لا يعرف حَسَدًا، ولا اعتدادًا، ولا أَنانيَّةً، ولا ارتيابًا،
الحبَّ الذي يبتهج في الحقيقة،
المستعدَّ دائمًا للغفران، والإيمان، والرجاء، والاحتمال؛
وأخيرًا، عندما ستضمحلُّ كلُّ الأمور الفانية،
وينجلي كلُّ شيءٍ،
لعلَّني أكون انعكاسًا ضئيلاً، ولكن ثابتًا، لحبِّكَ الكامل.

* * *

٢– افتح عيوننا، يا ربّ،
لكي نستطيع رؤيتك في إِخوتنا وأَخواتنا.
وافتح آذاننا، يا ربّ،
لكي نستطيع سماع توسُّلات الجياع، والمقرورين، والخائفين،
وافتح قلبنا، يا ربّ،
لكي نتعلّم حبّ بعضنا لبعضٍ، مثلما أَنت تحبُّنا.
أَعطِنا روحك من جديدٍ، يا ربّ،
لكي نصبح، باسمك، قلبًا واحدًا، وروحًا واحدًا، آمين.

* * *

٣– يا رب، اجعل، بنعمتك، الفقراء، عندما يرونني،
يشعرون بانجذابٍ إِلى المسيح،

فيدعونه إِلى دخول بيوتهم وحياتهم.
اجعل المرضى والمتألِّمين يجدون فيَّ ملاكًا حقًّا، يواسي ويعزّي.
اجعل الصغار الذين أَلقاهم في الشوارع يلتصقون بي،
لأَنّني أحملهم على التفكير به، هو، صديق جميع الصغار.

* * *

٤- ساعدْني، يا يسوع، على نشر شذا حبّك،
في كلِّ مكانٍ، حيثما ذهبت.
اغمر نفسي بروحك، وبحياتك،
انفذ إِلى أعماقي، وكن سيِّد ذاتي، سيادةً مطلقةً
بحيثُ تغدو حياتي كلُّها إِشعاعًا لحياتك.
تألَّق من خلالي، واستولِ عليّ،
حتّى تشعر كلُّ نفسٍ أَدنو منها بحضورك في نفسي،
وإِذا ما هي نظرتْ إِلَيَّ لا تراني، بل تراك أَنتَ فيّ.
ابقَ فيّ، فأشعّ بمثل سناك،
وأُصبح للآخرين نورًا.
وسينبعث كلُّ نوري منك، يا يسوع،
ولن ينبعث حتّى أَضأل شعاعٍ منّي،
بل أَنتَ من سينير الآخرين، بواسطتي.
أَلهمني التسبيحَ الذي يروق لك فوق كلِّ شيءٍ،
والكفيلَ بإِنارة الآخرين من حولي،
واجعل أَلاّ أُبشِّر بك بالكلام، بل بقدوتي، وبتأثير أَعمالي،
وبتجلّي سَنى الحبّ الذي يتلقّاه قلبي منك. آمين.

* * *

٥- يا رب، أتريدُ يديَّ،
كي أقضي هذا النهار في مساعدة الفقراء والمرضى، المحتاجين إِليهما؟

ربّي، إنّي أهبُك، اليومَ، يديَّ.

يا ربّ، أتريد قدميَّ،

كي أقضي هذا النهار في زيارة المحتاجين إلى صديقٍ؟

ربّي، أهبك، اليومَ، قدميّ.

يا رب، أتريد صوتي،

كي أَقضي هذا النهار في التحدُّث مع المفتقرين إِلى كلمات حبٍّ؟

ربّي، أَهبك، اليومَ، صوتي.

يا رب، أَتريد قلبي،

كي أقضي هذا النهار في حبِّ كلِّ إِنسانٍ وحيدٍ، لأَنَّه إِنسانٌ؟

ربّي، أَهبك، اليومَ، قلبي.

* * *

٦- يا رب، عندما يُخَيَّل لي أَنَّ قلبي يفيض حبًّا،

وأَلحظ، في لحظةِ صدقٍ،

أَنَّني أُحبّ ذاتي في شخص من أُحبّ،

أَعتقْني من ذاتي.

يا ربُّ، عندما يُخيّل لي أَنّني أَعطيتُ كلَّ ما يتوجّب إِعطاؤه،

وأَلحظ، في لحظةِ صدقٍ،

أَنَّني أَنا الذي يتلقّى العطاء،

أَعتقني من ذاتي.

يا ربّ، عندما أُوقن أَنّني فقيرٌ،

وأَلحظ، في لحظة صدقٍ،

أَنّني غنيٌّ بالكبرياء والحسَد،

أَعتقني من ذاتي.

ويا ربّ، عندما يختلط اختلاطًا منكرًا

ملكوت السماوات مع ملكوت هذا العالم،

اجعل أَلاّ أَجد سعادةً وراحةً إِلاّ فيك.

٧- في أماكن عديدةٍ وجدتُك، يا ربّ،

وسمعتُ خَفَقات قلبك في السكون المطلق المنبعث من الحقول الشاسعة، وفي بيت قربانٍ مُظلمٍ، داخلَ كاتدرائيَّةٍ خاويةٍ،

في وحدة القلب والفكر التي تجمع أشخاصًا يحبّونك، ويملؤون حنايا كنيستك تراتيل لقد وجدتك في الفرح حيثُ أَنشدك، وغالبًا أَلقاك،

ولكنّني أَجدك دائمًا في الأَلَم.

الأَلَمُ بكلّ أَصنافه، يحاكي رنّات ناقوسٍ، تدعو قرينة الله إِلى الصلاة.

عندما يتجلّى ظلُّ الصليب، تستعيد النفس قوّتها، وتنسى صوتَ الناقوس، وتراك وتتحدَّث إِليك،

أَنت يا من يأتي إِليّ، وأَنا أُجيبك:

"ها أَنذا، يا رب، لقد انتظرتك، واشتهيتك بحرارةٍ".

وفي هذا اللقاء، تنعتق النفسُ من الإِحساس بالأَلَم، وتنخطف بحبِّك، وتمتلئ بك، وَتَتَّسِع بك آفاقُها،

أَنا بك، وأَنت بي، لكيلا نكون إِلاّ واحدًا،

وحينئذٍ أَفتح من جديدٍ عينيَّ على الحياة، حياةٍ أكثر نضوجًا، ولا سيّما بعد ما آتيتني من قوّةٍ إِلهيّةٍ تؤهّلني للسَّير على دربك.

يا ربّ، لقد وجدتك في عظمة آلام الآخرين الرهيبة،

ورأيتُك في الاستسلام السامي، وفي الفرح الذي يتعذّر تفسيره، لدى الذين يُضني الأَلَمُ حياتهم.

وسمعتُ صوتك في كلمات أُولئك الذين يُسهم نزاعُهم الشخصيُّ، إِسهامًا حافلاً بالسرِّ، في مضاعفة اهتمامهم المتجرِّد بالآخرين.

ولكنّني عجزتُ عن اكتشافك في آلامي الزهيدة،

وخيبات أملي الصغيرة،

فمن خلال متاعبي الأَرضيّة، لم أَعرف الإِفادة من مأساة آلامك الفادية، وخَنَقَ كَدَرُ إِشفاقي على ذاتي، حيويَّة الفِصْح الدافقة بالفرح.

إِنّي أومن يا ربّ، فساعد إِيماني الواهن.

٨- يا يسوع المتألِّم

اجعلني أَراك، اليومَ، وكلَّ يومٍ،

في شخص مرضاك،

وأَن أَخدمك، من خلال غوثي لهم،

حتّى لو تنكَّرتَ في زيٍّ مقيتٍ من غضبٍ، وجريمةٍ، وجنونٍ.

اجعلني أَتعرَّفُك وأَقول:

يا يسوع المتألِّم، ما أَعذَبَ أَن أَخدمك.

أَعطِني، يا ربّ، رؤية الإِيمان هذه،

فلن يكون عملي، أَبدًا، رتيبًا.

وسأَجد الفرح بمداعبتي تمنيّاتِ جميع الفقراء المتأَلمِّين ورغباتهم.

أَيُّها المريض العزيز،

إِنّني أُحبُّك أكثر، لأَنَّك تمثِّل المسيحَ؛

وأَيَّةُ حُظْوةٍ لي أَن أُعنى بك.

يا الله، بما أَنَّك يسوع المتأَلِّم،

تنازل وكن لي، أَيضًا، يسوع الصبور،

المتسامح عن أَخطائي،

الذي لا يرى سوى نَواياي،

المتلهِّفة إِلى حبِّك وخدمتك

في شخص كلٍّ من أبنائك المتألمِّين،

يا ربّ، ضاعف إِيماني،

بارك جهودي وعملي،

الآن، ودائمًا.

* * *

٩- صلاة تتلوها المرسلات يوميًّا، ونصّها معلَّقٌ على جدران جميع مراكزهنّ:

"إِجعلنا، اللهمّ، جديراتٍ بأَن نخدم، عبر العالم، إِخوتنا الذين يعيشون ويموتون فقراء

وجائعين. أَعطِهم، اليوم، بأَيدينا، خبزَهم اليوميّ. اجعل كلَّ أُختٍ تتعرَّف يسوع المسيح في كلّ فقيرٍ، وبقدر ما يكون مُقَزِّزًا العملُ أَو الشخصُ الذي تخدمه، فليكن إِيمانُها أَعظم، وقلبُها أكبر، وتفانيها أَوفر سخاءً وفرحًا في خدمة ربّنا الحاضر في هذا البؤس".

* * *

١٠- أَعطني، يا رب، إِيمانًا متبصّرًا، فتنتقي الرتابة من عملي، وينبجس منّي، دائمًا، فرحُ الاستجابة لنزوات جميع الفقراء المتألِّمين ورغباتهم.

أَيُّها المريض الحبيب، إنّك عزيزٌ عليَّ معزّةً مضاعَفةً، لأَنَّك تمثِّل المسيح؛ وأَيّة حظوةٍ أَنال باستطاعتي العناية بك.

يا إِلهي العذب، اجعلني أُدرك عظمة رسالتي وما تقتضيه من مسؤوليّاتٍ، ولا تسمح بأَن أَخونَها من جرَّاء الفتور، وجفاف النفس، ونفاد الصبر...

يا ربّ، فليعلِّمنا صلبُك وقيامتُك مواجهة صراعات الحياة اليوميّة، وتخطّي هاجس الموت، فنعيش في امتلاءٍ أكبر، وأَكثر إِبداعًا.

لقد تقبّلت، بتواضعٍ وصبرٍ، إِخفاقات الحياة البشريّة، وآلامِ الصليب، فساعدنا على تقبُّل المشاقّ والصراعات اليوميّة على أَنّها مناسباتٌ للنموِّ وللتَّشبُّه بك على نحوٍ أفضل. إِجعلنا قادرين على مواجهتها بصبرٍ وجرأةٍ، وبثقةٍ تامّةٍ في سندك. واجعلنا ندرك أَنَّنا لن نبلغ ملءَ الحياة إِلا بموتنا المتواصل عن ذواتنا ورغباتنا الأَنانيّة، فلن نستطيع أن ننهض معك إِلا بموتنا معك.

* * *

١١- فلْنُنبتْ أَغْصَانًا مُثْقَلَةً بالعناقيد في كرمة يسوع،

باستقباله في حياتنا، أَيًّا كان المظهرُ الذي يروق له أَن يبدو فيه:

بصفته الحقيقة، فنُعلنها،

أَو الحياةَ، فنحياها،

أَو النورَ، فنستضيء به،

أَو الحبَّ، فنحبَّ،

أَو الطريقَ، فنسلكه،

أَو الفرح، فنهبه،

أَو السلام، فننشره،
أَو الضحيَّةَ، فنقدّمها، في أُسَرنا، وعلى القريبين منّا.
يا يسوع، أَعْتِقْني من الرغبة في أن أكون:
محبوبًا، مُرقّى، مُكَرَّمًا، ممدوحًا، مفضَّلاً، مستشارًا، مشهورًا؛
وأَعتقني من الخوف من أن أكون:
مُهانًا، محتَقَرًا، موبَّخًا، مشهّرًا به، منسيًّا، متأَذّيًا، مُهزّأً، مشكوكًا فيه.

* * *

١٢- كل ما فعلتموه لواحد من إِخوتي الصغار فلي فعلتموه:
"عندما كنتُ بلا مأوًى، فتحتَ لي أَبوابك،
وعندما كنتُ عريانًا، البَستَني معطفك،
عندما كنتُ مُتعبًا، وفَّرتَ لي الراحة،
وعندما كنتُ مضطربًا، هدَّأتَ سورةَ هواجسي.
عندما كنتُ صغيرًا، علَّمتَني القراءة،
وعندما كنتُ وحيدًا، جئتَني بالحبّ،
عندما كنتُ سجينًا، وافيتَ إِلى زنزانتي،
وعندما كنتُ طريحَ الفراش، أَغدقتَ عليَّ رعايتك.
في بلاد الغربة، أحسنتَ وفادتي،
وعندما كنتُ عاطلاً وجدتَ لي عملاً.
جُرِحْتُ، فضمّدتَ جراحي،
والتمستُ إِحسانًا، فمددتَ لي يدك.
كنتُ أَسود، أَو أَصفر، أَو أَبيض،
مُهانًا ومهزّأً، فحملت صليبي،
كنتُ هَرِمًا، فابتسمتَ لي.
وكنتُ مهمومًا، فشاركتَني ضيقي.
وتعرَّفتني في ملامحي التي غمرها العَرَق، والدمُ والبصاق،
وعندما سخروا منّي، أَقمتَ إِلى جانبي،
وعندما كنتُ سعيدًا، قاسمتني فرحي.

١٣- صلاة تتلوها المُرسَلات قبل مباشرة عملهنَّ الرسوليّ، ويتلوها الطبيب المشرف على مركز الأَطفال "شيشوبهاڤان":

"أَيُّها الربّ الحبيب، مخلّصنا الأَوحد، إِنّني أَجثو أَمامك،
بما أَنَّ كلَّ عطيَّةٍ كاملةٍ لا تأتي إِلاّ منك،
أَرجو أَن تجعل يديَّ ماهرتَيْن،
وفكري نيِّرًا، وقلبي طيّبًا، عطوفًا.
وأَسبغ النقاء على جميع نواياي.
وأَعطني القوّة لكي أخفِّف عن كاهل إِخوتي المتأَلِّمين قسطًا من وِقْر عبئهم.
وأَن أُحقّق، بأَمانة، هذا الامتياز الذي آثرتَني به.
امحُ من قلبي كلَّ حيلةٍ وأَنانيّةٍ، لكي أحتفظ ببراءَة الطفل،
ولا أَجد سواك مُلتجأً.

* * *

١٤- صلاةُ العائلة

يا أَبانا السماويّ،
لقد أَعطيتَنا، في عائلة الناصرة المقدَّسة، نموذجَ حياة،
فساعدنا، أَيُّها الأَب المحبُّ جدًّا، على أَن نجعل من أُسرتنا ناصرةً جديدةً حيثُ يسود الفَرح والسلام؛ ولتكن أُسرتنا مستغرقةً في الصلاة، كثيفة الإِفخارستيّا، نابضةً فرحًا.
ساعدْنا على أَن نظلَّ معًا، في اليُسر، والضيق، بفضل الصلاة العائليّة.
علِّمنا تعرُّف يسوع في كلِّ عضوٍ من أَعضاء أُسرتنا، ولا سيّما عندما يتأَلَّم ويُجرح.
وليجعل قلبُ يسوع الإِفخارستيّ قلوبنا وديعةً ومتواضعةً، مثل قلبه.
ساعدْنا على أَداء دعوتنا الأسرَويَّة بقداسة،
ولْيُحبَّ بعضُنا بعضًا، مثلما يحبُّ الله كلاًّ منّا، كلَّ يومٍ أكثر،
ولْيغفر بعضُنا لبعضٍ أَخطاءَهم، كما تغفر لنا خطايانا.
وساعدْنا، أَيُّها الأَبُ المحبّ جدًّا، على أَخذ ما تعطينا، وعلى إِعطاءَ كلِّ ما تأخذه منّا، ببسمةٍ كبيرةٍ.
ويا قلب مريم الطاهر من كلّ دنَسٍ، سبب فرحنا، صلِّ لأجلنا.
ويا ملائكتَنا الحُرَّاس القدّيسين، كونوا دائمًا معنا، وأَرشدوا خطواتنا، واحمونا

آمين

للتّأمُّل

على جدران مركز الأَطفال "شيشوبهاڤـــان" عُلِّـق النــصّان التاليـان لتأَمُّـل الزائرين:

١- هَبْ نفسك فُسحةً...

هب نفسك فسحةَ وقتٍ للتَّفكير،
وفسحةَ وقتٍ للصَّلاة،
وفسحةَ وقتٍ للعيش،
ففي ذلك معينُ قوّة،
أعظم قوَّةٍ على الأَرض،
وفي ذلك موسيقى الروح.

* * *

هب نفسك فُسحةَ وقتٍ للعَبَث،
وفسحةَ وقتٍ لكي تُحِبّ وتُحَبّ،
وفسحةَ وقتٍ للعطاء.
فهنا يكمن سرُّ الشبَاب الدائم،

* * *

وحُظوةٌ حباناها الربّ،
فيومُنا من القِصَر بحيثُ لا يسوغ هدرُه في الأَنانيّة.
هب نفسك فُسحةَ وقتٍ للمطالعة،
وفسحةَ وقتٍ للصَّداقة،
وفسحةَ وقتٍ للعمل،
فثمَّة ينبوع الحكمة،
وجادَّة السعادة،
وثمن النجاح،
وهب نفسَك فسحةَ وقتٍ للإحسان،
ففي ذلك مفتاح السماء.

٢- مع ذلك

الناسُ حمقى، لا منطقيّون، أنانيّون،
ومع ذلك أَحبِبْهم.
إن أنت فعلتَ خيرًا، عزاه الناس لدوافع أَنانيّةٍ، واتهَّموك بالسعي، من ورائه، إلى مغنمٍ شخصيٍّ.
ومع ذلك، افعل الخير.
النجاح يُكسبك أَصدقاءَ زائفين، وأَعداءَ حقيقيّين،
ومع ذلك انجح.
ما تأتيه من خيرِ اليومَ، سيُصبح، غدًا، منسيًّا،
افعل الخيرَ، مع ذلك.
الاستقامة، والصرّاحةُ قد تعرِّضانك لسهامٍ جارحةٍ،
ومع ذلك، كنْ مستقيمًا وصريحًا.
قد يتغلَّب على الأَشخاص الأَفذاذِ المتميِّزين ببُعْد النظر، أَكْثَر الناس تفاهةً وحُسْر بصَر،
ومع ذلك، فلتكن تطلُّعاتك بعيدة المدى.
قد يهتمُّ الناسُ بالمضطهدين، ولكنَّهم يقفون إِلى جانب الرابحين،
ومع ذلك، ذُدْ عن حياض بعض المضطهدين.
إِنَّ ما أَنفقتَ سنواتٍ في بنائه، قد يمسي أَنقاضًا، بين يومٍ وليلةٍ،
ومع ذلك امضِ في البناء قُدُمًا.
يحتاج الفقراءُ، حقًّا، إِلى غوْثٍ، وإِن أنت أَغثتَهم قد تتعرَّضُ للهجاء والنقد،
ومع ذلك أَغثْهم.
إِن أنت وهبتَ العالَم خير ما لديك، قد يشكرك بالرفس،
ومع ذلك، هب العالَم خيرَ ما لديك.

المصادر

EDOUARD LE JOLY: *Mère Teresa et les Missionnaires de la charité,* Le Seuil, Paris, 1979

EDOUARD LE JOLY: *Mère Teresa, Messagère de l'amour de Dieu,* Le Seuil, Paris, 1983

EDOUARD LE JOLY: *Mère Teresa, la pauvreté et la gloire,* Le Seuil, Paris, 1993

JOSE LUIS GONZALEZ – BALADO: *Le sourire des pauvres (Fioretti de Mère Teresa),* Mediaspaul et Paulines, 1982

MALCOLM MUGGERIDGE: *Mère Teresa de Calcutta,* Le Seuil, Paris, 1971

NAVIN CHAWLA: *Mère Teresa, une Vie pour l'amour,* L'Archipel – Paris 1992

FREDERIC LENOIR & ESTELLE SAINT MARTIN: *Mère TERESA – Biographie,* Plon, Paris 1993

EILEEN EGAN: *:Such a Vision of the Street–Mother Teresa, the Spirit and the Work,* Sidgwich & Jackson, London, 1985

LUSH GJERGI: *Une Vie, Mère Teresa,* Le Cerf, Paris 1985

Mgr JEAN-MICHEL DI FALCO: *Mère Teresa – Les Miracles de la foi,* Edition 1, 1997

MONIQUE DE HUERTAS: *Mère Teresa,* Centurion 1993

KATHRYN SPINK: *Mère Teresa, Une Vie,* Robert Laffont – 1997

J.L. GONZALEZ – BALADO: *Le Sari et la Croix,* Mediaspaul & Paulines, 1987

DESMOND DOIG: *Mère Teresa et les siens,* P. Lethielleux – Paris 1980

PERLE SCEMLA: *Thèrèse Teresa, La Passion en Héritage,* Editions 1, 1997

LUC BALBONT: *Mère Teresa, En Notre Ame et Conscience,* Nouvelle Cité, Paris, 1982

DOMINIQUE LAPIERRE: *:Plus grand que l'amour,* Robert Laffont – 1990

أقوال الأمّ تيريزا

Nous serons juges sur l'amour – Mediaspaul & Paulines – 1987

Dans le silence du cœur – (Méditations rassemblées par Kathryn Spink) – Le Cerf et Paulines – 1989

Que ton règne vienne – (Paroles de Vie) – Le Livre Ouvert – 1993

Par la parole et par l'exemple (Textes réunis par le Père Angelo Devananda Scolozzi) – Nouvelle Cité, 1990

De la souffrance à la joie – Le Cerf – 1993

J'ai pris Jésus au mot (Messages recueillis et commentés par Jose Luis Gonzales – Balado) – Mediaspaul & Paulines – 1992

Mère Teresa par elle–même – (Présentation Jose Luis Gonzales – Balado et Janet Playfoot) – Mediaspaul – 1994

Un chemin tout simple: Plon Mame – 1995

L'hymne au service (Une compilation de Teresa de Bertodano) – Atma, 1993

Il n'y a pas de plus grand amour: JC Lattes – 1997

L'Amour, un fruit toujours de saison – Le Roseau – Quebec, 1990

Paroles blanches de mère Teresa du monde – Amrita – Plazac, 1995

La joie du don – Le Seuil, 1975

ظهر للمؤلّف

- قدّيسة من بلادنا – الطوباويّة مريم يسوع المصلوب (سلسلة دراسات كرمليَّة)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية، ١٩٩٠.
- السياسيّ القدّيس – المهاتما غاندي – (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية، ١٩٩٢
- فرنسيس... أصلح كنيستي (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية، ١٩٩٤
- صوت من لا صوت لهم – الأب پيير (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية، ١٩٩٧

كتب مُعرَّبة

- على درب الحياة مع الكسي كاريل، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية، ١٩٨٤
- يد الله (سلسلة الشهود)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية، ١٩٨٨
- ثلاث عشرة قصّة (سلسلة الوداع)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية، ١٩٩٠
- أيدٍ ملطَّخة بالدَّم (سلسلة الوداع)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية، ١٩٩٥
- أُذكروا الله – تأمُّلات من وحي رسائل الصّوفانيَّة، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية، ١٩٩٥